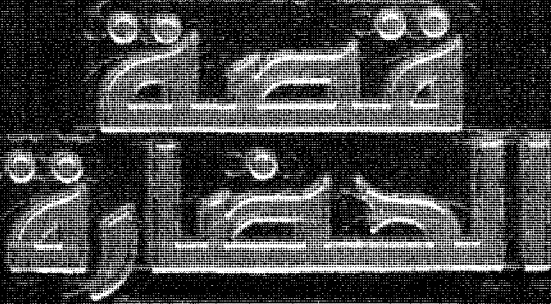
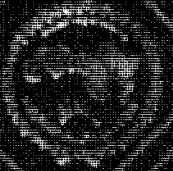
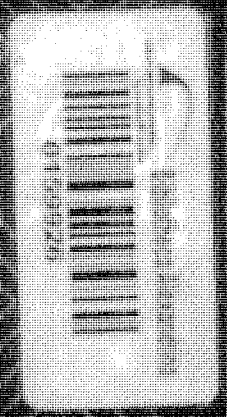
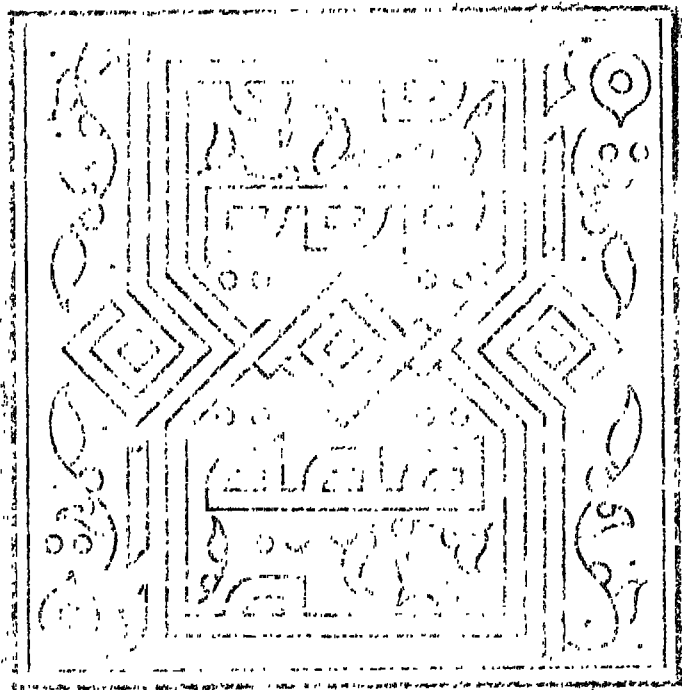


ول كاریل دیورانت



پبلسر ایڈیشن





قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر الإيمان

ترجمة
محمد بدران

الجزء الثاني من المجلد الرابع

١٣



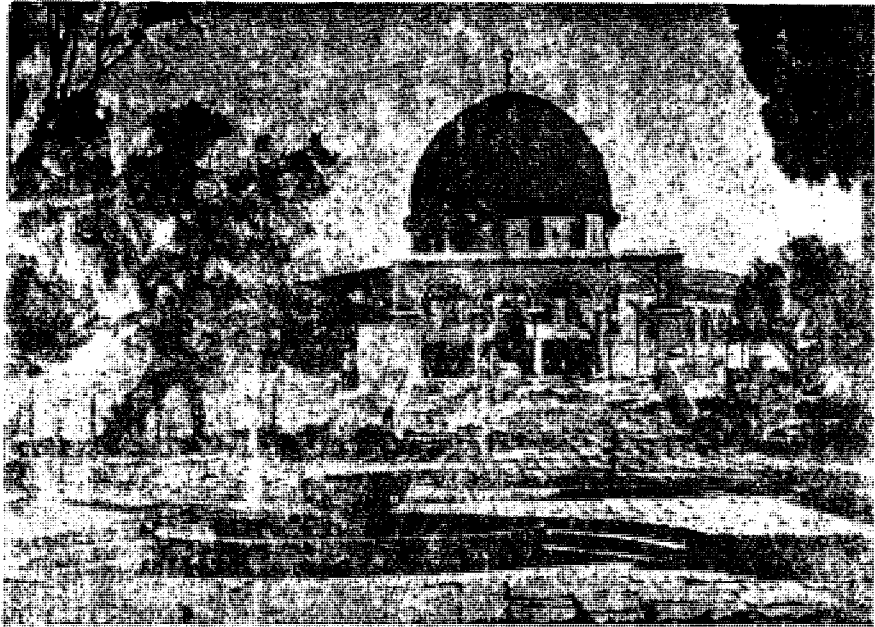
تونس



بيروت

حقوق الطبع محفوظه

قلاىة اللىة : ص.ب. ٨٧٣٧ - ت. ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - فاكس: ٢٣٤٤٣
العنوان البرق: دلسه حلاله - بىرولل - لىنانل



(شكل ١) قبة الصخرة في المسجد الأقصى

الفهرس

الكتاب الثاني - الحضارة الإسلامية

الموضوع	الصفحة
١ - مقدمة الترجمة	١
٢ - ز - ي	١

ثبت مسلسل بالحوادث التاريخية

الباب الثامن : محمد (صلى الله عليه وسلم)

٦	الفصل الأول : جزيرة العرب	٦
٢١	الفصل الثاني : محمد في مكة	٢١
٣٢	الفصل الثالث : محمد في المدينة	٣٢
٤١	الفصل الرابع : انتصار النبي	٤١

الباب التاسع : القرآن (الكريم)

٤٨	الفصل الأول : شكله	٤٨
٥٣	الفصل الثاني : المقائد	٥٣
٥٩	الفصل الثالث : القرآن والأخلاق	٥٩
١٥	الفصل الرابع : القرآن والدين والدولة	١٥

الباب العاشر : سيف الإسلام

٧٠	الفصل الأول : الخلفاء الراشدون	٧٠
٨١	الفصل الثاني : الخلافة الأموية	٨١
٨٨	الفصل الثالث : الخلافة العباسية	٨٨
٨٨	١ - هرون الرشيد	٨٨
٩٥	٢ - اصمحلل الدولة العباسية	٩٥
١٠٤	الفصل الرابع : أرمينية	١٠٤

الباب الحادى عشر : أحوال البلاد الإسلامية

١٠٦	الفصل الأول : الحال الاقتصادية
١١٦	الفصل الثانى : الإيمان
١٣٤	الفصل الثالث : الشعب
١٤٥	الفصل الرابع : الحكومة
١٥٢	الفصل الخامس : المدن

الباب الثانى عشر : الفكر والفن فى بلاد الإسلام الشرقية

١٦٧	الفصل الأول : التعليم
١٧٧	الفصل الثانى : العلوم
١٨٩	الفصل الثالث : الطب
١٩٧	الفصل الرابع : الفلسفة
٢١٤	الفصل الخامس : التصوف والإيجاد
٢٢٣	الفصل السادس : الأدب
٢٣٩	الفصل السابع : الفن
٢٥٦	الفصل الثامن : الموسيقى

الباب الثالث عشر : الإسلام فى الغرب

٢٦١	الفصل الأول : فتح إفريقية
٢٦٩	الفصل الثانى : الحضارة الإسلامية فى إفريقية
٢٧٧	الفصل الثالث : الإسلام فى البحر المتوسط
٢٨١	الفصل الرابع : الإسلام فى أسبانيا
٢٨١	الخلافة والأمراء
٢٩٢	الحضارة فى بلاد الأندلس الإسلامية

الباب الرابع عشر : عظمة المسلمين واضمحلالهم

٣١٤	الفصل الأول : الشرق الإسلامى
٣٢٣	الفصل الثانى : المسلمون فى الغرب

الصفحة	الموضوع
٣٢٩	الفصل الثالث : نظرات خاطفة في الفن الإسلامي
٣٣٩	الفصل الرابع : عصر عمر الخيام
٣٤٨	الفصل الخامس : عصر السعدي
٣٥٦	الفصل السادس : علوم المسلمين
٣٦٢	الفصل السابع : النزلى والنهضة الدينية
٣٦٨	الفصل الثامن : ابن رشد
٣٧٧	الفصل التاسع : غارة المغول
٣٨٢	الفصل العاشر : الإسلام والعالم المسيحي
٣٨٩	المراجع

فهرس الصور والخرائط

رقم الصفحة	مدلوها	رقم الصورة أو الخريطة
...	قبة الصخرة	الشكل ١
١٥٤	منبر المسجد الأقصى أمام ص	٢ »
١٥٨	المسجد الأموى بدمشق » »	٣ »
١٥٨	نقش بارز على الصخر. ببلاد الشام » »	٤ »
٢٧٠	حصن الجامع الأزهر بالقاهرة » »	٥ »
٣٠٤	داخل مسجد قرطبة » »	٦ »
٣٠٣	هو السباع في قصر الحمراء بغرناطة » »	٧ »

مقدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنتهدى لولا أن هدانا الله (وبعد)
فهذا هو الجزء الخاص بالحضارة الإسلامية من المجلد الرابع من قصة
الحضارة ، وهو المجلد المسمى « عصر الإيمان » ، وقد عانينا فى ترجمته من
الصعاب ما لم نعاناه فى سائر ما ترجمناه حتى الآن من أجزاء الكتاب البالغ
عددنا نحو عشرين جزءاً ما طبع منها وما لم يطبع . ذلك أن المؤلف قد نقل
الشيء الكثير عن المؤرخين ، والأدباء والشعراء ، والعلماء ، ورجال الدين ،
والفلاسفة ، والمتصوفة ، والحكماء . فليس فى الكتاب صفحة تخلو من نص
منقول عن واحد من هؤلاء ، وقد يكون فى الصفحة الواحدة ما لا يقل
عن عشرة نصوص . هذا إلى ما ورد فيه من أسماء هؤلاء جميعاً وأسماء
مؤلفاتهم ، وبلدانهم ، وأصدقائهم ، والملوك ، والسلاطين ، والأمراء ،
والوزراء الذى اتصلوا بهم ؛ وكان لابد لنا أن نرجع هذا كله إلى
المصادر العربية وترجمتها الأجنبية التى نقل عنها المؤلف وأشار إلى بعضها ولم
يشر إلى البعض الآخر ، فكان علينا نحن أن نبحث عن أسماء المصادر أولاً
ثم عن النصوص بعدئذ .

على أن هذا ليس هو كل شيء ، فقد كانت أسماء من نقل عنهم ترد أحياناً
محرقة تحريفًا يتطلب تصحيحه الكثير من الجهد . وكمن نص نسب إلى غير
قائله لخطأ فى المراجع التى نقل عنها المؤلف ، كالأبيات التى يعزوها نقلاً عن
أمين الريحاني لأبى العلاء المعرى وليست هى له بل من أقوال محيى الدين بن
عربى ، والتي كان علينا أن نتصل من أجلها بنيويورك لنبحث فيها عن نسخة

من كتاب « رباعيات أبي العلاء » ، لأمين الريحاني لأننا لم نجد في مصر .
وأكثر من هذا أن المؤلف ينقل في كثير من الأحيان عن تراجم المستشرقين
للكتب العربية ، وهؤلاء قد يطلقون عليها أسماء غير أسماءها العربية
أو يترجمونها ترجمة يصعب معها الاهتداء إليها كتسمية الجزء الأول من
كتاب نوح الطيب للمقرى باسم « تاريخ الأسر الإسلامية بالأندلس » ،
وكتاب « اليميني » أو « السيرة اليمينية » باسم « تاريخ الأمير سبكتجن ومحمود
الغزنوي » الذي لا توجد منه إلا نسخة مخطوطة في دار الكتب ، تتطلب
قراءتها والبحث فيها كثيراً من الجهد ، وترجمة « تذكرة الكحالين » باسم
« رسالة في الرمذ » الخ .

وقد وفقنا بحمد الله إلى تدليل هذه الصعاب فصححنا ما حرف أو كتب
خطأ من أسماء الأشخاص والأماكن والكتب ، واهتدينا إلى النصوص من
مصادرها ، وصححنا بعض الأخطاء التي وقع فيها المؤلف كخلطه بين
الكندي الفيلسوف وعبد المسيح بن إسحاق الكندي الذي كتب رسالة في الدفاع عن
المسيحية عزها المؤلف إلى الكندي الفيلسوف . وقد عاوننا في ذلك غير
قليل من العلماء والأصدقاء نذكرهم هنا اعترفا بفضلهم السيد الحاخام
الأكبر الذي ساعدنا في تحقيق كثير من الأسماء والنصوص العبرية في هذا
الجزء والجزء الذي يليه والذي اغترفنا من بحر علمه ما وري غلتنا في هذا
الميدان ، ومنهم صديقنا الأديب الأستاذ كامل كيلاني الحجة في أبي العلاء
الذي هدانا إلى كثير من النصوص المنقولة عنه وعن غيره من الشعراء ،
والدكتور عبد الوهاب عزام ، والدكتور يحيى الخشاب اللذان أعانانا على
تحقيق بعض الأسماء الفارسية ، والأستاذ دريني خشبة الذي ترجم لنا
شعرا رباعيتين لعمر الخيام لم نجدهما في التراجم المطبوعة فضلا عما استخرجه
لنا من النصوص الأدبية الأخرى ، والأستاذ أمين الشريف الذي وفر علينا
كثيراً من المشقة بالبحث عن كثير من الأحاديث النبوية الشريفة ،
وأصدقائنا في دار الكتب ، ومكتبة وزارة التربية الذين يسروا لنا

سبيل الحصول على المراجع أعظم تيسير . فلهؤلاء جميعاً أقدم خالص الشكر عن نفسى وعن القراء . وإذا كان قد فاتنا شيء من هذه الناحية فإننا نعتذر عنه مقدماً وتقبل شاكرين ما يهدينا إليه القراء لتتداركه فى الطبعة الثانية إن شاء الله ، وعذرنا أننا بذلنا كل ما نستطيع من جهد للوصول إلى الحقيقة كاملة ، ونقول كما يقول ابن خلكان ، والتمثيل مع الفارق بطبيعة الحال : « فن وقف على هذا الكتاب من أهل العلم ورأى فيه شيئاً من الخلل فلا يعمل بالمواخذه فيه ، فإنى توخيت فيه الصحة حسبما ظهر لى ، مع أنه كما يقال : أبى الله أن يصح إلا كتابه . لكن هذا جهد المقل ، وبذل الاستطاعة ، وما يكلف الإنسان إلا ما تصل قدرته إليه ، وفوق كل ذى علم عليم . . . والله يستر عيوبنا بكرمه الصافى ، ولا يكدر علينا ما منحنا من مشرع عظاته النخبر الصافى إن شاء الله تعالى بمنه وكرمه » .

هذا وسيرى القارئ أن المؤلف قد أنصف الحضارة الإسلامية فشاد بفضلها وأوضح ما كان لها من أثر خالدها فى حضارة أوروبا والعالم أجمع وما يدين به العالم الحديث لهذه الحضارة ، ثم هو يعتذر فى آخر هذا الجزء عن تقصيره فى هذه الناحية . وكان لابد له أن يمهد لوصفه تلك الحضارة بفصول عن باعها عايه الصلاة والسلام وعن القرآن والدين ، ولم تفته الإشادة بمحاسنه وفضائله . على أننا لم نشأ أن نترك هذه الفصول كما هى لما عساه أن يكون فيها من أخطاء أو سوء فهم أو نستقل برأينا فيها ، فعرضنا الأمر على الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية فعهدت إلى الأستاذ الجليل الدكتور محمد يوسف موسى أن يعلق على هذه الفصول فكتب التعليق القيم الوارد فى هوامشها والذى ذيل باسمه (ى) . وقد أضفنا نحن من عندنا تعليقات أخرى على هذه الأجزاء وعلى سائر فصول الكتاب ذيلناها بلفظ (المترجم) .

وكان هذا أيضاً هو رأى إخواننا أعضاء مجلس إدارة لجنة التأليف ،
ونرجو أن نكون قد سلكنا فى هذا الطريق الصحيح :

ولا يسعنا أن نختم هذه المقدمة قبل أن نقدم جزيل الشكر مرة أخرى
للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية صاحبة المشروع وأكبر عون فيه ،
وللجنة التأليف والترجمة والنشر ناشرة الكتاب ، والقراء الكرام فى مصر
والبلاد العربية الذين شجعونا بإقبالهم على الأجزاء السابقة على مواصلة الجهد
فى هذا العمل الشاق ، وفقنا الله وإياهم إلى الخير ، وهدانا الصراط المستقيم .

محمد بدرابه

الكتاب الثاني

الحضارة الإسلامية

١٢٥٨ - ٥٦٩

ثبت مسلسل بالحوادث التاريخية الواردة

في الكتاب الثاني

- ٥٧٠ - ٦٣٢ : محمد (صلى الله عليه وسلم)
٦١٠ : الوحي .
٦٢٢ : هجرة النبي إلى المدينة .
٦٣٠ : فتح مكة .
٦٣٢ - ٦٣٤ : خلافة أبي بكر .
٦٣٤ - ٦٤٤ : خلافة عمر بن الخطاب .
٦٣٥ : استيلاء المسلمين على دمشق .
٦٣٧ : استيلاء المسلمين على بيت المقدس والمدائن .
٦٤١ : فتح بلاد الفرس ومصر
٦٤١ : إنشاء القسطنطينية .
٦٤٢ : إنشاء مسجد عمرو في القسطنطينية .
٦٤٤ - ٦٥٦ : خلافة عثمان بن عفان .
٦٥٦ - ٦٦٠ : خلافة علي بن أبي طالب
٦٦٠ - ٦٨٠ : خلافة معاوية بن أبي سفيان .
٦٦٠ - ٧٥٠ : الخلافة الأموية في دمشق .
٦٦٢ : استعمال الأرقام الهندية في الشام .
٦٨٠ : مقتل الحسين في كربلاء
٦٨٠ - ٦٨٣ : خلافة يزيد الأول .
٦٨٣ - ٦٨٤ : خلافة معاوية الثاني .
٦٨٥ - ٧٠٥ : خلافة عبد الملك ابن مروان .
- ٦٩١ - ٦٩٤ : بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة في بيت المقدس
٦٩٣ - ٨٦٢ : حكم المسلمين في أرمينية
٦٩٨ : استيلاء المسلمين على قرطاجنة .
٧٠٥ - ٧١٥ : خلافة الوليد الأول .
٧٠٥ وما بعدها - بناء الجامع العظيم في دمشق
٧١١ : دخول المسلمين أسبانيا
٧١٥ - ٧١٧ : خلافة سليمان الأول .
٧١٧ - ٧٢٠ : خلافة عمر بن عبد العزيز
٧٢٠ - ٧٢٤ : خلافة يزيد الثاني .
٧٢٤ - ٧٤٣ : خلافة هشام بن عبد الملك .
٧٣١ : واقعة تور وارتداد المسلمين .
٧٤٣ - ٧٤٤ : خلافة الوليد الثاني .
٧٥٠ : أبو العباس السفاح يؤسس الدولة العباسية
٧٥٤ - ٧٧٥ : خلافة المنصور واتخاذ بغداد عاصمة .
٧٥٥ - ٧٨٨ : عبد الرحمن الأول أمير قرطبة .
٧٥٧ - ٨٤٧ : فلاسفة المعتزلة .
٧٦٠ : نشأة الطائفة الإسماعيلية
٧٧٥ - ٧٨٦ : خلافة المهدي .
٧٨٦ : الجامع الأزرق في قرطبة

- ٩٣٤ - ١٠٢٠ : الفردوسى الشاعر .
٩٤٠ - ٩٩٨ : أبو الوفا العالم
الرياضى .
٩٤٥ - ١٠٥٨ : سيادة بنى بويه على
بغداد .
٩٥١ : وفاة المسعودى
الجغرافى .
٩٥٢ - ٩٧٧ : أشوط الثالث :
عصر أرمينية الذهبى
٩٩٠ - ١٠٢٠ : كاجيك الأول فى
المصور الوسطى .
٩٦١ - ٩٧٦ : خلافة الحكم فى
قرطبة .
٩٦٥ - ١٠٣٩ : ابن الهيثم العالم فى
الطبيعة .
٩٦٧ - ١٠٤٩ : أبو سعيد الشاعر
الصدقى .
٩٩٩ - ١١٧١ : الأسرة الفاطمية
فى مصر .
٩٧٠ : بناء الجامع الأزهر
فى القاهرة .
٩٧٣ - ١٠٤٨ : البيرونى ، العالم .
٩٧٣ - ١٠٥٨ : المعرى ، الشاعر .
٩٧٦ - ١٠١٠ : خلافة هشام فى
قرطبة .
٩٧٨٠ - ١٠٠٢ : المنصور الوزير فى
قرطبة .
٩٨٠ - ١٠٣٧ : ابن سينا الفيلسوف
٩٨٣ وما بعدها : إخوان الصفا .
٩٩٠ - ١٠١٢ : بغاء جامع الحاكم
فى القاهرة .
٩٩٨ - ١٠٣٠ : السلطان محمود
الغزنوى .
١٠١٢ : ثورة البربر فى قرطبة
١٠١٧ - ١٠٩٢ : الوزير نظام الملك
١٠٣١ : خاتمة الخلافة فى قرطبة
- ٧٨٦ - ٨٠٩ : خلافة هرون الرشيد .
٧٨٩ - ٩٧٤ : قيام أسرة الأدارسة
فى فاس .
٨٠٣ : نسكبة البرامكة .
٨٠٣ وما بعدها : الكنتلى
الفيلسوف .
٨٠٨ - ٩٠٩ : بنو الأغللب فى القيروان
٨٠٩ - ٨١٠ : استيلاء المسلمين على
ورسقة وسردانية .
٨٠٩ - ٨٧٧ : حنين بن إسحق العالم .
٨١٣ - ٨٣٣ : خلافة المأمون .
٨٢٠ - ٨٧٢ : بنو طاهر فى فارس .
٨٢٢ - ٨٥٢ : عبد الرحمن الثانى أمير
قرطبة .
٨٢٧ وما بعدها : استيلاء المسلمين على
صقلية .
٨٣٠ : إنشاء بيت الحكمة فى
بغداد .
٨٣٠ : وضع الخوارزمى علم الجبر
٨٤٤ - ٩٢٦ : الرازى ، الطبيب .
٨٤٦ : هجوم المسلمين على
رومة .
٨٧٠ - ٩٥٠ : الفارابى ، الفيلسوف .
٨٧٢ - ٩٠٣ : الصفاريون فى فارس .
٨٧٣ - ٩٣٥ : الأشعرى الفقيه .
٨٧٨ : بناء مسجد ابن طولون
فى القطائع
٩٠٩ وما بعدها : الخلافة الفاطمية فى
القيروان .
٩١٢ - ٩٦١ : عبد الرحمن خليفة فى
قرطبة .
٩١٥ وما بعدها : الطبرى المؤرخ .
٩١٥ - ٩٦٥ : المتنبى الشاعر .

- ١١٤٨ - ١٢٤٨ : أسرة الموحدين في أسبانيا .
- ١١٦٢ - ١٢٢٧ : چنكيز خان .
- ١١٧٥ - ١٢٤٩ : الأسرة الأيوبية .
- ١١٧٩ - ١٢٢٠ : ياقوت الحفراني .
- ١١٨١ وما بعدها : قصر أشبيلية .
- ١١٤٨ - ١٢٩١ : السعدي ، الشاعر .
- ١١٨٧ : صلاح الدين - يهزم الصليبيين في حطين ويستولي على بيت المقدس .
- ١١٨٨ : مجد النظامي الشاعر
- ١٢٩٦ : برج الخردة في أشبيلية .
- ١٢٠١ - ١٢٧٣ : جلال الدين الرومي ، الشاعر .
- ١٢١١ - ١٢٨٢ : ابن شلكان كاتب السير .
- ١٢١٢ : المسيحيون يهزمون المسلمين في واقعة العقاب عند طليطلة
- ١٢١٨ - ١٢٣٨ : الكامل ، سلطان مصر .
- ١٢١٩ : چنكيز خان ينزو ما وراء جيحون .
- ١٢٤٥ : استيلاء المغول على بيت المقدس .
- ١٢٤٨ وما بعدها : قصر الحمراء .
- ١٢٥٠ - ١٥١٧ : حكم المماليك في مصر
- ١٢٥٢ : انحصار ملك المسلمين بالأندلس في غرناطة
- ١٢٥٨ : المغول يهبطون بغداد ويقضون على الخلافة العباسية .
- ١٢٦٠ : المماليك يصدون المغول في واقعة عين جالوت .
- ١٢٦٠ - ١٢٧٧ : بيبرس سلطان المماليك
- ١٠٣٨ : الأتراك السلاجقة يغزون بلاد الشام .
- ١٠٣٨ - ١١٢٣ : الشاعر عمر الخيام .
- ١٠٤٠ - ١٠٩٥ : المعتمد الأمير والشاعر .
- ١٠٥٨ : استيلاء السلاجقة على بغداد .
- ١٠٥٨ - ١١١١ : الإمام الغزالي .
- ١٠٥٩ - ١٠٦٣ : طغرل بك سلطان في بغداد .
- ١٠٦٠ : استيلاء السلاجقة على أرمينية .
- ١٠٦٣ - ١٠٧٢ : السلطان ألب أرسلان .
- ١٠٧١ : الأتراك يهزمون اليونان في ملازكرت
- ١٠٧٢ - ١٠٩٢ : السلطان ملك شاه
- ١٠٧٧ - ١٣٢٧ : سلطنة الروم في آسيا الصغرى .
- ١٠٨٨ وما بعدها : المسجد الجامع في إصفهان .
- ١٠٩٥ : قيام طائفة الحشاشين
- ١٠٩٠ - ١١٤٧ : أسرة المرابطين في الأندلس .
- ١٠٩١ - ١١٦٢ : ابن زهر الطبيب .
- ١٠٩٨ : استيلاء الفاطميين على بيت المقدس .
- ١١٠٠ - ١٠٦٦ : الإدريسي الحفراني
- ١١٠٦ وما بعدها : محمد ابن باجة الفيلسوف .
- ١١٠٧ - ٦١٨٥ : ابن طفيل الفيلسوف
- ١١١٧ - ١١٥١ : سنجر سلطان السلاجقة .
- ١١٢٦ - ١١٩٨ : ابن رشد الفيلسوف
- ١١٣٠ - ١٢٦٩ : أسرة الموحدين في مراكش .
- ١١٣٨ - ١١٩٣ : صلاح الدين الأيوبي

الباب الثامن

محمد (صلى الله عليه وسلم)

٥٧٠ - ٦٣٢

الفصل الأول

جزيرة العرب (*)

توفي جستنيان في عام ٥٦٥ وهو سيد إمبراطورية عظيمة ، وبعد خمس سنين من وفاته ولد محمد (صلعم) في أسرة فقيرة في إقليم ثلاثة أرباعه صحراء

(*) إن إعادة كشف بلاد العرب على يد الأوربيين في العصر الحديث من أكبر الأدلة على سعة أفق العلماء في القرن التاسع عشر وعلى أن العلم كان في ذلك القرن يعد العالم كله وطناً له . وقد بدأ هذا الكشف في أعوام ١٧٦١ - ١٧٦٤ حين اخترق كارستن نايهر Carsten Niebuhr شبه الجزيرة برعاية حكومة الدنمرقة . وكان كتابه الذي نشره في عام ١٧٧٢ أوسع وصف لبلاد العرب حتى ذلك الوقت . وفي عام ١٨٠٧ تزى دمنجو باديا أي ليليتش Dominge Badia Y. Lebllich الأسباني بزى المغاربة وزار مكة ثم نشر بعد رجوعه أول وصف دقيق لمناسك الحج . وفي عام ١٨١٤ - ١٨١٥ قضى جوهان لدفج بيركهاردت John Ludwig Burckhardt ، وهو رجل سويسرى تزى بزى المسلمين ، عدة أشهر في مكة والمدينة وقد أيد الرحالة اللذين وفدوا على جزيرة العرب من بعده ما جاء في تقاريره الوافية من معلومات كثيرة . وفي عام ١٨٥٣ زار مكة والمدينة الرحالة رتشرد بيرتن Richard Burtou وهو رجل إنجليزى تزى بزى حاج أفغانى ، ثم وصف رحلته الشاقة الخطرة في مجلدين متمين .

وفي عام ١٨٦٩ - ١٨٧٠ ارتاد ج . هليفى J. Holvey ، وهو يهودى فرنسى ، مواضع ممالك المعينيين وسبأ والحميريين الأقدمين ونقل ما وجدته في تلك المواضع من نقوش على الصخور .

وفي عام ١٨٧٥ سافر تشارلس منتيجو دوتن Charles Montague Doughtou الإنجليزى من دمشق مع قافلة الحججاج ونشر ما وقع له في كتابه بلاد العرب الصحراوية .

مجدية قليلة السكان ، أهله من قبائل البدو الرحل ، إذا جمعت ثروتهم كلها فإنها لا تكاد تكفي لإنشاء كنيسة أياصوفيا . ولم يكن أحد في ذلك الوقت يعلم أنه لن يمضى قرن من الزمان حتى يكون أولئك البدو قد فتحوا نصف أملاك الدولة البيزنطية في آسية ، وجميع بلاد الفرس ، ومصر ، ومعظم شمالي أفريقيا ، وساروا في طريقهم إلى أسبانيا . والحق أن ذلك الحادث الجلل الذى تمخضت عنه جزيرة العرب ، والذى أعقبه استيلاؤها على نصف عالم البحر المتوسط ونشر دينها الحديد في ربوعه ، هو أعجب الظواهر الاجتماعية في العصور الوسطى .

وبلاد العرب أكبر أشباه الجزائر في العالم ، يبلغ أكبر أطوالها ١٤٠٠ ميل وأكبر عرضها ١٢٥٠ ميلا ، وهى من الوجهة الجيولوجية امتداد للصحراء الكبرى ، وجزء من الإقليم الصحراوى الرمالى الذى يمتد إلى صحراء جوبي محترقا بلاد الفرس : ومعنى « عرب » قحل (*) . وبلاد العرب هضبة واسعة ترتفع على مسافة ثلاثين ميلا من البحر الأحمر ارتفاعا فجائيا إلى ١٢٠٠٠ قدم ، ثم تنحدر نحو الشرق انحدارا سهلا في أرض جبلية جديباء حتى تصل إلى الخليج الفارسى . وفي وسط الجزيرة عدد من الواحات الكلتة ، والقرى ذات النخيل ، نشأت حيث يمكن الحصول على الماء بجحر الآبار . وتمتد الرمال حول هذه المراكز مئات الأميال في جميع الجهات . ويسقط الثلج في تلك البلاد مرة كل أربعين عاما ، وتنخفض درجة الحرارة فيها بالليل إلى ٣° ، أما شمس النهار فتلفح الوجوه وتغلى الدم في العروق ، والهواء المحمل بالرمال يضطر الأهلى إلى لبس الأثواب الطوال ،

Arabia Deserta = (١٨٨٨) الذى يعد من روائع النثر الإنجليزى م
وفيا بين ١٨٨٢ - ١٨٨٨ قام ا . جلازر E. Glaser النمساوى بثلاث رحلات شاقة
خطرة في قلب الجزيرة نقل في خلالها ١٠٣٢ نقشا هي الآن أهم مصدر لتاريخ بلاد العرب
قبل الاسلام .
(*) ورد في القاموس المحيط : تعرب أقام بالبادية ولعل المؤلف أخذ من هذا قوله
- إن عرب مبناه قحل (المترجم) .

وشد غطاء الرأس بالعقال لوقاية الجسم والشعر ٥ وتكاد السماء تكون على الدوام صافية خالية من الغيوم ، والهواء « يشبه النيذ الراق » ٥ ويسقط المطر أحيانا قرب شاطئ البحر فيجعله صالحا لقيام الحضارة ، وأكثر ما يكون ذلك على الساحل الغربي في بلاد الحجاز حيث نشأت بلدتا مكة والمدينة ، وفي الطرف الجنوبي الغربي من بلاد اليمن موطن الممالك العربية القديمة .

ويسجل نقش بابلي (يرجع تاريخه إلى حوالي عام ٢٤٠٠ ق م) ٥ هزيمة لحقت بملك ماجان(*) على يد نارام سن الحاكم البابلي ٥ وقد كانت ماجان هذه عاصمة المملكة المعينية التي كانت قائمة في الجنوب الغربي من جزيرة العرب . وقد عرف خمسة وعشرون من ملوكها الذين حكموها بعد هذه الهزيمة من نقوش عربية يرجع تاريخها إلى عام ٨٠٠ ق م : ٥ وثمة نقش آخر يرجعه بعضهم إلى ٢٣٠٠ ق م وإن كانوا غير واثقين من هذا . وقد ورد في هذا النقش اسم مملكة عربية أخرى هي مملكة سبأ في بلاد اليمن . ومن سبأ أو من مستعمراتها في القسم الشمالي من بلاد العرب - لأن هذا موضع خلاف بين المؤرخين - « ذهب » ملكة سبأ إلى سليمان حوالي عام ٩٥٠ ق م . وقد اتخذ ملوك سبأ مأرب عاصمة لهم ، وخاضوا حروب « الدفاع » المعتادة ، وأنشأوا أعمالا عظيمة للرى كسلود مأرب (التي لا تزال آثارها باقية إلى الآن) ، وشادوا الحصون والهياكل الضخمة ، ووهبوا كثيراً من المال للشئون الدينية . واتخذوا الدين وسيلة للحكم (٢) . والنقوش التي خلفوها - والتي لا ترجع في أغلب الظن إلى ما قبل عام ٩٠٠ ق م - منحوتة نحتاً جميلاً بجروف هجائية . وكانت بلادهم تنتج الكندر والمر اللذين كان لهما شأن أيما شأن في الشعائر الدينية الآسيوية والمصرية ، وكانوا يسيطرون على التجارة البحرية بين الهند ومصر ، وعلى الطرف الجنوبي

(*) لعل ماجان التي وردت في النقوش البابلية هي بعينها معين التي تنتسب إلى المملكة المعينية والتي اشتقت منها كلمتا معان اسم البلد ومعين بمعنى ينبوع . (المترجم) .

من طريق القوافل الذاهب إلى البتراء وبيت المقدس مارا بمكة والمدينة .
وحدث حولي عام ١١٥ ق . م أن قامت مملكة صغيرة أخرى في الجنوب .
الغربي من بلاد العرب هي مملكة الحميريين ، فهاجمت مملكة سبأ ، وغلبتها على
أمرها ، وظلت بعد هذا الوقت تسيطر على تجارة بلاد العرب عدة قرون ،
وفي عام ٢٥ ق . م غضب أغسطس من سيطرة بلاد العرب على التجارة
المتبادلة بين مصر والهند فسير جيشا بقيادة جالوس Aelius Gallus للاستيلاء
على مأرب . وأضل الأدلاء العرب الفيالق الرومانية ، وأهلكهم الحر والمرض ،
وعجزت الحملة عن تحقيق غرضها ، ولكن جيشا رومانيا آخر نجح في الاستيلاء
على عدن ، وانتقلت بذلك السيطرة على التجارة بين مصر والهند إلى يد رومة .
(وقد فعل البريطانيون ذلك بعينه في الوقت الحاضر) .

وفي القرن الثاني قبل الميلاد عبر بعض الحميريين البحر الأحمر .
واستعمروا بلاد الحبشة ، ونشروا الثقافة السامية بين أهلها الزوج ، كما
أدخلوا فيها كثيرا من الدم السامي (*) . وتلقى الأحباش من مصر وبيزنطية الدين
المسيحي والصناعات اليدوية والفنون . وكانت سفنهم التجارية تجوب البحار
وتوغل فيها حتى تصل إلى الهند وسرنديب (٢) . وكانت سبع ممالك صغيرة
تقر بالسيادة للنجاشي (***) .

(*) يطلق اسم الساميين على الشعوب التي تنسب إلى سام بن نوح ما هو وارد في سفر
التكوين (١٠ : ١) . وليس في استطاعتنا أن نقول بالدقة ما هي هذه الشعوب السامية ،
ولكننا نستطيع أن نقول بوجه عام إن سكان سوريا ، وفلسطين وأرض النهرين ، وبلاد
العرب ، والسكان العرب في أفريقية ساميون ، إذا فهمنا من هذا اللفظ أنهم يتكلمون لغات
سامية . كما نستطيع أن نسمى السكان الأقدمين في آسية الصغرى وأرمينية ، وبلاد القفقاس :
وأهل فارس ، وشمال الهند ، ومعظم أوربا وجميع سكان أمريكا اللاتينية من أصل أوروبي
« هندوريين » لأنهم يتكلمون لغات هندية جرمانية .

(**) جين Gibbon اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها Decline and Fall
of the Roman Empire طبعة Everman's Library المجلد الرابع ص ٣٢٢ . ولقد كان من
مفاخر جين أنه أدرك ما للإسلام من شأن عظيم في تاريخ العصور الوسطى ، وأنه كتب تاريخه
السياسي كتابة تم عن علم غزير ، وكتبه بدقة وبلاغة منقطع النظير .

هذا في الحبشة أما في بلاد العرب نفسها فإن كثيرين من الحميريين ساروا على سنة ملكهم ذى نواس ، واعتنقوا الدين اليهودي ، واندفع ذونواس في حماسه الدينية فأخذ يضطهد المسيحيين المقيمين في الجنوب الغربي من جزيرة العرب ، فاستغاث هؤلاء ببنى دينهم ، واستجاب الأحباش إلى دعوتهم ، وهزموا ملوك الحميريين (٥٢٢ م) ، وأجلسوا على عرش البلاد أسرة حبشية . وتحالف جستنيان مع الدولة الجديدة ، ورد الفرس على هذا بأن انحازوا إلى جانب ملوك حمير المخلوعين وطردوا الأحباش ، وأقاموا في بلاد اليمن حكماً فارسياً (٥٧٥) انتهى بعد ستين عاماً أو نحوها حين فتح المسلمون بلاد الفرس .

وازدهوت بعض الممالك العربية الصغرى في الجزء الشمال من شبه الجزيرة ، ولكنها لم تدم طويلاً . فقد ظل مشايخ بنى غسان يحكمون الجزء الشمال الغربي والقسم المحيط بتدمر من بلاد سوريا من القرن الثالث إلى القرن السابع تحت سيادة بيزنطية . وأنشأ ملوك بنى نخم في الحيرة القريبة من بابل في هذا الوقت عينه بلاطاً نصف فارسى ، وثقفوا ثقافة فارسية اشتهرت بموسيقاها وشعرها . ويرى من هذا أن العرب انتشروا شمالاً في سوريا والعراق قبل الإسلام بزمن طويل .

وكان النظام السياسى السائد في بلاد العرب قبل الإسلام ، إذا استثنينا هذه الممالك الصغرى في الجنوب والشمال ، هو النظام البدائى الذى يقوم على رابطة القرابة والذى تجتمع الأسر بمقتضاه في عشائر وقبائل . بل إن هذه الممالك الصغرى نفسها لم تكن تخلو من قسط كبير من هذا النظام القبلى . وكانت القبيلة تسمى باسم أبها مزعوم عام ، فالغساسنة مثلاً كانوا يعتقدون أنهم « أبناء غسان » ، ولم يكن لبلاد العرب بوصفها وحدة سياسية وجود قبل غضر النبي إلا في مسميات اليونان غير الدقيقة ، فقد كانوا يسمون جميع الساكنين في شبه الجزيرة باسم السركنوى Sarakenoi ، ومن هذا الاسم اشتق اللفظ الإنجليزى Saracens ، ويلوح أنه هو

نفسه مشتق من لفظ « الشرقيين » العربى . وكانت قلة سبل الاتصال وصعوبتها مما اضطر أهل البلاد إلى أن يعملوا على الاكتفاء بأنفسهم عن غيرهم ، كما أنهما كانتا سبباً فى نمو روح العزلة فيهم ، فالعربى لم يكن يشعر بواجب أو ولاء لأية جماعة أكبر من القبيلة ، وكانت قوة ولائه تناسب تناسباً عكسياً مع سعة الجماعة التى يدين لها بهذا الولاء ، فلم يكن يتردد فى أن يقدم وهو مرتاح الضمير على ما لا يقدم عليه الرجل المتحضر إلا من أجل بلاده أو دينه أو « عنصره » ، أى أن يكذب ، ويسرق ، ويقتل ، ويموت . وكان يحكم كل قبيلة أو بطن من قبيلة شيخ يختاره رؤساء العشائر فيها من بيت اشتهر من زمن بعيد ببرائه ، أو سداد رأيه ، أو شدة بأسه فى القتال .

وكان الرجال فى القرى ينتزعون بعض الحب والخضر من التربة الضئيلة ، ويربون بعض الماشية القليلة العدد ، وبعض الحياض الكريمة ، ولكنهم كانوا يجلدون أن زراعة بساتين النخل ، والخوخ ، والمشمش ، والرمان ، والليمون ، والبرتقال ، والموز ، والتين أجدى لهم وأعود بالربح عليهم . ومنهم من كان يعنى بزراعة النباتات العطرية كالكندر ، والسعر ، والياسمين ، والخزامى ؛ وكان بعضهم يستخرجون العطر من ورد الجبال ، وبعضهم يحفرون سيقان الأشجار ليستخرجوا منها المر أو البلسم . وربما كان جزء من اثنى عشر جزءاً من السكان يعيشون فى المدن القائمة على الساحل الغربى أو بالقرب منه . وكان فى هذا الساحل عدد من المرافئ والأسواق تتبادل منها تجارة البحر الأحمر . وفى داخل البلاد كانت تسير طرق القوافل الكبرى إلى بلاد الشام .

ونحن نسمع عن تجارة بين بلاد العرب ومصر منذ عام ٢٧٤٣ ق.م. وأكبر الظن أن الاتجار مع الهند لم يكن يقل قلداً عن الاتجار مع مصر . وكانت الأسواق والمواسم السنوية تستدعى التجار إلى هذه المدينة تارة وإلى تلك تارة أخرى ، وكان

يجتمع في سوق عكاظ الشهيرة القريبة من مكة مئات من التجار ، والممثلين ، والخطباء ، والمقامرين ، والشعراء ، والعاهرات .

وكان خمسة أسداس السكان بدواً رحلاً ، يشتغلون بالرعى وينتقلون بقطعانهم من مرعى إلى مرعى حسب فصول السنة وأمطار الشتاء . والبدوى يحب الخيل ، ولكن الحمل أعز أصدقائه في الصحراء ، فهو يسير ويهتز في وقار ، وإن كان لا يقطع إلا ثمانية أميال في الساعة ، ولكنه يستطيع أن يصبر على الماء خمسة أيام طوال في الصيف ، وخمسة وعشرين يوماً في الشتاء . والناقة تدر اللبن ، وبول الحمل مفيد في تقوية الشعر(*) ، وروثه يمكن أن يتخذ وقوداً ، وإذا ذبح أكل لحمه ، وصنعت الثياب والخيام من جلده ووبره . وبهذه المقومات المختلفة الأنواع كان في وسع البدوى أن يواجه حياة الصحراء متجلداً كجمله ، مرهف الحس نشيطاً كجواده . والبدوى قصير القامة ، نحيف الجسم ، مفتول العضلات ، قوى البنية ، في وسعه أن يعيش أياماً متوالية على قليل من التمر واللبن ، وكان يستخرج من البلح نفسه نخراً يرتفع بها من تراب الأرض إلى خيال الشعراء . وكان يدفع عن نفسه ملل الحياة الرتيبة وسآمتها بالحب والحرب ، وكان يسرع كما يسرع الأسباني (الذي ورث عنه سرعة غضبه) إلى الانتقام لما عساه أن يوجه إليه أو إلى قبيلته من إهانة أو أذى . وكان يقضي جزءاً كبيراً من حياته في الحرب التي تستعمرها بين القبائل المختلفة ، ولما أن فتح بلاد الشام ، وفارس ، ومصر ، وأسبانيا لم يكن عمله هذا إلا توسعاً منه في غارات النهب التي كان يشنها في أيام الجاهلية وإن اختلف الغرض في هذه عن تلك .

وكان يجعل من بعض أوقات السنة هدنة مقدسة للحج أو للتجارة ، أما في غير هذه الأوقات فكان يرى أن الصحراء ملكه الخاص ، وأن كل من

(*) يقول دوق Doughty إن نساء البدو « يغسلن أطفالهن ببول الجمال » ظناً منهن أن ذلك يبعد عنهن الحشرات . . . ويمشط الرجال والنساء شعرهم الطويل بهذا الماء .

يدخلها في غير هذه الأشهر الحرم ومن غير أن يؤدي له ما يفرضه من إتاوة ، معتد عليه وعلى وطنه ، وأن نهب أموال هذا المعتدى ليس إلا ضريبة تجبي منه بأهون السبل . وكان يحترق حياة الحضرم ، لأن معناها الخضوع لمطالب القانون والتجارة ، ويجب الصحراء القاسية لأنه يتمتع فيها بكامل حرية ، وكان البدوي رحباً وسفاكاً للدماء ، كريماً وبخيلاً ، غادراً وأميناً ، حذراً وشجاعاً ، ومهما يكن فقراً ، فإنه كان يواجه العالم بمهابة وأنفة ، يزهو ببقاء دمه ويولع بأن يضيف إلى اسمه سلسلة نسبه .

وكان لدى البدوي أمر لا يقبل فيه جدلاً ، ذلك هو جمال نسائه الذى لا يدانيه في نظره جمال . لقد كان جمالا أسمر ، قويا ، يقطن اللب ، خليقا بأن يتغزل فيه بعشرات المئات من الأغاني الشعرية ، ولكنه جمال قصير الأجل سرعان ما يدوى في جو الصحراء القانظ . وكانت حياة المرأة العربية قبل أيام النبي تنتقل من حب الرجل لها حباً يقرب من العبادة إلى الكلدح طوال ما بقي من حياتها ، ولم تتغير هذه الحياة فيما بعد إلا قليلاً(*) . وكان في وسع أبيها أن يثدها حين مولدها إذا رغب في هذا ، فإن لم يفعل فلا أقل من أن يجزن لمولدها ، ويوارى وجهه خجلاً من الناس ، لأنه يحس لسبب ما أن جهوده قد ذهبت أدراج الرياح ، وكانت طفولتها الجذابة تستحوذ على قلبه بضع سنين ، ولكنها حين تبلغ السنة السابعة أو الثامنة من عمرها كانت تزوج لأى شاب من شبان القبيلة يرضى والده أن يؤدي للعروس ثمنها(**) . وكان حينها وزوجها يحارب العالم كله إذا لزم الأمر ليحميها ، أو يدافع عن شرفها . وقد انتقلت بعض مبادئ هذه الشهامة المتطرفة مع

(*) سنجد في فصول الكتاب الآتية ما يدل على أثر الإسلام في رفع منزلة المرأة إلى درجة لم تسم إليها في كثير من البلدان ؛ وسيذكر المؤلف نفسه كثيراً من النساء اللاتي كان لهن أعظم شأن في الحياة العامة العملية والسياسية والاجتماعية . (المترجم) .

هو لاء العشاق المتيمين إلى إسبانيا . ولكن هذه المعبودة كانت إلى هذا سلعة من السلع ، فقد كانت جزءاً من أملاك أبيها ، أو زوجها ، أو ابنها ، تورث مع هذه الأملاك ، وكانت على الدوام من خدم الرجل ، وقلما كانت رفيقته . وكان يطلب إليها أن تلد له كثيراً من الأبناء ، الأبناء الذكور بطبيعة الحال ، لأن واجبها أن تنجب المحاربين ، ولم تكن في كثير من الأحوال إلا زوجة واحدة من كثيرات من الزوجات وكان في وسع الرجل أن يخرجها من بيته متى شاء .

لكن مفاتها لم تكن تقل عن الحرب إلهاماً لخيال الشعراء ، وموضوعاً لشعرهم ، وكان العربي قبل الإسلام أمياً ولكن حبه للشعر لم يكن يزيد عليه إلا حبه للخيال والنساء والخمر . ولم يكن بين العرب في الجاهلية علماء أو مؤرخون(*) ولكنهم كانوا مولعين بفصاحة اللسان ، وصحة الكلام ، والشعر المختلف المعقد الأوزان . وكانت اللغة العربية قريبة الشبه باللغة العبرية ، معقدة في تصريفها ، غنية بمفرداتها ، دقيقة في الفروق بين ألفاظها ، قادرة في ذلك الوقت على التعبير عن جميع أحاسيس الشعراء وفيما بعده عن جميع دقائق الفلسفة . وكان العرب يفخرون بتقديم لغتهم وكلامها ، يولعون بتريدهم مقاطعها العذبة في خطبهم الرنانة وشعرهم الجذل ونثرهم الرصين ، يأخذ بلهيم شعر الشعراء الذين كانوا يعيدون على أسماعهم في القرى والمدن ، وفي مخيمات الصحراء أو الأسواق ، مغامرات أبطالهم أو قبائلهم أو ملوكهم في الحُب أو الحرب في قصائد طوال من الشعر الموزون المقتنى . وكان الشاعر العربي مؤرخ العرب ، وجامع أنسابهم ، وهجاءهم ، والمتغنى بفضائلهم ، وناقل أخبارهم ، وملهمهم ، وداعهم إلى القتال . وإذا نأى الشاعر جائزة في إحدى المباريات الشعرية الكثيرة التي كانت تعقد من آن إلى

(*) من الحق أن العرب في جاهليتهم لم يبنوا بالعلوم كما عني بها غيرهم من الأمم كأهل مصر والهند والفرس واليونان ، ولكن كان منهم من عني ببناء من العلوم الضرورية كالطب . المبنى على التجربة وأحوال الكواكب والنجوم . (ي)

آن ، كانت قبيلته كلها تعد ذلك شرفاً لها تبتهج له أعظم ابتهاج . وكانت أهم هذه المباريات كلها تعقد كل عام في سوق عكاظ ، حيث كانت تتنافس القبائل في كل يوم تقريباً مدى شهر كامل على لسان شعرائها . ولم يكن في السوق محكمون غير الجماهير المنصتة التي تبدى استحسانها لما تسمع أو احتقارها له (*) . وكانت أحسن القصائد التي تقال في هذه السوق تكتب بحروف جميلة براقة فسميت من أجل ذلك « بالمدهبات » ، وكان يحتفظ بها في خزائن الأمراء والملوك تراثاً خالداً قيماً . وكان العرب يسمون هذه القصائد أيضاً بالمعلقات لأن الفائزة منها - كما تقول القصص المتواترة - قد كتبت على الحجر المصري بأحرف من الذهب وعلقت على جدران الكعبة في مكة .

وقد بقيت من هذه المعلقات التي قيلت في الجاهلية سبع قصائد يرجع تاريخها إلى القرن السادس الميلادي ، وهي قصائد طوال من الشعر المقتضب المعتمد الأوزان ، وموضوعها في العادة هو الحب أو الحرب . وتقص إحداها وهي معلقة ليبيد قصة جندي عاد من الحرب إلى قريته وبيته حيث كان قد ترك زوجته ، فوجد بيته خالياً ، وقد غادرت زوجته مع رجل غيره ، ويصف ليبيد منظر هذا البيت الخيالي بحنان لا يقل عن حنان جولدميث (*) . ويزيد عليه في فصاحة الشعر وقوة التعبير . وفي معلقة أخرى تستحث النساء الرجال إلى الحرب بقولهن :

ويها بنى عبد الدار . ويها حماسة الديار

ضرباً بكل بتار

نحن بنات طارق لا نششى لواق

(*) كانت هناك سوقان غير سوق عكاظ ، وهما سوقا مجبة وذو الحجاز وكان فيها أحياناً محكمون من ذوى المكانة . (المترجم)
(**) آثرنا أن نبقى هذا التعبير كما هو ، وإن كان لا يقرب المعنى للقارئ العربي ، لما فيه من مفاضلة بين شاعرين من أمميتين مختلفتين وهي في رأينا مفاضلة فيها كثير من الفائدة . (المترجم)

عشى على النمارق المسك في المفارق
والدر في الخنائق إن تقبلوا نعانق
ونفرش النمارق أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق (*)

وفي معلقة لامرئ القيس أبيات تم عن حب شهواني سافر :

ويبضة خدر لا يرام خباؤها	تمتعت من لوبها غير معجل
تجاوزت أحراساً إليها ومعشرا	على حراساً لو يسرون مقتلى
إذا ما الثريا في السماء تعرضت	تعرض أثناء الوشاح المفصل
فجئت وقد نضت لنوم ثيابها	لدى السر إلا لبسة المتفضل
فقالَت يمين الله مالك حيلة	وما أن أرى عنك الغواية تنجلي
خرجت بها أمشى تجر وراءنا	على أثرينا ذيل مرط مرحل
فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى	بنا بطن نخت ذى حفاف عقتل
هصرت بفودي رأدها فمائلت	على هضم الكشح ريباً الخلل
مهفهفة بيضاء غير مفاضة	تراثها مصقولة كالسجنجل
تصد وتبدي عن أسيل وتتي	بناظرة من وحش وجرة مطفل
وجيد كجيد الرثم ليس بفاحش	إذا هي نضته ولا بمعطل
وفرع يزين المتن أسود فاحم	أثيث كقنوز النخلة المتعطل
غدائره مستشزرات إلى العلا	تضل العقاص في مشى ومرسل
وكشح لطيف كالجديل محصر	وساق كأنيوب السقى المذل
وتضحى فتيبت المسك فوق فراشها	نووم الضحى لم تنتطق عن تفضل
وتعطو برخص غير شن كأنه	أساريع ظبي أو مساويك أسحل
تضىء الظلام بالعشاء كأنها	منارة ممس راهب مثبثل

(*) لا حاجة إلى القول بأن هذا الرجز ليس المعلقات ؛ وقد أنشدته هند بنت عتبة

تعرض قومها على القتال في يوم أحد . (المترجم)

وكان شعراء الجاهلية ينشدون أشعارهم على نغمات الموسيقى ، فجمعوا بذلك بين الشعر والموسيقى في صورة واحدة . وكان الناي ، والمزهر ، والدف أحب الآلات الموسيقية إليهم ، وكثيرا ما كانت الفتيات المغنيات يستدعين لتسليّة الأضياف في الولائم ، وكان في مجال الشراب عدد منهم ، وكان عند ملوك الغمامنة عدد كبير من الفتيات ليفرجن عنهن متاعب الملك ، ولما خرج أهل مكة لقتال النبي في عام ٦٢٤ أخذوا معهم سرابا من القيان ليسلّينهم ويشجعهم على القتال ، وكانت الأغاني العربية حتى في أيام الجاهلية أناشيد مشجبة حزينة ، لا تستخدم فيها إلا ألفاظ قليلة نغمتها على الدوام في الدرجات العليا من السلم الموسيقي ، وتكفي فيها أبيات قليلة لتشغل المعنى ساعة كاملة :

وكان للعربي ساكن الصحراء دينه الدال على حذقه ودهائه رغم بدائيته ، فكان يهاب ويعبد أربابا لا حصر لها في النجوم ، والقمر ، وفي أطباق الأرض ، وكان من حين إلى حين يطلب الرحمة من السماء المنتقمة ، ولكنه لم يكن في الغالب يستبين سبيل الرشاد بين الجحش المحيطين به ، ولا يرى أملا في استرضائهم ، فغلبت عليه من أجل ذلك نزعة الجبرية والاستسلام ، فإذا دعاهم دعاهم في رجولة ولم يطل الدعاء ، ويستهزئ بالأبدية ولا يعبا بها ، ويبدو أنه لم يكن يفكر كثيرا في الحياة بعد الموت ، على أنه كان في بعض الأحيان يطلب أن يربط جملة بجوار قبره ، وأن يمنع عنه الطعام حتى يلحق به بعد قليل في الدار الآخرة ، وينجيه من مذلة السير على قدميه في الجنة ، وكان بين الفينة والفينة يقدم لآلهته الضحايا البشرية ، كما كان في بعض الأماكن يعبد الأصنام الحجرية .

وكانت مكة مركز عبادة الأصنام ، ولم يكن سبب قيام هذه المدينة المقدسة في موضعها الذي قامت فيه هو جودة مناخها ، ذلك أن الجبال الجرداء التي تكاد تطبق عليها من جميع الجهات تجعل صيفها حارا لا يطاق . وكان الوادي الذي تقوم

فيه غير ذى زرع ، ولا يكاد يوجد في البلدة كلها كما عرفها محمد حديقة واحدة ، ولكن موقعها في منتصف ساحل البلاد الغربي ، وعلى بعد ثمانية وأربعين ميلا من البحر الأحمر ، جعلها محطة صالحة في طرق القوافل الطوال التي تجمع في بعض الأحيان ألف حمل بعضها وراء بعض ، والتي كانت تحمل المتاجر بين جنوبي بلاد العرب (ومن ثم بين الهند وأفريقية الوسطى) وبين مصر ، وفلسطين ، وبلاد الشام . وكان التجار أصحاب هذه التجارة يؤلفون فيما بينهم شركات محاصة ، ويسيطرون على أسواق عكاظ ، ويقومون بالشعائر الدينية الحجزية حول الكعبة وحجرتها الأسود المقدس .

ومعنى الكعبة البيت المربع . واللفظ ذو صلة باللفظ الإنجليزي Cube (مكعب) (*) ومن المعتقدات الشائعة أن الكعبة بنيت ثم أعيد بناؤها عشر مرات ، فقد بناها في فجر التاريخ ملائكة السماء ، وبناها في المرة الثانية آدم أبو البشر ، وفي المرة الثالثة ابنه شيث ، ثم بناها في المرة الرابعة إبراهيم وإسماعيل ابنه من هاجر وبناها في المرة السابعة قصي زعيم قبيلة قريش ، وبناها في المرة الثامنة كبار قريش في حياة محمد (٦٠٥) ، وبناها المرتين التاسعة والعاشرة زعماء المسلمين عامي ٦٨١ و ٦٩٦ . والكعبة كما بنيت في المرة العاشرة هي كعبة هذه الأيام في معظم أجزائها . وهي مقامة في داخل بناء واسع هو المسجد الحرام . وهي بناء مربع من الحجر طولها أربعون قدما ، وعرضها خمس وثلاثون ، وارتفاعها خمسون ، وفي ركنها الجنوبي الشرقي ، وعلى بعد خمس أقدام من سطح الأرض ، الحجر الأسود ، وهو حجر قائم اللون بيضى الشكل قطره سبع بوصات . ويعتقد الكثيرون أن هذا الحجر قد نزل من السماء - ولعله كان صاعقة ؛ ويقول معظمهم

(*) في المحيط الكعبة البيت الحرام زاده الله تشریفاً وكل بيت مربع . (المترجم)

إنه وجد بالكعبة من أيام إبراهيم ، ويرى علماء المسلمين أنه رمز لذلك الفرع من أبناء إبراهيم فرع إسماعيل وأبنائه الذى نبذه بنو إسرائيل فكان منه آباء قبيلة قريش : ويؤيدون قولهم هذا بما جاء فى المزمور الثامن عشر بعد المائة فى الآيتين ٢٢ و ٢٣ « الحجر الذى رفضه البنائون قد صار رأس الزاوية » ، وفى الآيتين ٤٢ و ٤٣ من الإصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى ، وهو قول عيسى بعد أن نطق بهذه العبارة العجيبة : « لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره » وإن لم يكن فى وسع المسلمين أن يقولوا إنهم قد حققوا ما قاله عنهم المسيح (*).

وكان فى الكعبة قبل الإسلام عدد من الأصنام تمثل معبودات العرب . منها اللات ، والعزى ، ومناة . وفى وسعنا أن نذكر قدم عهد هذه الآلهة العربية إذا عرفنا أن هيرودوت قد ذكر الإلات (اللات) على أنها من أكبر أرباب العرب . وكانوا يقولون لأهل مكة إن إلههم الأكبر رب أرضهم ، وإن عليهم أن يؤدوا لها عشر محاصيلهم ، والثمرة الأولى من نتاج قطعهم . وكانت قريش ، وهى التى تعزو نسبها إلى إبراهيم وإسماعيل ، تختار من بين رجالها سدنة الكعبة وخدامها والمشرفين على مواردها المالية : وكانت أقلية أرستقراطية منهم هم بنو قصي يتولون زمام الحكومة المدنية فى مكة .

وكانت قريش فى بداية القرن السادس منقسمة إلى فئتين متنافستين ، إحداهما يتزعمها التاجر الثرى الحبير هاشم ، والأخرى يتزعمها ابن أخيه أمية .

(*) إن كان المؤلف يقصد ما جاء به المسيح من التسامح والرحمة فإن التاريخ لا يعرف كالمسلمين فى تراجمهم ودعوتهم للسلام والمحبة . والقرآن ووصايا الرسول والخلفاء أكبر شاهد على هذا ، ولكن التسامح والرحمة والدعوة إلى السلام والمحبة فى الدين الإسلامى مزوجة كلها بالقوة وعزة النفس . (المترجم)

وكان لهذا التنافس الشديد شأنه العظيم في تاريخ العرب بعد الرسالة : ولما توفي هاشم خلفه في زعامة بيته ابنه أو أخوه الأصغر عبد المطلب - وفي عام ٥٦٨ تزوج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة ، وهي أيضاً من قصي ، وأقام عبد الله مع عروسه أياماً قليلة سافر بعدها في بعثة تجارية ، ومات في المدينة وهو راجع من سفره وبعد شهرين من وفاته (٥٦٩) ولدت آمنة أعظم شخصية في تاريخ العصور الوسطى (*).

الفصل الثاني

محمد في مكة

٥٦٩ - ٦٢٢

[نكرر هنا ما ذكرناه في مقدمة هذا الجزء من أننا آثرنا أن نثبت هذه الفصول التي يتحدث فيها المؤلف عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن القرآن والدين الإسلامى كما أوردها حرصاً منا على الأمانة في الترجمة من جهة ولكي يطلع قراء العربية على بعض آراء الكتاب غير المسلمين من جهة أخرى سواء كانت هذه الآراء مما يتفق مع ما أجمع عليه أولئك القراء أولاً يتفق معه . يضاف إلى ذلك أن هذه الفصول لا تخلو من كثير من الثناء على النبي وتمجيد للإسلام يصحح أن يطلع عليه القراء . على أن إثباتنا لأقوال المؤلف لا يعنى مطلقاً أننا نوافقها عليها . وقد ذكر وهو مسيحي في كلامه على المسيحية ما لا يوافق عليه كثيرون من أبنائها كما ذكر عن اليهودية ما لا يوافق عليه كثيرون من اليهود ، ويجب ألا ينقل القراء التعليقات التي أثبتناها في هوامش هذه الفصول] .

لقد كان محمد من أسرة كريمة ممتازة ، ولكنه لم يرث منها إلا ثروة متواضعة ، فقد ترك له عبد الله خمسة من الإبل ، وقطيعاً من المعز ، وبيتاً ، وأمة عنيت بتربيته في طفولته . ولفظ محمد مشتق من الحمد وهو مبالغة فيه ، كأنه حمد مرة بعد مرة ، ويمكن أن تنطبق عليه بعض فقرات في التوراة تبشر به . وقد توفيت أمه وهو في السادسة من عمره وكفله أولاً جده وكان وقتئذ في السادسة والسبعين من عمره ثم عمه أبو طالب ولقي منهما كثيراً من الحب والرعاية ، ولكن يبدو أن أحداً لم يعن بتعليمه القراءة والكتابة . ولم تكن لهذه المنزلة قيمة عند العرب في ذلك الوقت ، ولهذا لم يكن في قبيلة قريش كلها إلا سبعة عشر يقرعون ويكتبون . ولم يعرف عن محمد أنه كتب شيئاً بنفسه ، وكان بعد الرسالة يستخدم كاتباً خاصاً له ولكن هذا لم يحل بينه وبين الهجاء بأشهر(*) وأبلغ كتاب

(*) هذا رأى المؤلف بطبيعة الحال وليس من حقنا أن نطلب إليه أن يقول إنه منزل من عند الله . (المترجم)

في اللغة العربية ، أو بين قدرته على تعرف شئون الناس تعرفا قلما يصل إليه أرق الناس تعليماً .

ولانكاد نعرف عن شباب محمد إلا القليل ، وكان ما يروى عنه من القصص قد ملأ عشرة آلاف مجلد . وتقول إحدى الروايات إن عمه أبا طالب قد أخذه معه وهو في الثانية عشرة من عمره في قافلة إلى بصرى ببلاد الشام ، وليس ببعيد أن يكون قد عرف في هذه الرحلة قليلا من القصص الشعبية اليهودية والمسيحية . وتصوره قصة أخرى بعد بضعة سنين من الرحلة السابقة مسافراً إلى بصرى في تجارة إلى السيدة خديجة وكانت وقتئذ أرملة غنية ، ثم نراه في الخامسة والعشرين من عمره وقد تزوج فجأة بهذه السيدة وهي وقتئذ في الأربعين من عمرها وأم لعدة أبناء . ولم يتزوج غيرها حتى توفيت بعد ذلك بستة وعشرين عاماً ، ولم يكن الاقتصار على زوجة واحدة أمراً مألوفاً عند أغنياء العرب في ذلك الوقت ، ولكن لعله كان طبيعياً في حالتها . وقد رزق منها عدة بنات أشهرهن كلهن فاطمة ، كما رزق بولدين توفيا في طفولتهما . وقد وجد سلواه في تبنى (*) علي بن أبي طالب الذي مات عنه والده . وكانت خديجة سيدة طيبة ، وزوجة صالحة ، وتاجرة بارعة ظلت وفية لمحمد في صروف حياته الروحية ، وظل يذكرها بعد وفاتها على أنها خير نساءه كلهن .

ويصف علي زوج فاطمة محمداً وهو في سن الخامسة والأربعين بقوله :

لم يكن الطويل الممغط ولا القصير المتردد ، وكان ربعة من القوم ، ولم يكن بالجدد القلط ولا السبط ، كان جعداً رجلاً ، ولم يكن بالمطهم ولا المكثم ، وكان أبيض مشرباً أدعج العينين أهدب الأشفار ، جليل المشاش والكتد ، دقيق

(*) لم يكن هذا تبنيًا بالمعنى المعروف عند الغربيين ولكن الرسول آوى علياً وكفله في تربيته تخفيفاً عن أبيه في الأزمة الشديدة التي أصابت قريشا - راجع سيرة ابن هشام .
(المترجم)

المشربة ، أجود شثن الكفين والقدمين ، إذا مشى تعلق كأنما يمشى في صلب ، وإذا التفت التفت معا ، أجود الناس كفاً وأجراً الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من آره بديهته هابه ، ومن خالطه أحبه ، يقول ناعته « لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم » .

وكان محمد مهيب الطلعة ، لا يضحك إلا قليلاً ، قادراً على الفكاهة ولكنه لا يترك العنان لهذه الموهبة ، لأنه كان يعرف خطورة المزاح إذا نطق به من يتولى أمور الناس . ولم يكن قوى البنية ، ولهذا كان مرهف الحس سريع التأثر ، ميالاً إلى الانقباض كثير التفكير . كان إذا غضب أو تهبج انتفخت عروق وجهه بدرجة يرتاع لها من حوله(*) ، ولكنه كان يعرف متى يهدئ من انفعاله ، وكان في وسعه أن يعفو من فوره عن عدوه الأعزل إذا تاب :

وكان في بلاد العرب كثيرون من المسيحيين ، وكان منهم عدد قليل في مكة ، وكان محمد على صلة وثيقة بواحد منهم على الأقل هو ورقة بن نوفل ابن عم خديجة الذي كان مطلعاً على كتب اليهود والمسيحيين المقدسة . وكثيراً ما كان محمد يزور المدينة التي مات فيها والده ، ولعله قد التقى هناك ببعض اليهود وكانوا كثيرين فيها . وتدل كثير من آيات القرآن على إعجابه بأخلاق المسيحيين ، وبما في دين اليهود من نزعة إلى التوحيد ، وبما عاد على المسيحية واليهودية من قوة كبيرة لأن لكلتاهما كتاباً مقدساً تعتقد أنه موحى من عند الله . ولعله قد بدا له أن ما يسود جزيرة العرب من شرك ، ومن عبادة للأوثان ، ومن فساد خلقي ، ومن حروب بين القبائل وتفكك سياسي ، نقول لعله قد بدا له أن حال بلاد العرب إذا قورنت

(*) كان النبي يغضب أحياناً لله ولدينه ، ولكننا لا نعرف أنه كان يهيج لأن التهبج صفة لا تليق بمصلح فضلاً عن رسول الله رب العالمين وخاصة والله يصفه بأنه بالمرئيين معروف رحيم ويقول عنه « وإنك لملئ خلق عظيم » و « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفسرت من حواك » . (ي)

بما تأمر به المسيحية واليهودية حال بدائية لا تشرف ساكنيها . ولهذا أحس بالحاجة إلى دين جديد ، لعله أحس بالحاجة إلى دين يؤلف بين هذه الجماعات المتباغضة المتعادية ، ويخلق منها أمة قوية سليمة ، دين يسمو بأخلاقهم عما ألفه البدو من شريعة العنف والانتقام ، ولكنه قائم على أوامر منزلة لا يتنازع فيها إنسان ، ولعل هذه الأفكار نفسها قد طافت بعقل غيره من الناس ، فنحن نسمع عن قيام عدد من « المتنبئين » في بلاد العرب في بداية القرن السابع ، ولقد تأثر كثير من العرب بعقيدة المسيح المنتظر التي يؤمن بها اليهود ، وكان هؤلاء أيضاً ينتظرون بفارغ الصبر مجيء رسول من عند الله .

وكانت في البلاد شيعية من العرب تدعى بالحنفية أبت أن تقر بالألوهية لأصنام الكعبة وقامت تنادى بإله واحد يجب أن يكون البشر جميعاً عبيداً له وأن يعبدوه راضين (**).

وكان محمد ، كما كان كل داع ناجح في دعوته ، الناطق بلسان أهل زمانه والمعبر عن حاجاتهم وآمالهم .

وكان كلما قرب من سن الأربعين ازداد انهماكا في شئون الدين ، فإذا حل شهر رمضان (***) - وهو من الأشهر الحرم - آوى وحده أوجع أسرته في بعض الأحيان إلى غار في جبل حراء على بعد ثلاثة أميال من مكة ، وقضى فيه عدة أيام وليالي في الصوم ، والتفكير ، والصلاة . وبينما هو في ذلك الكهف بمفرده في ليلة من ليالي عام ٦١٠ م : إذ حدث له ذلك الحادث العظيم وهو المحور الذي يدور

(*) يريد بهم ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جعش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد ابن عمر بن نفيل ، وكانوا قد أيقنوا أن ما هم عليه من الوثنية ليس بشيء فتفرقوا في البلاد يلتمسون الحنفية دين إبراهيم عليه السلام . (ى)

(**) التي في سيرة ابن هشام (ج ١ ص ١٥٣) أنه كان « يجاور في حراء من كل سنة شهراً » دون تعيين أنه شهر رمضان بالذات ، إلا أن هذا الشهر كان رمضان في السنة التي بعث فيها صل الله عليه وسلم . (ى)

عليه تاريخ الإسلام كله . ويقول محمد بن إسحق اشهر من كتب سيرة النبي لأنه هو نفسه قد وصف هذا الحادث الجليل بقوله « فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ . قلت : ما اقرأ ؟ ففتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما اقرأ ؟ ففتنى حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قال فقلت : ماذا اقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي .، فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي فكأنما كتب في قلبي كتابا ؛ قال فخرجت حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : « يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فرفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال فوقفتم أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء قال فلا أنظر من ناحية منها إلا رأيت كذا ، فما زلت واقفاً ما أتقدم أماي وما أرجع ورأيت حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي (*) .

ولما عاد إلى خديجة حدثها بما رأى ، وتقول الرواية إنها آمنت بأن ما رآه وحى صادق من السماء ، وشجعتة على أن يعلن للناس رسالته .

وتكرر الوحي بعد ذلك مرات كثيرة ، وكثيراً ما كان يحدث في أثناء هذه الرؤى أن يسقط على الأرض ويرتجف أو يغشى عليه ، ويتصبب العرق من جبينه ، وحتى الحمل الذي كان يركبه كان يتأثر ويضطرب في مشيه . وقد قال محمد فيما بعد إن مشييه كان من أثر هذه التجارب ، ولما طلب إليه أن يصف كيفية نزول الوحي قال : إن القرآن كله محفوظ في السماء وأنه نزل عليه متقطعاً ، وكان ينزل عليه

(*) راجع ابن هشام (ج ١ ص ١٥٣ وما بعدها) حيث يروى الحادث كله .

(المترجم)

على لسان جبريل ، ولما سئل كيف يتذكر هذه الأتوال القدسية قال : إن جبريل كان يطلب إليه أن يكررها كلمة كلمة(*) . ولم يكن المحيطون بالنبي في هذه الأوقات يرون جبريل أو يسمعونه . وقد يكون ارتجافه ناشئاً من نوبات صرع فقد كان يصحبه في بعض الأحيان صوت وصفه بأنه يشبه صلصلة الجرس ، وتلك حال كثيراً ما تحدث مع هذه النوبات ، ولكننا لا نسمع أنه عنس في خلالها لسانه أو حدث ارتجاء في عضلاته كما يحدث عادة في نوبات الصرع . وليس في تاريخ محمد ما يدل على انحطاط قوة العقل التي يؤدي إليها الصرع عادة ، بل نراه على العكس يزداد ذهنه صفاء ويزداد قدرة على التفكير وثقة بالنفس وقوة في الجسم والروح والزعامة ، كلما تقدمت به السن حتى بلغ الستين من العمر . وقصارى القول أنا لا نجد دليلاً قاطعاً على أن ما كان يحدث للنبي كان من قبيل الصرع . ومهما يكن ذلك الدليل فإنه لا يقنع أى مسلم متمسك بدينه(**) .

وأخذ محمد في خلال السنوات الأربع التالية يجهر شيئاً فشيئاً بأنه نبي الله

(*) في صحيح البخارى ومسلم ذكر لبدء الوحي إلى الرسول وبيان لكيفيته ، ويروى ابن عباس أن الرسول كان يعالج من التنزيل شدة ، وكان يحرك شفثيه ليتابع جبريل فأنزل الله تعالى قوله « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه » ، فكان الرسول بعد ذلك إذا أتاه جبريل بالوحي استمع له فإذا انتهى جبريل قرأه صلى الله عليه وسلم كما قرأه جبريل .

راجع التحديد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح للزيدي ، طبع دار الكتب العربية الكبرى بمصر سنة ١٣٣٥ هـ ، ج ١ ص ٤ - ٦ ، واللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان لمحمد فؤاد عبد الباقي طبع دار إحياء الكتب العربية للجلسي بمصر سنة ١٩٤٩ م ، ج ١ ص ٣٥ - ٣٨ .

(**) لقد أصاب المؤلف إذ فند قول من يدعون أن النبي كان يصاب بنوبة من نوبات الصرع حين ينزل عليه الوحي ، وإنما الأمر أنه كان يكون في حالة إجهاد عقل وجسمي ، والله تعالى يقول في سورة الحشر « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله . (٥) »

المبعوث لهداية العزب إلى حياة أخلاقية جديدة وإلى دين التوحيد . وقد لاقى في سبيل دعوته صعاباً كثيرة . ذلك أن الأفكار الجديدة لا يقبلها الناس إلا إذا كانوا يرجون من ورائها نفعاً مادياً عاجلاً ، وأن محمداً كان يعيش في مجتمع تجارى متشكك يحصل على جزء من إيراده من الحجاج الذين يقدون على الكعبة لعبادة آلهتها الكثيرة ، وكان مما تغلب به على بعض هذه الصعاب ما وُعد به المؤمنون من النجاة في الدار الآخرة من نار جهنم والاستمتاع بنعيم الجنة . وكان محمد يستقبل في داره كل من أراد الاستماع إليه ، غنياً كان أو فقيراً أو عبداً رقيقاً ، من العرب والمسيحيين واليهود ، وقد تأثر بحماسة وبلاغة قوله عدد قليل ممن جاءوا إليه وآمنوا به ، وكان أول من آمن برسائلته زوجته المسنة السيدة خديجة وآمن بها من بعدها ابن عمه علي ، ثم خادمه زيد وكان قد اشتراه بالمال ثم أعتقه من فوره ، ثم قريبه أبو بكر وهو رجل من ذوى المكانة العالية في قريش . واعتنق الدين الجديد بتأثير أبي بكر خمسة من زعماء مكة (*) ، كونوا معه « صحابة » محمد الستة : وهم الذين أخذت عنهم فيما بعد السنن الإسلامية ذات المكانة السامية في الدين الإسلامي . وكثيراً ما كان محمد يدخل الكعبة ، ويتحدث إلى الحجاج ، ويدعوهم لعبادة إله واحد (*) . وسخرت قريش أول الأمر من دعوته ولكنها صبرت عليها ، وقالت إن بعقله خبالاً وعرضت أن ترسله على نفقتها إلى طييب يرجي أن يشفيه من جنونه ، فلما أن أخذ يهاجم دينهم ويقول إن الشعائر التي يقومون بها في الكعبة ليست إلا عبادة لما فيها من الأوثان هبوا للدفاع عن

(*) هؤلاء هم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله (سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٦٥) . أما أصحاب الرسول الذين أخذت عنهم سنته فليسوا هؤلاء الخمسة مع أبي بكر فقط بل هم كثرة كما هو معروف . (٥)

(*) كان الرسول يتعرض للوافدين إلى مكة للحج من قبائل العرب يدعوهم إلى الإسلام . (٥)

مورد رزقهم (*) ، وكادوا يوقعون به أذى جسيماً لولا أن حماه منهم عمه أبو طالب . ولم يعتنق أبو طالب الدين الجديد ، ولكن إخلاصه لتقاليد العرب القديمة كانت تحم عليه أن يحمى كل فرد من أفراد قبيلته .

وكان خوف قريش من إثارة الفتنة الصماء بين العرب مانعاً لها من استخدام العنف مع محمد والأحرار من أتباعه ، أما من آمنوا به من العبيد فقد كان في وسعهم أن يستخدموا من الأساليب ما يرونه كفيلاً بردهم عن الدين الجديد دون أن يخالفوا بذلك قوانين القبائل وتقاليدها .

فزجوا بعضهم في السجون وعرضوا البعض الآخر ساعات طوالاً إلى وهج الشمس وهم عراة الرءوس . ومنعوا عنهم الماء (***) وكان أبو بكر قد ادخر من تجارته خلال عدة سنين أربعين ألف قطعة من الفضة ، فلما رأى ما كان يحدث لأولئك العبيد أنفق ٣٥٠٠٠ منها في تحرير أكبر عدد من العبيد المسلمين ، ويسر محمد الأمر بقوله إن المرتد المكره لآعقاب عليه (+) . وغضبت قريش من ترحيب محمد بالعبيد أكثر من غضبها من عقيدته الدينية . وظلت تضطهد من دخل في الإسلام من الفقراء اضطهاداً بلغ من القسوة خدماً لم يسمع النبي معه إلا أن يأذن لهم أو يشير عليهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة ، حيث رحب بهم ملكها المسيحي وأكرم وفادتهم (٦١٥) .

وحدثت بعد عام من ذلك الوقت حادثة كان لها من الشأن في تاريخ

(*) كانوا يدفعون عن مورد رزقهم وعن دينهم . وقد قال من ذهب منهم إلى عمه أبي طالب : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا فيما أن تكفه عنا أو أن تخل بيننا وبينه « سيرة بن هشام جزء : ١٧٠ . (٥) »

(**) يقول ابن إسحق في سيرته « وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبون بالضرب والجوع والمطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر من استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم (ج ١ ص ٢٠٢)

(+) عملاً بقوله تعالى في سورة النحل الآية ١٠٦ « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » .

الإسلام ما كان لإيمان بولس في تاريخ المسيحية . تلك هي اعتناق عمر بن الخطاب للدين الجديد بعد أن كان من ألد أعدائه وأشدّهم عنفاً في مناهضته . وكان عمر رجلاً قوى الجسم ، ذا مكانة اجتماعية عالية ، وشجاعة أدبية تكاد تكون منقطعة النظر . وبعث إسلامه الثقة في قلوب المؤمنين المضطهدين ، وهي ثقة ما كان أحوجهم إليها في ذلك الوقت كما كان سبباً في دخول كثيرين من العرب في الدين الجديد . وبدأ المسلمون من ذلك الوقت يدعون الناس جهرة في الشوارع والطرقات بعد أن كانوا من قبل لا يعبدون الله إلا سرّاً في بيوتهم . واجتمع المدافعون عن آلهة الكعبة وأقسموا أن يقطعوا كل صلة بينهم وبين من لا يزالون من بنى هاشم يرون واجباً عليهم أن يدافعوا عن محمد . ورأى كثيرون من الهاشميين ومن بينهم محمد وأسرته حقناً للدماء أن ينسحبوا إلى شعب منعزل في مكة يستطيع أبو طالب أن يدفع عنهم الأذى فيه (٦١٥) . وظلت هذه الفرقة بين العشائر قائمة سنتين كاملتين عاد بعدها بعض رجال قريش إلى صوابهم فدعوا الهاشميين أن يعودوا إلى بيوتهم وتعهدوا ألا يمسه بسوء .

وابتهجت لهذا القلة المسلمة في مكة ، واكن ثلاثة خطوب ألت بمحمد في عام ٦١٩ ، فقد توفيت في ذلك العام السيدة خديجة أوفى الناس له وأكثرهم تأييداً لدعوته ، وتوفى أبو طالب الذي كان ينصره ويدافع عنه . وأحسن محمد أنه لا يأمن على نفسه في مكة ، وآله بطء انتشار الدعوة فيها ، فهاجر إلى الطائف (٦٢٠) ، وهي بلدة ظريفة بعيدة عن مكة بنحو ستين ميلاً إلى جهة الشرق . ولكن الطائف لم تقبله ، لأن زعماءها لم يروا من مصلحتهم أن يغضبوا أشراف مكة التجار ، ولأن العامة فرغوا من الدين الجديد فأخذوا يهزءون بمحمد في الشوارع ، ويقذفونه بالحجارة ، حتى سال الدم من ساقه ، فعاد إلى مكة ، وتزوج أرملة تدعى سودة(*) ، ثم خطب وهو في سن الخمسين عائشة بنت أبي بكر وكانت

(٤ - ج ٢ - مجلد ٤)

(*) هي سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس

وقتل فتاة حسناء في السابعة من العمر(*) :

ولم ينقطع عنه الوحى في هذه الأثناء ، وخيل إليه في ذات ليلة أنه انتقل من نومه إلى بيت المقدس ، حيث رأى في انتظاره عند المبكى من أنقاض هيكل البُرّاق ، وهو جواد مجنح فطار به إلى السماء ، ثم عاد به منها ، ثم وجد النبي نفسه بمعجزة أخرى آمنة في فراشه بمكة . وبفضل هذا الإسراء أصبحت بيت المقدس ثالثة المدن المقدسة عند المسلمين (***) :

وفي عام ٦٢٠ أخذ محمد بيث الدعوة بين التجار الذين وفدوا على مكة ليحجوا إلى الكعبة ، وقبل بعض التجار دعوته ، لأن عقائد التوحيد ، والرسول المبعوث من عند الله ، ويوم الحساب كانت مألوفة عندهم ، انتقلت إليهم من يهود المدينة . ولما عاد هؤلاء التجار إلى بلادهم أخذ بعضهم يدعون أصدقاءهم إلى الدين الجديد ، ورغب بعض اليهود بهذه الدعوة لأنهم لم يروا فارقاً كبيراً بين تعاليم محمد وتعاليمهم . وفي عام ٦٢٢ أقبل على محمد في مكة سرا ثلاثة وسبعون رجلاً من أهل المدينة ودعوه إلى الهجرة إلى بلادهم واتخاذها موطناً له . فسألهم هل يدافعون عنه كما يدافعون عن أبنائهم ، فأقسموا أن يفعلوا ، ولكنهم سألوهم عما يجوزون به إذا قتلوا في أثناء دفاعهم عنه ، فأجابهم بأن جزاءهم هو الجنة :

وفي ذلك الوقت أصبح أبو سفيان حفيد أمية زعيم قريش في مكة ، وكان قد نشأ في جو من الكراهية لنبى هاشم ، فعاد إلى اضطهاد أتباع محمد ، ولعله

(*) تزوج الرسول عائشة رضى الله عنها بمكة وهي بنت سبع سنين وبنى بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين أو عشر ، وفي البخارى أنه تزوجها وهي بنت ست ثم بنى بها وهي بنت تسع . (ى)

(**) عن المسلمون بمسألة الإسراء والميراج ففهم من يقول إن الإسراء كان بجسده وروحه ومهم من يقول إن ذلك كان رؤيا حق ومن هؤلاء عائشة أم المؤمنين . ومعارية بن أبي سفيان . راجع سيرة ابن هشام . (ى)

قد سمع أن النبي يعتزم الهجرة من مكة ، وخشى أنه إذا استقر له الأمر في المدينة قد يشن الحرب على مكة وعلى آله الكعبة - وعهدت قريش بتحريضه إلى بعض رجالها أن يقبضوا على محمد ، ولعلها عهدت إليهم أن يقتلوه ، وعلم محمد بالخبر ففر هو وأبو بكر إلى غار ثور على بعد فرسخ من مكة ، وظل رسل قريش يبحثون عنهما ثلاثة أيام ولكنهم عجزوا عن العثور عليهما . وجاء أبناء أبي بكر لهما يحملين (*) فركبهما في أثناء الليل واتجها بهما شمالا ، وبعد أن ظلا سائرين عدة أيام قطعا فيها نحو مائتي ميل وصلا أخيراً إلى المدينة في ٢٤ سبتمبر من عام ٦٢٢ : وكان قد سبقهم إليها مائتان من المسلمين بدعوى أنهم حجاج عائدون من مكة ، ووقفوا عند أبواب المدينة ومعهم من أسلم من أهلها ليستقبلوا النبي ، وبعد سبعة عشر عاماً من ذلك الوقت اتخذ الخليفة عمر اليوم الأول من السنة العربية التي حدثت فيها تلك الهجرة ، وكان هو في ذلك العام يوم ١٦ يولية من سنة ٦٢٢ ، البداية الرسمية للتاريخ الإسلامي :

(*) في حديث الهجرة لا نرى ذكراً صريحاً لأبناء أبي بكر يقدمون للرسول وصاحبه راحلتي ليركباها في هجرتهما ، وإنما نرى أبا بكر نفسه يشتري راحلتي ويدهما لذلك اليوم ، ثم نرى أسماء بنت أبي بكر تقدم لهما طعاماً في جراب تربطه بقطعة من نطقتها ، ولذلك سميت بذات النطاقين ، ونرى عبد الله بن أبي بكر في قريش بالنهار يسمع ما يقولون في شأن الرسول وصاحبه ثم يأتيهما في المساء ليخبرهما الخبر . (ي)

الفصل الثالث

محمد في المدينة

٦٢٢ - ٦٣٠

تقع يثرب ، التي سميت فيما بعد « مدينة النبي » على الحافة الغربية من الهضبة العربية الوسطى . وكانت إذا قورنت من حيث جوها بمكة بدت كأنها جنة عدن ، وكان بها مئات من الحدائق وغياض النخل ، والضياع . ولما دخل محمد المدينة تقدمت إليه طائفة في أثر طائفة وألحت عليه أن ينزل عندها ويقيم معها ؛ وأمسك بعضها بزمام ناقته تمنعه عن مواصلة السير وأصرت على ذلك إصراراً تمليه عليها تقاليدها العربية ، وكان جوابه غاية في حسن السياسة فكان يقول لهم : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » ، وبهذا لم يترك للغيرة سبيلاً إلى قلوبهم لأن الله وحده هو الذي يسير الناقة ويهديها إلى حيث تقف . وبنى محمد في المكان الذي وقفت فيه ناقته مسجداً وبيتين متجاورين أحدهما لسودة والآخر لعائشة ، وأضاف إليهما مساكن أخرى لزوجاته الأخريات .

وكان حين غادر مكة قد قطع كثيراً من صلوات القرابة ، فلما جاء إلى المدينة اعترم أن يستبدل بصلوات الدم صلوات الأخوة الدينية في الدولة الجديدة ، كما أراد أن يقضى على أسباب الغيرة بين المهاجرين الذين جاءوا من مكة والأنصار الذين أسلموا من أهل المدينة - وكانت بوادر هذه الغيرة قد بدت في ذلك الوقت - فأخى بين كل واحد من إحدى الطائفتين وزميل له من الطائفة الأخرى ، وطلب إلى كلتيهما أن تصلى في المسجد مع أختها . وفي أول احتفال أقيم في المدينة صعد المنبر وقال بصوت عال « الله أكبر » وردد المجتمعون النداء بأعلى صوتهم وسجد لله وهو لا يزال متجهاً بظهره إليهم ، ثم نزل عن المنبر بظهره فلما وصل إلى آخره

سجد لله ثلاث مرات وكان هذا السجود رمزاً للخضوع إلى الله والاستسلام له ومنه سمي الدين الجديد بالإسلام أي « الاستسلام » و « السلم » ، وسمي أتباعه بالمسلمين . ثم التفت إلى الحاضرين وأمرهم أن يحافظوا على هذه الشعائر إلى أبد الدهر ، ولا يزال المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يتبعون هذه السنة في الصلاة سواء كانوا في مسجد ، أو ضاربين في الصحراء ، أو في بلد غريب لا مسجد فيه . وتنتهى (*) الصلاة بخطبة كانت في زمن النبي خيراً عن وحى وتوجيها لأعمال الأسبوع وسياسته . ذلك أن النبي كان ينشئ حكومة مدنية في المدينة ، واضطر بحكم الظروف أن يخصص جزءاً متزايداً من وقته للمشاكل العملية المتصلة بالتنظيم الاجتماعي ، والأخلاق ، والعلاقات السياسية بين القبائل ، ولشئون الحرب ، لأنه لم يكن ثمة حد فاصل بين الشؤون الدينية والدنيوية ، بل اجتمعت هذه الشؤون كلها في يد الزعيم الديني كما كانت الحال عند اليهود .

فكان محمد في المدينة الرسول الديني والحاكم السياسي جميعاً ، ولم ترض أكثرية العرب عن هذا الوضع وأخذت تنظر بعين الريبة إلى الدين الجديد وشعائره ، وترى أن محمداً كاد يقضى على تقاليد العرب وحرثهم ، وأنه كان يزوج بهم في الحروب ، وكان من هؤلاء يهود المدينة الذين ظلوا متمسكين بدينهم ولم ينقطعوا عن الاتجار مع قريش في مكة .

وقد عقد محمد مع أولئك اليهود عهداً ينم عن مهارة سياسية كبيرة ، وقد جاء فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن يتبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، لأنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربقته يتعاقلون بينهم وهم يقيدرون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو ساعدة ، وبنو الحارث ، وبنو جشم ،

(*) الصحيح أن الخطبة تكون قبل الصلاة أيام الجمع وبعدها أيام العيدين ، وفي غير الجمع والعيدين لا خطبة قبل الصلاة ولا بعدها . (ي)

وبنو النجار ، وبنو عمرو بن عوف ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ؛ وإن ذمة الله واحدة ، وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مناصرين عليهم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود وبينهم مواليتهم وأنفسهم ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم (*) :

وسرعان ما قبلت هذا العهد جميع قبائل اليهود في المدينة وما حولها :
قبيلة بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع :

وهاجرت إلى المدينة مائتا أسرة من مكة فنشأت فيها من جراء هذه الهجرة مشكلة الحصول على ما يكفي أهلها من الطعام : وحل محمد هذه المشكلة كما يحلها كل الأقوام الجياع بالحصول على الطعام أتى وجد : ومن ذلك أنه أمر أتباعه بالإغارة على القوافل المارة بالمدينة ، متبعاً في ذلك ما كانت تتبعه معظم القبائل العربية في ذلك الوقت (**): فلما كللت هذه الغارات بالنصر أعطى المغيرين أربعة أخماس الغنائم ، واحتفظ بالخمس الباقي للأعمال الدينية والخيرية ، وكان نصيب من استشهد في هذه الغزوات من حق أرملته ، أما هو فكان جزاؤه الجنة . وكثرت الغزوات ، وتضاعف عدد المشتركين فيها ، وارتاع لها تجار مكة الذين كانت حياتهم الاقتصادية تعتمد على سلامة قوافلهم ، فأخلووا يدبرن أمر الانتقام من محمد والمسلمين : وكان من هذه الغارات واحدة حدثت في آخر يوم من شهر رجب أحد

(*) هذا عهد له أثره الكبير ومظهره العظيم ، ولم يعقده الرسول مع اليهود فحسب بل هو كما يذكر ابن إسحق كتاب كتبه الرسول بين المهاجرين والأنصار وفيه وادع اليهود وعاهدهم وأقرهم على ذمتهم وأموالهم وقد ذكره ابن هشام في سيرته على طوله . (ى)

(**) لقد كانت الإغارة على قوافل قريش المارة بالمدينة عملاً يراد به الدفاع عن الإسلام واسترداد لبعض ما اغتصبه أهل مكة من أموال المسلمين الذين هاجروا منها . (ى)

الأشهر الحرم التي كان العرب يمتنعون فيها عن جميع أعمال القتال ، وقتل فيها رحل ، وأساءت بذلك إلى سمعة أهل مكة والمدينة على السواء ، وإلى تقاليد العرب المرعية منذ القدم . وفي عام ٦٢٣ جمع محمد نفسه ثلثمائة من المسلمين المسلحين ، واعترض طريق قافلة قادمة من الشام إلى مكة ، وعلم أبو سفيان وكان على رأس القافلة بهذه الخطة ، فغير طريقه ، وأرسل إلى مكة من يطلب النجدة ، وبعثت قريش بتسعمائة من رجالها ، والتي الجيشان الصغيران عند وادي بدر على بعد عشرين ميلاً جنوبي المدينة . ولو أن محمداً هزم في هذه الغزوة لفضى عليه وعلى الإسلام في هذه المعركة ، ولكنه قاد رجاله بنفسه وانتصر على قريش ، وقويت بهذا النصر شوكة الإسلام ، وعاد المسلمون إلى المدينة ومعهم كثير من الأسرى والغنائم (يناير عام ٦٢٤) ، وقتل من هؤلاء الأسرى بعض من كانوا أشد الناس اضطهاداً للمسلمين في مكة ، وأطلق سراح الباقين نظير فدية كبيرة ، ونجا أبو سفيان ، وأنذر المسلمين بالانتقام .

ولما عاد إلى مكة أخذ يواسي أسر القتلى ويشجعهم ، ويطلب عدم البكاء عليهم ورتائبهم ويقول إن الحرب سجال وإنهم سيأخذون بثأرهم ، ثم أقسم ألا يقرب زوجه إلا بعد أن يخرج مرة أخرى لقتال محمد .

واشتد ساعد محمد بهذا النصر ، وجرى العرب بعده على الأساليب المألوفة في الحروب . من ذلك أن شاعرة تدعى عصماء هاجمته في شعرها فقتل عمير ، وهو مسلم ضربه إلى بيتها وطعنها وهي نائمة بسيفه في صدرها طعنة بلغ من قوتها أن نفذ السيف من تحتها إلى فراشها . وفي اليوم التالي سأل محمد عميراً هل قتل عصماء فأجابه ، يا رسول الله إني قد قتلتها ، فقال «نصرت الله ورسوله يا عمير» ، فقال عمير : «هل على شيء من شأنها يا رسول الله ؟» فأجابه بقوله إن هذا أمر لا ينتطح فيه عزان . ومنها أن رجلاً ممن اعتنقوا الدين اليهودي يدعى أبا عفاك يناهز من العمر مائة عام هجا النبي فقتله بعضهم وهو نائم في فناء بيته ، وارتد شاعر ثالث

من أهل المدينة يدعى كعب بن الأشرف ، وكانت أمه يهودية ، حين انقلب محمد على اليهود ، وكتب قصائد يحرض فيها قريشاً على أن يثاروا لهزيمتهم ، وأثار غضب المسلمين بتشبيهه بنسائهم ، فقال النبي « من لى بابن الأشرف ؟ » فلم يمض آخر النهار حتى كان رأس الشاعر ملقى أمام قدميه . وكان المسلمون يزورون أن هذه الأعمال وأمثالها إن هي إلا دفاع مشروع عن أنفسهم من الخونة ، فقد كان محمد رئيس دولة ، وكان من حقه أن يصدر فيها الأحكام (*) .

ولم يطل حب اليهود من أهل المدينة لهذا الدين ذى النزعة الحربية ، والذي بدا لهم أول الأمر شديد الشبه بدينهم ، وأخذوا يسخرون من تفسير محمد لكتابهم المقدس ، وقوله إنه هو الذى بشره آبائهم ، وكان جوابه أن قال ، كما أوحى إليه ، إنهم حرفوا كتابهم ، وقتلوا أنبياءهم ، وأبوا أن يصدقوا المسيح . وكان قد اتخذ بيت المقدس قبلة يتجه إليها المسلمون فى الصلاة ، فاستبدل به فى عام ٦٢٤ مكة والكعبة ، واتهمه اليهود بأنه قد عاد إلى عبادة الأوثان (**). وحدث فى هذا الوقت أن زارت فتاة مسامة سوق بنى قينقاع اليهودى فى المدينة ، وبينما هى جالسة

(*) هى عصاه بنت مروان وقتلها عمير بن عنى الخطمى . ولكل حادثة من الحوادث السالفة الذكر ظروف وأسباب تبررها بلا ريب ؛ فهذه عصاه بنت مروان كانت تعيب الإسلام وأهله وتعرض على المسلمين وتؤذيهم أذى شديداً فكان قتلها جزءاً ما جنت حقاً واجباً حتمته الضرورة حتى قيل فى شأنها بعد أن قتلت « من يومئذ عز الإسلام وأهله بالمدينة » . وكعب بن الأشرف لم يكن مسلماً ثم ارتد كما يقول المؤلف ، ولو كان كذلك لكان قتله فرضاً من هذه الناحية ، لأن المرتد يجب قتله إن لم يقب ويرجع عن الكفر ؛ لكنه كان كما أشار المؤلف عنوا لله ولرسوله والمؤمنين ، إذ كان يحرض المشركين على المسلمين ، ويشبب بنسائهم حتى أذاهم أذى شديداً ، وهو مع هذا كان ذا جاه ومسوح الكلمة فى قومه ، فكان لهذا عنواً يخشى عدوانه من وجوه مختلفة ، ولهذا كان قتله أمراً مشروعاً وواجباً دفاعاً عن الدين وأهله ، وهم محاطون بالأعداء من كل جانب ، وخاصة وقد لقي المسلمون أذى كثيراً من غدر اليهود بالمدينة مقر الإسلام حينئذ ، والعدو الداخلى فى مثل هذه الظروف أشد ضرراً من العدو الخارجى كما هو معروف . (ي)

(**) وفى ذلك منزل قوله تعالى « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » سورة البقرة (الآية ١٤٤)

في حانوت ضائع إذ شبك يهودى خبيث قيصها من وراء ظهرها في أعلى ثيابها ، فلما قامت ورائت ما فعل بها بكت مما لحقها من عار فقتل أحد المسلمين اليهودى الأثيم ، وقتل أخوه اليهودى المسلم ، فجمع محمد أتباعه وحاصر يهود بني قينقاع في حبيم خمسة عشر يوماً ، حتى استسلموا ، فقبل استسلامهم وأمرهم أن يخرجوا بقضيمهم وقضيضهم من المدينة ويتركوا وراءهم جميع ممتلكاتهم ، وكان عددهم في ذلك الوقت نحو سبعمائة .

ولا يسعنا إلا أن نعجب بأبي سفيان لأنه استطاع أن يكظم غيظه وينتظر بعد يمينه غير الطبيعية عاماً كاملاً قبل أن يقدم على قتال محمد . وفي أوائل عام ٦٢٥ سار على رأس جيش تبلغ عدته ثلاثة آلاف رجل إلى جبل أحد على بعد ثلاثة أميال شمالى المدينة ، وصحب الجيش خمسة عشر من النساء بينهن زوجات أبي سفيان ليثرن حماسة الجند بأغانين الحزينة . ودعوتهن إياهم إلى الانتقام .

ولم يكن جيش المسلمين يزيد على ألف ، وهزم المسلمون في هذه الغزوة ، وحارب فيها محمد بشجاعة عظيمة ، وأصيب بعدة جروح وحمل من الميدان . وقتل في المعركة حمزة عم النبي ومضغت كبده هند أشهر زوجات أبي سفيان ، وكان أبوها ، وعمها ، وأخوها قد قتلوا جميعاً في غزوة بدر ، وكان حمزة نفسه هو الذى قتل أباه ، ثم لم تكتف بهذا بل صنعت لنفسها من جلده وأظافره خلاخيل وأساور . وظن أبو سفيان أن محمداً قد مات ، وعاد منتظراً إلى مكة (*) . وبعد ستة أشهر من هذه الواقعة شنّ النبي واستطاع أن يهاجم بنى النضير ، لأنهم أعانوا قريشاً على

(*) الذى تذكره كتب السيرة « أن قريشاً خرجوا معهم بالظن (أى نسائهم) التماساً للحفيظة وألا يفروا » (ابن هشام ج ٢ ص ١٢٧) ثم ذكر ابن هشام بعد هذا بعض من خرج من الناس فلم يصل بهن إلى عشر . ومن بينهن زوجة أبي سفيان لزوجاته وهى هند بنت عتبة ، كذلك يقول ابن هشام إن الرسول تهباً للقتال في سبعمائة رجل فقط (ابن هشام ج ٢ ص ١٢٩) : (ي)

المسلمين وكانوا ياتمون به ليقتلوه : وبعد أن حاصروهم ثلاثة أسابيع أذن لهم أن يهاجروا من المدينة على أن تأخذ كل أسرة معها حمل بعير . واستولى النبي على بعض ما كان لهم من بساتين النخيل الغنية ، فكان بعضها له ، ووزع ما بقي منها على المهاجرين(*) . لقد كان محمد يرى أنه في حرب مع أهل مكة ، وأن من حقه أن يؤمن نفسه بإبعاد الجماعات المعادية له عن جناحيه :

وعادت قريش وعاد أبو سفيان إلى مهاجمة المسلمين في عام ٦٢٦ بجيش يبلغ ١٠٠٠٠ رجل يساعدهم يهود بني قريظة مساعدة جديفة . ورأى محمد أنه لا يستطيع مقابلة هذه القوة الكبيرة في الميدان ، ففضل أن يدافع عن المدينة بحفر خندق حولها . وحاصرتها قريش عشرين يوماً ، حتى فت في عضدهم المطر والعواصف ، فعادوا إلى أوطانهم ، وقاد محمد من فوره ثلاثة آلاف من المسلمين وهاجم بهم يهود بني قريظة ، فلما استسلموا خيرهم بين الإسلام والموت .

وكان النبي في ذلك الوقت قد أصبح من مهرة القواد ؛ فقد جهز في العشر السنين التي قضاها في المدينة خمساً وستين غزوة وسرية حربية قاد بنفسه سبعا وعشرين منها ، ولكنه كان إلى هذا سياسياً محنكاً ، يعرف كيف يواصل الحرب بطريق السلم ، وكان يشارك المهاجرين في الحنين إلى بيوتهم وأسرمهم في مكة ، ويشارك المهاجرين والأنصار جميعاً في الحنين إلى زيارة الكعبة ، التي كانت في صباهم عزيزة عليهم وموضع لإجلالهم .

(*) هاجم الرسول بني النضير ولما يمض على يوم أحد أكثر من خمسة أشهر لأن يوم أحد كان في منتصف شوال سنة ثلاث من الهجرة وأمر بني النضير كان في ربيع الأول سنة أربع . وقد أذن لهم النبي أن يأخذوا معهم من أموالهم ما استطاعت الإبل أن تحمله ، إلا السلاح كما يذكر ابن هشام .

وأما تقسيم التوء فقد اتبع فيه النبي قول الله عز وجل : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كمي لا يكون دولة بين الأضياف منكم » . ويقول ابن هشام (٢٠ ص ١٧٨) عن أموال بني النضير إن الرسول قسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا رجلين من هؤلاء ذكرا فقرا فأعطاهما أيضا . (٥)

وفي عام ٦٢٨ أرسل محمد إلى قريش يعرض عليهم الصلح ، ويتعهد لهم
بسلامة قوافلهم إذا رضوا أن يؤدي شعائر الحج في مواسمه . وأجاب زعماء
قريش بأنهم يشترطون لقبول هذا العرض أن يمضى قبله عام كامل من
السلم ، وأدهش محمد أتباعه بقبوله إياه(*) ، ووقع الطرفان شروط هدنة
تدوم عشر سنين ، وحدثت بعدئذ غارة على يهود خيبر في مساكنهم الواقعة
في الشمال الشرقي من المدينة على مسيرة ستة أيام منها ، ودافع اليهود عن
أنفسهم بأحسن ما يستطيعون من دفاع ، وسقط منهم في أثناء ذلك ثلاثة
وتسعون رجلاً ، ثم سلم الياقون آخر الأمر ، وسمح لهم بالبقاء في أماكنهم
يزرعون الأرض ، على شرط أن يسلموا جميع ممتلكاتهم ونصف محصولاتهم
المستقبلية إلى الفاتحين : ولم يمض أحد من الباقين بسوء ما عدا زعيمهم
كنانة وابن عمه فقد قطع رأساهما لأنهما أخفيا بعض ما يمتلكان ، وضمت
صفيية وهي فتاة يهودية في السابعة عشرة من عمرها كانت مخطوبة
لكنانة(**) ، إلى نساء النبي .

(*) وقد عبر عمر بن الخطاب عن هذه الدهشة إذ أن رسول الله فقال له : يا رسول
الله أنت برسول الله ؟ قال لا بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أوليسوا
بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطى الدنيا في ديننا ؟ قال : أنا عبد الله ورسوله لن
أخالف أمره ولن يضيعني . وحقاً لم يضيع الله رسوله فقد أمنت الدعوة الإسلامية وأخذت رسل
الرسول تذهب بها أمانة الملوك رؤساء العشائر ، ثم كان بعد ذلك الفتح المبين بعد قليل من
الزمان . (ى)

(**) كان سبب سير الرسول إلى خيبر أن أهلها كانوا شديدي العداوة للمسلمين يتربصون
بهم الدوائر فكان من الحزم إبعادهم . وكان أمر النبي يقتل كنانة بن الربيع بسبب أنه كان عنده
مال لبنى النضير وجمعه حين مثل عنه ، والمسلمون في أشد الحاجة إلى المال للاستعداد للحرب ،
ثم إن الرسول دفعه إلى محمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة أي أنه قتله قصاصاً
بأخيه ، وهذا سبب آخر يجعل قتله أمراً مشروعاً . راجع ابن هشام ج ٢ ص ٢٤ .

أما مسألة استيلاء المسلمين على نصف محصولات أهل خيبر المستقبلية فترجع إلى أنهم هم
أنفسهم طلبوا إلى الرسول أن يعطيهم الأرض مزارعة على النصف مما تنتجه فصالحهم الرسول
على ذلك لأنهم كما قالوا هم أنفسهم أعلم بها وأمر لها . (ى)

وفي عام ٦٢٩ دخل مسلمو المدينة ، البالغ عددهم ألفين ، مكة مسالين ، وانسحبت قريش إلى التلال لتجنب الاحتكاك بالمسلمين ، وطاف محمد وأتباعه في أثناء ذلك بالكعبة سبع مرات . ومس محمد الحجر الأسود بعصاه مظهراً له دلائل الإجلال ، ولكنه نادى ونادى بعده المسلمون : لا إله إلا الله . وكان لمسلك المسلمين المنفيين وحسن نظامهم ، ووطنيتهم ، وتقواهم أعظم الأثر في نفوس أهل مكة ، فأسلم من قريش عدد من ذوى المكانة من بينهم خالد بن الوليد وعمر اللذين صارا فيما بعد من أعظم قواد المسلمين . وعرضت بعض القبائل المجاورة على النبي أن يؤمنها على دينها نظير مساعدتها إياه في القتال ، ولما عاد إلى المدينة رأى أنه قد أصبح له من القوة ما يمكنه من الاستيلاء على مكة عنوة .

ولم يكن قد مضى من الهدنة إلا عامان ، ولكن إحدى القبائل المتحالفة مع قريش أخلت بشروط الهدنة فهاجمت إحدى القبائل المسلمة (٦٣٠) (*) ، فجمع النبي عشرة آلاف رجل وزحف بهم على مكة ، وأدرك أبو سفيان قوة المسلمين فسمح لهم بأن يدخلوا مكة بلا مقاومة . وكان جواب محمد جواباً كريماً ، فقد أعلن عفواً عاماً عن جميع أهل مكة عدا اثنين أو ثلاثة من أعدائه ، وحطم الأصنام التي كانت في داخل الكعبة وحولها ، ولكنه تبرك الحجر الأسود في مكانه وأجاز تقييله . ونادى بمكة مدينة الإسلام المقدسة ، وأعلن أنه لن يدخلها بعد ذلك اليوم كافر ، وامتنعت قريش بعدئذ عن كل مقاومة مباشرة ، وأصبح الرجل المضطهد الذي هاجر من مكة منذ ثمان سنين صاحب الكلمة العليا في حياتها .

(*) نفقت قريش الهدنة إذ ساعدت [بالسلاح بنى بكر - وكانوا قد دخلوا في عهد قريش - على بني خزاعة الذين دخلوا في عهد الرسول . بل إن نفرا من قريش قاتلوا بأنفسهم خزاعة في صفوف بنى بكر ، وجاء من خزاعة إلى الرسول من يطالبه بالنصر وفاء بالعهد ، فكان لا بد من الاستعداد للمسير إلى مكة لفتحها . (ح)

الفصل الرابع

انتصار النبي

قضى النبي معظم العامين الباقيين من حياته في المدينة ، وكان ينتقل فيها من نصر إلى نصر ، فقد خضعت فيهما بلاد العرب كلها ، بعد فتن قليلة الشأن ، إلى سلطانه ودخلت في دين الإسلام . وجاء إلى المدينة كعب بن زهير ، أعظم شعراء العرب في ذلك الوقت ، وكان قد هجا النبي بعض قصائده ، وأسلم نفسه إليه ، واعتنق الإسلام ، فعفا عنه النبي ، وأنشأ الشاعر قصيدة عصماء في مديح النبي أجازه عليها ببردته(*) ، وعاهد النبي المسيحيين في بلاد العرب ، وأخذ على نفسه أن يحميهم وأن يكونوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم نظير ضريبة هينة ، ولكنه نهاهم عن الربا ، ويقول المؤرخون إنه بعث الوفود إلى ملك الروم ، وملك الفرس وإلى أمير الحيرة وبنى غسان ، يدعوهم إلى الدين الجديد ، ويلوح أن أحداً منهم لم يرد على رسائله(**) ، وكان يشهد بعين المستسلم الفيلسوف الحروب المشتعلة نارها بين فارس وبيزنطية وما جرت على الدولتين من خراب ، ولكن يبدو أنه لم يفكر قط في توسيع سلطانه خارج حدود بلاد العرب(+)

(*) وبعت بمدلداً لمعاوية بأربعين ألف درهم ، ولا يزال الأتراك يحتفظون بها إلى اليوم وتتخذ في بعض الأحيان علماً قومياً . (ى)

(**) من هؤلاء من ردوداً قبيحاً مثل كسرى ، ومنهم من ردوداً جميلاً مثل قيصر ، ومنهم من وعد بالنظر في الأمر مثل «المقوقس» حاكم مصر والمندار صاحب البحرين وجبله ابن الأيهم النسائي . راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٢٠ . (ى)

(+) لعل المؤلف يريد بقوله إن النبي لم يفكر في توسيع حدود الدولة الجديدة خارج حدود بلاد العرب أنه لم يكن يريد ضمها إلى الدولة الناشئة الجديدة وهذا لا ينفي أنه أراد أن يدعو أهلها إلى الدخول في دين الإسلام . (المترجم)

وكانت أعمال الحكومة تشغل وقته كله ، فقد كان يعنى أشد العناية بكل صغيرة وكبيرة في شؤون التشريع والقضاء ، والتنظيم المدني ، والديني ، والحزبي . وحتى التقويم نفسه قد عني بتنظيمه لأتباعه ، فقد كان العرب يقسمون السنة كما يقسمها اليهود إلى اثني عشر شهراً قريبا ، وكانوا يضيفون إليها شهراً كل ثلاث سنوات لكي تتفق مع السنة الشمسية . فأمر النبي أن تكون السنة الإسلامية اثني عشر شهراً على الدوام كل منها ثلاثون يوماً أو تسعة وعشرون على التوالي ، وكانت نتيجة هذا أن أصبحت السنة الإسلامية فيما بعد غير متفقة مع فصول السنة ، وأن تقدم التقويم الإسلامي سنة كاملة عن التقويم الجريجوري كل اثنتين وثلاثين سنة .

ولم يكن النبي مشرعا علميا ، فلم يضع لأمته كتابا في القانون أو موجزا فيه ، ولم يسر في تشريعه على نظام مقرر ، بل كان يصدر الأوامر حسبما تمليه عليه الظروف . فإذا أدى هذا إلى شيء من التناقض أزاله بوحي جديد ينسخ القديم ويجعله كأن لم يكن (*) ، وحتى شؤون الحياة العادية كانت أوامره فيها تعرض في بعض الأحيان كأنها موحى بها من عند الله . وكان اضطراره إلى تكييف هذه الوسيلة السامية بحيث تتفق مع الشؤون الدنيوية مما أفقد أسلوبه بعض ما كان يتصف به من بلاغة وشاعرية ، ولكن لعله كان يشعر بأنه بهذه التوضيحية القليلة جعل كل تشريعاته

(*) من الصحيح أن الرسول لم يضع كتابا في القانون ، ولكن ليس صحيحا أنه لم يسر في تشريعه على نظام مقرر ، فإن القرآن بنصومه وروحه العامة قد حدد أصول التشريع بصفة عامة ، ثم كان الرسول بسنته مبينا لهذا القرآن بالتفسير والإيضاح ، ولهذا يقول الله تعالى في سورة النحل « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » . أما النسخ فسيبه أن التشريعات الواردة في القرآن الكريم لم تنزل من الله دفعة واحدة ، بل كانت رخصة من الله تنزل متدرجة تبعا للحالات ، فيكون من الطبيعي أن يحصل فيها نسخ . على أن هذا كان في حالات قليلة معدومة . (ي) .

تصطبغ بالصبغة الدينية الرهيبة(*) . ومع اضطلاع النبي بهذه الشؤون كلها فقد كان جرم التواضع إلى درجة تحببه إلى النفوس ، وكثيراً ما كان يعترف بأن ثمة أموراً لا يعرفها ، ويحتاج على الدين يظنونه أكثر من إنسان يجرى عليه ما يجرى على الناس جميعاً من موت ووقوع في الخطأ .

ولم يدع في يوم من الأيام أنه قادر على معرفة الغيب أو الإتيان بالمعجزات ، لكنه مع هذا لم يكن يستنكف أن يستعين بالوحي في الأغراض البشرية والشخصية ، كما حدث حين أنزل الوحي مؤيداً زواجه من زوجة زيد متبناه(**) . وتروح النبي بعشر نساء وكانت له اثنتان من السرارى هن مبعث الدهشة والحسد والتعليق والمدح عند الغربيين ، ولكن علينا أن نذكر على الدوام أن نسبة الوفيات العالية من الذكور بين الساميين في العصر القديم . وفي بداية العصور الوسطى جعلت تعدد الزوجات ، في نظر هؤلاء الساميين ، ضرورة حيوية تكاد تكون واجباً أخلاقياً : وكان تعدد الزوجات في نظر النبي أمراً عادياً مسلماً به لا غبار عليه ، ولذلك كان يقبل عليه وهو مرتاح الضمير لا يبغي به إشباع الشهوة الجنسية ، ويروى عن عائشة حديث عن النبي مشكوك في صحته يقول فيه « حجب إلى من

(*) نكرر هنا ما قلناه من قبل من أن المؤلف وأمثاله من غير المسلمين يرون أن القرآن من قول النبي لا من عند الله . أما وهو من عند الله حقاً فإن النبي لم يُفصح بشيء من فاحية القرآن وأسلوبه ، ولكن الأسلوب يختلف بلا شك في مواضع عنه في أخرى تبعاً للغاية التي يريد الله ، وإن كان جميعه في أعلى درجات البلاغة التي لا يمكن أن يتطلع أحد إلى مداناتها . (ى)

(**) إن لتشريع تعدد الزوجات غاية أخرى حكيمة ترجع إلى أن يكون المرء بمنجاة من الاتصال بخليقات غير قليلات بجانب الزوجة الشرعية . ولقد تبين لبعض الغربيين اليوم أن إباحة تعدد الزوجات هو العلاج الوحيد لمشكلة زيادة النساء على الرجال زيادة كبرى بسبب الحروب ، فقد طالب أهل مدينة « بون » عاصمة ألمانيا الغربية أن يتضمن دستورهم تشريعاً يبيح هذا التعدد .

أما الزوجات اللاتي عقد عليهن النبي فكان ثلاث عشرة وقد دخل بإحدى عشرة منهن ولم يدخل باثنتين . وقد عنى رجال السيرة بذلك سبب زواج كل واحدة منهن وبذلك شيء من سيرتهن جميعاً رضوان الله عليهن . راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٦٦ - ٣٦٨ . (ى)

ديناكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وقرّة عيني في الصلاة» (*) ولقد كانت بعض زيجاته من أعمال البر والرحمة بالأرامل الفقيرات اللاتي توفي عنهن أتباعه أو أصدقائه ، وكان بعضها زيجات دبلوماسيّة كزواجه بحفصة بنت عمر الذي أراد به أن يوثق صلته بأبيها ، وكزواجه من ابنة أبي سفيان ليكسب بذلك صداقة عدوه القديم . وربما كان الدافع إلى بعضها أمله في أن يكون له ولد ، وهو أمل حرم منه زمناً طويلاً . وكانت زوجاته كلهن ما عدا خديجة عقيبات ، وكان هذا موضع السخرية بين أعدائه ، ولم يبق من أبنائه الذين زرقهم من خديجة إلا فاطمة . وقد رزق من مارية القبطية التي أهداها إليه نجاشي الحبشة ، بولد اغتبط النبي بمولده أشد الاغتباط ، ولكن إبراهيم مات بعد خمسة عشر شهراً من مولده .

وكثيراً ما ضايقه نساؤه بمنازعتن ، وغيرتهن ، ومطالبهن ، ولكنه أبى أن يجيبهن إلى مطالبهن الكثيرة ، ووعدهن بالجنة ، وقضى بعض الوقت يعدل بينهن فيقضى ليلة عند كل واحدة منهن ، ذلك أن سيد بلاد العرب كلها لم يكن يملك بيتاً خاصاً له ، غير أن عائشة قد استأثرت بأكبر من حقها من عنايته (***) ، فغضبت لذلك زوجاته الأخريات حتى نزلت الآية : « ترجى من تشاء منهن وتوى إليك من تشاء ، ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتينك كلهن والله يعلم ما في قلوبكم ، وكان الله عليا حلماً » . وكانت حياة النبي فيما عدا النساء والسلطان غاية في البساطة ، فقد كانت

(*) تكلم في شأن هذا كثير من رجال الحديث . « راجع كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس » للمحدث إسماعيل بن محمد العجلوني .

(**) لقد كان الرسول يعدل بين زوجاته جميعاً فيما يملك ، أما ميل القلب فشيء لا يملكه ومن المعروف أن النبي صل الله عليه وسلم كان يفضل السيدة عائشة عن سائر نسائه ما عدا السيدة خديجة . (ح)

المساكن التي أقام بها واحداً بعد واحد كلها من اللبن ، لا يزيد اتساعها على اثنتي عشرة أو أربع عشرة قدماً ، ولا يزيد ارتفاعها على ثمان أقدام ، سقفها من جريد النخل ، وأبوابها ستائر من شعر المعز أو وبر الجمال . أما الفراش فلم يكن أكثر من حشية تفرش على الأرض ووسادة ، وكثيراً ما كان يشاهد وهو ينحصف نعليه ، ويرقع ثوبه ، وينفخ النار ، ويكنس أرض الدار ، ويحلب عنزة البيت في فئائه ، ويتنازع الطعام من السوق . وكان يأكل بيده ، ويلتصق أصابعه بعد كل وجبة ، وكان طعامه الأساسي التمر وخبز الشعير ، وكان اللبن وعسل النحل كل ما يستمتع به من الترف في بعض الأحيان .

ولم يتعاط الخمر التي حرمها هو على غيره ، وكان لطيفاً مع العطاء ، بشوشاً في أوجه الضعفاء ، عظيماً مهيباً أمام المتعاضمين المتكبرين ، متسامحاً مع أعوانه ، يشترك في تشييع كل جنازة تمر به ، ولم يتظاهر قط بأبهة السلطان . وكان يرفض أن يوجه إليه شيء من التعظيم الخاص ، يقبل دعوة العبد الرقيق إلى الطعام ، ولا يطلب إلى عبد أن يقوم له بعمل يجذ لديه من الوقت والقوة ما يمكنه من القيام به لنفسه . ولم يكن ينفق على أسرته إلا القليل من المال رغم ما كان يرد إليه من النوى وغيره من الموارد ، أما ما كان ينفقه على نفسه فقد كان أقل من القليل . وكان يخصص الصدقات بالجزء الأكبر من هذا المال ، لكنه كان ككامل الناس يعني بمظهره الشخصي ويقضي في تلك العناية كثيراً من الوقت ، فكان يتعطر ويكتحل ، ويصبغ شعره ، ويلبس خاتماً نقش عليه « محمد رسول الله » ، وربما كان الغرض من هذا الخاتم هو توقيع الوثائق والرسائل . وكان صوته موسيقياً حلواً يأسر القلوب ، وكان يرهف الحس إلى أقصى حد ، لا يطبق الروائح الكريهة ، ولا صلصلة الأجراس ، أو الأصوات العالية « واقصد في مشيك ، واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » . وكان قلقاً عصبي المزاج ، يرى أحياناً كاسف البال ، ثم ينقلب فجأة مرحاً كثير الحديث ؛ وكان حلو الفكاهة فقد (٥ - ج ٢ - مجلد ٤)

قال مرة لأبي هريرة ، وكان يتردد عليه كثيراً : « يا أبا هريرة زرعياً تزدد حباً » . وكان محاربا صارما لا يرحم عدواً (*) ، وقاضيا عادلا في وسعه أن يقسو ويفلر ، ولكن أعماله الرحيمة أكثر من أن تعد . وقد قضى على كثير من الخرافات الهمجية كفقء أعين بعض الحيوانات لوقايتها من الحسد ، أو ربط بعير الميت عند قبره . وكان أصداقاوة يجونه حبا يقرب من العبادة ، وكان أتباعه يجمعون بصاقه أو شعره يعد قصه ، أو الماء الذي يغسل به يديه ، لاعتقادهم أن في هذه الفضلات شفاء لهم من ضعفهم أو مرضهم : وقد أعانه نشاطه وصحته على أداء جميع واجبات الحب والحرب (***) ، ولكنه أخذ يضعف حين بلغ التاسعة والخمسين من عمره ، وظن أن يهود خيبر قد دسوا له السم في اللحم قبل عام من ذلك الوقت ، فأصبح بعد ذلك الحين عرضة لحميات ونوبات غريبة . وتقول عائشة إنه كان يخرج من بيته في ظلام الليل ، ويزور القبور ، ويطلب المغفرة للأموات (†) ، ويدعو الله لهم جهرة ، ويهشهم على أنهم موتى . ولما بلغ الثالثة والستين من عمره اشتدت عليه هذه الحميات ، وحدث في إحدى الليالي أن شكت عائشة الصداع ، وأن شكاه هو نفسه وسألها وهو يمازحها ألا تفضل أن تموت هي قبلي ، فتحظي بأن بدفنها رسول الله ، فأجابته بمحدثها المعهود ، أنه حين يعود من دفنها سيأتي بعروس أخرى مكانها . وظلت الحمى تعاوده أربعة عشر يوماً بعد ذلك الوقت ، وقبل وفاته بثلاثة أيام نهض من فراشه ،

(*) كان النبي رحيماً بالناس جميعاً كما يقول المؤلف ، هذا ولم يكن للرسول شخصية أعداء بل كان هؤلاء أعداء الله وأعداء دينه الذي ارتضاه الناس جميعاً وعملوا ما في وسعه لإطفاء نور الله ، فلا جرم أن تكون من الرسول شدة على بعضهم حين يتبين له أنهم مصروا على عدوانهم .

(**) لعله يريد واجبات الحب للمسلمين والحرب للدفاع عنه . (ي)

(†) يشير المؤلف إلى قول الرسول في أوائل مرضه الذي توفي فيه « إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع (مدائن أهل المدينة) ثم ذهب فعلاً واستغفر لهم . (راجع سير ابن هشام ج ٢ ص ٣٦٦) . (ي)

ودخل المسجد وشاهد أبا بكر يوم المسلمين للصلاة بدله ، فجلس متواضعاً إلى جانبه حتى أتم صلاته : وفي اليوم السابع من شهر يونيه عام ٦٣٢ توفى ورأسه على صدر عائشة :

وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن محمداً كان من أعظم عطاء التاريخ ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الزوحي والأخلاقى لشعب ألفت به في دياجير الممجية حرارة الجوع وجذب الصحراء ، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أى مصلح آخر في التاريخ كله ، وقل أن نجد إنساناً غيره حقق كل ما كان يحلم به . وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين ، ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى ، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذى سلكوه ، فقد لجأ إلى خيالهم ، وإلى مخاوفهم وآمالهم ، وخاطبهم على قدر عقولهم ، وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جدياء ، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان ، قليل عددها متفرقة كالمنازل ، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة : وقد كبح جماح التعصب والخرافات ، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ، ودين بلاده القديم ، ديناً سهلاً واضحاً قوياً ، وصرحاً خلقياً قوامه البسالة والعزة القومية . واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة ، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة ، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم :

الباب التاسع

القرآن

الفصل الأول

شكله

لفظ القرآن مشتق من القراءة ، ويطلق على كتاب المسلمين كله أو على أى جزء منه ، وهو يتألف . كما يتألف الكتاب المقدس ، كتاب اليهود والمسيحيين ، من أجزاء جمع بعضها إلى بعض . ويعتمد المسلمون أن كل حرف منه موحى به من عند الله ، ويختلف عن التوراة في أنه كله نطق به رجل واحد ، ومن أجل هذا فهو بلا ريب لا يعادله في آثاره أى كتاب آخر جاء به رجل واحد . وقد أملى النبي في أوقات مختلفة من الثلاث والعشرين السنة الأخيرة من حياته ما كان يوحى إليه من آياته (*) ، وكان كل ما يوحى به إليه يكتب على الرق ، أو الجلود ، أو سعف النخل ، أو العظام ثم يحفظ مع الآيات السابقة دون أن يراعى في ذلك ترتيب زمني أو منطقي ، ولم تجمع هذه الآيات كلها في كتاب واحد في حياة النبي ، ولكن بعض المسلمين كانوا يحفظونها عن ظهر قلب ، ولما مات عدد من هؤلاء القراء ولم يكن هناك من يخلفهم . أمر الخليفة أبو بكر زيد بن ثابت كبير كتاب الوحي أن يبحث عن آيات القرآن ويجمعها ، فجمع زيد أجزاءه من سعف النخل ، وألواح الحجارة البيضاء ، وصدور الناس كما تقول الرواية المأثورة ، فلما تم له ذلك نسخت منه عدة

(*) القرآن كله من عند الله وقد جاء على لسان رجل واحد .

صور . ولما كانت ألفاظه خالية من الحركات فقد اختلف بعض القراء في تفسير بعضها واختلفت نصوصها(*) في مدن العالم الإسلامي الآخذ في الاتساع ، فرأى الخليفة عثمان أن يقضى على هذا الاختلاف ، وأمر زيداً وثلاثة من علماء قرينش أن يراجعوا مخطوط زيد (٦٥١) ثم كتبت نسخ منه وأرسلت إلى دمشق والكوفة والبصرة ، وظل القرآن من هذا الوقت محفوظاً نقياً محوطاً بأعظم العناية والتبجيل .

ومن شأن الظروف التي أحاطت بالقرآن أن تعرضه للتكرار وعدم الانسجام ، فكل فقرة بمفردها تؤدي إلى غرض واضح مفهوم - فهي إما أن تقر عقيدة ، أو تأمر بصلاة أو دعاء ، أو تسن قانوناً ، أو تشهر بعدو ، أو توجه إلى عمل ، أو تروى قصة ، أو تدعو إلى قتال ، أو تعلن نصراً ، أو تصوغ عهداً ، أو تطلب مالا ، أو تنظم شعيرة دينية ، أو تنص

(*) لم تختلف نصوص القرآن مطلقاً ولكن حصل في قراءته بمض الاختلاف لأسباب نها الخلو من النقط والشكل المعتاد في كتابتنا في هذه الأيام . أما مسألة جمع القرآن فتحتاج إلى شيء من التفصيل الدقيق ، ذلك بأن هذا الجمع قد حدث ثلاث مرات ، أولاها ما سنذكره بعد في تعليقنا على قول المؤلف إن محمداً لم يكن يريد جمعه في كتاب واحد ، والثانية كانت أيام أبي بكر الصديق بعد أن أشار به عمر بن الخطاب ، فكان أن قام زيد بن ثابت بتتبع القرآن وجمعه ما كان مكتوباً فيه حتى جمع كله في صحف حفظته كاملاً ، ولا نعرف أنه كتب منه عدة نسخ كما يقول للمؤلف ، والثالثة كانت في أيام عثمان بن عفان وفيها رتب سور بعضها في إثر بعض على حسب ما عرفوه من قبل عن الرسول .

وفي هذه المرة التي كانت في أيام عثمان كان الذين قاموا بجمعه وترتيب سور أربعة : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وهب الرحمن بن الحارث بن هشام . وقد قال الخليفة لولاء القرشيين الثلاثة : « إذ اختلفتم أقم زيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قرينش فإنه إنما نزل بلسانهم » . راجع الإقتان في علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطي ، المطبعة الأزهرية سنة ١٣١٨ هـ ج ١ ص ٦١ . (٥)

على مبدأ أخلاقي ، أو تضيع نظاماً للتجارة ، أو الصناعة ، أو عمل من الأعمال المالية (*) .

ولكننا لسنا واثقين من أن محمداً كان يريد جمع هذه الأجزاء المتفرقة كلها في كتاب واحد ، فقد كان كثير منها حديثاً لرجل بعينه في وقت بعينه (***) ، ويصعب فهمه دون معرفة واسعة بتاريخ ذلك الوقت وتقاليد أهله . وعدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة ، وهي مرتبة حسب طولها ، لا بحسب تزولها فإن ذلك غير معروف ، فهو يبدأ بالسور الطوال وينتهي بالقصار ، وإذا كانت قصار السور بوجه عام أقدم عهداً من طولها ، فإن القرآن تاريخ مقلوب (+) . فالسور المدنية وهي التي يبدأ بها الكتاب

(*) بحث كثيرون من المفسرين مسألة مناسبة الآيات والسور وارتباطها ببعضها ببعض ، ومن العلماء من أفرد ذلك بالتأليف مثل برهان الدين البقاعي في كتاب سماه « نظم الدرر في تناسب الآيات والسور » إلا أن كثيراً من المناسبات التي ذكرها لا يخلو من تكلف ولهذا يقول الشيخ عز الدين بن عبد السلام : « المناسبة علم حسن ، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلاً عن أمخفه ، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بضمه ببعض » (الإفتقان للسيوطي ج ٢ ص ١٠٨) :

ونقول نحن إن ورود القرآن على ما هو عليه من الاستطراد أحياناً في موضوعات مختلفة قد لا يكون بين بعضها والبعض الآخر رباط وثيق ، مما يجعل القارئ يقبل على تلاوته دائماً بشوق وشفق ولا يحس من ذلك أقل ملل أو عدم انسجام ، فهو ينتقل معه في فنون مختلفة من العلوم والمعارف التي لا يكاد يحصرها العدد . (ي)

(**) القرآن كلام الله نزل على نبيه . ومن الحق أنه لم يجمع كله في مصحف واحد أيام الرسول ، لسبب طبيعي هو أنه كان يتوقع دائماً أن ينزل منه شيء جديد ، إلا أنه قد كتب كله في عهده صلى الله عليه وسلم وبأمره وإن لم يجمع في كتاب واحد ولم ترتب سورته . فلما انقضى عهد نزول القرآن بوفاة الرسول جاء حين كتابته في مصحف واحد وهو ما فعله الصحابة رضوان الله عليهم . (ي)

(+) ترتيب السور فيما بينها وكذلك ترتيب آيات كل سورة أخذ عن الرسول نفسه =

عملية في أغراضها عادية في أسلوبها ، أما السور المكية فهي شعرية روحية وبها ينتهى الكتاب . وخلق بنا أن نبدأ بقراءته من نهايته(*) .

وجميع السور ما عدا فاتحة الكتاب حديث من الله أو جبريل إلى النبي أو أتباعه أو أعدائه ؛ وتلك هي الطريقة التي سار عليها أنبياء بني إسرائيل ؛ وهي التي نراها في كثير من فقرات أسفار موسى الخمسة . وكان محمد يعتقد أنه ما من قانون أخلاقي يمكن أن يقع في النفوس وأن يطاع طاعة تكفل للمجتمع النظام والقوة إلا إذا آمن الناس أنه منزل من عند الله . وهذه الطريقة تتفق مع الأسلوب الحماسي الفخم ومع البلاغة اللذين يسمحون في

= ولم يراع في هذا الترتيب أن يكون حسب تواريخ النزول ، وذلك لا يمكن القول إن القرآن تاريخ مقلوب لأن قصار السور أقدم عهداً من طولها بوجه عام .

عل أن مسألة تاريخ نزول القرآن ، سورة وآياته ، مسألة غنى بها العلماء المحققون ، وقد وصلوا من أبحاثهم إلى نتائج لها قيمتها الكبيرة ، وإن لم يتفقوا جميعاً في هذا على رأى واحد . (راجع مثلاً «الإتقان» للسيوطي ج ١ ص ٩ وما بعدها و «مقدمتين في علوم القرآن» نشرها المستشرق آرثر جفرى وطبعها في مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة سنة ١٩٥٤ م ص ٨ وما بعدها .

(*) لا يمكن الحكم على أسلوب القرآن بقراءة ترجمته ، ولهذا لا يمكن القول إن أسلوب السور المدنية التي يبدأ بها المصحف أسلوب سهل أو إنه خليق بنا أن نبدأ بقراءته من نهايته . وأصدق من هذا قول المؤلف في موضع آخر إن لغة القرآن هي اللغة العربية الفصحى وإنه غنى بالتشبيحات والاستعارات القوية الواضحة والعبارات الخلابة التي لاتوائم ذوق الغربيين . وهذا ما يستطاع تبينه من التراجم نفسها فضلاً عن لغة القرآن الأصلية .

إن القرآن معجز بأسلوبه وبكل كلمة منه ، ولو كان أسلوب بعض سوره سهلاً لما عجز العرب في عهد الرسول وهم أساطين الكلام والبلاغة أن يأتوا بسورة من مثله أو بعض آيات منه . إن القرآن بلغته وتمايزه وأسلوبه معجز كل الإعجاز وهو يختلف بطبيعة الحال باختلاف المقامات والأحوال ، وإن كان ذلك كله في أعلى طبقة من البلاغة تنقطع الرقاب دون الإتيان بشيء قريب منه ؛ وكفى أنه تزييل من رب العالمين . (ى)

بعض الأحيان عن أقوال النبي أشعيا . وأسلوب القرآن وسط بين الشعر والنثر تتخلله كثير من الفقرات الموزونة المففأة ، ولكنها لا تتبع أوزاناً ولا قوافي خاصة منتظمة ؛ وفي السور المكية الأولى نغمات موسيقية رنانة ، وأسلوب جزل قوى لا يدركه كل الإدراك إلا الملمون باللغة العربية الذين يعطفون على الدين الإسلامى . ولغة القرآن هى اللغة العربية الفصحى الخالصة ، وهو غنى بالتشبيهات والاستعارات القوية الواضحة والعبارات الخلابة التى لا توأم ذوق الغربيين . وهو بإجماع الآراء خير كتاب وأول كتاب ، فى الأدب النثرى العربى .

الفصل الثاني

العقائد (*)

من بين الأغراض التي يهدف لها الدين أن يكون سيلا إلى الحكم الأخلاقي ، وليس من شأن المؤرخ أن يسأل هل هذا الدين أو ذلك حق أو باطل ، وأنى له العلم المحيط بكل شيء والذي يوصله إلى هذه المعرفة ؟ وإنما الذي يسأل عنه هو العوامل الاجتماعية والنفسانية التي أدت إلى قيام هذا الدين ، وإلى أى حد أفلح في تحويل الوحوش إلى آدميين ، والهمج إلى مواطنين صالحين ، والصدور الفارغة إلى قلوب عامرة بالأمل والشجاعة ، وعقول مطمئنة هادئة ، وما مقدار ما تركه بعد ذلك من الحرية لتطور العقول البشرية ، وما هو أثره في التاريخ ؟

وترى اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام أن أهم ما يحتاج إليه المجتمع السليم هو الإيمان بأن هذا الكون خاضع لحكم أخلاقي مسيطر على شئونه - أى الإيمان بأنه مهما يكن في هذا الكون من شر ، فإن عقلا خيرا ، يعجز الناس عن إدراك كنهه ، يسيّر المسرحية الكونية إلى غاية عادلة نبيلة . والأديان الثلاثة التي أعانت على تكوين عقلية الناس في العصور الوسطى مجمعة كلها على أن هذه العقلية الكونية هي الله الواحد ذو الجلال . غير أن المسيحية قد أضاقت إلى هذه العقيدة أن الله الواحد يظهر في ثلاثة أقانيم مختلفة ، أما اليهودية والإسلام فتريان أن هذا الاعتقاد ليس إلا شركا مقنعا ، وتعلنان وحدانية الله بأقوى الألفاظ وأشدها حماسة . وفي القرآن سورة خصصت كلها لهذا الغرض هي السورة الثانية عشرة بعد المائة .

(*) سنذكر في هذا الفصل بعض الأحاديث النبوية لنوضح بها بعض آيات القرآن . ولن يفوتنا أن نشير في المتن أحيانا ، وفي الهامش على الدوام ، أنها أحاديث وليست آيات قرآنية . (المؤلف)

ويردده المؤذن من فوق مائة ألف مثذنة كل يوم ، فالله هو أصل الحياة ومنشؤها ، ومصدر كل خير على ظهر الأرض . « وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » (سورة الحج الآية ٥) « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حباً وعنباً ، وقصباً وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا » (سورة عبس الآيات ٢٤ - ٣٠) . . . « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (سورة الأنعام الآية ٩٩) .

والله أيضاً إله القوة « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها . . . وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى » . . . « وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات » (سورة الرعد الآيتان الثانية والثالثة) . ويقول في آية الكرسي الشهيرة « الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما في السموات وما في الأرض ، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم » (سورة البقرة الآية ٢٥٥) .

والله مع سلطانه وعدله رحيم أبدا ، فكل سورة من سور القرآن ، ما عدا سورة التوبة ، وكل رسالة يكتبها مسلم متمسك بدينه تبدأ بتلك العبارة الفخمة « بسم الله الرحمن الرحيم » . ومع أن النبي لا يفتأ يذكر الناس بأهوال النار ، فإنه لا يمل من الثناء على رحمة الله الأبدية .

والله كما يصفه القرآن يحيط علماً بكل شيء ، « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » (سورة ق ١٦) .

والله يعلم المستقبل كما يعلم الحاضر والماضي ، وإذن فكل الأشياء سابقة في

علمه ، وكل شيء قد تقرر وتحدد منذ الأزل بإرادة الله ، ومن ذلك مصير كل نفس وما سيصيبها من خير وشر . فالله يعلم منذ الأزل منذ المذى ينجو من العذاب وهو الذى « يضل من يشاء ويهتدى من يشاء » (سورة فاطر ٨) « يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما » (سورة الإنسان ٣١) وكما أن يهوه قد طمس على قلب فرعون فجعله قاسيا ، كذلك يقول الله عن الكافرين « إنا جعلنا فى قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا » (سورة الكهف ٥٧) ، وما من شك فى أن المقصود من هذه الآية وأمثالها حث الناس على الإيمان غير أنه مع ذلك قول عفيف فى أى دين ، ولكن محمداً يؤكده بنفس القوة التى يؤكدها القديس أوغسطين أمثاله . « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (سورة السجدة ١٣) . وهذا الإيمان بالقضاء والقدر جعل الجبرية من المظاهر الواضحة فى التفكير الإسلامى(*) ، وقد استعان بها النبى وغيره من الزعماء لبث الشجاعة فى قلوب المؤمنين عند القتال لأن ساعة الموت لا يقدمها خطر ولا يؤخرها حذر . وبفضل هذه العقيدة لاقى المؤمنون أشد صعاب الحياة بجنان ثابت ، ولكنها أيضا كانت من الأسباب التى عاقت تقدم العرب وعطلت تفكيرهم فى القرون المتأخرة .

ويتحدث القرآن كثيراً عن الملائكة والجن والشيطان . فأما الملائكة فهم رسل الله وهم الذين يحصون أعمال البشر الطيب منها والخبيث . والجن مخلوقون من النار ، ويختلفون عن الملائكة فى أنهم يأكلون ويشربون ، ويتناكبون ويموتون ، ومنهم الصالحون الذين يستمعون إلى القرآن (سورة الجن) ولكن

(*) إن المسلمين مع إيمانهم بقضاء الله وقدره يعتقدون أن الله شاءت عدائته أن يكون للإنسان من الحرية فى أعماله ما يجعله عدلا مستولا عنها ، وليست الجبرية مذهب أهل السنة والجماعة ولكنها فئة معروفة من الفرق الإسلامية . (ى)

معظمهم دون ذلك يقضون وقتهم في تضليل الناس وغوايتهم . وزعيم الجن الأشرار إبليس ، وكان من قبل من الملائكة الأخيار ولكنه أبى أن يسجد لآدم فطرده الله من رحمته .

والمحور الذي تدور عليه المبادئ الأخلاقية في القرآن ، كما هي الحال في كتاب العهد القديم ، هو خوف العقاب ورجاء الثواب في الحياة الآخرة ، « اعلّموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد » (سورة الحديد ٢٠) وليس فيها محقق إلا شيء واحد هو الموت . وكان بعض العرب يعتقدون أن كل شيء ينتهي عند الموت ، ويسخرون من عقيدة الدار الآخرة ، ويقولون « إن هذا إلا أساطير الأولين » (سورة المؤمنون ٨٣) ، ولكن القرآن يؤكد بعث الجسم والروح (سورة القيامة ٣-٤) ولن يكون هذا البعث بعد الموت مباشرة ، بل إن الموقى سينامون إلى يوم القيامة ، ولكن نومهم هذا سيحملهم على الظن بأن استيقاظهم سيكون بعد موتهم على الفور . وعلم يوم القيامة عند الله وحده ، ولكنه تسبقه علامات تنبئ به ، فإذا قرب ذلك اليوم ضعف إيمان الناس ، وفسدت أخلاقهم ، وكثر التشاحن والشقاق والحروب العوان ، وتسمى العقلاء الموت . وستكون آخر النذر ثلاث نفخات في الصور ، ففي النفخة الأولى تكسف الشمس ، وتهوى النجوم ، وتزول السموات ، وتدك الجبال والمباني فلا ترى فيها عوجا ولا أمنا ، وتجف مياه البحر أو تتطاير هباء (سورة طه ١٠٢ وما بعدها) . وفي النفخة الثانية تهلك الخلائق جميعها - الملائكة والجن والبشر - إلا من رحم الله ، وبعد أربعين عاماً ينفخ إسرافيل النفخة الثالثة فتقوم الأجسام من القبور وتتصل بالأرواح ، ويتجلى الله لعباده تحف به الملائكة يحملون الكتب التي دونت فيها أعمال الناس جميعها وأقوالهم وأفكارهم (*) ،

(*) المعروف فيما يختص بالنفخ في الصور أنهما نفختان لا ثلاث نفخات ، وبعد النفخة الأولى يهلك كل الخلائق إلا من شاء الله وهم كما يقول التزلي في إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٦٧ =

وتوزن الحسنات أمام السيئات ويحاسب الإنسان على ما قدمت يداه . ويتقدم الأنبياء فيشهدون على من رفضوا رسالتهم ، ويشفعون لمن آمنوا بهم . ويسير الأختيار والأشرار جميعاً على الصراط - وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف - المعلق فوق الجحيم . فيسقط منه الأشرار والكفرة ، ويمتازه المضلمون آمنين إلى الجنة ، ولن يكون ذلك لما يستحقونه من عقاب أو ثواب بل لما ينالهم من رحمة الله(*) . ذلك أن القرآن كبعض العقائد المسيحية يعنى على ما يظهر بصحة الإيمان أكثر مما يعنى بالسلوك الطيب ، فهو كثيراً ما ينذر من لا يقبلون دعوة النبي بعذاب النار في الآخرة (آل عمران الآيات ١ و ٦٣ و ١٣١ وسورة النساء ٥٦ و ١١٥ والأعراف والأنفال ٥٠ والتوبة ٦٣ الخ) . وإذا لم تكن الذنوب كلها بدرجة واحدة ولا من نوع واحد فقد جعلت النار سبع طبقات في كل طبقة من العقاب ما يتناسب مع الذنب الذى ارتكبه المذنب ، ففيها الحرارة التى تشوى الوجوه ، وفيها الزمهرير ، وحتى من يستحقون أخف العقاب يلبسون أحذية من نار ، ويشرب الضالون المكذبون من الحميم وشرب الهيم (سورة الواقعة ٤٠ وما بعدها) ، وربما كان دانتى قد أبصر بعض الرومى التى وصفها في ملهاته في القرآن .

وتختلف صورة الجنة في القرآن عن صورتها في ملهاته دانتى فهى في القرآن واضحة وضوح صورة النار . والجنة هى مقر المؤمنين الصالحين والذين يموتون في سبيل الله ،

= من طبعة المطبعة العامرة الشرقية سنة ١٣٥٦ هـ - جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت الذين يموتون أيضاً بعد حين . ثم يحى الله إسرافيل فيأمره أن ينفخ النفخة الثانية التى بها يقوم الموق للحشر والحساب . راجع قوله تعالى في سورة الزمر الآية ٦٨ « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » راجع أيضاً كتاب التؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ج ٣ ص ٤١٢ باب ما بين النفختين .

(*) يشترط أن يكون العمل الصالح الذى يثاب عليه الإنسان في الدار الآخرة قائماً على أساس الإيمان الصحيح . (ى)

والفقراء يدخلونها قبل الأغنياء . ومقر الجنة في السماء السابعة الفلكية أو ما بعدها ، وهي حديقة واسعة الأكناف تجرى من تحبها الأنهار وتظللها الأشجار الضليلة ، ويلبس فيها الصالحون ثياباً من سندس وإستبرق ، ويحلون بالجوهر ، ويتكثون على الأرائك ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون ؛ ويأكلون فاكهة من أشجار تطأطأ أغصانها لهم يملثوا من ثمارها أيديهم . فيها أنهار من لبن ، وعسل ، وخمر يشرب منها الصالحون (وإن كانت الخمر محرمة في الدنيا) في أكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون « لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً » (سورة النبأ ٣٥) ، « فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . . . كأنهن الياقوت والمرجان » « وكواعب أترابا » . « وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون » ، أجسامهن من المسك مبرأة من نقائص الأجسام البشرية وآثامها . وسيكون لكل رجل من الصالحين اثنتان وسبعون من أولئك الحور جزاء له على ما عمل من الطيبات (*) ، ولن تنقص الأيام ولا الأعمال ولا الموت من جمال أجسامهن ، ولا من نعم رفاقهن (سورة الدخان) وفي الجنة غير هذه المتعة الجسمية مُتَع أخرى روحية فن المؤمن من يتلون القرآن ، وسيجعل لهم الله جميعاً بوجهه « ويطوف عليهم ولدان مخلدون » . ترى منذاً الذي يستطيع أن يرفض مثل هذا النعيم .

(*) لعل الكاتب قد جاء بعدد الحور في الجنة من أقوال بعض المؤلفين الأقدمين . ومن الآراء التي لها قيمتها في هذا المعنى أنه يجب ألا تؤخذ هذه الأوصاف بمنها الحرف بل يجب أن تأخذها على أنها تقريب للأذهان لما يستتبع به الصالحون في الجنة من نعيم روعى . (المترجم)

فصل ثالث القرآن والأخلاق

القانون والأخلاق في القرآن ، كما هما في التلمود ، شيء واحد ، فالسلوك الديني في كليهما يشمل أيضاً السلوك الدنيوي ، وكل أمر فيهما موحى به من عند الله . والقرآن يشمل قواعد للآداب ، وصحة الجسم ، والزواج والطلاق ، ومعاملة الأبناء والعميد والحيوان ، والتجارة ، والسياسة ، والربا ، والدّين ، والعقود ، والوصايا ، وشئون الصناعة والمال ، والجريمة ، والعقاب ، والحرب والسلام .

ولم يكن محمد يحقر التجارة ، فقد كان هو نفسه في صباه تاجراً ، وحين كان سيد المدينة كان يبتاع بعض السلع جملة ويبيعها أشتاتاً ، ويربح من هذا البيع دون أن يرى فيه عيباً أو منقصة ، وكان في بعض الأحيان يدلل على السلع بنفسه ، ولغة القرآن غنية بالتشبيهات التجارية ، ففيه وعد بالثراء في الدنيا للمسلمين الصالحين ، وإنذار بعذاب أليم للمخادعين والكاذبين من التجار . وفي الأحاديث النبوية تنديد بالمحتكرين والمضاربين الذين يحتجزون السلع ليبيعوها بأعلى الأسعار ، وحض على إيفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم ، وأمر لصاحب العمل بأن يؤدي للعامل أجره قبل أن يحف عرقه . ويحرم القرآن الربا أخذاً أو إعطاءً (سورة البقرة ٢٧٥ وسورة آل عمران ١٣٠) ، ولسنا نجد في التاريخ كله مصلحاً فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد لإعانة الفقراء . وكان يحض كل موص بأن يخص من ماله جزءاً للفقراء ، وإذا مات رجل ولم يترك وصية فرض على ورثته أن يخصصوا بعض ما يرثون لأعمال الخير (سورة النساء ٩٨) ، وقد قبل محمد كما قبل معاصروه نظام الاسترقاق على أنه من قوانين الطبيعة ، ولكنه بذل كل ما في وسعه لتخفيف أعباء الرق ومساوئه .

كذلك رفع من مقام المرأة في بلاد العرب ، وإن لم ير عيباً في خضوعها للرجل ، وهو يهيب بالرجال ألا يكونوا عبيداً لشهواتهم ، ويكاد يصف النساء كما يصفهم آباء الكنيسة المسيحية بأنهن من أكبر الشرور التي أصيب بها الرجال ، ويظن أن مصير الكثرة الغالبة منهن هو الجحيم (*) . وهو يحرم على النساء ولاية الحكم ، لكنه يسمح لهن أن يحضرن الصلاة في المساجد ، وإن كان يرى أن بيوتهن أولى بهن ، وكن إذا جئن إليه للصلاة أحسن معاملتهن ولو أتبن معهن بأطفالهن . وقد روى عنه أنه كان إذا سمع بكاء طفل في أثناء الصلاة قصر خطبته حتى لا يؤذى بطولها أمه . وقضى القرآن على عادة وأد البنات (سورة الإسراء ٣١) وسوى بين الرجل والمرأة في الإجراءات القضائية والاستقلال المالي ، وجعل من حقها أن تشتغل بكل عمل حلال ، وأن تحتفظ بما لها ومكاسبها ، وأن ترث ، وتتصرف في مالها كما تشاء (سورة النساء ٤ و ٣٢) ، وقضى على ما اعتاده العرب في الجاهلية من انتقال النساء من الآباء إلى الأبناء فيما ينتقل لهم من متاع ، وجعل نصيب الأنثى في الميراث نصف نصيب الذكر ، ومنع زواجهن بغير إرادتهن . وفي القرآن آية يأخذها بعضهم حجة على حجب النساء وهي : « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » (سورة الأحزاب ٣٣) ، ولكن الآية إنما تؤكد النهي عن التبرج ، ويروى أن النبي أجاز للنساء أن يخرجن لقضاء حوائجهن . أما زوجاته هو فقد طلب إلى أتباعه .

(*) ليست الذكورة أو الأنوثة سبباً لدخول الجنة والنار ، إنما يرجع ذلك إلى الإيمان والعمل الصالح أو الكفر والعمل السيئ . والله يثيب بالجنة من عمل صالحاً رجلاً كان أو امرأة . وهذا أيضاً شأن العقاب في الدار الآخرة . وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة الكهف : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً » ، فلم يفرق سبحانه وتعالى بين الرجل والمرأة ، ومثل هذا كثير جداً في آيات أخرى . ويقول جل شأنه في سورة آل عمران : « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض ، فالذين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا في سبيل ، وقتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب » .

ألا يكلموهن إلا من وراء حجاب . وفيما عدا هذه القيود فإن نساء المسلمين
كن يخرجن من البيوت بكامل حريتهن غير محجبات في أيام النبي وفي القرن
الأول بعد الهجرة(*) .

وبعد فإن المناخ من العوامل التي تؤثر في الأخلاق الفردية ، ولعل
حرارة الجو في بلاد العرب كانت من أسباب تقوية الغريزة الجنسية
والنضج المبكر ، ولهذا يجب التسامح بعض الشيء فيما نراه من نزعات
الرجال في هذه الناحية في البلاد التي يطول فيها فصل الحر - ولقد كانت
الشرائع الإسلامية تحرص على طلب العفة من الرجال والنساء قبل
الزواج(**) ، وزيادة الفرص لإشباع الغريزة الجنسية بين الأزواج . ولهذا
حتم القرآن الاستعفاف قبل الزواج (سورة النور ٣٣) وأوصى النبي بالصيام
للاستعانة على هذا الاستعفاف . ويشترط الدين الإسلامي رضاء الخطيبين
لإتمام عقد الزواج . فإذا تم هذا الرضاء بشهادة الشهود العدول وأدى
العريس مهر عروسه ، كان ذلك كافياً لإتمام العقد سواء رضى بذلك

(*) ملبس المرأة ، وزينتها ، ونظرها إلى الرجل ، ونظر الرجل إليها ، كل هذا نوع
من الحجاب نزلت فيه آيات غير قليلة في سورة النور وسورة الأحزاب .

والخطاب في الآيتين اللتين أشار إليهما المؤلف لنساء النبي ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون
أيضاً حفاً لنساء المسلمين جميعاً . وقد ورد في كتاب (أحكام القرآن المطبوع بالمطبعة الهيئة المصرية
سنة ١٣٤٧ هـ ٣ ص ٤٥٥) . « وهذا الحكم وإن نزل خاصاً في النبي صلى الله عليه وسلم
وأزواجه فالعنى عام فيه وفي غيره إذ كنا مأمورين باتباعه والافتداء به إلا فيما خصه الله به دون
أمته » راجع في هذا أيضاً أحكام القرآن لابن العربي ج ٢ ص ١٦٦ وتاريخ التشريع
للشيخ الخضرى ص ٨٨ - ٨٩ . (ى)

(**) وحثه بعد الزواج بنظيمة الحال ، وقوله تعالى « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً
حتى يفتنهم الله من فضله » معناه إن على الذين لا يجدون الوسيلة المالية للزواج أن يصبروا حتى
يرزقهم الله الفنى والقدرة على الزواج . (ى)

ولعل المؤلف يشير بقوله إن الشريعة الإسلامية تزيد الفرص لإشباع الغريزة الجنسية بين
الأزواج إلى إباحة الزواج بغير واحدة ، ولكن هذه الإباحة أسباباً كثيرة ذكرها المؤلف
نفسه في غير هذا الموضع . (المترجم) (٦ - ٢ - ج ٤)

آباء(*) العروسين أو لم يرضوا . وقد أجاز للمسلم أن يتزوج مسيحية . أو يهودية ولكنه حرم عليه أن يتزوج من وثنية أو مشركة . وعدم الزواج في الإسلام ، كما هو في الدين اليهودي ، إثم ، والزواج فيه فريضة محبة إلى الله (سورة النور ٣٢) . وأجاز الإسلام تعدد الزوجات ليعوض بكثرة النسل نسبة الوفيات العالبة بين الذكور والنساء على السواء ، ولطول فترة النفاس ، وما يحدث في البلاد الحارة من نقص سريع في قوة الإخصاب ، ولكنه حدد عدد الزوجات الشرعيات بحيث لا يزدن على أربع وإن كان النبي نفسه قد تجاوز هذا العدد . وحرم الإسلام التيسر (سورة المعارج ٢٩ و ٣١) ولكن ذلك عنده خير من الزواج بمشركة (سورة البقرة ٢٣١) (***) :

ويعد أن تسامح الإسلام مع الرجل إلى هذا الحد فمكثته بتعدد الزوجات من إشباع غريزته الجنسية إشباعاً حلالاً حرم الزنى أشد التحريم ، فجعل عقوبة الزانى والزانية مائة جلدة (سورة النور+) لكنه اشترط لتوقيع هذه العقوبة

(*) يشترط الأحناف إجازة الولي في حال تزويج الصغير والصغيرة وإن كانا «أقربين» والشافعي يعمم وجود الولي في حال تزويج البنت البكر وإن كانت بالغة وهو الذي يقوم بعقد الزواج (راجع بدائع الصنائع ج ٢ ص ٣٣ و ٢٤١) .

والزواج لا بد فيه من مهر لا يشترط أداءه فعلاً ليم عقد الزواج ، ولزوجين أن يتفقا على تأجيله كله أو بعضه على ما هو متعارف (راجع بدائع الصنائع ج ٢ ص ٢٧٧ - ٢٧٨) . (ى)

(**) ليس الإمتناع عن الزواج إثماً في كل حال بل المعروف فقهاً أن الزواج يكون واجباً إذا تاق الرجل إلى الاتصال بالمرأة ، وفرضاً إن تيقن أنه يقع في الزنى إن لم يتزوج ، وكان مع هذا مالكا للمهر والنفقة وإلا فلا إثم عليه بترك الزواج . ويكون الزواج مكروهاً إن خاف ألا يعدل مع الزوجة إن تزوج كما يكون حراماً إن تيقن أنه سيجور ولا يعدل . (راجع الدر المختار وحاشية ابن عابدين عليه ج ٢ ص ٢٦٧ - ٢٦٨) . (ى)

(+) عقوبة الزانى هي الجلد كما يقول الكاتب إن كان غير متزوج ، وإلا كانت العقوبة هي الرجم . (ى)

ثبوت الزنى بشهادة أربعة من الشهود . ونهى القرآن فضلاً عن هذا عن رضى المحصنات فقال « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً » (سورة النور ٤) وقد قل الاتهام بالزنى بعد نزول هذه الآية .

وأباح القرآن الطلاق للرجل كما أباحه التلمود . وللمرأة أن تطلق نفسها من زوجها بأن ترد له صداقها (سورة البقرة ٢٢٩) ؛ لكن الإسلام وإن أجاز للزوج أن يطلق زوجته كما كان مباحاً له في أيام الجاهلية(*) ، فإن النبي لم يكن يشجع عليه ويروى عنه أنه قال إن « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » . هذا إلى أن القرآن نفسه يحض على عدم قطع العلاقة الزوجية إلا بعد أن تبذل الجهود للإصلاح بين الزوجين « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما » (سورة النساء ٣٥) . ولا يصح الطلاق نهائياً إلا بعد صدوره ثلاث مرات بين كل واحدة والأخرى شهر على الأقل(**) ولكي يرغم الزوج على أن يطيل التفكير في إيمان الطلاق قبل صدورها ، فإن الإسلام لا يبيح بعد ذلك للرجل أن يرد مطلقة إلى عصمته إلا إذا تزوجت من رجل آخر ثم طلقت منه . ولا يباح للزوج أن يقرب زوجته في الحيض وليس ذلك لأنها « نجسة » في ذلك الوقت ، وإن كان يطلب إليها أن تتطهر بعده قبل أن يقربها زوجها . والنساء حرث للرجال ومن الواجب على الرجل أن ينجب أبناء ، وينبغي للزوجة أن تقر للزوج بتفوقه عليها في الذكاء ، ومن ثم أن تكون

(*) الصحيح في هذا أنه لما كان الإسلام حريصاً على أن تكون العشرة بين الزوجين بالمعروف فإن العشرة إن سادت وأصبح من الخير لهما الانفصال كان ذلك بالطلاق برضاء الزوجين بلا مقابل أو بمقابل . (ى)

(**) الطلاق يكون نهائياً ولو كان مرة واحدة ، وانقضت عدة المرأة ، ويكون أيضاً نهائياً بعد الطلقة الثالثة كذلك إلا أنه في هذه الحال لا يكون للزوج أن يرد إليه مطلقة ثلاثاً إلا بعقد جديد بعد أن تكون قد تزوجت بأخر ودخل بها وانقضت عنها . (ى)

له عليها القوامة وحق الطاعة ، فإذا عصته كان له أن يهجرها ويضربها (سورة النساء ٣٤) والمرأة التي تتوفى وزوجها راضٍ عنها تدخل الجنة(*) .

لكن ما فقدته النساء من حقوق قد نلن أكثر منه بفصاحة لسانهن ، ورقة قلوبهن ، ومفاتيهن ، شأنهن في هذا شأن النساء في العالم كله . وقد حدث مرة أن لام عمر بن الخطاب زوجته لأنها كلمته بلهجة رأى فيها شيئاً من قلة الاحترام ، فما كان منها إلا أن أكدت له أن هذه هي اللهجة التي تخاطب بها ابنته حفصة وغيرها من أزواج النبي رسول الله . فذهب عمر من فوره ولام على ذلك حفصة وزوجة أخرى من أزواج النبي . فقيل له إن هذا ليس من شأنه وخرج عمر غاضباً . وسمع النبي بهذا فأثار ضحكته . وكان النزاع يقوم في بعض الأحيان بين النبي وبعض أزواجه كما يحدث عند غيره من المسلمين ، ولكنه كان على الدوام يعزهن ، ويظهر لهن ولغيرهن من النساء المسلمات ما يليق بهن من عواطف طيبة . ويروى عنه أنه قال إن المرأة الصالحة أتمن شيء في العالم : ويذكر الله الناس في القرآن مرتين بأن أمهاتهم حملنهم كرهاً ووضعنهم كرهاً وأرضعنهم أربعة وعشرين أو ثلاثين شهراً** ، ويروى عن النبي أنه قال ، « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

(*) دخول الجنة مشروط بفضل الله تعالى ، والعمل الصالح ، وقيام المرء بما عليه من حقوق لله ولبنى الإنسان ، ومن هؤلاء بلا ريب حق الزوج على زوجته ، وليس معنى هذا أن الزوجة التي تتوفى وزوجها راضٍ عنها تدخل الجنة وإن لم تقم بما عليها من واجبات أخرى . (ي)

(**) يقول جل جلاله في سورة البقرة : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » ويقول في سورة الأحقاف : « ووضينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » ، والفصال هنا معناه الرضاع .. (ي)

الفصل الرابع

القرآن والدين والدولة

إن أعقد ما يلاقيه المصلح من المشاكل مشكلتان ، أولاهما أن يجعل التعاون بين الناس محبوباً جذاباً ، والثانية أن يحدد سعة الكل والجماعة التي يشير عاينها بالتعاون الكامل . والأخلاق المثالية تطلب المعاونة التامة بين كل جزء وبين كل - كل - أى بين العالم أجمع وحياته الجوهرية ونظامه أى الله سبحانه وتعالى . وفي هذه الدرجة من التعاون يصبح الدين والأخلاق شيئاً واحداً ، لكن الأخلاق وليدة العادة وحفيدة القسر ، وهى لا تنمى التعاون إلا بين مجموعات مزودة بالقوة ، ومن أجل هذا كانت كل الأخلاق الواقعية أخلاقاً جماعية .

وقد نخطت القوانين الأخلاقية التى جاء الإسلام بها حدود القبيلة التى ولد النبي بين ظهرانيها ، ولكنها اقتصرت على الجماعة الدينية التى أنشأها . فلما تم له النصر فى مكة وضع القيود على غارات النهب بين القبائل ، وإن لم يكن فى مقدوره (*) أن يمنع هذه الغارات منعاً باتاً ؛ وأشعر بلاد العرب كلها ، أى أنه أشعر بلاد الإسلام كلها فى ذلك الوقت ، معنى جديداً للوحدة ، ووضع لها أفقاً للتعاون والولاء أوسع مما عرفته من قبل « إنما المؤمنون إخوة » (سورة الحجرات ١٠) وقللت العقيدة المشتركة ما بين الطبقات والأجناس من فروق ، وفى

(*) لقد أحصى التاريخ كل غزوة أو سرية كانت فى عهد الرسول وكلها كانت بأمره ورضاه ؛ ولعل الغارات التى يشير إليها الكاتب هى سرايا التى كان يرسلها الرسول من أن لاخر دفاعاً عن الدعوة وكيان المسلمين . وليس حقاً ما يقوله من أنه لم يكن فى مقدوره أن يمنع هذه الغارات منعاً باتاً وبخاصة مع ما هو مقرر من حرص المسلمين على تحريم رضاء الرسول اتباعاً لأوامر الله جل شأنه فى القرآن الكريم . (ى)

ذلك يقول النبي : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » .

تلك بلا مرأى عقيدة نبيلة سامية ألفت بين الأمم المتباينة المنتشرة في قارات الأرض فجعلت منها شعباً واحداً ، وهي لعمرى أعظم معجزة للمسيحية والإسلام .

غير أن هذا الحب السامى الذى يدعو إليه الدينان يقابله عداء شديد لغير المؤمنين(*) « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » . . . « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » سورة المائدة ٥١ و ٥٥ « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان » (سورة التوبة ٢٣) . لكن القرآن يأمر في آيات كثيرة بأن يسلك المسلمون جادة الاعتدال في الأخذ بهذه المبادئ فيقول « لا إكراه في الدين » « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا » (سورة البقرة ١٣٧) « وإن تولوا فلإنما عليك البلاغ المبين » (سورة النحل ٨٢) « فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم » (سورة هود ٥٧) « فتول عنهم حتى حين ، وأبصرهم فسوف يبصرون » (سورة الصافات ١٧٤ و ١٧٥) « وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون » (سورة الصافات ١٧٨ و ١٧٩) . أما كفار العرب الذين لم يؤمنوا برسالة النبي فقد أمر بقتالهم . ولما أن بدأت الحرب مع قريش وانسلخت الأشهر الحرم أمر المسلمون بقتالهم حيث وجدوهم (سورة التوبة ٥) « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا

(*) لم يكن هذا العداء الشديد إلا للذين يجارون الإسلام ، وأما أهل الذمة فقد أمر الإسلام بأن يكون لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات . وحسينا في الدليل على هذا قوله جل شأنه في سورة الممتحنة « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظادروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » . (ي)

سبيلهم إن الله غفور رحيم» - «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه»، «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم» (سورة التوبة ٥ و٦) . ومن وصايا أبي بكر لجيوشه ألا يقتلوا شيخاً عاجزاً عن القتال ، ولا طفلاً صغيراً ، ولا امرأة . وكان على كل مسلم سليم الجسم أن يشترك في الجهاد «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص» (سورة الصف ٤) . ومن أحاديث النبي «والذي نفس محمد بيده لغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها» . و «لمقام أحدكم في الصف خير من صلواته ستين سنة» .

لكن هذه المبادئ الأخلاقية الحربية ليست في واقع الأمر تحريضاً على القتال. «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» (سورة البقرة ١٩٠) . وكان محمد يتبع قوانين الحرب التي كان يتبعها المسيحيون في أيامه ويشن الحرب على كفار قريش المسيطرين على مكة كما كان إربان الثاني Urban II فيما بعد يدعو إلى قتال المسلمين المسيطرين على بيت المقدس .

ويلاحظ أن الثغرة التي لا بد من وجودها بين النظريات المجردة والأفعال الواقعية كانت أضيق في الإسلام منها في سائر الأديان . ولقد كانت العرب أكثر شهوانية من كثير من الشعوب ، ولهذا أجاز الإسلام تعدد الزوجات (***)، أما فيما عدا هذا فإن الشريعة الإسلامية شديدة كل الشدة على من لا يتمسك من المسلمين بأصول الدين ، والذين يجهلون الإسلام هم وحدهم الذين يظنون أنه

(*) رواه أحمد والطبراني . وعن عمر بن الحصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «مقام الرجل في الصف في سبيل الله أفضل من عبادته ستين سنة» .

(**) لقد بيغنا فيما سبق أن تعدد الزوجات إنما يرجع إلى دوافع اجتماعية هامة تنبئ إليها كثيرون من الغربيين في هذه الأيام ، وليس سبب هذا التعدد أن العرب أكثر شهوانية من غيرهم من الشعوب . (ي)

دين سهل من الوجهة الأخلاقية . كذلك كان من طبيعة العرب الأخذ
بالتأثر ، ولهذا لم يدع الإسلام إلى مقابلة الإساءة بالإحسان(*) . فن اعتدى
عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (سورة البقرة ١٩٤) « ولئن
انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » (سورة الشورى ٤١) ، تلك
أخلاق تليق بالرجال ، شبيهة بما جاء في العهد القديم ، فهى تؤكد فضائل
الرجولة كما تؤكد المسيحية فضائل الأنوثة . وليس في التاريخ دين غير دين الإسلام
يدعو أتباعه على الدوام إلى أن يكونوا أقوياء ، ولم يفلح في هذه الدعوة دين
آخر بقدر ما أفلح فيها الإسلام : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا
ورابطوا » (سورة آل عمران ٢٠٠) هكذا كان يقول أيضاً زرادشت
الذى نادى بمبادئ تنشئه قبل وجود تنشئه بزمن طويل .

والمسلمون يعظمون القرآن إلى درجة تقرب من العبادة ، وقد كتبوا
المصاحف وزينوها وبدلوا في سبيل ذلك كل ما يستطيعون من عناية مدفوعين
إليها بحبهم له ، وهو الكتاب الذى يبدأ منه أطفال المسلمين بتعلم القراءة ، وهو
المحور الذى يدور عليه تعليمهم والذروة التى ينتهى بها هذا التعليم . وقد ظل
أربعة عشر قرناً من الزمان محفوظاً في ذاكرتهم ، يستثير خيالهم ، ويشكل
أخلاقهم ، ويشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال . والقرآن يبعث في النفوس

(٥) لم يحمي الإسلام لساير العرب على ما كانوا عليه من عقائد باطلة وتقاليد غير مستحبة
بل جاء ليغير كل هذا إلى خير ، وقد فعل ذلك حقاً . وقد أمر بالرحمة والمغفرة ولكن في غير
ذلك لأنه دين قوة لا دين ضعف وخنوع . وللرسول مواقف تتجلى فيها هذه المغفرة . من
ذلك موقفه من قريش بعد فتح مكة التى آذته هو وأصحابه أشد الأذى ، فقد عفا عنهم جميعاً
وكان ما قال لهم « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . ويقول الله جل شأنه في سورة فصلت
« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة
كأنه ولى حميم .. » (٥)

الساذجة(*) أسهل العقائد ، وأقلها غموضاً ، وأبعدها عن التقيّد بالمراسم والطقوس ، وأكثرها تحرراً من الوثنية والكهنوتية . وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي ، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية ، وحضهم على اتباع القواعد الصحية ، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ، ومن الظلم والقسوة ، وحسن أحوال الأرقاء ، وبعث في نفوس الأذلاء الكرامة والعزة ، وأوجد بين المسلمين (إذا استثنينا ما كان يقترفه بعض الخلفاء المتأخرين) درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض . ولقد علم الإسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة ، ويتحملوا قيودها ، بلا شكوى ولا ملل ، وبعثهم في الوقت نفسه إلى التوسع توسعاً كان أعجب ما شهده التاريخ كله . وقد عرف الدين وحدده تمهيداً لا يجد المسيحي ولا اليهودي الصحيح العقيدة ما يمنعه من قبوله .

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين وفي الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (سورة البقرة الآية ١٧٧) .

(*) الأفضل أن يقال السليمة الفطرة ولقد آمن بالقرآن كثير من رجال العلم والفكر في كل عصر من العصور الماضية وفي هذا العصر الذي نعيش فيه ، كما آمن به من لا يحصون كثرة من الناس على اختلاف حظوظهم من العقل والفكر ، وما ذلك إلا لأنه جاء بالمعقّدة الحقة الراضعة التي يتقبلها الجميع . (ى)

الباب العاشر

سيف الإسلام

٦٣٢ - ١٠٥٨

الفصل الأول

الخلفاء الراشدون

٦٣٢ - ٦٦٠

مات النبي ولم يعين من يخلفه من بعده ، ولكنه كان اختار أبا بكر (٥٧٣ - ٦٢٤) ليؤم المسلمين في مسجد المدينة ، واقتنع المسلمون بعد شيء من الاضطراب والتنافس بأن هذا التفضيل يجعل أبا بكر أحق الناس بأن يختار أول خليفة لهم (*) .

ولم يكن لفظ خليفة في بادئ الأمر لقباً لأبي بكر ، بل كان مجرد وصف له . وساء ذلك الاختيار علياً ابن عم محمد وزوج ابنته ، وظل ستة أشهر ممنوعاً عن بيعة أبي بكر ، وغضب لذلك أيضاً العباس عم النبي وعلى . ونشأ عن هذا الخلاف الأول أكثر من عشر حروب ، كما نشأت عنه أسرة عباسية حاكمة ، وانقسام اضطرب به العالم الإسلامي .

وكان أبو بكر وقتئذ في التاسعة والخمسين من عمره ، وكان قصير القامة ، نحيف الجسم ، قوى البنية ، قليل الشعر ، أبيض اللحية حمراء الصبغة ، بسيطاً

(*) وكانت هناك أسباب أخرى كثيرة جعلت المسلمين يختارون أبا بكر خليفة لهم منها شدة إيمانه ومناصرتة للنبي وقوة أخلاقه والتفضحية في سبيل الدين بنفسه وبماله . (المترجم)

في معيشته ، متقشفاً ، رحياً في حزم ، يعنى شخصياً بجميع شئون الإدارة والقضاء جليلها وصغيرها على السواء ، لا يهدأ له بال حتى يأخذ العدل مجراه ، وظل يعمل ولا يتقاضى أجراً على عمله ، وظل شديد التقشف حتى أقنعه الشعب بأن ينزل قليلاً عن تقشفه ، ثم أوصى قبل وفاته بأن يعود إلى بيت مال المسلمين كل ما أرغم على أخذه منه . وحسبت قبائل بلاد العرب أن تواضعه ضعف . وإذا كان بعضها لم يتمكن الإسلام من قلوب أفرادها ، ومنهم من اعتنقه كارها ، فقد ارتد هؤلاء عنه ، وأبوا أن يؤدوا الزكاة التي فرضها عليهم الإسلام . ولما أصر أبو بكر على وجوب أدائها زحفوا على المدينة ، وجمع أبو بكر جيشاً في ليلة واحدة ، وقاده بنفسه في مطلع الفجر ، وبدد به شمل العصاة (٦٣٢) ، ثم أرسل خالد بن الوليد أشهر قواد المسلمين وأشدهم بطشاً ، لقتال المرتدين في جزيرة العرب وإرغامهم على أداء الزكاة .

وربما كانت هذه الفتنة الداخلية من العوامل التي أدت إلى فتح العرب غربى آسية ، ويلوح أن فكرة هذه المغامرة وهذا التوسع لم تكن تخاطر ببال أحد من زعماء المسلمين حين تولى أبو بكر الخلافة . وحدث أن بعض القبائل العربية الضاربة في بلاد الشام رفضت المسيحية والخضوع للدولة البيزنطية ، وصدت جيوش الإمبراطورية ، وأرسلت تطلب النجدة من المسلمين ، فأرسل إليها أبو بكر المدد ، وعمل على نشر كراهية الدولة البيزنطية بين القبائل العربية . وكانت هذه فرصة مواتية لضم شتات العرب وتوحيد صفوفهم في حرب خارجية ، وكان العرب - كما نعلم - قوماً ألفوا الحروب ، فلبوا نداء أبي بكر لخوض غمارها وقد بدت في أول الأمر قصيرة الأجل . وسرعان ما أصبح بدو الصحراء المشككون فيما مضى يضحون بحياتهم سبيل نصرته الإسلام .

واجتمعت أسباب عدة عملت كلها على اتساع ملك العرب ؛ فن الأسباب الاقتصادية أن ضعف الحكومة النظامية في القرن السابق لظهور النبي قد أدى

إلى انهيار نظم الرمي في جزيرة العرب^(١) ، فضعفت من جراء ذلك غلات الأرض الزراعية ، وحاقت بالسكان المتزايدين أشد الأخطار ، ولهذا فقد تكون الحاجة إلى أرض صالحة للزراع والرعي من العوامل التي دفعت جيوش المسلمين إلى الغزو والفتح^(٢) . يضاف إلى هذا عدة أسباب سياسية : منها أن الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية قد أنهكتهما الحروب ، وما حل بكليتهما من الدمار على يد الأخرى ، فكان ضعفتها مغرباً للعرب على غزو بلادها ؛ ولقد كانت الضرائب في ولايات الدولتين تزداد زيادة مطردة ، والأداة الحكومية تزداد عجزاً عن تصريف شؤون الحكم وحماية الأهليين ، كذلك كان للصلوات العنصرية بين المسلمين وسكان بعض الولايات شأن غير قليل في هذا التوسع . فقد كان في الشام والعراق قبائل عربية لم تجد صعوبة في قبولها حكم العرب الغزاة أولاً ، ثم اعتناق دينهم بعدئذ . يضاف إلى هذا عوامل دينية : منها أن اضطهاد بيزنطية لليعاقة والنساطرة وغيرهما من الشيع المسيحية قد أحفظ عليها قلوب أقلية كبيرة من السوريين والمصريين ، بل تعداهما إلى بعض الحاميات الإمبراطورية . ولما سار الفتح في طريقه زادت الأسباب الدينية قوة على قوتها ؛ فقد كان قادة المسلمين من صحابة النبي المتحمسين ، يصلون لله وهم يحاربون ، ويصلون أكثر مما يحاربون ، وقد يعثوا في قلوب أتباعهم على مر الأيام روحاً حماسية قوية اعتقدوا معها أن الموت في الجهاد يفتح لهم أبواب الجنة . وهناك فوق ذلك عوامل أخلاقية لها أيضاً شأنها في هذه الفتوح : ذلك أن المبادئ الأخلاقية المسيحية والرهينة قد أضعفتنا في بلاد الشرق الأدنى ذلك الاستعداد للقتال الذي كان من طبيعة العرب ومن تعاليم الإسلام . ولقد كانت جيوش العرب بحراً من جيوش الفرس والروم نظاماً وأحسن قيادة ، يأنفون المشاق وينالون جزاءهم من النوى ؛ لقد كان في وسعهم أن يحاربوا ووطنهم خاوية ، ويعتمدوا على النصر في الحصول على طعامهم . ولكنهم لم يكونوا في حروبهم هنجاً متوحشين ، انظر إلى ما أوصاهم

به أبو بكر : « أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تملأوا ؛ ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ؛ ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ؛ ولا تذهبوا شاة ولا بقرة ، ولا بعيراً إلا للأكلة ؛ وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ؛ وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآتية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منه شيئاً فاذكروا اسم الله عليه ؛ وتلقون قوما قد محضوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصاب فاخفقوهم بالسيف خفقا . . . اندفعوا باسم الله الخ » (٣) .

ولم يكن الأعداء يخيرون بين الإسلام والسيف ، بل كان الخيار بين الإسلام والجزية والسيف . وكانت هناك أخيراً أسباب حربية للغزو والفتح : ذلك أنه لما تضاعف عدد الجيوش العربية الظافرة ومن انضم إليها من المجندين كان لا بد من الزحف بهم إلى أرضين جديدة يفتحونها ليحصلوا منها على طعامهم وأجورهم إن لم يكن لغير ذلك من الأسباب . ونشأ من تقدمهم قوة هذا التقدم الدافعة ، فكان كل نصر يتطلب نصراً جديداً ، حتى أصبحت الفتوح العربية - التي كانت أسرع من الفتوح الرومانية ، وأبقى على الزمان من الفتوح المغولية - أعظم الأعمال إثارة للدهشة في التاريخ الحربي كله .

وحدث في أوائل عام ٦٣٣ ، بعد أن بسط خالد بن الوليد « لواء السلم » على جزيرة العرب ، أن دعت إحدى قبائل البدو الضاربة على حدود الجزيرة للانضمام إليها في محاربة بعض العشائر داخل حدود العراق ، وقبل خالد وخمسة مائة من رجاله الدعوة لأنهم لم يكونوا يطيقون التعطل أو الركون إلى السلم طويلاً ، وانضم إليهم ألفان وخمسة مائة من رجال القبائل ، وغزوا أملاك الفرس . ولسنا نعلم هل وافق أبو بكر على هذه الحملة قبل الإقدام عليها أو لم يوافق ، وسواء كان ذلك أو لم يكن فالظاهر أنه قبل ما أسفرت عنه من نتائج قبول الفلاسفة . واستولى خالد على الحيرة وأصاب فيها من النبي .

ونال كل فارس منه ما أنطق أبا بكر بقاتله الشهيرة : « يا معشر قريش عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خرازيله ، أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد ؟ » (٤) . ولقد أصبحت المرأة وقتئذ ذات شأن كبير في تفكير الظافرين ومغانمهم . وشاهد ذلك أنه بينما كان العرب يحاصرون حصن أثار قائد شاب من قواد العرب حماسة الجنود بأن وصف لهم جمال فتيات الشام ، ولما استسلمت الحيرة اشترط خالد على أهلها أن تعطى سيدة منها تدعى كرامة إلى جندي عربي قال إن النبي قد وعده بها « فاشتد على أهل بيتها ، وأهل قريتها ما وقعت فيه وأعظموا الخطر فقالت : لا تخطروه ولكن اصبروا ما تخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة ؟ فإنما هذا رجل أحق رأي في شبيبتى فظن أن الشباب يدوم ، فدفعوها إلى خالد ، فدفعها خالد إليه ، ثم اقتدت منه نفسها بألف درهم ، وكانت تسوى أضعاف ذلك (٥) .

وقبل أن يستمتع خالد بثمار انتصاره في الحيرة بعث إليه الخليفة يأمره بالسير لإنقاذ قوة من العرب يتهددها جيش من الروم أكثر منها عدداً بالقرب من دمشق . وكان بين الحيرة ودمشق في ذلك الوقت شقة من الصحراء الجذباء الخالية من موارد الماء يقطعها المسافر في خمسة أيام . فجمع خالد الإبل ، وسقاها الماء بوفرة ؛ وكان الجنود في أثناء زحفهم يأخذون الماء من بطون الإبل بعد ذبحها ، ويسقون خيولهم لبنها . ولما أن وصل هو وجنوده إلى الجيش العربي الرئيسي المعسكر على ضفاف نهر اليرموك على بعد ستين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من دمشق كانت تلك المؤن قد نفذت . وهناك كما يقول المؤرخون العرب هزم ٤٠,٠٠٠ (٢٥,٠٠٠ ؟) من العرب ٢٤٠,٠٠٠ (٥٠,٠٠٠ ؟) من الروم في إحدى المعارك الفاصلة التي لا حصر لها في التاريخ (٦٣٤) . وهكذا قام الإمبراطور هرقل ببلاد الشام كلها في معركة واحدة ، فلما خسرها أصبحت تلك البلاد قاعدة للدولة العربية الآخذة في الاتساع :

وبينما كان خالد يقود جيوشه إلى النصر في هذه المعركة ، إذ وصلته رسالة تنبئه بوفاة أبي بكر ويأمره فيها عمر الخليفة الجديد أن يتخلى عن القيادة لأبي عبيدة . وأخفى خالد الرسالة عن المسلمين حتى انتهت المعركة . وكان عمر أبو حفصة ابن الخطاب (٥٨٢ - ٦٤٤) أكبر معين لأبي بكر وأعظم مشيريه ، وكان قد بلغ من الشهرة درجة لم يجد معها أحد سبباً للاعتراض حين اختاره أبو بكر خليفة للمسلمين من بعده . غير أن عمر نفسه كان يختلف عن صديقه أبي بكر كل الاختلاف . كان طويل القامة ، عريض المنكبين ، حاد الطبع شديد الانفعال ، لا يتفق معه إلا في بساطته وتقشفه ، وفي أنه كان مثله أصلع الرأس يصبغ لحيته . وكانت صروف الدهر وتبعات الحكم قد أنضجت عقله فجعلته مزيجاً عجيباً نادراً من حدة الطبع والقدرة على الحكم الهادئ الصادق ؛ ويحكى عنه أنه ضرب بدويّاً من غير حق ثم ألح عليه - دون جدوى - أن يكيل له من الضربات بقدر ما كاله هو . وكان شديد التمسك بالدين يطلب إلى كل مسلم ألا يجيد قيد شعرة عن الفضيلة . وكان يحمل معه درة يضرب بها كل من يراه من المسلمين خارجاً على أصول الدين^(٦) . وتقول بعض الروايات إنه ضرب ابنه حتى مات من الضرب لمعاقرته الخمر^(٧) . ويقول المؤرخون المسلمون إنه لم يكن له إلا قيص واحد ، وجلاب واحد رقعته عدة مرات ، وإنه كان يعيش على التمر وخبز الشعير ، ولا يشرب غير الماء ، وإنه كان ينام على سرير من جريد النخل ، وهو لا يكاد يكون أقل صلابة وخشونة من قيص الشعر ، وإن همه كله كان منصرفاً إلى نشر الإسلام بالسلم والحرب . ويقال إن أحد ولادة الفرس جاء إلى عمر يعرض عليه ولاءه ، فوجد فاتح الشرق نائماً على عتبة جامع المدينة ؛ ولكننا لا نجزم بصحة هذه القصص وأمثالها .

وكان السبب الذي من أجله عزل عمر خالداً من القيادة أن « سيف الله » كثيراً ما لوث شجاعته بقسوته . ونظر القائد البأسل إلى مسألة تنحيته نظرة

ملوؤها الشهامة ، وما هو أجل من الشهامة ؛ فقد وضع نفسه تحت تصرف
أبي عبيدة بلا قيد ولا شرط . وأوّد، أبو عبيدة من الحكمة ما جعله يتبع
مشورة خالد في شئون الحرب ، ويعارض قسوته بعد النصر . وكان العرب
فرساناً مهرة لا يضارعهم في مهارتهم خيالة الفرس والروم ، ولم يكن في
أوائل العصور الوسطى إنسان أو حيوان يستطيع أن يقاوم صيحاتهم الحربية
العجيبة ، أو حركاتهم العسكرية الخيرة ، أو سرعة كرمهم وفرهم ؛ وكانوا
يحرصون عن أن يختاروا للنزال الأراضى المستوية التى توأم حركات
الفرسان . واستولى العرب في عام ٦٣٥ على دمشق ، واستولوا على أنطاكية في
عام ٦٣٦ ، وعلى بيت المقدس في عام ٦٣٨ ، ولم ينته عام ٦٤٠ حتى كانت
بلاد الشام في أيدي المسلمين ، وقبل أن يختم عام ٦٤١ كانوا قد أتموا فتح
بلاد الفرس ومصر . ووافق البطريرق سفرونيوس Sophronius على تسليم
بيت المقدس إذا جاء الخليفة نفسه للتصديق على شروط التسليم ، وقبل عمر
هذا الشرط ، وجاء من المدينة في بساطة أفخر من الفخامة ، ومعه عدل من
الحب وكيس من التمر ، ووعاء ماء ، وصحفة من الخشب . وخرج خالد
وأبو عبيدة وغيرهما من قواد الجيش لاستقباله ، فغضب حين أبصر ثيابهم
المهفهفة ، وعدد خيولهم المزركشة ، وألقى بحفنة من الحصباء في وجوههم
ولامهم على أنهم جاءوا يستقبلونه في ذلك الزى . وقابل سفرونيوس مقابلة
ملوؤها اللطف والمجاملة ، ولم يفرض على المغلوبين إلا جزية قليلة ، وأمن
المسيحيين على كنائسهم . ويقول المؤرخون المسيحيون إنه طاف مع البطريرق
بيت المقدس ، واختار في العشرة الأيام التى أقامها فيها موضع المسجد
الذى سُمى فيما بعد باسمه . ولما سمع أن أهل المدينة يخشون أن يتخذ بيت
المقدس عاصمة للدولة الإسلامية عاد إلى عاصمته الصغيرة .

وما كاد الأمر يستتب للمسلمين في بلاد الشام وبلاد الفرس حتى أخذوا
يهاجروون من جزيرة العرب إلى الشمال والشرق ، وكانت هذه الهجرة شبيهة.

هجرة القبائل الجرمانية إلى الولايات الرومانية التي غزتها هذه القبائل ،
وشملت الهجرة الرجال والنساء . . .

وبفضل هذه الهجرة والتسرى أصبح عدد العرب في بلاد الشام وفارس
نصف مليون نسمة قبل أن يحل عام ٦٤٤ . ونهى عمر الفاتح عن شراء
الأرض وفلاحها ، وكان يرجو أن يبقوا في خارج جزيرة العرب طبقة
عسكرية ، تمدهم الدولة بما يكفيهم ، لكي يحتفظوا بصفاتهم الحربية ، غير
أن أوامره في هذا قد أغفلت بعد موته ، بل إنها كاد يقضى عليها سخاؤه في
أثناء حياته ؛ ذلك أنه كان يوزع أربعة أخماس النوى على الجيش ، ويخص
بيت مال المسلمين بالخمس الباقي . ولم تابت أقلية الرجال ذوى العقول الكبيرة
أن جمعت معظم الطيبات من هذه الثروة العربية الآخذة في النماء ، وأخذ
أشراف قريش يشيدون القصور الفخمة في مكة والمدينة ، فكان للزبير بيوت
في عدة مدن مختلفة ، وكان يمتلك ألف جواد ، وعشرة آلاف عبد ؛ وكان
عبد الرحمن يمتلك ألف بعير ، وعشرة آلاف رأس من الضأن ، وأربعمائة
ألف دينار (١٠٠٠ ر ٩١٢ دولار) وكان عمر ينظر بحسرة وأسى إلى هذا
الترف الذي أخذ مواطنوه يتردون فيه .

وطعنه مولى فارسي وهو يوم الصلاة في المسجد (٦٤٤) ، ولم يستطع
عمر وهو على فراش الموت أن يقنع عبد الرحمن بأن يكون خليفة من بعده
فبعين ستة من زعماء المسلمين ليختاروا من يخلفه ؛ فاختاروا من بينهم
عثمان . وكان عثمان بن عفان شيخاً مسناً ، طيب القلب ، حسن النية ، أعاد
بناء مسجد المدينة وجمله ، وأعان بماله جيوش المسلمين التي نشرت
الإسلام في هيرات ، وكابل ، وبلخ ، وتفليس ، وفي ربوع آسية
الصغرى حتى البحر الأسود ، ولكنه لسوء حظه كان شديد الولاء لأشراف
بنى أمية الذين كانوا في أيام الإسلام الأولى ألد أعداء النبي ، فأقبل بنو أمية
على المدينة ليجنوا ثمار قرابتهم للخليفة ، ولم يكن في وسعه أن يقاوم مطالبهم .
ولم يلبث أن تولى بعض المناصب الهجرية أكثر من عشرة منهم كانوا يسخرون
(٧ - ج ١٢ - مجلد ٤)

من تزمت أتقياء المسلمين وبساطتهم . وانقسم المسلمون بعد أن هدأت سورة النصر أحزاباً متباغضة شديدة العداة ، المهاجرون القادمون من مكة ضد الأنصار أهل المدينة ، وأهل مكة والمدينة أصحاب السلطان ضد دمشق ، والكوفة ، والبصرة ، وهى المدن الإسلامية الآخذة فى النماء السريع ، وبنو هاشم أهل النبي وعلى رأسهم على ضد بنى أمية وعلى رأسهم معاوية حاكم الشام وابن أبى سفيان الد أعداء النبي فى بداية الدعوة . وفى عام ٦٥٤ أخذ رجل يهودى ممن اعتنقوا الإسلام يدعو فى البصرة إلى عقيدة ثورية ، مضمونها أن النبي سيبعث حياً على هذه الأرض ، وأن علياً أخط الناس بالخلافة ، وأن عثمان لا حق له فيها ، وأن من اختاروه لها جماعة من الطغاة الخارجين على الدين . ولما طرد هذا الداعية من البصرة نزع إلى الكوفة ، فلما أخرج من الكوفة انتقل إلى مصر حيث وجدت دعوته آذاناً صاغية واعتنقها كثيرون ، وخرج من مصر إلى المدينة خمسمائة من المسلمين وطلبوا إلى عثمان أن يعتزل الخلافة ، فلما أبى حاصروا بيته ، ثم اقتحموا عليه حجراته وقتلوه وهو يتلو القرآن (٦٥٦) .

وفرزعماء بنى أمية من المدينة وباع بنو هاشم علياً خليفة للمسلمين . وكان على فى شبابه مثلاً أعلى للتواضع ، والتقوى ، والنشاط ، والإخلاص للدين . وكان وقت أن بويع بالخلافة فى الخامسة والخمسين من عمره ، أصلم الرأس ، بمتلى" الجسم ، لطيف المعشر ، محسناً ، كثير التفكير ، متحفظاً فى قوله ؛ ولم يكن مرتاحاً لهذه المأساة التى عدت فيها السياسة على الدين ، وحلت فيها الدسائس محل الخشوع والإخلاص للإسلام والمسلمين . وطلب إليه أن يقتص من قتلة عثمان ، ولكنه تباطأ فتمكنوا من الفرار ؛ وطالب هو أن يعتزل من ولاهم عثمان مناصبهم ، فأبى معظمهم ؛ ولم يكتف معاوية برفض هذا الطلب بل نشر فى دمشق فيص عثمان الملتخ بالدماء ، وأصابع زوجته التى قطعت وهى تحاول الدفاع عنه . وظهرت قريش معاوية ، وكان بنو أمية هم المسيطرين وقتئذ عليها ، وخرج على "على"

طلحة والزبير من أصحاب الرسول ، وطالباها أيضاً بالخلافة . وخرجت عائشة زوج النبي من المدينة إلى مكة وانضمت إلى الثوار . ولما أعلن مسلمو البصرة انضمامهم للثائرين استنجد على بأهل الكوفة المضربين في القتال ، ووعدهم أن يتخذها عاصمة الدولة إذا هم لبوا نداءه . فأجابوا دعوته والتقى الجيشان في جنوبي العراق في واقعة الجمل - وسميت كذلك لأن عائشة كانت تخرض الجند على القتال من هودجها على ظهر الجمل . وهزم طلحة والزبير وقتلا ، وردت عائشة إلى بيتها معززة مكرمة ، ونقل على العاصمة إلى الكوفة القريبة من موقع بابل القديمة .

وجهاز معاوية في دمشق قوة أخرى لقتال علي . وكان معاوية خبيراً بشئون الدنيا غير متمزت في الدين ، وكان يرى في الدين بدبلا من الشرطة أقل منها نفقة ولكنه لا يصح أن يكون حائلا بينه وبين الاستمتاع بطيبات الحياة . وكان من الأغراض التي يبتغيها بمحاربة علي أن يعيد إلى الأقلية المصطفاة من قريش السلطة والزعامة اللتين كانتا لها قبل أيام النبي . وأعاد علي تنظيم قواه والتقت بجيش معاوية عند صفين على نهر الفرات (٦٥٧) . وكاد النصر يتم لعلي لولا أن عمرو بن العاص قائد جيش معاوية رفع المصاحف على أسنة الرماح طالباً تحكيم « كتاب الله » ، ولعله كان يعني بهذا اتباع الأوامر الواردة في القرآن (الكريم) . ورضى علي بهذا الطلب لإجابة لإلحاح جنوده ، واختير الحكمان وحدد لها ستة أشهر يفصلان خلالها في النزاع ويعود الجنود فيها إلى بيوتهم .

ولكن بعض رجال علي خرجوا عليه في ذلك الوقت ، وألقوا منهم جيشاً مستقلا وسما بالخوارج ، وقالوا إن الخليفة يجب أن يخاره الشعب وأن يكون من حقه أن يعزله ؛ وكان بعضهم فوضوين دينيين يرفضون كل حكومة ما عدا حكومة الله^(٩) وكانوا كلهم ينددون بما انغمس فيه حكام الإسلام الجدد من ترف وحب لمتاع الدنيا ، وحاول علي أن يعيدهم إلى الانضواء تحت لوائه بالحجة والإقناع فلم يفلح ، ثم استحالت تقواهم تعصبا ، وعبروا عنها بأعمال اتسمت بالعنف

والإخلال بالنظام ، فلم يسع علياً إلا أن يعلن عليهم الحرب ، ويشتت شملهم . واتفق الحكمان في الوقت المحدد لهما على أن يتنحى على معاوية عن الخلافة ، وأعلن ممثل على خلعه ، ولكن عمراً لم يخلع معاوية بل ثبته خليفة للمسلمين . وفي هذا الاضطراب هجم رجل من الخوارج على عليّ بالقرب من الكوفة وطعنه في رأسه بسيف مسموم (٦٦١) . وأصبح المكان الذي مات فيه عليّ مزاراً مقدساً عند طائفة الشيعة التي تقدسه أعظم التقديس ، واتخذت ضريحه مكاناً نحج إليه كما يحج سائر المسلمين إلى مكة نفسها .

وبايع المسلمون في العراق الحسن بن علي بالخلافة ، وزحف معاوية على الكوفة ، فاستسلم له الحسن ، وقرر له معاوية مالا يعيش منه ، وانسحب الحسن إلى مكة ، ومات في الخامسة والأربعين من عمره (٦٦٩) ، فمن قائل إن الخليفة دس له السم ، ومن قائل إن زوجة من زوجاته دفعتها الغيرة إلى أن تدسه له . وبايع المسلمون جميعاً معاوية على كره منهم ، ولكنه أراد أن يضمن السلامة لنفسه ، ورأى أن المدينة بعيدة عن مركز العالم الإسلامي والسلطة الإسلامية ، فاتخذ دمشق مقراً للخلافة . وهكذا انتصرت الأرستقراطية القرشية على الهاشميين آل بيت النبي ، واستحالت « الجمهورية » الدينية ، وهي الحكومة التي كانت قائمة أيام الخلفاء الراشدين ، ملكية دنيوية وراثية . وحل حكم الساميين في غرب آسية محل حكم الفرس والروم ، وظهرت آسية من تلك السيطرة الأوربية التي ظلت قائمة فيها ألف عام ، وشكلت بلاد الشرق الأدنى ومصر وشمال أفريقيا بالشكل الذي احتفظت به في جوهره ثلاثة عشر قرناً من الزمان .

الفصل الثاني

الخلافة الأموية

٦٦١ - ٧٥٠

يجب علينا ألا نظلم معاوية . لقد استحوذ على السلطة في بادئ الأمر حين عينه عمر الخليفة الفاضل النزيه والياً على الشام ، ثم بزعه الثورة التي أوقد نارها مقتل عثمان ، ثم بما دبره من الدسائس البارعة التي أغتته عن الالتجاء إلى القوة إلا في ظروف جد نادرة ، ومن أقواله في هذا المعنى « لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت » قيل : وكيف يا أمير المؤمنين ؟ قال : « إذا مدوها خلتها وإن خلوها مددتها » (١٠) .

ولقد كان طريقه إلى السلطة أقل تخضباً بالدماء من طرق معظم من أسسوا أسرا حاكمة جديدة .

وكان يحس كما يحس كثيرون من المغتصبين أنه بحاجة إلى أن يحيط عرشه بالأبهة والمظاهر الفخمة ، وتشبه في هذا بأباطرة الدولة البيزنطية ، الذين تشبهوا هم أنفسهم بملك ملوك الفرس . وإن بقاء هذا الطراز من الحكومة الملكية الفردية من عهد قورش إلى يومنا هذا ليوحى بصلاحيته لحكم الشعوب الجاهلة واستغلالها . وكان معاوية نفسه يشعر بأن حكمه هذا يبرره ما عاود على البلاد في أثنائه من الرخاء ، وانقطاع النزاع بين القبائل ، وما بلغت الدولة العربية الممتدة من نهر جيحون إلى نهر النيل من قوة وتماسك . وكان يرى ألا سبيل إلى اتقاء النزاع الذي لا بد أن يحدث عند اختيار الخليفة إذا ما اتبع مبدأ الانتخاب ، وما يؤدي إليه

هذا النزاع من اضطراب وفوضى ، إلا إذا استبدك به النظام الوراثي ، فنأدى بآبته يزيد ولياً للعهد ، وأخذ له البيعة من جميع ولايات الدولة العربية : ومع هذا فإنه لما مات معاوية (٦٨٠) اشتعلت نار الحرب من أجل وراثة العرش ، كما اشتعلت في بداية حكمه . فقد أرسل مسلمو الكوفة إلى الحسين بن علي يعدونه بتأييد اختياره للخلافة إذا جاءهم واتخذ بلدهم مقراً لها . وخرج الحسين من مكة ومعه أسرته وسبعون من أتباعه المخلصين له ، ولما أصبحت تلك القافلة على بعد خمسة وعشرين ميلاً في شمال الكوفة قابلتها قوة من جنود يزيد بقيادة عبيد الله ، وعرض حسين أن يسلم ، ولكن من كانوا معه أبو إلا القتال . وأصاب أحد السهام الأولى قاسماً ابن أخي الحسين وهو غلام في العاشرة من عمره ، فمات بين ذراعي عمه ، ثم سقط من بعده إخوة الحسين وأبناؤه ، وبنو أعمامه ، وأبناء إخوته واحداً بعد واحد ، حتى لم يبق أحد ممن كانوا معه ، واستولى الرعب والهلج وقتل على النساء ، ولما حمل رأس الحسين إلى الكوفة أقبل عبد الله ينكثه بالقضيب ، فقال له أحد الحاضرين : « ارفع قضيبك فطال والله ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع فمه على فمه يلثمه » (١١) (٦٨٠) . وأقام الشيعة في كربلاء حيث قتل الحسين شهيداً عظيماً تخليداً لذكراه ، ولا يزالون حتى اليوم يمثلون في كل عام مأساة قتله ، ويظهرون في ذلك أشد الحزن والأسى ، ويمجدون ذكرى علي وولديه الحسن والحسين .

كذلك ثار على يزيد عبد الله بن الزبير ، ولكن جنود يزيد السوريين هزموه وحاصروه في مكة ، وسقطت الحجارة من مجانيقهم في فناء الكعبة ، وانكسر منها الحجر الأسود ثلاث قطع ، واشتعلت النار في الكعبة نفسها ، والتمتها عن آخرها (٦٨٣) . ثم رفع الحصار عنها فجأة ، فقد مات يزيد واحتيج إلى الجيش في دمشق . وأعقب موتة سنان سادت فيهما الفوضى وتولى الخلافة فيها ثلاثة من الخلفاء جاء يعدهم عبد الملك بن مروان ابن عم معاوية فقضى على

هذا الاضطراب وأخذ الفتنة بشجاعة وقسوة ، فلما استتب له الأمر حكم البلاد بكثير من الرأفة ، والحكمة والعدالة . وأخضع قائده الحجاج بن يوسف أهل الكوفة وأعاد حصار مكة . ودافع عنها عبد الله ، وكان وقتئذ في الثانية والسبعين من عمره ، دفاع الأبطال ، وكانت أمه المعمرة تشجعه وتحرضه ، ولكنه هزم وقتل ، وحمل رأسه إلى دمشق ؛ وبعد أن ظل جسده مصلوباً بعض الوقت ، اسلم إلى أمه (٦٩٢) . وفي سنة السلم التي أعقبت هذا القتال ، أخذ عبد الملك يقرض الشعر ، ويناصر الأدب ، ويعني بشئون بيته ، ويربي أبنائه الخمسة عشر ، وقد تولى الخلافة منهم أربعة .

ودام حكمه عشرين عاماً مهد فيها السبيل للأعمال العظيمة التي قام بها ابنه الوليد الأول (٧٠٥ - ٧١٥) . ففي عهده واصل العرب فتوحهم ، فاستولوا على بلخ في عام ٧٠٥ ، وعلى بخارى في عام ٧٠٩ ، وفتحوا أسبانيا في عام ٧١١ ، وسمرقند في ٧١٢ . وفي الشرق حكم الحجاج البلاد بحزم وجد وقام فيها بأعمال لإنشائية لا تقل عما لجأ إليه في هذا الحكم من قسوة : فقد جفف المستنقعات ، وأصلح كثيراً من الأراضي وأعدّها للزراعة ، وأعاد فتح ما طمر من قنوات الري وأصلحها . ثم لم يقنع بهذه الأعمال فأحدث انقلاباً كبيراً في طريقة الكتابة باستعمال حركات الإعراب ، وكان الحجاج مدرساً قبل أن يكون والياً . أما الوليد نفسه فكان مثلاً طيباً للحكام ، يعنى بشئون الإدارة أكثر من عنايته بالحرب ، ويشجع الصناعة والتجارة بفتح الأسواق الجديدة وإصلاح الطرق ، وينشئ المدارس والمستشفيات - ومنها أول مستشفى معروف للأمراض المعدية - وملاجئ للشيوخ ، والعجزة ، والمكفوفين ، ويوسع مساجد مكة والمدينة وبيت المقدس ويحملها ، وينشئ في دمشق مسجداً أعظم من هذه المساجد وأفخم لا يزال باقياً فيها حتى اليوم . وكان يجهد بين هذه المشاغل كلها متسعاً من الوقت يقرض فيه الشعر ، ويؤلف الألحان الموسيقية ، وينضرب على العود ،

ويستمع إلى غيره من الشعراء والموسيقين ، ويخصص من كل يومين يوماً للمنادمة (١٣) .

وخلفه أخوه سليمان (٧١٥ - ٧١٧) ، فأضاع المال والرجال في محاولة فاشلة للاستيلاء على القسطنطينية ، وسلى نفسه بالطعام والنساء ، ولم يذكره الناس بخير إلا لأنه أوصى بالخلافة لابن عمه عمر بن عبد العزيز (٧١٧ - ٧٢٠) . واعتزم عمر أن يكفر في خلافته عن جميع ضروب الفساد التي ارتكبتها أسلافه من خلفاء بني أمية . فجعل حياته كلها وفقاً على إحياء شعائر الدين ونشره فتشرف في لباسه ، وارتدى الثياب المرقعة حتى لم يكن أحد يظن أنه هو خليفة المسلمين ، وأمر زوجته بأن ترد إلى بيت المال ما أهداه إليها والدها من الحلى النفيسة فصعدت بالأمر ، وأبلغ أزواجه أن واجبات الحكم ستشغله عن الالتفات إليهن وأذن لمن شئن منهن أن يفارقه . ولم يلتفت إلى الشعراء ، والخطباء ، والعلماء الذين كانوا يعتمدون في معيشتهم على بلاط الخلفاء ، بل قرب إليه أتقى العلماء في الدولة واتخذهم له أعواناً ومستشارين . وعقد الصلح مع الدول الأجنبية ، وأمر برفع الحصار عن القسطنطينية وعودة الجيش الذي كان يحاصرها ، واستدعى الحاميات التي كانت قائمة في المدن الإسلامية المعادية لحكم الأمويين . وبينما كان أسلافه من خلفاء الأمويين لا يشجعون غير المسلمين في بلاد الدولة على اعتناق الإسلام ، حتى لا تقل الضرائب المفروضة عليهم ، فإن عمر قد شجع المسيحيين ، واليهود ، والزرادشتيين على اعتناقه ، ولما شكوا إليه عماله القائمون على شئون المال من أن هذه السياسة ستفقير بيت المال أجابهم بقوله : « والله لو ددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا » (١٤) .

ولما أراد بعض مستشاريه أن يقفوا حركة الدخول في الإسلام بأن حتموا بالختان على معتقيه فعل عمر ما فعله القديس بولس من قبل ، فأمرهم بالاستغناء

عن الختآن . ثم فرض قيوداً شديدة علي من امتنعوا عن الإسلام ، فحرم عليهم مناصب الدولة ، ومنعهم من بناء معابد جديدة ، ودامت خلافته أقل من ثلاث سنين مرض بعدها ومات .

وكان يزيد الثاني (٧٢٠ - ٧٢٤) يختلف كل الاختلاف في أخلاقه وعاداته عن عمر بن عبد العزيز . كان يزيد يحب جارية تدعى حبيبة بقدر ما كان عمر يحب الإسلام . وكان قد ابتاعها في شبابه بأربعة آلاف قطعة من الذهب ، وأرغمه أخوه سليمان ، وكان هو الخليفة في ذلك الوقت ، أن يردها إلى بائعها ، ولكن يزيد لم ينس جمالها وحنانها ؛ فلما ولي الخلافة سأله زوجته هل بقي له شيء في العالم يرغب فيه ؟ . فأجابها « حبيبة » فبعثت زوجته الوفية من فورها إلى حبيبة ، وأهدتها إليه ، وانزوت هي في مجاهل الحريم ؛ ويروى أنه بينما هو يلهو مع حبيبة في يوم من الأيام إذ أتى أثناء لوه ببلدرة عنب في فيها ، فاختنقت وماتت بين ذراعيه . وحزن عليها يزيد حزناً مات من أثره بعد أسبوع من وفاتها .

وحكم هشام (٧٢٤ - ٧٤٣) الدولة سبعة عشر عاماً حكماً عادلاً سادت فيه السلم ، وأصلح في خلاله الشئون الإدارية ، وخفض الضرائب ، وترك بيت المال بعد وفاته مليئاً بالأموال . ولكن فضائل القديس قد تكون سبباً في القضاء على الحاكم : فقد منيت جيوش هشام بعدة هزائم ، وثار نقع الفتنة في الولايات ، وعم الاستياء العاصمة التي كانت تتوق إلى خليفة مبئر متلاف . وجاء من بعده خلفاء جملوا بالعار تلك الأسرة التي امتاز خلفاؤها الأولون بالقدرة والمهارة ، فعاشوا عيشة الترف والفساد ، وأهملوا شئون الحكم . فكان الوليد الثاني (٧٤٣ - ٧٤٤) فاسد الأخلاق ، خارجاً على قواعد الدين ، منغمساً في الشهوات البدنية ولما سمع نبأ وفاة عمه هشام سره النبأ أيما سرور ، وقبض على ابن هشام نفسه ، وصادر أموال أهل الخليفة المتوفى ، وبدد أموال الخزانة بحكمه الفاسد ، وهبته التي لاحد

لها . ويروى عنه أعداؤه أنه كان يسبح في بركة من الخمر ، ويشفي منها غلته وهو ساجح فيها ، وأنه ضرب القرآن بالنبال (*) (١٤) . وقتل يزيد بن الوليد الأول هذا الخليفة المستهتر الماجن ، وتولى الخلافة ستة أشهر ومات في عام ٧٤٤ . وخلفه على العرش أخوه إبراهيم ، ولكنه لم يستطع حمايته ، فخلعه أحد قواده الأقباء هو مروان الثاني ، وحكم ست سنين بملئته بالمآسى ، وكان هو آخر الخلفاء من بني أمية في الشرق .

وإذا نظرنا إلى أعمال الخلفاء من بني أمية من وجهة النظر الدنيوية حكمنا بأن هذه الأعمال قد عادت بالخير على الإسلام . فقد وسعوا حدود البلاد السياسية إلى مدى لم تبلغه قط فيما بعد . وإذا ما استثنينا بعض فترات مشثومة من تاريخهم فإنهم قد حكموا اللولة الجديدة حكماً منظماً حراً . لكن نظام الملكية المطلقة الوراثة أدى إلى ما يؤدي إليه عادة في جميع البلاد ، فتولى الخلافة في القرن الثامن خلفاء عاجزون أفقروا بيت المال ، وتركوا شئون الحكم للخصيان ، وفقدوا السيطرة على النزعة الانفرادية العربية ، التي حالت في أكثر الأوقات بين المسلمين وبين قيام دولة إسلامية موحدة . وقد ظل النزاع بين القبائل لم تنقطع أسبابه وإن استحال نزاعاً بين الأحزاب السياسية ؛ فقد كان بنو هاشم وبنو أمية يكره بعضهم بعضاً ، كأن أوأشج القرني بينهم قد أضحت أشد وأقرب مما كانت في أيامهم السابقة . ونفرت بلاد العرب ومصر والفرس من سيطرة دمشق عليها ، وأخذت الفرس يدعون أنهم أرق من العرب ، وأنهم لذلك لا يطيقون أن يحكمهم بلاد الشام ، وقد كانوا من قبل لا يدعون أكثر من أنهم لا يقلون شأناً عن العرب . وساء أبناء النبي أن يروا بلاد المسلمين يتولى شئونها خلفاء من بني أمية الذين كان منهم أشد

(*) وهو يقول :

أتوعد كل جبار عنيد فما أنا ذاك جبار عنيد
إذا لآت ربك يوم حشر فقل لله رمزقني الوليد

أعداء النبي وآخر من آمنوا به ، وروعهم فساد أخلاق الخلفاء الأمويين ، ولعابهم قد روعهم كذلك تساهلهم الديني ، وكانوا يدعون الله أن يرسل من قبله من ينقدهم من هذا الحكم المذل .

ولم يكن ينقص هذه القوى المعادية إلا شخصية قوية مبدئة توخذ صفوفها وتنطقها بمطالبها . وقبض لها هذا الزعيم في شخص أبي العباس السفاح حفيد حفيد أحد أعمام النبي ، فتولى قيادتها من مكن لها في فلسطين ، ونظم الثورة في الولايات واستمال إليه الوطنيين الشيعة في بلاد الفرس فأيدوه أشد الأيديد ، حتى إذا كان عام ٧٤٩ نادى بنفسه خليفة في الكوفة . والتقى جيش مروان الثاني بالثوار يقودهم عبد الله عم أبي العباس على نهر الزاب ، فهزم مروان وجيوشه ، وبعد عام من هزيمته استسلمت دمشق بعد أن ضرب عليها الحصار . ثم قبض بعدئذ على مروان وقتل وحمل رأسه إلى أبي العباس ؛ ولكن الخليفة الجديد لم يكتف بهذا ، وقال :

« لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني »

وسمى أبو العباس بالسفاح أي سفاك الدماء لأنه أمر بأن يطارد أمراء بني أمية ويقتلوا أبنا وجدوا ، ليقضى بذلك على ما عسى أن يقوم به أفراد الأسرة الساقطة من فتن . ونفذ عبد الله ، الذي عين واليا على الشام ، هذا الأمر ، في يسر وسرعة ، فأعلن عفواً عاماً عن الأمويين ، وأكده لهم بدعوة ثمانين من زعمائهم إلى وليمة . وبينما هم على الطعام إذا أشار إلى جنوده في محبتهم ، فخرجوا عليهم ورموا رؤوسهم بالسيوف ، ثم فرشت الطناقس فوق جثث القتلى ، واستمرت المأدبة : واستبدل بزعماء الأمويين رجال من العباسيين جلسوا فوق جثث أعدائهم ، يشنفون أسماعهم بأنين الموتي . وأخرجت جثث بعض الموتي من خلفاء بني أمية ، وسيطت هياكلهم العظمية التي كادت أن تكون عارية من اللحم ، وشنقت وحرقت ، وذر رمادها في الريح (١٥) .

الفصل الثالث

الخلافة العباسية

(٧٥٠ - ١٠٥٨)

١ - هرون الرشيد

وجد أبو العباس السفاح نفسه حاكماً لدولة واسعة الأرجاء تمتد من نهر السند إلى المحيط الأطلنطي ، وتشمل بلاد السند (الشمال الغربي من الهند) ، وبلوخستان وأفغانستان ، والتركستان ، وفارس ، وأرض الجزيرة ، وأرمينية ، والشام ، وفلسطين ، وقبرص ، وكريت ، (إقريطش) ، ومصر ، وشمال أفريقيا . ورفضت أسبانيا المسلمة الخضوع إليه ، وخرجت بلاد السند عن طاعته في السنة الثانية عشرة من حكمه . ورأى السفاح أن دمشق تكرهه ، وأنه لا يأمن على نفسه في مدينة الكوفة المشاكسة المضطربة ، فنقل العاصمة إلى الأنبار الواقعة في شمال الكوفة . وكانت الكثرة الغالبة ممن رفعوه إلى العرش فرساً في ثقافتهم وأصولهم . وبعد أن ارتوى السفاح من دماء أعدائه اصطبغ بلاطه بشيء من الرقة ودماثة الأخلاق الفارسية ، وجاءت من بعده طائفة من الخلفاء المستنيرين ، استخدموا ثروة الدولة المتزايدة في مناصرة الفنون والآداب ، والعلوم ، والفلسفة حتى ازدهرت وأثمرت أروع الثمار ؛ وبعد أن مضت مائة عام على بلاد الفرس ، وهي في ذلة الخضوع غلبت غالبياً .

ومات السفاح بالحمى في عام ٧٥٤ ، وخلفه أبو جعفر أخوه من أبيه ولقب بالمنصور ، وكانت أمه جارية من البربر ، وكانت أمهات جميع خلفاء العباسيين السبعة والثلاثين لإثلاثة منهم جواري . وقد أدى إلى هذا ماجرى عليه الخلفاء

من عادة اتخاذ السرارى وجعل أبنائهم منهن أبناء شرعيين . وبهذه الوسيلة كان عدد أفراد الطبقة الأرستقراطية الإسلامية يزداد على الدوام بتأثير المصادفة وطابعها الديمقراطي ، ومصائر الحب والحرب . وكان الخليفة الجديد في سن الأربعين ، طويل القامة ، نحيف الجسم ، ملتحمياً ، أسمر البشرة ، شديداً في معاملاته . ولم يكن أسيراً بلحال للنساء ، أو مدمناً للخمر ، أو مولعاً بالغناء ؟ ولكنه كان يناصر الآداب ، والعلوم ، والفنون ؛ ويمتاز بعظيم قدرته ، وحزمه ، وشدة بطشه . وبفضل هذه الصفات نبت دعائم أسرة حاكمة لولاه لمئات بموت السفاح . وقد وجه جهوده لتنظيم الأداة الحكومية ، وبنى مدينة فخمة هي مدينة بغداد واتخذها عاصمة للدولة ، وأعاد تنظيم الحكومة والجيش في صورتيهما اللتين احتفظا بهما إلى آخر أيام الدولة ، وكان يشرف بنفسه على كل إدارة في دولاب الحكومة ، وعلى جميع أعمال هذه الإدارات ، وأرغم الموظفين المرتشين الفاسدين - ومنهم أخوه نفسه - على أن يردوا إلى بيت المال ما ابتزوه من أموال الدولة . وكان يراعى جانب الاقتصاد بل قل الحرص الشديد في إنفاق الأموال العامة ، حتى نفر منه الأصدقاء ، وأطلق عليه لشحه لقب « أبي الدوائق »^(١٦) . وقد أنشأ في بداية حكمه نظام الوزارة الذي أخذه عن الفرس ، وكان له شأن عظيم في تاريخ العباسيين ؛ وكان أول من شغل منصب الوزير في عهده هو خالد ابن برمك . وقد اضطلع بواجب خطير في حكم الدولة ، وكان له شأن فيما وقع في أيام الدولة العباسية من أحداث جسام . وعمل المنصور وخالد على إيجاد النظام والرخاء اللذين جنى ثمارهما هرون الرشيد .

ومات المنصور بعد أن حكم البلاد حكماً صالحاً دام اثنتين وعشرين سنة وكان موته وهو في طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج . ولم يكن في وسع ابنه المهدي (٧٧٥ - ٧٨٥) إلا أن يسلك في حكمه سبيل الخير . وقد شمل عفوه جميع المذنبين إلا أشدهم خطراً على الدولة ، وأنفق الأموال الطائلة في تجميل المدن

وناصر الموسيقى والآداب ، وأظهر في حكم البلاد كفاية ممتازة . وكانت
بيزنطية قد انتهزت فرصة الثورة العباسية لاستعادة بعض الأقاليم التي فتحها
العرب في آسية الصغرى ، فسير عليها المهدي جيشاً بقيادة ابنه هرون
لاسترداد هذه البلاد . وأخرج هرون الروم منها وردهم إلى القسطنطينية ،
وهدد تلك المدينة نفسها تهديداً اضطر الإمبراطورة إيرينة(*) Irene أن تعقد
معه صلحاً تعهدت بمقتضاه أى تؤدى للخليفة جزية سنوية مقدارها ٧٠,٠٠٠
دينار (٨٣٢,٠٠٠ دولار) (٧٨٤) . ومن ذلك الوقت أطلق المهدي على
ابنه اسم هرون الرشيد . وكان قبل ذلك قد اختار ابناً آخر من أبنائه اسمه
الهادى ولياً للعهد ، فلما رأى ما امتاز به هرون من كفاية عظيمة طلب إلى
الهادى أن ينزل عن حقة لأخيه الأصغر . وكان الهادى وقتئذ يقود جيشاً
في بلاد الشرق فأبى أن يجيب أباه إلى طلبه ، ورفض أن يطيع أمره بالعودة
إلى بغداد . فخرج المهدي وهرون للقبض عليه ، ولكن المهدي توفى في
الطريق ، وكان حين وفاته في الثالثة والأربعين من عمره . ورأى هرون
اتباعاً لنصيحة الوزير يحيى بن خالد البرمكى أن يبايع الهادى بالخلافة ، على
أن يكون هو ولياً للعهد ، غير أنه إذا كان في وسع عشرة من الدراويش
أن يناموا على بساط واحد فإن ملكين لا تتسع لهما مملكة بأكملها كما يقول
السعدى^(١٧) في كتابه : فلم يعترف الهادى لأخيه بولاية العهد ، وسجن
يحيى ، ونادى بابنه ولياً لعهد . ثم مات الهادى بعد زمن قصير (٧٨٦) ،
وراجت إشاعة بأن أمه ، وكانت تفضل عليه هرون ، كتمت أنفاسه بوسادة
وضعتها على فمه . وارتقى هرون العرش ، واتخذ يحيى وزيراً له ، وبدأ أشهر
حكم في تاريخ الإسلام .

وتصور لنا القصص - وخاصة قصص ألف ليلة وليلة - هرون الرشيد في
صورة الملك المرح ، المثقف ، المستنير ، العنيف في بعض الأوقات ، الكريم
الرحيم في أغلب الأحيان ، المولع بالقصص الجميلة ولعاً يحمله على أن يسجلها ويحفظ

(*) هكذا يسميها المؤرخون العرب . (المترجم)

ها في ديوان محفوظات الدولة (١٨) . وتبدو هذه الصفات كلها فيما كتبه عنه المؤرخون إذا استثنينا منها مرحة ؛ ولعل السبب في ذلك أن هذا المرح قد أغضب المؤرخين . فهم يصورونه أولاً وقبل كل شيء في صورة الرجل الورع المتمسك ، أشد التمسك بأوامر الدين ، ويقولون إنه فرض أشد القيود على حرية غير المسلمين ، وإنه كان يحجج إلى مكة مرة كل عامين ، وإنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة مع الصلوات المفروضة (١٩) . ويقال إنه كان يشرب الخمر ، ولكن هذا لم يكن إلا سراً مع عدد قليل من خاصة أصدقائه (٢٠) . ويقال إنه تزوج من سبع نساء (*) وكان له عدد من السراري رزق منهم بأحد عشر ولداً ، وأربع عشرة بنتاً ، كلهم وكلهن من الجوارى عدا الأمين ابنة من الأميرة زبيدة . وكان كريماً سمحاً في أمواله على اختلاف أنواعها . من ذلك أنه لما أحب ولده البلمون إحدى فتيات قصر أبيه ، أهداها إليه الخليفة ، ولم يسأله ثمناً لها إلا أن ينظم بعض أبيات من الشعر (٢١) ، لأنه كان يحب الشعر أشد الحب ، ويستمتع به استمتاعاً يحمله في بعض الأحيان على أن يثقل الشاعر الذي يعجب بشعره بالهدايا من غير حساب . من ذلك أنه أهدى الشاعر مروان على قصيدة مدحه بها خمسة آلاف قطعة من الذهب (٧٥٠ ر ٢٣ دولار) (***) ، وحلة ثمينة ، وعشر جوار من بنات الروم ، وجواداً كريماً (٢٢) . وكان أحب رفاقه إليه الشاعر الماجن أبو نواس . وكان كثيراً ما يغضب على أبي نواس لسفهه وسوء سيرته ، ولكنه كان في كل مرة يصفح عنه بلحودة شعره . وقد جمع حوله في بغداد عدداً عظيماً من الشعراء ، والفقهاء ، والأطباء ، والنحويين وعلماء البلاغة ، والراقصات والراقصين ، والفنانين ، والفكهين المرحين . وكان يتقد أعمامهم وأقوالهم نقد العالم الخبير صاحب الذوق السليم ، ويحزيمهم عليها بسخاء ،

(*) لعل المؤلف يضيف الجوارى إلى الأزواج لأن الإسلام يحرم الزواج بأكثر من أربع . (المترجم)
(**) يقصد المؤلف بقطعة الذهب في هذه الفصول الدينار ويقدره بأربعة دولارات أمريكية وثلاثة أرباع الدولار من نقود هذه الأيام ، حسب القوة الشرائية للدينار في تلك الأيام . (المترجم)

ويتلقى في نظير ذلك الاف القصائد في مديحه والتغنى بجموده . وكان هو نفسه عالماً وشاعراً ، وخطيباً بليغاً . قويا (٢٣) . ولسنا نعلم في التاريخ كله أن حاشية للملوك قد جمعت مثل ما جمعت حاشية الرشيد من ذوى العقول الراجحة الناهين . وكان يعاصره في غير بلاد الإسلام الإمبراطورة إيرينة في القسطنطينية ، والملك شارلمان في فرنسا ، ومن قبله بزمن قليل كان يجلس على عرش بلاد الصين تسوان دزونج Tsuan Tsung ، ولكن هرون الرشيد بزهم جميعاً في الثراء ، والسلطان ، وأبهة الملك ، والتقدم الثقافي الذى ازدان به حكمه .

غير أن ولعه بالعلم والقرن لم يلهه عن مهام الملك . فقد كان يشترك اشتراكاً فعلياً في تصريف شئون الحكم ، ونال شهرة واسعة بعدله في قضاائه ، وترك الخزانة عند وفاته عامرة بالمال فيها ٤٨٠٠٠٠٠٠ دينار - على الرغم من أبهة الملك والهبات التى لم يسبق لها مثيل . وكان يقود جيوشه بنفسه في ميادين القتال ، وقد احتفظ بتخوم البلاد سليمة آمنة . غير أنه كان يعهد بالشئون الإدارية وبالخطط السياسية إلى وزيره الحكيم يحيى . فقد دعا إليه عقب جلوسه على العرش يحيى البرمكى وقال إنه يعهد إليه أمر جميع رعاياه ليحكمهم كما يشاء ، فيعزل من يشاء ، ويولى من يشاء ، ويصرف الأمور كما يرى ، وأيد قوله هذا بأن أعطاه خاتمه (٢٤) . وكان هذا إفراطاً خطيراً في ثقته بالوزير ، ولكن هرون كان يرى أنه ، وهو لا يزال شاباً في الثانية والعشرين من عمره . لم يكمل استعداده بعد لحكم الدولة الواسعة التى آل أمرها إليه ، وكان عمله هذا تعبيراً عن شكره لرجل كان أستاذاً ومربياً له بدعوه إذا دعاه بوالده ، وقد ذاق عذاب السجن في سبيله .

وأثبت يحيى أنه أقدر الحكام في تاريخ العالم كله . لقد كان رجلاً بشوشاً ، دمث الأخلاق ، جواداً حكيماً ، مجدداً لا يعمل من العمل ؛ رفع دولاب الحكومة إلى أعلى درجات الكفاية ، وثبت دعائم النظام ، وأقر الأمن ، ونشر لواء العدالة ، وأنشأ الطرق ، والجسور ، والخانات ، واحتفر قنوات الري ، فعم

الرخاء جميع ولايات الدولة ، وإن كان قد فرض عليها ضرائب عالية ليملاً بها خزانة الخليفة وخزائنه هو ، ذلك أنه هو أيضاً قد حدا حدو سيده في مناصرة الآداب والفنون . وقد عين ولديه الفضل وجعفر في منصبين كبيرين من مناصب الدولة ، فسارا فيهما أحسن سيرة ، وأثريا منهما ثراء عظيماً ، فأنشأ القصور ، وبجما حولها طائفة كبيرة من الشعراء ، والندماء ، والفلاسفة . وكان هرون يحب جعفر حباً أطلق السنة السوء في علاقتهما الشخصية ، ويقال إن الخليفة أمر بأن تصنع له جبة ذات طوقين يلبسها هو وجعفر معا فيبدوان كأنهما رأسان فوق جسم واحد ، ولعلمهما كانا في هذا الثوب يمثلان حياة بغداد الليلية^(٢٥) .

ولسنا نعرف بالبدقة سبب النكبة المفاجئة التي قضت على سلطان البرامكة . فابن خلدون يقول إن سببها الحقيقي هو « أنهم كانوا قد قبضوا على ناصية الأمور كلها ، وتصرفوا بأموال الدولة دون رقيب حتى أصبح الرشيد يطلب المبالغ الصغيرة فلا يجدها إلا بإذن من الوزير^(٢٦) .

ولعل السبب أنه لما جاوز هرون سن الشباب ، ولم يجد في الجرى وراء الملاذ الجسمية والعقلية متنفساً لكفاياته ومواهبه ، ندم على ما خص به وزيره من قوة وسلطان . وقد حدث أن أمر الخليفة جعفر بأن يقتل أحد الخارجين عليه ، فتغاضى جعفر عن الأمر حتى تمكن الثائر من الهرب ، ولم يغفر هرون له هذا الإهمال المحبب إلى النفوس . وهناك قصة من طراز قصص ألف ليلة وليلة تقول إن العباسة أخت الرشيد ، أحببت جعفر ، وأن الرشيد كان قد أقسم بأن يحتفظ بدماء بني هاشم الذي يجرى في عروق أخواته صافية نقية لا يخالطها إلا دماء أشراف العرب ، وجعفر كما نعلم من أبناء الفرس . وأجاز لها الخليفة أن يتزوجا ، على ألا يلتقيا إلا في حضوره . ولكن الحبيبين سرعان ما نقضا هذا العهد ، وولدت العباسة لجعفر ولدين دون أن يعلم بذلك الرشيد ، فقد أخفيا عنه وأرسلا إلى المدينة ليربيا فيها . وكشفت زبيدة زوج الرشيد هذا (٨ - ج ٢ - مجلد ٤)

السر ، وأفضت به إلى هرون . فبعث في طلب مسرور كبير الجلادين وأمره ، بقتل العباسة ودفتها في قصره ، وأشرف هو بنفسه على تنفيذ هذا الأمر . ثم أمر مسروراً أن يضرب عنق جعفر ، وأن يأتي إليه برأسه ، ونفذ مسرور أمر مولاه . ثم بعث إلى المدينة من يأتيه بولديه ، وبعد أن تحدث طويلاً إلى الطفلين الوسيمين ، وأبدى إعجاباً بهما أمر بقتلهما (٨٠٣) . ثم سجن يحيى والفضل ، وسمح لهما بأن يحتفظا بأسرتيهما وخدمتهما ، ولكنه لم يطلق سراحهما : ومات يحيى بعد عامين من مقتل ولده ، كما مات الفضل بعد خمسة أعوام من مقتل أخيه ، وصودرت جميع أموال البرامكة ، ويقال إنها بلغت ٣٠٠٠٠٠٠ دينار (١٤٢٥٠٠٠٠٠ دولار أمريكي) .

ولم تطل حياة هرون بعد نكبة البرامكة . وظل وقتاً ما يخفف من حزنه وندمه بالعمل الكثير ، ويقال إنه كان يرحب بمشاق الحرب نفسها ، ولما أن امتنع نقفور الأول إمبراطور بيزنطية عن أداء الجزية التي وعدت ، لبرينة بأدائها ، وجروء على المطالبة برد ما أدته الإمبراطورة منها رد عليه هرون بقوله : « باسم الله الرحمن الرحيم . من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور . كلب الروم ، أما بعد ، فقد تلقيت رسالتك يا ابن الكافرة ، وسيكون الجواب ما تراه عينك لا ما تسمعه أذنك والسلام » (٢٧) . وسار إلى ميدان القتال من فوره ، واتخذ مقامه في الرقة ذات الموقع الحربي المنيع على حدوده الشمالية ، ونزل إلى الميدان على رأس حملة قوية اخترق بها آسية الصغرى ، وقذفت الرعب في قلب نقفور فلم يسعه إلا أن يعود إلى أداء الجزية (٨٠٦) . ورأى الرشيد أن يصطنع شارلمان ليهرب به إمبراطور الروم ... فأرسل إليه وفداً مثقلاً بالهدايا منها فيل وساعة مائة معقدة التركيب ، ولم يكن هرون وقتئذ قد جاوز الثانية والأربعين من عمره ، ومع هذا فلأن ولديه الأمين والمأمون شرعاً يتنافسان على الخلافة ويتطلعان إلى موته . وأراد هرون أن يخفف من حدة النزاع فقرر أن يرث المأمون الولايات الواقعة في شرق

هر دجلة ، وأن يرث الأمين ما بقي من الدولة ، فإذا مات أحد الاثنين آل ملكه إلى أخيه . ووقع الأخوان هذا العهد وأقسما على الكعبة أن يتقيدها به ، ولكن حدث في ذلك العام نفسه أن شبت فتنة صماء في خراسان فسار هرون ومعه المأمون لتقليم أظافرهما ، مع أنه كان يشكو وقتئذ آلاماً شديدة في معدته . فلما بلغ بلدة طوس في شرق إيران عجز عن الوقوف على قدميه . وجرى له وهو مختصر بياشين أحد زعماء الثورة ، وكان الخليفة قد برح به الألم حتى أفقده عقله فأخذ يوثب القائد الأسير لأنه اضطره إلى الإقدام على هذه الحملة المهلكة ، وأمر أن تقطع أوصاله وشهد بعينية تنفيذ أمره (٢٩) . وفي اليوم الثاني توفي هرون الرشيد في سن الخامسة والأربعين . (٨٠٩) .

٢ - اضمحلال الدولة العباسية

وواصل المأمون الزحف إلى مرو ، وعقد اتفاقاً مع الثوار ، أما الأمين . فعاد إلى بغداد ، ونادى بابنه الطفل الرضيع ولياً للعهد ، وضال المأمون بثلاث من الولايات الشرقية ، ولما رفض المأمون طلبه أعلن الأمين عليه الحرب . وهزم طاهر قائد المأمون جيش الأمين وحاصر بغداد وكاد أن يدمرها تدميراً ، وبعث برأس الأمين إلى المأمون جرياً على تلك العادة التي أضحت سنة متبعة . وكان المأمون وقتئذ في مرو فأمر بالمناداة به خليفة (٨١٣) ، ولكن بلاد الشام وجزيرة العرب ظلت تقاومه لأنه ابن جارية فارسية ، ولم تم بيعته خليفة على بلاد المسلمين ويدخل بغداد إلا في عام . ٨١٨ .

ويعد عبد الله المأمون هو والمنصور والرشيد أعظم خلفاء بني العباس . نعم ، إن المأمون لم ينج من الخلتين اللتين شانتا أخلاق هرون الرشيد ، فكان في بعض الأحيان يستشيط غضباً مثله ويقسو كقسوته ، ولكنه كان بوجه عام لين العريكة . هادئ الطباع ، جمع في مجلس الدولة ممثلين لجميع الأديان الكبرى في البلاد كلها .

— من مسلمين ، ومسيحيين ، ويهود ، وصابئين ، وزردشتيين — وضمن لجميع رعاياه حتى أواخر أيامه حرية الدين والعبادة . وظلت حرية التفكير وقتا ما هي السنة المألوفة في بلاط الخليفة . ويصف المسعودى مجلساً من المجالس العلمية التي كان يعقدها المأمون في آخر النهار فيقول :

« كان المأمون يجلس كل يوم للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء فإذا حضر الفقهاء ، ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة ، وقيل لهم : انزعوا أخفافكم . ثم أحضرت الموائد وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب ، وجددوا الوضوء فإذا فرغوا أتوا بالحجمر فبحروا وطيبوا ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها عن مناظرة المتجبرين ، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس ثم تنصب الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون » (٣٠) .

وكان تشجيع المأمون للفنون ، والعلوم ، والآداب ، والفلسفة أكثر تنوعاً ودقة منها في عهد هرون ، وكان لهذا التشجيع من الأثر أعظم مما كان له في عهد أبيه . فقد أرسل البعوث إلى القسطنطينية ، والإسكندرية ، وأنطاكية وغيرها من المدن للبحث عن مؤلفات علماء اليونان ، وأجرى الأوزاق على طائفة كبيرة من المترجمين لنقل هذه الكتب إلى اللغة العربية ، وأنشأ جمعاً علمياً في بغداد ومرصدين فيها وفي تدمر . وكان الأطباء ، والفقهاء ، والموسيقيون ، والشعراء وعلماء الرياضة والفلك يستمتعون كلهم بعطاياه ، وكان هو نفسه يقرض الشعر ، كما كان يقرضه أحد أباطرة اليابان في القرن التاسع عشر ، وكما كان يقرضه كل مسلم شريف مهذب في ذلك الوقت .

ومات المأمون في سن مبكرة — في الثامنة والأربعين من عمره (٨٣٣) — وإن كان قد طال أجله حتى أساء إلى نفسه . ذلك أنه ناصر بسلطته العليا حرية الرأي في الدولة مناصرة شوه بها السنين الأخيرة من حياته لأنها دفعتها إلى اضطهاد

أصحاب السنة : وكان أخوه أبو إسحق المعتصم ، الذي تولى الخلافة من بعده ، مثله وإن لم يكن مثله في عبقريته . وقد أحاط هذا الخليفة نفسه بحرس خاص مؤلف من ٤٠٠٠ من الجنود الترك ، شبيه بالحرس البريتورى الذى أحاط به الأباطرة الرومان أنفسهم ، وأصبح هذا الحرس على مر الأيام فى بغداد ، كما أصبح الحرس البريتورى فى رومة ، صاحب الأمر والنهى فى أمور الدولة . وشكا سكان العاصمة من أن جنود المعتصم الأتراك يطوفون الشوارع فوق صهوة الجياد ويرتكبون الجرائم دون أن يعاقبوا على ما يرتكبون . وخشى المعتصم أن يثور عليه سكان المدينة فغادر بغداد وبني لنفسه قصرا فى سرمن رأى على بعد ثلاثين ميلا إلى شمال العاصمة . واتخذ ثمانية من الخلفاء (*) هذه الضاحية مسكنا لهم ما بين عامى ٨٣٦ ، ٨٩٢ ، ودفنوا فيها بعد موتهم ، وأقاموا على شقة يبلغ طولها عشرين ميلا على ضفتى نهر دجلة قصورا فخمة ، ومساجد ، وحدا حذوهم كبار موظفى الدولة ، فشيّدوا البيوت الفخمة ، وزينوا جدرانها بالنقوش الجميلة ، وأنشأوا فيها الفساق والحداثق والحمامات . وأراد المتوكل أن يبرهن على صلاحه فأنفق ٧٠٠٠٠٠ دينار (٣٣٢٥٠٠٠ دولار) على تشييد مسجد جامع وأنفق ما يقرب من هذا المبلغ فى تشييد ضاحية جديدة له تعرف بالجعفرية (***) أقام بها قصرا يعرف « بقصر اللؤلؤة » وأحاطها كلها بالبساتين والحدائق . وقد جمع ما يحتاجه من المال لهذه المباني وما يتصل بها بأن زاد الضرائب ، وباع وظائف الدولة لمن

(*) المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢) ، والوائق (٨٤٢ - ٨٤٧) ، والمتوكل (٨٤٧ - ٨٦١) ، والمتنصر (٨٦١ - ٨٦٢) ، والمستعين (٨٦٢ - ٨٦٦) ، والمعز (٨٦٦ - ٨٦٩) ، والمهتدى (٨٦٩ - ٨٧٠) ، والمعتمد (٨٧٠ - ٨٩٢) ، وقد عاد المعتمد قبيل وفاته إلى بغداد .

(**) يقول الطبرى إن اسم الضاحية هو الجعفرى : « أمر المتوكل ببناء الماحوزة وسماها الجعفرى (جزء ١١ فى أخبار سنة ٢٤٥) . (المترجم)

يؤدي أكبر ثمن لها ؛ وأراد أن يستميل أهل السنة باضطهاد الخارجين عاينها ، وحرص ابنه حرسه التركي على قتله ، وتولى الخلافة بعده وتسمى بالمنتصر بالله ؛ وأفسدت العوامل الداخلية أحوال الخلافة قبل أن تقضى عليها القوى الخارجية : فقد أنهك قوى الخلفاء إدمانهم الشراب ، وانهماكهم في الشهوات ، واللهو ، والترف ، والبطالة ، فجلس على سرير الملك طائفة من الخلفاء الضعاف فروا من مهام الحكم إلى ملذات الحريم المضعفة للجسم والعقل . وكان لازدياد الثروة ، واستمهاد الراحة ، وانتشار التسرى وتفشى اللواط ، كان لهذه الرذائل من الأثر في طبقة الحكام ما كان لها في الخلفاء ، وتعدى ذلك إلى الشعب نفسه ، فضعفت صفاته الحربية . ولم يكن من طبيعة هذا الضعف وعدم النظام أن يخلق اليد القوية التي كانت البلاد في أشد الحاجة إليها لتجمع شتات هذا الخليط المتفرق . المتباين من الولايات والقبائل . وكثيراً ما أسفرت العداوة العنصرية والإقليمية عن ثورات . فلم يكن العرب ، والفرس ، والسوريون ، والبربر ، والمسيحيون ، واليهود ، والأتراك ، لم يكن هؤلاء جميعاً يجتمعون إلا على احتقار بعضهم بعضاً ، وزاد الطين بلة أن الدين الذي كان من قبل يجمع شملهم ويوحد صفوفهم قد تفرق شيعاً ، وزادت حدة الانقسامات السياسية والجغرافية ، وكانت هي المعبرة عن هذه الانقسامات . وكان لإهمال وسائل الري أثر كبير في ضعف الدولة وفساد أحوالها . ذلك أن نظام الري هو مصدر حياة بلاد الشرق الأدنى وهلاكه معاً : فالقنوات التي تمد الأرض بالماء تحتاج على الدوام إلى كثير من الحراسة والتطهير يعجز عنها الأفراد والأسر . فلما عجزت الحكومة عن تعهد هذه القنوات أو أهميتها ، قلت موارد الطعام عن مجارة نسبة ازدياد السكان ، وكان لابد من أن يهلك الناس من الجوع حتى لا يختل التوازن بين هذين العاملين الأساسيين اللذين لها شأن عظيم في تاريخ العالم . غير أن ما حل بالأهلين من فقر بسبب القحط والوباء لم يكن في معظم الأوقات ليغل أيدي جباة الضرائب أو يخفف من قسوتهم . فكان

الفلاحون ، والصناع ، والتجار يرون مكاسبهم تذهب كلها للوفاء بنفقات الحكومة وأبهة الحكام ، فانعدم الحافز للعمل والإنتاج ، والتوسع فيهما ، والمغامرة والإقدام . وانتهى الأمر بأن عجزت موارد الدولة عن الوفاء بحاجرة الحكومة ؛ وقلت الإيرادات ، ولم يعد في وسع الحكام أن يؤدوا أجور الجند بانتظام ، أو أن يسيطروا عليهم . ويضاف إلى هذا أن البرك قد حلوا محل العرب في القوات المسلحة ، كما حل الألمان محل الرومان في جيوش رومة ، وكان رؤساء الجند الأتراك من عهد المعتصم إلى آخر أيام الدولة العباسية هم الذين يرفعون الخلفاء إلى العرش ويسقطونهم ، ويأمرونهم ، ويغتالونهم . وأصبحت قصور الخلفاء في بغداد مباءة للدسائس الدنيئة ، والاختيالات وسفك الدماء ، مما جعل الخلافة العباسية في آخر أيامها غير خليقة بأن يبقى التاريخ على ذكرها .

وكان ضعف النشاط السياسي والقوة الحربية في عاصمة الدولة سبباً في تمزيق شملها وتقطع أوصالها . فأصبح الولاة يحكمون ولاياتهم دون أن يكون للخلفاء في العاصمة سلطان عليهم اللهم إلا سلطاناً اسماً غير ذي بال ؛ وأخذوا يعملون ليحفظوا لأنفسهم بمناصبهم طول حياتهم ، ثم لم يكتفوا بهذا بل عملوا على أن يرثها من بعدهم أبناءهم . وكانت بلاد الأندلس قد أعلنت استقلالها عن الخلافة العباسية في عام ٧٥٦ ، وحدث حدودها مراكش في عام ٧٨٨ ، وتونس في ٨٠١ ومصر في ٨٦٨ . وبعد تسع سنين من ذلك العام الأخير استولى أمراء مصر على الشام ، وحكموا الجزء الأكبر منها حتى عام ١٠٧٦ . وكان المأمون قد كافأ قائده طاهر بأن عينه حاكماً على خراسان وجعل ولايتها وراثية في أبنائه من بعده . وحكمت هذه الأسرة الطاهرية بلاد الفرس حكماً شبه استقلالي حتى حلت محلها أسرة الصفاريين (٨٧٢ - ٩٠٣) ، وفيما بين عامي ٩٢٩ ، ٩٤٤ استولت أسرة من الشيعة هي أسرة بني حمدان على شمالي الجزيرة والسمام ، ورفعوا من شأن حكمهم بأن جعلوا الموصل وحلب مركزين عظيمين من مراكز الحياة الثقافية في

العالم الإسلامي . وكان سيف الدولة الحمداني (٩٤٤ - ٩٦٧) شاعراً بليغاً ، اجتمع في بلاطه بحاب الفيلسوف الفارابي ، والشاعر العظيم المتنبي أحب الشعراء الأقدمين إلى قلوب الأدباء العرب . واستولى بنو بويه أبناء أحد زعماء البلاد الجبلية المجاورة لبحر الخرز على أصفهان وشيراز ، ثم استولوا آخر الأمر على بغداد نفسها في عام ٩٤٥ . وظل الخلفاء أكثر من مائة عام يأتَمرون بأمرهم حتى لم يكن أمير المؤمنين أكثر من رئيس لأهل السنة من المسلمين ، بينما كان الأمير البويهى الشيعي هو المسيطر على شئون الدولة الآخذة رقعتها في النقصان . ونقل عضد الدولة أعظم أمراء بني بويه (٩٤٩ - ٩٨٣) عاصمته إلى شيراز وهي مدينة من أجل مدن الإسلام ، ولكنه كان ينفق المال بسخاء على غيرها من مدن مملكته ، واستعادت بغداد في أيامه وأيام من خلفوه من الأمراء بعض ما كان لها من المجد في أيام هرون الرشيد .

وفي عام ٨٧٤ أقام أبناء سامان ، وهو شريف من أتباع زرادشت ، أسرة سامانية حكمت خراسان وما وراء نهر جيحون حتى عام ٩٩٩ . وفي عهد هذه الأسرة كانت بخارى وسمرقند مركزين للعلوم والفنون تنافسان فيهما بغداد نفسها ، وإن لم يكن من عادتنا إذا ذكرنا هذا الإقليم أن نعهده ذا شأن عظيم في تاريخ العلم والفلسفة . وعادت اللغة الفارسية فيه إلى الحياة وأصبحت أداة للتعبير عن أدب راق عظيم . وبسط السامانيون رعايتهم على ابن سينا أعظم فلاسفة العصور الوسطى جميعها ، وفتحوا له أبواب مكتبة بلادهم العظيمة الغنية بما فيها من المؤلفات ، وأهدى الرازي أعظم أطباء العصور الوسطى إلى أحد الأمراء السامانيين كتابه المنصوري وهو كتاب جامع ضخم في الطب . ثم استولى الأتراك في عام ٩٩٠ على مدينة بخارى وقضوا في عام ٩٩٩ على الأسرة السامانية . فقد كان المسلمون في ذلك الوقت يحاربون ليقفوا زحف الأتراك نحو الغرب ، كما ظل الرومان ثلاثة قرون يحاربون ليصدوا زحف العرب ، وكما كافح الترك فيما بعد

ليقفوا تيار المغول البخارف . ذلك أن ما ينشأ من تكاثر السكان من ضغط شديد على وسائل العيش يؤدي من حين إلى حين إلى هجرات ضخمة تطغى أهميتها على غيرها من حوادث التاريخ .

وفي عام ٩٦٢ غزا جماعة من المغامرين الأتراك القادمين من التركستان بلاد الأفغان . وكان يقودهم عبد محرر يدعى البتجين ، واستولوا على غزنة وأقام فيها أسرة عزنوية . وخلف البتجين سبكتكين (٩٧٦ - ٩٩٧) ، وكان أولاً مولى من مواليه ، ثم زوج ابنته . وقد مد حدود ملكه حتى شمل بيشاور وبعض خراسان ، ثم استولى ابنه محمود (٩٩٨ - ١٠٣٠) على جميع بلاد الفرس من الخليج الفارسي إلى نهر جيحون ، وبعد سبع عشرة معركة حامية امتازت بضروب من القسوة أضاف البنجاب إلى ملكه ، كما أضاف كثيراً من أموال الهند إلى خزائنه . ولما أتمخه النهب ، وضاق ذرعاً بالتعطل الناشئ من تسريح جنوده ، أخذ ينفق بعض ماله ، ويستخدم بعض رجاله ، في تشييد مسجد غزنه وهو المسجد الكبير الذي يقول فيه أحد المؤرخين المسلمين : (العتيبي - أبو النصر محمد . في كتاب البيهقي أو الرسالة البيهقية) :

« وأمام هذا البيت مقصورة بتعاريج عليها منصوبة تسع ثلاثة آلاف (*) متى شهدوا الفرض أخذوا أماكنهم فيها صفوفاً وأقبلوا على انتظار الأذان عكوفاً ، وأضيف إلى المسجد مدرسة فيحاء تشمل بيوتها من بساط الأرض إلى مناط السماء على تصانيف الأئمة الماضين من علوم الأولين والآخرين . . ينتابها فقهاء دار الملك وعلماء للتدريس والنظر في علوم الدين ، على كفاية ذوى الحاجة ، فمنهم من يههم بجرأية وافرة ، ومعيشة حاضرة . وقد اقتطع من دار الإمارة إلى البيت الموصوف طريق يفضى إليه في أمن من ابتدال العيون اللوامح واعتراض الرجال

(*) في الأصل الإنجليزي ستة آلاف . والنص الوارد هنا منقول من تاريخ البيهقي - نسخة مخطوطة بدار للكتب المصرية . (المترجم)

من بين صالح وطالح فيركب إليه على وقور سكينه وشمول طمأنينة (٣١) .
واستقدم محمود إلى هذه المدرسة وإلى بلاطه كثيراً من العلماء منهم البيروني ،
وكثيراً من الشعراء ومنهم الفردوسي صاحب الشاهنامه أعظم قصيدة
في الأدب الفارسي ؛ وقد أهداها إليه على كره منه . وكان محدود في ذلك
الوقت أعظم رجال العالم كله من نواح عدة ، ولكن مملكته انتقلت بعد سبع
سنين من وفاته إلى أيدي الأتراك السلاجقة .

ونحن نخطي ، إذا صورنا الترك في صورة أقوام همج ، فنحقم علينا
أن نقول إنهم حين أغاروا على بلاد الإسلام كانوا قد أخذوا ينتقلون من
طور الهمجية إلى طور الحضارة ، شأن شأن الفيلق الألمانية التي
غزت بلاد الإمبراطورية الرومانية . لقد أخذ الأتراك الساكنون في شمالي
آسية الوسطى يتحركون نحو الغرب من إقليم بحيرة بيكال ، وكانوا قد
نظموا أنفسهم في القرن السادس الميلادي جماعات يتزعم كلا منها ضاه أو
شاه . وكانوا يصهرون الحديد الذي يستخرجونه من جبالهم ، ويصنعون
منه أسلحة صلبة كصلابة قوانينهم التي لم تكن تكتفي بجعل الإعدام جزاء
الخيانة والقتل ، بل كانت تجعله أيضاً عقاباً على الزنى والجن . وكان
نحسب نسأهم يفوق قتلى حروبهم ؛ ولم يحل عام ١٠٠٠ م حتى كان فرع
من أولئك الأتراك يسمون السلاجقة نسبة إلى زعيمهم سلجوق قد سيطروا
على ما وراء نهر جيحون وعلى بلاد التركستان . وظن محمود الغزنوي أن
في مقدوره أن يقف زحف هذه القوة التركية المنافسة له ، فقبض على أحد أبناء
سلجوق وسجنه في الهند (١٠٩٢) . ولكن هذا العمل لم يفت في عضد السلاجقة
بل أثار ثائرتهم فزحفوا بقيادة زعيمهم طغرل بك المهنك الشديد البأس واستولوا
على معظم بلاد الفرس ، ثم شرعوا يمهدون السبيل لتقدمهم في المستقبل ، فأرسلوا
فدأ إلى الخليفة القائم بأمر الله في بغداد ليبلغه أنهم يعتقدون الإسلام ؛ وكان
الخليفة يرجو أن ينقذه هؤلاء المحاربون البواسل من سيطرة بني بويه ، فأرسل

إلى طغرل بك يدعو لمعونته . ولجى طغرل الدعوة فأقبل في عام ١٠٥٥ ، وفر بنو بويه من بغداد . وتزوج القائم بآبنة أخى طغرل وخلع عليه لقب « ملك الشرق والغرب » (١٠٨٥) . وأخذت الأسر الصغيرة في غربى آسية الإسلامى تسقط أسرة بعد أسرة أمام السلاجقة وتعترف بسيادة بغداد عليها . ولقب الحكام السلاجقة أنفسهم بلقب سلطان ولم يتركوا للخليفة إلا الزعامة الدينية ، ولكنهم بعثوا فى الأداة الحكومية حيوية جديدة وكفاية لم تكن لها قبل مجيئهم ، كما بعثوا فى الإسلام قوة جديدة من الإيمان الصادق السليم . ولم يفعل السلاجقة ببلاد الإسلام ما فعله المغول بعد مائتى عام من ذلك الوقت ، فهم لم يخربوا البلاد التى فتحوها ، ولم يعض عليهم إلا قليل من الوقت حتى أشربوا روح الحضارة التى أقبلوا عليها ، وألفوا من الأشلاء المتناثرة للدولة المجتصرة إمبراطورية جديدة ، وبعثوا فيها من القوة ما استطاعت به أن تصمد لذلك النزاع الطويل بين المسيحية والإسلام ، الذى نطلق عليه اسم الحروب الصليبية ، وتخرج منه ظافرة منتصرة .

الفصل الرابع

أرمينية

(٣٢٥ - ١٠٦٠)

امتدت فتوح الأتراك السلاجقة إلى أرمينية في عام ١٠٦٠ م
لقد ظلت هذه البلاد البائسة قروناً طويلاً مطعماً للإمبراطوريات الكبيرة
المتنافسة التي أنشبت فيها مخالبها ، لأن جبالها حالت بينها وبين اتحادها للدفاع
عن نفسها ، بينما كانت وديانها طرقاً ميسرة بين بلاد النهرين والبحر
الأسود . واقتلت بلاد الفرس واليونان لامتلاك هذه الطرق للانتفاع بها
في التجارة والحرب ، واجتازتها جنود أكسانوفون العشرة الآلاف ،
واحتربت من أجلها رومة وفارس وبيزنطية والإسلام ، والروسيا وبريطانيا .
ولكن أرمينية ظلت مستقلة من الوجهة الفعلية رغم ما حاق بها من الضغط
الخارجي أو السيطرة الخارجية محتفظة بما لها من نشاط اقتصادي قوى في
التجارة والزراعة ، ومن استقلال ثقافي أثمر فيها دينها الخاص وآدابها
وفنونها : وكانت هي أولى الأمم التي جعلت المسيحية دين الدولة الرسمي
(٣٠٣) . وانحازت إلى جانب اليعاقبة في الجدل الذي قام حول طبيعة المسيح ،
وأبت أن تعترف بأنه يجوز عليه من أسباب الضعف ما يجوز على الجسم
البشري . وانفصل الأساقفة الأرمن في عام ٤٩١ عن الكنيستين اليونانية
والرومانية وأنشأوا لهم كنيسة أرمينية مستقلة لها رئيسها الخاص . وظلت
الآداب الأرمينية تكتب باللغة اليونانية إلى أوائل القرن الخامس بعد الميلاد
حين اخترع الأسقف مسروب حروفاً هجائية خاصة بها وترجم التوراة إلى
اللغة الأرمينية ، وأصبح للبلاد من ذلك الحين أدب أرميني غزير معظمه أدب
ديني وتاريخي .

وظلت تلك البلاد خاضعة بالاسم إلى سلطان الخلفاء من عام ٦٤٢ م إلى عام ١٠٤٦ م ، ولكنها كانت طوال هذه المدة صاحبة السيادة على نفسها مستمسكة بمسيحياتها . وأقامت أسرة البجرتوني Bagrtuni في القرن التاسع الميلادي أسرة حاكمة اتخذ رئيسها لقب « أمير الأمراء » ، وأنشأت لها عاصمة في آني Ani ، وظلت البلاد في عهدها أجيالاً عدة تنعم بالتقدم والسلام النسبي . وكان أشوت Ashot الثالث (٩٥٢ - ٩٧٧) أميراً محبوباً ، شاد كثيراً من الكنائس ، والمستشفيات والأديرة ، والملاجئ ، ولم يكن يجلس للطعام (كما يقول الرواة) إلا إذا كان الفقراء معه على مائدته . وبلغ رخاء البلاد غايته في عهد ابنه جاجيك Gagik الأول (وما أغرب ما تبدو أسماؤنا نحن للأرمن) ؛ فقد كثرت فيها المدارس ، وأثرت المدن بفضل انتشار التجارة ، وازدانت بأعمال الفن ، وأصبحت قارص مركزاً للأدب وعلوم الدين والفلسفة تنافس فيها آني . وكان في هذه المدينة الثانية قصور فخمة ، وكنيسة كبرى (حوالي عام ٩٨٠) ، جمعت بين الطرازين الفارسي والبيزنطي ؛ فكان فيها مجاميع من العمد والأكتاف ، والعقود المستديرة والمستدقة في أعاليها ، إلى غير هذه من الخصائص التي دخلت فيما بعد في الفن القوطي . ولما أن دمر زلزال قبة أياصوفيا بالقسطنطينية في عام ٩٨٩ عهد إمبراطور بيزنطية إلى تاردات Tardat مهندس كنيسة آني أن أعيد بناؤها ، وكان ذلك واجباً من أشق الواجبات وأعظمها خطورة (٢٢)

الباب الحادى عشر

أحوال البلاد الإسلامية

(٦٣٨ - ١٠٥٨)

الفصل الأول

الحال الاقتصادية

تنشأ الحضارة من عاملين أساسيين هما الأرض والعمل - ومن موارد الأرض الطبيعية تحولها رغبات الإنسان وجهوده وتنظيمه إلى ما فيه منفعته . فن وراء المظاهر الخارجية لحاشية الملوك والقصور ، والهيكل ، والمدارس ، والآداب ، والترف ، والفنون ، ومن تحتها يقف الإنسان أحد العاملين الأساسيين فى الحضارة ، الإنسان الصياد يأتى بالصيد من الغاب ؛ والحطاب يقطع الأشجار منها ؛ والراعى يرعى قطعانه ويربها ؛ والفلاح يمهد الأرض ، ويحرقها ، ويزرعها ، ويحصد غلاتها ، ويعنى بالحدائق ، والكروم ، ويربى النحل ، والدواجن والطيور ؛ والمرأة تهتمك فى مئات الصناعات اليدوية والأعمال المنزلية ؛ والعامل يتقب عن المعادن فى باطن الأرض ، والبناء يقيم المنازل ويصنع المركبات والسفن ؛ والصانع ينتج السلع والأدوات ، والبائع الجائل ، أو صاحب الحانوت ، أو التاجر يجتمع بين الصانع والمستهلك ويفرق بينهما ، والمستثمر يمد الصناعات بأمواله المدخرة ؛ والمدير المنفذ يسخر الجهود العضلية ، والمواد الأولية ، والعقل لإنشاء الخدمات وإيجاد السلع . أولئك هم العمال الصابرون القلقون رغم صبرهم الذين تركب على ظهورهم المتأيلة المتأرجحة حضارة العالم المزعجة .

وكان هؤلاء كلهم جادين عاملين في بلاد الإسلام . فكان الرجال يربون الماشية ، والخيل ، والإبل ، والمعز ، والفيلة ، والكلاب ، ويسطون على عسل النحل ، وابن الإبل ، والمعز ، والبقر ، وينتجون مائة نوع من الحبوب ، والخضر والفاكهة ، والنقل ، والأزهار . لقد جاء العرب إلى بلادهم بشجرة البرتقال من الهند في وقت ما خلال القرن العاشر الميلادي ، وأدخلوها في بلاد الشام ، وآسية الصغرى ، وفلسطين ، ومصر ، وأسبانيا ثم انتقلت من هذه البلاد إلى جميع أنحاء أوروبا الجنوبية^(١) . كذلك نقل العرب زراعة قصب السكر ، وصناعة السكر نفسه وتكريره من الهند ونشروها في جميع أنحاء الشرق الأدنى ، ومن تلك البلاد نقلهما الصليبيون إلى أوطانهم^(٢) ؛ وكان العرب أول من زرع القطن في أوروبا^(٣) ، وقد استطاعوا لإنتاج هذه المحاصيل من أرضين معظمها جذب قاحل بفضل وسائل الري المنظم ؛ ولم يجر الخلفاء في الميدان على سنتهم المألوفة من ترك الشؤون الاقتصادية للمشروعات الحرة ، بل كانت الحكومة تشرف على قنوات الري الرئيسية وتعهدها بالصيانة والتطهير ، فأوصلت ماء الفرات إلى أرض الجزيرة ، وماء دجلة إلى أرض فارس ، وشقت قناة كبيرة بين النهرين التوأمن عند بغداد . وكان خلفاء الدولة العباسية الأولون يشجعون الأعمال الخاصة بتجفيف المستنقعات وتعمير القرى المخربة والضياح التي هجرها سكانها . وكان الإقليم المحصور بين بخارى وسمرقند يعد في أثناء القرن العاشر « لإحدى الجنات الأرضية الأربع » - وكانت الثلاث الأخرى هي جنوبي فارس ، وجنوبي العراق ، والإقليم المحيط بدمشق في بلاد الشام .

وكان الذهب والفضة ، والحديد ، والرصاص ، والزئبق ، والإثمد ، والكبريت ، وحجر الفتيلة (الأسبستوس) ، والرخام ، والحجارة الكريمة تستخرج كلها من باطن الأرض ، وكان الغواصون يستخرجون اللؤلؤ من الخليج الفارسي ؛ واستخدم

العرب النفط والقار في بعض أعمالهم ، فقد وجد بين محفوظات هرون الرشيد ورقة سجل فيها ثمن النفط والعشب اللذين استخدمتا في حرق جثة جعفر^(٤) . وكانت الصناعة لا تزال في مرحلة العمل اليدوى ، يقوم بها الأهليون في البيوت والحوانيت ، وينتظمون في طوائف . وقل أن تعثر في البلاد الإسلامية في ذلك الوقت على مصانع بالمعنى الحديث ، ولا نجد دليلاً واضحاً على ارتفاع الفنون الصناعية فوق المرحلة اليدوية والجهود العضلية إذا استثنينا الطواحين الهوائية . فالمسعودى أحد مورخى القرن العاشر يقول إنه شاهد هذه الطواحين في فارس وبلاد الشرق الأدنى ، مع أننا لا نجد أثراً لها في أوروبا قبل القرن الثانى عشر ، ولعلها كانت هدية أخرى أهداها الشرق الإسلامى إلى أعدائه الصليبيين^(٥) . وكان العرب على جانب كبير من المهارة الآلية الفنية ، وشاهد ذلك أن الساعة المائية التى أهداها هرون الرشيد إلى شارلمان قد صنعت من الجلد والنحاس الأصفر المنقوش . وكانت تدل على الوقت بفرسان من المعدن يفتحون كل ساعة باباً يسقط منه العدد المطلوب من الكرات على صنجة ، ثم ينسحبون ويغلقون الباب^(٦) : وكان الإنتاج بطيئاً ، ولكن الصانع كان فى وسعه أن يظهر مهارته فيما ينتجه من تحف ، وأدوات كاملة الصنع ، وكاد يجعل من كل صناعة فناً . واشتهرت المنسوجات الفارسية ، والشامية ، والمصرية بجماها الفنى الرائع الذى كان يتطلب من الصانع مهارة وصبراً ؛ فاشتهرت الموصل بنسيج القطن الرفيع « الموصلين » : ودمشق بنسيج التيل « الدمقس » : وعدن بالصوف . واشتهرت دمشق أيضاً بالسيوف المصنوعة من الصلب المسقى ؛ وصيدا وصور بزجاجهما الذى لا يدانيه زجاج فى رفته وصفائه ، وبغداد بزجاجها وخزفها ، والرى بخزفها ، وإبرها ، وأمشاطها ؛ واشتهرت الرقة بزيت الزيتون والصابون ، وفارس بالروائح العطرية والطنافس . وبلغت بلاد آسية الغربية تحت حكم المسلمين درجة من الرخاء الصناعى والتجارى لم تصل إليها بلاد أوروبا الغربية قبل القرن السادس عشر^(٧) .

وكانت أهم وسائل النقل البرى هى ظهور الإبل ، والخيل والبغال والرجال ، لكن الحصان كان بوجه عام أئمن من أن يستخدم فى حمل الأثقال ، وفيه يقول أعرابي « لا تسمه حصانى ، بل سمه ولدى ؛ فهو فى عدوه أسرع من الريح ومن طرفه العين . . . وقد بلغ من خفة قدمه أنه يستطيع أن يرقص فوق صدر حبيبتك ولا يؤذيها » (٨) . ومن أجل هذا كان الحمل « سفينة الصحراء » يحمل معظم تجارة العرب ، وكانت قوافل يصل عدد جمالها إلى ٤,٧٠٠ حمل تحترق بلاد العالم الإسلامى . وكانت طرق كبرى تشع من بغداد وتمر بالرى ونيسابور ، ومرو ، وبخارى ، وسمرقند ، إلى كاشغر وحدود بلاد الصين ؛ أو إلى البصرة فبشار ؛ أو إلى الكوفة فالمدينة ، ومكة و عدن ؛ أو إلى ساحل بلاد الشام مجتازة الموصل أو دمشق . وأنشئت النزل ، والخانات ، والمضاييف ، وصهاريج الماء فى الطرق ليستقى منها المسافرون والدواب . وكانت التجارة الداخلية واسعة تنتقل فى الأنهار والقنوات . وقد فكر هرون الرشيد فى حفر قناة تربط البحرين المتوسط والأحمر فى موضع قناة السويس وخططها ، ولكن يحى البرمكى لم يشجعه على حفرها لأسباب لا نعرفها ولعلها أسباب مالية (٩) . وقد أنشئت على نهر دجلة عند بغداد ، حيث يبلغ عرضه ٧٥٠ قدماً ، ثلاثة جسور محملة على قوارب .

وكانت تجارة عظيمة تمر بهذه الشرايين ، وكان من المزايا الاقتصادية التى يستمتع بها غرب آسية أن حكومة واحدة تسيطر على هذا الإقليم الذى كان فيما مضى مقسماً بين أربع دول ؛ فقد كان من آثار هذه الوحدة أن ألغيت فى داخلها جميع العوائد البحرية وغير هامة من العوائق التجارية ، هذا إلى أن العرب لم يكونوا كأشراف الأوربيين يسخرون من التجار ويزدرونهم ، ولهذا لم يلبثوا أن انضموا إلى المسيحيين واليهود والفرس فى نقل البضائع من المنتج إلى المستهلك بأقل ما يمكن من الربح لكليهما ، فغصت المدائن والبلدان بوسائل النقل والمقايضة والبيع والشراء ؛ وكان البائعون

(٩٠ - ج ٢ - مجلد ٤)

الجائلون ينادون على سلعهم أمام النوافذ الشبكية ، والحوانيت تعرض بضائعها ، أو تتردد فيها أصداء المساومات ، والموالد والأسواق تغص بالمناجر والتجار ، والبائعين ، والمشتريين ، والشعراء ؛ والقوافل تربط الصين والهند بفارس والشام ومصر ؛ وكانت الثغور أمثال بغداد ، والبصرة ، وعدن ، والقاهرة ، والإسكندرية ، تبعث بالتجار يجوبون البحار . وظلت التجارة الإسلامية هي المسيطرة على بلاد البحر المتوسط إلى أيام الحروب الصليبية ، تنتقل من الشام ومصر في أحد الطرفين إلى تونس ، وصقلية ، ومراكش وإسبانيا في الطرف الآخر ، وممر في طريقها ببلاد اليونان ، وإيطاليا ، وغالة . وانتزعت السيطرة على البحر الأحمر من بلاد الحبشة ، وتجاوزت بحر الخزر إلى منغوليا ، وصعدت في نهر الفلجا Volga من أستراخان إلى نوفجورود ؛ وفنلندة ، واسكنديناوة ، وألمانيا حيث تركت آلافاً من قطع النقود الإسلامية . ولما أن قدمت سفن صينية لزيارة البصرة رد العرب الزيارة بإرسال سفائنهم من الخليج الفارسي إلى الهند وسرنديب ، ثم اجتازت المضيق الذي يفصل بينهما ، وسارت بإزاء الساحل الصيني إلى خنفو (كتون) ، واستقرت في هذا الثغر جالية إسلامية ويهودية في القرن الثامن الميلادي (١٠) ، ووصل هذا النشاط التجاري الذي بعث الحياة قوية في جميع أنحاء البلاد إلى غايته في القرن العاشر أي في الوقت الذي تدهورت فيه أحوال أوروبا إلى الدرك الأسفل ؛ ولما أن اضمحلت هذه التجارة أبقى آثارها واضحة في كثير من اللغات الأوربية فأدخلت فيها ألفاظاً مثل *bazaar, cravan, magazine, tariff* (*)

وكانت الدولة تبرك للصناعة والتجارة حريتهما وتساعدهما بإيجاد عملة ثابتة مستقرة إلى حد كبير . وكان الخلفاء الأولون يستخدمون النقود البيزنطية والفارسية حتى تولى الخلافة عبد الملك بن مروان فسك في حرام ٦٩٥ عملة عربية من الذهب

(*) - اللفظان الأوران من أصل عربي وهما - التمريفة والمخزن ، الثالث والرابع من أصل فارسي . (المترجم)

هي الدينار وأخرى من الفضة هي الدرهم . ويصف ابن حوقل (حوالي ٩٧٥). صكاً كان تعهداً بالدفع قيمته ٤٢,٠٠٠ دينار مصدرأ إلى تاجر في مراکش ، وقد اشتقت من كلمة صك الدالة على هذه الوثيقة الكلمة الإنجليزية Check ، وكان ذوو المال يستثمرون أموالهم في الأسفار البحرية والبرية ، ومع أن الربا محرم في الإسلام فإن المشتغلين بالشئون المالية لم يعدموا وسيلة لأداء جزء من الربح لأصحاب رؤوس الأموال نظير استخدامها في هذه الأعمال وما تتعرض له من الأخطار كما فعل الأوروبيون فيما بعد .

وكان القانون يحرم الاحتكار ولكنه كان منتشر رغم هذا التحريم ؛ ولم يكده يمضى على موت عمر بن الخطاب مائة عام حتى جمع أفراد الطبقات العليا من العرب ثروات طائلة وعاشوا في ضياع مترفة يقوم بالعمل فيها مئات من الأرقاء (١١) . ويقال إن يحيى البرمكى عرض سبعة آلاف ألف درهم (٥٦٠,٠٠٠ دولار أمريكي) ثمناً لصندوق للآلى مصنوع من الحجارة الكريمة ، وإن صاحبه أبى أن يبيعه بهذا الثمن ؛ وإن الخليفة المكتفى ، إذا جاز لنا أن نصدق الأرقام التي يوردها مؤرخو العرب ، ترك حين وفاته ما قيمته ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار (*) (٩٤,٥٠٠,٠٠٠ دولار أمريكي) من الجواهر والعطور (١٢) . ولما أن عقد هرون الرشيد لابنه المأمون على بوران نثرت جدتها على العريس بدرة من اللؤلؤ ، ونثر والدها على المدعوين كرات من المسك تحوى كل منها على وثيقة تعطى صاحبها الحق في عبد.

(*) كلمة دينار مشتقة من اللفظ الروماني دينار يوس ، وكان يحتوى على ٥٦ جراماً من الذهب . أو ١٣٥ و من الأوقية : أو ما قيمته ٤,٧٢٥ دولار حسب قيمة الذهب في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٧ . وسنقدره نحن في هذا الباب تقديراً تقريباً بـ ٤,٧٥٠ دولارات . أما كلمة درهم فهي مشتقة من كلمة درنحة اليونانية ، وكان الدرهم يحتوى على ثلاثة وأربعين جراماً من الفضة وتبلغ قيمتها نحو ٣.٧٥ من الدولار الأمريكي . ولما كان مقدار ما في الدرهم من الفضة قد تغير كثيراً فإن تقديرنا لقيمه تقريبي بطبيعة الحال .

أو جواد ، أو ضيعة ، أو هدية أخرى^(١٣) . ولما أن صادر المقتدر
١٦٠٠٠٠٠٠ دينار من ثروة ابن الجساس ، بقيت لهذا الصانع الشهر
بعد ذلك ثروة طائلة . وكانت ثروة بعض التجار ذوى الصلة بالأقطار النائية
وراء البحار لا تقل عن ٤٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، وكان مئات من التجار
يملكون بيوتاً تراوح نفقاتها بين عشرة آلاف وثلاثين ألف درهم
(١٤٢٥٠٠٠ دولار)^(١٤) .

وكان مركز العبيد في الطبقة الدنيا من بناء الدولة الاقتصادية . ولربما
كان عددهم في الإسلام بالنسبة لعدد السكان أكثر منه في المسيحية حيث
كان أرقاء الأرض يحاولون محل العبيد . ويقول الرواة إن بيت الخليفة المقتدر
كان يضم ١١٠٠٠٠ من الخصيان ، وإن موسى بن نصير قبض في إفريقية
على ٣٠٠٠٠٠٠ أسير ، وفي أسبانيا على ٣٠٠٠٠٠ « عنراء » وباع الجميع
في أسواق الرقيق ؛ وإن قتيبة قبض في سجديانا على ١٠٠٠٠٠ أسير . وخلق
بنا أن نشير في هذا المقام إلى أن هذه الأرقام مبالغ فيها كثيراً كما هي عادة
المؤرخين العرب ، وإلى أن من واجبنا ألا نأخذها كما هي وقد عمل الإسلام على
تضييق دائرة الاسترقاق وتحسين حال الأرقاء ، فصر الاسترقاق المشروع
على من يؤسرون في الحرب من غير المسلمين وعلى أبناء الأرقاء أنفسهم .
أما المسلم فلا يجوز أن يسترق (كما لم يكن يجوز في الدين المسيحي أن يسترق
المسيحي) . ولكن تجارة الرقيق نشطت على الرغم من هذا وكان قوامها من
يقبض عليهم في الغارات - كالزنج من بلاد الشرق ، ومن أواسط أفريقية ؛
والأتراك أو الصينيين من التركستان ، والبيض من روسيا وإيطاليا ، وأسبانيا .
وكان للسيد من المسلمين حق الحياة والموت على عبده ، ولكنه كان في العادة
يحسن معاملته إلى حد لم يكن معه مركزه أسوأ من مركز العامل في المصانع
الأوروبية في القرن التاسع عشر ، بل لعله كان أحسن حالا من ذلك
الصانع ، لأنه كان آمن على حياته منه^(١٥) ، وكان الأرقاء يقومون بمعظم

الأعمال الدنيا في المزارع ، وبأكثر الأعمال البدوية التي لا تحتاج إلى مهارة في المدن . وكانوا يعملون خدماً في البيوت ، وكان من رجالهم خصيان ومن النساء جوار في الحريم . وكانت كثرة الراقصات ، والمغنيات والممثلات من الجوارى . وكان ابن الجارية من سيدها ، وابن المرأة الحرة من عبدها ، حرّاً من ساعة مولده . وكان يسمح للعبيد أن يتزوجوا وأن يتعلم أبناؤهم إذا أظهروا قدراً كافياً من النباهة . وإن المرء ليدهش من كثرة أبناء العبيد والجوارى الذين كان لهم شأن عظيم في الحياة العقلية والسياسية في العالم الإسلامي ، ومن كثرة من أصبحوا منهم ملوكاً وأمراء أمثال محمود الغزنوي والمماليك في مصر .

ولم يبلغ استغلال العمال في بلاد آسية الإسلامية من القسوة ما بلغه في البلاد الوثنية أو المسيحية ، حيث كان الفلاح يكدح طوال ساعات النهار ، ولا يكسب إلا ما يكفي لابتئاع خارقة تستر حقويه ، أو إقامة كوخ يعيش فيه ، أو الحصول على طعام لا يكاد يقيم أوده . وكان المتسولون كثيرين في البلاد الإسلامية ولا يزالون كثيرين فيها إلى الآن ، ولا يزال الكثيرون منهم يخادعين مدعين ، ولكن الأسوي الفقير كان يحميه من الفاقة مهارته في العمل البطيء ، وقل أن يوجد في الناس من يضارعه في تكييف نفسه لظروف التعطل عن العمل . وكانت الصدقات كثيرة متعددة ، وكان في وسع الفقير إذا ضاقت به السبل أن ينام في أحسن بناء في المدينة - وهو مسجدها ، ومع هذا كله فإن حرب الطبقات الأبدية لم تخمد جهرتها قط ، وكان هيبها يندلع من آن إلى آن في البلاد الإسلامية (٧٧٨ ، ٧٩٦ ، ٨٠٨ ، ٨٣٨) في ثورات عنيفة . وكانت هذه الثورات تستر أحياناً بستار الدين لأن الدين والدولة كانا في البلاد الإسلامية شيئاً واحداً . وكان منهم شيع كالخرمية والحيدة تعتقت آراء مزدك الفارسي الشيوعية ، ومنهم شيعة أطلقت على نفسها اسم سرخ علم أي « العلم الأحمر »^(١٦) ، وقام في عام ٧٧٢ رجل في خراسان يدعى هاشم المقنع وقال إن الله قد حل في جسمه ، وإنه بعث

ليعيد شيوعية مزدك . واجتمعت حوله عدة طوائف ، وهزم كثيراً من الجيوش التي أرسلت للقبض عليه ، وظل ثلاثة عشر عاماً حاكماً على بلاد فارس ، ثم قبض عليه أخيراً (٧٨٦) وأعدم . وأثار بابك الخراساني الفتنة نفسها في عام ٨٢٨ وجمع حوله طائفة سميت المحمرة ، واستولى بها على آذربيجان ، وظلت في قبضته اثنتي عشرة سنة ، وهزم عدة جيوش ، وقتل (على حد قول الطبري) ٢٢٥,٥٠٠ جندي وأسير قبل أن يهزم . وأمر الخليفة المعتصم جلاد بابك نفسه أن يقطع أطرافه طرفاً طرفاً ، ثم خزق أمام قصر الخليفة ، وحملوا رأسه إلى خراسان وطاقوا به في مدنها (١٩) ، ليذكر كل من يراه أن الناس كلهم يولدون غير أحرار وغير أكفاء .

وكانت أهم « حروب الأرقاء » في الشرق هي التي أثار عجاجها رجل عربي اسمه علي (*) ادعى أنه من نسل علي بن أبي طالب زوج فاطمة بنت النبي . وتفصيل ذلك أن عدداً كبيراً من الزنوج كانوا يعملون في كبسح السباخ بالقرب من البصرة ، فأخذ علي هذا يذكر لهم سوء ما يلقون من المعاملة ، ويحرضهم علي أن يثوروا معه على ساداتهم ، ويعددهم بالتححرر من الرق وبالثروة - وأن يكونوا هم مالكين للعبيد . وأثرت فيهم دعوته ، فاستجابوا لها واستولوا على الزاد والعتاد ، وهزموا الجيوش التي سيرت لقتالهم ، وأنشأوا لهم قرى مستقلة فيها قصور لزعمائهم ، وسجون لأسراهم ، ومساجد لصلواتهم (٨٦٩) . وعرض أصحاب العمل أن يودوا لعلي خمسة دنانير عن كل شخص من الثوار يعود إلى عمله إذا أقنعهم بهذه العودة ، فأبى ، وحاولت البلاد المحيطة بهم أن تخضعهم بمنع الطعام عنهم ، ولكنهم حين نفذت مؤونتهم هاجموا بلدة الأبلّة ، وحرروا من فيها من الأرقاء وضموهم إلى صفوفهم ، ثم نهبوا وأشعلوا فيها النار (٨٧٠) . وتشجع علي بهذا النصر فهاجم عدة بلاد أخرى واستولى على الكثير منها ، وسيطر على جنوبي إيران والعراق

(*) اسمه علي بن محمد . (المترجم)

حتى دق أبواب بغداد نفسها . وتعطلت التجارة ، وقل الطعام في العاصمة :
وفي عام ٨٧١ استولى المهلبى قائد الزنوج على البصرة ، وذبح ثلثمائة ألف
من أهلها وسبى الجنود الزنوج آلافاً من النساء واسترقوا آلافاً من الأطفال
البيض بعضهم من بنى هاشم أنفسهم - إذ صدقنا أقوال المؤرخين . وظلت
نار الثورة مشتعلة عشر سنين ، سيرت في خلالها عدة جيوش لتقليم أظفارها ،
وعرض على من يفرون من صفوف الثوار المال والعفو ، فخرج على عليّ
كثيرون من رجاله ، وانضموا إلى جيوش الحكومة . ثم حوَصر من بقي
منهم ، وضيق عليهم الخناق ، وسلط عليهم الرصاص المصهور و«النار اليونانية» ،
وهي مشاعل من النفط الملتهب ، وانتهى الأمر بأن دخل جيش يقوده الوزير
الموفق إلى مدينة الثوار ، وتغلب على ما لقيه من المقاومة ، وقتل علياً وحمل
رأسه إلى الوزير المنتصر . وسجد الموفق وضباطه شكراً لله على رحمته
(٨٨٣) (٢٠) . ودامت هذه الثورة أربعة عشر عاماً حاق فيها الخطر بجميع
المقومات الاقتصادية والسياسية في البلاد الشرقية الإسلامية . وانتهز أحمد بن
طولون وإلى مصر هذا الاضطراب فاستقل بأغنى ولايات الخلافة الإسلامية :

الفصل الثاني

الإيمان

يلي المال والنساء في شهوات الإنسان رغبته في النجاة من العذاب في الدار الآخرة . فإذا امتلأت المعدة بالطعام ، وأشبع الإنسان غريزته الجنسية ، وجد متنسماً من الوقت ينصرف فيه إلى الله .

ولقد كان المسلمون كثيرى التفكير في ربهم ، وكانت مبادئهم الأخلاقية وشريعتهم ، وحكومتهم ، قائمة كلها على أساس الدين . والإسلام أبسط الأديان كلها وأوضحها ، وأساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ويتطلب الجزء الثاني من هذا الأساس الإيمان بالقرآن وبكل ما جاء به ، ولهذا فإن المسلم المتمسك بدينه يؤمن كذلك بالجنة والنار ، والملائكة والشياطين ، والبعث ، والقضاء والقدر ، ويوم الحساب . وقواعد الإسلام بعد الشهادتين هي الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت . ويؤمن المسلم كذلك برسالة الأنبياء الذين سبقوا محمداً وبما نزل عليهم من الوحي « ولكل أمة رسول » (سورة يونس ٤٨) . ويعتقد بعض المسلمين أن عدة أولئك الرسل ٢٢٤٠٠٠ ، ولكن يبدو أن محمداً كان يرى أن ، إبراهيم وموسى ، وعيسى ، هم وحدهم الذين نطقوا بكلمات الله . ولهذا فإن على المسلم أن يؤمن بالتوراة والإنجيل ، ويعتقد أن ما ورد فيهما من وحى الله ، فإذا ما اختلفا عن القرآن في شيء فعليه أن يعتقد أن سبب ذلك ما حدث فيهما من تغيير متعمد أو غير متعمد . وعليه أن يؤمن أيضاً بأن القرآن قد حل محل غيره من الكتب السماوية ، وأن محمداً خير أنبياء الله ورسوله . والمسلمون يعتقدون أن محمداً بشر من خلق الله ، ولكن احترامهم إياه لا يقل عن احترام النصارى للمسيح ، وفي ذلك يقول أحد الصالحين من المسلمين الأقدمين

إنه لو كان حياً في زمان النبي لما تركه يظأ الأرض بقدمه المباركة ولحملة على كتفيه أينما أراد .

والمسلمون الصالحون لا يطيعون ما ورد في القرآن وحده ، بل يعملون أيضاً بالأحاديث والسنن النبوية التي احتفظ بها علماءهم على مر الأجيال والقرون . ذلك أن المسلمين قد واجهوا على مر الزمن مسائل خاصة بالعقائد ، والعبادات ، والأخلاق ، والتشريع ، لا يجدون لها جواباً صريحاً في القرآن . كذلك وردت في القرآن آيات متشابهات يخفى معناها على كثير من العقول وتحتاج إلى إيضاح . ولهذا كان من المفيد أن يعرف المسلمون ما فعله النبي أو الصحابة وما قالوه في أمثال هذه الموضوعات . ومن أجل ذلك وجه بعض المسلمين عنايتهم إلى جمع هذه الأحاديث ، وامتنعوا عن تدوينها في القرن الأول من الهجرة(*) : وأنشأوا مدارس للحديث في مختلف المدن يلقون فيها دروساً عامة في الحديث والسنن النبوية ، ولم يكن من غير المؤلف أن يسافر الواحد منهم من الأندلس إلى بلاد

(*) يقول المؤلف إن المسلمين امتنعوا عن تدوين أحاديث الرسول في القرن الأول الهجري ، والحق أنه كان من الصحابة من لا يرى تدوين الحديث لكي تكون الهمة مقصورة على القرآن وحده ، ولكن من الحق أيضاً أن تدوين الحديث بدأ منذ فجر الإسلام في القرن الأول ، بل أن بعض ذلك يرجع إلى عهد الرسول نفسه .

لقد جاء في صحيح البخاري أن الرسول أمر فكتبت خطبته التي خطبها يوم فتح مكة ، وفي هذا الباب أيضاً نجد أبا هريرة يقول : ما من أحد أحفظ مني لحديث رسول الله صلى عليه وسلم ولا أكثر مني رواية له ، غير عبد الله بن عمرو بن العاص لأنه كان يكتب كل ما يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن يكتب . وفي سنن أبي داود ومسنند الإمام أحمد بن حنبل أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتني قريش عن ذلك وقالوا : تكتب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الغضب والرضا ! فأسكت ، حتى ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « اكتب ، فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق » وأوماً بإصبعه إلى فيه حين قال ذلك . راجع مسند أحمد ، ج ٢ : ١٦٢ و ١٩٢ ، سنن أبي داود ، ج ٢ : ٢٢٠ وجامع بيان العلم وفضله ، لابن عبد البر ، ج ١ : ٧١ . وراجع أيضاً بحثاً قديماً في ذلك ، للعلامة السيد سليمان عبد القدوس ، الرسالة المحمدية طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٧٢ هـ ص ٥٣ وما بعدها . (ى)

الفرس ليستمع إلى حديث من أحد رواته . وبهذه الطريقة تجمعت طائفة من السفن الشفوية إلى جانب القرآن شبيهة بالمشنا والحجارا . اللذين تجمعا حول التوراة ، وفعل البخارى بهذه الأحاديث في عام ٨٧ ما فعل يهودا هاناسى بشرائع اليهود غير المكتوبة في عام ٨٩ ، فقد واصل البحث عدة سنين طاف فيها بأنحاء العالم الإسلامى من مصر إلى التركستان حتى جمع نحو ستمائة ألف حديث اختار منها بعد تمحيصها ونقلها ٧٢٧٥ ونشرها في صحيحة منسوبة في سلسلة طويلة من الإسناد إلى أحد الصحابة أو إلى النبي نفسه .

تلقى الكثير من أحاديث النبي ضوعاً جديداً على العقائد الإسلامية . نعم إن محمداً لم يقل قط إنه يأتي بمعجزات ، ولكن ثمة أحاديث تروى بعض ما قام به من خوارق العادات : كيف أطمع عدداً كبيراً من الناس من طعام لا يكاد يكفي شخصاً واحداً ، وكيف أخرج الشياطين من جسم بعض الناس ، وكيف أنزل الغيث وحجب المطر بصلاة واحدة ، وكيف مسح ضرع ماعز جافة فأدرت اللبن ، وكيف شفى المرضى بلمس ثيابه أو شعر رأسه بعد قصه .

وتحت بعض الأحاديث على حب الأعداء ، وإن كانت آراء محمد في هذه الناحية أشد من آراء المسيح : وقد أخذت الصلاة الربانية من الإنجيل بعد أن أدخل عليها بعض التعديل (*) كما يعزى إلى محمد حديث يروى قصص الزراع ، وضيوف العرس وعمال الكرم ، وقصارى القول أن رواة الأحاديث قد وصفوا النبي بخير ما نجده في المسيحية من فضائل على الرغم من زوجاته التسع ، ويقول بعض النقاد المسلمين : إن كثيراً من الأحاديث قد دستها على النبي الدعاوة الأموية أو العباسية أو غيرها . وقد اعترف ابن العوجاء الذى أعدم في الكوفة سنة ٢٧٢ أنه وضع بنفسه أربعة آلاف حديث . وثمة عدد قليل من المتشككين الذين لا يصدقون معظم الأحاديث ومنهم من زيف بعضها وصاغها في صحيحة الأحاديث الصحيحة .

(*) الصلاة الربانية عند المسيحيين هي التي تبدأ بقولهم : أبانا الذى فى السموات . . الخ «

ومع هذا كله فإن تصديق الأحاديث الواردة في إحدى المجموعات المتفق على صحتها ، من الصفات التي يمتاز بها المسلمون المتمسكون بدينهم والذين يطلق عليهم اسم السنيين . ومن هذه الأحاديث حديث يسأل فيه جبريل النبي عن ماهية الإسلام فيجيبه النبي بأن الإسلام هو شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، فالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج هي الواجبات الأربعة المفروضة على كل مسلم ، وهي مضافة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله « أركان الإسلام الخمسة » .

ولا بد أن يسبق الصلاة الوضوء ، وإذا كانت الصلاة تؤدى خمس مرات في اليوم فقد أصبحت النظافة من الإيمان بحق . فالإسلام كاليهودية يدعو إلى العناية بصحة الجسم وتقويم الخلق ، وهما في هذه الناحية يعملان بالمبدأ القائل إن الإنسان لا يعقل الشيء المعقول إلا إذا كان له سند من الدين . وكان النبي يحذر المسلمين من إهمال الوضوء ويقول لهم إن الله لا يقبل الصلاة بلا وضوء ؛ وبحث على تنظيف الأسنان قبل الصلاة ، وإن لم يجعلها من فرائض الوضوء ؛ أما تلك الفرائض فهي : غسل الوجه واليدين والقدمين(*) (سورة المائدة ٦) وعلى الجُنُب أن يستحم ، وعلى المرأة التي خرجت من الحيض ، أو الوضع ، أن تتطهر قبل الصلاة . ويصعد المؤذن في بلاد الإسلام المثلثة عند طلوع الفجر ، وفي منتصف النهار ، ووقت العصر ، وعند غروب الشمس ، وفي المساء ، ويدعو المسلمين إلى الصلاة بقوله « الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد ألا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد

(*) ومسح الرأس . (المترجم)

أن محمداً رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ،
حي على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

ألا ما أقوى هذه الدعوة ، وما أشرفها من دعوة للقيام من النوم قبل
مطلع الشمس ، وما أحسن أن يقف الإنسان عن العمل وقت الظهيرة ،
وما أعظم وأجل أن يتوجه الإنسان بروحه إلى الله جل جلاله في سكون
الليل ، وأما أحلى وقع صوت المؤذنين على الآذان ، آذان المسلمين وغير
المسلمين ، وهم يدعون النفوس الحبيسة في الأجسام الأرضية من فوق آلاف
المساجد أن تتوجه إلى واهب الحياة والعقل ، وتتصل به ذلك الاتصال
الروحي الجليل . ففي هذه الأوقات الخمسة يجب على كل مسلم في جميع بقاع
الأرض أن يقف كل عمل أيا كان ، ويتطهر ، ويولي وجهه نحو مكة
والكعبة ويقم الضلوات القصيرة ، بنفس الصورة الدقيقة التي يؤديها بها
غيره من المسلمين ، كلما انتقلت الشمس من مرحلة إلى مرحلة في حركتها
الظاهرة حول الأرض .

فمن أمكنه وقته ، وشاءت إرادته ، ذهب إلى المسجد يؤدي الصلاة ،
والمساجد تظل في العادة مفتوحة الأبواب طول النهار ، يؤمها كل مسلم
صالح أو زنديق ليتوضأ أو يصلي أو يستريح . وهناك تحت سقفيها الظليلة
كان المدرسون يعلمون التلاميذ ، والقضاة يفصلون في الخصومات ،
والخلفاء يعنون سياستهم أو أوامرهم ، وكان الناس يجتمعون فيها
ليتحدثوا في كل ما يعينهم ، ويتمعوا إلى الأخبار ويفاوضوا في الأعمال
التجارية والمالية في بعض الأحيان . ذلك أن المسجد كان كالباحة عند
اليهود ، والكنيسة عند المسيحيين ، مركز الحياة اليومية ، والبيت العام
للمجتمع كله . وفي يوم الجمعة قبل أن ينتصف النهار بنصف ساعة أو نحوها
يقوم المؤذن ويصلي على النبي ويدعو لأسرته وإلى الصحابة ، ويدعو

المسلمين إلى الصلاة (*) . ويستحب في هذا اليوم أن يستحم المصلون ، ويلبسوا أثواباً نظيفة ، ويتعطروا ، قبل الحجىء إلى المسجد ، فإن لم يكونوا قد اغتسلوا فإن عليهم أن يتوضأوا في المسجد (**).

وقد جرت العادة أن تبقى النساء في بيوتهن حين يذهب الرجال إلى المساجد ، خشية أن يشغل وجودهن وإن كن محجبات بعض الرجال عن التوجه بأرواحهم كلها إلى الله . ويترك المصلون أحديتهم عند باب المسجد ، ويدخلونه حفاة أو بالأخفاف أو الجوارب ، فإذا حان موعد الصلاة وقفوا جنباً إلى جنب صفا واحداً أو عدة صفوف ، وولوا وجههم نحو المحراب الذى يعين موضع القبلة أو اتجاه مكة . ويقوم الإمام ويعظ الناس بخطبة قصيرة ثم تقام الصلاة ويتلو الإمام آيات من القرآن ، وكذلك يفعل المصلون أو يكتفون بتلاوة الفاتحة ، ويؤدون الصلاة بشعائرها المعروفة من ركوع وسجود وتحيات . وليس في صلاة المسلمين أناشيد ، أو مواكب ، أو قداس ، أو مقاعد مستأجرة ، ذلك أن الدين والدولة شيء واحد عند المسلمين ؛ وهذا فإن الشئون الدينية ينفق عليها من الأموال العامة . وليس الإمام كاهناً كالقس عند المسيحيين بل هو رجل عادى يكسب قوته بعمل دنيوى يؤديه ، ويعين في المسجد فترة من الزمان ، ويتقاضى أجراً قليلاً ليؤم المصلين (+) ؛ فالدين الإسلامى لا يعترف بالكهانة والقسوسة . والمسلمون بعد صلاة الجمعة أحرار يستطيع من أراد منهم أن يؤدى عمله المعتاد كما يؤديه في أى يوم آخر . وحسبهم أنهم قد توجهوا إلى ربهم ساعة من الزمان تطهرت فيها نفوسهم وسمت فوق

(*) يحدث هذا أحياناً ولكن الآذان الشرعى مرة واحدة ويقتصر على التكبير والشهادتين والدعوة إلى الصلاة والفلايح والتكبير والشهادة . (ى)
(**) ليس على المسلم أن يتوضأ في المسجد بل الذى عليه أن يكون متوضئاً قبل الصلاة في البيت أو في المسجد عل حد سواء .
(+) ومن الأئمة من لا يتقاضى أجراً . وفي الصلوات الخمس يستطيع أى إنسان أن يؤم المصلين إن كان أهلاً لهذه الإمامة . (المترجم)

«المشاغل الاقتصادية والمنازعات الاجتماعية» ، وتألفت قلوبهم من حيث لا يشعرون باشتراكهم في هذه الشعائر العامة .

والواجب الثاني المفروض على المسلم هو أداء الزكاة . لقد كان النبي ينظر إلى الأغنياء كما ينظر إليهم المسيح ، ويقول بعضهم إنه بدأ حياته مصلحا اجتماعيا اشتمأت نفسه مما رآه من الفروق الواسعة بين ترف طائفة التجار من الأشراف وفقر عامة الشعب ، ويبدو أن معظم أتباعه في أول الأمر كانوا من الفقراء .

وكان من أول ما قام به من الأعمال في المدينة أن فرض ضريبة سنوية مقدارها اثنان ونصف في المائة على جميع الأملاك المنقولة ، لمعونة الفقراء(*) . وكان في الدولة الإسلامية موظفون مختصون يقومون بجمع الزكاة وتوزيعها على أصحابها . وكان جزء من حصيلتها ينفق في بناء المساجد ، وفي أداء نفقات الحكومة وتجهيز الجيوش . ولكن الحرب كانت تأتي بالغنائم التي تزيد كثيراً من نصيب الفقراء . وما أكثر ما يروى من قصص المسلمين الأسخياء الذين جادوا بأموالهم على الفقراء ، فالحسن بن علي مثلاً يروى عنه أنه قسم ماله بينه وبين الفقراء ثلاث مرات في حياته وأنه في مرتين وهبهم كل ما يملك .

والواجب الثالث على المسلمين هو صوم رمضان . ونقول هنا إن الخمر ، والميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، والكلب ، محرمة بوجه عام على المسلمين ، ولكن الإسلام من هذه الناحية أقل صرامة من اليهودية ، فهو يبيح أكل الطعام المحرم عند الضرورة ، وسئل محمد مرة عن جبن للذيده يحتوي على لحم محرم ، فقال

(*) فرغمت الزكاة بالمدينة حقا وفي السنة الثانية من الهجرة ، ولكنها لا تسمى ضريبة بل تسمى « زكاة » ومعنى الزكاة في اللغة : الطهارة والبراءة ، وإخراج المقدار الواجب شرعا يطهر به مال المزكى وينمي حقا .

أما المقدار الذي ذكره المؤلف وهو اثنان ونصف في المائة فهو زكاة للمال النقدي ، وفي سائر الأموال كالزروع والثمار والحيوان مقادير أخرى محددة معروفة في كتب الفقه . (ي)

للسائل : « اذكروا اسم الله وكلوا(*) » . وكان يكره الزهد الشديد ويحرم
الرهينة على المسلمين (سورة الأعراف ٣٢) فقد أحل للمسلمين أن
يستمتعوا بالحلال من طيبات الحياة على شريطة ألا يسرفوا فيها . ولكن الإسلام
كغيره من الأديان يدعو المسلمين إلى الصوم ليقوى بذلك إرادتهم من جهة ،
ولتصح به أجسامهم من جهة أخرى . وكان النبي بعد أن أقام في المدينة
بضعة أشهر قد رأى اليهود يصومون صومهم السنوي فأمر أتباعه أن يحلوا
حلوم لعله بذلك يستميلهم إلى الإسلام ، فلما تبين أنه لم يستملهم إليه
استبدل به صوم رمضان ، فإذا أهل هذا الشهر وعدته تسعة وعشرون يوماً
في بعض السنين وثلاثون في بعضها الآخر أمسك المسلمون في أثناء النهار
عن الطعام والشراب ، والتدخين وعن الصلوات الجنسية . وأبيح الإفطار
للمرضى ، والمسافرين المتعبين ، والصغار ، والشيوخ الضعاف ، والحاملات
والمرضع ، ولما فرض الصيام في أول الأمر كان شهر رمضان في فصل
الشتاء حين يقصر النهار ، ولكن رمضان يقع في فصل الصيف كل ثلاث
وثلاثين سنة ، فيطول ويشدد الظمأ في حر البلاد الشرقية حتى يكون أشبه
شيء بالعذاب . ولكن المسلم الصالح يتحمل الصيام . ويفطر المسلمون أثناء
الليل فيأكلون ، ويشربون ، ويدخنون ، ويباشرون النساء حتى مطلع
الفجر ، وتظل المخازن والحوانيت مفتحة الأبواب طوال الليل تؤمها الجاهير
ليأكلوا ويستمتعوا ، والفقراء يعملون كعادتهم في أيام الصوم ، أما الأغنياء
ففي وسعهم أن ييسروا الأمر على أنفسهم بالنوم في أثناء النهار .

ويقضى الأتقياء الصالحون الليالي العشر الأخيرة من رمضان في المساجد

(*) عن ابن عباس قال : جرى إلى النبي صل الله عليه وسلم مجيئة في غزاة فقال : أين
صنعت هذه ؟ قالوا : بفارس ، ونحن نرى أنه يجعل فيها ميتة ، فقال : اطعنوا فيها بسكين ،
واذكروا اسم الله وكلوا . رواه أحمد والبخاري والطبراني ، وواضح هنا أن ذلك كان لضرورة
وهي الغزاة . (المترجم)

فهم يعتقدون أن القرآن قد نزل على النبي في إحدى هذه الليالي ، ولهذا فإن هذه الليلة عندهم خير من ألف شهر ، وإذا كانوا لا يعرفون أى الليالي العشر هي ليلة القدر فإن كثيراً من المسلمين يحيونها كلها . فإذا انقضى شهر رمضان احتفل المسلمون بعيد الفطر ، فيستحمون ، ويلبسون ثياباً جديدة ، وينهئ به بعضهم بعضاً ، ويخرجون الزكاة ، والهدايا ويزورون قبور الموتى .

والواجب الرابع المفروض على المسلمين هو الحج . ولقد كان الحج إلى الأماكن المقدسة من السنن المألوفة في بلاد الشرق ، فكان اليهود يأملون أن يروا صهيون في يوم من الأيام كما كان الصالحون من العرب عبدة الأوثان . قبل النبي بزمن طويل يحجون إلى الكعبة ، وأقر الإسلام هذه السنة القديمة ، وكان هذا الإقرار من الأسباب التي ساعدت على انتشار الإسلام في جميع أنحاء الجزيرة العربية . وبذلك أصبحت الكعبة ، بعد أن ظهرت من الأصنام ، بيت الله . وفرض على كل مسلم (عدا المرضى والفقراء) أن يحجوا إليها ، كلما استطاعوا(*) ، ولكن سرعان ما فسر هذا بأنه يعنى مرة في العمر . ولما أن انتشر الإسلام في أطراف العالم اقتصر أداء هذه الفريضة على قلة منهم ، وفي مكة نفسها بعض المسلمين الذين لم يزوروا الكعبة قط .

وقد وصف دوتى Doughty ، وصفا لا يضارعه في روعته وصف سواه ، منظر قافلة الحجاج وهي تجتاز الصحراء في حر الشمس اللافتح ، وهيب الرمال المحرقة ، وتتألف من سبعة آلاف من المؤمنين أو أقل أو أكثر من هذا العدد ، راجلين .

(*) لم يفرض الحج إلا مرة واحدة في العمر . (ى)

ولعل المؤلف قد أخذ قوله هذا من إضافة « من استطاع إليه سبيلا » إلى الركن الخامس من أركان الإسلام ، وهو فهم خاطئ بلا شك ، إذ المقصود بهذه العبارة أن يؤدي الفريضة من يستطيع ، أى من تمكن من أدائها حالته الصحية وموارده وغيرها من ظروفه . (المترجم)

أو ممتطين صهوة الجياد ، أو ظهور الحمير ، أو البغال ، أو الهودج الفخمة ، ولكن كثرتهم الغالبة تهتز على ظهور الإبل ، وتنحني بأجسامها في كل خطوة من خطواتها الطويلة . . . وتسجد خمسين مرة في كل دقيقة أرادت ذلك أو لم ترده في اتجاه مكة ، مجتازة ثلاثين ميلا في اليوم ، وخمسين ميلا في بعض الأحيان ، حتى تصل إلى واحة تحط فيها رحالها لتستريح . وفي هذا السير الشاق يمرض كثير من الحجاج ويتخلفون ، ومنهم من يموتون فيتركون (*) تنهشم السباع المترصدة في الطريق ، أو يحتضرون فيتركون يموتوا على مهل ، ويزور الحجاج في المدينة قبر النبي ، ويشهدون قبر أبي بكر وقبر عمر في مسجد الرسول ، ويعتقد بعضهم أن في جوار هذه القبور مكان احتفظ به لعيسى بن مريم .

فإذا أشرفت القافلة على مكة نصبت خيامها خارج أسوارها لأن البلدة نفسها حرم مقدس . ثم يستحم الحجاج ويحرمون فيلبسون أثوابا بيضاء غير مخيطة ، ويركبون أو يسرون على أقدامهم مسافة طويلة ، يبحثون عن مساكن لهم في أحياء المدينة (**). ويفرض عليهم طوال إقامتهم في مكة أن يمتنعوا عن جميع المنازعات ، وعن العلاقات الجنسية ، وعن كل ما هو حرام (+) ، وتصبح البلدة

(*) لا شك في أن هذا الوصف لا ينطبق كله على الكثرة الغالبة من الحجاج في هذه الأيام أيام الطائرات والسيارات والطرق المعبدة ووسائل الراحة المهيأة لجميع الحجاج . (المترجم)
(**) يحتاج هذا الوصف إلى شيء من الدقة ، فإن كون مكة حرما مقدسا لا يمنع أن يدخلها الحجاج بقوافلهم ، بل هذا ما يحدث فعلا ، ثم إن الإحرام يكون قبل ذلك لا بعده وله مواقيت - وأمكنة معينة معروفة لا يجاوزها الحاج إلا محرما مهما كان البلد الآق منه ، وأقربها إلى « مكة » بينه وبينها مرحلتان (راجع مثلا دور الحكام للقاضي مثلا خسرو الحنفي ج ١ ص ٢١٨) . (ى)

(+) ليس فرضا على الحجاج الامتناع عن الصلوات الجنسية طول مدة إقامته بمكة ، بل ذلك يكون مادام محرما فقط ، كما هو معروف في كتب الفقه (انظر التعليق السابق) هذا وليس الامتناع عن المحرمات مقصورا على أيام الحج ، بل هو مفروض على المسلمين في جميع الأوقات . (ى)

المقدسة في أشهر الحج ملتقى المسلمين من كافة الأمم ، والأجناس والطبقات ، يشتركون كلهم على قدم المساواة في مناسك الحج وفي الصلاة ، فإذا دخلوا المسجد الحرام الفسيح الجنات شغلهم نشوتهم الروحية عن ملاحظة المآذن الرفيعة التي فوق الجدران ، وعمما فيه من عقود وعمد . وعند بئر زمزم التي يقال عنها إنها أطفأت ظمأ إسماعيل يقفون خاشعين ، ويشرب الحجاج من مائها مهما تكن حرارته ومها يكن تأثيره ، ومنهم من يحمل هذا الماء معه إلى إلى وطنه ليشرب منه في بعض أيامه وحين تحضره الوفاة(*) . ويصل الحجاج آخر الأمر ، وكلهم عيون شاخصة يلهثون من التعب ، إلى قلب المسجد ، إلى الكعبة نفسها ، وهي بناء صغير الحجم مضاء من داخله بمصاييح من الفضة معلقة في سقفه ، ومكسوة جدرانه الخارجية بكسوة من الحرير الثمين ، وفي أحد أركانه الحيز الأسود الشهير . ويطوف الحاج سبع مرات حول الكعبة ، ويقبل الحجر الأسود أو يلمسه أو ينحني تعظيما له . ومن الحجاج من يقضون الليلة كلها في داخل المسجد غير عابثين بما عانوا من شدة التعب والسهرة ، يجلسون على أبسطه يتحدثون ، ويصلون ويفكرون في دهشة ونشوة في الغرض الذي جاءوا من أجله .

وفي اليوم الثاني(**) يسعى الحجاج سبع مرات بين الصفا والمروة ، وهما في خارج المدينة ، لإحياء لذكرى هاجر وهي تُبحث عن الماء لتروى به ولدها . وفي اليوم السابع يخرج من ييغون «الحج الأكبر» إلى جبل عرفات الذي يبعد عن

(*) من الحجاج من يصر على التزود من ماء زمزم والاحتفاظ بشيء منه في عودته إلى بلده ولكننا لانعلم ولا نظن أن منهم من يستبقى شيئا منه ليشربه حين تحضره الوفاة . (ى)

(**) السعى بين الصفا والمروة لا يكون في اليوم الثاني من الوصول إلى مكة ، بل إن هذا السعى واجب يوم وصوله إليها وطوافه بالكعبة بالمسجد الحرام . وهذا الطواف يسمى طوافه للقُدوم أو طواف التحية أيضا (راجع الكتاب السابق ج ٢ ص ٢٢٢ - ٢٢٤) . (ى)

نكة مسيرة سبع ساعات - وهم يستمعون إلى خطبة تدوم ثلاث ساعات (*) ، ثم يقفون وهم عائدون في منتصف الطريق ويقضون ليلة في المزدلفة . وفي اليوم الثامن يهرعون إلى منى ويرمون بالجمرات ثلاث علامات أو ثلاثة أعمدة ، اعتقاداً منهم بأن إبراهيم قد رجم الشيطان بهذه الطريقة حينما حاول أن يثنيه عن ذبيح ولده وفي اليوم الثامن يضحون بحمل أو جمل أو غيرها من الماشية ذات القرون ، ويأكلون بعض لحومها ويوزعون الصدقات (***) ، وهذا الحفل هو أهم شعائر الحج ويحيون به ما فعله النبي نفسه في مثل ذلك الوقت من حياته ، والمسلمون في جميع أنحاء العالم يحتفلون بعيد الأضحى فينحرون الذبائح في هذا اليوم العاشر من شهر ذى الحجة ويوزعون اللحوم والصدقات تقرباً لله . وبعد هذا يخلق الحجاج شعورهم ويقصون أظافرهم ويدفنون هذه البقايا في الرمال ، وبذلك ينتهى الحج الأكبر ، ولكن الحج في العادة يزورون الكعبة مرة أخرى قبل أن يعودوا إلى عجم القافلة . وهناك يعودون إلى حالتهم الأولى ويلبسون ثيابهم العادية ويبدؤون رحلتهم الطويلة إلى أوطانهم مطمئنين البال فخورين بما وفقوا إليه من عمل صالح .

ولهذه الفريضة العظيمة أغراض وفوائد كثيرة . فهي تقوى إيمان المسلمين واستمسكهم بدينهم ، وتمكن الصلة بهذا العمل العاطفي الجماعي بين المسلم ودينه وبين إخوانه المؤمنين ، شأنها في هذا شأن حج اليهود إلى أورشليم ، وحج المسيحيين إلى هذه المدينة وإلى رومة . فالحج وما ينطوي عليه من مناسك التقوى

(*) يخاطب الإمام في موسم حج ثلاث خطب ، ولكل منها مناسبة يعلم الحجاج فيها ما هم مقبلون عليه من الحج وأعماله وليس منها خطبة واحدة تدوم ثلاث ساعات ، والذين يدرسون الفقه الإسلامى وسيرة الرسول . ، يعرفون أن خطب الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تجمع بين الإيجاز وكل ما تجب معرفته .

(**) لا تكون الأضحية في اليوم الثامن من ذى الحجة بل تكون في اليوم العاشر أى يوم العيد كما هو معروف .

والورع يجمع بين بدو الصحراء والفقراء وتجار المدن الأثرياء ، وبين البربر
وزنوج إفريقية ، والشوام ، والفرس ، والأتراك ، والتتار ، والهنود
المسلمين ، والصينيين والمصريين ، وغيرهم من الشعوب الإسلامية - يرتدون
كلهم ثياباً بسيطة واحدة ، ويتلون كلهم أدعية واحدة بلغة واحدة وهي اللغة
العربية ، ولعل هذا هو السبب في ضعف حدة الفوارق العنصرية في الإسلام .
وقد يبدو لغير المسلمين أن الطواف حول الكعبة من الأعمال التي لا تنطبق على
العقل . ولكن المسلم يتسم حين يرى أمثال هذه العادة في الأديان الأخرى ،
ويهوله أن يرى المسيحيين في إحدى شعائهم « يأكلون الله » . فالمسلمون
لا يفهمون من هذا الطواف إلا أنه رمز خارجي لصلة روحية وغذاء
روحي . وفي الأديان كلها ما يبدو لغير أصحابها أنه مما يعز على الأفهام .

والأديان جميعها مهما يكن من نبل أصولها ، لا تلبث أن تحشر فيها
طائفة من الخرافات لا صلة بينها وبين مبادئها الأولى ، وإنما تنشأ بطبيعتها
من العقول التي نخيم عليها وأتھكها تعب الجسم ورهبة الروح في كفاحها
للخلود . لهذا نرى أن معظم المسلمين (*) يؤمنون بالسحر (***) ، وقلما
يشكون في قدرة السحرة على التنبؤ بالغيب والكشف على الكنوز الخبوءة ،
وغرس الحب في النفوس وتعذيب الأعداء ، وشفاء المرضى ، واتقاء
الحسد . ومنهم من يعتقد في قدرة البعض على مسخ الإنسان إلى حيوان
أو نبات ، أو الانتقال من مكان إلى مكان بوسائل معجزة خارقة . وتلك
العقائد هي المحور الذي تدور عليه قصص ألف ليلة . ففيها ترى الأرواح في كل
مكان تحتال بضروب السحر وغيره على الأحياء ، وتستولد النساء غير
الحريصات ما لا يشتهن من الأبناء ويلبس معظم المسلمين (٣) كما يلبس
نصف المسيحيين تمام ترد عنهم ضروباً مختلفة من الشرور ، ويعتقدون

(*) يقصد المؤلف بقوله معظم المسلمين غير المتصلين . ويلاحظ أنه يقول : إن هذه كلها
ليست من الدين بل هي من الخرافات التي لا صلة بينها وبين مبادئه الأولى . (المترجم)

(**) أصبح من هذا أن يقول : عامة المسلمين أو جهالهم الذين يؤمنون بالسحر كما يؤمن
به الجهال في كل أمة . (المترجم)

أن من الأيام ما هو سعد ومنها ما هو نحس ، وأن الأحلام قد تنبئ عن المستقبل ، وأن الله قد يتحدث إلى الإنسان في الأحلام . ويؤمن العامة في مختلف بلاد الإسلام كما يؤمن أمثالهم في مختلف البلاد المسيحية بالتنجيم ، فقد رسمت خرائط للسماء ، ولم يكن الغرض من رسمها مقصوداً على معرفة اتجاه القبلة في المساجد وتحديد أيام الأعياد الدينية ، بل كان يقصد منه فوق هذا وذاك اختيار الوقت المناسب لكل عمل خطير ، ومعرفة طالع كل فرد ، أى خلقه ومصيره كما تدل عليه النجوم التى كانت فى السماء وقت مولده :

والدين الإسلامى(*) ، وإن بدا للعالم الخارجى وحدة قوية شاملة خالية من الفروق فى شعائره وعقائده ، قد انقسم من أقدم العهود شيعاً لا تقل فى عددها أو شدة اختلافها عن الشيع المسيحية . ومن هذه الشيع الخوارج ذوو النزعة الحربية المتزمتة الديمقراطية ، ومنها المرجئة التى تعتقد أن المسلم لا يقضى عليه بالعذاب الدائم فى الدار الآخرة ، والخبرية التى تنكر حرية الإرادة ، وتعتقد أن الإنسان مسير فى كل شئ وفق ما قدر له منذ الأزل ، والقدرية التى تؤمن بجزية الإرادة وتدافع عنها ، ومنها غير هذه شيع كثيرة لا حاجة بنا إلى الوقوف عندها ، وحسبنا أن نحثيى فيها لإخلاصها لمبادئها وسعة علمها . لكن منها فرقة كان لها شأن عظيم فى التاريخ ، تلك هى طائفة الشيعة . فهؤلاء قضوا على الخلافة الأموية ، واستولوا على بلاد الفرس ومصر ، والهند الإسلامية ، وكان لهم أعظم الأثر فى الأدب والفلسفة ، ونشأت طائفة الشيعة على أثر مقتل على وولده الحسين وأسرته ، فقد قالت فئة قليلة من المسلمين إن الله وقت أن اختار محمداً نبياً له ورسولاً ، قد أراد من غير شك أن يكون أبناؤه الذين ورثوا بعض فضائله وأغراضه الروحية هم الوارثين لزعامة الإسلام . ولهذا فهم يرون أن جميع الخلفاء ما عدا علياً ،

(*) يريد المسلمون فهم الدين انقسموا شيعاً ، أما الدين نفسه فينبى عن هذه التفرقة . إن الدين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شئ . (المترجم)

مغتصبون لاحق لهم في الخلافة ، وقد اغتبطوا حين ولي على الخلافة ، وحزنوا لمقتله ، وروعوا لمقتل الحسين . وأصبح على والحسين بعد موتهما في رأيهم من أولياء الله الصالحين ، وهم يعظمون ضربيهما تعظيماً لا يفوقه إلا تعظيمهم للكعبة وقبر الرسول . ولعل طائفة الشيعة قد تأثرت بعقيدة الفرس واليهود والمسيحيين الخاصة بالمسيح المنتظر ، وبفكرة البوذيين عن البدهستفاس - أى تجسد القديسين مراراً بعد موتهم - فقالت إن أبناء علي هم الأئمة الذين تتمثل فيهم الحكمة الإلهية . وهي ترى أن الإمام الرضا ، ثامن أولئك الأئمة الذى يقوم ضريحه في مشهد بشمالى فارس ، هو «مجد العالم الشيعى» . وقد حدث في عام ١٨٧٣ أن اختفى الإمام الثانى عشر محمد بن حسن وهو فى الثامنة عشرة ، فاعتقد الشيعة أنه لم يميت ، ولكنه سيعود فى الوقت المناسب ليعيدهم إلى السلطان الشامل والسعادة الدائمة :

وكانت الفرق الإسلامية المختلفة تشعر بعضها نحو بعض بعداء^(*) يفوق عداها لمن يعيش فى البلاد الإسلامية من الكفرة ، شأنها فى هذا شأن الفرق المختلفة فى سائر الأديان^(***) . ولقد كان أهل الذمة المسيحيون ، والزردهشتيون ، واليهود ، والصابئون ، يستمتعون فى عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً فى البلاد المسيحية فى هذه الأيام . فلقد كانوا أحراراً فى ممارسة شعائر دينهم ، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم ، ولم يفرض عليهم أكثر من ارتداء زى ذى لون خاص وأداء فريضة عن كل شخص ، تختلف باختلاف دخله وتر اوح بين دينار وأربعة دنانير (من ٤٧٥ إلى ١٩ دولاراً أمريكياً) . ولم تكن هذه الضريبة تفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح ، ويعنى منها الرهبان

(*) إذا كان العدا قد استحكمت فى يوم من الأيام بين بعض الفرق والبعض الآخر فإنه لم يكن بالشدة التى يصفه بها المؤلف ، ومما يكن هذا العدا فى الماضى فإنها الآن تعيش فى وقام وقتما يعرف الرجل العادى إلى أى الفرق ينتمى زملاؤه ومواطنوه . (المترجم)

(**) لا نعلم من تاريخ الإسلام وما نشأ فيه من فرق مختلفة ، أن فرقة من هذه الفرق كانت تشعر نحو غيرها بعداء يفوق عداها للكفرة الذين يعيشون فى البلاد الإسلامية . (ح)

والنساء والذكور الذين هم دون البلوغ ، والأرقاء ، والشيوخ ، والعجزة ،
والعمى والشديدي الفقر . وكان الذميون يعفون في نظير هذه الضريبة من
الخدمة العسكرية أو إن شئت فقل لا يقبلون فيها - ولا تفرض عليهم الزكاة
البالغ قدرها اثنين ونصف في المائة من الدخل السنوي ، وكان لهم على
الحكومة أن تحميمهم ، ولم تكن تقبل شهادتهم في المحاكم الإسلامية ، ولكنهم
كانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم ، وقضاةهم وقوانينهم ،
وكان تسامح الحكام المسلمين معهم يختلف باختلاف الأسر الحاكمة ، فكان
الخلفاء الراشدون أشداء عليهم (*) ، وكان الأمويون يعاملونهم بالدين بوجه
عام ، والعباسيون يعاملونهم بالدين تارة وبالقسوة تارة أخرى . وقد أخرج
عمر بن الخطاب اليهود والمسيحيين من جزيرة العرب لأنها أرض الإسلام
المقدسة ، وتغزو إليه إحدى الروايات غير المؤكدة « عهداً » قيد فيه حقوقهم
بوجه عام ، لكن هذا العهد ، إن كان قد عقد ، قد أغفل العمل به ، وظلت
الكنائس المسيحية في لاهر تتمتع في أيام هذا الخليفة بالميزات التي منحها إياها
الحكومة البيزنطية قبل الفتح العربي .

وكان اليهود في بلاد الشرق الأدنى قد رحبوا بالعرب الذين حرروهم من ظلم
حكامهم السابقين ، إلا أنهم في عهدهم قد فرضت عليهم عدة قيود ولاقوا شيئاً
من الاضطهاد من حين إلى حين ، غير أنهم مع هذا كانوا يعاملون على قدم المساواة

(*) من العجيب أن يذكر الكاتب أن الخلفاء الراشدين كانوا يعاملون بالشدة الذميين
الذين يعيشون في البلاد الإسلامية . إن الدين نفسه يجعل لهؤلاء الذميين كل ما لنا من حقوق ويجعل
عليهم ما علينا من واجبات ، والقرآن الكريم يحثنا على مودة المخالفين لنا في الدين ما داموا
مسالمين . وعناية عمر بن الخطاب بعد الخليفة الأول أبي بكر الصديق بغير المسلمين من أهل
الذمة معروفة غير خافية . لقد جعل للفقراء المحتاجين منهم ما يكفيهم هم وعيالهم من بيت
المسالك . هل أن الكاتب نفسه ذكر قبل ذلك بسطور أن أهل الذمة كانوا يتمتعون في عهد
الأمويين بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام ، ومعروف أن
الأمويين كانوا على عصبية شديدة أحياناً لغير العرب حتى ولو كانوا من الموالى المسلمين . (س)

مع المسيحيين ، وأصبحوا مرة أخرى يتمتعون بكامل الحرية في حياتهم وفي ممارسة شعائر دينهم في بيت المقدس . وأثروا كثيراً في ظل الإسلام في آسية ، ومصر ، وأسبانيا ، كما لم يثروا من قبل تحت حكم المسيحيين . وكان المسيحيون في بلاد آسية الغربية ، خارج حدود الجزيرة العربية ، يمارسون شعائر دينهم بكامل حريتهم ، وبقيت الكثرة الغالبة من أهل بلاد الشام مسيحية حتى القرن الثالث الإسلامى . ويحدثنا المؤرخون أنه كان في بلاد الإسلام في عصر المأمون أحد عشر ألف كنيسة ، كما كان فيها عدد كبير من هياكل اليهود ومعابد النار . وكان المسيحيون أحراراً في الاحتفال بأعيادهم علناً ، والحجاج المسيحيون يأتون أفواجا آمنين لزيارة الأضرحة المسيحية في فلسطين ، وقد وجد الصليبيون جماعات مسيحية كبيرة في الشرق الأدنى في القرن الثاني عشر الميلادى ولا تزال فيه جماعات منهم إلى يومنا هذا . وأصبح المسيحيون الخارجون على كنيسة الدولة البيزنطية والذين كانوا يلقون صورا من الاضطهاد على يد بطارقة القسطنطينية ، وأورشليم ، والإسكندرية ، وأنطاكية ، أصبح هؤلاء الآن أحراراً آمنين تحت حكم المسلمين الذين لم يكونوا يجنون لتقاشمهم ومنازعاتهم معنى يفهمونه ، ولقد ذهب المسلمون في حماية المسيحيين إلى أبعد من هذا ، إذ عين والى أنطاكية في القرن التاسع الميلادى حرسا خاصا لمنع الطوائف المسيحية المختلفة من أن يقتل بعضها بعضا في الكنائس . وانتشرت أديرة الرهبان وأعمالهم في الزراعة ، وفي إصلاح الأراضي البور ، وكانوا يتذوقون النيذ المعصور من غنب الأديرة ، ويستمتعون في أسفارهم بضيافتها ، وبانغت العلاقة بين الدينين في وقت من الأوقات درجة من المودة تبيح للمسيحيين الذين يضعون الصليبان على صدورهم أن يؤموا المساجد ويتحدثوا فيها مع أئمتهم المسلمين ، وكانت طوائف الموظفين الرسميين في البلاد الإسلامية تضم مئات من المسيحيين ، وقد بلغ عدد الذين رفقوا منهم إلى المناصب العليا في الدولة من الكثرة درجة أثارت شكوى المسلمين في بعض العهود . فقد كان سرجيوس والدالديس .

يوحنا الدمشقي خازن بيت المال في عهد عبد الملك بن مروان ، وكان يوحنا نفسه وهو آخر آباء الكنيسة اليونانية ، رئيس المجلس الذي كان يتولى حكم دمشق . وكان المسيحيون في بلاد الشرق يرون أن حكم المسلمين أخف وطأة من حكم بيزنطية وكنيستها .

وعلى الرغم من خطة التسامح الديني التي كان ينتهجها المسلمون الأولون ، أو بسبب هذه الخطة ، اعتنق الدين الجديد معظم المسيحيين ، وجميع الزردشتيين ، والوثنيين إلا عدداً قليلاً جداً منهم ، وكثيرون من اليهود في آسية ، ومصر وشمال أفريقيا . فقد كان من مصلحتهم المالية أن يكونوا على دين الطبقة الحاكمة ، وكان في وسع أسرى الحروب أن ينجوا من الرق إذا نطقوا بالشهادتين ورضوا بالختان . واتخذ غير المسلمين على مر الزمن اللغة العربية لساناً لهم ، ولبسوا الثياب العربية ، ثم انتهى الأمر بتباعهم شريعة القرآن واعتناق الإسلام . وحيث عجزت الهلينية عن أن تثبت قواعدها بعد سيادة دامت ألف عام ، وحيث تركت الجيوش الرومانية الآلهة الوطنية ولم تغلبها على أمرها ، وفي البلاد التي نشأت فيها مذاهب مسيحية خارجة على مذهب الدولة البيزنطية الرسمي ، في هذه الأقاليم كلها انتشرت العقائد والعبادات الإسلامية ، وآمن السكان بالدين الجديد وأخلصوا له ، واستمسكوا بأصوله إخلاصاً واستمسكا أنسياءهم بعد وقت قصير آلتهم القداى ، واستحوذ الدين الإسلامى على قلوب مئات الشعوب في البلاد الممتدة من الصين ، وأندونيسيا ، والهند ، إلى فارس ، والشام ، وجزيرة العرب ، ومصر وإلى مراکش ، والأندلس ، وتملك خيالهم ، وسيطر على أخلاقهم ، وصاغ حياتهم ، وبعث فيهم آمالاً تخفف عنهم بوئس الحياة ومتاعبها ، وأوحى إليهم العزة والأنفة ، حتى بلغ عدد من يعتقدونه ويعتزون به في هذه الأيام نحو ثلثمائة وخمسين مليوناً من الأنفس ، يوحد هذا الدين بينهم ، ويؤلف قلوبهم مهما يكن بينهم من الاختلافات والفروق السياسية .

الفصل الثالث

الشعب

كان العرب في عهد الأمويين طبقة عليا حاكمة تحصل على مقررات من الدولة . وكان جميع الذكور القادرين من أبناء العرب ، يخضعون ، في نظير هذه المزايا للخدمة العسكرية ، يدعون إليها في أى وقت من الأوقات . وكانوا بوصفهم الفاتحين يفخرون بدمهم النقي في زعمهم وبلغتهم العربية الفصحى . وكان العربي يحرص أشد الحرص على أن يضيف إليه اسمه اسم أبيه كعبد الله ابن الزبير مثلا ، وكان في بعض الأحيان يضيف إليه اسم قبيلته وموطنه الأصلي ، فكان اسمه سيرة له مصغرة فيقول مثلا : أبو بكر أحمد ابن جرير الأزدي . غير أن نقاء الدم لم يلبث أن أصبح أسطورة خرافية بعد أن اتخذ الفاتحون لهم جوارى من أهل البلاد المفتوحة ، وأدخلوا أبناءهم منهن في زمرة العرب ؛ ولكن الفخر بالدم والأصل ظل كما كان من قبل . وكان أفراد الطبقات العليا من العرب ينتقلون من مكان إلى مكان على ظهور الخيل ، في أثواب من الحرير الأبيض ، وسيوفهم مشرعة بأيديهم . أما العامة فكانوا يخرجون في سراويل مننفة ، وعمامات مطوية ، وأحذية ذات أطراف رفيعة . واحتفظ البدوي بجلبابه القضاض ، وشاله ومنطقته ، وقد نهى النبي عن لبس السراويل الطويلة ، ولكن بعض العرب نسوا أمره هذا ، وكانت جميع طبقات الشعب تزدان بالخلي ، وكانت الإناث يستهوين الذكور بصديرياتهن ، ومناطقهن البراقة ، ونقبتن(*) الواسعة الزاهية اللون . وكان يعقصن شعرهن على جباههن ، أو يرسلنه على جانبي رؤوسهن ، أو يجدلنه

(*) النقب جمع النقة وهي ثوب كالإزار تجمل له حجرة مطيفة وهي skirt بالإنجليزية .

(الترجم)

غداثر تنوب على ظهورهن ، وكن أحياناً يكثرنه بخيوط سوداء من الحرير ، وفي أغلب الأوقات يزينه بالجواهر والأزهار . وأخذن بعد عام ٧١٥ يغطين بالثياب وجوههن أسفل عيونهن ، وازداد انتشار هذه العادة تدريجياً بعد ذلك العام ، وبهذا كان في وسع كل امرأة أن تكون فائنة جذابة ، لأن عيني المرأة العربية مهما يكن سنها جميلتان تسيبان العقول . والفتاة الغربية تبلغ الحلم في سن الثانية عشرة وتصبح عجوزاً في سن الأربعين ، وهي بين هذه السن وتلك تلهم معظم الشعراء وتلد الأبناء .

والمسلم لا يحترم العزوبة ، ولا يخطر بباله أن يمتنع عن إشباع الغريزة الجنسية ، ولا يرى أن هذا الامتناع حال طبيعية أو مثالية . وقد كان لمعظم الصالحين من المسلمين زوجات وأبناء . وحدود الزواج أوسع في الإسلام منها في كثير من الأديان ، وتفتح الشريعة الإسلامية منافذ كثيرة لإشباع الغريزة الجنسية ، ولهذا قل البغاء في أيام النبي والخلفاء الراشدين . ولكن الانهماك في إشباع الغريزة الجنسية يتطلب عادة كثرة التنيه ، ولهذا لم تلبث الفتيات الراقصات أن أصبح هن شأن كبير في حياة الرجال حتى أكثرهم أزواجاً . وإذا كان المقصود من الآداب الإسلامية أن تكون مقصورة على آذان الذكور وأعينهم ، فإن منها ما لا يقل فحشاً عن حديث الذكور في البلاد المسيحية ، فهذا الأدب يشتمل على طائفة كبيرة من الغزل ، وقد عنيت كتب الطب عند المسلمين ببيان الأدوية المثوية للباء (٤٢) . والشريعة الإسلامية تجعل الإعدام من عقوبات الزنى واللواط ، ولكن ازدياد الثروة خفض عقوبة الزنى فجعلها ثلاثين جلدة ، وغض الحكام البصر في كثير من الأحيان عن اللواط (٤٣) . ونشأت طائفة من المخشئين المحترفين تشبهوا بالنساء في ثيابهم وعاداتهم ، يصفرون شعورهم ، ويصبغون أظفارهم بالحناء ويرقصون الرقص الخليج (٤٤) . وعاقبهم سليمان بن عبد الملك بإخصاء من كان في مكة من المخشئين ، وأبصر الهادي امرأتين تباشران عملية السحاق فأمر بقطع رأسيهما

على الفور^(٤٥) . ولكن اللواط والسحاق رغم ما فرض عليهما من العقاب الصارم أخذتا ينتشران انتشاراً سريعاً حتى كانا كثيرى الحدوث في بلاط هرون الرشيد ، وفي قصائد شاعره المحبوب . أبى نواس ولما يمض على زمن الهادى إلا بضعة أعوام . ذلك أن الرجل الذى حالت التقاليد بينه وبين النساء قبل الزواج ، وملهن بعده ، عمد إلى العلاقات الجنسية الشاذة ، والمرأة التى حجبا أهلها عن جميع الرجال زلت هى الأخرى فسقطت فيما سقط فيه الرجل

وكان اتصال العرب بالفرس من أسباب انتشار الحجاب واللوواط في البلاد الإسلامية . لقد كان العرب قبل الإسلام يخشون مفاتن المرأة ويعجبون بها على اللوام ، وقد ثأروا لأنفسهم من خضوعهم الغريزي لها بإثارة الشكوك التى يثيرها اللدكور عادة حول فضيلة المرأة وقوة عقلها . وقد نصح عمر قومه باستشارة النساء ومخالفة مشورتهن^(٤٦) ، ولكن المسلمين في القرن الأول من التاريخ الهجرى لم يحبوا النساء ، فقد كان الرجال والنساء يتبادلان الزيارات ويسيران في الشوارع جنباً إلى جنب ، ويصليان معاً في المساجد^(٤٧) ، وكانت عائشة بنت طلحة زوج مصعب بن الزبير لا تستر وجهها من أحد فعابها مصعب في ذلك فقالت « إن الله تبارك وتعالى وسخى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فاكنت لأستره ، ووالله ما فى وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد »^(٤٨) . ثم انتشر الحجاب ونظام الخصيان في أيام الوليد الثانى (٧٤٣ - ٧٤٤) . وكان منشأ عادة عزلة النساء في بادئ الأمر تحريمهن على الرجال أيام الحيض والنفاس . وكان الزوج المسلم يدرك ما يتصف به الرجل في الشرق من شدة العاطفة وسرعة الانفعال ، ويحس بالحاجة إلى حماية نسائه ، ويرى أن يمنعهن من الغواية بحجزهن في البيوت ، فحرم عليهن أن يسرن في الشوارع إلا مسافات قصيرة وهن محجبات ، وكان في وسعهن أن تزاورن ، ولكن ذلك كان في العادة داخل هودج مسجف ، ولم يكن أحد يراهن خارج البيوت أثناء الليل . وكان يفصلهن عن الرجال في

المسجد ستر أو حظار أو رواق خاص ، ثم انتهى الأمر بمنعهم منها منعاً باتاً (٤٩) ، وأصبح الدين الذى وصف فى العالم المسيحى اللاتينى بأنه لا بد منه للإناث ، وأنه ضرورى لمن لا يزيد عليه فى ذلك إلا الغريزة الجنسية ، نقول أصبح الدين فى العالم الإسلامى ، أو بالأحرى أصبحت العبادة العامة ، وفقاً على الذكور دون الإناث ، وكان أشد من هذا قسوة عليهم ، ممنوعين من التردد على الأسواق لقضاء حاجاتهم منها ، فكان يبعث إليها من يقضى حاجاتهم ، وكان البائعات المتنقلات ، وكن فى العادة من النساء يأتين إليهن ليعرضن عليهن بضائعهم فى داخل البيوت ، وقلما كانت النساء يتناولن الطعام مع أزواجهن اللهم إلا عند الطبقات الدنيا ، ومنع المسلم أن يرى وجوه النساء عدا وجوه أزواجه وإمائته ، وأقاربه الأدين ، وحتى الطبيب نفسه لم يكن يسمح له أن يرى من النساء غير الجزء المصاب من أجسامهن . وكان فى هذا النظام مرضاة للرجل ، فهو فى البيت يتيح له أكبر فرص الاستمتاع ، ويجعله فى خارجه أبعد ما يكون عن الرقابة والمفاجأة . أما عن النساء أنفسهن ، فإننا لا نجد حتى القرن التاسع عشر ما يدل على أنهن قد عارضن فى العزلة أو فى النقاب ، بل كن يستمتعن بما فى جناح الحريم من سرية ، وطمأنينة ، وراحة ، وكن يغضبن إذا فرط أزواجهن فى واجب المحافظة على عزلتهن ، ويرين فى ذلك إهانة لمن (٥٠) ، وظلت الزوجات الشرعيات يضطلعن من سجنهن الظاهرى بقسط موفور فى مجريات الحوادث التاريخية ، وكان لخيزران أم الرشيد ، ولزوجته زبيدة فى القرنين الثامن والتاسع قسط كبير من النفوذ والسلطان ، وكانتا تستمتعان بكثير من الأبهة والسلطان .

وقلما كان تعليم البنات يتعدى عند معظم الطبقات تلقينهن الصلاة ، وقليلاً من سور القرآن ، والفنون المنزلية . أما نساء الطبقات العليا فكان يتلقين تعليماً متسع الآفاق ، يقوم به فى العادة معلمون خصوصيون ، ويتلقينه أحياناً فى المدارس والكليات (٥١) ، وكن يتعلمن قرض الشعر ، والموسيقى ، وضروباً من أشغال

الإبرة ؛ ومنهن من تبخرن في العلوم واشتغلن بالتدريس . واشتهر عدد منهن في أعمال البر المستنيرة . وكن يربين على الحفر اللائق بعداتهن ؛ فإذا فوجئن في الحمام أسرعن بتغطية وجوههن (*) ؛ وكن يدهشن عدم احتشام الأوربيات اللاتي يذهبن إلى المراقص وأنصاف صدورهن عارية ، ويعانقن الكثيرين من الرجال أثناء الرقص ؛ ويعجبن من رحمة الله الذي يعهل تلك النسوة الآثمات فلا يأخذهن بذنوبهن ويهلكهن لساعتن (٥٢) .

وكأنت شئون الزواج يتولاها الآباء ؛ كما يتولونها في معظم البلاد المتمدنية ، فقد كان من حق الوالد أن يزوج ابنته لمن أراده هو لها قبل أن تبلغ سن الرشد ؛ أما بعد هذه السن فكان لها أن تختار . وكانت البنات يزوجن في العادة قبيل سن الثانية عشرة ، ويصبحن أمهات في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، ومنهن من كن يتزوجن في سن التاسعة أو العاشرة ، كذلك كان الشبان يتزوجون عادة في سن مبكرة قد لا تزيد على الخامسة عشرة . وكان عقد الزواج ينص على أن يقدم الخطيب لخطيبته صداقاً يبقى لها طوال مدة الزواج وبعد الطلاق إن حدث . وقلما كان يسمح للعريس أن يرى وجه عروسه قبل الزواج . وكان يدخل بها بعد ثمانية أيام أو عشرة من عقده عليها ؛ وليس الزواج في حاجة إلى رجل من رجال الدين ، ولكنه يصحبه دعاء قضير ، ويصحبه في بعض الأحيان موسيقى ، ووليمة . وبعض الهدايا ، وإضاءة منزل العريس والشارع الذي هو فيه بالأنوار الساطعة . وبعد هذه الحفلات يدخل الزوج غرفة زوجته الخاصة ، ويرفع الثقاب عن وجهها وهو يقول « باسم الله الرحمن الرحيم » (٥٣) .

فإذا لم يرتح العريس لعروسه بعد هذا الاختبار المتأخر ، كان في وسعه أن يعيد الزوجة إلى بيتها هي ومؤخر صداقها . وكان معنى تعدد الزوجات

(٥٠) لا شك أن هذه إحدى الفكاهات التي يلجأ إليها المؤلف في كثير من المواضع .

(المترجم) .

في الإسلام في أكثر الأحيان أن تتلو الواحدة من الأخرى ، ولم يكن معناه الجمع بينهما في وقت واحد ، ولم يكن يستطيع ذلك الجمع إلا ذوو الثراء^(٥٤) . وكانت سهولة الطلاق تمكن المسلم من أن يكون له ما يشاء من الأزواج واحدة بعد واحدة ، ويقال إن ابن الطيب ، وهو صباغ في بغداد ، عاش إلى أن بلغ الخامسة والثمانين من العمر ، وتزوج من تسعة زوجة^(٥٥) . وكان في وسع المسلم ، فضلا عن زوجاته ، أي يكون له أي عدد من الجوارى ، وكان لهرن الرشيد عدد كبير منهن ، وكان للمتوكل أكثر مما كان لهرن^(٥٦) ، وكان بعض تجار الرقيق يعلمون الجوارى الموسيقى والغناء ، وفنون فتنه الرجال ، ثم يبيعونهم بأثمان عالية قد تصل إلى مائة ألف درهم (نحو ٨٠,٠٠٠ دولار أمريكي) ^(٥٨) . ولكن ليس من حقنا أن نظن أن بيت الحریم كان مأخوراً خاصاً . فقد كانت الجوارى يصبحن في أغلب الأحيان أمهات ، يفخرن بمن يلدن من الأبناء ، ويعدد الذكور منهم ، ولدينا شواهد كثيرة على ما كان بين الرجل وجاريته من الحب الصادق الأكيد . وكانت الزوجات الشرعيات يرتضين هذا النظام ويرينه من الأمور الطبيعية ، فقد أهدت زبيدة إلى الرشيد عشر جوار^(٥٩) ، وكان البيت بمقتضى هذا النظام يحتوي من الأبناء بقدر ما تحويه ضاحية لإحدى المدن الأمريكية . من ذلك أن أحد أبناء الوليد الأول كان له ثمانون ولداً وعدد من البنات لم يذكره المؤرخون . واستتب نظام الحریم وجود الحصيان ، وإن كان هذا محرماً في الشريعة الإسلامية . واشترك المسيحيون واليهود في استيرادهم أو تهيتهم ، وكان الخلفاء ، والوزراء ، والكبراء يتعاونهم بأثمان غالية ، وسرعان ما أصبحت نواح عدة من الحكومة الإسلامية خاضعة لنفوذ أولئك الحصيان المحدودى الكفاية . وكان من النتائج التي ترتبت على نظام الحریم في القرون الأولى التي تلت الفتح الإسلامية أن منعت العرب من أن يمتصهم أهل البلاد

المفتوحة ، وأن تضاعف عددهم إلى الحد الذي كانوا في حاجة إليه لحكم دولتهم المطردة الاتساع . ولربما كان لهذا النظام أثره في قوة أفدر الرجال على الإخصاب ؛ ولكن تعدد الزوجات أصبح بعد عصر المأمون مصدراً للانحطاط من الناحيتين الخلقية والاجتماعية ، كما أصبح بعد أن أربت نسبة زيادة السكان على زيادة الطعام ، من أسباب تزايد الفاقة والسخط بين الأهلين .

وكان مركز المرأة بعد الزواج هو الخضوع إلى زوجها خضوعاً مصدره تقديس الرابطة الزوجية . والشريعة تحرم عليها أن يكون لها أكثر من زوج واحد في وقت واحد ، ولم يكن في وسعها أن تطلق نفسها منه إلا بمشقة كبيرة ؛ ذلك أنها لم يكن لديها سبيل لمعرفة خيانة زوجها ، ولم تكن هذه الخيانات مما يعبأ به كثيراً من الناحية الأخلاقية . أما خيانتها هي فكان عقابها الموت ، ويدهشنا أن نعرف كم من حوادث الزنى قد ارتكبتها النساء رغم هذا العقاب الصارم والتضييق الشديد . وكانت المرأة تسب وتبجل ، وتحقر وتمتع ، وتحب في معظم الأحيان حباً مصحوباً بعاطفة قوية وحنان ، ويقول أبو العتاهية إنه يفضل زوجته عن كل متع الحياة وعن كل ما في العالم من ثراء (٦٦) . وأمثال هذا القول كثيرة وهي في بعض الأحيان صادقة . وكان مركز المرأة المسلمة يمتاز عن مركز المرأة في بعض البلاد الأوربية من ناحية هامة ، تلك هي أنها كانت حرة التصرف فيما تملك لاحقاً لزوجها أو لدائنيه في شيء من أملاكها . وكانت في داخل بيتها الأمين تغزل وتنسج ، وتطرز ، وتدبر بيتها ، وتعنى بأبنائها ، وتمارس بعض الألعاب ، وتأكل الحلوى ، وتحدث إلى أترابها ، وتحيك الدسائس . وكان ينتظر منها أن تلد لزوجها كثيراً من الأبناء ذوى الفائدة الاقتصادية في المجتمع الزراعى الأبوى ، وكان ما تلقاه من إجلال يتناسب مع خصبها ، وفي ذلك يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : « لخصير في ناحية البيت خير من امرأة لا تلد » (٦٧) . ومع هذا فإن الإجهاض ووسائل منع الحمل كانت كثيرة الانتشار في داخل البيوت . وكانت

القابلات تنقل إلى النساء قديمها ، كما كان الأطباء يعرضون عليهن حديثها .
وقد أفرد الرازي (المتوفى سنة ٩٢٤) في أحد كتبه فصلاً لموانع الحمل ،
وذكر أربعة وعشرين من الموانع الآلية والكيميائية (٦٢) . وأورد ابن سينا
(٩٨٠ - ١٠٣٧) في كتاب القانون الذائع الصيت عشرين وصفاً لمنع الحمل :

وليس ثمة فرق كبير بين المسلم والمسيحي في النواحي الخلقية الخارجة
عن نطاق الناحية الجنسية . فالقرآن مثلاً يحرم الميسر والخمر تحريماً قاطعاً
(سورة المائدة : ٩٠) ولكن بعض الميسر وكثيراً من الخمر ظلاً باقياً
في كلتا الحضارتين . وانتشر الفساد والرشوة في أعمال الحكم والقضاء
في بلاد الإسلام في بعض العصور كما كانا منتشرين في البلاد المسيحية .
ويبدو بوجه عام أن المسلم كان أرقى من المسيحي في خلقه التجاري (٦٣) ،
وفي وفائه بوعدته ، وإخلاصه للمعاهدات التي يعقدها مع غيره (٦٤) ، ولقد
أجمعت الآراء على أن صلاح الدين كان أنبل من اشتراك في الحروب
الصليبية . والمسلمون شرفاء فيما يختص بعادة الكذب ، فهم يبيحون الكذب ،
إذا كان فيه نجاة من موت ، أو حسم لخصومة ، أو لإدخال السرور على
زوجة ، أو خدعة في الحزب لأعداء الدين (٦٥) . والآداب الإسلامية
تجمع بين التكلف والبشاشة ، وحديث المسلم مليء بالتحية والمبالغة
في التأدب . والمسلمون كاليهود يحيى بعضهم بعضاً ، وينحى الواحد منهم
لصاحبه ويصافحه ويقول له : « السلام عليكم » ، والرد الصحيح لهذه
التحية هو « عليكم السلام ورحمة الله وبركاته » ، وإكرام الضيف من
صفاتهم العامة ، والدين الإسلامي يبحث على نظافة الجسم وإن كانت النظافة
عادة تتأثر بالدخيل ، فالفقراء يهملونها حتى تراكم الأقدار على
أجسادهم ، أما الأغنياء فيتليقون ، ويدرمون أظافرهم ، ويتعطرون .
والختان عادة متبعة عند جميع المسلمين وإن لم يرد ذكرها في القرآن ، لأنها في
رأيهم من أسباب المحافظة على الصحة ، وكان الأولاد يحتنون في سن الخامسة
(١١ - ج ٢ - مجلد ٤)

أو السادسة^(٦٦) . وكانت الحمامات الخاصة من ميزات بيوت الأغنياء ، ولكن الحمامات العامة كانت ولا تزال بكثرة في البلاد الإسلامية . فالمؤرخون يقولون إن بغداد كانت في القرن العاشر الميلادي تحتوى على ٢٧٠٠٠ حمام^(٦٧) : وكان العطر والبخور مألوفين بين الرجال والنساء ، وقد اشتهرت بلاد العرب من أقدم الأزمان بالكندر والمر ، وبلاد الفرس بزيت الورد والبنفسج والياسمين ، وكان في كثير من البيوت حدائق غرست فيها أعشاب الزينة والأزهار وأشجار الفاكهة ؛ وكانت الأزهار محببة للشعب وبخاصة في فارس ، وكانت تفضى على الحياة بهجة ومنتعة .

بقى أن نعرف كيف كان هؤلاء الناس يروحون عن أنفسهم وما هي وسائل التسلية عندهم ؟ لقد كان من أهم وسائل التسلية عندهم الأعياد والولائم ، والصيد ، ومغازلة النساء ، والشعر ، والموسيقى ، والغناء ؛ وكانت الطبقات الدنيا تضيف إليها قتال الديكة ، والرقص على الجبال ، والشعوذة ، والسحر ، ولعبة العرائس المتحركة (القرقوز) ويذكر كتاب القانون لابن سينا على أن المسلمين كان لديهم في القرن العاشر الميلادي كل ما عندنا تقريبا من الألعاب الرياضية : الملاكمة ، والمصارعة ، والعدو ، والرماية بالنبال ، وقذف الحراب ، والحركات الرياضية الجسمية ، والمناقفة ، وركوب الخيل ، والحجف^(*) ، ورفع الأثقال ، وأنواع مختلفة من لعبة الكرة والمضرب^(٦٨) . وإذا كانت ألعاب الحظ محرمة ، فقد كانت ألعاب الورق وكعوب النرد قليلة ؛ وكانت (الطاولة) كثيرة الانتشار ، وكان الشطرنج مباحا ، وإن كان النبي قد نهى عن صنع قطعه في صور الآدميين . وكان سباق الخيل منتشرا ، يبسط عليه الخلفاء رعايتهم ؛ ويحدثنا المؤرخون بأن أربعة آلاف جواد اشتركت مرة في سباق . وقد ظل ضييد الحيوان مقصورا على

(*) الحجف اللعب بالكرة وهو المعروف بالبولو في هذه الأيام . (المترجم)

أرق طبقات الأشراف ، وكان عند المسلمين أقل عنفاً منه في أيام الساسانيين ، وكثيراً ما اقتصر على الصيد بالزاة أو الصقور . وكانت الحيوانات المصيدة تربي أحياناً وتدلل ، وكان عند بعض الأسر كلاب ، وعند بعضها قردة ، وعند بعض الخلفاء آساد ونمورة يرهون بها رعاياهم أو سفراء الدول الأجنبية .

وكان العرب حين فتحوا بلاد الشام قبائل قليلة الحظ من المدينة ، شجعاناً إلى درجة التهور ، كثيرى العنف ، سريعى الانفعال ، متشككين ، وكان الإسلام قد خفض من حدة هذه الصفات ، ولكن معظمها لم يكن قد انمحي بعد ؛ وأكبر الظن أن ما يحدثنا عنه المؤرخون عن ضروب التسوية التي كان يرتكبها بعض الخلفاء لم يكن يزيد في مجموعه على ما كان يرتكبه الملوك المسيحيون والبيزنطيون والمروفتنجيون ، وأهل الشمال ؛ ولكنه رغم هذا مما يسربل بالعار كل حضارة . ولما يروى عن سليمان بن عبد الملك أنه في رحلة له إلى مكة ليؤدى فريضة الحج ، دعا رجال حاشيته ليحربوا سيوفهم في رقاب أربعائة من الروم ، أسروا حديثاً في إحدى الحروب ، وقبل رجاله الدعوة وضربت رقاب أربعائة رجل ، ليتسلى الخليفة بذلك المنظر^(٦٩) . ولما جلس المتوكل على العرش ألقى في السجن بوزير كان قد عامله مرة منذ بضع سنين بشيء من الاحتقار ؛ ومنع السجن من النوم عدة أسابيع حتى كاد يذهب عقله ، ثم سمح له أن ينام أربعاً وعشرين ساعة ؛ فلما عادت إليه قوته بهذه الطريقة وضع بين ألواح من الخشب دقت فيها مسامير ، منعتة أن يتحرك ليقضى حاجته الطبيعية ، وبقي على هذه الحال يعاني أشد الآلام حتى مات^(٧٠) . ولا حاجة إلى القول بأن هذه الوحشية كانت من الأعمال الشاذة ، أما المؤلف فإن المسلم كان مثال الرقة ، والإنسانية ، والتسامح ؛ وكان ، إذا وصفنا أوساط الناس ، سريع الفهم ، حاد الذكاء ، سريع التهيج ، يسهل

إدخال السرور على قلبه ، والمرح على نفسه ؛ يجد الرضا في البساطة ،
ويصبر على بلواه في هدوء ، ويتلقى جميع حوادث الأيام بصبر ، وكرامة ،
وشم ، وكبرياء . وكان المسلم إذا عقد النية على سفر طويل ، أخذ معه كفته
المنسوج من الكتان ، استعداداً منه في أى وقت للقاء ربه ، فإذا أهكاه المرض
والنعب وهو سائر في الصحراء ، أمر رفاقه بأن يواصلوا سفرهم . ثم
توضأ هو لآخر مرة ، واحتفر بنفسه حفرة يتخذها قبراً له ، ولف نفسه
في كفته ، ونام في الحفرة ، ينتظر أن توافيه منيته ، وأن تغطى جسمه
الرمال السافية (٧١) .

الفصل الرابع

الحكومة

كانت الحكومة الإسلامية في الثلاثين السنة التي تلت وفاة النبي جمهورية ديمقراطية من الوجهة النظرية بالمعنى الذي كان مفهوما من هذه العبارة في الزمن القديم ، وهو أن يشترك جميع الذكور الراشدين في اختيار رأس الدولة وتحديد سياستها . أما من الناحية العملية فقد كان الذين يختارون أمير المؤمنين ويرسمون سياسة الدولة فئة قليلة من أعيان المدينة . ولم يكن ينتظر شيء غير هذا بطبيعة الحال ؛ ذلك أن الناس يختلفون في ذكائهم وفي ضمائرهم ، ولهذا فإن الديمقراطية في أحسن صورها لا بد أن تكون نسبية ؛ ولا يحصى من أن تنشأ صورة ما من صور الأخرى في المجتمعات التي لا تتيسر فيها سبل الاتصال والتي تقل فيها نسبة المتعلمين . وإذا كانت الحرب والديمقراطية لا تجتمعان معاً ، فإن اتساع رقعة البلاد الإسلامية قد ساعد على قيام حكم الفرد ، لأن وحدة الرياسة والإسراع في اتخاذ القرارات لا بد منهما لقيام السياسية الحربية والاستعمارية . ولهذا أضحت الحكومة في عهد الأمويين ملكية صريحة ، الخلافة فيها إما وراثية وإما أن تقررها قوة السلاح .

كذلك كان منصب الخليفة من الوجهة النظرية منصبا دينيا أكثر مما كان منصبا سياسيا . فقد كان الخليفة قبل كل شيء رئيس مجتمع ديني هو مجتمع المسلمين ، وكان واجبه الأول الدفاع عن الدين ، ولهذا كانت الخلافة حكومة دينية خاضعة لحكم الله عن طريق الدين . لكن الخليفة لم يكن بابا أو قسا ، ولم يكن في مقدوره أن يصدر قرارات جديدة في الشؤون الدينية . ومع هذا فقد كان من الوجهة العملية ذا سلطان مطلق لا يحد منه برلمان ، ولا طبقة وراثية من

الأشراف ، ولا هيئة من رجال الدين ، بل كان الذى يحد من هذا السلطان هو القرآن وحده - وكان فى وسع من يستخدمهم من العلماء (*) ويؤدى لهم أجرهم أن يفسروه له كما يريد . وكان ثمة قدر من تكافؤ الفرص فى هذه الحكومة المطلقة . ذلك أنه كان فى مقدور أى إنسان أن يرقى إلى أعلى المناصب إلا إذا كان أبواه كلاهما من الأرقاء .

وأدرك العرب أنهم قد تغلبوا على مجتمعات مضمحلة ولكنها حسنة التنظيم فاستعانوا فى بلاد الشام بنظام بيزنطية الإدارى ، وفى بلاد فارس بنظام الساسانيين ، وكان لابد أن تسير الحياة فى الشرق الأدنى على النسق القديم ، بل إن الثقافة اليونانية الشرقية نفسها قد تحطت حاجز اللغة وانتعشت مرة أخرى فى العلوم والفلسفة الإسلامية . ونشأ فى عهد العباسيين طراز معقد من الحكومة المركزية ، والإقليمية ، والمحلية ، تسيره طائفة من الموظفين لا تتأثر إلا قليلا باغتيال الجالسين على العرش ، أو بالثورات التى تحدث فى داخل القصر . وكان على رأس النظام الإدارى الحاجب أو رئيس التشریفات ، ولم يكن عمله من الوجهة النظرية يتعدى الإشراف على الحفلات فى القصر ، ولكنه استطاع من الوجهة العملية أن يستحوذ على كثير من السلطة بتحكمه فىمن يدخلون على الخليفة . وكان يليه فى مرتبته ، ولكن يفوقه فى السلطان (بعد الخليفة المنصور) الوزير ، وهو الذى يعين موظفى الحكومة ، ويشرف عليهم ، ويرسم سياسة الدولة ويسيرها . وكان أهم الدواوين ديون الخراج ، والحسابات ، والشرطة ، والبريد ، والنظر فى المظالم وهو الذى أصبح بمثابة محكمة ترفع إليها الأحكام القضائية والإدارية ، وكان يلي الجيش فى الأهمية عند الخليفة ديوان الخراج حيث كان الجباة يضارعون جباة الدولة

(*) لاثك فى أن فى هذا الحكم الشامل مغالاة كثيرة . فالتاريخ الإسلامى يفيض بالشواهد الدالة على ما لرجال الدين من مواقف مشرفة ضد الخلفاء ، لاقتوا بسببها كثيراً من العنت والاضطهاد . (المترجم)

البيزنطية في عنادهم وشدتهم ؛ وكانت أموال طائلة تنتزع من الاقتصاد القوي لإقامة نظام الحكم والإنفاق على الحكام . وكان لإيراد بلاد الخلافة كل عام في عهد هرون الرشيد يزيد على ٥٣٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم (نحو ٤٠٠.٠٠٠ ر٤٢٠ ريال أمريكي) فضلا عما أضيف إليه في ذلك الوقت من ضرائب عينية لا يحصى عددها (٧٢) . ولم يكن ثمة دَيْن قومي ، بل حدث عكس هذا في عام ٧٨٦ إذ كان في الخزانة رصيد يبلغ ٩٠٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم .

وكان البريد العام ، كما كان في عهد الفرس والرومان ، لا يخدم إلا الحكومة وكبار الأشخاص ، وكان أهم ما يستخدم فيه هو نقل الأخبار والأوامر بين عاصمة الدولة والولايات ، ولكنه كان إلى هذا يتخذ وسيلة للتجسس من قبل الوزير على الحكام المحليين . وكان ديوان البريد يصدر أدلة مكتوبة ليستعين بها التجار والحجاج ، تحوى أسماء محاط البريد المختلفة ، وبعد كل واحد منها غن الآخر ، وكانت هذه الأدلة أساس علم تقويم البلدان عند العرب ، وكان الحماة يدرب ويستخدم في نقل الرسائل - وكان هذا أول استخدام له معروف في التاريخ (٨٣٧) . وكانت الأخبار فوق هذا ينقلها المسافرون والتجار ؛ وكان في بغداد ألف وسبعمائة « امرأة عجوز » يعملن جاسوسات . غير أن الرقابة مهما اشتدت لا يمكن أن تحول بين الشرقيين والغربيين وبين أبتزاز الأموال العامة أو الارتشاء . فقد كان الولاة في بلاد العرب ، كما كانوا في بلاد الرومان ، يرون أن سنى خدمتهم يجب أن تعوضهم عما أنفقوه من المال ليرتقوا به سلم المناصب ، وما يلاقونه من المحن حين يغادرون المنصب . وكان الخلفاء في بعض الأحيان يرغمونهم على أن يردوا ما اغتصبوه ، أو يبيعون حق إرغامهم إلى الحكام الذين يملفونهم ، وبهذه الطريقة انتزع يوسف بن عمر ٧٦٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم من الولاة الذين تولوا حكم العراق قبله . وكان الولاة يتناولون مرتبات عالية ، ولكن منهم أيضاً من تأثروا بسخاء الأسخياء ، وقد ورد في أحد الأحاديث أن النبي نفسه كان يرى أن اثنين على

الأقل من بين كل ثلاثة قضاة سيحشرون في النار (٧٣).

وكان المفروض أن الشريعة التي تحكم بها الدولة المترامية الأطراف مستمدة من نصوص القرآن . ذلك أن القانون والدين كانا عند المسلمين ، كما كانا عند اليهود ، شيئاً واحداً . فكل جريمة خطيئة ، وكل خطيئة جريمة ، ولذلك كان فقه القانون عند المسلمين فرعاً من علوم الدين . فلما أن زادت الفتوح من التبعات الملقاة على الشريعة الإسلامية ونشأت حالات جديدة لم ينص عليها في القرآن وضع بعض المشترعين المسلمين أحاديث لمواجهة تلك الحالات صراحة أو ضمناً ، وهذا أصبح الحديث مصدراً ثانياً من مصادر التشريع الإسلامي (*) ، وكان من المصادفات الغريبة المتكررة أن هذه الأحاديث ترد أصباء المبادئ والأحكام والشرائع الرومانية والبيزنطية ، وتردد أكثر من ذلك مبادئ المشنا وجمارا اليهود وأحكامهما (٧٤) . وكانت الزيادة المطردة في هذه الأحاديث التشريعية الكثيرة مما رفع من شأن مهنة القضاء في البلاد الإسلامية ، وخلع على الفقهاء الذين يفسرون القانون أو يطبقونه من السلطان والتعظيم ما لا يقل عما كان لطبقة الكهنة والقساوسة عند غير المسلمين . وقد فعل هؤلاء ما فعله أمثالهم في فرنسا في القرن الثاني عشر ، فقد تحالفوا مع الملكية ، وأبدوا حكم العباسيين المطلق ، ونالوا جزاءهم على هذا التأييد .

ونشأت في البلاد الإسلامية السنية أربعة مذاهب : أولاها مذهب أبي حنيفة ابن ثابت (المتوفى عام ٧٦٧) ، وقد أحدث انقلاباً كبيراً في الشريعة الإسلامية باتباع مبدأ العباس في تفسير القرآن . وهو يرى أن القانون الذي سن في أول الأمر لأهل الصحراء يجب ألا يؤخذ بحرفيته بل بروحه إذا أريد تطبيقه على مجتمع صناعي أو حضري . وعلى هذا الأساس أجاز أبو حنيفة قروض الرهن

(*) لسنا ننكر أن هناك أحاديث منحولة ولكننا نعتقد أن الأحاديث الصحيحة السند معين لا ينضب للتشريع . (المترجم)

ويشبه هذا ما فعله هلال في فلسطين قبل ذلك العهد بثمانية قرون . ومن أقوال أبي حنيفة في هذا المعنى إن القاعدة القانونية تختلف عن قواعد النحو والمنطق ، فهي تمثل سنة عامة تتغير بتغير الظروف التي أوجدتها (٧٥) . وخرج من بين أهل المدينة المحافظين عالم آخر لا يميز هذه الفلسفة الحرة التقدمية في التشريع ، وهو مالك بن أنس (٧١٥ - ٧٩٥) . وقد أقام مالك مذهبه بعد دراسة واسعة لألف وسبعمائة من الأحاديث التشريعية ، ويقول إنه لما كانت كثرة هدم الأحاديث قد صدرت في المدينة ، فإن إجماع أهل المدينة هو الذي يجب أن يؤخذ به في تفسير الحديث والقرآن . ويرى محمد الشافعي (٧٦٧ - ٨٢٠) الذي عاش في بغداد والقاهرة ألا يقتصر هذا الحق على أهل المدينة ، وأن الإجماع في كل بلاد الإسلام هو المحك الأخير للشرائع والسنة والحقيقة . ويرى تلميذه أحمد بن حنبل أن هذا المقياس غامض وأوسع مما ينبغي ، وأنشأ مذهباً آخر أساسه أن القرآن والحديث وحدهما يجب أن يكونا أساس التشريع . وندد بمذهب المعتزلة العقلي في الفلسفة ، وألقى به المأمون في السجن وتمسكه الشديد بمذهب أهل السنة ، ولكنه استمسك بأرائه بشجاعة عظيمة كان من أثرها أن خرجت بغداد على بكرة أبيها تشيع جنازته لما أن وافته منيته .

غير أن ما بين المذاهب الإسلامية الأربعة ، التي يعترف بها أهل السنة في الإسلام ، من الاتفاق في التفاصيل لا يقل عما بينها من الاختلاف في المبادئ ، وذلك على الرغم من هذا الجدل الطويل الذي ظل قائماً مائة عام . فهي كلها تؤمن بأن الشريعة الإسلامية من عند الله ، وبأن كل شريعة خلقية بأن يحكم بها الجنس البشري الذي لا يخضع بفطرته للقانون ، يجب أن تكون أصولها منزلة من عند الله . وهي كلها تسرف في وضع تفاصيل قواعد السلوك والشعائر الإسلامية إسرافاً لا يجاريها فيه إلا الدين اليهودي ، وقد عنى المشرعون بكثير من التفاصيل كطريقة استعمال السواك ، وسنن الزواج ، وما يليق وما لا يليق من ثياب الرجال

والنساء ، والطريقة الصحيحة لتصنيف الشعر ، ويروى أن أحد الفقهاء لم يأكل البطيخ قط لأنه لم يجد في القرآن أو الحديث ما يعرف منه الطريقة للصحيحة التي يأكله بها^(٧٦) . ولقد كان من شأن كثرة ما يسن من القوانين أن تحول بين تطور المجتمع الإسلامى ، ولكن اختلاف الآراء فى القانون الواحد وتجاوز منفذى القانون عن مخالفته فى بعض الأحيان قد وفقا بين قسوة التشريع من جهة وقسوة الحياة وتطورها من جهة أخرى . غير أنه رغم هذا ، ورغم انتشار مذهب أبى حنيفة وما فيه من تسامح وحرية ، فإن النزعة الغالبة على الشرائع الإسلامية هى النزعة المحافظة والاستمسك القوى بالسنن استمساكاً يعطل التطور الحر للأنظمة الاقتصادية ، والآداب الشخصية والتفكير^(*) .

ولا يسعنا إلا أن نسلم - مع هذه التحفظات - بأن الخلفاء الأولين من أبى بكر إلى المأمون قد وضعوا النظم الصالحة الموفقة للحياة الإنسانية فى رقعة واسعة من العالم ، وأنهم كانوا من أقدر الحكام فى التاريخ كله . ولقد كان فى مقلودهم أن يصادروا كل شىء ، أو أن يخربوا كل شىء ، كما فعل المنقول أو المجر أو أهل الشمال من الأوربيين ؛ لكنهم لم يفعلوا هذا بل اكتفوا بفرض الضرائب . ولما أن فتح عمرو مصر أبى أن يستمع إلى نصيحة الزبير حين أشار عليه بتقسيم أرضها بين العرب الفاتحين ، وأيده الخليفة فى هذا الرأى وأمره أن يتركها فى أيدي الشعب يتعهدها فتثمر^(٧٧) . وفى زمن الخلفاء الراشدين مسحت الأراضى ، واحتفظت الحكومة بسجلاتها ، وأنشأت عدداً كبيراً من الطرق وعنيت بصيانتها ، وأقيمت الجسور حول الأنهار لمنع فيضانها ، وكانت العراق قبل الفتح الإسلامى صحراء مجرداء فاستحالت أرضها بعده جنناً فيحاء ؛ وكان كثير من أرض فلسطين قبيل الفتح رملاً وحجارة فأصبحت خصبة ، غنية ، عامرة بالسكان^(٧٨) . وما من شك

(*) وهذا ما لا نوافق عليه المؤلف وما لا يتفق مع الواقع ، فالإسلام بشهادة كثيرين من علماء الغرب سمح لا يعطل التفكير أو الاقتصاد أو الآداب . (المترجم)

في أن استغلال المهرة والأقوياء للسذج والضعفاء بقي في عهد الحكومات الإسلامية كما بقي في عهود كل الحكومات ، ولكن الخلفاء قد أمنوا الناس إلى حد كبير على حياتهم وثمار جهودهم ، وهيئوا الفرص للنوى المواهب ، ونشروا الرخاء مدى ستة قرون في أصقاع لم ترقط مثل هذا الرخاء بعد عهدهم ، وبفضل تشجيعهم ومعونتهم انتشر التعليم ، وازدهرت العلوم ، والآداب ، والفلسفة ، والفنون ازدهاراً جعل آسية الغربية مدى خمسة قرون أرقى أقاليم العالم كله حضارة .

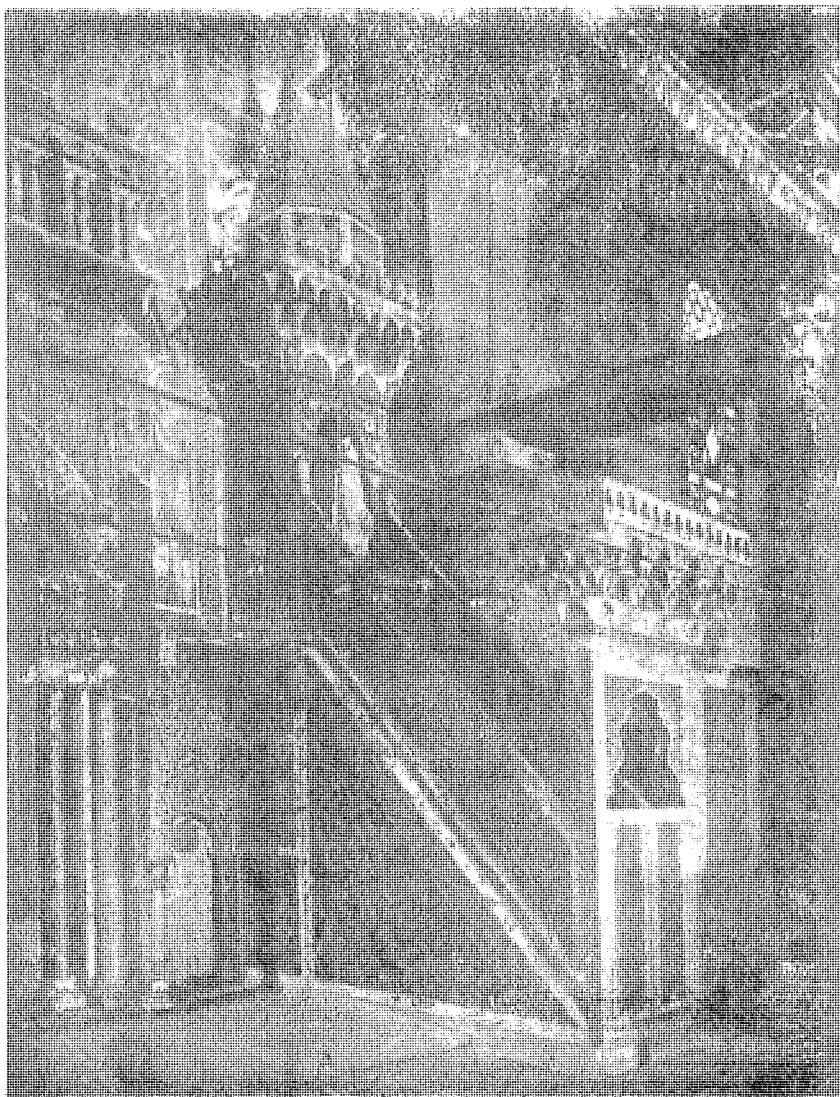
الفصل الخامس

المدن

يجدر بنا قبل أن نتحدث عن الرجال الذين أنشأوا هذه الحضارة وميزوها عن غيرها من الحضارات ، ونصف أعمال هؤلاء الرجال ، أن نصور لأنفسنا البيئة التي كانوا يعيشون فيها . إن الحضارة ريفية في أصولها وقواعدها ، ولكنها مدنية في صورتها ؛ إذ لا بد أن يجتمع الناس في المدن حتى يستمع بعضهم إلى بعض وينبه بعضهم بعضا .

ولقد كانت البلدان الإسلامية جميعا تقريبا غير كبيرة في سعتها لا يزيد سكان الواحدة منها على عشرة آلاف ومنها ما يقل عامرها عن ذلك ، يحشرون في رقعة من الأرض ضيقة لها أسوار تحميها من الغارات والحصار ، مظلمة شوارعها مليئة بالتراب والوحل ، ذات بيوت صغيرة مطلية بالحصن ومحوطة بجدران متصلة ترد عنها الأبصار . وكان جلال المدينة كله محصوراً في مسجدها ، ولكن كانت تقوم في أماكن متفرقة من الأقطار الإسلامية مدن كبيرة ارتقت فيها الحضارة الإسلامية إلى أعلى درجات الجمال والمعرفة والسعادة

وكانت مكة والمدينة ، ولا تزالان ، في نظر المسلمين مدينتين مقدستين ، لأن في أولهما الكعبة التي كان العرب يقدسونها في الزمن القديم ، كما أن فيها مسقط رأس الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولأن الثانية هي المكان الذي هاجر إليه وأقام فيه . وقد جدد الوليد الثاني بناء مسجد المدينة الصغير وجعله مسجداً فخماً ذا روعة وجمال : وأرسل إمبراطور بيزنطية بناء على طلب الوليد ، وفي نظير ثمانين ألف دينار ، أربعين حملاً من أحجار الفسيفساء ، كما استقدم الوليد ثمانين من مهرة الصناعات من مصر وبلاد اليونان ، حتى لقد شكوا المسلمون من أن مسجد



شكل ٢) منبر المسجد الأقصى بيت المقدس مصنوع من الخشب

خراج مصر في تشييد عدد صروح تعرف عند المسلمين باسم الحرم الشريف ، وشيد في الطرف الجنوبي من المدينة (٦٩١ - ٦٩٤) المسجد الأقصى . وقد دمر زلزال هذا المسجد في عام ٧٤٦ ، ثم أعيد بناؤه في عام ٧٨٥ ، وأدخلت عليه فيما بعد تعديلات كثيرة ، ولكن القبلة لا تزال كما كانت في أيام عبد الملك ، كما أن معظم العمد مأخوذة من باسلفا جستنيان التي كانت قائمة في أورشليم . ويرى المقدسي أن بيت المقدس أجمل من المسجد الأموي العظيم المقام في دمشق ، ويقول المسلمون إن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد التقى فيه بإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وإنه صلى فيه معهم ، وإنه رأى بالقرب منه الصخرة (التي يعتقد بنو إسرائيل أنها سرّة الدنيا) والتي أراد إبراهيم أن يضحي عندها بإسحق (*) ، والتي تلقى عندها موسى تابوت العهد ، والتي شاد عندها سليمان وهيرود هيكليهما . ويعتقد بعض المسلمين أن النبي صعد عندها إلى السماء ، وأن الإنسان لو أوتي إيماناً قوياً لأبصر في الصخر آثار قدميه . ولما أن استولى عبد الله بن الزبير على مكة في عام ٦٨٤ وعلى ما يدخل فيها من إيراد الحج أراد عبد الملك أن يجتذب إلى الشام أموال الحجاج ، وأن يحج الناس إلى الصخرة بدل أن يحجوا إلى الكعبة ، فأقام صناعه على هذا الحجر التاريخي (٦٩١) « قبة الصخرة » الشهيرة على الطراز البيزنطي - السورى ، وسرعان ما أضحت هذه القبة « رابعة عجائب العالم الإسلامي » (والثلاث الأخرى هي مساجد مكة والمدينة ودمشق) . ولم يكن هذا البناء في أول أمره مسجداً ، بل كان حرماً مقدساً حول الصخرة ، وقد أخطأ الصليبيون مرتين حين أطلقوا عليه اسم « مسجد عمر » . ويبلغ ارتفاع القبة ١١٢ قدماً ، وهي قائمة على بناء ذى ثمانية أضلاع مشيد من الحجارة المربعة . ويبلغ محيط هذا البناء ٢٨٠ قدماً . والقبة نفسها مصنوعة من الخشب ومغطاة من الخارج بالنحاس

(*) الذي يعتقد المسلمون أن الذبيح هو إسماعيل لإسحاق . (المترجم)

الأصفر المذهب ذى النقوش البارزة . وللبناء أربعة أبواب جميلة - عتباتها مصفحة بالبرنز - تؤدي إلى الداخل الذى تقسمه صفوف من العمود المتخذة من المرمر المصقول ، متتالية ومتحدة فى المركز ، إلى أشكال مثمانية الأضلاع كل منها أصغر من الذى فى خارجه . وهذه العمود الفخمة من الآثار الرومانية القديمة ، وتيجانها بيزنطية الطراز . وتمتاز الأجزاء التى بين العقود بما فيها من قطع الفسيفساء ، التى تصور أشجاراً لا تقل فى جمالها عن تصوير كوربية Courbet . وأجل من هذا على جماله فسيفساء الجزء الأسفل من القبة . وعلى الطنف التى فوق العمود الخارجية نقش بالخط الكوفى ذو حروف صفراء على قطع من القرميد زرقاء ، أمر به صلاح الدين فى عام ١١٨٧ ، وهو مثل جميل رائع من هذه الزخرفة المعمارية الفذة . وتحيط العمود بهذه الصخرة الضخمة غير المنتظمة الشكل التى يبلغ محيطها مائتى قدم . وقد وصفها المقدسى بقوله :

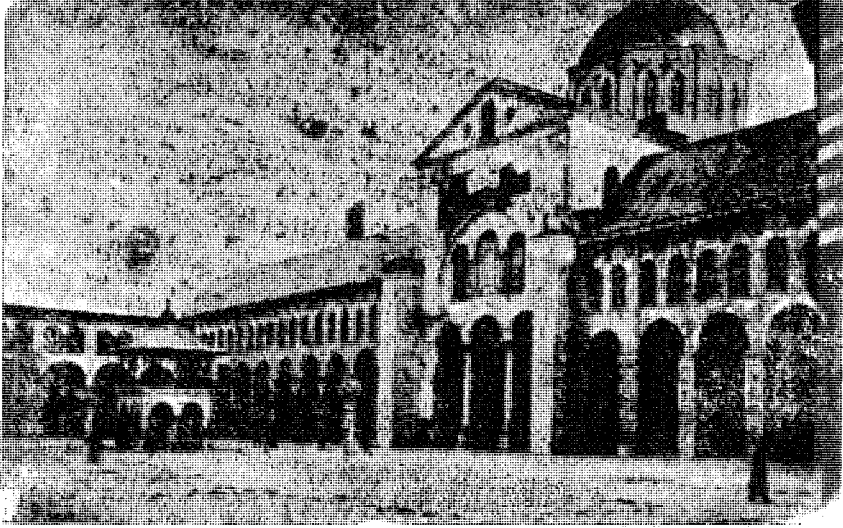
« فإذا بزغت عليها الشمس أشرققت القبة ، وتألأت المنطقة ، ورأيت شيئاً عجيباً . وعلى الجملة لم أرفى الإسلام ولا سمعت أن فى الشرق مثل هذه القبة » (٨٠) .
وقد أخفق عبد الملك فيما كان يسعى إليه من إحلال هذه الصخرة عند المسلمين محل الكعبة ، ولو أنه نجح فيما كان يبتغيه لأضحى بيت المقدس مركز الأديان الثلاثة التى كانت تتنافس فى الاستحواذ على روح الإنسان فى العصور الوسطى .

ومع هذا كله فإن بيت المقدس لم تكن عاصمة ولاية فلسطين ، بل نالت الشرف بلدة الرملة . وكانت فى الأماكن التى تشغلها الآن قرى صغيرة فقيرة مدن زاهرة فى عهود الإسلام الأولى . ومن تلك المدن عكا التى كتب عنها المقدسى فى عام ٩٨٥ يقول إنها مدينة كبيرة واسعة الرقعة . وكتب الإدريسى فى عام ١١٢٤ عن صيدا يقول إنها مدينة مترامية الأطراف تحيط بها الحدائق والأشجار ، ووصف يعقوبى فى عام ٨٩١ مدينة صور بأنها بلدة جميلة مشيدة على صخرة ،

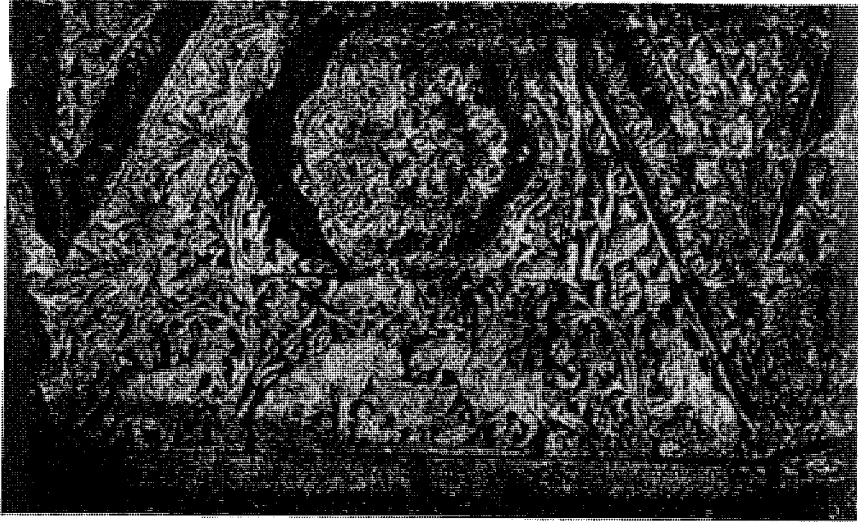
بارزة في البحر، ويقول ناصر خسرو في عام ١٠٤٧ إن فيها خانات ترتفع خمس طبقات أوست، وإن فيها قدراً كبيراً من الثروة معروضاً في أسواقها النظيفة (٨١). وكان لطرابلس القائمة في شمالها مرفأ أمين جميل يتسع لألف سفينة. واشتهرت طبرية بياسمينها وبعيونها الحارة. وكتب ياقوت الرحالة المسلم في عام ١٢٢٤ عن الناصرة يقول: «فيها كان مولد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام! . . . وكان أهلها عبروا مريم فيزعمون أنه لم تلد قط عذراء طفلاً» (٨٢)*.

ويصف اليعقوبي بعلبك بأنها من أجل بلدان الشام، ويضيف المقدسي إلى هذا أنها بلدة عظيمة الثراء. وكانت أنطاكية ثانية مدن الشام لا يفوقها في عظمتها إلا دمشق وحدها. وقد امتلكها المسلمون من عام ٦٣٥ إلى عام ٩٦٤، ثم استولى عليها البيزنطيون من ذلك التاريخ الأخير حتى عام ١٠٨٤. ويعجب الجغرافيون المسلمون بكنايسها الكثيرة الفخمة، وبما في بيوتها الجميلة من شرفات عالية، وبحدائقها وبساتينها الغناء، ويقولون إن الماء يدخل في كل بيت من بيوتها. وكانت طرسوس من كبريات المدن؛ ويقدر ابن حوقل (٩٧٨) عدد الذكور من سكانها بمائة ألف، وقد استعادها نقفور إمبراطور الروم في عام ٩٦٥، وهدم جميع ما فيها من المساجد، وحرق جميع المصاحف، وكانت حلب بلدة غنية لوقوعها عند ملتقى طريقين من طرق القوافل. ويصفها المقدسي بأنها مدينة غنية مبنية بالحجارة، ذات شوارع تظللها الأشجار، وتقوم على جانبها الحوانيت ويؤدي كل شارع منها إلى باب من أبواب المسجد. وكان في هذا المسجد محراب اشتهر بما فيه من عاج وخشب محفور، ومنبر تبتهج العين لرؤيته. وكان بالقرب منه خمس مدارس، وبيارستان، وست كنائس مسيحية. وكتب

(*) هذه هي ترجمة النص كما أورده المؤلف أما النص كما نجاه في كتاب معجم البلدان لياقوت فهو: «... وكان أهلها عبروا مريم فيزعمون أنه لا تولد بها بكر إلى هذه الغاية».
(المترجم)



(شكل ٣) المسجد الأموي بدمشق



(شكل ٤) نقشه بارز على الصخر ببلاد الشام

اليقوبى فى عام ٨٩١ يقول إن حصص أكبر مدن الشام ، وكتب الاصطخرى فى عام ٩٥٠ يقول إن شوارعها وأسواقها كلها تقريباً مرصوفة بالحجارة . ويقول المقدسى إن نساءها ذوات جمال رائع وبشرة رقيقة (٨٣) .

ولما اتسعت الدولة العربية نحو الشرق رؤى أن من مصلحتها أن تكون عاصمتها فى موضع أقرب إلى وسطها من مكة أو بيت المقدس . وقد أحسن بنو أمية إذ اختاروا دمشق عاصمة لدولتهم - وكانت هذه المدينة ذات تاريخ قديم حين أقبل عليها العرب فاتحين . وكان يلتقى عندها خمسة أنهار ، تجعل الإقليم الذى من خلفها « جنة الشرق » بحق ، وتمد بالماء مائة فسقية ، ومائة حمام عام ، ومائة وعشرين ألف بستان (٨٤) ، ثم تجرى نحو الغرب إلى « وادى البنفسج » الذى يبلغ طوله اثني عشر ميلاً وعرضه ثلاثة أميال . ويقول الإدريسى إن « مدينة دمشق من أجل بلاد الشام وأحسنها مكاناً ، وأعدلها هواء ، وأطيبها ثرى ، وأكثرها مياها ، وأغزرها فواكه ، وأعمها خصباً ، وأوفرها مالا وأكثرها جنوداً (٨٥) (*) » .

وفى قلب هذه المدينة وبين سكانها الذين يبلغون نحو مائة وأربعين ألفاً يقوم قصر الخليفة الذى شاده معاوية الأول ، والذى يلمع فيه الذهب والرخام ، وتتألاً فى أرضه وعلى جدرانها الفسيفساء ، والذى تلتطف جوه الفساقى والشلالات التى يتدفق منها الماء على الدوام . وفى الناحية الشمالية من المدينة يقوم مسجد العظم وهو واحد من اثنين وسبعين وخمسة مائة مسجد فى المدينة ، والأثر الوحيد الباقى من دمشق الأموية . وكان موضعه فى أيام الرومان يزدان بهيكل لجوبيتر ، ثم أقام ثيودوسيوس الأول على أنقاضه كنيسة يوحنا المعمدان (٣٧٩) . وعرض الخليفة الوليد الأول على المسيحيين حوالى عام ٧٠٥ أن يعدل بناء الكنيسة

(*) ويضيف إلى ذلك « ولها جبال ومزارع تعرف بالغوطة . . . وبها ضياع كالمدن (ولم يقل الإدريسى إنها أجل بلاد (الله) الخ كما قال المؤلف) . (المترجم)

حتى تصبح جزءاً من مسجد جديد يريد بناءه في ذلك المكان ، ووعدهم بأن يعطيهم أرضاً ومواد في أى مكان يختارونه ليقموا فيه كنيسة جديدة . ولكن المسيحيين احتجاجوا على هذا العمل وحذروه من عاقبته ، وقالوا إنه قد ورد في كتبهم أن من يجرؤ على هدم تلك الكنيسة سيموت مذبذباً ؛ ولكن الوليد لم يأبه بهذا التحذير وكان هو البادئ بهدم الكنيسة بيديه . ويقول المؤرخون إن جميع خراج الأرض في الدولة كلها قد خصص مدى سبع سنين لتشييد هذا المسجد ، هذا إلى المال الكثير الذى أعطى للمسيحيين لينشئوا به كنيسة جديدة . وجيء بالصناع والفنانين من الهند ، وفارس ، والقسطنطينية ، ومصر ، وليبيا ، وتونس ، والجزائر ، وكان من استخدم في بنائه من العمال اثني عشر ألف عامل ، أموه في ثمان سنين . والرحالة المسلمون يجمعون على أنه أفخم بناء في بلاد المساميين ، ويرى المهدي والمأمون من الخلفاء العباسيين — وليس منهما من يحب الأمويين أو دمشق — أنه لا يضارعه بناء غيره في جميع أنحاء العالم . ويتكون البناء من سور محصن ، في داخله صفوف من العمد تحيط بصحنه الواسع المرصوفة أرضه بالرخام . ويقوم المسجد نفسه في الجهة الجنوبية من هذا المكان المتسع ، وهو مشيد من الكتل الحجرية المربعة وتشرف عليه أربع مآذن — منها واحدة هي أقدم ما شيد من المآذن في الإسلام ، وكان تخطيط المسجد وزخرفته على الطراز الروماني ، وما من شك في أنهما قد تأثرا بطراز أياصوفيا . وكان السقف والقبة — ويبلغ طول قطرها خمسين قدماً — مكفتين بصفائح الرصاص : أما داخل المسجد الذى يبلغ طوله ٤٢٩ قدماً فيشتمل على صفين من العمد المنحوتة من الرخام الأبيض تفصل صحنه عما يحيط به من طرقات . وتيجان هذه العمد كورنثة الطراز مكفتمة بصفائح الذهب : ومن فوقها عقود مستديرة أو على شكل حناء الفرس :

وهذا الطرز الثاني من العقود أول ما أقيم من نوعه في بلاد الإسلام (*) . وأرض المسجد من الفسيفساء وقد غطيت بالطنافس ، كما غطيت جدرانها بالفسيفساء ، المصنوعة من الرخام الملون وبالقاشاني المطعم بالمينا ، وفي داخل المسجد ستة حواجز جميلة من الرخام تقسم داخله إلى عدة إيوانات . وفي أحد جدرانها المتجهة نحو مكة محراب مرصع بالذهب والفضة والحجارة الكريمة . ويدخل الضوء إلى المسجد من أربعة وسبعين شباكاً من الزجاج الملون ومن اثني عشر ألف قنديل . ويصفه أحد الرحالة بقوله : « ولو أن رجلاً من أهل الحكمة اختلف إليه سنة لأفاد منه كل يوم صفة وعقدة أخرى » (**).

وسمح لأحد سفراء اليونان أن يدخل المسجد فلما شاهده التفت إلى رفاقه وقال لهم : « لقد قلت لأعضاء مجلس الشيوخ في بلادى إن سلطان العرب سيزول عما قريب ، أما الآن وأنا أرى كيف كانوا يشيدون عمائرهم فقد علمت علم اليقين أن سلطانهم سيدوم أحقاباً طويلاً » (†) .

وإذا انجبه الإنسان من دمشق نحو الشرق واجتاز الصحراء وصل إلى الرقة على نهر الفرات حيث كان يقيم الخليفة هرون الرشيد ؛ فإذا عبر نهر دجلة وصل

(*) وأقدم ما عرف من العقود المصنوعة على شكل حذاء الفرس عقد في هيكل في كهف ببلدة نازك في الهند لعل تاريخه يرجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد (٨٦) . ثم استخدم هذا الطراز في كنيسة مسيحية شيدت في نصيبين بالعراق عام ٣٥٩ م .

(**) هذا من قول المقدسي وفي الأصل الإنجليزي « مائة سنة » ولكن المقدسي يقول سنة واحدة .

(†) وأتلفت النار أجزاء كثيرة من مسجد دمشق العظيم في عام ١٠٦٩ ثم جدد بناؤه ، ولكن تيمورلنك أحرقه حتى لم يكذبقى منه شيء في عام ١٤٠٠ . ثم أعيد بناؤه مرة أخرى ، ثم أتلفته النيران إتلافاً شديداً في عام ١٨٩٤ . وبعد هذا حل الجص والجير محل النقوش القديمة . وفي وسع الإنسان أن يشاهد حتى الآن النقش الذي كان يعلو إسكفة الكنيسة المسيحية ، والذي لم يحرقه المسلمون . ونص هذا النقش هو « ملكك أيها المسيح . ملكة خالدة » وسلطانك باق إلى أبد الدهر » (٨٨) .

إلى الموصل ، وعلى مسافة منها في اتجاه الشمال الشرق أيضاً تقع مدينة تبريز التي بلغت ذروة مجدها بعد ذلك العهد الذي نتحدث عنه . وإلى شرقها تقوم مدينة طهران (ركائز لا تزال وقتئذ بلدة صغيرة) ، ثم تليها دامغان وبعدها - في شرق بحر الخرز - تقع جرجان . وكانت هذه البلدة الأخيرة في القرن العاشر الميلادي قاعدة لإحدى الولايات الإسلامية ، واشتهرت وقتئذ بمن كان فيها من الأمراء المثقفين ، أشهرهم كاهم شمس المعالي قابوس ، الشاعر العالم الذي استضاف ابن سينا في بلاطه ، والذي ترك وراءه مدفنًا له على شكل برج ضخيم . يعلو في الجو ١٦٧ قدماً يعرف باسم جنبادي قابوس ، وهو البناء الوحيد الذي بقي حتى الآن من تلك المدينة التي بلغت في أيامه درجة عظيمة من الرخاء وكثرة السكان . وعلى الطريق الشمال المتجه نحو الشرق تقوم مدينة نيسابور ، التي لا يزال الناس يرددون اسمها في شعر عمر الخيام ، وتليها مشهد المدينة المقدسة عند المسلمين الشيعة ؛ ثم مرو التي كانت في وقت ما قاعدة لإحدى الولايات الكبرى ؛ ثم بخارى وسمرقند - وكانتا في العادة بعيدتين عن منال أيدي الحياة . وعلى سلاسل الجبال الجنوبية تقع مدينة غزنة ؛ ويحدثنا الشعراء عن قصور أميرها محمود الغزنوي الفخمة ، وعن أبراجها العالية التي تطاول قمر السماء . ولا يزال يقوم فيها حتى اليوم « برج النصر » الذي شاده السلطان محمود ، وبرج آخر أجمل منه شاده محمود الثاني . وكان الإنسان إذا رجع نحو الغوب في القرن الحادي عشر التقى بنحو اثنتي عشرة مدينة زاهرة في إيران - هيراة ، شيراز (ذات الحدائق الغناء الدائعة الصيت والمسجد العظيم) ، ويزد ، وإصفهان ، وكاشان ، وقزوين ، وقوم وهمدان ، وكرمنشاه ، وسامانا ؛ ثم التقى في العراق بمدينتي البصرة والكوفة العامرتين بالسكان . وكان الناس يشاهد في كل مكان يمر به قبايا براقية ، ومآذن متلائية ، ومدارس ، ودوراً للكتب ، وقصوراً ، وحدائق ، وبهارستانات ، وحمامات ، وأزقة ضيقة مظلمة حيث يسكن الفقراء . ثم يصل المسافر آخر الأمر إلى بغداد

التي يتغنى بها الشاعر الأتورى في شعر فارسي يقول :

طوبى لك يا بغداد مدينة العلم والفن ، التي لا يستطيع إنسان أن يجد بين مدن العالم كله مدينة أخرى تناظرها ، إن أرباضها لتنافس في جمالها قبة السماء الزرقاء ، وإن مناخها ليضارع نسيم السماء الذي يبعث الحياة في الأجسام ، وأحجارها تضارع في تلالؤها الماس والياقوت . . . وإن شواطئ دجلة ومن عليها من الفتيات الحسان لتفوق بلخ ؛ وبناتها المليئة بالخور العين لتعدل في ذلك كشمير ، وآلاف القوارب ترقص وتتلألأ فوق الماء تلالؤ أشعة الشمس في الهواء (٥٩) .

وكان في موقع بغداد مدينة بابلية قديمة ، وهي لا تبعد كثيراً عن موقع بابل القديمة ، وقد عثر في عام ١٨٤٨ تحت مجرى نهر دجلة على قطع من الآجر منقوش عليها اسم نبوخذنصر : وازدهرت المدينة القديمة في عهد الملوك الساسانيين ، ثم أنشئت فيها بعد الفتح الإسلامي عدة أديرة مسيحية ، معظمها للنساطرة . ويحدثنا المؤرخون أن الخليفة المنصور عرف من رهبان تلك الأديرة أن هذا الموقع معتدل الجو في الصيف ، خال من البعوض الذي يكثر في البصرة والكوفة ؛ ولعل الخليفة قد رأى أن من الحكمة أن يبتعد عن هاتين المدينتين المشاكستين ، اللتين كانتا في ذلك الوقت البعيد غاصبتين بالصعاليك الثورين ؛ وما من شك في أنه وجد في موقعها هذا ميزة حربية ، فهو موقع أمين في داخل البلاد ، ولكنه على اتصال مائي بجميع المدن الكبرى القائمة على النهرين عن طريق نهر دجلة والقنوات الكبرى المتصلة به ؛ وعن طريق هذا النهر والقنوات يتصل أيضاً بالخليج الفارسي وبجميع ثغور العالم . من أجل هذا كله نقل مقره هو من الهاشمية كما نقل دواوين الحكومة من الكوفة إلى بغداد ، وأحاط ذلك الموقع بثلاثة أسوار دائرية وخنديق ، واستبدل ببغداد اسمها القديم ومعناه « هبة الله » اسماً جديداً هو مدينة السلام ، واستخدم مائة ألف من العمال في بناء أربعة قصور عظيمة من الآجر له ولأهله ولدواوين الحكومة ؛ وكان يقوم في وسط

المدينة قصر الخليفة المسمى « بالباب الذهبي » نسبة إلى بابه المذهب أو « القبة الخضراء » نسبة إلى قبته البراقة : ثم شاد المنصور في خارج أسوار المدينة على الضفة الغربية لنهر دجلة مسكناً صيفياً له عرف باسم « قصر الخلد » ، وكان هرون الرشيد يقيم في هذا القصر معظم أيامه . وكان في وسع من يقيم في هذين القصرين أن يرى من نوافذها مئات السفن تفرغ على أرصفة النهر أحمالها التي جاءت بها من نصف العالم المعروف .

وفي عام ٧٦٨ أنشأ المنصور قصراً ومسجداً على الضفة النهر الشرقية الفارسية لكي يستطيع ولده المهدي أن يتخذ له في القصر مسكناً مستقلاً . وسرعان ما نشأت حول هذين الصرحين ضاحية جميلة هي ضاحية الرصافة (*) التي كان يصلها بالمدينة المستديرة جسران قائمان على قوارب . وكان معظم الخلفاء الذين جاءوا بعد المأمون يقيمون في هذه الضاحية ، ولهذا فإنها سرعان ما فاقت مدينة المنصور نفسها في اتساعها و ثرائها ، وكان الناس بعد الرشيد إذا ذكروا بغداد فلنما يعنون بها الرصافة نفسها . وكانت شوارع ضيقة ملتوية ، أنشئت على هذا النحو لتقي الأهلين من وهج الشمس وتقوم على جانبيها الحوانيت الصاخبة ، تمتد من القصور الملكية إلى أحياء الأثرياء ، وكان لكل طائفة من طوائف الصناع شارعها الخاص أو سوقها الخاصة - فهذا حي بائعي العطور ، وذاك حي صانعي السلال ، وهنا حي صانعي الأسلاك ، وهناك حي الصياغة مستبدلي النقود ، وذاك حي البرازين ، وهذا حي الوراقين وما إلى ذلك . وكانت بيوت الأهلين تقوم فوق هذه الحوانيت ومن ورائها . وكانت كل المساكن تقريباً ما عدا مساكن الأغنياء مقامة من اللبن ، تبي ما يبق صاحبها حياً ولكنها لا تدوم كثيراً بعده ، وليس لدينا لإحصاء لسكان المدينة موثوق به ، والراجح أنهم كانوا يبلغون

(*) الرصافة ككناسة بلد بالشام ومحلة ببغداد ، وبلد بالبصرة ، وبلد بالأندلس ، وبلد بأفريقية . (المترجم)

٨٠٠٠٠٠ ، وإن كان بعض المؤرخين يقدر ونهم بمليونين (٩٠) ، ومهما يكن عددهم فإن المدينة كانت في القرن العاشر الميلادي أكبر مدن العالم على الإطلاق ، مع جواز استثناء القسطنطينية من هذا التعميم . وكان فيها حتى للمسيحيين مزدحم بهم ، تقوم فيه كنائس ، وأديرة ، ومدارس ؛ وكان لكل من النساطرة ، واليعاقبة ، والمسيحيين أصحاب العقيدة الصحيحة ، أمكنة عبادتهم الخاصة بهم . وقد جدد هرون بناء مسجد أقامه المنصور ووسعه ، ثم جدد المعتمد بناء هذا المسجد نفسه وزاد مساحته ؛ وما من شك في أن مئات من المساجد قد شيدت ليتعبد فيها سكان المدينة .

وبينا كان الفقراء يواسون أنفسهم في حياتهم الشاقة بأملهم في نعيم الدار الآخرة ، كان الأغنياء يستمتعون على الأرض بنعيم الجنة . ذلك أنهم شادوا في بغداد أو بالقرب منها عشرات المئات من القصور الفخمة ، والبيوت ذات الحدائق ، والدور التي تبدو بسيطة من الخارج ولكنها كانت في الداخل « لا يوردا وذهباً » . وفي وسعنا أن نتصور ما كانت عليه من الفخامة من وصف لها بقلم أبي الفداء لا يكاد يصدق العقل يقول فيه إن قصر الخليفة في بغداد قد فرشت على أرضه ٢٢٠٠٠ طنفسة ، وعلقت على جدرانها ٣٨٠٠٠ قطعة من القماش المزركش و١٢٠٠٠ قطعة من الحرير (٩١) ؛ وكانت قصور الخليفة وأسرته ومساكن الوزير ورؤساء دواوين الحكومة تشغل في المدينة الشرقية مساحة قدرها ميل مربع (*) . وبدأت منذ أيام جعفر البرمكي هجرة الطبقة الموسرة إلى بغداد حين شاد لنفسه في الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة قصراً فخماً كانت عظمته من أسباب هلاكه . وقد حاول جعفر أن يتقى حسد هرون الرشيد فأهدى هذا القصر إلى المأمون ؛ وقبل الرشيد الهدية لابنه ، ولكن جعفر ظل يعيش وينعم في « القصر الجعفري » إلى آخر أيام حياته . ولما أخذت قصور المنصور

(*) أي أكثر من ستائة فدان . (المترجم)

وهرون تنهار ، أقيمت في مكانها قصور أخرى : وقد أنفق -المعتمد على قصره المعروف « بقصر الثريا » (٨٩٢) ٤٠٠.٠٠٠ دينار (أى ما يقرب من ١٠٠٠ ر ١٩٠٠٠ ريال أمريكى) : وفي وسعنا أن نتصور سعة هذا القصر إذا ذكرنا أنه كان في اسطبلاته ٩٠٠٠ من الإبل والبغال (٩٢) : وشاد المكتفى بجواره « قصر التاج » (٩٠٢) ، وكان هذا القصر هو وحدائقه يمتد على رقعة من الأرض مساحتها تسعة أميال مربعة . وشاد المقتدر « بهو الشجرة » وكان سبب تسميته بهذا الاسم أنه كان في البركة الموجودة بحديقته شجرة من الفضة والذهب ، على أوراقها وأغصانها الفضية تجثم طيور من الفضة ، تنطق أسننها بأناشيد آلية : ويز سلاطين آل بويه جميع أولئك الخلفاء فأنفقوا ١٣٠٠٠٠٠٠ درهم في بناء قصر المعزية : وهكذا تعددت القصور وزادت فخامة ، حتى إذا استقبل المقتدر في عام ٩١٧ سفراء اليونان بهرتهم قصور الخليفة ودواوين حكومته البالغ عددها ثلاثة وعشرين قصراً ، ولإيواناتها ذات العمد الرخامية ، وما بسط على أرضها وجدرانها من طنافس وأقمشة مزركشة كبيرة الحجم يخطها الحصر تكاد تغطي كل مكان في الأرض والجدران ، وعشرات المئات من السياس ذوى الحلل البراقة ، وسروج الخيول الفضية ذات الأغصية المطرزة بخيوط الذهب والفضة ، وما في الحدائق الواسعة من مختلف أنواع الحيوان البرى والأليف ، وما للخلفاء من قوارب لا تقل عن القصور أبهة وفخامة تجرى في نهر دجلة وتنتظر أهواء الخليفة : وكانت الطبقات العليا تعيش في وسط هذا النعيم عيشة الترف ، واللهو ، والقلق ، والدسائس . فكان رجالها يذهبون إلى الميدان ليشاهدوا سباق الخيل أو لعب الجحفة ، ويحتسون الخمر المعتمة المحرمة ، ويأكلون الطعام المبتاع من أقاصى البلاد بأغلى الأثمان ، ويرتدون هم ونسائهم أثواب الحرير المختلف الألوان المطرز بخيوط الفضة والذهب ، ويعطرون ثيابهم ، وشعرهم ، ولحاهم ، ويستشقون رائحة العنبر والكندر ، ويزينون رؤوسهم ، وآذانهم ، ورقابهم ، ومعاصمهم ،

وسيقانهم بالحلى الثمينة . ويقول شاعر يتغزل في فتاة إن رنين خلاخيلها قد
سلبه عقله (٩٣) . ولم تكن النساء في العادة يحضرن مجتمعات الرجال ، وكان
يحل محلهن الشعراء ، والمطربون ، والسمار الفكهون ، وما من شك في أنهم
كانوا يتحدثون عن الحب ؛ وكانت الجوارى الغيد يرقصن حتى يصبح
الرجال أسرى لهن . وفي المجتمعات التي كانت أكثر من هذه أديبا كان الناس
يستمعون إلى أناشيد الشعراء أو إلى آيات القرآن الكريم . ومنهم من أنشأوا
ندوات فلسفية كإخوان الصفا ، ويحدثنا المؤرخون عن نادى قائم حوالى
عام ٧٩٠ مؤلف من عشرة أعضاء ، واحد من السنين ، وآخر من الشيعة ،
وثالث من الخوارج ، ورابع من المانوية(*) ؛ ومن شاعر غزلى ، وفيلسوف
مادى ، ومسيحى ، ويهودى ، وصابئى ، وزردشتى . ويقول المؤرخون
إن اجتماعات هؤلاء الأعضاء كان يسودها روح التسامح المتبادل ، والفكاهة
الحلوة ، والنقاش الهادى الذى يمتاز بالأدب والمجاملة(**) (٩٤) . ويمكن
القول بوجه عام إن المجتمع الإسلامى كان مجتمعاً ذا أدب راق إلى أقصى
حدود الرقى ؛ وما من شك في أن الشرق من عهد قورش إلى لى هونج تشانج
قد فاق الغرب في الرقة والكياسة ؛ وكان من المظاهر التي تشرف بها الحياة
في بغداد أن الفنون والعلوم التي لا يحرمها الإسلام كانت كلها بلا استثناء تجدد
فيها من يشجعها ويأخذ بناصرتها ، وأن المدارس على اختلاف درجاتها كانت
كثيرة العدد منتشرة في جميع الأنحاء ، وأن الهواء كان يردد أصدااء الشعراء .
ولا يحدثنا المؤرخون بالشىء الكثير عن حياة الدهماء ، وكل ما نستطيع أن
نفترضه هو أنهم كانوا يعملون على بقاء هذا الصرح الفخم بخدماتهم وكلحهم .

(*) أتباع مافى وهو رجل من أهل إكباتانا (هذان) (٢١٥ - ٢٧٦) ، وكان
يقول إن كل شىء يخرج من أصلين رئيسيين هما النور والظلمة ، أو الخير والشر .
(**) ما أشبه هذا بالمجتمع الخيالى الذى يحدثنا عنه لويس دكنسن في كتابه « معرض
الآراء الحديثة » و « العدالة والحرية » وقد ترجما إلى اللغة العربية . (المترجم)

فبينما كان الأغنياء يلهون بالآداب ، والفنون ، والفلسفة ، والعلم ، كان عامة الشعب السذج يستمعون إلى المغنين في الشوارع ، أو يعزفون على أعودهم وينشدون أغانيهم . وكان يسير بين الفينة والفينة موكب عرس يبذل من ضجيج الشوارع ورائحتها ؛ وكان الناس في أيام الأعياد يتزاورون ، ويتبادلون الهدايا ، ويعنون كل العناية باحتساب قيمة ما يتبادلونه منها ، ويطعمون في تلك الأيام بشبهة أقوى من شبهة الذين يطعمون في صحاف الذهب . وحتى الفقير نفسه كان له حظ في جلال الخليفة وفضامة المسجد ، ولم يكن محروماً من درهمات من دنانير الخراج الذي كان يرد إلى بغداد . وكان يسير فخوراً معتزاً بأنه ابن العاصمة الكبيرة ، وكان في قرارة نفسه يعد نفسه واحداً من سادة العالم وحكامه .

الباب الثاني عشر

الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية

١٠٥٨ - ٦٣٢

الفصل الأول

التعليم

تدل الأحاديث النبوية على أن النبي كان يحث على طلب العلم ويعجب به ، فهو من هذه الناحية يختلف عن معظم المصلحين الدينين فيقول : « من سلك طريقاً يطلب علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة » « يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجع مداد العلماء بدم الشهداء » (١) .

ولقد كان اتصال العرب بالثقافة اليونانية في بلاد الشام مما أيقظ فيهم روح المنافسة العلمية القوية لليونان ، ولم يمض إلا زمن قليل حتى أصبح العالم والشاعر من أصحاب المكانة العليا في بلاد الإسلام .

وكان تعليم الأطفال يبدأ منذ اقتدارهم على الكلام . فكانوا من هذه اللحظة يعلمون النطق بالشهادتين « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فإذا بلغ الأطفال السادسة من العمر ألحق بعض أبناء الأرقاء ، وبعض البنات ، وجميع الأولاد ، عدا أبناء الأغنياء (الذين كان لهم معلمون خصوصيون) بمدرسة أولية ملحقة في العادة بأحد المساجد ، وفي بعض الأحيان بجوار عين ماء عامة في الخلاء . وكان التعليم في هذه المدارس عادة بالحنان ، فإن لم يكن فقد كان أجره تافها يستطيع أداءه جميع الناس ، فقد كان المعلم يتناول من والد الطفل

مصنع للورق في بلاد الإسلام في بغداد عام ٧٩٤ على يد الفضل بن يحيى وزير هرون الرشيد . ونقل العرب هذه الصناعة إلى صقلية وأسبانيا ومنهما انتقلت إلى إيطاليا وفرنسا . وقبل هذا نجد الورق مستخدماً في بلاد الصين منذ عام ١٠٥ م ، ثم نجده في مكة سنة ٧٠٧ ، وفي مصر سنة ٨٠٠ ، وفي أسبانيا سنة ٩٥٠ ، وفي القسطنطينية سنة ١١٠٠ ، وفي صقلية سنة ١١٠٢ ، وفي إيطاليا سنة ١١٥٤ ، وفي ألمانيا سنة ١٢٢٨ ، وفي إنجلترا سنة ١٣٠٩ (٧) . ويسر هذا الاختراع تأليف الكتب في كل بلد انتقل إليه ، ويقول اليعقوبي إنه كان في بغداد على أيامه (٨٩١) أكثر من مائة بائع للكتب ، كانت حوائيتهم تستخدم ، فضلاً عن بيع الكتب ، لنسخها ، وكتابة الخط المزخرف ، كما كانت ندوات أدبية . وكان كثير من الطلاب يحصلون على أرزاقهم بنسخ المخطوطات ، وبيعها لتجار الكتب ، ونسمع في القرن العاشر الميلادي عن أناس يجمعون توقيعات العظماء وخطوطهم ، وعن غواة للكتب يسعون لجمعها ويعرضون أثماناً عالية للمخطوطات النادرة (٨) . ولم يكن المؤلفون يحصلون على شيء من بيع كتبهم ؛ وكانوا يعتمدون في معاشهم على وسائل للرزق أثبتت من هذه وأقوى أساساً ، أو على هبات الأمراء أو الأثرياء . ذلك أن الأدب والفن كان يقصد بهما إشباع ذوق طبقة الأشراف من ذوى المال أو الحسب والنسب .

وكانت في معظم المساجد مكتبات ، كما كان في معظم المدن دور عامة للكتب تضم عدداً كبيراً منها ، وكانت مفتحة الأبواب لطلاب العلم . وكان في مدينة الموصل عام ٩٥٠ مكتبة عامة أنشأها بعض المحسنين ، يجد فيها من يؤمونها حاجتهم من الكتب والورق . وبلغت فهارس الكتب التي اشتملت عليها مكتبة الرى العامة عشر مجلدات . وكانت مكتبة البصرة تعطى رواتب وإعانات لمن يشتغلون فيها من الطلاب ، وقضى ياقوت الجغرافي في مكتبتي مرو وخوارزم ثلاث سنين يجمع المعلومات التي يتطلبها كتابه معجم البلدان . ولما أن

دمر المغول بغداد كان فيها ست وثلاثون مكتبة عامة^(٩) ، فضلا عن عدد لا يحصى من المكتبات الخاصة ، ذلك أنه كان من العادات المألوفة عند الأغنياء أن يقتنى الواحد منهم مجموعة كبيرة من الكتب . ودعا سلطان بخارى طبيبا مشهوراً ليقم في بلاطه فأبى محتجاً بأنه يحتاج إلى أربعائة جمل لينقل عليها كتبه^(١٠) ؛ ولما مات الواقدي ترك وراءه ستائة صندوق مملوءة بالكتب ، يحتاج كل صندوق منها رجلين لينقلاه . « وكان عند بعض الأمراء كالصاحب بن عباد من الكتب بقدر ما في دور الكتب الأوربية مجتمعة »^(١١) . ولم يبلغ الشغف باقتناء الكتب في بلد آخر من بلاد العالم - اللهم إلا في بلاد الصين في عهد منج هوانج - ما بلغه في بلاد الإسلام في القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر . ففي هذه القرون الأربعة بلغ الإسلام ذروة حياته الثقافية . ولم يكن العلماء في آلاف المساجد المنتشرة في البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند يقلون عن عدد ما فيها من الأعمدة ، وكانت إيواناتها تردد أصداً علمهم وفصاحتهم ، وكانت طرقات الدولة لا تخلو من الجغرافيين ، والمؤرخين ، وعلماء الدين ، يسعون كلهم إلى طلب العلم والحكمة ؛ وكان بلاط مئات الأمراء يرددون أصداً قصائد الشعراء والمناقشات الفلسفية ؛ ولم يكن أحد يجروء على جمع المال دون أن يعين بماله الآداب والفنون . وسرعان ما استوعب العرب ذور البديهة الوقادة ثقافة الأمم التي فتحوا بلادها ، وبلغ من تسامح المغلوبين أن أصبحت منهم الكثيرة الغالبة من الشعراء ، والعلماء ، والفلاسفة الذين جعلوا اللغة العربية أغنى لغات العالم في العلوم والآداب . وإن كان العرب الأصليون أقلية صغيرة بين هولاء الفلاسفة ، والعلماء ، والشعراء .

وقد قوى علماء الإسلام في ذلك العهد دعائم الأدب العربي الممتاز بدراساتهم الواسعة للنحو الذي جعل اللغة العربية لغة المنطق والقياس ؛ وبما وضعوه من المعاجم التي جمعوا فيها ثروة هذه اللغة من المفردات في دقة ونظام ؛ وبموسوعاتهم ، ومختصراتهم ، وكتبهم الجامعة ، التي جمعت كثيراً من أشات الآداب والعلوم

لولاها لخسرهما العالم ؛ وبمؤلفاتهم في النصوص ، والأدب ، والنقد التاريخي ؛ ولا حاجة بنا إلى ذكر أسماء هؤلاء العلماء الأعلام ، وحسبنا أن نعرف بفضلهم ونمجد أعمالهم .

وأكثر من تحفظ الذاكرة بأسمائهم من بين أولئك العلماء هم المؤرخون ، لأننا مدينون لهم بما نعرفه عن تلك الحضارة التي لولاها لظلت غامضة غموض حضارة مصر الفرعونية قبل شمهليون . ومن هؤلاء المؤرخين محمد ابن إسحق (المتوفى عام ٧٦٧) كاتب سيرة النبي ؛ وقد راجعها وزاد عليها ابن هشام (٧٦٣) فكانت أقدم كتاب عربي منشور ذا شأن عظيم وصل إلى أيدينا - إذا استثنينا من ذلك القرآن (الكريم) نفسه . وقد كتب العلماء الباحثون المجدون كتباً جامعة في سير الأولياء الصالحين ، والفلاسفة ، والوزراء ، والمشرعين ، والأطباء ، والخطاطين ، وكبار الحكام ، والعشاق ، والعلماء . وكان ابن قتيبة أحد علماء الإسلام الكثيرين الذين حاولوا كتابة تاريخ للعالم ، ولقد بلغ من الشجاعة درجة أوحى إليه أن يجعل نصيب الدين الذي ينتمى إليه لا يشغل من الكتاب إلا ذلك الحيز المتواضع الذي يجب ألا يزيد عليه تاريخ أية أمة أو أى دين في كتاب تاريخ جامع لأحداث الدهر الكثيرة . وأخرج محمد بن النديم في عام ٩٨٧ كتابه « فهرست العلوم » أرخ فيه لكل كتاب ظهر في اللغة العربية ، مؤلفاً كان أو مترجماً ، في كل فرع من فروع العلم ، وأضاف إلى أسماء الكتب ترجمة نقدية لمؤلفيها ، ذكر فيها فضائل كل مؤلف وعيوبه . وفي وسع القارئ أن يحكم على ثراء الأدب الإسلامى في أيامه إذا عرف أن الكتب التي ذكرها - على ما نعلم - لم يبق منها الآن واحد في الألف (١٣) .

وشبيهه بليفي في الغرب أبو جعفر محمد الطبرى (٨٣٨ - ٩٢٣) عند المسلمين (١٤) . وكان أبو جعفر من أصل فارسي كما كان كثيرون من المؤلفين المسلمين ، ولد في طبارستان الواقعة في جنوب بحر قزوين . وبعد أن ظل عدة

سنين يطوف في بلاد العرب والشام ومصر ، كما يطوف الفقراء من العلماء من أهل زمانه ، استقر في بغداد واشتغل بالقضاء : ووهب أربعين عاماً من حياته لكتابة تاريخ عام سماه كتاب أخبار الأمم والملوك قص فيه تاريخ العالم من بدء الخليفة إلى عام ٩١٣ . والجزء الباقي إلى الآن من هذا الكتاب يشمل خمسة عشر مجلداً كبيراً ، ويقول المؤرخون إن ما فقد منه يبلغ عشرة أمثال هذا الجزء الباقي : ويرى الطبري ، كما يرى بوسويه Bousuet ، يد الله في كل حادثة تقع في العالم ، وقد ملأ الفصول الأولى من كتابه بعبارات تشهد له بالتقوى ولكنها خالية من المعنى كقوله « في امتحان الله تعالى أبانا آدم عليه السلام وابتلائه إياه بما امتحنه به من طاعته » وبأن الله أنزل على الأرض بيتاً مشيداً من الياقوت ليسكنه آدم ، فلما أن عصى آدم ربه عاد فرفعه عن الأرض^(١٦) . ونهج الطبري نهج التوراة فيما كتبه عن تاريخ اليهود ، وقال إن مريم العذراء ولدت المسيح (وإنها حملت به لأن جبريل نفخ في كمها)^(١٧) . ونختم الجزء الأول من كتابه بصعود المسيح إلى السماء . أما الجزء الثاني فهو أقرب إلى العقل من الجزء الأول ، وفيه يقص تاريخ فارس في عهد الساسانيين قصصاً مقبولة حياً ، ذا روعة في بعض المواضع : ويتبع فيه طريقة إيراد الحوادث مرتبة حسب تواريخ وقوعها عاماً بعد عام ، وهي في العادة مصنفة منقولة من راو عن راو قبله حتى يصل بها إلى من شاهدها بعينه ، أو وقعت في أيامه . وفضل هذه الطريقة أنها تعني بذكر المصادر ؛ ولكن الطبري لا يحاول تنسيق الروايات المختلفة ليكون منها قصة موحدة متصلة ، ولهذا فإن تاريخه يبقى أكداً من ثمار الجهد المضني لا عملاً من أعمال الفن .

ويرى المسعودي ، وهو أعظم من جاء بعد الطبري من المؤرخين ، أن الطبري أعظم من سبقه منهم . كان أبو الحسن على المسعودي من أصل عربي في بغداد ؛ وجاب بلاد سوريا ، وفلسطين ، وبلاد العرب ، وزنجبار ، وفارس ، وأواسط آسية ، والهند ، وسرنديب (سيلان) ، بل يقول هو إنه وصل إلى بحر

الصين : وقد جمع ثمار رحلاته هذه في موسوعة تشتمل على ثلاثين مجلداً ،
رآها علماء الإسلام أنفسهم ، وهم المعروفون بغزارة مادتهم ، أطول مما
يطيقون ؛ ثم نشر موجزاً لها كان هو الآخر أطول مما يجب ، ولعله
رأى آخر الأمر أن قراءه لا يجدون من الوقت الذى يصرفونه فى القراءة
مثل ما يحده هو . منه ليصرفه فى الكتابة ، فاختصر كتابه مرة أخرى
إلى الحد الذى نعرفه الآن وسماه بذلك الاسم الغريب « **صروج الذهب**
ومعاده الجوهر » . ودرس المسعودى جميع أحوال البلاد الممتدة من الصين
إلى فرنسا من النواحي الجغرافية والنباتية ، والحيوانية ، والتاريخية ،
كما درس عادات أهلها ، وأديانهم ، وعلومهم ، وفلسفتهم ، وآدابهم ،
فكان فى العالم الإسلامى كما كان بلنى وهيرودوت فى العالم الغربى . ولم يوجز
المسعودى فى كتابته إلى الحد الذى يجعلها عقيمة جافة ، بل كان فى بعض
الأحيان يتبسط فيها ، وينطلق على سجيته ، فلا يجاز نفسه عن أن يروى
بين الفينة والفينة قصة ممتعة مسلية . وكان متشككاً بعض الشيء فى الدين ،
ولكنه لم يفرض قط تشككه على قرائه . وقد لخص فى آخر سنة من حياته
آراءه فى العلم ، والتاريخ ، والفلسفة فى كتاب **الاستنظار لما مر فى سائر**
الأعمار ، وكتاب **زخائر العلوم وما فى سائر الدهور** . وقد أشار إلى تطور
الكائنات من الجهاد إلى النبات ، ومن النبات إلى الحيوانات ، ومن
الحيوان إلى الإنسان (١٨) . ولعل هذه الآراء قد جرت به إلى المشاكل
مع المحافظين من أهل بغداد ، فاضطر على حد قوله إلى مغادرة
المدينة التى ولد فيها وشب وترعرع ، وجاء إلى القاهرة وهو آسف
على فراق موطنه . وقال فى هذا إن من طبيعة ذلك الزمان أن يفرق الناس
جميعاً ويباعد بينهم . . . وإن الله يبارك للأمم إذا أحب أبناؤها مواطنهم ، وإن

من أمارات التقي والاستقامة أن يمن الإنسان إلى مسقط رأسه ، ومن علامات النبيل وكرم المحتند أن يبغض الانفصال عن داره وموطنه (١٩) .

ووافته المنية في القاهرة بعد عشر سنين قضاها بعيداً عن بلده .

وخبر ما يقال عن هؤلاء المؤرخين أنهم يفوقون غيرهم في اتساع دائرة جهودهم ، ونواحي نشاطهم ، واهتمامهم ، وأنهم يربطون الجغرافية بالتاريخ ربطاً موفقاً صحياً ، وأنهم لا يفوتهم شيء مما يتصل بيني الإنسان ، وأنهم يعلنون علواً كبيراً على معاصريهم من المؤرخين في العالم المسيحي . ولكنهم مع هذا كله كثيراً ما يضلون في دياجير السياسة ، والحرب ، والبلاغة اللفظية ؛ وقلما يعنون ببحث العلل الاقتصادية ، والاجتماعية ، والنفسانية التي تتحكم في الحوادث ، وإن مجلداتهم الضخمة لتعوزها الطريقة البنائية المنتظمة ، فلسنا نجد فيها إلا أكداً من حقائق غير مرتبطة ولا متناسقة - عن الأمم ، والحداثات ، والشخصيات ، وهم لا يرقون إلى مستوى بحث المصادر بحثاً (*) دقيقاً نزيهاً ، ويعتمدون اعتماداً كبيراً ، مصدره شدة تقواهم واستمسكهم بالدين ، على الإجماع وتسلسل الروايات تسلسلاً قد تكون حلقة من حلقاته خاطئة أو مخادعة . ومن أجل هذا تهبط قصتهم في بعض الأحيان إلى مستوى أقاصيص الأطفال ، وتمتلئ بالنذر ، وأخبار المعجزات ، وبالأساطير . وكما أن في وسع كثيرين من المؤرخين المسيحيين (مع استثناء جين Gibbon على الدوام) أن يكتبوا تاريخ العصور الوسطى ، بحيث يجعلون الحضارة الإسلامية كلها ذيلاً موجزاً للحروب الصليبية ، كذلك اقتضب كثيرون من المؤرخين المسلمين تاريخ العالم قبل الإسلام فجعلوه كله يدور حول الاستعداد لرسالة النبي محمد : على أننا نعود فنسأل أنفسنا كيف يستطيع العقل الغربي أن يصدر

(*) لا شك أن الكاتب ينظر إلى هؤلاء المؤرخين بعين هذه الأيام ويقيمهم بمؤرخي القرن العشرين . (المترجم)

على الشرقى حكماً صحيحاً نزيهاً ؟ إن اللغة العربية تفقد جمالها في الترجمة كما تفقد الزهرة جمالها إذا انتزعت من شجرتها ، وإن الموضوعات التي تمتلئ بها صحائف المؤرخين المسلمين ، وهي التي تبدو ذات روعة وجمال لبني أوطانهم ، لتبدو مملة خالية من المتعة الطبيعية للقراء من أهل الغرب الذين لم يدركوا حتى الآن أن الصلات الاقتصادية بين الشعوب واعتماد بعضها على بعض يتطلبان أن يدرس كلاهما الآخر ويفهمه حق الفهم .

الفصل الثاني

العلوم (*)

لم يدخر المسلمون في هذه القرون المجيدة من تاريخ الحياة الإسلامية جهداً في العمل على إيجاد هذا التفاهم الذي أشرنا إليه في الفصل السابق ؛ فاقدر أدرك الخلفاء تأخر العرب في العلم والفلسفة كما أدركوا ما خلقه اليونان من ثروة علمية غزيرة في بلاد الشام . لقد كان بنو أمية حكاماً إذ تركوا المدارس الكبرى المسيحية ، أو الصابئية ، أو الفارسية ، قائمة في الإسكندرية ، وبيروت ، وأنطاكية ، وحران ، ونصيبين ، وغنديسابور لم يمسوها بأذى ، وقد احتفظت هذه المدارس بأمهات الكتب في الفلسفة والعلم ، معظمها في ترجمته السريانية . واستهوت هذه الكتب المسلمين العارفين باللغتين السريانية واليونانية ، وما لبثت أن ظهرت ترجماتها إلى اللغة العربية على أيدي النساطرة المسيحيين أو اليهود . وشجع الأمراء من بني أمية وبني العباس هذه الاستدانة العلمية المثمرة ، وأرسل المنصور ، والمأمون ، والمتوكل الرسل إلى القسطنطينية وغيرها من المدن الهلنستية - وأرسلوهم في بعض الأحيان إلى أباطرة الروم أعدائهم الأقدمين - يطلبون إليهم أن يمدوهم بالكتب اليونانية ، وخاصة كتب الطب أو العلوم الرياضية . وبهذه الطريقة وصل كتاب إقليدس في الهندسة إلى أيدي المسلمين . وأنشأ المأمون في بغداد عام ٨٣٠ بيت الحكمة وهو مجمع علمي ، ومرصد فلكني ، ومكتبة عامة ،

(*) واجب على كل كاتب من العلوم عند المسلمين أن يسجل ما هو مدين به إلى جورج سارتن George Sarton صاحب كتاب « المدخل في تاريخ العلوم » . فليس هذا الكتاب القيم من أجل الأعمال في تاريخ البحث العلمي فحسب ، بل إنه فوق ذلك قد أدى خدمة تجعل عن التقدير إذ كشف عن غنى الثقافة الإسلامية واتساع مداها ، وإن العلماء في كل مكان ليرجون من صميم قلوبهم أن يقدم كل ما يستطيع تقديمه من المعونة لإتمام هذا العمل الجليل .

وأنفق في إنشائه مائتي ألف دينار (نحو ٩٥٠,٠٠٠ ريال أمريكي) . وأقام فيه طائفة من المترجمين وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال . ويقول ابن خلدون (٢٠) إن الإسلام مدين إلى هذا المعهد العلمي باليقظة الإسلامية الكبرى التي اهتزت بها أرجاؤه والتي تشبه في أسبابها - وهي انتشار التجارة ، وإعادة كشف كنوز اليونان - وفي نتائجها - وهي ازدهار العلوم والفنون - نقول إنها تشبه في أسبابها ونتائجها النهضة الأوربية التي أعقبت العصور الوسطى :

ودامت هذه الأعمال ، أعمال الترجمة المخصصة المثمرة ، من عام ٧٥٠ إلى ٩٠٠ ، وفي هذه الفترة عكف المترجمون على نقل أمهات الكتب من السريانية ، واليونانية ، والفهلوية ، والسنسكريتية . وكان على رأس أولئك المترجمين المقيمين في بيت الحكمة طيبب نسطورى هو حنين بن إسحق (٨٠٩ - ٨٧٣) . وقد ترجم وحده - كما يقول هو نفسه - إلى اللغة السريانية مائة رسالة من رسائل جالينوس ومدرسته العلمية ، وإلى اللغة العربية تسعا وثلاثين رسالة أخرى . وبفضل ترجمته هذه نجت بعض مؤلفات جالينوس من الفناء . وترجم حنين فضلا عن تلك الرسائل السالفة الذكر كتب المقولات (ويذكره العرب باسم قاطيغوريوس) والطبيعة ، والأخلاق الكبرى لأرسطو ، وكتب الجمهورية ، وطيباوس ، والقوانين لأفلاطون ؛ وعهد أبقراط ، وكتاب الأقرباذين لديوسقوريدس Dioscorides . وكتاب الأربعة لبطليموس ، وترجم العهد القديم من الترجمة السبعينية اليونانية . وكاد المأمون أن يفلس بيت المال حين كافأ حنين على عمله هذا بمثل وزن الكتب التي ترجمها ذهباً ، ولما ولى الخليفة المتوكل عينه طبيباً لبلاطه ، ولكنه زج به سنة في السجن حين أبى أن يركب له دواء يقضى به على حياة عدو له مع أن الخليفة أنذره بالموت إن لم يفعل . وكان ابنه إسحق بن حنين يساعد أباه في أعمال الترجمة ، ونقل هو إلى اللغة العربية من كتب أرسطو

كتب الميتافيزيقا ، والنفس ، وفي نواتج الحيوانات وفسادها كما نقل إليها شروح الإسكندر الأفروديسي ، وهو كتاب كان له أثر كبير في الفلسفة الإسلامية .

ولم يحل عام ٨٥٠ بعد الميلاد حتى كانت معظم الكتب اليونانية القديمة في علوم الرياضة ، والفلك ، والطب قد ترجمت إلى اللغة العربية . وعن طريق الترجمة العربية أطلق اسم المجسطى على كتاب بطليموس في الفلك ، وبفضل الترجمة العربية دون غيرها بقيت للعالم المقولات ٥ ، ٦ ، ٧ من المحرّوطات لأبولونيوس البرجاوى Apollonius of Perga وكتاب الهيل هيرو الإسكندري وكتاب الخصائص الأولية للهرو والغازات لفيلون البيزنطى . ومن أغرب الأشياء أن المسلمين رغم ولعهم الشديد بالشعر والتاريخ قد أغفلوا الشعر اليوناني والمسرحيات اليونانية وكتب التاريخ اليونانية ، فقد سار المسلمون في ركاب الفرس في هذه النواحي من النشاط العلمى والأدبى بدل أن يسيروا في ركاب اليونان . وكان من سوء حظ الإسلام والإنسانية عامة أن كتب أفلاطون وأرسطو نفسه لم يصل معظمها إلى أيدي المسلمين إلا في الصورة التي أصبحت عليها أيام الأفلاطونية الحديثة : فقد وصلت إليها كتب أفلاطون كما فسرها پورفيرى Porphyry ، ووصلت كتب أرسطو بمسوخة في صورة كتاب اللاهوت المعروف عند الإسلاميين بأوثولوجيا أرسطوطاليس ، وقد ألفه رجل من أتباع الأفلاطونية الحديثة عاش في القرن الخامس أو السادس ، ثم ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية على أنه كتاب أرسطو نفسه . ولم يكده العرب يتكون كتاباً من كتب أرسطو وأفلاطون إلا ترجموه إلى اللغة العربية ، وإن كانت هذه التراجم غير دقيقة في كثير من المواضع ؛ ولكن العلماء المسلمين حاولوا أن يوفقوا بين الفلسفة اليونانية والقرآن ، ولجأوا إلى الشروح التي كتبها رجال الأفلاطونية الحديثة أكثر مما لجأوا إلى كتب الفلاسفة اليونان في صورتها الأصلية . ولهذا لم يصل من كتب أرسطو

الحقبة إلى أيدي المسلمين إلا ما كان منها في المنطق وعلم الطبيعة .

وإن انتقال العلوم والفلسفة انتقالاً مستمراً من مصر ، والهند ، وبابل ، عن طريق بلاد اليونان وبيزنطية ، إلى بلاد الإسلام في الشرق وفي أسبانيا ، ومنها إلى شمالي أوروبا وأمريكا ، نقول إن هذا الانتقال لمن أجل الحوادث وأعظمها شأنًا في تاريخ العالم . لقد كانت علوم اليونان حية في بلاد الشام حين أقبل عليها العرب فاتحين ، وإن كانت هذه العلوم قد ضعف شأنها بسبب ما اكتشفها قبلئذ من غموض وما ساد البلاد من فقر وفساد في الحكم . وكان الراهب سفيرس سبخت Severus Sobokht رئيس دير قنسرين إحدى مدن أعالي الفرات يكتب باليونانية رسائل في الفلك ، ويذكر لأول مرة الأرقام الهندية في خارج بلاد الهند . (٦٦٢) . لقد ورث المسلمون عن اليونان معظم ما ورثوه من علوم الأقدمين ، وتأتى الهند في هذا في المرتبة الثانية بعد بلاد اليونان . ففي عام ٧٧٣ أمر المنصور بترجمة السهنتا وهي رسائل هندية في علم الفلك يرجع تاريخها إلى عام ٤٢٥ ق . م . وربما كانت هذه الرسائل هي الوسيلة التي وصلت بها الأرقام « العربية » (*) والصفير من بلاد الهند إلى بلاد الإسلام (٢١) . ففي عام ٨١٣ استخدم الخوارزمي الأرقام الهندية في جداوله الرياضية ؛ ثم نشر في عام ٨٢٥ رسالة تعرف في اللاتينية باسم *Algoritmi de numero Indorum* « أي الخوارزمي عن أرقام الهنود » . وما لبث لفظ الجورثم أو الجورسم أن أصبح معناه طريقة حسابية تقوم على البعدية العشرية . وفي عام ٩٧٦ قال محمد بن أحمد في *مفاتيح العلوم* إنه إذا لم يظهر في العمليات الحسابية رقم في مكان العشرات وجب أن توضع دائرة صغيرة لمساواة الصفوف (٢٢) . وسمى المسلمون هذه الدائرة « صفراً »

(*) يسمى الإفرنج هذه الأرقام بالعربية لأنهم أخذوها من العرب ولكن العرب أنفسهم يسمونها بالأرقام الهندية لأنهم أخذوها عن الهنود . (المترجم)

أى خالية ومنها اشتقت الكلمة الإنجليزية CIPHER ؛ وحوار العلماء اللاتين لفظ صفر Sifr إلى Zephyrum ثم اختصره الطليان إلى Zero .

ويدين علم الجبر ، الذى نجد أصوله فى مؤلفات ديوفانتوس Diophantus اليونانى من رجال القرن الثالث ، باسمه إلى العرب ، الذين ارتقوا بهذا العلم الكاشف للخبايا الحلال للمعضلات . وأبرز الشخصيات فى هذا الميدان العلمى هى شخصية محمد بن موسى (٧٨٠ - ٨٥٠) المعروف بالخوارزمى نسبة إلى مسقط رأسه فى خوارزم (خيوة بالحديثة) الواقعة شرقى بحر الخزر ، وقد كتب الخوارزمى رسائل قيمة فى علوم خمسة : كتب عن الأرقام الهندية ، وجمع أزياجاً فلكية ، ظلت قرونًا كثيرة بعد أن روجعت فى بلاد الأندلس الإسلامية هى المعمول بها فى جميع البلاد الممتدة من قرطبة إلى شنغان فى الصين ؛ وهو الذى وضع أقدم الجداول المعروفة فى حساب المثلثات ، واشترك مع تسعة وثلاثين من العلماء فى وضع موسوعة جغرافية للخليفة المأمون ، وأورد فى كتابه حساب الجبر والمقابلة حلولاً تحليلية وهندسية لمعادلات الدرجة الثانية . ولقد ضاع الأصل العربى لهذا الكتاب ، لكن جرارد الكريمونائى Gerard of Cremona ترجمه فى القرن الثانى عشر . وظلت ترجمته تدرس فى الجامعات الأوروبية حتى القرن السادس عشر ، ومنه أخذ الغرب كلمة الجبر وسموا بها ذلك العلم المعروف . واشتهر ثابت بن قرة (٨٢٦ - ٩٠١) ، فضلاً عما ترجمه من الكتب الكثيرة ، بمؤلفاته فى الفلك والطب ، وأصبح أعظم علماء الهندسة المسلمين . وارتقى أبو عبد الله البتائى (٨٥٠ - ٩٢٩) وهو رجل صابئى من الرقة يعرف عند الأوربيين باسم البتجنس Albatagnus ، بعلم حساب المثلثات إلى أبعد من مبادئه التى كان عليها فى أيام هيارخوس وبطلميوس ، وذلك حين استبدل المثلثات بالمربعات فى حل المسائل ، واستبدل جيب الزاوية بالقوس كما كان يفعل هيارخوس . وهو الذى صاغ

حساب المثلثات النسب بالصورة التي نستخدمها الآن في جوهرها .
واستخدم المأمون جماعة من الفلكيين ليرصدوا الأجرام السماوية
ويسجلوا نتيجة هذه الأرصاد ، وليحققوا كُشوف بطليموس الفلكي ،
ويدرسوا كلف الشمس . واتخذوا كرية الأرض أساساً بدءوا منه بقياس
الدرجة الأرضية بأن رصدوا موضع الشمس من تدمر وسنجار في وقت
واحد . وتوصلوا من هذا الرصد إلى تقدير الدرجة بستة وخمسين ميلا
وثلاثي ميل - وهو تقدير يزيد بنصف ميل على تقديرنا في الوقت الحاضر .
ومن هذه النتائج قدروا محيط الأرض بما يقرب من عشرين ألف ميل .
ولم يكن هؤلاء الفلكيون يقبلون شيئاً إلا بعد أن تثبته الخبرة والتجارب
العلمية ، وكانوا يسرون في بحوثهم على قواعد علمية خالصة ، وكتب أحدهم
- الفرغاني من أهل فرغانة وهي ولاية وراء جيحون (حوالى عام ٨٦٠) -
كتاباً في الفلك ظل مرجعاً تعتمد عليه أوروبا وغربي آسية سبعمائة عام . وأوسع
منه شهرة البتاني الذي ظل واحداً وأربعين عاماً يقوم بأرصاد فلكية اشتهرت
بدقتها واتساع مداها . وقد وصل بهذه الأرصاد إلى كثير من « المعاملات »
الفلكية تمتاز بقربها العجيب من تقديرات هذه الأيام - منها تقديره
زيوح الاعتدالين (*) بـ ٥٤٥^س في العام ، وميل مستوى الفلك بـ ٥٥^س
٢٣^د (٢٣) . ومنهم أبو الوفا الذي كان يعمل تحت رعاية سلاطين بني بويه
الأوليين حكام بغداد والذي كشف (كما يقول سادلو Sadilot وإن كان
قوله لا يزال مثاراً للجدل) الانحراف الثالث للقمر قبل أن يكشفه تيخو
براهي Tycho Brahe بستائة عام (٢٤) . وقد أقيمت للفلكيين المسلمين آلات
غالية الثمن لم تقتصر على الاسطرلاب ، والكرات ذوات الحلق التي
كانت معروفة لليونان الأقدمين ، بل كانت تشمل كذلك آلات
لقياس الزوايا يبلغ نصف قطرها ثلاثين قدماً ، وآلات سدس نصف قطرها
ثمانون قدماً . وقد أدخل المسلمون على الاسطرلاب تحسينات كثيرة ،

ووصل منهم إلى أوروبا في القرن العاشر الميلادي ، وظل شائع الاستعمال بين الملاحين حتى القرن السابع عشر . وقد صوره العرب وأبدعوا صنعه ، حتى أصبح بفضلهم أداة علمية وتحفة فنية معاً .

وهذا الاهتمام العظيم بتصوير السماء قد فاقه اهتمامه بتصوير أقاليم الأرض لأن المسلمين كانوا يعيشون على فلح الأرض وعلى التجارة في أقاليمها المختلفة . فقد حمل سليمان التاجر - الذي عاش حوالي عام ٨٤٠ سلعه إلى بلاد الشرق الأقصى ، وكتب أحد المؤرخين غير المعروفين (٨٥١) وصفاً لرحلة سليمان هذا ، كان هو أقدم وصف عربي لبلاد الصين ، وكتبه قبل رحلت ماركو پولو Marco Polo بأربعمائة وخمسة وعشرين عاماً . وفي ذلك القرن نفسه كتب ابن خردذبه وصفاً لبلاد الهند ، وسيلان ، وجزائر الهند الشرقية ، وبلاد الصين ، ويبدو أنه اعتمد فيما كتب على رحلاته في تلك البلاد وما شاهده فيها بنفسه . ووصف ابن حوقل بلاد الهند وإفريقية ، وكتب أحمد يعقوبى ، من أهل أرمينية وخراسان في عام ٨٩١ كتاب البلدان الذى وصف فيه الأقطار والمدن الإسلامية وكثيراً من الدول الأجنبية وصفاً خليقاً بالثقة . وزار محمد المقدسى جميع البلاد الإسلامية فضلاً عن بلاد الأندلس ، ولاقى في أثناء رحلاته كثيراً من الشدائد ، ثم كتب عام ٩٨٥ كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، وهو أعظم كتاب في جغرافية البلاد الإسلامية قبل كتاب البيرونى عن الهند :

ويمثل أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى (٩٧٣-١٠٤٨) العالم الإسلامى فى أحسن صورة له . فقد كان البيرونى فيلسوفاً ، ومؤرخاً ، ورحالة ، وجغرافياً ، ولغوياً ، ورياضياً ، وفلكياً ، وشاعراً ، وعالمًا فى الطبيعيات - وكانت له مؤلفات كبيرة وبحوث عظيمة مبتكرة فى كل ميدان من هذه الميادين . وكان عند المسلمين كما كان لبيزنز ، ويوشك أن يكون كما كان ليوناردو دافنشى ، عند

الغربيين : وقد ولد كما ولد الخوارزمي بالقرب من مدينة جنوى الحالية ، وتمثل فيه : كما تمثل في الخوارزمي زعامة موطنه في غرب بحر قزوين من الناحية العلمية في هذه الأعوام المائة من العصور الوسطى التي باخ فيها العلم ذروته . وعرف أمراء خوارزم وطبارستان فضله وأدركوا عظم مواهبه فأفردوا له مكاناً في بلاطهم . وسمع محمود الغزنوي بكثرة من كان في خوارزم من الشعراء والفلاسفة ، فطلب إلى أميرها أن يبعث إليه بالبيروني ، وابن سينا ، وغيرهما من العلماء ؛ وأدرك الأمير أن هذا أمر واجب الطاعة (١٠١٨) ، وسافر البيروني ليحيا حياة الجد والهدوء والعزة والكرامة في بلاد المليك المحارب فاتح الهند . ولعل البيروني قد دخل الهند في ركاب محمود نفسه ، وسواء كان هذا أو لم يكن فقد أقام العالم الفيلسوف في الهند عدة سنين درس فيها لغة البلاد وآثارها القديمة ، ثم عاد إلى بلاط محمود وأصبح فيه من أعظم المقربين لهذا الحاكم المطلق الذي لا يستطيع الكاتب رسم صورة صادقة له . ويقال إن رجلاً من شمالي آسية زار محموداً ووصف له إقليدا ادعى أنه رآه بعينه ، وقال إن الشمس تظل فيه عدة أشهر لا تغيب أبداً . ولم يصدق محمود هذا القول ، وغضب على الرجل وأوشك أن يزجه في السجن لجرأته على المزاح معه وهو صاحب الحول والطول ، فما كان من البيروني إلا أن شرح هذه الظاهرة شرحاً أقنع به الملك وأنجى الزائر (٣٧) . وكان مسعود بن محمود من الهواة المولعين بالعلم فأخذ يفتح البيروني بالهدايا والأموال ، وكثيراً ما كان البيروني نفسه يردّها إلى بيت المال لزيادتها على حاجته .

وكان أول مؤلفاته الكبرى رسالة علمية فنية عميقة تعرف باسم *الآثار الباقية* في التقويم والأعياد عند الفرس ، وأهل الشام ، واليونان ، واليهود ، والمسيحيين ، والصابئين ، والزرذشتيين ، والعرب . والكتاب دراسة نزيهة إلى درجة غير مألوفة ، مبرأة إلى أقصى حد من الأحقاد الدينية . وكان البيروني يميل إلى مذهب الشيعة ، وكان ذا نزعة متشككة خالية من المباهاة والادعاء ؛ غير أنه ظل يحتفظ

يقسط من الوطنية الفارسية ، وأنحى باللائمة على العرب لقضائهم على ما كان في العهد الساساني من حضارة عظيمة (٢٧) . أما فيما عدا هذا فقد كان موقفه موقف العالم صاحب النظرة الموضوعية ، المجد في البحث العلمي ، النقادة للروايات المتواترة والنصوص (بما فيها نصوص الإنجيل) ، المدقق ، النزيه ، ذى الضمير الحى في أحكامه ، وكثيراً ما كان يعترف بجهله ، ويعد بأن يواصل بحوثه حتى تنكشف له الحقيقة . وقد قال في مقدمة الآثار الباقية مثل ما قال فرانسس بيكن في بعض كتبه « . . . بعد تنزيه النفس عن العوارض المردية لأكثر الخلق ، والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهى كالعادة المألوفة ، والتعصب ، والتظافر ، واتباع الهوى ، والتغلب بالرياسة ، وأشبه ذلك وبغير ذلك ، لا يتأتى لنا نيل المطلوب ولو بعد العناء الشديد والجهد الجهد » .

وبينا كان مضيفه يغزو الهند ويدمر مدنها ، كان البيروني يقضى السنين الطوال في دراسة شعوبها ، ولغاتهم ، وأديانهم ، وثقافتهم ، ومختلف طوائفهم . وأثمرت هذه الدراسة كتابه تاريخ الهند الذى نشره في عام ١٠٣٠ والذى يعد أعظم مؤلفاته . وقد ميز فيه منذ البداية بين ما شاهده بعينه وما سمعه من غيره ، وذكر أنواع الكلدان الذين ألفوا كتباً في التاريخ (٢٨) . ولم يخص تاريخ الهند السياسى إلا بحيز صغير في كتابه ولكنه خص أحوال الهند الفلكية باثنين وأربعين فصلاً من فصوله وخص أديانها بأحد عشر : وكان من أهم ما سحر لبه البهاجا فاد هينا وأذك ما بين تصوف القداننا ، والصوفية ، والفيثاغورية الحديثة ، والأفلاطونية الحديثة من تشابه : وأورد مقتطفات من كتابات مفكرى الهنود ، ووازن بينها وبين مقتطفات شبيهة بها من كتابات فلاسفة اليونان ، وفضل آراء اليونان عن آراء الهنود ، وكتب يقول إن الهند لم ينبغ فيها رجل كسقراط ، ولم تظهر فيها طريقة منطقية تطهر العلم من الأوهام (٢٩) . ولكنه رغم هذا ترجم إلى اللغة العربية عدداً من المؤلفات السنسكريتية ، وكانما أراد أن يوفى بدينه للهند (١٤ - ج ٢ - مجلد ٤)

فترجم إلى السنسكريتية كتاب أصول الهندسة لإقليدس والمجسطى لبطليموس .
وكادت عنايته تشمل جميع العلوم ، فقد كتب عن الأرقام الهندية أوفى
بحث في العصور الوسطى ؛ وكتب رسالة عن الاسطرلاب ، ودائرة فلك
البروج ، وذات الحلق ، ووضع أزياجا فلكية للسلطان محمود . ولم يكن
يخالجه أدنى شك في كرية الأرض ، ولاحظ أن كل الأشياء تنجذب نحو
مركزها ، وقال إن الحقائق الفلكية يمكن تفسيرها إذا افترضنا أن الأرض
تدور حول محورها مرة في كل يوم ، وحول الشمس مرة في كل عام ،
بنفس السهولة التي تفسر بها إذا افترضنا العكس (٣٠) . وقال إن وادي نهر
السند ربما كان في وقت من الأوقات قاع بحر (٣١) ، وألف كتاباً ضخماً
في الحجارة وصف فيه عدداً عظيماً من الأحجار والمعادن من النواحي الطبيعية
وشرح قيمتها التجارية والطبية . وعين الكثافة النوعية لثمانية عشر نوعاً من
أنواع الحجارة الكريمة ، ووضع القاعدة التي تنص على أن الكثافة النوعية
للجسم تناسب مع حجم الماء الذي يزيغه (٣٢) . وتوصل إلى طريقة لحساب
تكرار تضعيف العدد دون الإلتجاء إلى عمليات الضرب والجمع الطويلة
الشاقة ، كما تحدث في القصة الهندية عن مربعات لوحة الشطرنج وحببات
الرمث . ووضع في الهندسة حلولاً لنظريات سميت فيما بعد باسمه . وألف
موسوعة في الفلك ، والتنجيم ، والعلوم الرياضية ؛ وشرح أسباب خروج
الماء من العيون الطبيعية والآبار الارتوازية بنظرية الأواني المستطقة (٣٣) .
وألف تواريخ حكم السلطان محمود ، وسبكتجين ، وتاريخاً لحوارزم .
ويطلق عليه المؤرخون الشرقيون اسم الشيخ ، وكأنهم يعنون بذلك أنه شيخ
العلماء . وإن كثرة مؤلفاته في الجليل الذي ظهر فيه ابن سينا ، وابن الهيثم ،
والفردوسي لتدل على أن الفترة الواقعة في أواخر القرن العاشر وبداية القرن
الحادى عشر هي التي بلغت فيها الثقافة الإسلامية ذروتها ، وهي التي وصل
فيها الفكر في العصور الوسطى إلى أعلى درجاته .

ويكاد المسلمون يكونون هم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علماً من العلوم ، ذلك أن المسلمين أدخلوا الملاحظة الدقيقة ، والتجارب العلمية ، والعناية برصد نتائجها في الميدان الذي اقتصر فيه اليونان - على ما نعلم - على الخبرة الصناعية والفروض الغامضة . فقد اخترعوا الأنيق وسموه بهذا الاسم ، وحلوا عدداً لا يحصى من المواد تحليلاً كيميائياً ، ووضعوا مؤلفات في الحجارة ، وميزوا بين القلويات والأحماض ، وفحصوا عن المواد التي تميل إليها ، ودرسوا ميثاق من العقاقير الطبية ، وركبوا ميثاق منها (*) . وكان علم تحويل المعادن إلى ذهب ، الذي أخذته المسلمون من مصر هو الذي أوصلهم إلى علم الكيمياء الحق ، عن طريق ميثاق الكشوف التي تبيينها مصادقة ، وبفضل الطريقة التي جروا عليها في اشتغالهم بهذا العلم وهي أكثر طرق العصور الوسطى انطباقاً على الوسائل العلمية الصحيحة . ويكاد المشتغلون بالعلوم الطبيعية من المسلمين في ذلك الوقت يجمعون على أن المعادن كلها تكاد ترجع في نهاية أمرها إلى أصول واحدة ، وأنها لهذا السبب يمكن تحويل بعضها إلى البعض الآخر . وكان الهدف الذي يبغيه الكيميائيون هو أن يحولوا المعادن « الخسيسة » كالحديد ، أو النحاس ، أو الرصاص ، أو القصدير إلى فضة ، أو ذهب . وكان حجر الفلاسفة عندهم مادة - يدأبون على البحث عنها ولا يصلون إليها - إذا عولجت بها تلك المعادن العلاج الصحيح ، حدث فيها التغير المطلوب . وكان الدم ، والشعر ، والبراز ، وغيرها من المواد تعالج « بكواشف » متنوعة ، وتعرض لعمليات التكليس ، والتصعيد ، وللضوء ، والنار ، عليها أن يكون فيها ذلك الإكسير السحري^(٣٦) . وكان الاعتقاد السائد أن الذي يستحوذ على هذا الإكسير يستطيع إذا شاء أن

(*) الكحول كلمة عربية ولكن هذه المادة ليست من مخترعات العرب . وقد ذكر أول ما ذكر في مؤلف إيطالي ظهر في القرن التاسع أو العاشر (٣٥) الميلادي ، وكان الكحل عند المسلمين مسحوقاً تظلي به الحواجب .

يطيل حياته : وكان أشهر الكيميائيين المسلمين جابر بن حيان (٧٠٢ - ٧٦٥) المعروف عند الأوربيين باسم جبير Gebir . وكان جابر ابن عقار كوفى ، اشتغل بالطب ، ولكنه كان يقضى معظم وقته مع الأنابيق والبوادق . ويعزو إليه المؤرخون مائة من المؤلفات أو أكثر من مائة ، ولكنها فى الواقع من عمل مؤلفين مجهولين عاش معظمهم فى القرن العاشر : وقد ترجم كثير من هذه المؤلفات التى لا يعرف أصحابها إلى اللغة اللاتينية وكان لها الفضل فى تقدم علم الكيمياء فى أوروبا : وحل السحر بعد القرن العاشر محل الكيمياء كما حل محل غيرها من العلوم ، وقضى ذلك العلم بعدئذ ثلثمائة عام لا يرفع فيها رأسه .

وليس لدينا إلا القليل من بقايا علم الأحياء عند المسلمين فى ذلك العصر . ومن هذه الآثار كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى الذى رجع فيه إلى مؤلفات ديوسقوريدس ولكنه أضاف فيه إلى علم الصيدلة عقاير أخرى كثيرة . وقد عرف علماء الأحياء المسلمون طريقة إنتاج فواكه جديدة بطريق التطعيم ، وجمعوا بين شجرة الورد وشجرة اللوز ، وأوجدوا بذلك التطعيم أزهاراً نادرة جميلة المنظر^(٣٧) : وشرح عثمان بن عمر الجاحظ (المتوفى سنة ٨٦٩) نظرية فى التطور شبيهة بنظرية المسعودى فقال إن الحياة قد ارتقت من الجماد إلى النبات ، ومن النبات إلى الحيوان ، ثم من الحيوان إلى الإنسان^(٣٨) : واعتنق الشاعر الصوفى جلال الدين هذه النظرية ، ولم يضيف إليها إلا قوله إنه إذا كان هذا مستطاعاً فى الماضى ، فإن الناس فى المرحلة الثانية سيصيحون ملائكة ثم يرقون إلى مرتبة الإله^(٣٩) . هـ

الفصل الثالث

الطب

وما فقى الناس في هذه الأثناء يخبون الحياة ، وينفقون الأموال الطائلة في تأخير ساعة الموت ، وإن كانوا دائمى الاقتراء عليها والتنديد بها . ولم يكن العرب حين دخلوا بلاد الشام يعرفون من الطب إلا معلومات بدائية ، ولم يكن لديهم من الأدوات والأجهزة الطبية إلا القليل الذى لا يغنى . فلما أن ازدادت الثروة نشأت في الشام وفارس طائفة من الأطباء ، واسعة العلم ، عظيمة المقدرة ، أو استقدمت من بلاد اليونان والهند . . . وإذ كان المسلمون يستنكفون من تشريح الأجسام الحية . أو جثث الموتى فإن علم التشريح عند المسلمين قد اقتصر على ما جاء في كتب جالينوس ، أو على دراسة الجرحى من الناس ؛ ومن أجل هذا كان أضعف فروع الطب الإسلامى هو الجراحة ، وكان أقواها هو الطب العلاجى وخواص العقاقير الطبية . وقد أضاف العرب إلى علم الأقرباذين العنبر ، والكافور ، وخيار الشبر ، والقرنفل العطرى ، والزئبق ، والسنالكى ، والمر ، وأدخلوا في الأدوية مستحضرات طبية جديدة - منها أنواع الشراب ، والجلاب ، وماء الورد وما إليها . وكان من أهم الأعمال التجارية بين إيطاليا والشرق الأدنى استيراد العقاقير العربية . وكان المسلمون أول من أنشأ مخازن الأدوية والصيدليات ، وهم الذين أنشأوا أول مدرسة للصيدلة ، وكتبوا الرسائل العظيمة في علم الأقرباذين . وكان الأطباء المسلمون عظيمى التحمس في دعوتهم إلى الاستحمام ، وخاصة عند الإصابة بالحُميات^(٤٦) ، وإلى استخدام حمام البخار ، ولا يكاد الطب الحديث يزيد شيئاً على ما وصفوه من العلاج للجدرى والحصبية ؛ وقد استخدموا التخدير بالاستنشاق في بعض العمليات الجراحية^(٤٧) ؛ واستعانوا بالحشيش وغيره من

المخدرات على النوم العميق^(٤٣) ، ولدينا أسماء أربعة وثلاثين بيارستانا كانت قائمة في البلاد الإسلامية في ذلك الوقت^(٤٤) ، ويلوح أنها أنشئت على نمط المجمع العلمي والمستشفى الفارسي الذي كان في جنديسابور ، وأنشئ أول بيارستان معروف لنا في بغداد في أيام هرون الرشيد ، ثم أنشئت فيها خمسة أخرى في القرن العاشر الميلادي ، ويحدثنا المؤرخون في عام ٩١٨ عن مدير لها في بغداد^(٤٥) : وكان أعظم بيارستانات بلاد الإسلام على بكرة أبيها هو البيارستان الذي أنشئ في دمشق عام ٧٠٦ ، وفي عام ٩٧٨ كان به أربعة وعشرون طبيباً . وكانت البيارستانات أهم الأماكن التي يدرس فيها الطب ، ولم يكن القانون يميز لإنسان أن يمارس هذه الصناعة إلا إذا تقدم إلى امتحان يعقد لهذا الغرض ونال إجازة من الدولة . كذلك كان الصيادلة ، والحلاقون ، والمجربون يخضعون لأنظمة تضعها الدولة وللتفتيش على أعمالهم . وقد نظم على ابن عيسى الوزير - الطبيب - هيئة من الأطباء الموظفين يطوفون في مختلف البلاد ليعالجوا المرضى (٩٣١) ، وكان أطباء يذهبون في كل يوم إلى السجون ليعالجوا نزلاءها ، وكان المصابون بأمراض عقلية يلقون عناية خاصة ويعالجون علاجاً يمتاز بالرحمة والإنسانية . غير أن الوسائل الصحية العامة لم تلق في معظم الأماكن ما هي خافية به من العناية ، ودليلنا على ذلك أن أربعين وباء اجتاحت في أربعة قرون هذا البلد أو ذاك من بلاد الإسلام .

وكان في بغداد وجدها عام ٩٣١ ثمانمائة وستون طبيباً مرخصاً^(٤٦) . وكانت أجورهم ترتفع بنسبة قربهم من بلاط الخلفاء . فقد جمع جبريل بن بختيشوع طبيب هرون الرشيد ، والمأمون ، والبرامكة ثروة يبلغ مقدارها ٨٨٠٠٠٠٠٠٠ درهم أي نحو ٧١٠٤٠٠٠٠ دولار أمريكي) ، ويحدثنا المؤرخون أنه كان يتقاضى من الخليفة مائة ألف درهم نظير حجامته مرتين في العام ، ومثل هذا المبلغ لإعطائه مسهلاً كل نصف عام^(٤٧) . وقد نجح في علاج الشلل المستعصي في جارية

بأن تظاهر بأنه سيخلع عنها ملابسها أمام الناس . وجاء بعد جبريل في بلاد الإسلام الشرقية عدد من الأطباء كل منهم بعد الآخر ، نذكر منهم يوحنا ابن ماسويه (٧٧٧ - ٨٥٧) ، الذي درس التشريح بتقطيع أجسام القردة ، ومنهم حنين بن إسحاق ، المترجم ، صاحب كتاب العسر مقاروت في العين ، وهو أقدم كتاب دراسي منظم في طب العيون ؛ وعلى بن عيسى أعظم أطباء العيون المسلمين ، وقد ظل كتابه تذكرة السكhalين يدرس في أوربا حتى القرن الثامن عشر .

وأشهر أطباء هذه الأسرة الرحيمة على بكرة أبيها هو أبو بكر محمد الرازي (٨٤٤ - ٩٢٦) اشتهر بين الأوربيين باسم رازيس Rhases . وكان أبو بكر كمعظم كبار العلماء والشعراء في وقته فارسياً يكتب بالعربية . وكان مولده في بلدة الري القريبة من طهران ، ودرس الكيمياء بنوعها ، والطب في بغداد ، وألف ١٣١ كتاباً نصفها في الطب ، ضاع معظمها . ومن أشهر كتبه كتاب الحاوي وهو كتاب في عشرين مجلداً ، ويبحث في كل فرع من فروع الطب . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية وسمى Liber continens ، وأغلب الظن أنه ظل عدة قرون أعظم الكتب الطبية مكانة ، وأهم مرجع لهذا العلم في بلاد الرجل الأبيض ، وكان من الكتب التسعة التي تتألف منها مكتبة الكلية الطبية في جامعة باريس عام ١٣٩٤ (٤٨) . وكانت رسالته في الجلدري والحصبة آية في الملاحظة المباشرة والتحليل الدقيق ، كما كانت أولى الدراسات العلمية الصحيحة للأمراض المعدية ، وأولى مجهود يبذل للفرقة بين هذين المرضين . وفي وسعنا أن نحكم على ما كان لهذه الرسالة من بالغ الأثر واتساع الشهرة إذا عرفنا أنها طبعت باللغة الإنجليزية أربعين مرة بين عامي ١٤٩٨ ، ١٨٦٦ . وأشهر كتب الرازي كلها كتاب طبي في عشر مجلدات يسمى كتاب المنصوري

أهداه إلى أحد أمراء خراسان . وقد ترجمه جرار الكريموني إلى اللغة اللاتينية . وظل المجلد التاسع من هذا الكتاب وهو المعروف عند الغربيين باسم *Nonus Almansoria* متداولاً في أيدي طلاب الطب في أوروبا حتى القرن السادس عشر . وقد كشف الرازي طرقاً جديدة في العلاج كمرهم الزئبق ، واستخدام أمعاء الحيوان في التطيب . وهذا من تحمس الأطباء لتحليل البول في عصر أقبل فيه الأطباء على تشخيص كل مرض بالفحص على بول المريض ، دون أن يروه في بعض الأحيان . ولا تخلو بعض مؤلفاته القصيرة من ظرف ودعابة ؛ ومن هذا النوع رسالته « في أن الطبيب الحاذق ليس هو من قدر على إبراء جميع العلل وإن ذلك ليس في الوسع » ورسالته الأخرى « العيلة التي من أجلها ينجح جهال الأطباء والعوام والنساء في المدن في علاج بعض الأمراض أكثر من العلماء وعذر الطبيب في ذلك » . ولقد كان الرازي بإجماع الآراء أعظم الأطباء المسلمين وأعظم علماء الطب السريري (الكلينيكي) في العصور الوسطى (٤٩) . ومات الرجل فقيراً في الثانية والثمانين من عمره .

وقد علق في مدرسة الطب بجامعة باريس صورتان ملونتان لطبيبين مسلمين هما : الرازي وابن سينا . وكان أبو علي الحسين بن سينا (٩٨٠-١٠٣٧) أعظم فلاسفة الإسلام وأشهر أطبائه ، وتشهد سيرته التي كتبها بيده - وذلك النوع من السير نادر في الأدب العربي - بكثرة ما كان يحدث في العصور الوسطى من تقلب في حياة العلماء والحكماء . فقد كان ابن سينا ابن أحد الضيافة في بخارى ، وتلقى العلم على معلمين خصوصيين ، كان لهم أثر فيما ينطوي عليه عقابه العلمي من نزعة صوفية . ويقول عنه ابن خلكان بشيء من المغالاة المألوفة عند المؤرخين العرب إنه لما بلغ عشر سنين من عمره « كان قد أتقن علم القرآن العزيز والأدب وحفظ أشياء من أصول الدين وحساب الهند والجبر والمقابلة » (٥٠) .

وقد تعلم الطب من غير مدرس ، وأخذوه وشاب يعالج المرضى من غير أجر

وشفي وهو في السابعة عشرة من عمره نوح بن منصور أمير بخارى من مرضه ، وعين في منصب في بلاطه ، وكان يقضى في الدرس ساعات طوالاً في مكتبة السلطان الضخمة : ولما قضى على سلطان السامانيين في أواخر القرن العاشر الميلادي لحأ ابن سينا إلى بلاط المأمون أمير خوارزم . ولما استدعى محمود الغزنوي ابن سينا والبيروني وغيرها من جهابذة العلماء في بلاط المأمون ، لم يطع ابن سينا أمره ، وفر هو وزميل له من العلماء إلى الصحراء . وهبت عليهما عاصفة رملية مات فيها زميله ، ونجا ابن سينا ووصل إلى جرجان بعد أن قاسى كثيراً من الصعاب ، وفيها عين في منصب في بلاط قابوس . ونشر محمود الغزنوي في بلاد الفرس صورة لابن سينا ، ووعد من يقبض عليه بجائزة سخية ، ولكن قابوس حماه من عيون الأمير . ولما قتل قابوس دعى ابن سينا لعلاج أمير همذان ، وشفي الأمير على يديه فاتخذته وزيراً له ، ولكن الجيش لم يرتح لحكمه ، فقبض عليه ، ونهب بيته ، وأراد أن يقتله . واستطاع ابن سينا أن يفلت منهم ويختبئ في بيت صيدلي ، وبدأ وهو في غيبته يؤلف كتبه التي كانت سبباً في شهرته . وبينما هو يدبر لنفسه أمر الفراز سراً من همذان قبض عليه ابن الأمير وزج به في السجن حيث قضى عدة أشهر واصل فيها التأليف . واستطاع مرة أخرى أن يفر من السجن ، وتحنى في زى أحد رجال الطرق الصوفية ، وبعد عدة مغامرات لا تتسع لها صحائف هذا الكتاب وجد له ملجأ في بلاط علاء الدولة البويهى أمير إصفهان ، ورجب به الأمير وكرمه ، وهنا التفت بحوله جماعة من العلماء والفلاسفة وأخذوا يعقدون مجالس علمية برياسة الأمير نفسه . ويستدل من بعض القصص التي وصلت إلينا أن فيلسوفنا كان يستمتع بملاذ الحب ، كما يستمتع بملاذ الدرس . غير أن قصصاً تصوره لنا مكباً بالليل والنهار على الدرس ، والتعليم ، والشئون العامة ، وينقل لنا ، ابن خلكان نصائح له قيمة لا تبلى جدتها :

اجعل غذاءك كل يوم مرة واحذر طعاماً قبل هضم طعام
واحفظ منيك ما استطعت فإنه ماء الحياة يراق في الأرحام

وأثرت حياة الكدح في صحته فمات في السابعة والخمسين من عمره وهو
مسافر إلى همدان ، حيث لا يزال قبره موضعاً للإجلال والتكريم .
ولقد وجد ابن سينا في صروف حياته ، في مناصبه أو في سجنه ،
متبعاً من الوقت لتأليف مائة كتاب بالفارسية أو العربية تحدث فيها عن
كل فرع تقريباً من فروع العلم والفلسفة . هذا إلى أن له قصائد من الشعر
الجليد وصلت إلينا منها خمس عشرة قصيدة انزلت واحدة منها إلى رباعيات
عمر الخيام ، ومنها قصيدته العينية في النفس وهبوطها إلى الجسم من عالم
علوى ومطلعها :

هبطت عليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع (*)

ولا يزال الطلاب في بلاد الشرق الإسلامي حتى اليوم يحفظونها عن
ظهر قلب . وقد ترجم كتاب إقليدس في الهندسة ووضع عدة أزياج
فلكية ، وابتكر آلة شبيهة بالورنية المعروفة عندنا اليوم . وله دراسات
مبتكرة في الحركة ، والطاقة ، والفراغ ، والضوء ، والحرارة ، والكثافة
النوعية . وله رسالة في المعادن بقيت حتى القرن الثالث عشر أهم مصادر
علم طبقات الأرض عند الأوربيين . وقد كتب فيها عن تكوين الجبال
كتابة تعد أ نموذجاً للوضوح في العلم . فقد قال إن الجبال قد تنشأ من
سببين مختلفين : فقد تكون نتيجة اضطرابات في القشرة الأرضية كما
يحدث في أثناء الزلازل العنيفة ، وقد تكون نتيجة لفعل المياه التي
تشق لنفسها طريقاً جديداً بنحت الأودية . ذلك أن طبقات الأرض مختلفة
في أنواعها ؛ فمنها الهش ومنها الصلب ، والرياح والمياه تفتتان النوع الأول

(*) ومنها :

محبوبة عن كل مقلة عارف
وصلت على كره إليك وربما
وهي التي سفرت ولم يتبرقع
كرهت فراقك وهي ذات تفجع

لكنهما تركان صخور النوع الثاني على حالها . وهذا التحول يحتاج إلى آجال طوال . . . ولكن وجود البقايا المتحجرة للحيوانات المائية في كثير من الجبال يدل على أن المياه هي أهم الأسباب التي أحدثت هذه النتائج (٥٢).

ولابن سينا كتابان يشتملان على تعاليمه كلها أولها كتاب الشفاء (شفاء النفس) ، وهو موسوعة في ثمانية عشر مجلداً في العلوم الرياضية ، والطبيعة ، وما وراء الطبيعة ، وعلوم الدين ، والاقتصاد ، والسياسة ، والموسيقى ، وثانيهما كتاب القانون في الطب ، وهو بحث ضخم في وظائف الأعضاء ، وعلم الصحة ، والعلاج ، والأقرباذين ، يتطرق من حين إلى حين إلى الموضوعات الفلسفية . وكتاب القانون حسن التنسيق يرقى في بعض الأحيان إلى درجة كبيرة في البلاغة ، ولكن شغفه الشديد بالتصنيف والتميز يصح عنده آفة لا يجد لها الرئيس دواء . ويبدأ المؤلف بتحذير لا يشجع على دراسته إذ يقول إن كل من يتبع تعاليمه ويريد أن يفيد منها يجب عليه أن يحفظ عن ظاهر قلب (١٥٢) هذا الكتاب الذي يحتوي ألف ألف كلمة . والطب في رأيه هو فن إزالة العقبات التي تعترض طريق عمل الطبيعة السوى . وهو يبحث أولاً في الأمراض الخطيرة فيصف أعراضها ، وتشخيصها ، وطرق علاجها . وفي الكتاب فصول عن طرق الوقاية والوسائل الصحية العامة والخاصة ، والعلاج بالحقن الشرجية ، والحجامة ، والكفي ، والاستحمام ، والتدليك . وهو ينصح بالتنفس العميق ، وبالصباح من حين إلى حين لتقوية الرئتين والصدر - واللهاة . ويلخص الكتاب الثاني ما عرفه اليونان والعرب عن النباتات الطبية . ويبحث الكتاب الثالث في بعض الأمراض وطبائعها ، وفيه بحوث قيمة ممتازة عن التهاب البلورا والذئيلة(*) ، والزلات المعوية ، والأمراض التناسلية ، وفساد الشهوة ، والأمراض العصبية ، بما فيها العشق ،

(*) هذا هو الاسم الذي يطلقه ابن سينا على هذا المرض ويسميه أبو القاسم الزهراوى الذئيلة بالذال المنقوطة وهو معروف بالأمهيمما أى تجمع الصديد في جوف البلورا . (المترجم)

ويبحث الكتاب الرابع في الحميات ، وفي الجراحة ، وأدهان التجميل ،
ووسائل العناية بالشعر والجلد . وفي الكتاب الرابع - الخاص بعلم العقاقير
الطبية - تعليقات مفصلة عن طرق طبخ سبعمائة وستين نوعاً من العقاقير .
وحل كتاب القانون بعد ترجمته إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر محل
كتب الرازى وجالينوس ، وأصبح هو الذى يعتمد عليه في دراسة الطب
في المدارس الأوربية . وقد احتفظ فيها بمكانته العالية ، وظل الأساتذة
يشيرون على الطلاب بالرجوع إليه في جامعتي منبلييه ولوفان إلى أواسط
القرن السابع عشر .

وجملة القول أن ابن سينا أعظم من كتب في الطب في العصور الوسطى ،
وأن الرازى أعظم أطبائها ، والبيرونى أعظم الجغرافيين فيها ، وابن الهيثم
أعظم علمائها في البصريات ، وجابر بن حيان أعظم الكيميائيين فيها . تلك
أسماء خمسة لا يعرف عنها العالم المسيحي في الوقت الحاضر إلا القليل ، وإن عدم
معرفتنا إياها ليشهد بضيق نظرتنا وتقصيرنا في معرفة تاريخ العصور الوسطى .
وليس في وسعنا مع هذا أن نحاجز أنفسنا عن القول بأن العلوم العربية كثيراً
ما تلوت بالأوهام شأنها في هذا شأن سائر العصور الوسطى ، وأن تفوقها
كلها - عدا علم البصريات - يرجع إلى التركيب والبناء من النتائج التي تجمعت
لديها أكثر من تفوقها في الكشوف المبتكرة أو البحوث المنظمة ؛ لكنها مهما
يكن قصورها في هذه الناحية قد نمت في علم الكيمياء الطريقة التجريبية
العلمية ، وهي أهم أدوات العقل الحديث وأعظم مفاخره . ولما أن أعلن
روجر بيكن هذه الطريقة إلى أوروبا بعد أن أعلنها جابر بن حيان عام ١٠٠٠ كان
الذى هداه إليها هو النور الذى أضاء له السبيل من عرب الأندلس ، وليس
هذا الضياء نفسه إلا قبساً من نور المسلمين في الشرق .

الفصل الرابع

الفلسفة

لقد استعار الإسلام في الفلسفة ، كما استعار في الطب ، من بلاد الشام المسيحية ما خلفته بلاد اليونان الوثنية ، ثم رد هذا الدين إلى أوربا. المسيحية عن طريق الأندلس الإسلامية . وكانت هناك بطبيعة الحال عوامل كثيرة هي التي أدت مجتمعة إلى ثورة المعتزلة ، وإلى فلسفات الكندي ، والفارابي ، وابن سينا ، وابن رشد . فقد جاءت أفكار الهند إلى بلاد الإسلام عن طريق غزنة وفارس ، وكان للأراء الزردشتية واليهودية عن الحشر والحساب بعض الأثر في الفلسفة الإسلامية ؛ وكان الملاحدة المسيحيون قد أثاروا عجاج الجدل في بلاد الشرق الأدنى في صفات الله ، وفي طبيعة المسيح وكلمة الله ، وفي الجبرية والقدرية ، والوحي والعقل . لكن العامل الذي كان له أكبر الأثر في التفكير الإسلامي في آسية - كما كان له أكبر الأثر في إيطاليا أيام النهضة - هو كشف آثار اليونان الفكرية من جديد ؛ فقد أدى هذا الكشف - وإن أتى عن طريق التراجم الناقصة المعيبة لنصوص مشكوك في صحتها - إلى ظهور عالم جديد : عالم كان الناس يفكرون فيه في كل شيء ولا يخشون أن يصيبهم أذى بسبب هذا التفكير ، ولا تقيد عقولهم نصوص الكتب المقدسة ، ولا يرون أن السماء والأرض وما بينهما قد خلقت عبثاً(*) أو أنها وجدت بمعجزة من المعجزات التي لا تستند إلى قانون من قوانين العقل ، بل يرون أنها تستند إلى قانون عام عظيم

(*) لم يكن هذا التفكير مقصوداً على اليونان وحدهم ، بل قد جاء به القرآن نفسه في عدة آيات : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين » : سورة الأنبياء : ١٦ ؛ وسورة ص : ٢٧ وسورة الحجر : ٨٥ ؛ وسورة الدخان : ٣٨ .

يحكمها جميعاً وتتضح آثاره في كل جزء من أجزاء الكون . وقد افتن المسلمون بالمنطق اليوناني في صورته الكاملة الواضحة التي جاء بها كتاب أرفغانون (الآلة الفكرية) لأرسطو وبعد أن أتبع لهم الفراغ الذي لا بد منه للتفكير ، ووجدوا فيه الأدوات التي يحتاجونها لتفكيرهم ؛ وظل المسلمون ثلاثة قرون طوال يحاجون بالمنطق وتسلب لهم بهجة الفلسفة المحبية كما سلبت لب الشباب في أيام أفلاطون . وسرعان ما أخذ صرح العقائد التفسيرية يتصدع وينهار ، كما أنهارت العقائد اليونانية بتأثير بلاغة السوفسطائيين ، وكما ضعفت العقائد المسيحية وتزعزعت قواعدها تحت ضربات أصحاب الموسوعات الفرنسيين وسخرية فلتير اللاذعة .

وكانت البداية التقريبية للعهد الذي نستطيع أن نسميه عهد الاستنارة الإسلامية هي الجدل الذي ثار حول موضوع عجيب هو موضوع خالق القرآن . ذلك أن عقيدة فيلون في الكلمة وقوله إنها هي حكمة الله الأبدية ، وما جاء به الإنجيل الرابع من أن المسيح هو كلمة الله أو العقل القدسي : « في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله ، هذا كان في البدء عند الله ، كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان » (٥٣) ، وعقيدة المسيحيين العارفين (*) وأتباع الأفلاطونية الحديثة الذين يجسدون الحكمة الإلهية ويقولون إنها هي أداة الخلق الفعالة ، وعقيدة اليهود في أزلية التوراة . كل هذه الآراء قد أوجدت عند المسلمين السنيين عقيدة مماثلة تقول إن القرآن كان على الدوام موجوداً في عقل الله ، وإن نزوله على محمد كان هو دون غيره حادثاً في زمان معين ، وكانت نشأة الفلسفة في الإسلام على يد المعتزلة الذين ينكرون قدم القرآن ، وهم يجهدون باحترامهم لكتاب الله (الكريم) ولكنهم يقولون إنه إذا تعارض هو

(*) القائلين بأن الخلاص بالمعرفة لا بالإيمان . (المترجم)

أو الحديث مع العقل وجب ألا يفسر تفسيراً حرفياً بل مجازياً ، وأطلقوا على هذه الجهود التي يحاولون بها التوفيق بين العقل والدين اسم **السلام** أى المنطق . وقد بدا لهم أن من السخف أن تؤخذ بحرفيتها العبارات الواردة فى القرآن والتي تقول إن الله يدين وقدمين ، وإنه يفضب ويكره ، وقالوا إن تشبيه الله بالكائنات البشرية على هذا النحو الشعري ، إذا كان يتفق مع أغراض النبي الأخلاقية والسياسية فى أيام الرسالة ، لا يمكن أن يقبله المتعلمون المستنبرون فى أيامهم ، وإن العقل البشرى عاجز كل العجز عن معرفة طبيعة الله وصفاته الحقة ، وكل ما يستطيعه أن يقبل ما جاء به الدين من إثبات وجود قوة روحية عليا هى أساس الحقائق عامة . وفضلا عن هذا فقد كان المعتزلة يرون أن من الخطر الشديد على أخلاق الناس وأعمالهم أن يؤمنوا كما يؤمن عامة المسلمين بأن الحوادث كلها مقدره تقديراً كاملاً من عند الله ، وأن الله قد اختار منذ الأزل من سينتاب ومن سيعذب .

وانتشرت عقائد المعتزلة بهذه الصورة وبما أدخل عليها من الصور الأخرى التي يخططها الحصر أثناء خلافة المنصور ، وهرون الرشيد ، والمأمون ؛ واعتنق هذه المبادئ العقلية الجديدة سراً فى بادىء الأمر عدد من العلماء والخارجين على الدين ، ثم جهر بها رجال فى ندوة الخلفاء المسائية ، ثم وجدت من يدعو إليها فى المحاضرات التي تلتى فى المدارس والمساجد ، بل تغلبت فى أماكن متفرقة على غيرها من الآراء . وافتتن المأمون نفسه بهذه النزعة العقلية الآخذة فى القوة ، وبسط عليها حمايته ، وانتهى الأمر بأن جعل عقائد المعتزلة مذهب الدولة الرسمي . ذلك أن المأمون مزج بعض عادات الملكية الشرقية بآخر الآراء الإسلامية المستمدة من الثقافة اليونانية ، وأصدر فى عام ٨٣٢ أمراً يفرض فيه على جميع المسلمين أن يعتقدوا بأن القرآن قد خلق فى وقت بعينه ، وأتبع هذا بأمر آخر يقضى بالأعين قاضياً فى المحاكم من لا يعلن قبوله لهذه العقيدة الجديدة أو أن

تقبل فيها شهادته . وصدرت بعد هذين القرارين قرارات أخرى تحتم قبول عقيدة حرية الإرادة ، وعجز النفس البشرية عن رؤية الله رأى العين ، وانتهى الأمر بأن جعل رفض هذه العقائد من الجرائم التي يعاقب مرتكبها بالإعدام .

وتوفى المأمون في عام ٨٣٣ ولكن المعتصم والوائق اللذين توليا الخلافة بعده واصلوا هذه الحملة الفكرية ، وقاوم الإمام ابن خنبل هذا الاضطهاد الفكرى وندد به ؛ ولما استدعى لمناقشته في أمر المبادئ الجديدة أجاب عن كل ما وجه إليه من الأسئلة بإيراد شواهد من القرآن تؤيد آراء أهل السنة ، فضرب حتى أغمى عليه ، وألقي في السجن ، ولكنه أصبح في عين المسلمين بسبب هذا التعذيب من الشهداء والأولياء الصالحين ، وكان تعذيبه هذا من العوامل التي مهدت السبيل للانتفاض على الفلسفة الإسلامية .

وكانت هذه الفلسفة قد أخرجت في ذلك الوقت أول داع كبير لها وهو أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندي الذى ولد في الكوفة عام ٨٠٣ م . وكان والد الكندي من ولاية الأعمال في المدينة ؛ وتلقى هو العلم فيها وفي بغداد ، وذاعت شهرته في الترجمة ، والعلم والفلسفة في بلاط المأمون والمعتصم ، ونبغ مثل الكثيرين من أمثاله في مجد الإسلام الفكرى في عدد كبير من العلوم ، فدرس كل شيء ، وكتب ٢٦٥ رسالة في كل شيء - في الحساب والهندسة النظرية ، والهيئة ، والظواهر الجوية ، وتقويم البلدان ، والطبيعة ، والسياسة ، والموسيقى ، والطب ، والفلسفة . . . وكان يرى ما يراه أفلاطون من أنه ليس في وسع إنسان أن يصبح فيلسوفاً من غير أن يكون قبل ذلك عالماً في الرياضة ؛ وحاول أن يبنى علم الصحة ، والطب ، والموسيقى على نسب رياضية . وقد درس فيما درس ظاهرة المد والجزر ، وبحث القوانين التي تحدد سرعة الأجسام الساقطة في الهواء ، كما بحث ظاهرة الضوء في كتابه عن البصريات الذى كان له أكبر الأثر في

روجر بيكن Roger Bacon . (وقد أدهش الكندي العالم الإسلامي برسالته في الدفاع عن المسيحية)^{(٥٥)*} واشترك هو وزميل له في ترجمة كتاب أرسطو في الإلهيات (أو ثولوجيا) . وثأثر الكندي أشد التأثر بهذا الكتاب المنحول وسره كل السرور أنه يوفق بين أرسطو وأفلاطون إذ يجعل كليهما من أتباع الأفلاطونية الجديدة . ذلك أن فلسفة الكندي نفسه هي الأفلاطونية الجديدة مصبوغة صبغة جديدة : فالنفس عنده على ثلاث مراتب : الله ، ونفس العالم الخلاقة ، والنفس البشرية التي هي فيض من هذه النفس الثانية . وإذا استطاع الإنسان أن يدرب نفسه على العلم الحق استطاع أن ينال الحرية والخلود . ويلوح أن الكندي قد حاول ما استطاع أن يبتعد عن آراء المعتزلة وأن يعتقد آراء أهل السنة ، ولكنه أجذب عن أرسطو^(٥٦) التفرقة بين العقل الفاعل أى العقل الإلهي ، وعقل الإنسان المنفعل الذي لا يعدو أن يكون هو القدرة على التفكير . ونقل ابن سينا هذا التفريق إلى ابن رشد الذي أثار به العالم واتخذه حجة ضد القائلين بالخلود الفردي . وانتهى الكندي بالانضمام إلى المعتزلة ، فلما قام عليهم أهل السنة صودرت كتبه ، وكاد يقضى على حياته ، ولكنه نجا من هذه العاصفة ، واسترد مكتبته ، وعاش حتى عام ٨٧٣ .

إن المجتمع الذي يرتبط فيه نظام الحكم ، والقانون ، والأخلاق بالعقيدة الدينية يرى في كل خروج على تلك العقيدة تهديداً خطيراً للنظام الاجتماعي نفسه . ولقد عادت إلى النشاط من جديد جميع القوى التي طغى عليها الفتح العربي

(*) ليس للكندي الفيلسوف رسالة في الدفاع عن المسيحية . أما كاتب هذه الرسالة فهو عبد المسيح بن إسحق الكندي ، وقد كتبها رداً على رسالة بعث بها إليه عبد الله بن إسماعيل الهاشمي يدعوها إلى الإسلام ، فبعث هو إليه بهذه الرسالة يدعو عبد الله إلى النصرانية . وقد اختلط الأمر على المؤلف لتشابه الاسمين . وقد ورد ذكر الرسالتين في كتاب الآثار الباقية للبيروني . (المترجم)

وهي الفلسفة اليونانية والمسيحية الغنوسطية ، والقومية الفارسية ، والشيعوية المزدكية ؛ وكان نشاطها عنيفاً ، فأخذت تجادل في القرآن ، وجهرت شاعر فارسي بأن شعره أعلى منزلة من القرآن نفسه ، فكان جزاؤه على قوله هذا قطع رأسه (٧٨٤) (٥٧) ، وبدا أن صرح الإسلام القائم على القرآن قد أصبح وشيك الانهيار . غير أن عوامل ثلاثة في هذه الأزمة الشديدة جعلت النصر النهائي لأهل السنة : وهذه العوامل هي وجود خليفة محافظ مستمسك بدينه ، واشتداد ساعد الحرس التركي ، وولاء الناس الطبيعي لعقائدهم الموروثة . فلما أن تولى المتوكل على الله الخلافة في عام ٨٤٧ استمد العون من الشعب ومن الأتراك . وكان الترك حديثي العهد بالإسلام ، حاقدين على الفرس ، غريبين عن الفكر اليوناني ، فاندفعوا بكل ما فيهم من قوة لتأييد السياسة التي ترمي إلى نصره الدين بحد السيف . فنقض المتوكل السياسة الحرة العنيفة التي جرى عليها المأمون ، وألغى ما أصله فيها من المراسيم ، وأخرج المعتزلة وغيرهم من الملحدين من مناصب الدولة والوظائف التعليمية ، وحرم الجهر بالآراء المخالفة لآراء أهل السنة في الأدب والفلسفة ، وسنّ قانوناً يحتم القول بأن القرآن أزلّ غير مخلوق ، واضطهد الشيعة وهدم مشهد الحسين في كربلاء (٨٥١) . وجدد المتوكل الأمر المعزول إلى عمر بن الخطاب ضد المسيحيين ، والذي وسعه هرون الرشيد حتى شمل اليهود (٨٥٠) ، ثم أهمل العمل به بعيد صدوره ، جدد المتوكل هذا الأمر ففرض على اليهود والمسيحيين أن يلبسوا ثياباً من لون خاص تميزهم من غيرهم من أفراد الشعب ، وأن يضعوا رقعاً ملونة على أكتاف أثواب عبدهم ، وألا يركبوا غير البغال والحمر ، وأن يثبتوا صوراً خشبية للشيطان على أبواب بيوتهم ، وأمر بهدم جميع الكنائس والمعابد المسيحية واليهودية الجديدة ، وحرم رفع الصليب علناً في المواكب المسيحية ، ولم يسمح لمسيحي أو يهودي أن يتلقى العلم في المدارس الإسلامية .

واتخذ رد الفعل في الجيل التالي صورة أقل عنفاً من هذه الصورة السابق

وصفها . فقد قام جماعة من العلماء السنين وجهروا في شجاعة بقبول حكم المنطق في الجدل القائم ، وعرضوا أن يثبتوا بالرجوع إلى العقل صدق العقائد الأصلية . وهؤلاء المتكلمون (المناطق) في الإسلام يشبهون الفلاسفة المدرسين في أوروبا في العصور الوسطى ، وقد حاولوا أن يوفقوا بين العقائد الدينية والفلسفة اليونانية كما حاول ابن ميمون ذلك في القرن الثاني عشر بالنسبة لليهودية ، وتومس أكوناس في القرن الثالث عشر بالنسبة للمسيحية . وظل أبو الحسن الأشعري (٨٧٣ - ٩٣٥) يعلم الناس مبادئ المعتزلة نحو عشر سنين في البصرة ، ولكنه انقلب عليهم حين بلغ الأربعين من عمره ، وهاجمهم بسلاحهم هم أنفسهم ، وهو سلاح المنطق ، وسلط عليهم سيلا جارفاً من الجدل القوي كان له أكبر الأثر في انتصار عقائد أهل السنة . وقد آمن أبو الحسن إيماناً قويا بمبدل الجبرية فقال إن الله قدر منذ الأزل كل عمل وكل حادث ، وإنه علّمها كلها ، وإنه يعلو على القوانين والأخلاق ، وإنه يصرف شئون خلقه كما يشاء ، فإذا بعث بهم جميعاً إلى النار فليس في ذلك خطأ قط (٥٩) .

ولم يرض أهل السنة كلهم بإخضاع الدين إلى هذا الجدل العقلي ، ونادى كثيرون منهم بمبدل « بلا كيف » أي أن من واجب الإنسان أن يؤمن دون أن يسأل كيف يكون هذا الإيمان (٦٠) ، وامتنع معظم علماء الدين عن الجدل في الموضوعات الأساسية ولكنهم اندفعوا يجادلون في التفاصيل الجزئية لعقيدة اتخذوا مبادئها الأساسية بدائمه يسلمون بها دون مناقشة .

وهكذا هدأت موجة الفلسفة في بغداد ، ولكنها ثارت في الوقت نفسه في العواصم الإسلامية الصغرى ، فوهب سيف الدولة أبا نصر الفارابي بيتا في بغداد ، وكان الفارابي أول من نبغ وانتشر صيته من العلماء الأتراك . كان مولده في فوارب إحدى ولايات التركستان ، ودرس المنطق في بغداد على معلمين مسيحيين

وقرأ كتاب الطبيعة لأرسطو أربعين مرة ، وكتاب النفس مائتي مرة ،
وزمى بالزندقة في بغداد ، وارتدى ملابس المتصوفة ، واعتنق مبادئهم ،
وعاش كما يعيش طير الهواء . ويقول عنه ابن خلكان إنه « كان أزهق
الناس في الدنيا لا يحتفل بأى مكسب ولا مسكن » (٦١) .

وسأله سيف الدولة عما يكفيه من المال فقال الفارابي إنه يكفيه أربعة
دراهم في اليوم « فأجرى عليه الأمير هذا القدر من بيت المال واقتصر
عليها لقناعته ولم يزل كذلك إلى أن توفى » .

وقد نبى من مؤلفات الفارابي تسعة وثلاثون كتاباً كثير منها شروح
لأرسطو وتعليقات على آرائه . وقد لخص في كتابه إحصاء العلوم علم
عصره في الفلسفة ، والمنطق ، والرياضيات ، والطبيعة ، والكيمياء ،
والاقتصاد ، والسياسة . وقد أجاب إجابة سلبية صريحة عن السؤال الذى أثار
ثائرة الفلاسفة المسيحيين بعد قليل من ذلك الوقت وهو هل الكلى (أى
الجنس ، والنوع ، والصفة) يوجد قائماً بنفسه منفصلاً عن الجزئى ؟ وقد
خدع كما خدع غيره بالبرهات أرسطو فبدل الاصطغاييرى العنيد(*) إلى
رجل متصوف . وطال به العمر حتى هدأت سورته العلمية واستمسك
بقواعد الدين . وكان في شبابه قد جهر بنزعة لا أدريه متشككة (٦٢) ، ثم
خطا في مستقبل حياته خطوات واسعة ، فأعطانا وصفا مفصلاً للخالق (٦٣)
مستعيناً على ذلك بالبراهين التى أوردها أرسطو ليثبت بها وجود الله ، والتى
استعان بها أكوناس بعد ثلاثة قرون من ذلك الوقت ، فقال إن حدوث سلسلة
من الحوادث العارضة لا يمكن إدراكها إلا إذا أرجعناها في النهاية إلى كائن
لا بد من وجوده لوقوعها ، ووجود سلسلة من العلل يتطلب وجود علة أولى ؛
وسلسلة من الحركات يتطلب مجرماً أول غير متحرك ؛ والتعدد يتطلب الوحدة .

(*) يريد أرسطو المولود في اصطغاييرا وهي مدينة أيونية على بحر إيجه . (المترجم)

وإن الهدف النهائي للفلسفة ، وهو الهدف الذى لا يمكن بلوغه كاملاً ، هو معرفة العلة الأولى ، وخير طريق للوصول إلى هذه المعرفة هو تطهير النفس . وقد استطاع الفارابى ، كما استطاع أرسطو أن يعنى يجعل أقواله عن الخلود غامضة غير مفهومة . ومات الرجل فى دمشق عام ٩٥٠ م .

ومن بين كتب الفارابى الباقية كلها كتاب واحد يدهشنا ما يدل عليه من قوة الابتكار ونعنى به كتاب *المدينة الفاضلة* . ويبدأ الكتاب بوصف قانون الطبيعة بأنه كفاح واحد دائم يقوم به كل كائن حتى ضد سائر الكائنات ؛ وهو فى ذلك يشبه ما يقوله هبز Hobbs من أن الأشياء كلها يحارب بعضها بعضاً ؛ ثم يقول إن كل كائن حتى يرى فى آخر الأمر أن سائر الكائنات الحية وسائل يحقق بها أغراضه ، ثم يعقب على هذا بقوله إن بعض الساعرين يستنتجون من هذا أن الرجل العاقل فى هذا التنافس الذى لا مفر منه هو أقدر الناس على إخضاع غيره لإرادته ، وأعظمهم تحقيقاً لرغباته كاملة . فكيف خرج المجتمع الإنسانى إذن من هذا القانون قانون الغاب ؟ وإذا ما أمعنا الفكر فى أقوال الفارابى رأينا أنه كان بين المسلمين الذين بحثوا هذا الموضوع فلاسفة من طراز روسو وآخرون من طراز نيتشه : فمنهم من قال إن المجتمع قام فى بادئ الأمر على أساس نوع من الاتفاق بين أفراد على أن بقاءهم يتطلب قبول بعض القيود التى تعتمد على العادات والقانون ؛ ومنهم من سخر من هذا « العقد الاجتماعى » وقال إن مثل هذا التعاقد لم يوجد قط فى تاريخ العالم ، وأكد أن المجتمع بدأ ، أو أن الدولة بدأت ، بإخضاع الأقوياء للضعفاء وتجنيدهم تحت سلطانها . ويضيف هؤلاء النثسيون أن الدول نفسها أدوات للتنافس ، وأن من الطبيعى أن يقاتل بعضها بعضاً سعيّاً وراء سيادتها على غيرها ، وسلامتها ، وسلطانها ، وراثتها ؛ وأن الحرب طبيعية ولا مفر من وقوعها ؛ وأن الذى سيسفر عنه هذا الصراع ، لا بد أن يتمشى مع قانون الطبيعة الأزل ، وهو أن الحق الوحيد هو القوة . ويقاوم الفارابى هذه

الزعة بأن يدعو الناس إلى إقامة مجتمع على قواعد العقل ، والوفاء ، والحب ، لا على أساس الحسد ، والقوة ، والخصام^(٦٤) . ويختم بحثه خاتمة موفقة بالدعوة إلى إقامة ملكية على أساس العقيدة الدينية القوية^(٦٥) .

وأنشأ تلميذ لأحد تلاميذ الفارابي في بغداد عام ٩٧٠ جمعية من العلماء - معروفة لنا باسم موطن منشأها - الجمعية السجستانية^(*) ، غرضها بحث المسائل الفلسفية . ولم تكن هذه الجمعية تسأل أعضائها عن أصلهم أو ملهمهم ؛ ويبدو أنها صرفت همها كله إلى دراسة المنطق وفلسفة المعرفة ؛ ولكن وجودها يدل على أن الرغبة في البحوث العلمية والعقلية لم تحب جدوتها في عاصمة الدولة الإسلامية . وأهم من هذه الجمعية شأننا ، أو بالأحرى أعظم منها أثراً ، جمعية أخرى من نوعها ، ولكنها في واقع الأمر جمعية سرية من العلماء والفلاسفة ، أنشئت في مدينة البصرة عام ٩٨٣ ، ونعني بها جمعية إخوان الصفا^(**) . وكان سبب قيامها أن هؤلاء الإخوان روعهم ما شاهدوه من ضعف الخلافة الإسلامية ، وفقر شعوبها ، وفساد أخلاقهم ؛ فتاقت نفوسهم إلى تجديد الإسلام من النواحي الأخلاقية ، والروحية ، والسياسية ؛ ونخيل إليهم أن هذا التجديد إنما يقوم على مزيج من الفلسفة اليونانية والمسيحية ، والتصوف الإسلامي ، وآراء الشيعة السياسية ، والشريعة الإسلامية . وكانوا يفهمون الصداقة على أنها تعاون بين ذوى الكفايات والفضائل المختلفة ، تأتي فيها كل طائفة بما تحتاجه الجماعة كلها وما لا تجده عند الطوائف الأخرى . وفي اعتقادها أن الوصول إلى الحقيقة عن طريق اجتماع العقول أيسر من الوصول إليها عن طريق التفكير الفردي . ولهذا كانوا يجتمعون في السر ويبحثون في حرية تامة شاملة ، وتفكير واسع

(*) منشأ هذه الجمعية هو أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني . (المترجم)

(**) اسمهم الكامل « إخوان الصفاء ، وخلان الوفاء ، وأهل العدل ، وأبناء الحب » .

(المترجم)

الأفق ، وتآدب جم ، جميع مشاكل الحياة الأساسية . وأصدرت الجماعة في آخر الأمر إحدى وخمسين رسالة جمعت شتات أبحاثها كلها ، وضممتها خلاصة العلوم الطبيعية والدينية ، والفلسفة . وأولع أحد مسلمي الأندلس أثناء تجواله في بلاد الشرق الأدنى حوالى عام ١٠٠٠ م بهذه الرسائل ، فجمعها واحتفظ بها .

ويجد في هذه الرسائل البالغة ١١٣٤ صفحة تفسيراً علمياً للمد والجزر ، والزلازل ، والخسوف والكسوف ، والأمواج الصوتية ، وكثير غيرها من الظواهر الطبيعية ، كما نجد فيها قبولاً صريحاً كاملاً للتنجيم والكيمياء الكاذبة ، ولا تخلو من عبث بالسحر وتلاعب بالأعداد . أما ما فيها من العقائد الدينية فهو شديد الصلة بالأفلاطونية الجليدية كما هو شأن الكثرة الغالبة من كتابات المفكرين المسلمين ؛ فهم يقولون إنه عن الموجود الأول أى الله يصدر العقل الفعال ، وعن هذا العقل يصدر عالم الأجسام والنفوس ؛ وإن جميع الأشياء المادية توجد بها النفس ، وتعمل عن طريقها ؛ وكل نفس تظل مضطربة قلقه حتى تتصل بالعقل الفاعل ، أو نفس العالم ، أو النفس الكلية ، ويتطلب هذا الاتصال تطهير النفس تطهيراً كاملاً ، والأخلاق هى الفن الذى تصل به النفس إلى هذا التطهير ؛ والعلم والفلسفة والدين كلها وسائل لبلوغه . ويجب علينا فى سعيها للتطهير أن ننسج على منوال سقراط فى الأمور العقلية ، وأن نهج نهج المسيح فى الإحسان إلى الخلق عامة ، ونهج على فى نبهه وتواضعه . فإذا ما تحرر العقل عن طريق المعرفة ، وجب أن يحس بحريته فى أن يؤول عبارات القرآن التى تتناسب مع فهمه بدو غير متحضرين يسكنون الصحراء تأويلاً مجازياً^(٦٦) . ويمكن القول بوجه عام إن هذه الرسائل الإحدى والخمسين أكمل ما وصل إلينا من تعبير عن التفكير الإسلامى فى العصر العباسى ، وإنها أعظم تناسقاً من جميع الرسائل التى لدينا فى هذا التفكير . وقد رأى علماء بغداد أن هذه الرسائل من قبيل الإلحاد فحرقوها فى عام ١١٥٠ ، ولكنها رغم هذا ظلت تتداولها الأيدى ، وكان لها أثر شامل عميق فى الفلسفة

الإسلامية واليهودية - نشأته في كتابات الغزالي وابن رشد ، وابن جبرول ، وهليني (٦٧) ؛ وتأثر بها كذلك المعري الشاعر الفيلسوف ، ولعلها كان لها أثر في ذلك الرجل الذي بز في حياته القصيرة ما في رسائل هذه الجماعة المتعاونة المؤتلفة من نزعة عقلية ، وكان أكثر من أصحابها سعة في الأفق وعمقا في التفكير ونعنى به ابن سينا . ذلك أن ابن سينا لم يكفه أن يكون حجة في العلوم الطبيعية ، ومرجعاً ذائع الصيت في الطب ؛ وما من شك في أنه قد أدرك أن العالم لا يكمل علمه إلا إذا أضاف إليه الفلسفة . ويحدثنا أنه قرأ كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو أربعين مرة من غير أن يفهمه (*) ، وأنه حين استطاع آخر الأمر أن يدرك معناه بعد أن قرأ تعليق الفارابي عليه ، سر لهذا سرورا عظيما وحمد الله على هذا وخرج إلى الشارع ووزع الصدقات (٦٨) . وبقي ابن سينا مستمسكاً بفلسفة أرسطو إلى آخر أيامه . وقد سماه في كتاب الفانوروه بالفيلسوف وهو اللفظ الذي أصبح في اللغة اللاتينية مرادفاً للفظ أرسطو نفسه . وقد فصل ابن سينا فلسفته في كتاب الشفاء ثم أوجزها في كتاب التجامة . وكان الرئيس ابن سينا ذا عقل منطقي ، يصر على التعاريف والتحديدات الدقيقة . وقد أجاب عن السؤال الذي شغل علماء العصور الوسطى طويلا وهو : هل الكليات (كالإنسان ، والفضيلة ، والاحمرار) توجد منفصلة عن الأشياء الجزئية المفردة فيقول : (١) إنها توجد « قبل الأشياء » في عقل الله وعلى نسقها توجد الأشياء ، (٢) وفي الأشياء بالصورة التي تتمثل فيها (٣) وبعد الأشياء بأن تكون معاني مجردة في العقل البشري . ولكن الكليات لا توجد في العالم الطبيعي منفصلة عن الأشياء الجزئية المفردة . وبعد مائة عام من الجدل والحصام أجاب ابلار Abélard وأكوناس عن هذا السؤال هذا الجواب نفسه .

(*) إن الذي قاله ابن سينا هو : قرأت كتاب السماع الطبيعي لأرسطاطاليس الحكيم أربعين مرة وأرى أن محتاج إن قراءته . (المترجم)

والحق أن ميتافيزيقية ابن سينا تكاد تكون خلاصة ما وصل إليه المفكرون اللاتين بعد مائتي عام من أيامه من توفيق بين المذاهب الفلسفية المختلفة في الفلسفة المدرسية . وهو يبدأ بشرح مفصل بذل فيه جهداً شاقاً لمذهب أرسطو والفارابي في المادة والصورة ، والعلل الأربع ، والممكن والواجب ، والكثرة ، والواحد ، ويدهشه كيف تستطيع الكثرة الممكنة المتغيرة - كثرة الأشياء الفانية - أن تصدر عن الواحد الواجب الوجود الذي لا يتغير . وهو يفعل ما يفعله أفلوطين فيفكر في حل هذه المشكلة بافتراض وجود وسيط بينهما هو العقل الفاعل منتشر في العالم السماوي ، والمادي ، والبشري ، وهو النفس . ثم إنه وجد شيئاً من الصعوبة في التوفيق بين الانتقال من عدم الخلق إلى الخلق وبين صفة عدم التغير الملازمة لله ، فينزح إلى الاعتقاد مع أرسطو بتقديم العالم المادي ، ولكنه يدرك أن هذا سيؤلب عليه جماعة المتكلمين فيعرض عليهم حلاً وسطاً كثيراً ما لجأ إليه الفلاسفة المدرسيون وهو : أن وجود الله سابق على وجود العالم سبقاً ذاتياً لازمانياً ، أي في المرتبة والجوهر والعللة ؛ فوجود العالم يعتمد في كل لحظة من اللحظات على وجود القوة الحافظة له ، وهي الله ؛ ويقول ابن سينا إن كل الموجودات « ممكنة » حتى الأفلاك نفسها أي أنها ليست واجبة الوجود أو محتومة . وهذه الممكنات لا بد لوجودها من علة تنقدها وتخرجها إلى الوجود ، ولهذا لا يمكن تفسير وجودها إلا بإرجاعها بعد سلسلة من العلل إلى موجود واجب الوجود ، أي واحد قائم بذاته هو العلة الأولى لسائر الموجودات . والله وحده هو الموجود بذاته ، وإن وجوده لهو عين ماهيته فهو واجب الوجود . ولولاه لما كان شيء مما يمكن أن يكون . ولما كان العالم كله ممكناً أي أن وجوده ليس بذاته ، فإن الله لا يمكن أن يكون مادة بل إنه برىء من الجسم ، وهو كالعقل ؛ واحد من كل وجه لا تركيب فيه . ولما كان في المخلوقات كلها عقل فلا بد أن يكون في خالقها عقل أيضاً . وهذا العقل الأول يرى كل شيء - الماضي والحاضر والمستقبل - لاني وقت ولا بالتتابع ،

بل يراه كله مرة واحدة . وحدث هذه الأشياء هو النتيجة الزمنية لفكرة اللازمي . ولكن الأفعال والحوادث لا تصدر عن الله مباشرة ، بل إن الأشياء تتطور بفعل غائي داخلي → أي أن لها أغراضاً ومصائر في ذاتها ، ولهذا فإن الله لا يصدر عنه الشر ، بل إن الشر هو الثمن الذي نؤديه نظير ما لنا من حزية الإرادة ، وقد يكون الشر للجزء هو الخير للكل (٦٩) .

ووجود النفس يدل عليه التأمل الداخلى المباشر . والنفس لهذا السبب عينه روحانية ، فنحن لا ندرك أكثر من أنها كذلك ، وأفكارنا منفصلة انفصالاً واضحاً عن أعضائنا . وهى مبدأ الحركة الذاتية والنماء فى الجسم ؛ وبهذا المعنى تكون للكواكب نفوس . والكون كله مظهر لمبدأ الحياة العام (٧٠) ، والجسم وحده لا يستطيع أن يكون فاعلاً ، بل إن سبب كل حركة من حركاته هو نفسه التى تحل فيه ، ولكل نفس ولكل عقل قدر من الحرية والقدرة على الخلق والإبداع شبيهة بقدرة السبب الأول لأنها فيض منه . وتعود النفس الخالصة بعد الموت إلى الاتصال بالفعل الكلى ، وفى هذا الاتصال تكون سعادة السعداء الصالحين (٧١) .

ولقد بذل ابن سينا كل ما يستطيع أن يبذله من الجهود للتوفيق بين الآراء الفلسفية وعقائد جمهرة المسلمين . فلم يكن مثل لكريشوس يرغب فى القضاء على الدين من أجل الفلسفة ، ولم يكن كالغزالي فى القرن الذى بعده يريد أن يقضى على الفلسفة من أجل الدين ؛ بل هو يعالج كل مسألة مستنداً إلى العقل وحده ، غير متقيد مطلقاً بالدين ؛ ويحلل الوحي فى ضوء قوانين الطبيعة (٧٢) ، ولكنه يؤكد حاجة الناس إلى الأنبياء ليبينوا لهم قواعد الأخلاق فى صور من الاستعارات والمجازات تفهمها عقولهم وتتأثر بها . وبهذا المعنى يكون النبى رسول الله لأنه يضع الأسس التى يقوم عليها النظام الأخلاقى والاجتماعى (٧٣) . ومن أجل هذا كان النبى ينادى ببعث الأجسام ، وكان فى بعض الأحيان يصور الجنة تصويراً مادياً ، والفيلسوف ، وإن كان يشك فى خلود الجسم ، يدرك أنه لو أن النبى

قد اقتصر على تصوير اللجنة تصويراً روحياً محضاً لما استمع الناس إليه ، ولما تألفت منهم أمة واحدة قوية منظمة . وأرقى البشر وأرفعهم درجة هم الذين يستطيعون أن يعبدوا الله عبادة تقوم على الحب الخمر ، وهو الذى لا ينبعث من الرغبة أو الرهبة ؛ ولكن هؤلاء لا يكشفون عن هذه المرتبة السامية لعامة أتباعهم بل يكشفونها لمن كملت عقولهم وسمت نفوسهم (٧٤) .

وكتابا الشفاء والقانون لابن سينا هما أرقى ما وصل إليه التفكير الفلسفى فى العصور الوسطى ، وهما من أعظم البحوث فى تاريخ العقل الإنسانى . وهو يسترشد فى كثير من بحوثه فى الكتابين بأرسطو والفارابى ، كما استرشد أرسطو فى كثير من بحوثه بأفلاطون . غير أن هذا لا ينقص من قدره ، ذلك أن نزلاء المستشفيات العقلية هم وحدهم المبلعون تمام الإبداع الذين لا يتأثرون بعقول غيرهم . وفى بعض أقوال ابن سينا ما يبدو لعقولنا المعرضة إلى الخطأ أنه سخف وهراء ، ولكن هذا الحكم بعينه ينطبق أيضاً على أقوال أفلاطون وأرسطو ؛ والحق أنه ليس ثمة سخيف لا يجده فى صحف الفلاسفة . ولسنا نجد عند ابن سينا ما يجده عند البيرونى من أمانة التشكك ، وروح النقد ، واتساع الأفق ، وحرية العقل ؛ وهو أكثر منه أخطاء ؛ ذلك أن البحوث التركيبية لا بد أن توذى هذا الثمن ما دامت الحياة على ما هى من قصر الأمد . ولقد بز الرئيس ابن سينا جميع أقرانه بوضوح أسلوبه ، وحيويته ، وبقدرته على جعل التفكير المجرد مشرقاً بعيداً عن السامة والملل بما يثبته فيه من القصص الإيضاحية وأبيات الشعر التى لا نرى عليه مأخذاً فى إيرادها ، وبتساع مجاله الفلسفى والعلمى اتساعاً منقطع النظير . ولقد كان ابن سينا عظيم الأثر فىمن جاء بعده من الفلاسفة والعلماء ، وقد تعدى هذا الأثر بلاد المشرق إلى الأندلس حيث شكل فلسفة ابن رشد وابن ميمون ، وإلى العالم المسيحى اللاتينى وفلاسفته

المدرسين ؛ وإنا لندهش من كثرة ما نجده من آراء ابن سينا في فلسفة ألبرتس مجنس ، وتومس أكوناس ، ويسميه روجرييكن : « أكبر عميد للفلسفة بعد أرسطو » (٧٥) . ولم يكن أكوناس وهو يتحدث عنه بنفس الاحترام الذي يتحدث به عن أفلاطون مجاملاً قط كما لوف عاداته حين يتحدث عن عظماء الرجال (*) .

وكاد أجل الفلسفة العربية في الشرق ينقضى بموت ابن سينا ؛ ذلك أن نزعة السلاجقة السنية القوية ، وارتياح رجال الدين من الآراء الفلسفية الجريئة ، وانتصار نزعة الغزالي الصوفية ، لم تلبث كلها أن قضت على كل تفكير . وإن مما يؤسف له أن يكون علمنا بتلك القرون الثلاثة (٧٥٠ - ١٠٥٠) التي ازدهر فيها التفكير الإسلامي ناقصاً كل النقص . ويرجع سبب ذلك إلى أن آلافاً من المخطوطات العربية في العلوم ، والآداب ، والفلسفة لاتزال مخبوءة في مكتبات العالم الإسلامي . ففي أسطنبول وحدها ثلاثون من مكتبات المساجد ، لم ير الضوء من مخطوطاتها إلا النزر اليسير ؛ وفي القاهرة ، ودمشق ، والموصل ، وبغداد ودهلي ، مجموعات ضخمة ، لم يعن أحد حتى بوضع فهرس لها (***) ؛ وفي الأسكوريال بالقرب من مدريد مكتبة ضخمة لم يفرغ بعد من إحصاء ما فيها من

(*) احتفل في عام ١٩٥٢ بالعيد الألفى لابن سينا حسب التاريخ الهجري وأقيم له قبر رائع في همدان ونشرت مصر بهذه المناسبة بعض مؤلفاته . (المترجم)

(**) مما نسجله بمزيد الحمد للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية أنها عنيت بعناية كبيرة بالبحث عن هذه المخطوطات في مكتبات العالم الإسلامي ، فأرسلت الوفود العلمية لتصوير ما يوجد منها في تلك المكتبات ، وهي جادة في هذا العمل الجليل . لكننا نرجو أن تقوم وزارات المعارف في الدول الإسلامية بنصيحها فيه ؛ فإنه في اعتقادنا أوسع من أن تضطلع به الإدارة الثقافية وحدها . (المترجم)

مخطوطات إسلامية في العلوم ، والآداب ، والشريعة ، والفلسفة (٧٧) ،
وليس ما نعرفه من ثمار الفكر الإسلامي في تلك القرون الثلاثة إلا جزءاً
صغيراً مما بقي من تراث المسلمين ، وليس هذا الجزء الباقي إلا قسماً ضئيلاً
مما أثمرته قرائمهم ؛ وليس ما أثبتناه في هذه الصحف إلا نقطة من بحر
تراثهم . وإذا كشف العلماء عن هذا التراث المنسى فأكبر ظننا أننا سنضع
القرن العاشر من تاريخ الإسلام في الشرق بين العصور الذهبية في تاريخ
العقل البشري . .

الفصل الخامس

التصوف والإحاد

يلتقى الدين والفلسفة في أعلى درجاتهما في معنى وحدة الكون وفي تأمل هذه الوحدة . والنفس حين لا تسلك طريق البحث على منهاج العقل والمنطق ، وحين تعجز عن الانتقال من الكثرة إلى الوحدة ، ومن الحادث الفرد إلى القابض العام ، قد يكون في وسعها أن تصل إلى هذه الرؤيا عن طريق اندماج النفس الفردية وتلاشيها في النفس الكلية . وحيث عجز العلم وعجزت الفلسفة ، وحيث يرتد عقل الإنسان القاصر المحدود أمام اللانهاية خاسماً وهو حسير ، فإن الإيمان قد يسمو بالإنسان إلى ما بين عرش الله إذا أخذ نفسه بنظام صارم من الزهد ، والتقشف ، والتفاني في العبادة ، والتجرد من كل رغبة أنانية ، وإفناء الجزء في الكل لإفناء كاملاً .

ويرجع التصوف الإسلامي إلى أصول كثيرة : منها نزعة الزهد عند فقراء الهندوس ، وغنوطسية مصر والشام ، وبحوث الأفلاطونية الجديدة عند اليونان المتأخرين ، وتأثير الرهبان المسيحيين الزاهدين المنتشرين في جميع بلاد المسلمين . وقد وجدت في العالم الإسلامي ، كما وجدت في العالم المسيحي ، أقلية تقية تعارض في تكييف الدين حسب وسائل العالم الاقتصادي ومصالحه ؛ فكانوا ينددون بترف الخلفاء ، والوزراء ، والتجار ، ويدعون المسلمين أن يعودوا إلى بساطة أبي بكر وعمر بن الخطاب . وكانوا يرفضون فكرة وجود وسيط أياً كان بينهم وبين الله ؛ وحتى فروض الصلاة الصارمة نفسها كانت تبدو لهم عقبة تحول بينهم وبين تلك المرتبة التي تسمو فيها الروح بعد أن تتطهر من جميع مشاغلها الدنيوية حتى تشاهد ذات الله العلية : فإذا سمت فوق هذه المرتبة استطاعت أن تتحد

مع ذات الله نفسها . وازدهرت حركة التصوف في بلاد الفرس بنوع خاص ولعل سبب ازدهارها فيها قربها من بلاد الهند ، كما ازدهرت في جنديسابور بتأثير الديانة المسيحية وتقاليد الأفلاطونية الجديدة التي وضعها فلاسفة اليونان بعد أن فروا من أثينة إلى فارس في عام ٥٢٩ . وكلمة صوفي التي تطلق على معظم الزهاد المسلمين مشتقة من ثياب الصوف البسيطة التي كانوا يرتدونها(*) . وكانت طوائف الصوفية تضم كثيرين من المؤمنين بمبادئها المتحمسين لها ، ومن كبار الشعراء ، والقائلين بوحدة الوجود ، والزهاد ، والمشعوذين ، والكثيرى الزوجات . وكانت مبادئهم تختلف باختلاف الأوقات والبيئات ؛ ويقول ابن رشد إن الصوفيين يعتقدون أن معرفة الله مستقرة في قلوبنا ، بعد أن نتخلى عن جميع الشهوات الجسدية والانقطاع إلى الله (٧٨) . ولكن كثيرين من الصوفيين حاولوا أن يصلوا إلى الله عن طريق الأشياء الخارجية أيضاً ، فقالوا إن كل ما نراه في العالم من كمال وجمال سببه حلول الله فيه . ويقول أحد الصوفية إنه لا يسمع صوت الحيوان ، أو خفيف أوراق الشجر ، أو خرير الماء ، أو تغريد الطير ، أو هبوب الريح ، إلا أحس أنها كلها شواهد على وحدانيته وأنه سبحانه لا شبيه له (٧٩) .

والحق أن الصوفي يعتقد أن هذه الأشياء المنفردة إنما توجد بما فيها من القوة الإلهية ، وأنها إنما وجدت لما هو كامن فيها من روح الله . وعلى هذا فالله هو كل شيء ، وهم لهذا لا يكتفون بالقول بأنه لا إله إلا الله ، بل يضيفون إلى هذا أنه لا موجود بحق سواه (٨٠) . وعلى هذا فكل نفس هي الله ؛ والصوفي الكامل يجهر في غير موارد بأنه « هو نفس الذات الإلهية » . ويقول أبو يزيد (حوالي عام ٩٠٠) : « إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني » (٨١) (***) . ويقول الحسين

(*) في كتاب الأستاذ رينولد ا . نيكولسون ترجمة الدكتور أبو الملا عفيفي فصل قيم في سبب هذه التسمية فليرجع إليه من يريد التوسع في هذا البحث . (المترجم)
(**) يقول الأستاذ نيكولسون إن في نسبة هذه الأقوال إلى أبي يزيد بعض الشك . انظر ترجمة الدكتور أبو الملا عفيفي السالفة الذكر . (المترجم)

ابن منصور الحلاج :

«أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فلذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا
إني مغرق قوم نوح ومهلك عاد وثمود . . . أنا الحق» (٨٢) (*)

وقبض على الحلاج لمغالاته في عقيدته الصوفية ، وضرب مائة سوط
وألقى في النار حتى مات (٩٢٢) . ويدعى أتباعه أنهم شاهدوه وتحدثوا
إليه بعد أن خمدت أنفاسه على هذا النحو إلى حين ، واتخذه كثيرون من
الصوفية ولهم وحاميمهم .

ويعتقد الصوفي كما يعتقد الهندوسي أن نظاماً صارماً من التطهير لا بد
منه لكي ينكشف عنه الغطاء ويرقى إلى عالم الفيض والإلهام . والتطهير
يكون بضروب من التفاني في الطاعات ، والتأمل والنظر والتدبير ، والصلاة ،
وإطاعة المرید لأستاذه الصوفي أو معلمه ، والتجرد الكامل من جميع
الشهوات البدنية ، بما فيها التجرد من شهوة النجاة ، والاتحاد الصوفي مع
الله . والصوفي الكامل يحب الله لذاته لا رغبة في ثواب ولا خوفاً من عقاب .
وفي ذلك يقول أبو القاسم إن المعطى خير من العطية (٨٣) . والصوفي عادة
يتخذ هذا النظام وسيلة يصل بها إلى معرفة الأشياء معرفة حقيقية ، ومنهم
من يتخذها نهجاً يرتفع به إلى درجة من الكرامة تجعل له سلطاناً على
الطبيعة ، ولكنه يكاد يكون على الدوام سبيلاً إلى الاتحاد مع ذات الله .
ومن فنيت نفسه فناء تاماً في هذا الاتحاد يسمى عندهم الإنسان الكامل (٨٤) .
ويعتقد الصوفية أن من وصل إلى هذه المرتبة أصبح فوق كل القوانين ،
وغير ملزم حتى بأداء فريضة الحج . وفي ذلك يقول أحد المتصوفة

(*) يذكر ابن النديم صاحب الفهرست أسماء ٣٥ كتاباً للحلاج منها كتاب نور النور
التجليات ، وكتاب علم البقاء والفناء ، وكتاب كيف كان وكيف يكون ، وكتاب لا كيف .
(المترجم)

إن كل العيون تتجه نحو الكعبة أما عيوننا ففتجه نحو وجه الحبيب (٨٥) .
وظل الصوفية يعيشون في الدنيا كسائر الناس حتى منتصف القرن
الحادى عشر ، وكانوا أحياناً يعيشون مع أسرهم وأبنائهم . بل إنهم كانوا
لا يرون أن للعزوبة قيمة كبرى من الناحية الأخلاقية . وفي ذلك يقول
أبو سعيد إن الولى الحقيقى يسير بين الناس ، ويأكل وينام معهم ، ويشترى
ويبيع فى الأسواق ، ويتزوج ، ويشترك مع الناس فى مجالسهم ، ولا ينسى
الله لحظة واحدة (٨٦) .

ولم يكن هؤلاء الصوفية يمتازون عن غيرهم بشيء سوى بساطة حياتهم ،
وتقواهم وخشوعهم ، وهم يشبهون من هذه الناحية طائفة الكويكرين
المسيحيين . وكانوا من حين إلى حين يجتمعون حول شيخ من الأتقياء
الصالحين أو يجتمعون جماعات للصلاة والدعوة المتبادلة إلى التقى والصلاح ،
وقد بدأت منذ القرن العاشر مجالس الذكر التى أصبح لها شأن عظيم عند
الصوفية المتأخرين . ومنهم عدد قليل اعتزلوا العالم وعذبوا أنفسهم ، وإن
كان الزهد فى ذلك الوقت من الأمور النادرة ، وكان يلقى كثيراً من المقاومة .
وكثر الأولياء من بين الصوفية بعد أن لم يكن لهم وجود فى بداية الإسلام .
ومن أوائل هؤلاء رابعة العدوية من أهل البصرة (٧١٧ - ٨٠١) .
وكانت فى شبابها جارية اشترت بالمال ولكن سيدها أعتقها لأنه شاهد
هالة من النور فوق رأسها وهى قائمة للصلاة . وأبت رابعة أن تزوج
وعاشت عيشة الزهد ، وإنكار الذات ، وفعل الخير . وسئلت فى يوم من
الأيام « هل تكرهين الشيطان ؟ » ، فأجابت : « إن حبى لله قد منعنى من
الاشتغال بكراهية الشيطان » . ومما يروى عنها تلك المناجاة الصوفية الذائعة
الصيت : « إلهى ! إن كنت عبدتك خوف النار فاحرقنى بالنار ، أو طمعاً
فى الجنة فحرّمها علىّ ، وإن كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرمنى
(١٦ - ج ٢ - مجلد ٤)

من مشاهدة وجهك ؛ إلهي ! كل ما قدرته لي من خير في هذه الدنيا أعطه لأعدائك ، وكل ما قدرته لي في الجنة امنحه لأصدقائك ، لأنني لا أسعى إلا إليك وحدك» (٨٧) (*).

ولنختر من بين الصوفية وهم كثيرون واحداً من الأولياء الصالحين هو الشاعر أبو سعيد بن أبي الخير (٩٦٧ - ١٠٤٩) . ولد هذا الرجل في مهنة من أعمال خراسان واتصل بابن سينا ؛ ويروى عنه أنه قال في هذا الفيلسوف إن ما يراه ابن سينا يعرفه هو (٨٨) . وقد أولع في صباه بالأدب البديع ، ويقول عن نفسه إنه حفظ عن ظهر قلب ثلاثين ألف بيت لشعراء الجاهلية ؛ ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره سمع في يوم من الأيام درساً لأبي علي يدور حول قوله تعالى « قل الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » . ويقول أبو سعيد إنه ما كاد يسمع هذه الآية حتى فتح في قلبه باب الإيمان وكأنما انزع من نفسه فجميع كتبه كلها وأحرقها ثم آوى إلى ركن في بيته ، وجلس فيه سبع سنين يذكر فيها اسم الله . ولقد كان تكرر لفظ الجلالة عند الصوفية المسلمين سبيلاً محببة إلى « الفناء » ويقصدون به انتقال الصوفي عن نفسه في حال وجدته . وزاد أبو سعيد على هذا عدة أساليب من الزهد والتقشف ، فلم يلبس إلا قيصاً واحداً ، ولم يتكلم إلا عند الضرورة القصوى ، ولم يذق الطعام إلا وقت الغروب . ولم يكن طعامه إلا كسرة من الخبز ، ولم يرقد على فراش لينام ، وحضر في جدار بيته حفرة ، لا تزيد حين يقف فيها على طوله وعرضه ، وكثيراً ما كان يجلس نفسه فيها . ويسد أذنيه لكيلا تصل إليهما أصوات من الخارج . وكان في بعض الليالي يربط نفسه بجبل ويتدلى برأسه في بئر ، ويتلو القرآن كله قبل أن يخرج إلى سطح الأرض - هذا إذا صدقنا قول أبيه عنه . وقد عكف على خدمة غيره من الصوفية ، فكان يتسول لهم ، وينظف

(*) نقلنا هذا النص عن « تذكرة الأولياء للقطار ، والذي أورده المؤلف هو الجزء الثاني ، وقد أضفنا نحن الجزء الأول إتماماً للفائدة . (المترجم)

لهم خلواتهم وفضلاتهم . ويقول عن نفسه إن امرأة صعدت إلى سقف المسجد وهو فيه وألقت عليه الأقدار ، ولكنه مع ذلك ظل يسمع صوتاً يناديه « أليس الله بكاف عبده ؟ » . ولما بلغ الأربعين من عمره وصل إلى مرتبة الإشراق الكامل وبدأ يخطب الناس ، والتف حوله كثيرون من الأتقياء المخلصين ، ويؤكد لنا هو أن بعض مستمعيه كانوا يلبطخون وجوههم بروث حمارة لتحل عليهم بركته^(٨٩) . وقد ترك أثره في التصوف بأن أنشأ خانقاه للدراويش ووضع لها طائفة من القواعد جعلتها نموذجاً لأبناء الطائفة في القرن الذي بعده .

وكان أبو سعيد يعلم الناس ، كما علمهم القديس أوغسطين ، أن رحمة الله ، لأعمال العبد الصالحة ، هي سبيل النجاة ؛ ولكنه كان يعنى بالنجاة ، التحرر الروحي ، ولم يفهمها على أنها دخول الجنة ، ويقول إن الله يفتح للإنسان باباً بعد باب وأولها باب التوبة ثم يأتي بعدها باب اليقين فإذا بلغه تقبل السباب والتحقير وعلم علم اليقين مصدره ... ثم يفتح له الله بعدئذ باب الحب ، ولكنه لا ينفك يقول في نفسه « أحب » . . . ثم يفتح له باب التوحيد . . . وعنده يدرك أن الله كل شيء وأن كل شيء منه وإليه . . . ويعرف أنه غير محق في قوله « أنا » أو « لى » . . . لأن الرغبات تتساقط عنه فيتخلى عنها ويهدأ باله . . . لأن الإنسان لا يفر من نفسه إلا إذا قتلها . إن نفسك تبعك عن الله ، وتقول إن فلاناً وفلاناً يتوعداًني في الشر . . . وهذا قد أحسن إلى - كل هذا شرك بالله ، فليس شيء يعتمد على المخلوقات ، بل يعتمد كل شيء على الخالق . إن عليك أن تعرف هذا ، فإذا قلته فاثبت عليه . . . والثبات معناه أنك إذا قلت « واحداً » فلا تقل « اثنين » أبداً . . . قل الله واثبت على هذا القول^(٩٠) .

وتظهر هذه العقيدة الهندية - الإرسونية(*) في بعض الأقوال المنسوبة

إلى أبي سعيد وإن كانت نسبتها إليه مشكوكاً فيها

(*) أي التي هي مزيج من عقائد الهند وإرسن الفيلسوف الأمريكى . (المترجم)

وسألته : « لمن يكون جمالك ؟ » فقال : « لى » لأنه لا موجود سوى ؛
أنا الحب ، والمحبوب ، والحب كلها فى واحد ، أنا الجمال ، والمرأة ،
والعينان اللتان تريان (٩١) ؛

وإذا لم يكن عند المسلمين ، كما كان عند المسيحيين ، كهانة تثبت
لهؤلاء الأبطال الصالحين قداستهم ، فقد خلع عليهم الشعب نفسه هذه
القداسة ، ولم يحلّ القرن الثانى عشر الميلادى حتى غلبت عواطف الشعب
الطبيعية ، ما نهى عنه الدين من تقديس الأولياء الصالحين واعتبار هذا
التقديس ضرباً من الوثنية . وكان من أوائل هؤلاء الأولياء الصالحين إبراهيم
ابن أدهم (القرن الثامن ؟) ، وهو الذى يسميه لى هنت Leigh Hunt
فى قصيدة له مشهورة أبو بن أدهم Abou ben Adhem . ويعزو خيال
العامة إلى هؤلاء الأولياء قوى خارقة فيقولون إنهم قد كشف عن أعينهم
الغطاء فأصبحوا يرون ما لا يراه عامة الناس ، ويقرعون الأفكار ،
ويتبادلون الخواطر والمشاعر مع الناس ، بل إنهم يبالبغون فى مقدراتهم
فيقولون إن فى وسعهم أن يتتلعوا النار والزجاج دون أن يصيبهم من ذلك
أذى ، وأن يحترقوا النيران من غير أن يحترقوا بها ، وأن يمشوا على
الماء ، ويطيروا فى الهواء ، ويمتازوا المسافات الشاسعة فى نعمة عين .
ويروى أبو سعيد حالات من قراءة الأفكار لا تقل غرابة عن أغرب
ما يروى من نوعها فى هذه الأيام (٩٢) . وهكذا يحدث على توالى الأيام
أن الدين (*) الذى يظن بعض الفلاسفة أنه من صنع القساوسة والكهان ، يتشكل
ثم يتشكل بتأثير حاجات الناس وعواطفهم وخيالهم ، حتى يصبح التوحيد
الذى يمجىء به الأنبياء ثم يكون هو بعينه الشرك الذى يعتقدده عامة الشعب .
وقبل المسلمون من أهل السنة الصوفية فى حظيرة الدين الإسلامى ، وأفسحوا

(*) لا حاجة إلى التنبيه بأن الكاتب لا يقصد بهذا ديناً معيناً بل يشير إلى الأديان
بوجه عام . (المترجم)

لهم مجالاً كبيراً في عقائدهم وأقوالهم : ولكن هذه الخطة الحكيمة لم تمتد إلى الطوائف المارقة التي تخفى تحت ستار العقائد الدينية آراء سياسية ثورية ، أو تدعو إلى الفوضى الأخلاقية والقانونية : ومن بين هذه الطوائف الثورية التي مزجت في عقائدها الدين بالسياسة طائفة « الإسماعيلية » : ويذكر القارئ ما قلناه قبل من أن الشيعة يقولون إن على رأس كل جيل من أبناء علي إلى الجيل الثاني عشر إماماً أو زعيماً ، وإن هذا الإمام يختار من يخلفه في هذه الزعامة . وعلى هذا الأساس عين الإمام السادس جعفر الصادق ابنه إسماعيل خليفة له من بعده . ويقال إن إسماعيل هذا أدمن الخمر ، فخلعه جعفر عن الإمامة واختار بدله موسى الإمام السابع (حوالي عام ٧٦٠) : ورأى بعض الشيعة أن بيعة إسماعيل لا يجوز نقضها وقالوا إنه هو أو ابنه محمد هو الإمام السابع وآخر الأئمة . وظلت طائفة « الإسماعيلية » هذه نحو مائة سنة قليلة الخطر لا يؤبه بها ، حتى تزعمها عبد الله بن ميمون القداح وأرسل المبشرين يدعوون إلى عقيدة الطائفة في بلاد الإسلام . وكان يطلب إلى المبتدئ قبل الدخول في الطائفة أن يقسم بالألا يفشى شيئاً من أسرارها ، وأن يطيع الزعيم الأكبر للطائفة في كل ما يأمره به . وكانت تعاليمهم قسمين أحدهما باطنى وآخر ظاهري . وكان يقال لمن يدخل في مذهبهم إنه بعد أن يمر بتسعة مراحل ترفع عنه جميع الحجب ، وينكشف له التعليم أو العقيدة الخفية (الله هو كل شيء) فيصبح فوق كل عقيدة وكل قانون . وفي المرتبة الثامنة يقال له إن الكائن الأعلى لا يمكن أن يعرف عنه شيء ، وإن أحداً لا يستطيع أن يعبده (٩٣) ؛ وقد انضم إلى طائفة الإسماعيلية كثيرون من فلول الحركات الشيوعية ، دفعهم إلى هذا ما تقول به من أن مهدياً سيظهر في وقت من الأوقات ، ويبسط على الأرض عهداً من المساواة ، والعدالة ، والحب الأخوي . وقد أوضحت هذه الطائفة الأخوية العجيبة قوة ذات شأن عظيم في الإسلام سيطرت في وقت من الأوقات على شمالي إفريقية ومصر ، وأسست الخلافة الفاطمية ، وقامت في أواخر

القرن التاسع بحركة كادت تقضى على الخلافة العباسية :

ولما مات عبد الله القداح في عام ٨٧٤ تولى زعامة الإسماعيلية فلاح عراقي اشتهر باسم حمدان قرمط ، وبعث فيها من النشاط ما جعل الناس في آسية يسمون أتباعها في وقت من الأوقات بالقرامطة نسبة إليه . وكان يرمى إلى القضاء على قوة العرب ، وإعادة الدولة الفارسية ؛ وضم إليه خفية آلافا من المؤيدين ، والأعوان ، وفرض عليهم أن يخرجوا عن خمس أملاكهم ودخلهم ليصبح ملكا عاما للجماعة . ودخل للمرة الثانية عنصر من عناصر الثورة الاجتماعية في تلك الحركة التي كانت في ظاهر أمرها نوعا من الصوفية الدينية . فكان القرامطة يقولون بشيوعية الملك والنساء^(٩٤) ، وقد نظموا العمال في طوائف للحرف ، ونادوا بالمساواة بين كافة الناس ، وأخذوا يفسرون القرآن تفسيراً مجازياً لا يتقبلون فيه بأقوال أهل السنة . وكانوا يتحللون من الشعائر الدينية ومن الصيام ، ويسخرون من البلهاء الذين يعبدون الأضرحة والحجارة^(٩٥) . وبلغ من أمرهم أن أقاموا في عام ٨٩٩ دولة مستقلة على الشاطئ الغربي للخليج الفارسي ، وهزموا جيش الخليفة في عام ٩٠٠ ، وأفنوه عن آخره ، ولم ينج من القتل جندي واحد . وفي عام ٩٠٢ اجتاحوا بلاد الشام ووصلوا إلى أبواب دمشق ، وفي عام ٩٢٤ نهبوا البصرة ثم الكوفة ؛ وفي عام ٩٣٠ نهبوا مكة نفسها ، وقتلوا ثلاثين ألفا من المسلمين ، وعادوا بكثير من الغنائم ، منها كسوة الكعبة ، والخنجر الأسود^(*) . غير أن هذا الغلو وهذه الانتصارات استنفدت قوة تلك الحركة ؛ واتحد الناس لمقاومة دعوتها التي كانت تهدد الملك والنظام العام ؛ ولكن مبادئها وأساليبها العنيفة انتقلت في القرن التالي إلى إسماعيلية الموت^(**) ، وهم المعروفون بالحشاشين ٥

(*) وأعيد الحجر إلى الكعبة في عام ٩٥١ بأمر الخليفة الفاطمي المنصور .

(**) ويسمى أيضاً عش النسر . (المترجم)

الفصل السادس

الأدب

لقد كان في الحياة والدين في الإسلام مواقف أشبه ما تكون بالمسرحيات ، أما الأدب الإسلامي فقد خلا من هذا الصنف من صنوف الكتابة ، وهو صنف يبدو أنه غريب على العقلية السامية ، كذلك خلا ذلك الأدب كما خلا غيره من آداب العصور الوسطى من الروايات القصصية ، فقد كانت معظم الكتابات مما يستمع إليه الناس لا مما يقرؤونه وهم صامتون ، ولم يكن في وسع من يهتمون بنتائج الخيال أن يرقوا إلى الدرجة التي يستطيعون أن يركزوا فيها عقولهم ذلك التركيز الذي لا بد منه لكتابة القصة المعقدة المتصلة الحلقات ، أما القصص القصيرة فكانت قديمة قدم الإسلام نفسه أو قدم آدم أبي البشر ، وكان أكثر المسلمين سذاجة ينصتون إليها في حماسة الأطفال وتشوفهم ، أما العلماء فلم يكونوا يحسبونها أدباً ، وكانت أشهر هذه القصص القصيرة قصص بيدبا ، وقصص ألف ليلة وليلة . وقد نقلت القصص الأولى من الهند إلى فارس في القرن السادس ، وترجمت إلى اللغة الفهلوية ، ومنها ترجمت إلى اللغة العربية في القرن الثامن . ثم فقد أصلها السنسكريتي ، وبقيت الترجمة العربية ، ومنها نقلت إلى ما يقرب من أربعين لغة أخرى .

يحدثنا المسعودي (المتوفى عام ٥٩٧) في مروج الذهب عن كتاب فارسي يدعى هزارأفسانه أو ألف قصة وعن ترجمته العربية ألف ليلة وليلة ؛ وهذه على ما نعلم أول مرة ذكر فيها كتاب ألف ليلة وليلة . ونخطة الكتاب كما يصفها المسعودي هي الخطة التي نجدها في كتاب ألف ليلة وليلة العربي . وكان هذا

الإطار المحتوى على سلسلة من القصص معروفاً من قديم الزمن في بلاد الهند ، وكان عدد كبير من هذه القصص متداولاً في العالم الشرقى ، ولربما كانت كل مجموعة منها تختلف في محتوياتها عن غيرها من المجموعات ، ولسنا واثقين أن أية قصة في المجموعة المعروفة لنا الآن كانت من القصص التي تحتويها المجموعة التي يحدثنا عنها المسعودى . وحدث بعد سنين قلائل من عام ١٧٠٠ أن أرسل مخطوط غير كامل ، لا يمكن تتبع تاريخه إلى ما قبل عام ١٥٣٦ ، من بلاد الشام إلى المستشرق الفرنسى أنطوان جالان . Antoine Galland ، وافتتن هذا المستشرق بخيال القصص الغريب ، وبما فيها من وصف لحياة المسلمين الداخلية ، ولعله افتتن أيضاً بما فيها من بداعة ، فأصدر في باريس عام ١٧٠٤ أولى تراجمها إلى اللغات الأوربية *Les mille et une nuits* . ونجح الكتاب نجاحاً فوق ما كان يتوقع له ، وترجم إلى جميع اللغات الأوربية ، وشرع أطفال جميع الأمم يتحدثون عن السندباد البحرى ، وعن مصباح علاء الدين ، وعن على بابا والصوص الأربعين . وخرافات بيدبا ، وقصص ألف ايلة أكثر ما يقرأه الناس من الكتب في العالم كله إذا استثنينا الكتاب المقدس (وهو أيضاً كتاب شرقى) (*) .

والنثر الأدبى فى الكتب الإسلامية صورة من الشعر . ذلك أن المزاج العربى ينزع إلى الشعور القوى ، والآداب الفارسية تميل إلى الكلام المزخرف ، واللغة العربية التى كانت فى الوقت الذى نتحدث عنه يتكلم بها أهل البلدين تدعو إلى جعل النثر مقفى لتشابه أواخر الألفاظ طوعاً لقواعد الصرف ؛ ولهذا فإن النثر الأدبى كثيراً ما يكون مسجوعاً ؛ وكان الوعاظ ، والخطباء ، والقصاصون ، يلجأون إلى النثر المسجع ، وبهذا كتب بديع الزمان الهمذانى (المتوفى عام ١٠٠٨) مقاماته - وهى قصص كان يرويها لجماعات مختلفة عن وغد

(*) والقرآن بطبيعة الحال وهو الذى يقرؤه كله أو بعضه مسلمو العالم أجمعون . (المترجم)

أفاق أوتى من الذكاء والفكاهة أكثر مما أوتى من الأخلاق الطيبة : وكانت حقول أهل الشرق الأدنى في ذلك الوقت تتأثر بما يصل إليها عن طريق الأذن ، شأنهم في هذا شأن جميع الناس قبل اختراع الطباعة ، وكان الأدب عند معظم المسلمين لا يعدو أن يكون قصيدة تنشد أو قصة تروى ، وكانت القصائد تكتب لكى تقرأ بصوت عال أو تغنى ، وكان كل شخص في بلاد الإسلام من الخليفة إلى الفلاح يطرب لسماعها . وقلما كان هناك شخص لا يقرض الشعر - كما كانت الحال عند طبقة السموراي في بلاد اليابان . وكان من ضروب التسلية العامة لدى الطبقات المتعلمة أن يكمل شخص بيتا من الشعر بدأه غير ، أو يتم مقطوعة بدأها زميله ، أو ينافس مناظراً له في ارتجال مقطوعة غنائية أو نكتة شعرية . وكان الشعراء ينافس بعضهم بعضاً في ابتداع ضروب معقدة من الأوزان والقوافي ، وكان كثيرون منهم يقفون أواسط الأبيات الشعرية وأواخرها ، وكثرت ضروب الأوزان والقوافي في الشعر العربي وكان لها بالغ الأثر في نشأة القافية في الشعر الأوربي .

ولم تضارع حضارة من الحضارات ولم يضارع عصر من العصور - لانستثنى من هذا التعميم حضارة الصين في أيام لي بو ، ودوفو ، ولا حضارة فيمار Veimar حين كان فيها « مائة مواطن وعشرة آلاف شاعر » - الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية في عدد شعرائها وثرأهم . وقد جمع أبو الفرج الإصفهاني (٨٩٧ - ٩٦٧) في أواخر ذلك العصر كثيراً من أشعارهم في كتاب **الأنغالى** . وحسبنا دليلاً على غنى الشعر العربي وتنوعه أن نعرف أن هذا الكتاب يتكون من عشرين مجلداً . وكان الشعراء ينشرون الدعايات المختلفة ، والتاس ينشون هجوهم اللاذع ، والأغنياء يتعاونون بمديحهم بيتا بيتا ، والخلفاء يجيزون الشعراء بالمناصب العالية وينفحونهم بالهبات السخية إذا قالوا قبيحاً قصائد من الشعر أو مجدوا أعمالهم أو مدحوا قبائلهم . ويحكى أن هشاماً أراد مرة أن

يتذكر قصيدة من القصائد فأرسل في طلب حماد الشاعر الراوية ، وكان من حظه أنه يذكر هذه القصيدة بأكملها ، فلما أنشدها لهشام أجازته بجاريتين وبخسعين ألف دينار (٩٧) ، وأكبر ظننا أن أحداً من شعراء هذه الأيام لن يصدق هذه القصة . وبعد أن كان الشعر العربي ينشد لبدو الصحراء ، أضحى الآن يوجه إلى قصور الخلفاء ورجال حاشيتهم ، وأصبح الكثير منه متكلفاً ، أكثر ما يعنى به هو الشكل ، شديد التأنق إلى حد التفاهة ، كثير المجاملة خالياً من الإخلاص ؛ ولهذا نشبت معركة بين أنصار القديم وأنصار الحديث ، وأخذ النقاد يشكون وهم متألمون قائلين إنه لم يوجد شعراء عظماء إلا قبل عهد النبوة (٩٨) .

والحب والحرب أكثر موامة للشعر من الموضوعات الدينية ، وقبلها كان شعر العرب صوفي النزعة (وإن كان هذا الحكم لا يصدق على شعر الفرس) ؛ فقد كان الشاعر العربي يفضل أناشيد القتال ، والعاطفة ، والانفعالات النفسية ؛ ولما أن اختتم قرن الفتح الإسلامية أخذ الشعراء يستمدون وحيمهم من النساء أكثر مما يستمدونه من الموضوعات الحربية والدينية ، وأخذ شعراء الإسلام يصفون مفاتن المرأة - شعرها العطر ، وعينها الشبهيتين بالدرتين ، وشفثها القرمزيتين ، وأطرافها الفضية ؛ وظهرت الصحراوات وفي المدينتين المقدستين القصائد الغنائية ؛ وأصبح الأدب في عرف الفلاسفة والشعراء يعني آداب الحب وسلوك المحبين . وانتقل هذا المعنى عن طريق مصر وإفريقية إلى صقلية وأسبانيا ، ومنها إلى إيطاليا وپروفانس Provence في فرنسا ، وانطلقت الألسن وجادت القرائح بالشعر الموزون المقفى .

واشتهر الحسن بن هاني باسم أبي نواس - لغدائره التي كانت تنوس على كنفه . وكان مولده في بلاد الفرس ، ثم رحل إلى بغداد ، ونال الخطوة عند الخليفة الرشيد ، ولعله اشترك معه في واحدة أو اثنتين من المغامرات التي تعزى إليهما في كتاب ألف ليلة وليلة . وكان أبو نواس مولعاً بالخمير والنساء والغناء ،

وكثيراً ما أغضب الخليفة بإدمانه الخمر جهرة ، وبزندقته ودعارته ؛ وكثيراً ما سجنه ثم أطلقه ، وتاب أبو نواس شيئاً فشيئاً واستمسك آخر الأمر بهداب الفضيلة ، وانتهى بأن كان يحمل المسبحة والقرآن معه أينما سار . ولكن أكثر ما كانت تحبه مجامع العاصمة هو أغانيه التي وصف فيها الخمر والفساد :

يا سليمان ! غنى ومن الراح فاسقني
فإذا ما دارت الزجبا جمة خذها واعطني
ما ترى الصبح قد بدا في إزار مُسبِن
غاطني كأس سلوة عن أذان المؤذن (٩٩)

تكثر ما استطعت من الخطايا فأئك بالغ ربا غفورا
ستبصر إن قدمت عليه عفواً وتلقى سيداً ملكاً كبيراً
تعض ندامة كفيك مما تركت مخافة النار السرورا (١٠٠)

وكان في بلاط صغار الأمراء والسلاطين أيضاً شعراؤهم - فكان في بلاط سيف الدولة شاعر لا تكاد تعرف عنه أوربا شيئاً ، ولكن العرب يحسبونه خير شعرائهم على الإطلاق . واسم هذا الشاعر أحمد بن الحسين ، ولكنه يشتهر عند المسلمين باسم المتنبي - أي مدعى النبوة . وقد ولد هذا الشاعر في الكوفة عام ٩١٥ ، وتلقى العلم في دمشق ، ثم ادعى النبوة ، فقبض عليه وأطلق بعدئذ سراحه ، وأقام في بلاط أمير حلب . وكان كأبي نواس مستهتراً بالدين لا يصوم ولا يصلي ولا يقرأ القرآن (١٠١) ، ومع أنه لم يكن يرى أن الحياة ترقى إلى المستوى اللائق به ، فإنه كان يستمتع بها استمتاعاً يصرفه عن التفكير في الخلود . وقد أشاد بانتصارات سيف الدولة في شعر جمع بين قوة المعنى وجمال اللفظ إلى حد أصبح معه هذا الشعر واسع الانتشار بين قراء العربية متعذر الترجمة إلى اللغة الإنجليزية . ومن هذا الشعر بيته المشهور الذي كان سبباً في هلاكه وهو :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وذلك أن جماعة من اللصوص هاجمته ، وأراد هو الفرار ، فذكره
غلامه بهذا البيت وما يحويه من تفاخر ؛ وأراد المتنبي أن يصدق فعله قوله ؛
فحارب ومات مشخناً بجراحه (٩٦٥) (١٠٢) .

وبعد ثمان سنين من ذلك العام ولد في معرة النعمان القريبة من حلب
أبو العلاء المعري أعجب شعراء العرب على الإطلاق . وفقد أبو العلاء
بصره في سن الرابعة على أثر إصابته بالجدري ، ولكنه جد في طلب العلم ،
وحفظ عن ظهر قلب ما أعجبه من المخطوطات التي وجدها في دور
الكتب ، وطاف بأحاء العالم الإسلامي ليستمع إلى المشهورين من العلماء ،
ثم عاد إلى مسقط رأسه . وكان دخله السنوي خلال الخمسة عشر عاما
التي أعقبت عودته لا يزيد على ثلاثين ديناراً ، أي ما يعادل اثني عشر ريالاً
أمريكياً في الشهر ، يشاركه فيها خادمه ومرشده . وأذاعت قصائده شهرته
في العالم الإسلامي ، ولكنه كاد يهلك من الجوع لأنه أبي أن يلجأ إلى
المدنيح . وزار بغداد في عام ١٠٠٨ وأكرم الشعراء والعلماء وفادته ، ولعله
تأثر في العاصمة بآراء بعض المتشككة ، وهي الآثار التي تتخلل بعض
قصائده . وعاد منها إلى المعرة في عام ١٠١٠ وأصبح فيها من الأغنياء ،
ولكنه ظل إلى آخر أيامه يحيا حياة الحكماء البسيطة الخالية من جميع مظاهر
النعيم . وكان المعري نباتياً إلى أقصى حد ، لا يكتفي بالامتناع عن لحم
الحيوان والطيور بل يمتنع كذلك عن اللبن ، والبيض ، وعسل النحل ؛ فقد
كان يرى أن الاستيلاء على هذه الأطعمة من الحيوان هو النهب بعينه . ولهذا
السبب أيضا أبي أن يتخذ شيئاً من اللباس من جلد الحيوان ، وعاب على النساء
لبس الفراء ، وأشار بلبس الأحذية الخشبية (١٠٣) . ومات المعري في الرابعة
والثمانين من العمر ، ويقول أحد أتباعه المخلصين إن مائة وثمانين شاعراً
ساروا في جنازته ، وإن أربعة وثمانين من العلماء رثوه على قبره (١٠٤) .

وأعظم ما يشهر به في بلاد الغرب هو قصائده القصيرة البالغ عددها ١٥٩٢ .

قصيدة والمعروفة بالزوميات . ولم يتحدث أبو العلاء في هذه القصائد عن النساء والحرب كما كان يتحدث عنهما زملاؤه من الشعراء ، بل عمد في جرأة إلى الحديث عن أهم الموضوعات الأساسية في الحياة : هل تتبع الوحي أو العقل ؟ - وهل الحياة خليقة بأن يحيها الإنسان ؟ - هل ثمة حياة بعد الموت ؟ - هل يوجد إله ؟ . . . ويجهر الشاعر من حين إلى حين بإيمانه ؛ ولكنه يقول محذراً إن هذا الجهر هو احتياط مشروع من الاستشهاد الذي لا يرغب فيه :

إذا قلت المحال رفعت صوتي وإن قلت اليقين أطلت همسي (١٠٥)
وهو يعيب في أقواله الأمانة العلمية المطلقة ويقول :

لا تخبرن بكنه دينك معشراً شطراً وإن تفعل فأنت مقرر (١٠٦)
والمعري بصريح العبارة متشائم ، لا أدرى ، يؤمن بالعقل دون الوحي :
يرتجى الناس أن يقوم إمام ناطق في الكتيبة الحرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء
.....

هل صبح قول من الحاكي فنقبله أم كل ذاك أباطيل وأسما
أما العقول فألت أنه كذب والعقل غرس له بالصدق لإثمار (*)

(*) وهنا أورد الكاتب أبياتاً أخرى قال إنها من شعر أبي العلاء ، وقال في سجل المراجع إنه نقلها من كتاب أمين الريحاني المسمى 'The Quatrains of Abu el'Ala'. وقد بحثنا أولاً فيما لدينا من كتب أبي العلاء : الزوميات ، وسقط الزند ، ورسالة الغفران فلم نثر على هذه الأبيات ، وقد وجدنا في كتاب أمين الريحاني الأبيات التي أوردها المؤلف وما بعدها ، وقوله إنها مترجمة عن الزوميات طبعة القاهرة سنة ١٨٩١ . وأعدنا البحث فلم نثر على الأبيات في هذه الطبعة . وأخيراً وجدنا الأبيات التي نقلها مؤلف هذا الكتاب وما جاء بعدها في كتاب أمين الريحاني وجدناها في شعر محيي الدين بن عربي وهي :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
فأصبح قلبي قابلاً كل صورة فرعى لغزلان وبيت لأوثان
ودير لرهبان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أني توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

وهو ينسدد بعلماء الدين الذين يسخرونه لمآرب الإنسان الدنيئة ،
والذين يملوون المساجد بالرعب حين يخطبون ، ولكنهم ليسوا في مسلكهم
خيراً من الذين يحتمسون الخمر في الحانات على نفحات المغنين .

لا تطيعن قوماً ما دياتهم إلا احتيال على أخذ الإتاوات

إنما هذه المذاهب أسباب لجذب الدنيا إلى الرؤساء

كذب يقال على المناير دائماً أفلا يميده لما يقال المنبر

رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء

يحرم فيكم الصبياء صباحاً ويشربها على عمد مساء

تحساها فن مزج وَصرفٍ يعمل كأنما ورد الحساء

طلب الحسائس وارتقى في منبر يصف الحساب لأمة أجهلها

ويكون غير مصدق بقيامة أضحى يمثل في النفوس ذهولها (١٠٨)

ومن أقواله أن أحط الناس في وقته هم الذين يشرفون على الأماكن
المقدسة في مكة . فهم لا يتورعون عن أن يرتكبوا أى لائم في سبيل المال ،
وينصح مستمعيه بالألا يضيعوا أوقاتهم في الحج (١٠٩) وأن يقنعوا بعالم واحد :

وفي بطحاء مكة شر قوم وليسوا بالحياة ولا الغيارى

وإن رجال شديدة سادتها إذا راحت لكعبتها الجمارى

قيام يدفعون الناس (*) شفعا إلى البيت الحرام وهم سكارى

إذا أخذوا الزوائف أوبلحوم وإن كانوا اليهود أو النصرارى

= والأبيات الإنجليزية التي أوردها المؤلف منقولة من كتاب أمين الريحاني ، تكاد تكون
ترجمة حرفية لهذه الأبيات . (المترجم)

(*) ويروى يدفعون الوفد . (المترجم)

وما حجي إلى أحجار بيت كؤوس الخمر تشرب في ذراها

وما الركن في قول ناس لست أذكرهم إلا بفيضة أوثان وأنصاب

لا حس للجسم بعد الروح نعلمه فهل تحس إذا بانث عن الجسد (١١٠)

ضحكنا وكان الضحك مناسفاة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا (*)

نحطمتنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك (١١١)

ويصل آخر الأمر إلى هذه النتيجة .

وإن جعلت بحكم الله في خرف يقضى الطهور فلإنى شاكر راضى (١١٢)

وهو يؤمن بوجود إله حكيم قادر على كل شيء ، ويعجب من الطبيب

الذى ينكر وجود الخالق بعد أن درس التشريح .

عجبي للطبيب يلحد في الخا لى من بعد درسه التشرىحا (١١٣)

لكنه حتى في هذه النقطة يثير بعض الصعاب فيقول :

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر

لا ذنب للذنيا فكيف نلومها واللوم يلحقنى وأهل نحاسى

عنب وخر فى الإناء وشارب فمن الملوام أعاصر أم حاسى

ويقول فى سخرية شبيهة بسخرية فلتير :

رأيت سجايا الناس فيها تظالم ولا ريب فى عدل الذى خلق الظلام (١١٤)

ثم ينفجر غضبه كما ينفجر غضب ديدرو Diderot فيقول :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فلإنما دياناتكم مكر من القدماء

أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا وماتت سنة اللوئام (١١٥)

(*) ومثل هذا قوله :

ضحكنا وليس ما يوجب الضحك لك لدينا بل ما يهيج التحابا (المترجم)

وساءة ما بدا له من كذب الناس وقسوتهم فاعتزل الناس وغلب عليه
التشاؤم ، فكان عند المسلمين شبيهاً بيمين الأثيني (*) : يرى أن لا أمل
في إصلاح الناس لأن شرور المجتمع ناشئة من طبائع الخلق :

كتب الشقاء على الفتى في عيشه وليبلغن قضاءه المحتوما
فما أذنب الدهر الذي أنت لأم ولكن بنو حواء جاروا وأذنبوا (١١٦)
رب متى أرحل عن عالمي فأنت بالناس خبير عليم
رب متى أرحل عن هذه الدنيا فقد أطلت المقام
ولهذا فإن خير ما يفعله الإنسان أن يعتزل العالم ويعيش وحيداً لا يلتقي
إلا صديقاً واحداً أو اثنين ، وأن يجيأ كما يجيأ الحيوان الوديع بعيداً
عن الخلق .

ويقول : لقد كان أفضل من هذا لو أن الإنسان لم يولد لأنه إذا ولد
قاسى العذاب والمحن حتى يبسط عليه الموت لواء السلام (١١٧) :

وما العيش إلا علة بروها الردى فخلى سبيلي أنصرف لطياتي
والعيش داء وموت المرء عافية إن داؤه يتوارى شخصه حسما
والعيش سقم للفتى منصب والموت يأتي بشفاء السقام
على الموت يجتاز المعاشر كلهم مقيم بأهليه ومن يتغرب
وما الأرض إلا مثلنا الرزق تبتغي فتأكل من هذا الأنام وتشرب
كأن هلالاً لاح للطعن فيهم حناء الردى وهو السنان المحرب
كأن ضياء الفجر سيف يسله عليهم صباح في المنايا ملرب
وليس في وسعنا أن ننجو من منجل الموت ، ولكن في وسعنا أن نفوت عليه

(*) انظر قصة تيمن الأثيني في مسرحية شيكسبير المعروفة بهذا الاسم ، أو في قصته
كما رواها تشارلس لام مترجمة في كتابنا «قصص من شيكسبير» : (المترجم)

غرضه بالأنا نلد له أطفالا : وفي ذلك يقول أبياتا من الشعر لا تفرق عن أقوال
المؤمنين أشد الإيمان بأقوال شوبهور :

وإذا أردتم للبنين كرامة فالخزم أجمع تركهم في الأظهر (**)(١١٨)

وقد عمل هو بهذه النصيحة ، وكتب بنفسه قبريته وهي أشد القبريات
مرارة وأكثرها إيجازاً وأعظمها حكمة :

هذا جناه أبي عليّ . وما جنيت على أحد (**)(١١٩)

ولسنا نعرفكم من المسلمين كانوا يشاركون المعري في تشككه ؛ ذلك
أن عودة العقائد السنية القوية بعد أيامه كانت أشبه برقابة مقصودة أو غير
مقصودة على ما انحدر إلى الأجيال التالية من أدب ذلك العصر ، وقد يؤدي بنا
هذا إلى الاستخفاف بما كان في العصور الوسطى من تشكك في العالم الإسلامي
كما حدث في العالم المسيحي . وبلغ الشعر العربي عند المتنبي والمعري ذروتها ، فلما
انقضى عهدهما علا شأن البحوث الدينية وسكن صوت الفلسفة ، فصنع هذا وذلك
الشعر العربي صبغة جديدة تنمى بعدم الإخلاص ، وتَصَنَعُ العاطفة ، وتكلف
الأناقة اللفظية في قصائد غثة تدور حول شئون بلاط الأمراء . وفي هذا الوقت
عينه كانت نهضة الفرس ، وبعثها ، وتحررها من حكم العرب تثير حمية الأمة
وتخلق فيها نهضة حققة . ولم تكن اللغة الفارسية قد استسلمت للغة العربية استسلاماً

(*) ومثلها :

أرى ولد الفقى عبثاً عليه لقد سعد الذى أسمى عقيما

أما شاهدت كل أبى وليد يؤم طريق حثف مستقيما

فأما أن يرييه عدواً وإما أن يظلفه يتيما

أرى النسل ذنباً للفقى لا يناله فلا تنكحن الدار غير عقيم

(**) لقد اعتمد المؤلف في إيراد هذه الأبيات وما سبقها على كتب نكلسون الواردة

في ثبت المراجع وهي جميعاً كتب مفيدة تمتعاً يرجع إليها الفضل فيما يعرفه علماء الغرب عن

روعة الشعر الإسلامى وتنوع أغراضه .

كلياً بل بقيت يتحدث بها الشعب ؛ فلما حل القرن العاشر أخذت هذه اللغة تثبت وجودها بالتدرج ، وتعود كما كانت لغة الحكيم والأدب . وكانت بذلك مظهراً لاستقلال الأمة الثقافي في عهد الأمراء الساسانيين والغزنويين . وظلت سائرة في هذا الطريق حتى أصبحت هي اللغة الفارسية الجديدة في هذه الأيام ، بعد أن استمدت ثروة طيبة من الألفاظ العربية ، وبعد أن استخدمت الخط العربي الجميل . وكان من أعظم مظاهر هذه النهضة الحديثة عمائرها الفخمة وشعرها العظم . وأضاف شعراء إيران إلى القصيدة والقطعة ، وإلى شعر الغزل المثنوي أو الشعر القصصي والرباعيات . وما لبث كل شيء في فارس - من وطنية ، وعاطفة ، وفلسفة ، ولواط ، وصلاح - أن عبر عنه الشعر .

• وبدأت هذه النهضة بالرودكي (المتوفى عام ٩٥٤) الذي كان يرتجل الشعر وينشد الأغاني ، ويعزف على القيثارة في بلاط السامانيين ببخارى . وفي هذا البلد نفسه ، وبعد جيل من ذلك الوقت طلب الأمير نوح بن منصور إلى الشاعر الدقيقي أن يصوغ الخبرنامة أو كتاب الملوك شعراً . وكان دانشوار (حوالي عام ٦٥١) قد جمع في هذا الكتاب قصص بلاد الفرس القديمة . وما كاد الدقيقي يتم كتابة ألف بيت حتى طعنه أحد عبيده المقربين طعنة قضت على حياته . وقام الفردوسي بالعمل بعده وأتمه وأصبح هومير بلاد الفرس .

وولد أبو القاسم منصور (أو حسن) في مدينة طوس (قرب مشهد) حوالي عام ٩٣٤ ، وكان والده يشغل منصباً إدارياً في بلاط السامانيين ، وخلف لولده بيتاً ريفياً في بزاعة بالقرب من طوس . وكان أبو القاسم يقضى وقت فراغه في البحث عن الآثار القديمة . واسترعى كتاب الخبرنامة انتباهه فاعتزم أن يحول هذه القصص الثرية إلى ملحمة قومية ، وسمى كتابه الشاهنامه ، أي كتاب الملوك ، واتخذ له حسب عادة تلك الأيام اسماً مستعاراً هو الفردوسي ، ولعله اشتق ذلك الاسم من غياض ضيعته . واتم الفردوسي ملحمة في صورتها الأولى بعد

خمس وعشرين سنة من الكدح المتواصل ، ثم سافر بها إلى غزنة (٩٩٩) راجياً أن يهديها إلى أميرها محمود الرهيب :

ويؤكد لنا أحد شعراء الفرس الأقدمين أنه كان في غزنة « أربعائة شاعر لا يفارقون مجالس السلطان محمود » . ولوصح هذا لكان وجود هؤلاء الشعراء عقبة كأداء في سبيل الفردوسى ، ولكنه مع هذا أفلح في استرعاء اهتمام الوزير فجاه بالخطوط الضخم إلى السلطان . وتقول إحدى الروايات إن محموداً هياً للشاعر مسكناً مريحاً في قصره ، وأمهه بقدر ضخ من المادة التاريخية ، وأمره أن يضمها إلى ملحمته . وتجمع كل الروايات التي وصلتنا من هذه القصة على اختلاف صورها أن محموداً وعده أن يعطيه ديناراً ذهبياً (٤٧٠ دولارات) نظير كل بيت من القصيدة في صورتها الجديدة . وظل الفردوسى يكدح زمناً لا نعرف طوله ؛ بلغت بعده القصيدة (حوالى عام ١٠١٠) صورتها النهائية ، واشتملت على ٦٠٠٠ بيت وجيء بها إلى السلطان . وأوشك محمود أن يبعث إلى الفردوسى المبلغ الموعود ، ولكن بعض بطانته استكثروا العطاء ، وأضافوا إلى هذا قولهم إن الفردوسى زنديق شيعى ومعتزل . واستمع لهم محمود وبعث إلى الشاعر بستين ألف درهم فضى (٣٠٠٠٠ ريال أمريكى) . وغضب الشاعر وأراد أن يظهر غضبه واحتقاره فقسم المبلغ بين خادم حمام وبتاع شراب ثم فر إلى هراة ، حيث اختفى ستة أشهر في حانوت بائع كتب ، حتى يئس من العثور عليه عمال محمود الذين أمرهم بالقبض عليه . ثم بلحاً الفردوسى إلى شهریار أمير شیرزاد (*) في طبرستان ، ونظم قصيدة هجوتها محموداً هجواً لاذعاً . وخشى شهریار غضب

(*) ليس شیرزاد أو شهرزاد اسم إقليم ولعل الأمر قد اختلط على المؤلف أو على من رجع إليه من المؤلفين . ولم يرد شیرزاد إلا في رواية محمد بن عبد الوهاب القزوينى في حواشى جهار مقاله إذ يقول إنه وجد في أصل الكتاب شهرزاد أو شیرزاد مكان شهریار . انظر مقدمة الشاهنامه للدكتور عبد الوهاب عزام في هذا وفي قصة يوسف وزليخا فيها تفصيل وواف عن قصة هذا الشاعر وبمحت علمى قيم في هذا الموضوع . (المترجم)

السلطان فايتاع القصيدة بمائة ألف درهم وأتلفها . وإذا جازنا أن نصدق هذه الأرقام ، ونعتقد بصحة تقديرنا إياها بنقود هذه الأيام ، حكمنا من فورنا أن الشعركان من أكثر الأعمال إدراراً للربح في فارس في العصور الوسطى . وانتقل الفردوسى بعدئذ إلى بغداد وكتب فيها قصة شعرية طويلة هي قصة يوسف وزليخا ، ثم عاد إلى طوس وكان وقتئذ شيخاً في السادسة والسبعين من العمر . وبعد عشر سنين من عودته سمع محمود بيتاً من الشعر فأعجب بقوة معناه وجزالة لفظه ، فسأل عن قائله ، ولما علم أنه من شعر الفردوسى ندم على أنه لم يكافئ الشاعر بما وعده به ، وأرسل إليه قافلة من الإبل تحمل ما قيمته ستين ألف دينار من النيلج ، ومعها رسالة اعتذار منه ، ولما دخات القافلة مدينة طوس التقت فيها بجماعة الشاعر (١٠٢٠ ق) .

وتعد الشاهنامه من أعظم الأعمال في الآداب العالمية في حجمها إن لم تكن في غيره . وإن من النبل بحق أن يترك شاعر الموضوعات التافهة ، والأعمال اليسيرة ، ويقضى خمسة وثلاثين عاماً من حياته يروى فيها قصة بلده في ١٢٠٠٠٠ بيت من الشعر - فكانت القصيدة بذلك أطول من الإلياذة والأوديسة مجتمعتين . فهاهو ذا شيخ طاعن في السن جن جنونه بوطنه ، وشغف حبا بكل ما حوته سجلاته من تفاصيل ، خرافة كانت أوحقيقة . وتصل الملحمة إلى نصفها قبل أن يصل بها الشاعر إلى العصور التاريخية . ويبدأها بالشخصيات الأسطورية الواردة في الأستاق ، ويحدثنا عن جيومرث ، آدم الديانة الزردشتية ، ثم عن جمشيد العظيم حفيد جيومرث « الذي حكم العالم ٧٠٠ سنة . . . والذي سعد للعالم بحكمه ، ولم يكن يُعرف في أيامه موت ولا حزن ولا ألم » . ولكن جمشيد بعد أن مرت به بضعة قرون « باض الشيطان في رأسه وفرخ ولوى جيده عن طاعة ملاك الرقاب ، متعرضاً بغمظ نعمه لقاصمة العقاب » « وظن أنه ليس على ظهر الأرض سواه ، وادعى أنه إله ، وبعث بصورته لكي يعبدها الناس » (١٢١) . ونصل أخيراً

إلى بطل الملحمة رستم بن زال أحد أمراء الإقطاع في تلك الأيام . ولما بلغ رستم من العمر خمسمائة عام وقع زال في هوى جارية شابة فولدت منه أخا لرستم . ويخدم رستم ثلاثة ملوك وينجيهم من الموت ، ثم يهجر حياة القتال حين تبلغ سنه أربعمائة عام . ويطول عمر جواده الأمين الرخش كما يطول عمر سيده أو ما يقرب منه ، ويكاد يبلغ من البطولة ما بلغه ، ويلقى هذا الجواد من الفردوسى الحب والدعابة اللذين يلقاها الجواد الأصيل من كل فارسي . وفي الشاهنامه قصص حب جميلة ، وفيها بعض ما في شعر شعراء الفروسية الغزلين في أوروبا في العصور الوسطى من تعظيم للنساء . فيها صور ساحرة للنساء البارعات الجمال - منها صورة للملكة سودابة التي كانت تتحجب حتى لا يرى أحد جمالها ، والتي كانت تسير مع الرجال كما تسير الشمس خلف السحاب (١٢٢) . ولكن الحب ليس له شأن كبير في حياة رستم ، لأن الفردوسى يرى أن عاطفة الحب الأبوى والبنوى يمكن أن تكون أعظم وقماً في النفوس من عاطفة الحب الجنسى . بيد أن رستم يقع أثناء إحدى حروبه البعيدة في حب فتاة تركية تدعى تهمينة ، ثم تخفى عن عينه فلا يقف على أثرها ، ثم تربي ابنهما سهراب والحزن يملأ قلبها والكبرياء يرفع رأسها بين أترابها ، وتحدث الشاب عن أبيه العظيم الذي لا تعرف مقره ، ويلتقي الأب والابن في حرب بين الترك والفرس ، ويقف كلاهما ليقاتل الآخر دون أن يعلما حقيقة أمرهما . ويعجب رستم بشجاعة الصبي الوسيم ، ويعرض عليه أن يحفظ عليه حياته ؛ فيرفض الغلام هذا العرض بازدياد ، ويقاتل قتال الأبطال ، ويصاب بجرح مميت . ويقول وهو يحتضر إن أشد ما يحزنه أنه لم ير أباه رستم ، ويدرك المنتصر أنه قتل ابنه . ويعود جواد سهراب بغير فارسه حتى يدخل معسكر الترك ويصل الخبر إلى والدته في منظر من أجمل مناظر الملحمة :

تئن وتجار جهد الحزين وينتابها الغشى في كل حين
أطالت بكاء ابنها والنحيبا فأجرت من الناس دمعاً سكوباً

وخرت على الأرض جراً نحمد كأن بها دمها قد جمد
وعادت ترجع تخانها وتذكى على الابن أحزانها
وجاءت إلى طرفه الطائر إلى زينة الزمن الناصر
فلزت إلى رأسه صدرها يرى الناس في عجب أمرها
وجاءت لخلته في كمد تعانقها كابنها المفتقد(*)

والقصة كلها غاية في الوضوح يتنقل القارئ فيها تنقلا سريعا من
حادثة إلى حادثة ، ولا يحس بوحدها إلا حين يشعر بوجود الوطن المحبوب
في كل سطر من سطورها وإن كان لا يبصره بعينه : ونحن ، الذين لانجد
لدينا من الفراغ ما كان يجده الناس قبل أن تخترع تلك الوسائل الكثيرة التي
توفر عليهم أوقاتهم ، لانجد متسعا من الوقت نقرا فيه كل أبيات القصيدة
وندفن فيه كل ملوكها ؛ ولكن هل منا من قرأ كل سطر من أسطر
الإلياذة أو الإنياذة ، أو المسلاة المقدسة ، أو الفردوس المفقود ؟ إن هذه
الملاحم القصصية لا يستطيع قراءتها إلا الذين أوتوا القدرة على فهمها .
أما نحن فبعد أن نقرا مائتي صفحة من صفحات الشاهنامه نمل من قراءة
أخبار انتصارات رسم على الشياطين ، والوحوش ، والسحرة ، والأتراك ؛
ولكن سبب هذا الملل أننا لسنا إيرانيين ، لم نسمع إلى أنغام الشعر الفارسي
الأصيل الرنانة العذبة ، ولا نتأثر بها كما يتأثر بها الفرس الذين أطلقوا اسم
رسم على ثلثمائة قرية في ولاية واحدة من بلادهم . وقد احتفل العالم المتعلمين
في آسية وأوربا والأمريكتين في عام ١٩٣٤ بالعيد الألف للشاعر الذي ظل
كتابه الضخم غذاء لروح الشعب الإيراني مدى ألف عام :

(*) هذه الأبيات منقولة عن الترجمة العربية للشاهنامه من الفصل الذي أغفله الفتح بن
عل البنداري وترجمه الدكتور عبد الوهاب عزام . (المترجم)

الفصل السابع

الفن (*)

لما فتح العرب بلاد الشام لم يكن لديهم من الفنون سوى الشعر، ويقال إن النبي حرم في النحت والتصوير لأنهما من قبيل عبادة الأوثان - كما نهى عن الموسيقى، ولبس الحرير الثمين، والتحلل بالذهب والفضة لأنهما من أسباب التنعم المؤدى إلى الانحلال؛ ومع أن العرب أخذوا بحلوت شيتا فشيئا من هذا التحريم، فإن الفن الإسلامي في ذلك العهد الأول كان ينحصر في فنون العمارة، والخزف، والزركشة. يضاف إلى هذا أن العرب أنفسهم كانوا إلى عهد قريب بدواً أو تجاراً، ولم يكونوا ذوى براعة فنية ناضجة؛ وكانوا يعترفون بقصورهم في هذا الميدان، ولذلك لجأوا إلى الأشكال والتقاليد الفنية المتبعة في بزنطية، ومصر، والشام، وبلاد العراق، وإيران، والهند، فعدلوا بها بما يوائم طبيعتهم، كما لجأوا إلى الفنانين والصناع من أهل تلك البلاد. من ذلك أن نقوش قبة الصخرة في بيت المقدس وعمارة مسجد الوليد الثاني في دمشق كانت بزنطية خالصة. وفيما يلي هذه البلاد من جهة الشرق اتخذ العرب حليات القرميد التي كانت متبعة في بلاد آشور وبابل القديمة، كما اتخذوا أشكال الكنائس الأرمنية النسطورية؛ وبعد أن دمر المسلمون في بلاد الفرس كثيراً من الأعمال الساسانية الأدبية والفنية تنهبوا إلى مزايا مجموعات العمد، والأقواس

(*) نحن مدينون بهذا الفصل إلى كتاب « نظرة شاملة في الفن الفارسي » Survey of Persian Art. الذى نشره آرثر أهام بوب Arthur Upham Pope، وبخاصة للفصول التى كتبها بنفسه. وإن عمله العظيم في هذا الميدان الذى أجاده وأخلص فيه، والذى يضارع في عظمته ما عمله جيمس هنرى برستد في تاريخ مصر لمن الأعمال الخالدة التى تشهد له بدقة البحث وغازاة العلم وحب الإنسانية في أجل مظاهرها.

المستدقة والعقود ، والنقوش المكونة من أوراق النبات والأشكال الهندسية التي آثرت آخر الأمر طراز الزخرفة العربي المعروف . ولم تكن هذه النتيجة تقليداً محضاً ، بل كانت تركيباً بارعا من أشكال مختلفة لا يتقص من شأنها ما أخذه المسلمون عن غيرهم من الأمم . وتخطى الفن الإسلامي الذي انتشر من قصر الحمراء في الأندلس إلى التاج محال في الهند كل حدود الزمان والمكان ، وكان يسخر من التمييز بين العناصر والأجناس ، وأنتج طرازاً فذاً ولكنه متعدد الأنواع ، وعبر عن الروح الإنسانية بأناقة موفورة فياضة لم يفقها شيء من نوعها حتى ذلك الوقت .

ويكاد فن العمارة الإسلامية ، كمعظم فنون العمارة في عصر الإيمان ، أن يكون كله فناً دينياً خالصاً . ذلك أن مساكن البشر كانت تقام ليقضوا فيها حياتهم الدنيوية القصيرة الأجل ؛ أما بيوت الله فكانت ، من داخلها على الأقل ، نماذج من الجمال الخالد . غير أننا مع هذا نسمع عن قناطر ، وقنوات بلجر مياه الشرب ، وفساق ، وخزانات لمياه الري ، وحمامات عامة ، وقلاع ، وأسوار ذات أبراج وإن لم يبق من آثار هذه كلها إلا القليل . وقد أقامها مهندسون معاريون ، كان الكثيرون منهم في القرن الأول بعد الفتح الإسلامية من المسيحيين ، ولكن كثرتهم الغالبة كانت فيما بعد من المسلمين . ولما جاء الصليبيون إلى بلاد المسلمين وجدوا مباني حربية ممتازة في حلب ، وبعليك ، وغيرها من مدن الإسلام في الشرق ، وعرفوا هناك فوائد الأسوار ذات المزاغل ، وأخذوا عن أعدائهم كثيراً من الأفكار التي أقاموا على أساسها حصونهم وقلاعهم المعدومة النظر ، ولقد كان قصر إشبيلية ، وقصر الحمراء في قرطبة حصنين وقصرين معاً .

ولم يبق من قصور بني أمية إلا القليل . ومن هذا القليل الباقي بيت ريفي في قصر عمرة بالصحراء الواقعة في شرق البحر الميت ، وتكشف بقاياها عن حمامات ذات قباب ، وجدران ذات مظلمات . ويؤكد لنا المؤرخون أن قصر عضد الدولة

في شيراز كان يحتوي على ثلثمائة وستين حجرة واحدة منها لكل يوم من أيام السنة ، وقد طليت كل حجرة بطلاء مكون من مجموعة فذة من الألوان ، وخصصت منها واحدة للمكتبة ، وكانت حجرة رحبة يبلغ ارتفاعها طابقين ، ذات بواك وعقود ، ويقول عنها أحد مؤرخي الإسلام المتحمسين إنه لم يكن ثمة كتاب في أى موضوع من الموضوعات لا تحتوى المكتبة نسخة منه (١٢٤) .

ولسنا نشك في أن للخيال أكبر نصيب فيها وصفت به شهرزاد مدينة بغداد ، ولكنه وصف بصور ما كانت عليه فخامة النقوش في داخل القصور وأصدق تصوير (١٢٥) . وكان لأغنياء المسلمين بيوت في الريف وقصور في المدن . وكانت لهم في المدن نفسها حدائق كبرى ، أما بيوتهم في الريف فكانت حدائقها « جنات » حقة - فيها بساتين ذات عيون ، وجداول ، وفساق ، وبرك مبطنة بالقرميد ، وأرهار نادرة ، وظلال ، وأشجار فاخرة ونُقل ، وكانت تحتوى عادة على سرادق يستمتع فيه أهل القصر بالهواء الطلق ، دون أن يضايقهم وهج الشمس . ركان الدين في فارس دين أزهار ، فقد كانت تحتفل بأعياد الورد احتفالات تحوى جميع مظاهر الأبهة والفخامة ، وطبقت شهرة ورد شيراز وفيروزباد جميع أرجاء العالم ، وكانت الورد ذات المائة من الأوراق من الهدايا التي يحمدها لمهديها الخلفاء والملوك (١٢٦) .

وكانت بيوت الفقراء وقتئذ ، كما هي الآن ، أبنية مستطيلة الشكل ، مقامة من اللبن الملتصق بالطين ، سقفها خليط من الطين ، وأعواد النبات ، وغصون الأشجار ، وجريد النخل ، والقش . وكانت البيوت الأرقى من هذه نوعاً تشتمل على فناء داخلي مكشوف ، ذى فسقية ، وشجرة في بعض الأحيان ؛ وكانت تحتوى أحياناً على طائفة من العمد الخشبية ، ورواق مسقوف بين الفناء والحجرات . وقتما كانت البيوت تبقى على الشارع أو تطل عليه ، لأنها كانت حصوناً للعزلة ، تقام للأمن والسلام ؛ وكان لبعضها أبواب سرية ، يهرب منها سكانها من فورهم إذا هوجموا أو أريد اعتقالهم ، أو يدخل منها الحبيب سرّاً (١٢٧) .

وكان في كل البيوت ، عدا بيوت أفقر الناس ، أجنحة خاصة بالنساء ، لكل منها في بعض الأحيان فناء مستقل . وكانت بيوت الأغنياء خالية من أنابيب الماء ، الذي يحمل إليها من خارجها كما تحمل الفضلات منها . وكانت بعض البيوت الحديثة الطراز تؤلف من طابقين تتوسط الواحد منهما حجرة لجلوس الأسرة عامة تعلوها قبة ، وفي الطابق الثاني منها شرفة تطل على فناء البيت . ولم يكن بيت من البيوت عدا أفقرها يخلو من مشربية من الخشب لتدخل الضوء ، وتمنع حرارة الشمس ، وتمكن من بداخل البيت أن يطلوا على خارجه دون أن يراهم من الخارج . وكثيراً ما كانت هذه المشربيات متقنة النحت ، وكانت هي النماذج التي صنعت على غرارها السور الحجرية أو المعدنية التي ازدانت بها القصور والمساجد فيما بعد . ولم يكن بالبيت مدفأة ثابتة في جدرانها ، بل كان يدفأ بموقد نحاسي متنقل يحرق فيه الفحم الخشبي ؛ وكانت الحجرات تخصص وتطلى عادة بألوان متعددة . وكانت الأرض تفرش بطنافس من نسيج اليد ، وقد يكون عليها كرسي أو كرسيان ، ولكن المسلمين كانوا يفضلون أن يتربعوا فوق الطنافس . وكانت أرض الحجرة ترتفع بجوار الجدران في ثلاث نواح منها بقدر قدم ، أو ما يقرب منه ليتكون من ذلك ديوان يفرش بالوسائد . ولم تكن في هذا النوع من البيوت حجرة خاصة بالنوم ، وكان فرش النوم مكوناً من حشية تطوى في أثناء النهار وتوضع في مكان لمصاص كما يفعل أهل اليابان في هذه الأيام . وكان أثاث البيت بسيطاً : يتألف من بضع مزهريات ، وآنية المطبخ ، ومصابيح ، وكوة للكتب في بعض الأحيان .

وكان حسب المسلم التي الفقير أن يكون المسجد جميلاً ، وكان ينفق في تشييده جهده وماله . ويجمع فيه فنونه وصناعاته ويضعها كالطمنسة بين يديه الله ، وكان في وسع الناس جميعاً أن يستمتعوا بهذا الجمال وبذلك العظمة ، وكان

المسجد يقام عادة بالقرب من سوق المدينة يسهل الوصول إليه من كافة
أنحائها . ولم يكن عادة فخماً ذا روعة وبهاء من خارجه . وإذا استثنينا
واجهته الأمامية فإنه لم يكن يسهل تمييزه في بعض الأحيان من المباني المجاورة
له ، وقد يكون أحياناً ملتصقاً بها التصاقاً ، وقلما كان يشيد من مواد أفخم
من الآجر المطلي بالمصيص . وقد حدد شكله الغرض الذي أقيم من أجله :
فكان يتألف من بهو رباعي الشكل يتسع للمصلين ، ومن حوض أوسط
ونافورة للوضوء ، تحيط بها إيواناته ذات البواكي لوقاية المصلين وإظلالهم ،
وليتلقوا فيها الدروس ، وفي ناحية الصحن المتجهة إلى مكة كان يقوم بناء
المسجد الأصلي ، وهو في العادة قسم مسور من الرواق . وكان هذا القسم
أيضاً ذا شكل رباعي يمكن المصلين من أن يقفوا صفوفاً مترابطة متجهين
أيضاً إلى مكة . وقد يكون فوق هذا الصرح قبة ، تكاد تبنى في جميع الأحوال
من الآجر ، تبرز كل طبقة منها عما تحتها بمقدار قليل نحو الداخل وتطلى
بالجص لإخفاء هذا البروز (١٢٨) . وكان الانتقال من القاعدة الرباعية إلى
القبة المستديرة يتم كما يتم في العمارة الساسانية أو البيزنطية بأن تتوسطهما في
القبة عدة أكتاف مثلثة الشكل بين عقدين متعامدين ، أو سلسلة من العقود
الحجرية الصغيرة تقام عليها جوانب القبة . وأهم ما يمتاز به عمارة المساجد
هو المثلثة ، والراجح أن المسلمين في بلاد الشام قد أخذوا فكرة المثلثة من
الزجورات - الصرح - البابلي وبرج الجرس في الكنائس المسيحية ، وأخذ
الهنود المسلمون الشكل الاسطواني من بلاد الهند ، وتأثر مسلمو إفريقية
في تخطيطها بمنارة الإسكندرية ذات الأركان الأربعة (١٢٩) . وليس يبعد
أن تكون الأبراج ذات الأركان الأربعة في المساحة التي أقيم عليها الهيكل القديم
في دمشق ، ذات أثر في شكل المثلثة (١٣٠) ، وكانت في هذا العهد الأول بسيطة
خالية في أغلب الأحيان من الزخرف ، ولم تصل إلا في القرون المتأخرة إلى
ما وصلت إليه من الدقة والارتفاع ، أو نحو ما احتوته من الشرفات الرقيقة الهشة ،

والبواكى الزخرفية ، والسطوح القاشانية ، التي أنطقت فرجسون Fergusson بقوله « إنها أعظم الأبراج رشاقة في عمارة العالم كله » (١٣١) .

وقد احتفظ المسلمون لداخل المسجد بأبهج الزخارف وأجملها وأكثرها تنوعاً ، احتفظوا لهذا الداخل بالفسيفساء وقطع القرמיד البراقة لأرض المسجد ومحرابه ؛ وبالزجاج ذى الأشكال والألوان البديعة لنوافذه ومصايحه ؛ وبالطنافس العالية والبسط الفخمة تفرش على أرضه للصلاة ؛ وبألواح الرخام الجميل الألوان تثبت على الأجزاء السفلى من الجدران ؛ وبالأفاريز الجميلة ذات الكتابة العربية حول المحراب والطنف ؛ وبالنقوش الجميلة فى الخشب أو العاج أو المصنوعة من المعدن فى الأبواب ، والسقف ، والمنابر ، والسجف . . . أما جسم المنبر نفسه فكان يصنع من الخشب تبدل أعظم العناية فى نحته ونقشه وتطعيمه بالعاج والأبنوس . وبالقرب من المنبر توجد الدكة المقامة على عمد صغيرة وعليها نسخة من كتاب الله . وكان الكتاب نفسه بطبيعة الحال أنموذجاً لجمال الخط وروعة الفن الدقيق . ويجاور المنبر القبلة وهى جزء داخل فى جدار المسجد لعله مأخوذ من القبا فى الكنائس المسيحية . وقد أفرغ الصناع والفنانون كل جهودهم فى تزيين هذا المحراب حتى كان يضارع المذبح أو المحراب المحيط به فى الكنائس والهياكل ، فجملوه بالقاشانى والفسيفساء ، وصور أوراق الشجر وأزهاره ، والنقوش البارزة ، والأنماط الجميلة ، ذات الألوان البديعة من الآجر ، والجص ، والرخام ، والطين المحروق ، والقاشانى .

وأكبر الظن أننا مدينون بما بلغه فن الزخرفة من عظمة وفخامة إلى تحريم الساميات تمثيل صور الإنسان والحيوان فى الفن ! فكان الفنانين المسلمين أراذوا أن يعوضوا هذا التحريم فاخترعوا هذا الفيض الغامر من الأشكال غير البشرية أو الحيوانية ، وأخذوا ما كان منها موجوداً عند غيرهم . فبحث الفنان فى أول الأمر عن معتقد لواهبه الفنية فى الأشكال الهندسية - الخط ، والزاوية ، والمربع ،

والمكعب ، والكثير الأضلاع ، والمخروط ، والشكل اللولبي ، والقطع الناقص ، والدائرة ، والكرة ، وكرر هذه الأشكال كلها وركب منها مئات التراكيب ، وأنشأ منها الدوامات ، والأربطة ، والخطوط المتشابكة المتداخلة ، والنجوم . ولما انتقل إلى الأشكال النباتية عمد إلى المواد المختلفة ، فصور من مختلف المواد ، تيجاناً ، وكروما ، وأزهار البشيين . والكُنُكُر ، وخصوص النخل وجريده . فلما جاء القرن العاشر مزج هذه كلها فأنشأ منها الزخرف العربي اللذائع الصيت ، وأضاف إليها كلها حلية فذة كبرى هي الكتابة العربية . ذلك أنه عمد في العادة إلى الحروف الكوفية فأطالها إلى أعلى أو مدها على الجانبين ، أو نَمَقَها بالذيول والنقاط ، حتى استحالت الحروف الهجائية على يديه تحفة فنية ذات روعة وجمال . ولما تحلل الناس بعض الشيء من القيود والمحرمات الدينية أدخل الفنان أنواعاً جديدة من الزينة بأن رسم طير السماء ، وحيوان الحقل ، أو ابتدع أشكالاً عن الحيوانات المختلفة لا وجود لها إلا في مخيلته . واستطاع بفضولته وشغفه بالزينة أن يسمو بكل شكل من أشكال الفن - التسيفساء ، والنقوش الصغيرة على العاج ونحوه ، والخزف ، والأقشة ، والبسط . وكان النقش في كل حالة تقريباً تؤلف بين أجزائه وحدة منظمة ، تسيطر عليها صورة رئيسية ، أو موضوع رئيسي ، ينمو ويتطور من الوسط إلى الأطراف أو من البداية إلى النهاية ، كما يفعل المؤلف بالموضوع الموسيقي . ولم يكن الفنان المسلم يرى أن أية مادة مهما قست تستعصى على فنه ؛ ولهذا أصبح الخشب ، والمعدن ، والآجر ، والجص ، والحجر ، والقرميد ، والزجاج ، والقاشاني - أصبحت هذه كلها وسائل يستخدمها لإظهار ما في خياله من صور وأشكال فنية مجردة لم يسم إلى مستواها فن آخر من قبل لا نستثنى من ذلك الفن الصيني نفسه .

واستعانت العمارة الإسلامية بهذا الفن الزخرفي فأقامت في جزيرة العرب ، وفلسطين ، والشام ، وأرض الجزيرة ، وفارس ، والتركستان ، والهند ، ومصر

وتونس ، وصقلية ، ومراكش ، والأندلس - أقامت في هذه البلاد كلها عدداً لا يحصى من المساجد جمعت بين القوة والمتانة في خارجها ، والرشاقة والركة في داخلها ، نذكر منها مساجد المدينة ، ومخة ، وبيت المقدس ، والرملة ، ودمشق ، والكوفة ، والبصرة ، وشيراز ، ونيسابور ، وأردبيل ، ومسجد جعفر في بغداد ، ومسجد سر من رأى العظيم ، ومسجد زكريا في حلب ، ومسجد ابن طولون والجامع الأزهر في القاهرة ، ومسجد تونس الكبير ، ومسجد سيدي عقبة في القيروان ، والمسجد الأزرق في قرطبة - وليس في مقدورنا إلا أن نكتفي بذكر أسمائها لأن مئات المساجد التي بنيت في ذلك الوقت لم يبق منها ما يمكن تمييزه إلا عشرة أو نحوها ، أما سائرها فقد عدا عليه الزمان فدمره بفعل الزلازل أو الإهمال أو الحروب .

وقد كشف في العصر الحديث في بلاد الفرس وحدها - وهي جزء صغير من بلاد الإسلام - عن صروح فخمة لم يكن يدور بخلدنا أنها توجد في تلك البلاد ، وكان كشف آثارها من الحوادث الكبرى في إزاحة الستار عن الماضي المجهول (*) وإن كان هذا الكشف قد جاء بعد أوانه بزمن طويل ، لأن كثيراً من روائع العبارة الفارسية قد عبثت به قبل ذلك الكشف يد الزمان فلم تبق منه شيئاً . وحسبنا أن نذكر في هذا المقام أن المقدسي يصف في فارس مساجد لا تقل روعة عن مساجد المدينة ودمشق ويقول إن مسجد نيسابور ذا العمدة الرخامية ، والصفائح الذهبية ، والحدران ذات النقوش المحفورة الكثيرة كان من عجائب الزمان ؛ وإنه لم يكن في خراسان أو سجستان من المساجد ما يضارع في جماله مسجد هيراة (١٣٢) . وفي وسعنا أن نصور لأنفسنا صورة غامضة مما بلغته

(*) في عام ١٩٢٥ صرح رضا خان ، الذي جلس بهدوء على عرش فارس ، إلى آرثر أهام پوپ Arthur Upham Pope بدخول مساجد بلاد الفرس وكان محرماً على غير المسلمين من قبل أن يدخلوها ، لكي يصورها من الداخل . وكان هذا حادثاً عظيماً كشف للعالم عن بدائع الفن الفارسي وروعته .

العازة الفارسية في القرنين التاسع والعاشر من روعة ووفرة ، بدراسة النقوش الحصية البارزة ، والعمد والبيجان المحفورة الباقية ، من محراب مسجد تايين الجامع المحرب ، والمثلثتين الجميلتين الباقيتين في دماغان . وقد بقي من مسجد أردستان (١٠٥٥) محراب وباب جميلان ، كما كشف فيه عن كثير من العناصر التي تجلت فيما بعد في العقود القوطية المستدقة ، والأكتاف المركبة ، والأقبية المتقاطعة ، والقبة المضلعة (١٣٣) . وكانت المادة التي شيدت منها هذه المساجد والكثرة الغالبة من المساجد والقصور الفارسية هي الآجر ، شأنها في ذلك شأن المباني القديمة في بلاد سومر وأرض الجزيرة ؛ وسبب ذلك ندرة الحجارة وكثرة ما تتطلبه من النفقات ، ووفرة الطين والنيران ؛ لكن الفنان الفارسي قد حول طبقات الآجر بفضل ما أدخله عليها من الضوء والظل ، والنماذج الفنية الجديدة ، والأوضاع الفنية المختلفة ، حول هذه الطبقات إلى أنواع من الزخرف لم تعرف هذه المادة القليلة الشأن نظيراً لها من قبل . وقد كسا الخزاف الفارسي الآجر في أماكن خاصة ، كدخايل المساجد والمنابر والمحاريب ، بطبقة من القسيفساء متعددة الألوان ، وبالقرميد الزاهي البراق ؛ ولما أقبل القرن الحادي عشر زاد السطح البراق لألاء وبهاء بطبقة من القاشاني الملون اللامع . وهكذا نخدم المسجد كل فن في بلاد الإسلام ، نزل إلى هذه الخدمة من العلياء وكسب بها فكراً وكبرياء .

وإذ كان قد حرم على المثال أن يتحت التماثيل خشية أن يعود الناس إلى عبادة الأوثان ، فقد وجه جهوده إلى الزخرفة بالنقوش البارزة . فأنقن تحت الحجارة ، وشكل الحص باليد قبل أن يمحف ، وصاغ منه أشكالاً كثيرة مختلفة ، وقد بقي أنموذج رائع من هذه العماير ، وهو القصر الشتوي الذي بدأه الوليد الثاني عام ٧٤٣ بالصحرَاء الشرقية إلى شرق نهر الأردن وتركه دون أن يتمه . وكان حول سطح الواجبة من أسفل إفريز من الحجر المنحوت ذو جمال بارع يتكون نقشه من مثلثات وأزهار الورد يحيط بها إطار من الأزهار ، والفاكهة ، والطيور ،

والحيوان ، والنقش العربي . وقد تقل هذا النقش الرائع إلى برلين في عام ١٩٠٤ ونجا من الدمار في أثناء الحرب العالمية الثانية . وكان النجارون يحملون النوافذ ، والأبواب ، والسترات الخشبية ، والشرفات ، والسقف ، والمناضد ، وكراسي المصاحف ، والمناير ، والمحاريب ، ويبدعون في نقشها لإبداعا يستطيع الإنسان أن يراه في لوحة وجدت في تكريت ونقلت إلى المتحف الفنّي في نيويورك . كذلك كان الصناع المشتغلون بنحت العاج والخشب يزينون بفنهم المساجد ، والمصاحف ، والأثاث ، والآنية ، والأشخاص أنفسهم ، ويحملونها بمصنوعاتهم المنحوتة والمطعمة . غير أنه لم يصلنا من مصنوعات ذلك العصر إلا قطعة واحدة هي طابية من قطع الشطرنج (توجد الآن في المتحف الأهلي بفلورنس) ويقال إنها إحدى قطع الشطرنج الذي أهدها هرون الرشيد إلى شارلمان في القرن التاسع الميلادي (١٣٤) . كذلك أخذ صانعو المعادن المسلمون عن الساسانيين هذا الفن الدقيق ، وصنعوا من النحاس والشبه مصابيح ، وأباريق ، وجفانا ، وجرارا ، وكيزانا ، وأقداحا ، وأطساتا ، ومواقد ، ومصبوها في صور الآساد ، والأفاعي ، وآباء الهول ، والطواويس ، والإمام . ونقشوا عليها في بعض الأحيان رسوماً بديعة نشاهد مثلاً منها في المصباح الشبيه بالقماش المحرم والمحفوظ في معهد الفن بمدينة تشكاجو . ومن الصناع من كانوا يحشون الرسوم المحفورة بالفضة والذهب ، ويبدعون المصنوعات المعدنية « الدمشقية » أي المزخرفة بفن الدمشقيين وإن لم يكن قد نشأ في مدينتهم (١٣٥) . وكانت السيوف الدمشقية تصنع من الفولاذ المسقى المزين بالنقوش البارزة أو المطعم بالرسوم العربية ، أو الحروف الهجائية ، أو غيرها من الأشكال المتخذة من خيوط الذهب أو الفضة . وقصارى القول أن صناع المعادن المسلمين قد برعوا في هذا الفن براعة ليس بعدها زيادة لمستزيد .

ولما انتهى عصر الفتح الإسلامية واستقر المسلمون في البلاد المفتوحة وأحلوا عنها ثقافتها ألفوا أنفسهم في صناعة الفخار الوارثين لتقاليد خمسة في هذا

الفن هي التقاليد المصرية ، والإغريقية - والرومانية ، والعراقية ،
والفارسية ، والصينية . ونقول الصينية لأن سار Sarre كشف في سر من
رأى فخارا من عهد أسرة تانج ومعه قطع من الخزف الصيني الرقيق ؛
وكانت الأواني الفارسية - الإسلامية في عهدها الأول منقولة نقلا لا خفاء
فيه عن نماذج صينية . ونشأت مراكز صناعة الفخار في بغداد وسامرا (*) ،
والرى ، وكثير غيرها من البلدان . ولم يحل القرن العاشر الميلادي حتى
كان صانعو الفخار من الفرس يصنعون كل أنواع الآنية الفخارية ما عدا
الخزف الصيني ، ويصنعونه في أشكال لا حصر لها تبدأ من المباشق اليدوية
الصغيرة إلى المزهريات الضخمة المهولة ، التي تتسع في القليل لأحد
« اللصوص الأربعين » (١٣٦) ، ويتبين الإنسان في خير المصنوعات الفخارية
الفارسية دقة في التصوير ، وبراعة في التلوين ، وحلقة في الصناعة لا تسمو
عليها إلا الصناعتان الصينية واليابانية ؛ وظلت ستة قرون لا تضارعها
صناعة أخرى في جميع الأقاليم الممتدة جنوب هضبة الهامير وغربها (١٣٧) ؛
وكان هذا الفن من أحب الفنون إلى الفرس وأكثرها موامة لهم ؛ وكان
أهل الطبقة العليا منهم يحرصون أشد الحرص على جمع روائعه ، وكثيراً
ما أخذ عنه الشعراء أمثال أبي العلاء المعري وعمر الخيام تشبيهات واستعارات
في أقوالهم الفلسفية . ويحدثنا الكتاب عن مأدبة أقيمت في القرن التاسع
ارتجلت فيها قصائد ، وأهديت إلى الآنية التي كانت تزدان بها المائة (١٣٨) .

وقد امتاز صانعو الفخار في سامرا وبغداد في ذلك القرن بصنع الفخار اللامع
أو لعلهم هم ابتدعوه ابتداء . وكانت النقوش التي تحايه ترسم بأكسيد
معدني على طبقة من الطين المزجج ، ثم يعرض الإناء بعدئذ إلى نار ثانية ملدخنة
مكتومة تحول الصبغة إلى طبقة معدنية رقيقة ، وتكسب الطلاء بريقا متعدد

(*) وهي مُسَرَّ من رأى وتسمى أيضاً مُسَرَّاء . (المترجم)

الألوان . وبهذه الطريقة أخرج الصانع أواني ذات لون واحد جميل ، وأخرى ذات ألوان متعددة أجمل منها خضراء ذهبية ، وبنية داكنة ، وصفراء ، وحمراء ، تتدرج بعضها تدرجاً لا يكاد الإنسان يحسه ولا تقل عن المائة عدا . وكذلك طبق هذا الفن نفسه فن الطلاء البراق على قطع الفرميد التي كانت تستخدم للزينة في فن العراق القديم ، فكانت ألوان هذه المربعات الكثيرة وما تألف منها من وحدات متناسقة مما أكسب مداخل مئات المساجد ومحاريبها وكثيراً من جدران قصور العطاء روعة منقطعة النظير . وورث المسلمون في صناعة الزجاج - وهو الفن الشديد الاتصال بصناعة الفخار - كل ما امتاز به أهل مصر والشام من حذق وبراعة ، فقد لونوا المصابيح بظلال من الألوان البراقة المتعددة ، وزينوها بالرصاص والتقوش ، ورسوم النبات والأزهار ، ولعل أهل الشام قد ابتدعوا في ذلك الوقت فن طلاء الزجاج بالمينا ، وهو الفن الذي بلغ ذروة مجده في القرن الثالث عشر .

وإذا ما ذكرنا سعة انتشار فن التصوير والنحت في الكنائس الكاثوليكية الكبرى وهي التي لا تكاد تخلو من آثاره واحدة منها ، وذكرنا في الوقت نفسه أهمية هذين الفنين في نشر العقائد والقصص المسيحية ، إذا ما ذكرنا هذا وذاك دهشنا لعدم وجود نظيريهما في الإسلام . نعم إن القرآن قد حرم النحت (سورة المائدة الآية ٨٩) ولكنه لم يقل شيئاً عن التصوير ؛ غير أن حديثاً يعزى إلى عائشة يقول إن النبي قد نهى أيضاً عنه (١٣٩) . ولهذا فإن الشريعة الإسلامية عند الشيعة وعند أهل السنة على السواء تحرم التصوير وإقامة التماثيل جميعاً . ولهذا التحريم نظير في الوصية الثانية وفي التعاليم اليهودية . ولعل من أسباب هذا التحريم الاعتقاد أن الفنان حين يخرج مثالا للكائنات الحية إنما يدعى لنفسه ما هو من حقوق الخالق جل جلاله . ومن علماء الدين من يتساهلون في هذا فيجيزون تصوير الجماد . ومنهم من يتغاضون عن تصوير الحيوان أو الإنسان على

الأشياء التي لا تستعمل إلا في الأغراض الدنيوية . وكان بعض خلفاء بني أمية لا يعثون قط بهذا التحريم ؛ وشاهد ذلك أن الوليد الأول زين قصره الصبغى في قصر عمره حوالي عام ٧١٢ بمظلمات هلنستية بصور فيها رجالا يطاردون الوحوش ، وبنات يرقصن ، ونساء يغتسلن ، وهو جالس فوق عرشه يشاهد هذا كله (١٤٠) . وكان خلفاء بني العباس يجهرون بتقواهم ، ولكن كانت لهم قصور حوت في حجراتهم الخاصة جدراناً مزينة بالصور ؛ وقد استأجر المعتمد فنانيين ، أغلب الظن أنهم مسيحيون ، ليصوروا على جدران قصره في سامرا مناظر صيد ، ورجال دين ، وبنات عاريات يرقصن ؛ وأجاز المتوكل ، وهو الذي كان يضطهد الملحدين ، المصورين من أهل بزنطية أن يضيفوا إلى هذه المظلمات مظلاً آخر يمثل رهباناً مسيحيين وكنيسة مسيحية (١٤١) .

وزين محمود الغزنوى قصره بصور تمثله هو وجيوشه ، وفيلته ؛ وغطى ابنه مسعود ، قبل أن يخلعه الأتراك السلاجقة جن عرشه بزمن قليل ، جدران حجرات قصره في هراة بمناظر قائمة على أسس مأخوذة من كتب الفن الشهوانى الفارسى أو الهندى (١٤٢) . وتروى إحدى القصص أن اثنين من رجال الفن أخذوا يتباريان في بيت أحد الوزراء في التصوير الواقعى ؛ فعرض أحدهما أن يصور فتاة راقصة تبدو كأنها خارجة من ياطن الجدار ؛ وعرض الثانى أن يقوم بعمل أشق من هذا - وهو أن يصورها بحيث تبدو وهى تهم بدخول الجدار . ونجح كلاهما في إبراز نكرته نجاحاً حمل الوزير على أن يخلع عليهما خلعاً سنياً ويهبهما كثيراً من الذهب (١٤٣) . وفى وسعنا أن نذكر كثيراً من الشواهد الدالة على أن المسلمين قد خالفوا أمر التحريم ؛ وحسبنا أن نقول إننا نجد في بلاد الفرس بنوع خاص حيوانات وأناسى مصورة بكثرة يطربها الرائي ، وممثلة بجميع أنواع فنون التصوير . ولكن التحريم رغم هذا كله ، يؤيده الشعب تأييداً وصل من القوة إلى درجة أن كان بعض أفراده يشوهون روائع الفن أو يتلفونها ، قد عاق

نمو فن التصوير الإسلامي ، حتى اقتصر الكثير منه على التحلية المجردة ، وكاد يمنع تصوير الأشخاص (ولإن كنا نسمع عن وجود أربعين صورة لابن سينا) ، وترك الفنانين يعتمدون كل الاعتماد على مناصرة الملوك أو الأشراف ،

ولم يبق من صور الجدران في ذلك العصر إلا صور قصير عمرة ، وهي تكشف عن خليط غريب مجذب من القواعد الفنية البيزنطية والأنماط الساسانية . وكأن المسلمين أرادوا أن يعوضوا هذا النقص فارتفعوا بالرسوم الصغرى على العاج ومثله إلى درجة من الجمال لا تعلق عليها درجة أخرى في التاريخ كله . وقد وجد هذا الفن تراثاً متعدد الأنماط بنى عليه ، وأخرج منه ثماراً مختلفة ، ونعني بذلك التراث البيزنطى ، والساسانى ، والصينى ؛ وكان تزوين المخطوطات الإسلامية بالرسوم الصغيرة في العصور الوسطى فناً اقتصت به طبقات الأشراف القليلة العدد ، شأنه في هذا شأن موسيقى الحجرات في أوروبا الحديثة ؛ فقد كان الأغنياء وحدهم هم الذين يستطيعون الاحتفاظ بالفنان الفقير المخلص لفنه فقرأ وإخلاصاً أنتجا هذه الروائع التي تتطلب كثيراً من الجهد والأناة . وهنا أيضاً أخضع التزيين تمثيل الكائنات الحية لسلطانها ؛ فأغفل الفنان عن قصد قواعد المنظور ، وخرج على الشكل الذى اتخذته أعمودجا له ، فكان يعتمد على موضوع أو شكل مركزى - قد يكون شكلاً هندسياً أو زهرة واحدة - ويتبسط فيه ويتوسع ويخلق منه مائة صورة مختلفة حتى لتكاد كل إصبع من الصفحة بما في ذلك إطارها تمتلئ بالمخطوط المرسومة بدقة متناهية كأنها قد حفرت حفرأ . وكان في وسع الفنان أن يزين الكتب غير الدينية بصور للرجال والنساء والحيوان ، في مناظر الصيد والبهو والحب ، ولكن طراز التزيين كان هو بعينه على اللوام ، كان هو الصورة المكونة من خطوط دقيقة ، ومن ألوان مؤتلفة منسجمة يفنى بعضها في بعض ، ومن الجمال المجرد الهادئ البالغ أقصى درجات الكمال ، والذي يهدف إلى متعة العقل المطمئن المستريح .

وكان الخط العربي الجميل جزءاً لا يتجزأ من فن التنميق ؛ ولسنا نجد مثلاً آخر لاجتماع الكتابة والتصوير وتأخيها على هذا النحو إلا في بلاد الصين البعيدة . لقد كانت الحروف الكوفية في موطنها الأول ، بلدة الكوفة نفسها ، حروفاً سمجة ذات زوايا ، وأركان محددة فجدة ، ولكن الخطاط كسا هذه العظام المعجاف بالحركات وعلامات الإمالة والنقط وحروف المد ورسوم صغيرة متخذة من أوراق النبات ؛ فلما ارتقى الخط الكوفي إلى هذه الدرجة من الجمال أصبح كثير الاستعمال في تزيين المباني نفسها . أما الكتابة الدارجة فكان خط النسخ فيها أكثر جاذبية من الخط الكوفي ؛ وكانت حروفه المستديرة وكان امتداد الأفقي المتعرج كان هذان في حد ذاتهما وسيلة للزينة في غنى عن الإضافات الأخرى . وليس في خطوط العالم كاه سواء كانت مكتوبة باليد أو مطبوعة ما يضارع هذا الخط في جماله ؛ ولم يحل القرن العاشر حتى كانت له الغلبة على الخط الكوفي في تزيين المباني أو الخزف ؛ والكثرة الغالبة من الكتب الإسلامية التي وصلت إلينا من العصور الوسطى مكتوبة بخط النسخ ؛ ومعظم هذه من المصاحف لأن كتابة القرآن كانت في حد ذاتها من الأعمال الصالحة التي يثاب عليها صاحبها ؛ وكان تزيينها بالصور يعد انتهاكاً لحرمتها ، ولكن كتابتها بالخط الجميل كانت تعد من أشرف الفنون . وبينما كان رسامو الصور الصغيرة على العاج أو غيره صناعاً يستأجرون بأجر قليل ، كان الخطاطون يبحث عنهم في جميع أنحاء البلاد ويغدق عليهم الموك والأمرأ الهدايا والأموال ، وكان منهم هم أنفسهم ملوك وساسة . وكانت الرقعة المكتوبة بيد أحد هؤلاء الفنانين كنزاً لا يقدر بمال ، وكان في البلاد منذ القرن العاشر طائفة من المولعين بجمع الكتب يعيشون ويتحركون ويقضون حياتهم كلها بين ما جمعه من المخطوطات الجميلة المكتوبة على الرق بالمداد الأسود ، والأزرق ، والبفسجي ، والأحمر ، وبالذهب الإبريز . ولم يصل لنا إلا عدد قليل من كتب ذلك العصر ، وأقدمها كلها نسخة من القرآن موجودة

في دار الكتب المصرية بالقاهرة يرجع تاريخها إلى عام ٧٨٤ : وإذا ذكرنا بعد ذلك أن هذه الكتب كانت تجلد بأعظم أنواع الجلد ليناً ومثانة ، وأنه قد بذل في تجليدها من حسن الذوق ومن المهارة ما لا زيادة بعده لمستزيد ، وأن الجلد المغلفة به كان في كثير من الأحيان يزدان بأجمل الرسوم وأدقها ، إذا ذكرنا هذا حق لنا أن نقول دون أن نتهم بالمغالاة إن الكتب الإسلامية من بداية القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر هي أجمل ما رأته العين من الكتب في العالم كله . وهل منا من يطمع في أن تنشر كتبه اليوم بهذا الروتق وتلك الفخامة ؟

وقد اجتمعت الفنون كلها في تزيين الحياة الإسلامية والسمو بها إلى ذروة الجمال ، فامتزجت أشكال الرسوم الدقيقة بالخط الجميل في المنسوجات ، وطبعت بالنار على الفخار ، وأقيمت على مداخل المباني والمحاريب . وإذا كانت حضارة العصور الوسطى لم تفرق بين الصانع الماهر والفنان ، فلم يكن ذلك ليحط من شأن الفنان ، بل كان يرفع من قدر الصانع الماهر ، وكان الهدف الذي تبتغيه كل صناعة أن تصيح فناً من الفنون الجميلة . لقد كان الناس يخرج منسوجات عادية يستعملها عامة الناس وتبلى بعد قليل ، مثله في هذا كمثل صنائع الفخار سواء بسواء ، ولكنه كان في بعض الأحيان يعبر عن حذقه وصبره ، كما يصور أعلامه ، في الأتواب ، والسجف ، والطنافس ، وأغطية الفراش ، والنسيج المطرز ، والتحرير المشجر ، يخرج ليبتقى عدة أجيال ، وقد أبدع نقشه ، وصبغه بالألوان الزاهية المحبوبة في بلاد الشرق . لقد كانت المنسوجات البيزنطية ، والقبطية ، والساسانية ، والصينية ذائعة الصيت حين فتح المسلمون بلاد الشام ، وفارس ، ومصر ، وتركستان ، وما أسرع ما تعلم المسلمون صناعات تلك البلاد ، فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى أخرجت المصانع الإسلامية المنسوجات الحريرية التي نهى النبي عن لبسها ، وأخرجتها بكثرة ، ولبسها النساء والرجال وهم يدعون الله أن يغفر لهم خطاياهم الجسمية والروحية . وكانت حلة الشرف أئمن ما يستطيع الخليفة أن يخلعه على من

يوئدى له خدمة جليلة ، وسرعان ما أصبح المسلمون كبار تجار الحرير في العالم كله في العصور الوسطى . وكانت أقمشة التفتاه الحريرية تبتاع للملابس السيدات في أوروبا ، واشتهرت شيراز بالأقمشة الصوفية ، كما اشتهرت بغداد بأقمشة الستائر ، والمظلات ، والحرير المموج ، وخوزستان بالأقمشة المنسوجة من وبر الجمال وشعر الماعز ، وخراسان بأغطية الموادج ، وصور بالطنافس ، وبخارى بسجاجيد الصلاة ، وهراة بالحرير المنقوش بنحیوط الذهب . ولقد عدا الدهر على هذا كله فلم يبق لنا منه مثال واحد ، وكل ما نستطيعه هو أن نتصور ما كانت عليه هذه المنسوجات من الرونق والفخامة . بالنظر إلى ما كان منها في القرون التالية ، وبدراسة ما وصفها به الكتاب المعاصرون . لها . وقد وجدت في المحفوظات الباقية من أيام هرون الرشيد مذكرة جاء فيها « ٤٠٠٠٠٠ قطعة من الذهب ثمن حلة وهبت لجعفر بن يحيى الوزير » (١٤٤) .

الفصل الثامن

الموسيقى

كانت الموسيقى في أول الأمر محرمة في الإسلام تعدد من الآثام ، شأنها في ذلك شأن النحت (١٤٥) . نعم إنه لم ينص على تحريمها في القرآن ، ولكن حديثاً مشكوكاً في صحته يعزو إلى النبي . أنه لحوفه من عاقبة أغاني النساء الخليعات ورقصهن قال ما معناه إن الآلة الموسيقية كموذن الشيطان يستفز من استطاع إلى عبادته . وكان علماء الدين وأتباع المذاهب الأربعة ينفرون من الموسيقى لأنها تثير الشهوات ، ولكن منهم من قال متسامحاً إنها ليست إثمًا في ذاتها . أما الناس ، وهم أحكم في مسلكهم منهم في عقائدهم ، فكان يجري على ألسنتهم مجرى الأمثال أن « الخمر كالجسد والسماع كالروح والسرور ولدهما » (١٤٦) . وقد رافقت الموسيقى كل مرحلة من مراحل الحياة الإسلامية وملأت آلاف الليالي العربية بأغاني الحب والحرب والموت ؛ فكانت قصور الأمراء وكثير من بيوت العطاء تستخدم المغنين ليطربوا أهلها بقصائد الشعراء أو بقصائدهم هم أنفسهم ، وفي ذلك يقول مؤرخ قدير صائب الحكيم على هذه الأمور قولاً خليقاً بأن يثير الدهشة : إن المنزلة التي بلغتها الموسيقى بجميع فروعها عند العرب لتزرى بمنزلة هذا الفن في تاريخ أي بلد آخر (١٤٧) . نعم إن الأذن الغربية لا تستطيع بغير مران طويل أن تقدر خصائص الموسيقى العربية - ونعني بتلك الخصائص تفضيلها حسن الإيقاع على انسجام الألحان ، وتقسيم النغمات إلى أثلاث لا إلى أنصاف ، وما في تكوينها وتوقيعها من نضارة وبهجة هي من مميزات بلاد الشرق . وقد تبدو لنا نحن الغربيين تكراراً بسيطاً ، محزناً مملاً ، غريباً مستهجنًا غير منتظم . لكن الموسيقى الأوربية نفسها تبدو للعربي ناقصة في عدد نغماتها ،

وفي دقة هذه النغبات ؛ مولعة إلى حد الإسفاف بالتعقيد الذي لاخير فيه ، وبالأصوات الناشزة الشديدة الارتفاع . وإن ما في الموسيقى العربية من رقة تبعث على التفكير لتؤثر في نفس المسلم أعمق التأثير . ويحدثنا السعدى عن غلام يعنى بنغمة محزنة مؤثرة تستوقف الطائر في كبد السماء^(١٤٨) . ويصف الغزالي النشوة بأنها الحالة التي يبعثها الاستماع إلى الموسيقى^(١٤٩) : وقد أفرد أحد المؤلفين العرب فصلاً في كتابه للحديث عن الذين فقدوا وعيهم أو ماتوا وهم يستمعون إلى الموسيقى الإسلامية ، وقد استعان بها الدراويش في أذكارهم وشعائرهم وإن كان الدين نفسه قد ندد بها في أول الأمر :

وبدأت الموسيقى الإسلامية بالألحان والأشكال السامية القديمة ، ثم تطورت على ضوء صلاتها بالتقاسيم اليونانية الآسيوية النشأة وتأثرت تأثراً قويا بالموسيقى الفارسية والهندية . وقد أخذت إحدى العلامات وكثير من القواعد الموسيقية عن اليونان ؛ وللكندي ، وابن سينا ، وإخوان الصفا ، كتاب مطولة في هذا الموضوع ؛ وكتاب الفارابي في الموسيقى أشهر ما ألف في العصور الوسطى في النظريات الموسيقية وهو « يضارع أى كتاب وصل إلينا من المصادر اليونانية إن لم يفقه »^(١٥٠) . وقد وضع المسلمون منذ القرن السابع الهجرى الموسيقى (ويبدو أن ذلك لم يكن معروفاً في أوروبا قبل عام ١١٩٠)^(١٥١) — وكانت علاماتهم تدل على طول الزمن الذي تمتد إليه كل نغمة وعلى مقامها^(١٥٢) .

وكان عند العرب آلات موسيقية تبلغ المائة عددًا أشهرها كلها العود ، والقيثارة ، والبندور ، والسنتير ، والناي ، يقويها في بعض الأحيان البوق ، والدف ، والصنج ، والرق ، والطبل . وكان العود على أنواع وأحجام كثيرة لا تقل عن الأثني عشر ؛ وكان الكبير منها يسمى القيثارة . وعن العرب أخذت كلمتا guitar ، و lute ؛ وكان القوس يستعمل للعزف على بعض الآلات الوترية ، وكان الأرغن بنوعيه الهوائى والمائى معروفاً عند العرب ؛ وقد اشتهرت

بعض المدن الإسلامية كإشبيلية بصنع الآلات الموسيقية الدقيقة التي لا تضارعها آلات أخرى مما كان يصنع وقتئذ في بلاد الإسلام (١٥٣). وكان يقصد بالموسيقى الآلية كلها تقريباً أن تصحب الغناء أو أن تكون مقدمة له . وكان يقتصر في العادة على استخدام أربع آلات أو خمس في وقت واحد ، ولكننا نقرأ أيضاً عن فريق موسيقية كبيرة العدد (١٥٣) ، وتقول إحدى الروايات المتواترة إن سريج الموسيقى من أهل المدينة أول من استعمل القضب (١٥٤) ، وكانت منزلة الموسيقين عند المسلمين منحطة إذا استثنينا مشهورى الفنانين وذلك على الرغم من ولع المسلمين بهذا الفن ولعاً يبلغ حد الجنون . وشاهد ذلك أننا قلما نرى من أفراد الطبقات العليا من نزل من عليائه فدرس هذا الفن الفاتن الذى يسلب العقول . ومن أجل هذا كانت الموسيقى في بيوت الأغنياء من عمل القيان ، ومن المشرعين فئة تقول إن شهادة الموسيقى لا تقبل في المحكمة (١٥٥) . كذلك كاد الرقص عندهم يقتصر على الجوارى يدرين عليه ويستأجرن له ؛ وكان في كثير من الأحيان رقصاً شهوانياً ، وفي كثير منها فنياً . وقد أقام الخليفة الأمين حفلة راقصة دامت طول الليل رقص فيها عدد كبير من الفتيات وغنن : ولما اتصل العرب باليونان والفرس ارتفعت منزلة الموسيقين عندهم ، وكان الخلفاء الأمويون والعباسيون يغدقون الهبات على كبار الموسيقين في أيامهم ؛ فهاهو ذا سليمان بن عبد الملك يعرض جوائز تبلغ عشرين ألف قطعة من الفضة (١٠ر٠٠٠ دولار أمريكي) لمباراة بين الموسيقين في مكة . وهاهو ذا الوليد الثاني يعقد مباريات في الغناء كانت الجائزة الأولى في واحدة منها ٣٠٠ر٠٠٠ قطعة من الفضة (١٥٠ر٠٠٠ دولار أمريكي) (١٥٦) ، وربما كانت هذه الأرقام مبالغاً فيها كمادة أهل الشرق . وقد دعا المهدي إلى بلاطه مغنياً مشهوراً من أهل مكة ، ودعا هرون الرشيد إلى بلاطه لإبراهيم الموصلي وأعطاه ١٥٠ر٠٠٠ درهم (٥٠ر٠٠٠ دولار أمريكي) ورتب له عشرة آلاف كل شهر ووجه ١٠٠ر٠٠٠ نظير أغنية واحدة . وقد بلغ من حب هرون للموسيقى أن شجع تلك الموهبة في

أخيه لأبيه ، الشاب إبراهيم بن المهدي - على الرغم من تقاليد طبقتة - لأن إبراهيم كان له صوت غاية في القوة يبلغ مداه ثمانى طبقات . وإن الزمن ليتضامل في خيالنا وتضييق دائرته إلى أقصى حد عندما نسمع أنه قام بحركة ابتداعية في الموسيقى العربية مضادة للنزعة الإبتاعية نزعة إسحق بن إبراهيم الموصلي . وكان المأمون يقول عنه إنه لم يغنّ لي قط إلا شعرت بأني قد اتسع ملكي (١٥٩) .

والقصة الآتية التي يرويها مخارق تلميذ إبراهيم الموصلي تصور لنا المجتمع الإسلامي بصورة مبهجة ، وتظهر ما كان للموسيقى الإسلامية من أثر قوي في نفس المسلم ؛ ولسنا في حاجة إلى تصديقها . لكني نحس بمغزاها ، قال :
تطلعت تطفيلة قامت على أمير المؤمنين المتعصم بمائة ألف درهم ، فقلت له : كيف ذلك ؟ قال : شربت معه ليلة إلى الصبح ، فلما أصبحنا قلت له : يا سيدي إن رأي أمير المؤمنين أن يأذن لي فأخرج إلى الرصافة فأتسم إلى وقت انتباه أمير المؤمنين ؛ قال نعم ، وأمر البوابين أن يتركوني ؛ فخرجت أتمشى وإذا أنا بجارية كأن الشمس تشرق من وجهها فتبعها ، ورأيت معها زنبيلاً فوقفت على صاحبها فأكهت فاشتريت منه سفرجلة بدرهم ، ورمائة بدرهم وأكثراية بدرهم وانصرفت . فتبعها ، فالتفت فرأيتي فقالت يا ابن الفاعلة إلى أين تريد ؟ قلت خلفك يا سيدي ، فقالت ارجع يا ابن الزانية لتلايراك أحد فيقتلك . فتأخرت ومشيت من بعيد وهي تمشى أمامي ، ثم التفتت فرأيتي فشتمتني شتماً قبيحاً . ثم جاءت إلى باب كبير فدخلت فيه وجلست أنا بجذاء الباب ، وقد ذهب عقلي ، ونزلت على الشمس ، وكان يوماً حاراً ، فما لبثت أن جاء فتّيان كأنهما بدران على حمارين ؛ فلما وصل إلى الباب استأدنا فأذن لهما ، فدخلا ، ودخلت معهما ، فقلنا أن صاحب المنزل قد دعاني . وجيء بالأكل فأكلنا وغسلنا أيدينا ، ثم قال لنا صاحب المنزل : هل لكما في فلانة ؟ قالوا : إن تفضلت . فاستدعى تلك الجارية ، فخرجت صاحبتي ووراءها وصيفة تحمل عودها ، فوضعتها في حجرها وغنت ، فشرىوا وطربوا ، فقالوا : لمن هذا الصوت ؟ فقالت : لسيدي مخارق . ثم غنت صوتاً آخر فشرىوا

وطربوا وهي تلحظني وتشك في ، فقالوا : لمن هذا الصوت ؟ فقالت :
لسيدي مخارق ، ثم غنث صوتاً ثالثاً فطربوا وشربوا ، فقالوا : لمن هذا
الصوت ؟ فقالت : لسيدي مخارق . فلم ألبث أن قلت : يا جارية شدي
بدك فشدت أوتارها وخرجت عن إيقاعها الذي تقول عليه . فاستدعيت
يلوأة وقضيب وغنيت الصوت الذي غنته الجارية أولاً ، فقاموا إلىّ وقبلوا
رأسي : (قال الراوي) وكان مخارق أحسن الناس صوتاً وكان يوقع بالقضيب
توقيعاً عجيباً . ثم غنيت الصوت الثاني والثالث فكادت عقولهم تطير : فقالوا
بالله من أنت يا سيدي ؟ فقلت : أنا مخارق . فقالوا ما سبب مجيئك ؟ قلت :
طفيلي أصلحك الله ، وأخبرتهم بخبري ، فقال صاحب البيت لصديقيه :
أما تعلمان أني أعطيت في الجارية ثلاثين ألف درهم فامتنعت عن بيعها ؟
قالا : بلى . قال : هي له . قال صديقه : علينا عشرون ألف درهم وعليك
عشرة آلاف . قال مخارق فلكوني الجارية وجلست عندهم إلى العصر
وانصرفت بها (وبغيرها من الأثواب الغالية والهدايا الأخرى الثمينة التي
أهدوها إلىّ) ، وكلما مرت بالمواضع التي شتمتني فيها أقول لها : يا مولاتي :
أعينني كلامك ، فتستحي مني فأحلف عليها لتعيده فتمعيده حتى وصلنا إلى
باب أمير المؤمنين (فقيل لي إنه انتبه وطلبك في منازل أبناء القواد فلم يجدهك
وتغيظ عليك غيظاً شديداً) ، فدخلت عليه ويدي في يدها فلما رأني
سبتني وشتمني ، فقلت : يا أمير المؤمنين : لا تعجل . وحدثته القصة
فصحك وقال : نحن نكافئهم عنك . فأحضرهم وأمر لكل واحد منهم بثلاثين
ألف درهم ولى بعشرة آلاف (١٦٠) (*) .

(*) نقل المؤلف هذه القصة عن كتاب *Arabian Society in the Middle Ages*
(الاجتمع العربي في العصور الوسطى) تأليف إدورد لين Edward Lane ونقلها لين عن كتاب
حلبة الكهيت . ونقلناها نحن عن الكتاب الأخير وهي مطابقة في جملتها لما ورد في كتاب لين
هذا الجزأين المحصورين بين أقواس فالجزء الأول غير موجود في حلبة الكهيت ، والجزء الثاني
غير موجود في الأصل الإنجليزي ؛ ولعل مؤلفنا أو لعل لين نفسه قد حذفه . وهناك اختلاف آخر
غريباً كافياً به الخليفة صاحب الجارية وصديقيه فؤلفنا يقول إن أمير المؤمنين أعطى صاحب الجارية
أربعين ألف درهم ، وكل واحد من صديقيه ثلاثين ألفاً ، ومخارقاً مائة ألف ، أما صاحب حلبة
الكهيت فيقول إنه أمر لسيد الجارية ولكل واحد من صاحبيه بثلاثين ألف درهم ، ومخارق بعشرة
آلاف ، وهذا يتفق مع ما جاء في أول القصة الذي لم ينقله المؤلف . (المترجم)

الباب الثالث عشر

الإسلام في الغرب

٦٤١ - ١٠٨٦

الفصل الأول

فتح إفريقية

لم يكن الشرق الأدنى إلا جزءا من العالم الإسلامي ، وقد استعادت مصر تحت حكم المسلمين مجدها الفرعوني ؛ كما استعادت تونس ومراكش بزعامة العرب ما كان لها من حكومة منظمة ؛ وازدهرت مدائن القيروان وبالرم وفاس إلى حين . أما أسبانيا في عهد العرب فقد وصلت إلى الذروة في تاريخ الحضارة ؛ ولما حكم المغل المسلمون بلاد الهند فيما بعد شادوا كما يشيد الجبابرة ، وأبدعوا كما يبدع الصياغ .

وبينا كان خالد بن الوليد وغيره من الفاتحين يخضعون بلاد الشرق زحف عمرو بن العاص ، بعد موت النبي بما لا يزيد على سبع سنين ، من مدينة غزة في فلسطين واستولى على بلوز^(*) ، ومنفيس ، ثم زحف على الإسكندرية . لقد كان لمصر مرائى وقواعد بحرية ، وكان العرب في حاجة ماسة إلى أسطول ؛ وكانت مصر تصدر الحبوب إلى القسطنطينية ، وكانت بلاد العرب في حاجة إلى الحبوب ؛ وكانت الحكومة البيزنطية منذ قرون طوال تستخدم العرب في شرطتها ، ولم يكن هؤلاء ممن يعوقون زحف الفاتحين ؛ وكان المسيحيون اليعاقبة في مصر قد قاسوا

(*) أو بلوزيوم ويسمى العرب الفرما . (المترجم)

الأمريين من جراء اضطهاد بزنطية ؛ ولهذا رحبوا بقدوم المسلمين ، وأعانوهم على الاستيلاء على منفيس ، وأرشدوهم إلى الإسكندرية (***) ، وبما سقطت تلك المدينة في يد عمرو بعد حصار دام ثلاثة عشر شهراً (٦٤١) كتب إلى الخليفة عمر ابن الخطاب يقول : « أما بعد ، فإنني فتحت مدينة لا أصف ما فيها ، غير أنني أصبت فيها أربعة آلاف قصر وأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية وأربعمائة ملهى للملوك » (***) (١) .

وحال عمرو بين العرب وبين نهب المدينة وفضل أن يفرض عليها الجزية . ولم يكن في وسعه أن يدرك أسباب الخلافات الدينية بين المذاهب المسيحية المختلفة ، ولذلك منع أحواله اليعاقبة أن ينتقموا من خصومهم الملكانيين ، وخالف ما جرت عليه عادة الفاتحين من أقدم الأزمنة فأعلن حرية العبادة لجميع أهل المدينة .

وبعد ، فهل أحرق عمرو مكتبة الإسكندرية ؟ لقد وردت هذه القصة أول ما وردت في كتاب عبد اللطيف (١١٦٢ - ١٢٣١) ، أحد العلماء المسلمين (٢) ؛ ثم أوردها بتفصيل أوفى بار هيربوس Bar Hebraeus (١٢٢٦ - ١٢٨٦) وهو مسيحي يهودي الأصل من شرقى بلاد الشام كتب باللغة العربية ، باسم أبي الفرج ، مختصراً لتاريخ العالم . وقد جاء في روايته لهذه القصة أن رجلاً من أهل الإسكندرية يسميه العرب حنا الأجرومي (واسمه عند الغربيين John Philoponus) طلب إلى عمرو أن يعطيه ما في المكتبة من مخطوطات ،

(*) ليست هذه الرواية من الروايات الموثوق بها ، ويذكر الدكتور بطر في كتابه فتح العرب لمصر مصدر هذه الرواية ويورد الأدلة التي تنقصها . اقرأ هذا في الترجمة العربية لهذا الكتاب في هامش ص ٢٥٧ .

(**) في الأصل الإنجليزي أربعمائة حمام ولكن رُحى نقلاً عن ابن الحكم والدكتور بطر يذكر أنها أربعة آلاف حمام ، وقد تكون أربعمائة أقرب إلى العقل . (المترجم)

فكتب عمرو إلى الخليفة عمر يستأذنه في هذا ؛ فرد عليه عمر ، كما تقول الرواية ، بقوله : « أما ما ذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء في كتاب الله فلا حاجة لنا به ، وإذا خالفه فلا أرب لنا فيه واحرقها » . وتختصر الأسطورة هذا الرد الأسطوري في أغلب الظن إلى هذا الجواب القصير : « احرقها لأن ما فيها كله يحتويه كتاب واحد هو القرآن » . ويضيف بارهريوس أن عمراً أمر بالكتب فوزعت على حمامات المدينة البالغ عددها أربعة آلاف حمام لتوقد بها ، فما زالوا يوقدون بملفات البردى والرق ستة أشهر (٦٤٢) . ومن نقط الضعف في هذه القصة : (١) أن جزءاً كبيراً من هذه المكتبة قد أحرقه المسيحيون المتحمسون في عهد البطرق توفيلس عام ٣٩٢ (٣) ، (٢) وأن ما بقي فيها قد تعرض لإهمال المهملين وعداء الأعداء تعرضاً « أدى إلى ضياع معظمه قبل عام ٦٤٢ » (٤) ، (٣) وأن أحداً من المؤرخين المسيحيين لم يشر بكلمة إلى هذا الحادث المزعوم في الخمسمائة العام الواقعة بين حدوثه وبين ذكره لأول مرة ، مع أن أحد هؤلاء المؤرخين وهو أوتكيوس Euty chius كبير أساقفة الإسكندرية في عام ٩٣٣ (*) قد وصف فتح العرب للإسكندرية بتطويل كبير (٥) . ولهذا فإن معظم المؤرخين يرفضون هذه القصة ويرون أنها من الخرافات الباطلة . هذا ولقد كان ضياع مكتبة الإسكندرية شيئاً فشيئاً من المأسى الكبرى في تاريخ العالم ؛ وذلك بأنها ، كما يعتقد العلماء ، كانت تحتوي على مجموعة كاملة مما نشر من كتب إسكلاس ، وسفكل ، وهوليبوس ، وإيني ، وتاستوس ، ومائة آخرين من المؤلفين الذين وصلت إلينا كتبهم مختلطة مهوشة ، كما كانت تحتوي على النصوص الكاملة لمن جاء قبل سقراط من الفلاسفة ، وهي النصوص التي لم يبق منها إلا جذاذات متفرقة ، وعلى آلاف من المجلدات في تاريخ اليونان ، والمصريين ،

(*) ولقد أورد الدكتور بقلر في كتابه « فتح العرب لمصر » المترجم إلى اللغة العربية

من الأدلة القاطعة ما يفند هذه القصة . (المترجم) .

والرومان ، وفي العلوم الطبيعية ، والآداب والفلسفة .

وحكم عمرو مصر حكماً صالحاً ؛ وخصص جزءاً من الضرائب الباهظة (*) لتطهير قنوات الري وترميم الجسور ، وإعادة فتح الخليج الذي كان يوصل النيل بالبحر الأحمر ، والذي يبلغ طوله ثمانين ميلاً . وبذلك استطاعت السفن وقتئذ أن تصل من البحر المتوسط إلى المحيط الهندي (١) وقد طمر هذا الخليج مرة أخرى في عام ٧٣٢ وأهل شأنه) . وأنشأ عمرو عاصمة جديدة لمصر في الموضع الذي أقام فيه معسكره عام ٦٤١ وسُميت العاصمة الجديدة بالفسطاط ، وهي كما يبدو الكلمة المرادفة لخيمة ؛ وكانت هذه المدينة بداية مدينة القاهرة الحاضرة ؛ وقد ظلت قرنين كاملين (٦٤١ - ٨٦٨) مقر الولاة المسلمين يحكمون منه مصر نيابة عن خلفاء دمشق أو بغداد ؛

وبعد فإن من الحقائق المقررة أن كل فتح يخلق حدوداً جديدة تتعرض للخطر فتوحى بفتح جديد . وأراد المسلمون أن يحموا مصر الإسلامية من هجوم على جناحها الغربي من قبرين البيزنطية فزحفوا بجيش تبلغ عدته أربعين ألف مقاتل يخترق الصحراء إلى برقة ، واستولوا عليها ، ووصلوا قرب قرطاجنة ؛ وغرس قائد المسلمين رحمة في الرمل جنوبي مدينة تونس الحالية بنحو ثمانين ميلاً ، وأقام في هذه النقطة معسكره ، وأنشأ بذلك (٦٧٠) مدينة من أكبر المدائن الإسلامية . وهي مدينة القيروان - « المحطة » (**) . وعرف عاهل الروم أن الاستيلاء على قرطاجنة يمكن المسلمين من السيطرة على البحر المتوسط ، ويفتح لهم الطريق إلى أسبانيا ؛ فسير إليها الجند والأسطول ؛ ونسى البربر إلى حين حقدهم على الروم فانضموا إليهم في الدفاع عن المدينة ؛ فظلت تقاوم المسلمين ولم تخضع إليهم إلا في عام ٦٩٨ . ولم يلبث

(*) لعل المؤلف يقصد الضرائب التي كانت باهظة في أيام الرومان لأن المعروف أن عمرو خفف الضرائب ووزعها توزيعاً عادلاً . (المترجم)

(**) الذي في قاموس الفيروزبادي أن القيروان القافلة . (المترجم)

شمال إفريقية أن خضع للمسلمين حتى شاطئ المحيط الأطلنطي : واقتنع البربر - بشروطهم هم أنفسهم تقريباً - بقبول حكم المسلمين ، ولم يلبثوا أن اعتنقوا الدين الإسلامى ، وقسمت أملاك المسلمين في إفريقية إدارياً إلى ثلاث ولايات : مصر وعاصمتها القسطنطينية ، وإفريقية وعاصمتها القيروان ، والمغرب (مراكش) وعاصمته فاس .

وظلت هذه الولايات نفسها قرناً من الزمان تعترف بالسيادة لخلفاء المشرق ؛ ولكن انتقال مقر الخلافة إلى بغداد زاد من صعاب الاتصال والنقل ، فأخذت الولايات الإفريقية تتحول واحدة بعد الأخرى إلى ممالك مستقلة . فقامت أسرة الأدارسة في فاس (٩٧٤) ، وأسرة بنى الأغلب (٨١٠ - ٩٠٩) تحكّم في القيروان ، وقامت الأسرة الطولونية (٨٦٩ - ٩٠٥) في مصر . ولم تعد مصر - هرى العالم القديم - نهياً للحكام الأجانب ، ودخلت في نهضة صغرى جديدة ، وفتح أحمد بن طولون عام (٨٦٩ - ٨٨٤) بلاد الشام وضمها إلى مصر ، وبنى له عاصمة جديدة تدعى القطائع (ضاحية من ضواحي القسطنطينية) وشجع العلوم والفنون ، وشاد القصور ، والحمامات العامة ، وأنشأ بيمارستاناً ، ومسجداً عظيماً لا يزال حتى اليوم ناطقاً بفضله : وقلب ابنه نجمارية (٨٨٤ - ٨٩٥) هذا النشاط إلى ترف ، ورصع جدران قصره بالذهب ، وفرض على شعب مصر الضرائب الباهظة لينثىء لنفسه بركة من الزيتق ليتأرجح بلطف على فراشه المصنوع من الجلد المنفوخ حتى يغلبه النوم : وختلقت الأسرة الطولونية بعد أن حكمت أربعين عاماً أسرة أخرى تركية أنشأها الإخشيد (٩٣٥ - ٩٦٩) . ولم تكن لهذه الممالك الإفريقية جذور تمتد إلى دماء الشعب أو تقاليده ، ولهذا كان لا بد لها أن تقيم حكمها على القوة والزعامة الحربيتين ، فلما أضعفت الثروة حماسها العسكرية ذابت قوتها واختفت من الوجود .

وأيدت أعظم الأسر الحاكمة الإفريقية سياستها الحربية بعقيدة دينية تكاد

تبلغ درجة التعصب ؛ ذلك أن أبا عبد الله قام في بلاد تونس عام ٩٠٥ وأخذ يدعو إلى المذهب الشيعي وإلى عقيدة الأئمة السبعة ، ويبشر بقرب ظهور المهدي ؛ وقد بلغ من قوة أتباعه البربر أن استطاع لإزالة حكم الأغالبة من القيروان . وكان قد أعد العدة لتحقيق ما أثاره في أتباعه من آمال مرتقبة فاستدعى من بلاد العرب عبيد الله بن محمد ، وزعم أنه حفيد عبد الله إمام الاسماعيلية ، وأعلن أنه المهدي المنتظر ، ونادى به ملكا (٩٠٩) ، وما لبث هذا الداعية أن قُتِلَ بأمر مليكه . وقال عبيد الله إن نسبه يمتد إلى السيدة فاطمة بنت النبي (صلى الله عليه وسلم) وسمى أسرته بالأسرة الفاطمية نسبة لها .

واستعاد شمال إفريقية تحت حكم الأغالبة والفاطميين ما عرفه من رخاء في أيام مجد قرطاجنة تحت حكم الرومان . ذلك أن الفاتحين المسلمين قوّى عنقوان شباهم في القرن التاسع أنشئوا ثلاث طرق كبرى يترأح طولها بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ ميل وتخترق الصحراء الكبرى إلى بحيرة شاد وتمبكتو ، كما أنشئوا من الثغور في الشمال والغرب بونة ، ووهران ، وسبتة ، وطنجة ؛ وقامت تجارة عظيمة مريجة ربطت بلاد السودان بالبحر المتوسط ، وبلاد الإسلام الشرقية بمراكش والأندلس ، ونقل المهاجرون الأسبان إلى مراكش الصناعات الجلدية ؛ وأضحت مدينة فاس مركزاً لتبادل التجارة مع أسبانيا ، واشتهرت بأصباغها وعطورها ، وطرايبشها الحمر المغربية .

وانتزع الفاطميون في عام ٩٦٩ مصر من بنى الإخشيد ، ومالبثوا أن بسطوا حكمهم على بلاد العرب والشام . ونقل المعز الخليفة الفاطمي عاصمة ملكه إلى القاهرة ؛ وكانت امتداداً للقطائع في جهة الشمال الشرقي كما كانت القطائع نفسها امتداداً للفسطاط في نفس هذا الاتجاه . وحذا المعز حذو أسلافه فشرع يغزو البلاد ويفتح الأمصار . وفي عهد المعز (٩٥٣ - ٩٧٥) وابنه العزيز (٩٧٥ - ٩٩٦) أعاد يعقوب بن كلس - وهو يهودى من بغداد اعتنق الإسلام - تنظيم الإدارة

المصرية ، وجعل الفاطميين أغنى حكام زمانهم . يشهد بذلك أنه حين توفيت
رشيدة أخت المعز خلفت وراءها ٢٧٠٠٠٠٠ دينار (١٢٨٢٥٠٠٠ دولار أمريكي) ، و ١٢٠٠٠٠٠ ثوب ؛ ولما ماتت أخته عبدة تركت ثلاثة
آلاف مزرية فضية ، وأربعمائة سيف ذات نقوش دمشقية ذهبية ، وثلاثين
ألف قطعة من المنسوجات الصقلية ، ومقداراً ضخماً من الجواهر (٧) . ولكن
الاشياء يسقط كالنجاح ؛ وآية ذلك أن الحاكم الخليفة التالي (٩٩٦-١٠٢١)
جن من فرط الثراء والسلطان ، فدبر اغتيال عدد كبير من الوزراء ،
واضطهد المسيحيين واليهود ، وأحرق كثيراً من الكنائس والمعابد ، وأمر
بهدم كنيسة بيت المقدس التي فيها قبر المسيح ، وكان تنفيذ هذا الأمر من
أسباب قيام الحروب الصليبية . وكأنما أراد الحاكم أن يعيد سيرة الإمبراطور
كلجيولا ، فنأدى بنفسه إلهماً ، وأرسل البعوث لنشر هذه العقيدة بين الناس ،
فلما أن قتل بعض هؤلاء الرسل عاد هو إلى حب المسيحيين واليهود ، وأعاد
بناء كنائسهم ومعابدهم . واغتيل الحاكم في سن السادسة والثلاثين .

وعم الرخاء مصر رغم ما كان يخص به الخلفاء أنفسهم من امتيازات واسعة
لأنها كانت حلقة الاتصال التجاري بين أوروبا وآسية ، وازداد عدد السفن التي
ينقل عليها تجار الهند والصين بضائعهم من تلك البلاد مارة بالخليج الفارسي ،
والبحر الأحمر ، والنيل إلى مصر . واضمحلت ثروة بغداد ، وضعفت قوتها بينما زاد
سلطان القاهرة و ثراؤها . وقد زار ناصري خسرو العاصمة الجديدة في عام ١٠٤٧
وجاء في وصفه لها أن بها عشرين ألف بيت ، معظمها من الآجر ترتفع إلى خمس
طبقات أوست ، وعشرين ألف متجر مملوءة بالذهب ، والجواهر ، والأقشة
المطرزة ، والجوهر إلى درجة لا يجد الإنسان فيها مكاناً يجلس (٨) فيه . وكانت
الشوارع الكبرى مظلة من وهج الشمس وتضيؤها المصابيح بالليل . وكانت
الحكومة تحدد الأثمان ، وتقبض على من يبيع بأعلى منها ، ويطاف به في شوارع
المدينة على جمل ، وهو يدق بيده ناقوساً ويعلن بنفسه جرمة (٩) . وكان ذوو

الثروات الضخمة كثرى العدد ؛ وقد استطاع أحد التجار ، وهو مسيحي ، أن يطعم السكان كلهم من ماله الخاص مدة خمس سنين أصنيت فيها البلاد بالتهبط بسبب انخفاض فيضان النيل ؛ وترك يعقوب بن كلس وراءه ضياعاً تقدر قيمتها بما يوازي ثلاثين مليون دولار أمريكي (١٠) . واشترك هؤلاء الأثرياء مع الخلفاء الفاطميين في بناء المساجد ، وإنشاء دور الكتب ، والمدارس الكبرى ، وتشجيع العلوم والفنون . وكان حكم الفاطميين بوجه عام حكماً صالحاً خيراً طابعه الحرية والتسامح على الرغم مما كان يشينه أحياناً من قساوات ، ومن ترف وإتلاف ، وبالرغم من الاستغلال المعتاد للعمال ، ومن العدد المطلوب من الحروب ؛ وكان يضارع في رخائه وثقافته أى عهد آخر في تاريخ مصر (١١) .

وأخذ حكم الفاطميين في الضعف أيام المستنصر (١٠٣٦ - ١٠٩٤) ، وهو ابن أمة سودانية . وقد أقام هذا الخليفة سرادقاً فخماً (*) يقضى فيه أوقات منعمته ، وعاش عيشة الموسيقى ، والخمر ، واللذة ؛ وكان يقول إن تلك الحياة خير لديه من التحديق في الحجر الأسود ، والاستماع إلى صوت المؤذن الممل ، وشرب الماء العكر (من بئر زمزم في مكة) (١٢) . وثار عليه جنوده الأتراك في عام ١٠٦٧ ، وأغاروا على قصره ، ونهبوا منه كنوزاً فنية لا تقدر بثمن ، ومقداراً عظيماً من الجواهر ، وحمل خمسة وعشرين بعبيراً من المخطوطات اتخذ الضباط الأتراك بعضها وقوداً لتدفئة بيوتهم ، كما اتخذوا جلودها المصنوعة من الجلد الرقيق البديع لإصلاح نعال جواريتهم . ولما توفي المستنصر تمزقت أوصال الدولة الفاطمية ، وانقسم جيشها الذي كان من قبل قوياً إلى شيع متنازعة من بربر ، وسوادنيين ، وأتراك ؛ وكانت إفريقية ومراكش قد انفصلتا عنها ، وثار عليها فلسطين ، وضاعت منها بلاد الشام . ولما أن خلع صلاح الدين آخر الخلفاء الفاطميين في عام ١١٧١ ، كانت أسرة أخرى من الأسر التي حكمت مصر قد ساقها السلطان والانغراس في الملذات إلى ما ساق إليه سابقاتها من الضعف والفناء .

(*) على شكل الكعبة .



(شكل ٥) صحن الجامع الأزهر بالقاهرة

الفصل الثاني

الحضارة الإسلامية في إفريقية

كان الأمراء والحلفاء في القاهرة ، والقيروان ، وفاس ، ينافس بعضهم بعضاً في إقامة المباني ، وتشجيع التصوير ، والموسيقى ، والشعر ، والفلسفة ؛ ولكن كل ما بقي من المخطوطات من ذلك الوقت في شمالي إفريقية مخبوء الآن في دور الكتب التي لم يبدأ علماء الغرب في ارتيادها إلا منذ وقت قريب (*) . وقد اندثرت معظم آيات الفن ولم يبق ما يشهد على عظمة ذلك العصر وروحه إلا المساجد وحدها . ففي القيروان مسجد سيدى عقبة الذي أنشئ أولاً في عام ٦٧٠ وجدد بناؤه سبع مرات ، والذي يرجع الجزء الأكبر منه إلى عام ٨٣٨ . وتعتمد أروقته ذات العقود المستديرة على مئات من العمد الكورنثية المأخوذة من خرائب قرطاجنة ، ومينبره آية رائعة من آيات النحت الخشبي ، ومحرابه من الرخام السماقي والقاشاني ؛ ومثلثته المربعة الضخمة - وهي أقدم مثلثة في العالم (١٣) - أصبحت هي الطراز السوري الذي أقيمت على مثاله مآذن الغرب ؛ وبفضل هذا المسجد أصبحت القيروان رابعة المدن الإسلامية المقدسة « أبواب الجنة الأربعة » ولا تقل مساجد فاس ، ومراكش ، وتونس ، وطرابلس عنها في الروعة والفضامة إلا قليلاً .

وكانت المساجد في القاهرة ضخمة كثيرة العدد ؛ ولا تزال هذه الحضارة الفاتنة تزدان بنحو ثلثمائة من هذه المساجد . ومن أشهرها مسجد عمرو بن العاص ، وقد بدئ بإنشائه في عام ٦٤١ ، وأعيد بناؤه في القرن العاشر ؛ ولم يبق من

(*) وقد شرعت جامعة الدول العربية في البحث عن هذه المخطوطات في هذه البلاد وفي غيرها من بلدان آسية وأوربا وتصويرها . (المترجم)

أجزائه الأولى في هذه الأيام إلا عمدته الكورنثية التي أنقذها العرب بحكمتهم من الجراثب الرومانية والبيزنطية . ولا يزال مسجد ابن طولون محتفظا بشكله الأصلي ونقوشه الأولى ، ويحيط بصحنه الواسع سور ذو شرفات ، وفي داخله عقود مستدقة (غير مستديرة) هي أقدم ما يوجد من نوعها في مصر ، إذا استثنينا عقد مقياس النيل بالروضة (٨٦٥) - وهو بناء مقام على جزيرة الروضة بالقاهرة يقاس به ارتفاع ماء النهر . وربما كان هذا الطراز الرشيح من العقود قد انتقل من مصر إلى أوروبا القوطية عن طريق صقلية والنورمان^(١٤) : وفي مثذنة المسجد (ذات السلم الخارجي) والشبيهة بصروح الزجورات البابلية ، وفي القبة المقامة فوق قبر ابن طولون ، عقود على شكل حذاء الفرس ، وهي إحدى المظاهر الإسلامية التي لا ترتاح إليها العين كما ترتاح إلى غيرها من مظاهر الفن الإسلامي . ويروى أن أحمد بن طولون أراد أن يرفع العقود على ثلثمائة عمود ، فلما علم أن هذه العمود لا يمكن الحصول عليها إلا إذا انتزعت من العائر الرومانية والمسيحية ، قرر أن يقيم هذه العقود بدلا من هذا على عمد ضخمة من الآجر^(١٥) ، وربما كان هذا الطراز من العمود قد أوحى هو الآخر بعنصر من عناصر الطراز القوطي . وآخر ما نذكره من خصائص هذا المسجد أن بعض نوافذه قد ملئت بالزجاج الملون ، وبعضها بالشبايك الحصية^(*) على شكل ورود أو نجوم أو غيرها من الأشكال الهندسية ، وهذه الأشكال ترجع إلى تاريخ غير معروف على وجه التحقيق .

وفي ٩٧٠ - ٩٧٢ أنشأ الجامع الأزهر جوهر الصقلي - وهو عبد مسيحي اعتنق الإسلام وكان القائد الذي فتح مصر للفاطميين . ولا تزال بعض الأجزاء الأصلية من هذا المسجد في مكانها ، وفيه أيضا نجد العقود المستدقة قائمة على ٣٨٠ عموداً من الرخام ، والجرانيت ، والرخام السماقي . وقد شيد جامع الحاكم بأمر الله

(*) - ذات شبكة من الأصابع المصنوعة من الجص . (المترجم)

من الحجر ، ولا يزال معظمه باقيا وإن لم تكن تقام فيه الصلاة الآن ،
وفي وسعنا أن نتصور ما كان عليه من عظمة في العصور الوسطى بالنظر إلى
نقوشه العربية الطراز ، الرشيقة ، المصنوعة من الجص ، ومن الكتابات
الكوفية الجميلة التي يزدان بها إفريزه . وقد كانت هذه المساجد ، التي تبدو
الآن معازل أشبه بالقلاع - وما من شك في أنها قد صممت لتكون قلاعاً
أيضاً - تزدان بكثير من روائع النحت ، والكتابات ، والفسيفساء ،
والمحاريب المطعمة ، والقناديل التي أضحت الآن محمفاً نادرة في المتاحف ؛
وكان بمسجد ابن طولون وحده ١٨٠٠٠ قنديل كثير منها من الزجاج
المطل بالمينا المختلف الألوان (١٦) :

وكانت الفنون الصغرى شائعة في إفريقية الإسلامية ، يمارسها المسلمون
بما عرف عنهم من الصبر والدقة . فالقاشاني الوراق يشاهد في جامع القيروان ،
وقد وصف ناصري خسرو (١٠٥٠) الخزف الذي كان يصنع في القاهرة
وأنه رقيق بلغ من شفيفه أن اليد إذا وضعت في خازجه تستطاع رؤيتها من
داخله (١٧) . واحتفظ الزجاج المصري السوري بكل ما كان له من جمال
في العهود القديمة ، وتحفظ متاحف البندقية وفلورنسين والوفا بالآنية
المصنوعة من البلور الصخري في عهد الفاطميين ، وكان ناحته الخشب
يدخلون بهجة على النفوس بنقوشهم البديعة على أبواب المساجد ، والمنابر ،
والمحاريب ، والنوافذ الشبكية . وأخذ المسلمون المصريون عن رعاياهم
الأقباط فن زخرفة الصناديق والنضد وغيرها من الأدوات بترصيعها
أو تطعيمها بالعاج ، أو الأبنوس ، أو الصدف . وكانت الجواهر كثيرة
موفورة ، وحسبنا أن نقول إنه لما أن نهب الجنود الأتراك المأجورون
حجرات قصر المستنصر حملوا معهم آلاف المصنوعات الذهبية - كالمحابر ، وقطع
الشطرنج ، والمزهريات ، والطيور ، والأشجار الاصطناعية المزينة بالأحجار
الكريمة . . . (١٨) ، وكان من بين ما انتهبه ستائر من الحرير المطرز بخيوط
الذهب نقشت عليها صور أكابر الملوك وكتبت عليها سيرهم . كذلك تعلم المسلمون

من الأقباط فنّ طبع الرسوم وبصمها على المنسوجات بقطع من الخشب ؛
ويبدو أن هذه الصناعة انتقلت من مصر الإسلامية إلى أوروبا على أيدي
الصلبيين ، وأنها ساعدت على نشأة فن الطباعة ؛ وكان التجار الأوروبيون
يقدرّون منسوجات الدولة الفاطمية تقديراً يفوق سائر المنسوجات ،
ويتحدثون وهم مذهولون عن منسوجات القاهرة والإسكندرية ، التي تبلغ
من الرقة درجة يستطاع معها أن تمر في خاتم الإصبع^(١٩) . ويحدثنا المؤرخون
عن طنافس من عهد الفاطميين ، وعن خيام منسوجة من الخمل ، والساتان ،
والدمقس ، والحريز ، والأقشة المنسوجة من خيوط الذهب ، مزينة كلها
بالرسوم ، ومن هذه خيمة صنعت لليازوري وزير المستنصر عمل فيها مائة
وخمسون صناعاً أكثر من تسع سنوات . وبلغت نفقاتها ثلاثين ألف دينار
(١٤٢٠٠٠٠ دولار) ، وصور عليها ، كما يقولون ، جميع ما عرف
من أنواع الحيوان في العالم كله ، عدا « الإنسان الذئب »^(*) : غير أن
الرسوم الفاطمية كلها لم يبق منها إلا قطع من المظلمات في دار الآثار العربية
بالقاهرة ، ولم تبق نقوش دقيقة من العهد الفاطمي في مصر ؛ لكن المقرئ
الذي كتب في القرن الخامس عشر تاريخاً للتصوير - يقول إن مكتبة الخلفاء
الفاطميين تحتوي على مئات من المخطوطات المزينة بكثير من الرسوم الدقيقة
من بينها ٢٤٠٠ مصحف .

وكانت مكتبة الخلفاء بالقاهرة في عهد الحاكم بأمر الله تحتوي مائة ألف من
المجلدات ؛ وكان بها في عهد المستنصر ٢٠٠٠٠٠ . ويقول المؤرخون إن الكتب
كانت تعار لمن يطلبها من الدراسات ذوى السمعة الطيبة من غير أجر . وفي عام
٩٨٨ أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز أن يعلم على حسابه خمسة
وثلاثين طالباً في الجامع الأزهر وأن يتكفل بنفقات معيشتهم ، وبهذا نشأت

(*) . يريد الإنسان نفسه . (المترجم)

أقدم جامعة في العالم كله . ولما نمت هذه المدرسة واتسعت اجتذبت إليها طلاباً من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، كما اجتذبت جامعة باريس بعد مائة عام من ذلك الوقت طلاباً من جميع أنحاء أوروبا . ومن ذلك الوقت أخذ الخلفاء ، والوزراء ، والأغنياء من الأهلين يهبون الأموال لتعليم الطلاب بالبحان في تلك الجامعة حتى بلغ طلابها في وقتنا الحاضر ١٠٠٠٠ طالب وعدد الأساتذة ثلاثمائة (٢٠) . ومن أجل المناظر التي تقع عليها عين السائح العالمي منظر الطلاب وهم مجتمعون في أروقة هذا المسجد القائم منذ ألف عام ، تجلس فيها كل طائفة في نصف دائرة إلى بجانب عمود أمام أحد العلماء(*) ، وكان كبار العلماء الدائمي الصيت يفتنون إلى الأزهر من كافة أرجاء العالم الإسلامي ليعلموا الطلاب علوم النحو ، والبلاغة ، والرياضة ، والعروض ، والمنطق ، والعلوم الدينية ، والحديث ، والتفسير ، والشريعة الإسلامية . ولم يكن الطلاب يؤدون أجوراً ، كما لم يكن الأساتذة يتناولون مرتبات ، وإذ كانت هذه الجامعة الشهيرة تعتمد على الأموال الحكومية ، وهبات المحسنين فقد أخذت تنزع بالتدريج إلى التشدد في أمور الدين ، وكان لعلمائها تأثير مثير للأدب الفاطمية ، والفلسفة ، والعلوم ، ولهذا لم نسمع عن وجود شعراء مجيدين في عهد تلك الأسرة .

وأنشأ الحاكم في القاهرة « دار الحكمة » ، وكانت مهمتها الرئيسية نشر المذهب الشيعي وتعاليمه ، ولكن منهجها الدراسي كان يشمل أيضاً علمي الفلك والطب . وأقام الحاكم أيضاً مرصداً فلكياً ، وأعان بالمال علي بن يونس (المتوفى سنة ١٠٩٠ م) ، وهو في رأينا أعظم علماء الفلك المسلمين . وبعد أن ظل هذا العالم يرصد السماء سبعة عشر عاماً أتم « الأزياج الحاكبية » التي توضح حركات الكواكب ، ومواقفها ، وحدد بدقة أكثر من ذى قبل ميل مستوى الفلك ،

(*) لا حاجة إلى القول بأن هذا الوصف ينطبق على الأزهر منذ نصف قرن أما في الوقت الحاضر فإن النظام في الأزهر شبيه كل الشبه بالنظام في أرق المدارس والجامعات . (المترجم)

ومبادرة الاعتدالين ، وزاوية اختلاف منظر الشمس .

وأشهر الأسماء كلها بين علماء المسلمين المصريين اسم الحسن بن الهيثم المعروف عند الأوربيين باسم « الهازن Alhazen . وقد ولد في البصرة عام ٩٦٥ واشتهر فيها بنبوغه في الهندسة والرياضة . وترامى إلى الحاكم أن ابن الهيثم قد وضع خطة لضبط فيضان النيل السنوى فدعاه إلى القاهرة ، ولكنه تبين أن الخطة غير عملية فاضطر إلى الاختفاء عن عين الخليفة ذى النزوات الشاذة : وافتن الرجل ، كما افتن جميع المفكرين في العصور الوسطى ، بمحاولات أرسطو في ربط المعارف كلها بعضها ببعض ، فكتب عدة شروح وتعليقات عن مؤلفات هذا الفيلسوف ، لم يصل إلينا شيء منها . وأهم ما يشتهر به ابن الهيثم عندنا الآن كتاب المناظر في البصريات وهو في أغلب الظن أعظم مؤلف في العصور الوسطى بأجمعها جرى على الأسلوب العلمى في طريقته وتفكيره . وقد درس ابن الهيثم انكسار الضوء عند مروره في الأوساط الشفافة كالهواء ، والماء واقتراب مع اختراع العدسة المكبرة قرباجعل روجريكين Roger Bacon ، ووينلو Wnelo وغيرهما من الأوربيين بعاد ثلثمائة عام من ذلك الوقت يعتمدون على بحثه فيما بدلوه من الجهود لاخترع المجهر والمركب . وقد رفض ابن الهيثم نظرية إقليدس وبطليموس الفلكى القائلة بأن رؤية الجسم تنشأ من خروج شعاع ضوئى من العين يصل إلى الجسم المرئى ، وقال إن صورة الجسم المرئى تصل إلى العين ومنها تنتقل بوساطة الجسم الشفاف — أى العدسة (٢١) . ولاحظ أثر الجو فى إزدياد الحجم الظاهرى للشمس والقمر إذا كانا قريبين من الأفق ؛ وأثبت أن انكسار الأشعة فى الجو يجعل ضوء الشمس يصل إلينا حتى بعد أن يخفى قرصها تحت الأفق بتسع عشرة درجة ، وعلى هذا الأساس قدر ارتفاع الهواء الجوى بعشرة أميال . (إنجليزية) . وحلل العلاقة بين ثقل الهواء الجوى وكثافته ، وبين أثر كثافة هذا الهواء فى أوزان الأجسام ، واستخدم قوانين رياضية معقدة فى دراسة فعل

الضوء في المرايا الكرية ، والتي في شكل القطع المكافئ* ، وعند مروره في العدسات الزجاجية الحارقة . ورصد صورة الشمس المائلة لصورة نصف القمر وقت الخسوف على جدار قائم أمام ثقب صغير في مصراع شبك . وهذا هو أول ما ذكر عن الغرفة المظلمة التي يعتمد عليها التصوير الشمسي بكافة أنواعه . وليس في وسعنا قلنا عن ابن الهيثم أن نبالغ في بيان أثره في العلوم الأوروبية ، وأكبر ظننا أنه لولا ابن الهيثم لما سمع الناس قط بروجر بيكن ؛ وهاهو ذا روجر بيكن نفسه لا يكاد يخطو خطوة في ذلك الجزء الذي يبحث في البصريات من Opus Maius دون أن يشير إلى ابن الهيثم أو ينقل عنه . والجزء السادس من هذا المؤلف يكاد كله يعتمد على كشف هذا العالم الطبيعي ابن القاهرة . ولقد ظلت الدراسات الأوروبية للضوء حتى ذلك العصر المتأخر عصر كهبلر وليوناردو تعتمد على بحوث ابن الهيثم .

وأبرز النتائج التي أسفر عنها فتح العرب لشمالي إفريقيا هو اختفاء المسيحية من هذا الإقليم اختفاء تدرجياً ولكنه يكاد يكون تاماً . ذلك أن البربر لم يعتقدوا الإسلام فحسب ، بل أصبحوا فوق ذلك أكثر أنصاره تعصباً له ودفاعاً عنه . وما من شك في أن العوامل الاقتصادية كان لها دخل في هذه النتيجة الحاسمة : فقد كان غير المسلمين يؤدون القرصة ، التي أعنى منها إلى وقت ما من يعتقدون الإسلام . ولما أن عرض والى مصر العربي على أهل البلاد هذا الإعفاء جام ٧٤٤م اعتنق الإسلام ٢٤٠٠٠ من المسيحيين (٢٢) . وربما كان الاضطهاد(*) الذي وقع على المسيحيين ، وهو اضطهاد لم يكن يقع إلا في بعض العهود ولكنه شديد ، قد أثر في كثيرين من المصريين فحملهم على الذخول في دين الحكام . غير أن أقلية قبطية في مصر ظلت مستمسكة بدينها بشجاعة وأقامت كنائسها شبيهة

(*) يلاحظ هنا حرص المؤلف على إثبات أن هذا الاضطهاد لم يكن يقع إلا في بعض العهود ؛ أي أنه لم يكن هو السياسة المتبعة وذلك عملاً بأوامر الدين الإسلامي نفسه وسياسة معظم الخلفاء . (المترجم)

بالحصون ، كانت تؤدي فيها مناسكها سرآ(*) ، ولا تزال باقية في تلك البلاد إلى يومنا هذا . ولكن كنائس الإسكندرية ، وقورينة ، وفرطاجنة ، وإفريقية ، التي كانت تزدهم من قبل بالمصلين أخذت تخلو منهم وتنداعى ، وانمحت من الأذهان ذكريات أنثاسيوس ، وسيريل Cyril ، وأوغسطين ، وخبث نيران المنازعات بين الأريوسيين ، والدونانيين ، واليعاقبة المسيحيين ، وحل محلها النزاع بين الشيعة وأهل السنة من المسلمين . وأيد الفاطميون سلطانهم بجمع طائفة الإسماعيلية في جماعة كبرى ذات مراسم وطقوس ودرجات متفاوتة ، واستخدموا أعضائها في التجسس والدسائس السياسية . وانتقلت طقوس هذه الجماعة إلى بيت المقدس وأوربا ، وكان لها أكبر الأثر في أنظمة فرسان المعبد والشيعة المستنيرة Illuminate وغيرها من الجماعات السرية التي قامت في العالم الغربي كما كان لها أكبر الأثر أيضا في طقوسها وملابسها .. وترى رجل الأعمال الأمريكي بين الفينة والفينة مسلماً متحمساً غيوراً ، يفخر بعقيدته السرية ، وطربوشه الفاسى ومسجده الإسلامى (***) .

(*) لم يكن أقباط مصر في حاجة إلى أن يمارسوا شعائرهم سرآ بل كانوا يمارسونها جهراً حتى في أكثر العصور استبداداً . (المترجم)

(**) في هذا القول بعض الغموض ولعل المؤلف يقصد أن من بين رجال الأعمال الأمريكيين مسلمين يفخرون بدينهم ويتباهون بشيائهم ويؤدون الصلاة في المساجد . (المترجم)

الفصل الثالث

الإسلام في بلاد البحر المتوسط

٦٤٩ - ١٠٧١

أدرك زعماء الإسلام ، بعد فتح الشام ومصر ، أن ليس في مقدورهم أن يدافعوا عن سواحل بلادهم من غير أسطول . وسرعان ما استولت سفنهم الحربية على قبرص ورودرس وهزمت العماثر البيزنطية (٦٥٢ ، ٦٥٥) ، ثم احتلوا قورسقة في عام ٨٠٩ وسردينية في عام ٨١٠ وإقريطش (كريت) في ٨٢٣ ، ومالطة في ٨٧٠ ؛ وبدأ في عام ٨٢٧ النزاع القديم بين بلاد اليونان وقرطاجنة مرة أخرى من أجل الاستيلاء على صقلية ، فأرسل الأغلبة أمراء القيروان الحملة تلو الحملة وتقدموا إلى فتحها بقليل من النهب والدم المهرق ؛ فسقطت بالرم في عام ٨٣١ ، ومسينا في ٨٤١ ، وسرقوسة في ٨٧٨ ، وتارمينا في ٩٠٢ . ولما أن ورث الخلفاء الفاطميون ملك الأغلبية (٩٠٩) كان مما ورثوه من أملاكهم جزيرة صقلية ؛ ولما نقل الفاطميون عاصمة ملكهم إلى القاهرة أعلن حسين الكلبي والى صقلية من قبلهم نفسه أميراً عليها ، وكانت له عليها سيادة تكاد تكون كاملة ، وأسس فيها الأسرة الكلبية ، وفي عهدها بلغت الحضارة الإسلامية في صقلية ذروة مجدها .

وأصبح مركز المسلمين حصيناً منيعاً بعد أن صارت لهم السيادة على البحر المتوسط ، فأخذوا يتطلعون إلى المدن القائمة في جنوبي إيطاليا . وكانت القرصنة وقتئذ مما يدخل في نطاق العادات الشريفة ، وكان المسيحيون والمسلمون على السواء يشنون الغارات على سواحل البلاد الإسلامية والمسيحية ليقبضوا منها على « الكفرة » ويبيعوهم في أسواق الرقيق ، ولهذا شرعت أساطيل المسلمين ، ومعظمها

من تونس وصقلية ، تهاجم الثغور الإيطالية في القرن التاسع الميلادي . فاستولى المسلمون في عام ٨٤١ على بارى القاعدة البيزنطية الكبرى في الجنوب الشرقي من إيطاليا ، وفي العام التالي انقضوا انقضاضاً سريعاً على إيطاليا استجابة لدعوة وجهها إليهم لبارد دوق بنفشو Benevento ليساعده على سالرنو Salerno ، ثم عادوا منها بعد أن أتفروا الحقول وخرّبوا الأديرة . وفي عام ٨٤٦ نزل ألف ومثتان من المسلمين في أستييا Ostia ، وواصلوا الزحف حتى أشرفوا على أسوار رومة ، ونهبوا ضواحي المدينة وكنيستي القديسين بطرس وبولس ، ثم عادوا على مهل إلى سفنهم . ورأى البابا باليو Leo الرابع أن السلطة المدنية عاجزة عن تنظيم الدفاع عن إيطاليا ، فأخذ هذه المهمة على عاتقه ، وعقد حلفاً بين رومة وبين أملي Amalfi ، وناپلي ، وجيتا Gaeta ومد بسلسلة في عرض نهر التيبر لمنع العدو من اجتيازه . وبذل العرب في عام ٨٤٩ محاولة أخرى للاستيلاء على عاصمة المسيحية في الغرب ؛ فقابلهم الأسطول الإيطالي المتحد بعد أن باركه البابا ، وهزمهم ، وقد صور رفايل منظر الواقعة في قصر الفاتيكان ، وفي عام ٨٦٦ جاء الإمبراطور لويس الثاني من ألمانيا ، وصد العرب الذين كانوا يغيرون من جنوبي إيطاليا على شبه الجزيرة وأرجعهم إلى بارى وتارنتو Taranto ؛ وما وافى عام ٨٨٤ حتى أخرجوا من جميع شبه الجزيرة ؛

ولكن غاراتهم عليها لم تنقطع ، وظلت إيطاليا الوسطى جيلاً من الزمان يغشاها جو من الخوف والفرع في كل يوم من أيام حياتها . ففي عام ٨٧٦ أغاروا على كمانيا ونهبوا ، وهددوا رومة تهديداً اضطر البابا إلى أن يؤدي لهم جزية سنوية مقدارها ٢٥٠٠٠ متقوص (حوالي ٢٥٠٠٠ دولار أمريكي) حتى يكفوا عن الإغارة عليها^(٢٣) . وفي عام ٨٨٤ أحرقوا دير مونتى كاسينو العظيم ودمروه عن آخره . وشنوا غارات أخرى متقطعة نهبوا فيها واذى نهر الأنيو Anio . ودامت الحال على هذا المنوال حتى اجتمعت قوات البابا وإمبراطوري

بزنطية. وألمانيا ، ومدائن إيطاليا الوسطى والجنوبية ، وهزمت العرب على نهر كرجليانو (٩١٦) وانتهى بذلك عصر الفتوح الإسلامية في إيطاليا ، وهو العهد الذي دام مائة عام ، كادت فيها إيطاليا تصبح ملكاً للعرب . ولو أن رومة سقطت في قبضتهم لرحضوا على البندقية ، ولو أنهم استولوا عليها لأطبقت على القسطنطينية قوتان إسلاميتان عظيمتان . ترى إلى أي حد تتعلق مصائر الناس بنتائج الحروب ومصادفاتها !

وخضعت الثقافة الصقلية المتعددة الأصول في أثناء هذه الحوادث الحربية بحكم عاداتها إلى الفاتحين الجدد ، واتخذت لها طابعاً إسلامياً أسمى وأقوى من طابعها القديم ، واختلط في شوارع العاصمة الإسلامية بانورمس القديمة Panormus وبالرم العربية ، وبالرمو الإيطالية ، الصقليون ، واليونان ، واللمبارد ، وكلهم يكره بعضهم بعضاً من الناحية الدينية ، ولكنهم يعيشون معاً صقليين عادين في عواطفهم ، وشعرهم ، وجراثيمهم . وفيها شاهد ابن حوقل حوالي عام ٩٧٠ نحو ثلثمائة مسجد ، وثلثمائة من معلمي المدارس ينظر إليهم الأهلون بعين الاحترام رغم ما اشتهر به هؤلاء المدرسون - كما يقول العالم الجغرافي - من قلة الذكاء وخفة الأحلام (٣٤) . هذا وإذا كانت صقلية تستمتع بقسط كبير من المطر وضوء الشمس ، فقد كانت تربتها غاية في الخصب ، فلما جاءها العرب المهرة وأحسنوا تنظيم أحوالها الاقتصادية جنوا ثمار هذا التنظيم ، وأضحت بالرم ثغراً تجارياً عظيماً بين أوروبا المسيحية وإفريقية الإسلامية ، وما لبثت أن صارت من أغنى المدن في بلاد الإسلام ؛ وكان حب المسلمين للملابس الجميلة ، والجواهر المتألثة ، وفنون الزينة ، مما جعل الحياة في الجزيرة تسير سيراً هادئاً في غير عجلة ولكن في غير إسفاف . ويصف الشاعر الصقلي ابن حمديس (١٠٥٥ - ١١٣٢) الساعات التي يقضيها الشاب البالرمي في تمتعه ، ويحدثنا عن قصفه ومرحه حتى منتصف الليل ، وعن اختلاط الرجال والنساء في الولائم والحفلات بعد أن طرد ملك المرح الموم ، وعن (٢٠ - ج - ٢ - مجلد ٤)

الفتيات المعتنقات اللاتي يدخلن العود بأصابعهن اللطيفة ؛ ويرقصن كأنهن الأتقار الساطعة فوق الأغصان اللينة (٢٥) .

وكان في الجزيرة آلاف من الشعراء لأن العرب كانوا يحبون الفكاهة الحلوة ، والشعر الموزون ، ولأن الحب الصقلي كان يمدم بموضوعات جمّة مثيرة للخيال . وكان في الجزيرة علماء لأن بالرم كان فيها جامعة ؛ وكان فيها أطباء عظام ، لأن الطب الإسلامي الصقلي قد أثر تأثيراً ذا بال في مدرسة سالرنو الطبية (٢٦) . ولقد كان نصف ما امتازت به صقلية النورمانية من البهاء والعظمة صدى لعهدنا العربي الزاهر ، وتراناً شريعياً من الصناعات والصناع أورثه العرب ثقافة فنية راغبة في أن تتلقى العلم على أي جنس وأي دين . ولما أن فتح أهل الشمال (النورمان) صقلية (١٠٦٠ - ١٠٩١) أعانوا بفتحهم الزمان على نحو آثار المسلمين في صقلية ؛ وهاهو ذا الكونت روجر Count Roger يفخر بأنه قد سوى بالأرض « المدائن ، والقلاع ، والقصور العربية التي بذل المسلمون في إقامتها أعظم الفنون وأعجبها » (٢٧) . ولكن الطراز المعماري الإسلامي خلف طابعه على قصر لازيزا ، وعلى سقف كاپلا پلاتينا Capella Polatina ، ففي هذا المعبد القائم في قصر الملوك النورمان زين المزار المسيحي بالنقوش العربية الإسلامية .

الفصل الرابع

الإسلام في أسبانيا

٧١١ - ١٠٨٦

١ - الخلفاء والأمراء

لم يكن العرب هم الذين فتحوا أسبانيا أولاً بل الذين فتحوها هم المغاربة ، فقد كان طارق من البربر ، وكان في جيشه سبعة آلاف من بنى جنسه ، مقابل ثلاثة آلاف من العرب ، وقد بخلد اسمه ، إذ سميت به الصخرة التي نزلت قواته عند قاعدتها ، فقد سماها البربر جبل طارق واختصره الأوربيون إلى جبرواتر Gibraltar . وكان الذي سير طارقاً إلى فتح أسبانيا هو موسى بن نصير وإلى شمال إفريقية العربي . ثم عبر موسى البحر في عام ٧١٢ ، ومعه ١٠٠٠٠ من الجنود العرب و ٨٠٠٠ من البربر وحاصر أشبيلية ومريده ، ولأم طارقاً لأنه تعدى حدود الأوامر الصادرة له ، وضربه بالسوط ، وزجه في السجن ؛ ولكن الخليفة الوليد استدعى موسى وأطلق سراح طارق فواصل هذا القائد فتوحه . وكان موسى قد عين ولده عبد العزيز حاكماً لأشبيلية ؛ ولكن سليمان أخا الوليد ارتاب في نوايا عبد العزيز وظنه يعمل ليستقل ببلاد الأندلس ، فأرسل إليه من اغتاله . وحيء برأسه إلى سليمان في دمشق ، وكان قد تولى الخلافة بعد أخيه ، فبعث يستدعى موسى ، فلما جاء طلب إليه أن يعطيه رأس ولده حتى يسبل عينيه . ولم يمض على موسى عام واحد حتى مات من الحزن (٢٨) . ومن حقنا أن نعتقد أن هذه القصة ليست إلا خرافة من الخرافات التي تروى عن حب الملوك لسفك الدماء .

وعامل الفاتحون أهل البلاد معاملة ليننة طيبة ، ولم يصادروا إلا أراضي الذين قاوموهم بالقوة ، ولم يفرضوا على الأهلين من الضرائب أكثر مما كان يفرضها عليهم ملوك القوط الغربيين ، وأطلقوا لهم من الحرية الدينية ما لم تتمتع به أسبانيا إلا في أوقات قليلة نادرة . ولما أن توطد مركز المسلمين في أسبانيا ، عبروا جبال البرانس ودخلوا غاله يريدون أن يجعلوا أوربا ولاية تابعة لدمشق . والتقى بهم بين توز وبواتيبه على بعد ألف ميل شمالى جبل طارق جيش من قوى يوديس Etides دوق أكوين ، وشارل دوق أستراسيا Austrasia . ودارت المعركة سبعة أيام هزم المسلمون بعدها في واقعة من أهم الوقائع الحاسمة في التاريخ (٧٣٢) ، وفيها قررت مصادقات الحرب مرة أخرى الدين الذى يتبعه الملايين التى لا يحصى عديدها من بنى الإنسان . ومن هذا الوقت أطلق على شارل اسم شارل مارتلس Charles Martellus أى شارل المطرقة . وأعاد المسلمون الكرة في عام ٧٣٥٠ واستولوا على أربليس Arles ، ثم فتحوا أفنيون Avignon في عام ٧٣٧٠ وخربوا وادى نهر الرون حتى ليون . وفي عام ٧٥٩ أخرجهم ببين القصير Pepin the Short نهائيا من جنوبي فرنسا ، ولكن الأربعين عاما التى تنقلوا خلالها في ذلك الإقليم كانت في أغلب الظن ذات أثر قوى فيما يتصف به أهل لانجويدك Languedoc من تسامح غير عادى بين الأديان المختلفة ، ومن مرج كثير ومن حب لأغاني الغزل غير المباح .

ولم يكن خلفاء دمشق يقدرون أسبانيا حق قدرها ، فلم تكن تعرف عندهم حتى عام ٧٥٦ إلا باسم « الأندلس » ، وكان يحكمها وال يعين من القيروان . لكن شخصية روائية نزلت في أسبانيا عام ٧٥٥ ، وكان سلاحها الوحيد هو ما يجرى في عروقها من الدم الملكى ، وأراد الله أن تؤسس فيها أسرة لا تنقل في مجدها وراثتها عن خلفاء بغداد . ذلك أنه لما أمر بنو العباس في عام ٧٥٠ أن يقتل جميع الأمراء الأمويين ، لم ينبج من هؤلاء الإمراء إلا عبد الرحمن أحد أحفاد

الخليفة هشام . وطارده أعداؤه من قرية إلى قرية ، فاضطر أن يعبر نهر الفرات الواسع سباحة ، واجتاز الصحراء إلى فلسطين ، ثم انتقل منها إلى مصر وإفريقية حتى وصل آخر الأمر إلى مراکش . وكانت أخبار الثورة العباسية قد ألهبت نيران المنافسة الحزبية القديمة بين العرب ، والسوريين ، والفرس ، والمغاربة في أسبانيا . وكان في تلك البلاد طائفة من العرب مخلصه للأمويين تخشى أن يعترض الخلفاء العباسيون على حقها في تملك الأراضي التي وهبا لهم ولاية بني أمية ، فدعوا عبد الرحمن للانضمام إليهم وتولى قيادتهم . فجاء إليهم وعينوه أميراً على قرطبة (٧٥٦) ، وهزم جيشاً أرسله الخليفة المنصور لينزعها منه ، وبعث برأس قائد هذا الجيش ليلق أمام أحد القصور في مكة .

ولعل هذه الحوادث هي التي منعت انتشار الدين الإسلامي في أوروبا : ذلك أن أسبانيا الإسلامية قد أضعفتها الحرب الأهلية ، وانقطعت عنها المعونة الخارجية فلم تواصل الغزو والفتح ، بل انسحب المسلمون من شمالي أسبانيا ، وانقسمت شبه الجزيرة من القرن الحادى عشر قسمين أحدهما مسلم والآخر مسيحي ، يفصلهما خط يمتد من كوامبرا Coimbra ماراً بسرقسطة ومخاذا لنهر الإبرة . وازدهر النصف الجنوبي الإسلامي بعد أن بسط فيه بواء السلم عبد الرحمن الأول وخلفاؤه ، فعمه الرخاء ، وترعرع فيه الشعر والفن . واستمتع عبد الرحمن الثانى بثمار هذا الرخاء ؛ فبعد اتسع وقته ، بين حروبه مع المسيحيين على حدوده ، وقعه للثورات التي كان يقوم بها رعاياه ، وصعد الغارات التي كان يشنها النورمان على سواحل بلاده ، اتسع وقته لتجميل قرطبة بالقصور والمساجد ، وإجزال العطاء للشعراء ، وكان يعفو عن المذنبين ويعاملهم معاملة لينة ربما كان لها بعض الأثر فيما حدث بعده من اضطراب اجتماعي .

وكان عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١) آخر الشخصيات البارزة من أسرة بني أمية في أسبانيا ؛ فقد آلت إليه الخلافة وهو في الحادية والعشرين

من عمره ، ووجد الأندلس تمزقها الانقسامات العنصرية ، والأحقاد الدينية ، واضطراب جبل الأمن ، ومساعي أشييلية وطليلة للاستقلال عن قرطبة . وقبض عبد الرحمن ، رغم ما اتصف به من دمائه الخلق ورقة الحاشية ، واشتهاره بالكرم والمجاملة ، على زمام الموقف بيد من حديد وقع فتنة المدن الثائرة ، وأخضع أشرف العرب الذين أرادوا أن يحدو حذو معاصريهم الفرنسيين ، فبسطوا على ضياعهم الواسعة الغنية سيادتهم الإقطاعية ، ودعا إلى بلاطه رجلا من مختلف الأديان كان يستشيرهم في شئون الحكم ، وعقد المحادثات التي يضمن بها توازن القوى بين جيرانه وأعدائه ، وأدار شئون البلاد بجد وعناية بدقائق الأمور ، لا يقلان عما كان يتصف به نابليون في هذه الناحية ، وكان هو الذي يضع الخطط الحربية لقواده ، وكثيراً ما كان ينزل إلى ميدان القتال بنفسه ، وصد غزوة سانكو صاحب ثوره *Sancho of Navarra* ، واستولى على عاصمته ودمرها ، وأرهب بذلك المسيحيين فلم يغيروا على بلاده مرة أخرى في أثناء حكمه . ولما رأى في عام ٩٢٩ أن له من القوة ما لا يقل عن أي حاكم في زمانه ، وأدرك أن الخليفة العباسي في بغداد قد أصبح ألعوبة في أيدي الحرس التركي ، اتخذ لنفسه لقب خليفة - وأمير المؤمنين ، وحامى حمى الدين . وقد ترك وراءه بعد وفاته نبذة كتبها بخطه بده قدر فيها قيمة الحياة البشرية تقديراً غير مبالغ فيه : « مضت خمسون سنة منذ توليت الخلافة فتمتعت بما لا يزيد عليه شيء من الثراء والمجد والنعم ، فاحترمتني الملوك وخافوني وحسدوني وجباني الله بأقصى ما يرغب فيه إنسان ، فأحصيت أيام السرور التي صفت لي دون تكدير في هذه المدة الطويلة فكانت أربعة عشر يوماً ، فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفاتها وبخلها بكمال الأحوال لأولياتها » (٢٩) (*) .

(*) من كتاب نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب المقربى . (المترجم)

وأفاد ابنه الحكيم الثاني (٩٦١ - ٩٧٦) كما يفيد الرجل العاقل الحكيم من هذه الأعوام الخمسين التي حكمها أبوه بحزم وجدارة ، والتي لم يستمتع فيها بقسط موفور من السعادة ؛ وكان في أثناء حكمه آمناً من الخطر الخارجي ، والفتن الداخلية ، فوجه جهوده إلى تزيين قرطبة وغيرها من المدن ، وأنشأ فيها المساجد ، والمدارس الكبرى ، والبيمارستانات ، والأسواق ، والحمامات العامة ، وملاجئ الفقراء (٣٠) ، وجعل جامعة قرطبة أعظم معاهد التعليم في زمانه ؛ وأبجزل العطاء لمئات الشعراء والفنانين والعلماء . وفيه يقول المقرئ المؤرخ الإسلامي :

وكان (الخليفة الحكيم) محبا للعلوم مكرماً لأهلها ، جماعاً للكتب بأنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله . . . إن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفي كل فهرست عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير . وأقام للعلم والعلماء سوقاً نافقة جلبت إليه بضائعه من كل قطر . . . وكان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار ويرسل إليهم الأموال لشراؤها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه . وبعث في طلب كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني - وكان نسبه في بني أمية - وأرسل إليه فيه ألف دينار من الذهب العين ، فبعث إليه نسخة منه قبل أن يخرججه إلى العراق (*) .

وبينا كان الخليفة العالم يعنى بمسرات الحياة ونعيمها ، كان يترك تصريف شئون الحكم ، وتوجيه السياسة القومية نفسها إلى وزيره اليهودي القدير حسداى ابن شيروط ، ويترك قيادة الجيوش إلى قائد نابه مجرد من الضمير تجمعت حول اسمه مادة لكثير من المسرحيات أو القصص الخيالية المسيخية . وقد أسمته هذه الروايات والقصص باسم المنصور ، أما اسمه الحقيقي فهو محمد بن أبي عامر

(*) النص منقول عن نفع الطيب . (المترجم)

وهو ينتمى إلى أسرة عربية عريقة النسب ولكنها قليلة الثراء . وكان يكسب قوته بكتابة المعروضات لمن يريد من الناس أن يتوجه بمطالب إلى الخليفة ، ثم أصبح كاتباً في ديوان قاضى القضاة ، ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره في عام ٩٦٧ اختير لإدارة أملاك عبد الرحمن أكبر أبناء الحكم . ثم تقرب إلى الملكة صبيح أم الغلام ، وفتنها بمجالمتها والثناء عليها ، وأثر فيها بجلده وكفايته ، وما لبث أن أصبح هو المصرف لأملاكها وأملاك ولدها ، ولم يمض عام واحد حتى عين مديراً لدار الضرب . ومن ذلك الوقت أصبح سخياً على أصدقائه سخاء جعل حاسديه يتهمون بالارتشاء والخيانة . واستدعاه الحكم ليحاسبه على ما أوثمن عليه من المال ، وعرف ابن أبي عامر أن المال الذى فى عهده سيكون ناقصاً فطلب إلى صديق له غنى أن يقرضه قيمة العجز ؛ ثم توجه إلى القصر مسلحاً بهذا السلاح القوى ، وواجه به من أتموه ، وانتصر عليهم انتصاراً جعل الخليفة على أن يسند له عدة مناصب تدر عليه المال الكثير . ولما مات الحكم أفلح ابن أبي عامر فى تنصيب هشام الثانى ابن الحكم خليفة (٩٧٦-١٠٠٩) و (١٠١٠-١٠١٣) بعد أبيه وذلك بأن دبر بنفسه قتل منازعه فى الخلافة ، وبعد أسبوع واحد تولى هو الوزارة (٣٣) .

وكان هشام الثانى رجلاً ضعيفاً عاجزاً كل العجز عن سياسة الدولة ، ولذلك كان ابن أبي عامر هو الخليفة فى كل شىء ما عدا الاسم ، وأتمه أعداؤه بحق بأنه يجب الفلسفة أكثر مما يجب الدين الإسلامى ؛ وأراد أن يلجم ألسنتهم فدعا رجال الدين أن يخرجوا من مكتبة الحكم الكبرى كل ما يجدونه فيها من الكتب التى تخالف مذهب أهل السنة ، وأن يحرقوا هذه الكتب ، وبهذه الطريقة الهمجية الإجرامية اشتهر بين الناس بالتقى والصلاح . وضم فى الوقت نفسه أصحاب المواهب العقلية إلى جانبه بأن بسط حمايته فى السر على الفلاسفة ، وأخذ يرحب بالأدباء فى بلاطه ، وآوى فيه عدداً كبيراً من الشعراء أجرى عليهم.

مرتبات من بيت المال ، وكان هؤلاء الشعراء يسرون في ركابه حين يخرج إلى الحرب ويتغنون بانتصاراته . وشاد مدينة جديدة هي مدينة الزاهرة في شرق قرطبة ضمت قصره ، ومكاتب الإدارة ؛ أما الخليفة الذي عني بتدريبه على الانهماك في الفلسفة فقد بقى مهملاً يكاد يكون سجيناً في القصر الملكي القديم ، وأراد ابن أبي عامر أن يزيد مركزه قوة فأعاد تنظيم الجيش وجعل معظمه من مرتزقة البربر والمسيحيين الذين كانوا يكرهون العرب ، ولا يشعرون بأن للدولة عليهم حقوقاً ، ولكنهم كانوا يجوزونه على سخائه ، وحسن معاملته بالولاء له شخصياً . ولما أن ساعدت ولاية ليون Leon المسيحية ثورة قامت عليه في بلاده ، فتك بالثوار ، وأوقع بأهل ليون هزيمة منكرة ، وعاد منتصراً إلى عاصمته ؛ ولقب من ذلك الحين بالمنصور . وكثرت المؤامرات عليه ، ولكنه كان يحيطها كلها بشبكة من الجاسوسية والاختيال في الوقت المناسب ؛ ولما انضم ابنه عبد الله إلى إحدى هذه المؤامرات ، وافتضح أمره قطع رأسه . وكان المنصور مثل صلا الرومانى لا يترك محسناً إلا أتابه ولا مسيئاً إلا انتقم منه .

وغفر الناس له جرائمه لأنه قمع جرائم غيره ، وحقق العدالة للأغنياء والفقراء على السواء ، حتى لم تكن الحياة ولا الأموال في قرطبة أعظم أمناً في وقت من الأوقات مما كانتا في أيامه ، ولم يسع الناس إلا أن يعجبوا بثباته ، ومثابرتيه ، وفطنته ، وشجاعته . وحدث في يوم من الأيام والمجلس منعقد برياسته أن شعر بألم في ساقه ؛ فأمر باستدعاء الطبيب ، ولما حضر أشار بكفيها بالنار . فلم يقص المنصور المجلس ، وقبل أن يحرق جسمه دون أن يظهر عليه ما يدل على ألمه . ويقول المقرئ : إن المجلس لم يعرف شيئاً مما حدث إلا بعد أن فاحت رائحة اللحم وهو يحترق (٢٣٣) (٢٣٤) . وكان مما فعاه أيضاً ليجمع القلوب على محبته أن وسع مسجده

(*) هذا هو النص فنقله عن المقرئ : « إن المنصور كان به داء في رجله واحتاج إلى الكى ، فأمر الذى يكويه بذلك وهو قاعد في موضع مشرف على أهل مملكته ، فجعل يأمر

قرطبة واستخدم في توسيعه أسرى المسيحيين ، واشترك هو بنفسه في أعمال البناء بفأسه ، ومجرفه ، ومِسْجَتَه (*) ، ومنشاره . وأدرك أن الحاكم الذي ينتصر في الحروب ، عادلة كانت أو ظالمة ، يعلو شأنه بين معاصريه وبين الأجيال المستقبلية ، ولهذا شن الحرب من جديد على ليون ، واستولى على عاصمتها ودمرها وذبح أهلها . وكان في ربيع كل عام تقريباً يسير على رأس حملة جديدة لمحاربة الأقاليم الشمالية المسيحية ؛ وقد عاد من هذه الحملات جميعها بلا استثناء مكلاً بالنصر . من ذلك أنه لما استولى في عام ٩٩٧ على مدينة سنثياجوده كيمستيليا Santiago de Compstela ، ودمر ضريح القديس جيمس الشهير ، أرغم الأسرى المسيحيين على أن يحملوا أبواب الكنيسة وأجراسها على أكتافهم في موكب نصره حتى دخل قرطبة (٣٤) . وقد أعيدت هذه الأجراس فيما بعد إلى كيمستيليا محمولة على ظهر أسرى الحرب المسلمين) .

ولم يقنع المنصور بما كان له في بلاد الأندلس الإسلامية من مقام ، وإن كان في الواقع سيدها بلا منازع ، بل كان يتوق إلى أن يكون سيدها اسماً وفعلاً ، وأن يؤسس فيها أسرة مالكة . ففي عام ٩٩١ تخلى عن منصبه لابنه عبد الملك ، ولم يكن يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، وأضاف إلى ألقابه الأخرى لقبى السيد والملك الكريم وحكم البلاد حكماً مطلقاً . وكان يرغب في أن يموت في ميدان القتال ، ويعد العدة بالفعل لهذه الخاتمة ، فكان إذا خرج لحرب من الحروب أخذ معه كفته . وقد غزا قشتالة في عام ١٠٠٢ وهو وقتئذ في الحادية والستين من عمره ، واستولى على مدنها ، ودمر أديرتها ، وخرّب حقولها ، ثم مرض في طريق العودة إلى بلاده ، ولكنه لم يسمح للأطباء أن يعنوا به ، واستدعى إليه ابنه

= وينسى ، ويُقرى القرى في أموره ورجله تكوى ، والناس لا يشمرون حتى شموا رائحة الجلد واللحم ، فتمجبوا من ذلك وهو غير مكترث . (المترجم)
(*) المِسْجَتَة : خشبة يطين بها . (المترجم)

وأخبره أنه سيدركه الموت بعد يومين اثنين ، فلما بكى عبد الملك قال له إن هذا البكاء دليل على أن الدولة ستبهار يعد قليل (٣٥) . وقد صدقت النبوءة فأنهارت خلافة قرطبة بعد جيل من ذلك التاريخ .

وعمت الفوضى بلاد الأندلس الإسلامية بعد موت المنصور ، فلم يكن أمراؤها يجلسون على العرش إلا زمناً قصيراً ، وكثرت بينهم حوادث الاغتيال ، والمنازعات العنصرية ، وحروب الطبقات ؛ ورأى البربر أنهم محتقرون فقراء في الدولة التي أقاموا دعائمها بسواعدهم وسيوفهم ، وأنهم قد طوح بهم إلى بطاح استرمادوره Estremadura الفاحلة أو جبال ليون الباردة ؛ فثاروا من حين إلى حين على العرب الحاكمين . وكان عمال المدن المستغفلون يخذلون على من يستغلونهم ، فكانوا يخرجون عليهم ويقتلونهم ويستبدلون بهم غيرهم . وأجمعت سائر الطبقات على كره تلك الأسرة الحاكمة أسرة ابن أبي عامر التي كادت في عهد ولده تستأثر بجميع مناصب الدولة ومقومات السلطة . ومات عبد الملك في عام ١٠٠٨ وتولى الوزارة بعده أخوه عبد الرحمن ، وكان عبد الرحمن رجلاً مستهتراً يشرب الخمر علناً ولا يتورع عن ارتكاب الخطايا ، يفضل اللهو على النظر في شئون الحكم ، فلم يلبث أن طرد من منصبه على أثر ثورة اشتركت فيها جميع الأحزاب تقريباً . وأفلت الزمام من أيدي زعماء الثورة فهبت الجاهير قصور الزاهرة وأحرقتها عن آخرها ؛ وفي عام ١٠١٢ استولى البربر على قرطبة نفسها وأعملوا فيها السلب والنهب ، وذبحوا نصف أهلها ، وطردوا النصف الباقي منها ، وجعلوا هذه المدينة عاصمة بربرية . بهذه الققرة الموجزة يقص أحد المؤرخين المسيحيين ثورة أسبانيا الإسلامية الشبيهة كل الشبه بالثورة الفرنسية .

لكن الحماسة التي تدفع صاحبها إلى الهدم والتدمير قلما تقترن بالصبر الذي يتطلبه البناء والتعمير . ففي أثناء حكم البربر اختل الأمن والنظام وعم السلب والنهب ، وزاد عدد المتعطلين ؛ وخرجت على قرطبة المدائن الخاضعة لها ومنعت

عنها الخراج ، وحتى ملاك الضياع الواسعة استأثروا بالسلطة كلها في ضياعهم .
لكن من بقى في قرطبة من العرب أخذوا ينتعشون شيئاً فشيئاً ، حتى إذا حل
عام ١٠٢٣ طردوا البربر من العاصمة وأجلسوا على العرش عبد الرحمن
الخامس ، غير أن العامة من أهل قرطبة رأوا أنه لا يرجى خير من العودة
إلى العهد القديم ، فاستولوا على القصر وبايعوا بالخلافة محمداً المستكنى أحد
زعمائهم (١٠٢٣) . وعين محمداً أحد عمال النسيج وزيراً له ، ثم اغتيل
هذا الوزير ، ودس السم للخليفة الشعبي ، ثم اتخذت الطبقتان العليا والوسطى
وبايعت بالخلافة هشاماً الثالث (١٠٢٧) . وجاء دور الجيش بعد أربع
سنين ، فقتل وزير هشام ، وطلب إلى هشام نفسه أن ينزل عن الخلافة ؛
وعقد مجلس من أصحاب الرأي في المدينة وأيقن المجتمعون أن النزاع على
العرش قد جعل قيام الحكم الصالح غير مستطاع ، فألغى الخلافة الأندلسية ،
وأحل محلها مجلساً للدولة ، واختير ابن جمهور رئيساً لهذا المجلس فحكم
الجمهورية الجديدة بالعدل والحكمة .

لكن هنا جاء بعد فوات الأوان ، أي بعد أن اضمحلت السلطة
السياسية وقضى على الزعامة الثقافية في قرطبة ، فوصلت بذلك إلى حال
لا يرجى منها شفاء . وروع العلماء والشعراء بكثرة الحروب الأهلية ففرء
من « جوهرة العالم » إلى بلاط طليطلة ، وغرناطة ، وأشبيلية . واقتسم
بلاد الأندلس الإسلامية ثلاثة وعشرون من ملوك الطوائف شغلهم الدسائس
والمنازعات فيما بينهم عن إغاثة أسبانيا المسيحية على الإمارات الإسلامية
واستيلائها عليها واحدة بعد واحدة . وازدهرت غرناطة بعض الوقت في
حكم الحاكم صمويل هلبيني Samuel Halevi المعروف عند العرب باسم
إسماعيل بن نغرة . واستقلت طليطلة عن قرطبة في عام ١٠٣٥ . ثم خضعت
لحكم المسيحيين بعد خمسين عاماً من استقلالها .

وورثت أشبيلية مجد قرطبة ، وكان بعضهم يظنها خيراً من العاصمة القديمة
وأجمل منها ، وكان الناس يحبونها لجمال حدائقها ، ونخيلها ، وورودها ، وما فيها

من مرح دائم ، وموسيقى ، ورقص ، وغناء . وكانت تتوقع سقوط قرطبة فتعجلت هي وأعلنت استقلالها في عام ١٠٢٣ ، وعثر أبو القاسم محمد قاضي قضاتها على صانع حصر شبيه بهشام الثاني فنادى به خليفة ، وآواه وأمسك هو بزمامه ، وأقنع بالنسبة ، وطرطوشة وقرطبة نفسها بمبايعته . وهذه الطريقة السهلة أقام قاضي القضاة الداهية أسرة بنى عباد القصيرة الأجل . ولما مات في عام ١٠٤٢ خلفه ابنه عباد المعتضد وحكم أشيلية بمهارة وقسوة مدة سبع وعشرين سنة ، وأخذ يمد سلطانه حتى كان نصف أسبانيا الإسلامية يؤدي له الجزية . وورث الملك من بعد ابنه المعتمد (١٠٦٨ - ١٠٩١) وهو في السادسة عشرة من عمره ، ولكنه لم يرث عنه نظامه ولا قسوته . وكان المعتمد أعظم شعراء الأندلس ، يفضل مجالس الشعراء والموسيقين على مجالس الساسة وقواد الجند ، ويميز العطاء لمنافسه من الشعراء ، ولا يحسد على تفوقهم ، فلم يكن يرى من الإسراف أن يميز إحدى الملح الشعرية بألف دينار^(٣٦) . وكان يحب شعر ابن عمار ، ولذلك اتخذه وزيراً له ، وسمع تجارية تدعى الرميكية ترنجل جيد الشعر ، فابتاعها ، وتزوجها ، وظل حتى وفاته يحبها حباً شديداً ، وإن لم يهمل غيرها من الغانيات في قصره . وكانت الرميكية تملأ القصر بضحكها ، وأحاطت سيدها بجو من المرح ، جعل رجال الدين يلومونها على عدم أكثرات زوجها بشئون الدين ، وما آلت إليه مساجد المدينة التي أوشكت أن تخلو من المصلين . لكن المعتمد مع هذا كان قادراً على أن يحكم ، وأن يحب ، ويغنى ، فلما أن هاجت طليطلة مدينة قرطبة ، واستغاثت قرطبة به ، سير إليها حملة أنقذت المدينة من طليطلة ، وأخضعتها لأشيلية . وحمل الملك - الشاعر مدى جيل كامل ملء بالقلقل لواء حضارة لا تقل ازدهارا عن حضارة بغداد في أيام هرون الرشيد ، وحضارة قرطبة في عهد المنصور .

٢ - الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

لم تنعم الأندلس طول تاريخها بحكم رحيم ، عادل ، كما نعمت به في أيام الفاتحين العرب « (٣٧) . ذلك حكم يصدره مستشرق مسيحي عظيم (*) قد يتطلب تحمسه شيئاً من التقليل من ثنائه ، لكن هذا الحكم بعد أن ننقص منه ما عساه أن يكون فيه من التحمس يظل مع ذلك قائماً صحيحاً .

لسنا ننكر أن الأمراء والخلفاء الأندلسيين قد اتصفوا بالقسوة التي يرى ميكفلي أنها لازمة لاستقرار الحكومات وثباتها ، ولسنا ننكر أن قسوتهم وصلت في بعض الأحيان إلى حد الهمجية وغلظة القلب ، يدل على ذلك ما فعله المعتمد حين زرع الأزهار في جماجم الموتى من أعدائه ؛ وما فعله المعتضد حين قطع أوصال رجل ظل صديقاً له معظم حياته ثم غدر به هذا الصديق وأهانته آخر الأمر (٣٨) . ولكن المقرئ يورد في مقابل هذه الأمثلة النادرة مئات من الشواهد الدالة على عدل حكام الأندلس الأمويين وجودهم ودمائة أخلاقهم (٣٩) . وهم لا يقلون في هذه الصفات عن أباطرة الروم في زمانهم ، وما من شك في أن حكمهم كان أفضل من حكم من سبقوهم من القوط الغربيين ؛ ولقد كانوا أقدر أهل زمانهم على تصريف الشئون العامة في العالم الغربي ؛ فكانت قوانينهم قائمة على العقل والرحمة ، تشرف على تنفيذها هيئة قضائية حسنة النظام . وكان أهل البلاد المغلوبون يحكمون في معظم الأحوال حسب قوانينهم وعلى أيدي موظفين منهم (٤٠) . وكان في المدن شرطة تسهر على الأمن فيها ، وقد فرضت على الأسواق ، والمكاييل ، والموازين ، رقابة محكمة ؛ وكانت الحكومة تقوم بإحصاء عام للسكان والأملاك في فترات منتظمة ؛ وكانت الضرائب معقولة إذا قورنت بما كانت تفرضه منها رومة أو بيزنطية . وبلغت

(*) هو استاذ لين پول ، وذلك القول منقول عن كتابه « حكم المسلمين في أسبانيا » (المترجم)

الإيرادات في أيام عبد الرحمن الثالث ٥٠٠٠٠ ر ١٢٠٤٥٠٠ دينار ذهبي (أى ما يعادل ٥٠٠٠٠ ر ١٣٧٥٠ دولار أمريكي) - وأكبر الظن أن هذا كان يفوق إيرادات حكومات البلاد المسيحية اللاتينية مجتمعة (٤١) . ولم يكن مصدر هذه الإيرادات هو الصرائب العالية بقدر ما كان أثراً من آثار الحكم الصالح ، وتقدم الزراعة والصناعة ، ورواج التجارة (٤٢) .

وكان حكم العرب نعمة وبركة قصيرة الأجل على الزراع من أهل البلاد . ذلك أن الفاتحين لم يبقوا على الضياع التي كبرت فوق ما يجب ، والتي كان يمتلكها القوط الغربيون ، وحرروا رقيق الأرض من عبودية الإقطاع (٤٣) . ولكن القوى التي كانت في هذه القرون تعمل لتثيت دعائم الإقطاع ظلت تعمل عملها في أسبانيا أيضاً ، وإن لقيت فيها من المقاومة أشد مما لقيته في فرنسا ؛ فقد امتلك العرب بدورهم مساحات واسعة من الأراضي ، وكان يقوم بزرعها مستأجرون قريبو الشبه برقيق الأرض . وكان العبيد يلقون على أيدي المسلمين معاملة أحسن قليلاً من التي كانوا يلقونها على أيدي سادتهم الأولين (٤٤) . وكان في مقدور عبيد غير المسلمين أن يتحرروا من الرق بمجرد اعتناقهم الإسلام ، وكان العرب في معظم الأحوال يتركون أعمال الزراعة إلى أهل البلاد ، ولكنهم كانوا يستعينون بأحدث ما ألف من الكتب في علومها ، وبفضل توجيههم بلغت هذه العلوم في أسبانيا من التقدم أكثر مما بلغت في أوروبا المسيحية (٤٥) . واستبدل بالثيران البطيئة الحركة ، التي كانت تستخدم حتى ذلك الوقت في جميع أنحاء أسبانيا للحرث والجر ، البغال ، والحمير ، والخيول . وأدى تهجين السلالات الأسبانية والعربية من الخيل إلى وجود الجياد الأصيلة التي كان يمتلكها فرسان العرب وكبليرو Caballero (فرسان) الأسبان ، ونقلت بلاد الأندلس الإسلامية

من آسية زراعة الأرز ، والحنطة السوداء(*) ، وقصب السكر ، والرمان ،
والقطن ، والسبانخ ، والأسفرج(**) ، والموز ، والكراز ، والبرتقال ،
والليمون ، والسفرجل ، والليمون الهندي ، والحوخ ، ونخيل البلح ،
والتين ، والشليك ، والزنجبيل ، والمر وصناعة الحرير(٤٦) . وكانت زراعة
الكروم من الأعمال الكبرى في بلاد الأندلس ، وإن كان الدين الإسلامي
يحرم الخمر . وأحالت حدائق الخضر ، وغياض الزيتون ، وبساتين الفاكهة
مساحات من الأندلس . وخاصة حول قرطبة وغرناطة ، وبلنسية - جنات
على الأرض . كما استحالت جزيرة ميورقة Majorca ، التي فتحها العرب
في القرن الثامن بفضل علمهم بالزراعة وعنايتهم بها فردوساً مليئاً بالفاكهة
والأزهار ، تشرف عليها أشجار النخيل التي سميت الجزيرة باسمها فيما بعد .

وأغنت مناجم أسبانيا المسلمين بالذهب ، والفضة ، والتصدير ، والنحاس ،
والحديد ، والرصاص ، والشب ، والكبريت ، والزئبق . وكان المرجان
يستخرج من البحر على طول سواحل أسبانيا ، كما كان اللؤلؤ يصطاد
قرب سواحل قطلونية ، وكان الياقوت يستخرج من مناجم حول باجة
ومالقة . وتقدمت الصناعات المعدنية في البلاد تقدماً عظيماً ، فاشتهرت
مرسية بمصنوعاتها من الحديد والشهان ، كما اشتهرت طليطلة بالسيوف ،
وقرطبة بالدروع . وازدهرت كذلك الصناعات اليدوية ، فكانت
قرطبة تصنع الجلد القرطبي الذي يستخدمه الحداءون في أوروبا المعروفون
باسم Cordwainer نسبة إلى «الجلد القرطبي Cordovan» . وكان في
قرطبة وحدها ١٣٠٠٠ نساج ، وكان المشترون في كل مكان يقبلون

(*) نبات ينمو في ألمانيا وبريطانيا وتتخذ حبويه طعاماً للنخيل ، والماشية ، والدجاج ،
والكمك المصنوع من دقيقه طعام شهي على موائد الفطور الأمريكية . (ويسمى بالإنجليزية
buckwheat) (المترجم)

(**) نبات تتخذ براعيه الصغيرة طعاماً شهيماً ويسميه ابن سينا اسفرغس وهو بالإنجليزية
Asparagus (المترجم)

على شراء السجاجيد ، والوسائد ، والسجف الحريرية ، والشيلان ، والأرائك الأندلسية . ويقول المقرئ (٤٨) إن ابن فرناس القرطبي اخترع في القرن التاسع الميلادي النظارات ، والساعات الدقاقة المعقدة التركيب ، كما اخترع آلة طائرة . وكان أسطول مجارى يزيد على ألف سفينة يحمل غلات الأندلس ومصنوعاتها إلى إفريقية وآسية ، وكانت السفائن القادمة من مائة ثغر و ثغر تزدهم بها مرافئ برشلونة ، والمرية ، وقرطاجنة ، وبلنسية ، ومالقة ، وقادس ، وأشبيلية . وأنشأت الحكومة نظاماً للبريد ينقل رسائلها بانتظام . واحتفظت العملة الرسمية بأجزائها - الدينار الذهبي ، والدرهم الفضي ، والفلس النحاسي ، - بثباتها واستقرارها النسبي ، إذا قارناها بعملة العالم المسيحي اللاتيني في أيامها ، ولكن هذه النقود الأندلسية أخذت هي الأخرى ينقص وزنها ، ونقاؤها ، وقوتها الشرائية .

وسار الاستغلال الاقتصادي في هذه البلاد سيرته في البلاد الأخرى ، فاستحوذ العرب أصحاب الضياع الواضعة ، والتجار الذين كانوا يقتصرون المنتج والمستهلك على السواء ، على خيرات الأرض . وكان معظم الأغنياء يعيشون في الريف في بيوت ذات حدائق ، ويتركون المدن الكبرى للبربر ، والذين أسلموا من المسيحيين ، والمستعربين (غير المسلمين من الأندلسيين الذين أخذوا عن العرب أساليب العيش ولغة الحديث) ، وإلى طائفة قليلة العدد من الحصيان ، والضباط والحراس الصقالية ، والعميد خدم البيوت . وأحسن الخلفاء في قرطبة يعجزهم عن القضاء على الاستغلال الاقتصادي من غير أن يضعفوا روح المغامرة فوقفوا بين هذا وذاك بتخصيص ريع غلات أرضهم لمعونة الفقراء (٤٩) .

وكان استمساك الطبقات المولدة بدينها وتشدها في عقائد هيا سبباً في زيادة سلطان الفقهاء أى علماء الشريعة الإسلامية ، وكان العامة يتفرون من كل جديد (٢١١ - ج ٢ - محلد ٤)

في العقائد أو الأخلاق نفوراً جعل الخارجين على الدين ، والمفكرين (*) يخفون رؤوسهم في معظم الأحوال ، ويتزؤون في البيوت أو يلجأون إلى الغموض في الأقوال . وكنت أفواه الفلاسفة ، أو اضطروا إلى الجهر بأراء تقبلها جمهرة الناس ومحترميها . وكان الموت جزاء من يرتد عن دين الإسلام . نعم إن خلفاء قرطبة أنفسهم كانوا رجالاً ذوي آراء حرة ، ولكنهم كانوا يظنون أن الخلفاء الفاطميين في مصر يتخذون العلماء المتثقلين عيوناً عليهم ، ولهذا كانوا ينضمون في بعض الأحيان إلى الفقهاء في التضييق على التفكير الحر المستقل . لكن الحكام الأندلسيين قد أطلقوا لغير المسلمين جميعهم على اختلاف أديانهم حرية العبادة . وإذا كان اليهود الذين اضطهدهم القوط الغربيون أشد الاضطهاد قد ساعدوا المسلمين في فتحهم ، فقد ظلوا يعيشون من ذلك الوقت إلى القرن الثاني عشر مع المسلمين الفاتحين في أمن ووثام ، وأثروا ، وبرعوا في العلوم والمعارف ، وارتقوا في بعض الأحيان إلى مناصب عالية في الحكومة . أما المسيحيون فكانت تعترضهم في سبيل الترقى في مناصب الدولة عقبات أكثر مما يعترض اليهود ، ولكنهم رغم هذه العقبات ظفروا بنجاح عظيم . وكان المسيحيون المذكور ، كالمذكور من سائر الأديان ، يرغمون على الختان بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية الصحية القومية ، لكنهم فيما عدا هذا كانوا يحكمون بمقتضى شريعتهم القوطية الرومانية ينفذها فيهم قضاة يختارونهم هم أنفسهم (٥٠) . وكان الذكور الأحرار القادرون من المسيحيين يؤدون ضريبة الفرضة (***) نظير إعفائهم من الخدمة العسكرية ؛ وكان مقدارها في العادة ثمانية وأربعين درهماً (٢٤ ريالاً أمريكياً) للغنى ، وأربعة وعشرين للمتوسط الثراء ، واثني عشر درهماً لمن يعمل بيده (٥١) . وكان المسلمون

(*) لا ندرى كيف يتفق هذا القول مع ظهور كبار الفلاسفة أمثال ابن رشد في بلاد الأندلس نفسها . ولسنا نشك في أن المؤلف قد عاينه التوفيق في هذا الحكم . (المترجم)
(**) في الأصل الإنجليزي ضريبة الأراضي الزراعية وهو بلا شك سهو من المؤلف . (المترجم)

والمسيحيون يتزاوجون فيما بينهم بكامل حريتهم ، ويشته كون من حين إلى حين في الاحتفال بأحد الأعياد المسيحية أو الإسلامية المقدسة ، ويستخدمون المبنى الواحد كنيسة ومسجداً (٥٢) ؛ وجرى بعض المسيحيين على عادة أهل البلاد فاصطفوا «الحريم» أو مارسوا اللواط (٥٣) ؛ وكان المسيحيون من رجال الدين وغير رجال الدين يقدون بكامل حريتهم وهم آمنون من جميع أنحاء أوروبا المسيحية إلى قرطبة ، أو طليطلة ، أو إشبيلية طلاباً للعلم ، أو زائرين ، أو مسافرين . وقد شكوا أحد المسيحيين من نتيجة هذا التسامح . عبارات تذكرنا بشكاية العبرانيين القدماء من اصطباغ اليهود بالصبغة اليونانية فيقول :

« إن إخواني المسيحيين يعجبون بقصائد العرب وقصصهم ، وهم لا يدرسون مؤلفات فقهاء المسلمين وفلاسفتهم ليردوا عليها ويكذبوها ، بل ليتعلموا الأساليب العربية الصحيحة الأنيقة . . . واحسرتاه ! إن الشبان المسيحيين الذين اشتهروا بمواهبهم العقلية لا يعرفون علماً ولا أدباً ولا لغة غير علوم العرب وآدابهم ولغتهم ؛ فهم يقبلون في نهم على دراسة كتب العرب ، ويملؤون بها مكتباتهم ، وينفقون في سبيل جمعها أموالاً طائلة ، وهم أينما كانوا يتغنون بمدح علوم العرب (٥٤) » . وفي وسعنا أن نحكم على ما كان للدين الإسلامي من جاذبية للمسيحيين من رسالة كتبت في عام ١٣١١ م تقدر عدد سكان غرناطة المسلمين في ذلك الوقت بمائتي ألف ، كلهم ماعداً ٥٠٠ منهم من أبناء المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام (٥٥) . وكثيراً ما كان المسيحيون يفضلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين (٥٦) .

لكن هذه الصورة الجميلة كان لها وجه آخر أخذ زداداً وقتاً ما على مر الأيام . ذلك أن الكنيسة المسيحية لم تكن حرة ، وإن كان المسيحيون أنفسهم أحراراً . فقد صودر معظم أملاكها العقارية بمقتضى مرسوم يشمل جميع من يقومون بعمل إيجابي في مقاومة الفاتحين ؛ كذلك دمرت معظم الكنائس وحرم بناء كنائس جديدة . وورث الأمراء المسلمون من ملوك القوط حق تنصيب

الأساقفة وعزلهم ، وحق دعوة المجالس الكنيسة نفسها إلى الانعقاد : وكان الأمراء يبيعون مناصب الأساقفة لمن يؤدون فيها أغلى الأثمان ، ولو كان من يسند إليه المنصب من الفجرة أو المتشككين في الدين ، وكان التساوية للمسيحيون يتعرضون أحيانا للشتائم من المسلمين في الشوارع ، وكان فقهاء المسلمين يعلقون بكامل حريتهم على ما يبدو لهم أنه سخافات وأباطيل في الدين المسيحي ، ولكن المسيحيين الذين يردون عليهم بمثل أقوالهم كانوا يتعرضون للخطر :

وفي هذه العلاقات المتوترة قد تؤدي أية حادثة صغيرة إلى مأساة شديدة . مثال ذلك أن فتاة حسناء من فتيات قرطبة ، معروفة لدينا باسم فلورا Flora فحسب ، ولدت لأبوين من دينين مختلفين ، فلما توفي أبوها المسلم احترمت أن تعتنق الدين المسيحي ، وفرت من بيت أخيها إلى بيت أحد المسيحيين ، ولكن أخاها قبض عليها وضربها ، وأصرت الفتاة على الارتداد عن دين أبيها ، وسيقت إلى إحدى المحاكم الإسلامية . وأمر القاضي بضربها وإن كان في مقدوره أن يحكم بإعدامها . ومع هذا فقد فرت مرة أخرى إلى بيت مسيحي حيث التقت بقس شاب يدعى أولوجيوس Eulogius أحبها حباً روحياً عارماً . وبينما كانت الفتاة مخبئة في أحد الأديرة ، إذ قتل قس آخر يدعى پرفكتوس Perfectos ، لأنه تكلم في حق النبي محمد أمام بعض المسلمين ، وقد وعدوه بالآيشوا به ، ولكن أقواله بلغت من العنف درجة روع لها مستمعوه فأبلغوا عنه ولاية الأمور . وكان في وسع پرفكتوس أن ينجو من العقاب إذا أنكر ما قال ، ولكنه بدل أن يفعل هذا كرر أمام القاضي قوله إن محمداً كان «خادماً للشيطان» ، فما كان من القاضي إلا أن حكم عليه بالسجن بضعة أشهر لعل هذا يصلح حاله ، ولكنه لم ينصلح ، وتمادى في أقواله فحكم عليه بالإعدام . وظل وهو يساق إلى المشقة

يسب النبي ، ويقول : إنه « مدح ، زان ، ولدته جهنم » (*) ، وابتهج المسلمون بمقتله ، واحتفل المسيحيون بدفنه احتفالاً مهيباً ، وعدوه من القديسين (٨٥٠) (**)(٥٨) .

وأشعل مقتله نيران الحقد في قلوب الطائفتين . فتألفت جماعة من المتعصبين المسيحيين بزعامة يولجوس وجعلت هدفها سب النبي علناً ، والترحيب بالقتل اعتقاداً منها بأن مصير من يقتل من أفرادها هو الجنة . وذهب راهب قرطبي يدعى إسحق إلى القاضى وعرض عليه رغبته في اعتناق الإسلام ؛ وسر القاضى من هذا وبدأ يشرح له مبادئ الدين الإسلامى ، ولكن الراهب قطع عليه شرحه وقال « إن نبيكم قد كذب عليكم وخذعكم ؛ ألا لعنة الله عليه لأنه قد جر معه هذا العدد العظيم من البائسين إلى الجحيم ! فزجره القاضى وسأله هل هو ثمل ؟ فرد عليه الراهب بقوله : « إني مالك لقواى فاحكم علىّ بالإعدام » فأمر القاضى بسجنه ولكنه استأذن عبد الرحمن الثانى بأن يخرج به على أن يعقله خبالاً ، غير أن موكب جنازة پرفكتوس وما أحاط به من روعة وفخامة كان قد أثار حفيظة الخليفة فأمر بإعدام الراهب . وبعد يومين من هذا الحادث جرؤ جندى من الفرنجة في حرس القصر على سب النبي علناً ؛ فكان جزاؤه الإعدام . وفى يوم الأحد التالى وقف ستة من الرهبان أمام القاضى وسبوا النبي ولم يطلبوا لأنفسهم الإعدام ؛ فحسب بل طلبوا فوق ذلك أن يعذبوا أشد التعذيب ، فحكم عليهم بالإعدام ؛ وحذا حذوهم قس ، وشماس ، وراهب . وابتهج لذلك أفراد الجماعة

(*) لقد أثبتنا هذه الألفاظ وما قبلها كما هى رغم ما فيها من تطاول على مقام اشرف الأنبياء لى يقدر القارئ شناعة الجرم الذى ارتكبه قائلها . (المترجم)

(**) وليس أدل على روح التسامح التى كانت تسود ذلك العصر من سماح المسلمين لمواطنهم المسيحيين بالاحتفال بدفن هذا القس الذى سب نبيهم بأقبح الألفاظ احتفالاً فخماً مهيباً كما يقول مؤلف الكتاب . (المترجم)

ولكن كثيرين من المسيحيين - من رجال الدين وغير رجال الدين - لم يرضوا عن هذا التسابق للموت ، وقالوا لتلك الفئة المتحمسة « إن السلطان يسمح لنا بأن نمارس شعائر ديننا ، ولا يضطهدنا ، فما الداعي إذن إلى هذا التعصب الشديد ؟ » (٥٩) ودعا عبد الرحمن إلى عقد مجلس من الأساقفة المسيحيين فأصدر قراراً بلوم طائفة المتحمسين المتعصبين ، وهددهم بأن يتخذ ضدهم إجراءات عنيفة إذا لم ينقطعوا عن إثارة الفتن ، فما كان من يولجوس إلا أن أخذ يندد بأعضاء المجلس ويصفهم بالخبث .

وزادت هذه الحركة من حمس فلورا ، فغادرت الدير الذي كانت تقيم فيه وجاءت هي وفتاة أخرى تدعى مارية إلى القاضي وأخذتا تطعنان على النبي وتقولان : إن الإسلام من « اختراع الشيطان » فأمر القاضي بسجنهما . وحملهما بعض أصدقائهما على أن يرجعا عن أقوالهما ، ولكن يولجوس تغلب عليهما وأقنعهما بأن يرضيا بالقتل ، فقتلا . وشجع هذا يولجوس فأخذ يطالب بضحايا جدد ، فأقبل على المحكمة قساوسة ، ورهبان ، ونساء يسبون النبي ويطلبون أن يعذبوا (*) (٨٥٢) ، وأعدم يولجوس نفسه بعد سبع سنين من ذلك الوقت ، وخمدت الفتنة بعد سبع سنين من موته فلم نسمع بين عامي ٨٥٩ ، ٩٨٣ إلا عن حادثين من حوادث السب والقتل ، ولم نسمع عن حوادث أخرى من هذا النوع في أثناء الحكم الإسلامي في أسبانيا (٦٠) .

(*) ليس أدل على تسامح الحكام المسلمين من سلوكهم في أثناء هذه الحركة ، وعدم التجاؤم إلى قمعها دفعة واحدة ، واكتفائهم بالحكم على من يتقدمون إلى القضاء ليطعنوا في الدين ويسبوا الرسول . ترى . ماذا يكون موقف أية حكومة من الحكومات الغربية في هذه الأيام لو تألفت مثل هذه الجمعية لهذا الغرض ؟ إن أقل ما كانت تفعله بلا ريب هو أن تقبض على جميع أفراد الجمعية وتزجهم في السجن وتستأصل الفتنة من جذورها . وخلق بنا أن نشير إلى ما اتبته الأسبانيون أنفسهم مع المسلمين بعد أن طرد العرب من أسبانيا وإلى ما لقيه المسلمون من قسوة وتعليب مهجى وعمل متواصل لحو جميع الآثار الإسلامية في العلوم والفنون والآداب .
(المترجم)

أما بين المسلمين أنفسهم فقد ضعفت الحجاسة الدينية بإزدياد التراء ، وظهرت في القرن الحادى عشر الميلادى موجة من التشكك رغم ما فى الشريعة الإسلامية من شدة على المتشككين ؛ ولم يقتصر الأمر على دخول مبادئ المعتزلة التى لا تناقض عقائد أهل السنة مناقضة شديدة ؛ بل قامت طائفة أخرى تنادى بأن الأديان كلها باطلة ، وتسخر بالأحكام الدينية ، والصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة . ونشأت طائفة أخرى غير هذه وتلك سميت نفسها أتباع الدين العالمى ، وأخذت تندد بكل العقائد ، وتنادى بدين يقوم على المبادئ الأخلاقية دون غيرها . وكان من بين هؤلاء جماعة من اللأدرين يقولون إن العقائد الدينية قد تكون صحيحة وقد لا تكون ، فلسنا نؤكدها أو ننكرها ، وكل ما فى الأمر أننا لا نعرف حقيقتها ، ولكننا لا نسمح لنا ضمائرنا بأن نقبل عقائد لا نستطيع إثبات صحتها^(٦١) . وأخذ رجال الدين يقاومون هذه العقائد مقاومة قوية ؛ ولما أن حلت المصائب بالمسلمين فى أسبانيا فى القرن الحادى عشر أخذوا يقولون إن سببها هو هذا الضلال ، ولما انتعش المسلمون بعض الوقت فى الأندلس مرة أخرى ، كان انتعاشهم فى عهد حكام أقاموا سلطانهم كما كان من قبل على قواعد الدين ، وقصروا الجدل القائم بين الدين والفلسفة على ما كان منه فى بلاطهم وما يبتغون به تسليتهم .

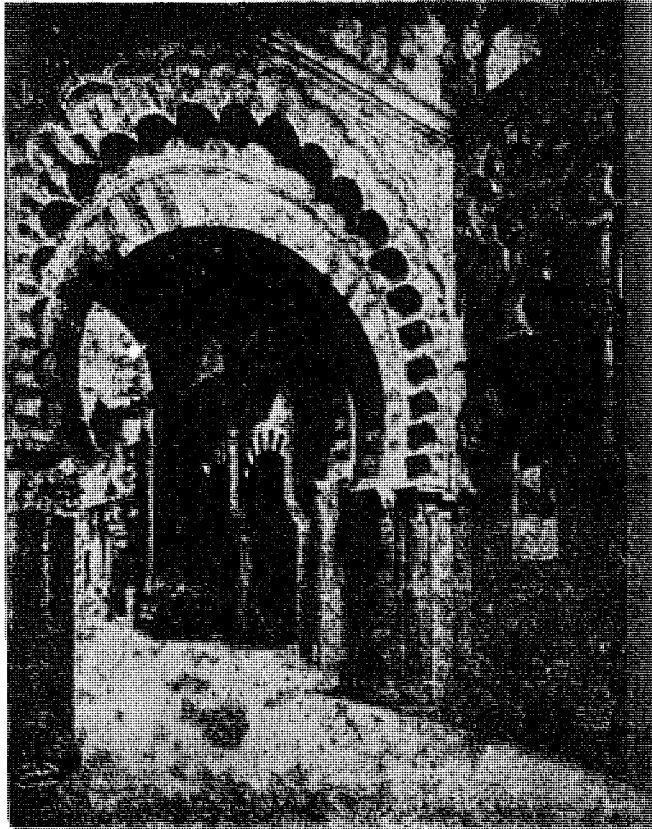
ولكن القباب المتلاثلة والمآذن المذهبة كانت على الرغم من الفلاسفة زينة المدائن الكبيرة والصغيرة التى جعلت بلاد الأندلس فى القرن العاشر الميلادى أعظم البلاد المتحضرة فى أوربا ، بل إنها كانت فى أغلب الظن أعظم البلاد المتحضرة فى العالم كله فى ذلك الوقت . لقد كانت قرطبة فى أيام المنصور من أعظم مدن العالم حضارة ، ولا يفضلها فى هذا إلا بغداد والقسطنطينية . وكان فيها كما يقول المقرئ ٧٧٠ ر ٢٠٠ منزلاً ، و ٣٠٠ قصر ، و ٦٠٠ مسجد ، و ٧٠٠ حمام^(٦٢) عام ، وإن كانت هذه الإحصاءات لا تخلو من قليل من المغالاة الشرقية . وكان زائرو

المدينة يدهشون من ثراء الطبقات العليا ، ومما كان يبدو لهم أنه رخاء عام ؛ فقد كان في وسع كل أسرة أن يكون لها حمار ؛ ولم يكن يعجز عن الركوب إلا المتسولون . وكانت الشوارع مرصوفة ، لكل منها طواران على الجانبين ، تضاء أثناء الليل ، ويستطيع الإنسان أن يسافر في الليل عشرة أميال على ضوء مصابيح الشوارع وبين صفيين لا ينقطعان من المباني^(٦٣) . وقد أقام المهندسون العرب على نهر الوادي الكبير الهادئ الجريان جسراً من الحجارة ذا سبعة عشر عقداً عرض كل واحد منها خمسون شبراً . وكان من أولى منشآت عبد الرحمن الأول قناة تحمل إلى مدينة قرطبة كفايتها من ماء الشرب تنقله إلى المنازل والحدائق ، والفساق والحمامات ، واشتهرت المدينة بكثرة ما كان فيها من الحدائق والمنتزهات .

وكان عبد الرحمن الأول شديد الحنين إلى مسارح صباه ، فأنشأ في قرطبة بستاناً عظيماً شبيهاً بالقصر الريفي الذي قضى فيه أيام صباه بالقرب من دمشق ، وشاد في هذا البستان قصره المعروف « بقصر الرصافة » ، وأضاف إليه من جاء بعده من الخلفاء أجنحة أخرى خلع عليها خيال المسلمين أسماء زاهية كقصر الروضة . . . وقصر المعشوق . . . وقصر السرور . . . وقصر التاج^(*) . وكان لقرطبة كما كان لإشبيلية قصرها الذي يجمع بين بيت السكن العظيم والحصن المنيع . ويصف مؤرخو العرب هذه القصور وصفاً يجعلها تضارع في جمالها وترفيها قصور نبرون في رومة : يصفون أبوابها الفخمة ، وعمدها الرخامية ، وأرضها المرصوفة بالسيفساء ، وسقفها المذهبة ، وما فيها من النقوش الجميلة التي لا يقدر عليها إلا الفن الإسلامي وحده . وكانت قصور الأسرة المالكة ، وكبار الملاك والتجار تمتد على شاطئ النهر العظيم ؛ وقد ورث عبد الرحمن الثالث من إحدى جواريه ثروة طائلة ، وأراد أن ينفقها في اقتناء من عساهم يكونون في الأسر من

(٥) والكامل ، والمجدد ، والحائر ، والزاهر ، والمبارك ، والرسوق ، والبديع .

(المترجم)



(شكل ٦) داخل مسجد قرطبة



(شكل ٧) بهن السباع في قصر الحمراء نغرباطه

جنوده ، ولما قال الباحثون الفخورون إنهم لم يجدوا أحداً من جنوده في الأسر عرضت عليه الزهراء زوجته المحبوبة أن ينفق المال في بناء ضاحية وقصر يخلد بهما اسمها . وظل عشرة آلاف من العيال وألف وخمسمائة من الدواب يكادحون خمسة وعشرين عاما (٩٣٦ - ٩٦١) لتحقيق حلمها ، فكان قصر الزهراء الملكي الذي يقع على بعد ثلاثة أميال من قرطبة وإلى جنوبها الغربي . وقد زين أفخم زينة وأث بأفخم أثاث . وكان القصر يقوم على ألف ومائتي عمود من الرخام ، وكان جناح الحريم به يتسع لستة آلاف امرأة ، وكان يحتوى على مجلس الخليفة سقفه وجدرانه من الرخام والذهب ، له ثمانية أبواب مطعمة بالأبنوس والعاج والحجارة الكريمة ، وكان به فسقية مملوءة بالزئبق تنعكس على سطحها أشعة الشمس المتواجبة . واجتمعت حول الزهراء قصور طبقة من الأشراف طبقت العالم شهرتها بالظرف والرياسة ، وحسن الذوق ، وتعدد متعتها العقلية . وأقام المنصور في الطرف المقابل لهذا القصر من المدينة قصرأ آخر يضارعه (٩٧٨) سمي بالزهرة أحاطت به هو الآخر على مر الزمن ضاحية من قصور العظماء ، ونبوت الخدم ، والمغنين والعازفين ، والشعراء ، والخليلات . وقد حرق القصران في أثناء الثورة التي تأجج طيبتها في عام ١٠١٠ .

وكان الناس في العادة يتغاضون عن ترف الأمراء إذا ما أقام هؤلاء بيوتا لله تفوق قصورهم في الفخامة والسعة . وكان الرومان قد شادوا في قرطبة هيكل إيبانوس Janus ، أنشأ المسيحيون بدلا منه كنيسة كبرى ؛ فلما تولى الخلافة عبد الرحمن الأول ابتاع من المسيحيين أرض الكنيسة ، وهدمها وشاد في مكانها المسجد الأزرق ، ولما عادت أسبانيا إلى حكم المسيحيين حولوا المسجد إلى كنيسة في عام ١٢٣٨ ؛ وهكذا تتغير مقاييس التقي ، والصدق ، والجمال تبعاً لتقلبات الحظوظ الحروب . وجعل عبد الرحمن هذا المشروع سلوته في سنيه الكلدرة ، فغادرت الرينق إلى قصره في المدينة ليحرف على العمل بنفسه ، وكان يأمل أن يطول عمره .

حتى يوم المصلين في المسجد الفخم الجديد شكراً لله على توفيقه . لكنه تولى في عام ٧٨٨ ، بعد عامين من وضع الأساس ، وواصل أبنته هشام عمل أبيه ، وظل الخلفاء مدى قرنين كاملين يضيف كل منهم جزءاً جديداً للمسجد حتى كانت سعته في أيام المنصور ٧٤٢ قدما في ٤٧٢ . وكان يحيط به سور منيع من الآجر والحجر ذو أبراج على أبعاد غير منتظمة ، وكانت له مأذنة ضخمة تفوق في حجمها وجمالها كل ماأذن تلك الأيام ، حتى عدت هي الأخرى من « عجائب الدنيا » التي لا يحصى لها عدد (٦٤) . وكان للمسجد تسعة عشر باباً تحيط بها عقود على شكل حذاء الفرس ، نقشت عليها في الحجر ببراعة فائقة زخارف مكونة من أزهار وأشكال هندسية . وكانت هذه الأبواب تؤدي إلى مكان الوضوء الفسيح الذي يسمى الآن بهو البرتقال (Patio de los Naranjos) . وفي هذا البهو الرباعي الشكل ، المرصوفة أرضه بالقرميد الملون كانت أربع فساق نحتت كل منها من كتلة واحدة من المرمر الأصم بلغ من ضخامتها أن تطلب نقلها من المقلع إلى مكانها في المسجد سبعين ثوراً . وكان المسجد نفسه يحتوي على أجرة من ١٢٩٠ عموداً تقسم داخله إلى أحد عشر إيواناً وواحد وعشرين دهليزاً . وكانت تخرج من تيجان الأعمدة عقود مختلفة الأنواع - بعضها نصف دائري ، وبعضها مستدق ، وبعضها على شكل حذاء الفرس ، ولعظمها أوتاد من الحجر حمراء أو بيضاء بالتناوب . وكانت العمد من حجر اليشب ، والحجر السماقي ، والمرمر ، والرخام ، انتزعت من خرائب الرومان والقوط الغربيين في أسبانيا ، وكانت لكثرة عددها تحير الناظر وتوحي إليه بأن المسجد لا ينتهي عند حد . وقد نقشت على السقف الخشبي آيات من القرآن (الكريم) وزخارف أخرى داخل إطارات ، وعلق فيه مائتا ثريا تحمل سبعة آلاف قنديل من الزيت المعطر تستمد من خزانات مصنوعة من نواقيس مسيحية مقلوبة معلقة هي الأخرى من السقف ، أما الأوض والحدراين فقد زينتا بالفسيفساء ، بعضها من الزجاج المطلي بالمينا ،

الملون عند صنعه بكثير من الألوان الزاهية ، وكثيراً ما كانت تحوى على قطع من الفضة والذهب . ولا تزال هذه الزينات بعد ألف عام من وضعها تتلألأ كالجواهر في جدران الكنيسة . وقد جعل قسم من المسجد مزاراً مقدساً ، ورصفت أرضه بالفضة وقطع القاشاني المطلية بالمينا ، تحرسه أبواب مزدانة ومطعمة بالفسيفساء ؛ وقامت عليه ثلاث قباب ، وأحيط بسائر من الخشب محلاة بأبدع النقوش . وفي داخل هذا الموضع المنفصل أقيم المحراب والمنبر اللذان أفرغ عليهما الفنان كل ما وهب من خدق وإبداع . وكان المحراب نفسه تجويفاً سباعى الأضلاع محاط بالذهب ومزدانا بالفسيفساء المطلية بالمينا ، ومزخرفاً بقطع صغيرة من الرخام وبنقوش من الذهب على أرضية قرمزية وزرقاء ، يعلوه رباط من الأعمدة الرفيعة الرشيقة ، والعقود المزدانة بأزهار الكُرَّة (*) لا يفوقها في الجمال شيء مما أبدع الفن القوطى . وكان المنبر يعد أجمل مناير العالم طُراً ؛ وكان يؤلف من ٣٧,٠٠٠ قطعة صغيرة من العاج والأخشاب الثمينة - كالأبنوس ، والأترج ، وعود الند ، والصندل الأحمر والأصفر ، مثبتة كلها بمسامير من الذهب والفضة ، ومطعمة بالجواهر . وكان على هذا المنبر صندوق مطعم بالجواهر عليه غطاء من الحرير القرمزى المطرز بخيوط من الذهب يحمل مصحفاً بخط الخليفة عثمان بن عفان ، ومخضباً يدمه اللى جرى عليه عند مقتله : ويبدو لنا نحن الذين نفضل أن نزين دور تمثيلنا بالمعادن المذهبة وبالنحاس بدل أن نحلى كنائسنا بالجواهر والذهب ، يبدو لنا أن فى زخرفة المسجد الأزرق إسرافاً كبيراً ، وأن جدرانه قد غطيت بطبقة من دماء الأجيال المستغلة ؛ وأن الأعمدة فيه كثيرة مربكة ، وأن العقد الذى على صورة حذاء الفرس ضعيف من الناحية المعمارية تنفر منه حاسة الجمال كما تنفر من منظر الرجل البدين ذى الساقين الفحجاوين (**). ذلك حكمتنا أما غيرنا فكان

(*) حلية مهارية . (المترجم)

(**) الساق الفحجاء هى التى انحنت من وسطها فتباعد وسطها عن توسط صاحبها

(المترجم)

حكيمه يناقض هذا الحكم ؛ فالقري (١٥٩١ - ١٦٣٢) يرى أن هذا المسجد لا يدانيه مسجد آخر في سعته ، أو جمال تخطيطه ، أو نظام زخرفه الذى يشهد للقائمين به بحسن الذوق وبما يدل عليه من قوة وعظمة^(٦٥) ، ولا يزال البناء حتى في شكله المسيحي المصغر يعد « بالإجماع أجمل المساجد الإسلامية في العالم كله »^(٦٦) .

وكان من الأقوال المتداولة في بلاد الأندلس الإسلامية أنه « إذا مات عالم إشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية »^{(٦٧)(*)} : ذلك أن قرطبة كانت في القرن العاشر مركز الحياة الذهنية الأسبانية وذروتها ، وإن اشتركت معها طليطلة ، وقرطبة ، وإشبيلية فيما وصل إليه ذلك العصر من رقى عقلى عظيم . ويصور المؤرخون المسلمون المدن الأندلسية تموج بالشعراء وجهابذة العلماء في العلوم الطبيعية ، والأدبية ، وكبار المشترعين ، والأطباء ، وبملاّ القري بأسمائهم ستين صحيفة^(٦٨) . وكانت المدارس الابتدائية كثيرة العدد ، ولكنها كانت تتقاضى أجوراً نظير التعليم ، ثم أضاف الحكم إليها سبعاً وعشرين مدرسة لتعليم أبناء الفقراء بالجهان . وكانت البنات يذهبن إلى المدارس كالأولاد سواء بسواء ، ونبغ عدد من النساء المسلمات في الأدب والفن^(٦٩) ، وكان التعليم العالى يقوم به أساتذة مستقلون يلقون محاضراتهم في المساجد ، وكانت المناهج التى يدرسونها هى التى كونت جامعة قرطبة ذات النظام المفكك ، والتى لم يكن يفوقها في القرنين العاشر والحادى عشر إلا جامعتا القاهرة وبغداد الشبهتان بها . وأنشئت الكليات أيضاً في قرطبة ، وطليطلة ، وإشبيلية ، ومرسية ، والمرية ، وبلنسية ، وقادس^(٧٠)

(*) قول هذا في مناظرة جرت بين منصور بن عبد المؤمن وبين الفقيه العالم ابن رشد والرئيس أبي بكر بن زهر وقائله هو ابن رشد نفسه وقد قدم المؤلف عجز العبارة على صدرها .
(المترجم)

وأدخلت صناعة الورق من بغداد فازداد حجم الكتب وتضاعف عددها ، حتى كان في الأندلس الإسلامية سبعون مكتبة عامة ، وكان الأغنياء يتباهون بكتبهم المجلدة بالجلد القرطبي ، وعجو الكتب يجمعون النادر المزخرف منها . من ذلك أن الحضرمي أحد العلماء رأى في مزاد بقرطبة رجلاً آخر لا يفتأ ينافسه فيزيد من ثمن كتاب يرغب فيه حتى فاق الثمن كثيراً قيمة الكتاب ، ولما سئل المزايد الذي اقتناه في ذلك قال إن في مكتبته الخاصة موضعاً خالياً يسع هذا الكتاب بالدقة . ويضيف فاغتاظ العالم من هذا القول أشد الاغتيال ولم يسعه إلا أن يقول : « نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك ، يعطى الجوز من لا أسنان له » (٧١) (*) .

وكانت للعلماء في الأندلس منزلة رفيعة وشهرة واسعة ، يعظمهم الناس ويهابونهم ، ويستشيرونهم في شئونهم ، ويعتقدون أن لا فرق مطلقاً بين العلم والحكمة . وكان علماء الدين والنحاة يعدون بالملئات ، أما الخطباء ، وفقهاء اللغة ، وأصحاب المعاجم ، والموسوعات ، ودواوين الشعر ، والمؤرخون ، وكتاب السير فلم يكن يحصى لهم عدد : وكان أبو محمد علي بن حزم (٩٩٤ - ١٠٦٤) من جهاذة علماء الدين والمؤرخين ، كما كان وزيراً لآخر الخلفاء الأمويين : ويعد كتابه المعروف بـ « كتاب الملل والنحل » (***) الذي يتكلم فيه على اليهودية ،

(*) ثم أضاف : وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً وتحول قلة ما يبدي بيني وبينه . (المترجم)

(**) اسم الكتاب كاملاً هو « السيفصل في الملل والأهواء والنحل » للإمام أبي محمد علي ابن أحمد ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ . وأما كتاب « الملل والنحل » فلإمام أبي الفتح محمد ابن عبد الكريم الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨ هـ . والفصل الواردة في بدء اسم الكتاب الأول جمع فصلة بالكسر كقصبة وقصع وهي النخلة المنقولة من محلها إلى آخر لتشر . هذا ولم نثر على الفقرة الواردة هنا بنصها في كتاب ابن حزم ويبدو لنا أن دوزي الذي نقل عنه المؤلف قد أخذ معناها من مواضع متفرقة من الكتاب ولهذا لم نر بدا من ترجمتها واستعملنا ما عثرنا عليه من ألفاظ ابن حزم في الفصل الذي تكلم فيه على النصارى . (المترجم)

والزرادشتية ، والمسيحية ، والفرق الإسلامية المختلفة من أقدم ما كتبه الأقدمون في علم الأديان المقارن . وإذا شئنا أن نعرف رأى العالم المسلم فيما كانت عليه المسيحية في العصور الوسطى فحسبنا أن نقرأ الفقرة الآتية من هذا الكتاب :

يجب ألا تثير أو هام بنى الإنسان عجبنا ، فإن أكثر الأمم عدداً ، وأعظمها حضارة تستحوذ على عقول أبنائها هذه الأوهام . . . فالمسيحيون من الكثرة بحيث لا يحصى عددهم إلا الله وحده . وفي وسعهم أن يباهوا بمن فيهم من ملوك حكماء وفلاسفة نابهن ، ولكنهم مع هذا يقولون : إن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ، وإن أحد هؤلاء الثلاثة الأب والثانى الابن ، وإن الإنسان إله وليس لها ، وإن المسيح قديم موجود من الأزل ، ومع ذلك فهو مخلوق ، ومنهم فرقة تسمى اليعاقبة ، تبلغ عدتها مئات الآلاف تعتقد أن الخالق مات وصلب وقتل ، وأن العالم بقى ثلاثة أيام بلا مدبر ، والفلك بلا مدبر (٧٢) .

وكان ابن حزم يؤمن بأن كل كلمة وردت في القرآن حق بنصها ومعناها (٧٣) . وكان من أشد العوائق في سبيل تقدم العلم والفلسفة في بلاد الأندلس الخوف من أن يؤثر في إيمان العامة ، لكن الأندلس تستطيع أن تفخر بكثير من الفلاسفة والعلماء . فن هؤلاء مسلمة بن أحمد (المتوفى في عام ١٠٠٧) والذي عدل أزياج الخوارزمي الفلكية لتلائم أسبانيا . ومن الكتب التي تعزى إليه ، وإن لم يثبت أنه له بصورة قاطعة ، كتاب يصف إحدى التجارب الكثيرة التي حولت الكيمياء الكاذبة إلى كيمياء صحيحة - وهي التجربة التي استخرجت أكسيد الزئبق من الزئبق . وأصبح اسم إبراهيم الزرقالي (١٠٢٩ - ١٠٨٧) أحد علماء طليطلة من الأسماء العالمية ، لأنه حسن الآلات الفلكية ؛ وينقل كوبرنيك فقرات من رسالته عن الاسطرلاب ؛ وكانت أزياجه الفلكية خير الأزياج كلها في زمانه ، وقد استطاع بها أن يثبت لأول مرة في التاريخ حركة الأوج الشمسى بالنسبة للنجوم . وكانت « أزياج طليطلة » المحددة لحركات الكواكب

تستخدم في كافة أنحاء أوروبا ، وكان لأبي القاسم الزهراوي (٩٣٦ - ١٠١٣) طبيب عبد الرحمن الثالث منزلة رفيعة في العالم المسيحي ، ويعرف فيه باسم أبو الكاسس Abulcasis ؛ وكان هو حامل لواء الجراحين المسلمين ، وتحتوى موسوعته الطبية المسماة « التصريف » ثلاثة كتب في الجراحة أصبحت بعد أن ترجمت إلى اللغة اللاتينية المرجع الأعلى في الجراحة قروناً كثيرة . وكانت قرطبة في ذلك الوقت المدينة التي يلجأ إليها الأوربيون لتجرب لهم الجراحات : وكانت تحتوى ، كما تحتوى كل مدينة متمدينة ، على بعض المتطبين الدجالين ، والأطباء الذين ابتلوا بجنون الثروة ، ومن هؤلاء رجل يسمى الحرافى أعلن عن دواء يشفى الاضطرابات المعوية ، وكان يبيع الزجاججة منه للسذج من ذوى المال بخمسين ديناراً (٢٣٧٥ ريال أمريكى) .

ويقول المقرئ : « وسنمك عن ذكر الشعراء الذين ظهروا في أيام هشام الثانى والمنصور لأن عددهم كان أكثر من رمال البحر» (٧٥) . وكان من بينهم الأميرة الولادة (المتوفاة في عام ١٠٨٧) ، والتي كان بيتها في قرطبة ندوة حقبة شبيهة باندوات عهد الاستنارة في فرنسا : فكان يلتف حولها الظرفاء ، والعلماء ، والشعراء ؛ وقد أحببت عدداً كبيراً منهم ، وكتبت عن عشاقها بحرية لوسمعت بها السيدة ريكيمي Mme Récamier لارتاعت لها . ولقد يزتها صديقتها مهجة القرطبية في جمال الجسم وخلاعة الشعر (*) . وكاد كل إنسان في الأندلس وقتئذ أن يكون شاعراً ، يتطرح الشعر المرتجل مع غيره لأى سبب . وكان الخليفة نفسه يشترك في هذه المطارحات الشعرية ، وقلما كان يوجد في البلاد أمير مسلم ليس في بلاطه شاعر يكرم ويخصص له راتب . وقد أدت هذه الرعاية الملكية إلى الشر كما أدت إلى الخير . ذلك أن ما وصلنا من شعر ذلك العصر كثيراً ما يبدو فيه

(*) يصفها المقرئ بقوله إنها من أجل نساء زمانها ولازمت فادها وكانت من أعنف النساء روحاً . (المترجم)

التكلف والصناعة اللفظية ، والمحسنات ، وهو منقل بالتشبهات والاستعارات
مفعم بالعبارات الدالة على الكبرياء والغرور . أما موضوعه فهو الحب الشهواني
والعذرى ؛ وقد استبق الشعراء في أسبانيا وفي الشرق الإسلامى أساليب شعراء
الغزل في عهد الفروسية Troubadors ، وطرقهم وفلسفتهم (٧٦) .

وسنختار من هذا العدد الجم نجما واحداً لامعاً هو سعيد بن جودى
ابن صاحب الشرطة بقرطبة(*) . كان سعيد جندياً مقداماً كثير العشق ،
يتصف بجميع الصفات التى تجعله في نظر المسلمين سميحاً أى سيداً كاملاً
بحق : فقد كان سخياً ، شجاعاً ، فارساً بارعاً ، بهي الطلعة ، فصيح
اللسان ، شاعراً ممتازاً ، قوى الجسم ، يجيد فنون المصارعة والمثاقفة
بالسيف ، والرمح ، والرمى بالقوس (٧٧) . ولم يكن يدري في أى وقت من
الأوقات أيهما أحب إليه - الحب أو الحرب . وكان يتأثر بلمس المرأة مهما
ضعف ، ولذلك افتتن بكثيرات من النساء كان حب كل واحدة منهن يبشر
بحب دائم لا ينقطع . وكان حبه كحب شعراء عهد الفروسية الشعراء الجوالين
الغزليين أشد ما يكون حين تندرو رؤية الحبيب . وكانت أعظم قصائده الغزلية
قصيدة وجهها إلى جيجان التى لم ير منها إلا يدها الصغيرة الناصعة البياض . وكان
أبيقوريا صريحاً يشعر بأن على رجال الأخلاق يقع عبء البرهنة على أن السعادة
ليست هي اللذة . ومن أقواله في هذا المعنى :

(*) اسمه الكامل سعيد بن سليمان بن جودى ، وترجمته في كتاب الحلة السيرة لابن الأبار
طبعة دوزى ص ٨٣ وما بعدها .

ومن قوله في جيجان :

فاعتاض قلبي منه لوعة الحزن	ضحى أبى أن يكون الروح في بدنى
هذا ولم أرها يوماً ولم ترفنى	أعطيت جيجان روحى عن تذكرها
من مقلتي راهب صلى إلى وثن	كأنسى واسمها والدمع منسكب

ويقال إنه نظر إلى جارية فاعتراها الحجل وأطرقت بعينها فقال :

أهدا الذى تبدين ويحك عن بنض	أمائلة الأخطأ صنى إلى الأرض
ووجهي بذاك اللحظ أولى من الأرض	فإن كان بنضاً لست والله أهله

(المترجم)

لا شيء أملح ومن مناقلة كأساً على طبق
ومن مواصلة من بعد معتبة ومن مراسلة الأحباب بالحدق
جريت جرى جموح في الصباطلقا وما خرجت لصراف الدهر عن طلي
ولا انثيت لذاعي الموت يوم دعا ولا انثيت وحبل الحب في عنق (٧٨)
وكان زملاؤه في الجندية يغضبون منه أحياناً لأنه يغوى أزواجهم ،
وقد قبض عليه في يوم ما أحد الضباط في بيته وقتله (٨٩٧) .

وقد لقي شاعر آخر أعظم منه وأنبأ خاتمة خيراً من هذه وأعظم منها
بطولة ، ذلك هو المعتمد أمير إشبيلية . وكان كغيره من الملوك الصغار في
بلاد الأندلس بعد تفرقها قد ظل عدة سنين يؤدي الجزية إلى الفنسو السادس
(الأذفنش) ملك قشتالة يشتري بها عدم اعتداء المسيحية على الإسلام .
ولكن الرشا ترك على الدوام بقية منها يؤديها الراشي متى طلب إليه الأداء .
واستخدم ألفنسو المال الذي يأتيه من ضحيته في الانقضاض على طليطلة في
عام ١٠٨٥ ؛ وأيقن المعتمد أن إشبيلية ستكون الفريسة الثانية . وكانت
دويلات الأندلس وقتئذ قد أنهكتها حروب الطبقات وحروبها فيما بينها إلى
حد عجزت معه عن مقاومة عدوها المشترك مقاومة مجدية ؛ ولكن أسرة
إسلامية جديدة قامت وقتئذ على الجانب الآخر من البحر المتوسط هي أسرة
المرابطين وقد اشتق اسمها من اسم أحد الأولياء الصالحين في الشمال الغربي
من إفريقيا) . وكان الأساس الذي قامت عليه دولة المرابطين هو الاستمساك
الشديد بالدين ، ولم يكذب يبق فيها رجل غير جندي من جنود الله ؛ ولم تجد
جيوشها صعوبة في الاستيلاء على مراكش بأجمعها . وتلقى في ذلك الوقت
مليكمها يوسف بن تاشفين - وهو رجل يتصف بالشجاعة والدهاء - دعوة
من أمراء الأندلس يستنجدون به من وحش قشتالة المسيحي الضار ؛ فعب
يوسف بجيشه مضيق جبل طارق ، وتلقى المدد من مالقة ، وغرناطة ، وإشبيلية ؛

والتقى بجيش ألفنسو عند الزلافة القريبة من بطليوس (١٠٨٦) . (بدجوز Badajoz) : وبعث ألفنسو برسالة رقيقة إلى يوسف يقول فيها : « إن غداً (الجمعة) يوم عيد عندكم ، ويوم الأحد عيد عندنا ، ولهذا فلأني أقترح أن تدور المعركة في يوم السبت » . ووافق يوسف على هذا الاقتراح ولكن ألفنسو هجم على المسلمين في يوم الجمعة : وأظهر يوسف والمعتمد في الحرب كثيراً من ضروب البسالة ، واحتفل المسلمون بعيدهم بقتل عدد كبير من المسيحيين ، ولم ينج ألفنسو وخمسمائة من رجاله من الموت إلا بشق الأنفس . ودهشت أسبانيا حين عاد يوسف إلى إفريقية دون أن يغم شيئاً .

ولكنه عاد بعد أربع سنين . وكان سبب رجوعه أن المعتمد ألح عليه بأن يقضى على قوة ألفنسو الذي كان يحشد الجيوش ليهاجم المسلمين من جديد . والتقى يوسف بالمسيحيين في مواقع غير حاسمة ، وبسط سلطانه على بلاد الأندلس الإسلامية . وزحّب به الفقهاء لأن من طبعهم على الدوام أن يفضلوا السيد الجديد على القديم ، وعارضته الطبقات المتعلمة لأنه في نظرهم يمثل الرجعية الدينية ، وابتهج رجال الدين بمقدمته . واستولى يوسف على غرناطة من غير مقاومة ، واكتسب محبة أهلها بإلغاء جميع الضرائب التي لا ينص عليها القرآن (١٠٩٠) . وعقد المعتمد وغيره من الأمراء فيما بينهم حلفاً لمقاومته ، كما عقدوا حلفاً مقدساً ! مع ألفنسو . وحاصر يوسف قرطبة ، وأسلمها إليه أهلها ؛ ثم حاصر إشبيلية ودافع عنها المتعمد دفاع الأبطال ، ورأى بعينه ولده يقتل في الدفاع عنها ، فحزن لموته حزناً هدركنه واستسلم للمحاصرين (*) ، ولم يحل عام ١٠٩١ حتى سقطت جميع الأندلس ما عدا سرقطة في يدي يوسف بن تاشفين ، وأصبحت أسبانيا الإسلامية ولاية تابعة لإفريقية :

(*) المعروف أنه كان للمعتمد ولدان هما المعتد بالله والراضى بالله وأنها قتلا غيلة وله في رثائهما شعر كثير . انظر الجزء الثالث من ضحى الإسلام للرحوم الدكتور أحمد أمين . (المترجم)

وسيق المعتمد أسير حرب إلى طنجة ، وتلقى وهو فيها رسالة من أحد شعرائها وهو الحصرى حوت أبياتا من الشعر يثنى فيها عليه ويسأله العطاء ، ولم يكن الأمير المغلوب على أمره يملك من متاع الدنيا في ذلك الوقت أكثر من خمسة وثلاثين ديناراً بعث بها إلى الحصرى واعتذر له عن قلتها (*) . ثم نقل المعتمد إلى أعجمات القريبة من مدينة مراكش وعاش فيها بعض الوقت مكبلاً بالأغلال ، فقيراً معدماً ، ولم ينقطع عن قول الشعر حتى مماته (١٠٩٥) . ومن قصائده قصيدة خليقة بأن تنقش على قبره :

أرى الدنيا الدنية لا تواتى فأجمل في التصرف والطلاب
ولا يفررك منها حسن برد له علمان من ذهب الذهب
فأولها رجاء من سراب وآخرها رداء من تراب (*)

(*) الحصرى هو صاحب « زهر الآداب » وهو الذى استجدى ابن عباد فى منفاه . وكان فقيراً ، فأخذت ابن عباد أريحته وبعث إليه بكل ما معه ، وبعث مع ذلك بقطعة يعتذر فيها عن قلة ما منحه واستبشع مؤرخو الأدب فعلة الحصرى وقالوا : « إنه جرى مع المعتمد على سوء عادته من قبح الكدية وإفراط الإلحاف » وقد قال المعتمد نفسه فى هذا المعنى .

سألوا اليسير من الأسير وإنه بسؤالهم لأحق منهم فاعجب
لولا الحياء وغزة الخمية طى الحشا لحكامهم فى المطلب

(من الجزء الثالث من ظهر الإسلام للمرحوم الدكتور أحمد أمين^{٣٥} . (المترجم)

(*) هذه هى أقرب أبيات وجدناها فى أشعار المعتمد إلى الأصل الإنجليزى وقد يكون فى الترجمة الإنجليزىة بعض التصرف الذى تحتمه ترجمة الشعر العربى إلى شعر إنجليزى .

(المترجم)

الباب الرابع عشر

عظمة المسلمين وضمحلهم

١٢٥٨ - ١٠٥٨

الفصل الأول

الشرق الإسلامي

١٢٥٠ - ١٠٥٨

لما توفى طغرل بك في عام ١٠٦٣ خلفه ابن أخيه ألب أرسلان سلطاناً على السلاجقة ، ولم يكن ألب أرسلان وقتئذ قد جاوز السادسة والعشرين من عمره ويصفه أحد المؤرخين المسلمين بأنه رجل طويل القامة له شاربان بلغ من طولها أن كان يضطر إلى ربطهما حين يريد الصيد ، وأن سهامه لم تخطئ مرماها قط . وكان يضع على رأسه عمامة عالية يقول الناس إن المسافة من أعلاها إلى طرف شاربه لا تقل عن ذراعين . وكان حاكماً قوياً ، عادلاً ، كريماً بوجه عام ، لا يتوانى عن مجازاة من يظلم الناس أو يغتصب مالهم من عماله ، كثير البذل للفقراء . وكان يقضي جزءاً كبيراً من وقته في دراسة التاريخ ، كما كان مولعاً بالاستماع إلى أخبار السابقين وإلى الأعمال التي تكشف عن أخلاقهم ، وأنظمة حكمهم وإدارتهم (١) .

ولكن ألب أرسلان قد أثبت رغم هذه الميول العلمية أنه خليق باسمه - « البطل قلب الأسد » فقد فتح هراة ، وأرمينية ، وبلاد الكرج ، والشام . وحشد إمبراطور الروم جيشاً مؤلفاً من مائة ألف جندي من مختلف الأجناس ،

مختل النظام ليلاقى به جنود ألب أرسلان المضرسين البالغ عددهم ١٥٠٠٠ مقاتل ، فلما التقيا عرض القائد السلجوقي على عدوه صلحا معقولا ، رفضه رومانوس Romanus بازدراء ، واشتبك معه في معركة عند منزيكرت (ملازكرت أو ملاسجرد) بأرمينية (١٠٧١) ، وحارب ببسالة بن جنده الجبناء ، فهزم ووقع في الأسر ، وجرى به إلى السلطان فسأله ماذا كان يفعل لو ابتسم الحظ بلخنده ؟ فأجابه رومانوس بأنه في هذه الحال كان يمزق جسمه بالسياط . واكن ألب أرسلان عامله أحسن معاملة ، وأطلق سراحه بعد أن وعده بأن يفتدى نفسه بقدية كبيرة ، وسمح له بالرجوع إلى بلاده ، ومنحه كثيراً من الهدايا القيمة^(٢) ، وبعد عام من ذلك الوقت اغتيل ألب أرسلان .

وكان ابنه ملك شاه (١٠٧٢ - ١٠٩٢) أعظم سلاطين السلاجقة على الإطلاق . وبينما كان قائده سليمان يتم فتح آسية الصغرى ، كان هو نفسه يستولى على ما وراء نهر جيحون ويمد فتوحه إلى بخارى وكاشغر . وأصبح وزيره القدير الوفي نظام الملك على البلاد في عهده وعهد أبيه ألب أرسلان كثيراً من الرخاء والبهاء كالذى أسبغته البرامكة على بغداد في أيام هرون الرشيد . فقد ظل نظام الملك ثلاثين عاماً ينظم شئون البلاد ، ويشرف على أحوالها الإدارية ، والسياسية ، والمالية ؛ ويشجع الصناعة والتجارة ؛ ويصلح الطرق ، والجسور ، والنزل ، ويجعلها آمنة لجميع المسافرين . وكان صديقاً كريماً للفنانين ، والشعراء ، والعلماء ؛ شاد المباني الفخمة في بغداد ، وأسس فيها مدرسة كبرى ذاع صيتها في الآفاق ، وأمر بإنشاء إيوان القبة العظيم في المسجد الجامع بإصفهان ، ورصد له ما يلزمه من المال . ويبدو أنه هو الذى أشار على ملك شاه بأن يستقدم إلى بلاطه عمر الخيام وغيره من الفلكيين لإصلاح التقويم الفارسى . وتقول قصة قديمة إن نظام الملك ، وعمر الخيام ، وحسن بن الصباح أقسموا وهم صغار يطلبون العلم أن يقتسموا جميعاً ما عسى أن يواتى أى واحد منهم من حظ طيب . وأكبر الظن أن هذه القصة ؛

كغيرها من القصص الطيبة ، من نسج الخيال ، لأن نظام الملك ولد في عام ١٠١٧ ، على حين أن عمر الخيام ، وحسن بن الصباح توفيا . فيما بين عامي ١١٢٣ ، ١١٢٤ ؛ وليس لدينا ما يشير إلى أن أحدهما كان من المعمرين .

وكتب نظام الملك وهو في سن الخامسة والسبعين فلسفته في الحكم في كتاب من أكبر الكتب في النثر الفارسي وهو كتاب - سياسة - ناما أي كتاب فن الحكم . وهو يوصي فيه بقوة أن يتمسك الملك والشعب بأصول الدين ، ويرى أن الحكومة لا يمكن أن تستقر إلا إذا قامت على هذا الأساس ، واستمدت من الدين حق الحاكم المقدس وسلطانه . ولم يبخل على مليكه في الوقت عينه ببعض النصائح الإنسانية يبصره فيها بما على الحاكم من واجبات ، فقال إن الحاكم يجب ألا يفرط في الشراب أو اللهو ، وإن عليه أن يتبين كل ما يرتكبه الموظفون من فساد أو ظلم ، ويعاقبهم عليه ؛ وأن يعقد مجلساً عاماً مرتين في كل أسبوع يستطيع أن يتقدم فيه أحقر رعاياه بما لديهم من الشكاوى والمظالم . وكان نظام الملك رحيمًا في حكمه ولكنه لم يكن متسامحاً في أمور الدين ؛ وهو يأسف لأن الدولة تستخدم في أعمالها المسيحيين واليهود والشيعية ، ويندد أشد التنديد بطائفة الإسماعيلية ، ويقول إنها تهدد وحدة الدولة . وفي عام ١٠٩٢ اقترب منه أحد أتباع الطائفة المتعصبين لها مدعياً أنه يريد أن يتقدم إليه بمحروض ، وطعنه طعنة قضت عليه .

وكان هذا القاتل عضواً في طائفة من أعجب الطوائف في التاريخ . وكان منشؤها أن أحد زعماء الإسماعيلية - وهو الحسن بن الصباح الذي تجمع لإحدى القصص المشكوك في صدقها بينه وبين عمر الخيام ، ونظام الملك - استولى على حصن الموت (عش النسر) في الجزء الشمالي من إيران ، ومن هذا الحصن المنيع الذي يعلو عن سطح البحر بعشرة آلاف قدم شن حزباً عواناً من التقتيل .

والإرهاب على أعداء الشيعة ، وعلى الذين يضطهدون معتقبيها . وكان نظام الملك قد اتهم هذه الطائفة في كتابه بأن زعماءها من نسل المزدكية الشيعيين أهل فارس الساسانية . وكانت في الواقع جمعية سرية ذات درجات متفاوتة يمر بها أتباعها ، ولها رئيس أعلى أطلق عليه الصليبيون اسم « شيخ الجبل » ، وكانت أدنى طبقاتها تشمل الفدائيين الذين يطلب إليهم أن ينفذوا من غير ما تردد أو تفكير كل ما يصدره لهم رؤسائهم من الأوامر ، ويقول ماركو بولو Marco Polo الذي مر بالموت نفسها في عام ١٢٧١ إن زعيم الطائفة الأكبر أعد خلف الحصن حديقه جمع فيها كل ما في الجنة - على حسب ما يعتقد عامة المسلمين - من سيدات وفتيات يستطيع الرجال أن يشبعوا معهن شهواتهن ، وإن الذين يريدون أن ينضموا إلى الطائفة كانوا يسقون الحشيش ، حتى إذا غابوا عن وعيهم جرى بهم إلى الحديقة ، فإذا عادوا إلى صوابهم قيل لهم إنهم في الجنة . وبعد أن يقضوا أربعة أيام أو خمسة يستمتعون فيها بالخمر والنساء ولذيذ الطعام ، يخذلون مرة أخرى بالحشيش ثم ينقلون من الحديقة ، فإذا استيقظوا وسألوا عن الجنة التي كانوا فيها ، قيل لهم إنهم سيعادون إليها ويبقون فيها إلى أبد الدهر إذا أطاعوا الشيخ وأخلصوا له أو استشهدوا في خدمته^(٤). وكان الشبان الذين يرضون بهذا الوضع يسمون « الحشاشين » أي الذين يشربون الحشيش - ومن هذه الكلمة اشتق لفظ *Assassin* الإفرنجي الذي يطلق على المقتال . وظل حسن يحكم الموت نحسا وثلاثين سنة ، وأحاطها مركزاً الاغتيال والتعليم والفن . وظلت هذه الطائفة باقية بعد وفاته بزمن طويل ، واستولت على عدة حصون أخرى منيعة ، وحاربت الصليبيين ، ويقال إنها هي التي قتلت كتراد المنتفراقي Conrad of Monteferrat بتحريض رتشر د قلب الأسد^(٥). وفي عام ١٢٥٦ استولى المغول بقيادة هولاكو على حصن الموت وغيره من معاقل الحشاشين ، وأخذت الدول والإمارات الإسلامية من ذلك الوقت تطاردهم وتقتلهم لأنها ترى فيهم أعداء للمجتمع

يعملون على خرابه وتدميره : ولكنهم مع ذلك ظلوا بوصفهم طائفة دينية ، وأضحوا على مر الأيام مسلمين خليقين بالاحترام ؛ وفي الهند ، وفارس ، والشام ، وإفريقية كثيرون من أتباع هذه الطائفة يعترفون بزعامه أغا خان ويؤدون إليه عشر دخلهم^(٦) .

وتوفى ملك شاه بعد شهر من وفاة وزيره ، وتنازع أبناؤه على وراثة العرش واقتتلوا ، وتفرق المسلمون في أثناء هذا النزاع فلم يواجهوا الصليبيين بقوة متحدة . وأعاد السلطان سنجر إلى بغداد أبهة السلاجقة في أثناء حكمه الذي دام من ١١١٧ حتى ١١٥٧ ، وازدهرت في أيامه الآداب بفضل تعضيدته ومناصرته ؛ ولكن الدولة السلجوقية تفككت بعد وفاته وانقسمت إلى إمارات مستقلة تحكمها أسر قليلة الشأن وملوك متنازعون متقاتلون ، وقام في الموصل أحد ممالك ملك شاه الأكراد وهو عماد الدين زنكى وأسس أسرة الأتابكة (آباء الأمراء) في عام ١١٢٧ ، وهى الأسرة التى حاربت الصليبيين حرباً عولناً وبسطت سلطانها على بلاد النهرين . وفتح ابنه نور الدين محمود (١١٤٦ - ١١٧٣) بلاد الشام ، واتخذ دمشق عاصمة له ، وحكم أملاكه حكماً عادلاً حازماً ، وانزاع مصر من الأسرة الفاطمية المحتضرة .

وكانت عوامل الانحلال ، التى أدت إلى خضوع الخلفاء العباسيين إلى سلطان بنى بويه والسلاجقة ، قد أدت بعد قرنين من تضعيع الخلافة العباسية إلى اضمحلال شأن الخلفاء الفاطميين حتى غدوا رؤساء دينيين لا أكثر في دولة يحكمها وزراؤهم قادة الجنود . وانغمس هؤلاء الخلفاء في اللهو والشهوات بين نساءهم اللاتي لا يحصى عددهن ، وأحاطوا أنفسهم بالخصيان والعبيد ، وأفقدتهم الترف والانغماس في الشهوات الجنسية صفات الرجولة ، فتركوا وزراهم يلقبون أنفسهم بالملوك ويوزعون مناصب الدولة ومزايا الحكم كما يشتهون . وحدث في

عام ١١٦٤ أن قام النزاع على الوزارة بين اثنين (*) من القواد . واستعان أحدهما . وهو شاور على منافسه بنور الدين ، فبعث إليه بقوة صغيرة يقودها أسد الدين شيركوه . وانتهى الأمر بأن قتل شيركوه شاور ونصب نفسه وزيراً . ولما مات شيركوه خلفه في الوزارة ابن أخيه الذي صار فيما بعد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب والمعروف عند الغربيين باسم Saladin ه

وقد ولد صلاح الدين في تكريت الواقعة في أعلى نهر دجلة عام ١١٣٨ من أسرة كردية - غير سامية . وكان أبوه أيوب قد ارتقى في مناصب الدولة حتى صار والياً على بعلبك في أيام عماد الدين زنكي ، ثم والياً على دمشق في أيام نور الدين محمود . ونشأ صلاح الدين في هاتين المدينتين في بيت من بيوت الإمارة ، وتعلم فنون السياسة والحرب ، ولكنه جمع إليها صلاحاً وتمسكاً بالدين ، ومحماً له ، وإتقاناً لأصوله ، وبساطة في المعيشة لاتكاد تفترق عن بساطة الزهاد . ويعده المسلمون من أعظم رجالهم الصالحين ه وكان خير أثوابه ثوباً من الصوف الخشن الغليظ ، ولم يكن يشرب غير الماء ؛ وكان مضرب المثل في اعتداله في العلاقات الجنسية ، وبلغ في ذلك درجة لا يدانيه فيها معاصروه . قدم إلى مصر مع شيركوه ، واشترك فيما نشب فيها من قتال ، واستلفت الأنظار ببسالته وحسن تدبيره ، فعين حاكماً على الإسكندرية وصد عنها غارة الفرنجة في عام ١١٦٧ . ثم تولى الوزارة وهو في سن الثلاثين ، فبذل جهده في إعادة المذهب السني إلى مصر ، حتى إذ كان عام ١١٧٠ استبدل باسم الخليفة الفاطمي الشيعي اسم الخليفة العباسي السني في خطبة الجمعة . ولم يكن للخليفة العباسي في ذلك الوقت أكثر من الزعامة الدينية الاسمية في بغداد . وكان الخليفة العاضد ، آخر الخلفاء الفاطميين في ذلك الوقت ، مريضاً في قصره ، وظل على غير علم بهذا الانقلاب .

الدينى ، لأن صلاح الدين حرص على ألا تصله أنبأؤه حتى يقضى هذا السجين العديم الشأن نجبه فى هدوء وسلام . وقد حدث هذا بالفعل بعد قليل ، فمات ولم يبايع من يخلفه على العرش ، وانقضى بذلك حكم الأسرة الفاطمية دون أن يحدث فى البلاد شىء من الاضطراب . وجعل صلاح الدين نفسه والياً على البلاد لا وزيراً ، وأقر لنور الدين بالسيادة . ولما دخل صلاح الدين قصر الخليفة بالقاهرة وجد فيه اثني عشر ألف شخص كلهم نساء عدا أقارب الخليفة نفسه ، كما وجد فيه من الحلى ، والأثاث ، والعاج ، والخزف الثمين ما لا يوجد فى قصر أعظم عطاء ذلك الوقت . ولم يحتفظ صلاح الدين بشىء من هذا كله لنفسه ، ووهب القصر لقواد جنده . وظل هو يسكن حجرات الوزير ويعيش فيها عيشة البساطة التى هى من خير النعم على صاحبها .

ولما مات نور الدين فى عام ١١٧٣ أبى ولاة الأقاليم أن يبايعوا ابنه البالغ من العمر أحد عشر عاماً ملكاً عليهم ، وأوشكت بلاد الشام أن تقع مرة أخرى فى براثن الفوضى . وقال صلاح الدين إنه يخشى أن يستولى الصليبيون على تلك البلاد فسار من مصر ومعه سبعمائة من الفرسان ، واستطاع بحملة سريعة موقفة أن يستولى على جميع بلاد الشام . ولما عاد إلى مصر لقب نفسه ملكاً وأسس الأسرة الأيوبية (١١٧٥) ، وخرج من مصر مرة أخرى بعد ست سنين من ذلك الوقت ، واتخذ دمشق مقراً له ، واستولى على بلاد النهرين ، وكان فيها ، كما كان فى القاهرة ، الرجل الحريرى على دينه ، المستمسك بأصوله . وأنشأ عدة مساجد ، وبهارستانات ، وأديرة ، ومدارس لتعليم قواعد الدين ، وشجع العمارة ، وإن لم يشجع العلوم الزمنية ، وكان يشارك أفلاطون فى احتقاره الشعر . ولم يكن يتوانى عن إصلاح كل خطأ ورد كل ظلم يصل إلى علمه ، ونخف الضرائب فى الوقت الذى أكثر فيه من المنشآت العامة ، وأدار دولاب الحكومة بحزم وكفاية وحرص شديد على المصلحة العامة . وكانت البلاد الإسلامية تفخر بعدله وصلاح

حكاه ، بينما كانت المسيحية تعترف بشهامته وإن لم يكن من دينها(*) .

وسنمسك القلم عن التبسط في أحوال الأسر المحلية التي اقتسمت بلاد الشرق الإسلامية بعد موت صلاح الدين (١١٩٣) . وحسبنا أن نقول إن ابنه كانت تنقصه مواهب أبيه ، وإن حكم للدولة الأيوبية في بلاد الشام انقضى بعد ثلاثة أجيال (١٢٦٠) . أما في مصر فقد ظل مزدهر آجتي عام ١٢٥٠ ، ووصل إلى ذروة مجده في عهد الملك المستنير الملك الكامل (١٢١٨ - ١٢٣٨) صديق فردريك الثاني . وفي آسية للصغرى أقام للسلاجقة سلطنة بلاد « الروم » ، وجعلوا قونية (إيقونيوم Iconium) الوارد ذكرها في أقوال القديس بولس) مركزا لحضارة ذات آداب رفيعة . وانمحت من آسية الصغرى أسس الحضارة اليونانية التي كانت قائمة فيها منذ أيام هومر ، وأصبحت بلاداً تركية لا تقبل في صبغتها هذه عن التركستان نفسها ، وتقوم فيها الآن الدولة التركية متخذة عاصمتها مدينة كانت في الزمن القديم عاصمة الحثيين . وكانت قبيلة أخرى من الأتراك تحكم خوارزم (١٠٧٧ - ١٢٣١) ، وقد بسطت هذه القبيلة سلطانها من جبال أورال حتى الخليج الفارسي . وفي هذه الأحوال بهذا الانقسام السياسي أسس جنكيز خان الدولة الإسلامية الآسيوية .

وكانت بلاد الإسلام حتى في هذه الفترة من عهود الاضمحلال تزعم العالم كله في الشعر، والعلم ، والفلسفة ؛ وتنافس آل هوهنستوفن Hohenstaufen في الحكم . فقد كان سلاطين السلاجقة - طغرل بك ، وألب أرسلان ، وملك شاه ، وسنجر - من أقدر الحكام في العصور الوسطى ، ويعد نظام الملك من أعظم رجال الحكم والسياسة ؛ ولم يكن نور الدين ، وصلاح الدين ، والكامل

(*) قد يدهش القارئ لأن المؤلف أهمل جهود صلاح الدين في عهد الصليبيين ، ولكن

هذه الجهود ستأتي في موضعها من الأجزاء الأخرى (المتوهم) .

أقل شأنًا من رتشرد الأول ، ولويس التاسع ، وفرديك الثاني . وجرى هؤلاء الحكام المسلمون جميعهم ، بل وصغار الملوك أنفسهم ، على سنة الخلفاء العباسيين في مناصرة الآداب والفنون ، حتى لنجد في بلاطهم شعراء أمثال عمر الخيام ، والنظامي ، والسعدي ، وجلال الدين الرومي ؛ وبلغت العمارة في أيامهم درجة من الازدهار لم تبلغها قط من قبل ، وإن كانت الفلسفة قد اضمحلت لتشددهم في الدين(*) ، فقد طارد السلاجقة وصلاح الدين كل خارج على السنة من المسلمين ، ولكنهم كانوا يعاملون اليهود والمسيحيين معاملة بلغ من تسامحها ولينها أن المؤرخين البيزنطيين يحدثوننا عن جماعات مسيحية تطلب إلى الحكام السلاجقة أن يأتوا إليها ليطردوا حكامها البيزنطيين الظالمين (٧) . وازدهر غرب آسية مرة أخرى مادياً ، وأدبياً في عهد السلاجقة والأيوبيين حتى كانت دمشق ، وحلب ، والموصل ، وبغداد ، وإصفهان ، والرى ، وهراة ، وأميدا ، ونيسابور ، ورمرو وقتند من أكثر مدن العالم ثقافة وجمالاً . وقصارى القول أن هذا العصر كان عصر اضمحلال متألئ ساطع .

(*) لسنا نعتقد أن التشدد في الدين يحول دون تقدم الفلسفة ولكن عدم فهم الدين على الوجه الصحيح هو الذى يحول دون تقدمها . (المترجم)

الفصل الثاني

المسلمون في الغرب

١٠٨٦ - ١٣٠٠

توفي الملك الصالح آخر سلاطين الأيوبيين في عام ١٢٤٩ ، وتفاضت أرملته وجاريته السابقة شجرة الدر عن مقتل ابن زوجها ونادت بنفسها ملكة . وأراد الزعماء المسلمون في القاهرة أن يوقفوا بين هذا وبين مقتضيات الشرف والرجولة فاختراروا مملوكاً آخر يدعى أيك ليكون شريكاً لها في ملك ، وتزوجت به شجرة الدر ، ولكنها ظلت هي الحاكمة ، ولما حاول أن يستقل بالملك دونها عملت على قتله في الحمام (١٢٥٧) ، ولم تلبث أن قتلها جوارى أيك ضرباً بالقباقيب . وكان أيك قد عاش من العمر ما يكفي لإنشاء أسرة الماليك . وكان لفظ مملوك يطلق على الأرقاء البيض ، وهم في العادة من الأتراك أو المغول الأشداء البواسل ، الذين كان سلاطين بني أبوب يستخدمونهم في حرسهم الخاص ؛ وأصبح هؤلاء فيما بعد ملوك مصر ، كما أصبح أمثالهم ملوكاً في رومة وبغداد ؛ وظل الماليك يحكمون مصر ، وبلاد الشام. أحياناً ، ٢٦٧ عاماً (١٢٥٠ - ١٥١٧) أريقت فيها كثير من دماء الاغتيال في عاصمة ملكهم ، ولكنهم جعلوها بآثار الفن . وقد أنجوا بشجاعتهم بلاد الشام وأوربا نفسها من المغول حين بددوا شملهم في واقعة عين جالوت (١٢٦٠) ؛ وكانوا هم الذين أنجوا فلسطين من الفرنجة ، وطردها آخر محارب مسيحي من بلاد آسية ، وإن لم ينالوا من وراء ذلك من الحمد ما نالوه بهزيمة المغول .

وكان أعظم سلاطين الماليك وأشدهم قسوة الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) .

(٢٤ - ج - ٢ - مجلد ٤)

كان الظاهر مملوكاً تركياً ، رفعه دهاوؤه وبسالته إلى منصب القيادة في الجيش المصرى ؛ وكان هو الذى هزم لويس التاسع فى عام ١٢٥٠ ؛ والذى حارب بعد عشرينين من ذلك الوقت ببسالة ومهارة منقطعتى النظر تحت قيادة قطز فى معركة عين جالوت . ثم قتل قطز وهو عائد إلى القاهرة ونادى بنفسه سلطاناً على مصر ، وكان من الطريف أن يتقبل لنفسه الاحتفال الذى أعدته المدينة للضحية المنتصر . واشتبك الظاهر فى عدة حروب مع الصليبيين كللت كلها بالنصر ، ومن أجلها تضعه الرواية الإسلامية فى المرتبة الثانية بعد هرون الرشيد وصلاح الدين ، ويصفه مؤرخ مسيحي معاصر له بقوله : « إنه كان فى السلم معتدلاً ، عفيفاً ، عادلاً بين شعبه ، رحماً برعاياه المسيحيين أنفسهم » . وقد أحسن تنظيم حكومة مصر إلى درجة ثبتت دعائم حكم خلفائه رغم ما اتصف به بعضهم من عجز ، فاحتفظوا بهذا الملك حتى غلبهم الأتراك العثمانيون فى عام ١٥١٧ . وقد أنشأ لمصر جيشاً وأسطولاً قوين ، وطهر مرافئها ، وأصلح طرقها ، وقنوات ريفها ، وشاد المسجد المسمى باسمه فى القاهرة .

ونخلع مملوك تركى اخر ابن الظاهر بيبرس وأصبح هذا المملوك السلطان للتصور سيف الدين قلاون (١٢٧٩ - ١٢٩٠) ، وأهم ما يشتهر به فى التاريخ هو البيمارستان الذى أنشأه فى القاهرة ، والذى خصص له مليوناً من الدراهم (ما يعادل ٥٠٠٠٠٠ ريبال أمريكى) فى العام ، ورفع ابنه الناصر إلى العرش ثلاث مرات ، ولكنه لم يخلع إلا مرتين ؛ وبنى قنوات لجر ماء الشرب إلى العاصمة ، وأنشأ حمامات عامة ، ومدارس ، وأديرة ، وثلاثين مسجداً ؛ واحترف قناة تصل الإسكندرية بالنيل سخر فى حفرها مائة ألف عامل ، وضرب المثل فى بدخ المالك ، إذ نحر عشرين ألفاً من الذبائح فى الاحتفال بزواج ولده . ولما سافر الناصر فى رحلة خلال الصحراء حمل على ظهر أربعين بعيراً حديقة من الخبز يطبخها الخصب ليستمد منها حاجته كل يوم^(٩) . وأقفر خزانة

الدولة الرومانية في أيامه ، وكان سبباً في ضعف خلفائه ضعفاً خازت له فيها بعد قوة المماليك .

وبعد فإن سلاطين المماليك لا يقعون في نفوسنا موقع سلاطين السلاجقة ، أو الأيوبيين . نعم لأنهم خلفوا منشآت عامة عظيمة ، ولكن معظم هذه الأعمال كان يقوم بها فلاحون أو عمال فقراء يستغلون إلى أقصى ما تحتمله الطاقة البشرية ، وتستطيعه حكومة لا تسأل قط عن أعمالها أمام الأمة أو أمام طبقة الأعيان ، وكان الاغتيال هو الطريقة الوحيدة للتخلص من السلاطين ؛ ولكن هؤلاء الحكام الغلاظ الأكباد كانوا أصحاب ذوق سليم ، أسخياء في مناصرة الآداب والفنون ، وكان عصر المماليك ألع العصور الإسلامية في تاريخ العمارة الإسلامية في العصور الوسطى بأجمعها ؛ وكانت القاهرة في عهدهم (١٢٥٠ - ١٣٠٠) أغنى مدن العالم المتمدن في غرب نهر السند (١٠) ، فكانت أسواقها خاصة بجميع لوازم الحياة وبكثير من كمالياتها ، وكان فيها سوق للنخاسة يستطيع الإنسان أن يبتاع منها الرجال والفتيات ، وحوانيت صغيرة في جدرانها مزدحمة بالسلع المتفاوتة الأثمان ، وأزقة خاصة بالناس والدواب ، تلو فيها أصوات البائعين الجائدين وعربات النقل ، وقد أنشئت ضيقة عن عمد ليستظل بها المارة ، ومتعرجة عن عمد ليسهل الدفاع عنها ، تخفى بيوتها وراء واجهات قوية ، وحجراتها مظلمة رطبة وسط وهج الشمس وحرارتها في الشوارع الكثيرة الحركة والجلبة ، يتنفس سكانها الهواء من بهو داخلي أو حديقة قريبة ؛ وقد فرشت حجراتها بالأثاث الوثير ، والسجف ، والطنافس ، والتحف الفنية ، والمفارش والوسائد المطرزة المزركشة . وكان فيها رجال يعضغون الحشيش ليخدروا حواسهم (*) ، ويستجلبوا الأحلام اللذيذة ؛

(*) لا نعتقد أن « مضغ الحشيش » كان ظاهرة بارزة في القاهرة جديدة بالتسجيل كما قد يتبادر إلى الذهن من قول المؤلف وإن وجهه في القاهرة كما في سائر بلاد العالم من يتعاطون الحشيش وغيره من المخدرات وحسب القارئ أن يطلع على كتاب « اعترافات آكل أفيون إنجليزي » لدكونسي . (المترجم)

وفى نساء يثرثن فى بيوت الحريم ، أو يغازلن خلصة من وراء النوافذ ،
والموسيقى تنبعث من آلاف الآلات ، والحفلات العجيبة تقام فى القلعة ،
والحدائق العامة يفوح منها شذى الأزهار وتموج بالمتزهين ، والنهر العظيم
والقنوات تسبح فيها سفائن النقل والركاب ، وقوارب الزهة . هذه هى
القاهرة المسلمة فى العصور الوسطى (*) .

لله بسبستان وما قضيت فيه من المآرب
لهنى على زمنى به والعيش مخضر الجوانب
فيروقى والجو منه ساكن والقطر ساكب
ولكم بكرت له وقد بكرت له غر السحاب
والطل . أغصانه يحكى عقوداً فى ترائب
وتفتحت أزهاره فتأرجحت من كل جانب
وبدا على جنباته ثمر كأذنان الثعالب
وكأنما أصله ذهب على الأوراق ذائب
فهناك كم ذهبية لى فى الولوع بها مذاهب

وتعاقبت على شمال إفريقية فى ذلك الوقت أسر كان لها هى الأخرى شأن
عظيم ، منها الزيرية (٩٧٢ - ١٠٤٨) وبنو حفص (١٢٢٨ - ١٥٣٤) حكام
تونس ، والحموديون (١١٣٠ - ١٢٦٩) فى بلاد الجزائر ، والمرابطون
(١٠٥٦ - ١١٤٧) والموحدون (١١٣٠ - ١٢٦٩) أمراء مراكش . وفى

(*) نقل المؤلف الترجمة الإنجليزية لهذه الأبيات عن كتاب القاهرة Cairo تأليف
استانلى لين پول Stanley Lane Poole ونقلها لين پول عن پالمير . وقد رجعنا إلى كتاب پالمير
بدار الكتب وهو ديوان البهاء زهير وترجمته العربية لهذا المستشرق والترجمة الإنجليزية غير دقيقة
كل الدقيقة وهى فى صفحتى ٨٢٧ من كتاب پالمير . (المترجم)

الأندلس سرعان ما تأثر المرابطون المنتصرون ، جنود إفريقية المتقشفون الأولون ، بجياة الترف التي كان يحياها أمراء قرطبة وإشبيلية الذين ثلوا هم وشهم ، وحل لين السلم محل التربية العسكرية الصارمة ، وتخلت الشجاعة عن مكانها للمال حتى أصبح هولا الشجاعة مقياس السمو والعظمة والهدف المبتغى ، واكتسبت النساء برقهن ومفانهن سلطانا لا يدانيه إلا سلطان رجال الدين الذين يمتون الناس بمثل هذه المتع في الجنة . وفسد الموظفون ، ولم يلبث دولاب الإدارة ، الذي بلغ درجة عالية من الكفاية في أيام يوسف بن تاشفين (١٠٩٠ - ١١٠٦) ، أن اختل في أيام ابنه علي (١١٠٦ - ١١٤٣) . واضطرب جبل الأمن ، وكثرت السرقات كلما ازداد إهمال الحكومة لواجباتها ، فأصبحت الطرق غير آمنة ، وكسدت التجارة ، ونقصت الثروة . واغتمت ملوك أسبانيا الكاثوليكية هذه الفرصة فأغاروا على قرطبة ، وإشبيلية وغيرهما من مدائن الأندلس الإسلامية ، وولى المسلمون وجههم مرة أخرى نحو إفريقية يستغيثون بها لتنجيهم من محنتهم .

وكانت ثورة دينية قد شبت في تلك البلاد في عام ١١٢١ ، ورفعت إلى العرش طائفة أخرى ذات قوة وبأس شديد . فقد قام عبد الله بن تومرت يندد بعقائد السنيين الذين يعزون إلى الله صفات الآدميين ، وبآراء الفلاسفة الذين يدعون إلى إرجاع كل شيء إلى العقل ، وأخذ يطالب بالعودة إلى البساطة في العيش وفي العقيدة الدينية ، ثم أعلن في آخر الأمر أنه هو المهدي المنتظر والمقعد الذي يقول به الشيعة . والتفت حوله قبائل البربر المميج سكان جبال أطلس ، ونظموا أنفسهم تنظيما قويا وسموا بالموحدين ، وهزموا حكام مراكش المرابطين ، ولم يجدوا صعوبة في أن يفعلوا مثل هذا الفعل في الأندلس . وعاد النظام والرخاء إلى الأندلس ومراكش في عهد عبد المؤمن (١١٤٥ - ١١٦٣) وأبي يعقوب يوسف (١١٦٣ - ١١٨٤) من أمراء الموحدين ، وانتعشت الآداب والعلوم مرة أخرى ، وبسط الأمران حمايتهما على الفلاسفة على أن يكون مفهوما لديهم أن يجعلوا

كتبهم غير مفهومة ؛ لكن أبا يوسف يعقوب (١١٨٤ - ١١٩٩) استسلم إلى فقهاء الدين ، وتخلّى عن الفلسفة ، وأمر بحرق جميع كتبهم . ولم يكن ابنه محمد الناصر (١١٩٩ - ١٢١٤) يعنى بالفلسفة ولا بالدين ؛ وأهمل شئون الحكم ، وانغمس في الملذات ، وهزم هزيمة منكرة على أيدي قوات المسيحيين المتحدة في واقعة العقاب (Las Navas de Tolosa) عام ١٢١٢ وانقسمت أسبانيا الخاضعة للموحدين على أثر هذه الهزيمة إلى دويلات مستقلة افتتحها المسيحيون واحدة بعد واحدة - قرطبة في عام ١٢٣٦ ، وبلنسية في ١٢٣٨ ، وإشبيلية في ١٢٤٨ . وارتد المسلمون المغلوبون إلى غرناطة ، حيث وقهم جبال سيارا تقادا أو الحاجز الثلجي بعض الوقاية ؛ وحيث ازدهرت حقول الكروم ، وحدائق الزيتون ، وغياض أشجار البرتقال بفضل ما يجرى فيها من مياه الأنهار . وتعاقب على عرش غرناطة طائفة من الحكام الحازمين حافظوا على استقلالها هي والبلدان التابعة لها - شريش ، وجيان ، والمرية ، ومالقة - وصدوا عنها غارات المسيحيين المتكررة ، وراجت فيها التجارة ، وانتعشت الصناعة ، وازدهرت الفنون ؛ واشتهر السكان بثيابهم الزاهية وحفلاتهم المرححة ، وظلت هذه المملكة الصغيرة قائمة حتى عام ١٤٩٢ ، وكانت هي البقية الباقية في أوروبا من تلك الثقافة التي جعلت بلاد الأندلس قزونا طوالاً من مفاخر بني الإنسان .

بفصل الثالث

نظرات خاطفة في الفن الإسلامي

١٠٥٨ - ١٢٥٠

في هذا العصر عصر سيادة البربر على الأندلس الإسلامية أقام المسلمون قصر الحمراء في غرناطة والقصر والخرلدة في إشبيلية . وكثيراً ما يسمي الطراز المعاري بالحديد بالطراز المراكشي morisco ظناً أنه جاء من مراكش ، ولكن الحقيقة أن عناصره الأولى جاءت من بلاد الشام والفرس ، وهي أيضاً من سمات التاج محال في الهند ؛ ألا ما أوسع ميادين الفن الإسلامي وما أكثر غناه ! وقد كان الفن في ذلك العهد فناً رقيقاً ، ولم يعد يهدف إلى القوة والفخامة اللتين نشاهدهما في مساجد دمشق ، وقرطبة ، والقاهرة . بل يهدف إلى البرقة والجمال ، ويبدو فيه أن كل مهارة فنية قد وجهت إلى الزينة ، وأن المثال قد طغى فيه على مهندس المعمار .

وكان الموحدون من أكثر الحكام نشاطاً في العمارة ؛ وقد شادوا أولاً بقصد الدفاع عن أملاكهم ، فكانوا يحيطون مدنهم الكبرى بأسوار ضخمة قوية وأبراج أمثال برج الذهب Torre del Oro الذي كان يحرس الوادي الكبير عند إشبيلية . وكان « القصر » Alcazar المقام هناك حصناً وقصراً معاً ، وكان يطل على العالم بواجهة بسيطة خالية من الجمال . وكان الذي وضع تصميمه لأبي يعقوب يوسف (١١٨١) هو الجالوني المهندس القرطبي ؛ وأصبح هذا القصر بعد عام ١٢٤٨ المسكن المحبب للملك أسبانيا المسيحيين ؛ وأدخل عليه بيدرو الأوك (١٣٥٣) ، وشارك الخامس (١٥٢٦) ولإزبلا (١٨٣٣) تعديلاً في بنائه ، أو رموه ، أو أعادوا ما تهدم منه ، أو أضافوا إليه أبنية جديدة ، حتى أصبح معظمه

الآن مسيحياً في بنائه ، ولكنه يغلب عليه في نمطه وصنعه الطراز الإسلامي أو الإسلامي - المسيحي .

وأبو يعقوب يوسف الذي بدأ « القصر » هو نفسه الذي شاد في عام ١١٧١ مسجد إشبيلية العظيم الذي لم يبق منه شيء في هذه الأيام . وقد أقام جابر المهندس في عام ١١٩٦ مأذنة هذا المسجد الفخمة المعروفة عند الغربيين باسم الخرلدة ، ثم حول المسيحيون الفاتحون هذا المسجد إلى كنيسة (١٢٣٥) ؛ ثم هدمت هذه الكنيسة في عام ١٤٠١ ، وأقيمت في مكانها كنيسة إشبيلية الكبرى ، وكان مما استخدم في بنائها مواد المسجد نفسه . والجزء الأدنى من الخرلدة إلى ارتفاع ٢٣٠ قدما هو نفس بناء المأذنة الأصلية ، أما الارتفاع الثمانون قدما الباقية فقد أضافها إليها المسيحيون (١٥٦٨) ، وحرصوا على أن تكون متناسقة كل التناسق مع قاعدة المأذنة الإسلامية . والثلاثان الأعلى من البناء كثيرا الزخارف ، وفيهما شرفات مقنطرة ذات واجهات متشابهة من الجص والحجر ، وفي أعلاها تماثيل من البرنز للإيمان (١٥٦٨) ، ولكنه لا يكاد يمثل مزاج أسبانيا الديني غير المتقلب لأنه يدور مع الريح ، ومن هنا اشتق لفظ خيرلدا - أي الذي يدور - الأسباني من خيرا Gira . وقد أقام المسلمون في مدينتي مراكش (١٥٦٩) ورباط (١١٩٧) أبراجا لا تكاد تقل جمالا عن هذا البرج .

وفي غرناطة أمر محمد بن الأحمر (١٢٣٢ - ١٢٧٣) في عام ١٢٤٨ بتشيد أعظم صرح في الأندلس الإسلامية على بكرة أبيها ، ونعني به قصر الحمراء الشهير . وكان الموضع الذي اختير لتشيده عليه قلة جبلية شامخة تحيط بها أخاديد عميقة وتشرف على نهري الدارو Darro والجنيل Genil . وقد وجد الأمير في هذا الموضع حصنا يعرف بحصن الكذابة Aczabs يرجع تاريخه إلى القرن التاسع الميلادي ، فأضاف إليه أبنية جديدة وأقام الأسوار الخارجية للحمراء وأقدم قصورها ونقش على كل جزء من أجزائها شعاره المتواضع « لا غالب إلا الله » . وقد أضيفت إلى

هذا البناء الأصلي أجزاء أخرى في فترات مختلفة وأصلح ما تلف منه على أيدي المسيحيين والمسلمين على السواء . من ذلك أن شارل الخامس أضاف إليه قصره المبني على الطراز المربع طراز عهد النهضة ، وهو بناء ناقص كتيب مهيب غير متناسق . وخطط المهندس الذي لم يصل إلينا اسمه الفضاء الذي في داخل السور ليكون أولاً حصناً يتسع لأربعين ألف رجل متبعاً في هذا مبدأ العمارة الحربية التي نمت وتطورت في بلاد الإسلام الشرقية (١٢) ؛ لكن فوق القرنين التاليين الأكثر ميلاً إلى الترف حول هذا الحصن على مر الأيام إلى مجموعة كبيرة من الأبنية والقصور ، تكاد تمتاز كلها بجمال الزخارف المكونة من الأزهار ، وأوراق الأشجار ، والأشكال الهندسية المحفورة أو المطبوعة في الجص أو الآجر أو الحجارة الملونة ، والتي تبلغ من الجمال ورقة الذوق درجة منقطعة النظير . وأنشئت في بهو الآس بركة تنعكس على مياهها أغصان الأشجار وكلمات الأبواب المزخرفة ، ومن ورائها يقوم برج ذو أسوار حصينة كان المحاصرون يظنون أنهم واجدون فيه آخر ملجأ منيع . وفي داخل هذا البرج بهو السفراء ، حيث كان يجلس أمراء غرناطة على عروشهم بينما كان المبعوثون الأجانب يعجبون بما حوته المملكة الصغيرة من فن وثناء ، ولقد أطل شارل الخامس من شرفة لإحدى نوافذ هذا البهو فرأى الحدائق ، والغياض ، والنهر يجري من تحتها ، فقال بعد تفكير عميق : « ما أتعس نحظ من من نحسر هذا كله ! » (١٣) وفي الفناء الرئيسي للقصر المعروف بهو الآساد أقيم اثنا عشر أسداً من الرخام رهيبة المنظر تحرس فسقية من المرمر . وإن ما في البواكي المحيطة بهذا الفناء من عمد رشيقة رقيقة ذات تيجان في صورة أزهار ، وتيجان ذات عمد صغيرة مدلاة ، وكتابات كوفية ، ونقوش عربية ذات ألوان أظفأ بريقها كمر الغداة ومر العشي ، كل هذا يجعل القصر أروع آية فنية في الطراز الإسلامي الأندلسي . ولعل الأندلسيين المسلمين قد دفعهم ترفهم وتحمسهم إلى أن يتجاوزوا في فنهم حدود الرشاقة إلى

الإسراف ، ذلك أنه حيث لا تشاهد العين إلا الزخرف والزينة فلإنها هي الروح تملآن حتى الجمال والحذق . وهذه الدقة في الزخرف تبعث في النفس إحساساً بالوهن وتضحى بطابع القوة والأمان اللذين يجب أن نشعرنا بهما هندسة البناء . ومع هذا فإن ذلك الكساء الزخرفي كله تقريباً قد عاش . بعد اثني عشر زلزالا . نعم إن سقف قاعة السفراء قد نخر ، ولكن ما عداه من القاعة لا يزال قائماً . وملاك القول أن هذه المجموعة الجميلة من الحدائق والقصور ، والفساق ، والشرفات توحى إلى الناظر بأقصى ما وصل إليه الفن الإسلامي الأندلسي من العظمة ، كما توحى في نفس الوقت بضعف هذا الفن : توحى بالإسراف في الثراء ، وبجهود الفاتحين تتوسد مهاد الراحة وتحلّد إلى الدعة ؛ وبجاسة الجمال المرهقة تستبدل بالقوة والعظمة والرشاقة والأناقة .

وعاد الفن الأندلسي الإسلامي في القرن الثاني عشر من أسبانيا إلى شمالي إفريقيا ، وبلغت مدائن مراكش ، وفاس ، وتلمسان ، وتونس ، وصفاقس ، وطرابلس أوج عظمتها بما شيد فيها من القصور والمساجد التي تهر العين ، وبالأحياء الفقيرة المتعرجة . أما في مصر وبلاد الشرق فقد طعم السلاجقة والأيوبيون والمماليك الفن الإسلامي بقوة جديدة ؛ فقد أقام صلاح الدين وخلفاؤه في الجنوب الشرقى من القاهرة قلعتها الضخمة ، واستخدموا في بنائها الأسرى الصليبيين ، ولعلمهم حدوا في طرازها حلو القلاع التي شادها الفرنجة في بلاد الشام ؛ وشاد الأيوبيون في حلب المسجد العظيم والقلعة ، وبنوا في دمشق ضريح صلاح الدين . وحدث في هذه الأثناء انقلاب في فن العمارة حول في جميع بلاد الشرق الإسلامي الطراز القديم في عمارة المساجد ، وهو طراز الصحن الواسع ، إلى طراز المدرسة أو الجامع ذي المدرسة . وكان منشأ هذا الطراز بالحديد أن المساجد زاد عددها فلم تعد ثمة حاجة إلى أن يكون في وسطها صحن كبير يتسع لجمهور كبير من المصلين ؛ وأن ازدياد الحاجة إلى المدارس كان يتطلب تسهيلات جديدة في التعليم . ولهذا

امتدت من المسجد الحقيقي أى من مكان الصلاة - الذى كان يعلوه فى ذلك الوقت على الدوام تقريباً قبة كبيرة - امتدت منه أربعة أجنحة لكل منها مآذنه الخاصة ومدخله الكثير الزخارف ، وقاعته الرحبة للمحاضرات . وقد جرت العادة فى أغلب الأحيان أن يكون لكل مذهب من المذاهب الأربعة جناحه الخاص ، ويقول أحد سلاطين ذلك الوقت فى صراحة : إن ذلك يتيح الفرصة لوجود مذهب منها فى القليل يؤيد أعمال الحكومة القائمة . وقد استمر هذا الانقلاب فى العمارة فى عهد المماليك فأُنشئت المساجد والمقابر الضخمة المتينة من الحجارة ، تحرسها أبواب قوية كبيرة من البرنز المشغول ، وتضويها نوافذ ذات زجاج ملون ، وتتألف فيها الفسيفساء ، والنقوش المحفورة فى الجص الملون ، وقطع القرמיד التى قاومت حتى الآن عوادي الزمان والتي لم يعرف طريقة صنعها غير المسلمين .

وقد درست الآثار المعمارية السلجوقية فلم يبق منها إلا أقل من واحد فى المائة ، نذكر من هذه البقية القليلة مسجد آنى فى أرمينية ، والمبخل الفخم لمسجد قونية ، ومسجد علاء الدين الفخم ، والمبخل الكهنى ، والواجهة ذات النقوش الشبيهة بالتطريز فى جامع سرتجيبلى ، وتذكر منها فى بلاد النهرين مسجد الموصل الكبير ، ومسجد المستنصر فى بغداد ؛ وفى فارس برج طغرل بك فى الرى وقبر سنجر فى مرو ، والحراب المتألف فى مسجد همذان ، والقبّة المضلعة والعقود الصغيرة الفذة فى المسجد الجامع بقزوين ، والعقود الكبرى والحراب فى جامع الحيدرية ؛ وليست هذه إلا قلة من الصروح التى بقيت حتى الآن شاهدة على ما بلغه السلاجقة من حذق فى العمارة وما بلغه ملوكهم من سمو الذوق . وأجمل من هذه كلها المسجد الجامع فى إصفهان الذى لا يدانيه فى بلاد الفرس كلها إلا مسجد الإمام الرضا فى مشهد والذى أقيم بعد ذلك الوقت . ومسجد إصفهان هذا أروع الآيات الفنية كلها فى عصر السلاجقة . وقد أقيمت أجزاء من هذا

المسجد في قرون عدة ، ويبدو عليها طابع تلك القرون ، فهو من هذه الناحية شبيه بكنيسة نتردام Notre Dam . وقد بدئ بتشييده في عام ١٠٨٨ ووسع مراراً عدة ، ولم يتخذ شكله الحاضر إلا في عام ١٦١٢ ؛ غير أن كبرى قبابه المشيدة من الآجر تحمل نقوش خاتم نظام الملك وعام ١٠٨٨ . ومدخل المسجد وأبواب المحراب — ومنها واحد يبلغ ارتفاعه ثمانين قدماً — مزينة بالقاشاني والفسيفساء الذي لا يكاد يوجد له نظير في تاريخ ذلك الفن بأكمله . وأبهاؤه الداخلية ذات قباب مضلعة وعقود صغيرة متتالية معقدة ، وأقواس مستدقة تخرج من دعائم ضخمة . وعلى المحراب (١٣١٠) نقوش على الجص من أوراق الكرم والبشنين ، وكتابات كوفية لا يعلو عليها شيء من نوعها في بلاد الإسلام جميعها .

وهذه الآثار تسخر من القائلين بأن الأتراك كانوا قومياً همجاً ؛ فكما أن الحكام والوزراء السلاجقة كانوا من أقدر الساسة والحكام في التاريخ ، كذلك كان المهندسون السلاجقة من أقدر البنائين وأشجعهم في عصر الإيمان الذي يمتاز بضخامة مبانيه وأعظمها قوة ؛ ولقد وقف طراز المباني السلجوقية الضخمة الجريئة في وجه النزعة الفارسية إلى الزينة ، ونشأ من اجتماع النزعتين السلجوقية والفارسية طراز معماري جديد عم آسية الصغرى والعراق وإيران ، ومن العجيب أن يتفق هذا الطراز في الزمن مع ازدهار فن العمارة القوطي في فرنسا . ولم يجر السلاجقة على السنة التي جرى عليها العرب قبلهم فيخفوا مكان الصلاة في ركن من أركان الصحن ، بل جعلوا للمسجد واجهة قوية متألثة ، ورفعوا بناءه ، وأقاموا عليه قبة مستديرة أو مخروطية جمعت كل الصبرح ، وضمت أجزاءه جميعها في وحدة ؛ وفي هذا الوقت بالذات اجتمع في البناء العقد المستدق ، والقبو ، والقبة أحسن اجتماع (١٤) .

وبلغت الفنون كلها ذروة مجدها في هذا العصر العجيب عصر العظمة

والاضمحلال : فقد كان الشعر يبدو للفرس من مسرات الحياة التي لاغنى عنها ، ولم يبلغ فن الخزف على اختلاف أشكاله ما بلغه في ذلك الوقت من تنوع في الشكل وجمال (١٥) . ذلك أن الفرس أتقنوا ما ورثوه عن المصريين ، وأهل الجزيرة ، والساسانيين ، وأهل الشام من فنون الزخارف البراقة ، والتلوين المفرد أو المتعدد الألوان فوق السطح المزجج أو تحته ، وأعمال المينا ، والقرميد ، والقاشاني ، والزجاج ، حتى بلغوا بذلك كله درجة الكمال . وتأثرت هذه الأعمال كلها بالفن الصيني ، وخاصة ما كان منها متصلاً بتلوين الصور ، ولكن ذلك لم يفرض سلطانه على الطراز الفارسي . وقد استورد الخزف وقتئذ من بلاد الصين ، ولكن ندرة الكاولين في الشرقين الأدنى والأوسط لم تشجع المسلمين على صنع هذه الآنية النصف الشفافة . إلا أن الفخار الفارسي مع هذا بقي طوال القرون الثاني عشر ، والثالث عشر ، والرابع عشر ، لا يفوقه فخار آخر في العالم كله - فقد كان في تنوع أشكاله ، ودقة تناسبه ، وبريق زخارفه ، ودقة حزونه ، ورشاقته يسمو على كل ما عداه في العالم كله (١٦) .

ولم تكن الفنون الصغرى في بلاد الإسلام مما تنطبق عليها هذه التسمية التي تبخسها حقها . فقد كانت حلب ودمشق في هذا العصر تصنعان العجائب من الآنية الزجاجية المشية ، المزخرفة بالمينا ، وصنعت القاهرة للمساجد والقصور قناديل من الزجاج المزخرف بالمينا أيضاً يبذل هواة التحف الفنية في هذه الأيام أقصى جهودهم للحصول عليها (*) . وكانت كنوز الفاطميين التي فرقها صلاح الدين محتوى على آلاف من المزهريات المصنوعة من البلور والجزع البقراني ، بلغ صانعوها من المهارة الفنية ما يعجز عنه الفنانون في هذه الأيام ، وبلغ فن الزخارف المعدنية الأشورى القديم في مصر والشام درجة من الإتقان لم يسبق لها مثيل ،

(*) وحسبنا أن نذكر أن آل رنثيلد ابتاعوا إبريقاً عربياً صغيراً من الزجاج المزخرف بالمينا بمبلغ ١٣,٦٥٠ ريالاً أمريكياً .

ومن هذين القطرين انتقل ذلك الفن إلى البندقية في القرن الخامس عشر (١٨). وكان النحاس ، والبرنز ، والشبّة ، والفضة ، والذهب ، تصبّ أو تطرق ، وتصنع منها آنية للطبخ ، وأسلحة ، ودروع ، وقناديل ، وأباريق ، وأحواض ، وجفان ، وصّوان ، ومرايا ، وآلات فلكية ، ومزهريات ، وثرديات ، ومقالم ، ومحابر ، ومدافئ ، ومباخر ، وتمائيل للحيوانات ، وصناديق للمصاحف ، ومساند للمواقف ، ومفاتيح ، وأقفال ، ومقصات . . . مزينة بنقوش محفورة ، ومرصعة في كثير من الأحيان بالمعادن أو الحجارة الكريمة . وكانت الأوجه العليا للموائد النحاسية تحفر عليها كثير من النقوش ، وكانت الشبايك الفخمة تصنع من المعدن المشغول للمحاريب ، والأبواب ، أو القبور . وفي متحف الفنون الجميلة ببسطن صينية فضية نقشت عليها صور وعول ، وإوز ، واسم ألب أرسلان ، ويرجع عهدا إلى عام ١٠٦٦ ، وقد وصفها بعض العلماء بأنها أشهر ما أخرجته الفن الفارسي في العهود الإسلامية من تحف فضية ، وأنها أهم تحفة فضية مفردة باقية من أيام السلاجقة (١٩) .

وظل النحت فناً تابعاً لغيره من الفنون ، ومقصوراً على عمل النقوش البارزة ، والحفر على الحجارة أو الجص ، وعلى الزخرفة العربية والكتابية ؛ وقد يحدث أحياناً أن يأمر حاكم مستفهم بعمل تمثال له أو لزوج أو لإحدى مغنياته ، ولكن هذا العمل كان خطيئة سرية قلما تعرض على أعين الجماهير . خير أن النقش على الخشب ترعرع وازدهر ؛ فكانت الأبواب ، والمنابر ، والمحاريب ، وكراسي المصاحف ، والسجف ، والسقف ، والمناضد ، والشبايك المعمّرة ، والأصونة ، والصناديق ، والأمشاط ، كانت هذه كلها تقطع على رسوم شعّرية أو يكده في عملها صنّاع قاعدون القرفصاء بديرون المخارط بأقواس . وكان ثمة عمال آخرون أشد من هؤلاء كدحاً وأكثر منهم صبراً ينسجون الحرير ، والأطلس ، والحرير المشجر ، والأقشة المطرزة ، والخمّل المشغول بخيوط الذهب ، والستائر ، والخيام ،

والطنافس ذات النسيج الرقيق البديع والرسوم الفتانة التي كانت موضع دهشة العالم وحسده . وقد شاهد ماركو بولو في آسية الصغرى حين زارها في عام ١٢٧٠ « أجمل الطنافس في العالم كله » (٢٠) . ويقول جون سنجر سارجنت John Singer Sargent إن السجادة العجمية « تساوى في قيمتها كل ما رسم من الصور حتى ذلك الوقت » (٢١) ؛ مع أن الخبراء المختصين يحكمون بأن السجاجيد العجمية الحالية ليست إلا أمثلة ناقصة من الفن الذي بزت فيه بلاد الفرس العالم كله ؛ ولم يبق من السجاجيد العجمية التي نسجت في عصر السلاجقة إلا قطع ممزقة ، ولكن في وسعنا أن نتصور ما بلغته من إتقان وجمال منقطع النظر مما نسج على منوالها بصورة مصغرة في العصر المغولي .

وكان التصوير في الإسلام من الفنون الكبرى في الرسوم الدقيقة الصغيرة ، كما كان طوال عهده من الفنون الصغرى في الرسم على الجدران ، وفي الرسوم الملونة للكائنات الحية . وقد استخدم الخليفة الفاطمي الأمر (١١٠٤ - ١١٣٠) عدداً من رجال الفن ليرسموا له في حجرته بالقاهرة صور شعراء ذلك الوقت (٢٢) ، ويبدو من ذلك أن تحريم الصور المنقوشة لم يعد له من القوة ما كان له في سالف الأيام . وقد بلغ التصوير في عهد السلاجقة ذروته في بلاد التركستان حيث أضعف بُعد المسافة كراهية أهل السنة لهذا الفن ، ومن أجل هذا نرى في المخطوطات التركية صوراً كثيرة لأبطال الأتراك . ولم تصل إلينا رسوم دقيقة صغيرة يمكن الجزم بأنها من عصر السلاجقة ، ولكن بلوغ هذا الفن أوجه في عصر المغول الذي تلا ذلك العصر في بلاد الإسلام الشرقية لا يكاد يترك مجالاً للشك في ازدهاره في ذلك العصر السابق . فقد كانت العقول الأريية والأيدى الصناعات تخرج مصاحف تزداد جمالا فوق جمالها على مر الأيام لمساجد السلاجقة والأيوبيين والمماليك ، ومحال عبادتهم ، ولكبرائهم ، ومدارسهم ؛ وكانوا ينقشون على جلود المصاحف المصنوعة من الجلد أو المطلية باللك نقوشاً تبلغ في

دقتها بيوت العنكبوت ، وكان الأغنياء ينفقون بعض ما لهم في استئجار الفنانين لإخراج أجمل ما عرف من الكتب ؛ وكانت طائفة كبيرة من الوراقين ، والخطاطين ، والمصورين ، والمجلدين ، تعمل في بعض الأحيان سبعة عشر عاماً كاملاً لإخراج مجلد واحد . ولم يكن بد من أن يكون الورق من أحسن الأنواع ، ويقال إن فرش الرسم كانت تصنع من شعرات بيضاء من رقاب القطط التي لا يزيد عمرها على سنتين ، وكان المداد الأزرق يصنع من مسحوق حجر اللازورد الأزرق ، وكان يساوى وزنه ذهباً ؛ ولم يكن الذهب السائل يعدّ أئمن من أن ترسم به بعض الخطوط أو تكتب به بعض الحروف في رسم أونص . وفي ذلك يقول أحد شعراء الفرس : « إن الخيال لا يمكن أن يتصور مقدار السرور الذي يتيح للعقل منظر خط متمسك الرسم » (٢٣) .

الفصل الرابع

عصر عمر الجيام ١٠٣٨ - ١١٢٢

يبدو أن عدد الشعراء والعلماء في ذلك العصر لم يكن يقل. عن عدد الفنانين . فقد كانت القاهرة ، والإسكندرية ، وبيت المقدس ، وبلبيك ، وحلب ، ودمشق ، والموصل ، وحمص ، وطوس ، ونيسابور ، وكثير غيرها من المدن تفخر بما فيها من مدارس كبرى ؛ وكان في بغداد وحدها سنة ١٠٦٤ ثلاثون مدرسة. من هذا النوع ، أضاف إليها نظام الملك بعد عام من ذلك الوقت مدرسة أخرى تفوقها كلها في سعتها ، وفخامة بنائها ، وأجهزتها ، ويصفها أحد الرحالة بأنها أجمل بناء في المدينة كلها . وكانت هذه المدرسة الأخيرة تحتوى أربع مدارس للشريعة الإسلامية منفصلة كل منها عن الأخرى ، يجد فيها الطلاب التعليم ، والطعام ، والعناية الطبية بالهجان ، ويعطى كل منهم فوق ذلك ديناراً ذهبياً لما يحتاجه من النفقات الأخرى . وكان في المدرسة مستشفى ، وحمام ، ومكتبة مفتحة الأبواب بالهجان للطلبة وهيئة التدريس . ويغلب على الظن أن النساء كان يسمح لهن في بعض الأحوال بالالتحاق بهذه المدارس لأننا نسمع عن وجود شيخة - أى أستاذة - يهرع الطلاب إلى سماع محاضراتها كما كانوا يهرعون إلى سماع محاضرات أسبازيا Aspasia وهيپاشيا Hypatia . (١١٧٨) (٢٤) .

وكانت دور الكتب العامة أغنى وأكثر مما كانت في أى عهد آخر من عهود الإسلام ؛ وقد كان في الأندلس الإسلامية وحدها سبعون مكتبة عامة ؛ وظل النحاة ، وعلماء اللغة ، وأصحاب الموسوعات ، والمؤرخون موفوري العدد والثناء ؛ وكانت كتب السير التى يضم كل منها عدداً من التراجم من الهوايات الشائعة المتبعة عند المسلمين . من ذلك أن القفطى (المتوفى في عام ١٢٤٨) ترجم لأرهمائة .

وأربعة عشر فيلسوفا وعالما ، وأن ابن أنى أصيبعة (١٢٠٣ - ١٢٧٠) ترجم لأربعمائة طبيب ، وأن محمد العوفى (١٢٢٨) ، ألف موسوعة تشمل ترجمة لثلاثمائة من شعراء الفرس لم يذكر فيها اسم عمر الخيام ؛ ويز محمد بن خلكان (١٢١١ - ١٢٨٢) بمفرده هؤلاء جميعاً وغيرهم بكتابه **وفيات الأعيان** الذى يحتوى على تراجم فى صورة قصص لثمانمائة وخمسة وستين من ذوى المكانة من المسلمين . والكتاب على اتساع مجاله عجيب الدقة ، وإن كان ابن خلكان نفسه يعتذر عما فيه من نقص ويختتمه بقوله « أبى الله أن يصح إلا كتابه » (*) وحلل محمد الشهرستانى فى **كتاب الملل والنحل** (١١٢٨) المشهور من أديان العالم وفلسفته ، ونخص تواريفها ؛ ولم يكن فى مقدور أحد من المسيحيين فى ذلك العصر أن يكتب كتابا يماثله فى غزارة مادته ونزاهته .

أما أدب القصة عند المسلمين فلم يتجاوز حكايات كثيرة عن حوادث اللصوص ، متعلّمة لا يربطها بعضها ببعض إلا أنها تروى عن شخصية واحدة . وكان أوسع الكتب انتشاراً عند المسلمين بعد القرآن ، وكتاب ألف ليلة وليلة ؛ وكتاب كلبلة ودمنة ليديبا هو مقامات أبى محمد الحريرى (١٠٥٤ - ١١٢٢) البصرى . وتروى هذه المقامات فى نثر مسجع مغامرات اللوغد السافل أبى زيد صاحب الشخصية الممتعة ، وهو الذى يضطر القارئ إلى العفو عن مجونه ، وجرائمه ، وتحمديفه بسبب فكاهته الظريفة ، وحذقه ودهائه ، وفلسفته الجذابة المغرية : انظر إلى قوله فى إحدى المقامات :

(*) يقول ابن خلكان : « فمن وقف على هذا الكتاب من أهل العلم ورأى فيه شيئاً من الخلل فلا يعمل بالمواخذة فيه ، فإنى توخيت فيه الصحة حسبما ظهر لى ، مع أنه كما يقال ، أبى الله أن يصح إلا كتابه . لكن هذا جهد المقل وبدل الاستطاعة ، وما يكلف الإنسان إلا ما تصل قدرته إليه وفوق كل ذى علم عليم . . . والله يستر عيوبنا بكرمه الضافي ، ولا يكدر علينا ما منحنا من ميثاقه عظاته الخير الصافي إن شاء الله تعالى بمنه وكرمه » . انتهى قول ابن خلكان . تالله ما أجمل هذا التواضع ! (المترجم) .

وعاص النصيح الذي لا يبيع وصال المبيع
إذا ما سمح ولو بالحصال ودع ما يقال
وجل في الخجال وخذ ما صلح(*)

ويكاد كل من يعرف الكتابة والقراءة من المسلمين في ذلك الوقت أن يقرض الشعر ، ولا يكاد يوجد حاكم لا يشجعه ؛ وإذا صدقنا قول ابن خلدون فإن مئات من الشعراء كانوا يقيمون في بلاط المرابطين والموحدين في إفريقية وأسبانيا (٣٦) . وحدث في اجتماع للشعراء المتنافسين في إشبيلية أن نال الأعمى التطيلي (***) جائزة لأنه جمع في بيتين نصف شعر العالم كله إذ قال :

ضاحك عن جمان سافر عن در
ضاق عنه الزمان وحواه صبنرى (٢٧)

وتقول الرواية إن سائر الشعراء مزقوا قصائدهم دون أن يقرعوها ؛ وفي القاهرة ظل بها زهير يغنى عن الحب بعد أن ابيض شعره بزمن طويل . وفي بلاد الشرق الإسلامي كان انقسام الدولة إلى ممالك صغيرة سببا في ازدياد عدد الأمراء والكبراء الذين يناصرون الأداب ، ولدى تنافسهم في هذا الميدان كما حدث في ألمانيا في القرن التاسع عشر . وكان الفرس أغنى الأمم الإسلامية بالشعراء ، فقد ظل الأنورى شاعر خراسان زمناً ما يغنى بقصائده في بلاط سنجر ، ومدحه بما لم يمدح به إلا نفسه . ومن مديحه لنفسه قوله بالفارسية ما معناه :

(*) من المقامة الثانية عشرة الدمشقية . (المترجم)

(**) أبو العباس التطيل . ويروى سافر عن بدر وهذه القافية تتفق مع الترجمة الإنجليزية . وقصته كما يرويها ابن خلدون في تحديده عن الموشحات الأندلسية : « أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس بإشبيلية وكل واحد منهم اصطنع موشحة ، وتأتق فيها فتقدم الأعمى التطيل للإنشاد ، فلما افتتح موشحته المشهورة بالبيتين السابقين صرف ابن بى موشحته وتبعه الباقر » . (المترجم)

لى روح ملتهبة كالنار ، ولسان فياض كالماء ،
وعقل قواه الذكاء وشعر مبرأ من العيوب ،
ولكن ما أشد أسنى إذلا أجد نصيراً خليقاً بمدى
وما أشد أسنى إذلا أجد حبيباً جديراً يغزى ! (٢٨)

ولا يقل عنه ثقة بنفسه معاصره الخاقانى (١١٠٦ - ١١٨٥) ، وقد أثار
بخطرسته معلمه فقال فيه شعراً يطعن فى نسيه يقول فيه بالفارسية ما معناه :
أى خاقانى ! مهما تكن مكانتك فى الشعر فإنى أسئى إليك نصيحة
لا أقتضيك عليها أجراً :

لا تهجون أسن منك فر بما تهجو أباك وأنت لا تدري (*)

وأكثر ما يعرف الأوربيون من الشعر الفارسى هو شعر عمر الخيام ،
وتضعه بلاد فارس بين علماء الأعلام ، ولا ترى فى رباعياته إلا لهواً عارضاً .
كان يلهو به « رجل من أعظم علماء الرياضة فى العصور الوسطى » (٣٠) .
وقد ولد أبو الفتح عمر الخيام ابن إبراهيم فى نيسابور عام ١٠٣٨ ، ومعنى
لقبه صانع الخيام ، ولكن هذا اللقب لا يدل على صناعته أو صناعة
أبيه إبراهيم ، لأن الألقاب المهنية كانت قد فقدت فى أيامه معانيها
الحرفية ، كما فقدت ألقاب الحداد Smith ، والخياط Taylor والخباز
Baker ، والفخرانى Potter ، معانيها عند الإنجليز والأمريكيين (***) فى
الوقت الحاضر . ولا يكاد التاريخ يذكر شيئاً عن حياته ، وإن كان يسجل
أسماء الكثير من مؤلفاته ؛ منها كتابه فى الجبر الذى ترجم إلى الفرنسية
فى عام ١٨٥٧ ، وهو يدل على تقدم كبير عما وصل إليه هذا العلم على أيدى
الحوارزى والعلماء اليونان . فقد وصل فيه إلى حل جزئى لمعادلات الدرجة

(*) ليس هذا البيت من ترجمتنا بل إنه من شعر يهجو فيه بعضهم أباه العلامة صاعداً
الأندلسى وهو ترجمة صادقة لقول أبى العلاء الآخر معلم الخاقانى .
(**) وعندنا أيضاً . (المترجم)

الثالثة قيل إنه «ربما كان أعظم ما وصلت إليه العلوم الرياضية في العصور الوسطى» (٣١) ومنها كتاب آخر في الجبر (وهو كتاب مخطوط في مكتبة ليدن) يعد دراسة نقدية لنظريات إقليدس وتعريفه . وقد كلفه السلطان ملك شاه مع جماعة من العلماء في عام ١٠٧٤ إصلاح التقويم الفارسي ، وكانت نتيجة عملهم تقويماً لا يخطئ إلا في يوم واحد كل ٣٧٧٠ عاماً - أى أنه أدق قليلاً من تقويمنا الحاضر الذي يخطئ بمقدار يوم كل ٣٣٣٠ عاماً (٣٢) . وإنما لترك اختيار أحد التقويمين للحضارة التي تتلو حضارتنا هذه . غير أن الدين الإسلامي كان أعظم سلطاناً على النفوس من العلوم الإسلامية ، ولهذا عجز تقويم الخيام عن أن يحل عند المسلمين محل التقويم الهجري . وبما يدل على ما بلغه ذلك العالم الفلكي من شهرة واسعة تلك القصة التي يرويها عنه نظامي عروضي الذي عرفه في نيسابور :

في شتاء سنة ٥٠٨* في مدينة مرو أرسل السلطان ملكشاه في طلب صدر الدين محمد بن المظفر رحمه الله ، وكلفه أن يجبر الخيام - وكان ينزل ناره - أن السلطان يريد الخروج للصيد ، وأنه يطلب إلى عمر أن يختار له خمسة أيام لا ينزل فيها مطر ولا ثلج . وفعل عمر ما كلف به ثم أرسل ابن المظفر إلى السلطان يخبره بما اختاره . ولما أعد السلطان عدته للرحيل هبط المطر ، وهبت الرياح عواصف ، ونزل الثلج والبرد ، وأراد السلطان أن يعود ، ولكن الخيام قال : لا تشغل بالك فإن المطر سيتقطع في هذه الساعة ثم لا يهطل مدة الخمسة الأيام اللاحقة . وسار السلطان وانقطع المطر مدة الأيام الخمسة (٣٣) .

والرباعيات في أصلها الفارسي قصيدة تتألف كل مقطوعة فيها من أربعة أبيات قابيتها آبا . وتعبّر كل منها عن فكرة كاملة في شعر جامع نحكم . ولسنا

(*) أو ١١١٤ - ١١١٥ م .

نعرف منشأ هذا البحر ، ولكنه يرجع إلى ما قبل زمن عمر الخيام ، وقت طويل . ولم يكن هذا الشعر في الأدب الفارسي جزءاً من القصائد الطوال ولكن كل مقطوعة من مقطوعاته تكون وحدة مستقلة بذاتها ، ومن ثم فإن الفرس الذين جمعوا الرباعيات لا يرتبونها حسب تتابع أفكارها ، بل يرتبونها حسب قوافيها^(٣٤) . وتوجد الآن آلاف من الرباعيات الفارسية ، معظمها لا يعرف قائله ، ومنها ١٢٠٠ تعزى إلى عمر الخيام نفسه ، ولكن كثيراً منها يشك في أنها من قوله . ويرجع تاريخ أقدم مخطوط فارسي لرباعيات الخيام (وهو المخطوط المحفوظ في المكتبة البدلية Bodleian بأكسفورد) إلى عام ١٤٦٠ لا قبل . ويحتوي على ١٥٨ من هذه الرباعيات مرتبة ترتيباً أبجدياً^(٣٥) . وقد أمكن إثبات بعض هذه المقطوعات إلى شعراء قبل الخيام - بعضها إلى أبي سعيد ، وواحدة منها إلى ابن سينا^(٣٧) . وإن من الصعب ، إلا في حالات ، أن نجزم بأن مقطوعة من المقطوعات التي تعزى إلى الخيام من أقواله حقاً^(٣٨) .

ولقد كان المستشرق الألماني ثون هر Von Hammar أول من لفت نظر العالم الغربي إلى رباعيات الخيام في عام ١٨١٨ ، ثم ترجم إداورد فيتزجرلد Edward Fitzgerald في عام ١٨٥٩ خمساً وسبعين منها شعراً إنجليزيا رصيناً ممتازاً ، فريداً في نوعه . ومع أن ثمن النسخة من الطبعة الأولى من هذه الترجمة لم يكن يزيد على بنس واحد فإنها لم يقبل عليها إلا عدد قليل ، لكن طبعات أخرى متتالية أكبر من الأولى عدداً صدرت بعدئذ ، وأفلحت في تعديل الصورة التي كانت في عقول الناس عن العالم الرياضي الفارسي حتى جعلته من أكثر الشعراء شهرة ، وجعلت شعره من أكثر ما يقرأ من الشعر في العالم . ويرى العارفون بالأصل الذي ترجمه فيتزجرلد أن من بين المائة والعشر من المقطوعات التي ترجمها تسعة وأربعين تعبر كل منها عن رباعية واحدة من الأصل الفارسي تعبيراً صادقاً أميناً ، وأن أربعاً وأربعين مأخوذة كل منها من رباعيتين أو أكثر

وأن اثنتين « تنعكس فيهما روح القصيدة الأصلية بأجمعها » ، وأن ستاً مأخوذة من رباعيات توجد أصولها أحياناً ضمن رباعيات الخيام ، ولكنها في أغلب الظن ليست له ، وأن اثنتين ينطبع عليهما تأثير فنزجرلد بما قرأه لحافظ ، وأن ثلاثة لا نجد لها أصلاً في أى نص فيما لدينا من نصوص رباعيات الخيام ، ويبدو أنها من وضع فنزجرلد نفسه ، وقد استبعدنا هـ في الطبعة الثانية (٣٩) .
ولسنا نجد في رباعيات الخيام ما يقابل المقطوعة الحادية والثمانين من ترجمة فنزجرلد (٤٠) وهى التى تقول :

إننى أدعوك يا من أنجما من خبيث الترب إنساناً نما
وبفردوس أدب الأرقما كيفما زل امرؤ أو أجرما
فاحبه وأسأله غفران الأنام (*)

أما فيما عدا هذه المقطوعة فإن الموازنة بين ترجمة فنزجرلد وبين الترجمة الحرفية للنص الفارسي تتجلى فيها على الدوام روح عمر . وهى أمينة على الأصل إلى الحد الذى يحق للإنسان أن يتوقعه من هذه الترجمة الشعرية . وقد كانت نزعة فنزجرلد الدروينية السائدة فى أيامه مما حمله على إغفال فكاهة الخيام الحلوة ، وعلى توكيد ما فى أقواله من نزعة مضادة للدين . ولكن المؤلفين الفرس الذين جاءوا بعد عمر الخيام يقرن واحد لا أكثر يخلعون عليه من الأوصاف ما يتفق كل الاتفاق مع أقوال فنزجرلد ، فرصد العباد (١٢٢٣) يصفه بأنه فيلسوف ملحد ، مادمى تعس . ويقول عنه القفطى فى تاريخ الحكماء (١٢٤٠) إنه لا نظير له فى الفلك والفلسفة ، ولكنه يصفه بأنه ملحد شديد الإلحاد ، يضطره الخنزير إلى أن يمسك لسانه ، ويصفه أحد كتاب القرن الثالث عشر الميلادى بأنه رجل سبى الخلق من أتباع ابن سينا ، ويذكر كتابين للخيام فى الفلسفة لا وجود لهما الآن . ويفسر بعض المتصوفة رباعيات عمر تفسيراً مبنياً على الاستعارات الصوفية

(*) من ترجمة المرجوم محمد السباى .

الخفية ، ولكن الصوفي نجم الدين الرازي يطعن عليه ويقول إنه أكبر الملحدين في أيامه (٤١) .

وكا عمر الخيام يرفض أقوال فقهاء الدين ويسخر منها على الدوام ، ويفخر بأنه سرق أبسطة الصلاة من المساجد ، ولعله قد تأثر في هذه النزعة بدراسته للعلوم الطبيعية ، أو لعله كان فيها متأثراً بأقوال أبي العلاء المعري (٤٢) .
وقد قبل النزعة الجبرية السائدة عند المسلمين ؛ وإذ كان لا يأمل في حياة غير الحياة الدنيا ، فقد استولت عليه فلسفة متشائمة حاول أن يجد لنفسه منها سلوى في الدرس والخمر ؛ فترى المقطوعتين السابعة بعد المائة والتي بعدها من المخطوط المحفوظ في المكتبة البديلية تسموان بالسكر إلى مرتبة الفلسفة العالمية :

وحانة كنستها بشاربي	وعالمين وليا عن غاربي
ما عادلى بالشر إما حاق بي	شأن ولا خيرهما إن ضاق بي
ودعها يا قلب عند ضارب	بأكرة يرسلها لضارب
تجد أخاك نائماً كشارب	سكران من هدى وتلك غائب

أشفقت إلا من كئوس الطلى لله ما أحلى وما أجلا
أن تشرب العقل فلا يعقلا وأن يجوب المرء هذا الفلا
واعقله من كل شيء سلا بين سماك نافر وهلا (*)
(يريد من برج الحوت إلى الهلال أى من أحد طرفي السماء إلى الطرف الآخر) وإذا عرفنا كم من شعراء الفرس يقولون في مدح الغيبوبة أقوالاً شبيهة بهذا القول ، حق لنا أن نتساءل أليست هذه الأقوال الخميرية مجرد صورة من صور الأدب ، ووقفه من مواقفه مثلها كمثل عشق هوراس للجنسين ؟

(*) لم نجد هاتين المقطوعتين فيما هو مترجم من ديوانيات الخيام ، وقد تفضل صديقنا الأستاذ دويى خشبة مشكوراً فترجمهما شعراً . (المترجم)

وأكبر الظن أن هذه الرباعيات القليلة تطبع في عقل القارئ صورة
خاطئة لحياة الخيام ؛ وما من شك في أنها لم يكن لها إلا شأن قليل في
الخمسة والثمانين عاما التي امتدت إليها حياته . ومن واجبنا أن نصوره ،
لا في صورة السكير الذي يستلقي مغمورا في الطرقات ، بل في صورة العالم
المسن العاكف في هدوء على معادلاته التكميلية ، وعلى طائفة قليلة من
أبراج النجوم والخرائط الفلكية ، وعلى كأس من الخمر بين الفينة والفينة
مع زملائه العلماء ، وهم منتشرون على الكلا كالنجوم . ويبدو أنه كان
يحب الأزهار كحب المحصورين في أرض جدداء ، وإذا أخذنا بقول
النظامي العروضي فإنه قد نال بغيته في أن يدفن حيث يتفتح الزهر النضير .
قال النظامي :

هبط عمر الخيام سنة ٥٠٦ هـ (١١١٢ - ١١٣ م) مدينة بلخ ونزل في
قصر الأمير أبي سعد ، وكنت في خدمة الأمير فسمعت حجة الحق عمر
يقول : سيكون قبري في موضع تنثر الأزهار عليه في كل ربيع . وظننته
يقول مستحيلا ولكنني كنت أعلم أنه لا يلقى القول جزافا .

ثم هبطت نيسابور سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) فقيل لي بأن ذلك الرجل
العظيم قد مات ، وكان له على حق الأستاذ فرأيت من واجبي أن أزور قبره
وصحبت من يدلني عليه فأخرجني إلى مقبرة الخيرة ، وهناك رأيت على يسار
الزائر في سفح سور حديقة موضع دفنه ، ورأيت أشجار الكثرى والبرقوق
وقد تدلت أغصانها من داخل الحديقة ونثرت على قبره النوار حتى كادت
تخفيه عن الأبصار ؛ فعدت بالذاكرة إلى تلك القصة التي سمعتها منه في
بلخ ، وغشيني الحزن ، وغلبني البكاء لأنني لم أكن أعرف له نداء بين
للرجال ، وفهمت أن الله تعالى أسكنه فسيح جناته فضلا منه وكرما .

الفصل الخامس

عصر السعدي (*) ١١٥٠ - ١٢٩١

ولد بعد خمس سنين من وفاة عمر الخيام شاعر يجله الفرس أعظم من إجلالهم لعمر ، وكان مولده في المدينة المعروفة الآن بشيرز آباد بالقرب من تفليس . وكان الأقدار قد شاءت أن تتخذ من إلياس أبي محمد الذي عرف بعدئذ باسم نظامي وسيلة لإظهار نزعة الخيام الأخلاقية في أشبع صورها فجعلته يستمسك في حياته بأسباب الصلاح الحق ، فيمتنع كل الامتناع عن شرب الخمر ، ويهب حياته لواجبات الأبوة وللشعر . وقصته ليلي والمجنون (١١٨٨) أشهر القصص (***) الغرامية في الشعر الفارسي . وخلصتها أن قيس المجنون افتتن بليلى ، ولكن أباهما أرغمها على أن تزوج برجل غيره ، فأثرت تلك الخيبة في قيس وأفقده عقله ، فاعتزل المدينة إلى البادية ، ولم يكن يعود إلى صوابه لحظة وجيزة إلا إذا ذكر اسم ليلي أمامه . ولما ترملت ليلي جاءت إليه ولكنها توفيت بعد قليل ، ولم يسع قيس إلا أن يقتل نفسه عند قبرها كما قتل رميو نفسه عند قبر جولبيت . وليس في مقدور أية ترجمة أن تظهر ما يمتاز به الأصل الفارسي من قوة في التعبير وجمال في النغم .

لقد كان الصوفيون أنفسهم يتغنون بالحب ، ولكنهم يؤكدون لنا أشد التأكيد أن العاطفة التي يعبرون عنها ليست إلا رمزا لحبة الله . وقد ولد محمد بن إبراهيم المعروف في عالم الأدب باسم فريد الدين العطار بالقرب من نيسابور (١١١٩) ، ولقب بالعطار لأنه كان يبيع العطر . ولما اشتدت لديه العاطفة الدينية

(*) يعرف باسم سعدي الشيرازي . (المترجم)

(**) نظم المرحوم أحد شوق هذه الرواية شعراً .

غادر حانوته والتحق بخلوة للصوفية . وتشتمل كتبه الأربعون على مائتي ألف بيت من الشعر أشهرها كلها منظر الطير . وخلاصته أن ثلاثين طائراً (أى صوفياً) يعززون البحث مجتمعين عن ملك الطيور كلها المسمى سيمرغ (الحق) . ويمتازون ستة وديان : الطلب ، والعشق ، والمعرفة ، والتجرد (عن جميع الشهوات) ، والتوحيد (حيث يدركون أن الأشياء جميعها واحدة) ، والحيرة (من فقدان الإحساس بالوجود الفردي) .
ويتصل ثلاثة من الطيور الولدى السابع وادى الفناء (فناء النفس) ، ويطرقون باب الملك الخفي . ويعرض الحاجب على كل منهم سجل أعماله ، فيغلبهم الحياء ، ويستحيلون تراباً ؛ ولكنهم يبعثون من هذا التراب في صورة ضياء ، ويدركون بعدئذ أنهم هم وسيمورغ (وهو لفظ معناه ثلاثون طيراً) شيء واحد . ويفنون من هذا الوقت في سيمرغ كما تفنى الظلال في ضوء الشمس . ويعبر العطار في كتبه الأخرى عن عقيدته في وحدة الوجود تعبيراً أكثر من هذا صراحة : فيقول إن العقل لا يستطيع معرفة الله لأنه لا يستطيع معرفة نفسه ، ولكن الهيام والوجد يستطيعان الوصول إلى الله ، لأنه هو الحقيقة الجوهرية والقوة الكامنة في كل شيء والمصدر الوحيد لكل عمل وكل حركة ، وهو روح العالم وحياته . وليس في مقدور أية نفس أن تستمتع بالسعادة حتى تفنى وتصبح جزءاً من هذه الروح الجامعة ، والشوق إلى هذا الاتحاد هو وحدة الدين الحق ، وإفناء النفس فيه هو وحدة الخلود الصحيح^(٥٤) . ويرفض أهل السنة هذا كله ويعلمونه بدعة وضلالاً ؛ وقد هاجم جماعة من الغوغاء بيت العطار وأحرقوه عن آخره ، ولكنه مع هذا لم يقض عليه القضاء كله ، إذ تقول الرواية المتواترة إنه عاش مائة عام وعشرة أعوام ، وإنه بارك بيده الطفل الذي نادى به فيما بعد معلماً له ، والذي فاقت شهرته شهرة معلمه .

كان جلال الدين الرومي (١٢٠١ - ١٢٧٣) من أهل بلخ ، ولكنه عاش معظم حياته في قونية . وجاء إلى هذه المدينة صوفياً عجباً هو شمس تبريزي

ليخطب في أهلها ، وبلغ من تأثر جلال الدين بخطبه أن عمد إلى تأسيس طائفة المولوية الذين لا يزالون يتخذون قونية عاصمة لهم ، وأنشأ جلال الدين في حياته القصيرة نسبياً بضع مئات من القصائد . وقد جُمعت القصار منها في ديوانه ؛ وتمتاز بعمق الشعور ، والإخلاص وقوة الخيال وإن لم تخرجها هذه القوة عن مقتضيات الطبيعة ، وهذه الصفات كلها أصبحت تلك القصائد أسمى ما قيل من الشعر الديني من عهد الزمير . وكتابه المثنوى المأنوى غرض ضاف للتصوف ، وهو ملحمة دينية تفوق في حجمها كل ما خلفه هوميروس ؛ وفيها فقرات بارعة الجمال ، ولكن الجمال إذا أثقل بعبء الألفاظ لا يبقى متعة إلى أبد الدهر : وموضوعه ، كموضوع كتاب معلمه ، هو وحدة الكون :

دق إنسان باب الحبيب ، فناداه صوت من الداخل :

مَنْ الطارق ؟ فأجابه « أنا » : فناداه الصوت : « إن هذه الدار لا تتسع لي ولك » ، وظل الباب مغلقاً . فسار المحب إلى الصحراء ، وداوم في عزله على الصوم والصلاة ، ثم عاد بعد عام ودق الباب مرة أخرى ، وسأله الصوت كما سأله من قبل : « مَنْ الطارق ؟ » فأجاب المحب : « إنه أنت نفسك » ، ففتح له الباب^(٤٦) .

* * *

ونظرت حولي أبحث عنه ، فلم أجده على الصليب ، وذهبت إلى هيكل الأوثان ، وإلى المعبد القديم ، فلم أشاهد فيهما أثراً . . . ثم وجهت بحث نحو الكعبة ، ولكنني لم أجده في هذا المكان الذي يلجأ إليه الشيان والشيب ، وسألت ابن سينا عن مقامه ، ولكن ابن سينا لم يحط به . ثم تفقدت قلبي ، وفيه وجدته ، ولم يوجد في مكان سواه^(٤٧) .

إن كل صورة تراها لها أصل مثلها في العالم اللامكاني ، فإذا انعدمت الصورة

فليس ذلك بنى خطر لأن أصلها باق مخلد . وما من شكل جميل رأيت ، او قول حكيم سمعته - فلا يجزئك أنه قد فنى لأنه فى واقع الأمر لم يفن ... فما دام النبع فياضاً فإن الأنهار تجرى منه . فاطرد الغم من قلبك ، وعب من هذا النهر ، ولا تظن أن الماء سيفرغ فعينه لا ينضب .

ولقد وضع أمامك من ساعة مجيئك إلى عالم الخلق سلم لنفر عليه منه . ولقد كنت فى أول الأمر جمادا ، ثم استحلقت بعدئذ نباتا ؛ ثم صرت حيواناً ، فكيف يخفى عليك هذا ؟ ثم جعلت بعدئذ إنساناً ذا علم ، وعقل ، ودين ... فإذا ما واصلت رحلتك بعد الآن ، أصبحت بلا ريب ملاكاً .

وانتقل مرة أخرى من طبقة الملائكة ؛ وادخل ذلك البحر الخضم حتى تصبح تقطنتك بمرآ . . . دع عنك هذا « الابن » وقل : « الواحد » على الدوام بكل قلبك (٤٨) .

ونذكر أخيراً السعدى ، ولا حاجة إلى القول بأن اسمه الحقيقى أطول من هذا - فهو مشرف الدين بن مصلح الدين عبد الله . وكان أبوه يشغل منصباً فى بلاط سعد بن زنجى أتابك شيراز ، ولما مات أبوه تبنى الأتابك الغلام الذى جرى على سنة المسلمين فأضاف اسم وليه إلى اسمه . ويختلف العلماء فى تاريخ مولده ووفاته ، فمنهم من يقول إنهما ١١٨٤ ، ١٢٨٣ (٤٩) ، ومنهم من يقول إنهما ١١٨٤ ، ١٢٩١ (٥٠) ، ومنهم من يحدد هما بعامى ١١٩٣ ، ١٢٩١ (٥١) . ومهما يكن هذان التاريخان فإنه عاش ما يقرب من مائة عام . ويقول هونفسه إنه كان فى صباه متمسكاً أشد التمسك بأهداب الدين . . . تقياً إلى أبعد حدود التقوى ، عفيفاً أشد العفة (٥٢) . وبعد أن أتم علومه فى المدرسة النظامية ببغداد (١٢٢٦) . بدأ رحلته العجيبة التى قضى فيها ثلاثين عاماً طاف فيها بجميع بلاد الشرقيين الأدنى والأوسط - الهند ، وبلاد الحبشة ، ومصر ، وشمالى إفريقيا . وقاسى فيها كل أنواع الصعاب ، وذاق مرارة الفقر والحرمان ، وقد قال عن نفسه

لأنه كان يشكو الحفاء حتى التقى برجل مقطوع القدمين فشكر الله على ما أنعم به عليه^(٥٣) . وكشف وهو في الهند عن جهاز في صنم قيل عنه إنه يأتي بالمعجزات ، وقتل الدعي البرهمي المختفي فيه والذي كان هو إله ذلك الجهاز ، وهو يوصى في شعره المتأخر المرح بأن تتبع هذه الطريقة العاجلة مع جميع الدجالين :

« فإذا اتفق لك أنت أيضاً أن كشفت عن مثل هذه الحيلة ، فاقض من فورك على الختال ، ولا قدعه يغلت منك ، بل عجل به ! لأنك إذا أقيمت على حياة هذا الوغد ، فلا تشك قط في أنه لن يرحمك . . . ومن أجل ذلك قضيت على هذا الخبيث رجماً بالحجارة ، ولم ألتفت إلى نحيبه وعويله ، لأن الموتى كما تعلم لا ينطقون^(٥٤) . »

وحارب الصليبيين وأسره « الكفار » ، ثم افتدى ، فزوج ابنة من افتداه ليبر بذلك عن شكره لأبيها ، ولكنه تبين بعدئذ أنها سليطة لا تطاق ، وكتب عنها يقول « إن غدائر ذوات الجمال قيد في قديمي صاحب العقل »^(٥٥) . ثم طلقها ولكنه التقى بغيرها من ذوات الغدائر ، وسلك نفسه في سلسلة أخرى ، وللمات زوجته الثانية ، آوى إلى صومعة في حديقة - بشيراز وأقام فيها طوال الأعوام الخمسين الباقية من حياته .

وعرف معنى الحياة فشرع يكتب ، ويقول المؤرخون إنه ألف كتبه الكبرى بعد أن اعتزل العالم ؛ ومن هذه الكتب البيرونا وهو كتاب في الحكمة ، وديوانه وهو مجموعة من القصائد القصار ، معظمهما باللغة الفارسية وبعضها بالعربية ؛ بعضها يفيض بالتقى ، وبعضها بالفحش ؛ ويشرح السعدي في كتابه البستان فلسفته العامة بالشعر التعليمي الفلسفي ، تتخلله في بعض الأحيان مقطوعات من الغزل الرقيق .

لم أعرف في حياتي أحلى من هذه اللحظات . وقلت لحبيبي لما أن ضممتها إلى

صدرى في تلك الليلة. ونظرت إلى عينيها بكاد يغلبهما التعاس : « أى حبيبتى يا غصن بان لقد آن أوان النوم . غن يا بلبلى ! وافتحى فاك كما تفتح الوردة . اطردى النوم ، يا ملهبة قلبى ، ولتقدم لى شفتاك رحيق حبك » . ونظرت إلى حبيبتى وهمست بصوت خافت : « أملهبة قلبك ؟ ومع هذا توقظنى من نومي ؟ » .

... وظلت حبيبتك طوال هذا الوقت تكرر قولها إنها لم تحب قط سواك وكنت أنت تبتمس لأنك تعرف أنها كاذبة ، ولكن ماذا يهيك من هذا ؟ فهل شفتاها من أجله أقل حرارة وهما تحت شفتيك ؟ وهل كتبها أقل نعومة وأنت تداعبها بيديك ؟ . . . يقولون إن نسيم الربيع حلو جميل شبيه بشذى الورد وتغريد العندليب ، والمرج الأخضر ، والسماء الزرقاء . ويحك يا جاهل ! إن هذه كلها لا تحلو إلا إذا كانت معها حبيبتك (٥٦) .

والجستانه وهديفة الورد (١٢٥٨) مجموعة من القصص التعليمية تتخللها قصائد من الشعر المطرب الجميل :

سألك ملك ظالم أحد الأولياء الصالحين : « أى شيء أفضل من الصلاة ؟ فأجابته الولي بقوله : « أفضل منها لك أن تظل نائماً إلى منتصف النهار . فلا تؤذى أحداً من خلق الله حتى ذلك الوقت » (٥٧) .

يستطيع فقيران أن يناما على بساط واحد : ولكن ملكين لا تبسح لها مملكة بأكلها (٥٨)

إذا كنت تسعى إلى الغنى فلا تطلب الهدوء (٥٩) .

إن رجل الدين الذى يغضب إذا ناله أذى لا يزال كالبحرول الضحل (٦٠) .
لم يعترف قط لإنسان بجهله إلا من كان فى مجلس وأخذ غيره يتحدث ، وقبل أن يتم حديثه يبدأ هو بالسؤال (٦١)

لو كان فيك هضيلة واحدة وسبعون رذيلة لما رأى من يحبك غير هضيلتك الوحيدة (٦٢) .

لا تعجل . . . وتعلم الأناة . فإن الجواد العربي يعدو أشواطاً قليلة بأقصى سرعته ثم تخور قواه ؛ أما الحمل فيمشى على مهل ولكنه يسافر بالليل وبالنهار حتى يصل إلى آخر سفره (٦٣) .

حصل العلم لأن المال والثراء لا يعتمد عليهما . . . فإذا فقد صاحب المهنة ماله فليس له أن يندم على فقدته لأن علمه في حد ذاته معن للثراء لا ينضب (٦٤) إن قسوة المعلم أعظم نفعاً من لين الأب (٦٥) لو محيت العقول من وجه الأرض لما وجد من يقول « أنا جاهل » (*) (٦٦) إن خفة البندقة لدليل على أنها فارغة (٦٧) .

وكان السعدى فيلسوفاً ، ولكنه أضاع سمعته الفلسفية لأنه كان يكتب في وضوح ؛ وكانت فلسفته أصبح وأسلم من فلسفة عمر الخيام ؛ فهى تفهم ما فى الإيمان من سلوى ، وتعرف كيف تداوى جراح المعرفة بما فى الحياة الحثونة من نعمة . ولقد قاسى السعدى كل ما فى ملهاة الحياة البشرية من مأس ، ولكن أجله مع ذلك طال حتى بلغ مائة عام . ولقد كان السعدى شاعراً كما كان فيلسوفاً : كان مرهف الحس بكل أنواع الجمال الظاهر والمكتون ، الحسى منه والمعنوى ، من جسم المرأة الجميلة إلى النجم الذى يستأثر لحظة بالسماء وقت المساء ؛ وكان فى وسعه أن يعبر عن الحكمة والتفاهة بإيجاز ، ورقة ، وظرف . ولم يكن يعجز فى أية لحظة عن الإتيان بتشبيه نير جميل ، أو عبارة بليغة فاتنة . ومن أقواله ما أشبه تعليم السفلة بقذف القبة بالجوهر (٦٨) « إني كنت وصديق كحبتين فى قشرة لوزة » (٦٩) ، « لو أن قرص الشمس كان فى جُبة » هذا التاجر البخيل « لما رأى إنسان

(*) قارن هذا بالسطور الأولى من كتاب ديكارت المسمى « أحاديث عن الطريقة Discourses on Method » حيث يقول : « إن الإدراك السليم هو أكثر الأشياء كلها توتريماً بالقسطاس المستقيم بين الناس ، ذلك بأنه ما من أحد إلا يظن نفسه ذا حظ موفور منه ، وحتى الذين يصعب علينا أن نرضيهم بمظهرهم فى غيره من الأمور لا يرغبون عادة فى أكثر مما لديهم منه » .

ضوء النهار إلى يوم القيامة» (٧٠) . وقد ظل السعدى شاعراً إلى آخر يوم من حياته رغم ما كان ينطق به من حكمة . وكان يسلم حكمته راضياً معتبلاً إلى عبودية الحب :

لقد قدر على ألا أضم حبيبتى إلى صدرى
وألا أنسى بعدى الطويل في قبلة أطبعها على شفيتها الحلوتين
وسأختلس منها ذلك الشراك الذى تقتنص به ضحاياها في طول البلاد
وعرضها حتى أستطيع أن أغريها بالهوى إلى جانبي
ولكننى لن أجسر على أن أمس شعرها بيد مسرقة في الجراة
فكم في هذا الشعر من قلوب للمحبين حبيسة احتباس الطيور في الأقفاس
أنا عبد لهذا القند المياس الذى يبدو في نظرى كأنما قد فصلت عليه الرشاقة
تفضيلاً كما يفصل الخياط الثوب

يا شجرة السرو يا أطرافاً من اللجين ، إن لونك ورائحتك قد فاقت رائحة
الآس ونضرة الورد البرى

احكى بناظريك وضعى قدمك فوق كل حر وبميل

وامشى فوق الياسمين والأزهار

ولا تعجبى إذا أيقظت في زمن الربيع من الحسد ما يجعل السحب تبكى

بينما الأزهار الصغيرة تبسم ، وكل هذا يا حبيبتى من أجلك

وإذا ما وطئت جسم ميت بقدميك الجميلتين الخفيفتين ، فلا عجب إذا

سمعت صوتاً يخرج من طيات أكفانه

لم يبق مكان للحيرة في بلدنا هذا أيام حكم مولانا المليك

سوى أنى 'جنتت بمحك وجن الناس بفنائى في حبك' (٧١) ؛

الفصل السادس

علوم المسلمين

١٠٥٧ - ١٢٥٨

قسم العلماء المسلمون الشعوب في العصور الوسطى طبقتين - طبقة الذين يعلمون وطبقة الذين لا يعلمون ؛ ووضعوا في الطبقة الأولى الهنود ، والفرس ، والبابليين ، واليهود ، واليونان ، والمصريين ، والعرب ، أولئك في اعتقادهم هم الصفوة المختارة من عباد الله في العالم ؛ أما الطبقة الثانية - وخير من تشملهم الصينيون والأتراك - ، فهي أشبه بالحيوان منها بالإنسان (٧٢) . وأكبر خطأ في هذا التقسيم هو وضع الصينيين في الطبقة الثانية .

وحافظ المسلمون في العصر الذي نتحدث عنه على تفوقهم غير المنازع في العلوم ، وكان أعظم ما بلغوه من التقدم في علم الرياضيات في مراکش وأذربيجان ، ففيها نشاهد مرة أخرى ما بلغته الحضارة الإسلامية من رقي عظيم ؛ ففي مدينة مراکش نشر حسن المراكشي في عام ١٢٢٩ جداول تشتمل على جيوب الزوايا لكل درجة من الدرجات ؛ وجداول يجيب التمام ، وجيوب الأقواس ، ومماسات الأقواس والأقواس المتماسة . وبعد جيل من ذلك الوقت أصدر ناصر الدين الطوسي أول رسالة بحث فيها حساب المثلثات بوصفه علماً مستقلاً بذاته لا بوصفه فرعاً من فروع علم الهيئة . وقد بقي كتابه المسمى شكل القطاع لا ينافسه منافس في هذا الميدان حتى نشر رجيومنتانوس Regiomontanus كتابه المثلثات De Triangulis بعد مائتي عام من ذلك الوقت ، وربما كان حساب المثلثات الذي ظهر عند الصينيين في النصف الثاني من القرن الثالث عشر عربي النشأة (٧٣) .

وأشهر ما ظهر من الكتب في العلوم الطبيعية في ذلك العهد هو كتاب ميرزا المحسنة الذي ألفه في عام ١١٢٢ مولى يونانى من آسية الصغرى يدعى أبا الفتح . وفي هذا الكتاب تاريخ لعلم الطبيعة ، وقوانين الروافع ، وجداول بالكثافة النوعية لكثير من المواد السائلة والأجسام الضلبيية ، وفيه عرض لنظرية الجاذبية بوصفها قوة عامة تجتذب كل شيء نحو مركز الأرض (٧٤) . وقد أدخل المسلمون كثيراً من التحسينات على السواقي التي كانت معروفة عند اليونان والرومان ، وشاهد الصليبيون هذه السواقي ترفع الماء من نهر العاصي فأدخلوها في ألمانيا (٧٥) . وعلا شأن الكيميائيين ، وكانوا يعرفون كما يقول عبد اللطيف ثلثمائة طريقة لتضليل الناس (٧٦) ، ويقال إن أحد هؤلاء الكيميائيين حصل من نور الدين على قرض كبير ينفقه في البحوث العلمية ثم اختفى عن الأنظار ، وبعدئذ نشر أحد الظرفاء ثبناً بأسماء المغفلين وعلى رأسهم نور الدين نفسه ، ووعد أن يضع اسم الكيميائي إذا رجع مكان اسم نور الدين ، ويبدو أن هذا المؤلف الظريف لم يمسه أذى (٧٧) .

وفي عام ١٠٨١ صنع إبراهيم السهلي أحد علماء بلنسية أقدم كرة سماوية معروفة في التاريخ . وقد صنعت هذه الكرة من النحاس الأصفر وكان طول قطرها ٢٠٩ مليمتر (٨١ر٥ بوصة) ، وحفر على سطحها ١٥٠١٥ نجماً مقسمة إلى سبع وأربعين كوكبة ، وتبدو النجوم فيها حسب أقدارها (٧٨) . وكانت خرلدة أشييلة منارة ومرصداً في وقت واحد ، وفيها قام جابر بأرصاده التي نشرها في كتابه إصمروح الجسطي (١٢٤٠) . كذلك ظهرت نفس هذه الثورة على نظريات بطليموس الفلكية في مؤلفات أبي إسحق البطرورجي القرطبي (المعروف عند علماء الغرب باسم الپتراجيوس Alpetragius) والذي مهد السبيل لكوبرنيك بنقده الهدام لنظرية أفلاك التدوير والنواثر المختلفة المراكز وهي التي حاول بها بطليموس أن يفسر حركات النجوم ومساراتها .

وأوجب هذا العصر عالين في تقويم البلدان طبقت شهرتهما العالم كله في العصور الوسطى ، ونعني بهما الإدريسي وياقوت . فأما أبو عبد الله محمد الإدريسي فقد ولد في سبته عام ١١٠٠ وتلقى العلم في قرطبة ، وكتب في بلرم إجابة لطلب روجر الثاني ملك صقلية ، كتابه المسمى كتاب روجارى . وقد قسم فيه الأرض سبعة أقاليم مناخية ثم قسم كل إقليم إلى عشرة أجزاء ، ورسم لكل جزء من الأجزاء السبعين خريطة تفصيلية إيضاحية ، وكانت هذه الخرائط أعظم ما أنتجه علم رسم الخرائط في العصور الوسطى ، ولم ترسم قبلها خرائط أتم منها ، أو أدق ، أو أوسع وأعظم تفصيلاً . وكان الإدريسي يجزم كما تجزم الكثرة للغالبية من العلماء المسلمين بكونية الأرض ، ويرى أن هذه حقيقة مسلم بصحتها . ويقاسمه هذا الشرف العظيم شرف حمل لواء علماء الجغرافية في العصور الوسطى أبو عبد الله ياقوت (١١٧٩ - ١٢٢٩) . وكان ياقوت بمولده يونانياً من سكان آسية الصغرى ، وأسرى الحرب وبيع في سوق الرقيق ، ولكن التاجر البغدادي الذي ابتاعه أحسن تربيته وتعليمه ، ثم أعتقه . وكان ياقوت كثير الأسفار ، سافر أولاً للتجارة ، ثم سافر للدراسة الأرض وأهلها ، لأنه أعجب أشد الإعجاب ببلادها ، وسكانها المختلفي الأجناس ، ولباسهم وأساليب حياتهم . وقد سره وأثلج صدره أن يجد عشر مكاتب عامة في مرو تحتوى إحداها على ١٢٠٠٠ مجلد ، وفطن أمين هذه المكتبة لشأن الزائر فسمح له أن يأخذ منها مائتي كتاب إلى حجرتة دفعة واحدة . وما من شك في أن الذين يحبون الكتب ويرون أنها دم الحياة يجري في عروق عظماء الرجال يدركون ما شعر به ياقوت من بهجة حين حصل على هذا الكنز العظيم من كتوز العقل . ثم انتقل ياقوت بعدئذ إلى خبوة وبلخ ، وهناك أوشك المغول أن يقبضوا عليه أثناء زحفهم المخرب الفتاك ، ولكنه استطاع الفرار عارياً من الثياب ، وهو محتفظ بمخطوطاته ، واجتاز بلاد الفرس إلى الموصل . وأتم وهو يعاني آلام الفاقة وشظف العيش أثناء عمله في نسخ الكتب كتابه الشهير معجم البلدان (١٢٢٨)

— وهو موسوعة جغرافية ضخمة جمع فيها كل المعلومات الجغرافية المعروفة في العصور الوسطى . ولم يكد يترك شيئاً من هذه المعلومات إلا أدخله في هذه الموسوعة — من فلك ، وطبيعة ، وعلوم الآثار ، والجغرافية البشرية ، والتاريخ ؛ هذا إلى ما أثبتته فيها من أبعاد المدن بعضها عن بعض ، وأهميتها وحياة مشهورى أهلها وأعمالهم ، ولسنا نعلم أن أحداً أحب الأرض كما أحبها هذا العالم العظيم .

وبعث علم النبات بعثاً جديداً على أيدي المسلمين في ذلك العصر وقد كاد ينسى بعد ثاويراسطوس ؛ فقد وضع الإدريسي كتاباً في النباتات وصف فيه ثلثمائة وستين نوعاً مختلفاً منها ، ولم يقصر اهتمامه بها على الناحية الطبية ، بل عنى أيضاً بالناحية العلمية النباتية . وذاعت شهرة أبي العباس الإشبيلي (١٢١٦) لدراسته حياة أنواع النبات المختلفة التي تنمو بين المحيط الأطلنطي والبحر الأحمر . وجمع أبو محمد بن البيطار الماتى (١١٩٠—١٢٤٨) كل ما عرفه المسلمون في علم النبات في موسوعة عظيمة غزيرة المادة ظلت هي المرجع المعترف به في هذا العلم حتى القرن السادس عشر ، ورفعته إلى مقام أعظم علماء النبات والصيدالة في العصور الوسطى (٧٩) . ومن أهم ما ظهر من الكتب في العلوم الزراعية كتاب الفلاحة الذي وصف فيه مؤلفه ابن الأوان الإشبيلي أنواع التربة والسماد ، وطريقة زرع ٥٨٥ نوعاً من أنواع النبات ، وخمسين نوعاً من أشجار الفاكهة ، وشرح طرق التطعيم ، وبحث أعراض أمراض النبات وطرق علاجها . وكان كتابه هذا أكمل البحوث في علم الفلاحة في العصور الوسطى جميعها (٨٠) .

وأعجب المسلمون في هذا العصر ، كما أعجبوا في غيره من العصور أعظم الأطباء في آسية ، وإفريقية ، وأوربا . وكان أهم ما نبغوا فيه علم الرملة ، ولعل سبب هذا النبوغ أنه كان واسع الانتشار في بلاد الشرق الأدنى ، ففي هذه البلاد كان الناس يبدلون أكثر المال لعلاج الأمراض وأقله للوقاية منها . وكان أطباء العيون يجرّون

كثيراً من العمليات لإزالة إظلام العدسة (سادة العين أو الكتركتا) . وقد بلغ من ثقة الطبيب خليفة بن أبي المحاسن الحلبي (١٢٥٦) بحذقه في هذه العمليات أنه أجرى هذه الجراحة لرجل أعور (٨١) . ووضع ابن البيطار في كتاب الجامع تاريخ الطب النبائي . فقد وصف في هذا الكتاب ألفاً وأربعمائة من أنواع النبات والأغذية ، والعقاقير ، ثلثمائة منها لم تكن معروفة من قبل ، وحلل تركيبها الكيميائي ، وخصائصها العلاجية ، وأضاف إلى ذلك ملاحظات دقيقة عن طرق استخدامها في علاج الأمراض . ولكن أشهر أطباء المسلمين على بكرة أبيهم هو أبو مروان ابن زهر (١٠٩١ - ١١٦٢) الأشبيلي المعروف في عالم الطب الغربي باسم أفنزور Avenzoar . وكان أبو مروان الثالث من ستة أجيال من أطباء ذائعي الصيت متصلي النسب ، كل منهم يحمل لواء الطب في أيامه . ، وقد ألف كتابه المسمى كتاب التيسير إجابة لطلب صديقه ابن رشد (أعظم فلاسفة زمانه) الذي كان يعده أعظم من أنجبه العالم من الأطباء منذ أيام جالينوس . وكان أهم ما برع فيه ابن زهر هو الوصف الإكلينيكي ، وقد ترك وراءه تحليلات صادقة للأورام الحيزومية ، والتهاب الثامور ، ودرن الأمعاء ، والشلل البلعومي (٨٢) . وكان للترجمين العبرية واللاتينية لكتاب التيسير أعظم الأثر في الطب الأوربي .

كذلك تزعم الإسلام العالم كله في إعداد المستشفيات الصالحة وإمدادها بحاجاتها . مثال ذلك أن البيمارستان الذي أنشأه نور الدين في دمشق عام ١١٦٠ ظل ثلاثة قرون يعالج المرضى من غير أجر ويمدهم بالدواء من غير ثمن ، ويقول المؤرخون إن نيرانه ظلت مشتعلة لا تنطفئ ٢٦٧ سنة (٨٣) . ولما وفد ابن جبير إلى بغداد في عام ١١٨٤ دهمش أياما دهشة من بيمارستانها العظم الذي كان يعلو كما تعلو القصور الملكية على شاطئ نهر دجلة ، والذي كان يطعم المرضى ويمدهم

بالدواء من غير ثمن (٨١)* . وفي القاهرة بدأ السلطان قلاوون في عام ١٢٨٥
تشديد بيمارستان المنصور أعظم مستشفيات العصور الوسطى على الإطلاق ،
فقد أقام في داخل فضاء واسع مسور مربع مباني أربعة يتوسطها فناء يزدان
بالبواكي ، وتلطف حرارته الفساقى والجداول . وكان يحتوي على أقسام
منفصلة لمختلف الأمراض وأخرى للناقيين ؛ ومعامل للتحليل ، وصيدلية ،
وعيادات خارجية ، ومطابخ ، وحمامات ، ومكتبة ومسجد للصلاة ، وقاعة
للمحاضرات ، وأماكن للمصابين بالأمراض العقلية ، زودت بمنظرتسر
العين . وكان المرضى يعالجون فيه من فخير أجر رجالاتا كانوا أو نساء ،
أغنياء أو فقراء ، أرقاء ، أو أحراراً ؛ وكان كل مريض يعطى عند خروجه
منه بعد شفائه مبلغاً من المال حتى لا يضطر إلى العمل لكسب قوته بعد
خروجه منه مباشرة . وكان الذين ينتابهم الأرق يستمعون إلى موسيقى
هادئة ، وقصاصين محترفين ، ويعطون في بعض الأحيان كتباً تاريخية
 للقراءة (٨٥) . وكان في جميع المدن الإسلامية الكبيرة مصحات للمصابين
بالأمراض العقلية .

(*) يقول ابن جبير في وصف هذا اليمارستان : « وهو على دجلة ويتفقدده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ، ويطلبون أحوال المرضى به ، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه ؛ وبين أيديهم قوم يتناولون طبخ الأدوية والأغذية ؛ وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية ، والماء يدخل إليه من دجلة » . (المترجم)

الفصل السابع

الغزالي والنهضة الدينية

وبينا كانت العلوم تسير قدماً في طريق الرقي كان الدين يكافح للاحتفاظ بولاء الطبقات المتعاملة ولإبقائها إلى جانبه ؛ وأدى النزاع الذي قام بين الدين والعلم إلى تشكك الكثيرين في عقائد الدين ، بل إنه دفع بعضهم إلى الإلحاد والكفر . وقد قسم الغزالي المفكرين المسلمين ثلاث طوائف : كلها في نظره كافرة وهي الموثلة ، والربوية (أو الطبيعية) ، والمادية . فأما الموثلة فتؤمن بالله ، وبخلود الروح ولكنها تنكر الخلق وبعث الأجسام ، وتقول إن الجنة والنار حالات روحية لا غير ؛ أما الثانية فتؤمن بالله ولكنها تنكر خلود الروح وترى أن العالم آلة تعمل بنفسها ؛ وأما المادية فترفض فكرة وجود الله إطلاقاً (*) . وقامت حركة أخرى على شيء من النظام هي حركة الدهرية ، وهؤلاء لا أدريون صريحون لا يؤمنون بشيء ؛ وقد أعدم عدد من أتباع هذه الحركة . ومن متبعي هذا المذهب لإصهان بن قرة الذي قال في يوم من أيام رمضان لأحد الصائمين الأتقياء إنه يعذب نفسه من غير داع ، فالإنسان كالحبلة ينبت وينمو ثم يحصد لكي يفنى إلى أبد الدهر . . . ثم نصحه بأن يأكل ويشرب (٨٦) .

وكان رد الفعل الذي نتج من هذه الحركة المتشككة هو ظهور أبي حامد الغزالي أعظم علماء الدين المسلمين ، الذي جمع بين الفلسفة والدين ، فكان بذلك عند المسلمين ، كما كان أوغسطين وكانت عند الأوربيين . ولد أبو حامد الغزالي في طوس عام ١٠٥٨ ، ومات أبوه في صغره فكفله صديق له متصوف . ودرس الغلام الشريعة ، وعلوم الدين ، والفلسفة . ولما بلغ سن الثلاثين عين أستاذاً

(*) لخص المؤلف هذا من المقدمة الثانية من كتاب تهافت الفلاسفة . (المترجم)

في المدرسة النظامية الكبرى ببغداد ؛ وسرعان ما أعجب العالم الإسلامي بفصاحته ، وغزارة علمه ، وبراعته في الجدل . وبعد أن قضى في هذا العمل ثلاث سنين طبقت فيها شهرته الآفاق أصيب بمرض غريب أقعده عن العمل وأفقده شهوة الطعام والشراب والقدرة على الهضم ؛ وكان شلل لسانه يشوه منطقه في بعض الأحيان ، ثم بدأت قواه العقلية تنهار . وشخص طبيب ماهر مرضه بأنه في الأصل مرض عقلي . ولقد أقر الغزالي في ترجمته لحياته بأنه لم يعد يؤمن بقدرة العقل على فهم أسرار الدين الإسلامي ، وأنه لم يكن يطبق ما في دروسه الدينية من نفاق . وغادر الرجل بغداد في عام ١٠٩٤ يريد الحج إلى بيت الله في الظاهر ، ولكنه في الحقيقة كان يريد اعتزال الناس ، وينشد الوحدة والصمت ، والهدوء وإطلاق العنان للتفكير والتأمل . ولما عجز عن أن يجد في العلم ما يطلبه من عون يعيد إليه إيمانه المتداعى ، انقلب من التفكير في العالم الخارجي إلى تأمل العالم الداخلي ؛ معتقداً أنه سيجد في هذا العالم من أقرب سبيل تلك الحقيقة الخالدة وهي القاعدة الثابتة الأكيذة للإيمان بعالم الروح . وتعرض بالنقد الشديد لعالم المحسوسات - وهو عماد النزعة المادية وأساسها ؛ وفقد الثقة بالحواس واتهمها بأنها تجعل النجوم تبدو ضئيلة مع أنها بلا ريب أكبر كثيراً من الأرض ، وإلا لتعددت رؤيتها من بعدها الشاسع ؛ واستخلص من هذا المثال ومن مئات غيره من الأمثلة أن الحواس وحدها ليست طريقاً موثوقاً به موصلاً إلى الحقيقة . وأما العقل فهو في رأيه أرقى درجة من الحواس وهو يصحح ما يصل إليها عن طريق إحداها بما يصل إليه عن طريق الأخرى ، ولكنه هو الآخر يعتمد في النهاية على الحواس نفسها . فهل عند الإنسان نوع من المعرفة ، يهديه إلى الحقيقة ، أصدق من العقل وأؤكد ؟ وأحس الغزالي بأنه قد عثر على هذا النوع من المعرفة في تأمل الصوفية الباطني : فالصوفي يقترب من سر الحقيقة المكنون أكثر مما يقترب منه الفيلسوف ؛ وأرق أنواع المعرفة هو التأمل في معجزة العقل حتى يظهر

الله للمتمامل من داخل نفسه ، وحقى تخنق النفس ذاتها في رؤية الواحد (٨٧) .
وبهذه النزعة وهما المزاج كتب الغزالي أعظم كتبه كلها تأثيراً ونعنى
به كتاب *مهافت الفلاسفة* واستعان فيه على العقل بجميع فنون العقل ،
فاستخدم الصوفى المسلم الجدل الفلسفى الذى لا يقل دقة عن جدل كانت
Kant ليثبت أن العقل يؤدي بالإنسان إلى التشكك في كل شيء ، وإلى
الإفلاس الذهني ، والانهطاط الخلقى ، والتدهور الاجتماعى . وأنزل الغزالي
العقل - قبل أن ينزله هيوم Hume بسبعة قرون - إلى مبدأ العلية ، وأنزل
مبدأ العلية نفسه إلى مجرد التتابع إذ قال إن كل ما ندركه هو أن ب تتبع
على الدوام ولا ندرك أن ا هي علة ب . ومن أقواله أن الفلسفة ، والمنطق ،
والعلوم لا تستطيع قط أن تثبت وجود الله ، أو خلود الروح بل إن الإلهام
المباشر هو وحده الذى يؤكد لنا هاتين العقيدتين اللتين لا قيام بغيرهما لأى
نظام أخلاقى ، وهو النظام الذى لا قيام لأية حضارة إلا به (٨٨) .

وعاد الغزالي في آخر الامر عن طريق التصوف إلى العقائد الدينية
السليمة جميعها ، وعاد إليه كل ما كان يساوره في شبابه من مخاوف
وآمال ، وجهر بأنه يحس بعينى إله قوى قاهر قريبتين من رأسه تتوعدانه
وتهدرانه ، وأخذ ينذر الناس من جديد بأهوال الجحيم ويؤكد أن دعوته
هذه لا غنى عنها لتقوم أخلاق العامة (٨٩) ، وعاد إلى الإيمان بكل ما جاء
به القرآن والحديث ، وقد شرح في كتابه *إهياء علوم الميرين* هذه العودة
إلى عقائده الأولى ، ودافع عنها بكل ما كان له في شبابه من قوة وحماسة
أصبح بهما أقوى علو للمتشككة والفلاسفة الذين لم يواجهوا من قبله
عدواً أشد منه عنفاً . ولما توفى في عام ١١١١ كانت موجة الإلحاد قد
ردت على أعقابها ، واطمأنت جميع قلوب المؤمنين المتمسكين بالدين ،
بل إن رجال الدين المسيحيين أنفسهم قد أثلج صلورهم ما وجدوه
في كتبه ، بعد أن ترجمت إلى اللغات الأجنبية ، من دفاع حار عن

الدين ، وعرض بليغ لقواعد التقى والصلاح لم يروا له نظيراً بعد أيام أوغسطين . واختفت الفلسفة منذ أيامه ، بالرغم من ظهور ابن رشد ، في أقصى أركان العالم الإسلامى ، وضمفت البحوث العلمية ، وأصبح الحديث والقرآن دون غيرهما من العلوم موضع اهتمام العقول الإسلامية وشغلها الشاغل (*) .

وكان اعتناق الغزالي للمذهب التصوف نصراً باهراً للصوفية ، فأخذ أهل السنة من بعده بالتصوف حتى طغت عقائد المتصوفة وقتاً ما على قواعد الدين . نعم إن علماء الدين والشريعة الإسلامية كانوا لا يزالون من الوجهة الرسمية أصحاب الكلمة العليا في عالم الدين والشريعة ، ولكن ميدان التفكير الدينى استسلم لمشايخ الطرق وأولياء الله الصالحين . ومن عجب أن ظهور طائفة الرهبان الفرنسيس في المسيحية قد عاصره نوع جديد من الزهد والنسك في العالم الإسلامى في القرن الثانى عشر الميلادى ، فقد أخذ الزهاد المتصوفة يهجرون الحياة الغائلبة ويحيون حياة الأخوة الدينية بزعامة شيخ لهم ويسمون أنفسهم الفقراء أو الدراويش ، وثانيتها لفظ فارسى معناه السائل . وكان هؤلاء يسعون بطرق مختلفة إلى التمسك بأرواحهم ليرتفعوا بها إلى الفناء في روح الله فيستطيعوا بذلك الإتيان بعجائب الأعمال : فهم من كانت وسيلته إلى هذا التمسك هى الصلاة والتأمل ، ومنهم من كانت سبيله إليها التثوية التى تعقب الأذكار العنيفة .

وقد صيغت نظريات الصوفية في المائة والخمسين من الكتب التى ألفها محي الدين بن العربى (١١٦٥ - ١٢٤٠) - وهم مسلم أندلسى أقام في دمشق . ومن أقواله أن العالم لم يخلق قط لأنه هو المظهر الخارجى لما هو فى حقيقته الداخلى الله نفسه ، والجحيم مقام مؤقت ، لأن الناس كلهم سينجون آخر الأمر ، والحب يخطئ إذا كان هو حجب المظهر الجسمى الزائل ، لأن الله هو الذى يظهر فى صورة

(*) لا شك فى أن هذا التعميم كثيراً من المبالغة . (المترجم)

المحجوب ، والمحج الصادق يجد في أية صورة جميلة باعث الجمال كله ويعشقه .
ولعل محي الدين قد تذكر أقوال بعض المسيحيين من أيام جيروم فأخذ يعلم
الناس أن « من أحب وعف ثم مات مات شهيداً » ، ووصل إلى أسمى
درجات الصلاح والورع . وكان كثير من الدراويش المتزوجين يجهرون بأنهم
يحبون هذه الحياة الطاهرة مع أزواجهم^(٩٠) .

وأثرت بعض الطوائف الدينية الإسلامية مما كان يغدقه عليها الناس من
العطايا ، ورصيت أن تستمتع بطيبات الحياة . وقد شكوا من ذلك أحد شيوخ
الشام حوالي عام ١٢٥٠ فقال إن الصوفية كانوا من قبل إخوة مختلفين في الجسم
ولكنهم متحدون في الروح ، أما الآن فهم طائفة تكتسى أجسامها بالثياب
الحسنة ولكن سرائرها ممزقة خلقة . وكان الناس ينتسمون هؤلاء الذين جمعوا
بين الدين والدنيا ويتركونهم وشأنهم ، ولكنهم كانوا يعظمون الأتقياء المخلصين
الصادقين ، ويعزون إليهم قوى وأفعالا غير عادية ، ويحتفلون بموالدهم ،
ويرجون منهم الشفاعة لهم عند الله ، ويوزرون قبورهم . ذلك أن الإسلام
كالمسيحية دين يتطور ويكيف نفسه تكييفاً يدهش له محمد والمسيح إذا قدر
لها أن يعودا إلى هذا العالم^(*) .

ولما انتصر أهل السنة على هذا النحو ضعفت روح التسامح الديني ، وعادت
إلى الوجود شيئاً فشيئاً القواعد الصارمة التي يعزونها إلى الخليفة عمر بن الخطاب .
فطلب إلى غير المسلمين أن يميزوا ثيابهم بخطوط صفراء ، وحرم عليهم أن يركبوا
الحليل ، وأذن لهم أن يركبوا الحمير أو البغال ، ولم يسمح لهم بإنشاء كنائس أو معابد

(*) ليست العقائد الدينية الأساسية هي التي تتطور وتبدل على مر الأيام بل الذي يتطور
هو ما لا يمس صميم الدين كالتشريع وأمثاله . وهناك أفعال ليست من الدين في شيء وبعضها يخالف
له وإن أتاه بعض المسلمين ومنها الحج إلى مقابر الأولياء والتبرك بهم والتشفع بهم عند الله
وهو ما لا يقره الدين . (المترجم)

جديدة وإن أجزئهم أن يصلحوا ما يحتاج منها إلى الإصلاح ؛ ولم يكن يجوز لهم أن يظهروا الصليب في خارج الكنائس ، أو يدقوا نواقيسها ؛ ولم يكن أبناء غير المسلمين يقبلون في المدارس الإسلامية ، ولكن كان في وسع غير المسلمين أن ينشئوا لأبنائهم مدارس خاصة بهم . كان هذا كله هو ما يجب اتباعه من الوجهة النظرية ، ولكنه لم يكن ينفذ على الدوام . ولا تزال هذه هي النصوص الحرفية للشريعة الإسلامية وإن لم تكن هي المعمول بها على الدوام (٩٢) (*). ومع هذا فقد كان في بغداد وحدها في القرن العاشر ٤٥٠٠٠ مسيحي (٩٣) ، وكانت جنائز المسيحيين تسير في الشوارع دون أن يتعرض لها أحد (٩٤) ؛ وظل المسلمون على الدوام يحتجون على استخدام المسيحيين واليهود في المناصب العليا ؛ ولقد كان صلاح الدين ، في سورة الحروب الصليبية وحدثها وما أوجدته في النفوس من أحقاد ، كريماً رحياً بمن في دولته من المسيحيين .

(١) لا ندري من أين جاء الكاتب بقوله إن هذه هي النصوص الحرفية للشريعة الإسلامية ، فلست نعلم أن الشريعة تنص على هذا ؛ ولعل بعض هذه القيود قد وضعت على غير المسلمين في بعض العهود ، وضعتها بعض الملوك أو الأمراء ، ولكنها لم تكن قاعدة متبعة . ولبت من الدين في شيء . وحسبنا ما قاله المؤلف نفسه بعد هذا دليلاً على تسامح المسلمين في أقرب العهود إلى نشأة الإسلام . (الترجم)

الفصل الثامن

ابن رشد

عاشت الفلسفة وقتاً ما في أسبانيا الإسلامية بما كانت تبثه بحكمة وحلنر من الآراء التي تنفق مع الدين بين محاولات النقد الهين غير العنيف ؛ وقد وجد الفكر شيئاً من الحرية المزعجة في بلاط الأمراء الذين كانوا يستمتعون سرّاً بالبحوث التي يرونها ضارة بعامة الشعب. ومن أجل ذلك اختار أمير سرقسطة وهو من المرابطين أبا بكر بن باجة الذي ولد في تلك المدينة حوالي عام ١١٠٦ ليكون وزيراً له. وكان ابن باجة ، أو أقمباس Avempace كما اختار الأوربيون أن يسموه فيما بعد ، قد بلغ ، وهو لا يزال في شبابه ، مرتبة عليا غير عادية في العلوم الطبيعية ، والطب ، والفلسفة ، والموسيقى ، والشعر ؛ ويقول ابن خلدون إن الأمير أعجب بأبيات قالها العالم الشاب إعجاباً دفعه إلى أن يقسم ألا يدخل عليه قط إلا وهو يسير على الذهب ؛ وخشى ابن باجة أن يقلل هذا القسم من الحفاوة به فوضع قطعة من النقود الذهبية في كلالهائه . ولما سقطت سرقسطة في أيدي المسيحيين ، فر الوزير - العالم - الشاعر منها إلى فاس حيث وجد نفسه فقيراً معدماً بين مسلمين يتهمونهم بالكفر ، ومات ابن باجة في سن الثلاثين مسموماً كما تقول بعض الروايات . وتعدت رسالته في الموسيقى التي لم نقف لها على أثر خير ما كتب في هذا الموضوع الدقيق في الآداب الإسلامية في الغرب . وأشهر مؤلفاته كلها كتاب *مرشد الحيراه* الذي جدد فيه البحث في أحد الموضوعات الأساسية في الفلسفة الإسلامية . فقد قال ابن باجة إن العقل البشري يتكون من جزأين : العقل المادى الذي يتصل بالجسم ويموت بموته ؛ والعقل الفعال أو العقل الكونى غير البشري الذي يوجد في الناس كلهم ، وهو وحده الذي

لا يموت بموتهم . والتفكير هو أسمى وظائف الإنسان ، وبالتفكير وحده ،
لا بالنشوة الصوفية ، يصل الإنسان إلى معرفة العقل الفعال وهو الله .
ولكن التفكير مغامرة خطيرة ، إلا إذا كانت في صمت . والرجل العاقل
يعيش في عزلة هادئة ، بعيداً عن الأطباء ، ورجال القانون ، والناس أجمعين ؛
أو لعل عدداً قليلاً من الفلاسفة يولفون فيما بينهم جماعة تسعى مجتمعة لطلب
المعرفة في رفق وتسامح بعيدة عن صخب الشعب وجنونه (٩٥) .

وواصل أبو بكر بن طفيل (أبو ياسر Abubacer عند الأوربيين)
(١١٠٧ ؟ - ١١٨٥) أفكار ابن باجة ، وكاد يحقق مثله العليا . وكان هو
الآخر عالماً ، وشاعراً ، وطبيباً ، وفيلسوفاً ؛ وكان وزيراً وطبيباً للخليفة
أبي يعقوب يوسف في مدينة مراکش عاصمة الموحدين . وقد استطاع أن
يقضى معظم ساعات بقضته في المكتبة الملكية ووجد بين الدرس وشئون الحكم
متسعاً من الوقت كتب فيه ، من بين الكتب الفنية العميقة ، أعظم قصة
فلسفية في أدب العصور الوسطى . وقد أخذ ابن طفيل عنوان قصته من ابن
سينا ولعلها هي التي أوجت إلى دفود (Defoe) بقصة ربنسن كروزو
Robinson Crusse (بعد أن ترجمها أكلي Ockley إلى الإنجليزية
في عام ١٧٠٨) .

وخلال قصة أن حى بن يقظان ، الذي سميت القصة باسمه ألقى وهو
طفل في جزيرة خالية من السكان ، فأرضعته عذرة ؛ وشب الفتي متوقد
الذكاء . عظيم المهارة ، فكان يصنع حلأهيه وأثوابه بنفسه من جلود
الحيوان ، ودرس النجوم ، وشرح الحيوانات حية وميتة ، حتى وصل
في هذا النوع من المعرفة إلى أرقى ما وصل إليه أعظم المشتغلين بعلم
الأحياء (٩٦) . ثم انتقل من العلوم الطبيعية إلى الفلسفة وعلوم الدين ،
وأثبت لنفسه وجود خالق قادر على كل شيء ، ثم عاش معيشة
الزهاد ، وحرم على نفسه أكل اللحم ، واستطاع أن يتصل اتصالاً روحياً

بالعقل الفعال (٩٧) . وأصبح حتى بعد أن بلغ التاسعة والأربعين من العمر متأهباً لتعليم غيره من الناس : وكان من حسن الحظ أن متصوفاً يدعى أسال أستطاع في سعيه إلى الوحدة أن يلتقي بنفسه على الجزيرة ، فالتقى بحى ، وكان هذا أول معرفة له بوجود بنى الإنسان . وعلمه أسال لغة الكلام وسره أن يجد أن حياً قد وصل دون معونة أحد إلى معرفة الله ، وأقر لحي بما فى عقائد الناس الدينية فى الأرض التى جاء منها من غلظة وخشونة ، وأظهر له أسفه على أن الناس لم يصلوا إلى قليل من الأخلاق الطيبة إلا بما وعدوا به من نعم الجنة ، وما أنذروا به من عقاب النار . واعتزم حتى أن يغادر جزيرته ليهدى ذلك الشعب الجاهل إلى دين أرقى من دينهم وأكثر منه فلسفة . فلما وصل إليهم أخذ يدعوهم فى السوق العامة إلى دينه الجديد وهو وحدة الله والكائنات . لكن الناس انصرفوا عنه أولم يفهموا أقواله . وأدرك أن الناس لا يتعلمون النظام الاجتماعى إلا إذا مزج الدين بالأساطير ، والمعجزات ، والمراسيم ، والعقاب والثواب الإلهيين . ثم ندم على إقحامه نفسه فيما لا يعنيه ، وعاد إلى جزيرته ، وعاش مع أسال يرافق الحيوانات الوديمة والعقل الفعال ، وظلا على هذه الحال يعبدان الله حتى المات .

وقدم ابن طفيل إلى أبى يعقوب يوسف حوالى عام ١١٥٣ شاباً قاضياً وطيباً يعرفه المسلمون باسم أبى الوليد محمد بن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨) ويعرفه الأوربيون فى العصور الوسطى باسم أفروس (Averroës) ، أكبر فلاسفة المسلمين تأثيراً فى العقول . ودل ابن طفيل بعمله هذا على تجرده من الغيرة والحسد مجرداً نادر الوجود فى بنى الإنسان . وكان جد ابن رشد وأبوه كلاهما قاضيين للقضاة فى قرطبة ، وقد هبأ له من التعليم كل ما تستطيع أن تهينه له هذه العاصمة القديمة . ونقل إلينا أحد تلاميذه هذه الفقرة التى يقولون إنها هى التى وصف بها ابن رشد نفسه أول لقاء له بالأمر فقال إنه لما قدم عليه لم يجد معه إلا ابن طفيل ، وأخذ ابن

طفيل هذا يمتدحه بما لا يستحقه من المديح . . . وبدأ الأمير حديثه بأن سأل الفيلسوف عن رأيه في السموات ، هل هي أزلية أو أن لها بداية ؟ فارتاع الفيلسوف لذلك واضطرب ، وأخذ يتلمس المعاذير للفرار من الإجابة : وأدرك الأمير ما هو فيه من اضطراب فالتفت إلى ابن طفيل وأخذ يتحدث إليه في الموضوع ، ويعيد على مسامحة آراء أفلاطون وأرسطو وغيرهما من الفلاسفة ، وما لفقهاء المسلمين عليها من اعتراض ؛ لا يرجع في شيء من هذا إلا إلى ذاكرته بما لم يكن يظن أن له نظيراً حتى بين من كانت الفلسفة مهنته . وطمان الأمير الفيلسوف وامتنحن علمه ، ولما انصرف من حضرته بعث إليه بشيء من المال ، وبجواد ، وحلة غالية الثمن (٩٨) .

وعين ابن رشد في عام ١١٦٩ قاضياً للقضاة في إشبيلية وفي عام ١١٧٢ قاضياً للقضاة في قرطبة ، ثم استدعاه أبو يعقوب إلى مراكش بعد عشر سنين من ذلك الوقت ليكون طبيبه الخاص ، وظل يشغل هذا المنصب حتى ورث الخلافة يعقوب المنصور . وفي عام ١١٩٤ نفي ابن رشد إلى أليسانة القريبة من قرطبة لغضب الشعب عليه بسبب آرائه . ثم عفى عنه وعاد إلى مراكش في عام ١١٩٨ ولكن المنية عاجلته في العام التالي ، ولا يزال قبره حتى الآن قائماً في تلك المدينة .

وكاد كتابه في الطب ينسى بسبب شهرته الواسعة في الفلسفة ، ولكنه كان في الحقيقة من أعظم أطباء زمانه ، فقد كان أول من شرح وظيفة شبكية العين ، وقال إن من يمرض بالجدري يكتسب الحصانة من هذا الداء (٩٩) . وكانت موسوعته الطبية المسماة كتاب الكلبيات في الطب بعد أن ترجمت إلى اللغة اللاتينية واسعة الانتشار في الجامعات المسيحية . وأهدى الأمير أبو يعقوب في ذلك الوقت رغبته في أن يكتب له أحد العلماء شرحاً واضحاً لآراء أرسطو ، وأشار ابن طفيل أن يعهد هذا العمل إلى ابن رشد . ورحب الفيلسوف بهذا الاقتراح ، لأنه كان يرى أن الفلسفة كلها قد اجتمعت في آراء الفيلسوف اليوناني ، وأن كل ما يحتاجه

(٢٦ - ج ٢ - مجلد ٤)

لكي تصبح مواثمة لكل زمان هو أن تشرح ونفسر* . واعتزم ابن رشد أن يعد لكل كتاب من كتب أرسطو الكبرى خلاصة موجزة في أول الأمر ، ثم شرحا لها موجزاً أيضاً ، ثم شرحا مطولاً للطلبة المتقدمين في الدرس - وكانت هذه الطريقة طريقة الشروح المتدرجة في الصعوبة مألوفة في الجامعات الإسلامية . ولقد كان من سوء الحظ أنه لا يعرف اللغة اليونانية ، وأنه اضطر لهذا السبب إلى الاعتماد على الترجمة العربية للترجمة السريانية لكتب أرسطو ؛ ولكن صبره ، وصفاء ذهنه ، وقدرته على التحليل الدقيق العميق ، أذاعت شهرته في أوروبا كلها وأكسبته اسم الشارح الأعظم ورفعته إلى أعلى مقام بين فلاسفة المسلمين لا يعلو عليه في المنزلة إلا ابن سينا العظيم .

وأضاف ابن رشد إلى هذه الشروح كتباً ألفها هو في المنطق ، والطبيعة ، وعلم النفس ، وما بعد الطبيعة ، والفقه ، والشريعة ، والفلك ، والنحو ، ورداً على تهافت الفلاسفة للفزالي سماه تهافت التهافت . وهو يقول كما قال فرانسس بيكن من بعده إن القليل من الفلسفة قد يميل بالإنسان إلى المروق من الدين ، ولكن الدرس الواسع يؤدي إلى الائتلاف بين الفلسفة والدين . ذلك أن الفيلسوف ، وإن كان لا يأخذ تعاليم القرآن ، والتوراة ، وغيرهما من الكتب المنزلة (١٠٠) بمعناها الحرفي ، يدرك أنها لا غنى عنها لإنماء روح التقوى الطيبة والأخلاق السليمة في عقول الناس ؛ الذين تشغلهم مطالب الحياة الملحة فلا يجدون من الوقت ما يكفي لغير التفكير العارض ، السطحي ، الخطر في مبادئ الأشياء وأواخرها . ومن ثم فإن الفيلسوف الناجح لا ينطق بلفظ أو يشجع لفظاً يعارض الدين (١٠١) ، ومن حق الفيلسوف في مقابل هذا أن يترك حراً يسعى وراء الحقيقة ، ولكن عليه مع ذلك أن يحرص مناقشاته في دائرة المتعلمين ومداركهم ، وألا يعتمد

(*) وأبدي سنثيانا Santavann في كتابه حياة النقل The Life of Reason هذا

الرأى نفسه .

إلى الدعاوة لآرائه بين العامة (١٠٢). وهو يرى أن العقائد الدينية إذا فسرت تفسيراً رمزياً تتفق مع ما يكشف عنه العلم والفلسفة (١٠٣). ولقد ظل هذا التفسير الرمزي للنصوص المقدسة المبني على الاستعارة والتشبيه سنة متبعة حتى عند رجال الدين أنفسهم مئات السنين. وابن رشد لا يقول صراحة بالنظرية التي يعزوها إليه النقاد المسيحيون وهي أن قضية من القضايا قد تكون صادقة في الفلسفة (بين المتعلمين) ، ولكنها قد تكون خاطئة (مضرة) في الدين (والأخلاق) (١٠٤) ؛ وإن كانت تعاليمه تتضمن هذا المعنى . ومن أجل هذا وجب ألا يبحث عن آراء ابن رشد في رسائله الصغرى التي وضعها بلجمهور الطلاب ، بل في شروحه لأرسطو التي هي أكثر عمقاً وأصعب فهماً من الرسائل السالفة الذكر .

وهو يفسر الفلسفة بأنها البحث في معنى الوجود بقصد إصلاح شأن الإنسان (١٠٥) ويقول إن العالم أزلي ، وإن حركات الكواكب لا بداية لها ولا نهاية ؛ وإن القول بالخلق خرافة ، فالقائلون بالخلق يدعون أن الله ينشئ شيئاً كائناً (جديداً) من غير أن يحتاج في إنشائه إلى مادة موجودة من قبل . . . وهذا التصور هو الذي جعل علماء الأديان الثلاثة القائمة في هذه الأيام يقولون إن الشيء قد ينشأ من لا شيء (١٠٦) . . . والحركة أزلية ودائمة ؛ وكل حركة تنشأ من حركة أخرى قبلها . وبغير الحركة لا يكون زمن وليس في وسعنا أن نتصور حركة ذات بداية أو نهاية (١٠٧) .

ولكنه مع هذا يقول إن الله هو خالق العالم ، ويعنى بهذا القول أن العالم موجود في أي وقت من الأوقات بقوة الله الحافظة ، وإنه يمر في كل لحظة بعملية خلق مستمرة بقدرته الله الفعالة (١٠٨) ؛ فالله هو نظام الكون ، وقوته وعقله .

ومن هذا النظام الأعلى والعقل الكلي يكون نظام الأفلاك والنجوم وعقلها المحرك . ومن عقل أدنى الأفلاك السماوية (فلك القمر) يأتي العقل الفعال الذي يدخل في جسم الإنسان المفرد وعقله . والعقل الإنساني مكون من عنصرين

أحدهما العقل القابل أو المادى وهو استعداد الإنسان أو قدرته على التفكير أو المعرفة العقلية ، وهذا العقل جزء من الجسم يفنى بفنائه (الجهاز العصبي ؟) ، والثانى هو العقل الفعال ، المستمد من الله . وهو الذى يعث العقل القابل على التفكير الفعلى . وهذا العقل الفعال لا يختلف فى فرد عنه فى آخر ؛ بل هو سواء فى الناس كلهم ، وهو وحده الخالد الذى لا يفنى (١٠٩) . ويشبه ابن رشد عمل العقل الفعال فى الفرد أو فى العقل القابل بتأثير الشمس التى يجعل ضوءها كثيراً من الأجسام نيرة ، ولكنه يبقى فى كل مكان ، ويظل على الدوام كما كان (١١٠) . ويسعى العقل الفردى للاتحاد مع العقل الفعال ، كما تمتد النار إلى الأجسام القابلة للاحتراق . وبهذا الاتصال يصبح العقل البشرى شبيهاً بالله ، لأنه يستحوذ على الكون كله بالقوة فى فكره ؛ والحق أن العالم وكل ما فيه ليس له وجود بالنسبة لنا ، وليس له معنى ، إلا عن طريق العقل الذى يدركه (١١١) . وإدراك الحقيقة وحده عن طريق الذهن هو الذى يؤدي بالعقل إلى الاتحاد مع الله ذلك الاتحاد الذى يظن المتصوفة أنهم يستطيعون الوصول إليه بالتدريب النفساني على الزهد أو بالنشوة التى تحدث بالأذكار . وابن رشد بعيد كل البعد عن عقائد المتصوفة وعن الأسرار الخفية ، ويرى أن اللجنة ليست إلا ما يستمتع به العقلاء من حكمة هادئة محببة إلى النفوس (١١٢) .

وهذه هى النتيجة التى وصل إليها أرسطو نفسه ، ولا حاجة إلى القول بأن نظرية العقل الفعال والعقل المنفعل (nouspathetikos nous poietikos) مرجعها كتاب النجس لأرسطو De Anima (المقالة الثالثة) ، كما فسرها الإسكندر الأفروديسى ، وثامسطيوس الإسكندري ، وهى التى استحالت إلى نظرية الفيض emanation التى تقول بها الأفلاطونية الحديثة التى انتقلت إلينا عن طريق الفارابى وابن سينا وابن باجة ، وأصبحت هذه الفلسفة العربية فى نهايتها كما كانت فى بدايتها هى فلسفة أرسطو استحالت إلى أفلاطونية حديثة ؛ ولكن

بينما كانت عقائد أرسطو قد عدلت وحورت على أيدي معظم الفلاسفة المسلمين والمسيحيين حتى توفي بحاجات الدين ، فإن العقائد الإسلامية قد أنقصت على يدى ابن رشد إلى أقل قدر حتى يوفق بينها وبين آراء أرسطو . ومن أجل هذا كان أثر ابن رشد في المسيحية أعظم منه في بلاد الإسلام ، فقد اضطهده معاصروه من المسلمين ، ونسيه من جاء بعده منهم ، وتركوا معظم كتبه تضيع أصولها العربية ؛ ولكن اليهود احتفظوا بالكثير منها مترجماً إلى اللغة العبرية . وسار ابن ميمون على نهج ابن رشد فحاول أن يوفق بين الدين والفلسفة . أما في العالم المسيحي فإن الشروح بعد أن ترجمت من العبرية إلى اللاتينية كانت من أكبر البواعث على نزعة سيجرده برابانت Siger de Brabant الإلحادية ، ونزعة مدرسة بدوا Padua العقلية ، وكانت خطراً يهدد أساس العقيدة المسيحية . وأراد تومس أكويناس أن يرد هذا التيار الذي بعثه ابن رشد بمؤلفاته فكتب كتابه Summae لهذا الغرض ، ولكنه سار على الطريقة التي اتبعها ابن رشد في شروحه وفي كثير من تفسيراته المختلفة لأرسطو ، وفي قوله إن المادة هي منشأ الفروق بين الكائنات ، وفي تفسيره الرمزي للنصوص الخاصة بالتجسيد في الكتاب المقدس ، وفي قبوله الفكرة القائلة إن العالم قد يكون أزلياً ، وفي رفضه التصوف أساساً كافياً للدين ، وفي اعترافه بأن بعض العقائد الدينية فوق إدراك العقل ، وأنه يمكن قبولها عن طريق الإيمان (١١٣) . وقد وضع روجر بيكن ابن رشد في المرتبة الثانية بعد أرسطو وابن سينا ، وأضاف إلى ذلك قوله مع المبالغة التي هي من خصائصه « تحظى فلسفة ابن رشد في هذه الأيام (حوالي عام ١٣٧٠) بقبول جميع العقلاء » (١١٤) ،

و عام ١١٥٠ أمر الخليفة المستنجد في بغداد بإحراق جميع كتب ابن سينا وإخوان الصفا الفلسفية . وفي عام ١١٩٤ أصدر الأمير أبو يوسف يعقوب المنصور وكان وقتئذ في إشبيلية أمراً بإحراق جميع كتب ابن رشد لإعزاداً قبيلاً منها

في التاريخ الطبيعي ، وحرّم على رعاياه دراسة الفلسفة ، وحثهم على أن يلقوا في النار جميع كتبها أينما وجدت . : وبإحدى العامة إلى تنفيذ هذه الأوامر ، وكان يسوؤهم ويحز في نفوسهم هجوم الفلاسفة على إيمانهم الذي كان عند بعضهم أعز سلوى لهم في حياتهم المضيئة النكدة . وفي هذا الوقت بالذات أهدم ابن حبيب لدراسته الفلسفة^(١١٥) ، وأعرض الإسلام بعد عام ١٢٠٠ عن كل تفكير نظري . ولما أن ضعفت القوة العباسية في العالم الإسلامي ، أخذت توجه اتجاهات متزايدة نحو طلب المعونة من رجال الدين والفقهاء من أهل السنة . وأمدوا هؤلاء بما تحتاجه من هذه القوة ، نظير كتبها للتفكير الحر المستقل . ومع هذا كله فإن هذه المعونة لم تكن كافية لإنقاذ الدولة المضمحلة . ففي أسبانيا كان المسيحيون يتقدمون من بلد إلى بلد ، حتى لم يبق للمسلمين إلا غرناطة وحدها ؛ وفي الشرق استولى الصليبيون على بيت المقدس ، وفي عام ١٢٥٨ استولى المغول على بغداد ودمروها تدمراً .

الفصل التاسع

غارة المغول

١٢١٩ - ١٢٥٨

وهنا يثبت التاريخ مرة أخرى الحقيقة القائلة إن نعم الحضارة تغري الهمج بالهجوم على البلاد المتحضرة (*) . وكان السلاجقة قد بعثوا في بلاد الإسلام الشرقية قوة جديدة ، ولكنهم هم أيضاً ركنوا إلى الدعة والنعم ، وتركوا دولة ملك شاه تنقسم مملكتين مستقلتين ذواتي حضارة رائعة ولكنهما ضعيفتان من الناحية العسكرية . وكان التعصب الديني والعداء العنصرى قد قسما الشعب أقساما شديدة التباغض والتنازع وحالا بينه وبين الاتحاد لمقاومة الصايبيين .

وفي هذه الأثناء كان المغول الضاربون في شمالي آسية الغربى يزداد عديدهم لقوة إخصابهم ، ويشند بأسهم لما يلاقون من شظف العيش وصعباه . وكانوا يعيشون في الخيام أو في العراء ، ويرحلون وراء قطعانهم إلى مرأع جديدة ، ويرتدون جلود الماشية ، ويدرسون فنون الحرب دراسة المتحمس لها الراغب فيها . وكان أولئك الهون الجدد ، كما كان بنو جنسهم منذ ثمانية قرون ، بارعين في استعمال الخناجر ، والسيوف ، والسهام يطلقونها من فوق جيادهم التى تسابق الريح . وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله فيهم جيوفنى ده بيانو كرپينى Giovanni de Piano Carpini المبشر المسيحى ، فإن هولاء الأقوام كانوا « يأكلون كل ما يستطيعون أكله حتى القمل نفسه » (١١٦) ، ولم يكونوا يشمزون من أكل الفئران ، والتقطط ، والكلاب ، ودم الآدميين ، أكثر من اشمزاز أعظم الناس ثقافة في هذه الأيام من أكل ثعابين الماء والقواقع البحرية . ونظم چنكيز خان - أى الملك .

(*) انظر مقدمة ابن خلدون في هذا المعنى . (المترجم)

العظيم - أولئك الأقوام بما فرضه عليهم من القوانين الصارمة حتى أنشأ منهم قوة عظيمة البأس ، وقادهم لفتح أواسط آسية الممتدة من نهر الفلجا إلى سور الصين العظيم . وبينما كان چنكيز خان غائبا عن حاضرة ملكه في كركورم خرج عليه زعيم مغولى ، وعقد حلقا مع الشاه علاء الدين محمد صاحب خوارزم المستقلة . وقع چنكيز خان هذه الفتنة وعرض الصلح على الشاه فقبله ، ولكن نائبه فى أترار Ottrar قتل بعد قليل من ذلك الوقت تاجرین من المغول فيما وراء نهر جيحون ، وطلب چنكيز خان أن يسلم إليه الوالى لمحاكمته ، فرفض محمد هذا الطلب ، وقتل رئيس البعثة المغولية ، ورد بقية أعضائها مخلوقى اللحمى ، فلم يكن من چنكيز خان إلا أن أعلن الحرب وبدأ بذلك هجوم المغول على بلاد الإسلام (١٢١٩) .

وهزم جيش من المغول بقيادة جوجى ابن الخان جيش محمد البالغ أربعمائة ألف جندى عند جند ، وفر الشاه على أثر هذه الهزيمة إلى سمرقند وترك ١٦٠٠٠٠ من رجاله قتلى فى ساحة الوغى . وتقدم جيش مغولى آخر بقيادة چجتاى ابن الخان نحو أترار واستولى عليها ونهبها ، وسار جيش ثالث بقيادة الخان نفسه إلى بخارى وحرقتها عن آخرها ، وسبى آلافاً من نساءها ، وذبح ثلاثين ألفاً من رجالها . واستسلمت له سمرقند وبلغ حين وصل إلى أبوابها ولكنهما لم تنجوا من النهب والمذابح العامة ، وزار ابن بطوطة هذه المدن بعد مائة عام من ذلك الوقت ووصفها بأن أكثرها لا يزال خرائب . ينعق فيها اليوم . وزحف تولوى بن چنكيز خان بجيش يبلغ سبعين ألفاً اخترق به خراسان وخرب كل ما مر به من المدن . وكان المغول يضعون الأسرى فى مقدمة جيوشهم ويخبرونهم بين قتال مواطنهم - من أمامهم أو قتلهم من خلفهم . وفتحت مرو وخيابة وأحرقت عن آخرها ، ودمرت فى اللهب مكتبتها التى كانت مفخرة الإسلام ، وسمح لأهلها بأن يخرجوا من أبوابها يحملون معهم كنوزهم ، ولكنهم لم يخرجوا على هذا النحو إلا ليقتلوا وينهبوا فرادى . ويؤكد لنا المؤرخون المسلمون أن هذه المذابح استمرت ثلاثة

عشر يوماً هلك فيها ٣٠٠٠٠٠ نسمة (١١٧) . وقاومت نيسابور الغزاة
بمسالة زمناً طويلاً ، فلما استسلمت آخر الأمر (١٢٢١) قتل كل من فيها
من الرجال ، والنساء ، والأطفال ، ما عدا أربعائة من مهرة الصنّاع
أرسلوا إلى منغوليا ، وكومت رؤوس القتلى في كومة مروعة ؛ وخربت
كذلك مدينة الري الجميلة ومساجدها البالغ عددها ثلاثة آلاف ،
وما كان فيها من مصانع الفخار الدائعة الصيت ، وقتل أهلها عن آخرهم
كما يقول أحد المؤرخين المسلمين (١١٨) . وجمع ابن الشاه محمد جيشاً جديداً
من الأتراك حارب به جيش چنكيز خان عند نهر السند ولكنه هزم وفر
إلى دهلي . ولما خرجت هزاة على واليها المغولي كان جزاؤها ذبح ستين ألفاً
من أهلها . لقد كانت هذه الوحشية جزءاً من علوم الحرب عند المغول ،
وكانوا يقصدون بها شل قوى أعدائهم بما يقذفونه من الرعب في قلوبهم ،
وإرهاب المغلوبين على أمرهم حتى لا يفكروا في الخروج عليهم . ونجحت
هذه الخطة .

وعاد چنكيز خان بعدئذ إلى بلاده ليستمتع بأزواجه وخليلاته الخمسمائة ،
ومات في فراشه . وسير ابنه وخليفته أجتاي جيشاً من ٣٠٠٠٠٠ للقبض
على جلال الدين ، وكان قد جيش جيشاً جديداً في ديار بكر . وهزم
جلال الدين وقتل ، ولم يلق الغازون بعدئذ مقاومة فعانوا فساداً في
أذربيجان ، وبلاد النهرين ، والكرج ، وأرمينية (١٢٣٤) . وسمع المغول
أن فتنة قامت في إيران بقيادة الحشاشين ، فزحف هولاكو حفيد
چنكيز خان بجيش مغولي اخترق به سمرقند ، وبلخ ، ودمر حصن
الحشاشين في الموت وولى وجهه شطر بغداد .

وكان المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين في المشرق من جلة العلماء ، وكبار
الخطاطين ، وكان مثال الرقة ودمامة الأخلاق ، شديد الاهتمام بأمور الدين ،
وبالكتب ، والصدقات : وكل هذه أمور لا تتفق مع ذوق هولاكو . واتهم
المغول الخليفة بأنه يتستر على العصاة ، ويمنع ما وعد به من المساعدة على الحشاشين ،
وطلب إلى الخليفة جزاء له على فعلته أن يكون خاضعاً للخان الأعظم ، وأن تجرد

بغداد من الأسلحة ومن جميع وسائل الدفاع . ورفض المتعصم هذه الطلبات .
بإياد وكبرياء ، وحاصر المغول بغداد ، وأرسل الخليفة إلى هولاءكو بعد
شهر من بدء الحصار هدايا وعرض عليه الصلح ؛ وخذع بما وعد به من الرحمة
فأسلم هو وولداه أنفسهم إلى المغول ، ودخل هولاءكو وجنوده بغداد في
الثالث عشر من فبراير عام ١٢٥٨ ، وأعملوا فيها السلب والنهب والقتل
أربعين يوما كاملة ، فتكوا فيها بثمانمائة ألف من أهلها على حد قول بعض
المؤرخين . وهلك في هذه المذبحة الشاملة آلاف من الطلاب ، والعلماء ،
والشعراء ، ونهبت أو دمرت في أسبوع واحد المكاتب والكنوز التي
أنفقت في جمعها قرون طوال ، وذهبت مئات الآلاف من المجلدات طعمة
للنيران ، وأرغم الخليفة وأفراد أسرته على أن يكشفوا عن مخاىئ ثرواتهم ،
ثم قتلوا (١١٩) . وهكذا قضى على الخلافة العباسية في آسية .

ثم عاد هولاءكو إلى منغوليا ، وبقي جيشه وراءه ، يتقدم لفتح الشام
تحت إمرة غيره من القواد ، حتى التقى عند عين جالوت بجيش مصرى
يقوده قطز وبيبرس من أمراء المماليك (١٢٦٠) . وزفت البشرى إلى كل
مكان في بلاد الإسلام وفي أوربا نفسها ، وابتهجت نفوس الناس على
اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، فقد جل الطلسم وذهب الروح ؛ ذلك لأن
معركة حاسمة دارت رحاها بالقرب من دمشق عام ١٣٠٣ وكانت عاقبتها
أن هزم المغول ، ونجت بلاد الشام للمماليك ، ولعلها أيضا احتفظت
للمسيحية بأوربا .

ولسنا نعرف أن حضارة من الحضارات في التاريخ كله قد عانت من التدمير
الفجائى ما عانت الحضارة الإسلامية على أيدي المغول . لقد امتدت فتوح
البرابرة لبلاد الدولة الرومانية قرنين من الزمان ، وكان في استطاعة بلاد
الدولة أن تنتعش بعض الانتعاش بين كل ضربة والتي بعدها ، وكان الفاتحون
الجرمان يكونون في قلوبهم بعض الإجلال للدولة المحتضرة التي يعملون على
تدميرها ، ومنهم من حاول المحافظة عليها . أما المغول فقد أقبلوا وارتدوا في .

أربعين عاما لا أكثر ؛ ولم يأتوا ليفتحوا ويقيموا ، بل جاءوا ليقتلوا ، وينهبوا ويحملوا ما يسلبون إلى منغوليا . ولما ارتد تيار فتوحهم الدموي خلف وراءه اقتصاداً مضطرباً ، وقنوات للرى مطمورة ، ومدارس ودوراً للكتب رماداً تلروه الرياح ، وحكومات منقسمة على نفسها ، معدمة ، ضعيفة ، لا تقوى على حكم البلاد ، وسكاناً هلك نصفهم ، وتحطمت نفوسهم . واجتمع الانهاس الأبيقورى فى اللذات ، والهزال الجسمى والعقلى ، وخور العزيمة والعجز الحربى ، والانقسام الدينى والالتجاء إلى المراسم الغامضة الخفية ، والفساد السياسى والفوضى الشاملة ، اجتمعت هذه العوامل كلها واثلفت لتحطيم كل شىء فى الدولة قبل الغزو الخارجى . لقد كان هذا كله ... لاتبديل المناخ ، هو الذى بدل آسية الغربية من زعامتها على العالم فقراً مذقماً ، وخزابا شاملا . وأحل محل مئات المدن العامرة المثقفة فى الشام ، وأرض الجزيرة ، وفارس ، والقفقاس ، والتركستان ما تعانیه فى الوقت الحاضر من فقر ، ومرض ، وركود (*) .

(*) لقد أخذت تلك البلاد تنفض عن كاهلها ما كانت تعانیه من الفقر والمرض والركود ، وشرعت تمل بجد وعزيمة لاستعادة مجدها الغابر الذى أراد هؤلاء الغزاة المتوحشون أن يفتسروا عليه . وفى بلاد آسية الغربية فى الوقت الحاضر نهضة قوية مباركة فى جميع المرافق الحيوية تبشر بأن هذه البلاد ستستعيد عما قريب ما كان لها من منزلة سامية فى تلك الأيام الخالية . ولقد استطاعت فى وقت قصير أن تحقق الشىء الكثير من أسباب الرقى وأن ترفع عن كاهلها ما كان يطلوqها به الاستعمار البغيض من قيود ، ويقتينا أنه لولا هذا الاستعمار لكانت خطاها فى هذه السبيل أوسع وأثبت . (المترجم)

الفصل العاشر

الإسلام والعالم المسيحي

إن قيام الحضارة الإسلامية واضمحلالها لمن الظواير هو الكبرى في التاريخ - لقد ظل الإسلام خمسة قرون من عام ٧٠٠ إلى عام ١٢٠٠ يتزعم العالم كله في القوة ، والنظام ، وبسطة الملك ، وجميل الطباع والأخلاق ، وفي ارتفاع مستوى الحياة ، وفي التشريع الإنساني الرحيم ، والتسامح الديني ، والآداب ، والبحث العلمي ، والعلوم ، والطب ، والفلسفة . وفي العمارة أسلم مكانته الأولى في القرن الثاني عشر إلى الكنائس الكبرى الأوربية ، ولم يجد فن النحت القوطي منافساً له في بلاد الإسلام التي كانت تحرم صنع التماثيل . أما الفن الإسلامي فقد أفضى قوته في الزخرفة ، وعانى الشيء الكثير من ضيق المدى ووحدة الطراز المملة ، ولكنه في داخل هذا النطاق الذي فرضه على نفسه لم يفقه حتى الآن فن سواه . وكان الفن والثقافة في بلاد الإسلام أجمع وأوسع انتشاراً بين الناس مما كانا في البلاد المسيحية في العصور الوسطى ؛ فقد كان الملوك أنفسهم خطاطين ، وتجاراً ، وكانوا كالأطباء ، وكان في مقدورهم أن يكونوا فلاسفة .

ويغلب على الظن أن البلاد المسيحية كانت متفوقة على بلاد الإسلام من ناحية الآداب الجنسية في خلال تلك القرون ، وإن لم يكن في كليهما حظ لختار . غير أننا لا يسعنا إلا أن نذكر أن الاقتصار على زوجة واحدة في البلاد المسيحية ، مهما بلغ من عدم التقيد بهذه العادة من الناحية العملية ، فقد أبقى الغريزة الجنسية في نطاق محدود ، ورفع منزلة المرأة رفعاً بطيئاً ، في حين أن الإسلام قد أخفى وجه المرأة بالحجاب والقناع . (ولقد أفلحت الكنيسة في تقييد الطلاق ، ويبدو أن اللواط لم يبلغ في البلاد المسيحية ، ومنها إيطاليا في عهد النهضة ، ما بلغه من الحرية .

والإنتشار - حاشأً أن نقول في الإسلام ، بل نقول في حياة المسلمين . غير أن المسلمين ، كما يلوح ، كانوا رجالاً أكمل من المسيحيين ؛ فقد كانوا أحفظ منهم للعهد ، وأكثر منهم رخصة بالمغلوبين ، وقلما ارتكبوا في تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عند ما استولوا على بيت المقدس في عام ١٠٩٩ . ولقد ظل القانون المسيحي يستخدم طريقة التحكيم الإلهي بالقتال أو الماء ، أو النار ؛ في الوقت الذي كانت الشريعة الإسلامية تضع فيه طائفة من المبادئ القانونية الراقية يتقلدها قضاة مستنبطون . واحتفظ الدين الإسلامي ، وهو أقل غموضاً في عقائده من الدين المسيحي ، بشعائره أبسط ، وأنتى ، وأقل اعتماداً على المظاهر المسرحية من الدين المسيحي ، وأقل منه قبولاً لنزعة الإنسان الغريزية نحو الشرك . وهو شبيه بالمذهب البروتستنتي في احتقاره ما يعرضه دين البحر المتوسط من عون للخيان والحواس وما يطلقه لها من عنان ؛ (ولكنه يستسلم للنزعة الجنسية في تصويره الجنة) (*). وقد ظل هذا الدين بعيداً كل البعد تقريباً عن النظم الكهنوتية ، ولكنه قيد العقل في الوقت الذي كانت فيه المسيحية مقبلة على أخصب عصور الفلسفة الكاثوليكية :

ويكاد تأثير العالم المسيحي في الإسلام يكون مقصوراً على بعض المظاهر الدينية وعلى الحرب . فأما من حيث المظاهر الدينية فأكبر الظن أن التصوف قد جاء إلى العالم الإسلامي من نماذج مسيحية ، ومن الرهبة ، وعبادة القديسين . ولقد تأثرت النفس الإسلامية بقصة عيسى وشخصيته وظهرت في الشعر والفن الإسلاميين وكانت فيهما موضع العطف الكبير (١٢٠) . أما العالم الإسلامي فقد كان له في العالم المسيحي أثر بالغ مختلف الأنواع . لقد تلتقت أوربا من بلاد الإسلام الطعام ، والشراب ، والعقاقير ، والأدوية ،

(*) لقد قال المؤلف من قبل ، لئلا عن بعض الفلاسفة ، إن ما ورد في وصف الجنة من متع جسمية يجب ألا يؤخذ بحرفيته بل هل أنه تقريب للمتع الروحية من أذهان الناس . (المترجم) .

والأسلحة . وشارات الدروع ونقوشها ، والدوافع الفنية ، والتحف ،
والمصنوعات ، والسع التجارية ، وكثيراً من الصناعات ، والتشريعات
والأساليب البحرية ؛ وكثيراً ما أخذت عن المسلمين أسماء هذه كلها :

Orange, lemon, sugar, syrup, sherbet julep; elixir, jar
azure, arabesque, mattress, sofa muslin, salin, fustian, bazaar,
caravan, check mate, Tariff, tariffic, douane, magazine, risk,
sloop barge, cable, admiral.

ويقابل هذه في العربية : البرتقال ، والليمون ، والسكر ، والشراب ،
والشربات ، والجلاب ، والإكسير ، والإبريق ، والأزرق ، والنقش
العربي ، والحشية (واللفظ الإنجليزي مشتق من المطرح) والأريكة (اللفظ
الإنجليزي مشتق من الصفة) ، والموصلين ، والساتان ، والفتان ، والسوق .
والقافلة ، والشاه مات . والتعريف ، وحركة المرور ، والديوان ، والمخزن ،
والخطر ، والفارب بنوعيه ، والحبل ، وأمير البحار (وبعض هذه الألفاظ
مأخوذة عن الفارسية مثل Bazaar وبعضها الآخر عن العربية) . وقد
جاءت لعبة الشطرنج إلى أوروبا من الهند عن طريق بلاد الفرس ، واتخذت
لها في طريقها أسماء فارسية وعربية ؛ فلفظ Ckeck mate مثلاً مأخوذ من
عبارة الشاه مات . وبعض آلاتنا الموسيقية تحمل بين طيات أسمائها أدلة
على أصولها السامية ؛ ومن هذه الألفاظ lute من العود ، و rebeck من
الربابة ، و guitar من القيثارة ، و tambourine من الطنبور . وقد انتقل
شعر شعراء الفروسية الغزليين troubadour وموسيقاهم من بلاد الأندلس إلى
پروفانس في فرنسا ، ومن صقلية المسلمة إلى إيطاليا . ولعل الأوصاف العربية
للرجلات إلى الجنة والجحيم كان لها نصيب في المسلاة الإلهية The Divine
Comedy لدانتى . وقد دخلت القصص الخرافية ، والأعداد الهندية إلى أوروبا
في زياها العربي أو صورتها العربية . والعلماء العرب هم الذين احتفظوا بما كان
عند اليونان من علوم الرياضة ، والطبيعة ، والكيمياء ، والفلك ، والطب ،

وارتقوا بها ، ونقلوا هذا التراث اليونانى بعد أن أضافوا إليه من عندهم ثروة عظيمة جديدة إلى أوروبا . ولا تزال المصطلحات العلمية العربية تملأ اللغات الأوربية ، ونذكر منها على سبيل المثال Algebra للجبر ، Zero و Cipher للصفر ، Azimuth السُمُوت و Alembic للأنيبيق ، و Zenith للسمت ، و Almanac للتقويم وهى مشتقة من لفظ المناخ . وظل أطباء العرب يحملون لواء الطب فى العالم خمسمائة عام كاملة ، وفلاسفة العرب هم الذين احتفظوا لأوروبا بمؤلفات أرسطو وشوهوا لها هذه المؤلفات . وكان ابن سينا وابن رشد نجمين لاحا من الشرق للفلاسفة المدرسين الذين كانوا يتقلون عنهما ، ويعتمدون على كتبهما ، ويتقون بها ثقة لا تزيد عليها إلا ثقتهن بالنصوص اليونانية .

والقباب المضلعة أقدم فى بلاد المسلمين منها فى أوروبا (١٢١) ، وإن لم يكن فى مقدورنا أن نتبع الطريق الذى وصلت منه إلى الفن القوطى ؛ وأبراج الكنائس المسيحية المستدقة ؛ وأبراج نواقيسها مدينة بالشىء الكثير إلى مآذن المساجد (١٢٢) ، ولعل زخارف التوافد القوطية المقطعة المصنوعة من الحجارة قد أوحى بها بوائك برج الخرلدة ذات الأقواس المقترنة (١٢٣) . ويعزى انتعاش فن الخزف الرفيع فى إيطاليا وفرنسا إلى انتقال صناع الخزف المسلمين فى القرن الثانى عشر إلى هذين البلدين ، وإلى زيارة صناعه الإيطاليين إلى بلاد الأندلس الإسلامية (١٢٤) . ولقد أخذ صناع الحديد والزجاج فى البندقية ، ومجلدو الكتب فى إيطاليا ، وصانعو الدروع والسلاح فى أسبانيا ، أخذ كل هؤلاء فنونهم عن الصناع المسلمين (١٢٥) ، وكان النساجون فى جميع أنحاء أوروبا تقريباً يتطلعون إلى بلاد الإسلام ليأخذوا منها النماذج والرسوم ، وحتى الحدائق نفسها قد تأثرت إلى حد بعيد بالحدائق الفارسية .

وسنشرح فيما بعد بالتفصيل السبل التى جاء منها هذا التأثير الإسلامى إلى بلاد الغرب ، غير أننا نقول هنا بإيجاز إنه جاء عن طريق التجارة ، والحروب

الصليبية ؛ وعن آلاف الكتب التي ترجمت من اللغة العربية إلى اللاتينية ؛ وعن الزيارات التي قام بها العلماء أمثال جربيرت Gerbert ، وميخائيل اسكت Michael Scot وأدلارد Adelard من أهل باث Bath إلى الأندلس الإسلامية ؛ ومن الشبان المسيحيين الذين أرسلهم آباؤهم الأسبان إلى بلاط الأمراء المسلمين ليتربوا فيها ويتعلموا الفروسية (١٢٦) - ذلك أن بعض الأشراف المسلمين كانوا يعدون « فرساناً وسادة مهذبين كاملين وإن كانوا مسلمين » (١٢٧) ؛ ومن الاتصال الدائم بين المسيحيين والمسلمين في بلاد الشام ، ومصر ، وصقلية ، وأسبانيا . وكان كل تقدم للمسيحيين في أسبانيا تتبعه موجة من آداب المسلمين ، وعلومهم ، وفلسفتهم ، وفنونهم تنتقل إلى البلاد المسيحية ، وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال أن استيلاء المسيحيين على طليطلة في عام ١٠٨٥ قد زاد معلومات المسيحيين الفلكية ، وأبقى على الاعتقاد بكرة الأرض (١٢٨) .

لكن نار الحقد لم تطفى لظاها هذه الاستنادة العلمية . ذلك أن لا شيء بعد الخبز أعز على بني الإنسان من عقائدهم الدينية ، لأن الإنسان لا يجحأ بالخبز وحده ، بل يجحأ معه بالإيمان الذي يبعث في قلبه الأمل . ومن أجل هذا فإن قلب الإنسان يتلظى غيظاً على من يهدده في قوته أو عقيدته . ولقد ظل المسيحيون ثلاثة قرون يشهدون زحف المسلمين ، ويبصرونهم يستولون على قطر مسيحي في إثر قطر ، ويمتصون شعباً مسيحياً بعد شعب ؛ وكانوا يحسون بأيدي المسلمين القوية تقبض على التجارة المسيحية ، ويستمعون لإلهم وهم يسمون المسيحيين كفرة (*) ؛ وأمسّت المعركة المرتقبة في آخر الأمر معركة حقيقية ؛ فاصطدمت الحضارتان في الحروب الصليبية ، وقتلت خيراً ما في الشرق أو الغرب

(*) إن الدين الإسلامي لا يقول قط بأن المسيحيين كفرة بل يعتبرهم من اللذين أهل الكتاب . (المترجم)

خير ما في الغرب أو الشرق ، وكان هذا العداء المتبادل عاملاً فعّالاً في تاريخ العصور الوسطى كله ، مضافاً إليه دين ثالث هو الدين اليهودي قائماً بين الطائفتين المحترمتين الرئيسيتين يتلقى ضربات كليهما . وخسر الغرب الحروب الصليبية ، ولكنه ربح معركة الأديان ؛ فقد طرد كل مسيحي محارب من الأرض المقدسة ؛ ولكن المسلمين ، وقد استنزف النصر البطيء دماءهم ، وخرب المغول بلادهم ، مرت بهم فترة من العصور المظلمة ساد فيها الجهل والفقر ، على حين أن الغرب المنهزم قد أنضج ما بذل من جهود ، فنسى هزائمهم ، وأخذ عن أعدائهم التعطش إلى العلم والولع بالرق . فأقام الكنائس عالية تناطح السحاب ، وأخذ يجوب ميادين العقل ، وحوّل لغاته الفجة الجديدة إلى أساليب دانتى وتشوسر Chaucer وڤيون Villon ، وسار تحذوه العزة إلى عصر النهضة :

وبعد فإن القارئ العادي ستعثر به الدهشة من طول هذه الإلمامة بمحضارة المسلمين ، وسيأسف العالم الباحث لما يجده فيها من إنجاز غير خليق بها : إن عصور التاريخ الذهبية دون غيرها هي التي أنجب فيها المجتمع ، في مثل هذا الزمن القصير ، ذلك العدد الجم من الرجال الذين ذاع صيتهم في الحكم ، والتعليم ، والآداب ، واللغة ، والجغرافية ، والتاريخ ، والرياضة ، والفلك ، والكيمياء ، والفلسفة ، والطب ، كما أنجب الإسلام في الأربعة القرون الفاصلة بين هرون الرشيد وابن رشد . وقد استمد بعض هذا النشاط المتلائي مادته من تراث اليونان ، ولكن الكثير منه ، وبخاصة في الحكم ، والشعر ، والفن كان نشاطاً مبتكراً لا تقدر قيمته . ولقد كانت هذه النزوة من نهضة الإسلام من بعض نواحيها تحريراً للشرق الأدنى من سيطرة اليونان العلمية ؛ ولم تمتد إلى فارس الساسانية والأكيمينية فحسب ، بل امتدت كذلك إلى بلاد اليهود وبلاد سليمان ، وإلى آشور بلاد آشور بانيبال ، وإلى بابل حمورابي ، وأكاد سرجون ، وسومر بلد الملوك الذين لا تعرف أسماءهم ؛ وهكذا يثبت مرة أخرى اتصال حلقات التاريخ (٢٧ - ج ٢ - مجلد ٤)

بعضها ببعض ؛ ذلك أن الأسس الجوهريّة في الحضارة لا تضع أبداً مهما حل بها من زلازل وأوبئة ، وجذب ، وهجرات مدمرة ، وحروب مخربة مهلكة . بل إن ثقافات فنية تمد أيديها إلى هذه الأسس فتنتشلها من هذا اللهب ، وتمد حياتها بالتقليد والمحاكات ، ثم بالخلق والابتكار ، حتى ينبعث في الشعب الناشئ شباب جديد وروح وثابة جديدة . وكما أن الناس أعضاء في مجتمع ، والأجيال لحظات في تسلسل الأسر ، فإن الحضارات وحدات في كل أكبر منها وأعظم اسمه التاريخ ؛ فهي مراحل في حياة الإنسانية . إن الحضارة متعددة الأصول ، وهي نتاج تعاوني لكثير من الشعوب ، والطبقات ، والأديان ؛ وليس في وسع من يدرس تاريخها أن يتعصب لشعب أو لعقيدة . ومن أجل هذا فإن العالم وإن كان مواطناً في بلده يجبه لما يربطه به من صلوات وثيقة ، يحس أيضاً بأنه مواطن في بلد العقل ، الذي لا يعرف عداوات ولا حدوداً . وهو لا يكاد يكون خليقاً باسمه إذا ما حمل معه في أثناء دراسته أهواء سياسية ، أو نزعات عنصرية ، أو عداوات دينية ؛ وهو يقدم لكل شعب حمل مشعل الحضارة وأغنى ترأثها شكره وإجلاله :

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد في المراجع مجملة في الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت في بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الفصل ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل. أو الآية في القرآن أو الكتاب المقدس .

CHAPTER VIII

1. Burton, Sir R., ed., *Thousand Nights and a Night*, I, vii.
2. Hell, J., *The Arab Civilization*, 7.
3. Dawson, Christopher, *The Making of Europe*, 136.
4. Encyclopædia Britannica, II, 184.
5. Doughty, Chas., *Travels in Arabia Deserta*, I, xx.
6. Margoliouth, D. S. *Mohammed and the Rise of Islam*, 29; Nö-
dek, *Sketches*, 7.
7. Burton, R.F., *Personal Narrative of a Pilgrimage to al-Medinah and Meccah*, II, 98.
8. Blunt, Lady A. and Sir W. S., *The Seven Golden Odes of Pagan Arabia*, 43.
9. Ibid.
10. Sale, G., in Wherry, E.M. *Commentary on the Qur'an*, with Sale's tr., I, 43.
11. Herodotus, III, 8.
12. الطبرى - المقدمة
Margoliouth, *Mohammed*, 59.
13. Muir, Sir W., *Life of Mohammed* 512.
14. Browne, E. G., *Literary History of Persia*, I, 261.
15. الطبرى الجزء الثالث الفصل السادس والأربعون ص ٢٠٢
16. Pickthall, p. 2.
17. Browne, *Literary History*, I, 247.
18. Tiedall, W. S., *Original Sources of the Koran*, 264, Poole, S., *Speeches and Table Talk of the Prophet Mohammed'* xxiv.
19. Nicholson, R. A., *Translations of Eastern Poetry and Prose*, 38-40. Cf. Koran, xcvi.
20. Muir, *Life*, 51.
21. القرآن الكريم
II, 91.
22. Lxxxvii, 6.
23. Ali, Maulana Muhammad, *The Religion of Islam*, 174.
24. Macdonald, D. B., *Rilegious Attitude and Life in Islam*, 42.
25. Margoliouth, *Mahammed*, 45.
26. Dozy, R., *Spanish Islam*, 15.
27. Hell, 19.
28. Sale in Wherry, I, 80.
29. البلاذرى
30. Ameer Ali, Sayed, *Spirit of Islam*. 54.
31. Muir, *Life*, 214, 234.

23. Ibid., 236.
33. Ibid., 238, quoting traditions.
34. Ibid.
35. Andrae, *Tor, Mohammed*, 206; Muir, 245f, quoting Ibn Hisham and al-Tabari.
36. Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 58f.
37. Muir, 252f.
38. البلاذرى
39. المصدر عينه
40. Amer Ali, 94.
41. Andrae, 298.
42. Macdonald, D. B., *Development of Muslim Theology, Juris-prudence, and Constitutional Theory* 69.
43. القرآن
44. القرآن
45. Andrea, 267.
46. القرآن
47. Muir, 77, 244.
48. القرآن
49. Muir, 201.
50. Bukhah, S. K., *Studies, Indian and Islamic*, 6.
51. Muir, 511.
52. Lane - Pool, *Speeches*, xxx.
53. Ameer Ali, *Spirit of Islam* 110.
54. Bukhsh, *Studies*, 6.
55. Irving. W. *Life of Mahomet*, 238
56. Margoliouth, 105; Irving, 231.
57. القرآن
58. الجلستان السمنى
59. Margoliouth, 458.
60. Gibbon, V, 254.
61. Margololouth, 466.
3. القرآن الكريم
4. القرآن الكريم
5. القرآن الكريم
6. القرآن الكريم
7. Margoliouth, 69.
8. القرآن Lane-Poole, 157
9. Ibid., 158.
10. Ali, Maulana M., *Religion of Islam*, 587.
11. Lane-Poole, 161, 163.
12. Ibid., 162.
13. Ibid.
14. Ali, Maniana. 890.
15. القرآن
16. Ali, Maniana, 655.
17. القرآن
18. Ali, 602.
19. القرآن الكريم
20. القرآن الكريم
21. Pickthall, p. 594 n.
22. Lane-Poole, 161.
23. القرآن الكريم
24. Ameer Ali, 183.
25. Lane-Poole, 167.
26. Quoted in Muir, *Life*; 520.
27. Lane-Poole, 159.
28. Ibid.
29. Sale in Wherry, I, 122.
30. E.g., Deut. xviii, 15-18 ; Hag. ii, 7 ; Songs, ii, 3, xxi, John xvi, 12-13.
31. Talmud, Pirk Aboth ii, 18.
32. Nöldeke, *Sketches*, 44.
33. القرآن Talmud, Sanh., ii, with Ber., i, 2, and Nöldeke, 31.
34. Lane-Poole, xi.
35. Bevan, E. R., *Legacy of Israel*, 147, Hitti, P. K., *History of the Arabs*. 125.

CHAPTER IX

1. سورة الرحمن
2. Lane - Poole, *Speeches*, 180.

36. Baron, S.W. *Social and Religious History of the Jews*, I, 335-7.
37. Hurgronje. C. S., *Mohammedanism*, 65.

CHAPTER X

1. *Cambridge Medieval History*, II, 331.
2. Burton, *Personal Narrative*, I, 149.
3. Finlay, G., *Greece under the Romans*, 367.
4. Muir, Sir W., *The Caliphate*, 56.
5. *Ibid.*, 57.
6. *Ibid.*, 189.
7. Hitti, 176.
8. Gibbon, V, 296.
9. Macdonald. *Development of Muslim Theology*, 23.
10. Hitti, 197.
11. Sykes, Sir P., *History of Persia*, I, 538.
12. Hell, J., 59-60.
13. Meir, *Caliphate*, 376; Hitti, 222.
14. Dozy, 161. Hitti, 227.
15. Muir. *Caliphate*, 428-37, Hitti, 285
16. Nöldeke, 132.
17. الخليلستان
18. Burton, Sir R.F., *The Thousand Nights and a Night* I, 186.
19. Palmer, E.H., *The Caliph Haroun Alraschid*, 80, 78.
20. Arnold, Sir T. W., *Painting in Islam*, 16.
21. Abbott, Nabia, *Two Queens of Baghdad*, 183.
22. Muir, *Caliphate*, 482.
23. Palmer, 221.
24. *Ibid.*, 85, Abbott, 113.
25. Palmer, 81f. البرامكة
26. ابن خلدون المقدمة
27. Hitti, 300.

28. Eginhard, *Life of Charlemagne* xvi, 3.
29. Palmer, 121. البرامكة
30. Nicholson, R A., *Translation of Eastern Poetry and Prose*, 64.

31. المتبى : الكتاب البيهقى
32. Saladin, H., et Migeon, G., *Manuel d'art musulman*, I, 441.

CHAPTER XI

1. Lestrage, O., *Palestine under the Moslems*, quoting Maaudi, II, 48.8
2. Hitti, 851,
3. Milman, H. H., *History of Latin Christianty*, III, 65n.
4. Lane, E. W., *Arabian Society in the Middle Ages*, 117.
5. Usher, A. P., *History of Mechanical Inventions*, 178-9.
6. De Vaux, Baron Carre, *Les Penseurs d'Islam*, I, 8.
7. Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, III.
8. Renard, G., *Life and Work in Prehistoric Times*, 118.
9. Hitti, 344.
10. Thompson, J. W., *Economic and Social History of the Middle Ages*, 373.
11. ابن خلدون المقدمة
12. Hitti. 348.,
13. Muir *Caliphate*, 501.
14. Hitti, 344.
15. Hurgronje, 128.
16. Browne, E.G., *Literary History*
17. *Ibid.*, 318.
19. Browne, I, 223; Muir *Caliphate*, 510.
20. Nöldeke, 146-75.
21. Arnold, *Painting in Islam*, 104.
22. Guillaume, A., *The Traditions of Islam*, 13.
23. *Ibid.*, 134-8; Becker, C. H., *Christianity and Islam*, 62.

24. Guillaume, 47-52, 77.
25. Margoliouth, *Mohammed*, 80.
26. Guillaume, 80.
27. Sykes, I, 521.
28. Andrae, 101.
29. Sale in Wherry, I. 172.
30. Ali, Maulana, 780.
31. Philby, H., *A Pilgrim in Arabia*
32. Doughty, I, 59.
33. Burton, *Pilgrimage*, I, 325.
34. Ali Maulana, 523.
35. Burton, *Pilgrimage*, II, 83 ; Sale in Wherry, I, 185.
36. Graetz, H., *History of the Jews*, III, 87 ; Hitti, 284.
37. LeStrange, *Palestine*, 212 ; Arnold, Sir T. and Guillaume. A., *The Legacy of Islam* 81.
38. Baron, S. W., *History*, I. 819.
39. Guillaume, 132.
40. Catholic Encyclopedia, VIII, 459.
41. Becker, 32.
42. Hitti, 685 ; Sartou, O., *Introduction to the History of Science* Vol. II, Part I, 80.
43. Westermarck E., *Origin and Development of the Moral Ideas*, II, 476.
44. Kremer. A. von, *Kulturgeschichte des Orients unter den Khalifen*, 52.
45. Abbott, 68.
46. Lane, E. W., *Arabian Society*, 219-20.
47. Bukhsh, S. K., *Studies*, 83.
48. Hitti, 239.
49. Ali, Maulana, 890.
50. Lane-Poole, S., *Saladin*, 247.
51. Macdonald, D. B. *Aspects of Islam*, 294 ; Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 262.
52. Müller-Lyer, F., *Evolution of Modern Marriage*, 42.
53. Lane-Poole, *Saladin*, 217.
54. *Ibid.*, 251 ; Sumner, W. G. *Folkways*. 853.
55. Lane E. W. *Arabian Society*, 221
56. *Ibid.*, 223.
57. Hitti, 342.
58. Bukhsh, *Studies*, 88.
59. Abbott, 187, 149.
60. Bukhsh, 84.
61. الفزالي ، كيمياء السمادة
62. Himes, N. E. *Medical History of Contraception*, 136.
63. Lane-Poole, *Saladin*, 415.
64. Guillaume. *Traditions*, 115.
65. Westermarck, *Moral Ideas*, I, 94.
66. Sale in Wherry, I, 168.
67. Hitt. 338.
68. De Vaux, II, 272 f ; Chardin, Sir J. *Travels in Persia*, 198.
69. Muir, *Caliphate*, 374.
70. *Ibid.*, 519.
71. Lane, *Saladin*. 285.
72. Bury, J. B., *History of the Eastern Roman Empire*. 826.
73. Hingronje, 98.
74. Macdonald, *Muslim Theology*, 84 ; Guillaume, 69 ; Burton. *Personal Narrative*, I, 148, 167,
75. Arnold and Guillaume *Legacy*. 305.
76. Macdonald. *Theology*, 305.
77. Muir, *Caliphate*, 170.
78. LeStrange, *Palestine*, 24.
79. Hitti, 236 f.
80. In LeStrange, 120.
81. *Ibid.*, 342.
82. *Ibid* 301.
83. *Ibid.*, 295-301, 312, 348, 353, 361 377.
84. *Ibid.*, 265.
85. *Ibid.*, 287.
86. Creswell, K. A. C., *Early Muslim Architecture*, I, 187; Rivoiria C. T., *Moslem Architecture* 110.
87. Yaqub, II, 587, in LeStrange,
88. Lane. *Saladin*, 184.
89. Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 339.
90. Baron, I, 320.

٩١. أبو الفدا في
The Troubadours and the Courts of Love, Rowbotham, J.E., 16n.
٩٢. Lestrangle, G., *Baghdad during the Abbasid Caliphate*, 253.
٩٣. Lane, E. W., *Arabian Society*, 203.
٩٤. Lane - Poole, S. *Studies in a Mosque*, 185.
- CHAPTER XII
1. In Ameer. Ali, *Spirit of Islam*, 331.
2. Lane, *Saladin* 86.
3. Lane-Poole, S., *Calro*, 188.
4. Hitti, 409.
5. Macdonald, *Aspects of Islam*, 6.
6. Bukhsh, *Studies* 195.
7. Carter, T. F. *The Invention of Printing in China*, introduction and p. 85; Thompson, Sir E. M., *Introduction to Greek and Latin Palaeography*, 34; Barnes, 8. Bukhsh, 49, 50.
9. Ibid., 197.
10. Gibbon, V, 411.
11. Browne, *Literary History*, 1, 275.
12. Pope, *Masterpieces of Persian Art*, 151.
13. Sarton, I, 669.
14. Gibbon, V, 298.
15. تاريخ الطبري ج ١
16. المصدر عينه
17. المصدر عينه
18. Sarton, I, 637.
19. De Vaux, I, 78.
20. ابن خلدون الجزء الأول
21. Sarton, I, 530.
22. Arnold and Gullfsume, *Legacy* 385.
23. Sarton, I, 602.
24. Bukhsh, 168.
25. De Vaux, II, 76.
26. Ibid., 78.
27. البيروني ٧٨
28. البيروني
29. In Boer, T. J. de, *History of Philosophy in Islam*, 146.
30. De Vaux, II, 217; Arnold and Gullfsume, 395.
31. البيروني
32. Bukhsh, 181.
33. Sarton, I, 707.
34. Ibid., 693.
35. Lane, *Arabian Society*, 54 n.
36. ابن خلدون الجزء الثاني
37. Thompson, J. W., *Economic and Social History*, 358.
38. Grunebaum, G. von, *Medival Islam*, 381.
39. Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 392.
40. Kellogg, J. H. *Rational Hydrotherapy*, 1928, 24.
41. Ibid.
42. Lane, *Arabian Society*, 56.
43. Garrison, F., *History of Medicine*, 1929, 137.
44. Arnold and Gullfsume, 336.
45. Bukhsh, 197.
46. Hitti, 364.
47. Ibid.
48. Campbell, D., *Arabian Medicine* 661.
49. Sarton, I, 609.
50. وفيات الأعيان لابن خلكان الجزء الأول
 ص ٤٤٠
51. المرجع عينه ص ٤٤٣
52. in Draper, J. W., *History of the Intellectual Development of Europe*, I, 411.
53. John, I, 1-8.
54. Bukhsh, 59.
55. Boer, 101; Arnold and Gullfsume, 255.
56. Aristotle *De Anima*, III, 5.
57. Macdonald, *Muslim Theology*, 150
58. Barhebraeus in Grunebaum, 182;

- Hitti, ٢٥٣ ; Muir *Caliphate*, 521.
 59. In Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 408.
 60. Dawson, 165.
 61. ابن خلدون
 62. O'Leary DeL., *Arabic Thought and Its Place in History*, 153,
 63. Ueberweg, F., *History of Philosophy*, I, 412.
 64. De Vaux, IV, 12-18.
 65. Boer 128.
 66. Ibid., 81f.
 67. Husik, I., *History of Medieval Jewish Philosophy*, xxxix.
 68. Salibu, D., *Etude sur la metaphysique d'Avicenne*, 21.
 69. Ibid., 106, 114, 121, 151 ; Hastings *Encyclopedia of Religion and Ethics*, XI, 275-6 ; Boer, 136.
 70. Salibu, 170 ; Gruner, O. C. *Treatise on the Canon of Medicine of Avicenna*, introd., p. 9.
 71. Beer, 188-42.
 72. Salibu, 208.
 73. In Ameer Ali, 395.
 74. Boer, 144.
 75. ابن البلاذرى ج ١ ص ٦ Bocon, Roger, *Opus Maius*, tr. R. B. Burke, Vol. I, p. 15.
 76. Salibu, 27.
 77. Arnold and Guillaume, 811.
 78. قانون ابن سينا ص ١١٨
 79. In Nicholson, R. A., *Mystics of Islam*, 7.
 80. ابن خلدون
 81. Browne, *Literary*, I, 426.
 82. Hitti, 435.
 83. Nicholson, R. A., *Studies in Mysticism*, 4-5.
 84. Macdonald, *Religious Attitude*, 169-21.
 Nicholson, *Studies in Mysticism*, 78.
 85. Ibid., 25.
 86. Arnold and Guillaume, 219.
 87. Hitti, 438.
 88. Browne, II, 265.
 89. Nicholson, *Studies in Mysticism*, 6-21.
 90. Id., *Translations of Eastern* 98-100.
 91. In Browne, II, 265.
 92. Nicholson, *Mysticism*, 28-31, 38.
 93. Browne, I, 404 ; Dawson, 158.
 94. Hitti, 443.
 96. مروج الذهب للمسعودى الترجمة الفرنسية ج ٤ ص ٨٩
 97. Lane-Poole, *Cairo*, 154.
 98. Nicholson, *Studies in Islamic Poetry*, 48.
 99. Id., *Translations*, 38.
 100. Nicholson, R. A. : *Literary History of the Arabs*, 295 ;
 ابن خلكان ج ١ ص ٣٩٣
 101. De Vaux, IV, 252.
 102. Browne, I, 369.
 103. Nicholson, *Islamic Poetry*, 183-7
 104. Rihani, A: F., *The Quatrains of Abu'l Ala (al-Ma'a'ri)*, vii,
 105. Nicholson, *Literary*, 319.
 106. Id., *Islamic Poetry*, 146.
 107. Ibid 102, 145, Rihani, 120.
 108. Nicholson, *Islamic Poetry*, 108.
 109. Ibid., 191-2.
 110. Ibid., 121.
 111. Id., *Translations*, 102.
 112. Id., *Islamic Poetry*, 150.
 113. Ibid., 160.
 114. Ibid., 161-5.
 115. Id., *Translations*, 102.
 116. Id., *Islamic Poetry*, 119.
 117. Ibid., 127.
 118. Id., *Translations*, 102.

119. Id., *Islamic History*, 140
 120. In Browne, II, 120.
 121. للفردوسى الحديثامة
 122. الفردوسى الشاهنامه
 123. نفس المرجع ترجمة الككنسن وقد
 ترجمه مائير آرندل في سهراب ورسم
 124. In Pope, *Survey of Persian Art*,
 II, 975.
 125. Cf. "The Nazarene Broker's
 Story" in Burton, *Thousand
 Nights and o Night*, I, 270.
 126. Pope, *Survey*, II, 1439.
 127. Lane-Poole, *Saladin*, 29.
 128. Lane *Arabin Society*, 54-61.
 129. Pope, II, 927 ; Hell, 109.
 130. Creswell, I' 239.
 131. In Lane, *Arabian Society*, 58.
 182. Pope, II, 975.
 183. Pope, IV 317-28.
 184. Pope, Arthur U., *Introduction
 to Persian Art*, 200.
 135. Arnold and Guillaume, 117.
 136. Pope, II, 1447.
 137. Fenollosa, F. F., *Epochs of
 Chinese and Japanese Art*, I, 21;
 Pope, *Survey* I, 2.
 188. Pope, II, 1468.
 189. Guillaume, 128.
 140. Encyclopaedia Britannica; XV,
 654.
 141. Ibid.; Hitti, 420.
 142. Arnold, *Painting in Islam*, 85.
 148. Ibid., 21.
 144. Lane, *Arabian Society*, 117.
 145. Ibid., 15.
 146. Hitti, 274.
 147. Farmer, H. G., in Arnold and
 Guillaume. 358.
 148. الخليلستان
 149; In Arnold and Guillaume. 859.
 150. Farmer in Aronld and Ouil-
 laume, 867.
 151; Ibid., 372.
 152. Ibid., 861; Farmer, H.G., *His-
 tory of Arabian Music*, 154.
 153. Farmer in Arnold and G., 359.
 154. Hitti, 214.
 155. Farmer, 31.
 156. Ibid., 112.
 157. Ibid., 60-4; Lane-Poole, *Cairo*,
 156.
 158. Farmer, 120.
 159. Ibid., 124.
 160. Lane, *Arabian Society*, 172-6.
- CHAPTER XIII
- 1, Gibbon, V, 344,
 2. Sarton, I, 466; II (ii), 599.
 3. Ueberweg, I, 409.
 - 4: Tarn W.W., *Hellenistic Civilliza-
 tion*, 217; Sarton, I, 466,
 5. Gibbon, V, 346,
 6. Munro, D. C., and Sellery, G.,
Medieval Civilization, 170.
 7. Lane-Poole, *Cairo*, 65.
 8. Browne, II, 228.
 9. Hitti, 625,
 10. Browne, II, 223, Margoliouth,
 D.S., *Cairo, Jerusalem, and
 Damascus*, 46.
 11. Nöldeke, 8.
 - 12: Hitti, 626. .
 13. Arnold and Guillaune, 168.
 14. Pope, Arther U., *Iranian and
 Armenian Contributions to the
 Beginnings of Gothic Architecture*,
 287.
 15. Lane, *Arabian Society*. 541.
 16. Lane-Poole, *Cairo*, 44. 60.
 17. Pope, II, 1488.
 18. Arnold and Guillaume, 116.
 19. Dimand, M. S., *Handbook of
 Muhammadan Art*; 255; Arnold,
Paining in Islam, 127.
 20. Margoliouth, *Cairo*, '69.
 - 21: Arnold and Guillaume, 333.
 22. Arnold, Str T.W., *The Preaching
 of Islam*, 102.

23. Pirenne, Henri, *Mohammed and Charlemagne*, 160f.
24. Hitti, 606.
25. Waern, Cecilia, *Medieval Sicily*, 20.
26. Arnold and Guillaume, 241.
27. Waern, 25.
28. Calvert, A.F., *Moorish Remains in Spain*, 239.
29. المقرى فى نفع الطيب
30. المصدر عينه
31. المصدر عينه
32. Dozy, 458 - 65.
33. المقرى
34. Dozy, 516.
35. Ibid., 522; Calvert, A.F., *Seville* 11
37. Lane-Poole, S., *Story of the Moors in Spain*, 34.
38. Dozy, 688, 689:
39. المقرى
40. Dozy, 284.
41. Gibbon, V, 876.
42. Chapman.C.,F., *History of Spain*, 53.
43. Ibid., 41; Dozy, 236; Lane-Poole, *Moors*, 50.
44. Chapman, 41.
45. Clapham. J. H., Power, E., *Cambridge Economic History of Europe*, 136; Barnes, *Economic History*, 114.
46. Clapham, 354-5, Thompson, J.W., *Economic and Social History*, 547.
48. *Cambridge Medieval History*, III, 482.
49. Pirenne, Jacques, *Les grands Courants de l'histoire universelle*, II, 117.
50. Ibid, 19.
51. Arnold. *Preaching*, 184; Dozy, 236.
52. Chapman, 49, 58.
53. Dozy, 268.
54. Ibid.
55. Arnold, *Preaching*, 144.
56. Dozy, 285, Lane-Poole, *Moors*, 47
57. Rivoira *Moslem Architecture*, 240.
58. Dozy, 278.
59. Ibid., 286.
60. Aronld, *Preaching*, 141.
61. Dozy 584.
62. المقرى
63. Thompson. J.W., *Economic and Social History*, 549.
64. المقرى
65. المصدر عينه
66. Calvert, *Moorish Remains*, 189.
67. Calvert, A.F., *Cordova*, 107.
68. المقرى
69. Dozy, 495; Chapman, 50.
70. Pirenne, J., II, 20.
71. المقرى
72. In Dozy, 576.
73. Sarton, I, 713.
74. Dozy, 281.
75. المقرى
76. Arnold and Guillaume, 186.
77. Dozy, 326.
78. Ibid.
79. Tr. by Dulcie Smith in Van Doren, Mark, *Anthology of World Poetry*, 99.

CHAPTER XIV

1. Browne, II, 176.
2. Ibid., 177; Gibbon, V, 17.
3. Browne, II, 190.
4. Marco Polo, *Travels*, I, 24.
5. Ameer Aly, *Spirit of Islam*, 813.
6. Hitti, 446.
7. Thompson, J.W., *Economic and Social History*, 391; Arnold, *Preaching*, 96.

8. William of Tripoli in Lane-Poole, *Cairo*, 84.
9. Hftti, 679.
10. Adams, Brooks, *Law of Civilization and Decay*, 128.
11. In Lane-Poole, *Cairo*, 27.
12. Irving. W., *The Alhambra*, 41.
13. Lane-Poole, *Moors*, 225.
14. Pope, *Introduction*, 30; Pope, *Survey*, II, 1048.
15. Cf. Migeon, G., *Les arts musulmans*, II, 11.
16. Fry. Roger, in *Persian Art: Souvenir of the exhibition of Persian Art at Burlington House* xix.
17. Dillon. E., *Glass*, 165.
18. Lane, *Arabian Society*, 200.
19. Pope, *Masterpieces*, 65.
20. Dimand, *Handbook*, 280.
21. *Time Magazine*, Jan. 23, 1939.
22. Arnold, *Painting*, 127.
23. *N. Y. Times Book Review*, May 19, 1940, p. 2.
24. Bukhsh, 96.
25. Nicholson, *Translations*, 116.
26. ابن خلدون
27. المصدر عينه
28. Browne, II, 375.
29. Ibid., 392.
30. Sartou, I, 759.
31. Ibid., II (1), 8.
32. Ibid., I, 760.
33. Browne, II, 246.
34. Nicholson, *Islamic Poetry*, 4-5.
35. Weir, T.H., *Omar Khayyam the [Poet]*, 21.
36. Nicholson, *Islamic Mysticism*, 1.
37. Browne, II, 108.
38. Ibid, 258.
39. Heron-Allen, Edw., in Houstma, M., ed., *Encyclopepla of Islam*, III, (II), 988.
40. Weir, .16; Nicholson, *Islamic Poetry*, 5.
41. Browne, II, 249.
42. Quatrain cxv of the Bodleian MS. in Weir, 86.
43. Weir, 71.
44. In Browne, II, 247.
45. Smith. Margaret, ed., *The Persian Mystics: Attar*, 20-7.
40. جلال الدين الرومي، مختارات من ديوان شمسى تبريزى
47. المصدر عينه ٧١
48. المصدر عينه ٤٧
49. Sartou, II (ii), 872.
50. Browne; II, 521.
51. السعلى
52. السعلى فى الجلسان
53. المصدر عينه
54. In Browne, II, 580.
55. الجلسان
56. Bustan in Grousset, R., *The Civilizations of the East, Vol. 1: The Near and Middle East*, 272.
57. الجلسان ١٢
58. ٣ - ٢
59. ٢٧ - ٢
60. ٤٠ - ٢
61. ٧ - ٤
62. ٥ - ٥
63. ٤ - ٥
64. ٢٠ - ٧
65. ٤ - ٧
66. ٣١ - ٨
67. ٣٨ - ٨
68. ٤ - ١
69. ٨ - ٧
70. ٢ - ٣

71. Browne, II, 534.
 72. Grumebrium, 39,
 73. Sartone, II (i), 12.
 74. Ibid., 216.
 75. Ibid., 27; II (ii), 632.
 76. Ibid., II (i), 31.
 77. Margollourth, *Cairo*, 220.
 78. Sarton, II, (ii), 1014.
 79. Ibid., II (i), 51; II (ii), 668.
 80. Ibid, II (i), 424.
 81. Hitti, 686.
 82. Sarton, II (i), 282.
 83. Carrison, 136.
 84. Lestrangle, *Baghdad*, 104.
 85. Carrison, 136; Hell, 117; Lane-Poole, *Cairo*, 34, Margollouth, *Cairo*, 124-9, Hitti, 677.
 86. Baron, S., ed., *Essays on Maimonides*, 112.
 87. الغزالي
 88. الغزالي (التبافت)
 89. Macdonald, *Muslim Theology*, 230.
 90. Asin y Palacios, Mihuel, *Islam, and the Divine Comedy*, 273-5.
 91. السعدى — الجلسان
 92. Muir *Callphate*, 146.
 93. Arnold, *Painting*, 54.
 94. Becker, 31.
 95. Boer, 175; [Duhem, P., *Le systèmedu monde*, IV, 522, 526; Macdonald, *Muslim Theology*, 250.
 96. أبو بكر بن طفيل — حى بن يقظان
 97. المصدر عينه
 97. In Renan, E., *Averroës et l'averroïsme*, 16.
 99. Sarton, II (i), 305.
 100. ابن رشد
 101. المصدر عينه
 102. ابن رشد Gilson, E., *Reason and Revelation in the Middle Ages*, 40f.
 103. ابن رشد
 104. Sarton. II (i), 358.
 105. ابن رشد
 106. Commentary on Aristotle's *Metaphysics*, xii, in Renan, 108.
 107. Commentary on Aristotle's *Physics*, viii, in Renan, 112; Duhem, IV, 549.
 108. De Vaux, IV, 70.
 109. Commentary on Aristotle's *De Anima*, bk. iii, in Renan, 122; Duhem, IV, 573.
 110. التبافت in Renan, 187n.
 111. In Renan, 143.
 112. Ibid., 146.
 113. Arnold and Guillaume, 277-9; Tornay, S. C., *Averroës' Doctrine of the Mind*, *Philosophical Review*, May, 1948, 282n.; De Vaux, IV, 71; Duhem, IV, 566.
 114. Racon, R., *Opus matus*, i, 6; De Vaux, IV 87.
 115. Renan, 32.
 116. In Browne, II, 440.
 117. Ibid., 489.
 118. Pope, *Survey*, II, 1542.
 119. Lestrangle, *Baghdad*, 850; Browne, II; 460.
 120. Cf. Arnold, *Painting*, 99.
 121. Pope, *Survey*, II, 1044.
 122. Burton, *Personal Narrative*, 90-2
 123. Arnold and Guillaume, 166.
 124. Encyclopaedia Britannica, XVIII, 389.
 125. Arnold and Guillaume, 121; Pope, *Introduction*, 241; Encyclopaedia Britannica, XV, 657.
 126. Dennis, Oeo., *Cities and Cemeteries of Etruria*, I, 37.
 127. Brone, II, 432.
 128. Arnold and Guillaume, 98.

قصة الحضارة

ول وَايرئيل ديورانت

عصر الإيمان

ترجمة
محمد بدراف

الجزء الثالث من المجلد الرابع

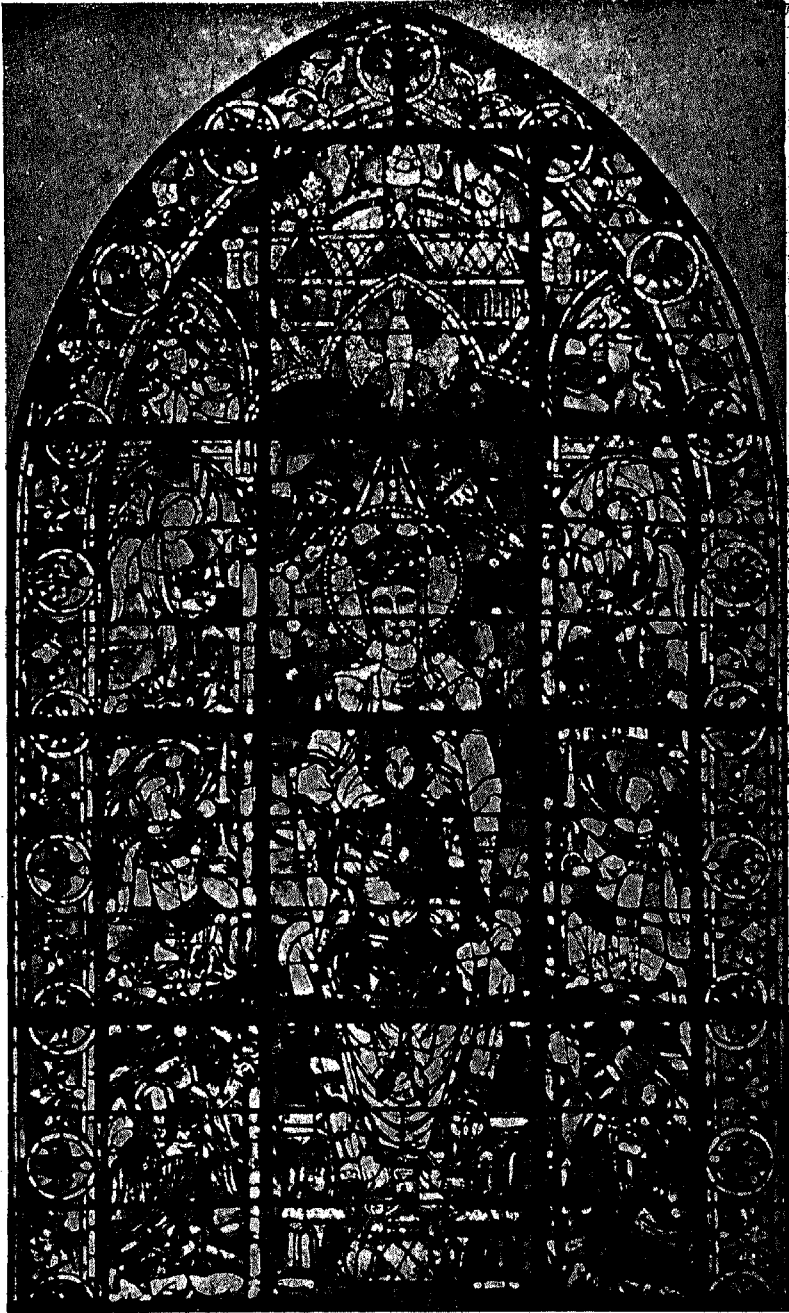
١٤



تونس



بيروت



(شكل ١) نقش على الزجاج من القرن الثاني عشر
في كنيسة تشارتر

الفهرس

الكتاب الثالث - الحضارة اليهودية

الصفحة

الموضوع

٣ الحوادث التاريخية مرتبة حسب تواريخها

الباب الخامس عشر : التلمود

٥	الفصل الأول : النفى
١١	الفصل الثاني : واضعو التلمود
١٧	الفصل الثالث : الشريعة
١٧	١ - الناحية الدينية
٢٢	٢ - الشعائر الدينية
٣٧	الفصل الرابع : الحياة والشريعة

الباب السادس عشر : يهود العصور الوسطى

٤١	الفصل الأول : المجتمعات الشرقية
٤٨	الفصل الثاني : الجماعات اليهودية في أوروبا
٥٧	الفصل الثالث : الحياة اليهودية في البلاد المسيحية
٥٧	١ - الحكومة
٥٩	٢ - الشؤون الاقتصادية
٦٦	٣ - الأخلاق
٧٣	٤ - الدين
٧٩	الفصل الرابع : كراهية اليهود

الباب السابع عشر : عقل اليهودى وقلبه

٩٥	الفصل الأول : الأدب
٦٠٥	الفصل الثاني : قامرات التلمود
١٠٩	الفصل الثالث : العلوم عند اليهود
١١٤	الفصل الرابع : نشأة الفلسفة اليهودية
١٢٠	الفصل الخامس : ابن ميمون
١٣٢	الفصل السادس : الحرب الميمونية

الموضوع	الصفحة
الفصل السابع : القبلة	١٣٦
الفصل الثامن : المعتق	١٤١

الكتاب الرابع - العصور المظلمة

الحوادث التاريخية في الكتاب الرابع	١٤٧
------------------------------------	-----

الباب الثامن عشر : العالم البيزنطي

الفصل الأول : هرقل	١٥٢
الفصل الثاني : مخطو الصور والتماثيل الدينية	١٥٧
الفصل الثالث : نظرة عامة في أحوال الإمبراطورية	١٦٢
الفصل الرابع : الحياة في بيزنطية	١٨٠
الفصل الخامس : النهضة البيزنطية	١٨١
الفصل السادس : البلقان	١٩٣
الفصل السابع : مولد روسيا	٢٠٠

الباب التاسع عشر : اضمحلال الغرب ٢٠٦

الفصل الأول : إيطاليا	٢٠٨
١ - اللبارد	٢٠٨
٢ - النورمان في إيطاليا	٢١١
٣ - البندقية	٢١٣
٤ - الحضارة الإيطالية	٢١٦
الفصل الثاني : أسبانيا المسيحية	٢٢٢
الفصل الثالث : فرنسا	٢٢٧
١ - مجيء الكارولنجيين	٢٢٧
٢ - شارلمان	٢٢٩
٣ - اضمحلال الكارولنجيين	٢٤٧
٤ - الآداب والفنون	٢٥٦
٥ - نشأة الأدواق	٢٦٣

الباب العشرون : نهضة الشمال

الفصل الأول : إنجلترا	٢٦٨
١ - ألفرد والدنمركيون	٢٦٨
٢ - الحضارة الإنجليزية - السكسونية	٢٧٣

الصفحة	الموضوع
٢٨٦	٣ - بين فتحين
٢٩٣	الفصل الثاني : ويلز
٢٩٦	الفصل الثالث : الحضارة الإيرلندية
٣٠٦	الفصل الرابع : اسكتلندا
	الفصل الخامس : أهل الشمال
٣٠٨	١ - قصص الملوك
٣١٣	٢ - الحضارة الشيكجية
٣٢٥	الفصل السادس : ألمانيا
٣٢٥	١ - تنظيم السلطة
٣٣٢	٢ - الحضارة الألمانية

الباب الحادى والعشرون : صراع المسيحية

٣٣٧	الفصل الأول : القديس بندكت
٣٤٢	الفصل الثاني : جريجورى الأكبر
٣٥٢	الفصل الثالث : الشؤون السياسية للبابوية
٣٥٧	الفصل الرابع : الكنيسة اليونانية
٣٦٣	الفصل الخامس : المسيحية تغزو أوربا
٣٧٧	الفصل السادس : البابوية فى الحضيض
٣٨١	الفصل السابع : إصلاح الكنيسة
٣٩٢	الفصل الثامن : الانشقاق الأكبر فى الشرق

الباب الثانى والعشرون : الإقطاع والفروسية

٤٠٤	الفصل الأول : نشأة الإقطاع
٤٠٨	الفصل الثانى : التنظيم الإقطاعى
٤٠٨	١ - العبد
٤١٠	٢ - رقيق الأرض
٤١٦	٣ - مجتمع القرية
٤٢٠	٤ - المالك
٤٢٨	٥ - الكنيسة الإقطاعية
٤٢٩	٦ - الملك
٤٣٤	الفصل الثالث : شريعة الإقطاع
٤٤٠	الفصل الرابع : الحروب الإقطاعية
٤٤٦	الفصل الخامس : الفروسية

فهرس الصور

رقم الصورة	مدلوها	الصفحة
١	نقش على الزجاج من القرن الثالث عشر في كنيسة تشارتر ... أول الكتاب	
٢	واجهة كنيسة القديس مرقس في مدينة البندقية أمام ص ٢١٤	
٣	كوة معقودة في كنيسة منتريال » » ٢١٦	
٤	مدخل كايلا پلانتيانا في بلرم بإيطاليا » » ٢١٨	

الكتاب الثالث

الحضارة اليهودية

١٣٥٠ — ١٣٥

الحوادث التاريخية في الكتاب الثالث مرتبة حسب تواريخها

التنبؤ .	٢٢٠ - ١
يهودا هنسيا .	١٨٩
المجمع العلمي اليهودي في سورا .	٢٢٩
الأموراثم .	٥٠٠ - ٢٢٠
جمع التلمود .	٥٠٠ - ٢٨٠
هلل الثاني يحدد التقويم اليهودي .	٣٥٩
السيورام .	٦٥٠ - ٥٠٠
الجاذنم في بابل .	١٠٤٠ - ٦٥٨
وفاة ماشاء الله الفيلسفي .	٨١٥
إسحق إسرائيلي ، الفيلسوف .	٩٥٥ - ٧٥٥
سعديا جاؤون ، الفيلسوف .	٩٤٢ - ٨٩٢
حسدائ بن شبروط ، الوزير .	٩٧٠ - ٩١٥
مرسوم الزواج بواحدة يصدره الكوهن جرشم .	١٠٠٠
ابن جبيرول الشاعر والفيلسوف .	١٠٢١ - ١٠٧٠
شمويل بن نجدلا ، الوزير .	١٠٣٨ - ١٠٥٥
شلومة بن يتزحاق (راشي) شارح التلمود .	١٠٤٠ - ١١٠٥
يوسف بن نجدلا .	١٠٥٥ - ١٠٦٦
إبراهام بارحيا (العالم في الرياضيات) .	١٠٦٥ - ١١٣٦
موسى بن عزرا الشاعر .	١٠٧٠ - ١١٣٩
يهودا هليقي ، الشاعر .	١٠٨٦ - ١١٤٧
إبراهام بن عزرا ، الشاعر .	١٠٩٣ - ١١٦٨
مذابيح الحرب الصليبية الأولى .	١٠٩٦
إبراهام بن داود ، الفيلسوف .	١١١٠ - ١١٨٠
ابن ميمون .	١١٣٥ - ١٢٠٤
مذابيح الحرب الصليبية الثانية .	١١٤٧
دافيد الروقي المسيح الكذاب .	١١٦٠
رحلات بنيامين التتطلي .	١١٦٠ - ١١٧٣
مشنة التوراة لابن ميمون .	١١٧٠
اليهود يطردون من فرنسا .	١١٨١ ، ١٢٥٤ ، ١٣٠٦

دلالة الحائرين .	١١٩٠
نشأة القبلة .	١١٩٠
المذابح في إنجلترا .	١١٩٠
مجلس الاتزان الرابع يأمر بأن يكون لليهود شارة .	١٢١٥
إحراق كتب ابن ميمون في منبلييه .	١٢٣٤
إحراق التلمود في باريس .	١٢٤٢
اليهود يطردون من إنجلترا .	١٢٩٠
سفر زوهر لموسى الليوثي .	١٢٩٥

الباب الخامس عشر

التلود

الفصل الأول

النفي ١٣٥ - ٥٦٥

بين بلاد الإسلام والمسيحية كان يعيش شعب عجيب احتفظ في خلال كل ما مر به من الشدائد بثقافته الخاصة يعزبه ويلهمه دينه الخاص ، ويعيش على هدى شريعته ومبادئه الأخلاقية ، ويخرج من بينه شعراؤه ، وعلماؤه ، وأدباؤه ، وفلاسفته ، وينقل البذور الخصبية بين عالمين متعادين . ولم تكن فتنة باركوزيبة Bar Cocheba (١٣٢ - ١٣٥) آخر الجهود التي بذلها اليهود ليستعيدوا حريتهم التي قضى عليها عمي وتيتس Titus . فقد أعادوا الكرة لاستخلاصها في عهد أنطولينس بيوس Antoninus Pius (١٣٥ - ١٦١) وأخفقوا في محاولتهم وحرّم عليهم أن يدخلوا المدينة المقدسة إلا في يوم تلك الذكرى المولدة ، ذكري تدميرها ، فقد كان يسمح لهم نظير جعل معين أن يأتوا إليها ليندبوا ويبكوا أمام جدران الهيكل المهدم . وكان سكان فلسطين التي خرب من مدائنها في فتنة باركوزيبة ٩٨٥ مدينة حتى محيت من الوجود ، وقتل من أهلها ٥٨٠٠٠ رجل وامرأة قد نقص إلى نصف ما كان عليه من قبل ، وانحط الباقون إلى درجة من الفاقة كادت الحياة الثقافية معها ألا يبقى لها أثر . ومع هذا فإنه لم يكذب على فتنة باركوزيبة جيل واحد حتى أنشئ في طبرية بيت الدين ، أي المجلس اليهودي القومي - وهو هيئة مؤلفة من واحد وسبعين

من العلماء الأبحار والمشرعين - وافتتحت المعابد والمدارس ودب الأمل مرة أخرى في النفوس :

غير أن فوز المسيحية قد صحبته متاعب جديدة . ذلك أن قسطنطين كان قبل أن يعتنق المسيحية قد سوى من الوجهة القانونية بين الدين اليهودى وبين سائر الأديان التي يدين بها غيرهم من رعاياه . أما بعد اعتناقه المسيحية فقد اضطهد اليهود وفرض عليهم قيوداً ومطالب جديدة ، وحرّم على المسيحيين أن يتصلوا بهم (١) . ونفى قسطنطين أبحارهم (٣٣٧) وجعل زواج اليهودى من مسيحية جريمة يعاقب مرتكبها بالإعدام (٢) . وفرض جالوس Gallus أخو قسطنطين على اليهود من الضرائب الفادحة ما اضطّر الكثيرين منهم إلى أن يبيعوا أبناءهم ليوفوا بمطالبه منهم . وثار اليهود مرة أخرى في عام ٣٣٢ وأنحدت ثورتهم ودكت صبورى دكاً ، وخربت أجزاء من طبرية وغيرها من المدن ، وقتل آلاف من اليهود ، واستعبد آلاف آخرون . وبلغت حال اليهودى الفلسطينى وقتئذ (٣٥٩) درجة من الاضططاط ، كما بلغ الاتصال بينهم وبين غيرهم من الجماعات اليهودية درجة من الصعوبة ، اضطّر معهما حاخامهم هلل الثانى أن ينزل عما كان ليهود فلسطين من الحق في أن يحددوا لجميع اليهود تواريخ أعيادهم ، وأصنر لهم تقويماً يحددون هم بمقتضاه تواريخ هذه الأعياد مستقلين عن يهود فلسطين ، ولا يزال هذا التقويم الذى أصدره هلل معمولاً به إلى اليوم لدى اليهود في جميع أنحاء العالم .

فلما ارتقى يوليان عرش الإمبراطورية أُنقذ اليهود إلى أجل قصير من هذا التعذيب . فقد خفف هذا الإمبراطور الضرائب المفروضة عليهم ، وألغى القوانين التي تجعلهم أقل منزلة من غيرهم ، وأطرى الصدقات العبرانية ، واعترف بأن يهوه « إله عظيم » . وسأل زعماء اليهود عن سبب امتناعهم عن الضحايا الحيوانية ، فلما أجابوه بأن شريعهم تحرم عليهم هذه التضحية إلا في هيكل أورشليم أمر أن

بعاد بناء الهيكل من مال الدولة^(٣) . وأعيد فتح أورشليم لليهود فهرعوا إليها من جميع أنحاء فلسطين ومن كل ولاية في الإمبراطورية ، وسخر الرجال والنساء والأطفال جهودهم لإقامة البناء ، وتبرعوا بجليهم وما ادخروه من أموالهم لتأثيث الهيكل بالحديد^(٤) ، وفي وسعنا أن نتصور سرور القوم الذين ظلوا مائتي عام يدعون ربهم أن يمن عليهم بهذا اليوم (٣٦١) . ولكن بينما كانوا يحفرون الأرض لوضع الأساس إذ خرج من باطنها لهب أحرق عدداً من العمال القائمين بالعمل^(٥) . غير أن الناس عادوا إلى العمل من جديد - فعادت هذه الظاهرة مرة أخرى - ولعل سببها انفجار بعض الغازات الطبيعية - فأوقفت العمل وثبطت همة القائمين بالمشروع . وفرح المسيحيون إذ بدأ لهم أن الله غير راض عن إعادة بناء الهيكل ، وعجب اليهود من هذا وحزنوا له ؛ ثم مات يوليان فجاءة ، فحبست عنهم أموال الدولة ، وسنت من جديد القوانين المقيدة لهم وجعلت أشد صرامة مما كانت من قبل ، وحرم على اليهود مرة أخرى دخول أورشليم ، فعادوا إلى قراهم ، وفقيرهم ، وصلواتهم . وكتب جيروم بعد قليل من ذلك الوقت يقول : إن أهل فلسطين اليهود لا يزيدون على عشر ما كانوا عليه من قبل^(٦) . وفي عام ٤٢٥ أنفى ثيودوسيوس الثاني الحاخامية الفلسطينية ، وحلت الكنائس المسيحية اليونانية محل المعابد والمدارس اليهودية ، وتخلت فلسطين بعد هبة قصيرة في عام ٦١٤ ، عن زعامة العالم اليهودي .

فهل يلام اليهود بعد هذا إذا أملوا أن تكون حاتم أحسن من هذه الخلل في بلاد لا تسود فيها المسيحية سيادتها في البلاد التي يخضعون لسلطانها . فمنهم من انتقل نحو الشرق إلى أرض النهرين وإلى بلاد الفرس وقبوا العنصر اليهودي البابلي الذي لم يتعلم من تلك البلاد منذ الأسر الذي حدث في عام ٥٩٧ ق . م . وكانت وظائف الدولة محرمة على اليهود في بلاد الفرس أيضاً ؛ ولكن هذه الوظائف كانت محرمة كذلك على جميع الفرس ما عدا طبقة الأشراف ، ولذلك

لم يكن هذا القيد ثقيلاً على اليهود أنفسهم (٧) . وقد حاقت باليهود في تلك البلاد عدة اضطهادات ، ولكن الضرائب المفروضة عليهم كانت أخف عبئاً منها في غير تلك البلاد . وكانت الحكومة في الأحوال العادية تتعاون معهم ، وكان ملوك الفرس يعترفون بالإجزيلارك أى زعيم الطائفة اليهودية ويحولونه . وكانت أرض العراق وقتئذ خصبة تسقيها مياه النهرين ، ولذلك أصبح من فيها من اليهود زراعا أثرياء وتجاراً ناشطين ، ومنهم طائفة من بينها عدد من جلة العلماء الذائعي الصيت أثرت من عصر الجعة (٨) . وتضاعف عدد الجالية اليهودية في بلاد الفرس بسرعة كبيرة لأن دين الفرس كان يبيح تعدد الأزواج . وكان اليهود يتبعون هذه العادة لنفس الأسباب التي كانت تبيحها الشريعة الإسلامية . وكان الكوهنان الطيبان رب ونحمان أثناء تجوالهما بعلنان في كل مدينة يحلان بها عن رغبتهما في زوجات موقوفات ، لكي يضربا بذلك مثلاً لشبان تلك المدن للحياة الزوجية ويبيدهم على الحياة الإباحة (٩) . وفي نحرديا Nehardea ، وسورة ، ويمهديثا أنشئت مدارس للتعليم العالي ، أصبح علماءها ، وأضحت قرارات كواهنها الدينية ، موضع الإجلال في جميع أنحاء البلاد التي تشتت فيها اليهود .

وظل اليهود في أثناء ذلك الوقت ينتشرون في جميع البلاد الواقعة حول البحر المتوسط ، فمنهم من ذهب لينضم إلى الجاليات اليهودية في بلاد الشام وآسية الصغرى ، ومنهم من ذهب إلى القسطنطينية ، رغم عداء أباطرة الروم ويطارقهم ، ومنهم من اتجهوا من فلسطين جنوباً إلى جزيرة العرب وعاشوا في سلام وحرية دينية مع بني جنسهم الساميين ، واحتلوا في تلك البلاد أقاليم برمتها مثل نخير ، وكاد عددهم في يثرب (المدينة) يكون مساوياً لعدد العرب أنفسهم ، واسألوا إلى دينهم عدداً من الأهلين ، وهيئوا عقول العرب لما جاء به الإسلام من عقائد يتفق بعضها مع العقائد اليهودية . ومنهم من عبروا البحر الأحمر إلى بلاد الحبشة حيث تضاعف عددهم بسرعة حتى قيل لهم بلغوا

في عام ٣١٥ نصف سكان تلك البلاد^(١٠) . وكان اليهود يمتلكون نصف سفن الإسكندرية ، وكان ثراؤهم في تلك المدينة السريعة التأثر والاحتياج مما زاد من حدة العداء الديني .

وانشرت جاليات يهودية في جميع مدائن أفريقيا الشمالية ، وصقلية ، وسردينية . وكان عددهم كبيراً في إيطاليا ، وكان الأباطرة الوثنيون يحمونهم في العادة من الأذى ، وإن كان الأهلون المسيحيون والإمبراطور ثيودريك ، والبابوات يشددون عليهم الكثير في بعض الأحيان . وكان في أسبانيا جاليات يهودية قبل يوليوس قيصر ، ونمت تلك الجاليات دون أن يتعرض لها بأذى تحت حكم الأباطرة الوثنيين ، وأثروا في عهد القوط الغربيين الآريين ، ولكنهم تعرضوا للاضطهاد الميئس بعد أن اعتنق الملك ريكارد (٥٦٨ - ٦٠١) عقائد موثمة نيقية . ولسنا نعرف أن اليهود تعرضوا للاضطهاد في غالة قبل أن تصدر قرارات مجلس أورليان الثالث والرابع (في عام ٥٣٨ و٥٤١) بعد أن انتصر كلوفس Clovis المسيحي المتمسك بدينه على القوط الغربيين الآريين بجيبل من الزمان . وأحرق مسيحيو أورليان كنيسة يهودياً حوالي عام ٥٦٠ ، وطلب اليهود إلى جنثرام Gunthram ملك الفرنجة أن يعيد بناءه من أموال الدولة أسوة بما فعله ثيودريك في مثل هذه الحادثة من قبل . ولما رفض جنثرام هذا الطلب صاح الأسقف جريجورى التورى Gregory of Tours : « ما أعظمك أيها المليك وما أعجب حكمتك ! »^(١١) .

وكان اليهود في البلاد التي انتشروا فيها ينتعشون على الدوام بعد هذه الخطوب ، فكانوا يعيدون بناء معابدهم في صبر وأناة ، وينظمون شئون حياتهم ، ويكدهون ، ويتجرون ، ويرابون ، ويصلون ، ويأملون ، ويزدادون ويتضاعفون . وكان يطلب إلى كل جالية في بلد أن تقيم على نفقتها مجتمعة

ما لا يقل عن مدرسة ابتدائية وأخرى ثانوية يضمهما في العادة الكنيس نفسه ، وكان يشار على العلماء ألا يمشوا في بلد يخلو من هاتين المدرستين . وكانت لغة العبادة والتعليم هي اللغة العبرية ، أما لغة التخاطب اليومي العادي فكانت الأرامية في بلاد الشرق ، واليونانية في مصر وفي بلاد أوروبا الشرقية ؛ أما في غير تلك البلاد فكان اليهود يتخاطبون بلغة من يعيشون بينهم من الأهلين . وكان الدين هو الموضوع الذي يدور حواه التعليم اليهودي ، أما الثقافة غير الدينية فكانت في ذلك الوقت أن تحمل إهمالاً تاماً ؛ ذلك أن اليهود المشتمين لم يكونوا يستطيعون أن يحفظوا كيأنهم جسمياً وروحياً إلا عن طريق شريعتهم ؛ وكان الدين عندهم هو دراسة هذه الشريعة والعمل بها . وكان دين آباؤهم يزداد قيمة لديهم كلما زاد الهجوم عليه ، وكان التلمود والكنيس الدعائيتين والملجأين للذين لا غنى عنهما لشعب حائر تقوم حياته على الرجاء ويقوم زجاؤه على الإيمان بالله .

الفصل الثاني

مذشو التلمود

كان الكثرة ورجال الدين المقيمون في المعابد والمدارس الفلسطينية والبابلية هم الذين ألفوا أسفار الشريعة الضخمة المعروفة بالتلمود الفلسطيني والتلمود البابلي . وكانوا يقولون إن موسى لم يترك فقط لشعبه شريعة مكتوبة تحتويها الأسفار الخمسة ، بل ترك له أيضاً شريعة شفوية تلقاها التلاميذ عن المعلمين ووسعوا فيها جيلاً بعد جيل . وكان أهم ما نثار حوله الجدل بين الفريسيين والصدوقيين الفلسطينيين هو : هل هذه الشريعة الشفوية هي الأخرى من عند الله فهى لذلك واجبة الطاعة ؟ ولما أن زال الصدوقيون بعد تشتت اليهود عام ٧٠ م وورث رجال الدين تقاليد الفريسيين ورواياتهم قبل جميع اليهود المتمسكين بدينهم الشريعة الشفوية ، وآمنوا بأنها أوامر من عند الله وأضافوها إلى أسفار موسى الخمسة ، فتكونت من هذه وتلك التوراة أو الشريعة الموسوية التي استمسك بها اليهود وعاشوا بمقتضاها ، وكانت حقيقة لا مجازاً هي كتابهم وقوام حياتهم . وإن القصة التي تروى تلك العملية الطويلة التي استغرقت ألف عام ، والتي تجمعت في خلالها الشريعة الشفوية ، واتخذت فيها صورتها النهائية المعروفة بالمشنا ؛ والقرون الثمانية التي تجمعت فيها ثمار الجدل ، والأحكام ، والإيضاح فكانت هي الجارتين أو شروح المشنا ؛ وانضمام المشنا إلى أقصر هاتين الجارتين ليتألف منهما التلمود الفلسطيني ، وإلى أطولها ليتألف منهما التلمود البابلي - إن القصة التي تروى هذه الأحداث الثلاثة لمن أكثر القصص تعقيداً وأعظمها إثارة للدهشة في تاريخ العقل البشرى . وكما كان الكتاب المقدس أدب العبرانيين

الأقدمين ودينهم ، كانت التوراة حياة يهود العصور الوسطى ودماءهم .
وذلك أن أحكام الشريعة الواردة في الأسفار الخمسة أحكام مسطورة ،
ولهذا فإنها لم تكن تستطيع الوفاء بجميع حاجات أورشليم بعد أن فقدت
حريتها ، ولا اليهودية بعد أن فقدت أورشليم ، ولا الشعب اليهودى فى خارج
فلسطين ، لم تستطع الوفاء بحاجات هذه أو معالجة الظروف المحيطة بها . ومن
ثم كانت مهمة علماء السّنهالرين قبل النشئت ، والأخبار بعده ، هى تفسير
الشريعة الموسوية تفسيراً يهتدى به الجيل الجديد والبيئة الجديدة ويفيدان
منه . وتوارث المعلمون جيلاً بعد جيل تفاسير هؤلاء العلماء ومناقشاتهم
وآراء الأقلية . والأغلبية فى موضوعاتها . على أن هذه الروايات الشفوية لم
تدون ، ولعل سبب عدم تدوينها أن هؤلاء العلماء أرادوا أن يجعلوها مرنة
قابلة للتعديل ، أو لعلهم أرادوا بذلك أن يرغموا الأجيال التالية على
استظهارها . فكان فى وسع الأخبار الذين أخذوا على أنفسهم تفسير الشريعة
إذا اضطرتهم الظروف أن يستعينوا بمن قدروا على استظهارها . وكان
الأخبار فى الستة القرون الأولى بعد ميلاد المسيح يسمون « التنايم Tennaim »
أى « معلمى الشريعة » وإذ كانوا هم وحدهم المتضلعين فيها ، فقد كانوا هم
المعلمين والقضاة بين يهود فلسطين بعد تدمير الهيكل .

وكان أخبار فلسطين وأخبار اليهود «المشتتين أرسقراطية فذة لامثيل لها فى
التاريخ . ذلك أن هؤلاء الأخبار لم يكونوا طبقة وراثية أو مغلقة مقصورة على
طائفة خاصة من الناس ، بل إن الكثيرين منهم قد ارتقوا من أفقر الطبقات ،
وكان معظمهم يكسبون قوتهم بالعمل فى الصناعات المختلفة حتى بعد أن أصبحوا
من ذوى الشهرة العالمية ، وظلوا إلى ما يقرب من أخريات تلك الفترة التى نتحدث
عنها لا يعطون أجوراً على قيامهم بالتدريس أو بأعمال القضاء وكان الأثرياء

يجعلونهم في بعض الأحيان شركاء غير عاملين في مشروعاتهم المسالية والتجارية ، أو يأوونهم في بيوتهم ، أو يزوجونهم من بناتهم ، ليوفروا عليهم عناء الكد لكسب قوتهم . ومنهم من عدد قليل أفسدهم ما كان لهم من المنزلة الرفيعة بين أبناء دينهم ، ومنهم كانوا كسائر الخلق يفضبون ، ويغارون ، ويحقدون ، ويسرفون في النقد ، ويتكبرون . ومنهم من كان لا بد لهم أن يذكروا أنفسهم المرة بعد المرة أن العالم بحق رجل متواضع ، لأن الحكيم يرى الجزء في ضوء الكل إن لم يكن لغير ذلك من الأسباب . وكان الناس يحبونهم لفضائلهم ولعيوبهم ، ويعجبون بهم لعلمهم وتقواهم ، ويروون ألف قصة وقصة تنبئ عن حكمهم ومعجزاتهم . وقد ظل اليهود إلى يومنا هذا يجلون طلاب العلم والعلماء كما لا يجلبهم شعب آخر في العالم كله .

ولما كثرت قرارات الأحبار وتضاعفت أضحيت مهمة استظهارها شاقة غير معقولة . ولذلك حاول هليل وعقيبا Akiba ومير Meir مراراً عدة أن يصنفوها ويستعينوا على استظهارها ببعض الأساليب والرهوز ، ولكن هذه التصانيف والرموز والحيل لم يحظ شيء منها بالقبول من جمهرة اليهود . وكانت نتيجة هذا أن أصبح الاضطراب في نقل الشريعة هو القاعدة العامة ، ونقص عدد من يحفظون الشريعة كلها عن ظهر قلب نقصاً حروعا ، وكان مما زاد الطين بلة أن تشتت اليهود قد نشر هذه القلة في أقطار نائية . وحوالي عام ١٨٩ تابع الحبر يهودا هنسيا Jehuda Hanasi في قرية صبورة(*) بفلسطين عمل عقيبا ومير ، وعدله ، وأعاد ترتيب الشريعة الشفوية بأكملها ، ثم دونها ، وزاد عليها إضافات من عنده ، فكانت هي « مشنا الحبر يهودا »(**) وانتشرت هذه بين اليهود انتشاراً

(*) قرية على بحيرة طبرية في فلسطين . (المترجم)

(**) ونرى أقلية من العلماء أن يهودا لم يدون مشناه ، وأنها أخذت تنتقل شفويّاً من جبل إلى جبل حتى القرن الثامن الميلادي . ومن شاء معرفة رأى الأغلبية فليرجع إلى =

أصبحت معه بعد زمن ما هي المشنا، والصورة المعتمدة لشريعة اليهود الشفوية .
والمشنا (أى التعاليم الشفوية) كما نعرفها اليوم هي الصورة النهائية .
لطبعات مختلفة كثيرة وحواشى متعددة أدخلت عليها من أيام يهوذا إلى
الآن . ولكنها مع هذا خلاصة مدججة محكمة ، وضعت لكى تحفظ عن
ظاهر قلب بكثرة التكرار ، ولهذا فإن من يقبل على قراءتها يرى أن
عباراتها المحكمة الجامعة الغامضة تعذب قارئها بما تبعته في نفسه من الآمال .
الخادعة اللهم إلا إذا كان هذا القارئ ملما بحياة اليهود وتاريخهم .

وقد قبلها يهود بابل وأوربا كما قبلها يهود فلسطين ، ولكن كل
مدرسة فسرت أمثالا وحكمها تفسيراً يخالف ما فسرتها به الأخرى ،
وجمعت ستة أجيال (٢٢٠ - ٥٠٠ م) من أئمة الأمور (الشراح) ،
هاتين الطائفتين الضخمتين من الشروح وهما الجارا الفلسطينية والبابلية ،
كما اشتركت من قبل ستة أجيال (١٠ - ٢٢٠ م) من الأئمة التلاميذ .
في صياغة المشنا . وبذلك فعل المعلمون الجدد بمشنا يهوذا ما فعله التلاميذ .
بالعهد القديم : فتناقشوا في النص ، وحلوه ، وفسروه ، وعدلوه ،
ووضحوه لكى يطبقوه على المشاكل الجديدة ، وعلى ظروف الزمان
والمكان . ولما قارب القرن الرابع على الانتهاء نسقت مدارس فلسطين
شروطها وصاغتها في الصورة المعروفة بالجارا الفلسطينية . وشرع الكوهن رب
آشى رئيس جامعة سورا حوالى ذلك الوقت في تقنين الجارا البابلية وظل
يواصل العمل في ذلك التقنين جيلا من الزمان . وأتمه ريبنا الثانى بار (ابن)
شمويل ، وهو أيضا من جامعة سورا بعد مائة عام من ذلك الوقت (٤٩٩) .

= كتاب ج . ف . مور المسمى « اليهودية في القرون الأولى من التاريخ المسيحى Judaism in the First Centuries of the Christian Era » طبعة جامعة كيمبردج بولاية ماسشوستس عام ١٩٣٢ المجلد الأول ص ١٥١ وكذلك كتاب و . ا . أوسترلى W. O. Oesterley و . ج . ه . بوكس O. H. Box المسمى نظرة قصيرة في الآداب الدينية اليهودية في العصور الوسطى Short Survey of the Literature of Rabbinical and Medieval Judaism .

وإذا ذكرنا أن الجارا البابلية أطول من المشنا إحدى عشرة مرة ، بدأنا نعرف لم استغرق جمعها مائة عام كاملة . وظل الأحبار السبوراثم (المناطق) مائة وخمسين سنة أخرى (٥٠٠ - ٦٥٠) يراجعون هذه الشروح الضخمة ، وينصقلون التلمود البابلي الصقل الأخير .

بقي أن نقول إن لفظ التلمود يعنى التعليم . ولم يكن الأموراثم يطلقون اللفظ إلا على المشنا . أما فى الاستعمال الحديث فهو يشمل المشنا والجارا . . . والمشنا فى التلمود البابلى هى بعينها مشنا التلمود الفلسطينى ، ولا يختلف التلمودان إلا فى الجارا أو الشروح فهى فى التلمود البابلى أربعة أمثالها فى التلمود الفلسطينى (*) .

ولغة الجارا البابلية والجارا الفلسطينية هى الآرامية ، أما لغة المشنا فهى اللغة العبرية الجديدة تتخللها ألفاظ كثيرة مستعارة من اللغات المجاورة . وتمتاز المشنا

(*) يشتمل التلمود البابلى على ٢٠٤٩ ورقة من النطع الكبير أى نحو ٦٠٠٠ صفحة . فى كل منها ٤٠٠ كلمة . وتنقسم المشنا إلى ستة سدريمات (سدريمات) sedarim (ست فصول) وينقسم كل سدريم إلى عدد من المسكتات Masechtoth (المقالات) يبلغ مجموعها ثلاثاً وستين مسكتة وتنقسم كل واحدة منها إلى عدد من البرقيات (الفصول) وكل برقيم إلى مسنيوتات . (تعاليم) . وتشتمل الطبقات الحديثة من التلمود عادة على : (١) شروح راشي Rashi (١٠٤٠ - ١١٠٥) وهذه تظهر على الهامش الداخلى لصفحات النصوص و (٢) توسافوتات Tosafot . (إضافات) وهى مناقشات فى التلمود للأحبار الفرنسيسيين والألمان من رجال القرنين الثانى عشر والثالث عشر وهذه تظهر على الهامش الخارجى لصفحات النصوص . وتصيف عدة طبقات إلى هذه وتلك توسفتات Tosefta (تكملات) - وهى بقايا من الشريعة الشنوية التى تخلو منها مشنا يهودا هنسيا .

وسننقل فى هذا الفصل فضلاً عن ذلك من المدرس (التفسير) وهى خطب ألقاها - على حد قولهم - التلاميذ أو الأموراثم ولكنها جمعت ودونت خلال الفترة المحصورة بين القرنين الرابع والثانى عشر ، وتشرح فى أسلوب شعبى مهمل كتباً مختلفة من الكتب العبرية المقدسة . ومن هذه المدرشيمات (التفاسير) الكبرى تفسير جيتيز رباه Rabbah لسفر التكوين ، ويقرأ رباه لسفر اللاويين وخمسة ملفات (مجلوتات Megilloth) - تشرح إستير ، ونشيد الأناشاد ، والمرأتى ، وسفر الجامعة ؛ وتشرح المكيلتا Nschilta سفر الخروج والسفر Sifra يشرح سفر اللاويين ، والسفرى Sifre يشرح سفرى الأعداد والثنية ، وتحتوى البسيقتا على عظات ذات صلة بفقرات من الكتاب المقدس (١٢) .

بالإيجاز ، فهي تعبر عن القانون الواحد بتقابل من السطور ، أما الجاربان فتتيسطان عن قصد وتعمد ، وتذكران مختلف آراء كبار الأجرار عن نصوص المشنا وتصفان الظروف التي قد تتطلب تعديل القانون وتضيفان كثيراً من الإيضاحات . ومعظم المشنا نصوص قانونية وقرارات (هكسكا) ، أما الجاربان فبعضهما هلكا - إعادة نص قانون أو بحثه - وبعضها هجدة (قصص) . وقد عرفت الهجدة تعريفاً غير دقيق بأنها كل ما ليس هلكا في التلمود . وأكثر ما تسجله الهجدة هو القصص ، والأمثلة الإيضاحية . وأجزاء من السير ، والتاريخ ، والطب ، والفلك ، والتنجم ، والسحر ، والتصوف ، والحث على الفضيلة ، والعمل بالشرعية ، وكثيراً ما تروج الهجدة عن نفس الطلاب المتعلمين بعد جدل معقد متعب . ومثال ذلك ما يأتي :

بينما كان رب أمى ورب أسى يتحدثان مع الكوهن إسحق منجا إذ قال له أحدهما : « احك لنا يا سيدى قصة لطيفة » ، وقال الآخر : « لابل أرجوك أن تفسر لنا بدلا من هذا نقطة دقيقة من النقاط القانونية » . فلما بدأ القصة أغضب أحدهما ، ولما أخذ يشرح النقطة القانونية أغضب الآخر . فلما رأى ذلك ضرب لها هذا المثل : « إن مثلى معكما كمثل رجل تزوج بائنتين إحداهما شابة والأخرى عجوز ، فاقتلعت الزوجة الشابة جميع شعره الأشيب حتى يبدو شاباً ، واقتلعت الزوجة العجوز جميع شعره الأسود حتى يبدو عجوزاً ، وكانت نتيجة فعلهما هذا أن أصبح الرجل أصلع » (١٣) .

الفصل الثالث

الشريعة

فإذا حاولنا الآن على الرغم من جهلنا بالموضوع عامة أن نصور باختصار محل كريبه ، بعض مناحي هذا التلمود الضخم ، الذى تتأثر به كل صغيرة وكبيرة من حياة العبرانيين فى العصور الوسطى ، إذا حاولنا هذا وجب علينا أن نقر من بداية الأمر أننا إنما نخدش الجبل ، وأن معالجتنا إياه من خارجه تعرضنا لا محالة للخطأ .

الناحية الدينية

يقول رجال الدين اليهود إن من واجب الإنسان أن يدرس الشريعة مسطورة وشفوية، ومن حكمهم المأثورة فى هذا المعنى قولهم: «إن دراسة التوراة أجل قدراً من بناء الهيكل»^(١٤). و«إن من واجب الإنسان وهو متهمك فى دراسة الشريعة أن يقول لنفسه كل يوم: «كأنا فى هذا اليوم قد تلقيناها: من طورسيناء»^(١٥)، وليست الدراسات الأخرى بعد ذلك واجبة؛ فالفلسفة اليونانية والعلوم الدنيوية لا تصح دراستها إلا فى تلك الساعة التى ليست ليلاً ولا نهاراً^(١٦). ويعتقد اليهود أن كل كلمة من كتابهم المقدس من كلمات الله بالمعنى الحرفى لهذه العبارة، وحتى نشيد الإنشاد نفسه إن هو إلا ترنيمة موحى بها من عند الله - لتصور بصورة مجازية اقتران يهوه بإسرائيل عروسه المختارة(*)^(١٧). وإذا كان انعدام الشريعة تعقبه حتماً القوضى الأخلاقية فإن

(*) ويفسر رجال الدين هذه العبارة بأنها وصف رمزى لاتحاد المسيح بالكنيسة زوجته المختارة .

الشريعة وجدت لا محالة قبل أن يخلق العالم « في صدر الله أو عقاه » (***) ، وكان إنزالها على موسى لا شيء غير، حادثاً من حوادث الزمان . والتلمود أو بعبارة أدق جزؤه الذى يبحث فى الشريعة (الهلكا) هو أيضاً كلمات الله الأزلية ؛ وهو صياغة للقوانين التى أوحاها الله إلى موسى شفويًا ثم علّمها موسى لحلفائه ، ولهذا فإن ما فيها من الأوامر والنواهي واجبة الطاعة تستوى فى هذا مع كل ما جاء فى الكتاب المقدس (***) . -ومن أبحار اليهود من يجعلون المشنا مرجعاً أقوى حجة من الكتاب المقدس ، لأنها صورة من الشريعة مبعدة جاءت متأخرة عنها (١٨) . وكانت بعض قرارات الأحبار تتعارض تعارضاً صريحاً مع قوانين أسفار موسى الخمسة . ، أو تفسرها تفسيراً يبيح مخالفتها (١٩) . وكان يهود ألمانيا وفرنسا فى العصور الوسطى يدرسون التلمود أكثر مما يدرسون الكتاب المقدس نفسه .

ومن المبادئ البدئية فى التلمود ، كما أن من المبادئ البدئية فى الكتاب المقدس وجود إله عاقل قادر على كل شيء . وقد وجد بين اليهود من حين إلى حين عدد من المتشككين أمثال اليسع بن أيوبا العالم الذى اتخذ الكوهن تأثير صديقه له ، ولكن يبدو أن أولئك المتشككين كانوا أقلية صغيرة لا تكاد تجهر بأرائها . والله كما يصفه التلمود إله متصف صراحة بصفات البشر ؛ فهو يحب ويغض ويغضب (٢٠) ويضحك (٢١) ويبكى (٢٢) . ويحسن بوخز الضمير ،

(*) قارن بذلك ما يعتقده الصينيون الأقدمون من أن حركة العالم وبقائه إنما يعتمدان على القانون الأخلاقى ؛ وتشبيه هرقليطس حيود الكواكب بالديونوب ؛ و « أفكار » أفلاطون الفروضية الأصلية المقدسة . وأصل هذه النظرية يرجع إلى الآية الثالثة والعشرين من الأصحاح الثامن من سفر الأمثال . وقبل أقر المسيح بأزلية الشريعة (الآية ٧ من الأصحاح السابع عشر من إنجيل لوقا ، الآية الثامنة عشرة من الأصحاح الخامس من إنجيل متى) ؛ كذلك يعتقد المسلمون أن القرآن أيضاً أرى .

(**) لم يقر أى مجمع يهودى رسمى هذا الرأى التلمودى الخاص بالتلمود ؛ واليهودية الحديثة بعد إصلاحها ترفضه .

ويلبس التأمم^(٢٤) ، ويجلس على عرش يحيط به طائفة من الملائكة المختلفى الدرجات يقومون على خدمته ، ويدرس التوراة ثلاث مرات فى كل يوم^(٢٥). ويعترف رجال الدين بأن هذه الصفات البشرية قائمة على الافتراض إلى حد ما ، ويقولون : « إننا نستعير له صفات من خلقه نصفه بها لنيسر بذلك فهمه »^(٢٦) ، وإذالم يكن فى مقدور العامة أن يفكروا إلا على أساس الصور المادية فليس الذنب واقعاً عليهم . وهم يظنون الله أيضاً بأنه روح الكون غير المنظورة ، السارية فيه كله ، تمده بالحياة ، تسمو عليه وتلازمه فى وقت واحد ، تملو على العالم ولكنها مع ذلك حالة فى كل ركن من أركانه وكل جزء من أجزائه . والحضرة الإلهية الكونية المسماة بالسكينا (السكّن) تكون حقيقية بنوع خاص فى الأشخاص المقدسين وفى الأماكن والأشياء المقدسة ، وفى ساعات الدرس والصلاة . لكن هذا الإله القادر على كل شىء رغم هذا إله واحد . وليس بين الأفكار كلها فكرة أبغض إلى اليهودية من تعدد الآلهة ، واليهود لا يفتنون يجهرون بوحدانية الله فى حماسة قوية وينددون بشرك الوثنية وبما يبدو فى الثالث المسيحى من تثليث . وهم يجهرون بهذه الوحدانية فى أشهر صلواتهم وأكثرها انتشاراً بينهم صلاة شمع يسرائيل : « اسمعى يا إسرائيل ، الله إلهنا ، الله واحد » (شمع يسرائيل أدوناي إلهينا أدوناي أحد)^(٢٧) . وليس ثمة مكان يجواره فى هيكله أو عبادته إلى مسيح ، أو نبي ، أو قديس . وقد نهى أبحار اليهود الناس عن ذكر اسمه إلا فى أحوال جد نادرة يقصدون بذلك أن يحولوا بينهم وبين تدنيسه أو اتخاذه وسيلة للسحر ، ولكى يتجنبوا التلطق بهذا الاسم الرباعى يهوه كانوا يذكرون بدلا منه لفظ أدوناي أى الرب ، بل ويشيرون بأن يستعمل بدلا منه عبارات مثل : « الواحد المقدس » « الواحد الرحيم » « السماوات » « أينا الذى فى السماء » . وفى اعتقادهم أن الله قادر على صنع المعجزات وأنه يصنعها فعلا ، وخاصة على أيدي كبار الأبحار ؛ ولكن يجب ألا يظن أن هذه

المعجزات خرق لقوانين الطبيعة إذ ليس ثمة قوانين لإرادة الله ،
وقد خلق كل شيء لغرض إلهي طيب : « فقد خلق الله القوقعة لمداواة
الحرب ، والزجاجة لمداواة لسعة الزنبور ، والبعوضة لمداواة عضه الأفعى ،
والأفعى لملاج الاحتقان(٢٨) ، وبين الله والإنسان صلة لا تنقطع ؛ وكل
خطوة يخطوها إنما يخطوها أمام ناظره لا تخفى عنه ، وكل عمل يعمله الإنسان
أو فكرة تجول بخاطره في خلال يومه يمجدها بالذات الإلهية أو يفضيها .
والناس كلهم أبناء آدم ، ولكن « الإنسان قد خلق أولاً وله ذنب كذنب
الحيوان(٢٩) » و « كانت وجوه الناس إلى عهد أخنوخ شبيهة بوجوه
القردة(٣٠) . ويتكون الإنسان من جسم وروح ، فروحه من عند الله ،
وجسمه من الأرض ، والروح تدفعه إلى الفضيلة ، والجسم يدفعه إلى الخبيثة .
أولعل دوافعه الشريرة قد أتت إليه من الشيطان ، ومن ذلك العدد الجحيم من
الأرواح الخبيثة التي تكمن حوله في كل مكان(٣١) . بيد أن كل شر قد يكون
في نهاية الأمر خيراً ؛ ولولا شهوات الإنسان الأرضية لما كد الإنسان
أوتناسل . وتقول إحدى الفترات الظرفية « تعال نزر الخير لآبائنا ، فلإنهم
لو لم يأثموا لما جئنا نحن إلى هذه الدنيا(٣٢) .

والخبيثة من فطرة الإنسان ، ولكن ارتكابها ليس موروثاً ، وقد قبل
أحبار اليهود عقيدة سموط الإنسان ، ولكنهم لم يقبلوا عقيدة الخبيثة الأولى
ولا الكفارة الإلهية . فالإنسان في رأيهم لا يعاقب إلا على ما ارتكبه هو من
الذنوب ، وإذا ما لقي من العقاب في الحياة الدنيا أكثر مما يبدو له أنه يستحقه
على ذنوبه ، فقد يكون ذلك لأننا لا نعرف مقدار هذه الذنوب كلها ، أو قد
يكون هذا الإفراط في العقاب نعمة كبرى ، تؤهله للخير العميم في الدار الآخرة .
ومن أجل هذا يجب على الإنسان كما يقول عقياً أن يتنهج لكثرة ما يصيبه من
سوء(٣٣) . أما الموت فقد جاء إلى الدنيا بسبب آثام الإنسان ؛ وغير الآثم بحق
لا يموت أبداً(٣٤) . فالموت دين على البشرية الآثمة لباعث الحياة جميعها . ويقص

علينا مدرسن قصة مؤثرة عن موت الكائن ماير فيقول :

بينما كان الكوهن ماير يلتقى موعظته الأسبوعية عصر يوم من أيام السبت إذ مات ولداه المحبوبان فجاءة في منزله . فغطتُهما أمهما بغطاء ، وأبت أن تندبهما في اليوم المقدس . ولما عاد الكوهن ماير بعد صلاة المساء سأل عن ولديه لأنه لم يرهما في الكنيس بين المصلين ، فطلبت إليه أن يتلو الهداة (وهي دعاء يختم به السبت) وقدمت له العشاء . ثم قالت له : « لدى سؤال أريد أن أسألك إياه . ائتمنى أحد الأصدقاء في يوم من الأيام على جواهر أحفظها له ، ثم أراد الآن أن يستعيدها فهل أردتها إليه ؟ » فأجابها الكوهن ماير « ذلك واجب عليك بلا ريب » ، فأمسكت زوجته حينئذ بيده ، وسارت به إلى الفراش ورفعت عنه المغطاء . فأخذ الكوهن ماير ينتحب ولكن زوجته قالت له : لقد كانا ودبعة لدينا إلى حين والآن قد أراد سيدها أن يسترد وديعته . »

ولم يقل كتاب العبرانيين المقدس إلا الشيء القليل عن خلود الثواب والعقاب ، ولكن هذه الفكرة أصبحت ذات شأن كبير في آراء الأبحار الدينية . فقد صوروا النار على أنها جهنم Ge Hinnom أو شاول(*) ، وقسموها كما قسموا السموات إلى سبع طبقات تتدرج في درجات العذاب . ولا يدخلها من المختنين إلا أحبهم (٣٦) ، وحتى الآثمون الذين يداومون على الإثم لا يعذبون فيها إلى أبد الآبدين ، بل إن « كل من يلقي في النار يخرجون منها مرة أخرى لإفئات ثلاثاً : الزاني ، ومن يفضح غيره أمام الناس ، ومن يسب غيره » (٣٧) . أما السماء فقد كانوا يسمونها جنة عدن Gen Eden ، وكانوا يصورونها في صورة حديقة تحوى جميع المسرات الجسدية والروحية . فخمرها عصرت من كروم احتفظ بها من

(٥) كان وادي هم كومة من الأقدار في خارج أورشليم ، تظل النار متقدة فيه لمنع انتشار الأوبئة . أما شاول فقد كانت في رأيهم مكاناً مظلماً تحت الأرض يذهب إليه جميع الأموات .

السته الأيام التي خلق فيها العالم ، وأهواء فيها معطر بالبروائح الزكية ، والله نفسه يجتمع بالناجين من العذاب في وليمة أعظم ما يسر أصحابها أن يروا وجهه . بيد أن بعض أحبار اليهود يعتبرون بأن أحداً لا يعرف قط ما وراء القبر (٣٨) .

وإذا ما فكر اليهود في النجاة كان تفكيرهم فيها أنها نجاة الشعب لا نجاة الفرد . وذلك أنهم وقد شئتوا في أنحاء العالم بضروب من القسوة لا يبررها في ظنهم عقل ، وأخذوا يقرون أنفسهم باعتقادهم أنهم لا يزالون شعب الله المحبوب المختار ، فهو أبوهم ؛ وهو إله عادل ، ولا يمكن أن ينكث عهده لإسرائيل . أليسوا هم الذين أنزل عليهم كتابه المقدس الذي يؤمن به المسيحيون والمسلمون ويعظمونه ؟ وقد دفعتهم شدة بأسهم إلى درجة من الكبرياء اضطرمغهم أحبارهم الذين سموهم إلى تلك الدرجة أن ينزلوا بهم عنها بضروب اللوم والتأنيب . وكانوا في ذلك الوقت كما هم الآن يتوقون إلى البلد الذي نشأت فيه أمهم ، وكانوا يعزونها ويرون أنها المثل الأعلى لجميع البلدان ، ويقولون « إن من يمشى أربع أذرع في فلسطين يعيش بلا ريب إلى أبد الآبدين ، ومن يعيش في فلسطين يطهر من الذنوب » (٣٩) . « وحديث من يسكنون فلسطين في حد ذاته تورا » (٤٠) ، وأهم قسم في الصلوات اليومية وهو الشمونة عسرا (الفقرات الثمان عشرة) . تحوى دعاء بمجىء ابن داود ، الملك المسيح الذي يجعل اليهود كما كانوا أمة متحدة ، حرة ، يعبدون الله في هيكلهم بشعائهم وترانيمهم القديمة

٢ - الشعائر الدينية

لم يكن ما يميز اليهود من غيرهم من الشعوب في عصر الإيمان الذي نتحدث عنه ، والذي يحفظ عليهم وحدتهم وهم مشتتون ، هو عقيدتهم الدينية بل شعائرتهم ، لم يكن هو العقيدة التي لم تفعل المسيحية أكثر من التوسع فيها والتي قبل الإسلام الكثير منها بل هو قواعد الطقوس والمراسم المعقدة تعقيداً ثقيلاً لم يكن في مقدور

شعب غير هذا الشعب امتكبر : السريع التأثر ، أن يظهر من الوداعة والصبر ما تتطلبه إطاعته والعمل بها . لقد كانت المسيحية تنشُد الوحدة عن طريق توحيد العقيدة ، أما اليهودية فكانت تنشدها عن طريق توحيد الشعائر . وفي ذلك يقول أبا أريكا : « إن الشرائع لم توضع إلا لكي تؤذّب الناس وترقق طباعهم بالعمل بها » (٤١) .

ولقد كانت الشعائر أولاً وقبل كل شيء هي قانون العبادة . ولما أن حلت المعابد اليهودية محل الهيكل استبدلت بالأضاحى الحيوانية القرابين والصلوات ، ولكنهم لم يكونوا يجيزون وضع صورة لله أو للآدميين في المعابد كما لم يكونوا يجيزون وضعها في الهيكل . ذلك أنهم كانوا يتجنبون كل ما يشتم منه عبادة الأوثان ، وكذلك كانت الموسيقى الآلية المباحة في الهيكل محرمة في المعابد . وفي هذا تختلف المسيحية عن اليهودية وتتفق مع الإسلام ، فقد تكشف الدينان السمايان عن تقوى قائمة وتكشفت المسيحية عن فن مقبض قائم كذلك .

وكانت الصلاة تجربة دينية يمارسها اليهودى المتدين كل يوم ، بل يكاد يمارسها في كل ساعة . وكانت صلوات الصباح تنلى من قلقطيرات (علب صغيرة محتوية على فقرات من الكتاب المقدس) مثبتة على الجباه والأذرع ولم يكونوا يطعمون طعاما دون أن يتلوا دعاء قصيرا قبله وصلاة للشكر طويلة في نهايته . على أنهم لم يكونوا يكتبون بهذه الصلوات المنزلية ، ذلك أن الناس لا يرتبطون ويتماسكون إلا إذا اشتركوا معاً في القيام بأعمال واحدة ، وكان أجبار اليهود يخاجون بما عرف عن الشرقيين من مبالغة أن « الله لا يستجيب لصلاة الإنسان إلا إذا قام بها في الكنيس » (٤٢) . وكان أهم ما تشتمل عليه الطقوس الدينية العامة هو « الشهادة عسرا » ، « والشمع يسرائيل » ، وتلاوة من أسفار موسى الخمسة ، ومن سفر الأنبياء ، ومزامير داود ، وعظة تشتمل على تفسير فقرات من الكتاب

المقدس ، وعلى « قديس Kaddish » (أدعية حمد وبركة للأحياء والأموات)
ثم دعاء ختامى : ولا يزال هذا هو الأساس الجوهرى للشعائر التى تقام فى
المعابد إلى يومنا هذا .

وأدق من هذه الشعائر وأكثر منها تفصيلاً القواعد الخاصة بالنظافة
البدنية أو طقوس الطهارة . فقد كان أحبار اليهود يرون أن الصحة البدنية تعين
على سلامة الروح^(٤٣) ، ولهذا كانوا يحرمون على بنى دينهم أن يعيشوا فى مدينة
ليس بها حمام^(٤٤) ، ويعينون للاستحمام قواعد تكاد تبلغ مرتبة الأوامر الطبية
كقولهم : « إذا اغتسل الإنسان بماء ساخن ولم يغتسل بعده بماء بارد كان مثله كمثل
الحديد الذى يحمى فى تشور ثم لا يوضع بعدئذ فى ماء بارد^(٤٥) ، فمثل الجسم كمثل
الحديد يجب أن يُسقى ويُنقى . ويجب أن يدهن الجسم بالزيت بعد الاستحمام^(٤٦) .
كذلك يجب غسل اليدين عقب الاستيقاظ مباشرة ، وقبل تناول كل
وجبة من الوجبات وبعد تناولها ، وقبل الصلاة العامة وقبل القيام بكل شعيرة
دينية . وكانت جثث الموتى ، والاتصال الجنسى ، والحيض ، والولادة ،
والحشرات ، والخنزير ، والجذام (ومختلف الأمراض الجلدية) كانت هذه
كلها حسب القواعد الدينية نجسة . ومن مس شيئاً منها أو أصيب به وجب
عليه أن يتوجه إلى الكنيس ويؤدى فيه شعائر التطهير . وكانت المرأة تعد
نجسة (أى لا يقترب منها زوجها) أربعين يوماً بعد أن تلد ولداً ذكراً ،
وثلاثين يوماً إذا كانت المولودة أنثى^(٤٧) . ويجب وفقاً لما ورد فى الكتاب
المقدس (فى الآيات من ٩ إلى ١٤ من الأصحاح السابع عشر من سفر التكوين)
أن تجرى عملية الختان للمولود الذكر فى اليوم الثامن بعد مولده ، وكان
هذا الختان يعد قرباناً ليهوه وعهداً بينه وبين عباده ؛ ولكن انتشار
هذه العادة بين المصريين الأقدمين ، والأحباش ، والفينيقيين ، والسوريين ،
والعرب ، يوحى بأنها كانت إجراء صحياً يحميه الجو الذى يساعد على
النضوج والاهتياج الجنسى المبكرين ، أكثر مما هو وسيلة من وسائل النظافة

ويؤيد هذا الرأى ما يحتمه أحبار اليهود على نبي دينهم ألا يبقوا لديهم عبداً أكثر من اثني عشر شهراً دون ختان (٤٨) .

ولقد ينحيل إلى الإنسان وهو يقرأ بعض أجزاء من التلمود أنه كتاب مبسط في الطب المنزلى أكثر مما هو كتاب في الشرائع الدينية ، والحق أنه كان لا بد أن يجعل بمثابة موسوعة من النصائح للشعب اليهودى . ذلك أن يهود القرن الرابع والقرن الخامس بعد الميلاد كانوا كعظم شعوب البحر المتوسط ينزلون عائدين إلى الخرافات والحيل الطبية التي تسود بين الشعوب المنعزلة الفقيرة ؛ ولقد تسرب كثير من هذا الطب الشعبي والخزافى إلى التلمود . غير أننا مع هذا نجد في الجهارا البابلية وصفاً غاية الجودة للمرىء والحنجرة ، والقصبة الهوائية ، والرئتين ، والأغشية السحائية ، وأعضاء التناسل . وقد وصفت فيه خراجات الرئتين ونليف الكبد ، والحرص الجبتي وكثير غيرها من الأمراض وصفاً دقيقاً ؛ وما أثبتته الأحبار أن الدباب وأكواب الشرب قد تنقل العدوى (٤٩) ، كما أثبتوا أن التدمام (أى الاستهداف للزف) داء ورأى يجعل ختان أبناء المصابين به أمراً غير مستحب . لكن هذه الآراء قد اختلطت بهارقي سحرية لطرده الأرواح الخبيثة التي يحسبونها سبباً في الأمراض .

ولقد كان أحبار اليهود ، مثلنا نحن جميعاً ، خبراء في التغذية الصحية . وتبدأ القواعد الحكيمة للتغذية عندهم بالأسنان . فهذه في رأيهم يجب ألا تخلع ، مهما اشتدت آلامها (٥٠) لأن « الإنسان إذا أجاد مضغ الطعام بأسنانه وجدت قدماء القوة » (٥١) . وهم يمتدحون الخضروالفاكهة ما عدا الباج ويوصون بأكلها . أما اللحم فن مواد الترف التي يجب ألا يتناولها سوى المتطهرين (٥٢) . ويجب أن يذبح الحيوان بحيث نقل آلامه إلى أقصى حد ، وبحيث يخرج الدم من اللحم ، لأن أكل اللحم بما فيه من الدم رجس . ومن أجل هذا يجب أن يعهد ذبح الحيوان لاتخاذ لحمه طعاماً إلى أشخاص مدرين ، عليهم أن يفحصوا عن أحشائه .

حتى يتأكدوا من أن الحيوان سليم من الأمراض . ويجب ألا يجمع في الوجبة الواحدة بين اللحم واللبن أو بين الأطعمة التي يدخل فيها هذان الصنفان ، بل يجب ألا يوضعا قريبين أحدهما من الآخر في المطبخ^(٥٣) . ولحم الخنزير محرم ممقوت ، ولا يصح أكل البيض ، أو البصل ، أو الثوم إذا كان قد ترك باللبليل منزوع القشر^(٥٤) . ويجب الامتناع عن تناول الطعام في غير أوقاته المحددة : « لا تنقر طول النهار كاللدجاج »^(٥٥) . و« الذين يموتون من الإفراط في الأكل أكثر ممن يموتون من نقص التغذية »^(٥٦) . « والأكل إلى سن الأربعين نافع للصحة ، أما بعد الأربعين فالشرب نافع لها »^(٥٧) ، والاعتدال في الشرب خير من الامتناع عنه بتاتا ، فكثيراً ما يكون الخمر دواءً نافعاً^(٥٨) ، و« ليس ثمة سرور إلا به »^(٥٩) . وقد أراد أحبار اليهود أن يسيروا في موضوع التغذية إلى غايته فقالوا إن « من يطل المكث في المرحاض يطل عمره » وأشاروا بأداء صلاة شكر كلما استجاب الإنسان لنداء الطبيعة^(٦٠) .

وكانوا يقاومون التنسك وينصحون بني دينهم أن يتمتعوا بطيبات الحياة إذا لم يكن فيها ما هو محرم^(٦١) . وقد فرض عليهم الصيام في مواسم معينة وفي بعض الأيام المقدسة ، ولكن لاهل الدين هنا قد اتخذ وسيلة للحض على العناية بالصحة . واقتضت حكمة الشعب أن يؤمر اليهود بأن يختلفوا بالأعياد ويقيموا الولائم من آن إلى آن ، رغم نغمة الحزن والأسى التي كانت تسمع منهم حتى في أفراحهم . « يجب على الإنسان أن يدخل السرور في العيد على زوجته وآل بيته » . ويجب عليه إن استطاع أن يهيئ لهم ثياباً جديدة^(٦٢) . ويبدو أن السبت - وهو أعظم ما ابتدعه اليهود - كان عبئاً ثقيلاً عليهم في أيام التلمود ، فقد كان ينتظر من اليهودى التي أن يجعل كلامه أقل ما يستطيع ، وألا يوقد النار في منزله ، وأن يقضى الساعات عاكفاً على الصلاة في الكنيس . وثمة نبذة طويلة تتحدث بالتفصيل

(٥) أى كلما ذهب إلى المرحاض .

لذات المل عمل مما يجوز عمله وما لا يجوز في السبت . ولكن فتاوى الأحرار كانت تهدف إلى التقليل من أهوال التقوى أكثر مما تهدف إلى زيادتها . وكان ما فيها من الدقة يرمى إلى تلمس الأسباب المقتنة لحمل الإنسان على أن يفعل ما يجب عليه أن يفعله في يوم الراحة . . يضاف إلى هذا أن اليهودي الصالح كان يجد سعادة خفية في التمسك بشعائر السبت القديمة : فكان يبدؤه بقصد قصير . كان وهو نحوظ بأفراد أسرته وبأصدقائه (لأن هذا اليوم كان من الأيام التي يحلو فيها دعوة الأصدقاء) ، يمسك بيده كأساً مجاوعة بالخمر ، يتلو عليها بعض الأدعية ، ثم يشرب بعضها ويناول الكأس لضيفه وزوجته وأبنائه . ثم يأخذ بعدئذ الخبز ويباركه ، ويحمد الله « الذي يخرج الخبز من الأرض » ، ويعطى بعضه لكل من يجلسون معه على المائدة . ولا يجوز الصوم أو الحزن في السبت :

وكانت أيام مقدسة كثيرة تتخلل العام وتتيح لليهود الفرص للاحتفال بالذكرات المقدسة أو للراحة المحببة . فمنها عيد الفصح اليهودي الذي يبدأ في الرابع عشر من شهر نيسان (إبريل) ويستمر ثمانية أيام يحيى فيها ذكرى فرار اليهود من مصر : وكانوا في الأيام الأولى من العهد الذي أوحى فيه بالكتاب المقدس يسمونه عيد الخبز الطير ، لأن اليهود قد فروا معهم العجين الذي يصنعون منه خبزهم دون أن يختمر . وكان هذا العيد يسمى في أيام التلمود عيد المرور ، لأن يهوه وهو يقضى على البكور من أبناء المصريين قد « مر » بالبيوت التي رث من فيها من اليهود دم الحمل على قوائم أبوابها (٦٣) . وكان اليهود يحتفلون في اليوم الأول من هذا العيد بوجبة عيد الفصح (السدير) ، فكان كل أب يرأس حفلة الصلاة لأسرته المجتمعة عنده ، ويقوم معهم بمراسم تذكرهم بأيام موسى البتيسة ، ينقل في خلالها عن طريق الأسئلة والأجوبة القصة القيمة العزيزة إلى الأبناء الصغار وفي عيد الغنصرة ، وموعده بعد سبعة أسابيع من عيد الفصح يحتفل اليهود في عيد شيوعوت بمحصاد القمح وتجلي الله لموسى على الجبل في سيناء . وفي اليوم الأول من

تشرين - وهو الشهر السابع من السنة اليهودية الدينية ، والشهر الأول من سنة اليهود المدنية - وهو يتفق بوجه عام مع الاعتدال الخريفي يحتفل اليهود بعيد رأس السنة ، وبهلال الشهر ، وينفخون في قرن الحمل (الشفار أى الصفارة) لإحياء لذكرى نزول التوراة ، ودعوة الناس إلى التوبة من الذنوب ، واستعجالا لذلك اليوم السعيد حين يدعى جميع يهود العالم ليعبدوا الله في أورشليم . ومن مساء رأس السنة إلى اليوم العاشر من تشرين أيام توبة وتكفير عن الذنوب ، وكان أتقياء اليهود في هذه الأيام جميعها ما عدا اليوم التاسع منها يصومون ويصلون ، فإذا جاء اليوم العاشر المسمى يوم هاكيريم (يوم الغفران) لم يكن يجوز لهم فيه أن يأكلوا أو يشربوا أو يخلدوا نعالا أو يقوموا بعمل أو يستحموا . أو يقربوا النساء من مطلع الشمس إلى مغيبها ، بل كانوا يقضون النهار كله في الكنيس يصلون ، ويعترفون بذنوبهم ، ويستغفرون لها هي وذنوب نبي دينهم ، يستغفرون لهذه الذنوب بما فيها عبادة العجل الذهبي نفسه . وفي اليوم الخامس عشر من شهر تشرين يحل عيد سوكونت أو عيد المظلات . وكان المفروض أن يقضى اليهود هذا العيد في أخصاص إحياء لذكرى الخيام التي يقال إن آباءهم الأقدمين قد ناموا فيها خلال الأربعين يوما التي قضوها في البيداء . ولما وجد اليهود المشتتون صعبا جمه في الاحتفال بعيد الحصاد هذا كما هو مفروض عليهم بالدقة ، أظهر أحبارهم ما يتصفون به من تسامح بأن فسروا السكة (الخيمة) بأنها كل ما يصبح أن يرمز به للمسكن . وفي اليوم الخامس والعشرين من الشهر التاسع شهر كسلو (ديسمبر) والسبعة الأيام التالية لهذا اليوم يقع عيد حنكة أو التكريس ، الذي يذكرهم بتطهير الهيكل من المكابيين (١٦٥ ق . م) ، بعد أن دنسه أنتيوخوس إيفانيز Antiochus Epiphanes ؛ وفي الرابع عشر من آذار (مارس) يحتفل اليهود بعيد پوريم الذي أنجى فيه موردكى وإستر الشعب من مكر الوزير الفارسي هامان . وكانوا في ذلك اليوم يتبادلون الهدايا والدعوات أثناء وليمة مرحة يشربون .

فيها الخمر . وفي ذلك يقول رب ربا Rab Rab إن على الإنسان أن يشرب في ذلك اليوم حتى لا يستطيع التمييز بين قولهم « ملعون هامان » و « ملعون موردكى » (٦٤) .

وليس من حقنا أن نظن أن هؤلاء اليهود التلموديين قوم مفرطون في التشاؤم يحز في نفوسهم احتقار من حولهم من الشعوب لمواهبهم ، تتقاذفهم أعضاير العقائد المتباينة ، يهيمون في ببداء الآمال بالرجوع إلى بلادهم . ذلك أنهم وهم يعانون مرارة التثنت والظلم ، والندم والفقر ، كانوا يرفعون رؤوسهم عالية ، وبتدقون لذة العمل والكفاح في سبيل الحياة ، ويستمتعون بما يتحلى به نساؤهم المثقلات من جماع قصير الأجل وما في الأرض والسماء من جلال مقيم . وفي ذلك يقول كوهنهم ماير : « يجب أن ينطق الإنسان في كل يوم بمائة دعوة صالحة » (٦٥) . ويقول كوهن آخر قولاً ما أجددنا كلنا أن نعمل به « إذا مشى إنسان أربعة أذرع لا أكثر لم يطأطى فيها رأسه أغضب الله ، ألم يرد في الكتاب المقدس « مجده ملء كل الأرض » (٦٦) .

٣ - المبادئ الأخلاقية في التامود

ليس التامود موسوعة من التاريخ ، والدين ، والشعائر ، والطب ، والأقاصيص الشعبية وحسب ، بل دوفوق هذا كله رسالة في الزراعة ، وفلاحة البساتين ، والصناعة ، والمهن ، والتجارة (٦٧) ، وشئون المال ، والنزائب ، والملك والرق ، والميراث ، والسرقة ، والمحاکمات القضائية ، والقوانين الجنائية . وإذا شئنا أن نوفي هذا الكتاب حقه من البحث ، كان علينا أولاً أن نلم بطائفة كبيرة العدد من العلوم المختلفة ، وأن نكتسب منها ما تهيوه لعقولنا من الحكمة وسداد الرأي ، ونستخدم تلك الحكمة الجامعة في الإلمام بأحكام هذا الكتاب في الميادين المختلفة السالفة الذكر .

وأول ما نذكره أن التلمود أولاً وقبل كل شيء قانون أخلاقى ، وأن هذا القانون

الأخلاق شديد الاختلاف عن القانون الأخلاقي المسيحي وعظيم الشبه بالقانون الإسلامي ، حتى لتكفي نظرة خاطفة إليه لدحض الرأي السائد في العصور الوسطى القائل بأنه ليس إلا قصة المسيحية في تلك العصور . إن الأديان الثلاثة الكبرى متفقة في أن المبادئ الأخلاقية الفطرية - غير الدينية - تصلح لأن تكون قواعد عملية للإنسانية ؛ وترى أن الكثرة الغالبة من الناس لا يمكن أن تحمل على المسلك الحسن والخلق القويم إلا عن طريق خوف الله . ولهذا أقامت الأديان الثلاثة قانونها الأخلاقي على مبادئ رئيسية واحدة : أن لله حيناً تبصر كل شيء ، وبدأ تسجل كل شيء ، وأن القانون الأخلاقي منزل من عند الله ، وأن الفضيلة تنفق في آخر الأمر مع السعادة بما يناله المحسن بعد الموت من الثواب والمسيء من العقاب . ولم يكن من المستطاع في الدينين الساميين فصل القوانين الثقافية والأخلاقية من الدين ، فلم تكن هذه القوانين تميز التفرقة بين الجريمة وإلحظيتها ، أو بين الشر والشريعة الكنسية ، بل إن من مبادئها المقررة أن كل فعل ذمير . يعد إساءة إلى الله وانتهاكاً لحرماته ولاسمة جل جلاله .

وتتفق الأديان الثلاثة فضلاً عن هذا في بعض قواعد الأخلاق : تتفق في حرمة الأسرة والمسكن ، وفيما يجب للأباء وكبار السن من تكريم وإجلال ، وفي حب الأبناء ورعايتهم ، وفي عمل الخير لجميع الناس . وليس ثمة شعب أكثر من اليهود حرصاً على تجميل الحياة العائلية ، ولقد كان عدم الزواج عن قصد من الآثام الكبرى في اليهودية كما هو في الإسلام (٦٨) ؛ وكان إنشاء البيت وتكوين الأسرة من الأمور الشرعية التي يحتمها الدين (٦٩) ، وتنص عليه القاعدة الأولى من قواعد الشريعة البالغ عددها ٦١٣ قاعدة ؛ وفي ذلك يقول أحد المعلمين اليهود (٧٠) « إن من لا ولد له بعد من الأموات » ، ويتفق اليهودي ، والمسيحي ، والمسلم أن البشرية تصبح مهددة بالزوال إذا ما فقدت قوتها وأوامر الدين التي تقضي بوجودها بجانب الأبناء . على أن أحبار اليهود أبا حراً محمد بن عبد أقراد الأسرة و،

بعض الأحوال ، وينضلون أن تكون السبيل إلى هذا هي منع الحمل ، وفي ذلك يقول بعضهم : « هناك ثلاث طبقات من النساء يجب عليهن أن يستعملن الأدوية الماصة : القاصر خشية أن يقضى الحمل على حياتها ؛ كيلا تكون النتيجة هي الإجهاض ، والمرضع حتى لا تحمل فتضطر إلى فطام الرضيع قبل الأوان فيموت الطفل » (٧١) .

وكان اليهود ، كما كان معاصروهم ، يكرهون أن يلدوا بنات ويسرون إذا أنجبوا الذكور ، ذلك أن الذكر لا الأنثى هو الذى يحمل اسم أبيه واسم الأسرة ، ويرث أملاكه ، ويعنى بقره بعد وفاته ؛ أما البنت فسوف تزوج في بيت غريب وقد يكون بيتاً بعيداً ، ولا تكاد تم تربيتها حتى يفقدها أبواها . لكن الآباء متى ززقوا الأبناء ، ذكورا كانوا أو إناثاً ، أعروهم وأدبوهم تأديباً مزوجاً بالحب وفي ذلك يقول أحد أحبارهم : « إذا كان لابد لك أن تضرب طفلك ، فاضربه برباط حذاء » (٧٢) . ويقول آخر « إذا امتنع الإنسان عن عقاب طفل ، انتهت به الحال إلى الفساد المطلق » (٧٣) . وكان من الواجب على الآباء أن يتحملوا كل تضحية تتطلبها تربية الأبناء أى تنقيف العقل ، وتقويم الخلق بدراسة « الشريعة وأسفار الأنبياء » . وقد جاء في أحد الأمثال العبرية : « إن العالم ينجو بنفس تلاميذ المدارس » (٧٤) . فالسكينة أو الحضرة الإلهية تتجلى في وجوههم ، وفي نظير هذا يجب على الابن أن يعظم والديه ويحبيهما بكل ما في وسعه وفي جميع الأحوال .

والصدقات من الواجبات التي لا مفر من أدائها وإن « من يتصدق لأعظم ممن يقدم كل القرابين » (٧٥) . ولقد كان بعض اليهود أشحاء ، وبعضهم بخلاء إلى أقصى حدود البخل ، ولكنهم بوجه عام يفوقون سائر الشعوب في هباتهم وتبرعاتهم ، وقد بلغ من سخائهم في هذه الناحية أن اضطر أجبارهم إلى أن ينههم عن إعطاء أكثر من خمس أموالهم للصدقات ؛ ومنع هذا فقد وجد عند

م وفاة بعضهم أنهم قد أعطوا نصف ما يملكون رغم هذا التحريم (٧٦) . « لقد كانت تلوح على وجه أبا أومنا على الدوام هالة من الطمأنينة القدسية ، ذلك بأذه كان جراحا ولكنه لم يكن يرضى أن يمسك بيديه أجراً على عمله ، بل كان له صندوق في ركن حجرة استشارته يستطيع من كان في مقدوره أداء شيء من المال أن يضع فيه ما يرغب في أدائه... وحتى لا يعترى الخجل من يعجز عن أداء شيء منه » (٧٧) . وكان رب هونا « إذا جلس لتناول الطعام فتح أبوابه ونادى : من كان في حاجة فليدخل ويطعم » (٧٨) . وكان شاما بن إلعي Chama ben Elai يطعم الخبز كل من يطلبه ويضع يده في كيس نقوده كلما سار في خارج داره حتى لا يحجم أحد عن سؤاله (٧٩) . ولكن التلمود كاد يوثب التظاهر بالهذل ويشير بأن يكون سراً ويقول « إن من يعطى الصدقات سراً أعظم من موسى » (٨٠) .

ووجه رجال الدين كل ما أوتوا من علم وبلاغة لامتداح نظام الزواج الذي كان هو والدين الأساس الذي يقوم عليه صرح الحياة اليهودية كلها . ولم ينددوا بالشهوة الجنسية ولكنهم كانوا يخشون قوتها وبدلوا جهدهم في كبح جماحها . فمنهم من كان ينصح بأكل الملح مع الخبز « ليقبل المني » (٨١) ، ومنهم من كان يحس بأن الوسيلة الوحيدة لكبح جماح الشهوة الجنسية هو العمل المحمّد مضافاً إلى دراسة التوراة ؛ فإذا لم يجد هذه الوسيلة « فليذهب إلى مكان لا يعرفه فيه أحد ، وليلبس سود الثياب ، وليفعل ما تبتغيه نفسه ، ولكن عليه ألا يدنس اسم الله جهرة » (٨٢) . وعلى الإنسان أن يتعد عن كل المواقف التي تثير شهوته ، فلا يكثر من الحديث مع النساء ، « ولا يمشى في الطريق خلف امرأة ولو كانت زوجته... وخير للإنسان أن يمشى خلف أسد من أن يمشى خلف امرأة » (٨٣) وتظهر فكاهة أحبار اليهود المههجة مرة أخرى في قصة رب كهنا Reb Kahan .

فقد كان مرة يبيع سلال النساء وإذا هو يتعرض لغواية الشيطان ؛ وأخذ يقاوم طبيعته راجياً أن ينطلق هذه المرة على أن يعود إذا نجا . ولكنه بعد أن تغلب

على نفسه لم يعد بل صعد إلى سقف بيت وألقى بنفسه من فوقه ؛ وقبل أن يصل إلى الأرض وصل إليه الشبح وأمسك به ولامه على أن اضطره إلى قطع مسافة أربعمائة ميل لكي يحول بينه وبين إهلاك نفسه^(٨٤) .

ويلوح أن أحبار اليهود يرون أن البيكورية لا بأس بها ، ولكن البيكورية الدائمة هي بعينها وقف النماء الطبيعي ، ويعتقدون أن كمال المرأة في كمال الأمومة ، كما أن أسمى فضائل الرجل فضيلة الأبوة الكاملة . وكان من الواجب على كل أب أن يدخر بائنة لكل بنت من بناته ومهراً يمهر به كل ولد من أولاده عروسه حتى لا يتأخر زواج الولد والبنت تأخراً يضر بصحتهما . وكانوا يشيرون بالزواج المبكر - في الرابعة عشرة للبنت وفي الثامنة عشرة للولد . وكان القانون يبيح زواج البنت إذ بلغت سنها اثنتي عشرة سنة وستة أشهر وزواج الولد في الثالثة عشرة من عمره . وكان يباح للطلاب المشتغلين بدراسة الشريعة أن يؤخروا زواجهم بعض الوقت . ومن الأحبار من كانوا يقولون إن على الرجل أن يثبت دعائم مركزه الاقتصادي قبل أن يقدم على الزواج : « على الرجل أولاً أن ينشئ البيت ، ثم يغرس الكرمة ، ثم يتزوج »^(٨٥) . - ولكن هذا الرأي هو رأى الأقلية ولعله لا يتعارض مع الزواج المبكر إذا ما تكفل الأبوان بتدبير العون المالى المطلوب . وكانوا ينصحون الشاب أولاً يختار زوجته لجمالها بل لصفاتها التي سوف تجعلها في المستقبل أمماً صالحه^(٨٦) ، ويقولون « اهبط درجة في اختيار الزوجة ، وأرق درجة في اختيار الصديق »^(٨٧) ، ومن يحتر لنفسه زوجة من طبقة فوق طبقته يدع الناس إلى احتقاره .

وأجاز التلمود ، كما أجاز العهد القديم والقرآن ، تعدد الزوجات ، ومن أقوال أحد الأحبار في هذا المعنى : « يستطيع الرجل أن يتزوج أى عدد من النساء يشاء » ولكن فقرة ثانية في مقاله هذا تحدد عدد الزوجات بأربع ، وتطلب

فقرة ثالثة إلى من يريد أن يتخذ له زوجة ثانية أن يطلق زوجته الأولى إذا أرادت هي الطلاق (٨٨) . ونظام تعدد الأزواج هذا تفترضه كذلك العادة القديمة التي يطالب اليهودي بمقتضاها أن يتزوج من أرملة أخيه بعد وفاته ، وأكبر الظن أن منشأ هذه العادة لم يكن هو العطف والشفقة فحسب ، بل كانت تقوم فوق ذلك على الرغبة في الإكثار من النسل في مجتمع ترتفع فيه نسبة الوفيات شأنه في ذلك شأن كل المجتمعات التي قامت في العصور القديمة والعصور الوسطى .

وبعد أن يسر الأحبار للرجل لإشباع غريزته الجنسية على هذا النحو جعلوا الزنى من الجرائم التي يعاقب مرتكبها بالإعدام ، وكان منهم من يقول مع المسيح إن « الإنسان قد يزنى بعينه » (٨٩) ، ومنهم من ذهب إلى أبعد من هذا فقال : « إن من يتطلع إلى خنصر امرأة لا أكثر قد ارتكب إثماً في قلبه » (٩٠) . ولكن رب أريكا أرق من هؤلاء وأولئك قلبا إذ يقول : « يجد الإنسان في كتاب سينثاته يوم الجشر كل شيء رآه بعينه وأبى أن يستمتع به » (٩١) .

وأببح الطلاق برضا الطرفين ؛ فأما الزوج (الرجل) فلا يمكن أن يطلق إلا برضاه ، وأما الزوجة فيجوز للرجل أن يطلقها بغير رضاها . وطلاق الزوجة الزانية أمر واجب ، كذلك يشار بطلاق الزوجة إذا ظلت عقيماً عشرين سنة بعد الزواج (٩٢) . ولم تكن مدرسة شماي تبيح طلاق المرأة إلا إذا زنت ، أما مدرسة هلال فقد أباحت للرجل أن يطلق زوجته إذا وجد فيها « شيئاً معيباً » ، وكانت الغلبة في أيام التلمود لرأى هلال ، وقد ذهب فيه عقيماً إلى حد بعيد فقال إن « في وسع الرجل أن يطلق زوجته ، إذا وجد امرأة أخرى أجهل منها » (٩٣) ؛ وكان في وسع الرجل أن يطلق زوجته إذا عصت أوامر الشريعة اليهودية ، بأن سارت أمام الناس عارية الرأس ، أو غزلت الخيط في الطريق العام ، أو تحدثت إلى مختلف أصناف الناس أو « إذا كانت عالية الصوت أي إذا كانت تتحدث في بيتها ويستطيع نجيذانها سماع ما تقول » (٩٤) ولم يكن عليه في هذه الأحوال

أن يرد إليها بائنتها . ولم يكن هجر الرجل زوجته يوجب طلاقها منه (٩٥) ، وأباح بعض رجال الدين للزوجة أن تلجأ إلى المحكمة تطلب الطلاق من زوجها إذا قسا عليها ، أو كان عنينا ، أو أبي أن يؤدي الواجبات الزوجية ، أو لم ينفق عليها النفقة التي تليق بها (٩٦) ، أو كان مشوهاً أو نتناً (٩٧) . وكان الأحبار يحاولون تقليل الطلاق بأن يضعوا في سبيله إجراءات قانونية معقدة ، ويفرضون في جميع الأحوال - إلا القليل النادر منها - استيلاء الزوجة على البائنة والمهر ؛ ويقول الحاخام إلعيزر Eleazar « إن المذبح نفسه ليندرف الدمع على من يطلق زوجة شبابه » (٩٨) .

وجملة القول أن قوانين التلمود ، بوجه عام ، من وضع الرجال وأنها لذلك تحابي الذكور محاباة بلغ من قوتها أن بعثت في نفوس أحبار اليهود الفزع من قوة المرأة ، وهم يلومونها ، كما يلومها الآباء المسيحيون ، لأنها أطفأت « روح العالم » بسبب تشوف حواء المنبعث عن ذكائها . وكانوا يرون أن المرأة « خفيفة العقل » (٩٩) ، وإن كانوا يقرون لها بأنها وهبت حكمة غريزية لا وجود لها في الرجل (١٠٠) . وهم يأسفون أشد الأسف لما جبلت عليه المرأة من ثرثرة : « لقد نزلت على العالم عشرة مكايل من الكلام ؛ أخذت المرأة منها تسعة ، وأخذ الرجل واحداً » (١٠١) . ونددوا بأنهما كها في السحر وما إليه من الفنون الخفية (١٠٢) ، وفي الأصباغ والكحل (١٠٣) . ولم يكونوا يرون بأساً في أن ينفق الرجل بسخاء على ملابس زوجته ، ولكنهم كانوا يطلبون إليها أن تجمل نفسها لزوجها لا لغيره من الرجال (١٠٤) . وفي القضاء - على حد قول أحد الأحبار - « تعدل شهادة مائة امرأة شهادة رجل واحد » (١٠٥) ؛ وكانت حقوق النساء المملكية محددة في التلمود بالقدر الذي كانت محددة به في إنجلترا في القرن الثامن عشر ؛ فكاسبهن وما يؤول إليهن من ملك لمن حق لأزواجهن (١٠٦) ، ومكان المرأة هو البيت . ويقول أحد الأحبار المتفائلين إن المرأة في « عصر المسيح الثاني ستلد

طفلاً في كل يوم» (١٠٧) وإن « الرجل الذي له زوجة خبيثة لن يرى وجه جهنم » (١٠٨) ؛ ويقول عقيباً من جهة أخرى إنه ليس أغنى من الرجل الذي له امرأة اشتهرت بأعمالها الطيبة (١٠٩) : ويقول أحد المعلمين اليهود إن « كل شيء يصدر عن المرأة (١١٠) » . وقد جاء في أحد الأمثال العبرية : « إن كل ما في البيت من نعم وبركات قد جاء إليه عن طريق الزوجة ، ولهذا فإن من الواجب على زوجها أن يكرمها . . . وليحذر الرجال من أن يبكوا المرأة ، فإن الله يعدّ دموعها » (١١١) .

ولقد جمع ناشر غير معروف في أبيج جزء من أجزاء التلمود ، وهو الرسالة الصغيرة المسماة برقي أبوت Pirke Aboth (الأصول السياسية) ، حكم كبار الأجرار الذين عاشوا في القرنين السابقين لمولد المسيح والقرنين التاليين له . وكثير من هذه الأمثال يمتدح الحكمة وبعضها يعرفها ويحدد معناها !

قال بن زوما : من هو الحكيم ؟ هو الذي يتعلم من كل إنسان . . . من هو القوي ؟ هو الذي يخضع ميوله (الخبيثة) . . . من يسيطر على رومة خير ممن يستولى على مدينة . من هو الغني ؟ هو الذي يسر بما قسم له . . . من هو الكريم هو الذي يكرم بني جنسه (١١٢) . . . لا تحتقر إنساناً ولا تحتقر شيئاً ؛ فليس ثمة إنسان ليست له ساعته ، وليس ثمة شيء ليس له مكانه (١١٣) . . . لقد نشأت طول عمري بين الحكماء ، ولقد وجدت أن لأشياء أحسن للإنسان من الصمت . . . (١١٤) .

وقد اعتاد الكوهن إلعيزر أن يقول : مثل من تزيد أفعاله على حكمته ، كمثل شجرة كثرت فروعها وقلت جذورها ، إذا هبت عليها الريح اقتلعتها وألقتها على وجهها . . . أما من تزد حكمته على أفعاله فمثل كمثل شجرة قلت أغصانها وكثرت جذورها لو أن رياح العالم كلها هبت عليها لما زحزحتها من مكانها (١١٥) .

الفصل الرابع

الحياة والشريعة

ليس التلمود من التحف الفنية ، ذلك بأن جمع أفكار ألف عام كاملة ووضعها في مجموعة مترابطة متناسقة عمل لا يقوى عليه حتى مائة حبر من الأحبار الصابرين . وما من شك في أن كثيراً من المقالات قد وضعت في غير موضعها من الكتاب ، وأن عدداً من الفصول قد وضع في غير المقالات التي يجب أن يوضع فيها ، وأن موضوعات تبدأ ، ثم تترك ، ثم تبدأ من جديد على غير قاعدة موضوعية . وليس الكتاب ثمرة تفكير بل هو التفكير نفسه ، فكل الآراء المختلفة قد دونت فيه وكثيراً ما ترك النقط المتعارضة دون أن تحل وتفسر . وكأننا قد اجتزنا خمسة عشر قرناً من الزمان لتنصت إلى نقاش أشد المدارس إخلاصاً ونستمع إلى عقيبا ومير ويهودا هنسيا ورب في أثناء جدلهم العنيف . وإذا ما ذكرنا أننا فضوليون متطفلون ، وأن هؤلاء الرجال وغيرهم قد اختطفت ألقاظهم العارضة اختطافاً من أفواههم وقذف بها في نصوص لم تكن معدة لها ، ثم أرسلت تجلجل خلال القرون الطوال ، إذ ذكرنا هذا استطعنا أن نعفو عما نجده في هذه الأقوال من جدل ، وسفسطة ، وأفاصيص غير صادقة ، وتنجيم ، وحديث عن الجن والشياطين ، وخرافات ، ومعجزات ، وأسرار الأعداد ، وأحلام وحى ، ونقاش لا آخر له يتوج نسيجا مهلهلاً من الخيالات والأوهام ، والغرور الذي يغريهم ويأسو جراحهم ويخفف عنهم آلام آلامهم الضائعة .

وإذا ما اشمازت نفوسنا من قسوة هذه القوانين ، ومن دقة هذه النظم وتدخلها فيما لا يصح أن تتدخل فيه ، وما يجازى به من يخرقها من شدة وبطش ، فإن من واجبنا ألا نحمل هذه المسألة محمل الجدل ، ذلك أن اليهود لم يدعوا قط أنهم يطيعون

هذه الوصايا كلها ، وأن أحبارهم كانوا يفضون أبصارهم عما يجدونه في كل صفحتين من كتابهم من ثغرات بين نصائحهم التي تدعو إلى الكمال ، وبين ما في الطبيعة البشرية من ضعف خفي . وفي ذلك يقول أحد الأحبار الحذرین : « لو أن إسرائيل قد حرصت الحرص الواجب على سبت واحد لحاء ابن داود من فوره » (١١٦) . ولم يكن التلمود كتاب قوانين يطلب إلى اليهود إطاعتها جملة وتفصيلا ، بل كان سجلا لآراء الأحبار ، جمعه جامعوه ليهدوا به الناس إلى التقى على مهل ، ولم تطع الجماهير غير المثقفة إلا قلة مختارة من الأوامر التي جاءت بها الشريعة .

ويهتم التلمود اهتماما كبيرا بالشعائر الدينية ، ولكن بعض هذا الاهتمام كان رد فعل من اليهود لما بذلته الكنيسة المسيحية والدولة من محاولات لإرغامهم على التخلي عن شريعتهم . ولقد كانت هذه الشعائر سمة تميزهم ، ورابطة تجمع شتاتهم وتصل بين مختلف أجيالهم ، وشعارا يتحدون به عالما لا يعرف قط عنهم . وإنا لنجد في مواضع متفرقة من مجلدات التلمود العشرين كلمات حقدت على المسيحية ، ولكنها حقدت على مسيحية نسبت رقة المسيح وظرفه ، مسيحية اضطهدت المتمسكين بشريعة أمر المسيح أتباعه بالعمل بها ، مسيحية يرى أحبار اليهود أنها حادّت عن مبدأ التوحيد جوهر الدين القويم وأساسه الذي لا يتبدل . وإنا لنجد بين هذه الشعائر والطقوس المعقدة ، وهذا الجدل الشائك الطويل ، مئات من النصائح السديدة ، والبصيرة النفسانية ، تتخللها في بعض الأحيان فقرات تعيد إلى الذاكرة جلال كتاب العهد القديم أو الحنان الصوفي الذي تراه في العهد الجديد . وإن ما يمتاز به اليهودى من فكاهة شاذة غريبة الأطوار لتخفف عنه عبء هذا الدرس الطويل . انظر مثلا إلى ما يقوله أحد أحبارهم من أن موسى دخل متخفيا إلى الحجرة التي يلتقى فيها عقيبا دروسه ، وجلس في الصف الأخير ، ودهش من

كثرة القوانين التي استنبطها المعلم الكبير من الشريعة الموسوية ، والتي لم يحلم بها قط كاتبها (١١٧) .

ولقد ظل التلمود أربعة عشر قرناً من الزمان أساس التربية اليهودية وجوهرها . وكان الشاب العبراني ينكب عليه سبع ساعات في كل يوم مدى سبع سنين ، يتلوه ويثبته في ذاكرته بلسانه وعينه ؛ وكان هو الذي يكون عقولهم ويشكل أخلاقهم بما تفرضه دراسته من نظام دقيق ، وبما يستقر في عقولهم من معرفة ، شأنه في هذا شأن كتابات كنفوشيوس التي كان يظهرها الصينيون كما يظهر اليهود التلمود . ولم تكن طريقة تعلمه مقصورة على تلاوته وتكراره ، بل كانت تشمل فوق ذلك مناقشته بين المدرس والتلميذ ، وبين التلميذ والتلميذ ، وتطبيق القوانين القديمة على ما يستجد من الظروف . وقد أفادت هذه الطريقة حدة في الذهن ، وتقوية للذاكرة ، وتثبيتاً للمعلومات ، ميزت اليهودى من غيره في كثير من الميادين التي تتطلب الوضوح ، وتركيز الذهن ، والمثابرة ، والدقة ، وإن كانت في الوقت نفسه قد عملت على تضيق أفق العقل اليهودى والحد من حريته . ولقد روض التلمود طبيعة اليهودى النائرة المهتاجة ، وكبح جماح نزعة الفردية ، وبث فيه روح العفة والوفاء لأسرته وعشيرته ؛ ولربما كان « نير البشرية » عبثاً ثقيلاً على ذوى العقول السامية الكبيرة ، ولكنها كانت السبب في نجاة اليهود بوجه عام .

وليس من المستطاع فهم التلمود إلا إذا درس في ضوء التاريخ على أنه العامل الفعال الذي أبقى على شعب مطرود ، معدم ، مظلوم ، يهدده خطر التفكك التام . ولقد فعل أحبار اليهود في تشتتهم الواسع ما فعله أنبياءهم للاحتفاظ بالروح اليهودية في الأسر البابلي . فقد كان لا بد لهم من أن يعيدوا إليهم عزتهم وكبرياءهم ، وأن يعملوا على أن يستقر بينهم النظام ، ويثبتوا في قلوبهم الإيمان ، ويحافظوا على أخلاقهم القويمة ، ويعيدوا إليهم سلامة العقول وصحة الأبدان اللتين حطمتها

الحن الطوال (١١٨) . وبفضل هذا التأديب الشاق ، وعرس أصول التقاليد اليهودية في صدر اليهودى بعد اقتلاعها ، عاد الاستقرار وعادت الوحدة ، عن طريق التجوال في أطراف القارات والأحزان خلال القرون الطوال ، ولقد كان التلمود على حد قول هيني Heine وطناً منتقلاً لليهود يحملونه معهم أينما ساروا . فحيثما وجد اليهود ، حتى وهم جالية واجفة في أرض الغربة ، كان في وسعهم أن يضعوا أنفسهم مرة أخرى في عالمهم ، وأن يعيشوا مع أنبيائهم وأحبارهم ، وذلك بأن يرووا عقولهم وقلوبهم من فيض الشريعة . فلا غرابة والحالة هذه إذا أحبوا هذا الكتاب الذى نراه نحن أكثر تنوعاً واختلافاً مما كتبه مائة كاتب من أمثال منتانى Montaigne . ولم يكفهم الاحتفاظ بالكتاب كله ، بل احتفظوا بأجزاء صغيرة منه بحسب يصل إلى درجة الجنون ، وكانوا يتبادلون قراءة نتف من هذا المخطوط الضخم ، وأنفقوا في القرون المتأخرة أموالاً طائلة لطبعه كاملاً ، وبكوا حين كانت الملوك والبابوات ، والمجالس النيابية محرم تلاوته ، أو تصادره ، أو تحرقه ؛ وأبتهجوا حين رأوا روشلين Reuchlin وإرزمس Erasmus يدافعان عنه ، واعدوه في أيامنا هذه أئمن ما تمتلكه معابدهم وبيوتهم ، واتخذوه ملجأً وسلوى ، وسجناً للروح اليهودية .

الباب السادس عشر

يهود العصور الوسطى

٥٦٥ - ١٣٠٠

الفضل الأول

المجتمعات الشرقية

كان لليهود وقتئذ شريعة ولكنهم لم تكن لهم دولة ؛ كان لهم كيان ، ولم يكن لهم وطن . ذلك أن أورشليم ظلت إلى عام ٦١٤ مدينة مسيحية ، وإلى عام ٦٢٩ فارسية ، وإلى عام ٦٣٧ مسيحية مرة أخرى ، ثم ظلت من ذلك الوقت إلى عام ١٠٩٩ حاضرة إسلامية . وفي ذلك العام الأخير حاصرها الصليبيون ، وانضم اليهود إلى المسلمين في الدفاع عنها ، فلما سقطت في أيدي الصالبيين سيق من بقي فيها حياً من اليهود إلى إحدى بيعهم وأحرقوا عن آخرهم (١) ، ولما استولى صلاح الدين على المدينة عام ١١٨٧ أعقب ذلك ازدياد سريع في عدد اليهود ، واستقبل السلطان العادل أخو صلاح الدين ثلثمائة من أبحارهم الذين فروا من إنجلترا وفرنسا في عام ١٢١١ استقبالا حسناً . لكن ابن نجمان لم يجد فيها بعد خمسين عاماً من ذلك الوقت إلا حفنة صغيرة من اليهود (٢) ، ذلك أن سكان بيت المقدس كانوا قد أصبحوا كلهم تقريباً مسلمين .

وظل اليهود كثيرون في العراق وفارس الإسلامية رغم ما لاقوه في بعض الأحيان من الاضطهاد ورغم اعتناق عدد منهم دين الإسلام . وأضحى لهم في ربوعها حياة اقتصادية وثقافية ناشطة قوية . ولقد ظلوا في شئونهم الداخلية ،

كما كانوا في عهد الملوك الساسانيين ، يتمتعون بالحكم الذاتي تحت إشراف الإجزيلارك (رئيس اليهود في المهجر) ومديرى الجامع الدينية . واعترف الخلفاء المسلمون بالإجزيلارك في كل من بلاد بابل ، وأرمينية ، والتركستان ، وفارس ، واليمن ، رئيساً لجميع اليهود فيها ؛ ويقول بنيامين التطيلي إن جميع رعايا الخليفة كان يفرض عليهم أن « يقوموا واقفين في حضرة أمير الأسر ، وأن يحويه باحترام »^(٣) . وكان منصب الإجزيلارك وراثياً في أسرة واحدة ترجع بنسبها إلى داود ، وكان سلطانه سياسياً أكثر منه روحياً ، وقد أدى ما بذله من الجهود للسيطرة على رجال الدين إلى اضمحلاله ثم إلى سقوطه ، وأصبح مديرو الجامع العلمية بعد عام ٧٦٢ هم الذين يختارون الإجزيلارك ويسيطرون عليه .

وكانت الكليات الدينية في سورا Sura ومهديثا Pumbeditha تخرج الزعماء الدينيين والعقلين لليهود في بلاد الإسلام ، وتخرج أمثالهم بدرجة أقل لليهود في البلاد المسيحية . وحدث في عام ٦٥٨ أن أخرج الخليفة مجمع سورا العلمى من اختصاص الإجزيلارك القانونى ، فلما حدث هذا اتخذ رئيس المجمع لنفسه لقب جاؤن Gaon (صاحب السعادة) وابتدأ من ذلك الحين نظام الجاؤنية ، وعهد الجاؤنيم في الدين والعلم البابليين^(٤) . ولما ازدادت موارد كلية مهديثا وعظمت منزلتها لقربها من بغداد ، اتخذ مديروها أيضاً لأنفسهم لقب جاؤن ؛ وكاد اليهود في جميع أنحاء العالم فيما بين القرن السابع إلى القرن الحادى عشر يستفتون الجاؤنيم في المدينتين فيما يعرض لهم من مسائل التلمود القانونية ، ونشأ لليهودية من أجوبتهم على هذه المسائل أدب قانونى جديد .

وحدث في الوقت الذى قامت فيه الجاؤنية انشقاق ديبى فرق العالم اليهودى في الشرق وزالت له أركانه — أولعل هذا الانشقاق نفسه هو الذى حتم قيام الجاؤنية في ذلك الوقت . ذلك أنه لما توفى الإجزيلارك سليمان ، طالب ابن أخيه عن بن داود بحقه في أن يخلفه في منصبه ، ولكن زعماء سورا ومهديثا طرحوا

مبدأ الوراثة وراءهم ظهريا ونصبوا حثانيا أخوا عن الأصغر إجزلا ركا في مكانه . فما كان من عنن إلا أن طعن في الجاوثين ، وفر إلى فلسطين وأنشأ فيها كنيسا خاصا به ، وطالب اليهود أينما كانوا أن يبدلوا التلمود وألا يطيعوا إلا قوانين أسفار موسى الخمسة . وكان هذا العمل من جانبه عودة إلى الوضع الذي كان عليه الصدوقيون ؛ وكان شينها بما ينادى به بعض الشيعة في الإسلام من نبد « السنة » النبوية واتباع القرآن وحده ، وما يطالب به البروتستنت من نبد التقاليد الكاثوليكية والعودة إلى الأناجيل . على أن عنن لم يكتف بهذا بل أخذ يعيد النظر في أسفار موسى الخمسة ويشرحها شرحا يعد خطوة جريئة في سبيل الدراسة النقدية لنصوص الكتاب المقدس . واحتج على ما أدخله علماء التلمود من تبديل في الشريعة الموسوية وما يحاوانه في تفسيرهم وشرحهم من توفيق بينها وبين الظروف القائمة في أيامهم ، وأصر على اتباع ما جاء في الأسفار الخمسة من أوامر وتنفيذها بنصها ، ولهذا سمي أتباعه بالقرائين(*) - أي « المتمسكين بالنصوص » وامتدح عنن عيسى وقال إنه رجل صالح لم يرغب في نبد شريعة موسى المدونة ، بل كل ما كان يطلبه أن يبدل الناس قوانين الكتبه والقريسين الشفوية . ويرى عنن أن عيسى لم يكن يرغب في وضع دين جديد ، بل كان يرغب في تطهير الدين اليهودي وتدعيمه^(٥) . وكثر اليهود القراءون في فلسطين ، ومصر ، وأسبانيا ، ثم نقص في القرن الثاني عشر ، ولم يبق منهم الآن إلا أقلية آخذة في الانقراض في تركيا وجنوب روسيا ؛ وبلاد العرب . ونبد القراءون في القرن التاسع ما كان ينادى به عنن من تفسير حرفي لنصوص الشريعة ، وقالوا إن بعث الأجسام وما جاء في الكتاب المقدس من أوصاف جسمانية لله ، يجب أن تؤخذ على سبيل المجاز ، ولعلمهم في قولهم هذا كانوا متأثرين بأراء المعتزلة المسلمين .

(*) من اللفظ الأرامي قرا أي النص وهذا اللفظ نفسه مشتق من قرا . ومنه أيضا القرآن .

فلما فعلوا هذا عاد اليهود الربانيون إلى القول بأخذ عبارات التلمود بنصها ، وقالوا إن ما ورد في الكتاب المقدس من عبارات أمثال « يد الله » وجاوس الله « يجب أن تؤخذ بمعناها الحقيقي ، بل إن بعضهم قد تغالى في هذا فقدر بالدقة مقاييس جسم الله ، وطول أطرافه ، ولحيته^(٦) . ونشأت فئة قليلة من اليهود حرة التفكير منها صبي البلخي Chivi al-Balchi كانت تنادى بأن أسفار موسى الخمسة نفسها ليست شريعة واجبة الطاعة^(٧) . في هذه البيئة التي تمتاز بالرخاء الاقتصادي ، والحرية الدينية ، والجدل العنيف أُنجبت اليهودية أول فيلسوف يهودى ذائع الصيت في العصور الوسطى .

ولد سعديا بن يوسف في قرية من قرى الفيوم في عام ٨٩٢ . وشب في مصر وتزوج فيها ثم هاجر منها إلى فلسطين في عام ٩١٥ ، ثم هاجر بعدئذ إلى بابل . وما من شك في أنه كان طالبا مجدا ومعلما قديرا ، لأنه عين وهو شاب في السادسة والثلاثين من عمره جاوذاً أى مديراً لكلية سورا . وشاهد ما أدخله القراءون والمتشككة من بدع في الدين اليهودى القديم ، فألى على نفسه أن يفعل لهذا الدين ما فعله المتكلمون للدين الإسلامى - فيبين أن هذا الدين القديم يتفق كل الانفاق مع العقل والتاريخ . وأخرج سعديا في حياته القصيرة التي لم تتجاوز خمسين عاماً مقداراً ضخماً من المؤلفات - معظمها - لا يماثلها في سجل التفكير اليهودى في العصور الوسطى إلا مؤلفات ابن ميمون . ومن هذه المؤلفات « الأجران » وهو معجم آراى للغة العبرية يعد أساساً للفلسفة العبرية ؛ ومنها « كتاب اللغة » وهو أقدم ما عرف من كتب في نحو اللغة العبرية . وقد ظلت ترجمته العربية للعهد القديم إلى يومنا هذا الترجمة التي يستخدمها جميع اليهود الذين يتكلمون اللغة العربية ، وإن شروحه لأسفار الكتاب المقدس « لتكاد تجعله » أعظم شارح للكتاب المقدس في جميع العصور^(٨) ؛ ويعد « كتاب الأمانات والاعتقادات » (٩٣٣) أعظم رد في الدين اليهودى على الخارجين على هذا الدين .

ويؤمن سعديا بالوحي والتواتر معاً أى بالشريعة المكتوبة وغير المكتوبة ، ولكنه يؤمن أيضاً بالعقل ، ويطلب بأن يثبت استناداً إلى العقل صدق الوحي والتواتر . فإذا ما تعارضت نصوص الكتاب المقدس تعارضاً صريحاً مع حكم العقل ، فلنا أن نفترض أن النص المتعارض لا يقصد به أن تأخذه العقول الناضجة بحرفيته . كذلك يجب أن تؤخذ أوصاف الله الجسمانية على أنها مجاز لا حقيقة ؛ ذلك أن الله ليس إنساناً يتصف بما يتصف به البشر . ويدل نظام العالم وقوانينه على وجود خالق عاقل مدبر . وليس من العقل فى شىء أن يظن أن الله العاقل المدبر يعجز عن أن يثب على الفضيلة ، ولكن الفضيلة ، كما هو واضح ، لا يثاب عليها دائماً فى هذه الحياة ؛ ومن ثم لا بد أن تكون هناك حياة أخرى تعوض ما يبدو فى هذه الحياة الدنيا من ظلم ظاهرى ؛ ولعل آلام الصالحين فى هذه الدنيا ليست إلا عقاباً لبعض ما ارتكبه من ذنوب حتى يدخلوا الجنة من فورهم بعد موتهم ، كما أن ما يظفر به الأشرار من نعم إنما هو مثوبة على أعمالهم الصالحة العارضة ، حتى ... ولكن الناس كلهم حتى الذين يقوون بأحسن الأعمال الصالحة فى هذا العالم وينالون فيه أعظم الخير والسعادة يحسون فى أعماق قلوبهم أن ثمة حالاً خيراً من حالهم هذه الواسعة الآمال القليلة المتعة ، وكيف يجوز لله الذى اقتضت حكمته العظيمة خلق هذا العالم العجيب أن يبعث هذه الآمال فى النفس إذا لم يشأ أن تتحقق؟ (٩) ، ولقد تأثر سعديا إلى حد ما بفقهاء الإسلام وسار على نهجهم فى الشرح والإيضاح ، بل إنه استعار منهم فى بعض الأحيان أساليب الجدل والنقاش . وقد انتشرت آراؤه فى جميع أنحاء العالم اليهودية وتأثر بها ابن ميمون ، وهل أدل على هذا من قول ابن ميمون : « لولا سعديا لكادت التوراة أن تختفى من الوجود » (١٠) .

وهنا يجب أن نقر بأن سعديا كان رجلاً فظاً إلى حد ما ، وأن نزاعه مع الإجزيلارك داود بن زكاي قد أضرب يهود بابل . وكانت نتيجة هذا النزاع أن

أعلن داود في عام ٩٣٠ حرمان سعديا ، وأن أعلن سعديا حرمان داود . ولما مات داود في عام ٩٤٠ نَصَّب سعديا لإجزيلاركاً جديداً ، ولكن المسلمين قتلوا هذا الإجزيلارك لأنه طعن في النبي محمد . فما كان من سعديا إلا أن عين ابن القتييل خلفاً ، وقتل هذا الشاب أيضاً ؛ وحينئذ قرر اليهود بعد أن فت في عضدهم على هذا النحو أن يبقوا هذا المنصب شاغراً ، وبذلك انتهى عهد الإجزيلاركية البابلية الذي دام سبعة قرون . وكان تفكك الخلافة العباسية في بغداد وقيام دول إسلامية مستقلة في مصر ، وشمالى أفريقية ، وأسبانيا سبباً في ضعف الروابط بين يهود آسية وأفريقية وأوربا وأصيب يهود بابل بما أصيب به الإسلام في الشرق من ضعف اقتصادى بعد القرن العاشر الميلادى ، فأغلقت كلية سورا أبوابها في عام ١٠٣٤ وحذت حذوها بمبدينا بعد أربع سنين ، وانتهى عهد الجاوثية في عام ١٠٤٠ ؛ وزادت الحروب الصليبية الهوة بين يهود بابل ويهود مصر وأوربا ، ولما خرب المغول بغداد في عام ١٢٢٨ كادت الجالية اليهودية البابلية أن تختفى من صفحات التاريخ .

وكان كثيرون من يهود الشرق قد هاجروا قبل هذه الكوارث إلى أقاصى آسية الشرقية ، وبلاد العرب ، ومصر ، وشمالى أفريقية وأوربا ؛ فكان في سيلان ٢٣٠٠٠٠ عبرانى في عام ١١٦٥^(١١) ، وبقيت في بلاد العرب عدة جاليات يهودية بعد أيام النبي ؛ ولما فتح عمرو بن العاص مصر في عام ٦٤١ كتب إلى الخليفة يقول إن في الإسكندرية أربعة آلاف من اليهود « أهل الذمة » ، ولما اتسعت مدينة القاهرة ازداد عدد من فيها من اليهود أصحاب العقيدة القديمة والقرائين . وكان يهود مصر يستمتعون بالحكم الذاتي في شئونهم الداخلية بزعامة النجيد أو أمير اليهود ، وازدادت ثروتهم من الأعمال التجارية وارتفعوا إلى المناصب العالية في حكومات الدول الإسلامية^(١٢) . وتقول إحدى الروايات إن أربعة من أحبار اليهود أبحروا على ظهر إحدى السفن من بارى Bari في إيطاليا ، ولكن

أحد أمراء البحر الأندلسيين المسلمين أسرفينتهم وباعهم بيع الرقيق ، فبيع
الحبر موسى وابنه حنوخ في قرطبة ، وبيع سحرية في الإسكندرية ، وبيع
الحبر هوسيل في القيروان : ثم أعتق كل واحد من هؤلاء الأحرار ، كما تقول
الرواية ، وأنشأ في المدينة التي بيع فيها مجمعاً علمياً . والشائع على الألسنة ،
وإن لم يكن هذا مؤكداً ، أنهم كانوا من علماء سورا ؛ وأياً كانت نشأتهم
فقد نقلوا العلم من يهود الشرق إلى الغرب ؛ وبينما كانت اليهودية في آسية
آخذة في الضعف بدأت أيام عزها وسعادتها في مصر وأسبانيا .

الفصل الثاني

الجماعات اليهودية في أوروبا

اتخذ اليهود طريقهم إلى بلاد روسيا في العصور الوسطى من بابل وفارس مجتازين ما وراء جيحون والقوقاز ، وإلى ساحل البحر الأسود من آسية الصغرى مجتازين القسطنطينية . وظل اليهود في تلك العاصمة يستمتعون بالرخاء النَّكد من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر . وكان في بلاد اليونان جماعات يهودية كبيرة وبخاصة في طيبة حيث كانت لمنسوجاتهم الحريرية شهرة عظيمة . وهاجر اليهود شمالاً إلى بلاد البلقان مجتازين تساليا وتراقية ومقدونية ، ثم ساروا بمحاذاة نهر الدانوب إلى بلاد المجر . وجاءت حفنة من التجار العبرانيين من ألمانيا إلى بولنדה في القرن العاشر لأن اليهود كانوا في ألمانيا من قبل ميلاد المسيح . فكان في متز Metz ، واسپير Speyer ، ومينز Mainz ، وورمز Worms ، واستر سبورج Strassbourg ، وفرنكفورت Fraankfort ، وكولوني جاليات يهودية كبيرة في القرن التاسع ، وإن كانت هذه الجاليات قد شغلتها التجارة وما تستلزمه من كثرة الترحال فلم يكن لها شأن كبير في تاريخ اليهود الثقافي . ومع هذا فقد أنشأ جرشوم بن يهودا (٩٦٠ - ١٠٢٧) مجمعاً علمياً للأحبار في مينز وكتب بالعبرانية شرحاً للتلمود ، وبلغ من سلطانه أن كان يهود ألمانيا يستفتونه فيما يعرض لهم من مسائل في شريعة التلمود بدل أن يستفتوا في ذلك جاؤنيم بابل .

وكان في إنجلترا يهود في عام ٦٩١ (١٣) ، وجاء إليهم عدد آخر كبير منهم مع وليم الفاتح William the Conqueror ، وبسط عليهم النورمان الفاتحون في أول الأمر حمايتهم لما كانوا يمدونهم به من رعوس الأموال وما كانوا يقومون به من

من جباية الإيراد . وكانت جماعاتهم المقيمة في لندن ، ونورثس Norwich ، ويورك ، وغيرها من المراكز الإنجليزية خارجة عن اختصاص ولاية الأمور المحليين في شئونها القانونية ، فكانت لا تخضع إلا للملوك أنفسهم . ووسعت هذه العزلة التعميمية الهوة بين المسيحيين واليهود ، وكانت سبباً من أسباب المذابح المدبرة التي حدثت في القرن الثاني عشر .

وكان في غالة تجار يهود من عهد يوليوس قيصر ، وقبل أن يجلب عام ٦٠٠ بعد الميلاد وجدت جاليات يهودية في جميع المدن الكبرى في غالة ؛ واضطهدهم الملوك المروفنجيون بوحشية ، وأمرهم كلبريك Chilperic أن يعتنقوا الدين المسيحي على بكرة أبيهم وإلا فمقتلهم (٤٨١) (١٤) ؛ أما شارلمان فإنه بسط عليهم حمايته لأنه وجد فيهم زراعا ، وصناعا ، وأطباء ، ورجال مال نافعين ، واختار يهوديا ليكون طبيبه الخاص ، وإن كان قد أتى على القوانين التي تحرم اليهود من بعض الحقوق التي يتمتع بها غيرهم . وتقول إحدى الروايات المشكوك في صحتها إنه استقدم في عام ٧٨٧ أسرة كلونيموس Klonimos من لكا Lucca إلى ميز ليشجع الدراسات اليهودية في دول الفرنجة ، ثم أرسل في عام ٧٩٧ يهوديا مترجماً أو مفسراً مع بعثة سياسية إلى هارون الرشيد . وكان لويس التقي Louis the Pious يميل إلى اليهود لعلمهم في تنشيط التجارة ؛ وعين موظفاً خاصاً للدفاع عن حقوقهم ؛ واستمتع اليهود في فرنسا في القرنين التاسع والعاشر بقدر من الرخاء والطمأنينة لم يستمتعوا به بعدئذ قبل أيام الثورة الفرنسية ؛ وذلك رغم ما كان يذاع ضدهم من الأقاصيص ، وما يفرض عليهم من القيود القانونية ، وما يصيبهم أحياناً من الاضطهاد القليل (١٥) . وكانت في إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها جاليات يهودية منتشرة من تراني Trani إلى البندقية وميلان ، وكان اليهود كثيرين في بلدوا بنوع خاص ، ولعلمهم كان لهم أثر في نشر فلسفة ابن رشد في جامعتها . وكان في سالرنو Salerno ، حيث أنشئت في البلاد المسيحية اللاتينية أولى مدارس الطب في

العصور الوسطى ، سمانة يهودى^(١٦) . منهم عدد من مشهورى الأطباء .
وكان فى بلاط فردريك الثانى فى فوجيا Foggia طائفة من العلماء اليهود ،
وعين البابا الكسندر الثالث (١١٥٩ - ١١٨١) عدداً من اليهود فى المناصب
الكبرى فى بيته^(١٧) ، ولكن فردريك اشترك مع البابا جريجورى التاسع فى
اتخاذ إجراءات ظالمة ضد يهود إيطاليا .

وكان يهود أسبانيا يلقبون أنفسهم سفرديم Sephardim ، ويرجعون
بأصولهم إلى قبيلة يهوذا الملكية^(*) ، ولما اعتنق الملك ريكارد Recared
الدين المسيحى الأصيل ، انضمت حكومة القوط الغربيين إلى رجال الدين
الأقوياء أتباع الكنيسة الأسبانية فى مضايقة اليهود وتنغيص حياتهم عليهم ،
فحرمت عليهم المناصب العامة ، ومنعوا من الزواج بالمسيحيات أو اقتناء
أرقاء مسيحين . وأمر الملك سيزبوت Sisebut جميع اليهود أن يعتنقوا
المسيحية أو أن يخرجوا من البلاد (٦١٣) ، وألغى الملك الذى خلفه على
العرش هذا الأمر ، ولكن مجلس طليطلة الذى عقد فى عام ٦٣٣ أصدر
قراراً ينص على أن اليهود الذين عمدوا ثم عادوا إلى الدين اليهودى يجب
أن يفصلوا عن أبنائهم ، وأن يباعوا أرقاء . وأعاد الملك شنتيلا Chintila
العمل بمرسوم سيزبوت (٦٣٥) ، وحرم الملك إيجيكا Egica على اليهود
امتلاك الأراضي كما حرم كل عمل مالى وتجارى بين أى مسيحي ويهودى
(٦٩٣) . وكانت نتيجة هذا أن ساعد اليهود العرب حين جاءوا أسبانيا
فأتحين فى كل خطوة من خطوات الفتح .

(*) يطلق اسم سفرد Sephard فى سفر عبديّة (الكتاب الأول الفصل ٢٠) على
إقليم (لعله آسية الصغرى) نقل إليه الملك فايوخل نصر (٥٩٧ ق . م) بعض اليهود ، ثم
أطلق هذا اللفظ بعدئذ على بلاد أسبانيا . وكان يهود ألمانيا يسمون تسمية غير دقيقة أشكنازيم
لا لتسايمهم المزعوم إلى أشكناز Ashkenaz حفيد يافث بن نوح (سفو التكوين ، الأصحاح
العاشر ، الآية ٣) .

وأراد الفاتحون أن يعمروا البلاد فدعوا إلى الهجرة إليها ، وقدم إليها فيمن قدم خمسون ألف يهودى من آسية وأفريقية^(١٨) ، وكاد سكان بعض المدن مثل أليسانة أن يكونوا كلهم من اليهود . ولما أن تحرر اليهود في أسبانيا الإسلامية من القيود المفروضة على نشاطهم الاقتصادى انتشروا في جميع ميادين الزراعة ، والصناعة ، والمال ، والمناصب العامة ؛ ولبسوا ثياب العرب ، وتكلموا بلغتهم ، واتبعوا عاداتهم ، فلبسوا العمامة والأثواب الحريرية الفضفاضة ، وركبوا العربات حتى أصبح من العسير تمييزهم من بقى عمومهم الساميين . واستخدم عدد من اليهود أطباء في بلاط الخلفاء والأمراء وعين أحد هؤلاء الأطباء مستشاراً لأعظم خليفة من خلفاء قرطبة .

فقد كان حسداى بن شبروط (٩١٥ - ٩٧٠) بالنسبة لعبد الرحمن الثالث ماكانه نظام الملك في القرن التالى لملك شاه . وقد ولد حسداى في أسرة ابن عزرا المثربة المثقفة ؛ وعلمه أبوه اللغات العربية ، والعربية ، واللاتينية ؛ ودرس الطب ، وغيره من العلوم في قرطبة ، وداوى الخليفة من أمراضه ، وأظهر من واسع المعرفة وعظيم الحكمة في الأمور السياسية ما جعل الخليفة يعينه في الهيئة الدبلوماسية للدولة ، ولما يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره كما يلوح . ثم عهدت إليه تباعاً أعمال أخرى ذات تبعات متزايدة في حياة الدولة المالية والتجارية . على أنه لم يكن له لقب رسمى لأن الخليفة تردد في منحه رسمياً لقب وزير خشية أن يثير عليه النفوس . ولكن حسداى قام بمهام منصبه الكثيرة بكياسة أكسبته محبة العرب ، واليهود ، والمسيحيين على السواء ، وقد شجع العلوم والآداب ، ومنح الطلاب الهبات المالية والكتب بلائمين ، وجمع حوله ندوة من الشعراء ، والعلماء ، والفلاسفة ؛ فلما مات تنافس المسلمون واليهود في تكريم ذكراه .

وكان ثمة رجال غيره في أنحاء أخرى من أسبانيا الإسلامية وإن لم يبلغوا ما بلغه . ففي أشبيلية دعا المعتمد إلى بلاطه إسحق بن بروك العالم والفلكي ، ومنحه لقب أمير ، وجعله حاكماً أكبر لكل المحامع اليهودية فيها^(١٩) ؛ وفي غرناطة نافس شمويل هلوى ابن نجدلا Samuel Halevi ibn Naghdela حسداى ابن شبروط في سلطانه وحكمته وفاقه في علمه . وقد ولد شمويل في قرطبة عام ٩٩٣ ونشأ فيها ، وجمع بين دراسة التلمود والأدب العربي ، وجمع بين هذين وبين الاتجار في التوابل . ولما أن سقطت قرطبة في أيدي البربر ، انتقل إلى مالقة ، وفيها زاد دخله القليل بكتابة العروض إلى ملك غرناطة . وأعجب وزير الملك بما كانت عليه هذه العروض من جمال الخط وحسن الأسلوب فزار شمويل ، وصحبته إلى غرناطة ، وأسكنه في قصر الحمراء ، وجعله أمين سره . وما لبث شمويل أن أصبح أيضاً مستشاره ، وكان مما قاله الوزير نفسه أنه إذا أشار شمويل بشيء فإن صوت الله يسمع فيما يشير به^(٢٠) . وأوصى الوزير وهو على فراش الموت أن يخلفه شمويل ، وبذلك أصبح شمويل في عام ١٠٢٧ اليهودى الوحيد الذى شغل منصب وزير في دولة إسلامية وحظى بهذا اللقب . ومما يسر هذا الأمر في غرناطة أكثر منه في أى بلد آخر أن نصف سكان هذه المدينة في القرن الحادى عشر كانوا يهوداً^(٢٠) . وسرعان ما رحب العرب بهذا الاختيار ، لأن الدولة الصغيرة ازدهرت في عهد شمويل من النواحي المالية ، والسياسية ، والثقافية . وكان هو نفسه عالماً ، وشاعراً ، وناطقة في الفلك ، والرياضة ، واللغات ، يعرف سبعمئتها ؛ وقد ألّف عشرين رسالة في النحو (معظمها بالعبرية) وعدة مجلدات في الشعر والفلسفة ، ومقدمة للتلمود ، ومجموعة من الأدب العبرى . وكان يقسم ماله مع غيره من الشعراء ، وأنجد الشاعر والفيلسوف ابن جبرول ، وأمد بالمال طائفة من شباب الطلاب ، وأعان الجماعات اليهودية في قارات ثلاث . وكان وهو وزير الملك حاكماً لليهود ، يحاضر عن التلمود . ولقبه بنو ملته - اعترافاً منهم

بفضله - بالنجيد - الأمير (في إسرائيل) . ولما توفى عام ١٠٥٥ خلفه في الوزارة ، والنجادة ابنه يوسف بن نجدلا .

وكانت هذه القرون الثلاثة - العاشر ، والحادي عشر ، والثاني عشر - هي العصر الذهبي ليهود أسبانيا ، وأسعد عصور التاريخ العبري الوسيط ، وأعظمها ثمرة . ولما أن افتدى موسى بن شنوك (المتوفى عام ٩٦٥ وأحد المهاجرين من باري) من الأسر في قرطبة ، أنشأ فيها بمعونة حسداى مجمعا علميا ، ما لبث أن أصبحت له الزعامة الفعلية على يهود العالم كله . وافتتحت مجامع مثله في أليسانة ، وطليطاة ، وبرشلونة ، وغرناطة . . . ؛ وبينا كادت المدارس اليهودية في الشرق تقصر نشاطها على التعليم الديني ، كانت هذه المدارس الأسبانية تعلم فيما تعلمه الأدب : والموسيقى ، والرياضيات ، والهيئة ، والطب ، والفلسفة^(٢١) . وبفضل هذا التعليم نالت الطبقات العليا من يهود أسبانيا في ذلك الوقت سعة وعمقا في الثقافة والظرف لم ينلها إلا معاصروهم من المسلمين ، والبيزنطيين ، والصينيين . وكان مما يسر بل الرجل المؤثر أو صاحب المركز السياسي بالعار ألا يلم بالتاريخ ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة ، والشعر^(٢٢) . ونشأت في ذلك الوقت أرسقراطية يهودية تزدان بمن فيها من النساء الحسان ؛ ولعلها قد أفرطت في الاعتداد بتفوقها على غيرها ، ولكن كان يقابل هذا الاعتداد ويخفف من وقعه اعتقادها أن شرف المحتد وكثرة الثراء يفرضان على صاحبهما واجبات من السخاء والفضل .

ويمكننا أن نؤرخ بداية تدهور يهود أسبانيا من سقوط يوسف بن نجدلا . ذلك أنه كان يخدم الملك بكفاية لا تكاد تقل عن كفاية أبيه ، ولكنه لم يكن له ما كان لأبيه من تواضع وكياسة جعلتا سكان البلاد - ونصفهم من المسلمين الأندلسيين - يرتضون أن يتولى أمورهم يهودى . من ذلك أنه جمع السلطة كلها في يده ، وتشبه بالملك في لباسه . وسخر من القرآن . وتحدث الناس بأنه لا يؤمن

بالله . ولهذا ثار العرب والبربر في عام ١٠٦٦ وصلبوا يوسف ، وذبحوا أربعة آلاف من يهود غرناطة ، ونهبوا بيوتهم ، وأرغم الباقون من اليهود على بيع أراضيهم ومغادرة البلاد . وجاء المرابطون من أفريقية بعد عشرين عاما من ذلك الوقت متأججة صدورهم بالحساسة الدينية و متمسكين بأصول السنة ، وانتهى بقدمهم عصر أسبانيا الإسلامية الزاهر الطويل الأمد . ونادى أحد رجال الدين من المسلمين أن اليهود قد وعدوا النبي بأن يعتنقوا الإسلام بعد خمسمائة عام من الهجرة ، إذا لم يظهر في ذلك الوقت مسيحهم المنقذ المنتظر ، وأن هذه الأعوام الخمسمائة تنتهي بالحساب الهجري في عام ١١٠٧ ؛ وطلب الأمير يوسف إلى جميع يهود أسبانيا أن يعتنقوا الإسلام ، ولكنه أعفاهم من هذا الأمر حين أدوا لبيت المال مبالغ طائلة (٢٣) . ولما خلف الموحدون المرابطين في حكم مراكش وبلاد الاندلس الإسلامية (١١٤٨) ، خيروا اليهود والمسيحيين كما خير الملك سيز بوت اليهود قبل خمسمائة وخمسة وثلاثين عاما من ذلك الوقت بين الارتداد عن دينهم أو الخروج من البلاد . وتظاهر كثيرون من اليهود باعتناق الإسلام ، وهاجر كثيرون منهم مع المسيحيين إلى شمالي أسبانيا .

وهنا وجد اليهود في بادئ الأمر من التسامح العظيم ما لا يقل جلالا عما ظلوا يلقونه مدى أربعة قرون تحت حكم المسلمين . وأحسن الفنسو السادس والسابع ملكا قشتاله (الأذفونش) معاملة اليهود ، وجعلهم هم والمسيحيين سواء أمام القانون ، ولما قامت حركة مناهضة للسامية (١١٠٧) في طليطلة ، حيث كان ٧٢٠٠٠ يهودي ، قمعها بصرامة (٢٤) . وحدث في أرغونة مثل هذا التآلف بين الديانتين ، الأم والابنة ، وبلغ من هذا التآلف أن دعا الملك جيمس الأول اليهود أن يستوطنوا ميورقة ، وقطلونية ، وبلنسية ، وكثيراً ما كان يمنح المستوطنين اليهود بيوتا وأرضين من غير ثمن (٢٥) . وكانت لهم في برشلونة السيطرة على التجارة في القرن الثاني عشر ، كما كان لهم نصف أراضيها الزراعية (٢٦) . نعم إن يهود

أسبانيا قد فرضت عليهم ضرائب باهظة ، ولكنهم مع ذلك أثروا ، واستمتعوا فيها بالاستقلال في شئونهم الداخلية . وكانت التجارة تتبادل بحرية بين المسيحيين واليهود والمسلمين الأندلسيين ، وكان بنو الأديان الثلاثة يتبادلون الهدايا في الأعياد ، وكان بعض الملوك من حين إلى حين يشترك بالمال في بناء المعابد اليهودية (٢٧) ، وكان في وسع الإنسان أن يجد بين عاني ١٠٨٥ و ١٤٩٢ نفسها يهودا يشغلون المناصب الكبرى في دول أسبانيا المسيحية . منهم القائمون على شئون المال ومنهم الدبلوماسيون ، ومنهم الوزراء أحياناً (٢٨) . واشترك رجال الدين المسيحيون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في هذه الألفة المسيحية (٢٩) .

وكانت بداية عدم التسامح الديني بين اليهود أنفسهم . ذلك أن يهودا ابن عزرا المتولى شئون قصر ألفنسو السابع ملك ليون وقتشالة وجه في عام ١١٤٩ قوة حكومة مليكه ضد اليهود القرائين في طليطلة . ولسنا نعرف تفاصيل ما حدث وقتئذ ، ولكن اليهود القرائين الأسبان الذين كانوا إلى ذلك الحين طائفة كبيرة لم يعد يسمع لهم خبر (٣٠) . ودخل بعض الصليبيين أسبانيا في عام ١٢١٢ ليساعدوا أهلها على طرد المسلمين منها ، وكانوا في أغلب الأحوال يحسنون معاملة اليهود ، ولما أن اعتدت طائفة منهم على يهود طليطلة وقتلت كثيرين منهم ، هب أهل المدينة المسيحيون للدفاع عن مواطنيهم ، ووضعوا حداً لاضطهادهم (٣١) ؛ وأدخل ألفنسو العاشر ملك قشتالة بعض المواد المحجفة باليهود في قانونه الصادر عام ١٢٦٥ ، ولكن هذا القانون لم يطبق حتى عام ١٣٤٨ ؛ وكان ألفنسو في ذلك الوقت يستخدم طيبياً وخازناً لبيت المال يهودياً ، وأهدى إلى يهود أشبيلية ثلاثة من مساجده المسلمين ليجمعوها معابد لهم (٣٢) ، واستمتع بما خلعه العلماء اليهود والمسلمون على حكمه اللطيف من مجد . ولما احتاجت مغامرات بيدرو الثالث pedro ملك أرغونة إلى فرض الضرائب الفادحة على رعاياه ، كان وزير ماليته وعدد آخر من موظفيه يهودا ، ولما ثار أعيان البلاد ومدنها على الملكية ، اضطرت الملك

إلى إقصاء أعيان اليهود عن مناصب الدولة ، وتوقيع قرار أصدره مجلس الكورتير Cortes (١٢٨٣) بالألّا يعين بعد ذلك الوقت أى يهودى فى المناصب الحكومية .

وكانت خاتمة عهد التسامح الدينى حين أصدر مجلس زمورا Zamora الدينى (١٣١٣) قراراً بأن يلبس اليهود شارة تميزهم من غيرهم ، والألا يختلط اليهود بالمسيحيين ، ويحرم على المسيحيين استخدام أطباء من اليهود وعلى اليهود أن يكون لهم خدم مسيحيون (٢٣) .

الفصل الثالث

الحياة اليهودية في البلاد المسيحية

١ - الحكومة

لم تحم المدن المسيحية في العصور الوسطى - إذا استثنينا بالرم وقليلاً من المدن الأسبانية - أن يعيش من فيها من اليهود منزليين عن سائر السكان . لكن اليهود كانوا في العادة يعيشون في عزلة اختيارية عن غيرهم من الأهليين لتيسر لهم هذه العزلة حياتهم الاجتماعية وسلامتهم الجسمية ووحدهم الدينية . وكان كنيسهم مركز الحى اليهودى الجغرافى ، والاجتماعى ، والاقتصادى ، يجتذب إليه معظم مساكن اليهود ، ولهذا ازدهت المساكن حوله ازدهاماً كبيراً ، وأضر ذلك الازدحام بالصحة العامة . والخاصة . وكانت الأحياء اليهودية فى أسبانيا نحتوى على مساكن جميلة وعمارات كما تحتوى على أكواخ قلدره ، أما فى غيرها من أبلاد أوروبا فكادت المساكن أن تكون أحياء قلدره وبيئة مزدحمة بالسكان (٣٤) .

وكانت الجماعات اليهودية طوائف منعزلة شبه ديمقراطية وسط عالم ملكى مطلق ، إذا استثنينا من هذا التعميم ما للثراء من أثر فى الانتخابات وفى الاختيار للوظائف فى جميع أنحاء العالم . وكان دافعوا الضرائب من الجماعات اليهودية يختارون أجبارة الكنيس وموظفيه . وكانت فئة قليلة العدد من الكبار المنتخبين تكون بيت الربح أو المحكمة الشعبية ؛ وهذه المحكمة هى التى كانت تجبى الضرائب ، وتحدد الأثمان ، وتتولى القضاء ، وتصدر القرارات الخاصة بالطعام ، والرقص ، والأخلاق ، والملبس ، ولم تكن هذه القرارات تطاع على السوام . وكان من حقها

أن تحاكم من يعتدون على القانون اليهودى من اليهود أنفسهم ، وكان لها موظفون ينفذون أوامرها ، وكانت العقوبات التى توقعها تختلف من الغرامات إلى الحرمان الدينى أو النفى ، وقلما كان الحكم بالإعدام من اختصاص بيت الدين أو كان من العقوبات التى توقعها ؛ وكانت المحكمة اليهودية تستعيض عن هذا الإعدام بالحرمان التام ؛ يصدر فى احتفال فخم مرعب توجه فيه التهم ، وتصب فيه اللعنات ، وتطفأ فيه الشموع واحدة بعد واحدة رمزاً إلى موت المجرم الروحى . وكان اليهود يسرفون فى استخدام الحرمان ، كما كان يفرط فيه المسيحيون ، ولهذا فقدت هذه العقوبة ما كان لها من رهبة وتأثير . وكان رؤساء اليهود الدينيين - كما كان رؤساء الكنيسة المسيحيون - يضطهدون الملاحدة ، ويحرمونهم من حماية القانون ، ويحرقون كتبهم فى حالات نادرة (٣٥) .

ولم تكن الجماعات اليهودية فى الأحوال العادية خاضعة للسلطات المحلية وكان سيدها الوحيد هو الملك . تودى إليه المال بسخاء لتبتاع منه الميثاق الذى يحمى حقوقها الدينية والاقتصادية ؛ وكانت فيما بعد تودى المال إلى الحكومات المحلية المحررة لتؤيد استقلال اليهود الذاتى بشؤونهم الداخلية . إلا أن اليهود مع ذلك . كانوا يخضعون لقوانين الدولة . وجعلوا طاعة هذه القوانين مبدأ من مبادئهم الواجبة الطاعة ؛ وقد ورد فى التلمود أن « قانون البلد شريعة » (٣٦) ، وتقول إحدى فقراته : « صاوا لسلامة الحكومة ، فلولا خوف الناس منها لا يتلع بعضهم بعضاً » (٣٧) .

وكانت الدولة تجبى من اليهود « الفرضة » أو ضريبة الرؤس ، وعوائد الأملاك . وكانت تصل أحياناً إلى ٣٣٪ من قيمتها ، وضرائب على اللحم ، والخمور ، والحلى ، والواردات ، والصادرات ؛ فضلاً عن التبرعات « الاختيارية » للمساعدة على تمويل الحروب ، أو تنويع الملوك ، أو « مقدمهم » أو رحلتهم . وكان اليهود الإنجليز البالغ عددهم فى القان الثانى عشر ١/٣ ٪ فى المائة من السكان

يؤدون للدولة ٨٪ من الضرائب العامة . وقد أدوا هم رُبع ما جمع من المال لحرب رتشارد الأول الصليبية ، وأدوا فيما بينهم ٥٠٠٠٠ مارك ليفتدوه من أسر الألمان وهو ثلاثة أمثال ما أدته مدينة لندن^(٣٨) . كذلك كانت الهيئات اليهودية تفرض ضرائب أخرى على اليهود ، كما كان يطلب إليهم من حين إلى حين صدقات وإعانات للتعليم ولمساعدة اليهود المضطهدين في فلسطين . وكان الملك في أي وقت من الأوقات يصادر أملاك « يهوده » بعضها أو كلها لسبب أو لغير سبب ؛ ونقول يهوده لأنهم كانوا جميعاً بمقتضى قانون الإقطاع « رجال » الملك . وكان الملك إذا مات ينتهى العهد الذى قطعه بحماية اليهود ، ولم يكن من يخلفه على العرش يرضى بأن يجدد العهد إلا إذا قدم إليه قدر كبير من المال ، قد يبلغ في بعض الأحيان ثلث جميع ما يمتلكه اليهود في الدولة^(٣٩) . من ذلك ما فعله ألبرخت الثالث Albrecht III مارجريف برندنبرج Margrave of Branden- burg في عام ١٤٦٣ إذ أعلن أن كل ملك ألماني جديد « يجوز له ، عملاً بالسنن القديمة ، إما أن يحرق جميع اليهود ، أو يظهر لهم رحمته ، فينقذ حياتهم ، ويأخذ ثلث أملاكهم »^(٤٠) ولقد لخص براكتن Bracton كبير المشترعين اليهود في القرن الثالث عشر هذه النقطة بعبارة موجزة فقال : « ليس من حق اليهودى أن يكون له ملك خاص ، لأن ما يحصل عليه أيا كان نوعه لا يحصل عليه لنفسه بل للملك »^(٤١) .

٢ - الشؤون الاقتصادية

وكانت هناك فضلا عن هذه المتاعب السياسية قيود اقتصادية . نعم إن اليهود لم يكونوا يمنعون بحكم القانون من تملك العقار ، ولم يكونوا يمنعون من تملكه بوجه عام ، وقد كانوا في أوقات مختلفة في العصور الوسطى يمتلكون أراضي واسعة في بلاد الأندلس الإسلامية وإسبانيا المسيحية ، وفي صقلية ، وسيليزيا ، وبولندا ،

وإنجلترا ، وفرنسا^(٤٢) ؛ ولكن ظروف الحياة جعلت هذا التملك أمراً غير ميسر من الوجهة العملية يزداد صعوبة على مر الأيام . ذلك أن اليهودى ، وقد حرمت عليه الشريعة المسيحية أن يستأجر أرقاء مسيحيين ، وحرمت عليه الشريعة اليهودية أن يستأجر أرقاء من اليهود ، لم يكن أمامه إلا أن يفلح أرضه باستئجار عمال أحرار يصعب الحصول عليهم ويتطلب الاحتفاظ بهم نفقات طائلة . يضاف إلى هذا أن الشريعة اليهودية تحرم على اليهودى أن يعمل فى يوم السبت ، وأن الشريعة المسيحية كانت عادة تمنعه من العمل فى يوم الأحد ، وكان هذا التعطل عقبة كبيرة فى سبيله ؛ وكانت العادات أو القوانين الإقطاعية تجعل من المستحيل على اليهودى أن يكون له منزلة فى النظام الإقتصادى لأن هذه المنزلة تتطلب منه أن يقسم بيمين الولاء للمسيحية ، وأن يقوم بالخدمة العسكرية ، مع أن شرائع الدول المسيحية كلها تقريباً تحرم على اليهود حمل السلاح^(٤٣) . ولما حكم القوط الغربيون أسبانيا ألغى الملك سيزبوت جميع ما منحه أسلافه من الأرض لليهود ، « وأم » الملك لإچيكا جميع أملاك اليهود التى كانت ملكا للمسيحيين فى أى وقت من الأوقات ، وفى عام ١٢٩٣ حرم مجلس الكورتيز فى بلد الوليد بيع الأراضى لليهود ؛ وفوق هذا كله فإن ما كان يتعرض له اليهود فى كل وقت من الأوقات من احتمال طردهم من البلاد ، أو مهاجمتهم ، قد أقنعهم بعد القرن التاسع أن يتجنبوا امتلاك الأراضين أو العيش فى الريف . كل هذه الصعاب ثببت همة اليهود فى الاشتغال بالزراعة ومالت بهم إلى حياة الحضر ، وإلى العمل فى الصناعة والتجارة والشئون المالية .

ونشط اليهود فى الشرق الأدنى وجنوب أوروبا فى الصناعة ، والحق أن اليهود كانوا فى معظم الأحوال هم الذين أدخلوا الفن الصناعى الراقى من بلاد الإسلام إلى بيزنطية وإلى البلاد الغربية ، ولقد وجد بنيامين التطيلي Benjamin of Tudela مئات من صانعى الزجاج فى أنطاكية ، وصور ؛ وأشهر اليهود فى مصر وبلاد

اليونان بجمال منسوجاتهم المصبوغة والمطرزة وتفوقها على سائر المنسوجات من نوعها ، وكان فردريك الثانى فى القرن الثالث عشر لا بعد يستقدم إلى بلاده الصناع اليهود ليشرفوا على صناعة نسيج الحرير التابعة للدولة فى صقلية ؛ وكان اليهود فى تلك الحريرة وفى غيرها من البلاد يشتغلون فى الصناعات المعدنية وبخاصة فى الصباغة وصناعة الحلى ، وظلوا يعملون فى مناجم القصدير فى كورنوبول إلى عام ١٢٩٠^(٤٤) . وانتظم الصناع العبرانيون فى أوروبا الجنوبية فى طوائف للحرف قوية ، وكانوا ينافسون الصناع المسيحيين منافسة شديدة ، أما فى أوروبا الشمالية فقد احتكرت طوائف أرباب الحرف المسيحية كثيراً من الصناعات ؛ وأخذت الدول المختلفة واحدة فى إثر واحدة تحرم على اليهود الاشتغال حدادين ، ونجارين ، وخياطين ، وحدائين ، وطحانين ، وخبازين ، وأطباء ؛ كما حرمت عليهم بيع الخمور ، والدقيق ، والزبد ، والزيت فى الأسواق^(٤٥) ، وابتاع مساكن لأنفسهم فى أى مكان خارج عن الأحياء اليهودية .

وإزاء هذه القيود الثقيلة لجأ اليهود إلى التجارة وكان رب Rab ، العالم التلمودى البابلى ، قد وضع لبنى ملته شعاراً يدل على ثاقب فكره : « تاجر بمائة فلورين تحصل على لحم وخمر ؛ أما إن استغلت هذا القدر نفسه فى الزراعة فأكبر ما تحصل عليه هو الخبز والملح »^(٤٦) . وكان البائع اليهودى الجائل معروفاً فى كل مدينة وبلدة ، والتاجر اليهودى معروفاً فى كل سوق ومولد ؛ وكانت التجارة الدولية عملاً تخصصوا فيه ، وكادوا أن يحتكروه قبل القرن الحادى عشر ، فكانت أحماهم ، وقوافلهم ، وسفائنهم تجتاز الصحراوات ، والجبال ، والبحار ، وكانوا فى معظم الحالات يصحبون بضائعهم . وكانوا هم حلقة الاتصال التجارى بين بلاد المسيحية والإسلام ، وبين أوروبا وآسية ، وبين الصقلية والدول الغربية ؛ وكانوا هم القائمين بمعظم تجارة الرقيق^(٤٧) ؛ وكان يعينهم على النجاح فى التجارة مهارتهم فى تعلم اللغات ، وقدرة الجماعات اليهودية البعيدة بعضها عن بعض على

فهم اللغة العبرية ، وتشابه عادات اليهود وقوانينهم ، واستضافة الحى اليهودى فى كل مدينة لأى يهودى غريب . ولهذا استطاع بنيامين التطيلى أن يمتاز نصف العالم وأن يجد له أينما حل موطنًا . ويحدثنا ابن خرداذبة صاحب البريد فى الدولة العباسية عام ٨٧٠ فى كتابه المسالك والممالك عن التجار اليهود الذين يتكلمون اللغات الفارسية ، واليونانية ، والعربية ، والفرنجية ، والأسبانية ، والصقلية ، ويصف المسالك البرية والبحرية التى ينتقلون بها من أسبانيا وإيطاليا إلى مصر ، والهند ، والصين (٤٨) . وكان هؤلاء التجار يحملون الخصيان ، والعبيد ، والحرير المطرز ، والفراء ، والأسيوف إلى بلاد الشرق الأقصى ، ويعودون منها بالمسك ، والتند ، والكافور ، والتوابل ، والمنسوجات الحريرية (٤٩) . ثم كان استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، واستيلاء أساطيل البندقية وجنوى على بلاد البحر المتوسط ، فأصبحت للتجار الإيطاليين ميزة على اليهود ، وقضى فى القرن الحادى عشر على زعامة اليهود التجارية . وكانت مدينة البندقية قد حرمت حتى قبل الحروب الصليبية نقل التجار اليهود على سفنها ، ولم يمض بعد ذلك لإقلال من الوقت حتى أغلقت عصبة المدن الهانسية *The Hansatic League* موانئها الواقعة على بحر الشمال والبحر البلطى فى وجه التجارة اليهودية (٥٠) ، وقبل أن يحل القرن الثانى عشر أضحى الجزء الأكبر من التجارة اليهودية تجارة محلية ، وكانت هذه التجارة حتى فى هذا المجال الضيق تحددها القوانين التى تحرم على اليهود أن يبيعوا عدة أنواع من السلع (٥١) .

... فلم يكن لهم بد من العودة إلى شئون المال . ذلك أنهم وجدوا أنفسهم فى بيئة معادية لهم معرضين لأن يتلف عنف الجاهل أملاكهم الثابتة . أو أن يصادرهما الملوك الجشعون ، فأرغمهم هذه الظروف على أن يجعوا مدخراتهم من النوع السائل السهل التحرك ، فعمدوا أولاً إلى ذلك العمل السهل وهو مبادلة النقد ، ثم انتقلوا منه إلى تلقى المال لاستثماره فى التجارة ، ثم إلى إفراض المال بالربا .

وكانت أسفار موسى (٥٢) والتلمود (٥٣) قد حرمت التعامل بالربا بين اليهود أنفسهم ولكنها لم تحرّمه بين اليهودي وغير اليهودي . ولما أضحت الحياة الاقتصادية أشد تعقيداً مما كانت قبل ، وصارت الحاجة إلى تمويل المشروعات أشد إلحاحاً نظراً لاتساع نطاق التجارة والصناعة ، أخذ اليهود يقرض بعضهم بعضاً المال عن طريق وسيط مسيحي (٥٤) أو عن طريق جعل صاحب المال شريكاً موصياً* في المشروع وأرباحه - وهي وسيلة أجازها أحبار اليهود ، وعدد كبير من رجال الدين المسيحيين (٥٥) . وإذ كان القرآن وكانت الكنيسة المسيحية يجرمان الربا ، وكان المقرضون المسيحيون لهذا السبب نادري الوجود قبل القرن الثالث عشر ، فإن المقرضين المسلمين والمسيحيين - ومنهم رجال الدين المسيحيون ، والكنايس والأديرة (٥٦) - كان هؤلاء المقرضون يلجأون إلى اليهود ليقرضوهم ما يحتاجونه من المال . وحسبنا دليلاً على هذا أن هارون اللنكاني Aaron of Lincoln هو الذي قدم ما يازم من المال لبناء تسعة أديرة سترسيه Cistercian ، وبناء دير سانت أولينز St. Albans (٥٧) العظيم . ثم غزا رجال المصارف المسيحيون هذا الميدان في القرن الثالث عشر ، واستعانوا بالوسائل التي أوجدتها وسار عليها اليهود ، وما لبثوا أن تفوقوا عليهم الثراء واتساع نطاق الأعمال . « ولم يكن المرابي المسيحي أقل صرامة » من مياها اليهودي « وإن لم يكن أولها في حاجة إلى حماية نفسه بالقدر الذي يحتاجه الثاني من خطر القتل والسلب والنهب » (٥٨) فكان كلاهما يشدد النكير على المدين بما عرف عن الدائنين الرومان من القسوة ، وكان الملاك يستغلونهم جميعاً لمصلحتهم الخاصة .

فكان المرابون جميعاً تفرض عليهم ضرائب باهظة ، وكان اليهود منهم يتعرضون من حين إلى حين إلى مصادرة أموالهم بأجمعها . وقد سار الملوك على سنة

(*) الشريك الموصى هو الذي يشترك بالمال لا بالعمل وينال نصيباً من الربح إذا كسبت التجارة ولا يخسر شيئاً من ماله إذا لم تربح ، ويسميه أهل الريف في مصر الشريك المرفوع . (المترجم)

السماح للمرابين بأن يتقاضوا رِباً فاحشاً ، ثم يلجأون من حين إلى حين إلى اعتصار هذه المكاسب من أصحاب المال . وكان المرابون يتحملون نفقات كبيرة في سبيل الحصول على أموالهم ، وكثيراً ما كان الدائن يضطر إلى أداء الرشا للموظفين لكي يسمحوا له بالحصول على ما ماله^(٥٩) . وحدث في عام ١١٩٨ حين كانت أوروبا تستعد للحرب الصليبية الرابعة أن أمر البابا إنوسنت الثالث Innocent III جميع الأمراء المسيحيين بإلغاء جميع فوائد القروض التي يطالب بها اليهود مدينهم المسيحيين^(٦٠) : وأعطى لويس التاسع ، ملك فرنسا القديس ، جميع رعاياه من ثلث ما كانوا مدينين به لليهود لكي « يستنزل الرحمة على روحه وروح أسلافه »^(٦١) . وكان ملوك الإنجليز في بعض الظروف يصدرن خطابات إعفاء - ياغون بمقتضاها فائدة الدين أو رأس المال أو كليهما - لرعاياهم المدينين لليهود . ولم يكن من النادر أن يبيع الملوك هذه الخطابات ، وأن يدونوا في سجلاتهم المبالغ التي حصلوا عليها نظير وساطتهم في هذا البر بالإنسانية^(٦٢) . وكانت الحكومة البريطانية تطلب أن ترسل إليها صورة من كل تعاقد على قرض ، وأنشأت ديواناً خاصاً باليهود يجمع هذه الفقود ، ويراقبها ، ويستمع إلى القضايا الخاصة بها ؛ فإذا ما عجز صاحب مصرف يهودى عن أداء الضرائب أو المطاب المفروضة عليه ، رجعت الحكومة إلى ما لديها من سجلات عن قروضه ، وصادرتها كلها أو بعضها ، وأنذرت مدينه بأن يؤدوا إليها هي لا إليه ما عليهم من الديون^(٦٣) . ولما أن فرض هنرى الثانى على سكان إنجلترا ضريبة خاصة في عام ١١٨٧ ، أرغم اليهود على أداء ربع أملاكهم ، والمسيحيون على عشرها ، وبذلك أدى اليهود وحدهم ما يقرب من نصف الضريبة كلها^(٦٤) . وكان اليهود في بعض الأحيان « هم الذين يمولون المملكة »^(٦٥) . وأمر الملك يوحنا في عام ١٢١٠ أن يزج في السجون يهود إنجلترا على بكرة أبيهم - رجالا كانوا أو نساء أو أطفالا - ثم جمعت منهم ضريبة للملك بلغت ٦٦٠٠٠٠ مارك^(٦٦) .

وعذب الذين ظنوا أنهم لم ييؤحوا بكل ما كان لديهم من أموال مكتنزة بأن اقتلعت سن من أسنانهم كل يوم حتى يقرؤا بحقيقة مدخراتهم (٦٧). وفي عام ١٢٣٠ اتهم هنرى الثالث اليهود بقطع جزء من عملة الدولة (ويبدو أن بعضهم قد فعل ذلك حقاً) ، فصادر ثلث ما يمتلكه يهود إنجلترا من ثروة منقولة ، ولما تبين أن هذه الوسيلة مربحة ، أعيدت في عام ١٢٣١ ، وبعد عامين من ذلك التاريخ انتزع من اليهود ٢٠٠٠٠٠ مارك فضي ، ثم انتزع منهم في عام ١٢٤٤ ستون ألف مارك(*) - وهو مبلغ يوازي مجموع إيرادات التاج البريطاني السنوية . ولما أن استدان هنرى الثالث ٥٠٠٠ مارك من دوق كه رنول رهن له جميع يهود إنجلترا ضماناً لدينه (٦٨) . وتوالت على اليهود فيما بين عامي ١٢٥٢ و ١٢٥٥ سلسلة من القروض المالية دفعتهم إلى حال من اليأس لم يروا معها بدأ من أن يطلبوا أن يؤذن لهم بمغادرة إنجلترا جملة ، ولكن طلبهم هذا لم يأتى قبولاً (٦٩) . وحرّم إدورد الأول في عام ١٢٧٥ التعامل بالربا تحريماً باتاً ، ولكن الاقتراض لم ينقطع رغم هذا التحريم ، وإذا كان خطر ضياع المال قد ازداد بسببه ، فقد ارتفع سعر الفائدة ، ولذلك أمر إدورد بالقبض على جميع اليهود ومصادرة جميع أملاكهم ، وقبض كذلك على كثيرين من المرابين المسيحيين وشتى ثلاثة منهم . أما اليهود فإن مائتين وثمانين منهم قد شنقوا ، وطيف بجثثهم في شوارع لندن ثم مزقت ، وقتل عدد آخر منهم في المقاطعات الإنجليزية . وصودرت أملاك مئات منهم لصالح الدولة (٧٠) .

وأثرى أصحاب المصارف اليهود في الفترات الفلقة التي تخللت أوقات المصادرة ، وظهرت علائم الثراء المفرط على بعضهم أكثر مما يجب أن تظهر ، فلم يقتصرؤا على تقديم المال اللازم لبناء القصور ، والكنائس الكبرى ، والأديرة ،

(*) كان المارك نصف رطل من الفضة ، أما قيمته الشرائية فأكبر الظن أنها كانت تعدل قيمته في هذه الأيام خمسين مرة (٨٤٠ دولار أمريكي) .

بل شادوا لأنفسهم فوق ذلك بوناً فخمة ، فكانت تلك البيوت في إنجلترا من أول ما بنى من البيوت بالحجارة . وكان بين اليهود أغنياء وفقراء على الرغم من قول العزر : « الناس كلهم أكفاء عند الله - النساء والعبيد ، والأغنياء والفقراء » (٧١) . وحاول رجال الدين أن يخففوا الفقر ، وأن يمنعوا الاستغلال الجشع للمال بوضع عدة نظم اقتصادية مختلفة ، فأخذوا يؤكّدون ما على الجماعة من تبعات لجميع أفرادها ، وخففوا آلام الشدائد بالصدقات المنظمة ؛ نعم إنهم لم ينددوا بالغنى ، ولكنهم أفلحوا في رفع مكانة العلم حتى ساوت مكانة الثراء ؛ ووسموا الاحتكار والاثمار على التحكم في الأسعار بميسم الخطايا (٧٢) ، وحرّموا على بائع الأشتات أن يكسب أكثر من سدس ثمن البضاعة (٧٣) ؛ وكانوا يرانّبون الموازين والمقاييس ، ويحدّدون أقصى الأثمان وأقل الأجور ؛ لكن كثيراً من هذه النظم قد عجزت عن تحقيق الغرض المقصود منها ، لأن رجال الدين لم يستطيعوا فصل حياة اليهود الاقتصادية عن حياة جيرانهم في البلاد الإسلامية أو المسيحية ، ووجد قانون العرض والطلب في السلع والخدمات له طريقاً ينفذ منها حول جميع التشريعات .

٣ - الأخلاق

وحاول الأغنياء أن يكفروا عن ثرائهم بالصدقات الكثيرة ، فكانوا يقرون بما على الله من واجبات اجتماعية ، ولعلمهم أيضاً قد خافوا ثورة الفقراء أولعهم ، فلم يعرف قط أن يهودياً مات من الجوع وهو يعيش في بيئة يهودية (٧٤) . ومن بداية القرن الثاني المسيحي كان مشرفون رسميون يفرضون في فترات محددة على كل فرد من أفراد العشيرة اليهودية مهما يكن فقيراً أن يكتب بشيء من ماله « لصندوق العشيرة » الذي يعنى بالشيوخ ، والفقراء ، والمرضى ، وتعليم اليتامى وزواجهم . وكانت واجبات الضيافة تقدم بالحبان وبخاصة للعلماء الجائلين . وفي

بعض الجماعات كان المسافرون اليهود إذا قدموا على بلد آواهم موظفون من الجماعات اليهودية في بيوت الأفراد اليهود . وزاد عند الجمعيات الخيرية اليهودية زيادة كبيرة كلما تقدمت العصور الوسطى ، فلم تكن هناك فقط كثير من المستشفيات ، وملاجئ للأيتام وبيوت للفقراء والطاعنين في السن ، بل كانت هناك أيضاً منظمات تؤدي أموال الفقراء للمسجونين ، وبنائات للعائس الفقيرات ، وأجور الأطباء للمرضى ، وتعنى بالأرامل المعدمات ، وتدفن الموتى من غير أجر (٧٧) . وكان المسيحيون يشكون من شره اليهود ويحاولون أن يثيروا حماسة المسيحيين للصدقة بأن يضربوا لهم أمثلة من كرم اليهود (٧٨) .

وكانت الفروق بين الطبقات عند اليهود تظهر في ثيابهم ، وطعامهم ، وحديثهم وفي مائة أخرى من أساليب حياتهم . فكان اليهودى البسيط يلبس قمطاناً طويل الكمين فوقه حزام ، وكان أسود اللون في العادة ، كأنه رمز للحزن على هيكاله المهدم وعلى بلاده ، لكن أثرياء اليهود في أسبانيا كانوا يظهرن ثراهم بلبس الثياب الحريرية ، وطالما جذرهم الفقراء دون جدوى من أثر هذا التظاهر في إثارة البغضاء والأحقاد . ولما أن حرم ملك قشتالة هذا التجميل في الملابس أطاع الرجال اليهود أمره ولكنهم ظلوا يلبسون أزواجهم أفخر الثياب ؛ ولما أن سألم الملك في ذلك أكلوا له أن الشهامة الملكية لم تكن تقصد قط أن يطبق هذا القيد على النساء (٧٩) ، وظل اليهود طوال العصور الوسطى يحملون نساءهم بفاخر الثياب ، ولكنهم حرموا عليهم أن يظهرن أمام الجماهير عاريات الرأس ، وأنذرهن بأن مخالفة هذا الأمر تصح سبياً للطلاق ، وأمير اليهودى ألا يصل في حضرة امرأة يرى الناس شعرها (٨٠) .

وكانت نواحي التلمود المتصلة بالقوانين الصحية مما خفف من آثار الازدحام في أحياء المدن ؛ فعملية الختان ، والاستحمام كل أسبوع ، وتجرير الخمر وأكل اللحم الفاسد، كلها وسائل وقت اليهود شرّاً الأمراض المنتشرة في البيئات المسيحية

المجاورة لهم أكثر من غيرهم من السكان (٨١) . مثال ذلك أن الجذام كان منتشرأ بين فقراء المسيحيين الذين يأكلون اللحم أو السمك المملح ، ولكنه كان نادر الحدوث بين اليهود ؛ ولعل هذه الأسباب نفسها هي التي جعلت إصابة اليهود بالكوليرا وما شابهها من الأوبئة أقل من إصابة المسيحيين (٨٢) . لكن اليهود والمسيحيين على السواء كانوا يعانون الأمرين من الملاريا في أحياء رومة القلعة الموبوءة بالبعوض من منافع كهاليا Campagna .

وكانت حياة اليهودى تنعكس عليها من الناحية الأخلاقية ترائه الشرقي والقيود التي يفرضها عليه الأوروبيون ؛ ففي كل مناحى الحياة حقوق له مهضومة ، وأمواله معرضة للنهب وحياته للخطر والإذلال ، يتهم بجرائم ليست له يد فيها ، ولهذا كله بلأ كما يلجأ الضعيف الجسم في كل مكان إلى الدهاء يتوق به الأذى . نعم إن أحبار اليهود كانوا يتادون في كل حين أن « خداع غير اليهودى شر من خداع اليهودى نفسه (٨٣) » ؛ ولكن بعض اليهود كانوا يخالفون هذه النصيحة (٨٤) ؛ ولعل المسيحيين أيضاً كانوا يتحادعون بكل ما يعرفونه من خداع . فرجال المصارف اليهود منهم والمسيحيون لم يكونوا يرمحون مدينهم بل كانوا يتقاضون منهم كل ما عليهم من ديون ، وإن كنا لا ننكر أنه كان في العصور الوسطى ، كما كان في القرن الثامن عشر ، دائنون لا يقلون أمانة وإخلاصاً عن ماير أنسلم من آل روتشيلد . وكان بعض اليهود والمسيحيين ينحتون النقود ، أو يقبلون البضائع المسروقة (٨٥) ، ولكن كثة استخدام اليهود في المناصب المسالية الكبرى توحى بأن من يستخدمونهم من المسيحيين كانوا يشقون بأمانتهم واستقامتهم ؛ وقلما كان اليهود يرتكبون جرائم العنف - كالقتل ، والسطو ، والسلب - ، وكان السكر أقل انتشاراً بينهم في البلاد المسيحية منه في البلاد الإسلامية ۞

وكانت حياتهم الجنسية عفيفة إلى حد عجيب على الرغم من أخذهم بمبدأ تعدد

الزوجات ؛ وكانوا أقل ميلاً للواط من غيرهم من الشعوب الشرقية الأصل (*) . وكانت نساؤهم عذارى ذوات خفر وحياء ، وأزواجاً عاملات مجيدات ، وأمهات مخصبات ذوات ضمائر حية ، وكان من أثر التبكير بالزواج أن قلت الدعارة بينهن إلى أقل حد يستطيع للوصول إليه عند بنى الإنسان (٨٦) . وكان العزاب نادى الوجود بين رجالهم ، وكان من القواعد التي وضعها الحاخام آشير بن مجال أن من حق المحاكم أن ترغم الأعزب على الزواج إذا بلغ العشرين من العمر ، ولم يكن منهمكاً في دراسة الشريعة (٨٧) . وكان الآباء هم الذين ينظرون أمور الزواج ، وتقول إحدى الوثائق اليهودية الباقية من القرن الحادى عشر إنه كان بتدر وجود فتيات « يبلغن من قلة الذوق أو من الوقاحة ما يجران معه على أن يبدين هواهن أو خيارهن » في هذه الناحية (٨٨) . ولكن الزواج لا يكون قانونياً إلا برضاء الزوجين (٨٩) . وكان من حق الوالد أن يزوج ابنته لمن يشاء وهى صغيرة السن حتى وإن كانت فى السادسة من عمرها ؛ ولكن زواج الأطفال على هذا النحو لم يكن يتم إلا إذا بلغ الزوجان سن الرشد ، وكان من حق الفتاة أن تلغى هذا الزواج إذا شامت (٩٠) . وكانت الخطبة إجراء رسمياً تجعل الفتاة زوجة للرجل من الوجهة القانونية ، ولا يمكن التفريق بعدها بين الزوجين إلا بوثيقة طلاق قضائية . وكان عقد يوقع عند الزواج (كتوبة) يحدد فيه بائنة الزوجة ومهر الزوج . وكان هذا المهر مبلغاً من المال يُجَنَّب من مال الزوج ويؤدى للزوجة إذا طلقها أو مات عنها . وبغير هذا المهر الذى لم يكن يقل عن مائتى زوزا Zuzza (وهو قدر يكفى لشراء بيت تسكنه أسرة واحدة) لا يصبح الزواج بعقد صحيحاً من الوجهة القانونية .

(*) لسنا نعتقد أن المأواظ يريد أن يتهم الشرقيين بأنهم يميلون إلى اللواط أكثر من غيرهم من الشعوب . فقد سبق أن وصف اللواط عند اليونان وصفنا لنرى موجبا لإعادته ، ونظن أنه إنما يريد أن يقارن اليهود - وهم شرقيون فى الأصل - بغيرهم من شعوب الشرق فيقول إن هذا الداء كان أقل انتشاراً عند بعض الشعوب الفرعية . (المترجم)

وكان تعدد الزوجات سنة جرى عليها أغنياء اليهود في البلاد الإسلامية ولكنها كانت نادرة بينهم في البلاد المسيحية^(٩١) . وتشير الآداب الدينية التي وصلت إلينا من عهد ما بعد التلمود ألف إشارة وإشارة إلى « زوج » الرجل ، ولا تشير قط إلى « أزواجه » . وأصدر جرشم بن يهوذا جانام مينز في عام ١٠٠٠ م أمراً بجرمان كل يهودى يتزوج أكثر من واحدة ، وما لبث تعدد الزوجات بعد هذا القرار أن انقرض . أو كعاد بين اليهود في جميع أنحاء أوروبا ما عدا أسبانيا . على أن حالات من هذا التعدد ظلت تحدث من حين إلى حين إذا ظلت الزوجة عقيماً بعد عشر سنين من زواجها وسمحت هي للرجل أن يتخذ له حظية أو زوجة ثانية^(٩٢) ، ذلك أن الأبوة كانت مسألة حيوية عند اليهود . وقد ألغى هذا القرار نفسه - قرار جرشم- ما كان للزوج قديماً من حق طلاق زوجته بغير رضاها ومن غير جريمة ارتكبتها ؛ وأكبر الظن أن الطلاق بين اليهود في العصور الوسطى كان أقل منه في أمريكا في هذه الأيام .

وكانت الأسرة أكبر أسباب نجاة الحياة اليهودية وإن لم تكن رابطة الزواج قوية محكمة من الوجهة القانونية . ذلك أن الخطر المحدق باليهود من خارجهم قد قوى وحدتهم الداخلية ، ويشهد أعداؤهم أنفسهم بما كانت تمتاز به الأسرة اليهودية ، وما تمتاز به الآن ، من « حرارة ، وكرامة ... وتفكير ، وتدبر ، وحب أبوى وأخوى »^(٩٤) . فقد كان الزوج الشاب يشترك مع زوجته في العمل ، وفي السراء والضراء ؛ وكان شديد الحب لها لأنه يراها جزءاً من نفسه الكبرى ؛ وإذا أصبح أباً وكبير أطفاله من حوله أثاروا فيه قواه المسخرة وبعثوا فيه أعمق الوفاء . وأكبر الظن أنه لم يكن قبل الزواج قد مس جسم امرأة غير زوجته دون الشعار ، ولم تكن تتباح له في تلك البيئة الصغيرة الوثيقة الصلات إلا أقل الفرص للخيانة الزوجية بعد الزواج . وبكاد منذ ولادة أطفاله يبدأ بادخار بائئات لبناته ومهور لأولاده ، وكان من البدائه عنده أن من واجبه أن يساعد البنين والبنات بماله في

السنين الأولى من حياتهم وحياتهم الزوجية . وكان ذلك يبدو له أكثر حكمة من ترك الشباب يستعد لقيود الزواج المفرد بفترة من الاختلاط الجنسي الطليق . وكثيراً ما كان العريس يعيش مع عروسه في بيت أبيها - وقلما كان ذلك سبباً في ازدياد سعادة الأسرة . وكان سلطان الأب الأكبر في البيت سلطاناً مطلقاً لا يكاد يقل في ذلك عن سلطانه في رومه الجمهورية . فكان من حقه أن يحرم أبناءه دينياً ، وأن يضرب زوجته ضرباً غير مفرط ، فإذا ما أصابها بأذى جسمي فرضت عليه العشرة غرامة تتناسب مع موارده ؛ وكان في العادة يمارس سلطانه بصرامة لا تطغى قط على عاطفة الحب القوية .

وكان مركز المرأة منحطاً من الوجهة القانونية ، عالياً من الناحية الأخلاقية . واكن الرجل اليهودي يحمده الله ، كما يحمده أفلاطون ، لأنه لم يولد أنثى ، وكانت المرأة تجيب عن ذلك في تواضع جم : « وأنا أحد الله الذي خلقني كما أراد » (٩٥) . وكان للنساء في المعبد موضع منعزل في الرواق أو خلف الرجال - وتلك تحية سمجة لمفاتيهن التي تلهي العابدين عن العبادة ، ولم يكن يحسن في العدد الواجب اكتماله لأداء الصلاة . وكانت الأغاني التي يمتدح بها جمال المرأة تعد عملاً غير لائق وإن كان التلمود قد أباحها (٩٦) . أما التغازل - إذا وجد - فلم يكن إلا عن طريق المراسلة ؛ ولقد نهى الأحبار عن التعاطب بين الرجال والنساء - حتى بين الزوجين - أمام الناس (٩٧) ، وقد أبيع الرقص ولكنه كان مقصوراً على رقص المرأة مع المرأة والرجل مع الرجل (٩٨) .

وكان القانون يجعل الزوج هو الوارث الوحيد لزوجته ، أما الأرملة فلم يكن من حقها أن ترث زوجها ، فإذا ماتت حصلت على قيمة بائنتها ، ومهر الزواج ؛ أما فيما عدا هذا فقد كانت تعتمد على أبنائها الذكور ، وورثة أبيهم الطبيعيين ؛ في أن ييسروا لها سبل الحياة الطيبة . ولم تكن البنات يرثن آباءهن إلا إذا لم يكن له أبناء ذكور ؛ فإذا كان له اعتمدن على حبهم الأخوي ، وقلما كان يخيب فيهم

وجلاهن^(٩٩) . ولم تكن البنات يرسلن إلى المدارس ؛ فقد كان العلم مهما قل يعد بالنسبة إليهن أمراً شديداً الخطورة . على أنهن رغم هذا كن يسمح لهن بأن يدرسن في بيوتهن ؛ فنحن نسمع عن عدد من النساء يلتقن محاضرات عامة في الشريعة - وإن كانت صاحبة المحاضرة تستتر أحياناً عن المستمعين^(١٠٠) . ولكن المرأة اليهودية الجلديةة بالتكريم والإخلاص ، كانت تلتق بعد زواجها كل ما هي خليفة به منهما رغم ما كان يحيط بها من إجحاف مادي وقانوني ، وقد نقل يهوذا بن موسى بن تيبون Tibbon عن حكيم مسلم قوله : « لا يكرم النساء إلا الكريم ، ولا يحقرهن إلا الحقير »^(١٠١) .

وكانت صلات الأب بأبنائه أقرب إلى الكمال من الصلات الزوجية . فقد كان اليهودي بما عرف عن الرجل الساذج العادي من كبرياء ، يفخر بأبنائه وبقدرته على إنجاب الأبناء . وكان يقسم أغلظ أيمانه بأن يضع يده على خصيتي من يتلقى منه الإيم ، ومن هنا اشتقت كلمة testimony الأوروبية^(*) ، ومعناها الشهادة أو البيئنة أو الشاهد نفسه . وكان كل رجل يؤمر بأن يكون له طفلان عل الأقل ، وكان له في العادة أكثر من اثنين . وكان الطفل يلقي بالإجلال الذي يليق بزائر قدم من السماء ، ومن مآلك تجسد ؛ وكان الأب يلقي من التبجيل ما يكاد يجعله رسولا من عند الله ، فكان الولد يقف في حضرة أبيه حتى يأمره بالجلوس ، ويطيعه طاعة جزعة قلقة تناسب مع كبرياء الشباب . وكان الولد أثناء الاحتفال بالختان يكرس إلى يهوه بمقتضى عهد أبراهام ، وكانت كل أسرة تشعر بأن تعد واحداً من أبنائها على الأقل ليتولى المناصب الدينية . وكان الولد ، إذا بلغ الثالثة عشرة من عمره ، يدخل ميدان الرجولة ، ويفرض عليه كل ما تفرضه الشريعة على الرجال ، ويحدث ذلك في حفل رهيب يثبت فيه هذا ويؤكد .

(*) من كلمة Testes ومعناها الخصيتان . (المترجم)

وكان الدين يخلع رهبته وقداسته على كل مرحلة من مراحل نموه ، ويخفف .
بذلك من واجبات الآباء .

٤ - الدين

كذلك كان الدين رقابة روحية في كل ناحية من نواحي القانون الأخلاقي . لا ريب إنه كانت في الشريعة ثغرات ، وأن الحيل القانونية كانت تتلمس لكي تعاد إلى الشعب حرية التطبيق التي لا غنى عنها لكل شعب مغامر . ولكن يلوح أن الرجل اليهودي في العصور الوسطى كان يقبل الشريعة بوجه عام ويتخذها درعاً لا يقيه اللعنة الأبدية فحسب ، بل يقيه فوق ذلك وبصفة أظهر للعيان تفكك جماعته وانحلالها . نعم إنها كانت تضيق عليه في جميع مناحي الحياة ، ولكنه كان يعظمها لأنها موطن نشأته . ومدرسة تربيته والوسيلة التي لا بد منها لحياته .

وكان كل بيت في بلاد اليهود كنيساً ، وكل مدرسة معبداً ، وكل أب كوهناً . فصلوات الكنيس وطقوسه كان لها مثيلات موجزة في البيت . وكان الصوم والأعياد الدينية يحتفل بها فيه احتفالات تعليمية تربط الماضي بالحاضر والأحياء بالأموات وبمن لم يولدوا بعد . وكان من عادة الأب في مساء يوم الجمعة أى ليلة السبت من كل أسبوع أن يجمع حوله زوجته ، وأولاده ، وخدمه ، ويباركهم فرداً فرداً ، ويؤمهم في الصلاة ، وفي القراءة من الكتب الدينية ، والأغاني المقدسة . وكانت تعلق على باب كل حجرة كبيرة من حجرات البيت أنبوبة (مزوزا) محتوية على ملف من الرق كتبت عليه فقرتان من سفر تثنية الاشرع (الآيات ٤ - ٩ من الأصحاح السادس ، ١٣ - ٢١ من الأصحاح الحادى عشر) تذكر اليهودى أن إلهه « واحد يجب عليه أن يحبه من كل قلبه وروحه وبكل قوته » . وكان يجاء بالولد إلى الكنيس من سن الرابعة وما بعدها ، حيث ينطبع

الدين في نفسه في أكثر السنين. تأثيراً في تكوينه
ولم يكن الكينيس معبداً دينياً فحسب ، بل كان فوق ذلك المركز
الاجتماعي للعشيرة اليهودية ؛ والمعنى الحرفي للفظ سناجوج ، ولاكليزيا ،
وسينود ، وكلية هو مجتمع ؛ ولقد كان الكينيس قبل المسيحية مدرسة ولا يزال
يسمى شوله Schule عند اليهود : الإشكنازيين ، ثم أخذ على عاتقه في عهد
التشنت عدداً كبيراً من الواجبات العجيبة المختلفة ، فكان من عادة بعضها
أن ينشر في كل سببت ما يصدره بيت الدين من قرارات خلال الأسبوع
المنصرم ، وأن ينجي الضرائب ، وأن يعلن عن الأمتعة المفقودة ، وأن ينظر
في شكاوى بعض الأفراد من البعض الآخر ، وأن يذيع أخبار الأملاك قبل
مواعده حتى يستطيع من اه حقوق في هذه الأملاك أن يعترض عليه . وكان
الكينيس يوزع الصدقات العامة ، وكان في بلاد آسية مسكناً لأبناء السبيل .
وكان مبناه على الدوام أجل المباني في الحى اليهودى ، وكان في بعض الأحيان
وبخاصة في أسبانيا وإيطاليا آية من آيات العبارة ، مزداناً أعظم زينة
وأجملها ، وكثيراً ما كان ولاة الأمور المسيحيون يحرمون على اليهود إقامة
معابد تطاول أعلى كنيسة مسيحية في المدينة ، وأمر البابا هو نور يوس الثالث
في عام ١٢٢١ بهدم معبد بهذا الوصف في بورج Bourges (١٠٢) .

وكان في أشبيلية في القرن الرابع عشر ثلاثة وعشرون كنيساً ، وفي
طليطلة وقرطبة ما لا يكاد يقل عن هذا العدد ، منها واحد شيد في قرطبة عام
١٣١٥ تحتفظ به الحكومة الأسبانية على أنه أثر قومي .

وكان بكل كنيس مدرسة (بيت الدرر Beth ha midrash) بالإضافة
إلى المدارس الخاصة والمعلمين الخصوصيين ، وأكبر الظن أن نسبة من كانوا
يعرفون القراءة والكتابة بين يهود العصور الوسطى كانت أكبر منها بين
المسيحيين (١٠٤) وإن كانت أقل منها بين المسلمين . وكانت أجور المدرسين تؤديها
الجماعات اليهودية عامة أو يؤديها الآباء ، ولكنهم كلهم كانوا خاضعين لرقابة

الجماعة المشتركة . وكان الأولاد يخرجون إلى المدارس مبكرين - قبل مطلع الفجر في الشتاء ؛ ثم يعودون إلى بيوتهم بعد بضع ساعات لتناول الفطور ، ثم يرجعون إلى المدرسة حيث يبقون حتى الساعة الحادية عشرة ، ثم يأتون إلى المنزل للغداء ، ويعودون إلى المدرسة ظهراً ، ثم يستريحون بين الساعة الثانية والثالثة ، ثم يذهبون مرة أخرى إلى المدرسة ويبقون فيها إلى المساء ، ثم يطلق سراخهم أخيراً ليعودوا إلى بيوتهم ليتعشوا ، ويصلوا ، ويناموا ، وكذلك كانت حياة الغلام اليهودي حياة جدية شاقة (١٠٥) .

وأول ما كان يدرسه الغلام اليهودي هو اللغة العبرية وأسفار موسى الخمسة ؛ فإذا بلغ العاشرة من عمره بدأ يدرس المشنا ، وفي الثالثة عشرة يأخذ في دراسة الأجزاء الرئيسية من التلمود ، ومن شاء منهم أن يكون من العلماء واصل دراسة المشنا والجمارا من الثالثة عشرة إلى العشرين من عمره أو ما بعدها . وكان الطالب يتعلم عن طريق دراسته لموضوعات التلمود المختلفة مقداراً قليلاً من العلوم المختلفة تبلغ عشرة أو تزيد ، ولكنه لا يكاد يدرس شيئاً من تاريخ اليهود (١٠٦) . وكان أكثر ما يتعلمه عن طريق التكرار ، وكانت التلاوة الجماعية قوية عالية إلى حد جعل بعض البيئات تمنع وجود المدارس فيها (١٠٧) . أما التعليم العالي فكان مكانه اليسيرة أو المجمع العلمي ، وكان خريجه هذا المجمع يسمى تلميذ حاخام أى عالماً بالشريعة ؛ وكان يعنى عادة من الضرائب المفروضة على سائر أفراد العشيرة ، وكان ينتظر من غير العلماء أن يهبوا واقفين إذا أقبل أو أدبر وإن لم يكن حتماً من الأجرار الرسميين (١٠٨) .

أما الخبر الرسمي فكان معلماً وقاضياً ، وكاهناً . وكان يطلب إليه أن يتزوج ، ولم يكن يتقاضى نظير القيام بواجباته الدينية إلا القليل من الأجر إذا تقاضى شيئاً منه على الإطلاق ؛ وكان العادة يكسب عيشه بعمل من الأعمال التي لا تمت بصلة إلى الدين ؛ وقلها كان يعظ ، لأن الوعظ كان متروكاً لوعاظ متقلبين (مجديم)

يدرّبون على فنون البلاغة المرهبة ذات الأصوات المنغمة الطنانة الرتانة . وكان في مقدور كل فرد من المصلين أن يؤم الجماعة ، ويقرأ فقرات من الكتاب المقدس ، وبعض ؛ ولكن هذا الشرف كان يختص به في العادة أحد اليهود البارزين أو الذين لهم يد طويلة في الصدقات والأعمال الخيرية . وكانت الصلاة عند اليهود المتمسكين بالدين عملاً شديد التعقيد ، لا تؤدي على الوجه الصحيح إلا إذا غطي المصلي رأسه دليلاً على الخشوع ، وربط على ذراعيه وجبهته علماً صغيرة ، تحتوى فقرات من سفر الخروج (الآيات ١ - ١٦ من الأصحاح الثالث عشر) وتثنية الاشرع (الآيات ٤ - ٩ من الأصحاح السادس ، و ١٣ - ٢١ من الأصحاح الحادى عشر) ، وثبت في أطراف ثيابه أهداباً نقشت عليها أمم وصايا الرب . وكان رجال الدين يفسرون هذه الإجراءات الشكلية بأنها أمور لا بد منها لتذكر اليهود بوحدانية الله ، ووجوده ، وشرائعه . أما السدج من اليهود فقد أصبحوا يحسبونها تأمم سحرية ذات قوى معجزة خارقة للطبيعة . وكانت الصلاة تحم بقراءة من ملف الشريعة الموضوع في تابوت صغير فوق المذبح .

وكان اليهود في المنفى لا يوافقون على إدخال الموسيقى في الشعائر الدينية ، ويرون أنها قلما تتفق مع حزنهم على وطنهم الضائع ، ولكن الواقع أن بين الموسيقى والدين من الصلات القوية مثل ما بين الشعر والحب . ذلك أن التعبير المتحضر عن أقوى العواطف وأكثرها عمقاً يتطلب أشد الفنون إثارة للانفعالات النفسية ؛ ولقد عادت الموسيقى إلى الكينيس عن طريق الشعر ؛ ذلك أن الپيتانيم Paitanim أو « الشعراء الجدد » العبرانيين شرعوا يكتبون أشعاراً دينية مثقاة بالزخرف الصناعي كالأبيات المتجانسة أولى حروفها أو التي إذا جمعت الحروف الأولى منها كونت اسماً خاصاً أو جملة بعينها ، ولكنها يرفع من قدرها رنين اللغة العبرية وفخامة نغماتها وامتلاؤها بالحجاسة الدينية التي أضحت عند اليهودى وطنية وديناً معاً . ولا تزال ترانيم العزربن قلير (من القرن الثامن) الفجة القوية

توجد لها مكاناً في طقوس بعض المعابد اليهودية . ولقد ظهرت أشعار مثلها عند
يهود أسبانيا وإيطاليا ، وفرنسا ، وألمانيا ، منها واحدة يترنم بها كثيرون
من اليهود يوم عيد الكفارة :

إذا أقبلت ملكوتك تشقق التلال عن أناشيد .

وضحكت الجزائر مهللة لأنها تنسب إلى الله .

وتغنى كل من فيها من المصلين بأعلى أصواتهم يثنون عليك .

حتى إذا سمعها أبعد الشعوب نادى بك ملكاً متوجاً عليها (١٠٩) .

ولما أن أدخلت هذه القصائد المقدسة (البيوطيم) في الصلوات التي تقام
في المعابد ، كان ينشدها مرتل القديس ، وبذلك عادت الموسيقى إلى الشعائر
الدينية . يضاف إلى هذا أن تلاوة الكتاب المقدس والأدعية كان ينشدها في
كثير من المعابد رئيس فرقة المرتلين أو ينشدها المرتلون إنشاداً ترتجل معظم
نغماته ارتجالاً ، ولكنها تتبع في بعض الأحيان نماذج النغمات البسيطة الموضوعية
للتراتيم المسيحية (١١٠) . من ذلك أن النغمات المعقدة للأغنية العبرانية الذائعة
الصيت المعروفة باسم كل نيدرى Kol Nidre (جميع الأيمان) (١١١) ، قد
أخذت من مدرسة ديرسنت جول St. Gail الغنائية بسويسرا في وقت
ما قبل بداية القرن الحادى عشر .

على أن الكنيس اليهودى لم يحل في قلب اليهودى محل الهيكل بكل معانى
الحلول ، بل ظل أملة في أن يقدم التبربان ليهوه في يوم من الأيام أمام قدس
الأقداس على تل صهيون ، يلهب خياله ، ويتركه عرضة لخداع « المسيح
الكذاب » في مختلف الأوقات . من ذلك ما حدث في عام ٢٠ حين أعلن شيريم
Sereme وهورجل سورى ، أنه هو المنقذ المنتظر ، وسيّر حملة لانتزاع فلسطين من
المسلمين . وغادر اليهود مواطنهم في بابل وأسبانيا ليشاركوا في هذه المغامرة ،
ولكن القاتم بها أسر ، وعرضه الخليفة يزيد الثانى على الجاهير على أنه مهرج
دجال ، ثم أمر به فقتل . وبعد بضع سنين من ذلك الوقت تزعم عوبديا بن

عيسى بن إسحق الأصفهاني ثورة أخرى مثلها امتشق فيها عشرة آلاف يهودى الحسام ، واستبسلوا في الحرب بقيادته ، ولكنهم هزموا ، وقتل ابن عيسى في المعركة وعوقب جميع يهود إصفهان بلامتميز بينهم لانضمامهم إليه . ولما أثارت الحملة الصليبية الأولى نائرة أوربا حسبت الجماعات اليهودية أن انتصار المسيحيين سيعيد فلسطين لى اليهود^(١١٢) ، ولكنهم أفاقوا من أحلامهم على سلسلة من المذابح المدبرة . وفي عام ١١٦٠ أثار دافيد الروى يهود العراق إذ نادى فيهم أنه هو المسيح المنتظر وأنه سيعود بهم إلى أورشليم ويرد إليهم حريتهم ؛ لكن حماه خشى أن يحيق الهلاك باليهود بسبب هذه الأفكار فإكان منه إلا أن ذبحه وهونأثم . ثم ظهر مسيح آخر في جنوبي جزيرة العرب عام ١٢٢٥ وأثار اليهود إثارة حمقاء . وكتب ابن ميمون «رسالة إلى الجنوب» ذائعة الصيت فند فيها مزاعم هذا الداعى ، وذكر يهود العرب بما أعقب هذه المحاولات الطائشة في ماضى الأيام من هلاك ودمار^(١١٣) ، وأكثه رغم هذا ارتضى الأمل فى المسيح المنتظر ، على أنه دعامة لا بد منها للروح اليهودية فى تشتمهم ، وجعل هذا الأمل إحدى العقائد الثلاث عشرة الأساسية فى الديانة اليهودية^(١١٤) .

الفصل الرابع

كراهية اليهود

ترى ما هو منشأ العداء القائم بين غير اليهود واليهود ؟
لقد كانت الأسباب الرئيسية الباعثة على هذا العداء أسباباً اقتصادية ،
ولكن الخلافات الدينية كانت على الدوام سبباً في زيادة المنافسات الاقتصادية
وستاراً لها ؛ فالمسلمون المؤمنون برسالة محمد يغضبهم من اليهود عدم إيمانهم
بهذه الرسالة ، والمسيحيون الذين يؤمنون بألوهية المسيح يؤلمهم أن يجدوا
شعبه نفسه لا يؤمن بهذه الألوهية . ولم يكن كثيرون من المسيحيين الصالحين
يرون أن مما يخالف تعاليم دينهم أو يخالف التعاليم الإنسانية بوجه عام . أن
يلقوا على شعب بأسره ، خلال القرون الطوال ، تبعة أعمال فئة قليلة العدد
من يهود أورشليم في آخر أيام المسيح . ويحدثنا إنجيل لوقا أن جماعات من
اليهود رحبت بدخول المسيح أورشليم (الآية ٣٧ من الأصحاح ٢٩) وكيف
حمل صليبه بيلاطس : « تبعه جمهور كبير من الشعب والنساء اللائي كن يطمئن
وينحن عليه » (الآية ٢٧ من الأصحاح ٢٣) ، وكيف أن كل الجموع
الذين « كانوا مجتمعين لهذا المنظر لما أبصروا ما كان رجعوا وهم يقرعون
صدورهم » (الآية ٤٨ من الأصحاح ٢٣) ، ولكن هذه الشواهد القاطعة
بعطف اليهود على عيسى كانت تنمحي . ذكرها حين تتلى على المسيحيين
قصة الآلام المريرة كل أسبوع مقدس من فوق ألف منبر ومنبر ، فكانت
نيران الحقد تضطرم في قلوب المسيحيين ، وكان بنو إسرائيل في تلك الأيام
يجسسون أنفسهم في أحيائهم ويوتهم خشية أن تثور عواطف السذج من الناس
فتؤدى إلى المذابح .

ونشأت حول هذا السبب الرئيسي من أسباب سوء التفاهم عشرات المثات .

من أسباب الريبة والعداء : وتحمل رجال المصارف اليهود أكبر آثار العداء الناشئ من أسعار فائدة القروض ، وهي أسعار ترتفع كلما قلت ضماناتها . ولما أن نمت الشؤون الاقتصادية المسيحية ، وغزا التجار ورجال المصارف من غير اليهود ميادين كان اليهود هم المسيطرين عليها من قبل ، أثارت المنافسة الاقتصادية الأحقاد في الصدور ، وأخذ بعض المرابين المسيحيين يبذرون بذور الحقد على السامية^(١١٥) . وكان اليهود الذين يشغلون مناصب رسمية وبخاصة في المصالح المالية للحكومات المسيحية هدفاً طبيعياً لمن يكرهون الضرائب واليهود كليهما : وتأصلت هذه الأحقاد الاقتصادية والدينية في الصدور فأصبح كل ما هو يهودى بغيضاً لبعض المسيحيين ، وكل ما هو مسيحي بغيضاً لبعض اليهود ، فأخذ المسيحيون يعيبون على اليهود عزلتهم ، ولم يفتروا لهم هذه العزلة التي كانت رد فعل لتمييز غيرهم عليهم . وما كان يوجه إليهم من اعتداء في بعض الأحيان ، وبدت ملامح اليهود ، ولغتهم ، وآدابهم ، وأطعمتهم ، وشعائرهم ، بدت هذه كلها في أعين المسيحيين غريبة كريهة . ثم إن اليهود كانوا يطعمون حين يصوم المسيحيون ، ويصوم أولئك حين يفطر هؤلاء ، وظل يوم راحتهم وصلواتهم يوم السبت كما كان في قديم الأيام ، على حين أن يوم الراحة والصلوات عند المسيحيين قد تبدل فأصبح يوم الأحد ، وكان اليهود يحتفلون بنجاتهم السعيدة من مصر في عيد فصح قريب : قريباً يراه المسيحيون غير لائق من يوم الجمعة الذي يحزنون فيه لموت المسيح . ولم تكن الشريعة اليهودية تبيح لليهود أن يأكلوا طعاماً مسته يد غير يهودية ، أو يشربوا خيراً عصرته ، أو يستعملوا آنية لمستها^(١١٦) ، أو أن يتزوجوا إلا من يهوديات^(١١٧) . وكان المسيحي يفسر هذه القواعد القديمة - التي وضعت قبل نشأة المسيحية بزمن طويل - بأن اليهود يرون أن كل شيء مسيحي نجس ، ويرد على هذا بأن الإمبراطوري لم يكن في أغلب الأحيان يمتاز بنظافة جسمه أو أناقته ثيابه . ونشأت من عزلة هؤلاء وأولئك بعضهم عن بعض أقاصيص

سخيفة محزنة انتشرت بين كلا الطرفين . وكان الرومان قبل ذلك الوقت يتهمون المسيحيين بأنهم يدبحون أطفال الوثنيين ليقدموا دماءهم في السر قرباناً لإلهه المسيحيين ، ثم أخذ المسيحيون في القرن اثناني عشر يتهمون اليهود باختطاف أطفال المسيحيين ليقدموهم قرباناً إلى يهوه ، أو لبتخذوا دماءهم دواء ، أو يستعملوه في صنع الخبز الفطير لعيد الفصح . واتهم اليهود بأنهم يسمدون الآبار التي يشرب منها المسيحيون ويسرقون الرقاق المقدس ليقتبوه . ويخرجوا منه دم المسيح^(١١٨) . ولما أن تباهى عدد قليل من تجار اليهود بثرائهم وأظهروا هذا الثراء بارتداء الملابس الغالية الثمن اتهم الشعب اليهودي على بكرة أبيه بأنه يستنزف أموال المسيحيين جملة ويضعها في أيدي اليهود . واتهمت اليهوديات بأنهن ساحرات ، وقيل إن كثيرين من اليهود من حزب الشيطان^(١١٩) . ورد اليهود على هذه الأقايص بأخرى مثلها عن المسيحيين ، وبقصص مهينة عن مولد المسيح وشبابه . وكان التلمود ينصح بأن تشمل الصدقات اليهودية غير اليهود^(١٢٠) ، وكان مجينا Bahya يثني على الرهبنة المسيحية ، وكتب ابن ميمون يقول إن تعاليم المسيح والنبي محمد تنزع بالإنسانية إلى الكمال^(١٢١) ، ولكن اليهودي العادي لم يكن يستطيع فهم هذه المحاملات الفلسفية ، وبادل أعداءه حقداً بمحمد .

وكانت هناك فترات صفاء بين أوقات الجنون السالفة الذكر ؛ فكثيراً ما كان اليهود يختلطون بالمسيحيين اختلاط الأصدقاء متجاهلين قوانين الدولة والكنيسة التي تحرم هذا الاختلاط ، وكاتبوا أحياناً يتزاوجون وبخاصة في أسبانيا وجنوب أوروبا . وكان العلماء المسيحيون واليهود يتعاونون فيما بينهم ، ميكائيل اسكت Michael Scot مع أناتولى Anatoli ، ودانتي مع غمونييل^(١٢٢) ؛ وكان المسيحيون يقدمون الهبات للمعابد اليهودية ، وفي مدينة وورمز Worms كانت هناك حديقة يهودية كبرى ينفق عليها من هبة وهبتها امرأة مسيحية^(١٢٣) . وبُدِّل يوم السوق في ليون من السبت إلى الأحد تيسيراً لليهود ؛ ووجدت الحكومات غير

الدينية أن اليهود عنصر نافع في الأعمال التجارية والمالية فأولتهم حمايتها في بعض الأوقات ؛ وإذا كانت دولة من الدول قد قيدت حركات اليهود أو أخرجتهم من بلادها فقد كان سبب ذلك في بعض الأحيان أنها لم يعد في مقدورها أن تحميهم من التعصب والعدوان (١٢٤) .

وكان موقف الكنيسة من هذه الأحداث يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة : ففي إيطاليا كانت تحمي اليهود بوصفهم « حراس الشريعة » الواردة في العهد القديم وبوصفهم شهدواً أحياناً على صحة الكتاب المقدس من الوجهة التاريخية وعلى « غضب الله » ؛ لكن مجالس الكنيسة كانت من حين إلى حين تعمل على زيادة متاعب الحياة اليهودية ، وكثيراً ما كان يصدر عنها ذلك بحسن نية ، وقلما كانت تعتمد في عملها هذا على ما لها من سلطان عام : من ذلك أن قانون ثيوفوسوس Thodosian Code (٤٣٩) ، ومجلس كليرمنت Clermont (٥٣٥) ، ومجلس طليطلة (٥٨٩) كلها حرمت تعيين اليهود في المناصب التي من حق شاغلها أن يوقع عقوبة على المسيحيين ؛ وأمر مجلس أورليان Orleans (٥٣٨) جميع اليهود ألا يخرجوا من بيوتهم طوال الأسبوع المقدس ، ولعل ذلك الأمر كان يقصد به حمايتهم ، وحرّم استخدامهم في المناصب العامة . وحرّم مجلس لاتران Lateran الثالث (١١٧٩) على القابلات أو المرضعات المسيحيات أن يخدمن اليهود ، وندد مجلس بزير Beziars (١٢٤٦) باستخدام المسيحيين أطباء من اليهود ؛ وردّ مجلس أفنيون Avignon (١٢٠٩) على قوانين الطهارة اليهودية بتحذير « اليهود والعاهرات » من لمس الخبز أو الفاكهة المعروضة للبيع ؛ وأعاد القوانين الكنسية الصادرة بتحريم استئجار اليهود الخدم المسيحيين ، وحذر المؤمنين من تبادل الخدمات مع اليهود ، وأمر بتجنّبهم لتجاسّهم (١٢٥) . وأعلنت بعض المجالس إلغاء كل زواج بين المسيحيين واليهود ؛ وأُحرق شماس في عام ١٢٢٢ على القائمة الخشبية لأنه اعتنق الدين

اليهودى وتزوج يهودية^(١٢٦) . وحُرمت أرملة يهودية فى عام ١٢٣٤ من بائنها بحجة أن زوجها اعتنق الدين المسيحى قبل وفاته وأن هذا يلغى زواجهما^(١٢٧) . وأصدر مجلس لاتران الرابع فى عام ١٢١٥ قراراً يحتم « على اليهود والمسلمين - ذكوراً كانوا أو إناثاً - فى كل ولاية مسيحية وفى جميع الأوقات أن يميزوا أنفسهم عن غيرهم فى أعيان الجمهور بلبس أثواب خاصة لأن المسيحيين يخطئون أحياناً فيتصلون بنساء اليهود والمسلمين ، ويتصل اليهود والمسلمون بالنساء المسيحيات » . ولهذا يجب على اليهود والمسلمين متى تجاوزوا الثانية عشرة من العمر أن يميزوا ملابسهم بلون خاص - ويكون ذلك بالنسبة للرجال فى غطاء الرأس أو الجبة ، وبالنسبة للنساء فى أقنعتهم . وكان من أسباب صدور هذه الأوامر أنها رد على قوانين قديمة مماثلة لها أصدرها المسلمون ضد اليهود أو المسيحيين . وكان من نوع الشارة المميزة تعينه عملياً حكومات الولايات أو المجالس الإقليمية للكنيسة المسيحية . وكانت فى العادة تتخذ صورة عجلة أو دائرة من النسيج الأصفر ، طول قطرها نحو ثلاث بوصات تحاط فى مكان ظاهر فوق الملابس . ونفذ هذا القرار فى إنجلترا عام ١٢٧٩ ؛ أما فى أسبانيا وإيطاليا وألمانيا فلم ينفذ إلا فى أوقات متباعدة قبل القرن الخامس عشر حين أخذ نيقولا القوزاوى Nickolas of Cusa وسان چيوفيتى داكهسترانو San Giovanni de Capistrano يدعوان إلى التشدد فى تنفيذه بأكمله . وكان من أثر تلك الدعوة أن هدد يهود قشتالة فى عام ١٢١٩ بمغادرة البلاد جملة إذا نفذ هذا القانون ؛ ووافق ولاية الأمور الدينيون على إلغائه ، وكثيراً ما كان الأطباء والعلماء ، ورجال المال ، والرحالة اليهود يعفون منه ، ثم أخذ العمل به يضعف قبل القرن السادس عشر وامتنع نهائياً حين قامت الثورة الفرنسية .

ويمكن القول بوجه عام إن البابوات كانوا أكثر رجال الدين تسامحاً فى العالم المسيحى . مثال ذلك أن جريجورى الأول ، نهى عن إرغام اليهود على

اعتناق الدين المسيحي رغم تحمسه الشديد لنشر هذا الدين ، وحافظ على ما لهم من حق المواطنة الرومانية في البلاد الخاضعة لحكمه (١٢٨) ؛ ولما أن استولى الأساقفة في طرشونة Terracina وبالرم على معابد اليهود لكي ينتفع بها المسيحيون أرغهم جريجورى على أن يردوها إليهم كاملة (١٢٩) ، وكتب إلى أسقف نابلي يقول : « لا تسمح بأن يضيق على اليهود في أداء صلواتهم ، ودع لهم الحرية الكاملة في مراعاة أعيادهم وأيامهم المقدسة والاحتفال بها ، كما كانوا هم وآباؤهم يفعلون من زمن بعيد » (١٣٠) . وحث جريجورى السابع الحكام المسيحيين على إطاعة قرارات مجلس الكنيسة التي تحرم استخدام اليهود في المناصب ؛ ولما قدم إنجنويوس الثالث إلى باريس عام ١١٤٥ ، وسار في موكب حافل إلى الكنيسة الكبرى التي كانت وقتئذ في الحى اليهودى ، بعث اليهود إليه بوفد ليهدى إليه التوراة أو ملف الشريعة ، فباركهم وعادوا إلى بيوتهم مغتبطين ، وطعم البابا حمل عيد الفصح مع الملك (١٣١) . وكان البابا إسكندر الثالث على وئام مع اليهود واستخدم واحداً منهم في إدارة شؤونه المالية (١٣٢) ؛ وتزعم إنوسنت الثالث مجلس لاتران الرابع فيما طلبه من أن يكون لليهود شارة خاصة ، ووضع هو المبدأ القائل بأن اليهود على بكرة أبيهم قد فرضت عليهم العبودية الأبدية لأنهم صلبوا عيسى (١٣٣) ، ثم كرر في ساعة كان فيها أرق مزاجاً الأوامر البابوية التي تحرم إرغام اليهود على ترك دينهم وقال : « لا يحق لمسيحي أن يؤذى اليهود في أجسامهم . . . أو يسلبهم أملاكهم . . . أو يتسبب في إقلاقهم أثناء الاحتفال بأعيادهم . . . أو يبيتز منهم المال بتهديدهم بإحراق موتاهم (١٣٤) . وأعنف جريجورى التاسع منشئ محكمة التفتيش (*) اليهود من إجراءاتها أو اختصاصها إلا إذا حاولوا إتهديد المسيحيين ، أو ارتدوا إلى الدين اليهودى بعد أن تنصروا (١٣٥) ،

(*) أو ديوان التحقيق Inquisition كما يسميها بعض المترجمين . (المترجم)

وهد إنوسنت الرابع (١٢٤٧) القصة القائلة بأن من شعائر اليهود ذبح أطفال المسيحيين وقال :

لقد ابتدع بعض القساوسة ، والأمراء ، والنبلاء وكبار الأشراف .. أساليب تتنافى مع الدين ضد اليهود خداعاً منهم وتضليلاً ، فحرموهم بلا حق من أملاكهم قوة واقتداراً ، واستولوا عليها لأنفسهم ، واتهموهم زوراً وبهتاناً بأنهم يقتسمون فيما بينهم في يوم عيد الفصح اليهودى ، قلب غلام مذبوح . . . والحق أنهم في حقدهم يعزون إلى اليهود كل حادث قتل أيا كان المكان الذى يقع فيه . وبسبب هذه النهم المختلفة وأمثالها تمتلئ قلوبهم غلا على اليهود ، فينبون أموالهم . . . ويضطهدونهم بتجويعهم ، وسجنهم ، وتعذيبهم ، وإلذائهم بغير تلك الوسائل ، ويقضون عليهم أحياناً بالإعدام ، وبذلك أصبحت حال اليهود أسوأ مما كان عليه آباؤهم تحت حكم الفراعنة ، وإن كانوا يعيشون الآن تحت حكم أمراء مسيحيين . وهم لهذا يضطرون إلى مغادرة البلاد التى عاش فيها آباؤهم من أقدم العهود التى يذكرها الإنسان . وإذا كان يسرنا ألا يلحقهم أذى ، فلإنا نأمركم أن تعاملوهم معاملة ودية رقيقة ؛ فإذا وصل إلى علمكم نبأ اعتداء ظالم وقع عليهم ، فردوا عنهم ما لحقهم من أذى ، ولا تسمحوا بأن يصيبهم مثل هذا الظلم فى المستقبل (١٣٧) .

غير أن هذه الدعوة النبيلة لم تلق إلا أذناً صماء ، واضطر جريجورى الماشر فى عام ١٢٧٢ أن يكرر ما نجاء فيها من تنديد بقصة قتل أطفال المسيحيين استحابة لبعض الشعائر الدينية اليهودية ؛ وأراد أن يزيد أقواله قوة وتأثيراً . فقرر ألا تقبل شهادة مسيحي على يهوى إلا إذا عزها يهودى . وإن ما أصدره البابوت بعد هذا العهد حتى عام ١٧٦٣ من أوامر بمائلة لهذا الأمر ليشهد بما كانت تمتلئ به قلوب البابوات من شفقة وإنسانية كما تشهد بأن هذا الشر لم تجتث جذوره . ومما يدل على أن البابوات كانوا مخلصين فى دعوتهم ما كان يستمتع به اليهود

في الدويلات البابوية من طمأنينة إذا قيست حالهم بحال بني دينهم في غير هذه الدويلات ، ونجاتهم النسبية من الاضطهاد . ذلك أنهم لم يطردوا قط من رومة أو من أفنيون البابوية مثل ما طردوا في أوقات مختلفة من كثير من البلاد ؛ وفي ذلك يقول مؤرخ يهودى عالم : « لولا الكنيسة الكاثوليكية لما بقى لليهود وجود في أوربا بعد العصور الوسطى » (١٣٦) .

وكان اضطهاد اليهود بقوة في أوربا أثناء العصور الوسطى متقطعاً ؛ فقد جرى الأباطرة البيزنطيون مائتي عام على خطة العسف التي جرى عليها جستنيان ضد اليهود ، وطردهم هرقل من أورشليم عقاباً لهم على ما قدموا للفرس من معونة ، وبذل كل ما في وسعه لإبادتهم ؛ وحاول ليو الإسورى Leo the Isaurian أن يفند الإشاعة القائلة بأنه يهودى بقرار أصدره عام ٧٢٣ يخير فيه اليهود البيزنطيين بين اعتناق الدين المسيحى أو النفى ؛ فن اليهود من خضع لهذا القرار ومنهم من أخرجوا أنفسهم في معابدهم مفضلين هذا على الخضوع له . وواصل باسيل الأول Basil I (٨٦٧-٨٨٦) الحملة القاضية بإرغام اليهود على التعميد ؛ وطالب قسطنطين السابع (٩١٢-٩٥٩) اليهود بأن يقسموا أمام المحاكم المسيحية ميمناً مذلة ظلت باقية في أوربا حتى القرن التاسع عشر (١٤١) .

ولما دعا البابا إربان Urban الثانى إلى الحرب الصليبية الأولى في عام ١٠٩٥ ظن بعض المسيحيين أنه يحسن بهم أن يقتلوا يهود أوربا قبل أن يخرجوا لقتال الأتراك في أورشليم ؛ فلما قبل جدفري البويونى Godfrey of Bouillon قيادة الحملة أعلن أنه سيثأر لدماء المسيح من اليهود ولن يترك واحداً منهم حياً ؛ وجهر رفاقه بعزمهم على أن يقتلوا كل من لا يعتنق المسيحية من اليهود . وقام أحد الرهبان يثير حماسة المسيحيين أكثر من هذا فأعلن أن نقشاً على الضريح المقدس في أورشليم يجعل تصهير جميع اليهود فريضة أخلاقياً على جميع المسيحيين (١٤٢) . وكانت خطة الصليبيين أن يزحفوا جنوباً بمحاذاة نهر الرين حيث توجد أغنى

مواطن اليهود في أوروبا الشمالية ، وكان يهود ألمانيا قد اضطلوعوا بدور رئيسي في إنماء تجارة نهر الرين وانتهجوا خطة جديدة من الصلاح وضبط النفس أكسبتهم احترام المسيحيين عامتهم ورجال دينهم على السواء . وكان الأسقف رودجر الأسبيري Rüdiger of Speyer ذا صلة وثيقة بيهود أبرشيته ؛ وقطع لهم عهداً يضمن لهم استقلالهم وسلامتهم ؛ وأصدر الإمبراطور هنري الرابع في عام ١٠٩٥ عهداً مماثلاً لهذا العهد لجميع اليهود المقيمين في مملكته (١١٢) ؛ لذلك وقعت أبناء الحرب الصليبية ، والطريق الذي قررت اتباعه ، وتهديدات زعمائها ، وقع الصاعقة على تلك الجماعات اليهودية الآمنة المسالمة ، فتملكهم الرعب حتى شل تفكيرهم ؛ ودعا أحبارهم إلى الصوم والصلاة عدة أيام .

ولما وصل الصليبيون إلى أسبير جروا أحد عشر يهودياً إلى إحدى الكنائس وأمروهم أن يقبلوا التعميد ، فلما أبوا قتلوهم عن آخرهم (٣ مايو سنة ١٠٩٦) ؛ ولجأ غيرهم من يهود المدينة إلى الأسقف جوهنسن Johansen . فلم يكتف هذا الأسقف بمجاوبتهم . بل أمر بقتل عدد من الصليبيين الذين اشتركوا في مقتلة الكنيسة . ولما اقترب بعض الصليبيين من تريير Trier استغاث من فيها من اليهود بالأسقف إجلبرت Egilbert . فعرض عليهم أن يحميمهم على شريطة أن يعملوا ، ورضى معظم اليهود بهذا الشرط ، ولكن بعض النساء قتلن أطفالهن وألقين بأنفسهن في نهر الموزل Moselle (أول يونية سنة ١٠٩٦) . وفي مينز نجباً روثارد Ruthord كبير الأساقفة ١٣٠٠ يهودي في سرايبيه ؛ ولكن الصليبيين اقتحموها عليهم وقتلوا منهم ١٠١٤ ، واستطاع الأسقف أن ينقذ عدداً قليلاً منهم بإخفائهم في الكنيسة الكبرى (٢٧ مايو سنة ١٠٩٦) ؛ وقبل التعميد أربعة من يهود مينز ، ولكنهم انتحروا بعده بقليل . ولما اقترب الصليبيون من كولوني Cologne . نجباً المسيحيون اليهود في منازلهم ، وأحرق الوثغاه الحبي اليهودي ، وقتلوا من وقع في أيديهم من اليهود القلائل ، فاكان من الأسقف هرمان

Hermann إلا أن نقل اليهود سرّاً من مخابهم عند المسيحيين إلى منازل المسيحيين في الريف وعرض بذلك حياته هو لأشد الأخطار . وكشف الحجاج الصليبيون هذه الحيلة ، وصادوا فريستهم في القرى وقتلوا كل من عثروا عليه من اليهود (يونية سنة ١٠٩٦) وكان عدد من قتلوا في إحدى القرى مائتي يهودي ؛ وحاصر الغوغاء اليهود في أربع قرى أخرى ، فقتل اليهود بعضهم بعضاً ، مفضلين هنا على التعميد ؛ وذبحت الأمهات من ولدن من الأطفال في أثناء هذه الاعتداءات وقت مولدهم . وفي وورمز أخذ الأسقف ألبرانزش A Lebranches من استطاع أن يأخذهم من اليهود إلى قصره وأنقذ حياتهم ، أما من لم يستطع أخذهم فقد هاجمهم الصليبيون هجوماً خالياً من كل رحمة ، فقتلوا الكثيرين منهم ، ثم نهبوا بيوت اليهود وأحرقوها ، وفيها انتحر كثير من اليهود مفضلين الموت على ترك دينهم . ثم حاصرت جماعة من الغوغاء مسكن الأسقف بعد سبعة أيام ، وأبلغ الأسقف اليهود أنه لم يعد في وسعه أن يصد أولئك الغوغاء ، وأشار عليهم بقبول التعميد ؛ وطلب إليه اليهود أن يتركوا وشأنهم لحظة قصيرة ، فلما عاد الأسقف وجدهم جميعاً إلا قليلاً منهم قد قتل بعضهم بعضاً ، ثم اقتحم المحاصرون الدار وقتلوا الباقين أحياء ؛ وبلغ مجموع من قتل في مذبحه وورمز (٢٠ أغسطس سنة ١٠٩٦) نحو ثمانمائة من اليهود . وحدثت مذابح مثلها في Metz ورنجسبرج Regensburg وبراهة Prague (١٤٤) .

وأندرت الحرب الصليبية الثانية بأنها ستفوق الحرب الأولى من هذه الناحية ؛ فقد أشار بطرس المبجل Peter The Venerable ، القديس رئيس دير كلوني Cluny على لويس السابع ملك فرنسا أن يبدأ بمهاجمة اليهود . الفر نسيين ، وقال له : « لست أطلبك بأن تقتل أولئك الجلائق الملائع . . . لأن الله لا يريد محوهم من الوجود ، ولكنهم يجب أن يقاسوا أشد ألوان العذاب كما قاساه قاتن قاتل أخيه ، ثم يبقوا ليلاقوا هوأناً أفسى من العذاب ، وعيشاً أمر من الموت » (١٤٥) .

واحتج سوجر Suger رئيس دير سانت دنيس St. Denis على هذا الفهم الخاطئ للمسيحية ، واكتفى لويس التاسع ، بفرض ضرائب باهظة على أغنياء اليهود ؛ غير أن اليهود الألمان لم يخرجوا من هذه المحن بالمصادرة وحدها ، فقد خرج راهب فرنسي يدعى رودلف من دير به غير إذن ، وأخذ يدعو إلى ذبح اليهود في ألمانيا . وفي كولوني قُتل شمعون « النبي » وبترت أطرافه ، وفي أسبير عذبت امرأة على العذراء لكي يقنعوها باعتناق المسيحية . وبدل الرؤساء الدينيون مرة أخرى كل ما في وسعهم لحماية اليهود ، فأعطاهم الأسقف آرنلد أسقف كواوني قصراً حصيناً يجتمعون فيه وأجاز لهم أن يتسلحوا ؛ وامتنع الصليبيون عن مهاجمة الحصن ، ولكنهم قتلوا كل من في أيديهم من اليهود الذين لم يعتنقوا المسيحية . وأدخل هنرى كبير أساقفة مينز في بيته يهودا كان الغوغاء يطاردونهم ، ولكن الغوغاء اقتحموا البيت وقتلوه أمام عيذه . واستغاث كبير الأساقفة بالقديس برنارد St. Bernard أعظم المسيحيين سلطاناً في أيامه ، وأجاب برنارد بأن ندد برودلف تنديداً شديداً وطلب أن يوضع حد لأعمال العنف الموجهة إلى اليهود . ولما واصل رودلف حملته عليهم جاء برنارد بنفسه إلى ألمانيا وأرغم الراهب على العودة إلى الدير . ولما أن وجدت جثة أحد المسيحيين بعد ذلك بقبائل مشوهة في ورزبرج Wurzburg ، اتهم المسيحيون اليهود بأنهم هم الفاعلون ، وهاجموهم رغم احتجاج الأسقف أمبيكو Embicho وقتلوا عشرين منهم ، وعنى المسيحيون بكثيرين غيرهم أصابهم جروح في هذا العدوان (١١٤٧) ، ودفن الأسقف القتلى في حديقته^(١٤٦) . وعادت إلى فرنسا فكرة بدء الحرب الصليبية في بلاد المسيحيين قبل انتقالها إلى الشرق ، وذبح اليهود في كارتان Carentan ، ورامرو Rameru ، وسلي Suliy . وفي بوهيميا ذبح الصليبيون ١٥٠ يهودياً ؛ ولما أن انتهت موجة الذعر بذل رجال الدين المسيحيون المحليون كل ما في وسعهم لمساعدة من بقوا أحياء من اليهود ؛ وأجيز لمن قبلوا التعميد مرغمين أن يعودوا إلى الدين

اليهودى ، دون أن توقع عليهم عقوبات الردة القاسية (١٤٧) .

وكانت هذه المذابح إبدانا بسلسلة من الهجمات الطويلة العنيفة لا تزال باقية إلى هذه الأيام . من ذلك أن حادثة قتل وقعت في بادن Baden عام ١٢٣٥ ولم يعرف مرتكبها أنهم بها اليهود ، فأدى ذلك إلى مذبحتهم منهم ؛ وفي عام ١٢٤٣ حرق جميع اليهود سكان بلتز Beltz القريبة من برلين وهم أحياء بحجة أن بعضهم قد دنسوا خبزاً للثقدمة مقدساً (١٤٨) . وفي عام ١٢٨٣ أثبت في ميز فكرة ذبح أطفال المسيحيين في بعض الشعائر اليهودية ، وقتل عشرة من اليهود ونهبت البيوت اليهودية على الرغم مما بذله ورنر كبير الأساقفة من جهود . وفي عام ١٢٨٥ أهاجت مثل هذه الشائعة أهل ميونخ Munich ، ولجأ ١٨٠ يهودياً إلى كنيس لهم ، فأشعل فيه الغوغاء النار ، واحترق المائة والثمانون بأجمعهم . وبعد عام من ذلك الوقت قتل أربعون يهودياً في أبروزل Oberwesel بحجة أنهم امتصوا دماء مسيحي ؛ وفي عام ١٢٩٨ حرق كل يهودى في روتنجن Rottingen حتى قضى نخبه بحجة أن بعضهم قد دنس الخبز المقدس . ونظم رندفليش Rindfleisch وهو بارون متمسك بدينه جماعة من المسيحيين الذين أقسموا أن يقتلوا جميع اليهود وأمدمهم بالسلاح . وأبادوا جميع الجالية اليهودية في ورزبرج ، وذبحوا ٦٩٨ يهودياً في نورمبرج Nuremberg ؛ ثم انتشرت موجة الاضطهاد فلم يمض إلا نصف عام حتى محى ١٤٠ كنيساً يهودياً (١٤٩) . وملاً اليأس بعد هذه الاعتداءات المتكررة قلوب يهود ألمانيا ، وكانوا قد أعادوا تنظيم جماعاتهم مراراً وتكراراً ، فغادرت أسر يهودية كثيرة ميز ، وورمز ، واسبير ، وغيرها من المدن الألمانية وهاجرت إلى فلسطين لتعيش في بلاد المسلمين . وإذا كانت بولندا ولتوانيا تطلبان الهجرة إليها ، ولم تكن قد حدثت فيهما مذابح حتى ذلك الوقت ، فقد بدأت هجرة بطيئة من يهود بلاد الرين إلى بلاد الصقالبة في شرق أوروبا .

وأضحى اليهود في إنجلترا تجاراً ورجال مال بعد أن حرم عليهم تملك الأرض والانضمام إلى نقابات الصناعات . ومنهم من أثروا من الربا وأصبحوا على بكرة أبيهم موضع الكراهية لأكله . وقد استعان الأشراف ملاك الأرض وأتباعهم على التسليح للحروب الصليبية بالمال المقترض من اليهود ، ورهنوا لهم في نظير هذا المال ريع أرضهم ، واستشاط الزارع المسيحي غيظاً لرويته المرابين يثرون من كدحه . وحدث في عام ١١٤٤ أن وجد الشاب وليم من أهل نردج Norwich قتيلاً ، واتهم اليهود بمقتله لاستعمال دمه ، وهوجم الحى اليهودى في المدينة ونهب وأحرق (١٥٠) . وحى الملك هنرى الثانى اليهود ، وحذا حذوه هنرى الثالث ، ولكنه جمع منهم ٤٢٢٠٠٠ جنيه ضرائب وقروضاً أخرى على رؤوس أموالهم في سبع سنين . وحدثت في الاحتفال بتتويج رتنرد الأول في إنجلترا (١١٩٠) مشاحنة تافهة شجعها الأشراف الذين يريدون أن يتخلصوا مما عليهم من ديون لليهود (١٥١) ، فتنظرت إلى مذبحه امتدت إلى لنكولن Lincoln ، واستامفورد Stamford ، ولن Linn . وقتل الغوغاء ٣٥٠ منهم في مدينة يورك في العام نفسه وكان يقودهم رتنرد ملاستيا Richard de Malabestia ، وكان مستغرقاً في الدين لليهود . ثم قام مائة وخمسون من يهود بورك يترعمهم الحبر توم طوب Tomi Tob بقتل أنفسهم (١٥٣) . وفي عام ١٢١١ غادر ثلثمائة من أحبار اليهود إنجلترا وفرنسا لبدءوا حياة جديدة في فلسطين ، وبعد سبع سنين من ذلك العام هاجر كثيرون من اليهود حين نفذ هنرى الثالث أمر الشارة اليهودية . وفي عام ١٢٥٥ راجت شائعة في أنحاء لنكولن تقول إن غلاماً يدعى هيو Hugh قد أغرى بدخول الحى اليهودى ، ثم جلد ، وصلب ، وطعن بحربة ، بحضور جمع من اليهود المتبهجين . وعلى أثر هذه الشائعة هاجمت عصابات مسلحة مقر اليهود ، وقبضت على الكوهن الذى قيل إنه كان على رأس الاحتفال ، وشدوه إلى ذيل جواد ، وجروه في الشوارع ، ثم شقوه . ثم قبض على واحد وتسعين

يهودياً وشتق منهم ثمانية عشر ، ونجا كثير من المسجونين بفضل تدخل جماعة من الرهبان الدمنيكيين البواسل (*) (١٥٤) .

وأفلتت الجماهير من أيدي ولاة الأمور في أثناء الحرب الأهلية التي نشرت. الاضطراب في إنجلترا بين عامي ١٢٥٧ ، ١٢٦٧ ، وكادت المذابح أن تمحو من الوجود يهود لندن ، وكنتربري Canterbury ، ونورثمبتن Northampton ، وونشستر Winchester ، وورسستر Worcester ، ولنكولن ، وكيمبردج ، فنهبت بيوتهم ودمرت ، وأحرقت العقود ، والسفانج ، وأصبح من بقوا أحياء من اليهود لا يملكون شروى نقيراً (١٥٥) . وكان ملوك الإنجليز وقتئذ يقرضون المال من أصحاب المصارف المسيحيين في فلورنس وكاهورس Cahors ، وأصبحوا في غير حاجة إلى اليهود ، ومن ثم وجدوا أن من الصعب عليهم حمايتهم . ولهذا أمر إدوارد الأول من كان باقياً في إنجلترا من اليهود وكانوا حوالي ١٦٠٠٠ يهودي أن يغادروا البلاد قبل أول نوفمبر من ذلك العام ، وأن يتركوا وراءهم جميع أملاكهم الثابتة وما يمكن استرداده من الديون . وغرق الكثيرون منهم في القناة الإنجليزية التي أرادوا أن يعبروها في قوارب صغيرة ، وسرق ملاحو السفن متاعهم وأموالهم ، فلما وصل بعضهم إلى فرنسا أبلغتهم الحكومة الفرنسية أن عليهم أن يغادروا البلاد قبل بداية الصوم الكبير من عام ١٢٩١ (١٥٦) .

وفي فرنسا أيضاً تبدلت الحالة النفسية بالنسبة لليهود حين قامت الحروب.

(*) ولا تزال بكنيسة لنكولن آثار مزار أقيم فيها في الماضي « ليهو العشير » مصحوبة بالعبارة الآتية : « إن في القصة حوادث كثيرة تلقى الشك على صحتها ، وإن وجود قصص مثلها في إنجلترا وغيرها من البلاد ليدل على أن منشأها هو الحقتن الناشئ من التعصب على اليهود في العصور الوسطى ، والخرافة المنتشرة وقتئذ ، والتي لا يصدقها أحد قط في هذه الأيام ، بأن قتل الأطفال كان من السمات الدينية في عيد الفصح اليهودي . وقد قامت الكنيسة منذ القرن الثالث عشر بمحاولات لحماية اليهود من كراهية الغرضاء ومن هذه التهم بنوع خاص » .

الدينية على الأتراك في آسية ، والملاحدة الألبجنسيين Albigensian في
لنجويدك Languedoc . فقام الأساقفة يلقون الخطب الدينية المثيرة للنفوس ؛
وكان من الشعائر المعتادة في بزير أيام أسبوع الآلام أن يهاجم الغوغاء الحى
اليهودى ؛ وأخيراً دعا أحد رجال الدين المسيحيين في عام ١١٦٠ بالكف
عن هذه المواعظ الدينية ، ولكنه طلب إلى الجالية اليهودية أن تؤدى ضريبة
خاصة في أحد السعف من كل عام (١٥٧) . وفي طلوشه (طولوز) أرغم
اليهود على أن يبعثوا بممثل لهم إلى الكنيسة في يوم الجمعة الحزينة من كل
عام ليتلقى صفقة على أذنه لتسكون بمثابة تذكرة لهم خفيفة بخطيتهم
الأبدية (١٥٨) . وفي عام ١١٧١ أحرق عدد من اليهود في بلوا Blois بحجة
استخدامهم دماً مسيحياً في شعائر عيد الفصح اليهودى (١٥٩) . ورأى الملك
فليب أغسطس الفرصة سانحة ليزمهم المال محتجاً بالدين ، فأمر بأن
يسجن جميع من في مملكته من اليهود لأنهم يسممون آبار المسيحيين (١٦٠) ،
ثم أمر بإطلاق سراحهم بعد أن اقتلوا أنفسهم بمال كثير (١١٨٠) ،
غير أنه طردهم من البلاد بعد عام واحد ، وصادر جميع أملاكهم الثابتة ،
وأهدى معابدهم للمسيحيين . وفي عام ١١٩٠ أمر بقتل ثمانين يهودياً
في أورانج Orange لأن ولاية الأمور في المدينة شقوا أحد عماله لقتله أحد
اليهود (١٦١) ، ثم استدعى اليهود إلى فرنسا عام ١١٩٨ ونظم أعمالهم
المصرفية تنظيمياً يضمن به لنفسه أرباحاً طائلة (١٦٢) . وفي عام ١٢٣٦ دخل
الصليبيون المسيحيون الأحياء اليهودية في أنجو Anjou وپواتو Poitou -
وبخاصة ما كان منها في بوردو Bordeaux وأنجوليم Angoulême -
وأمروا بأن يعمد اليهود جميعاً ، فلما أبوا داسوا بجوافر خيولهم ثلاثة آلاف
منهم حتى قضوا نجهم (١٦٣) . وندد البابا جريجورى التاسع بهذه المذبحة ،
ولكنه لم ينج اليهود من الموت . وأشار القديس لويس على رعاياه ألا يجادلوا
اليهود في أمور الدين ، وقال لجوانفيل Joinville إن من واجب كل شخص
من غير رجال الدين : « إذا سمع إنساناً يذكر الدين المسيحى بما لا يليق

أن يدافع عنه بالسيف لا باللفظ ، ينفذه في بطن الآخر إلى أبعد مدى ينفذ فيه (١٦٤) . وفي عام ١٢٥٤ نفي اليهود من فرنسا ، وصادر أملاكهم ومعابدهم ، ثم عاد فسمح بدخولهم إليها ، وردُّ إليهم معابدهم ، وبينما كانوا يعيدون بناء جماعاتهم إذ أمر فليب الجميل Philip the Fair (١٣٠٦) بسجنهم ، وصادر ما كان لهم من ديون ، وجميع ما كان لهم من متاع لم يستثن إلا ما كان عليهم من الثياب ، ثم طردهم جميعاً من فرنسا وكانوا يبلغون مائة ألف ، ولم يسمح لهم بأكثر مما يكفيهم من الطعام يوماً واحداً . وقد بلغ ربح الملك من عمله هذا قدرأ أغراه بأن يهدى معبداً يهودياً إلى سائق عربته (١٦٥) .

وهكذا تجمعت طائفة متقاربة من الحوادث الدموية دامت نحو مائتي عام تكونت منها صورة ذات وجه واحد . ولم يقع على اليهود في پروانز Provence ، وإيطاليا ، وصقلية ، والإمبراطورية البيزنطية بعد القرن التاسع إلا حوادث اضطهاد صغرى ، واستطاعوا وقاية أنفسهم منها بالالتجاء إلى أسبانيا المسيحية . وكانت فترات الطمأنينة حتى في إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا طويلة ، وكان اليهود يكثرون مرة أخرى ويثرى بعضهم بعد كل مأساة تنزل بهم . غير أن قصصهم كانت تنقل إليها ما كان لهذه الفترات المحزنة من ذكريات مؤرّة ، وكانت أيام السلام مليئة بخوفهم من خطر المذابح الذى لا ينفك يهددهم ، وكان على كل يهودى أن يحفظ عن ظهر قلب الدعاء الواجب عليه أن يتلوه في ساعة الاستشهاد (١٦٦) . وكانت حمى السهمى إلى جمع المال ترتفع حرارتها بقدر ما كان يحيق بكسبه من أخطار ، وكان لا يسو الشارة الصفراء يقابلون في الطرقات بسخرية الساخرين على الدوام ، كما كان يحيق بهذه الأقلية المنعزلة العديمة الحول والطول تحقير يحز في نفوسها ويذل من كبرياء أفرادها ويقطع ما بينها وبين العناصر الأخرى من مودة ، ويترك في أعين يهود الشمال تلك النظرة المعروفة بأحزان اليهود Judenschmerz التى تذكرهم بعشرات المئات من الإهانات والاعتداءات ألا ما أكثر من صلبوا انتقاماً لحادث صلب وحيد !

الباب السابع عشر

عقل اليهودى وقلبه

٥٠٠ — ١٣٠٠

الفصل الأول

الأدب

لقد ظلت روح اليهودى يتنازعها عاملان هما اعتزامه أن يشق طريقه فى عالم معاد له وشغفه بثمار العقل . فالتاجر اليهودى عالم فقدته العلم ؛ يحسد الرجل الذى نجا من حمى الثراء ، والذى شغف فى هدوء واطمئنان بحب العلم وضرب بسهم فى آفاق الحكمة ، ولكنه لا يحسده فحسب بل يكرمه كذلك . وشاهد ذلك أن التجار ورجال المصارف الذاهبين إلى أسواق ترويس Troyes ، كانوا يقفون فى طريقهم ليستمعوا إلى راى العظيم وهو يشرح التلمود^(١) . وبفضل هذه الروح ظل يهود العصور الوسطى وهم فى غمار المشاغل التجارية ، والفقر المذل ، والازدراء القاتل ، ظلوا ينتجون النحويين ، وفقهاء الدين ، والمتصوفة ، والشعراء ، والعلماء ، والفلاسفة ، ولم يضارهم فى آدابهم الواسعة وثرأهم العقلى إلا المسلمون فيما بين ١١٥٠ و ١٢٠٠^(٢) . وكان مما يسرهم أسباب هذا النبوع أنهم يعيشون بين المسلمين أو على اتصال بهم ، وأن كثيرين منهم كانوا يعرفون اللغة العربية ، فكان عالم الثقافة الإسلامية الثرى بأجمعه فى العصور الوسطى مفتوحاً أمامهم يغترفون من بحره الطامى فى العلوم والطب ، والفلسفة ، وبفضل وساطتهم أثاروا

عقل العالم الغربي المسيحي بما بثوا فيه من تفكير المسلمين .

وكان اليهود في بلاد الإسلام يستخدمون اللغة العربية في حديثهم ونثرهم المكتوب ، أما شعراؤهم فقد استمسكوا في شعرهم باللغة العبرية ولكنهم استخدموا فيه الأوزان العربية والصور الشعرية ؛ وفي البلاد المسيحية كان اليهود يتحدثون بلغة الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها ، ويكتبون في آدابهم ، ويعبدون يهوه بلسانهم القديم . وأخذ يهود أسبانيا بعد ابن ميمون يكتبون أدبهم باللغة العبرية بدل العربية بعد فرارهم من اضطهاد الموحدين . وقد استطاع اليهود بفضل جهود فقهاء لغتهم وإخلاصهم أن يحيا اللغة العبرية من جديد ؛ وكان قد تعلم عليهم فهم نصوص العهد القديم لعدم وجود الحركات المستقلة وعلامات الترقيم في اللغة العبرية ، ولكن علماءهم استطاعوا بعد دراسة دامت ثلاثة قرون أن يضعوا النص المسورقي Masoretic (الذي قلسته التقاليد) وذلك بإضافة علامات للحركات ، وإشارات للنبر ، وعلامات للترقيم ، وفواصل للشعر ، وشروح في الهوامش ؛ وبفضل هذا العمل أصبح في مقدور كل يهودى بعد ذلك الوقت أن يقرأ كتبه الدينية :

واضطرتهم هذه الدراسات إلى وضع النحو العبرى والمعجمات العبرية . وولفت شعر مناشة بن سروق (٩١٠ - ٩٧٠) وعلمه نظر حسداى بن شبروط ، فاستدعاه الوزير العظيم إلى قزطبة وشجعه على وضع قاموس لألفاظ الكتاب المقدس العبرية . ووضع يهوذا بن داود جيوج (حوالى عام ١٠٠٠ م) النحو العبرى على أساس علمى ، فى ثلاثة كتب باللغة العربية فى لغة الكتاب المقدس . ويزه فى هذا العمل تلميذه يونا بن جناح (٩٩٥ - ١٠٥٠) السرقسطى حين وضع بالعربية كتابه فى النقل الذى تقدم به النحو العبرى والمعجمات العبرية خطوات واسعة . ووضع يهوذا بن فريش علم فقه اللغات السامية المقارن بدراسته للغات العبرية ، والآرامية ، والعربية ؛ وتقدم أبراهام الفاسى (حوالى عام ٩٨٠) اليهودى

القرآني خطوة أخرى على هذا العمل بوضعه معجماً أرجع فيه جميع ألفاظ كتاب العهد القديم إلى أصولها ورتبها على الحروف الأبجدية . وبز تائان بن يميل من علماء رومة (المتوفى عام ١١٦٠) سائر علماء المعاجم اليهود بوضعه معجماً للتلمود . وفي نربونة ظل يوسف قمحي وولده موسى وداود (١١٦٠ - ١٢٣٥) يعملون عدة أجيال في هذه الميادين ؛ وظل محلول أو صومر Michiol داود قرونأ عدة المرجع المعترف به في النحو العبري ، وطالما أعان مترجمي الملك جيمس للكتاب المقدس (٣) . تلك كلها أسماء اخترناها من بين ألف اسم من أدباء اليهود .

وأفاد الشعر اليهودي من هذه الدراسات الواسعة فتحرر من الصيغ العربية ، وأنشأ أشكاله وموضوعاته الخاصة به ، وأنتج في أسبانيا وحدها ثلاثة رجال يضارعون أي ثلاثة غيرهم من الأدباء المسلمين أو المسيحيين في عصرهم . وأول هؤلاء الثلاثة هو سليمان بن جبيرول المعروف في العالم المسيحي باسم الفيلسوف أفسبرون Avicbron . وقد هيأته مأساته الشخصية لأن يكون هو المعبر عن مشاعر إسرائيل . وكان مولد هذا « الشاعر بين الفلاسفة والفيلسوف بين الشعراء » على حد قول هيني في مائة حوالى عام ١٠٢١ . وتوفى أبواه وهو صغير السن فنشأ في جو من الفقر نزع به إلى التفكير المكتئب . وأعجب بشعره يقويتايل ابن حسان وهو رجل كان يشغل منصباً رفيعاً في دولة - مدينة سرقسطة الإسلامية . وفي هذه المدينة وجد ابن جبيرول الحماة والهناءة إلى حين ، وأخذ يتغنى بمباهج الحياة . ولكن بعض أعداء الأمير قتلوا يقويتايل فاضطر ابن جبيرول إلى الفرار من المدينة وظل عدة سنين يهيم على وجهه في بلاد الأندلس الإسلامية ، فقيراً عليلاً ، هزلياً إلى حد « يسهل معه على ذبابة أن تحملني » . وأولاه صمويل بن نجدلا ، وهو شاعر مثله ، حمايته وأواه في غرناطة وفيها كتب سليمان كتبه الفلسفية وخص الحكمة بشعره :

وكيف أتخلى عن الفلسفة ؟

لقد عقدت معها عهداً .

فهى أمى وأنا أعز أبنائها ؛

لقد طوقت عنقى بجواهرها :

وستظل روحي تصبوا إلى

مراقبها السماوية ، ما دمت حيا

ولن يقر لى قرار حتى أكشف منبعها^(٥) :

وربما كان كبرياؤه قد أدى إلى الشقاق بينه وبين صمويل ؛ فعاد ،

وهو لا يزال شاباً فى أخريات العقد الثالث من عمره ، إلى الفقر والتجوال ،

حتى أذلت النكبات نفسه ، فهجر الفلسفة إلى الدين :

رباه ، ما الإنسان ؟ إنه جيفة دنسة تطوؤها الأقدام .

إنه مخلوق كربه ، يفيض مكرراً وخداعاً ،

إنه زهرة ذواية ، تدبل إذا مسها الحر^(٦) .

وينجو شعره فى بعض الأحيان منحنى عظمة المزامير المكتتبة الحزينة :

أنشر علينا السلام يا الله ،

وأسبغ علينا نعمتك السرمدية ؛

ولا تجعلنا ممن يحل عليهم غضبك ،

يا من نسكن إليه .

وسواء كنا نطوف بالأرض جيئة وذهاباً .

أو نقيم مكبلين بالأغلال فى المنفى الموحش .

فسنظل نجهر أينما ذهبنا قائلين .

هاهنا مجدك يا رباه^(٧) .

وخير كتبه كلها هو كيتير ملحوت (التاج الملقى) الذى ينادى فيه

بعظمة الله كما كانت قصائده الأول تنادى بعظمته هو :

أفر منك إليك لأجد
مكاناً ألبأ إليه : وفي ذلك
أختبي من غضبك
إلى أن تهدأ سورتك ،
وأنتعلق بأسباب رحمتك
حتى تستمع إلى وترئي لي ،
ولن أفك قبضتي
حتى تهبط على نعمتك^(٨) .

وقد اجتمع في أسرة ابن عزرا بفرنطة ما كان للثقافة اليهودية في أسبانيا الإسلامية من ثراء متعدد المناحي : وكان يعقوب ابن عزرا يشغل منصباً رفيعاً تحت رياسة شمویل بن نجدلا في بلاط الملك : وكان بيته ندوة للآداب والفلسفة ونيغ ثلاثة من أولاده الأربعة الذين نشأوا في هذا الجو العلمي ؛ فكان إسحق شاعراً ، وعالماً طبيعياً ، ومتبحراً في التلمود ؛ وكان موسى ابن عزرا (١٠٧٠ - ١١٣٩) عالماً وفيلسوفاً ، وكان أعظم شعراء اليهود قبل هلوى . وقد انتهت سعادة شبابه حين أحب بنت أخ له حسناء زوّجها أبوها إسحق أخوه الأكبر بأخيه الأصغر أبراهام . فإكان من موسى إلا أن هاجر من غرناطة ، وهام على وجهه في بلاد نائية يغذى بالشعر عواطفه المكبوتة البائسة : « ألاميشي ، وإن كانت شفتاك يسيل منهما الشهد يمتصه غبري ، وتنفسى بالند يستنشقه سوى . وسأظل وفياً لك حتى تستعيد الأرض الباردة وديعتها ، وإن لم تكوني أنت وفية لي . إن قلبي ليطرب لغناء العندليب ، وإن كان المغنى يعلو على وبنأى عنى »^(٩) . ووجه قيثارته آخر الأمر ، كما وجهها ابن جبيرول ، إلى الأغاني الدينية ، وأخذ ينشد مزامير من الاستسلام الصوفي .

وكان أبراهام بن مابر بن عزرا - الذي يعده بروننج Browning

المعبر عن فلسفة العصر الفكتورى - يمت بصلة القرابة البعيدة لموسى بن عزرا ، ولكنه كان من أصدقائه المقربين . وقد ولد في طليطلة عام ١٠٩٣ ، وعرف في شبابه الفقر والجوع ، ولكنه كان شديد التعطش إلى العلم في كل ميادينه . وأخذ هو أيضاً ينتقل من مدينة إلى مدينة ، ومن مهنة إلى مهنة ، ولازمه سوء الحظ في كل مهنة وكل مدينة ، وقال في هذا بسخرية اليهودى المريرة : « لو تجرت في الشمع لما غربت الشمس ، ولو بعت أكفان الموتى لعاش الناس إلى أبد الدهر » . وسافر إلى إيران بجتازاً مصر والعراق ، ولعله قد ذهب أيضاً إلى الهند ، ثم عاد إلى إيطاليا ، ومنها إلى فرنسا ، وانجلترا . وبينما كان عائداً إلى أسبانيا في الخامسة والسبعين من عمره إذ وافته منيته ، وكان لا يزال فقيراً ولكنه ذو شهرة واسعة بين اليهود أجمعين لبلاغة شعره ونثره . وكانت مؤلفاته لا تقل تنوعاً عن البلاد التي طاف بها - ألف في العلوم الرياضية ، والفلكية ، وفي الفلسفة ، والدين ، وكانت قصائده تختلف من الحب إلى الصداقة ، ومن مناجاة الله إلى مناجاة الطبيعة ، والفصول ، ومن الحديث عن الشطرنج إلى التغنى بجمال النجوم . وقد صاغ في صور شعرية أفكاراً لم يكن يخلو منها مكان ما في عصر الإيمان ، واستبق نيومن Newman جهده التريمة العبرية :

يا إله الأرض والسماء ، منك الروح والجسد ا

لقد وهبت الإنسان بعظيم حكمتك ما في الإنسان من ضياء قدسى . . .

إن أياى بين يديك ، وأنت تعرف الخير لى

وتهنى بقوتك خير عون لى حيث أخشى الوقوف

وسترك يحجب عن العيون آثامى ورحمتك درعى الواقى

ولست تريد جزاء على نعمك وأفضالك^(١٠)

وخير ما يشهر به عند معاصريه هو تعليقه على كل كتاب من كتب العهد

القديم . وقد دافع عن صدق الكتب العبرية المقدسة ، وأنها موحى بها من عند الله ، ولكنه فسر العبارات الممجدة للخالق تفسيراً مجازياً . وكان أول من قال أن سيفر إشعيا لم يكتبه نبي واحد بل كتبه اثنان من الأنبياء ؛ ويعدّه اسپنوزا واضع أساس النقد العقلي للكتاب المقدس (١١) .

وكان أعظم شعراء عصره على بكرة أبيهم يهودا هليثي (١٠٨٦ - ١١٤٧) . وقد ولد في طليطلة بعد عام من استيلاء الفنزوس السادس ملك قشتالة عليها . فنشأ فيها آمناً في كنف أعظم الملوك المسيحيين استنارة وتسامحاً في أيامه . وأعجب ابن عزرا بإلحدي قصائده الأولى فدعاه إلى الإقامة معه في غرناطة ، حيث استضافه موسى ولاسحق ابني عزرا في منزلها . وأخذ شعره ينتشر ونكاته تذيع في جميع الأوساط اليهودية في أسبانيا . وكان ينعكس على شعره مزاجه المرح ، وشبابه الموفق السعيد ؛ وأخذ يتغنى بالحب ، بكل ما عرف من الشعراء الجوالين المسلمين أو البروفنساليين ، وبكل ما في نشيد الأنشاد من قوة ورنين : وقد حوت « حديقة بهجته » مقطوعة من الشعر الملتب حماسية تعد أمرح الفقرات في هذه الطرفة الغزلية الرائعة :

ادن منها أيها الحبيب ، ليمّ تتواني عن أن تطعم بين حدائقها ؟
أئن إلى مخدع الحب لتقطف سوسنها .

إن تفاحتي صدرها المحجوبتين ليفوح شذا عطرهما ،
وهي تحبي * لك في قلائدها ثماراً شبيهة تتلألأ كالنور
ولولا قناعها ، لاستحت منها نجوم السماء (١٢)

وترك هليثي ضيافة ابني عزرا وسخاءهما وذهب إلى أليسانة وواصل الدرس عدة سنين في الجمع العلمي اليهودي بهذه المدينة ؛ فدرس الطب ، وأصبح من الأطباء غير الناهين ؛ ثم أسس معهداً للغة العبرية في طليطلة وأخذ يحاضر فيه عن الكتاب المقدس . ثم تزوج وأنجب أربعة أبناء . فلما تقدمت به السن طغى

شعوره بما حل باليهود من نوائب على ما كان يرفل فيه من نعيم ، فأخذ يتغنى بشعبه ، وبأقرانه ، ودينه ؛ وكان يتوق كما يتوق غيره من اليهود لأن يختم حياته في فلسطين :

أى مدينة الدنيا (أورشليم) يا ذات الجمال والجلال والكبرياء !
ليت لى جناحى نسر أطير بهما إليك حتى أبلل بدمعى ثراك !
إن قلبى فى الشرق ، وإن كنت مقيماً فى الغرب (١٣) .

ولم يكن يهود أسبانيا المنعمون فيها يرون فى هذه الأشعار أكثر من ألفاظ مقفاة موزونة ، ولكن هلىنى كان مخلصاً فى أقواله . فقد استودع أسرته فى أيد أمينه عام ١١٤١ ، وبدأ رحلة شاقة إلى أورشليم . وأتت الرياح بمالا تشهى سفينته فحولتها عن طريقها ودفعها إلى الإسكندرية حيث استقبلته الجالية اليهودية ، ورجته ألا يجازف بالذهاب إلى أورشليم وكانت وقتئذ فى أيدى الصليبيين . وبعد أن أقام فى الإسكندرية وقتاً ما غادرها إلى دمياط ومنها إلى صور ، ثم انتقل منها لسبب لا نعلمه إلى دمشق حيث اختفى ذكره من التاريخ . وتقول إحدى الأفاضل أنه ذهب إلى أورشليم ، فلما وقعت عينه عليها أول ما وقعت خراً راکعاً ، وقبّل الأرض ، فدأسته حوافز جواد يركبه أعرابى وقضت على حياته (١٤) . ولكننا لا نعرف هل وصل حقاً إلى مدينة أحلامه ؛ وكل الذى نعلمه علم اليقين أنه كتب فى دمشق « أغنية لصهيون » ولعله كتبها فى آخر سنة من حياته ، وكان جوت الشاعر الألمانى بعدها من أعظم القصائد فى أدب العالم كله (١٥) :

ألا ترغبين يا صهيون فى أن تبعنى بتحياتك من صخورك المقدسة
إلى شعبك الأسير الذى يحبك لأنه البقية الباقية من أبناك ؟ ...

ألا ما أجش صوتى وأنا أندب أحزانك ولكنى حين أبصر حريتك فى

أوهام أحلامى تنساب من صوتى النغبات حلوة شجية كمنغيات القيثارة المعلقة
على شاطىء نهر بابل . . . ألا ليتنى أستطيع أن أصب روحى حيث صبت
روح الله فى أبنائك القديسين فى الأزمان السابقة ! لقد كنت منزل الملوك
وعرش الله ، ولست أدرى كيف يحتل العبيد الآن العرش الذى جلس عليه
أبناؤك من قبل ؟

* * *

منذا الذى يرشدنى للبحث عن الأماكن التى أطل منها الملائكة بجلاهم
على رسلك وأنبيائك فى الأزمان القاصية ؟

وهذا الذى يهب لى جناحين أطير بهما لأضع حطام قلبى بين خرائبك
وأستريح من تجوالى ؟

سأولتى وجهى نحو أرضك وأمسك بحجارتك أعتز بها كما يعتز الناس
بالذهب الثمين . . .

إن هواءك يبعث الحياة فى نفسى ، وذرات ترابك هى المسك الشذى ،
وأنهارك تفيض بالعسل المصنئ

وما أعظم بهجتى إذا استطعت أن أجيء إلى معابدك المخربة عارياً حافى
القدمين ! حيث احتفظ بالتابوت ، وحيث سكن الملائكة المكرمون فى
الحجائب المظلمة . . .

يا صهيون يا ذات الجمال الذى ليس بعده جمال ، لقد اجتمع فيك الحب
والبهاء ، إن أرواح أبنائك تتجه فى حنان نحوك ، وكانت أفراحك بهجتها
ومسراتها ، وها هى ذى الآن تبكى فى منفاها البعيد أسى وحسرة على خرائبك ،
وتتوق لرؤية مرتفعاتك المقدسة ، وتسجد فى صلواتها خاشعة نحو أبوابك ، إن

الرب ليحب أن يشارك لتكونى مسكنه الأبدى ، وطوبى لمن اختاره الرب
وأنعم عليه بالراحة فى داخل أبهائك ؛
وما أسعد من يرقبك وهو يقترب منك حتى يرى أضواءك المحيطة
تنتشر ، ومن يطلع عليه فجرك الوضاء كاملاً صافياً من سماء المشرق ؛
وأسعد من هذا وذاك من يشهد بعينه المهلتين نعيم أبنائك المحررين ،
ويرى شبابك يتجدد كعهدنا به فى قديم الزمان (١٦) .

الفصل الثاني

مغامرات التلمود

لقد بلغ رخاء يهود العصر الذهبي في أسبانيا مبلغاً يمنعهم أن يكونوا شديدي التمسك بالدين كما كان شعراؤهم في سنى الاضمحلال ؛ فقد كانوا يقرضون شعراً مطرباً ، حسيماً ، رقيقاً ؛ وينطقون بفلسفة توفى في ثقة بين الكتاب المقدس والتفكير اليوناني . ولقد ظل اليهود يزدادون رخاء حتى بعد أن طردهم الموحدون المتشددون في دينهم من بلاد الأندلس الإسلامية إلى أسبانيا المسيحية ؛ وازدهرت الجامعات العلمية اليهودية في ظل التسامح المسيحي في طليطلة وبرشلونة خلال القرن الثالث عشر . لكن اليهود لم يكن حظهم في فرنسا وألمانيا كما كان حظ يهود أسبانيا ؛ فقد كانوا يزدحون في أحيائهم الضيقة وهم وجلون ، ويبدلون خير مواهبهم في دراسة التلمود ؛ ولم يكونوا يهتمون بتبرير عقائدهم للعالم غير المتدين ؛ ولم يشكوا قط في أصوله ، بل انهمكوا في دراسة الشريعة .

وأضحى المجمع العلمي الذي أنشأه جرشوم في مينز من أوسع المدارس نفوذاً في ذلك العصر ، اجتمع فيه مئات من طلاب العلم واشتركوا مع جرشوم في نشر نصوص التلمود وتوضيحها بعد أن ظلوا يكدهون في هذا العمل جيلين من الزمان . وقام بمثل هذا العمل في فرنسا الحاخام شلومو بن يصحق (١٠٤٠ - ١١٠٥) ، ويسميه بنو ملته راشي تدليلاً له وقد أخذوا هذا الاسم من الحروف الأولى من لقبه واسمه . وقد ولد راشي في تروى من أعمال شيبانيا ، وتعلم في المدارس اليهودية في ورمز ، ومينز ، واسبير ، ثم عاد إلى تروى وأخذ يعول أسرته ببيع الخمر ، ولكنه خص الكتاب المقدس والتلمود بكل ساعة من ساعات فراغه . وقد أنشأ مجعاً علمياً في تروى مع أنه لم يكن حاخاماً رسمياً ، وظل يعلم فيه أربعين

سنة ، ووضع بالتدريج شروحا للعهد القديم والمشنا ، والجمارا ولم يحاول ، كما حاول بعض العلماء الأسبان ، أن يجد في النصوص الدينية آراء فلسفية ، بل كل ما فعله أن فسر هذه النصوص تفسيراً اغترفه من بحر عامه الصافي الخضم ، بلغ من تقدير بني دينه أن طبع هذا التفسير مع التلمود نفسه . وقد أكسبته طهارة حياته مضافة إلى تواضعه احترام شعبه فرفعه إلى مقام القديسين ، وأخذت الجماعات اليهودية في جميع أنحاء أوروبا يرسلون إليه يستفتونه في المسائل الدينية والشرعية ، وجعلوا لأجوبته الصفة القانونية . وأحزنته في شيخوخته مذابح الحملة الصليبية الأولى . وواصل عمله بعد وفاته أحفاده شمويل ، ويعقوب ، وإسحق أبناء ماير ، وكان يعقوب أول « التوسافيت » ، وظل علماء التلمود الفرنسيون والألمان خمسة أجيال من بعد وفاته يراجعون ويعدلون شروحه بما يضيفون إليها من توسافوت أو « إضافات » .

وما كاد التلمود يتم حتى أصدر جستنيان قراراً بتحريمه (٥٥٣) لأنه «خليط من الصغائر ، والخرافات ، والمظالم ، والإهانات ، والسباب ، والكفر ، والتجديف» (١٧) . ويلوح أن الكنيسة قد نسيت بعدئذ وجود التلمود ؛ ذلك أنه قلما كان يوجد من رجال الكنيسة اللاتينية من يستطيع قراءة اللغة العبرية أو الآرامية اللتين كتب بهما ، وظل اليهود سبعة عشر عاماً كاملة يقرءون ويدرسون مجلداته العزيزة عليهم بكامل حريتهم - يقرءونه بجد يخيل إلينا معه أنهم قد نسوا معه الكتاب المقدس . لكن حدث في عام ١٢٣٩ أن رفع نقولاس دونين Nicholas Donin ، وهو يهودى اعتنق المسيحية ، إلى البابا جريجورى التاسع معروضاً يتهم فيه التلمود بأنه يحتوى على إهانات فاضحة للمسيح والعدراء ، وتحريض على الغش والخداع في معاملة المسيحيين . وما من شك في أن بعض هذه التهم صحيح ، لأن جامعى الكتاب في جدهم المتواصل فد عظموا التنايم والأمور أتم تعظيماً جعلهم يضمنون إلى الأجزاء الشعبية من الجمارا وفي أجزاء

متفرقة منها ملاحظات يرد بها الأحبار الغضاب على نقد المسيحيين للدين اليهودي^(١٨) . ولكن دونين ، وقد صار أكثر مسيحية من البابا نفسه ، أضاف من عنده عدة تهم أخرى ، لا يمكن إثباتها : منها أن التلمود يجيز غش المسيحي ، ويجهد قتله ، مهما بلغ من صلاحه ؛ وأن أحبار اليهود يجيزون لهم أن ينكثوا عهودهم التي أقسموا على الوفاء بها ، وأن يقتلوا كل مسيحي يدرس الشريعة اليهودية . فما كان من جريجوري إلا أن أمر بأن يرسل إلى الراهبان الدومنيك أو الفرانسيس كل ما يمكن العثور عليه من نسخ التلمود في فرنسا ، وإنجلترا ، وأسبانيا ، ثم أمر أولئك الراهبان بأن يفحصوا تلك الكتب بدقة وعناية ، فإذا تبينوا أن هذه التهم صحيحة فليحرقوها . ولم نعر فيما وصل إلينا من المعلومات المسجلة على ما حدث بعد هذا الأمر ، ولكننا نعرف أن لويس التاسع أمر يهود فرنسا بأن يسلموا كل ما لديهم من نسخ التلمود وإلا كان جزاؤهم الإعدام ، ثم استدعى أربعة من أحبارهم إلى باريس ليدافعوا عن الكتاب في نقاش علني أمام الملك ، والملكة بلانش Blanche ، ودونين ، واثنين من الفلاسفة المدرسين - وليم الأوفرنى William of Auvergne ، وألبرتس مجنوس Albertus Magnus^(١٩) . ودام البحث ثلاثة أيام أمر بعدها الملك أن تحرق جميع نسخ التلمود (١٢٤٠) ، وشفع ولتر كرونوتس Walter Cornutus كبير أساقفة سان Sens لليهود فأمر الملك بإعادة كثير من نسخ التلمود إلى أصحابها ؛ فلما مات كبير الأساقفة بعد ذلك بقليل اعتقد بعض الراهبان أن موته هو حكم الله على لين الملك . واقتنع الملك برأيهم هذا فأمر بمصادرة جميع نسخ التلمود ، فجاء بها إلى باريس محملة على أربع وعشرين عربة وألقيت في النار (١٢٤٢) . ثم صدر أمر بابوي في عام ١٢٤٨ يحرم تملك التلمود في فرنسا ، وضعفت بعد ذلك دراسة التلمود والآداب العبرية في جميع أنحاء فرنسا عدا پرفاتس .

وحدث مثل هذا النقاش في برشاونة عام ١٢٦٣ ؛ ذلك أن ريمند الپنیافورتي

Rayond of Penafort وهو راهب دومنيكي يشرف على محكمة التفتيش في أرغونة وقشتالة أخذ على عاتقه أن ينصر يهود هاتين المقاطعتين . وأراد أن يعد واعظيه لهذا الغرض فنظم دراسات في اللغة العبرية في معاهد اللاهوت بأسبانيا المسيحية ، وساعده في هذا يهودى متنصر يدعى پول المسيحي Paul the Christian ؛ وأمدا فيما بينهما ريمند بكثير من المعلومات عن الدينين المسيحي واليهودى فنظم الراهب نقاشاً بين پول والحاخام موسى بن نحمان الجيرونى أمام جيمس الأول ملك أرغونة . وجاء ابن نحمان إلى النقاش على كره منه ، لأنه كان يخشى النصر بقدر ما كان يخشى الهزيمة . ودام الجدل أربعة أيام كان الملك فى أثناءها متهجماً ، ويبدو أن الطرفين قد حافظا على آداب المناظرة . وفى عام ١٢٦٤ أمرت لجنة دينية بجمع كل ما فى أرغونة من نسخ التلمود ، ومحت كل ما فيها من فقرات تطعن فى الدين المسيحي ثم ردت الكتب إلى أصحابها (٢٠) ؛ وتحدث ابن نحمان عن الدين المسيحي فى تقريره الذى كتبه للمعابد اليهودية فى أرغونة يصف فيه المناظرة بعبارة خيل إلى ريمند أن فيها طعناً شديداً على هذا الدين (٢١) ؛ فاحتج الراهب لدى الملك على هذا العمل ، ولكن جيمس لم يحرك ساكناً إلا عام ١٢٦٦ حين خضع لإلحاح البابا فننى ابن نحمان من أسبانيا . وتوفى ذلك الحبر فى فلسطين بعد عام من نفيه .

الفصل الثالث

العلوم عند اليهود

تكاد العلوم الطبيعية والفلسفة عند اليهود أن تنحصر كلها في بلاد الإسلام ؛ ذلك أن المقيمين في البلاد المسيحية في العصور الوسطى كانوا بمعزل عن جيرانهم معرضين للاحتقار وإن كانوا متأثرين بأولئك الجيران ، ولهذا لجأوا إلى التصوف والخرافات وأخذوا يمتنون أنفسهم بمجىء مسيح ينقذهم مما هم فيه . وتلك كلها ظروف هي أسوأ ظروف يمكن أن ينشأ فيها العلم . غير أن الدين اليهودى كان يشجع على دراسة الفلك ، لأن تحديد أيام الأعياد تحديداً دقيقاً إنما يعتمد على هذه الدراسة . وبفضل هذه الدراسة استبدل علماء الهيئة اليهود في بابل في القرن السادس التقديرات الملكية بالأرصاء المباشرة للقبة السماوية . وقد حسبوا السنة على أساس الحركة الظاهرية للشمس ، والشهور على أوجه القمر ؛ وسموا الشهور بأسماء بابلية ، وجعلوا بعض الشهور « كاملة » عدة كل منها ثلاثون يوماً ، وبعضها « ناقصة » عدة كل منها تسعة وعشرون ، ثم وفقوا بين التقويمين القمري والشمسي بإضافة شهر ثالث عشر إلى كل سنة ثلاثة ، وسادسة ، وثامنة ، وحادية عشرة ، ورابعة عشرة ، وسابعة عشرة ، وتسعة عشرة في كل دورة مؤلفة من تسعة عشر عاماً . وكان يهود في الشرق يؤرخون الحوادث على أساس التقويم السلوقي الذي يبدأ في عام ٣١٢ ق . م . أما في أوربا فقد اتخذوا في القرن التاسع « التاريخ اليهودى » الحالى المعروف باسم « سنة العالم Anno mundi » والذي يبدأ بتاريخ خلق الدنيا كما يظنون في عام ٣٧٦١ ق . م . وبهذا كله أصبح التقويم اليهودى لا يقل سخفاً وقدسية عن تقويمنا نحن (*) .

(*) يريد التقويم المسيحى . (المترجم)

وكان من أوائل علماء الهيئة اليهود في بلاد الإسلام العالم ما شاء الله (المتوفى حوالي عام ٨١٥) . وقد ترجم جيرار القريمونى Gerard of Cremona كتابه في الفلك من العربية إلى اللاتينية واستقبل أحسن استقبال العالم المسيحي : ورسائله في الأثمان هي أقدم مؤلف علمي موجود الآن باللغة العربية : وكانت أعظم رسالة في العلوم الرياضية في ذلك العصر (٢٢) هي رسالة أبراهام بن حيا البرشلونى (١٠٦٥ - ١١٣٦) في الجبر ، والهندسة ، وحساب المثلثات وهي المعروفة باسم هيورها مشيحه . وقد ألف أيضاً موسوعة مفقودة في علوم الرياضة ، والهيئة ، والبصريات ، والموسيقى ، كما ألف في التقييم أقدم رسالة باللغة العربية باقية إلى الآن . ولم يجد أبراهام ابن عزرا ، في الجليل التالى ، تعارضاً بين كتابة الشعر ، والتبحر في التحليل التركيبى . وكان أبراهام هذا وذاك أول من كتب من اليهود رسائل علمية باللغة العربية لا العربية . وبفضل هذه الكتب ، وفيض من الكتب الأخرى التى ترجمت من العربية إلى العربية غزت العلوم والفلسفة الإسلامية المجتمعات اليهودية في أوروبا ووسعت نطاق حياتها الذهنية إلى ما وراء المعارف الدينية الخالصة .

وأفاد يهود ذلك العهد إلى حد ما من علوم المسلمين الطبيعية ، وإن كانوا قد عادوا أيضاً إلى تقاليدهم القديمة الخاصة بفن العلاج ، فكتبوا عدة رسائل قيمة في الطب ، وأصبحوا هم أعظم الأطباء إجلالا في أوروبا المسيحية . ولقد ذاعت شهرة إسحق إسرائيلى (٨٥٥ - ٩٥٥ ؟) في طب العيون بمصر ذيوماً عين بسببه الطبيب الخالص للأغلبية في القيروان . وكانت مؤلفاته الطبية ، بعد أن ترجمت من العربية إلى العربية واللاتينية ، تعد أهم المراجع الطبية في أوروبا بأجمعها ، وكانت تستعمل كتباً للدراسة في سالرنو . وباريس ، ونقل عنها بيرتن Burton ، بعد حياة دامت سبعمئة عام ، فيما كتبه عن نسريح السوداء (١٦٢١) . وتصف الروايات المتواترة إسحق بأنه لم يكن يأبه بالمال ، وبأنه هازب عنيد في

عزوبته ، وبأنه عاش مائة عام كاملة . وأكبر الظن أنه كان من معاصريه .
آساف ها يهودى ، وهو المؤلف الخامل الذكر لمخطوط كشف منذ وقت
قريب ، ويعد أقدم مؤلف طبي باللغة العبرية باق إلى الآن من الزمن القديم ؛
ويشتهر هذا الكتاب بما جاء فيه من أن الدم يجرى من الشرايين إلى الأوردة ؛
ولو أنه طافت بعقله وظيفة القلب لاستبق بذلك هارفى Harvey (٢٣) إلى
كشف الدورة الدموية بأكملها :

وسيطر على فن الطب فى مصر بعد قدوم ابن ميمون إليها (١١٦٥) .
الأطباء اليهود والمؤلفات اليهودية : فكتب أبو الفداء عن علماء القاهرة أهم
رسالة فى الرمذ فى القرن الثانى عشر ، وألف الكوهين العطار (١٢٧٥ ؟)
كتاباً فى الأقرباذين لا يزال يستعمل حتى الآن فى العالم الإسلامى ؛ وكان
الأطباء اليهود فى جنوبى إيطاليا وفى صقلية لإحدى المسالك التى انتقل بها الطب
العربى إلى سالرنو . ذلك أن شباتاى بن أبراهام (٩١٣ - ٩٧٠) المعروف
باسم ونولو والمولود فى أترانتو وقع أسيراً فى يد المسلمين ، فدرس الطب
العربى فى بالرم ، ثم عاد ليمارس مهنته فى إيطاليا . ودرس بنشوتس
جراسس ، أحد يهود أورشليم ، فى سالرنو ، وأخذ يعلم فيها وفى منبلييه
وكتب رسالة فى طب العيون (١٢٥٠ ؟) كان العالم الإسلامى والعالم
المسيحى على السواء يريانها أهم رسالة فى أمراض العين . وقد اختيرت هذه
الرسالة بعد ٢٢٤ عاما من نشرها أول كتاب يطبع فى موضوعها .

وكانت مدارس الأحبار اليهود وبخاصة فى جنوبى فرنسا تدرس منهاجا فى
الطب ، وكان من بين الأغراض التى تبتغىها من هذه الدراسة أن تمكن رجال
الدين من كسب المال من غير طريق الدين . وقد ساعد الأطباء اليهود الذين
تدربوا فى منبلييه على إقامة مدرسة منبلييه الطبية الشهيرة ؛ ولما عين يهودى مديرا
لتلك الكلية فى عام ١٣٠٠ جر ذلك على الشعب اليهودى حقد الأطباء فى جامعة

باريس ، واضطرت جامعة منبلييه أن تغلق أبوابها في وجه اليهود (١٣٠١)
ونفى الأطباء العبرانيون فيمن نفي من اليهود من فرنسا في عام ١٣٠٦ .
غير أن الطب المسيحي كان في ذلك الوقت قد حدث به انقلاب عظيم
بتأثير الأطباء اليهود والمسلمين وما ضربوه لغيرهم من مثل طيبة . ذلك أن
الأطباء الساميين كانوا قد نبذوا من زمن بعيد النظرية التي تقول إن المرض
ينشأ من حلول الشياطين بالجسم ، وكان نجاح تشخيصهم للمرض تشخيصا
قائما على العقل وعلاجهم إياه قد أضعف لإيمان الناس بقوة مخلقات الأولياء
والصالحين وغيرها من وسائل العلاج المبنية على خوارق الطبيعة .

وكان من أصعب الأشياء على الرهبان والقساوسة الذين تضم أديرتهم
وكنائسهم تلك المخلقات والتي تجتذب إليها الحجاج أن يرضوا بهذا الانقلاب ،
فحرمت الكنيسة استقبال الأطباء اليهود في داخل بيوت المسيحيين ، فقد
كانت ترتاب في أن طب هؤلاء الناس أقوى من عقيدتهم ، وكانت تخشى
تأثيرهم في العقول المريضة . وفي عام ١٢٤٦ حرم مجلس بزيير على المسيحيين
استخدام أطباء يهود ، وفي عام ١٢٦٧ حرم مجلس فيينا على الأطباء اليهود
أن يعالجوا مسيحيين ؛ غير أن هذه الأوامر وأمثالها لم تمنع بعض كبار
المسيحيين من الانتفاع بمهارة اليهود ؛ مثال ذلك أن البابا بنيفاس Boniface
الثامن حين مرض بعينه استدعى لعلاجه إسحق بن مردخاي (٢٤) ؛ وكان
ريمند لى Raymond Lullys يشكو من أن بكل دير طبيبا يهوديا ، وهال
مبعوث بابوي أن يجد أن هذه هي الحال أيضا في كثير من أديرة النساء ؛
وكذلك ظل ملوك أسبانيا المسيحيون يستمتعون بعناية الأطباء اليهود حتى أيام
فرديناند وإزبلا ؛ وكتب ششت بنقنيست Sheshet Benveniste البرشلوني
طبيب جيمس الأول ملك أرغونة (١٢٣١ - ١٢٧٦) أهم رسالة في أمراض
النساء في زمانه ؛ ولم يفقد اليهود زعامتهم الطبية في البلاد المسيحية إلا بعد أن
استخدمت الحمامات المسيحية في القرن الثالث عشر الأساليب الطبية القائمة
على العقل .

ولم يفد علم الجغرافية إلا قليلا من الشعب اليهودى ، وكان من حقه أن يفيد منه لسعة انتشاره وكثرة تنقله . بيد أن اثنين من اليهود كانا أعظم الرحالة فى القرن الثانى عشر . وهذان هما پتاجيا الراتسبونى Patschya of Ratisben وبنيمين التطيلى ، وقد كتبا قصصاً عبرية قيمة عن رحلاتهما فى أوربا والشرق الأدنى . فقد غادر بنيمين سرقسطة فى عام ١١٦٠ ، وطاف على مهل برشلونة ، ومرسيلية ، وجنوا ، وبيزا ، ورومة ، وسالرنو ، وبرنديزى ، وأترنتو ، وكورفو ، والقسطنطينية ، والجزائر الإيحية ، وأنطاكية ، وكل مدينة هامة فى فلسطين ، وبعليك ، ودمشق ، وبغداد ، وبلاد الفرس . ثم عاد بطريق البحر مجتازاً المحيط الهندى ، والبحر الأحمر إلى مصر . وصقلية ، وإيطاليا ومنها برآ إلى أسبانيا . ووصل إلى موطنه فى عام ١١٧٣ حيث مات بعد قليل . وكان أكثر ما يهتم به هو الجماعات اليهودية ولكنه وصف المظاهر الجغرافية لكل بلد مر به والخصائص الجنسية لسكانه وصفاً يمتاز بكثير من الدقة والموضوعية . وقصته أقل طرافة ومتعة من قصص ماركوپولو التى كتبها بعد مائة عام من ذلك الوقت ، ولكنها فى أغلب الظن أقرب منها إلى الحقيقة . وقد ترجمت هذه الرحلة إلى جميع اللغات الأوروبية تقريباً ، ولا تزال إلى يومنا هذا من الكتب المحببة إلى اليهود (٢٥).

الفصل الرابع

نشأة الفلسفة اليهودية

حياة العقل مزيج من قوتين أولاهما ضرورة الإيمان ليستطيع الإنسان الحياة . والأخرى ضرورة الاستدلال ليستطيع التقدم . وتكون إرادة الإيمان هي المسيطرة على العقل في عهود الفقر والقوضى لأن الشجاعة في تلك العصور هي كل ما يحتاجه الناس ؛ أما في عهود الثراء فإن القوى الذهنية تبرز إلى الأمام لتفرض على الناس الرقي والتقدم ؛ وعلى هذا فإن الحضارة في انتقالها من الفقر إلى الثراء تنزع إلى خلق النزاع بين العقل والإيمان ، « والصراع بين العلم والدين » . وفي هذا الصراع تعمل الفلسفة عادة على التوفيق بين الاضداد وإيجاد سلام وسط لأن وظيفتها هي أن ترى الحياة في كائنها ؛ ونتيجة ذلك أن يحتقرها العلم ويرتاب فيها الدين . وفي عصر الإيمان حين تجعل الصعاب الحياة شاقة لا تحتمل بغير أمل ، تميل الفلسفة إلى الدين ، وتستخدم العقل في الدفاع عن الإيمان ، وتصبح ديناً متنكراً . وإذا نظرنا إلى الأديان الثلاثة التي اقتسمت فيما بينها حضارة البيض في العصور الوسطى رأينا ذلك القول أقل انطباقاً على المسلمين أكثر الناس ثراء ، ورأينا أكثر انطباقاً على المسيحيين وهم أقل من المسلمين ثراء ، وأشد ما يكون انطباقاً على اليهود أقل أصحاب الأديان الثلاثة ثراء . وأكثر ما ابتعدت الفلسفة اليهودية عن الدين عند اليهود الأثرياء في بلاد الأندلس الإسلامية .

وللفلسفة الإسلامية في العصور الوسطى مصدران هما الدين العبراني ، والتفكير الإسلامي . وكانت كثرة المفكرين اليهود ترى أن الدين والفلسفة متشابهان في محتواهما ونتيجتهما ، وأن كل ما يختلفان فيه هو الوسيلة والصورة : فالذي يعلمه الدين بوصفه عقيدة موحى بها من عند الله تعالسه الفلسفة على أنه حقيقة يثبتها

العقل ؛ وقد قام معظم المفكرين اليهود من سعديا إلى ابن ميمون بهذه المحاولة في بيئة إسلامية ، وأخذوا معلوماتهم عن الفلسفة اليونانية من التراجم العربية ، ومن شروح المسلمين ؛ وكتبوا بالعربية لليهود والمسلمين على السواء . وكما أن الأشعري وجه سلاح العقل ضد المعتزلة ، وأنقذ بذلك العقيدة السنية في الإسلام ، كذلك فعل سعديا الذي غادر مصر إلى بابل في نفس العام (٩١٥) حين تحول الأشعري من الشك إلى اليقين ، وأنقذ الدين العبراني بطول جداه ومهارته فيه ، ولم يستخدم سعديا أساليب المتشككين المسلمين فحسب ، بل استخدم كذلك دقائق مناقشاتهم نفسها (٣٦) .

وكان لانتصار سعديا من الأثر في الدين اليهودي ببلاد المشرق ، ما كان لانتصار الغزالي في الإسلام ببلاد الشرق ، فقد عمل هذا الانتصار ، مضافاً إلى الاضطراب السياسي والاضمحلال الاقتصادي ، على خنق روح الفلسفة العبرانية في الشرق . وكملت القصة في أفريقية وإسبانيا ، ففي القيروان وجد إسحق لإسرائيل بين مشاغله في الطب والكتابة متسعاً من الوقت يؤلف فيه كتباً فلسفية ذات تأثير كبير . فقد وضع رسالة في التعاريف أفاد منها منطق المدرسين مصطلحات جمّة ، وعترّفت رسالته في العناصر التفكير العبراني بكتاب أرسطو في الطبيعة ، وأحل كتابه في النفس والروح نظرية مأخوذة من الأفلاطونية الحديثة عن الفيض الإلهي التقدي من الله إلى العالم المادي ، أحل هذه النظرية محل قصة الخلق كما وردت في سفر التكوين ؛ وكان هذا من مصادر القبلة اليهودية .

وكان أثر ابن جبيرول فيلسوفاً أكبر من أثره شاعراً . ولقد كان من الطرف التاريخية أن المدرسين كانوا ينقلون أقواله في هالة من الإجلال والتقدير ويسمونه أفسبرون ويحسبونه مسلماً أو مسيحياً . ولم يعرف الناس أن ابن جبيرول وأفسبرون رجل واحد إلا حين كشف ذلك سلومون منك Salomon Munk في عام ١٨٤٦ (٣٧) . وكاد ابن جبيرول نفسه أن يهبي . تقول الناس لهذا الخلط إذ حاول

أن يكتب الفلسفة بعبارات بعيدة كل البعد عن الدين اليهودى . فقد أخذ كل مقتبساته فى مجموعة أمثاله المسماه مختار اللآلى من مصادر غير يهودية إذا استثنينا عدداً قليلاً من هذه المقتبسات ، وإن كانت القصص الشعبية اليهودية تحتوى على ثروة كبيرة من الحكم القوية التى تعد من جوامع الكلم . ومن هذه اللآلى ' لؤلؤة كنفوشية إلى أبعد حد : « كيف يستطيع الإنسان أن يثأر من عدوه ؟ بزيادة صفاته الطيبة » (٢٨) . وتكاد هذه الحكمة أن تكون خلاصة رسالته فى إصلاح الصفات الخلقية التى ألفها ابن جبرول كما يلوح وهو فى سن الرابعة والعشرين حين تكون الفلاسفة موضوعاً غير لائق بالإنسان . وقد اشتق الشاعر الشاب بأساليب فى الاشتقاق اصطناعية جميع الفضائل والرذائل من الحواس الخمس ، فأدى به هذا إلى نتائج غاية فى السخف . ولكن الذى يمتاز به هذا الكتاب هو أنه حاول أن يضع فى عصر الإيمان قانوناً للأخلاق لا يعتمد على العقيدة الدينية (٢٩) .

وبهذه الجرأة عينها امتنع جبرول عن أن يقتبس فى أهم كتبه كلها وهو كتاب « مقور حاتم » من الكتاب المقدس ، أو التلمود ، أو القرآن . وكان هذا البعد عن القومية هو الذى جعل الكتاب بغيضاً لأحبار اليهود ، كما جعله فى ترجمته اللاتينية المسماة « منبع الحياة Fons Vitae » عظيم الأثر فى العالم المسيحى . وقد قبل ابن جبرول فى هذا الكتاب أصول الأفلاطونية الحديثة التى تسرى فى الفلسفة الإسلامية كلها ، ولكنه فرض على هذه الأصول الفلسفية مبدأ الاختيار الذى يؤكد عمل الإرادة عند الله والإنسان . ويقول ابن جبرول فى كتابه إن علينا أن نفترض وجود الله بوصفه الهىولى الأول ، والجوهر الأول ، والإرادة الأولى إذا شئنا أن نفهم وجود الحركة فى أى شىء على الإطلاق ، ولكننا لا نستطيع قط معرفة صفات الله . ولم يخلق الله الكون فى زمان معين ، بل هو ينساب فى فيض متصل متدرج من ذات الله . وكل شىء فى الكون : ما عدا

الله وحده يتكون من مادة وصورة ، وهما تظهران مجتمعتين على الدوام ، ولا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى إلا في الفكر وحده (٣٠). وقد رفض أحبار اليهود هذه الآراء الكونية الشبيهة بآراء ابن سينا ، وقالوا إنها هي المادية المقتنعة ، ولكن الكسندر الهاليسي Alexander of Hales ، والقديس بونافنتور St. Bonaventure و دنز اسكوتس Duns Scotus قبلوا فكرة كونية المادة تحت سيطرة الله وأولية الإرادة . وقال وليم الأوفروني عن ابن جيبورول إنه « أنبل الفلاسفة أجمعين » ، وظنه مسيحياً صالحاً .

أما يهودا هليفي فقد رفض كل تفكير فلسفي وقال عنه إنه من عبث العقل ، وكان يخشى كما يخشى الغزالي أن تقوض الفلسفة دعائم الدين ؛ وليس هذا لأنها تشك في عقائده ، أو لأنها فوق ذلك تتجاهله ، أو أنها تفسر الكتاب المقدس تفسيراً مجازياً فحسب ، بل لأنها فوق هذا وأكثر منه تستبدل الجدل بالحشوع والإيمان . وقد قاوم هذا الشاعر غزو أفلاطون وأرسطو للدين اليهودي ، وتسرب الآراء الإسلامية إلى اليهود ، وهجمات اليهود القرائين المتواصلة على التلمود ، نقول قاوم الشاعر هذا كله بتأليف كتاب في الفلسفة يعد أمتع كتب العصور الوسطى الفلسفية بأجمعها ، ونعني به كتاب الخزري (١١٤٠ ؟) الذي عرض فيه آراءه في صورة قصة شبيهة بالسرديات تدور حول اعتناق ملك الخزر للدين اليهودي . وكان من حسن حظ هليفي أن الكتاب قد استخدمت فيه الحروف العبرية وإن كان قد كتب باللغة العربية ، وبذلك لم يقرؤه غير اليهود المتعلمين ؛ ذلك أن القصة تجمع أمام الملك أسقفاً . ومثلاً ، وكوهناً ؛ ثم تتخلص من الإسلام والمسيحية بعد قليل . فحين يقتبس المسلم والمسيحي من كتاب اليهود المقدس ويقران أنه كلام الله يصر فهما الملك ويستبق الكوهن اليهودي ، ويصبح معظم الكتاب حديثاً للكوهن يعام فيه ملكاً مطواعاً محتئناً أصول الدين اليهودي وشعائره . ويقول التلميذ الملكي لمعلمه : « لم يجد جديد منذ نزل دينكم اللهم

إلا تفاصيل عن الجنة والنار» (٣١). ويشجع هذا القول الكوهن فيقول إن اللغة العبرية لغة الله ، وإن الله لم يتحدث بنفسه إلا لليهود ، وإن أنبياء اليهود وحدهم هم الملهمون من عند الله ويسخر هليفي من الفلاسفة الذين ينادون بتفوق العقل ويخضعون الله والسماوات لقياسهم المنطقي ومقولاتهم ، مع أن العقل البشرى لا يعدو أن يكون جزءاً من عالم المخلوقات المعقد وهو جزء هس متناه في الصغر . . والعاقل (وليس حتماً أن يكون متعلماً) هو الذي يقر بضعف العقل وعجزه عن إدراك الشئون غير الدنيوية ، ويستمسك بالعقيدة التي جاء بها الكتاب المقدس ، ويؤمن ويصلي ببساطة الطفل (٣٢) .

ولكن افتتان الناس بالعقل قد بقي على الرغم من هليفي ، وظلت آراء أرسطو تغزو الدين اليهودي . فلقد كان أبراهام بن داود (١١١٠ - ١١٨٠) مستمسكا بدينه استمسك هليفي ، يدافع عن التلمود ضد اليهود القرائين ويقص بكبرياء وفخار تاريخ الملوك اليهود في الدولة الثانية ، ولكنه كان يتطلع ، كما تطلع العدد الذي يخططه الحصر من المسيحيين ، والمسلمين ، واليهود في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، إلى استخدام الفلاسفة لإثبات أصول دينه . وقد ولد كما ولد هليفي في طليطلة ، وكان يكسب عيشه من مهنة الطب . وقد رد على هليفي في كتابه العربي كتاب العقيدة الرفيعة بمثل ما رده أكويناس فيما بعد على أعداء الفلاسفة المسيحيين ، فقال إن الدفاع السلمي عن الدين ضد غير المؤمنين يتطلب الحاجة المنطقية ، ولا يمكن أن يعتمد هذا الدفاع على الإيمان بهذا الدين ، وقد فعل ابن داود ما فعله ابن رشد بعده بزمن قليل (١١٢٦ - ١١٩٨) ، وما فعله ابن ميمون بعده بجيل من الزمان (١١٣٥ - ١٢٠٤) ؛ والقسديس توماس أكويناس بعده بمائة عام (١٢٢٤ - ١٢٧٤) ، فبذل كل ما وسعه من جد للتوفيق بين دين آبائه وبين فلسفة أرسطو . ولو أن الفيلسوف اليوناني شهد ذلك لسره أن يتلقى هذه التحية الثلاثية ، أو أن يعرف أن الفلسفة اليهودية لم تعرفه

إلا من ملخصات الفارابي وابن سينا اللذين لم يعرفاه إلا عن طريق الترجمة المشوهة والأفلاطونية الحديثة المزورة . وكان ابن داود أكثر من القديس توماس إخلاصاً لمصدرهما الأرسطاطيلبي المشترك فقال كما قال ابن رشد إن النفس الكلية وحدها ، لا النفس الفردية ، هي الخالدة (٣٣) . وهنا كان يحق لهيئتي أن يشكو من أن أرسطو قد انتصر على التلمود ، فلقد بدأت الفلسفة اليهودية ، كما بدأت فلسفة العصور الوسطى بوجه عام ، بالأفلاطونية الحديثة وبالتقوى ، وها هي ذى تبلغ ذروتها بفلسفة أرسطو وبالشك . وسيبدأ ابن ميمون فلسفته من هذا الموقف الأرسطاطيلبي الذي وقفه ابن داود ، ويواجه في شجاعة ومهارة جميع مشكلات العقل في صراعه مع الدين .

الفصل الخامس

ابن ميمون ١١٣٥ - ١٢٠٤

ولد أعظم عطاء اليهود في العصور الوسطى بمدينة قرطبة لأب من أكابر العلماء الممتازين هو الطبيب والقاضي ميمون بن يوسف . وسمى الغلام موسى ، وكان من الأقوال الماثورة بين اليهود قولهم : « لم يظهر رجل كموسى من أيام موسى إلى موسى » . وقد عرف بين الناس باسم موسى بن ميمون أو باسم أقصر من هذا وهو ميموني . ولما أن أصبح من أحبار اليهود الدائعي الصيت جمعت الحروف الأولى من لقبه واسمه فصارت رميم ، وعبر العالم المسيحي عن أبوته بتسميته ميمونيدس Maimonides . وتقول إحدى القصص التي يغلب على الظن أنها من الخرافات الدائعة إن الغلام أذهر عدم الميل للدرس ، وإن أباه الذي خاب فيه رجائه سماه « ابن الجزار » وبعثه ليعيش مع معلمه السابق الخاخام يوسف ابن مجاشن^(٣٤) . ومن هذه البداية الفقيرة برع موسى الثاني في آداب الدين وآداب الكتاب المقدس ، والطب ، والعلوم الرياضية ؛ والهيئة ، والفلسفة . وكان ثاني اثنين هما أعلم أهل زمانه ؛ ولم يكن يضارعه في علمه إلا ابن رشد . ومن أغرب الأشياء أن هذين المفكرين البارزين اللذين ولدا في مدينة واحدة ولم يكن بين مولدها إلا تسع سنين لم يجتمع أحدهما بالآخر كما يلوح ، ويبدو أن ابن ميمون لم يقرأ لابن رشد إلا حين بلغ هو سن الشيخوخة وبعد أن ألف كتبه^(٣٥) .

واستولى البربر على قرطبة في عام ١١٤٨ وهدموا الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية ، وخيروا المسيحيين واليهود بين الإسلام والنفي ؛ فغادر ابن ميمون أسبانيا في عام ١١٥٩ هو وزوجته وأبناؤه ، وأقاموا في فاس تسع سنين مدعين أنهم مسلمون^(٣٦) ، لأن المسيحيين واليهود لم يكن يسمح لهم بالإقامة هناك أيضاً .

وبرر ابن ميمون تظاهرة بالإسلام بين اليهود المهتدين بالخطر في مراکش.
بقوله لأنهم لم يكن يطلب إليهم أن يؤدوا شعائر هذا الدين أداء عملياً بل كل.
ما كان يطلب إليهم أن يتلوا صيغة لا يؤمنون بها ، وإن المسلمين أنفسهم.
يعرفون أنهم غير مخلصين في النطق بها وإنما يفعلون ذلك ليخادعوا جماعة من
المتعصبين^(٣٧) . لكن كبير أبحار اليهود في فاس لم يوافق على هذا القول ،
وكان جزاؤه أن قتل في ١١٦٥ . وخشى ابن ميمون أن يلقى هذا المصير
نفسه فسافر إلى فلسطين ، ثم انتقل منها إلى الإسكندرية (١١٦٥) ومصر
القديمة حيث عاش حتى وافته منبته . وسرعان ما عرف المصريون أنه من أعظم
أطباء زمانه ، فاخترت طبيباً خاصاً لنور الدين على أكبر أبناء صلاح الدين ،
وللقاضي الفاضل البيسافي وزير صلاح الدين . واستخدم ابن ميمون
نفوذه في بلاط السلطان لحماية يهود مصر ، ولما فتح صلاح الدين فلسطين
أقنعه ابن ميمون بأن يسمح لليهود بالإقامة فيها من جديد^(٣٨) . وفي عام
١١٧٧ عين ابن ميمون نجيداً أو زعيماً لليهود في القاهرة ، ثم أفهمه أحد
الفقهاء المسلمين (١١٨٧) بأنه مرتد عن الإسلام وطالب بأن توقع عليه
عقوبة القتل التي هي جزاء المرتدين . ولكن الوزير أنقذ ابن ميمون إذ قال
إن الرجل الذي أرغم على اعتناق الإسلام لا يمكن أن يعد مسلماً بحق^(٣٩) .
وفي سنى العمل المتواصل التي أقامها بالقاهرة ألف معظم كتبه . ومن
هذه المؤلفات عشرة كتب في الطب باللغة العربية نقل فيها آراء أبقراط ،
وجالينوس ، وديسقوريدس ، والرازي وابن سينا . وقد اختصر في
كتاب الأمثال الطبية كتاب جالينوس إلى ألف وخمسة عشرة عبارة قصيرة
تشمل كل فرع من فروع الطب ، وترجم هذا الكتاب إلى اللغتين
العبرية واللاتينية ، وكثيراً ما كان ينقل عنه في أوروبا ويصدر ما ينقل
بتلك العبارة : « قال الخبر موسى » . ووضع مقالة في تدبير الصحة
للملك الأفضل على بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ؛
ومقالة أخرى في الجماع لسلطان حماة الملك المظفر تقي الدين أبي سعيد عمر

ابن نور الدين تحدث فيها عن الجماع من الوجة الصحية ، وعن عجز القوة الجماعية ، وعن الانتصاب الدائم ، وعن الأدوية المقوية للباه .

وقد أضاف ابن ميمون إلى هذه الرسائل عدة مقالات كل منها في موضوع واحد منها مقالة في السموم والتحرز من الأدوية القتالة(*) ، ومقالة في الربو(**) ، وأخرى في البواسير ، ورابعة في السوداء - ومقالة جامعة في شرح العقار . وتحتوى هذه الكتب الطبية ، كما تحتوى سائر الكتب ، على أقوال لا تنفق مع عقائد هذا الزمان السريعة التبدل - المعصومة من الخطأ - كقوله إنه إذا كانت الحصية اليمنى أكبر من اليسرى كان المولود الأول ذكراً(١) ؛ ولكنها تمتاز برغبة صادقة في مساعدة المرضى ، ببحثها الذى يمتاز بالتسامح والجمالة فى الآراء المتعارضة ، وبما يسرى فيها من طابع الحكمة والاعتدال فى النصح ووصف الدواء . ولم يكن ابن ميمون يصف العقاقير إذا ما أغنى عنها تنظيم الغذاء(٢) . وقد حذر الناس من كثرة الطعام بقوله إن المعدة يجب ألا تنتفخ كأنها خراج(٣) . وكان يظن أن الخمر تفيد الصحة إذا شربت باعتدال(٤) ، ونصح بدرس الفلسفة لأنها تدرب على الاتزان العقلى والخلقى وعلى الهدوء وهما الصفتان اللتان تؤديان إلى صحة الجسم وطول العمر(٥) .

وبدأ ابن ميمون فى الثالثة والعشرين من عمره شرحاً للمشنا، وظل يكدرح فى هذا العمل عشر سنين بين مشاغله التجارية ، والطبية ، والأسفار الخطرة برأ وبحراً . ولما نشر هذا الشرح فى القاهرة عام ١١٥٨ باسم كتاب السراج رفع ابن ميمون من فوره - وكان لا يزال شاباً لم يتجاوز الثالثة والثلاثين من عمره - إلى منزلة بين شراح التلمود . لا تسمو عليها إلا منزلة راشى ، وذلك

(*) تعرف بالمقالة الفاضلة لأنها موجهة إلى القاضى الفاضل . (المترجم)

(**) وضمت لمريض قبيل . (المترجم)

بفضل ما يمتاز به من الوضوح ، وغزارة المادة ، وصدق الأحكام : وبعد
عشرين سنة من ذلك الوقت نشر أعظم كتبه كلها باللغة العبرية الجديده وسماه
متحدياً مستثيراً *أسفنا التوراة* ، وقد رتب فيه في نظام منطقي ، وإيجاز واضح ،
كل ما حوته أسفار موسى الخمسة من القوانين وجميع قوانين المشنا والجمارا
ما عدا النزر اليسير . ويقول في مقدمة الكتاب : « لقد سميت هذا الكتاب
مشنا التوراة (تكرر الشريعة) لأن من يقرأ الشريعة المسطورة (الأسفار
الخمس) لأول مرة ، ثم يقرأ هذه المجموعة ، يعرف الشريعة الشفوية جميعها من
غير أن يحتاج في ذلك إلى الرجوع إلى أى كتاب آخر »^(٤٦) ، وقد أغفل فيه
بعض ماورد في التلمود من قواعد خاصة بالفأل والطيرة ، والتأتم ، والنجم ،
فكان بذلك من بين مفكرى العصور الوسطى القلائل الذين لم يؤمنوا بالنجم^(٤٧) .
وقد قسم الأوامر الواردة في الشريعة والبالغ عددها ٦١٣ أربعة عشر قسماً وضع
لكل واحد منها عنواناً وخص كل عنوان « بكتاب » . ولم يكتف بشرح كل
قانون بل أخذ على نفسه بيان ضرورته المنطقية أو التاريخية . ولم يترجم إلى
الإنجليزية من هذه الكتب الأربعة عشر إلا كتاب واحد ، وهو مجلد ضخ
نستطيع به أن نتبين ضخامة الكتاب الأصلي كله .

ويتضح من هذا الكتاب ومن كتابه الآخر الذى صدر بعده وهو :
دورته الحاربي ، أن ابن ميمون لم يكن من الذين يجهرون بالإلحاد . بل إنه قد
حاول جهده لكى يرجع المعجزات الواردة في الكتاب المقدس إلى علل طبيعية ،
ولكنه كان يدعو إلى الاعتقاد بأن كل لفظ في أسفار موسى الخمسة موحى به من
الله ، وإلى العقيدة الدينية القائلة بأن الشريعة الشفوية قد نقلها موسى إلى كبار
رجال إسرائيل^(٤٨) . ولعله كان يشعر بأن اليهود لا يستطيعون أن يكون اعتقادهم
في الكتاب المقدس أقل شأناً من اعتقاد المسيحيين والمسلمين فيه ، ولعله هو أيضاً
كان يرى أن لا قيام للنظام الاجتماعى بغير الاعتقاد في قدسية أصل القانون

الأخلاقي . وكان ابن ميمون وطنياً شديداً الحب لوطنه لا يقبل في عقيدته جدلاً « يجب على جميع بني إسرائيل أن يتبعوا كل ما ورد في التلمود البابلي ، وعلينا أن نرغم اليهود في جميع أنحاء الأرض على أن يستمسكوا بالعادات والأساليب التي قررها حكماء التلمود »^(٤٩) . وكان أكثر حرية إلى حد ما من معظم المسلمين والمسيحيين في أيامه ، فكان يعتقد أن غير اليهودي المتمسك بأهداب الفضيلة ، المؤمن بوحداية الله ، يدخل الجنة ، ولكنه لم يكن يقل قسوة على كفر اليهود من سفر التثنية أو الترمادا ؛ ويقول إن اليهود الذين يبدلون الشريعة اليهودية يجب أن يقتلوا ؛ و« من رأي أن جميع أفراد العشيرة اليهودية التي بلغت من القحة والجرأة ما جعلها تخالف أمراً من أوامر الله يجب أن يعدموا »^(٥٠) . وقد استبق أكويناس في الدفاع عن القتل جزاء للإلحاد بحجة « أن القسوة على من يضلون الناس سعياً وراء الزهو والخيلاء إنما هي رحمة بالعالم »^(٥١) ، وارتضى دون عناء عقوبة الإعدام التي يفرضها الكتاب المقدس جزاء للسحر ، والقتل ، ومضاجعة المحارم ، وعبادة الأوثان ، والسرقه بالإكراه ، وخطف الأشخاص ، وعصيان الأبناء للآباء ، وخرق حرمة السبت^(٥٢) . ولعل أحوال اليهود حين هاجروا من مصر القديمة ، وحاولوا أن يؤسسوا لهم دولة من جماعة معدمة لا وطن لها ، تقول لعل أحوال هؤلاء اليهود كانت تبرز وضع هذه القوانين . ولقد كانت حالة اليهود المزعزعة المضطربة في أوروبا المسيحية أو أفريقية المسلمة كانت تتطلب قانوناً صارماً يخلق فيهم النظام والوحدة ؛ ولكن الآراء المسيحية ، والعادات اليهودية أيضاً في أغلب الأحيان ، كانت أرحم من القوانين اليهودية في هذه الأمور (قبل أيام محكمة التفتيش) .

وإن في نصيحة ابن ميمون التي يسديها إلى يهود زمانه لجانباً من هذه الروح أفضل من الجانب الصارم السالم الذكر : « إذا قال الكفرة لبني إسرائيل :

أسلمونا أحدكم لنقتله وجب عليهم أن يتحملوا جميعاً آلام القتل ولا يسلموا إليهم واحداً من أبناء إسرائيل» (٥٣) .

وأظرف من هذه الصورة صورة هذا العالم وهو ينحدر إلى الشيخوخة ، فقد أيد في هذه السن قول أحبار اليهود إن « اللقيط العالم (بالشرعية) يسبق الكوهن الأكبر الجاهل » . وهو ينصح العالم بأن يخصص من وقته ثلاث ساعات في كل يوم لكسب العيش وتسعا لدراسة التوراة . وكان يعتقد أن البيئة أقوى أثراً من الوراثة ، ولذلك أشار على طالب العلم أن يسعى إلى صحبة الصالحين العقلاء من الناس . وينصح طالب العلم بالأيتزوج حتى يكتمل علمه ، ويتخذ له حرفة ، ويشترى له منزلاً (٥٥) ، وعندئذ يصبح له أن يتزوج أربع نساء ، ولكنه لا يصبح له أن يباشرهن إلا مرة واحدة كل شهر .

« نعم إن مباشرة الإنسان لزوجته مسموح به على الدوام ، ولكن من واجب العالم أن يصطنع القداسة في هذه العلاقة أيضاً ، فعليه ألا يكون على الدوام مع زوجته كما يفعل الديك ، بل يجب عليه أن يؤدي الواجب الزوجي في ليلة الجمعة . . . ويجب على الزوج والزوجة وقت المضاجعة ألا يكونا في حالة سكر ، أو فتور ، أو حزن ، وألا تكون الزوجة نائمة في ذلك الوقت (٥٦) » .

وهكذا ينشأ آخر الأمر الحكيم الذي :

« يتصف بالتواضع الجلم ، ولا يكشف رأسه أو جسمه . . . ولا يرفع صوته فوق الحد الواجب إذا تكلم ، حديثه مع الناس جميعاً ظريف . . . يتجنب المبالغة والتصنع في الحديث ، يعدل في حكمه على الناس ، يؤكد فضائل غيره ، ولا يتحدث عن أحد بسوء (٥٧) » .

ولا يذهب إلى المطاعم إلا عند الضرورة القصوى : « فالرجل الحكيم لا يأكل إلا في بيته ومن مائدته (٥٨) » . وهو يدرس التوراة في كل يوم حتى

يموت ، ويحذر ألا ينجده أحد بأنه المسيح ، ولكنه لن يفقد إيمانه بأن المسيح الحق سيأتي ويعيد إسرائيل إلى صهيون ، ويقود العالم كله إلى الدين الحق . وإلى الوفرة ، والأخوة ، والسلام : « نفى جميع الأمم أما اليهود فباقون إلى أبد الدهر » (٥٩) .

وغضب أحبار اليهود من مشنا التوراة ، فقاما كان في وسع أحد منهم أن يعفوعا يرمى إليه من إحلال كتابه محل التلمود مع ما في هذا من جرأة ، وقد استاء كثيرون من اليهود مما عزي إلى ابن ميمون من القول بأن من يدرس الشريعة أعلى مقاماً ممن يعمل بها . ولكن الكتاب رغم هذا كله قد جعل صاحبه أعظم اليهود جميعاً في عصره ، فارتضاه جميع يهود الشرق مستشاراً لهم وبعثوا إليه بمسائلهم ومشاكلهم ، وخيل إلى الناس في جيل من الزمان أن الجاؤنية قد عادت إلى الوجود : ولكن ابن ميمون لم ينتظر حتى يستمتع بهذا الصيت ، بل شرع من فوره يؤلف كتابه التالي ؛ فبعد أن قنن الشريعة ووضحها لليهود المؤمنين ، وجهه جهوده للعمل على أن يعيد إلى حظيرة الدين اليهودي من أغرتهم الفلسفة أو أغوتهم جماعات الملاحدة من اليهود القرائين في مصر ، وفلسطين ، وشمال أفريقيا ؛ وأصدر إلى العالم اليهودي بعد عشر سنين من الكلد أشهر كتبه كلها وهو : *دلالة الحاربيين* (١١٩٠) ، وقد كتبه باللغة العربية بحروف عبرية ثم ترجم إلى اللغة العبرية وسمى : *سورة نبوهميم* ، ثم ترجم كذلك إلى اللاتينية وأثار عاصفة من أشد العواصف الذهنية في القرن الثالث عشر .

ويقول في مقدمة الكتاب إن غرضه الأول من وضعه أن يشرح بعض الألفاظ الواردة في الكتب المنتبثة ، أي في العهد القديم . ذلك أن كثيراً من ألفاظ الكتاب المقدس وفقراته ذات معان متعددة ؛ حرفية ، ومجازية ، ورمزية . فنها ما إذا أخذ بمعناه الحرفي كان عقبة كروداً في سبيل المخلصين لدينهم ،

ولكنهم إلى هذا يحترمون العقل أعظم مواهب الإنسان . أولئك ينبغي ألا يخبروا بين الدين بلا عقل أو العقل بلا دين . وإذا كان العقل قد غرسه الله في الإنسان ، فإنه لا يمكن أن يتعارض مع الوحي الإلهي ، فإذا ما حدث هذا التعارض فسبب هذا - في رأى ابن ميمون - أننا نأخذ بمعناها الحرفي بعض العبارات الموائمة للعقلية الخيالية التصويرية التي هي من خصائص السذج غير المتعلمين الذين وجه إليهم الكتاب المقدس . ولقد قال أحبارنا إن من المحال أن نصف خلق الإنسان وصفاً كاملاً ولقد وردت قصة هذا الخلق بعبارات مجازية حتى يستطيع فهمها غير المتعلمين كل بقدر ماله من مواهب ، وما عليه إدراكه من ضعف . أما المتعلمون فيفهمونه فهماً مختلفاً عن فهم هؤلاء (٦١) .

ثم ينتقل ابن ميمون من هذه النقطة الأولى إلى البحث في الذات الإلهية فيستنتج مما في الكون من شواهد التنظيم الحكيم أن عقلاً سامياً يسيطر على هذا الكون ، ولكنه يسخر من الرأى القائل إن الأشياء جميعها قد صنعت من أجل الإنسان (٦٢) ، فالأشياء لم توجد إلا لأن الله ، وهو مصدرها وحياتها ، موجود : « ولو أمكننا أن نفترض أنه غير موجود لاستتبع هذا أن لا شيء غيره ممكن الوجود » . وإذا كان لا بد بهذه الطريقة من وجود الله ، فإن وجوده متلازم مع جوهره : « الشيء الذى يحتوى في ذاته على ضرورة وجوده ، لا يمكن أن يكون لوجوده علة أيا كانت (*) » (٦٣) . وإذا كان الله عاقلاً ، فلا بد أن يكون غير ذى جسم ، وعلى هذا فكل ما ورد في الكتاب المقدس من عبارات تشير إلى شيء من أعضاء الجسم أو أية صفة من صفاته يجب أن يفسر تفسيراً مجازياً . والحق ، كما يقول ابن ميمون (ولعله يخلو في قوله هذا حلو المعتزلة) ، أننا لانستطيع

(*) ولقد صاغ ابن سينا هذه القضايا المنطقية ، وأخذها عنه القديس توماس أكويناس ثم كيفها اسبنوزا حتى توأمت فكرة الهيولى الدافق الوجود .

معرفة شيء عن الله إلا أنه موجود ، بل إن الصفات غير الجسمية التي نصفه بها - كالعقل ، والقدرة على كل شيء ، والرحمة ، والحب ، والوحدة ، والإرادة - كلها من نوع الجناس فهي إذا وصف بها الله كان لها معنى غير معناها إذا ما وصف بها الإنسان . ولن نستطيع قط أن نعرف معناها بالضبط إذا وصف بها الله ، وليس في وسعنا أن نعرفه ، ولا ينبغي لنا أن نعزو إليه خواص أو صفات أو أن نثبت له شيئاً من أى نوع كان . فإذا قيل في الكتاب المقدس إن الله أو المَلَك « كَلِم » الأنبياء ، فليس لنا أن نتخيل لفظاً أو صوتاً ، والنبوة هي تنمية الخيلة إلى أقصى درجات النماء ، وهي فيض « الذات الإلهية » عن طريق الحلم أو النشوة الإبصارية ، فالذي يقصه الأنبياء لم يحدث في الواقع وإنما حدث في هذه الرؤيا أو الحلم ، وعابنا أن نفسره في معظم الأحوال تفسيراً مجازياً^(٦٤) » ولقد قال بعض حكمائنا في وضوح إن أيوب لم يكن له قط وجود ، وإنما خلقه الشعراء خلقاً . . . ليكشفوا بهذا عن أهم الحقائق^(٦٥) . وهذا الإلهام التنبؤي في مقدور أى إنسان إذا نمت مواهبه إلى أقصى حدود النماء ، ذلك بأن العقل البشرى إلهام مستمر ، لا يختلف اختلافاً جوهرياً عن بصيرة الأنبياء الواضحة الساطعة .

وبعد فهل خلق الله العالم في زمان معين ، أو أن الكون ذا المادة والحركة ، كما يظنه أرسطو ، أزلى ؟ يقول ابن ميمون إن هذا ما يختار فيه العقل ؛ فليس في وسعنا أن نثبت أزلية العالم أو خلقه ؛ وإذن فلنستمسك بعقيدة آباءنا القائلة بخلقه^(٦٦) ، ثم ينتقل من هذا إلى تفسير قصة الخلق الواردة في سفر التكوين تفسيراً مجازياً رمزياً : فآدم عنده هو الصورة الفعالة أو الروح ، وحواء هي المادة المنفعلة وهي مصدر كل شر ، والأفعى هي الخيال^(٦٧) . ولكن الشر ليس له وجود ذاتي موجب ، وإنما هو انتفاء الخير ؛ وترجع معظم مصائبنا إلى ما ترتكبه من أخطاء ؛ ومن الشروع ما ليس شراً إلا من وجهة نظر الإلسان أو وجهة النظر الضيقة ؛ وقد تكشف النظرة الكونية في كل شر ما هو خير للكامل أو ما هو في

حاجة إليه^(٦٨) . وقد أباح الله للإنسان الإرادة الحرة التي تجعل منه إنساناً بحق ؛ وقد يختار الإنسان الشر أحياناً ؛ والله يعلم مقدماً بهذا الاختيار ، ولكن ليس هو الذى يقرره ويحتمه .

وهل الإنسان مخلد ؟ هنا يستخدم ابن ميمون كل ما وهب من قدرة للتعمية على قرائه ، فهو يتجنب هذا السؤال فى كتاب دلالة الحائرين ، ولا يشير إليه إلا بقوله « إن النفس التى تبقى بعد الموت ليست هى النفس التى تعيش فى الإنسان حين يولد »^(٦٩) .. وهذه النفس أو العقل « المنفعل » وظيفة من وظائف الجسم تموت بموته ؛ أما الذى يبقى فهو « العقل المكتسب » أو « العقل الفعال » الذى وجد قبل الجسم ، وليس وظيفة من وظائفه على الإطلاق^(٧٠) . وهذه النظرة نظرة أرسطو وابن رشد تنكر كما يبدو الخلود الفردى . ولقد أنكر ابن ميمون فى سنا التوراة فكرة بعث الجسم ومخبر من تصوير المسلمين للجنة تصويراً جسمانياً أبيقورياً ، وقال إن تصويرها على هذا النحو فى الإسلام واليهودية ليس إلا تمثيلاً لها بما يناسب خيال جمهرة الناس وحاجاتهم^(٧١) . وأضاف فى دروة الحائرين إلى قوله هذا أن : الموجودات غير الجسمية لا يمكن إحصاؤها إلا حين تكون قوى كائنة فى الجسم^(٧٢) (*) ؛ وينطوى قوله هذا ، كما يبدو ، على أن الروح غير المادة التى تبقى بعد فناء الجسم ليست بذات إدراك فردى . وقد أثار هذه الإشارات المتشككة كثيراً من الاحتجاجات لأن بعث الأجسام كان قد أصبح من العقائد الأساسية فى الإسلام واليهودية . ولما كتب دروة الحائرين بالحروف العربية أثار عقول العلماء فى العالم الإبتلاى ؛ فقام عبد اللطيف ، وهو عالم من علماء المسلمين ، يسفهه لأنه « يهدم أركان جميع الأديان بنفس الوسائل التى يخيل إلى الناس أنه يدعّمها بها »^(٧٣) . وكان صلاح الدين وقتئذ منهمكاً فى حرب حياة أو موت من الصليبيين ؛ وكان السلطان من المستمسكين طول حياته بأصول

(*) وقد استند أكويناس من هذا فكرته القائلة إن المادة هى « أصل الانفرادية » !

الدين ، وكان في هذا الوقت ، بوع خاص ، أكثر بغضاً للإلحاد منه في أى وقت آخر لأن الإلحاد في ذلك الوقت يهدد الروح المعنوية الإسلامية ، والمسلمون منهمكون في حرب مقدسة ، بأشد الأخطار . ولهذا أمر في عام ٢١٩١ بإعدام السها وردى ، وهو صوفى زنديق ؛ ونشر ابن ميمون في الشهر نفسه مقالته في بعث الملوك عبر فيها مرة أخرى عن تشككه في عقيدة الخلود الجسمي ولكنه أعلن أنه يؤمن بها على أنها من قواعد الدين فحسب . وسكنت هذه الزبوجة إلى حين ، وانصرف هو إلى عمله الطبي وإلى كتابة فتاوى دينية أو أخلاقية وصلت إليه من العالم اليهودى . ولما عرض عليه شمويل ابن يهوذا بن تبون ، وكان وقتئذ يترجم دولة الحارثيين إلى اللغة العبرية ، أنه يرغب في ريارته حدره من أن يظن أنه سيحدثه في أى موضوع علمي ولو مدة ساعة واحدة بالليل أو بالنهار لأن عمله اليومى يجرى على النحو الآتى : « فأنا أقيم في القسطنطينية بينا يقيم السلطان في القاهرة على بعد مسيرة يومى سبت (*) (ميل واحد ونصف ميل) . وواجباتى نحو نائب السلطان جده ثقيلة ، فعلى أن أزوره في كل يوم في الصباح الباكر ، وإذا ما كان هو ، أو أحد أبنائه ، أو أى فرد فى داخل حريمه ، منحرف المزاج ، فلن أجروء على مغادرة القاهرة بل على أن أقيم معظم النهار في القصر . . . ولا أعود إلى القسطنطينية إلى ما بعد الظهر . . . وأكون وقتئذ قد أوشكت أن أموت من الجوع . ولكنى أجد غرفة الاستقبال مزدحمة بالناس ، من رجال الدين ، وموظفى الدولة ، والأصدقاء ، والأعداء . . . فأنزل عن دابتي ، وأغسل يدي ، وأرجو مرضاى أن يصبروا على حتى أتناوله بعض المرطبات . . . وتلك هى الوجبة الوحيدة التى أتناولها كل أربع وعشرين ساعة . ثم أستقبسل مرضاى . . . وأظل كذلك إلى أن يحل الليل ،

(*) (٥) مسيرة السبت مسافة يبلغ مقدارها ألفى ذراع وهو الذى يصرح لليهودى أن يمسيها في يوم السبت وتبادل المسافة بين النهاية القصوى للمسكر والتابوت (الآية الرابعة من الأضاح الثالث من سفر يشوع) . (المترجم) .

وقد أستمر على ذلك في بعض الأحيان حتى تمضى من الليل ساعتان أو أكثر من ساعتين ، فأصعب لهم الدواء وأنا مستلق على ظهري من فرط التعب ، حتى إذا جن الليل تكون قواي قد سخارت حتى لا أستطيع الكلام . ولهذا لن يستطيع إسرائيل أن يجتمع بي على انفراد إلا في يوم السبت . ففي ذلك اليوم يقبل عليّ جميع المصلين ، أو الكثرة الغالبة منهم على أقل تقدير ، بعد صلاة الصبح ، ليتلقوا عليّ بعض العلم . . . ونظل ندرس معاً حتى الظهر ثم نفرق^(٧٤) .

وقد أنهكت هذا الجهد قواه قبل الأوان . وقد طالب إليه رتشد الأول ملك إنجلترا أن يكون طبيبه الخاص ، ولكن ابن ميمون لم يستطع تلبية طلبه . وأدرك وزير صلاح الدين ما حل به من الضعف فسمح له أن يعتزل منصبه ورتب له معاشاً ، ثم توفي عام ١٢٠٤ في التاسعة والستين من عمره ، ونقلت رفاته إلى فلسطين ولا يزال قبره قائماً في طبرية .

الفصل السادس

الحرب الميمونية

لقد أحسّ العالم الإسلامي والعالم المسيحي بتأثير ابن ميمون كما أحسّ به العالم اليهودي ، فقد أخذ الفلاسفة المسلمون يدرسون دولة الحاخامين بإشراف معلمين من اليهود ؛ وكانت تراجم لاتينية للكتاب تدرس في جامعتي منبلييه وپلدوا ، وكثيراً ما كان ألكسندر الهاليسى ووليم الأوفرنى يقتبسان منه في جامعة باريس . واقتنى ألبرنيس ماجنس أثر ابن ميمون في كثير من المسائل ، وكثيراً ما كان القديس تومس ينظر في آراء الحبر موسى ليفنداها إن لم يكن لغرض آخر . وكان اسپنوزا ينتقد التفسير المجازي للكتاب المقدس الذي يقول به ابن ميمون ويصفه بأنه محاولة غير شريفة للمحافظة على منزلة الكتاب المقدس ، ولعله وهو يفعل هذا كان ينقصه الإدراك السليم للتاريخ ؛ ولكنه مع ذلك كان يصف الحبر العظيم بأنه « أول من جهر بأن الكتاب المقدس يجب أن يواءم بينه وبين العقل » (٧٥) ، وقد أخذ عن ابن ميمون بعض آرائه عن النبوءات والمعجزات وصفات الله (٧٦) .

أما في الدين اليهودي نفسه فقد كان تأثير ابن ميمون تأثيراً انقلابياً ، وقد واصل أبناؤه وحفدته عمله فكانوا مثله علماء ويهوداً : فقد خلفه ابنه أبراهام ابن موسى في منصب النجيد وطبيب البلاط عام ١٢٠٥ ؛ وخلافه أيضاً حفيده داود بن أبراهام ، وابن حفيده سليمان بن أبراهام في زعامة يهود مصر . واحتفظ هؤلاء الثلاثة كلهم بتقاليد ابن ميمون في الفلسفة ، وأتى على الناس حين من

الدهر أصبح فيه تطبيق آراء أرسطو على الكتاب المقدس واستخدام المجاز والاستعارة في تفسيره استخداماً يبلغ حد الشعوذة ، ورفض ما جاء فيه من القصص والقول بأنها غير صحيحة من الوجهة التاريخية ، تقول أصبح هذا كله هو الطراز الحديث . فقليل مثلاً إن قصة إبراهيم وسارة ليست إلا خرافة تمثل المادة والصورة ، وإن قواعد الطقوس اليهودية ليس لها إلا غرض رمزي وحقيقة رمزية (٧٧) . وبدا أن صرح الدين اليهودي كله يوشك أن ينهار على رأس أحبار اليهود . وقاوم بعضهم هذه النزعة مقاومة عنيفة : قاومها شمويل الفلسطيني ، وأبراهام بن داود البسكوييري of Posquière ، وملاير بن تادرس هليبي أبو العايسة الطليطي ، ودون أستروك اللونلي Don Astruc of Lunell ، وسليمان بن أبراهام من يهود منبلييه ، وجناح بن أبراهام چيروندي الأسباني ، وكثيرون غيرهم . واحتج هؤلاء وأمثالهم على ما سموه « بيع الكتاب المقدس للإغريق » ، وشنوا الغارة على المحاولة التي تهدف إلى إحلال الفلسفة محل التلمود ، ونددوا بتشكك ابن ميمون في عقيدة الخلود ، ورفضوا فكرته عن الإله غير المعروف وقالوا إنها تجديد مجازي لا يحرك أية نفس نحو التقى والصلاح . وانضم أتباع القبلية الصوفية إلى المهاجرين وندسوا قبر ابن ميمون (٧٨) .

وفرقت الحرب الميمونية شمل الجماعات اليهودية في جنوبي فرنسا في الوقت الذي أخذت فيه المسيحية الصادقة تشن حرباً شعواء لاهوادة فيها على الزندقة الألبجنسية . وكما أن المسيحية الصادقة قد أخذت تدافع عن نفسها ضد العقلية ، بتحريم كتب أرسطو وابن رشد في الجامعات ، كذلك خطا الكوهن سليمان ابن أبراهام من يهود منبلييه خطوة لم تكن مألوفة من قبل فصب لعنته على كتب ابن ميمون الفلسفية وحرّم من الدين كل اليهود الذين يدرسون العلوم والآداب النجسة ،

أو يفسرون الكتاب المقدس تفسيراً مجازياً - ولعله قد استبق بعمله هذا هجوم المسيحيين على الجماعات اليهودية بحجة أنها تحمى جماعة العقليين. ورد على هذا أنصار ابن ميمون بزعامه داود قحى ، ويعقوب بن خنير تبون بأن أقنعوا يهود لوندل ، وبزير ونربونة في بروفانس ، ويهود سرقسطة في أسبانيا بأن يحرموا سليمان وأتباعه من الدين . فلما فعلوا هذا خطا سليمان خطوة أجراً من الأولى وأكثر منها إثارة إلى الدهشة : ذلك أنه وشى إلى محكمة التفتيش في منبلييه بكتب ابن ميمون وقال إن فيها آراء خارجة على الدين شديدة الخطر على المسيحية وعلى اليهودية معاً . ووافقه الرهبان على رأيه وأحرقت جميع الكتب الفلسفية التي أمكن الحصول عليها في احتفال عام في منبلييه عام ١٢٣٤ وفي باريس عام ١٢٤٢ ثم أحرقت التلمود نفسه في باريس بعد أربعين يوماً .

وأثارت هذه الحوادث حتى أنصار ابن ميمون ودفعتهم إلى أشد أعمال العنف ، فقبضوا على كبار المشايخين لسليمان في منبلييه ، واتهموهم بالوشاية بأبناء دينهم اليهود ، وحكموا عليهم بقطع ألسنتهم ؛ ويلوح أن سليمان نفسه قد قتل (٧٩) . وندم الكوهن جناح على اشتراكه في إحراق كتب ابن ميمون فقدم إلى منبلييه ، وكفر عن عمله هذا علناً في كنيسها ، وحين تائباً إلى قبر موسى بن ميمون ؛ ولكن الدون أستروك واصل الحرب باقتراحه أن يصدر الأحبار قراراً يحرم دراسة أى علم من العلوم النجسة . وأيده في هذا ابن نجان وآشر بن يميل ، حتى إذا كان عام ١٣٠٥ أصدر سليمان بن أبراهام بن أردوط ، الزعيم القوي المبجل ليهود برشلونه ، قراراً يحرم كل يهودى يعلم أى علم من العلوم غير الدينية ما عدا الطب ، أو أية فلسفة غير يهودية ، أو يجزو على دراسة شيء منها قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ؛ وكان رد أحرار منبلييه أن حرروا كل يهودى يمنع

ابنه من دراسة العلوم الطبيعية^(٨٠) . ولم يكن لكلا القرارين أثر في دائرة واسعة ، فقد ظل شبان اليهود في أماكن متفرقة يدرسون الفلسفة ، غير أن ما كان لأردوط وأشر في أسبانيا من نفوذ ، وازدياد الاضطهاد والخوف في جميع أنحاء أوروبا الخاضعة وقتئذ لحاكم التفتيش ، دفعا الجاليات اليهودية إلى ما كانت عليه من عزلة عقلية وعنصرية . وضعفت عندهم دراسة العلوم ، وأضحت العلوم الدينية الخالصة هي المسيطرة على المدارس العبرية ، وتوارت الروح اليهودية بعد أن انفصلت عن العقل وانتابها الفرع الديني والعداء الشامل ، توارت هذه الروح في الصوفية والتقوى الدينية .

الفصل السابع

القبيلة

تكتنف بحار الصوفية جزائر العلم والفلسفة أينما كانت ؛ ذلك أن العلم يضيق الآمال ، ولا يستطيع أن يتحمل عبأه راضين إلا من أسعدهم الحظ . وقد بسط يهود العصور الوسطى على الحقيقة ، كما بسط عليها المسلمون والمسيحيون ، ستاراً من آلاف الخرافات ، وصوروا التاريخ تصويراً مسرحياً بما أدخلوه فيه من المعجزات ومن البشائر والنذر ، وملأوا الهواء بالملائكة والشياطين ، ومارسوا فنون السحر وتلاوة الرق والتمايم ، وأخافوا أنفسهم وأبناءهم بالحديث عن الساحرات والأغوال ، وأضاءوا ظلمة النوم وغموضه بما وضعوه من تفسير للأحلام ، وتبينوا في الكتابات القديمة أسراراً خفية باطنية .

والتصوف اليهودي قديم قدم اليهود أنفسهم ، تأثر بالأثينية الزرادشتية القائلة بالظلمة والنور ، وبالأفلاطونية الحديثة وباستبدالها الفيض الإلهي بعملية الخلق ، وما تقول به الفيثاغورية الحديثة من أن للأعداد قوى خفية وأسراراً ، وبالثيوصوفية الغنوسطية (مذهب الاتصال بالله أو الفناء بالذات والبقاء بالله) السائدة في سوريا ومصر ، والكتب المسيحية الأولى الدينية المشكوك في صحتها (الأپوكريفيا) ، وبالشعراء والمتصوفة في الهند ومصر ، وبكنيسة العصور الوسطى المسيحية . لكن مصادرنا الأساسية كانت كامنة في عقلية اليهود أنفسهم وتقاليدهم . ولقد انتشرت بين اليهود قبل مولد المسيح نفسه ، شروح سرية لقصة الخلق الواردة في سفر التكوين وفي الأصحاحين الأول والعاشر من سفر حزقيال ؛ وقد حرّمت المشنا شرح هذه الخفايا إلا لعالم منفرد موثوق به . وكان الخيال حراً طليقاً يتصور ما كان قبل خلق آدم ، وما سوف يكون بعد فناء

العالم . وكانت نظرية فيلون القائلة بأن الحكمة الإلهية هي أداة الله الخالقة .
للكون مثلاً سامياً لهذه الأفكار الفلسفية . وكان للإسنيين كتابات سرية ،
يحرصون على كتابتها عن سواهم ، وكانت الكتب العبرانية غير المعترف
بصحتها ككتاب الأعياد تنشر بين الناس أقوالاً خفية عن خلق العالم ،
وجعلت أسماء يهوه التي لا يصح النطق بها ذات قوى خفية ، وكانت حروفه
الأربعة - التترجرام - تهمس في الأذان على أن لها معنى خفياً ، وتأثيراً
معجزاً ، لا تنقل إلا العقلاء ذوى الأفهام الناضجة : وكان عقيباً يقول إن
أداة الله في خلق العالم هي التوراة أو أسفار موسى الخمسة ، وإن لكل كلمة
ولكل حرف من هذه الأسفار المقدسة معنى خفياً وقوة خفية : وكان بعض
الجأونيم البابليين يعزون إلى الحروف العبرية وإلى أسماء الملائكة أمثال هذه
القوى الخفية ، فن عرف هذه الأسماء استطاع أن يسيطر على جميع قوى
الطبيعة . وكان العلماء يعثون بضروب السحر الأسود والأبيض - أى
القوى العجيبة التي يحصل عليها بعض الناس عن طريق اتصال الروح
بالملائكة أو الشياطين . وكان لا استحضر الأرواح ومعرفة الحظ بفتح
الكتاب المقدس ، والتعاويد ، والتأتم ، والرقى ، ومعرفة الغيب ،
والقرعة ، كان لهذه كلها شأنها في الحياة المسيحية : وقد شملت كتب
اليهود جميع عجائب التنجيم ؛ فكانت النجوم في هذه الكتب حروفاً هجائية .
وكتابات في السماء خفية لا يستطيع قراءتها إلا المطلعون على أسرارها (٨١) :

وظهر في وقت ما في القرن الأول بعد الميلاد كتاب من هذه الكتب ذات
الأسرار الخفية في بابل يعرف باسم سفر يصيرا - أى كتاب الخلق . وكان الأتقياء
المتصوفة من اليهود ومنهم يهودا هلينى يقولون إن واضعه هو إبراهيم أو الله
نفسه . وما جاء فيه أن عملية الخلق قد تمت بواسطة عشرة سفروثات Sefiroth -
أعداد أو أصول هي : روح الله ، وفيوض ثلاثة منها : الهواء ، والماء ، والنار ،

وثلاثة أبعاد مكانية إلى اليسار ، وثلاثة أبعاد إلى اليمين . وهذه الأصول هي التي حددت محتويات العالم ، كما حددت الحروف الهجائية العبرية الثلاثة والعشرون الصور والأشكال التي يستطيع بها العقل البشري فهم عملية الخلق . وتوالت على الكتاب شروح العلماء من أيام سعديا إلى القرن التاسع عشر .

ونقل أحد أحبار اليهود البابليين حوالي عام ٨٤٠ هذه العقائد الخفية إلى إيطاليا ، ثم انتقلت منها إلى ألمانيا ، وپروفرانس ، وأسبانيا . وأكبر الظن أن ابن جبيرول قد تأثر بها في نظريته القائلة بوجود كائنات وسطى بين الله والعالم . واتخذ أبراهام بن داود « التقاليد السرية » وسيلة لإبعاد اليهود عن نزعة ابن ميمون العقلية . وأكبر الظن أن ابنه إسحق الضريير وتلميذه عزرائيل هما مؤلفا سفر هباهير أو كتاب الضوء (١١٩٠ ؟) ، وهو شروح صوفية للأصحاح الأول من سفر التكوين . وقد استبدلا في هذا الكتاب فكرة خلق العالم عن طريق الفيض الرباني الواردة في سفر يصيرا بفكرة الضوء ، والحكمة ، والعقل . وعرض هذا التثليث للعقل الإلهي بوصفه ثالثاً يهودياً (٨٢) . وعرض العز من يهود ورمز (١١٧٦ - ١٢٣٨) ، وأبراهام بن شمويل أبو العافية (١٢٤٠ - ١٢٩١) هذه العقيدة السرية على أنها دراسة أعمق وأكثر نفعاً من التلمود . وقد استخدما في وصف الصلة بين الله والنفس البشرية لغة الحب الشهواني والزواج التي كان يستخدمها المتصوفة المسلمون والألمان .

وقبل أن يستهل القرن الثالث عشر كانت كلمة قبلة قد عم استعمالها لوصف العقيدة السرية في جميع مظاهرها ونتائجها . وفي عام ١٢٩٥ نشر موسى بن شم طوب من علماء ليون الكتاب الثالث من الكتب القبلية الهامة المسمى سفر زوهر أو كتاب الجهر وعزا تأليفه إلى شمعون بن يوحاى أحد علماء القرن الثاني ، فقال إن الملائكة قد ألهمت شمعون والسفروت العشرة أن يكشفوا لقرائه المستترين الأسرار التي كانت من قبل محتفظا بها إلى أيام المسيح المنتظر .

وقد جمعت في الزوهر كل عناصر القبلة : فكرة الإله الشامل لكل شيء الذي لا يعرف إلا عن طريق الحب ، والحروف الأربعة المكونة لاسم يهوه - التراجوماتون - ، والأوساط الخالقة ، والفيوض الربانية ، والاستعارات الأفلاطونية الخاصة بالعالم الكبير والعالم الصغير ، وتاريخ ظهور المسيح بوكيفية ظهوره ، وأزلية الروح وتنقلها ، والمعاني الصوفية للطقوس الدينية ، والأعداد ، والحروف ، والنقط ، والشرط ، واستعمال الكتابات الجفرية ، والحروف الأولى من العبارات التي إذا جمعت كونت اسماً خاصاً ، وقراءة للكلمات عكساً لا طردأ ، والتفسير الرمزي لنصوص الكتاب المقدس ، والقول بأن تحمل المرأة خطيئة وإن كان فيه تجسيد لسر عملية الخلق . وقد شوه موسى الليوني عمله حين جعل شمعون بن يوحنا يشير إلى خسوف حدث في رومة عام ١٢٦٤ ويقول بعدة آراء لم تكن ، كما يلوح ، معروفة قبل للقرن الثالث عشر ، وقد خدع بذلك كثيرين من الناس ، ولكنه لم يخدع زوجته ؛ وقد اعترفت أن زوجها موسى كان يرى في شمعون خدعة مالية بارعة^(٨٣) . وأدى نجاح هذا الكتاب إلى ظهور عدة كتب أخرى مضللة ، وجازى بعض القبليين المتأخرين موسى بمثل أعماله فنشروا آراءهم هم معزوة إليه .

وكان للقبلة أثر شامل واسع المدى ، وظل الزوهر وقتاً ما كتاباً يدرسه اليهود كدراستهم للتلمود ، بل إن بعض القبليين قد هاجموا التلمود ووصفوه بأنه كتاب بالقديم ، مفرط في التقطيع المنطقي ؛ وتأثر بعض علماء التلمود ، ومنهم ابن نجمان العالم النحير تأثراً شديداً بالمدرسة القبلية . وانتشر الاعتقاد بصدق القبلة ، وبأنها وحى من عند الله انتشاراً واسعاً بين يهود أوروبا^(٨٤) . وبقدر هذا الانتشار كان أثرها السيئ في مؤلفاتهم العلمية والفلسفية ، وانقضى عصر ابن ميمون الذهبي في صحف الزوهر الوضاء . وتعدى أثر القبلة اليهود إلى المسيحيين فافتن

بها بعض مفكرهم ؛ فأخذ عنها ريمند للى Raymond Lully (١٢٣٥ ؟ - ١٣١٥) أسرار الأعداد والحروف في كتابه Ars Magna وحسب بيكو دلا ميرندولا Pico della Mirandola (١٤٦٣ - ١٤٩٤) أنه قد وجد في القبلة أدلة قاطعة على ألوهية المسيح^(٨٥) ، واغتذى براسلس Pracelsus ، وكورنليوس Cornelius ، وأجريبا Agrippa ، وروبرت فلد Robert Fludd ، وهنرى مور Henry More وغيرهم من المتصوفة المسيحيين ببحوثها ، وأقر ليوهانس روشلين Johannes Reuchlin (١٤٥٥ - ١٥٢٢) بأنه قد سرق من القبلة بحوثه الدينية ، ولعل بعض الآراء القبلية قد سرت إلى يعقوب بوهم Jakob Böhme (١٥٧٥ - ١٦٢٤) . وإذا كانت نسبة اليهود الذين وجدوا السلوى في الإلهامات الصوفية إلى مجموعهم أكبر من هذه النسبة عند المسلمين أو المسيحيين ، فما ذلك إلا لأن الدنيا قد كشرت عن نايها لليهود ، وأرغمتهم في سبيل الحياة إلى أن يخفوا الحقائق وراء ستار من نسيج الخيال والرغبة ، والبائسون السيئو الحظ هم وحدهم الذين لا بد لهم أن يعتقدوا أن الله قد اصطفاهم لنفسه :

الفصل الثامن

العَتَق

لقد وجد يهود العصور الوسطى في عزلة جماعاتهم ، وفيما تسبغه عليهم شعائرهم وعقائدهم من سلوى ، ملجأ لهم من تمجيد الصوفية ، وزوال خداع عقيدة المسيح المنتظر ، ومما كان ينتابهم من الاضطهاد حيناً بعد حين ، ومن ملل الحياة الاقتصادية الرتيبة . فكانوا يحتفلون بمظاهر التقى بالأعياد التي تذكرهم بتاريخهم ، وخطوبهم ، ومجدهم التليد ، وعدلوا في صبر وأناة احتفالاتهم التي كانت من قبل تقسم السنة الزراعية لتوائم حياتهم الحضرية . فكان القراءون المتقرضون يحتفلون بالنسب في البرد والظلمة حتى لا يخالفوا الشريعة بإيقاد النار أو إضاءة السراج ، ولكن معظم اليهود كانوا يستقدمون أصدقاء لهم من المسيحيين أو زائرين ليقوا لهم النار متقدة والمصابيح مضيئة ، وكان أحبارهم يغضون النظر عن هذه المخالفة ، وكانوا يقتنمون كل فرصة لإقامة المآذب يظهر فيها سخاءهم وأبهتهم : فكانت الأسرة تقيم وليمة يوم سختان ابن لها أو بلوغه سن الرشد ، وفي خطبة ابن أو بنت أو زوجها ، أو زيارة عالم أو صديق مشهور أو حلول عيد ديتي . وأصدر رجال الدين أوامر بتحديد نفقات هذه الحفلات فنوا من يقيمونها عن أن يدعوا إليها أكثر من عشرين رجلاً ، وعشر نساء ، وخمس بنات ، وجميع أقارب الداعي حتى الطبقة الثالثة . وكانت حفلات الزواج تدوم أحياناً أسبوعاً كاملاً ، لا يسمحون أن يقطعها يوم السبت نفسه . وكان العروسان يتوجان بالورد ، والريحان ، وأغصان الزيتون ، وينثر في طريقهما النقل والقمح ، وتثر فوفهما حبوب الشعير رمزاً للإخصاب ، وكانت الأغاني والنكات تصاحب كل مرحلة من

مراحل هذا الحادث ، وفي أواخر العصور الوسطى كان مهرج ممتن يستأجر ليم للحاضرين سرورهم . وكانت نكات هذا المهرج في بعض الأحيان صادقة إلى حد القسوة . ولكنه يكاد على الدوام أن يعمل بقول هلال الظريف : « إن كل زوجة جميلة » (٨٦)

وبهذه الطريقة كان الجيل المنقضى يحتفل بانقضائه وحلول جيل آخر مكانه ، ويتبجح بمولد أبناء أبنائه ، ويستكن إلى الشيخوخة المتعبة الرحيمة . ونحن نشاهد وجوه أولئك اليهود الشيوخ في صور ريمبرانت Rembrandt : نشاهد ملاحظهم الناطقة بتاريخ الشعب والفرد ، ولحاهم تنفث الحكمة ، وعيونهم قد انطبعت فيها اللكريات الحزينة ، ولكنها قد رققها الحب الحنون : وليس في صفات المسلمين والمسيحيين الخلقية ما يفوق الحب المتبادل بين الشباب والشيب عند اليهود ، الحب الذي يتغاضى عن جميع الزلات ، وهداية العقول المحرّبة للعقول غير الناضجة ، والكرامة التي تحمل من عاشوا حياتهم كاملة على أن يرتضوا الموت ويروه النهاية الطبيعية للحياة .

واليهودى إذا مات لا يترك لأبنائه متاع الدنيا فحسب ، بل يترك لهم فوق ذلك نصائح الروحانية : « كن أول من يذهب إلى الكنيس » ، وهاهى ذى وصية العزّز (١٣٣٧) من أهل مينز تقول : « لا تتكلم في أثناء الصلاة ، وردّد الاستجابات ، واعمل الخير بعد الصلاة » .

وهاهى ذى آخر وصايا اليهودى :

خستلوني ، ومشطوا شعرى ، ودرّموا أظافرى ، كما كنت أفعل في حياتى ، كى أسير طاهراً إلى مقرّى الأبدى كما كنت أسير إلى الكنيس . كل سبت . وضعونى فى الثرى على يد أبى اليمنى ، فإذا ضاق المكان قليلاً فإنى واثق من أنه يمنى حبا يجعله يفتش لى مكاناً بجانبه (٨٧) .

فإذا ما لفظ الشخص نفسه الأخير أقلل الابن الأكبر للميت أو أكبر أبنائه

أو أقربائه مقاماً فاه وأنغمض عينه ، ثم تغسل جنته وتضمخ بالأدهان العطرة ، وتلف في قماش التيل النقي النظيف . ويكاد كل يهودى أن يكون عضواً في جمعية للدفن ، تأخذ الجثة ، وتعنى بها ، وتقوم بأحر الشعائر الدينية ، وتصحبها إلى قبرها . وكان حملة بساط الرحمة يسرون في الجنازة حفاة ، وتسير النساء أمام النعش ، ينشدن نشيداً حزيناً ، ويدقن طبله . وكان ينتظر من كل غريب تمر به الجنازة أن ينضم إليها ويسير فيها إلى المقبرة . وكان تاهوت الميت يوضع عادة بالقرب من توابيت الموتى من أقاربه ، حتى لقد كان معنى الدفن عندهم هو « الرقود مع الآباء » و « الاجتماع بالأهل » . ولم يكن المشيعون يستولى عليهم اليأس ، فقد كانوا يقولون إنه وإن مات الأفراد فإن بنى إسرائيل لن يموتوا .



1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42
43
44
45
46
47
48
49
50
51
52
53
54
55
56
57
58
59
60
61
62
63
64
65
66
67
68
69
70
71
72
73
74
75
76
77
78
79
80
81
82
83
84
85
86
87
88
89
90
91
92
93
94
95
96
97
98
99
100

الكتاب الرابع

العصور المظلمة

٥٦٦ - ١٠٩٥

الحوادث التاريخية في الكتاب الرابع

- ٤٨٦ - ٧٥١ : الأسرة المروثنجية في غالة .
٤٩٠ - ٥٤٣ : القديس بندكت .
٥٢٠ - ٥٦٠ : نشأة المجامع العلمية الأيرلندية .
٥٢١ - ٥٩٨ : القديس كولمبا .
٥٤٣ - ٦١٥ : القديس كولمبان .
٥٦٨ - ٧٧٤ : مملكة المبارد في إيطاليا .
٥٦٨ وما بعدها : تأسيس مدينة البندقية .
٥٨٢ - ٦٠٢ : موريق إمبراطوراً على الدولة الرومانية الشرقية .
٥٩٠ - ٦٠٤ : البابا جريجوري الأول العظيم .
٥٩٠ - ٦١٦ : إثلبرت ملك كنت .
٥٩٧ : أوغستين ينشر المسيحية في إنجلترا .
٦٠٠ - ١١٠٠ : الترتيمة الجريجورية .
٦٠٢ - ٦١٠ : اعتصاب فوقاس .
٦١٠ - ٦٤١ : هرقل يجلس على عرش الدولة الشرقية .
٦٢٥ - ٦٩٠ : بولس الإيجيني ، الطبيب .
٦٢٩ - ٦٣٨ : وجوبرت ملك الفرنجة .
٦٤٠ : الصقالية يدخلون بلاد البلقان .
جوالى ٦٥٠ : بيولف ؛ كيدمون ، الشاعر .
٦٥١ : تأسيس أوتل ديه (فندق الله) في باريس .
٦٧٣ - ٧٣٥ : بيد الموقر ، المؤرخ .
٦٨٠ - ٧٥٤ : بنيفاس ، رسول إل ألمانيا .
٦٨٧ - ٧١٤ : بين الأصغر يحكم الفرنجة .
٦٩٧ : الدوج الأول في البندقية .
٧١٣ - ٧١٦ : أناستوريوس الثاني إمبراطور الدولة الشرقية .
٧١٧ - ٧٤١ : ليو الثالث الإسورى ، إمبراطور الشرق .
٧٢٦ وما بعدها : حركة محطى الصور في بيزنطية .
٧٣٥ : مدرسة يورك .
٧٣٥ - ٨٠٤ : الكوين ، المرقي .
٧٥١ - ٧٦٨ : بين القصير يحكم الفرنجة .
٧٥١ - ٩٨٧ : أسرة كرونجيه من الملوك الفرنجة .
٧٥٦ : هبة بين تثبت قوة البهابوات الزمنية .
٧٦٨ - ٨١٤ : شارلمان ملك الفرنجة .

- ٧٧٢ - ٨٠٤ : حروب شارلمان ضد السكسون .
٧٧٤ : شارلمان يقسم تاج لمباردية .
٧٧٤ - ١٢٠٠ : الطراز المعاصر الروماني .
٧٧٦ - ٨٥٦ : رابانوس موروس ، المرني .
٧٧٨ : شارلمان في أسبانيا ؛ رولان في ونسفال .
٧٨٠ - ٧٩٠ : إيريتي وصية على العرش في القسطنطينية .
٧٨٧ : الدنمركيون يبدؤون غاراتهم على إنجلترا .
٧٩٥ : الدنمركيون يبدؤون غاراتهم على أيرلندا .
٧٩٧ - ٨٠٢ : إيريتي « إمبراطور » الشرق .
٨٠٠ : البابا ليو الثالث يتوج شارلمان إمبراطوراً على الدولة الرومانية .
٨٠٢ : بلغاريا تحت حكم خان كروم .
٨١٣ - ٨٢٠ : ليو الخامس إمبراطور الشرق الأرمني .
٨١٤ - ٨٤٠ : لويس الأول ملك الفرنجة التتويج .
٨١٥ - ٨٧٧ : جون اسكوتس أرچينا ، الفيلسوف .
حوالي ٨٢٠ : الفرياجيون يدخلون روسيا .
٨٢٩ : إجبرت يؤسس الحكومة السباعية الإنجليزية السكسونية ويصبح ملكاً على إنجلترا .
٨٢٩ - ٨٤٢ : ثيوفيلوس الأول إمبراطور الشرق .
٨٤٤ - ٩٢٤ : غارات الشماليين على فرنسا .
٨٤٣ : تجزئة فردون ؛ لدفع يصبح أول ملوك ألمانيا .
٨٤٥ - ٨٨٢ : هتكار أسقف ريمس .
٨٤٨ وما بعدها : مدرسة سلرنو الطبية .
حوالي ٨٥٠ : كتاب ككل ؛ ليو السالونيكى ، العالم الرياضى .
٨٥٢ - ٨٨٨ : بوزيس الخان والقديس البلغاري .
٨٥٧ - ٨٩١ : فوتيوس بطريرك القسطنطينية .
٨٥٨ - ٨٦٧ : البابا ثيودور الأول .
٨٥٩ : روريك أمير روسيا العظيم .
٨٦٠ - ٩٣٣ : كهرلد هارفاجر أول ملوك النرويج .
٨٦٢ : الفنجاريون في نوفجورود .
٨٦٣ : بمثة سيريل ومثوديوس إلى المورافيين .
٨٦٧ - ٨٨٦ : باسيل الأول يؤسس أسرة مقدونية .
٨٧١ - ٩٠١ : ألفرد الأكبر .
٨٧٢ : الشماليون يستعمرون أيسلندا .
٨٧٥ - ٨٧٧ : شارل الأصغر ، إمبراطور الغرب .
٨٨٦ : الشماليون يحاصرون باريس .
٨٨٦ - ٩١٢ : ليو السادس الحكيم ، إمبراطور الغرب .

- ٨٨٧ وما بعدها : السجل الإنجليزي - السكسوفي
٨٨٨ : أدو ملك فرنسا .
٨٩٣ - ٩٢٧ : سميون إمبراطور البلغار .
٨٩٩ - ٩٤٣ : المجر يميثون في أوروبا فساداً .
٩٠٥ : ساذكو الأول يؤسس مملكة نبرة .
٩١٠ : تأسيس دير كلوفى .
٩١١ : كزاد الأول ملك ألمانيا ، رولو دوق تورمندا .
٩١٢ - ٩٥٠ : قنسطنطين السابع يورفيرو جنتيوس .
حوالى ٩١٧ : الديوان اليونانى .
٩١٩ - ٩٣٦ : هنرى الأول الصياد ملك ألمانيا .
٩٢٥ - ٩٨٨ : القديس دنستان .
٩٢٨ - ٩٣٥ : فنسلاس الأول ملك بوهيميا .
٩٣٠ : تأسيس الألتنج الأيسلندى .
٩٣٤ - ٩٦٠ : هاكون الصالح ملك النرويج .
٩٣٦ - ٩٧٣ : أتمو الأول ملك ألمانيا .
٩٥٠ : أوج الحضارة الأيرلندية في العصور الوسطى .
٩٥٥ : أتمو يهزم المجر على وادى لك .
٩٦١ : دير القديس لافرا على جبل أنوس .
٩٦٢ : أتمو الأول إمبراطوراً على الغرب .
٩٦٣ : أتمو يخلع البابا يوحنا الثالث عشر .
٩٦٣ - ٩٦٩ : نقفور فوقاس إمبراطور الشرق .
٩٦٥ - ٩٩٥ : هاكون « الإيرل العظيم » ملك النرويج .
٩٦٨ : هر سوزا ، المؤلف المسرحى .
٩٧٣ - ٩٨٣ : أتمو الثالث إمبراطور ألمانيا .
٩٧٥ - ١٠٣٥ : ماذكو العظيم ملك نبرة .
٩٧٦ : معجم سويداس .
٩٧٦ - ١٠١٤ : بريان يورمها ملك منستر .
٩٧٦ - ١٠٢٦ : باسيل الثالث إمبراطور الشرق .
٩٧٦ - ١٠٧١ : كنيسة القديس مرقس في البندقية .
٩٨٠ - ١٠١٥ : فلاديمير الأول ملك كييف .
٩٨٣ - ١٠٠٢ : أتمو الثالث إمبراطور ألمانيا .
٩٨٧ - ٩٩٦ : هيوكايت يؤسس الأسرة الكايتية من ملوك فرنسا .
٩٨٩ : روسيا تمتنق المسيحية .
٩٩٢ - ١٠٢٥ : بولسلاف الأول أول ملوك بولندا .
٩٩٤ وما بعدها : الإصلاح الكلوفى للأديرة .

- ٩٩٧ - ١٠٣٨ : القديس أستيفن ملك المجر .
٩٩٩ - ١٠٠٣ : البابا سلفستر الثاني (جربرت) .
١٠٠٠ : ليف إركسون في « فنلندا » .
١٠٠٢ - ١٠٢٤ : هنري الثاني إمبراطور ألمانيا .
١٠٠٧ - ١٠٢٨ : فلبرت أسقف شارتر .
١٠٠٩ - ١٢٠٠ : الطراز الرومانسي الألماني .
١٠١٣ : سوين الدمرق يفتح إنجلترا .
١٠١٤ : بريان بورمها يهزم الشماليين في كلتارف .
١٠١٥ - ١٠٣٠ : القديس أولاف ملك النرويج .
١٠١٦ - ١٠٣٥ : كنوت ملك إنجلترا .
١٠١٨ - ١٠٨٠ : ميخائيل بسلوس ، المؤرخ .
١٠٢٢ - ١٠٨٧ : قسطنطين الأفريقي ، المترجم .
١٠٢٤ - ١٠٣٩ : كزاد الثاني إمبراطور ألمانيا .
١٠٢٨ - ١٠٥٠ : زوني وثيودورا يحكان الدولة الشرقية .
١٠٣٣ - ١١٠٩ : القديس أنسلم .
١٠٣٤ - ١٠٤٠ : دنكان الأول ملك اسكتلندا .
١٠٣٥ - ١٠٤٧ : مجنوس الصالح ملك النرويج .
١٠٣٩ - ١٠٥٦ : هنري الثالث إمبراطور ألمانيا .
١٠٤٠ - ١٠٥٢ : ماكبت المفتصب ملك اسكتلندا .
١٠٤٠ - ١٠٩٩ : ردريجو ديار السيه .
١٠٤٣ - ١٠٦٦ : إدورد المعترف ملك إنجلترا .
١٠٤٦ - ١٠٧١ : كنيسة القديس أمبروز في ميلان .
١٠٤٨ وما بعدها : دير جومبيج .
١٠٤٩ - ١٠٥٤ : البابا ليون التاسع .
١٠٥٢ : وفاة إيرل جدون ، السياسي .
١٠٥٤ : انفصال الكنيسة اليونانية عن الكنيسة الرومانية .
١٠٥٥ - ١٠٥٦ : ثيودورا إمبراطورة على الشرق .
١٠٥٦ - ١١٠٦ : هنري الرابع إمبراطور ألمانيا .
١٠٥٧ - ١٠٥٩ : إسحق كمينوس إمبراطور الشرق .
١٠٥٧ - ١٠٧٢ : بطرس دميان أسقف أستيا .
١٠٥٨ : ملكم الثالث ملك اسكتلندا يتلع مكبت .
١٠٥٩ - ١٠٦١ : البابا نقولاس الثاني ، تأسيس مجمع الكرادلة .
١٠٦٠ : ربرت جوسكارد دوق أبلينا .
١٠٦١ - ١٠٩١ : فتح النورمان لصقلية .

- ١٠٦٣ : الأمير هارولد يفتح ويلز .
١٠٦٣ وما بعدها : كنيسة بيذا الكبرى .
١٠٦٦ : هارولد ملك إنجلترا ؛ واقعة هاستنجز ، انتح النورمان لإنجلترا .
١٠٧٣ - ١٠٨٥ : البابا جريجوري السابع هلدبراند ر
١٠٧٥ : المرسوم المناهض لتولية غير رجال الدين ، حرمان هنري الرابع .
١٠٧٧ : هنري الرابع في كنوسا .
١٠٨١ - ١١١٨ : ألكسيوس الأول إمبراطور الشرق .
١٠٨٥ : نهب ربرت جوسكارد لرومة .

الباب الثامن عشر

العالم البيزنطي

١٠٩٥ — ٥٦٥

الفضل الأول

هرقل

إذا حولنا الآن. نظرتنا من الجانب الشرقى للنزاع الدائم بين الشرق والغرب ، شعرنا من فورنا بالعطف على دولة عظيمة تنناها محنتان في وقت واحد : تمزقها الانقسامات في الداخل ، وبيهاجها الأعداء من جميع الجهات في الخارج . فقد كان الآقار والصقالبة يعبرون نهر الدانوب ويستولون على أراضى الإمبراطورية وبلدانها ؛ وكان الفرس يستعدون لاجتياح آسية الغربية ؛ وخسر القوط الغربيون أسبانيا ، واستولى اللمبارد بعد ثلاث سنين من موت جستنيان على نصف إيطاليا (٥٦٨) . وفشا الطاعون في جميع أنحاء الإمبراطورية في عام ٥٤٢ وعاد إليها مرة أخرى في عام ٥٦٦ ؛ وعمتها المجاعة في عام ٥٦٩ ؛ وعطلت الحروب ، والممجية ، والفقر ، وسائل الاتصال ، ووقفت في سبيل التجارة ، وقضت على الآداب والقنون .

وكان خلفاء جستنيان أباطرة أولى قوة وكفاية ، ولكن المشاكل التي واجهتهم لم يكن في وسع أحد أن يتغلب عليها إلا رجال من طراز نابليون يتلو بعضهم

بعضاً مدى قرن كامل دون انقطاع . وقاتل جستين الثاني (٥٦٥ - ٥٧٨)
الفرس الساعين إلى التوسع قتال الأبطال ، ولم تكد الآلة تضمن على
تبيير يوس الثاني بكل ما لديها من الفضائل ، ولكنها اختصرته بعد حكم
عادل قصير . وهاجم موريق الآفار الغزاة بشجاعة ومهارة ، ولكنه لم يلق
من الأمة إلا قليلاً من التأيد ، فقد كان آلاف من أبنائها يدخلون الأديرة .
فراراً من الخدمة العسكرية ؛ ولما أن نهى موريق الأديرة عن قبول أعضاء
جدد فيها إلا بعد زوال الخطر عن الدولة نادى الرهبان بسقوطه . وتزعم
فوقاس الذي عمر مائة عام ثورة قام بها الجيش والعامّة على الأشراف .
والحكومة (٦٠٢) ، وذبح أبناء موريق الخمسة أمام عينيّه ؛ وأبى
الإمبراطور الشيخ على مربية أصغر أبنائه أن تنجيه من القتل بأن تستبدل
ابنها هي به ؛ فلما قطع رأسه علقت الرؤوس الستة لتتمتع بها عين الشعب ،
وألقيت جثثهم في البحر . وذبحت الإمبراطورة قسطنطينية ، وبناتها
الثلاث ، وكثير من الأشراف ، وكان مقتلهم مصحوباً في العادة بضروب
من التعذيب ، بعد محاكمة أو بغير محاكمة ، فسملت أعينهم ، واقتلعت
السننم من أفواههم ، وبترت أطرافهم ، وارتكبت الفظائع التي تكررت
فيما بعد أثناء الثورة الفرنسية .

وأفاد كسرى الثاني من هذا الاضطراب ، ووجدد الحرب القديمة حرب
الفرس واليونان ، وعقد فوقاس الصلح مع العرب ، ونقل الجيش البيزنطي كله
إلى آسية ؛ ولكن الفرس هزموه في كل واقعة التقوا به فيها ، واستولى الآفار
على جميع الأراضي الزراعية الواقعة خلف القسطنطينية إلا قليلاً منها ، دون أن
يلقوا مقاومة ، واستغاث أشراف العاصمة بهرقل إمبراطور أفريقية اليوناني ،
ودعوه لينتقل الإمبراطورية وينجي أملاكهم . لكنه اعتذر محتجاً بكبر سنه ،
وأرسل إليهم ابنه . وجهز هرقل الأصغر عمارة بحرية ، جاء بها إلى البسفور ،

وخاع فوقاس ، وعرض جثة المغتصب المبتورة الأطراف أمام الشعب ،
ونودي به إمبراطوراً (٦١٠) . .

وكان هرقل خليفاً باسمه واقبه ، فقد شرع يعزيمة سميه هرقل الأسطوري
بعيد تنظيم الدولة المخطمة ، وقضى عشر سنين يعمل لإحياء روح الشعب
المعنوية ، ويعيد قوة الجيش ، وينظم موارد الخزانة ، ووهب الأرض
للزراع على شريطة أن يوذى أكبر أبناء الأسرة الخدمة العسكرية . وفي
هذه الأثناء استولى الفرس على أورشليم (٦١٤) ، وتقدموا إلى خلقدون
(٦١٥) ، ولم يتقد عاصمة الدولة وأوروبا إلا الأسطول البيزنطى . ولم يمض
بعد ذلك إلا قليل حتى زحفت جحافل الآفار على القرن الذهبى ، وأغاروا
على أرباض العاصمة ، وقبضوا على آلاف من اليونان واتخذوهم أرقاء .
وكانت نتيجة خسارة الأراضى الحصبة الواقعة خلف القسطنطينية مضافة إلى
خسارة مصر أن انقطعت واردات الحبوب عن المدينة ، وأرغمت الحكومة
على قطع إعامات الغذاء عن الأهلين (٦١٨) ، وفكر هرقل فى يأس أن
ينقل جيشه إلى قرطاجنة ، وأن يحاول منه الاسترجاع مصر . ولكن الأهلين
والقساوسة منعه من المسير ، ورضى البطريق سرجيوس أن يقرضه ثروة
الكنيسة اليونانية بفائدة ، ليعول بها حرباً مقدسة يستعيد بها أورشليم (٣) .
ولهذا تصالح هرقل مع الآفار ثم زحف آخر الأمر لقتال الفرس .

وكانت الحروب التى أعقبت هذا الزحف آيات فى التفكير والتنفيذ . فقد
واصل هرقل الحرب على أعدائه ست سنوات ، هزم فيها كسرى عدة مرار ،
وحاصر فى أثناء غيابه جيش من الفرس ، وجحافل من الآفار ، والباغار والصقالبة
مدينة القسطنطينية (٦٢٦) ، فسير هرقل جيشاً هزم الفرس فى خلقدون ،
ومزقت حامية العاصمة وعامتها بتحريض البطريق جحافل البرابرة . ودق هرقل
أبواب طيسفون ، وسقط كسرى الثانى ، وطلبت فارس الصلح ، وردت

كل ما كان كبرى قد استولى عليه من الإمبراطورية البيزنطية ، و عاد هرقل ظافراً إلى القسطنطينية بعد أن غاب عنها سبع سنين .
ولم يكن هرقل خليفاً بمصيره الذى جعله العار فى سن الشيخوخة . فبينما هو يبذل ما بقى لديه من نشاط فى إصلاح شئون الإدارة بعد أن هذ المرض قواه إذ انقضت قبائل العرب على بلاد الشام (٦٣٤) ، وهزمت جيشاً يونانياً منهوك القوى ، واستولت على بيت المقدس (٦٣٨) ، ثم استولت على مصر بينما كان الإمبراطور يعانى سكرات الموت (٦٤١) . وكانت فارس وبيزنطية قد جرت كلتاها الخراب على الأخرى بحروبها العوان . وواصل العرب انتصاراتهم فى أيام قنسطانس الثانى (٦٤٢ - ٦٦٨) ؛ وظن قنسطانس أن لا نجاة للإمبراطورية ، ففضى آخر سنى حياته فى الغرب ثم قتل فى سرقوسة . وكان ابنه قسطنطين الرابع يجنونوتس Pognonotus أقدر منه أو أسعد حظاً . ولما أن حاول المسلمون مرة أخرى فى خلال السنين الخمس الحاسمة (٦٧٣ - ٦٧٨) أن يستولوا على القسطنطينية أنقذت أوربا « النار الإغريقية » التى ورد ذكرها وقتئذ لأول مرة . وكان هذا السلاح الحديد ، الذى يعزى اختراعه إلى كلسنوبوس Calcinus السورى من نوع قاذفات اللهب المستخدمة فى هذه الأيام ، فهو مزيج حارق من النفط ، والجير الحى ، والكبريت ، والزفت ، يلقى على سفن العدو أو جيوشه فى سهام ملتهبة ، أو يصب عليها من أنابيب ، أو يقلف فى صورة كرات من الحديد مغطاة بالكثبان ونسائه المغموسة فى الزيت ، أو يوضع فى قوارب صغيرة وتشعل وتوجه إلى العدو . وأفلحت الحكومة البيزنطية فى الاحتفاظ بسر هذا المزيج مدى قرنين من الزمان ، وكان إفشاؤه يعد خيانة للوطن وإنما دينياً ؛ غير أن المسلمين كشفوا آخر الأمر هذا السر ، واستخدموا « النار الإسلامية » فى حرب الصليبيين . وظل هذا السلاح أكثر ما يتحدث عنه الناس فى العصور الوسطى فى العالم كله إلى أن اخترع البارود .

وهاجم المسلمون العاصمة اليونانية مرة أخرى في عام ٧١٧ ، فعبر جيش من العرب والفرس عدته ثمانون ألف مقاتل بقيادة مسلمة مضيق البسفور عند أبيدوس وحاصر القسطنطينية من خلفها . ثم جهز العرب في الوقت نفسه عمارة بحرية مؤلفة من ألف وثمانمائة سفينة ، كانت على ما نظن من السفن الصغيرة ، ودخلت هذه العمارة البحرية البسفور ، وكانت تظلل المضيق ، على حد قول أحد الإخباريين ، كأنها غابة متحركة . وكان من حسن حظ اليونان وقتئذ أن جلس على عرش الإمبراطورية في هذه الأزمة ، بدل ثيودوسيوس Theodosius الثالث الضعيف العاجز ، قائد محنك هو ليو « الإسورى » Leo The Isaurian ، وشرع ينظم وسائل الدفاع ، فوزع قطع الأسطول البيزنطى بمهارة وحنكة ، وتأكد من أن كل سفينة قد زودت بكفايتها من النار الإغريقية ؛ فلم يمحى إلا قليل من الوقت حتى اشتعلت النار في كل سفينة من سفن العرب ، فلم تكدر تبقى على واحدة منها . ثم هجم الجيش اليونانى على المحاصرين ، وانتصر عليهم نصراً حاسماً ارتد المسلمون على أثره إلى بلاد الشام .

الفصل الثاني

محطمو الصور والتماثيل الدينية

يستمد ليو الثالث لقبه من إقليم إسوريا Isauris في قلبقية ؛ ويقول ثيوفان Theophanes إنه ولد في هذا الإقليم من أبوين أرمنيين ؛ ثم انتقل والده من هناك إلى تراقية ، وأخذ يربي الضأن ، وأرسل منها خمسمائة رأس مصحوبة بابنه ليو هدية منه إلى الإمبراطور جستنيان الثاني . وأصبح ليو فيما بعد جندياً في حرس القصر ، ثم قائداً لفيلق الأناضول ، ثم اختاره الجيش لإمبراطوراً ، والجيش كما لا يخفى لا يرد له اختيار ؛ وكان ليو رجلاً طموحاً ، قوى الإرادة ، مثابراً ، صبوراً ؛ وكان قبل اختياره للجلوس على العرش قد هزم عدة مرار جيوشاً إسلامية تفوق جيوشه ؛ كما كان بعد ذلك سياسياً محنكاً ، وهب الإمبراطورية الاستقرار الناشئ من التطبيق العادل للقوانين العادلة ، وأصلح نظام الضرائب ، وخفّض من أعباء رقيق الأرض ، ووسع نطاق الملكية الزراعية ، ووزع الأراضي على الفلاحين ، وعمر الأقاليم المهجورة ، وأعاد النظر في القوانين ، ووضعها على أساس إنشائي حكيم ، ولم يكن يعييه إلا سلطانه الأوتوقراطي .

ولعله قد تشبعت نفسه وهو في صباه بأسية بفكرة رواقية متزمتة عن الدين سرت إليه من المسلمين ، واليهود ، والمانيين ، واليعاقبة ، ومن تعاليم القديس بولس ، وكلاهما تدمعكوف جمهرة المسيحيين على عبادة الصور والتماثيل ، والحرص الشديد على المراسم والطقوس ، والاعتقاد بالخرافات . ولقد نهى العهد القديم في صراحة تامة (الآية الخامسة عشرة من الأصحاح الرابع من سفر التثنية) المؤمنين على أن يضعوا : « تمثالاً منحوتاً صورة مثال ما شبه ذكر أو أنثى شبه بهيمة ما مما على الأرض الخ » . وكانت الكنيسة في أول أمرها تكره الصور والتماثيل

وتعدّها بقايا من الوثنية ، وتنظر بعين المقت إلى فن النحت الوثني الذي يهدف إلى تمثيل الآلهة . ولكن انتصار المسيحية في عهد قسطنطين ، وما كان للبيئة والتقاليد والتماثيل اليونانية من أثر في القسطنطينية والشرق الهلنستي ، كل هذا قد خفف من حدة مقاومة هذه الأفكار الوثنية . ولما أن تضاعف عدد القديسين المعبودين ، نشأت الحاجة إلى معرفتهم وتذكرهم ؛ فظهرت لهم وللمريم العذراء كثير من الصور . ولم يعظم الناس الصور التي يزعمون أنها تمثل المسيح فحسب ، بل عظموا معها خشبة الصليب - حتى لقد أصبح الصليب في نظر ذوى العقول الساذجة طلسمًا ذا قوة سحرية عجيبة . وأطلق الشعب العنان لفظرته فحول الآثار ، والصور ، والتماثيل المقدسة ، إلى معبودات ، يسجد الناس لها ، ويقبلونها ، ويوقدون الشموع ويحرقون البخور أمامها ، ويتوجونها بالأزهار ، ويطلبون المعجزات بتأثيرها الخفي . وفي البلاد التي تتبع مذهب الكنيسة اليونانية بنوع خاص ، كنت ترى الصور المقدسة ، في كل مكان - في الكنائس ، والأديرة ، والمنازل ، والحوائط - ، وحتى أثاث المنازل ، والحلى ، والملابس نفسها لم تخل منها . وأخذت المدن التي تهددها أخطار الوباء ، أو المجاعة ، أو الحرب تعتمد على قوة ما لديها من الآثار التينية أو على من فيها من الأواباء والقديسين بدل أن تعتمد على الجهود البشرية للنجاة من هذه الكوارث ؛ وكم من مرة نادى آباء الكنيسة ، ونادت مجالسها ، بأن الصور ليست آلهة ، بل هي تذكر بها فحسب^(٤) ، ولكن الشعب لم يكن يأبه بهذه التفرقة .

وغضب ليو الثالث من هذا الإفراط في التدبير من جانب الشعب . وخيل إليه أن الوثنية أخذت تغزو المسيحية وتتغلب عليها من جديد بهذه الوسيلة ، وحز في نفسه ما كان يوجهه المسلمون ، واليهود ، والشيع المسيحية المنشققة من المطاعن للخرافات السائدة عند جماهير المسيحيين المتمسكين بدينهم . وأراد أن يضعف من سلطان الأساقفة على الشعب والحكومة ، ويضمن تأييد النساطرة ، واليعاقبة ،

فقد مجلساً من الأساقفة ، وأعضاء مجلس الشيوخ ، وأذاع بموافقتهم في عام ٧٢٦ مرسوماً يطلب فيه إزالة جميع الصور والتماثيل الدينية من الكنائس ، وحرم تصوير المسيح والعدراء ، وأمر بأن يغطى بالجص ما على جدران الكنائس من صور . وأيد بعض كبار رجال الدين هذا المرسوم ، ولكن للرهبان وصغار القساوسة احتجاجاً عليه ، وثار عليه الشعب ، وهاجم المصلون الجنود الذين حاولوا تنفيذ القانون بالقوة ، لأنهم قد روعهم وأثار غضبهم هذا التدنيس المتعمد لأعز رموز دينهم . ونادت قوات الثوار في بلاد اليونان وخلقيدية بإمبراطور آخر ، وسيرت أسطولاً ليستولى على العاصمة . ودمر ليو هذا الأسطول ، وزبح زعماء معارضيهِ في السجون ، وفي إيطاليا ، التي لم تمنح منها في يوم من الأيام أساليب العبادات الوثنية ، أجمع الشعب كله تقريباً على معارضة المرسوم ، وطردت مدائن البندقية ، ورافنا ، ورومة عمال الإمبراطورية ، واجتمع مجلس من أساقفة الغرب دعا إليه البابا جريجوري الثاني وصب اللعنة على محطى الصور والتماثيل المقدسة دون أن يذكر اسم الإمبراطور . وانضم بطريق القسطنطينية إلى الثائرين ، وحاول بانضمامه إليهم أن يعيد إلى الكنيسة الشرقية استقلالها عن الدولة ، فما كان من ليو إلا أن خلعه من منصبه (٧٣٠) ، ولكنه لم يعتد عليه ، وبلغ من رافة الإمبراطور في تنفيذ المرسوم أن ظلت معظم الكنائس إلى يوم وفاته في عام ٧٤١ محتفظ بمظالمها وسيفسائها سليمة .

وسار ابنه قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥) على نهجه ولقبه المؤرخون المعادون له بذلك اللقب الظريف « كبرونيموس Copronymus » (المشتق من الدبال) . وجمع الإمبراطور الجديد مجلساً من أساقفة الشرق في القسطنطينية (٧٥٤) ، حرم عبادة الصنوبر والتماثيل ، ووصفها بأنها عمل « ممقوت » ، وقال إن « الشيطان قد أعاد عبادة الأوثان إلى سابق عهدها عن طريق عبادتها » . ولعن « الفنان الجاهل الذي يشكل بيديه النجستين ما لا يصح أن يؤمن

به الناس إلا بملوهم» (٥) ، وأمر بأن يحرق أو يدمر كل ما في الكنائس من صور وتماثيل . ونفذ قسطنطين هذا القرار بلا كياسة أو اعتدال ، فسجن من قاومه من الرهبان أو سلط عليهم ألوان العذاب ، فسملت الأعين ، واقطعت الألسنة ، وجدعت الأنوف مرة أخرى ؛ وعذب البطريق وقطع رأسه (٧٦٧) . وفعل قسطنطين الخامس ما فعله هنري الثامن فيما بعد ، فأغلق أديرة الرهبان والراهبات ، وصادر أموالها ، وحول مبانيها إلى أغراض غير دينية ، ووزع أرضها على محاسبيه . وجمع عامل الإمبراطورية في إفسوس ، بموافقة الإمبراطور ، رهبان الولاية وراهباتها ، وأرغم الرهبان على أن يتزوجوا الراهبات وإلا قتلهم جميعاً (٦) . وظل هذا الاضطهاد يجري في مجراه خمس سنين (٧٦٣ - ٧٧١) .

وأرغم قسطنطين ابنه ليو الرابع (٧٧٥ - ٧٨٠) على أن يقسم بالجرى على خطة تحطيم الصور والتماثيل السالفة الذكر . وفعل ليو ما مكنته من فعله بنيته الضميمة ؛ ولما حضرته الوفاة اختار ابنه قسطنطين السادس البالغ من العمر عشر سنين إمبراطوراً (٧٨٠ - ٧٩٧) ، ورشح أرملته إيريني وصية على العرش حتى يبلغ ولده القاصر سن الرشد . وحكمت إيريني الإمبراطورية بمهارة وقوة مجردة من الضمير . وكانت تعطف على مشاعر الشعب الدينية وعلى بنات جنسها ، فأنتهت في هدوء عهد تنفيذ المرسوم الخاص بتحطيم الصور والأصنام ، وسمحت للرهبان أن يعودوا إلى أديرتهم ومنابرهم ، ودعت رجال الدين في العالم المسيحي إلى مجمع نيقية الثاني (٧٨٧) ، حيث أعاد ٣٥٠ من الأساقفة ، بزعامة مندوب البابا ، تعظيم الصور المقدسة - لا عبادتها - وقالوا إنها تعبير مشروع عن التقى والإيمان المسيحيين .

وبلغ قسطنطين السادس سن الرشد في عام ٧٩٠ ؛ ولما رأى أن أمه لا ترغب في أن تتخلى له عن سلطتها خلعها ونفاها من البلاد وسرعان ما ندم هذا الشاب الظريف على فعلته ، فأعادها إلى بلاطه ، وأشركها معه في حكم

الإمبراطورية (٧٩٢) ؛ فلما كان عام ٧٩٧ عملت على سجنه وفتق عينيه ، ثم حكمت الدولة بعدئذ بوصفها « إمبراطوراً » لا إمبراطورة . وظلت خمس سنين تصرف شئون الإمبراطورية بحكمة ودهاء ، فخفضت الضرائب ، ووزعت الهبات على الفقراء ، وأنشأت المؤسسات الخيرية ، وحملت العاصمة . وأحبها الشعب ورحب بها ، ولكن الجيش قد ساءه أن تحكمه امرأة أقدر من معظم الرجال . وخرج عليها في عام ٨٠٢ محطمو الصور والتماثيل ، وخلعوها ، ونادوا بتقفور وزير ماليتها إمبراطوراً . واستسلمت لإيريني لمصيرها في هدوء ، ولم تطلب إلى الإمبراطور أكثر من ملجأ أمين يليق بمقامها . فوعدها أن يجيب طلبها ، ولكنه نفاها إلى لسبوس ، وتركها تكسب قوتها القليل بالاشتغال بالخياطة حتى ماتت بعد تسعة أشهر من ذلك الوقت ، لا تكاد تجد درهماً أو صديقاً . وعفا رجال الدين عن جرائمها لتقواها ، ورفعها الكنيسة إلى مقام القديسين .

الفصل الثالث

نظرة عامة في أحوال الإمبراطورية

٨٠٢ - ١٠٥٧

إذا أردنا أن نلقى نظرة شاملة على الحضارة البيزنطية نقدرها بها تقديراً صادقاً نطلب منا ذلك أن نلم بتاريخ كثير من الأباطرة وبعض الإمبراطورات - ولسنا نقصد بذلك ما دبروه ودبرنه من دسائس القصور، والثورات، والاختيالات، بل نقصد سياستهم، وتشريعاتهم، وجهودهم الطويلة لحماية الإمبراطورية المتناقصة الرقعة من هجمات المسلمين في الجنوب، والصقالبة والبلغار في الشمال. وتمثل هذه الصورة من بعض نواحيها البطولة الصادقة: فقد حافظت الإمبراطورية خلال صروف تاريخها، وتقلباته، ومن ظهر على عرشها ومن اختفى عنه من أشخاص، على القسط الأكبر من التراث اليوناني: احتفظت بالنظام الاقتصادي ثابتاً متصلاً، وظلت الحضارة قائمة كأن من ورائها دافعاً قوياً غير منقطع من الجهود القديمة لبركليز وأغسطس، ودقلديانوس وقسطنطين. هذا من ناحية، أما من الناحية الأخرى فهي صورة مؤسسية لقواد يرقون إلى السلطة الإمبراطورية على أشلاء منافسهم، ثم لا يلبثون أن يقتلوا مثلهم، ولظواهر الأبهة والترف، والعيون المسمولة، والأنوف المجدوعة، والبخور والتقى والغدر، ومن أباطرة وبطارقة لا ضمير لهم يناضلون ليقروا هل تحكّم الإمبراطورية القوة أو الأساطير، السيف أو الكلام. وهكذا نمر بنقفور الأول (٨٠٢ - ٨١١) وحروبه مع هارون الرشيد، وميخائيل الأول (٨١١ - ٨١٣) وقد ثل عرشه وجز شعره لأن البلغار هزموه، وليو الخامس الأرمني (٨١٣ - ٨٢٠) الذي حرم مرة أخرى عبادة الصور والتماثيل والذي اغتيل وهو ينشد ترنيمه للكنيسة، وميخائيل

الثاني (٨٢٠ - ٨٢٩) الأمي « المتلجلج » الذي عشق راهبة وحمل مجلس الشيوخ على أن يتوسل إليه أن يتزوجها^(٧) ، وثيوفيلس (٨٢٩ - ٨٤٢) المشرع المصلح ، والملك البناء ، والإداري الحى الضمير الذى أحيا سنة اضطهاد مجتمى التماثيل وقضى عليه الزحار ، وأرملته ثيودورا التى حكمت البلاد نيابة عنه حكما قديراً (٨٤٢ - ٨٥٦) وأنته عهد الاضطهاد ، وميخائيل الثالث « السكثير » (٨٤٢ - ٨٦٧) الذى أسلم الإمبراطورية بعجزه اللطيف إلى أمه أولاً ثم إلى قيصر بارداس Caesar Bardas عمه المثقف القدير بعد وفاتها . ثم تظهر على المسرح على حين غفلة شخصية فذة لم تكن منتظرة تخرج على كل سابقة عدا سابقة العنف ، وتؤسس الأسرة المقدونية القوية .

فقد ولد باسيل المقدونى (٨٦٢ ؟) بالقرب من هديرانوبل Hadriaople من أسرة أرمنية من الزراع . وأسره البلغار وهو صغير وقضى شبابه بينهم وراء الدانوب فى البلاد التى كانت وقتئذ معروفة باسم مقدونية . ثم فر منهم وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، واتخذ سبيله إلى القسطنطينية ، واستأجره أحد رجال السياسة ليكون سائسا لخيوله لأنه أعجب بقوة جسمه وضخامة رأسه . وصحب سيده فى بعثة إلى بلاد اليونان ، وهناك استلقت نظر الأرملة دنيليس Danielis وحصل على بعض ثروتها . ولما رجع إلى العاصمة روض جوادا جموحا يملكه ميخائيل الثالث ، فأدخله الإمبراطور فى خدمته ، وظل يرتقى فيها حتى صار رئيس التشريعات وإن لم يكن يعرف القراءة والكتابة . وكان باسيل على الدوام قديرا فيما يوكل إليه من الأعمال ، سريع الاستجابة لها ، فلما أن طلب ميخائيل زوجا لعشيقتة ، طلق باسيل زوجته القروية ، وأرسلها إلى تراقية مع بائنة طيبة ، وتزوج بودوسيا Eudocia التى ظلت فى خدمة الإمبراطور . وهكذا حبا ميخائيل باسيل بعشيقتة ، ولكن المقدونى ظن أنه يستحق العرش جزاء له على فعلته ، فأقنع ميخائيل بأن بارداس يأتمر به ليخلعه ، ثم قتل يارداس بيديه الضخمتين (٨٦٦) ، وكان

مبخائيل قد اعتاد من زمن طويل أن يملك دون أن يحكم فجعل باسيل إمبراطوراً وترك له جميع شئون الحكم . ولما هدده ميخائيل بعزاه ، دبر باسيل اغتياله وأشرف على هذا الاغتيال بنفسه ، وانفرد هو بالإمبراطورية (٨٦٧) . وهكذا كانت المناصب مفتحة الأبواب لذوى الكفاية حتى في عهد الملكيات الوراثية المطلقة ، وهكذا أنشأ ابن الفلاح الأعمى غير المثقف بتدليله وجرائمه أطول الأسر الحاكمة البيزنطية عهداً ، وبدأ حكاما دام تسع عشرة سنة امتاز بإدارة الحازمة ، والقوانين الصالحة ، والقضاء العادل ، والخزانة الغاصة بالمال ، وبيناء الكنائس والقصور الحديدية في المدينة التي استولى عليها . ولم يكن أحد يجرؤ على معارضته ؛ ولما أن مات بسبب حادث وقع له أثناء الصيد ، انتقل الملك من بعده بهدوء غير معهود إلى ولده .

وكان ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢) مكلاماً في أبيه من نقص : كان متعلماً ، كثير القراءة ، ميالاً لعدم الحركة ، دمث الأخلاق ؛ ويقول الثرثارون المغتابون إنه كان ابن ميخائيل لا ابن باسيل ، ولعل يودوسيا نفسها لم تكن متأكدة من أبوته . ولم يكسب لنفسه لقب « الحكيم » بشعره ولا برسائله في الدين ، والإدارة ، والحرب ، بل كسبه بإعادته تنظيم شئون الحكم الإقليمي والكنسي ، وصياغة القوانين البيزنطية ، وتنظيمه الدقيق للصناعة . ومع أنه كان تلميذاً للطريق العالم فوتيوس Photius معجبا به ، وكان هو نفسه خاشعاً تقياً ، فقد هز مشاعر رجال الدين ، وسلى الشعب ، بأربع زيجات ، ماتت منها الأوليان دون أن تنجبا أبناء ؛ وأصر ليو على أن يكون له واد لأن هذا هو السبيل الوحيدة لوقاية الدولة من حرب الوراثة ، وحرمت المبادئ الأخلاقية الدينية للكنيسة الزواج الثالث ، وأصر ايو على رأيه ، وتوَّجت زوى Zoe زوجته الرابعة لإصراره بولده .

وسمى قسطنطين السابع (٩١٢ - ٩٥٨) البرفروجنس - « المولود

الأرجون» - أى فى الشقة المبطنة بالبرفيرى المخصصة لأن تستخدمها الإمبراطورات الحاملات . وقد ورث عن أبيه ذوقه الأدبى ، ولكنه لم يرث عنه كفايته الإدارية . وألف لأبنته كتابين فى فن الحكم : أحدهما فى ولايات الدولة وثانيهما كتاب فى الاعتقالات يصف فيه ما يطلب إلى الإمبراطور من المراسم وآداب اللياقة . وأشرف على جمع مؤلفات فى الزراعة ، والطب ، والطب البيطرى ، وعلم الحيوان ، ووضع « تاريخنا للعالم مستمدا من المؤرخين » بجمع مختارات من كتب المؤرخين والإخباريين ، وازدهرت الآداب البيزنطية بفضل تشجيعه ومناصرته ، ولكنه كان ازدهار على طريقها المصقولة الهزيلة .

وربما كان رومانوس الثانى (٩٥٨ - ٩٦٣) كغيره من الأطفال يقرأ كتب أبيه . وقد تزوج بفتاة يونانية تدعى ثيوفانو Theophano ؛ وظن أنها دست السم لحميها وعجلت موت رومانوس ؛ وقبل أن يموت زوجها البالغ من العمر أربعاً وعشرين سنة أغوت إلى أحضانها القائد الزاهد نففور الثانى فوقاس ، واغتصب القائد العرش وغضبت هى النظر عن ذلك الاغتصاب . وكان نففور قد أخرج المسلمين من حلب وإقريطش (كريت) (٩٦١) ؛ ثم أخرجهم من قبرص فى عام ٩٦٥ ، ومن أنطاكية فى عام ٩٦٨ ؛ وكانت هذه الانتصارات هى التى زلزلت أركان الخلافة العباسية . وطلب نففور إلى البطريق أن يعد كل من يقتلون من الجنود فى حرب المسلمين بكل ما يوعد به الشهداء من جزاء وتكريم ؛ ولكن البابا لم يجبه إلى طلبه بحجة أن جميع الجنود قد دنسوا من قبل بما أراقوه من الدماء ؛ ولو أنه فعل لكان محتتملاً أن تبدأ الحروب الصليبية قبل بدايتها الحقيقية بمائة عام . وفقد نففور مطامعه وآوى إلى قصره ليعيش فيه معيشة المتعبدين الزاهدين . وتضايقت ثيوفانو من هذه الحياة الشبيهة بحياة الأديرة فاتخذت لها خليلاً القائد تزميسيس Tzimisces . وقتل هذا القائد نففور (٩٦٩) واستولى

بعد قتله على العرش وغضبت النظر عن هذا الجرم ، ولكن القاتل ندم على فعلته ، ونبذ خليلته ، ونفاها من البلاد ، وخرج هو ليكفر عن جرائمه بانتصارات وقتية غير حاسمة على المسلمين والصقالبة .

وكان الإمبراطور الذي خلفه على العرش من أقوى الشخصيات في تاريخ بيزنطية . وقد ولد باسيل الثاني لرومانوس وثيوفانو في عام ٩٥٨ ، وكان إمبراطوراً بالاشتراك مع نقفور فوقاس وتزيمبسيس ؛ ثم بدأ (٩٧٦) وهو في الثامنة عشرة من عمره حكماً منفرداً دام خمسين عاماً . واكتنفته في بداية حكمه المتاعب من كل جانب : فأخذ كبير وزرائه يأتمر به ليغتصب عرشه ، وأمد سادة الإقطاع الذين اعتزم أن يفرض عليهم الضرائب المتأمرين عليه بالمال ، وخرج عليه بارداس اسكلروس Badas Scierus قائد جيش الشرق ، فأخذ بارداس فوقاس ثورته ، ثم عمل هذا القائد المنتصر على أن يختاره جنوده إمبراطوراً ؛ وكان المسلمون وقتئذ يستردون معظم ما استولى عليه منهم تزيمبسيس في بلاد الشام ، وبلغت قوة البلغار أوجها ، وأخذوا يعتدون على بلاد الإمبراطورية من الشرق والغرب . وقلم باسيل أظفار الفتنة ، واسترد أرمينية من المسلمين ، وحطم قوة البلغار بعد حرب طاحنة دامت ثلاثين عاماً . وبعد أن تم له النصر على البلغار في عام ١٠١٤ وسمل عيون ١٥٠٠٠ أسير ، ولم يترك إلا عيناً واحدة لكل مائة واحد منهم ليقود هذه الجموع المنكودة في عودتها إلى صمويل قيصر البلغار ؛ وأطلق عليه اليونان اسم قاتل البلغار (بلغاراكتونوس Bulgaroctonus) ولمسل ذلك كان منهم رهبة له لا إعجاباً به . ووجد بين هذه الحروب وقتاً يشن فيه حرباً شعواء على « الذين أثروا على حساب الفقراء » . فحاول بما سنه من القوانين في عام ٩٩٦ أن يجزئ بعض الضياع الكبيرة ويشجع انتشار الفلاحين الأحرار . وكان يوشك أن يقود حملة بحرية على المسلمين في صقلية حين وافته المنية فجاءة وهو في الثامنة والستين من عمره . ولم تبلغ الإمبراطورية منذ أيام هرقل ما بلغته في

في أيامه من السعة ، ولم يكن لها منذ عهد جستنيان مثل ما كان لها في عهده من الفوة .

ودب الضعف مرة أخرى في جسم الإمبراطورية في عهد أخيه الشيخ قسطنطين الثامن (١٠٢٥ - ١٠٢٨) . ولم يكن لقسطنطين هذا من الأبناء إلا ثلاث بنات ، فأقنع رمانوس أرجيروس Romanus Argyros أن يتزوج زوى Zoe كبراهن ، وكانت سنها وقتئذ تقرب من الخمسين . وحاكت زوى بمساعدة أختها ثيودورا الدولة بوصفها نائبة عن الإمبراطور طوال عهد رومانوس الثالث (١٠٢٨ - ١٠٣٤) ، وميخائيل الرابع (١٠٣٤ - ١٠٤٢) ، وميخائيل الخامس (١٠٤٢) ، وقسطنطين التاسع (١٠٤٢ - ١٠٥٥) ؛ ولم تشهد الإمبراطورية قبل أيامها حكماً أصحح من حكمها . فقد شنت الأختان حرباً شعواء على الفساد في الدولة والكنيسة ، وأرغمتا الموظفين على أن يردوا ما اغتصبوه من الأموال ؛ ومن هؤلاء واحد كان رئيس وزراء رد إلى الدولة ٥٣٠٠ رطل من الذهب (٢٢٦٠٠٠ رyal أمريكي) كان قد خبأها في حوض ماء ؛ ولما أن مات البطريق ألكسيس Alexis ، وُجد في حجراته مخبأً يحتوي مائة ألف رطل من الفضة (٢٧٠٠٠٠٠٠ رyal أمريكي)^(٩) . ووقف بيع المناصب الحكومية فترة قصيرة ، وجلست الأختان زوى وثيودورا قاضيتين في أعلى محكمة في الدولة ، ووزعتا العدالة الصارمة بالقسطاس المستقيم . ولم يكن أحد يضارع زوى في نزاهتها ؛ من ذلك أنها لما تزوجت قسطنطين التاسع وهي الثانية والستين من عمرها ، وكانت تعرف أن براعتها في تزيين نفسها بالأصباغ لا تكاد تحتفظ لها إلا بالشيء القليل من جمالها الظاهري ، سمحت لزوجها الجديد أن يأتي بعشيقته اسكلرينا لتعيش معه في القصر الإمبراطوري . واختار الإمبراطور حجراته بين حجراتها ، ولم تكن زوى تزوره قط إلا بعد أن تتأكد أنه بمفرده^(١٠) . ولما ماتت زوى (١٠٥٠) آوت ثيودورا إلى دير للرهبانيات ؛

وحكم قسطنطين التاسع بعد ذلك خمس سنين راعى فيها الحكمة وسلامة الذوق ، فاختر لمعاونته رجالا من ذوى الكفاية والثقافة ، وأعاد تجميل كنيسة أياصوفيا ، وشاد المستشفيات والملاجئ للفقراء ، وناصر الآداب والفنون . ولما مات (١٠٥٥) تزعم أنصار الأسرة المقدونية ثورة شعبية أخرجت العذراء ثيودورا من مأواها فى الدير ، وتوجتها على الرغم منها إمبراطورة . وحكمت مع وزرائها الدولة حكماً صالحاً حازماً على الرغم من أنها كانت وقتئذ فى الرابعة والسبعين من عمرها ؛ ولكنها ماتت فى عام ١٠٥٦ مئة مفاجئة ، وضربت الفوضى على أثر موتها أطنابها فى البلاد ، فنادى الأشراف بميخائيل السادس إمبراطوراً ، ولكن الجيش فضل عليه القائد إسحق كمينيوس ، وكانت معركة واحدة كافية لحسم النزاع ، فترهب ميخائيل ، ودخل كمينيوس العاصمة فى عام ١٠٥٧ إمبراطوراً . وهكذا قضى على الأسرة المقدونية بعد حكم دام مائة وتسعين عاماً ، كان قوامه العنف ، والحرب ، والزنى ، والتقى ، والإدارة الممتازة .

واعتزل إسحق كمينيوس الملك بعد عامين ، ورشح خلفاً له قسطنطين دوكاس Constantine Ducas ، وآوى هو إلى دير ؛ ولما تولى قسطنطين (١٠٦٧) حكمت أرملته يودوسيا الدولة أربع سنين بوصفها إمبراطورة بالنيابة ، ولكن مطالب الحرب كانت تحتاج إلى قائد أعظم منها قوة ، وأشد حزماً ، ولهذا تزوجت رومانوس الرابع وتوجته إمبراطوراً . وهزم الأتراك رومانوس عند ملازكرت (١٠٧١) ، فعاد إلى القسطنطينية يجلبه العار ؛ ثم خلع ، وسجن ، وسملت عيناه ، وترك ليموت من جروحه التى لم يعن بها أحد . ولما جلس على العرش كمينيوس الأول (١٠٨١) ابن أخى إسحق كمينيوس خيل إلى العالم أن الإمبراطورية البيزنطية موشكة على الانهيار ، فقد استولى الأتراك على بيت المقدس (١٠٧٦) وأخذوا يزحفون على آسية الصغرى ، وكانت قبائل البتيناك Patzinak والكومان Cumman تقرب من القسطنطينية من الشمال ، والنورمان يهاجمون

الحصون البيزنطية الأمامية في البحر الأدرياتي . وكان الجيش والحكومة يفت في عضدهما الخيانة ، والعجز ، والفساد ، والجبن . وواجه الكسيوس ذلك الموقف بشجاعة ودهاء ، فوجه عملاءه إلى إيطاليا الخاضعة للنورمان ليثيروا فيها الفتن ؛ ومنح البندقية ميزات تجارية على أن تعينه بأسطولها على النورمان ، وصادر كنوز الكنيسة ليعيد بها إنشاء الجيش ، ونزل إلى ميدان القتال بنفسه ، وانتصر في عدة معارك بفضل مهارته في الفنون الحربية لا بما سفكه من الدماء ، ووجد بين هذه المشاغل الخارجية وقتاً استطاع أن يعيد فيه تنظيم الدولة ووسائل الدفاع عنها ، ووهب بهذا كله الإمبراطورية المتداعية حياة دامت مائة عام أخرى . فلما كان عام ١٠٩٥ لجأ إلى حيلة دبلوماسية بارعة كان لها أثر بعيد . ذلك أنه استغاث بالغرب لمساعدة الشرق المسيحي ؛ وعرض في مجلس بياسنزا أن تعوذ الكنيسة اليونانية واللاتينية إلى الاتحاد نظير اتحاد أوروبا ضد المسلمين ؛ وكانت هذه الاستغاثة هي وغيرها من العوامل التي أطلقت أولى تلك الحروب المسرحية المعروفة بالحروب الصليبية ، والتي قدر لها أن تنقذ بيزنطية ثم تقضى آخر الأمر عليها .

الفصل الرابع

الحياة في بيزنطية (٥٦٦ - ١٠٩٥)

وصلت الإمبراطورية اليونانية مرة أخرى في بداية القرن الحادى عشر إلى ما كانت عليه من القوة والثروة والثقافة في أوج مجدها أيام جستنيان ، وذلك بفضل ما كان للأسرتين الإسورية والمقدونية من قوة حربية وحنكة سياسية ، فانتزعت من المسلمين آسية الصغرى ، وبلاد الشام الشمالية ، وقبرص ، وروُدس ، وخلقيدية ، وإقريطش (كريت) ؛ وعاد جنوبي إيطاليا فأصبح بلاد اليونان الكبرى Magna Grecia تحكمه القسطنطينية ، واستردت بلاد البلقان من البلغار والصقالبة ، وسيطرت التجارة والصناعة البيزنطيتان مرة أخرى على أسواق بلاد البحر المتوسط ، وانتصر المذهب المسيحى اليونانى فى البلقان والروسيا ، وأخذ الفن والأدب اليونانيان يستمتعان بهضة مقدونية جديدة ، وبلغ إيراد الدولة فى القرن الثالث عشر ما يوازى ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار من نقود هذه الأيام (١١) .

وكانت القسطنطينية نفسها فى أوج عزها ، تفوق رومة القديمة والإسكندرية ، وتضارع بغداد وقرطبة المعاصرتين لها فى التجارة والثروة ، والترف والجمال ، والرقعة والفن . وكان معظم سكانها البالغ عددهم نحو مليون من الأنفس (١٢) من الآسيويين والصقالبة - الأرمن ، والكيلدوكيين ، والسوريين ، واليهود ، والبلغار ، واليونان أنصاف الصقالبة ، يمتزج بهم ويلونهم تجار وجنود من الإسكنديناويين ، والروس ، والطلبيان ، والمسلمين ؛ وتغشيم طبقة رقيقة من الأشراف اليونان . وكان فى داخل الإطار الخارجى المكون نصفه من الذهب ونصفه من الوحل ، والذي تدور فيه الحياة المنتجة الخصبية فى العاصمة البيزنطية

ألف نوع ونوع من المنازل - ذات السقوف الهرمية والسطوح أو القباب - ذات شرفات ، وبوائك ، وحدائق أو عرائش ؛ وأسواق خاصة بمحاصلات العالم كله ، وألف شارع وشارع ضيق موحل تحف به المساكن والحوانيت ، وكثير من الشوارع الواسعة تكتنفها القصور الفخمة ، والأروقة الظليلة ، مليئة بالتمائيل تتخللها أقواس النصر ؛ وتتصل المدينة بالريف من خلال أبواب محروسة في أسوار حصينة ؛ وقصور ملكية معقدة كقصر ثيوفيلس ذى الثلاثة الأجنحة ، وقصر باسيل الأول الجديدي ، وقصر نقفور فوقاس الريفي المؤدى بدرجة من الرخام إلى رصيف تقوم عليه التماثيل على شاطئ البحر مرمرية ؛ وكنائس « بعدد ما في السنة من أيام » كما يقول أحد الرحالة ، بعضها تحف فنية غاية في الإبداع ، ومذابح تضم أئمن ما في العالم المسيحي من مخلفات وأكثرها تعظيماً وإجلالاً ؛ وأدبرة لا يستحي من فيها من فخامة مظهرها ، تضطرب من داخلها بالقدسين ذوى الكبرياء ، وكنيسة أياصوفيا التي نجدد زينتها على الدوام ، تتلألأ فيها الشموع والمصابيح ، مثقلة بالبخور ، رائعة المناظر المهيبة ، تتردد في جنباتها الترانيم الرنانة التي لا تترك شكاً في النفوس .

وكان في داخل قصور الأشراف وكبار التجار بالمدينة ، وبيوت الريف المتقامة في مؤخرتها على شاطئ البحر ، كل ما يستطيع ذلك العصر أن يصل إليه من مظاهر الترف والزينة التي لا تحرمها العادات والتقاليد السامية : رخام من كل صنف ولون ، وصور على الجدران وفسيفساء ، وتماثيل وخزف جميل ، وسجف تنزلق على عصي من الفضة ، وأقمشة مسورة على الجدران ، وطنافس ، وحرائر ، وأبواب مطعمة بالفضة والعاج ، وصحاف من الفضة والذهب ؛ في هذه البيئة يتحرك المجتمع البيزنطي ، رجال ونساء حسان الوجه والقوام ، عليهن أثواب من الفراء والحريير الخميل اللون الموشى بالخمرات ، لا ينقصن في رشاقتهن ، ومغامراتهن الحبية ، ودساتهن عن أهل باريس وفرساي في عهد آل بوربون . ولم تعرف

النساء قبل ذلك العهد مساحيق أهى أو عطوراً أذكى أو جواهر أئمن أو تصفيفاً للشعر أجمل مما عرفته نساء ذلك العصر . وكانت النار تبقى متقدة في القصور الإمبراطورية طوال أيام العام لتطبخ عليها العطور التي يتطلبها تعطير الملكات والأميرات^(١٣) . ولم تكن الحياة في أى وقت من الأوقات السابقة أكثر زينة وأشد تكلفاً ، وأكثر حفلات ، واستقبالات ، ومناظر ، وألعاباً ، واستمساكاً بالمراسم ، وأشد مراعاة لآداب اللياقة منها في ذلك الوقت . وكان الأرستقراط المتأصلون في أرستقراطيتهم إذا خرجوا إلى مضمار السباق ، أو وجدوا في بلاط الإمبراطور ، يتباهون بأثوابهم الجميلة ، وإذا ساروا في الطرق العامة اندفعوا بعرباتهم الفخمة لا يباليون بالرجال الفقراء فكسبوا بذلك عداوتهم ؛ وقد بلغوا من الأبهة ما استحقوا من أجله لعنة رجال الدين الذين كانوا يخدمون الله في آنية وعلى مذابح من الرخام ، والمرمر ، والفضة ، والذهب . ويقول ربرت الكلارى Robert of Clari إن القسطنطينية في ذلك الوقت كانت تحتوى على « ثلثي ثروة العالم كله » ؛ « وحتى العامة أنفسهم » كما يقول بنيمين التطل « من السكان اليونان وكانهم كلهم أبناء ملوك »^(١٥) .

ووصفها أحد كتاب القرن الثانى عشر فقال : « إذا كانت القسطنطينية تفوق سائر المدن في ثرائها ، فإنها تفوق هذه المدن أيضاً في رذائلها »^(١٦) . ذلك أن جميع رذائل المدن الكبرى قد وجدت لها مكاناً فيها بين أغنيائها وفقرائها على السواء . فالقسوة الوحشية والتقوى كانتا تتبادلان الاستحواذ على نفوس الأباطرة ، وفي نفوس العامة كان يمكن التوفيق بين الحاجة الشديدة إلى الدين ومفاسد السياسة والحرب أو عنفهما ، وظل إخصاء الأطفال لاتخاذهم خصياناً في بيوت الحریم وأعمال الإدارة ، واغتيال المطالبين بالعرش أو الدين يخشى أن يكونوا مطالبين به أو سمل عيونهم ، ظلت هذه الجرائم تسير سيرها خلال حكم الأسر المختلفة ، وخلال التغيرات الرتيبة المملة التي لا تنقطع . وكانت جماهر

الشعب التي أفسدت نظامها وسخرتها الانقسامات العنصرية ، والطائفية ،
والدينية ، كانت هذه الجماهير متقلبة لا يقر لها قرار ، متعطشة للدماء ،
تضطرب وتثور من آن إلى آن ، ترشوها الدولة بوجبات الطعام
المكونة من الخبز والزيت والخمر بلا ثمن ؛ ويسلها سباق الخيل ،
ومصارعة الوحوش ، والرقص على الحبال ، والتمثيلات الصامتة الفاحشة
البدئية في الملاهي ، والمراكب الإمبراطورية أو الكنسية في الشوارع . وكانت
قاعات الميسر لا يخلو منها مكان ، وتكاد بيوت العاهزات توجد في كل شارع ،
بل كانت في بعض الأحيان « تلاصق أبواب الكنائس » (١٧) . واشتهرت
نساء بيزنطية بدعاتهن وورعهن ، كما اشتهر رجالها بمحبة الذكاء والطموح
والتجرد من الضمير . وكانت كل الطبقات من سكانها تؤمن بالسحر ،
والنجم ، والتنبؤ بالغيب ، والعرافة ، والانصال بالشياطين ، والتمائم ذات
القوة المعجزة . وكانت الفضائل الرومانية القديمة قد اختفت حتى قبل
اختفاء اللغة اللاتينية . وقضى على الصفات الرومانية واليونانية سيل من
الشرقيين فقدوا هم أيضاً مبادئهم الأخلاقية ، ولم يستعصموا عنها إلا بالألفاظ
الجوفاء . ومع هذا فإن الكثرة الغالبة من الرجال والنساء في هذا المجتمع
المتطرف في دينه وشهوته كانوا مواطنين وموَدِبين وآباء محنمين يسكنون
يعد هو الشباب إلى حياة الأسر وما فيها من متع وأحزان ، ويؤدون الأعمال
الدنيوية وهم كارهون . وهؤلاء الأباطرة الذين كانوا يسملون عميون منافسيهم
يغدقون الصدقات على المستشفيات وملاجئ الأيتام ، والمعجزة ، ونزل
المسافرين المجانية (١٨) . وكانت طبقة الأشراف ، التي ينحيل إلى الناس أن
الترف والراحة ديدنها وشغلها الشاغل كل يوم ، تضم مئات من الرجال
يتبلون على أعمال الإدارة والسياسة بغيره يختلط بها الطمع في الكسب
والإنشاء ، واستطاعوا بطريقة ما ، وبالرغم مما يتعرضون له من الانقلابات
وما يحاك حولهم من الدسائس ، أن ينقلوا الدولة من كل كارثة تلم بها ، وأن

يقيموا فيها نظاماً اقتصادياً أغدق عليها من الرخاء أكثر ما شهده العالم المسيحي في العصور الوسطى .

وكانت البيروقراطية التي أنشأها دقلديانوس وقسطنطين قد صارت في مدى سبعة قرون أداة قوية فعالة في إدارة شؤون الحكم ؛ وصلت إلى كل إقليم من أقاليم الدولة . وكان هرقل قد استعاض عن تقسيم الدولة القديم إلى ولايات تقسيمها إلى وحدات عسكرية على رأسها حاكم عسكري (استراتيجوس Strategos) ، وكان هذا التقسيم وسيلة من مائة وسيلة عدلت بها الأنظمة البيزنطية لمواجهة الغزو الإسلامي . واحتفظت الوحدات الجديدة بقسط كبير من الحكم الذاتي وعمها الرخاء تحت إشراف الإدارة المركزية ، فقد حباها هذا النوع من الحكم استمراراً في النظام دون أن يلقى على كاهلها العبء المباشر للنزاع والعنف اللذين كانت تضطرب بهما العاصمة ؛ فبينما كانت العاصمة يحكمها الإمبراطور والبطريق ، والغوغاء ، كانت الوحدات العسكرية يحكمها القانون البيزنطي . وبينما كانت البلاد الإسلامية توحد بين القانون والدين ، وبينما كان غرب أوروبا يتعثر في فوضى عدد كبير من قوانين القبائل المهمجية ، كان العالم البيزنطي يعرض بالنواجذ على تراث جستينيان ويوسع نطاقه ؛ فكانت قوانين جستين الثاني Justin II وهرقل « الجديدة » ، والقوانين « المختارة » التي سنّها ليو الثالث ، والمراسيم الملكية التي نشرها ليو السادس ، وقوانين هذا الإمبراطور الجديدة الأخرى ، كانت كل هذه قد كتبت مجموعات قوانين جستينيان كى تتفق مع الحاجات المتغيرة لقرون خمسة . وهبت كتب القوانين العسكرية ، والكنسية ، والبحرية ، والتجارية ، والريفية ، الأحكام القضائية في الجيش والكنيسة ، والأسواق والثغور ، والضياح ، والبحار ، نظاماً وثقة بين الناس ، وجعلتها خليقة بأن يعتمد عليها ؛ وكانت مدرسة القانون في القسطنطينية في القرن الحادى عشر المركز التقاى للشئون غير الدينية في العالم المسيحي . وهكذا احتفظ البيزنطيون بأعظم ما وهبته لهم رومة - ألا وهو

القانون الروماني - خلال ألف عام من الأخطار والتغيرات ، حتى إذا ما بعث بعثاً جديداً في بولونيا Bologna في القرن الثاني عشر أحدث انقلاباً عظيماً في القانون المدني لأوروبا اللاتينية والقانون الكنسي للكنيسة الرومانية . وكان القانون البحري البيزنطي الذي سنه ليو الثالث والمستمد من الأنظمة البحرية لروفس القديمة أول مجموعة من القوانين التجارية في العالم المسيحي في العصور الوسطى ؛ وقد أصبح في القرن الحادي عشر مصدراً لقوانين أخرى من نوعه في جمهوريتي تراني Trani وأملفي Amalfi الإيطاليتين ، ومن هذا الطريق سرى إلى التراث القانوني في عالمنا الحاضر .

أما القانون الريني فكان محاولة صادقة جديدة بالثناء للوقوف في وجه الإقطاع وإنشاء طبقة من الفلاحين الأحرار . فقد وهب هذا القانون قطعاً صغيرة من الأرض إلى الجنود المتقاعدين ؛ وكانت أرض واسعة من أملاك الدولة يزرعها الجند على أن يكون عملهم فيها نوعاً من الخدمة العسكرية ، وكانت مساحات واسعة تزرعها الطوائف الخارجة على الدين المنقولة من آسية إلى تراقية وبلاد اليونان . وكانت أقاليم أوسع رقعة من هذه وتلك تستقر فيها جماعات البرابرة ، ترغهم على ذلك الحكومة أو تبسط حمايتها عليهم لأنها ترى أن وجودهم في داخل الإمبراطورية أقل خطورة من وجودهم في خارجها ؛ وعلى هذا النحو استقر القوط في تراقية وإليريا ، واللمبارد في بانونيا ، والصقالبة في تراقية ومقدونية وبلاد اليونان ؛ ولم يستهل القرن الحادي عشر حتى كان الجنس الصقلبي هو الجنس الغالب في الهلويونيز ، وحتى كثر عدد الصقالبة في أتكا وتيساليا . وتعاونت الدولة والكنيسة على إنقاص عدد الأرقاء ؛ فحرمت الشرائع الإمبراطورية بيع الأرقاء الذين يتضمون إلى الجيش أو رجال الدين أو يتزوجون من شخص حر . وكان عمل العبيد في القسطنطينية مقصوراً في الواقع على العمل في المنازل ، أما في غيرها من المدن فكانت تجارة الرقيق رائجة .

بيد أن من قوانين التاريخ الصادقة الأكيدة التي لا تكاد تفارق عن قانون نيوتن في الجاذبية أن الملكيات الزراعية الكبيرة كلما تقاربت واتسعت رقعتها اجتذبت إليها الملكيات الصغيرة ، وأنها بعد فترات من الزمن تجمع هذه الملكيات الصغيرة إلى ضياع كبيرة عن طريق الشراء أو غيره من الطرق ؛ ثم لا يلبث هذا التركيز على مر الزمن أن يتفجر ، فتوزع الأرض مرة أخرى عن طريق الضرائب أو الثورة ، ثم تبدأ عملية التركيز من جديد . ولقد كانت معظم الأراضي الزراعية في بلاد الشرق البيزنطية ضياعاً واسعة يمتلكها كبار الملاك المعروفون باسم الديناطوى dynatoi أى « الرجال الأقوياء » ، أو الكنائس ، أو الأديرة ، أو المستشفيات التي ينفق عليها من أرضين أوصى بها إليها الأنقياء الصالحون من الناس . وكانت هذه الأراضي يفلحها رقيق الأرض ، أو فلاحون أحرار من الوجهة القانونية ، ولكنهم مكبلون بالأغلال من الناحية الاقتصادية . وكان ملاك الأرض تحيط بهم بطانة من الموالى ، والجراس ، وعبيد المنازل ، ويمجئون حياة الترف المنعم في بيوت الريف أو قصور المدن . وترى ما في حياة أولئك الملاك من خير وشرف في قصة السيدة دنييلس Danielis محسنة بأسبل الأول . ذلك أنها حين جاءت لزيارته في القسطنطينية كان ثلثمائة من العبيد يتناوبون على حمل هودجها الذي جاءت فيه من بتراس Patras . وحملت معها لمحبوبها الإمبراطورى هدايا أثنى مما بعث به ملك من الملوك إلى الإمبراطور البيزنطى : منها أربعائة شاب ، ومائة خصى ، ومائة عنداء . ومنها أربعائة قطعة من اللسيج المنقوش نقشاً فنياً ، ومائة قطعة أخرى من التيل الرفيع (تبلغ كل منها من الرقة درجة تسمح لها بأن توضع في عقلة غاب) ، ومجموعة من صحاف المائدة مصنوعة من الفضة والذهب . وقد تحلت هذه السيدة في أثناء حياتها عن كثير من ثروتها ، فلما دنت منيتها أوصت بما بقي لديها منها إلى ابن بأسيل ، ووجد لبو السادس أنه قد وُهب ثمانين بيتاً ومزرعة في الريف ، وأكداساً من النقود

والجواهر والصحاف والأثاث الثمين ، والمنسوجات الغالية ، وما لا يحصى من الماشية ، وآلافاً من العبيد^(١٩) .

ولم يكن الأباطرة يسرون كل السرور بهذه الهدايا اليونانية ؛ ذلك بأن هذا الثراء المجتمع من لحوم ملايين الناس ودمائهم كان يكسب أصحابه سلطاناً ، وأنهم إذا اجتمعوا كانوا خطراً شديداً على أى ملك أو إمبراطور . ولهذا كان الأباطرة يعملون بدافع مصالحهم الشخصية وحب الإنسانية على وقف تركيز الثروة على هذا النحو . من ذلك أن شتاء ٩٢٧ - ٩٢٨ القارس قد أعقبه قحط ووباء ، فباع الفلاحون أرضهم إلى كبار الملاك بأثمان منخفضة إلى أقصى حد ، ومنهم من تخلى عنها نظير لقمة العيش . ولهذا أصدر رومانوس نائب الإمبراطور « مرسوماً جديداً » يندد فيه بالملاك ويصفهم بأنهم « أظهروا أنهم أشد قسوة من القحط والوباء » ؛ وطالبهم بأن يردوا كل الأملاك التي ابتاعوها من أصحابها بأقل من نصف « الثمن الهزى » ؛ وأجاز لكل من باع أرضه أن يشتري في خلال ثلاث سنين ما باعه منها بالثمن الذي باعه به ، ولكن هذا المرسوم لم تكن له نتيجة تستحق الذكر ؛ وظل تركيز الملكية يجرى في مجراه ، ويزاد الطين بلة أن كثيرين من الفلاحين اضطرتهم الضرائب الباهظة إلى بيع أراضيهم والهجرة إلى المدن - إلى القسطنطينية إن استطاعوا - وإلى المعيشة من الإعانات الحكومية . وجدد باسيل الثاني النضال بين الأباطرة والأعيان ، فأصدر في عام ٩٩٦ مرسوماً يبيح للبائع أن يستعيد في أى وقت ما باعه من الأرض بالثمن الذي باعه به ؛ وألغى عقود الأراضي التي استولى عليها الملاك بطريقة تخالف قانون عام ٩٣٤ ، وأمر بأن تعود هذه الأراضي من فورها إلى ملاكها السابقين ومن غير ثمن . واستطاعت كثرة الملاك أن تحتال على التملص من هذه القوانين ، ونشأ من ذلك في الشرق البيزنطى في أزمنة غير متصلة ، قبل بداية القرن الحادى عشر ، نظام معدل من أنظمة الإقطاع : لكن جهود الأباطرة لم تذهب

كلها أدراج الرياح ، ذلك أن من بقوا من الزارع الأحرار مدفوعين بغريزة التملك قد غطوا الأرض بالمزارع ، والبساتين ، والكروم ، والمناحل ، والمراعى ، ونشأت في ضياع كبار الملاك الزراعة العلمية إلى أقصى ما وصلت إليه في العصور الوسطى ، وكان تقدم الزراعة البيزنطية بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر يضارع تقدم الصناعة في تلك البلاد .

واصطبغت الإمبراطورية الشرقية في ذلك العصر بصبغة حضرية نصف صناعية تختلف كل الاختلاف عن الصبغة الريفية الغالبة على أوروبا اللاتينية الواقعة في شمال جبال الألب ، فكان عمال المناجم وصناع المعادن يعملون يجد في الكشف عن مناجم الرصاص ، والحديد ، والنحاس ، والذهب واستغلاها . وكانت القسطنطينية ومائة مدينة غيرها - أزمير ، وطرسوس ، وإفسوس ، ودورزو ، وراجوسا ، وپتراس ، وكورنثة ، وطيبة ، وسلانيك ، وهديبانوبل ، وهرقلية ، وسليميريا - تتردد فيها أصوات دابغى الجلود ، وصانعى الأحذية ، والسروج ، والأسلحة والصباغ ، وصناع الخلى ، وطارق المعادن ، والنجارين ، والحفارين على الخشب ، وصانعى العجلات ، والخبازين ، والصباغين ، والنساجين ، والفخرايين ، وصانعى السيفساء ، والنقاشين . وكانت القسطنطينية ، وبغداد ، وقرطبة ، في القرن التاسع مراكز للصناعة والتبادل التجارى تكاد تضارع في سرعة حركتها وجنونها أية حاضرة من الحواضر في هذه الأيام : وظلت العاصمة اليونانية ، بالرغم من المنافسة الفارسية تزعم العالم الأبيض في إنتاج المنسوجات الريفية والحربية ، ويلها في هذا أرجوس ، وكورنثة ، وطيبة . ونظمت صناعة النسيج أحسن تنظيم ، وكانت تستخدم كثيراً من العبيد ، أما غيرها من الصناعات فكانت تستخدم صناعاتاً أحراراً . وكان صعاليك القسطنطينية وسلانيك يحسون

بسوء حالهم ، وكثيراً ما حاولوا القيام بثورات لم يوفقوا فيها . وكان أصحاب الأعمال الذين يستخدمونهم يولفون من بينهم طبقة وسطى كبيرة العدد ، محبة للكسب ، متصدقة ، مجدة ، ذكية ، محافظة أشد المحافظة . وانتظمت الصناعات الكبرى بصناعاتها ، وفنانيها ، ومديريها ، وتجارها ، ومحاميها ، ورجال مالها في جماعات نقابية - سستاماتا Sytemata - تحدرت من الجماعات القديمة المعروفة بالكوليجيا والأرتيس ، وتشبه الوحدات الاقتصادية الكبيرة في الدول الحديثة ذات الصناعات الجماعية . وكانت كل جماعة نقابية منها تحتكر عملاً من الأعمال يتفق مع تكوينها ، ولكنها كانت مقيدة أشد التقييد بأنظمة خاصة بمشترياتها ، وبأثمانها ، وأساليب صناعاتها ، وشروط البيع ، وكان مفتشون حكوميون يراقبون أعمالها وحساباتها ، وكانت القوانين في بعض الأحيان تحدد أقصى الأجور . أما الصناعات الصغرى فكانت تُترك للصناع الأحرار وللنشاط الفردي . وقد أفادت الصناعة البيزنطية من هذا نظاماً ، ورخاء ، واتصالاً ، ولكن نظامها حال دون الابتكار والاختراع ، ومال بها إلى الجمود وركود الحياة^(٢٠) .

وكانت الحكومة تشجع التجارة بتعزيدها ، وبمراقبة الأهوسة ، والموائى ، وتنظيم التأمينات والقروض بضمان السفن ، وتشن حرباً شعواء على القرصنة ، وكانت العملة البيزنطية أكثر عملات أوروبا ثباتاً . وكان للحكومة البيزنطية إشراف واسع شامل متغلغل في جميع الأعمال التجارية - فكانت تحرم تصدير بعض المواد والسلع ، وتحتكر تجارة الحبوب والحرير ، وتفرض عوائد على الصادرات والواردات ، وضرائب على المبيعات^(٢١) . وكادت هي تدعو غيرها من الدول إلى أن تحمل محلها في سيادتها التجارية القديمة على بحر إيجه والبحر الأسود بسماحها إلى التجار الأجانب - الأرمن ، والسوريين ، والمصريين ، والأملقيين والبيزيين ، والبنادقة ، والجنوبيين ، واليهود ، والروس ، والقطلانين - بنقل

معظم بضائعها هي ، وبإنشاء وكالات شبه مستقلة في العاصمة أو بالقرب منها : وكان الربا مباحاً ، ولكن القانون كان يحدد سعر الفائدة باثني عشر أو عشرة ، أو ثمانية عشر في المائة ، أو بأقل من ذلك في بعض الأحيان . وكان رجال المصارف كثيرى العدد ، ولعل المرابين في القسطنطينية لا المرابين الطليان هم الذين أوجدوا نظام السفاتج القابلة للتحويل (٢٢) ، ووضعوا أوسع نظام للائتمان عرفه العالم المسيحي قبل القرن الثالث عشر .

الفصل الخامس

النهضة البيزنطية

ونشأ من كدح الشعب وحذقه ، ومن أموال الأغنياء الزائدة على حاجتهم ، إحياء عجيب للآداب والفنون في القرنين التاسع والعاشر . ذلك أن الدولة وإن ظلت إلى آخر أيام حياتها تسمى نفسها الدولة الرومانية ، فإن ما فيها من العناصر اللاتينية إلا القليل منها كان قد اختفى كله تقريباً ما عدا القانون الروماني . فأضحت اللغة اليونانية في الشرق البيزنطي من أيام هرقل هي لغة الحكومة ، والأدب ، والشعائر الدينية ، ولغة الحديث اليومي . وأصبح التعليم كله يونانياً ، وكان كل حر من الذكور ، وكثير من النساء ، بل وكثير من الأرقاء ، يتلقى قدرأ ما من التعليم ؛ وأحياناً يقصر بارداس Caesar Baradas (٨٦٣) جامعة القسطنطينية التي تركت لتضمحل وتموت ، كما تركت الآداب بوجه عام ، خلال ما حدث من الأزمات في عهد هرقل ، وذاعت شهرة هذه الجامعة بما كانت تدرسه من المناهج في فقه اللغة ، والفلسفة ، وعلوم الدين ، والهيئة ، والرياضة ، والأحياء ، والموسيقى ، والآداب ؛ وحتى ليبانيوس الوثني ولوشيان الكافر كانا متعنعين . وكان التعليم في العادة من غير أجر للطلاب ذوي المؤهلات ، وكانت الدولة تتكفل بمرتبات المدرسين . وكثرت في البلاد دور الكتب العامة والخاصة ، وظلت تحتفظ بروائع المؤلفات اليونانية والرومانية القديمة التي جر عليها النسيان ذبوله في الغرب المضطرب .

وكان انتقال التراث اليوناني في هذا النطاق الواسع منها للعقول ومقيداً لها معاً . فقد كان من جهة مقبولاً للتفكير وموسعاً لمداها ، ومشجعاً على الخروج من

أساليب البلاغة الوعظية الرتيبة القديمة ، والجدل الدينى . ولكن ثراه نفسه كان عائقاً له من الابتكار ، لأن الابتكار أيسر على الجاهل منه على المتعلم . وكان أهم ما تهدف إليه الآداب البيزنطية أن توائم النساء المثقفات ذوات الفراغ ؛ والرجال المثقفين الذين لا يعملون . وكانت هذه الآداب هلنستية لايونانية ؛ ولهذا كانت تطفو على ظاهر الحياة البشرية ولا تتعمق إلى قلبها . وقد اقتصر التفكير بتأثير العادات التي كسبها في مراحلها الأولى على دائرة المتمسكين بالدين القويم ، وكان محطمو الصور والتماثيل الدينية أتقى من القساوسة وإن كان رجال الكنيسة في ذلك العهد شديدي التسامح إلى حد عجيب .

وشهدت الإسكندرية عصرآ آخر من عصور النهضة العلمية شبها بعصرها القديم أخذ فيه العلماء يجللون اللغة ، ويبحثون ويلخصون في علم العروض ، ويؤلفون الكتب المحملة ، والتواريخ العالمية ، ويجمعون المعاجم والموسوعات والدواوين . ففيه (٩١٧) جمع قسطنطين كفالاس Constantine Cephalas البربروايه اليونانى . وفيه (٩٧٦) جمع سويداس معجمه الكبير الغزير المادة . وألف ثيوفانيس (حوالى ٨١٤) وليو الشماس (المولود في عام ٩٥٠) تاريخين قيمين لأيامهما والأيام القريبة منها ، وألف بولس الإيجينى Paul of Aegina (٨١٥ - ٨٩٠) وسوعة في الطب جمعت بين نظريات المسلمين وتجاربهم وبين ما خلفه للعالم جالينوس وأرباسيوس Oribasius ، وتحدث بلغة تكاد تشبه لغة هذه الأيام عن جراحات لسرطان القلب ، وعن البواسير ، وعن قنطرة المثانة ، واستخراج الحصاة منها ، والإخصاء ؛ ويقول بولس إن الإخصاء كان يحدث بطحن خصيتى الأطفال في حمام حار (٢٣) .

وكان أعظم العلماء البيزنطيين في هذه القرون الثلاثة معلماً خامل الذكر معدماً يدعى ليوسلانيكى (حوالى ٨٥٠) ، لم تأبه القسطنطينية لوجوده حتى دعاه أحد الخلفاء إلى بغداد . ذلك أن أحد تلاميذه أسره المسلمون في حرب من

الحروب وأصبح عبداً لأحد عظماء المسلمين ، وسرعان ما دهش هذا العظيم من علم هذا الشاب بالهندسة . وعرف المأمون خبره فأغراه بالاشتراك في نقاش مسائل هندسية في قصره . وأعجب الخليفة بعلمه ، واستمع بشغف عظيم إلى ما قاله عن معلمه ، وأرسل من فوره يدعوليوي إلى بغداد وإلى الثراء والجاه . واستشار ليوي في ذلك موظفاً بيزنطياً ، ثم استشار هذا الموظف الإمبراطور ، ثيوفيلس ، فأسرع هذا إلى تعيين ليوي أستاذاً . وكان ليوي ملماً بكثير من العلوم فكان يؤلف في الرياضة والهيئة ، والتنجيم ، والطب ، والفلسفة ويعلمها . وعرض عليه المأمون عدة مسائل في الهندسة والهيئة وسُرَّ من إجابته عنها سروراً جعله يعرض على ثيوفيلس صلحاً أبدياً وألني رطل من الذهب إذ أعاره ليوي إلى أجل قصير . ورفض ثيوفيلس هذا العرض وعين ليوي كبيراً لأساقفة سسلاينيك لكي يبعده عن تناول يد المأمون (٢٤) :

وكان ليوي ، وفوتئوس Photius ، وپسلوس Psellus كواكب ذلك العصر المنيرة . فأما فوتئوس (٨٢٠ ؟ - ٨٩١) أعلم أهل زمانه فقد ارتقى في خلال ستة أيام من رجل عادي إلى بطريق ، فكان بذلك من رجال التاريخ الديني ، وأما ميخائيل بسلوس (١٠١٨ ؟ - ١٠٨٠) فكان من رجال هذا العالم ومن حاشية الإمبراطور ، مستشاراً للملوك والملكات ، وكان فلتير عصره إلا أنه كان دمث الأخلاق مستمسكاً بالدين ، في وسعه أن يهبر الناس في كل موضوع ؛ ولكنه كان يرسو على قرار مكين بعد كل نقاش ديني وكل ثورة في القصر . ولم يكن يسمح بحبه الكتب أن يطغى على حبه الحياة ؛ وكان يعلم الفلسفة في جامعة القسطنطينية ، ومنح فيها لقب أمير الفلاسفة ؛ ثم دخل ديراً ، فلما وجد حياة الأديرة أهذا من أن تطاق عاد إلى الدنيا ، وكان رئيساً للوزراء من ١٠٧١ إلى ١٠٧٨ ؛ ووجد من وقته متسعاً للكتابة في السياسة ، والعلوم ، والنحو ، واللاهوت ، وفقه القانون ، والموسيقى والتاريخ . ويسجل كتابه المعروف

باسم كرونوغرافيا Chronographia أو سجل الزمان الدسائس والمخازى التي، حدثت في مائة عام (٩٧٦ - ١٠٧٨) بصراحة ، وحماسة وكبرياء (يقال عن قسطنطين التاسع إنه كان « رهين إشارة بسلوس »^(٢٥)) . وها هي ذى فقرة من وصفه للثورة التي أعادت ثيودورا إلى العرش في عام ١٠٥٥ نضربها مثلاً لما قلناه :

وكان كل (جندي في الجمع) مسلحاً : فكان واحد منهم يحمل بلطة قصيرة اليد ، وآخر يحمل بلطة حربية ، وثالث يحمل قوساً ، ورابع يحمل حرباً . وكان بعض الغوغاء يحملون حجارة ثقيلة ، وأخذوا جميعاً يهرولون ، اضطراب عظيم . . . إلى مسكن ثيودورا . . . ولكنها لجأت إلى كنيسة صغيرة ، وأصمت أذنها عن سماع صياحهم . وترك الغوغاء النصيح ولبأوا معها إلى العنف ، فاستل بعضهم خناجرهم ، وألقوا بأجسادهم على ثيودورا كأنهم يريدون أن يقتلوا ، ثم اختطفوها بقوة من مأواها المقدس ، وألبسوها ثياباً فخمة ، وأركبوا جواداً ، وأحاطوا بها ، وقادوها إلى كنيسة أيا صوفيا ، حيث قدم لها جميع السكان عظامهم وسوقتهم فروض الطاعة والولاء ، ونادوا كلهم بها ملكة عليهم^(٣٦) .

وتكاد رسائل بسلوس الشخصية تبلغ من السحر والبلاغة ما بلغت رسائل شيشرون ، وكانت خطبه ، وأشعاره ، وكتبه حديث الناس في زمانه ؛ وكانت ملحه الخبيثة ونكاته القاتلة حافزاً مثيراً وسط علم معاصريه الخم الثقيل . وإذا ما وازناه هو وفوتوس وثيوفانيس بأبناء الكوين Alcuin ، وبراباني Rābani وأبناء جربرت Gerbert الذين كانوا يعيشون في الغرب في أيامه ، بدا هؤلاء وكأنهم ضعاف مهاجرون من الهمجية إلى بلاد العقل .

وكان الفن أبرز نواحي النهضة الدنيوية . ذلك أن حركة تحطيم الصور والتماثيل الدينية قد حرمت في خلال الفترة الواقعة بين ٧٢٦ و ٨٤٢ تمثيل الكائنات المقدسة بالنحت المجسم أو بالصور وإن كانت في الثانية أقل صرامة

منها في الأولى . ولكنها عوضت الفنان عن هذا التحريم بأن حررتة من
الاقتصار الممل على الموضوعات الكنسية ، ونهته إلى ملاحظة الحياة الدنيوية
وتصويرها وتزيينها. فقد اتخذ موضوعات لفنه بدل الآلهة الأسرة الإمبراطورية ،
والأشراف المناصرين لها ، والحادثات التاريخية ، ووحوش الغاب ، ونبات
الحقول وفاكهتها ، وما يجرى في البيوت من حوادث تافهة . وأنشأ باسيل
الأول في قصره النيا Nea أو الكنيسة الجديدة ، « وزينها كلها » على حد
قول كاتب معاصر « بالآلئ الجميلة ، والذهب ، والفضة البراقة ، والفسيفساء ،
والحرير ، والرخام مما لا تحصى أنواعه » (٢٧) .

ومن أعمال القرن التاسع كثير من النقوش التي أزيح عنها الستار حديثاً
في كنيسة أياصوفيا . وقد أعيد بناء قبتها الوسطى في عام ٩٧٥ بعد أن
دمرها زلزال ثم وضعت فيها الصورة العظيمة المصنوعة من الفسيفساء والتي
تمثل المسيح جالساً على قوس قزح ، ثم وضعت فيها نقوش أخرى بالفسيفساء .
في عام ١٠٢٨ . وكانت هذه الكنيسة الضخمة تنبعث فيها الحياة الدائمة ، كما
تنبعث في الكائنات الحية ، بموت أجزائها وتجديدها . واشتمرت أبوابها
البرنزية التي وضعت فيها عام ٨٣٨ بجمالها الممتاز شهرة جعلت ذوى الشأن
يأمرون بأن تصنع في القسطنطينية أبواب مثلها لدير مونتى كازينو Monte
Casino ، وكنيسة أملى ، وباسلقا سان پولو القائمة في خارج أسوار
رومة . ولا يزال الباب الأخير ذو المصراعين المصنوع في القسطنطينية عام
١٠٧٠ قائماً حتى الآن يشهد بعظمة الفن البيزنطى .

وكان القصر الملكى أو « القصر المقدس » الذى كانت النيا مُصلاًه مجموعة
متزايدة من الحجرات ، وأبهاء الاستقبال ، والكنائس والحمامات ، والأجنحة
المنعزلة ، والحداثق ، والدهاليز ذات العمدة ، والأبهاء . وقلماً جلس إمبراطور على
العرش إلا أضاف إليه شيئاً جديداً . ونخلع ثيوفياس على هذه المجموعة مسحة شرقية
جديدة بأن أضاف إليها حجرة للعرش تعرف باسم التريكوكوس Triconchos

وهو اسم مشتق من المحاريب الشبيهة بالأصداف والتي تكون ثلاثة من جوانبها .
وذلك طراز أخذ من بلاد الشام وأدخل عليه بعض التحسين . وقد شاد في
الجهة الشمالية من هذه الحجرة قاعة اللؤلؤة وفي الجهة الجنوبية منها عدة
من البلياقا Belika أو حجرات الشمس ، والكاملات وهي حجرات ذوات
سقف من الذهب ، وعمد من الرخام الأخضر ، وفسيفساء غاية في الرونق
تمثل على أرضية من الذهب رجالاً ونساءً يجمعون الفاكهة . وهذا النقش
نفسه قد فاقه نقش آخر على جدران بناء مجاور له يمثل بالفسيفساء الزرقاء
أشجاراً بارزة من ورائها سماء من الفسيفساء الذهبية ، وتفوقه كذلك أرض
سهبو التوافق الذي تحسبه مرجاً مليئاً بالأزهار . وأطلق ثيوفيلس العنان لدوقه
الغريب الشاذ وافتتانه بالعظمة إلى أقصى حدود الافتتان في قصره بمجنورا
Magnaura ، فقد كانت تشرف على العرش شجرة ذهبية تجثم على غصونها
وعلى العرش نفسه طيور من الذهب ، وترقد على جانبي المقعد الملكي
حيوانات خرافية مجنحة ذهبية ، وعلى الأرض آساد أقدامها تحمت قدميه ،
فإذا ما مثل بين يديه سفير أجنبي قامت الحيوانات الخرافية ، ووقفت
الآساد الذهبية ، وهزت أذيالها ، وزارت ، وغنت الطيور أغاني آلية (٢٨) .
وكانت هذه السخافات كلها صور مطابقة من مثيلاتها التي كانت في قصر
هارون الرشيد ببغداد .

وكان المال الذي يتفق في تزيين القسطنطينية يجمع من الضرائب
المقروضة على التجارة ومن الوحدات العسكرية في الدولة . ولكن
ما بقي من هذا المال كان يكفي لتزيين عواصم الولايات زينة أقل من زينة
العاصمة الكبرى . فقد قامت الأديرة ، بعد أن عاد إليها الثراء ، فخمة كثيرة
العدد ، وعاد إليها ثراؤها : ففي القرن العاشر أنشئ دبر لافرا Lavra . ودبر
إفرون Iviron في آتوس Athos وفي القرن الحادي عشر أقيم دبر دافني
Daphni لكراهبات بالقرب من اليوسيس Eleusis . وتعد فسيفساؤه التي لا تكاد
تفترق عن الفسيفساء اليونانية والرومانية القديمة أجمل مثل للطراز البيزنطي

الأوسط . واشتركت بلاد الكرج ، وأرمينية ، وآسية الصغرى في هذه الحركة ، وأمست مراكز أمامية للفن البيزنطى . واستثارت المباني العامة في أنطاكية إعجاب المسلمين ، وأنشئت في بيت المقدس كنيسة الضريح المقدس ، ولما يمحض على انتصارات هرقل لإلاقليل ؛ وفي مصر شاد الأقباط المسيحيون قبل الفتح العربى وبعده كنائس ذات قباب متواضعة في حجمها ولكنها مزدانة أجمل زينة فنية بكل ما وصل إلى أهلها من مصر الفرعونية ، والبطليموسية ، والرومانية ، والبيزنطية من حذق في أشغال المعادن ، والعاج ، والخشب ، والنسيج لم ينتقص منه شيء . وأخرج اضطهاد محطى الصور والتماثيل آلاف الرهبان من الشام ، وآسية الصغرى ، والقسطنطينية إلى جنوبى إيطاليا حيث بسط عليهم البابوات حمايتهم ؛ وبفضل هؤلاء اللاجئين ، والتجار الشرقيين ازدهر الطراز المعمارى والزخرفى البيزنطى في بارى ، وأترنتو ، وبنفتو ، ونابلى ، ورومة نفسها . وظلت راقنا يونانية في فنها ، وأخرجت في القرن السابع القسيساء الضخمة التى نشاهدها في سانت أبولينارس St. Appolinaris في كلاس Classe . وظلت سلانيك بيزنطية . وزينت كنيسة أياصوفيا بصور مقبضة للقديسين من القسيساء نحيمة كالقديسين الذين صورهم الجريكو El Greco .

وأخرجت النهضة البيزنطية في جميع هذه الأراضى والمدن ، كما أخرجت في العاصمة نفسها ، سيلا من الروائع الفنية في القسيساء والنقش الدقيق ، والفخار ، والميناء ، والزجاج ، والخشب ، والعاج ، والبرنز ، والحديد ، والجواهر ، والأقمشة المنسوجة ، والمصبوغة ، والمنقوشة ، بمهارة يفخر بها العالم كله . وكان الفنانون البيزنطيون يصنعون أكوابا من الزجاج الأزرق ، نقشت عليها تحت سطحها ، أغصان وأوراق أشجار ، وطيور ، وصور آدمية ؛ وآنية زجاجية ، ذات رقاب مطلية بالميناء عليها زخارف عربية الطراز وأزهار ؛ وأشكال أخرى من الزجاج بلغت من الدقة حدا جعلها هى خير ما أهله الأباطرة البيزنطيون إلى

رؤساء الدول الأجنبية . وكان أعظم قيمة من هذه الهدايا السابقة ثمين الثياب والشيلان ، والحبريات ، والجلبب الدلماشية(*) التي تبرز مفاخر فن النسيج البيزنطى . وكانت « عباءة شارلمان » فى كنيسة متز والحريير الرقيق الذى وجد بأخن Aachen فى تابوت ذلك الملك من هذا الطراز . وكان مصدر نصف الفخامة التى تحيط بالإمبراطور البيزنطى ، وكثير من الرهبة التى ترفع من مقام البطريق ، وبعض الأبهة التى تكسو المُخْتَلَص « والعذراء والشهداء فى شعائر الكنيسة ؛ كان مصدر هذا كله هو الثياب الفخمة التى أنفقت فيها حياة عدد من الصناع ، وازدانت بفن القرون الطوال ، وخير ما أخرجه البر والبحر من أصباغ . واحتفظ صائغو الحلى الذهبية وقاطعو الجواهر بذروة مجدهم الفنى حتى القرن الثالث عشر ، ولا تزال كنوز كنيسة القديس مرقس باليندقية مليئة بثمار فهم . ومن مخلفات ذلك العصر الفسيفساء الواقعية النزعة المدهشة الصنع التى وجدت فى كنيسة القديس اوقا والمحفوظة فى كلية الدراسات العليا Collège de Hautes Etudes فى باريس ؛ ورأس المسيح المتوهج المنقوش فى فسيفساء ديسيز فى كنيسة أياصوفيا ؛ والفسيفساء الكبيرة الحجم التى تغطى أربعين ياردة مربعة ، والتى استخرجت فى اسطنبول عام ١٩٣٥ من خرائب قصر الأباطرة المقدونيين (٣٩) . ولما خفّت حدة محطى الأصنام ، وفى الأماكن التى لم تصل إليها حركتهم ، غذت الكنيسة تقوى الناس بالصور المنقوشة على الخشب بالطلاء المائى الفردى ، والتى تكتنفها أحياناً أطر منقوشة بالمينا أو الجواهر . وليس فى تاريخ العالم كله صور دقيقة تفوق صورة « رؤيا حزقيال » التى يمتوئها مجلد من عظام جريجورى نزيانزين محفوظ فى المكتبة الأهلية بباريس (٣٠) ، أو الصور الإيضاحية الأربعة التى يمتوئها مخطوط « المناجاة » (Monologus) المحفوظ فى الفانكان (حوالى

(*) نوع من الجلبب يلبسها شمامسة الكنيسة الكاثوليكية وأساقفتها أحياناً والاسم مشتق من مقاطعة دلماشيا على البحر الأدريائى . (المترجم)

عام ١٠٠٠) ؛ أو صور داود في كتاب التراتيل المحفوظ بباريس (حوالى عام ٩٠٠). نعم إن هذه الصور لا تراعى فن المنظور ، ولا تعنى بإبراز الأشكال بطريق الضوء والظل ، ولكنها تعوض هذا بالتلوين القوي البراق ، وبالخيال الحى ، وبالعلم الحديث بأصول التشريح البشرى والحيوانى ، وبالعدد الجرم الموثلف من الوحش والطير ، والنبات والزهر ، تتخلل القديسين والأرباب ، وبالفساقى ، والعقود والإيوانات - فيها طيور تنقر الفاكهة ، ودببة ترقص ، ووعول وعيول تتشابك قرونها فى النضال ، وفهد يرفع ساقه الخبيثة ليمثل بها الحرف الأول من جملة دينيه^(٣١) .

ولقد عرف صانعو الفخار البيزنطيون من زمن بعيد فن التطعيم بالمينا ، وذلك بأن يضعوا على الطين المحروق والقاعد المعدنى أكسيداً معدنياً إذا أدخل النار امتزج بالقاعد وأكسبه بريقاً ووقاية . وكان هذا الفن قد وصل من الشرق إلى بلاد اليونان القديمة ، حيث اختفى فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم عاد إلى الظهور فى القرن الثالث بعده . وكانت هذه الفترة البيزنطية الوسطى غنية بأعمال المينا من رصائع للصور ، ومن صور للقديسين ، وصابان ، ومن علب لحفظ الخلفات ، وأكواب ، وكؤوس للقرايين ، وجلود كتب ، وزينات للسروج وغيرها من العدد . وقد أخذت بيزنطية من فارس الساسانية منذ ذلك العهد البعيد وهو القرن السادس ، فن المينا المقسم : وذلك بأن تصب العجينة الملونة فى السطح المقسم إلى مساحات محاطة بأسلاك رفيعة أو قطع رقيقة من المعدن ؛ وهذه الحواجز الملتحمة بقاعدة معدنية تكون النقش الزخرفى . ومن أعظم الأمثلة لفن المينا المقسم وأوسعها شهرة علبة لحفظ الخلفات صنعت (حوالى عام ٩٤٥) لقسطنطين برفيروجنس محفوظة الآن فى لمبورج Lemburg وهى بيزنطية بنوع خاص فى دقة صنعها وفى أمانة صانعها ، وفى نقوشها الزخرفية الموفورة . وليس ثمة فن من الفنون تغلب عليه الصبغة الدينية أكثر مما تغلب على الفن

البيزنطى وليس أدل على هذا من أن مجلساً للكنائس عقد في عام ٧٨٧ قد وضع القانون القائل بأن : على المصورين أن ينفذوا ، وعلى رجال الدين أن يقرروا ، الموضوعات ويشرفوا على عمليات تنفيذها « (٣٢) . ومن ثم ، كانت النزعة الجدية المكتتبه لهذا الفن ، وضيق دائرة موضوعاته ، والتكرار الممل فى أساليبه وأنماطه ، وندرة مغامراته فى عالم الواقعية ، والفكاهة ، والحياة الشعبية ؛ ولم يكن لهذا الفن نظير فى تنميته ولآلائه ، ولكنه لم يبلغ فى يوم من الأيام ما بلغه الفن القوطى الناصح من تنوع وقوة ، ومن نزعة دينوية شائنة . ومن أجل هذا النقص عينه تزيد دهشتنا من انتصاراته وتأثيره ، فقد كان العالم المسيحى على بكرة أبيه من كيف إلى فارس يقر له بالزعامة ، ويتملقه بتقليده ؛ وحتى الصين نفسها كانت بين الفينة والفينة تنحى له إجلالا وتكريما . ولقد كان فى أشكاله السوروية نصيب مع الفن الفارسى فى تكوين موضوعات الفن الإسلامى فى العمارة ، والفسيفساء ، والزخرف . وشكلت البندقية فيها على صورة فن القسطنطينية ، كما حلدا الفن فى كنيسة القديس مرقس حذوكنيسة الرسل فى تلك المدينة ؛ وظهر فن العمارة البيزنطية فى فرنسا ، ثم اتخذ طريقه نحو الشمال حتى بلغ آخن . وكانت المخطوطات المزخرفة فى كل مكان شاهداً على ما للفن البيزنطى من أثر فيه ، وأخذ البلغار عن بيزنطية دينها وزخارفها ؛ ولما اعتنق فلاديمير مذهب الكنيسة المسيحية اليونانية فتح بذلك أكثر من عشر سبل واسعة دخل منها الفن البيزنطى إلى الحياة الروسية .

وظلت الحضارة البيزنطية من القرن الخامس إلى القرن الثانى عشرهى السائدة فى أوروبا المسيحية فى النظم الإدارية والدبلوماسية ، وجباية الأموال ، وفى الأخلاق ، والثقافة ، والفن . وأكبر الظن أنه لم يوجد قبل أيامها مجتمع يماثلها فى فخامة زينتها ، كما لم يوجد قبل أيامها دين به من المظاهر الفخمة مثل ما فى دينها . وكانت هذه الحضارة ، كما كانت كل حضارة أخرى : تعتمد على كدح رقيق الأرض والعبيد ، وكان ما فى محاربتها وقصورها من ذهب ورخام هو

عرق العمال الذين يكادحون في الأرض قد تبدل وتجمسم : وكانت ثقافتها ، ككل ثقافة سواها في زمانها ، قاسية ؛ وكان في وسع الرجل الذي ينخر راکماً أمام صورة العذراء أن يذبح أطفال موريق أمام عيني أبيهم . وكان في هذه الثقافة شيء من الضحالة ، وكان عليها طلاء من الرقة الأرستقراطية يغطي بناء ضخماً من الخرافات الشعبية ، ومن التعصب ، ومن الجهل يتصف به غير الأميين ، وكان نصف (*) هذه الثقافة يوجه إلى تأييد ذلك الجهل ، ولم يكن يسمح لعلم أو فن أن ينمو أو فلسفة أن تنشأ إذا كانت تتعارض مع هذا الجهل ، وظلت الحضارة اليونانية مدى ألف عام لا تضيف شيئاً جديداً إلى علم الإنسان بالعالم . فليس ثمة كتاب في الأدب البيزنطي أثار خيال بني الإنسان ، أو خلده على مدى الزمان . ذلك أن العقل اليوناني في العصر الوسيط قد أثقله عبء التراث العظيم الذي انحدر إليه من الأيام الخالية ، وسجن في المتاهة الدينية التي فقدت فيها بلاد اليونان المحتضرة مسيحية . المسيح ، فعجز عن أن ينهض فينظر نظرة واقعية ناضجة إلى الإنسان وإلى العالم . وسبب هذا أنه مزق المسيحية شيعا لاختلافه على حرف واحد من حروف الهجاء أو على كلمة واحدة ، وحطم الإمبراطورية الرومانية الشرقية لأنه رأى في كل خروج على الدين خيانة للدولة :

لكننا لا نزال يدهشنا أن هذه الحضارة قد عمرت ذلك الزمن الطويل ، ترى ما هي الموارد الخفية ، وما هي القوة الحيوية الكامنة ، التي أمكنتها من أن تبقى حية بعد أن انتصر عليها الفرس في آسية ، وبعد أن انتزع منها المسلمون بلاد الشام ، ومصر ، وصقلية ، وأسبانيا ؟ لعل العقيدة الدينية التي أضعفت الدفاع عن الدولة باعتماد أهلها على خلفات القديسين ومعجزاتهم قد بثت بعض النظام والتأديب في شعب ديدنه الصبر ، وإن انتابته في فترات نوبات من

(*) طلب جيش « الوحدة » العسكرية الشرقية في عام ٦٦٩ أن يكون للإمبراطورية ثلاثة أباطرة في وقت واحد ليتفق بهذا مع الثالث الديني (٣٧)

الاضطراب ، وأحاطت الأباطرة والدولة بهالة من القداسة يرهبا التبديل .
وقد أكسبتها البيروقراطية الخالدة مهيتها الجامعة استمراراً واستقراراً لم تنل
منهما جميع الحروب والثورات ، وحافظت على السلام في الداخل ، ونظمت
اقتصادياتها ، وجيبت الضرائب التي أمكنت الإمبراطورية من أن توسع
رقعتها مرة أخرى حتى كادت تبلغ ما بلغته أيام جستنيان . وأكبر الظن أن
موارد الخلافة الإسلامية كانت أقل من موارد الدولة البيزنطية وإن كانت
أملاك الخلفاء أوسع رقعة من أملاك الأباطرة ، ولقد كان ضعف نظام
الحكومة الإسلامية ، وقصور وسائل الاتصال ودولاب الإدارة عن الوفاء
بمخارج الدولة ، سبباً في تفككها بعد ثلاثة قرون من قيامها ، على حين
أن الإمبراطورية البيزنطية عاشت ألف عام .

وقد قامت الحضارة البيزنطية بثلاث مهام حيوية : أولها أنها ظلت
ألف عام حصناً حصيناً وقى أوروبا هجمات الفرس والدولة الإسلامية في
المشرق ، وثانيها أنها احتفظت في أمانة بالنصوص التي أعيد فيها تسجيل
آداب اليونان الأقدمين وعلومهم وفلسفتهم ، وأسلمتها كاملة إلى أوروبا
حيث بقيت حتى نهبا الصليبيون في عام ١٢٠٤ . وجاء الرهبان القارون
من وجه محطى الصور والتماثيل المقدسة بالخطوط اليونانية إلى جنوبي
إيطاليا ، وأعادوا إلى هذه البلاد علمها القديم بالآداب اليونانية ؛ وغادر
الأساتذة اليونان مدينة القسطنطينية فراراً من المسلمين والصليبيين على
السواء ، واستقروا أحياناً في إيطاليا ، وكانوا هم الحاملين لبذور الآداب
القديمة ؛ وهكذا أخذت إيطاليا عاماً بعد عام تستكشف بلاد اليونان من
جديد ، وظل الناس يفترون من ينبوع الحضارة الذهنية حتى ثملوا .
وثالثها وآخرها أن بيزنطية هي التي أخرجت البلغار والصقالبة من دياجير
المهجية إلى المسيحية ، ونصت قوة الجسم الصقلي التي لا حد لها إلى روح
أوروبا وحياتها ومصائرهما .

الفصل السادس

البلقان (٥٥٨-١٠٥٧)

على بعد بضعة أميال لا أكثر في شمال القسطنطينية بحر مضطرب من خلائق يحترقون الآداب ويحبون الحرب بنصف قلوبهم . ولم تكذب موجة الهون تراجع حتى أقبلت من التركستان خلائق أخرى جديدة تمت إليهم بصلة الدم يدعون الآفار مخترقين جنوبي روسيا (٥٥٨) واسترقوا جموعا من الصقالبة ، وأغاروا على ألمانيا حتى نهر الإلب (٥٦٢) ، ودفعوا للمبارد أمامهم إلى إيطاليا (٥٦٨) ، وعاثوا في بلاد البلقان فساداً حتى كاد ينمحي منها سكانها الذين ينطقون باللغة اللاتينية . وبسط الآفار سلطانهم في وقت ما على البلاد الممتدة من البحر البطلي إلى البحر الأسود ، وحاصروا القسطنطينية في عام ٦٢٦ وكادوا يستولون عليها ، وكان عجزهم عن ذلك بداية اضمحلالهم ؛ فغلبهم شارلمان على أمرهم في عام ٨٠٥ ، وما لبثوا أن امتصهم البلغار والصقالبة شيئاً فشيئاً .

وكان البلغار ، وهم في أصلهم خليط من الدم الهوني ، والأجري Ugrian والتركي ، يكونون قبل ذلك الوقت جزءاً من إمبراطورية الهون في لروسيا ، وأقام فرع منهم بعد موت أتلا Atilla مملكة لهم - « بلغاريا القديمة » - على ضفاف نهر الفلجا Volga حول مدينة قازان الحالية . وأثرت عاصمتهم بلغار Bolgar من التجارة النهرية ، وظلت مزدهرة حتى خربها التتار في القرن الثالث عشر . وهاجر فرع آخر منهم في القرن الخامس نحو الجنوب الغربي إلى وادي الدن Don ، وعبرت إحدى قبائل هذا الفرع ، وهي قبيلة طليوتجر Uigurs ، نهر الدانوب (٦٧٩) ، وأسست مملكة بلغارية ثانية في موثيزيا

Moesia واسترقوا من فيها من الصقالبة ، وأخذوا عنهم لغتهم وأنظمتهم ، وامتصهم آخر الأمر العنصر الصقلي . وبلغت الدولة الجديدة أوجها في عهد الخاقان أو الخان (الرئيس) كروم Krum (٨٠٢) ، وهو رجل جمع إلى شجاعة المممج دهاء المتحضرين . وغزا الخاقان مقدونية - إحدى ولايات الدولة الرومانية الشرقية - ونهب ١١٠٠ رطل من الذهب ، وأحرق مدينة سرديقا Sardica المسماة الآن صوفيا عاصمة بلغاريا الحالية . وكان له الإمبراطور نقفور الصاع صاعين وأحرق بلسكا Pliska عاصمة كروم (٨١١) ؛ ولكن كروم أوقع الجيش اليوناني في كمين نصبه له في أحد ممرات الجبال ، وقتل نقفور ، واتخذ من جمجمة الإمبراطور قدحاً لشرابه . ثم حاصر القسطنطينية في عام ٨١٣ ، وأحرق أرباضها ، وضرب تراقية ، وفعل بها ما فعلته الجيوش التي غزتها في عام ١٩١٣ . وبينما هو يعدّ العدة لهجوم آخر إذ انفجر أحد أوعينه الدموية وقضى على حياته . وعقد ابنه أمورتاج Omurtag الصلح مع اليونان وأسلموه بمقتضاه نصف تراقية ، واعتنق البلغار المسيحية في عهد الخان بوريس Boris (٨٥٢ - ٨٨٨) . وآوى بوريس نفسه بعد حكم طويل إلى أحد الأديرة ، ثم خرج منه بعد أربع سنين ليخلع ابنه الأكبر فلاديمير ، ويُجلس على العرش ابناً آخر أصغر من أخيه يدعى سميون Simenn (٨٩٣ - ٩٢٧) ؛ وعاش بوريس حتى عام ٩٠٧ ، وأصبح هو أول قديس قومي لبلغاريا . وكان سميون من أعظم ملوك زمانه ، فقد وسّع رقعة أملاكه حتى شملت بلاد الصرب والبحر الأدرياوى ، ولقب نفسه « إمبراطوراً وحاكماً مطلقاً لجميع البلغار واليونان » ؛ وشن الحرب عدة مرار على بيزنطية ، لكنه حاول أن يدخل الحضارة إلى بلاده بتراجم الآداب اليونانية ، وأن يجعل عاصمته في أقاليم الدانوب بروائع الفن اليوناني . ويصف أحد معاصريه مدينة برسلاف Breslav بأنها « من أعجب ما تقع عليه العين » ، مليئة « بالقصور والكنائس الشاخنة » الكثيرة الزخرف ؛ ولقد كانت في القرن الثالث عشر أكبر مدينة

في بلاد البلقان كلها ؛ ولا تزال خربات قليلة باقية منها . وأضعفت المنازعات الداخلية بلغاريا بعد موت سميون . وحول ملاحدة بجوميل Bogomil نصف الفلاحين خلائق مسالمين شيوعيين ؛ واستردت بلاد الصرب استقلالها في عام ٩٣١ ؛ وأعاد الإمبراطور يوحنا ترميسيس بلغاريا الشرقية إلى أحضان الإمبراطورية البيزنطية في عام ٩٧٢ ؛ وفتح باسيل الثاني بلغاريا الغربية في عام ١٠١٤ ، وبذلك أضحت بلغاريا (١٠١٨ - ١١٨٦) مرة أخرى ولاية تابعة لبيزنطية .

وفي أثناء هذه الأحداث أقبل على الإمبراطورية القلقة زائرون من أقوام همج جدد يدعون المجر . والراجح أن المجر كانوا ، كما كان البلغار ، من تلك القبائل التي يطلق عليها ذلك الاسم غير الدقيق الأجرى Ugri أو الإيجور Igurs (ومن هذا اللفظ اشتقت كلمة Ogre المرادفة لكلمة غول) ، والتي كانت تضرب في البلاد المصاوبة لحدود الصين الغربية . وكان هؤلاء أيضاً قد سرى إليهم دم هونى وتركى كثير لطول اختلاطهم بهذين العنصرين . وكانوا يتكلمون لغة وثيقة الصلة بلغى الفين (أهل فنلندة) والسمويدs Somoyeds . وقد هاجروا في القرن التاسع الميلادى من سهوب الأورال وبحر الخزر (قزوين) إلى الأراضى المجاورة لنهرى الدن والدينير Dneiper والبحر الأسود ، حيث كانوا يعيشون بفلاح الأرض في الصيف ، وصيد السمك في الشتاء ، واقتناص الصقالبة ويبيعهم عبيداً إلى اليونان في جميع فصول العام . وبعد أن أقاموا في أوكرانيا ستين عاماً أو نحوها تحركوا مرة أخرى في اتجاه الغرب . وكانت أوربا وقتئذ في الدرك الأسفل من حياتها ؛ فلم تكن فيها حكومة قوية غرب القسطنطينية ، ولم يقف في وجههم جيش قوى . لهذا اجتاح المجر بسراريا Bessarabia وملدافيا Moldavia (البغدان) في عام ٨٨٩ ، وشرعوا في عام ٨٩٥ في فتوحهم الدائمة لبلاد هنغاريا (المجر) بقيادة زعيمهم أرباد Arpad . وفي عام ٨٩٩ عبرت جموعهم جبال الألب وانقضت على إيطاليا ، وأحرقوا بافيا Pavia وكناستها الثلاث . والأربعين

جميعها ، وذبخوا أهلها ، وظلوا عاماً كاملاً يعيشون في شبه الجزيرة فساداً ،
ثم فتحوا بانونيا Pannonia ، وأغاروا على بافاريا Bavaria (٩٠٠ -
٩٠٧) ، وحرّبوا كارنثيا Carinthia (٩٠١) ، واستولوا على مورافيا
Moravia (٩٠٦) ، ونهبوا سكسونيا ، وثورنجيا Thuringia ، وسوابيا
Swabia (٩١٣) ، وألمانيا الجنوبية ، والألساس Alsace (٩١٧) ،
وانقضوا فجأة على الألمان المقيمين على ضفاف نهر الك Lech . أحد روافد
الدانوب (٩٢٤) . وارتجفت لذلك قلوب الأوربيين وتوجهوا إلى خالفهم
بالدعاء والصلاة ، لأن هؤلاء المغيرين كانوا لا يزالون أقواماً وثنيين ،
ولاح أن العالم المسيحي مقضى عليه لا محالة . ولكن المجر هُزِموا عند جوثا
Gotha في عام ٩٣٣ ، ووقف زحفهم على أثر هذه الهزيمة ، ثم غزوا
إيطاليا مرة أخرى في عام ٩٤٣ ، ونهبوا برغنديا في عام ٩٥٥ . وانتهى
الأمر في ذلك العام نفسه بأن هزمتهم جيوش ألمانيا المتحدة بقيادة أوتو
الأول في معركة حاسمة في لكفلد Lechfeld أو وادي اللك بالقرب من مدينة
أوجزبرج Augsburg ، واستطاعت أوربا عقب هذه الهزيمة أن تتنفس
الصعداء بين خرباتها بعد أن حاربت في قرن واحد (٨٤١ - ٩٥٥)
النورمان في الشمال ، والمسلمين في الجنوب ، والمجر في الشرق .

وبعد أن خضع المجر أصبحت أوربا أكثر أمناً مما كانت لاعتناقهم الدين
المسيحي (٩٧٥) . ذلك أن الأمير جيزا Geza خشى اندماج بلاد هنغاريا في
الإمبراطورية البيزنطية التي عادت وقتئذ توسع رقعتها ، ولهذا اختار المذهب
المسيحي اللاتيني لكي يسالنه الغرب ، وزاد على ذلك بأن زوج ابنة استيفن من
جزيلا Gisela ابنة هنري الثاني دوق بافاريا . وأسمى استيفن الأول (٩٩٧ -
١٠٣٨) شميناً لهنغاريا وراعيها وأعظم ملوكها ؛ فقد نظم شتون المجر على غرار
النظام الإقطاعي الألماني ، وقوى الأساس الديني الذي أقام عليه المجتمع الجديد
بأن قبل مملكة هنغاريا وتاجها من البابا سلفستر Sylvester الثاني (١٠٠٠) .

وهرع الرهبان البندكتيون إلى بلاده ، وأنشأوا الأديرة والقرى وأدخلوا فيها فنون الغرب الزراعية والصناعية ؛ وهذا انتقلت هنغاريا بعد حروب دامت مائة عام من ظلمات الهمجية إلى نور الحضارة ؛ ولما أن أهدت الملكة جزيلا صليبا إلى صديق لها ألماني كان هذا الصليب آية رائعة من فن الصياغة الذهبية .

وكان أقدم موطن معروف للصقالبة إقليم من روسيا كثير المناقع تحيط به كيف ، ومهليف Mohilev ، وبرست لتوفسك Brest Litovsk ، وكانوا من عنصر هندي أوربي يتكلمون لغات ذات صلة باللغتين الألمانية والفارسية . وكانت أقوام من البدو تحتاج بلادهم من آن إلى آن ، وكثيراً ما كانوا يُسْتَرْقُونَ ، وكانوا على الدوام يعانون مرارة الفقر والظلم ، ولهذا طبعوا على الصبر وجعلتهم الصعاب وخشونة العيش الدائمة صلابا أشداء ، وفاقت خصوبة نساءهم نسبة الوفيات العالية بينهم المسببة من المجاعات ، والأمراض والحروب ، التي لم ينطق لها سعي . وكانوا يسكنون كهوفاً أو أكواخاً من الطين ، ويعيشون من صيد الحيوان ، ورعيه ، وصيد السمك ، وتربية النحل ؛ وكانوا يبيعون العسل ، والشمع ، والجلود ؛ ثم استسلموا آخر آخر الأملحياة الزراعة والاستقرار . وكانوا هم أنفسهم يطاردون ويُدفعون إلى المناقع والغابات التي يتعذر الوصول إليها ، ثم يؤمرون بوحشية ، ويباعون بلا رحمة ؛ ولهذا تخلقوا بأخلاق زمانهم ، فكانوا يستبدلون السلع بالرجال ؛ وإذا كانوا يعيشون في أقاليم باردة رطبة ، فقد اعتادوا أن يذفثوا أجسامهم بالمشروبات الكحولية القوية ؛ ومن أجل هذا وجدوا أن المسيحية خير لهم من الإسلام الذي يحرم الخمر (٣٤) . وكانت أبرز عيوبهم هي السكر ، والقنطرة ، والقسوة ، وحب السلب والنهب . وكان الادخار ، والحذر ، وسعة الخيال تتذبذب فهم بين الفضيلة والرذيلة ؛ ولكنهم كانوا إلى ذلك طيبي القلوب ، أسخياء ، حسنى العشرة ، مولعين بالألعاب ، والرقص والموسيقى ، والغناء . وكان زعماءهم كثيرى الأزواج ، أما الفقراء فكانوا يقتصرون على واحدة ، وكانت النساء

- اللاتي يشترين بالمال أو يؤسرن في الحروب ليتخذن زوجات - وفيات مطيعات على غير ما كان ينتظر منهن^(٣٥) . وكانت الأسر الخاضعة لسلطان الأب تنتظم انتظاما غير وثيق العرى في عشائر ثم تنتظم العشائر في قبائل . ولربما كان للشعائر أملاك مشتركة في مراحل الرعى الأولى^(٣٦) ، ولكن قيام الزراعة - التي تثمر فيها الدرجات المختلفة من النشاط ، والكفاية في التربة المختلفة الحصوية : ثماراً غير متساوية - أدى إلى نشأة الملكية عند الأفراد أو الأسر وكثيراً ما كان الصقالية يتفرون بسبب الهجرة أو الحروب الداخلية ، ولهذا نشأت بينهم عدة لغات صقلبية : البولندية والونديشية Wendish ، والتشكية ، والسلوفاكية في الغرب ، والسلوفينية والصربيكرواتية Serbo-Croat ، والبلغارية في الجنوب ، والروسية الكبرى ، والروسية البيضاء ، والروسية الصغرى (الروثينية والأكرانية Rurhenian & Ukrainian) في الغرب . على أن الذين يتكلمون أية لغة من هذه اللغات قد ظلوا يفهمون كل واحدة منها ؛ وكانت جامعة اللغة والعادات بين الصقالية ، مضافة إلى سعة بلادهم ، وكثرة مواردهم ، وحيويتهم الناشئة من قسوة الظروف المحيطة بهم ، والانتقاء الصارم ، والطعام البسيط الخشن ، كانت هذه كلها سبباً في ازدياد قوة الصقالية الآخذة في الانتشار .

ولما أن زحفت القبائل الألمانية جنوباً وغرباً في هجرتها إلى إيطاليا وغالة خلفت وراءها رقعة من الأرض قليلة السكان في شمالي ألمانيا ووسطها . وانجذب الصقالية نحو هذا الفراغ ، ودفعهم إليه دفعاً الهون الغزاة ، فانتشروا غرباً وعبروا نهر القستولا Vistula ، ونهر الإلب نفسه ؛ وكانوا في هذه الأرض هم الوند Wend ، والبولنديين ، والتشك ، والفلاخ Vlache ، والسلوفاك الذين نعرفهم فيما بعد . وحدث في أواخر القرن الثالث تيار جارف من الهجرة الصقلبية غمر ريف اليونان ، وأغلقت المدن بابها دونه ، ولكن دما صقلبياً غزيراً امتزج بالدم الحلبي . وجاءت حوالي عام ٦٤٠ قبيلتان صقلبيتان ذواتي قرني هما الصربي Srbi ،

والكروباتي Chrobati ، واستوطنتا بانونيا وإيركم Illyricum من جديد . واعتنق الصرب المذهب اليوناني المسيحي ، واعتنق الكروات المذهب الروماني . وأضعف هذا الانقسام الديني ، الذي عاق الوحدة الجنسية واللغوية ، الأمة أمام جيرانها ، ولهذا أخذت بلاد الصرب تتأرجح بين الاستقلال تارة ، والخضوع لبيزنطية أو بلغاريا تارة أخرى ، إلى أن كان عام ٩٨٩ فهزم صمويل قيصر البلغار يوحنا فلاديمير الصربي ، وأسره ، ثم زوجه بابنته كسارا Kossara وسمح له بالعودة إلى عاصمته زيتا Zita ، على أن يكون فيها أميراً من قبل فلديمير . ذلك هو موضوع أقدم الروايات القصصية الصربية فلديمير وكسارا التي ألفت في القرن الثالث عشر . واحتفظت المدن الساحلية في دلماشيا القديمة - زارا ، واسپالاتو Spalato ، وراجوسا Ragusa بلغتها وثقافتها اللاتينيتين ، أما بقية بلاد الصرب فأضحت صقلبية . وحرر الأمير فواسلاف صربياً في عام ١٠٤٢ ولكنها عادت فاعترفت بسيادة بيزنطية في القرن الثاني عشر .

ولما أن بلغت هذه الهجرة الصقلبية الرائعة العجبية تمامها في أواخر القرن الثامن أمست أوروبا الوسطى ، وبلاد البلقان ، والروسيا بأجمعها بجزراً صقلبياً نصطدم أمواجه بحلود القسطنطينية ، وبلاد اليونان ، وألمانيا .

الفصل السابع

مولد الروسيا (٥٠٩ - ١٠٥٤)

لم يكن الصقالبة إلا آخر الأقسام الكثيرين الذين كانوا يمرحون ويطربون في تربة الروسيا الحصبة ، وسهوبها الرحبة ، وأنهارها الكثيرة الصالحة للملاحة ؛ ويأسون لمناقعها العفنة ، وغاباتها المانعة ، وافتقارها إلى المعامل الطبيعية التي تصد الأعداء الغازين ، وصيفها الحار ، وشتائها البارد . فلقد أنشأ اليونان منذ القرن السابع قبل الميلاد لا بعد على أقل سواحلها جدياً أى على شاطئ البحر الأسود الغربى والشمالى نحو عشرين بلدة - ألبيا ، و تانيس Tanais ، ونيودوسيا Theodocia ، وپنتيكيبوم Panticapium (كرتش Kerch) . واقتتلوا مع السكوذيين الضاربين وراء هذه البلاد أو ناصرهم . وسرت إلى هؤلاء الأقسام - وأكبر الظن أنهم من أصل إيراني - بعض عناصر الحضارة الفارسية واليونانية ، بل إنهم قد خرج من بينهم فيلسوف - أناخارسيس Anacharsis ٦٠٠ ق . م - قدم إلى أثينة وتناقش مع صولون .

ثم أقبلت في القرن الثانى قبل الميلاد قبيلة إيرانية أخرى هى قبيلة السرماتيين ، هزمت السكوذيين وسكنت ديارهم ؛ واضمحات المستعمرات اليونانية في هذا الاضطراب . ودخل البلاد القوط من الغرب القرن الثانى بعد الميلاد ، وأنشأوا مملكة القوط الشرقيين ، ثم قضى الهون على هذه المملكة حوالى عام ٣٧٥ ؛ ولم تكد سهول روسيا الجنوبية تشهد بعد هذا الغزو أية حضارة ، بل شهدت هجرات متتابعة من أقوام بدو - هم البلغار ، والآفار ، والصقالبة ، والخزر ، والحجر ، والپنزيناك Patzinaks ، والكومان Cumans ، والمغول . وكان الخزر من أصل تركى زحفوا في القرن السابع مخترقين جبال القفقاس إلى جنوبى الروسيا ، وأنشأوا

مُلْكًا منظماً امتد من نهر الدنيبر إلى بحر قزوين (بحر الخزر) ، وشيدوا عاصمة لهم هي مدينة إنيل III على مصب نهر الفلجا Volga بالقرب من أستراخان الحاضرة ، واعتنق ملكهم هو والطبقات العليا منهم الدين اليهودي . وكانت تحيط بهم الدولتان المسيحية والإسلامية ، ولكنهم فضلوا في أكبر الظن أن يغضبوا الدولتين بدرجة واحدة عن أن يغضبوا واحدة منهما غضباً يعرضهم للخطر ، وأطلقوا في الوقت عينه الحرية الكاملة لأصحاب العقائد المختلفة ، فكانت لهم سبع محاكم توزع العدالة بين الناس - اثنتان للمسلمين ، واثنتان للمسيحيين ، واثنتان لليهود ، وواحدة للكفرة الوثنيين . وكان يسمح باستئناف أحكام المحاكم الخمس الأخيرة إلى المحكمتين الإسلاميتين ، إذ كانوا يرون أنهما أكثر عدالة من المحاكم الأخرى (٣٧) . واجتمع التجار على اختلاف أديانهم في مدن الخزر تشجعهم على ذلك هذه السياسة المستنيرة ، فنشأت هناك من ذلك نجارة منتعشة بين البحر البلطى وبحر قزوين ، وأصبحت إنيل في القرن الثامن من أعظم مدن العالم التجارية . وهاجم الأتراك البدو خزاريا Khazaria في القرن التاسع ، وعجزت الحكومة عن أن تحمي مسالكها التجارية من اللصوصية والقرصنة ، وذابت مملكة الخزر في القرن العاشر وعادت إلى الفوضى العنصرية التي نشأت منها .

وجاءت من جبال الكربات في القرن السادس هجرة من القبائل الصقلبية إلى هذا الخليط الضارب في روسيا الجنوبية والوسطى . واستقرت هذه القبائل في وادي الدنيبر والدين ، ثم انتشرت انتشاراً أرق إلى بحيرة إلمن Ilmen في الشمال ، وظل أفرادها عدة قرون يتضاعفون ، وهم في كل عام يقطعون الغابات ويجففون المستنقعات ، ويقتلون الوحوش البرية ، وينشئون بلاداً أكبرانيا . وانتشروا فوق السهول بفضل حركة من الإخصاب البشري لا يضارعهم فيها إلا الهنود والصينيون . ولقد كان هؤلاء الأقوام طوال التاريخ المعروف لا يقرّ لهم قرار - يهاجرون إلى بلاد القفقاس وتركستان ، وإلى أقاليم أورال وسيبيريا ، ولا تزال

عملية الاستعمار هذه في مجراها في هذه الأيام ؛ ولا يزال البحر الصقلي العجاج يدخل كل عام في خلجان عنصرية جديدة .

وأقبلت على العالم الصقلي في بداية القرن التاسع غارة بدت وقتئذ أنها لا يؤبه بها . ذلك أن أهل الشمال الإسكنديناويين كان في وسعهم أن يوفروا بعض الرجال وبعض النشاط يقتطعونها من هجاتهم على اسكتلندة ، وأيسلندة ، وأيرلندة ، وإنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وأسبانيا ؛ وأن يوجهوا إلى روسيا الشمالية عصابات مؤلفة من مائة أو مائتين من الرجال ، ينهبون بها الجماعات الضاربة حول البحر البلطى ، والفنلنديين ، والصقالبة ، ثم يعودون يجر الحقايب بالغنائم . وشاء هؤلاء الفيرنج چار Vaerinjar أو الفرنجيون Varangians (« أتباع » الزعيم) أن يجمعوا تلصصهم بالقانون والنظام فأقاموا مراكز محصنة في طرقهم ، ثم استقروا بالتدريج وكانوا أقلية إسكنديناوية من التجار المسلحين بين زراع خاضعين لهم . واستأجرتهم بعض المدن ليكونوا حماة للأمن والنظام الاجتماعى . ويبدو أن أولئك الحراس قد أحالوا أجورهم جزية ، وأضحوا سادة من استخدموهم^(٢٨) ؛ ولم يكذ ينتصف القرن التاسع حتى أضحوا هم حكام نفجورود « الحصن الحديد » ، وبسطوا ملكهم حتى وصلوا إلى كيف في الجنوب . وارتبطت الطرق والمحلات التي كانوا يسيطرون عليها برباط غير وثيق فتألفت منها دولة تجارية وسياسية ، سميت روس Ros أو Rus وهى كلمة لا يزال اشتقاقها مثاراً للجدل الشديد . وربطت الأنهار العظيمة التي تتحرق البلاد البحرين الأبيض في الشمال والأسود في الجنوب بالقنوات والطرق البرية القصيرة ، وأغرقت الفرنجيين بأن يوسعوا تجارتهم ويبسطوا سلطانهم نحو الجنوب . وسرعان ما أخذ هؤلاء التجار المحاربون البواسل يبيعون بضائعهم أو خدماتهم في القسطنطينية نفسها . ثم حدث ما يناقض هذا ، حدث أنه لما أضحى التجارة على أهبال الدنير ، والفلخوف Volkhov ، ودوينا الغربى أكثر انتظاماً مما كانت قبل ، أقبل

التجار المسلمون من بغداد وبيزنطية ، وأخذوا يستبدلون الفراء ،
والكهرمان ، وعسل النحل ، وشمعه ، والرقيق ، بالثوابل ، والحمور ،
والحرير ، والجواهر ، وهذا منشأ ما نجده من النقود الإسلامية والبيزنطية
الكثيرة العدد على ضفاف تلك الأنهار وفي اسكنديناوة نفسها . ولما حالت
سيطرة المسلمين على البحر المتوسط الشرقي دون وصول الحاصلات الأوربية
مجتازة المسالك الفرنسية والإيطالية إلى ثغور البلاد الواقعة في شرق هذا
البحر ، وازدهرت في مقابل هذا في روسيا مدائن نفجورود ، واسمولنسك ،
Smolensk ، وشرنيجوف Shernigov ، وكيف ، ورستوف Rostov
بفضل التجارة الاسكنديناوية ، والصقلبية ، والإسلامية ، والبيزنطية .

ونخل السجل القريم الروسى (القرن الثانى عشر) على هذا التسرب
الاسكنديناوى شخصية تاريخية بقصته عن « الأمراء الثلاثة » : وخلصتها
أن السكان الفنلنديين والصقلبية في نفجورود وما حولها أخذوا يتقاتون فيما
بينهم بعد أن طردوا سادتهم الفرنجيين ، وبلغ من هذا التناحر أن دعوا
الفرنجيين أن يرسلوا لهم حاكماً أو قائداً (٨٦٢) ، فجاءهم ، كما تروى
القصة ، ثلاثة إخوة - روريك Rurik ، وسنيوس Sinues ، وتروفور
Truvor - وأنشأوا الدولة الروسية . وقد تكون هذه القصة صادقة رغم
تشكك المتأخرين فيها ، وقد تكون طلاء وطنياً لفتح نفجورود على يد
الاسكنديناويين . ويضيف السجل بعد ذلك أن روريك أرسل اثنين من
أعوانه هما أسكولد Ascold ودير Dir ليستوليا على القسطنطينية ، وأن
هذين الشماليين وقفاً في طريقهما ليستوليا على كيف ، ثم أعلنوا استقلالهما
عن روريك والخزر جميعاً .

وبلغت كيف في عام ٨٦٠ من القوة مبلغاً أمكنها أن تسير عمارة بحرية
من ألف سفينة تهاجم القسطنطينية ؛ وأخفقت الحملة في مهمتها ، ولكن كيف
بقيت كما كانت مركزاً لروسيا التجارى والسياسى ، وجمعت تحت سلطانها بلاداً

واسعة ممتدة خلفها . وفي وسعنا أن نقول بحق إن حكامها الأولين - أسكولد Ascoled ، وأولج Oleg ، وإيجور Igor لاروريك حاكم نفجورود - هم الذين أنشأوا الدولة الروسية . ووسع أولج ، وإيجور ، وألجا Oelga - الأميرة القديرة أرملة أولج - وابنها المحارب اسفياتسلاف Sivatoslav (٩٦٢ - ٩٧٢) مملكة كيف حتى انضوت تحت لوأها القبائل الصقلية كلها تقريباً ، ومدائن پولوتسك Polotsk ، واسمولنسك ، وشرنجوف ، ورستوف . وحاولت الإمارة الناشئة بين عامي ٨٦٠ ، ١٠٤٣ ست مرات أن تستولى على القسطنطينية . ألا ما أقدم زحف الروس على البسفور ، وتعطش الروس إلى مخرج أمين إلى البحر المتوسط .

واعتقت روس ، كما سميت الإمارة الجديدة نفسها ، تحت حكم فلاديمير الخامس (٩٧٢ - ١٠١٥) « دوق كيف الأكبر » ، الدين المسيحي (٩٨٩) . وتزوج فلاديمير أخت الإمبراطور باسيل الثاني ، وظلت روسيا من ذلك الوقت إلى عام ١٩١٧ ابنة للدولة البيزنطية في دينها ، وحروفها الهجائية ، وعملتها ، وفنها . وشرح القساوسة اليونان لفلاديمير منشأ الملوك وحقهم الإلهيين ، وما لهذه العقيدة من نفع في تثبيت النظام الاجتماعي واستقرار الملكية المطلقة^(٣٩) . وبلغت دولة كيف أوج عزمها في عهد يروسلاف Yaroslav (١٠٣٦ - ١٠٥٤) بن فلاديمير ، واعترفت بسلطانها اعترافاً غير أكيد كل البلاد الممتدة من بحيرة لدوجا Ladoga والبحر البلطي إلى بحر قزوين ، وجبال القفقاس ، والبحر الأسود ، وكانت الضرائب تجبي إليها من هذه البلاد . وامتنعت في جسمها الغزاة الاسكنديناويين وغلب على هؤلاء الدم الصقلبي واللغة الصقلية . وكان نظامها الاجتماعي أرستقراطياً صريحاً ، فكان الأمراء يعهدون بمهام الإدارة والدفاع إلى طبقة عليا من النبلاء ، وطائفة أخرى مثلهم ولكنها أقل منهم مقاماً يعرفون بالديتسكي dietski أو الأوتروكي Otroki أى الخدم أو الأتباع . وبلى هؤلاء في المنزلة طبقة

التجار ، وأهل المدن ، ثم الزراع نصف العبيد ، ثم العبيد أنفسهم . وأقر كتاب القانون المعروف باسم الرسكايا پرافدا Raskaya Pravda أو الحق الروسى ، الثأر الشخصى والمبارزة القانونية ، وتبرئة المتهم بناء على أيمان الشهود ؛ ولكنه أوجد نظام المحاكمة على أيدى اثني عشر محلفين من المواطنين (١٠) . وأنشأ فلاديمير مدرسة للأولاد فى كيف ، وأنشأ باروسلاف مدرسة أخرى فى نفجورود . وكانت كيف وهى ملتقى السفن النهرية الآتية من أنهار يلخوف ، ودثينا ، ودنيبر الأدنى تجبى الضرائب على جميع المتاجر المارة بها ، وسرعان ما بلغت من الثراء درجة أمكنتها من أن تشيد أربعائة كنيسة ، وكتدرايئة كبيرة - تضارع أياصوفيا - على الطراز البيزنطى . وجمىء بالتمنانيين اليونان ليزينوا هذه المباني بالفسيفساء ، والمظلمات وغيرها من ضروب الزينة البيزنطية ؛ ودخلت فيها الموسيقى اليونانية لتمهد السبيل إلى نصره الأغاني الروسية الجماعية . وأخذت روسيا ترفع نفسها على مهل من غمار الأوحال والتراب ، وتبنى القصور لأمرائها ، وتقيم القباب فوق أكواخ الطين ، وتستعين بقوة أبنائها وجلدهم على بناء جزائر صغرى من الحضارة فى بحر لم يخرج بعد من ظلمات الهمجية .

الباب التاسع عشر

اضمحلال الغرب

٥٦٦ - ١٠٦٦ . ٦٠

بينما كان الإسلام يشق طريقه في أنحاء العالم ، وبينما كانت بيزنطية تفتيق من الضربات التي بدت قاصمة لظهرها ، كانت أوروبا تكافح للخروج من دياجير « العصور المظلمة » . وهذا تعبير غير دقيق في وسع كل إنسان أن يعرفه كما يهوى ؛ أما نحن فسنقتصره تعسفاً منا على أوروبا غير البيزنطية في الفترة الواقعة بين موت بويثيوس Boethius عام ٥٢٤ ومولد أبييلار Abelard في عام ١٠٧٩ . وظلت الحضارة البيزنطية مزدهرة خلال هذه الفترة رغم ما خسرتة الدولة من أملاكها ومهابتها ؛ أما أوروبا الغربية فكانت في القرن السادس الميلادي مسرحاً لفوضى الفتوح ، والانحلال ، والعودة إلى الهمجية . نعم إن قسطاً كبيراً من الثقافة اليونانية والرومانية القديمة قد بقي فيها ، وإن كان معظمه صامتاً محبوباً في عدد قليل من الأديرة والأسر ، ولكن مصادر الأسس الجسمية والنفسية التي يقوم عليها النظام الاجتماعي كانت قد اضطربت اضطراباً لا تعود معه هذه الأسس إلى الاستقرار إلا بعد قرون طوال . ذلك أن الولع بالآداب ، والإخلاص للفن ، ووحدة الثقافة واتصالها ، وتجاوب العقول بعضها مع بعض تجاوباً يشحذها ويخصبها ، كل هذه الأسس قد انهارت أمام ضربات الحرب ووبلاتها ، وأخطار طرق النقل ، والأساليب الاقتصادية في البيئات الفقيرة ، ونشأة اللغات القومية ، واختفاء اللغة اللاتينية من بلاد الشرق واللغة اليونانية من الغرب . وعجلت في القرنين التاسع والعاشر سيطرةُ المسلمين على البحر المتوسط ، وغارات النورمان ،

والبحر ، والمسلمين على السواحل الأوربية نزعة التخصص في أساليب الحياة: ووسائل الدفاع وبدائية الفكر والكلام . وكانت ألمانيا وأوروبا الشرقية ملتقى تيارات متعارضة من الحضارات ، واسكنديناوة معشياً للقراصنة ، وبريطانيا تجتاحها قبائل الإنجليز ، والسكسون ، والجات ، والدمرقين ؛ وغالة يهاجمها الفرنجة ، والنورمان ، والبرغنديون ، والقوط ؛ وأسبانيا يتنازعها القوط الغربيون والمسلمون ؛ وكانت إيطاليا قد حطمتها الحروب الطوال التي دارت رحاها بين القوط والبيزنطيين ؛ وظلت البلاد التي وهبت نصف العالم الأمن والنظام تعاني خمسة قرون طوال مساوي الانحلال في الأخلاق والاقتصاد ، وأنظمة الحكم .

ومع هذا فإن شارلمان ، وألفرد Alfred ، وأتو الأول قد وهبوا فرنسا ، وإنجلترا وألمانيا فترات من النظام ، وكانوا حافزاً على السير إلى الأمام ؛ وأحييت إرجينا Erigena موات الفلسفة ، وجدد ألكوين Alcuin وغيره ، نشاط التعليم ، وأدخل جريرت Gerbert علوم المسلمين إلى بلاد المسيحية ؛ وأصلح ليو التاسع وجريجورى السابع نظم الكنيسة وبعث فيها القوة ، ونشأ في فن العمارة طراز الزخرف الروماني ؛ وبدأت أوروبا في القرن الحادى عشر رقيها البطيء إلى ما وصلت إليه في القرنين الثانى عشر والثالث عشر أى إلى أعظم ما بلغت في العصور الوسطى بأجمعها ؛

الفضل الأول

إيطاليا

١ - اللمبارد : ٥٦٨ - ٧٧٤

انطفأ سراج الحكم البيزنطى فى إيطاليا الشمالية بعد ثلاث سنين من موت جستينيان على أثر غارات اللمبارد على تلك البلاد .

ويظن پولس الشماس - وهو واحد منهم - أن اللمبارد أو اللنجوباردى Longobardi قد سما بهذا الاسم لطول لحاهم^(١) ، وهم أنفسهم يعتقدون أن موطنهم الأصيل كان فى اسكنديناوة^(٢) ، ولهذا فإن دانتي ، وهو من نسلهم^(٣) ، يوجه الخطاب إليهم بهذا الوصف^(٤) . ونراهم على ضفاف نهر الإلب الأدنى فى القرن الأول الميلادى ، وعلى ضفاف الدنواب فى القرن السادس ، ويستخدمهم نارسيس Narses فى حروبه الإيطالية التى دارت رحاها عام ٥٥٢ ، ثم يعيدهم إلى بانونيا بعد أن يحرز النصر . ثم يشتد ضغط الآفار على اللمبارد من الشمال والشرق ، فيتحرك مائة وثلاثون ألفاً منهم فى عناء - رجالهم ونساؤهم وأطفالهم ، ومتاعهم - ويعبرون جبال الألب إلى «لمبارديا» سهول البو الحصية . ولعل نارسيس كان يستطيع وقف سيرهم ، ولكنه كان قد خلع وجله العار قبل عام من ذلك الوقت ؛ كذلك كانت بيزنطية مشغولة عنهم بالآفار والفرس ؛ ولم يكن لديها من المال ما تنفقه فى أعمال البطولة التى يفيد منها غيرها . ولهذا فإنه لم يحل عام ٥٧٣ حتى استولى اللمبارد على فيرونا ، وميلان ، وفلورنس ، وبافيا - وقد أصبحت هذه المدينة الأخيرة عاصمة ملكهم ؛ وفى عام ٦٠١ استولوا على بلوا ، وفى ٦٠٣

على كرمونا Cremona ومنتوا Mantua ؛ وفي ٦٤٠ على جنوا . وانزع ليوتبراند Liutprand أعظم ملوكهم (٧١٢ - ٧٤٤) راثنا في شرقي إيطاليا ، واسبوليتو Spoleto في وسطها ، وبنفتو في جنوبها ، وكان يطمح إلى جمع كلمة إيطاليا كلها تحت سلطانه . غير أن البابا جريجورى الثالث لم يكن يرضى أن تصبح البابوية أبرشية لمباردية ؛ فاستغاث بالبنادقة الذين لم يخضعوا للمبارد ، وأعاد هؤلاء راثنا إلى بيزنطية . ولم ير ليوتبراند بُدّاً من أن يقنع بحكم شمالي إيطاليا ووسطها أصلح حكم مرّ عليهم منذ أيام ثيودريك القوطي ، وكان هو مثل ثيودريك يجهل القراءة والكتابة^(٥) .

وأنشأ المبارد حضارة خطت في مدارج الرقي . وكانوا يختارون ملكهم ؛ وكان هذا يستشير في شئون الحكم مجلساً من الأعيان ، ويعرض شرائعه عادة على جمعية شعبية مؤلفة من جميع الذكور الذين بلغوا سن الخدمة العسكرية . ونشر مليكهم راثارى Rathari (٦٤٣) كتاب قوانين جمعت بين البدائية والتقدمية : فكانت تبيح أداء الدية المالية جراء للقتل ؛ وأرادت أن تحمي الفقراء من الأغنياء ، وكانت تسخر من السحر والشعوذة ، وتبيح حرية العبادة للكاثوليك ، والأريوسيين . ، والوثنيين على السواء^(٦) . وامتص الدم الإيطالي الغزاة الألمان عن طريق الزواج ، واتخذوا اللسان اللاتيني لغة لهم ، وترك المبارد آثارهم في أماكن متفرقة : في العيون الزرقاء ، والشعر الأشقر ، وفي قليل من الكلمات التوتونية في اللغة الإيطالية . ولما أن خبت حدة الفتوح واستقر القانون ، عادت التجارة - وهي العمل الطبيعي في وادي نهر البو - سيرتها الأولى ؛ ولم يكده ينتهي عصر المبارد حتى أثرت مدائن شمالي إيطاليا وقويت واستعدت لتلقى الفنون وخوض الحروب عندما بلغت ذروتها في العصور الوسطى . أما الأدب فكانت سوقه راكدة ، فلم يبق الدهر من أدب ذلك العصر وتلك الدولة إلا كتاباً واحداً .

هذا شأن - هو كتاب تاريخ المبارد لبولس الشماس (حولي عام ٧٤٨) ؛

وهو كتاب ممل ، مشوه الترتيب ، ليس فيه مقال ذرة من الفلسفة . ولكن لمبارديا طبعت اسمها على فن العمارة وشئون المال ؛ وكانت حيرف البناء قد احتفظت بشيء مما أخذته عن بيزنطية من تنظيم وحذق قديمين . وكان لإحدى الجماعات ، وهي جماعة سارة كومو ، السبق في صياغة طراز « المباردى » فى العمارة جمعته من أصول متعددة ، وازدهر فيها بعد حتى أصبح هو الطراز الرومانسى .

ولم يمض جيل واحد على حكم ليوتبراند حتى تحطمت المملكة اللمباردية على صخرة البابوية . ثم استولى الملك أيستلف Aistulf على رافنا فى عام ٧٥١ ، وأنهى بذلك تبعيتها لبيزنطية ، وإذ كانت دوقية رومة قبل ذلك الوقت تابعة من الوجهة القانونية للولى المقيم فى رافنا فإن أيستلف طالب بحقه فى ضم رومة إلى مملكته الآخذة فى الاتساع . واستغاث البابا استيفن الثانى بقسطنطين كرونيوموس فبعث الإمبراطور اليونانى بمذكرة غير ذات خطر إلى أيستلف ؛ فما كان من استيفن إلا أن استغاث ببيبين القصير Pepin the Short ملك الفرنجة . وكان لهذا الاستغاث نتائج ذات شأن لم تقف عند حد . ولاح لببين الأمل فى بناء إمبراطورية له فعبّر جبال الألب ، ونكل بإيستلف ، وجعل لمبارديا إقطاعية للفرنجة ، وأعطى جميع إيطاليا الوسطى للبابوية . وظل البابوات يقرون بالسيادة الرسمية للباطرة لشرق ؛ أما إيطاليا الشمالية فقد قضى فيها على سلطان بيزنطية قضاء نهائيا . وقد حاول ديسيدريوس Desiderius الملك اللمباردى التابع أن يسترد استقلال لمبارديا وفتوحها ؛ ولكن البابا هديران الأول استدعى لمعونته فرنجيا جديدا ، وانقض شاملان على بافيا ، وأرسل ديسيدريوس إلى أحد لأدبرة وقضى على مملكة اللمبارد وجعلها ولاية تابعة للفرنجة .

٢ - النورمان في إيطاليا (١٠٣٦-١٠٨٥)

وتركت إيطاليا الآن تعاني الانقسام والحكم الأجنبي مدى ألف عام ،
لن نغنى بتسجيل تفاصيل حوادثها . وحسبنا أن نقول إن النورمان شرعوا
في ١٠٣٦ يفتحون إيطاليا الجنوبية وينتزعونها من الدولة البيزنطية . ذلك أنه
كان من عادة أشرف نورمنديا أن يوزعوا أراضيهم على أبنائهم بالتساوي
كما يفعل الفرنسيون في هذه الأيام ، وكانت نتيجة هذا القانون في نورمنديا
أن تجزأت أملاك الأسر في العصور الوسطى إلى ملكيات صغيرة على حين
أن نتيجته في فرنسا هي وجود أسر صغيرة . ولم يكن النورمان راغبين
في حياة الفقر الهادئة ، وكانوا إلى هذا لا يزالون يذكرون ما طبع عليه
آباؤهم أهل الشمال من حب المغامرة والسلب والنهب ، ولهذا أجز بعض
شداد النورمان أنفسهم إلى أدواق إيطاليا الجنوبية المتنافسين المتنازعين ،
وأظهروا ضروباً من البسالة في حروبهم إلى جانب بنفقتو ، وسارنو ،
ونابلي ، وكپوا ، وإلى جانب أعدائها ، وأعطوا مدينة أفرسا Aversa
جزءاً لهم على أعمالهم . وتراعى إلى مسامح غيرهم من شباب النورمان المتحمسين أن
الأراضي تكسب بضربة أو ضربتين من سواعدهم ، فغادروا نورمنديا إلى
إيطاليا . وسرعان ما أصبح من فيها من النورمان كثرة تستطيع أن تقاتل
لحسابها ؛ ولم يحل عام ١٠٥٣ حتى أنشأ أجراًهم ربرت جوسكارد Robert
Quiscard (أى العاقل أو الماكر) مملكة نورمنديا في إيطاليا الجنوبية . وكان
ربرت هذا يتصف بكل الصفات التي تخلعها الأساطير على الأبطال . كان
أطول من جميع جنوده ، وكان قوى الساعدين ، صلب الرأى ، جميل
الحيا ، أشقر الشعر ، أصهب اللحية ، فخم الثياب ، سخى اليد ينثر الذهب
نثراً ، قاسياً في بعض الأحيان ، وباسلاً على النوم .

ولم يكن روبرت يعترف بغير قانون القوة والحداع ، فاجتاح كلبريا Calabria واستولى على بنفنتو ، وكاد يمشى لإنها على جثة البابا ليو التاسع (١٠٥٤) ، وعقد حلفاً مع نقولا الثاني ، تعهد فيه أن يكون خاضعاً له وأن يؤدي له الجزية ، وأقطعه نقولا في نظير ذلك كلبريا ، وأپوليا Apulia وصقلية (١٠٥٩) . وترك روبرت أخاه الأصغر روجر ليفتح صقلية ، واستولى هو على بارى Bari (١٠٧١) وطرد البيزنطيين من أپوليا . واغتاز إذ وجد البحر الأدرياي يعترض طريقه فأمل أن يعبره ليستولى على القسطنطينية ، ويصبح أقوى ملوك أوربا جميعاً . وأنشأ من فوره عمارة بحرية ، هزم بها الأسطول البيزنطى فى واقعة بحرية بالقرب من درزو (١٠٨١) ؛ واستغاثت بيزنطية بانبنديقية ، فخفت هذه المدينة لنجدتها لأنها لم تشأ إلا أن تكون ملكة البحر الأدرياي ؛ وأوقعت سفائنها الماهرة فى ضروب القتال هزيمة منكرة بعمارة جوسكارد البحرية فى عام ١٠٨٢ على بعد قليل من موضع نصره الذى ناله منذ وقت قصير . ولكن روبرت استطاع بنشاطه الشبيه بنشاط يوليوس قيصر نقل جيشه إلى دورزو Durazzo وهزم عندها جيوش الكسيوس الأول الإمبراطور اليونانى ، واخترق إپيروس وتساليا حتى كاد يصل إلى سلانيك . وبينما هو يوشك أن يحتق حلمه إذ تلقى دعوة حارة من البابا جريجورى السابع يستغيث به لينقذه من الإمبراطور هنرى الرابع . فما كان من روبرت إلا أن ترك جيشه فى تساليا ، وعاد مسرعاً إلى إيطاليا ، وحشد جيشاً من النورمان ، والطايان ، والمسلمين أنقلد به البابا، وانتزع رومة من الألمان ، وأخذ ثورة قام بها الشعب على جيشه ، وترك هذا الجيش الحائق يحرق المدينة وينهبها ويخربها تخريباً لايجاريه فيه تخريب الوندال أنفسهم لهذه المدينة (١٠٨٤) وعاد فى هذه الأثناء ابنه بوهمند Bohemond ليعترف بأن جيشه الذى كان فى بلاد اليونان قد مزقه ألكسيوس شرمزق . وأنشأ القرصان القديم أسطولا ثالثاً هزم به أسطول البندقية بالقرب من جزيرة كورفو Corfu (١٠٨٤) ، واستولى على جزيرة

كفلونيا Cephalonia الأيونية ، ثم مات فيها ، بعدوى سرت إليه أوبالسم ،
في سن السبعين (١٠٨٥) . وكان هو أول القادة اللصوص في إيطاليا
(الكندتيري Conedottieri) .

٣ - البندقية : (٤٥١ - ١٠٩٥)

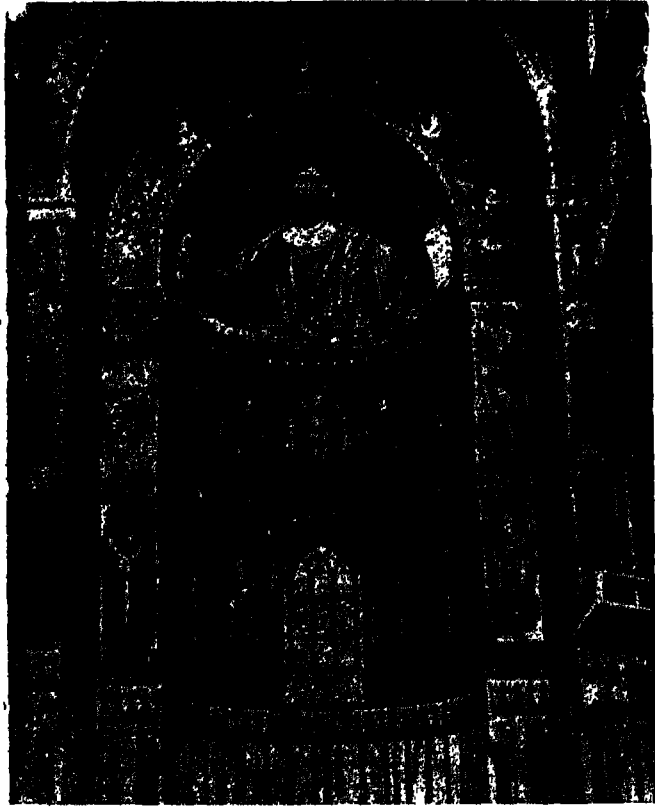
وبينا كانت هذه الأحداث تجرى في مجراها إذ ولدت دولة جديدة في
الطرف الشمالى من شبه الجزيرة ، قدر لها أن تزداد قوة وعظمة حين كانت
الفوضى تضرب بجرانها على الجزء الأكبر من إيطاليا . وتفصيل ذلك أن
سكان أكويليا Aquileia ، وبدوا ، وبلونو Belluno ، وفلتري Feltre
وغيرها من المدن فروا في أثناء غارات القبائل الهمجية في القرن الخامس
والسادس - وبخاصة في أثناء غارة للمبارد في عام ٥٦٨ - لينجوا بأنفسهم
من الهلاك وينضموا إلى صيادى السمك المقيمين في الجزائر الصغيرة التي كونها
نهر البياف Piav والأديج Adige في الطرف الشمالى من البحر الأدريايوى .
وبقى بعض هؤلاء اللاجئين في هذه الجزائر بعد انتهاء الأزمة ، وأنشأوا فيها
محلات : هرقلية ، وملامكو Melamocco وجرادو Grado ، وليدو
Lido وريثو ألتو Rivo Alto (النهر العميق) . وقد أضحيت هذه
الحلمة الأخيرة التي سميت فيها بعد رياتو Rialto عاصمة حكومتهم المتحدة
(٨١١) . وكانت قبيلة من الفنىيى Veneti قد احتلت شمالى إيطاليا قبل عهد
يوليوس قيصر بزم طويل ؛ وأطلق اسم فنيزيا Venezia في القرن الثالث
عشر على المدينة الفذة التي نشأت حيث كان يقيم اللاجئون .

وكانت الحياة فيها شاقة في بادئ الأمر ، فكان من الصعب الحصول على
الماء العذب ، لأن قيمته لم تكن تقل عن قيمة الخمر . وأرغمت الظروف البنادقة
- أهل فنيزيا - لأن يصبحوا أهل سفن وتجارة لاضطرارهم إلى استبدال
القمح وغيره من السلع بما يحصلون عليه من البحر من سمك وملح ؛ وما لبثت

تجارة أوروبا الشمالية والوسطى أن أخذت تنساب تدريجاً عن طريق الثغور البندقية . وأقر اتحاد المدن البندقية الحديد بسيادة بيزنطية عليه ليحمى نفسه من الألمان واللمبارد ، ولكن مركز هذه الجزائر المنيع في مياهها الضحلة وتعد الهجوم عليها برأ أو بجرأ لهذا السبب ، مضافاً إلى جد أهلها وجلدهم ، وازدياد الثراء الناتج من انتشار تجارتها ، كل هذا قد وهب الدولة الصغيرة سيادة واستقلالاً غير منقطعين مدى ألف عام .

وظل اثنا عشر تريبوناً - يبدو أن كل واحد منهم كان يشرف على شئون جزيرة من الجزائر الاثني عشرة الكبيرة - يصرفون شئون الحكم حتى عام ٦٩٧ حين أحست هذه العشائر بحاجتها إلى سلطة عليا موحدة ، فاخترت أول دوج أو دوق أو زعيم doge, dux يتولى شئون الحكم حتى ينزله الموت أو تنزله الثورة عن عرشه . ودافع الدوج أجنلو بدور Agnello Badoer (٨٠٩ - ٨٢٧) عن المدينة ضد الفرنجة دفاعاً أظهر فيه من ضروب المهارة ما جعل الأذواق فيما بعد يُختارون من سلالته حتى عام ٩٤٢ . وثارت البندقية لنفسها في عهد أرسلو Orsello الثاني (٩٩١ - ١٠٠٨) من غارات القراصنة اللماشين بأن هاجمت معاقلمهم واستولت على دلماشيا ، وبسطت سيادتها على البحر الأدرياي . وشرع البنادقة في عام ٩٩٨ يحتفلون في عيد الصعود من كل عام بهذا النصر البحري وبهذه السيادة الاحتفال الرمزي المعروف عندهم باسم اسپوزاليزيا (sposalisia) : فكان الدوج يقذف في البحر من سفينة مزينة زينة بهجة بخاتم مدشن ، وينادى باللغة اللاتينية : « إنا نتزوجك أيها البحر ، دليلاً على سلطتنا الحق الدائم » (٧) . وسرّ بيزنطية أن تقبل البندقية حليفاً لها مستقلاً ، وكافأتها على صداقتها النافعة بامتيازات تجارية في القسطنطينية وغيرها وصلت تجارة البندقية بفضلها إلى البحر الأسود بل تعدته إلى بلاد الإسلام نفسها .

وحدث في عام ١٠٣٣ أن قضت أرستقراطية التجار على انتقال السلطة إلى

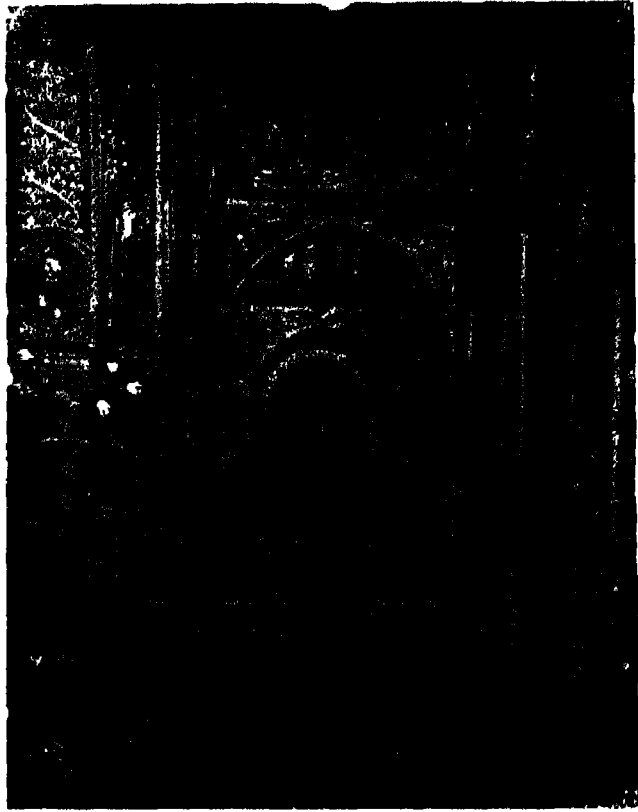


(شكل ٤) كوة معقودة في كنيسة منريال

الأدواق عن طريق الوراثة ، وعادت إلى مبدأ الانتخاب على يد جمعية من المواطنين ، وأرغمت الدوج على أن يحكم بعدئذ بالاشتراك مع مجلس من الشيوخ . وكانت البندقية في ذلك الحين قد أصبحت تلتقب « بالذهبية » (فنيسيا أوربا Venetia Aurea) ، واشتهر أهلها بثيابهم المترفة ، وبانتشار التعليم بينهم ، وبإخلاصهم لوطنهم وكبريائهم . وكانوا أقواماً نشطين راغبين في الكسب ، ماهرين ، دهاء ، شجعاناً ، ميلين للنزاع ، أتقياء ، لا يحرصون على مبدأ .، يديعون العبيد المسيحيين للمسلمين^(٨) ، وينفقون بعض مكاسبهم في بناء الأضرحة للتقديسين . وكان في حوانيت رباتو صناع ورثوا من إيطاليا الرومانية حذق أهلها الصناعات ؛ وكانت تجارة محلية نشيطة تسير في قنواتها ، هادئة ساكنة إلا من صيحات بحارة قواربها الأنيقة اللفظ ؛ وكانت موانئ الجزائر تجملها السفن المغامرة تحمل منتجات أوربا وبلاد الشرق . وكانت قروض الرأسماليين تمويل رحلات التجار البحرية . وتعود على أصحاب هذه الأموال بربح لا يقل عن عشرين في المائة في الأحوال العادية^(٩) . واتسعت الهوة بين الأغنياء (المججورى) والفقراء (المينورى) حين ازداد ثراء الأثرياء ، ولم ينقص فقر الفقراء إلا قليلاً . ولم يكن أحد يظهر الرأفة بالسذج البسطاء ، فكان الكسب والثراء من نصيب الأسرع ، والظفر من نصيب الأقوى . فكان الفقراء يمشون على الأرض العارية ، وتنساب فضلات بيوتهم في الشوارع إلى القنوات ؛ أما الأثرياء فقد شادوا القصور الفخمة ، وسعوا لكسب رضا الله والناس بإقامة أفخم كنيسة كبرى في العالم اللاتيني ، وتبدلت واجهة قصر الدوج ، التي شيدت أول مرة في عام ٨١٤ واحترقت في عام ٩٧٦ ، وتغير شكلها مراراً عدة قبل أن تستقر على شكلها الحاضر الذي هو مزيج رشيق من الزخرف الإسلامي والصورة التي هي من مميزات عصر النهضة .

وحدث في عام ٨٢٨ أن سرق بعض تجار البنادقة من إحدى كنائس

الإسكندرية ما يظن أنه مخلفات القديس مرقس . واتخذت البندقية ذلك القديس شقيقاً لها وحامياً ونهبت نصف العالم لتوارى عظامه . وبدئ بإنشاء كنيسة القديس مرقس الأولى عام ٨٣٠ ثم دمرتها النار في عام ٩٧٦ . تدميراً رأى معه أرسيلو Orseolo الثاني أن يبدأ كنيسة جديدة أوسع منها رقعة . واستدعى لهذا الغرض فنانيين من بيزنطية أقاموها على نمط كنيسة الرسول المقدس في القسطنطينية - ذات سبع قباب فوق بناء صليبي . وظل العمل فيها جارياً نحو قرن من الزمان ؛ وتم البناء الرئيسي بشكله الحاضر تقريباً في عام ١٠٧١ ، ودشن في عام ١٠٩٥ . ولما فقدت مخلفات القديس مرقس حين شبت النار في الكنيسة عام ٩٧٦ ، وهدد فقدانها قداستها ، اتفق على أن يجمع المصلون في الكنيسة في يوم تدشينها ويدعوا الله أن توجد هذه المخلفات ، وتقول إحدى الروايات الماثورة العزيزة على البنادقة الصالحين إن إحدى الأعمدة خر لدعواتهم ، وسقط على الأرض ، وكشف عن عظام القديس^(١٠) . وتهدم البناء وأصلح مراراً ، وقبلت عشر سنين دون أن تشهد فيه تغييراً أو تحسيناً . وليست كنيسة القديس بطرس التي نعرفها الآن بنت تاريخ واحد أو عصر واحد ، بل إنها سجل من الحجارة والجواهر لألف عام ؛ فقد أضيفت في القرن الثاني عشر واجهة من الرخام إلى جدرانها المقامة من الآجر ، وجرى بأعمدة مختلفة الأنواع من أكثر من عشر مدائن ، وقام الفنانون البيزنطيون الذين اتخذوا البندقية وطناً لهم بعمل فسيفساء الكنيسة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ؛ وأخذت أربعة جياذ برنزية من القسطنطينية . حين استولى البنادقة عليها في عام ١٢٠٤ ، ووضعت فوق البوابة الرئيسية ؛ وأضاف الفنانون القوط في القرن الرابع عشر أبراجاً ، وشبابيك مفرغة ، وستاراً للضريح المقدس ؛ وغطى مصورو عصر النهضة في القرن السابع عشر نصف الفسيفساء بصور للجدران غير ذات شأن كبير . واحتفظ البناء العجيب في خلال هذا التغيير كله وهذه القرون الطوال بسمياته ووحدته -



(شکل ۵) مدخل کاپیلا پلاتینا فی پلرم

فكان على الدوام بيزنطياً وعربياً ، منمقاً وشاذاً غير مألوف : فهو من خارجها شديد البريق ذو أقواس ، وأكتاف ، وأبراج مستدقة ، وأبواب ، والتفافات لوائية ، ورخام متعدد الألوان مغلف بالمعادن ، وطف منحوتة ، وقباب بصلية الشكل . وهو من الداخلى يحوى متاهة من العمدة الملونة ، ومثلثات مطلية بين العقود ، ومظلمات قائمة ، وخمسة آلاف ياردة موبعة من الفسيفساء ، وأرضية مرصعة باليشب والعقيق وغيرهما من الحجارة الكريمة ، وحظاراً زخرفياً خلف المذبح صنع عام ٩٧٦ فى القسطنطينية من المعادن الغالية والميناء ذات الحزوز ، مثقلة بألفين وأربعمائة قطعة من الجواهر ، ومقاماً خلف المذبح الرئيسى منذ عام ١١٠٥ . وقد عدت الرغبة الجارحة فى الزخرف طورها فى كنيسة القديس مرقس كما عدته فى كنيسة أياصوفيا ، فرأت أن تكرم الله بالرخام والحلى ، وأن تروع الإنسان ، وتؤدبه ، وتشجعه ، وتواسيه بمائة مشهد ومشهد من الملحمة المسيحية من بداية الخلق إلى نهاية العالم . وكانت كنيسة القديس مرقس أسمى وأخص ما عبر به عن أنفسهم أقوام لاتين استحوذ عليهم الفن الشرقى حتى ملك عليهم مشاعرهم .

٤ - الحضارة الإيطالية (٥٦٦ - ١٠٩٥)

ظلت إيطاليا الشرقية والجنوبية بيزنطية فى ثقافتها ، على حين أن بقية شبه الجزيرة قد نشأت فيها من تراث الرومان حضارة جديدة - عناصرها لغة جديدة ، ودين جديد ، وفن جديد . ذلك أن هذا التراث لم يفن كله رغم ما حل بالبلاد من غزو ، وفوضى ، وفقر . فأما اللغة الإيطالية فكانت هى اللاتينية الخشنة التى كانت تتكلم بها الجماهير فى العهد القديم ، وقد استحالت على مهل حتى أضحت أكثر اللغات رخامة . وأما المسيحية الإيطالية فكانت مؤلفة من وثنية خيالية جذابة ، وشرك عاطفى من القديسين الحماة المحليين ، وأساطير صريحة من

الخرافات والمعجزات . وكان الفن الإيطالي يرى أن الفن القوطى فن همجى ويستمسك بطراز الباسلفا ، (البناء الرومانى المستطيل الشكل) ، ثم عاد آخر الأمر فى عصر النهضة إلى الشكل الأوغسطى . ولم يزدهر نظام الإقطاع فى إيطاليا مطلقاً ؛ فالمدن لم تفقد قط سلطانها وتفوقها على الريف ؛ وكانت الصناعة والتجارة ، لا الزراعة ، هما اللتين مهدتا السبيل إلى الثراء .

ولم تكن رومة فى عهد من العهود مدينة تجارية ، ولذلك ظلت آخذة فى الضعف ؛ فقد اندثر مجلس شيوخها فى حروب القوط ، وأضحت نظم بلدياتها القديمة بعد سبعمائة عام من نشأتها أدوات جوفاء وأحلاماً تناقض روح الزمان ، ولم يكن فى وسع عامتها المؤلفين من خليط من الأجناس ، والذين يعيشون عيشة قلرة يخفف من قذارتها بعض الشيء الإباحية الجنسية والصدقات البابوية ، لم يكن فى وسع هؤلاء العامة أن يعبروا عن عواطفهم السياسية إلا بالثورات المتكررة على السادة الأجانب أو البابوات البغيضين . وكانت الأسر الأرستقراطية القديمة لا شغل لها إلا التنافس للسيطرة على البابوية أو التنازع مع البابوية للسيطرة على رومة . وبيننا كان التريبونون - محامو الشعب - والقناصل وأعضاء مجالس الشيوخ هم الذين ينفذون القانون بالعصى والخراب ، أضحى النظام الاجتماعى يقوم الآن على أساس مزعزع من قرارات المجالس الكنسية ومواعظ الأساقفة ، ووكلائهم ، والمثل المرعبة يضر بها آلاف الرهبان المختلفى الأمم ، وهم طائفة قلما كانت غير متعطله ، ولم تكن على الدوام عازبة . وكانت الكنيسة قد شنت الغارة على الاختلاط الجنسي فى الحمامات العامة ، وهجر الناس الأبهاء العظمى وحمامات السباحة الساخنة ، وزال من الوجود فن الطهارة الوثنى . وخربت قنوات الشرب الإمبراطورية من جراء الإهمال أو الحروب فأخذ الناس يشربون مياه التبير^(١١) ؛ وعطلت حلبة مكسيموس Circus Maximus والكلسيوم Colosseum ذواتا الذكريات الدموية ، وأخذت السوق العامة تعود فى القر

السابع مراعى للبقر كما بدأت ، وغطى الوحل أرض الكيتول ، وهدمت الهياكل القديمة والمباني العامة ليؤخذ من أنقاضها ما تحتاجه الكنائس المسيحية والقصور من مواد ، وعانت رومة من أبنائها أكثر مما عانته من الوندال والقوط (١٢) ، وملاك القول أن رومة يوليوس قيصر قد ماتت ، وأن رومة ليو العاشر لم تكن قد ولدت بعد .

وتشتت محتويات دور الكتب القديمة وتلفت ، وكادت الحياة الذهنية أن تنحصر في الكنيسة . وهوى العلم تحت أقدام الخرافات التي تهب الفقر خيالاً ورواء ؛ وظل الطب وحده يرفع رأسه عالياً تحتفظ منه الأديرة بما ورثته عن جالينوس . ولعل مدرسة طبية علمانية قد نشأت من دير للبندكتيين في سلرنو في القرن التاسع الميلادي ، فكانت هي التي سدت الثغرة القائمة بين طب الأقدمين وطب العصور الوسطى ، كما سدت إيطاليا الجنوبية الهلنستية الثغرة التي قامت بين ثقافة هذه العصور وثقافة اليونان : وكانت سلرنو مصحة منذ أكثر من ألف عام ؛ وقد وصفت الرواية المحلية المأثورة كلية أبقرات التي كانت بها ، فقالت إنها تتألف من عشرة معلمين أطباء منهم واحد يوناني وآخر مسلم ، وثالث يهودي (١٣) . وجاء قسطنطين « الأفريقي » وهو مواطن يوناني درس الطب في مدارس المسلمين بأفريقية وبغداد - إلى مونتى كسينو Monte Cassino (التي أصبح فيها راهباً) ، وإلى سلرنو القريبة منها ، جاء إليهما ببضاعة عجيبة مثيرة من المعارف الطبية الإسلامية : وأسهمت تراجمه للكتب اليونانية والعربية في الطب وغيره من الميادين في إحياء العلم بإيطاليا ، حتى كانت مدرسة سلرنو حين وفاته حاملة لواء العلوم الطبية في بلاد الغرب المسيحية .

وكان أهم ما أثمرته الفنون في هذا العصر هو ابتداع الطراز الرومانسى Romanesque في العمارة (٧٧٤ - ١٢٠٠) . ذلك أن البنائين الإيطاليين وارثي التقاليد الرومانية في الصلابة والبقاء زادوا سمك جدران الباسلقا ، وأنشأوا

في الكنائس جناحاً متقاطعاً مع الصحن ، وأضافوا دعامات من أبراج أو عمد متلاصقة ؛ وأقاموا العقود التي يرتكز عليها السقف على عمد أو أكتاف متجمعة . وكان العقد الرومانسى الخالص يتكون من نصف دائرة بسيطة ، وهو شكل ذو مهابة عظيمة ، يصلح لحسر فوق فرجة أكثر مما يصلح لتحمل ثقل . وكان الدهليز في الطراز الرومانسى الأول - والصحن والدهليز في الطراز الرومانسى المتأخر - تعلوه عقود أى يتكون سقفه من بناء ذى أقواس . وكان البناء من الخارج خالياً في العادة من الزخرف ومبنيًا من الآجر المكشوف . وكان داخل البناء يتحاشى الزخرف الكثير الذى يميز الطراز البيزنطى وإن كان يزدان بقسط غير كبير من الفسيفساء ، والمظلمات ، والنقوش المنحوتة . وفيما عدا هذا كان الطراز الرومانسى رومانيا ، همه الثبات والمتانة لا الارتفاع القوطى والرشاقة القوطية ؛ يهدف إلى إخضاع الروح للتواضع المهدى لها لا لرفعها إلى نشوة عليا تعصف بها .

وأخرجت إيطاليا في هذه الفترة آيتين من روائع الفن الرومانسى : إحداهما كنيسة أمبرجيو Ambrogio المتواضعة في ميلان ، والثانية الكاتدرائية الضخمة في پيزا . وقد أعاد الرهبان البندكتيون في عام ٧٨٩ البناء الذى منع أمبروز أحد الأباطرة من دخول بابه ، ثم تهدم بعد ذلك مرة أخرى . ثم غير جیدو Guido كبير الأساقفة طرازه بين عامى ١٠٤٦ و ١٠٧١ تغييراً شاملاً فبدله من باسقا ذات عمد إلى كنيسة ذات عقود . وكان سقف دهليزها وضحها قبل أيامه من الخشب ، فأقام لها هو سقفاً معقوداً من الآجر والحجارة يرتكز على عقود مستديرة خارجة من أكتاف متراكبة . وكانت زوايا التقاطع الناشئة في السقف المعقود من تقاطع العقود المبنية نفويها « أضلاع » من الآجر ، وذلك أول مثل من السقف المعقود « المضلع » في أوروبا كلها .

ويخيل إلى الرأى أن واجهة كنيسة أمبرجيو تختلف كل الاختلاف عن

واجهة كتدرائية بيزا الكثيرة التعقيد ، ولكن عناصر الطراز فيهما واحدة .
وقد أقيمت هذه الكنيسة الكبرى بعد المعركة الحاسمة التي انتصر فيها
أسطول بيزا على أسطول العرب بالقرب من بالرم (١٠٦٣) ؛ إذ طلبت
المدينة إلى المهندسين بوشتو Buschetto (اليوناني ؟) ورينلدو Rinaldo
أن يخلدا ذكرى المعركة ، ويقربا بعض أسلاب النصر إلى العندراء ،
بأن يقيموا معبداً تحسدها عليه إيطاليا على بكرة أبها . وقد شيد البناء كله
تقريباً من الرخام . وأقيمت فوق المداخل الغربية أربع أكتاف لبوأك
مفتوحة تقوم في عرض الواجهة متكررة تكراراً يتجاوز الحد ؛ وجعل
لهذه المداخل فيما بعد (١٦٠٦) أبواب فخمة من البرنز . وكان في الداخل
طائفة كبيرة من العمد الرشيقّة - وهي غنائم مختلفة الأصول - تقسم
الكنيسة إلى صحن ودهازين ؛ وتقوم فوق ملتقى جناح الكنيسة وصحنها
قبة إهليلجية غير جميلة الشكل . وكانت هذه أولى الكتدرائيات الكبرى
في إيطاليا ، ولا تزال حتى اليوم من أروع الصروح التي أقامها الإنسان
في العصور الوسطى .

الفصل الثاني

أسبانيا المسيحية (٧١١ - ١٠٩٥)

ليس تاريخ أسبانيا المسيحية في هذه الفترة إلا حربا صليبية طويلة الأمد. منشأها تصميمها المزاييد على إخراج المسلمين منها . وكان هؤلاء المسلمون قوماً أغنياء أقوياء ، يمتلكون معظم الأراضي الخصبية ، وتسيطر عليهم خير الحكومات ؛ أما المسيحيون فكانوا فقراء ضعفاء ، وتربة بلادهم ضئيلة ، وتفصلهم سلاسل الجبال عن سائر بلاد أوروبا ، وتقسمهم إلى ممالك صغيرة ، وتشجع النعرة القومية الإقليمية ، والتطاحن بين الإخوة ، حتى لقد أريق من دماء المسيحيين على أيدي أهلها المسيحيين ذوى العواطف النائرة أكثر مما أريق منها على أيدي المسلمين .

وكانت غارات المسلمين عليها في عام ٧١١ قد دفعت من لم يغلبوا من القوط ، والسويني Suevi ، والبرابرة الذين اعتنقوا الدين المسيحي ، والكلت من سكان شبه الجزيرة ، دفعت هؤلاء إلى جبال الكنتبريان في الشمال الغربي من أسبانيا وطاردهم المسلمون في هذه الجبال ولكن قوة صغيرة بقيادة جوت پلايو Got Pelayo هزمتهم عند كفادانجا Covadonga (٧١٨) ، ومن ثم نادى ذلك القائد بنفسه ملكا على أستورياس ، وأسس الملكية الأسبانية . واستطاع ألفنسو الأول (٧٣٩ - ٧٥٧) على أثر هزيمة المسلمين في تور أن يمد الحدود الأستورية إلى جليقية Galicia ولوزيتانيا وبسكاي Biscaya . وضم حفيده ألفنسو الثاني (٧٩١ - ٨٤٢) ولاية ليون ، واتخذ أويديو حاضرة لمملكته .

وفي عهد هذا الملك وقعت حادثة كانت من أهم الحوادث في تاريخ أسبانيا . ذلك أن أحد الرعاة سار بهداية نجم من النجوم - كما تقول الرواية - حتى

وجد في الجبال تابوتاً من الرخام يعتقد الكثيرون أنه يحتوي على بقايا «الرسول يوحنا» أخى المسيح . وأقيم ضريح في المكان الذي وجد فيه التابوت ، ثم شيدت في مكان هذا الضريح كنندراية فخمة فيما بعد ، وأضحى سنتياجوده كهستيليا Sontoagio de Compostela - «يوحنا قديس ميدان النجم» كعبة يحج إليها المسيحيون لا يفوقها في قداسها إلا بيت المقدس ورومة ؛ وكان لهذه العظام أكبر الأثر في إثارة الروح المعنوية عند الأسبان ، وجمع الأموال اللازمة لقتال المسلمين . وصار القديس يوحنا شفيع أسبانيا وحاميا ، وأذاع اسم سنتياجو في قارات ثلاث . وهكذا تصنع العقائد التاريخ وخاصة حين تكون هذه العقائد خاطئة ؛ والأخطاء هي التي يموت من أجلها الناس أشرف ميتة .

وإلى شرق استوريا ، وفي جنوب جبال البرانس مباشرة تقع نبرة Navarre وكان معظم أهلها من سلاسله البشكنس ، وهم في أغلب الظن خليط من كلت أسبانيا وبربر أفريقية . وقد أفاد هؤلاء من منعة جباهم فنجحوا في حماية استقلالهم من المسلمين ، والفرنجة ، والأسبان ، حتى أسس سانكو الأول جراسيا Sancha Garacia مملكة نبرة واتخذ مملوينا عاصمة لها . وكسب سانكو لنفسه لقب «العظيم» (٩٩٤ - ١٠٣٥) باستيلائه على ليون ، وقشتالة ، وأرغونة ؛ وأتى على أسبانيا المسيحية حين من الدهر أوشكت فيه أن تتحد ، ولكن سانكو أفسد قبيل وفاته ما عمله طول حياته بأن قسم مملكته بين أولاده الأربعة . ومن تاريخ هذا التقسيم تبدأ حياة مملكة أرغونة ؛ واستطاعت هذه المملكة أن تدفع المسلمين في الجنوب ، وأن تضم إليها بالسلم نبرة في الشمال (١٠٧٦) ، فلم يحل عام ١٠٩٥ حتى شملت رقعتها جزءاً كبيراً من وسط أسبانيا الشمالي . وفتح شارلمان في عام ٧٨٨ مقاطعة قطلونيا - في شمالي أسبانيا الشرقي حول برشلونة ؛ وظل يحكمها أدواق فرنسيون جعلوا هذا الإقليم «حدوداً أسبانية» ؛ وكانت لغته القطلانية مزيجاً لطيفاً من فرنسية بروفسال ولغة قشتالة . وبدأت ليون الواقعة في الشمال

الغربي تاريخها « سانكو السمين Sancho the Fat » الذي بلغ من البدانة درجة لم يكن يستطيع معها السير إلا منكثاً على تابع له . ولما خلعه الأشراف لجأ إلى قرطبة حيث شفاه حسداى بن شبروط الطبيب اليهودى الشهير من شحمه ، ثم عاد سانكو إلى ليون ييمس كما ييمس دن كيشوت . واسترد عرشه (٩٥٩)^(١٤) . وسميت قشتالة بهذا الاسم نسبة إلى قلعتها (كاستل Castle) . وكانت تواجه الأندلس الإسلامية ونقضى حياتها تنأهب للحرب . وفي عام ٩٣٠ رفض فرسانها أن يظلوا طامعين للملوك أسترياس أوليون وأقاموا دولة مستقلة اتخذوا برغوس Burgos عاصمة لها . وضم فرندو الأول (١٠٣٥ - ١٠٦٥) ايون وجليقية إلى قشتالة . وأرغم أميرى طليطلة وأشبيلية على أن يعطوه جزية سنوية ، ثم فعل ما فعله سانكو العظيم فأفسد جهوده بتقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة ؛ وقد واصل هؤلاء بكل ما وهبوا من حماسة ما طبع عليه ملوك أسبانيا المسيحيون من تطاحن وحروب يقتل فيها الإخوة بعضهم بعضاً .

وأبقى الفقر الزراعى والتمزق السياسى أسبانيا المسيحية متأخرة أشد التأخر عن منافسيها المسلمين فى الجنوب ومنافسيها الفرنجة فى الشمال فى نعيم الحضارة وفنونها . ولم تكن الوحدة حتى فى داخل كل مملكة من ممالكها الصغيرة إلا سحابة صيف لا تكاد تبدو حتى تنفث ؛ فكان النبلاء يتجاهلون الملوك إلا فى أوقات الحرب ، ويحكمون من عندهم من رقيق الأرض والعبيد حكم سادة الإقطاع ؛ وكان رجال الكنيسة يؤلفون طبقة ثانية من الأشراف ؛ فكان الأساقفة هم أيضاً يمتلكون رقيق الأرض والعبيد ، ويتولون قيادة جندهم فى الحرب ، ويتجاهلون البابوات فى العادة ، ويحكمون المسيحيين الأسبان حكماً يكاد يجعل منهم كنيسة مستقلة . واجتمع نبلاء ليون وأساقفتها عام ١٠٢٠ فى مجالس قومية وأخذوا يشرعون لمملكة ليون كما تشرع مجالس النواب . وأصدر مجلس ليون مرسوماً يمنح تلك المدينة الحكم الدائى ، فجعلها بذلك أول مدينة تحكم نفسها

في أوروبا أثناء العصور الوسطى وصدرت مراسيم مماثلة لهذا المرسوم تمنح غيرها من المدن الأسبانية هذا الحكم الذاتي نفسه ، وأكبر الظن أن الغرض من إصدارها هو إثارة حماسها وكسب أموالها في الحروب القائمة مع المسلمين ، وبذلك قامت ديمقراطية حضرية محدودة في وسط النظام الإقطاعي الأسباني ، وتحت سلطان الملكية الأسبانية .

ويشهد تاريخ ردريجو (راي) دياز (Roderigo (Riay) Diaz بما كانت عليه أسبانيا المسيحية في القرن الحادي عشر من بسالة ، وفروسية ، وفوضى . ودريجو هذا يعرف عندنا باللقب الذي حباه به المسلمون وهو السيد أي الرجل النبيل أو الشريف أكثر مما يعرف بلقبه المسيحي وهو الكمبيدور El Campeador أي المهاجم أو البطل . وكان مولده في بيفار Bivar بالقرب من برغوس Burgos حوالي عام ١٠٤٠ ، ونشأ نشأة المغامرين المحاربين ، يقاتل أينما وجد سبب للقتال يدرّ المال . ولم يكد يبلغ سن الثلاثين حتى صار موضع إعجاب أهل قشتالة لمهارته وجرأته في القتال ، وموضع ريتهم لاستعداده أن يحارب المسلمين في صف المسيحيين أو يحارب المسيحيين في صف المسلمين ، ويبدو أن هذا وذاك كانا عنده سواء . وأرسله ألفونسو السادس ملك قشتالة أيأني بالجزية المستحقة له من المعتمد ابن عباد الشاعر أم أشيلية ، ولكنه اتهم عند عودته بأنه احتفظ ببعض هذه الجزية لنفسه . فنفى من قشتالة (١٠٨١) وانضم إلى قطاع الطرق ، ونظم جيشاً صغيراً من الجنود المغامرين ، وباع خدماته إلى من يشترها من الحكام المسيحيين والمسلمين . فقد ظل ثماً سنين في خدمة أمير سرقسطة ووسّع رقعة أملاك المسلمين على حساب أرغونة . وفي عام ١٠٨٩ قاد سبعة آلاف من الرجال معظمهم من المسلمين ، واستولى على بلنسية وأرغمها على أداء جزية شهرية ، مقدارها عشرة آلاف دينار ذهبي . وفي عام ١٠٩٠ قبض على كونت برشلونة ، ولم يطلقه إلا بعد أن افتدى بثمانين ألف دينار . ولما وجد بعد رجوعه من تلك

الحملة أن بلنسية قد أغلقت أبوابها دونه حاصرها عاماً كاملاً ، فلما استسلمت له (١٠٩٤) ، نكث بكل الشروط التي ألفت بمقتضاها سلاحها ، وحرق قاضي قضاتها حياً ، ووزع أملاك سكانها على أتباعه ، وكاد يحرق زوجة قاضي القضاة وبناته لولا احتجاج أهل المدينة وجنوده على هذا العمل^(١٥) . وكان السيد حين يقدم على هذه الأعمال وأمثالها إنما يسلك السبيل التي يسلكها أبناء زمانه ، ولكنه كفر عن سيئاته بأن حكم بلنسية حكماً حازماً عادلاً ، وجعلها حصناً منيعاً في وجه جيوش المرابطين المسلمين . وحكمت زوجته يمينه jimena (١٠٩٩) المدينة بعد موته ثلاث سنين . وقد أحاله أعقابه المعجبون به ، بما أحاكوه حوله من أفاصيص ، فارساً لا تحركه إلا رغبة مقدسة في إعادة أسبانيا إلى المسيح ، ويعظم الناس رفاته في برغوس تعظيمهم للقديسين^(١٦) .

ولم تستطع أسبانيا المسيحية ، وهي على هذه الحال من الانقسام ، أن تسترد البلاد من المسلمين إلا لأن أسبانيا الإسلامية قد فاقتها آخر الأمر في التمزق والفوضى ؛ وكان سقوط خلافة قرطبة عام ١٠٣٦ فرصة ثمينة اغتنمها ألفونسو السادس ملك قشتالة (الأذفنش) ، فاستولى على طليطلة بمعونة المعتمد ملك أشبيلية (١٠٨٥) واتخذها عاصمة للملكة وعامل المسلمين المغلوبين بما جبل عليه المسلمون من كرم ، وشجع انتشار الثقافة الإسلامية في أسبانيا المسيحية .

الفصل الثالث

فرنسا (٦١٤ - ١٠٦٠)

مجيء الكارولنجيين : ٦١٤ ، ٧٦٨

لما جلس كلوتير Clotaire الثاني على عرش الفرنجة لاح أن مركز الأسرة المرونجية وطيد ؛ ذلك أنه لم يحكم ملك قبله من ملوك هذه الأسرة دولة تضارع دولته في الاتساع والوحدة ؛ ولكن كلوتير كان مديناً بقوته إلى أشرف أستراليا وبرغنديّة ؛ وقد كافأهم على تأييدهم له بأن زاد من استقلالهم ووسع أملاكهم ، وبأن اختار واحداً منهم هو پيپين Pepin الأول الأكبر ليكون « ناظراً للقصر » . وكان ناظر القصر في بادئ الأمر هو المشرف على القصر الملكي وناظراً على المزارع الملكية ؛ وزادت مهام منصبه حين عكف الملوك المرونجيون على الدعارة والفساد ؛ وأخذ يشرف شيئاً فشيئاً على شئون المحاكم ، والجيش ، والمال . وحدّ الملك داجوبرت Dagobert (٦٢٨ - ٦٣٩) ابن كلوتير من سلطان ناظر القصر والأشراف وقتاً « فوزع العدالة بين الأغنياء والفقراء على السواء » كما يقول فرديجار Fredegart الإخباري ، « وكان قليل النوم والطعام ، ولم يكن همه إلا أن يخرج الناس من مجلسه ممتلئة قلوبهم غبطة وإعجاباً » (١٧) . غير أن فرديجار يضيف إلى ذلك قوله : « وكانت له ثلاث ملكات وعدد كبير من الخطايا » كما كان « عبداً لشهواته » (١٨) . وعادت السلطة في عهد خلفائه - الملوك الذين لا يفعلون شيئاً - إلى ناظر القصر : وهزم پيپين الثاني الأصغر منافسيه في واقعة تستري Testry (٦٨٧) ، واستبدل بلقب « ناظر القصر » لقب دوق الفرنجة وكبيرهم ، وحكم غالباً جميعها ما عدا أكتين

Aquitaine . وحكيم شارل مارتل Charles Martel (المطرقة) ، الذي كان بالاسم ناظراً للقصر ودوق أستراسيا ، غالة كلها تحت سلطان كلوتير الرابع (٧١٧ - ٧١٩) . وهو الذي صد بعزمته غارات الغالين مستعيناً بالفريزيين والسكسون ، وهو الذي صد المسلمين عند تور وردهم عن أوروبا . وأعان بنيفاس Boniface وغيره من المبشرين على تنصير ألمانيا ، ولكنه حين اشتدت حاجته إلى المال صادر أراضي الكنيسة ، وباع مناصب الأساقفة لقواد الجيش ، وأسكن جبوشه في الأديرة : وقطع عنق راهب بروتستنتي^(١٩) ، وحُكِّم عليه في مائة منشور وخطبة منبرية بأن مأواه الجحيم .

وأرسل ابنه پيپين الثالث ناظر قصر كلدريك الثالث بعثة إلى البابا زخرياس يسأله هل يأتّم إذا خلع الإمعة المروفنجي وأصبح هو ملكاً بالاسم كما هو ملك بالفعل . وكان زخرياس وقتئذ في حاجة إلى تأييد الفرنجة ضد مطامع اللبارد فبعث إليه بجواب مطمئن يقول فيه إنه لا يأتّم . فلما تلقى پيپين الرد عقد جمعية من الأشراف والمطارنة في سواسون Soissons اختير فيها بإجماع الآراء ملكاً على الفرنجة (٧٥١) ، ثم قص شعر آخر الملوك المروفنجيين البلاد وأرسله إلى دير . وجاء البابا استيفن الثاني في عام ٧٥٤ إلى دير القديس دنيس St. Denis في أرباض باريس ، ومسح پيپين « ملكاً بنعمة الله » : وهكذا انتهت الأسرة المروفنجية (٤٨٦ - ٧٥١) وبدأت الأسرة الكارولنجية (٧٥١ - ٩٨٧) .

وكان پيپين الثالث « القصير » حاكماً صبوراً بعيد النظر ، تقياً ، عملياً ، محباً للسلم ، لا يغلب في الحرب ، متمسكاً بالأخلاق الفاضلة إلى حد لم يسبقه إليه ملك آخر في غالة في تلك القرون . وكان پيپين هو الذي مهد لشارلمان سبيل كل ما أتاه من جليل الأعمال ؛ وفي خلال حكمهما الذي دام ثلاثاً وستين سنة (٧٥١ - ٨١٤) تحولت بلدهما نهائياً من غالة إلى فرنسا . وأدرك پيپين ما في الحكم بغير معونة الدين من صعاب ، فأعاد إلى الكنيسة أملاكها ، وامتيازاتها

وحصانتها ، وجاء إلى فرنسا بالخلفات المفدسة ، وحملها على كنفه في موكب فخم ؛ وأنقذ البابوية من الملوكة اللمبارد ، ومنحها سلطات زمنية واسعة في عهده المعروف باسم « عطية بيبين » (٧٥٦) ، وقنع بأن ينال في نظير هذا لقب « النبيل الروماني » وتحذيراً من البابا للفرنجة ألا يختاروا ملكاً إلا من سلالته . وتوفى بيبين في عنفوان قوته عام ٧٦٨ بعد أن أوصى بمملكة الفرنجة لولديه كارلومان الثاني وشارل الذي أصبح فيما بعد شارلمان على أن يحكماها معاً .

٣ - شارلمان : ٧٦٨ - ٨١٤

ولد أعظم ملوك العصور الوسطى عام ٧٤٢ في مكان غير معروف . وكان يجرى في عروقه الدم الألماني وينطق باللسان الألماني ، ويشترك مع قومه في بعض الصفات - قوة الجسم ، والبسالة ورباطة الجأش ، والافتخار بالأصل ، والبساطة الخشنة التي تفصلها مئات السنين عن رقة الفرنسيين الحضرية المصقولة . وكان قليل العلم بالكتب وما فيها ، لم يقرأ منها إلا عدداً قليلاً ، لكن ما قرأه منها كان من خيارها ، وحاول في شيخوخته أن يتعلم الكتابة ولكنه لم يفلح في ذلك كل الفلاح ، غير أنه مع هذا كان يستطيع التحدث باللغة التيبوتونية القديمة واللاتينية الأدبية ، وكان يفهم اللغة اليونانية (٢٠) .

ولما مات كارلون الثاني في عام ٧٧١ انفرد شارل بالحكم وهو في التاسعة والعشرين من عمره . وبعد سنتين من انفراده به بعث إليه البابا هديران الثاني بدعوة عاجلة ليساعده على دسديريوس Desiderius اللمباردي الذي كان وقتئذ يغزو الولايات البابوية . ولجى شارلمان الدعوة وحاصر باثيا واستولى عليها ، ولبس تاج لمباردي ، وأيد عطية بيبين ، وارتضى أن يكون حامى الكنيسة في جميع سلطاتها الزمنية . ولما عاد إلى عاصمته في آخن بدأ سلسلة من الحروب عدتها ثلاث وخمسون - قادها كلها تقريباً بنفسه - يهدف بها إلى تأمين

دولته بفتح بافاريا وسكسونية وجعلهما مسيحيين ، والقضاء على الآثار المشاغبين المتعبدن ، وحماية إيطاليا من غارات المسلمين ، وتقوية حصون فرنسا حتى تستطيع الوقوف في وجه مسلمى أسبانيا الذين يبغون بسط سلطانهم عليها . وكان السكسون المقيمون عند الحدود الشرقية لبلادهم وثنين ، أحرقوا كنيسة مسيحية وأغاروا مراراً على رغالمة ؛ وكانت هذه الأسباب كافية في رأى شارلمان لأن يوجه إليهم ثمانى عشرة حملة (٧٧٢ - ٨٠٤) ، قاتل فيها الطرفان بمنتهى الوحشية . فلما هزم السكسون خيرهم شارلمان بين التعميد والموت وأمر بضرب رقاب ٤٥٠٠ منهم في يوم واحد (٢١) ، وسار بعد فعلته هذه إلى ثيونفيل ليحتفل بميلاد المسيح .

وبينا كان شارلمان في پادر بورن Paderborn إذ استغاث به ابن العربى حاكم برشلونة المسلم في عام ٧٧٧ لينصره على خليفة قرطبة . فما كان منه إلا أن سار على رأس جيش عبر به جبال البرانس ، وحاصر مدينة پمبلونا المسيحية ، وعامل البشكنس مسيحي أسبانيا الشمالية الذين لا يحصى عددهم معاملة الأعداء ، وواصل زحفه حتى وصل إلى سرقسطة نفسها . غير أن الفتن الإسلامية التي وعد ابن العربى بإثارتها على الخليفة والتي كانت جزءاً من الخطة الحربية المدبرة لم يظهر لها أثر ، ورأى شارلمان أن جيوشه بمفردها لا تستطيع مقاومة جيوش قرطبة ، وتراى إليه أن السكسون ثائرون عليه وأنهم يزحفون وهم غضاب على كولونى Cologce ؛ فرأى من حسن السياسة أن يعود بجيشه إلى بلاده ، واخترق بهم في صف طويل رفيع ممرات جبال البرانس . وبينما كان يعبر أحد هذه الممرات عند رُنسفال Roncesvalles من أعمال نبرة إذ انقضت على مؤخرة الفرنجة قوة من البشكنس ، ولم تكذب تبتى على أحد منها (٧٧٨) ؛ وهناك مات هرودلاند Hruodland النبيل الذى أصبح بعد ثلاثة قرون بطل القصيدة الفرنسية الدائعة الصيت أغنية رولانده Chançon de Roland . وسير شارلمان في عام ٧٩٥ جيشاً آخر عبر جبال البرانس ، واستولى به على شريط ضيق في شمالى أسبانيا

للشرفى وضمه إلى فرنسا Francia . واستسلمت له برشبلونة ، وأقرت
أستراسيا ونبرة بسيادة الفرنجة عليهما (٨٠٦) . وكان شارلمان فى هذه
الأثناء قد أخضع السكسون لسلطانه (٧٨٥) ، وصد الصقالبه الزاحفين
على بلاده (٧٨٩) ، وهزم الآفار وشتت شملهم (٧٩٠ - ٨٠٥) ، ثم
أخلد فى السنة الرابعة والثلاثين من حكمه والثلاثة والستين من عمره إلى السلام .
والحق أنه كان على الدوام يجب شئون الإدارة والحكم أكثر مما
يجب الحرب ، ولم ينزل إلى ميدان القتال إلا ليفرض على أوروبا الغربية ،
التي مزقتها منذ قرون طوال منازعات القبائل والعقائد ، شيئاً من وحدة
الحكم والعقيدة .

وكان فى أثناء هذا الحكم قد أخضع لسلطانه جميع الشعوب الضاربة
بين نهر الفستيوولا Vistula والمحيط الأطلنطى ، وبين البحر البلطى وجبال
البرانس ، وإيطاليا كلها تقريباً ، والجزء الأكبر من بلاد البلقان . ترى
كيف استطاع رجل واحد أن يحكم هذه المملكة المتباينة المترامية الأطراف ؟
الجواب أنه قد وهب من قوة الجسم والأعصاب ما يستطيع به أن يأخذ على
عائقه مئات التبعات ، والأخطار ، والأزمات ، وأن يتحمل ما هو أصعب
على النفس من هذا كله وهو ائثار أبنائه به ليقتلوه . وكان فى دمائه دم
أو تعاليم يبين الثالث الحذر الحكيم ، وشارل مارتل الذى لا يرحم
ولا يلين ، وكان هو نفسه إلى حد ما مطرقة مثل مارتل . وقد وسع
أملاكهما وحافظ عليها بما وضعه لها من نظام عسكري قوى الدعائم ،
وسندها بما أفاء عليها من ظل الدين وشعائره . وكان فى وسعه أن يضع
لنفسه الأهداف الكبار ، وأن يهيب الرسائل ويتغنى الغايات . وكان فى
مقدوره أن يقود الجيوش ، ويقنع الجمعيات ، ويشرح صدور الأعيان ،
ويسيطر على رجال الدين ، ويكبح جماح الحرير .

وقد جعل الخدمة العسكرية شرطاً لامتلاك أكثر من الكفاف من
الأملاك ، وبهذا أقام الروح العسكرية المعنوية على أساس الدفاع عن الأرض

وتوسيع رقعتها ، وأوجب على كل حر إذا دُعي لحمل السلاح أن يمثل كامل العدة أمام الكونت المحلي ، وكان كل عامل نبيل مشثولا أمامه عن كفاية وحداته . وكان بناء الدولة يقوم على هذه القوة المنظمة يويدها كل عامل نفساني تحلعه عليها قداسة صاحب الجلالة الذي باركه رجال الدين ، وفخامة الاحتفالات الإمبراطورية ، والطاعة التقليدية للحكم القائم الموطن الدعائم . وكانت تجتمع حول الملك حاشية من النبلاء الإداريين ورجال الدين - رئيس خدم البيت ، وقاضي القضاة وقضاة حاشية القصر ، ومائة من العلماء ، والخدم ، والكتبة . وكان مما قوى إحساس الشعب باشتراكه في الحكم ما كان يعقده كل نصف عام من اجتماعات يحضرها الملاك المسلحون ، يجتمعون كلما تطلبت اجتماعهم الشئون الحربية أو غيرها في مدن ورمز ، وفلسين ، وآخن ، وچنيف ، وبادربورن . . . وكانت هذه الاجتماعات تعقد عادة في الهواء الطلق . وكان الملك يعرض على جماعات قليلة من الأعيان أو الأساقفة ما عنده من الاقتراحات التشريعية ؛ فكانت تبحثها وتعيد لها إليه مشفوعة باقتراحاتها ثم يضع هو القوانين ويعرضها على المجتمعين ليوافقوا عليها بصياحهم ؛ وكان يحدث في بعض الأحوال النادرة أن ترفضها الجمعية بالأين أو القباع الجماعي . وقد نقل إلينا هنكار Hincmar كبير أساقفة ريمس صورة دقيقة لشارلمان في أحد هذه الاجتماعات ، فقال إنه كان « يسلم على أكابر الحاضرين ، ويتحدث إلى من لم يكن يراهم إلا قليلا ، ويظهر اهتماما ظريفا بالكبار ، ويلهو مع الصغار » . وكان يطلب إلى أسقف كل إقليم ورئيسه الإداري أن يباغ الملك في هذه الاجتماعات عن كل حادثة هامة وقعت في إقليمه منذ الاجتماع السابق ، ويضيف هنكار إلى أقواله السابقة أن « الملك كان يرغب في أن يعرف هل الأهليون في أي ركن من أركان مملكته قلقون مستاعون ، وما سبب قلقهم واستيائهم » (٢٢) . وكان عمال الملك يواصلون نظام الاستعلامات الرومانية القديمة فيستدعون إليهم كبار المواطنين ويطلبون إليهم أن « يعطوا بيانات صحيحة »

معززة بالآيمان عما في الإقليم الذى يزورونه من أملاك تفرض عليها الضرائب ، وعن حالة النظام فى هذا الإقليم وعما يقع فيه من الجرائم أو من فيه من المجرمين . وكانت شهادة جماعة الباحثين الذين يقسمون الآيمان تستخدم فى أرض الفرنجة فى القرن العاشر للفصل فى كثير من المشاكل المحلية الخاصة بالأملاك العقارية أو الجرائم . وقد نشأ من هذه الجماعات ، بعد تطورها على يد النورمان والإنجليز ، نظام المحلفين القائم فى هذه الأيام .

وكانت الدولة مقسمة إلى مقاطعات يحكم كل مقاطعة فى الشئون الروحية أسقف أو كبير أساقفة ، وفى الشئون الدنيوية قومن Comens (رقيق للملك) أو كونت . وكانت جمعية محلية من الملاك تجتمع مرتين أو ثلاث مرات كل سنة فى عاصمة كل مقاطعة لتبدي رأيا فى حكومة الإقليم وتكون بمثابة محكمة استئناف فيه . وكان للمقاطعات الواقعة على الحدود المعرضة للخطر حكام من طراز خاص يسمونهم جراف graf أو مار جريف margrav ، أو رخرزوج Markherzog ، فكان رولان المرستفالى Roland of Marcesvallics مثلا حاكم مقاطعة برتن Breton . وكانت كل الإدارات المحلية خاضعة لسلطان « مبعوثى السيد » missi dominici - الذين يرسلهم شارلمان يحملون رغباته للموظفين المحليين ، ويطلعون على أعمالهم ، وأحكامهم ، وحساباتهم ، ويمنعون الرشا ، والاختصاب ، والمحاباة ، واستغلال النفوذ ، ويتلقون الشكاوى ، ويردون المظالم ، ويحمون « الكنيسة ، والفقراء ، والذين تحت الوصاية ، والشعب أجمع » من سوء استعمال السلطة أو الاستبداد ، وأن يعرفوا الملك بأحوال مملكته . وكان العهد الذى عين بمقتضاه هؤلاء المبعوثون بمثابة عهد أعظم للشعب وضع قبل أن يوضع العهد الأعظم Magna Carta لحماية أشراف إنجلترا بأربعة قرون . ومما يدل على أن هذا العهد كان يقصد به ما جاء فيه ما حدث لدوق إستريا Istria ، إذ اتهمه المبعوثون بارتكاب عدة مظالم ، واغتصاب الأموال ، فأرغمه

الملك على أن يرد ما اختلسه ، وأن يعرض كل مظلوم عما وقع عليه من ظلم ، ويعترف علناً بجرائمه ، ويقدم الضمانات التي تمنعه من تكرارها . وإذا ما غضضنا النظر عن حروب شارلمان كان هو أعدل الحكام الذين عرفتهم أوروبا منذ عهد ثيودريك القوطي وأكثرهم استنارة .

وتعد القوانين الستة والخمسون الباقية من تشريعات شارلمان من أكثر المجموعات القانونية طرافة في العصور الوسطى . فهي لا تكون مجموعة منتظمة ، بل هي توسع للقوانين « الممجية » الأقدم منها عهداً وتطبيقها على الظروف والمطالب الجديدة . ولقد كانت في بعض تفاصيلها أقل استنارة من قوانين ليوتبراند اللباردي : فقد أبقّت على عادات الكفارة عن الجرائم الكبرى ، والتحكيم الإلهي ، والمحاكمة بالاعتقال ، والعقاب بستر الأعضاء^(٢٤) ، وحكمت بالإعدام على من يرتد إلى الوثنية ، أو من يأكل اللحم في أيام الصوم الكبير - وإن كان يسمح لرجال الدين أن يخففوا هذه العقوبة الأخيرة^(٢٥) . ولم تكن هذه كلها قوانين ، بل منها ما كان فتاوى ، ومنها ما كان أسئلة موجهة من شارلمان إلى موظفيه ، ومنها ما هو نصائح أخلاقية . وقد جاء في إحدى المواد : « يجب على كل إنسان أن يعمل بكل ما لديه من قوة وكفاية لخدمة الله واتباع أوامره ، لأن الإمبراطور لا يستطيع أن يراقب كل إنسان في أخلاقه الخاصة »^(٢٦) . وحاولت بعض المواد أن تقيم العلاقات الجنسية والزوجية بين أفراد الشعب على قواعد أكثر نظاماً مما كانت قبل ، على أن الناس لم يطيعوا هذه النصائح كلها ؛ ولكن القوانين والنصائح في مجموعها تم عن جهود صادقة لتحويل الممجية إلى حضارة .

وشرع شارلمان للزراعة ، والصناعة ، والشئون المالية ، والتعليم ، والدين ، كما شرع لشئون الحكم والأخلاق . وكان حكمه في فترة انحطت فيها الحالة الاقتصادية جنوبي فرنسا وإيطاليا إلى الحضيض من جراء سيطرة المسلمين على

البحر المتوسط . وفي هذا يقول ابن خلدون إن المسيحيين لم يكن في وسعهم أن يسيروا لوحا فوق البحر (٢٧) ، وكانت العلاقات التجارية بأجمعها بين غربى أوروبا وأفريقية وشرق البحر المتوسط غاية في الاضطراب . وكان اليهود وحدهم هم الذين يربطون النصفين المتعادين من البلاد التي كانت أيام حكم رومة عالما اقتصاديا موحدا . وبقيت التجارة قائمة في أوروبا . الخاضعة للحكم الصقلية وبيزنطية ، وفي شمالها التبتونى . كذلك كانت القناة الإنجليزية وكان بحر الشمال يموجان بالمسافر ، ولكن هذه التجارة الأخيرة أيضاً اضطربت أحوالها قبل موت شارلمان ، وقد أوقعتها في هذا الاضطراب غارات أهل الشمال وقرصنتهم .

وكاد أهل الشمال يغلقون ثغور فرنسا الشمالية ، والمسلمون يغلقون ثغورها الجنوبية ، حتى أضحى لهذا السبب جزيرة منفصلة عن العالم ، وبلدأ زراعياً ، واضمحلت فيها طبقة التجار الوسطى ، فلم تبق هناك طبقة تنافس كبار الملاك في الريف ؛ وكان مما ساعد على قيام نظام الاقطاع في فرنسا هبات شارلمان للأراضي وانتصار الإسلام .

وبذل شارلمان جهوداً جبارة لحماية الفلاحين الأحرار من نظام رقيق الأرض الآخذ في الانتشار . ولكن قوة الأشراف والظروف القاهرة المحيطة به أحبطت جهوده . وحتى الاسترقاق نفسه اتسع نطاقه وقتاً ما نتيجة لحروب الكاروانجيين ضد القبائل الوثنية . وكانت أهم موارد الملك مزارعه الخاصة التي كانت مساحتها تتسع من حين إلى حين نتيجة المصادرة ، والهبات ، وعودة بعض الأراضي إلى الملك ممن يموتون بغير ورثة ، واستصلاح الأراضي البور . وقد أصدر للعناية بهذه الأراضي قانوناً زاعياً مفصلاً أعظم تفصيل يشهد بعنايته التامة في بحث جميع موارد الدولة ومصروفاتها . وكانت الغابات والأراضي البور ، والطرق العامة ، والموانئ وجميع ما في الأرض من معادن ملكاً للدولة (٢٨) . وشجع ما بقي في البلاد من تجارة بكافة السبل ؛ فبسطت الدولة حمايتها على الأسواق ، ووُضِع

نظام دقيق للموازين والمقاييس والأثمان ، وخُففت المكوس . ومُسّعت المضاربات على المحاصيل قبل حصادها ؛ وأنشئت الطرق والجسور أو أُصلحت ، وأنشئ جسر عظيم على نهر الرين عند مينز ، وطهرت المسالك المائية لتبقى مفتوحة على الدوام ، واختطت قناة تصل الرين بالدانوب حتى يتصل بحر الشمال بالبحر الأسود . وحافظت الدولة على ثبات النقد ، ولكن قلة الذهب في فرنسا وانحلال التجارة أدت إلى استبدال الجنيه الفضي بجنيه شارلمان المعروف باسم السوليدس Solidus .

وامتدت جهود الملك وعتايته إلى كل ناحية من نواحي الحياة ، فأسمى الرياح الأربع بأسمائها التي تعرف بها الآن ؛ ووضع نظاماً لإعانة الفقراء ، وفرض على النبلاء ورجال الدين ما يلزمه من المال لهذا المشروع ، ثم حرم التسول وجعله جريمة يعاقب عليها القانون (٢٩) . وهاله انتشار الأمية في أيامه حين لا يكاد أحد يعرف القراءة والكتابة غير رجال الدين ، كما هاله انعدام التعليم بين الطبقات الدنيا من هذه الطائفة ، فاستدعى علماء من الأجناب لإعادة مدارس فرنسا إلى سابق عهدها ؛ فأغرى بولس الشماس على أن يأتي إليه من منى كسينو ، وألكوين من يورك (٧٨٢) ، ليعلمها في المدرسة التي أنشأها شارلمان في القصر الملكي بآخن . وكان ألكوين هذا (٧٣٥ - ٨٠٤) رجلاً سكسونياً ، ولد بالقرب من مدينة يورك ، وتعلم في مدرسة الكنتراية وهي المدرسة التي أنشأها الأسقف لإجبرت في تلك المدينة ؛ وقد كانت بريطانيا وأيرلندا في القرن الثامن متقدمتين من الناحية الثقافية عن فرنسا . ولما بعث أفا Offa ملك مرسية Mercia ألكوين في بعثة إلى شارلمان ألح شارلمان على ألكوين أن يبقى عنده ، وسر ألكوين أن يخرج من إنجلترا حين كان «الدممقيون يتلفون أرضها ، ويدنسون الأديرة بما يرتكبونه فيها من الزنى» (٣٠) ، فأثر البقاء ؛ وبعث إلى إنجلترا وغيرها من البلاد في طلب الكتب والمعلمين ، وسرعان ما أضحت مدرسة القصر مركزاً نشيطاً من

مراكز الدرس ، ومراجعة المخطوطات ونسخها ، كما أوضحت مركزاً لإصلاح نظم التربية لإصلاحاً عم جميع المملكة . وكان من بين طلابها شارلمان نفسه ، وزوجته ليوتجارد Liutgard ، وأولاده وابنته جزيلا Gisela ، وأمّن سره اجنهارد Eginhard ، وإحدى الراهبات ، وكثيرون غيرهم . وكان أكثرهم شغفاً بالتعليم ؛ فكان يحرص على العلم حرصه على تملك البلاد ؛ يدرس البلاغة وعلوم الكلام ، والهيئة ؛ ويقول اجنهارد إنه بذل جهوداً جبارة ليتعلم الكتابة « وكان من عاداته أن يحتفظ بالألواح تحت وسادته . حتى يستطيع في أوقات فراغه أن يمرن يده على رسم الحروف ؛ ولكن جهوده هذه لم تلق إلا قليلاً من النجاح لأنه بدأ هذه الجهود في آخر سني حياته » (٣١) . ودرس اللاتينية بنهم شديد ، ولكنه ظل يتحدث بالألمانية مع أفراد حاشيته ؛ وقد وضع كتاباً في نحو اللغة الألمانية وجمع نماذج من الشعر الألماني القديم .

ولما ألح الكويّن على شارلمان . بعد أن قضى في مدرسة القصر ثمانى سنين ، أن ينقله إلى بيثة أكثر منها هدوءاً ، عينه الملك على كره منه رئيساً لدير تور (٧٩٦) ؛ وهناك حشد الكويّن الرهبان لينقلوا نسخاً من الترجمة اللاتينية المتداولة للتوراة والإنجيل التي قام بها جيروم أحد آباء الكنيسة اللاتين ، ومن الكتب اللاتينية القديمة ، بحيث تكون أكثر دقة من النسخ المتداولة وقتئذ . وحذت الأديرة الأخرى حذو هذا الدير . وبفضل هذه الجهود كانت كثير من أحسن ما وصل إلينا من النصوص القديمة من مخطوطات هذه الأديرة في القرن التاسع الميلادي ؛ وقد احتفظ لنا رهبان العصر الكارولنجي بما لدينا من الشعر اللاتيني كله تقريباً عدا شعر كاتلس Catullus ، وتيبلس Tibullus ، وبروبرتيوس Propertius ، وبما لدينا من النثر اللاتيني كله تقريباً ما عدا كتابات فارو Varro ، وتاستس Tacitus ، وأبوليوس Apuleius (٣٢) . وكانت كثير من المخطوطات الكارولنجية جميلة الزخرفة يزيناها فن الرهبان وصبرهم الطويل ؛

وكان من آثار هذه الكتب المزخرفة التي أخرجتها مدرسة القصر أناجيل « فينا » التي كان أباطرة ألمانيا المتأخرون يقسمون عليها أيمان تنويجهم .
وأصدر شارلمان في عام ٧٨٧ إلى جميع أساقفة فرنسا وروساء أديرتها « توجيهات لدراسة الآداب » ، يلوم فيها رجال الدين على ما يستخدمونه من « اللغة الفظة » و « الألسنة غير المهذبة » ويحث كل كنيسة ودير على إنشاء مدارس يتعلم فيها رجال الدين وغير رجال الدين على السواء القراءة والكتابة . ثم أصدر توجيهات أخرى في عام ٧٨٩ يدعو فيها مديري هذه المدارس أن « يحرصوا على ألا يفرقوا بين أبناء رقيق الأرض وأبناء الأحرار ، حتى يمكنهم أن يأتوا ويجلسوا على المقاعد نفسها ليدرّسوا النحو ، والموسيقى ، والحساب » . وفي عام ٨٠٥ صدرت تعليمات أخرى تهيء لهذه المدارس تعليم الطب ، وتعليمات غيرها تندد بالخرافات الطبية .
ومما يدلنا على أن أوامره لم تذهب أدراج الرياح كثرة ما أنشئ في فرنسا وألمانيا الغربية من مدارس في الكنائس والأديرة ؛ فلقد أنشأ ثيودلف Theodulf أسقف أورليان مدارس في كل أبرشية من أسقفية ، رحب فيها بجميع الأطفال على السواء ، وحرّم على القساوسة الذين يتولون التدريس أن يتناولوا أجوراً^(٢٣) ، وذلك أول مثل للتعليم العام المجاني في التاريخ كله . ونشأت مدارس هامة ، متصلة كلها تقريبا بالأديرة ، في خلال القرن التاسع في تور ، وأوكسير Auxer ، وباثيا ، وسانت جول ، St. Gall ، وفلدا Fulda ، وغنت Ghent وغيرها من المدن . وأراد شارلمان أن يوفر حاجة هذه المدارس إلى المعلمين ، فاستقدم العلماء من أيرلندا ، وبريطانيا ، وإيطاليا . ومن هذه المدارس نشأت في المستقبل الجامعات الأوروبية .

على أننا يجب أن نغالى في تقدير القيمة العقلية لذلك العهد . فلقد كان هذا البحث المدرسي أشبه بيقظة الأطفال منه بالنضوج الثقافي الذي كان قائما وقتئذ في القسطنطينية ، وبغداد ، وقرطبة ، فلم يثمر هذا البحث كتاباً كبيراً من

أي نوع كان . وكتابات الكوين الشكلية مملّة ، مقبضة ، خانقة ؛ وليس فيها ما ينفي عنه تهمة التحذلق والتباهى بالعلم ، وتدل على أنه إنسان لطيف يستطيع أن يوفق بين السعادة والتقى ؛ وليس فيها ما يدل على هذا وينفي ذلك إلا بعض وسائله وأبيات من شعره . ولقد أنشأ كثير من الناس أشعاراً في أثناء هذه النهضة العلمية القصيرة الأجل ، منها قصائد ثيودلف التي فيها قدر كاف من الجلال على طريقتها الضميمة الخاصة بها . غير أن الأثر الأدبي الخالد الوحيد الذي خلفه ذلك العهد هو الترجمة المختصرة البسيطة لشارلمان التي كتبها اجنهارد . وهي تحلو حذو كتاب سوتنيوس *Seutonium* حياة القياصرة *Lives of the Caesars* ، بل إن الكتاب الأول ليقتطف بعض فقرات من الثاني يصف بها شارلمان . على أننا يجب أن نغفر كل شيء للمؤلف الذي يصف نفسه في تواضع جرم بأنه «همجي» ، لا يعرف إلا قليلاً من لسان الرومان» (٣٤) ، وما من شك رغم هذا الاعتراف في أنه رجل عظيم المواهب ، لأن شارلمان عينته أستاذاً لقصره ، وخازناً لبيت ماله ، واتخذته صديقاً مقرباً له ، واختاره ليشرف على كثير من العماير في حكمه الإنساني العظيم ، ولعله قد اختاره لتخطيطها .

وشيدت قصور للإمبراطور في أنجلهم *Ingelheim* ونجمين *Nijmegen* ، وأقام في آخن عاصمته المحيية القصر والكنيسة الصغيرة اللداعى الصيت اللذين تعرضا لأكثر من ألف من الأخطار وظلا قائمين حتى دمرتهما قنابل الحرب العالمية الثانية . وقد أقام المهندسون الجهولون تلك الكنيسة على نمط كنيسة سان فيتال *San Vitale* براقنا وهي التي أقيمت على غرار الكنائس البيزنطية والسورية ؛ فكانت النتيجة أن وجدت كنيسة شرقية بجناحة في الغرب . وقد أقيمت فوق البناء المثلث قبة مستديرة ، وقسم البناء من الداخل عدة أقسام بطابقين من عمد مستديرة « وزينت بمصاييح من الذهب والفضة ، وحظائر ، وأبواب من البرنز المصمت ، وأعمدة وبوارق جيء بها من رومة وراقنا» (٣٥) ، وبتقش فسيفسائي « ذائع الصيت في القبة .

وكان شارلمان سخياً غاية السخاء على الكنيسة ، ولكنه مع هذا جعل نفسه سيدها ، واتخذ من عقائدها ورجالها أدوات لتعليم الناس وحكمهم . وكانت كثرة رسائله متعلقة بشئون الدين ، فكان يقذف الفاسدين من موظفيه والقساوسة الدنيويين بعبارات مقتبسة من الكتاب المقدس ؛ وإن ما في أقواله من القوة لينبئ عنه مظنة أن تقواه كانت خدعة سياسية . فقد كان يبعث بالمال إلى المسيحيين المنكوبين في البلاد الأجنبية ، وكان يصر في مفاوضاته مع الحكام المسلمين على أن يراعوا العدالة في معاملة رعاياهم المسيحيين (٣٦) . وكان للأساقفة شأن كبير في مجالسه ، وجمعياته ، ونظامه الإداري ، واكنه كان ينظر إليهم ، رغم احترامه الشديد لهم ، على أنهم عماله بأمر الله ، ولم يكن يتردد في أن يصدر أوامره لهم ، حتى في المسائل المتعلقة بالعقائد أو الأخلاق . ولقد ندد بعبادة الصور والتماثيل حين كان البابوات يدافعون عنها ، وطلب إلى كل قس أن يبعث إليه بوصف مكتوب لطريقة التعميد في أبرشيته ، ولم تكن توجهاته للبابوات أقل من هداياه لهم ، وقضى على ما يحدث في الأديرة من تمرد ، ووضع نظاماً للرقابة الصارمة على أديرة النساء لمنع « الدعارة ، والسكر ، والشرب » بين الراهبات . سأل القساوسة في أمر وجهه لهم عام ٨١١ عما يقصدون بقولهم إنهم ينبذون العالم على حين « أننا نرى » بعضهم يكذبون يوماً بعد يوم بجميع الوسائل ، ليزيدوا أملاكهم ، فتارة يتخذون التهديد بالنار الأبدية وسيلة يستخدمونها لأغراضهم الخاصة ، وتارة يعدون الناس بالنعيم السرمدي لهذه الأغراض نفسها ، وطوراً يسلبون السذج أموالهم باسم الله أو اسم أحد القديسين ، ويلحقون بذلك أعظم الضرر بورتهم الشرعيين . على أنه رغم هذا قد أبقى لرجال الدين محاكمهم الخاصة ، وأمر بأن يؤذى إلى الكنيسة عشر غلة الأرض ، وجعل لرجال الدين الإشراف على شئون الزواج ، والوصايا ، وأوصى هو نفسه بثأى ضياعه لأسقفيات

مملكته (٣٧) ، ولكنه كان يطلب إلى الأساقفة بين الفينة والفينة أن يقدموا « هبات » قيمة لتساعد على الوفاء بنفقات الحكومة .

وقد أثمر هذا التعاون الوثيق بين الكنيسة والدولة فكرة من أجل الأفكار في تاريخ الحكم : ألا وهي استحالة دولة شارلمان إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي تستند إلى كل ما كان لرومة الإمبراطورية والبابوية من هيئة ، وقداسة ، واستقرار . ولقد كان البابوات من زمن طويل يستنكرون خضوع أقاليمهم إلى بيزنطية التي لا تصد عنها غارة ولا تقر فيها أمناً ، وكانوا يشاهدون خضوع البطارقة المتزايد إلى إمبراطور القسطنطينية ويخشون أن تضيع حريتهم هم أيضاً . ولسنا نعرف من الذي لاحت له فكرة تتويج شارلمان إمبراطوراً رومانياً على يد البابا أو من هذا الذي وضع خطة هذا التتويج ، وكل ما نعرفه أن الكوين ، وثيودولف ، وغيرها من الملتفين حوله قد تناقشوا في إمكانه ، ولعلمهم هم الذين خططوا فيه الخطوة الأولى ، أو لعل مستشارى البابا هم الذين فكروا في هذا الأمر . وقامت في سبيل تنفيذه صعاب شديدة : فقد كان إمبراطور الروم يلقب وقتئذ بلقب الإمبراطور الروماني ، وكان أحق الناس من الوجهة التاريخية بذلك اللقب ، ولم يكن للكنيسة حق معترف به في حمل الألقاب أو نقلها من شخص إلى آخر ، ولربما كان منح اللقب لشخص منافس لبيزنطية سبباً في إشعال نار حرب عاجلة عوان بين المسيحيين في الشرق وإخوانهم في الغرب ، حرب تترك أوروبا المحرقة غنيمة سهلة للفتوح الإسلامية . غير أن الأمر قد يسره بعض التيسير أن إيريني جلست على عرش أباطرة الروم (٧٩٧) ؛ فقد قال البعض وقتئذ إنه لم يعد هناك إمبراطور رومان ، وإن الباب أصبح مفتوحاً لكل من يطالب باللقب ، فإذا ما نفذت هذه الخطة الحريثة قام مرة أخرى إمبراطور روماني في الغرب ، تقوى به المسيحية اللاتينية وتتوحد ، فتستطيع مقاومة انشقاق بيزنطية وتهديد المسلمين ، ولعل ما في اللقب الإمبراطوري من رهبة وسحر يمكن

أوروبا الممجيّة من أن تعود أدرجها خلال القرون المظلمة وترث حضارة العالم القديم وثقافته وتشر المسيحية في ربوعه .

وحدث في السادس والعشرين من ديسمبر عام ٧٩٥ أن اختير ليو الثالث بابا ، ولم يكن شعب رومة يحبه ، وكان يهمة بعدة فمال خبيثة ، ثم هاجم العامة في الخامس والعشرين من إبريل عام ٧٩٩ ، وأساءوا معاملته ، وسجنوه في دير . لكنه هرب من سجنه ، وفر إلى شارلمان في بادربورن وطلب إليه أن يحميه . وأحسن الملك استقباله ، وأعادته إلى رومة مع حرس مسلح ، وأمر البابا ومتميه أن يمثلوا أمامه في تلك المدينة في العام المقبل . ودخل شارلمان العاصمة القديمة بموكب فخم في الرابع والعشرين من نوفمبر عام ٨٠٠ ، واجتمعت في أول ديسمبر جمعية من الفرنجة والرومان ، واتفقت على إسقاط التهم الموجهة إلى ليو إذا ما أقسم يميناً مغلظة على أنه لم يرتكبها . وأقسم ليو اليمين وتبّيات السنييل إلى إقامة اختفاله فخم بعيد الميلاد . فلما أقبل ذلك اليوم ركع شارلمان للصلاة أمام مذبح القديس بطرس بالعبادة اليونانية القصيرة والصندين ، وهما اللباس الذي كان يرتديه كبراء الرومان ، ثم أخرج ليو على حين غفلة تاجاً مطعماً بالجواهر ووضع على رأس الملك . ولعل المصلين كانوا قد علموا من قبل أن يفعلوا ما توجه عليهم الشعائر القديمة التي يقوم بها كبراء الشعب الروماني لتأييد هذا التتويج ، فنادوا ثلاث مرات : « ليحي شارل الأفخم ، الذي توجه الله لإمبراطوراً عظيماً للرومان لينشري بينهم السلام ! » . ومسح رأس الملك بالزيت المقدس ، وحيا البابا شارلمان ونادى به إمبراطوراً وأغسطس ، وتقدم إليه بمراسم الولاء التي ظلت محفظةً بها للإمبراطور الشرقي منذ عام ٤٧٦ .

وإذاجاز لنا أن نصدق اجنهارد ، فإن شارلمان قد قال له إنه ما كان لي يدخل الكنيسة لو أنه عرف أن ليوينوى تتويجه إمبراطوراً . ولربما كان قد عرف الخطة بوجه عام ، ولكنه لم يرض عن السرعة التي تمت بها والظروف الهائلة .

بها وقت إتمامها ، ولعله لم يكن يسره أن يتلقى التاج من بابا ، فيفتح بقبوله منه باباً للنزاع الذي دام قروناً طويلاً بين البابا والإمبراطور ، وأيهما أعظم مكانة وأقوى سلطاناً : المعطى أو آخذ العطية ، ولعله فكر أيضاً فيما سوف يجره ذلك من نزاع مع بيزنطية في المستقبل . ثم أرسل شارلمان عدة رسائل وبعوث إلى القسطنطينية يريد بها أن بأسوا الجرح الذي أحدثته هذه الفعلة ، وظل زمناً طويلاً لا ينتفع بلقبه الجديد ، حتى كان عام ٨٠٢ فعرض الزواج على إيريني ليكون ذلك وسيلة يجعل بها لقبهما المشكوك فيهما شرعيين (٣٩) ، ولكن سقوط إيريني عن عرشها أفسد هذه الخطة اللطيفة . وأراد بعد ذلك أن يقال من بخطر هجوم بيزنطية عليه فوضع خطة لعقد اتفاق ودي مع هارون الرشيد ، وقد أيد هارون ما نشأ بينهما من حسن التفاهم بأن أرسل إليه عدداً من القبيلة ومفاتيح الأماكن المقدسة في بيت المقدس . ورد الإمبراطور الشرقي على ذلك بأن شجع أمير قرطبة على عدم الولاء لبغداد ، وانتهى الأمر في عام ٨١٢ حين اعترف إمبراطور الروم بشارلمان إمبراطوراً نظير اعترافه بأن البندقية وإيطاليا الجنوبية من أملاك بيزنطية ،

وكان لتتويج شارلمان نتائج دامت ألف عام ، فقد قوى البابوية والأساقفة إذ جعل السلطة المدنية مستمدة من الهبة الكنسية ، وأتاحت حوادث عام ٨٠٠ لجريجورى السابع وإنوسنت الثالث أن يقيا على أساسها كنيسة أقوى من الكنيسة السابقة ، وقوت شارلمان على البارونات الغضاب وغيرهم لأنها جعلته ولياً لله في أرضه ، وأيدت أعظم التأييد نظرية حق الملوك الإلهي في الحكم ، ووسعت الهوة بين الكنيسة اليونانية والكنيسة اللاتينية ، لأن أولاهما لم تكن ترغب في الخضوع إلى كنيسة رومانية متحالفة مع إمبراطورية منافسة لبيزنطية . ولقد كان استمرار شارلمان في اتخاذ آخن لا رومة عاصمة له شاهداً على انتقال السلطة السياسية من بلاد البحر المتوسط إلى أوروبا الشمالية ، ومن الشعوب اللاتينية إلى التوتون . وأهم من هذا كله أن تتويج شارلمان أقام الإمبراطورية

الرومانية المقدسة عملياً وإن لم يقمها من الوجهة النظرية . وكان شارلمان ومستشاروه يرون أن سلطته الجديدة إحياء للسلطة الإمبراطورية القديمة ، على أن الصبغة الجديدة الخاصة بهذا النظام لم يعترف بها إلا في عهد أوتو Otto الأول ، كما أنها لم تصبح « مقدسة » إلا حين ضم فردريك باربرسا Frederik Barbarossa لفظ مقدس sacrum إلى ألقابه في عام ١١٥٥ . وجملة القول أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة كانت - على الرغم من تهديدها للعقول وللمواطنين - فكرة نبيلة ، وحلماً من أحلام الأمن والسلام ، وعودة للنظام والحضارة إلى عالم أنقذ من برائن الهمجية ، والعنف ، والجهل .

وأصبحت المراسم الإمبراطورية تكتنف الإمبراطور في المهام الرسمية ؛ فكان عليه أن يلبس أثواباً مزركشة ، ذات مشبك ذهبي ، وحذاءين مرصعين بالجوهر ، وتاجاً من الذهب والجوهر ، وكان على زائريه أن يسجدوا أمامه ليقبلوا قدمه أو ركبته ؛ هذا ما أخذه شارلمان عن بيزنطية وما أخذته بيزنطية عن طيسفون . غير أن إجنهارد يؤكد لنا أن ثيابه - إذ استثنينا ما ذكرناه عنها آنفاً - لم تكن تختلف إلا قليلاً عن ثياب الفرنجة العادية : كانت تتألف من قميص من التيل ، وسروال قصير لاشيء تحته ، ومن فوق القميص والسروال القصير قباء من الصوف ربما كانت له أهداب من الحرير ، وجرب طويل مربوط بشرطين يغطي ساقيه ، وحذاءين من الجلد في قدميه ؛ وكان يضيف إليها في الشتاء معطفاً ضيقاً من جلود ثعلب الماء (*) أو الفئك (***) ، وكان يحتفظ بسيف إلى جانبه لا يفارقه أبداً . وكان طول قامته ست أقدام وأربع بوصات ، وكانت بنيته تتناسب مع هذا الطول . وكان أشقر الشعر ، شقذ العينين (١) ، أشم الأنف ،

(*) أو سمور الماء وهو حيوان يعيش في البر والبحر معاً وله من أصابع رجليه جلدة تماونه على السباحة (عن معجم الدكتور شرف) .

(**) أو ثعلب الصحراء marten (عن معجم الدكتور شرف) .

(+) يقال رجل شقذ إذا كان شديد البصر سريع الإصابة بالعين . (عن الثراء) . المترجم

له شاربان وليست له لحية « جليلا مهيب الطلعة على الدوام » (٤٠). وكان معتدلاً في طعامه وشرابه ، يمتقت السكر أشد المقت ، جيد الصحة على الدوام مهما تعرض لتقلبات الجوار ومهما قاسى من الصعاب . وكثيراً ما كان يخرج للصيد ، أو يمارس ضروب الرياضة العنيفة على ظهور الخيل ؛ وكان سباحاً ماهراً ، يجب الاستحمام في عيون آخن الدقيئة . وقلما كان يدعو الناس إلى الولائم ، لأنه كان يفضل الاستماع إلى الموسيقى أو قراءة كتاب في أثناء الطعام . وكان يعرف قيمة الوقت كما يعرفها كل عظيم : وكان يستقبل زائريه ويستمع إلى قضاياهم في الصباح وهو يرتدى ثيابه أو يلبس حذاءيه .

وكان من وراء مهابته وجلاله عاطفة قوية وهمة عالية ، ولكنه كان يستخر عاطفته وهمته لتحقيق أغراضه ويوجهها بكائه وثاقب بصره . ولم تستنفد حروبه التي تربى على نصف المائة قوته وحيويته . وكان إلى هذا كله شديد العناية بالعلوم والقوانين ، والآداب ، وعلوم الدين لا تفتقر حماسته لها على مر السنين ؛ وكان يسوؤه أن يبقى جزء من الأرض لم يستول عليه أو أى فرع من فروع العلم لم يضرب فيه بسهم . وكان شريف النفس من بعض الوجوه ؛ وكان يزدرى الخرافات ، ويحرم أعمال المتنبيين أو العرافين ، ولكنه صدق كثيراً من الأعاجيب الأسطورية ، وبالغ في مقدرة الشرائع على إصلاح أخلاق الناس وعقولهم . ولقد كان لهذه السداجة النفسية بعض المحاسن : فقد كان في تفكيره وحديثه صراحة ونُبيل قلماً نراهما في رجال الحكم .

وكان يسعه أن يكون قاسياً إذا تطلبت سياسة الدولة القسوة ، وأشد ما كانت قسوته فيما بدله من جهود لنشر الدين المسيحى ؛ ولكنه مع هذا كان عظيم الرأفة ، كثير الإحسان ، وفياً مخلصاً لأصدقائه ، ولقد بكى بالدمع عند وفاة أولاده ، وبنته ، والبابا هدریان . ويرسم لنا ثيودلف في قصيدة له عنوانها « حكم شارل » صورة لطيفة للإمبراطور في بيته ، فيقول إنه إذا قدم من أعماله

أحاط به أبنائه ، فيخلع عنه ابنه شارل عباءته ، ويأخذ ابنه لويس سيفه ، وتعانقه بناته الست ، ويأتين له بالخبز ، والخمر ، والتفاح ، والأزهار ؛ ويدخل الأسقف ليبارك طعام الملك ، ويقرب منه الكوين ليبحث معه ما لديه من الرسائل ؛ ويهرول إجنهارد الضئيل الجسم هنا وهناك كآذنة نملة ، ويأتيه بكتب ضخمة^(٤١) . وقد بلغ من حبه لبناته أن أقنعهن بعدم الزواج ، وقال إنه لا يطيق فراقهن ؛ ومن أجل هذا أخذن يواسين أنفسهن بالارتداء في أحضان العشاق وجئن بعدة أبناء غير شرعيين^(٤٢) . وقد قابل شارلمان هذه الأعمال منهن بنفس سمحة ، لأنه هو نفسه قد جرى على سنة أسلافه ، فاتخذ له أربع أزواج واحدة بعد الأخرى ، وأربع عشيقات أو حظايا . ذلك أن حيويته المفورة جعلته شديد الإحساس بمفاتن النساء ، وكانت نساؤه يؤثرن أن يكون للواحدة منهن نصيب منه على أن يكون لها رجل آخر بمفردها . وقد ولدت له نساؤه نحو ثمانية عشر من الأبناء والبنات منهم أربعة شرعيون^(٤٣) . وغض من في حاشيته ومن في رومة من رجال الدين أبصارهم عن تحال رجل مسيحي مثله من قيود الأخلاق المسيحية .

وكان شارلمان وقتله على رأس دولة أعظم من الإمبراطورية البيزنطية لا يعلو عليها في عالم الرجل الأبيض إلا دولة الخلفاء العباسيين ؛ ولكن كل توسع في حدود الإمبراطوريات أو العلوم يخلق مشاكل جديدة . فلقد حاولت أوروبا الغربية أن تحمي نفسها من الألمان بإدماجهم في حضارتها ؛ غير أن ألمانيا كان عليها في هذا الوقت أن تحمي نفسها من أهل الشمال ومن الصقالبة ؛ وكان الملاحون من أهل الشمال قد أنشأوا لهم مملكة في چتلنده Julland قبل عام ٨٠٠ م وأخذوا يغيرون على سواحل فريزيا Frisia . وأسرع إليهم شارل من رومة ، وأنشأ الأساطيل والقلاع عند الشواطئ والأنهار ، وأقام حاميات في الأماكن المعرضة للأخطار ؛ ولما أغار ملك چتلنده على فريزيا عام ٨١٠ صُدِّ عنها ، ولكن شسارلمان هاله أن يشهد من قصره في نربونة بعد قليل من ذلك الوقت ، إذا جاز لنا أن

تصدق أخبار راهب سانت جول ، سفن القراصنة الدنمركيين في خليج ليون ه
ولعله قد تنبأ ، كما تنبأ دقلديانوس من قبل ، بأن إمبراطوريته الواسعة
في حاجة إلى الدفاع السريع عنها في عدة مواضع في وقت واحد ، فقسمها
في عام ٨٠٦ بين أولاده الثلاثة - بيين ، ولويس ، وشارل . ولكن
بيين توفى في عام ٨١٠ ، وشارل في عام ٨١١ ؛ ولم يبق من هؤلاء الأبناء
إلا لويس ، وكان منهيكا في العبادة انهما كما بدأ معه أنه غير خليق بأن يحكم
عالمنا مليئا بالاضطراب والغدر . غير أن لويس رغم هذا قد رفع باحتفال
مهييب في عام ٨١٣ من ملك إلى إمبراطور ونطق الملك الشيخ قائلا :
« حمداً لك يا إلهي إذا أنعمت عليّ . بأن أرى بعيني ولدى يجلس
على عرشى » (٤٤) .

وبعد أربع سنين من ذلك الوقت . أصيب الملك الشيخ وهو يقضى الشتاء
في آخن بحمى شديدة نتج عنها التهاب البلورة ، وحاول أن يداوى نفسه
بالاقتصار على السوائل ، ولكنه توفى بعد سبعة أيام من بداية المرض بعد أن
حكم سبعا وأربعين سنة وعاش اثنتين وسبعين (٨١٤) ، ودفن تحت قبة
كنديائية آخن ، مرتدياً أثوابه الإمبراطورية . وما لبث العالم كله أن أسماه
كارولس ماجنس Carolus Magnus أو كارل در جروس Karl der Grosse
أو شارلمان Charlemagne (أى شارل العظيم) ؛ ولما حل عام ١١٦٥
ومحا الزمان جميع ذكريات عشيقاته ضمنه الكنيسة التي أحسن إليها الإحسان
كله في زمرة الصالحين المنعمين .

٣ - اضمحلال الكارولنجيين

كانت النهضة الكارولنجية فترة من فترات البطولة المتعددة في العصور
المظلمة ، ولولا ما انصف به خلفاء شارلمان من عجز وما شجر بينهم من نزاع لكان
من المستطاع أن تقضى هذه الفترات قبل مجيء أبلار بثلاثة قرون على ظلمات تلك

العصور ، وعلى فوضى بارونات الإقطاع ، وعلى النزاع الذى قام بين الكنيسة والدولة ومزقتها شر ممزق ، وعلى غارات النورمان ، والمجر ، والمسلمين التى أدى إليها هذا النزاع الأخرق . لكن رجلا بمفرده ، وحياة بمفردها لم يكفيا لإقامة حضارة جديدة . يضاف إلى هذا أن تلك النهضة القصيرة الأجل كانت نهضة كنسية ضيقة أشد الضيق ، فلم يكن للمواطن العادى فيها نصيب ، وما أقل من كان يعنى بها من النبلاء ، وما أقل من كان منهم يشغل نفسه بتعلم القراءة . وما من شك فى أن شارل نفسه ملوم إلى حد ما على انهيار دولته . فلقد أفاء على رجال الدين من الثراء ما جعل سلطان الأساقفة ، بعد أن رفعت يده القوية عنهم ، يرجح سلطان الإمبراطور ، ولقد اضطرته أسباب حربية وإدارية أن يمنح المحاكم والبارونات فى الأقاليم قدرأ من الاستقلال شديد الخطورة . ثم إنه جعل مالية الحكومة الإمبراطورية ذات الأعباء الجسام تعتمد على ولاء هؤلاء الأشراف الغلاظ واستقامتهم ، وعلى ما تدره أراضيه ومناجه من إيراد غير كبير ، ولم يكن فى وسعه أن يعمل ما عمله أباطرة الروم فينشئ "بيروقراطية من الموظفين المدنيين مسئولين أمام السلطة المركزية دون غيرها ، وقادرين على النهوض بأعباء الحكم مهما تكن شخصية الإمبراطور وأتباعه ، فلم يكند يمتضى على وفاته جيل واحد حتى أقبل رسل الإمبراطور الذين بسطوا سلطانه فى الولايات أو تجاهل الولاة وجودهم ، وألقى الأعيان المحليون عن كاهلهم سلطان الحكومة المركزية . وهلاك القول أن حكم شارلمان كان عملا جليلا من أعمال العباقرة يمثل الرقى السياسى فى عصر وفى رقعة من الأرض يعمهما الاضمحلال الاقتصادى .

وإن الألقاب التى أطلقها المعاصرون لحلفائه عليهم لتكنى وحدها لأن نقص علينا قصتهم : لويس التقي Louis the Pious ، وشارل الأصلع Charles the Bald ، ولويس المتلعثم Louis the Stammerer وشارل البدين Charles

the Fat ، وشارل الساذج Charles the Simple . فأما لويس « التقي » (*) (٨١٤ - ٨٤٠) فكان كأبيه طويل القامة ، بهي الطلعة ؛ وكان متواضعاً ، رقيق الحاشية ، خبيراً كريماً ، مفرطاً في اللين إفراط يوليوس قيصر . وكان قد تربى على أيدي القساوسة فجعلته هذه التربية شديد الاهتمام بالمبادئ الأخلاقية التي كان يزاولها شارلمان باعتدال . من ذلك أنه لم تكن له إلا زوج واحدة ولم يكن له قط حظايا ، وأنه طرد من حاشيته عشيقات أبيه وعشاق أخواته ، ولما احتجت أخواته على عمله هذا حبسهن في أديرة الراهبات . وأرغم القساوسة على أن يعملوا بأقوالهم ، وأمر الرهبان أن يحيوا الحياة التي توجبها عليهم قواعد البندكتين ، وحاول أن يقضى على المظالم والاستغلال أينما وجدوا ، وأن يصلح ما كان فاسداً من قبل . وقد أعجب الناس به لانحيازه إلى الضعفاء على الأقوياء في جميع الأحوال .

وأحسن لويس أن عادات الفرنجة توجب عليه تقسيم دولته فقسمها إلى ممالك يحكمها أبناؤه - بيبن ، ولوثير Lothaire ، واويس « الألماني » (وسنسميه لدقج فيها بعد) . وقد رزق له يس من يوديت Judith زوجته الثانية ابناً رابعاً يعرف في التاريخ باسم شارل الأصلح ؛ وكان لويس يحبه حباً لا يكاد يقل عن افتتان الأجداد بأحفادهم ، ويريد أن يعطيه قسماً من إمبراطوريته بعد أن يلغى التقسيم الذي عمله في عام ٨١٧ ؛ لكن أولاده الثلاثة الكبار عارضوا في هذا وشنوا على أبيهم حرباً داخلية دامت ثمانية أعوام . وأيدت كثرة النبلاء ورجال الدين هذه الفتنة ، ثم خرجت عليه القلة التي ظلت موالية له عند ما تأزمت الأحوال في رُنفلد Rothfeld (القريبة من كلمار Colmar) والتي عرفت فيما بعد باسم لوجنفلد Lügenfeld أي ميدان الأكاذيب . فلما رأى ذلك لويس أمر من بقي من أنصاره أن يتركوه وشأنه وأن يهتموا بحماية أنفسهم ، ثم استسلم لأبنائه

(*) وكلمة Pious الإنجليزية (ومثلها تقي العربية) ترجمة خاطئة فأيدها طول الزمن لكلمة pius اللاتينية التي تعني موقر ، أمين رحيم ، لطيف ، وكثيراً من المعاني الأخرى .

(٨٣٣) ، فلما تم لهم ذلك سجنوا يوديث وجزوا شعرها ، وأودعوا شارل الصغير في دير ، وأمروا أباهم أن ينزل عن العرش وأن يكفر علناً عما فعل . وجيء بلويس إلى كنيسة بسواسون يحيط به ثلاثون أسقفا ، وأرغم في حضرة لوثير ابنه وخلفه على أن يخلع ملابسه حتى وسطه ، وأن يسجد على قطعة من نسيج الشعر ويقرأ جهره اعترافاً بجريمته . ثم لبس مسوح الندم الرمادية اللون ، وقضى سنة في أحد الأديرة . وحكمت فرنسا من تلك اللحظة أسقفية موحدة قامت بين الأسرة الكارولنجية المنفككة .

واشماز الشعب من سوء معاملة لوثير لأبيه لويس ، واستجاب كثيرون من النبلاء وبعض رجال الدين لنداء يوديث حين طالبت بإلغاء قرار الخلع ، ودب النزاع بين الإخوة الثلاثة ، وأطلق پيپين ولدفع أباهما ، وأجلساه على عرشه ، وأعاد يوديث وشارل إلى أحضانه (٨٣٤) . ولم يثار لويس لنفسه ، بل عفا عن كل من أساءوا إليه . ولما مات پيپين (٨٣٨) قسمت الدولة تقسماً جديداً لم يرض عنه لدفع ، وهجم على سكسونيا ، ونزل الإمبراطور الشيخ مرة أخرى إلى ميدان القتال ، وصعد المهاجمين ، ولكنه مرض من تعرضه لتقلبات الجو وهو عائد من الميدان ، وتوفى بالقرب من إنجلهايم Ingelheim (٨٤٠) . وكان من آخر الألفاظ التي نطق بها رسالة يصفح بها عن لدفع ، ويدعو لوثير ، وقد أصبح إمبراطوراً ، أن يحمي يوديث وشارل .

وحاول لوثير أن ينزل شارل ولدفع منزلة الأتباع ، ولكنهما هزماه عند فنتناي Fontenay (٨٤١) ، وأقسما عند استراسبرج بين الولاء المتبادلة المشهورة بأنهما أقدم وثيقة كتبت باللغة الفرنسية . لكنهما وقعا مع لوثير في عام ٨٤٣ معاهدة فردون ، وقسموا فيما بينهم إمبراطورية شارلمان أقساماً ثلاثة تنطبق بوجه التقريب على إيطاليا ، وألمانيا ، وفرنسا الحالية . فاخص لدفع بالأراضي المحصورة بين نهرى الرين والإلب ، واخص شارل بالجزء الأكبر من فرنسا وبولايات

الحدود الأسبانية ، وأعطى لوثير لإيطاليا والأراضي المحصورة بين الرين شرقاً ، والشلد Scheld ، والساون Saône والرون غرباً . وسميت هذه الأراضي الغير المتجانسة ، والممتدة من هولندا إلى بروكسانس باسم لوثير . فكانت أرض لوثير ، أو لوثيرنجيا Lutheringia . أو لوثيرنجار Lutharingar ، أو لورين Lorraine . ولم تكن ذات وحدة جنسية أو لغوية ، فكان لا بد أن تصبح ميداناً للقتال بين ألمانيا وفرنسا ، وكثيراً ما استبدلت سيداً بسيد فيما تقابل عليها من نصر وهزيمة أريققت فيهما الدماء أنهاراً .

وفي خلال هذه الحروب الداخلية الكثيرة الأكلاف ، والتي أضعفت الحكومة ، وأنقصت السكان ، والثروة ، والروح المعنوية في أوروبا الغربية ، غزت القبائل الإسكنديناوية في سعيها إلى التوسع وبسط السلطان بلاد فرنسا فاكسحتها بموجة همجية واصلت وأتمت الخراب والدمر اللذين جاءا في أعقاب الهجرات الألمانية قبل ذلك الوقت بثلاثة قرون . فبينما كان أهل السويد يتسربون إلى روسيا والنرويجيون يضعون أقدامهم في أيرلندا ، والدمرقيون يفتحون إنجلترا ، كان خليط من أهل اسكنديناوة ، في وسعنا أن نسميهم الشماليين أو أهل الشمال ، يغيرون على مدائن فرنسا القائمة على شواطئ البحار أو ضفاف الأنهار . واستحالت هذه الغارات بعد موت لويس التثني حملات قوية . تقوم بها أساطيل مؤلفة من أكثر من مائة سفينة ، يسيرها ملاحون محاربون . وقاست فرنسا في القرنين التاسع والعاشر سبعا وأربعين من هذه الهجمات الشمالية ؛ ونهب المغيرون في عام ٨٤٠ مدينة رن Rouen ، وبدأوا مائة عام من الهجمات على نورماندى ؛ وفي عام ٨٤٣ دخلوا مدينة نانت Nantes وذبحوا أسقفها وهو قائم للصلاة أمام مذبحه ، وفي عام ٨٤٤ صعدوا في نهر الجارون Garonne إلى طولوشة Toulouse . وفي عام ٨٤٥ صعدوا في نهر السين إلى باريس ، ولكنهم تركوا المدينة وشأها بعد أن أخذوا جزية مقدارها سبعة آلاف رطل من الفضة .

وبينا كان المسلمون يهاجمون رومة استولى أهل الشمال على فريزيا في عام ٨٤٦ وأحرقوا دوردرخت Dordrecht ، ونهبوا ليموج Limoges . ثم حاصروا بوردو Bordeaux في عام ٨٤٧ ، ولكنهم ردوا عنها . وأعادوا الكرة عليها في عام ٨٤٨ ، واستولوا عليها في هذه المرة ، ونهبوها ، وقتلوا أهلها ، وأحرقوها عن آخرها . وفي العام الذي تلاه وجهوا مثل هذه الضربات إلى بوفيه Beauvais وبابو Bayeux ، وسانت لو St. Lu ، ومو Meaux ، وإيفرو Evreux ، وتور Tours وفي وسعنا أن نصور ما حل بهذه البلاد من رعب إذا قلنا إن تور نُهبت في أعوام ٨٥٣ ، و ٨٥٦ ، و ٨٦٢ ، و ٨٧٢ ، و ٨٨٦ ، و ٩٠٣ ، و ٩١٩^(٤٥) ، وإن باريس نُهبت عامي ٨٥٦ ، و ٨٦١ ، وأحرقت في عام ٨٦٥ . وجهاز الأساقفة في أورليان وشارتر Chartres جيشين صدوا بهما المغيرين (٨٥٥) ؛ ولكن القراصنة الدنمركيين خربوا أورليان في عام ٨٥٦ . وفي عام ٨٥٩ اخترق أسطول شمالي مضيق جبل طارق ودخل البحر المتوسط ، ونهب المدن الواقعة على ضفاف الرون من مصبه حتى مدينة فالنس Valence شمالا ، ثم عبر خليج جنوا ، ونهب پيزا وغيرها من المدن الإيطالية . ولما قاومتهم قلاع النبلاء الحصينة في أماكن متفرقة في طريقهم نهبوا أو أتلفوا كنوز الكنائس والأديرة غير المحمية ، وكثيراً ما أحرقوها بما فيها من مكتبات ، ولم ينج القساوسة والرهبان من القتل في بعض الأحيان . وكان الناس في تلك الأيام الخالكة يدعون ربهم في صلواتهم قائلين : « اللهم أنقذنا من شر أهل الشمال »^(٤٦) ! وكأنما كان المسلمون على موعد مع الشماليين فاستولوا على قورسقة وسردينية في عام ٨١٠ ، ونهبوا ساحل الرفييرا الفرنسي في عام ٨٢٠ ، وخربوا أري Arles في ٨٤٢ ، واستولوا على ساحل فرنسا الواقع على البحر المتوسط وبقى في أيديهم حتى عام ٩٧٢ .

تري ماذا كان يفعل الملوك والأشراف خلال هذه الأعوام الخمسين

المليئة بالتدمير والتخريب ؟ فأما الأشراف فقد كان لديهم من المشاغل ما يكفيهم ، ولم يكونوا يرغبون في أن يخفوا لمساعدة أقاليمهم ، ولم يستجيبوا إلا استجابات ضعيفة لما وجه إليهم من نداء للعمل الإجماعي . وأما الملوك فكانوا في شغل شاغل بحروبهم في سبيل التملك أو الاستيلاء على تاج الإمبراطورية ، وكانوا أحياناً يشجعون الشماليين في غاراتهم على سواحل منافسيهم . وحدث في عام ٨٥٩ أن اتهم هنكار كبير أساقفة ريمس شارل الأصلاح علناً بالإهمال في الدفاع عن فرنسا . وخلف شارل فيما بين ٨٧٧ و٨٨٨ ملوك أكثر منه ضعفاً - لويس الثالث ، وكارلومان ، وشارل البدين . وتعاونت أحداث الزمان والمنايا فتوحدت مملكة شارلمان مرة أخرى تحت حكم شارل البدين ، وأتيح للإمبراطورية المحتضرة فرصة أخرى للدفاع عن حياتها . ولكن أهل الشمال استولوا على نهجمين Nijmegen وأحرقوها في عام ٨٨٠ ، واتخذوا من كورتراي Courtrai ووغنت قلاعاً لهم حصينة ، وفي عام ٨٨٦ أحرقوا لياج Liège ، وكولوني ، وبن Bonn وپروم Prüm ، وآخن ؛ وفي عام ٨٨٢ استولوا على تريير Trier ، وقتلوا كبير أساقفتها الذي قاد المدافعين عنها ؛ وفي السنة نفسها استولوا على ريمس ، وأرغموا هنكار على أن يقاتل ويموت . وفي عام ٨٨٣ استولوا على أمين Amiens ، ولكنهم انسحبوا منها بعد أن أخذوا اثني عشر ألف رطل من الفضة من كارلومان . وفي عام ٨٨٥ استولوا على رون ، وساروا في النهر صعداً إلى باريس في سبعمائة سفينة عليها ثلاثون ألف رجل . وقاد حاكم المدينة الكونت أودو Odo أو أود Eudes ، وأسقفها جزلان Gozlin المدافعين عنها ، وقاوموا المغيرين مقاومة باسلة . وظلت باريس مضروباً عليها الحصار ثلاثة عشر شهراً هاجم المدافعون عنها المحاصرين اثنتي عشرة مرة ؛ وانتهى الأمر بأن أدى شارل البدين إلى الشماليين ٧٠٠٠ رطل من الفضة بدل أن يخف لإنقاذ المدينة ، وأذن لهم فوق ذلك أن يسيروا في نهر السين صعداً ويقضوا الشتاء في برغندية التي نهبها نهباً .

ترتضيه نفوسهم : ثم خلع شارل وتوفى عام ٨٨٨ ، واختير أودو ملكاً على فرنسا ، وصارت باريس بعد أن ثبتت قيمتها من الوجهة الحربية الفنية مقر الحكومة .

وحمل شارل الساذج الذى خلف أودو على العرش (٨٩٥ - ٩٢٣) إقليم السين والساون من المغيرين ، ولكنه لم يرفع يده ضد غازات الشماليين على بقية فرنسا ، ثم لم يكتف بهذا بل أسلم إلى رولف Rolf أورولو Rollo أحد زعماء النورمان فى عام ٩١١ إقليم رون ، وليزيو Lisenx ، وإفرو Evreux . وكان النورمان قد استولوا عليها من قبل . ووافق النورمان على أن يؤدوا عنها للملك ما يؤديه أمراء الإقطاع عن أملاكهم ، ولكنهم كانوا يسسخرون منه وهم يقومون بمراسم الولاء التقليدية . وارتضى ليو أن يُعمد ، وحذا رجاله حذوه ، ثم استقروا على مهل وأصبحوا زراعاً ومتحضرين . وهكذا بدأت نورمانديا بأن كانت ولاية فى فرنسا فتحها أهل الشمال .

ولقد وجد الملك الساذج حلاً لمشكلة باريس إن لم يكن لغيرها من المشاكل ؛ ذلك أن النورمان أنفسهم سيصدون بعد ذلك الوقت من يحاولون دخول السين من المغيرين . أما فى غير هذا الجزء من فرنسا فلم تنقطع غارات الشماليين ، فهبت تشارتر فى عام ٩١١ ، وأنجير Angers فى عام ٩١٩ ، ونهبت أكتين Aquitaine ، وأوفرني فى عام ٩٢٣ ، كما نهبت آرتوا وإقليم بوفيه فى ٩٢٤ . وفى هذا الوقت نفسه تقريباً دخل الجربورغندية فى عام ٩١٧ بعد أن خربوا جنوبى ألمانيا ، واجتازوا الحدود الفرنسية ، ثم اجتازوها راجعين دون أن يلقوا مقاومة ، ونهبوا الأديرة القريبة من ريمس وسان Sens وأحرقوها (٩٣٧) ، واخترقوا كأرجال الجراد الفتاك أكتين (٩٥١) وأحرقوا ضواحي كورترامى ، وليون ، وريمس (٩٥٤) ، ونهبوا برغندية على مهل . وأوشك صرح النظام الاجتماعى فى فرنسا أن ينهار تحت هذه الضربات المتكررة التى كالمهاه الشماليون والهون . وفى ذلك يقول أحد المهجاء الدينية المقدسة فى عام ٩٠٩ :

لقد أقفرت المدن من السكان ، وخربت الأديرة وأحرقت ، وأضحت البلاد في عزلة . . . وكما كان الناس الأولون يعيشون بغير قانون . . . فكذلك يفعل الآن كل إنسان ما يبدو حسناً في نظره غير آبه بالشرائع البشرية والدينية . . . فالأقوياء يظلمون الضعفاء ، والعالم مليء بالعنف والقسوة على الفقراء ، وأملاك الكنائس تنهب . . . ويلتهم الناس بعضهم بعضاً كما يفعل السمك في البحر (٤٧) .

وكان آخر الملوك الكارولنجيين - لويس الرابع ، ولوثير الرابع ، ولويس الخامس ملوكاً حسنى النية ، ولكنهم لم يكن لهم من القوة ما لا بد منه لإقامة نظام دائم من ذلك الخراب الشامل . ولما مات لويس الخامس ولم يكن له أبناء (٩٨٧) ، بحث أعيان فرنسا ورجال الدين فيها عن زعيم لهم من أسرة أخرى غير الكارولنجيين ؛ حتى وجدوا هذا الزعيم المنشود من نسل مركيز من نوستريا Neustria يحمل ذلك الاسم العظيم الدلالة وهو ربرت القوى Robert the Strong (المتوفى عام ٩٦٦) . وكان أودو متقذ باريس ابن هذا المركيز ؛ وكان هيو الأكبر Hugh the Great أحد أجداده (المتوفى عام ٩٥٦) قد حصل بالشراء أو الحرب على الإقليم المحصور بين نورمنديا ، والسين ، والوار كله تقريباً وكان فيه أميراً إقطاعياً ، واجتمع له فيه من الثروة والسلطان ما لم يجتمع للملوك . وورث هيو كابت Hugh Capet ابن هيو هذا جميع تلك الثروة وذاك السلطان ؛ وورث ، كما يلوح ، العزيمة التي كسبتهما . وعرض أدلبرو Adalbero كبير الأساقفة ، بإرشاد العالم الداهية جربرت ، أن يكون هيو كابت ملكاً على فرنسا . فاختير لهذا المنصب بالإجماع (٩٨٧) وبدأت بذلك الأسرة الكابيتية التي حكمت ابناً أو أباً أو حكم فروعها مملكة فرنسا إلى عهد الثورة الكبرى .

٤ - الآداب والفنون ٨١٤ - ١٠٦٦

لعلنا قد غالبنا في وصف ما أحدثته غارات الشماليين والمجر من أضرار ، ذلك أن حشدها كلها في حيز قليل توخياً للإيجاز يجعل صورة الحياة في تلك الأوقات قائمة فوق ما تستحق ، مع أنها لم تكن تخلو بلا ريب من فترات ساد فيها الأمن والسلام ؛ فقد ظلت الأديرة تشاد خلال هذا القرن التاسع الهيب ، وكثيراً ما كانت مراكز للصناعة الناشطة ، وازدادت مدينة رون قوة بفضل اتجارها مع بريطانيا رغم ما أصيبت به من غارات وحرائق ؛ وسيطرت كولوني ومينز على التجارة المارة بنهر الرين ؛ ونشأت في فلاندرز مراكز غنية صناعية وتجارية بمدن غنت ، وإيبرس Ypres ، وليل Lile ، ودويه ، وآراس Arras ، وتورناي ، Tournai ، ودينان Dinant ، وكهريه ، وليبيج ، وفلسين .

وأصيبت مكتبات الأديرة بخسائر فادحة في كنوزها القديمة من جراء هذه الغارات ، وما من شك في أن كثيراً من الكنائس التي أنشئت فيها مدارس عملاً بقرار شارلمان قد دمرت ، وإن كانت مكاتب قد بقيت في الأديرة أو الكنائس القائمة في فلدا ، ولورسن Lorson ، ورينشو Reichenau ، ومينز ، وترير ، وكولوني ، وليبيج ، ولأون Laon ، وريمس ، وكوربي Corbie ، وفليري Fleury ، وسانت دنيس ، وتور ، وبيبو Bobbio ، ومونتي كسينو ، وسانت جول . . . واشتهر دير البندكتيين في سانت جول بمن كان فيه من الكتاب ، كما اشتهر بملرسنته وكتبها ، وفيه كتب نكتر بلبولوس Notker Balbulus - الألكن - (٨٤٠ - ٩١٢) ترانيم بديعة ممتازة وسجل راهب سانت جول ، وفيه ترجم نكتر ليثو Notker Labeo - الغليظ الشفة - (٩٥٠ - ١٠٢٣) كتب بويثيوس ، وأرسطو وغيرها من الكتب القديمة

إلى اللغة الألمانية ؛ وأعانت هذه التراجم - وهي من أول ما كتب بالنبر
الألماني - على تثبيت تراكيب اللغة الجديدة وقواعدها .

وحتى في فرنسا الجريحة كانت مدارس الأديرة تضيء حلقة هذه
العصور المظلمة . فقد افتتح ريمى الأوكسيرى Remy of Auxerre مدرسة
عامة في باريس عام ٩٠٠ ؛ وأنشئت في القرن العاشر مدارس أخرى في
أوكسير وكوربي ، وريمس ، ولييج . وأسس الأسقف فلبر Fulbert
(٩٦٠ - ١٠٢٨) بمدينة تشارتر حوالي ١٠٠٦ مدرسة أصبحت أشهر
مدارس فرنسا كلها قبل أيام أبلار ؛ ففيها وضع سقراط المجل - كما كان
تلاميذه يسمونه - قواعد تدريس العلوم ، والطب ، والآداب القديمة ،
بالإضافة إلى علوم الدين ، والكتاب المقدس ، والطقوس الدينية . وكان
فلبر هذا رجلاً كريم الطبع ، عظيم الإخلاص ، صبوراً صبر أولى العزم
من الرسل ، محسناً متصدقاً إلى أقصى حد . ولقد تخرج في مدرسته - قبل ختام
القرن الحادى عشر - علماء أمثال جون السلزبورى John of Salisbury ،
ووليم الكنشى William of Conches ، وبرنجار التورى Berengar of
Tours ، وجلبرت ده لاپريه Gilbert de la Porrée . وفي هذه الأثناء
وصلت مدرسة القصر التى أنشأها شارلمان أوج مجدها في كهبينى
Compiègne تارة وفي لأون تارة أخرى بفضل ما حباها به شارل الأصغر
من عزن وتشجيع .

فقد استدعى شارل إلى مدرسة القصر في عام ٨٤٣ علماء أيرلنديين وإنجليز
في مختلف العلوم ، كان من بينهم عالم من أعظم العقول المبتكرة وأعظمها جرأة
في العصور الوسطى ، رجل يبعث وجوده في ذلك الوقت الشك في صواب استبقاء
اسم « العصور المظلمة » حتى على القرن التاسع نفسه ، يسله غيره من القرون -

ويكشف اسمه عن أصله كشفاً مضاهفاً ، فهو جوهان اسكوتس إريوجينا
Johannes Scotus Eriugina أى جون الأيرلندى المولود فى إرين Erin .
وسنسّميه نحن إرجينا Erigena وكفى . ويبدو أنه لم يكن من رجال الدين ،
ولكنه كان رجلاً متبحراً فى العلوم ، يجيد اللغة اليونانية ، مغرماً بأفلاطون.
والآداب القديمة ، حلّو الفكاهة إلى حد ما . ومحدثنا إحدى القصص -
التي يبدو من سياقها كله أنها من مخترعات الأدباء - أن شارل الأضلع ،
كان يطعم معه فى يوم من الأيام فسأله : ما الفارق بين الأبله والأيرلندى
quid distat inter sottum et Scottum ؟ فأجابه جون - كما تروى
القصة - : « المنضدة » (١٨) . ولكن شارل رغم هذا كان يحبه حبا جما ،
وكان يشهد محاضراته ، وأكبر الظن أنه كان يستظرف لإخاذه . ويفسر
جون العشاء الزباني فى كتابه عن القربان المقدس بأنه عمل رمزى ،
ويتضمن هذا ارتيابه فى وجود المسيح بحق فى الخبز والخمر المقدسين .
ولما أخذ الراهب الألماني جتسشولك Gottschalk ينادى بمبدأ الجبرية المطلقة
وينكر تبعاً لذلك مبدأ حرية الإرادة فى الإنسان ، طلب هنكار كبير
الأساقفة إلى إرجينا أن يرد عليه كتابة . فأجابه هذا إلى ما طلب وكتب
رسالته المسماة الجبرية الإلهية De Divina praedestinatione (حوالى عام
٨٥١) . وقد بدأها بإطراء الفلسفة لإطراء عظيمها فقال : « من يشأ أن
يبحث جاداً عن علل الأشياء جميعها ويحاول كشفها ، يجد جميع الوسائل
الموصللة إلى العقيدة الصالحة الكاملة فى العلم والتدريب اللذين يطلق عليهما
اليونان اسم الفلسفة » . وينكر الكتاب فى واقع الأمر مبدأ الجبرية ، ويقول
الإرادة حرة عند الله وعند الإنسان ، وإن الله لا يعرف الشيء ، ولو
عرفه لكان هو سببه . وكان رد إرجينا أكثر إلخاداً من أقوال جتسشولك ،
وأبكره مجلسان من مجالس الكنيسة فى عامى ٨٥٥ و ٨٥٩ ، وأودع
جتسشولك فى دير قضى فيه بقية حياته ، أما إرجينا فقد حماه الملك .

وكان ميخائيل الألكن إمبراطور بيزنطية قد بعث إلى لويس التقي في عام ٨٢٤ مخطوطاً يونانياً لكتاب يسمى الحكومة الكسوتية السماوية . ويعتقد المسيحيون المتدينون أن مؤلفه هو ديونيشيوس « الأزبواجي » Disnysius the "Areopagite" . وأحال لويس التقي المخطوط إلى دير سانت دنيس ، ولكن أحداً ممن فيه لم يستطع ترجمة لغته اليونانية ، فقام إرجينا بهذه المهمة لإجابة لطلب الملك . وتأثر بالترجمة أعظم التأثر ، وأعاد الكتاب إلى المسيحية غير الرسمية الصورة التي ترسمها الأفلاطونية الجديدة للكون المتولد أو المنبعث من الله في مراحل مختلفة أو درجات من الكمال آخذة في النقصان ، والذي يعود ببطء وبتدرجات متفاوتة إلى الله مرة أخرى .

وأصبحت هذه هي الفكرة الرئيسية التي يدور حولها أعظم مؤلفات جون التقسيم الطبيعي (٨٦٧) . ففي هذا الكتاب نجد بين كثير من السخف ، وقبل أبلار بقرنين من الزمان ، إخضاعاً جريئاً لعالم الدين والوحي إلى العقل ، ومحاولة للتوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية ، وفيه يقرّ جون بصحة الكتاب المقدس ، ولكنه يقول إنه لما كان معناه في كثير من أجزائه غامضاً ، فإن الواجب يقضى بتفسيره حسبما يملية العقل - ويكون ذلك عادة بفهم نصوصه على أنها رموز أو استعارات . ويقول إرجينا في هذا : « إن السلطان يُستمد أحياناً من العقل ولكن العقل لا يُستمد أبداً من السلطان ، ذلك بأن كل سلطان لا يرضى عنه العقل السليم يبدو ضعيفاً ، ولكن العقل السليم لا يحتاج إلى تأييد السلطان أياً كان نوعه لأنه يستند إلى قوته » (٤٩) . « ويجب ألا نحتج بآراء آباء الكنيسة ... إلا إذا كان لا بد لنا من الاحتجاج بآرائهم لتقوية حججنا أمام الناس الذين لا يحسنون الاستدلال ، ولهذا يخضعون للسلطان للعقل » (٥٠) . فها هو ذا عصر العقل يتحرك في أرحام عصر الإيمان .

ويعرف جون الطبيعة بأنها : « اسم عام يطلق على جميع الأشياء التي

تكون وغير التي تكون» أى على جميع الأجسام ، والعمليات ، والمبادئ ، والعلل ، والأفكار . وهو يقسم الطبيعة إلى أربعة أنواع من الكائنات :

(١) ذاك الذى يَخْلُق ولكنه لا يُخْلَق - أى الله . (٢) ذلك الذى يَخْلُق ويَخْلُق - أى العلل الأولى ، والمبادئ ، والنماذج الأولى ، والأفكار الأفلاطونية ، والكلمة ، وهى التى يتكون من عملياتها عالم الأشياء المفردة ، (٣) ذلك الذى يَخْلُق ولا يَخْلُق - أى عالم الأشياء المفردة السالفة الذكر ، (٤) ذلك الذى لا يَخْلُق ولا يُخْلَق - أى الله بوصفه الغاية النهائية التى تستوعب كل شىء . فالله هو كل شىء كائن بحق ، لأنه يكون الأشياء جميعها ويتكون من الأشياء جميعها . وليس ثمة عملية خلق فى وقت بذاته ، لأن هذا القول يتضمن تغيراً فى الله . « فإذا سمعنا أن الله قد أوجد كل شىء ، فيجب ألا نفهم من هذا القول إلا أن الله حال فى كل شىء - أى يوجد بوصفه جوهر كل الأشياء » (٥١) . « والله نفسه لا يدركه عقل من العقول ، وليس الجوهر المكنون لكل شىء والذى خلقه الله مما يمكن إدراكه ، وكل الذى نراه هو الأعراض لا الجواهر » (٥٢) - أى صور الأشياء التى تدركها الحواس والعقول لاحقاً تلك التى لا تعرف ولا يمكن معرفتها - كما يقول كانت Kant فيما بعد . وليست الخصائص المحسوسة فى الأشياء متأصلة فى الأشياء نفسها ، وإنما تتكون من الأشكال التى ندركها بها . « فإذا قيل لنا إن الله يرغب ، ويحب ، ويختار ، ويرى ، ويسمع ... فيجب ألا نفكر إلا فى أن حقيقته وقوته اللتين لا يستطيع وصفهما يُعبّر عنهما بمعان تتفق معنا فى طبيعتها » - أى موافقة لطبيعتنا ، « حتى لا يجد المسيحى الحق التى ما يقوله عن الخالق ، فلا يقول شيئاً عنه ليعلم به النفوس الساذجة » (٥٣) . ولمثل هذا الغرض لا الشىء سواه نستطيع أن نتحدث عن الله كأنه ذكر أو أنثى ، وليس « هو » هذا ولا ذاك (٥٤) . فإذا فهمنا لفظ « الأب » بمعنى المادة الخلاقة أو جوهر الأشياء جميعها ، و « الابن »

على أنه الحكمة الإلهية التي تتكون أو تتحكم بمقتضاها الأشياء كلها ؛ والروح على أنه الحياة أو حيوية الخلق ، إذا فهمنا هذه الثلاثة على هذا النحو بجاز لنا أن نفكر في الله على أنه ثالث . وليست الجنة والنار مكانين ، بل هما أحوال النفس ، فالنار هي الشقاء المنبعث من الخطيئة ، والجنة هي السعادة المنبعثة من الفضيلة والنشوة المنبعثة من الرؤيا الإلهية (إدراك الألوهية) التي تنكشف من الأشياء جميعها للنفس التقيّة (٥٥) . وليست جنة عدن مكاناً على الأرض ، بل هي حالة كهذه من حالات النفس (٥٦) . والأشياء جميعها خالدة : فللحيوانات أيضاً ، كما للآدميين ، نفوس تعود بعد الموت إلى الله أو إلى الروح الخالق الذي انبعث منه (٥٧) . والتاريخ كله إن هو إلا فيض من عملية الخلق إلى الخارج عن طريق الانبعاث ، وموجة مدية لا تغلب نحو الداخل تجذب الأشياء جميعها في آخر الأمر إلى الله :

لقد وجدت فاسفات شر من هذه الفلسفة وفي عصور النور ، ولكن الكنيسة حسبها تموج بالإلحاد والزندقة . ولهذا طلب نقولاس الأول إلى شارل الأصيل في عام ٨٦٥ إما أن يبعث بچون إلى رومة ليحاكم أو أن يفصله من مدرسة القصر . « حتى لا يستمر في تسميم الذين يسعون لطلب الخبز » (٥٨) . ولسنا نعرف نتيجة هذا الطلب ، غير أن إنجليزيا من أهل مالزبري Malmesbury يروي « أن چوهان اسكوتس جاء إلى إنجلترا وإلى ديرنا ، كما تقول الأخبار ؛ وأن الأولاد الذين يعلمهم كانوا يَشْكُونَهُ بأقلامهم الحديدية » ، وأنه مات من أثر هذا العمل . وأكبر الظن أن هذه النصبة حلم من أحلام تلسيد كان يتمنى تحقيقه . ولقد تأثر بارجينا فلاسفة من أمثال جربرت ، وأبلار ، وجلبرت ده لاپوربه على غير علم منهم ، غير أنه بوجه عام قد نسي في غمار القوضى الضاربة أطنابها في ذلك العصر المظلم . ولما أن رفع ستار النسيان عن كتابه في القرن الثالث عشر حكم مجلس سنس Sens بتحريمه (١٢٢٥) وأمر البابا هونوريوس Honorius الثالث

بأن ترسل نسخة^٢ جميعها إلى رومة وأن تحرق فيها .

ووقف الفن الفرنسى فى هذه الأوقات المضطربة جامداً لا يتحرك ، فقد ظل الفرنسيون بشيدون كنائسهم على نظام الباسلغا رغم ما ضربه لهم شارلمان من أمثلة . وفى عام ٩٩٦ أصبح أحد الرهبان والمهندسين الإيطاليين ويدعى وليم^٣ من أبناء فلپيانو Volpiano رئيساً لدير فيكامب Fécamp النورمانى . وقد جاء معه من إيطاليا بكثير من أساليب الطراز النورمانى والرومانسى ، ويبدو أن أحد تلاميذه هو الذى بنى دير جومييج Jumiéges الكنسى (١٠٤٥ - ١٠٦٧) ، وفى عام ١٠٤٢ دخل رجل إيطالى آخر يدعى لانفرانك Lanfranc الدير النورمانى فى بك Bec ، وسرعان ما جعله مركزاً علمياً نشطاً ، يهرع إليه طلاب بلغوا من الكثرة ما اضطروا القائمين عليه إلى إضافة أبنية جديدة له . وقد خطط لانفرانك هذه الأبنية ، ولعله قد استعان على تخطيطها بمن هم أكثر منه خبرة بهذا العمل . ولم يبق حجر واحد من حجارة هذا البناء ، ولكن دير الرجال فى جائن Abbaye aux Hommes at Gaen (١٠٧٧ - ١٠٨١) لا يزال قائماً إلى اليوم يشهد بقوة الطراز الرومانسى الذى تطور فى نورماندى على أيدي لانفرانك ومن جاء بعده .

وشيدت فى القرن الحادى عشر كنائس جديدة فى جميع أنحاء فرنسا وفلاندرز ، زينها الفنانون بصور الجدران وبنقوش السيفساء والتماثيل . وكان شارلمان قد أمر بأن يطلى داخل الكنائس ويلون ليستفيد من ذلك المؤمنون ؛ وزينت قصور آخن وأنجلهم بالمظلمات ، وما من شك فى أن كثيراً من الكنائس قد حذت حذو هذه القصور . وقد دمرت آخر قطع من مظلمات آخن فى عام ١٩٤٤ ، ولكن نقوشاً شبيهة بما كان على جدرانها لا تزال باقية فى كنيسة سان جرمان St. Germain فى أوكسير . ولا تختلف هذه النقوش فى شكلها عن النقوش التى تزدان بها مخطوطات ذلك العصر ولا عن طرازها أو حجمها .

وقد كتب رهبان مدينة تور في عهد شارل الأصغر نسخة ضخمة ملونة من الكتاب المقدس وأهدوها إلى الملك ؛ ولا تزال هذه النسخة محفوظة في قسم المخطوطات اللاتينية بال مكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١ . وأجل من هذا المخطوط إنجيل « لوثير » الذي كتبه في ذلك الوقت رهبان تور أيضاً . كذلك أخرج رهبان ريمس في هذا القرن التاسع كتاب تراتيل « أوترخت Utrecht » الذائعة الصيت - ويتألف هذا المخطوط من ١٠٨ ورقة من الجلد الرقيق ويحتوي على مزامير داود وعقيدة الرسل مزدانة بكثير من صور الحيوانات على اختلاف أنواعها وبغدد لا يحصى من الأدوات وصور المهن والأعمال . وتصطبغ هذه الصور الحية بصبغة من الواقعية الشديدة بدلت فن التصوير الدقيق الذي كان من قبل جامداً مستمسكا بالتقاليد .

٥ - نشأة الأدواق : ٩٨٧ - ١٠٦٦

وبرزت فرنسا التي كان يحكمها هيوكابت (٩٨٧ - ٩٩٦) فأصبحت وقتئذ أمة منفصلة عن غيرها ، ولم تعد تعترف بسيادة الإمبراطورية الرومانية المقدسة عليها ، ولم تعد قط إلى أوروبا الغربية الوحيدة التي يوهبها إياها شارلمان اللهم إلا فترة قصيرة في أيام نابليون وهتلر . ولكن فرنسا التي كانت في أيام هيوكابت لم تكن فرنسا القائمة في أيامنا هذه ؛ فقد كانت أكتين وبرغندي دوقيتين مستقلتين بالفعل ، وظلت لورين بعدئذ سبعة قرون جزءاً من ألمانيا . وكانت فرنسا في ذلك الوقت موطناً لأجناس مختلفة ولغات متعددة : فكانت فرنسا الشمالية فلمنكية أكثر منها فرنسية ، وكان في دمها عنصر ألماني كبير ؛ وكان سكان نورماندى من الشماليين ، وكانت بريطانيا كلتية غير ذات صلة بيسائر البلاد ، يسيطر عليها لاجثون من بريطانيا ؛ أما پروفانس فكانت في جنس أهلها ولغتهم « ولاية » رومانية غالية . كذلك كانت فرنسا المجاورة

لجبال البرانس قوطية ، وقاتالونيا الخاضعة من الوجهة الرسمية للملكية الفرنسية قوطية أيضاً كما يدل على ذلك اسمها « قاتالونيا » . وكان نهر اللوار يقسم فرنسا الى إقليمين ، مختلفين في الثقافات واللغات . وكان العمل الذي اضطلعت به الملكية الفرنسية هو مزج هذه الأجناس واللغات المختلفة ، لينشئوا من أكثر من عشرة شعوب أمة موحدة ؛ ولقد تطلب هذا العمل ثمانمائة عام .

وأراد هيوكابت أن يهيئ الظروف لوراثة للعرش منظمة ، فتزوج ابنة ربرت ملكا معه في السنة الأولى من حكمه . ويُعد « ربرت الثاني » (٩٩٦ - ١٠٣١) من الملوك الأوساط غير المبرزين^(٦٠) ، ولعل سبب اشتهاره بهذه المكانة الوسطى أنه كان يتجنب مجده الحروب . مثال ذلك أنه لما قام النزاع بينه وبين هنرى الثانى إمبراطور ألمانيا بشأن الحدود عقد اجتماعاً معه وتبادل وإياه الهدايا ، ووصل معه إلى اتفاق سلمى . وكان ربرت رعوفاً بالضعفاء والفقراء يحميهم . قدر استطاعته من الأقوياء غير ذوى الضمير ، ومثله في هذا كمثل لويس التاسع ؛ وهنرى الرابع ، ولويس السادس عشر . وقد أغضب الكنيسة بزواجه من برثا Bertha ابنة عمه (٩٩٨) ، وصبر على الحرمان وعلى سخرية الذين كانوا يعدونها ساحرة ، ولكنه انفصل عنها آخر الأمر وعاش بعدئذ بائساً حزيناً إلى آخر أيام حياته ؛ ويحدثنا المؤرخون أن الناس حزنوا عليه أشد الحزن عند مماته^(٦١) ، وشبت نار حرب للوراثة بين ولديه ، انتصر فيها هنرى الأول (١٠٣١ - ١٠٦٠) أكبرهما ، ولكنه لم ينل النصر إلا بمعونة ربرت دوق نورماندى . ولما انتهى هذا الصراع الطويل (١٠٣١ -

١٠٣٩) كانت المملكة قد وصلت إلى درجة من الفقر في المال والرجال لم تقو معها على منع تقطع أوصالها بفعل النبلاء الأقوياء المستقلين . وانقسمت فرنسا حوالى عام ١٠٠٠ م ، بفعل كبار الملاك الذين كانوا يضمون إليهم تدريجياً ما يحيط بهم من الأراضى ، إلى سبع إمارات كبرى يحكم كلا منها كونت أو دوق . وهذه الأقسام هي أكتين ، وطلوثة ، وبرغنديية ، وأنجو ،

وشبانيا ، وفلاندرز ، ونورمندية . وكان هؤلاء الأذواق أو الكونتات في جميع الحالات تقريباً ورثة زعماء أو قواد منحهم الملوك المروفتنجيون أو الكارولنجيون ضياعاً جزاء لهم على خدماتهم الحربية أو الإدارية . وكان الملك قد أصبح يعتمد على هؤلاء الكبراء في تجييش الجيوش وحماية ولايات الحدود ؛ ولم يكن بعد عام ٨٨٨ يسن القوانين للمملكة جميعها ، أو يجبي منها الضرائب ؛ بل كان الأذواق والكونتات يسنون القوانين ، ويجبون الضرائب ، ويشنون الحروب ، ويفصلون في القضايا ويعاقبون ، ويكادون . يكونون سادة مستقلين في ضياعهم ، لا يدينون للملك إلا بولاء اسمي ، ولا يؤدون له إلا خدمة عسكرية ذات نطاق محدود . واقتصرت سلطة الملك في وضع القوانين ، والفصل في القضايا ، وفي الشؤون المالية ، على ضياعه الملكة الخاصة ، وهي التي سميت فيما بعد جزيرة فرنسا Ile de France وتشمل إقليمي الساعون والسين الأوسط الممتدين من أورليان إلى بوفيه ومن تشارتر إلى ريمس .

وتقدمت نورمندية دون سائر الدوقيات المستقلة استقلالاً نسبياً بأن نمت نمواً سريعاً إلى أقصى حدود السرعة في قوتها وسلطانها ، فلم يمض عليها قرن واحد بعد تسليمها لأهل الشمال حتى أصبحت أكثر ولايات فرنسا مغامرة ومخاطرة - ولعل السبب في ذلك هو قربها من البحر وموقعها بين إنجلترا وباريس . وكان أهل الشمال وقتئذ مسيحيين متحمسين للمسيحية ، لهم أديرة ومدارس أديرة ، وكانوا يتناسلون باستهتار ما لبث أن دفع شباب النورمنديين إلى إنشاء ممالك جديدة من الولايات القديمة . ذلك أن بحارة الشمال كانوا حكاماً أقوياء لا يبالون بالمبادئ الأخلاقية ولا يراعون في الوصول إلى أغراضهم ضميراً ، ولكنهم قادرون على أن يحكموا بيد من حديد شعباً مشاكساً ، مضطرباً ، مكوناً من الغالين والفرنجة ، والشمالين . ولم يكن ربرت الأول (١٠٢٨ - ١٠٣٥) قد أصبح بعد دوقاً لنورمندية حين وقعت عينه في عام ١٠٢٦ على هارلت Harlette ابنة

جباغ في فاليز Falaise ؛ فلما رآها أصبحت عشيقته العزيزة جبرياً على إحبدي السنن الدنمرقية القديمة ، وسرعان ما أنجبت له ولدأ يعرف عند معاصريه باسم وليم النغل William the Bastard وعندنا نحن باسم وليم الفاتح William the Conqueror . ولما اشتد على ربرت وخز ضميره لكثرة ما ارتكب من الذنوب غادر نورمنديا في عام ١٠٣٥ ليحج حجة التوبة إلى أورشليم ، واستدعى قبل سفره أكابر الأعيان ورجال الدين وقال لهم :

« أقسم بدينى ألى ان أترككم دون أن أولى عليكم سيداً ؛ إن لى أبنا نغلا سيكبر بفضل الله ، وإنى لقوى الرجاء فى أن يكون من أحسن الناس صفات ، ورجائى أن تقبلوه سيداً عليكم ؛ وليس يهكم قط أنه لم يولد من زواج شرعى فهذا لن يؤثر فى قدرته على الحكم . . . أو فى توزيع العدالة بين الناس . وهأنذا أعينته وارثاً لعرشى ، وأخلع عليه من هذه اللحظة دوقية نورمنديا بأكملها » (٦٦) .

وتوفى ربرت فى طريقه إلى أورشليم ، وحكم الأشراف وقتاً ما بالنيابة عن ابنه . ولما شبت فتنة فى البلاد تحاول خلعها بأحمدها بوحشية ممزوجة بالكرامة ، فقد كان رجلا يجمع بين الدهاء والبسالة ، بعيد النظر فى وضعه خطط المستقبل ، ملاكاً لأصدقائه ، وشيطاناً على أعدائه . وكان يسمع تهكم الناس على مولده ويقبل هذا التهكم بصدر رحب ، وكان من حين إلى حين يمشى بعض ما يكتب باسم وليم النغل Guiielmus Nothus ؛ ولكنه حين حاصر ألسون Alencon وعلق المحاصرون الجلود على جدرانهم إشارة إلى حرفة جده قطع أيدى من وقع فى يديه من الأسرى وأرجلهم ، وفقاً أعينهم ، وقذف المدينة من بجانبه بهذه الأعضاء . وأعجبت نورمنديا بوحشيته وحكمه الصارم ، وعمها الرخاء . فقد حد وليم من استغلال الأشراف للفلاحين ، وأرضى أولئك الأشراف بالعطايا السنية ، وكان يعنى عناية الأتقياء الصالحين بواجباته الدينية ، وجلل أباه العار بإخلاصه لزوجته إخلاصاً لم يسبق

له مثيل ، وقد أولع بحب ماتلده Matilda الجميلة ابنة بلدوين Baldwin كونت فلاندرز ؛ ولم يوثر فيه أن لها والدين وزوجا لا يزال على قيد الحياة وإن كان منفصلا عنها . غير أنها ردت وليم وكالت له الإهانات وقالت « إنها تفضل أن تكون راهبة محجبة على أن تزوج بنغل » (٦٣) ؛ ولكنه لم يزرع عن جنبها ، ونالها آخر الأمر وتزوجها رغم تشهير رجال الدين ؛ وترتب على ذلك أن جرّد الأسقف ماجر Malger والأب لانفرانك رئيس الدير لأنهما ذمّا هذا الزواج ، وحرق في سورة غضبه جزءاً من دير بك . ثم أفتع لانفرانك البابا نقولاس الثاني بأن يصادق على الزواج ، وأراد وليم أن يكفر عما فرط منه فبنى في جاتن دير الرجال النورمندى اللائع الصيت ، وبفضل هذا الزواج ارتبط وليم بكونت فلاندرز ؛ وكان قد وقع قبل ذلك الوقت في عام ١٠٤٨ اتفاقاً مع ملك فرنسا . وبعد أن حمى جناحيه بهاتين الوسيلتين وزينهما شرع وهوى التاسعة والثلاثين من عمره في فتح إنجلترا .

الباب العشرون

نهضة الشمال

١٠٦٦ - ٥٦٦

الفصل الأول

إنجلترا (٥٧٧ - ١٠٦٦)

١ - ألفرد والدمرقيون (٥٧٧ - ١٠١٦)

لم يلق فتح الإنجليز والسكسون والبحوث لإنجلترا بعد واقعة دورهام. Deorham (٥٧٧) إلا مقاومة يسيرة ، وما لبث الغزاة أن اقتسموا البلاد فيما بينهم ؛ فأقام البحوث مملكة في كنت Kent ، وأسس الإنجليز ثلاث ممالك في مرسية ، ونورثمبرلاند ، وأنجليا الشرقية East Anglia ؛ وأنشأ السكسون ثلاث ممالك أخرى في وسكس Wessex ، وإسكس Essex ، وسكس Sussex أي في سكسونيا الغربية ، والشرقية ، والجنوبية . وكانت هذه الممالك السبع الصغيرة وممالك أخرى أصغر منها هي التي تكون فيها « تاريخ إنجلترا » حتى جمع أجبرت Egbert ملك سكس معظمها بالقوة أو بالختل في مملكة واحدة تحت حكمه .

وقبل أن ينشئ ملك السكسون هذه المملكة الجديدة - مملكة الإنجليز -

بدأت غزوات الدنمركيين التي اجتاحت البلاد من بحر إلى بحر وهددت المسيحية الناشئة فيها بإحلال وثنية همجية جاهلة محلها ؛ وفي ذلك يقول السجل الإنجليزي السكسوني : « جاءت في عام ٧٨٧ ثلاث سفن إلى سواحل سكسونيا الغربية ... وقتلت الأهلين - وكانت هذه أولى سفن الدنمركيين التي جاءت. تطلب أرض شعب الإنجليز » . وأغار على نورثمبرلند Northumberland في عام ٧٩٣ حملة دنمركية أخرى ، وخربت دير لندسفران Lindisfarne الشهير وذبحت رهبانه . وفي عام ٧٩٤ دخل الدنمركيون نهر وير Wear ، ونهبوا ويرموث Wearmouth وجررو Jarrow حيث كان يكدح بك Bec العالم قبل خمسين سنة من ذلك الوقت . وفي عام ٨٣٨ هاجم المغيرون إنجلترا الشرقية East Anglia وكنت Kent ؛ وفي عام ٨٣٩ رابط أسطول للقراصنة مؤلف من ٣٥٠ سفينة في نهر التاميز ، بينما كان بحارته ينهبون كنتربري Canterbury واندن . وفي عام ٨٦٧ - فتحت قوة من الدنمركيين والسويديين مقاطعة نورثمبرلند ، وقتلت آلافاً من « الإنجليز » ، وخربت أديرتها ، وأتلفت ما فيها من دور الكتب أو شنتها . وخيمت الفاقة والجهالة على مدينة يورك وما حولها ، وهى البلدة التي حبت شارلمان بألكوين ؛ ولم يحل عام ٨٧١ حتى كان معظم إنجلترا الممتد في شمال نهر التاميز خاضعاً للمغيرين . واتجه جيش دنمركى بقيادة جثرم Guthrum نحو الجنوب في ذلك العام نفسه ليهاجم ردنج Reading عاصمة وسكس ؛ والتقى لائلرد Ethelfred مليكها وأخوه الأصغر ألفرد بالدنمركيين عند آشدون Ashdown وهزموا المغيرين ؛ ولكن لائلرد جرح جرحاً مميتاً في معركة ثانية عند مرتون Merton وولى الإنجليز الأديار .

وجلس ألفرد على عرش سكسونيا وهو في الثانية والعشرين من عمره (٨٧١) ويصفه أسر Asser بأنه كان وقتئذ أمياً illiteratus ؛ وقد يكون معنى هذا اللفظ أنه يجهل القراءة والكتابة أو أنه لا يه ف لانه اللاتينية ! ويبدو أنه كان مصاباً (١٨ - ج ٣ - محلد ٤)

بالصرع ، وأنه أصيب بنوبة من نوبات الداء في يوم زفافه ؛ ولكنه كان صياداً قوياً ، وسيمّ الطلعة ، رشيقاً ، يفوق إخوته في الحكمة والمهارة الحربية ؛ فلما مضى شهر على تنويجه ، زحف بجيشه الصغير على الدنمركيين الذين كانوا عند Wilton ولكن هزم فيها هزيمة منكرة اضطرتّه إلى شراء الصلح من عدوه لينقل بذلك عرشه ؛ غير أنه انتصر في معركة حاسمة عند إثندون (Edthundun إدنجن) الحالية) في عام ٨٧٨ اجتاز بعدها نصف الجيش الدنمركي القناة الإنجليزية ليغير على فرنسا المستضعفة ؛ أما بقية الجيش فقد وافق بمقتضى معاهدة ودمور Wedmore . على ألا يتجاوز رجاله شمالي إنجلترا الشرقي في البلاد التي سميت فيما بعد دين لو Danelaw .

ويقول أسير وهو كاتب لا يوثق كل الثقة بأقواله إن ألفرد زحف بجيشه على أنجليا الشرقية « يقصد منها » ، وفتح البلاد ، ونادى بنفسه ملكاً عليها . وعلى مرسيّة بالإضافة إلى وسكس ، ولعله كان يقصد بهذا الزحف أن يوحد إنجلترا لكي يقاوم بها الدنمركيين . فلما تم له ذلك وجه عنايته — كأنه شارلمان صغير — إلى شئون الحكم وإعادة تنظيم البلاد . فنظم الجيش تنظيمًا جديدًا ، وأنشأ عمارة بحرية ، ووضع قانوناً موحداً للملكة الثلاث ، وأصلح نظام القضاء ، وسن من القوانين ما يكفل حماية الفقراء ، وأنشأ مدناً وبلداتاً جديدة ؛ وأعاد بناء القديمة ، وشاد « بالحجارة والخشب أمهات وغرفاً ملكية » ، لموظفي حكومته الآخذين في الازدياد (٢) . وقد خصص جزءاً من ثمانية أجزاء من إيرادات الدولة لإعانة الفقراء ، وجزءاً آخر مثله للتعليم . وأنشأ في رديج عاصمة ملكه مدرسة في قصره ، وجاد بالمال بسخاء على أعمال التعليم والدين التي تقوم بها الكنائس والأديرة . وكان يحزنه ويقض مضجعه أن يعود بذاكرته إلى أيام صباه حين كانت « الكنائس خاصة بالكنوز والكتب . . . قبل أن تخرب وتحرق » بفعل الدنمركيين ؛ أما الآن : « فقد انحط التعليم بين الإنجليز انحطاطاً كانت نتيجته .

أن عدداً قليلاً جداً منهم . . . هم الذين يستطيعون فهم طقوس دينهم باللغة الإنجليزية ، أو ترجمة شيء منها إلى اللاتينية»^(٣) . وقد بعث إلى البلاد الخارجية في طلب العلماء - بعث في طلب الأسقف أسر Asser من ويلز ، وإرچينا Erigena من فرنسا ، وكثيرين غيرهم - ليأتوا ويعلموا شعبه ويعلموه هو نفسه . وكان يؤسفه أنه لم يجد من قبل إلا قليلاً من الوقت يخصصه للقراءة ، ولهذا فقد أقبل الآن على الدراسات الدينية والعلمية لإقبال الرهبان . وقد ظل يلاقى صعوبة في القراءة ، وإكته كان « يأمر رجالاً يقرأون له ليلاً ونهاراً » . أن يكون هو أول من أدرك ما للغات القومية من خطر متزايد قبل أن يدركه أحد وكاد غيره من الأوربيين ، فعمل على أن تترجم بعض الكتب الأساسية الهامة إلى اللغة الإنجليزية ، وجد هو نفسه في ترجمة كتاب *ساوى الفيلسوف The Consolation of Philosophy* لبوثيوس Boetius ، وكتاب *العنايم بالرعى Pastoral Care* لجريجورى ، وكتاب *التاريخ العام Universe History* لأوروسىوس Orosius و*تاريخ إنجلترا الكهنسي Ecclesiastical History of England* لبيد Bede ؛ وعمل ما عمله شارلمان فجمع أغاني شعبه ، وعلّمها أولاده ؛ وشارك المغنين في بلاطه في إنشادها .

ووصلت غزوة دنمرقية جديدة إلى كنت في عام ٨٩٤ ؛ وبعث دنمرقيو والدين لوالى الغزاة بالمدد ؛ وعقد الوطنيون أهل ويلز والكلت ، الذين لم يكن الإنجليز والسكسون قد تغلبوا عليهم بعد ، حلفاً مع الدنمرقيين . وانقض إدورد ابن ألفرد على معسكر القراصنة ودمره ، وشتت أسطول ألفرد الجليد شمل الأسطول الدنمرقي (٨٩٩) وتوفى الملك بعد عامين من هذه الواقعة ، ولم تكن سنة قد تجاوزت الثانية والخمسين . وليس في وسعنا أن نوازنه برجل جبار مثل شارلمان لأن الرقعة التي كانت مسرحاً لمغامراته رقعة ضيقة ، وإكته ضرب

للأمة الإنجليزية بصفاته الأخلاقية - تقواه ، واستقامته الخالية من التباهي ، واعتداله ، وجلده ، وإخلاصه لشعبه ، وشغفه بالاستزادة من التعليم - ضرب لها بهذه الصفات مثلاً ، وبعث فيها روحاً ، تلقتها بأعظم الشكر ونسيتها بعد قليل . وقد أعجب به فلتر إعجاباً لعله كان مسرفاً فيه إذ قال : « لست أظن أنه كان في العالم كله رجل أجدر باحترام الخلف من ألفرد الأكبر » (٤) .

وواصل الإسكنديناويون هجومهم على إنجلترا في أواخر القرن العاشر ، فأغارت قوة من الشيكنج (القراصنة النرويجيين) بقيادة أولاف تريجفسون Olaf Tryggvesson على سواحل إنجلترا في عام ٩٩١ . وعجز الإنجليز بقيادة الملك إثلرد (٩٧٨ - ١٠١٣) (الملقب بردلس Redeless أى غير المتصح لأنه أبى أن يعمل بمشورة أعيان البلاد) فنصح الغزاة برشا سخية متتابعة ١٠ر٠٠٠ ، ١٦ر٠٠٠ ، ٢٤ر٠٠٠ ، ٣٦ر٠٠٠ ، ٤٨ر٠٠٠ رطل من الفضة جمعتها دينجلد Danegeld الخرب الوقح من أول ضريبة عامة فرضت على إنجلترا . وسعى إثلرد لكسب المعونة الأجنبية فشرع يفاوض نورمندي في عقد حلف معه ، وتزوج إماما Emma ابنة رتشارد الأول دوق نورمندي ، ونشأت من هذا الزواج أحداث خطيرة . وادعى إثلرد أن الدنمركيين يأتمرون به ليقتلوه ، ويقضوا على برلمان الأمة الويتنأجور Witenagemor فأمر بقتل كافة من في الجزيرة من الدنمركيين أينما وجدوا (١٠٠٢) . ولسنا نعلم إلى أى حد نفذ هذا الأمر بحذافيره ، وأكبر الظن أن جميع من كانوا في إنجلترا من الذكور القادرين على حمل السلاح قد قتلوا هم وبعض النساء ، وكان من بين من قتلن منهن أخت سوين Sweyn ملك الدنمركة ، وأقسم سوين أن يثار لمقتلها ، فغزا إنجلترا في عام ١٠٠٣ ، وأعاد الكرة عليها بدعم قواه في عام ١٠١٣ . ونحلى نبلاء إثلرد عنه ، ففر إلى نورمندي ، وأصبح ابن ملك إنجلترا وسيدها . غير إن إثلرد عاد إلى الكفاح بعد موت سوين (١٠٠٤) ونحلى عنه الأعيان مرة أخرى ، وعقدوا الصلح مع كنوت

Cnut بن سوين (١٠١٥) . ومات إثلرد في لندن وهي محاصرة ، وحارب إدمند ذو الجانب الحديدى Edmund Ironside ببسالة ولكن كنوت تغلب عليه عند أسندون Assandun (١٠١٦) . وارتضت إنجلترا بأجمعها كنوت ملكا عليها ، وتم بذلك للدنمركيين فتح إنجلترا .

٣ - الحضارة الإنجليزية - السكسونية ٥٧٧ - ١٠٦٦

لم يكن هذا الفتح أكثر من فتح سياسى ، فقد كانت أنظمة الإنجليز والسكسون ، ولغتهم ، وأساليب حياتهم قد تعمقت أصولها في إنجلترا خلال القرون الستة الماضية تعمقاً لا يستطيع معه فهم نظام الحكم في البلاد أو لغة الإنجليز أو أخلاقهم إلا بدراسة هذه الأصول . ولقد تبدلت في أثناء الفترات الجالية من الأحداث ، بين حرب وحرب ، وبين جريمة وجريمة ، أساليب الحرث والزرع والتجارة ، وبعثت الآداب بعثاً جديداً ، وأقيم صرح النظام والقانون على مهل .

وليس في التاريخ أساس لذلك القول الخداع وهو أن إنجلترا الإنجليزية السكسونية كانت جنة تنعم فيها عشائر الفلاحين الأحرار بالحياة القروية الديمقراطية . ذلك أن زعماء الجيش الإنجليزى السكسونى قد استولوا على الأرض الزراعية ، فلم يحل القرن السابع الميلادى حتى كان عدد قليل من الأسر يمتلك ثلثى تلك الأراضى^(٥) ، ولم يحل القرن الحادى عشر حتى كانت معظم البلدان ضمن أملاك الملك الخاصة أو أحد النبلاء أو الأساقفة . وفى أثناء الغزو الدنمركى نزل كثير من الفلاحين عن أملاكهم فى نظير حمايتهم ، ولم يحل عام ١٠٠٠ بعد الميلاد حتى كان معظمهم يؤدون إيجاراً من محصولهم أو من كدحهم إلى أحد السادة الملاك^(٦) . وكانت هناك « اجتماعات للمدينة » و « اجتماعات للشعب » . « واجتماعات المائة » . وهى اجتماعات كانت بمثابة جمعيات أو محاكم للمناقشة . ونحن لم يكن يسمح بحضورها إلا لملك الأراضى . وأخذت هاهنا

يضعف سلطانها وتقل مرات اجتماعها بعد القرن الثامن ، ويحل محل معظمها: محاكم النبلاء في ضياعهم . وكانت معظم السلطة الحكومية بإنجلترا في يد لالويتناجوت Witenagemot القوي - « مجلس العقلاء » - وهو جمعية صغيرة إلى حد ما تتألف من النبلاء ، والأساقفة ، وكبار وزراء التاج ؛ وبغير موافقة هذا البرلمان الأبله لم يكن ملك إنجلترا يختار أو يبقى على عرشه ، أو يضيف قيراطا إلى مزارعه الخاصة التي كان يستمد منها إيراده المستديم ؛ ولم يكن في وسعه أن يسن قانونا ، أو يصدر حكما قضائيا ، أو يشن حربا ، أو يعقد صلحا إلا بموافقة (٧) . وكان أعظم سند للملكية ضد هذه الهيئة الأرستقراطية هو ما كان بينها وبين الكنيسة من حلف غير رسمي . ذلك أن الدولة الإنجليزية قبل الفتح النورمندی وبعده كانت تعتمد على رجال الدين في كل ما يتصل بالتعليم العام ، والنظام الاجتماعي ، والوحدة القومية ، وبالإدارة السياسية نفسها . وكان القديس دنستان رئيس دير جلاستنبري Glastonbury كبير مستشاري الملكين إدمند Edmund (٩٤٠ - ٩٤٦) وإدرد Edred (٩٤٦ - ٩٥٥) ، وقد حى الطبقتين الوسطى والدنيا من النبلاء ، وكان جريئا في نقد الملوك والأمراء ، ولذلك نفاه الملك إدوج Edwig (٩٥٥ - ٩٥٩) من البلاد ، ثم أعاده إدجر Edgar (٩٥٩ - ٩٧٥) إليها ، وهو الذي وضع التاج على رأس إدورد الشهيد Edward the Martyr (٩٧٥ - ٩٧٨) ، وشاد كنيسة القديس بطرس في جلاستنبري ، وشجع الفنون والتعليم ، وتوفي وهو كبير أساقفة كنتربري في عام ٩٨٨ . وكان أهل إنجلترا يجلونه ويعدونّه أعظم قديسيهم . قبل تومس آبكت Thomas à Becket .

ونشأت الشرائع ببطء في هذه الحكومة المفككة . وقد وجدت في القانون الألماني القديم ، بعد أن عدل لفظه وظروفه ، كفايتها . وبقيت في هذا القانون عادات تبرئة المتهم بشهادة شهود يقسمون بأنه بريء ، كما بقيت فيه الدية .

والتحكيم الإلهي ، ولكن عادة المحاكمة بالاقتتال لم تكن معروفة فيه ، وكانت الدية في القانون الإنجليزي (الإنجليزي) تختلف اختلافاً له دلالاته . فكانت دية الملك ثلاثين ألف ثمزرا Thrimsas (نحو ١٣ر٠٠٠ دولار أمريكي) ، ودية الأسقف ١٥ر٠٠٠ ، ودية النبيل أو رجل الدين ألفين ، ودية الفلاح الحر ٢٦٦ . وكان القانون الإنجليزي يقر بأن يغرم الإنسان شلناً أو شلنين إذا تسبب في جرح إنسان جرحاً يبلغ طوله بوصة واحدة ، وثلاثين شلناً إذا قطع جزءاً من أذن ، على أننا يجب أن نضيف هنا أن الشلن الواحد كان يكفي لابتياح حروف . وكان قانون إثلبرت يعاقب الزاني بأن يؤدي إلى زوج من زنى بها غرامة ويبتاع له زوجة أخرى (٨) . وكل من قاوم أمر محكمة من المحاكم نودي به « خارجاً على القانون » فتصادر أملاكه لصالح الملك ، ويباح دمه . ولم يكن يسمح بالدية في بعض الحالات ، وكانت توقع بدلها عقوبات صارمة : الاسترقاق ، والجلد ، والإخصاء ، وبتريدين أو القدمين ، أو الشفة العليا ، أو جدد الأنف ، أو صلصم الأذن ، أو إعدام المذنب بشنقه ، أو قطع رأسه ، أو حرقه ، أو رجمه ، أو إغراقه في الماء ، أو إلقائه في هوة سحيقة (٩) .

وكان النظام الاقتصادي شبيهاً بالقانون في بدايته ، وكان أقل تقدماً منه في بريطانيا الرومانية . وكانت جهود كثيرة قد بذلت في تقطيع الغابات وتجفيف المناقع ، ولكن إنجلترا كانت لا تزال في القرن التاسع تشغل نصفها الغابات ، والمروج ، والمناقع ، وكانت الحيوانات البرية - الدبية ، والحلايف ، والذئاب - لا تزال تجوس خلال الغابات . وكان أكثر من يفلح الضياع هم الأسرى أو الأرقاء . وكان الاسترقاق في بعض الحالات مآل المذنبين أو المجرمين ؛ وكان في وسع الأزواج أو الآباء أن يبيعوا أزواجهم أو أبناءهم إذا اضطرتهم الحاجة إلى بيعهم ؛ وكان جميع أبناء الأمة أرقاء وواو كان آباؤهم من الأحرار . وكان في مقدور السيد أن يقتل عبده متى أراد ، وأن يضاجع أمته ثم يبيعها وهي حامل منه .

ولم يكن من حق العبد أن يرفع قضية إلى محكمة ، وإذا قتله غريب ذهبت دينته القليلة إلى مالكة ، وإذا أبق ثم قبض عليه كان يستطيع جلدته حتى يموت^(١٠) وكانت أهم تجارة في برستل Bristol هي تجارة الرقيق . وكان سكان البلاد كلهم إلا القليلين منهم قرويين ، فكانت البلدان كغورا ، والمدن بالذات غير كبيرة^(*) فكانت لندن ، وإكستر ، ويورك ، وتشستر ، وبرستل ، وجلوسستر ، وأكسفورد ، ونروج Norwich ، وورستر ، وونشستر كانت هذه كلها بلدانا صغيرة ولكنها نمت نمواً سريعاً بعد زمن ألفرد ، ولما أن جاء الأسقف مليتس في عام ٦٠١ ليعظ في لندن لم يجد إلا « عدداً قليلاً من السكان الوثنيين »^(١١) ، في البلدة التي كانت إحدى الحواضر في أيام الرومان ، ثم عادت إلى النماء في القرن الثامن بفضل مركزها الحربي المشرف على نهر التاميز ، حتى أصبحت في عهد كنوت عاصمة البلاد القومية .

وكانت الصناعة تعمل عادة للسوق المحلية ؛ غير أن صناعات النسيج والتطريز كانتا أكثر تقدماً من سائر الصناعات ، وكانتا تصدران منتجاتهما إلى بلاد القارة الأوربية . وكانت وسائل النقل صعبة غير آمنة ، والتجارة الأجنبية ضئيلة الشأن . وبقيت الماشية تستعمل أداة للتبادل حتى القرن الثامن ، ولكن بعض الملوك سکوا في ذلك القرن نقوداً فضية ، منها شلنات ومنها جنيهاً ؛ وكانت أربعة شلنات في إنجلترا في القرن العاشر تكفي لشراء بقرة وتكفي ستة لشراء ثور^(١٢) . وكانت الأجور منخفضة بهذه النسبة نفسها ، وكان الفقراء يسكنون في أكواخ خشبية ذات سقف من القش ، ويعيشون على الخضر ، أما خبز القمح واللحم فكانا طعام الأغنياء أو حفلات الأيام الأحاد . وكان الأغنياء يزينون قصورهم

(١٠) وقد احتفظت من زمان الإنجليزية بمقاطع أنجليسكسونية في بدايتها - tun
(town) بلدة ، (home) ram وطن ، Wick (house) منزل أو غور ، Thorp (قرية) ،
() barb .

الساذجة الخشنة بستائر مصورة ، ويدفنون أجسامهم بالفراء ، ويحملون
أثوابهم بالتطريز ، ويزينون أنفسهم بالجواهر .

ولم تكن العادات والأخلاق ظريفة متأنقة كما أضحت في بعض العصور
المتأخرة من تاريخ إنجلترا ، فنحن نسمع الشيء الكثير عن الخشونة
والفظاظة ، والوحشية ، والكذب ، والغدر ، والسبرة وغيرها من العادات
المنأصلة ، ويعترف القراصنة النورمان الذين أغاروا على إنجلترا في عام
١٠٦٦ ، ومنهم من لم يكونوا أبناء شرعيين ، بأنهم دهشوا من انحطاط
المستوى الخلقى والثقافي عند ضحاياهم . وكان جو إنجلترا الرطب يغرئ
الإنجليز - السكسون بالإفراط في الطعام والشراب ، وكانت « حفلة الجمعة »
عندهم من مستلزمات المجتمعات والأعياد . ويصف القديس بنيفاس الإنجليز
في القرن الثامن وصفاً بهيجاً لا يخلو من المغالاة فيقول « إن المسيحيين
والوثنيين على السواء يأبون أن تكون لهم زوجات شرعيات ، ولا يزالون
يعيشون عيشة الدعارة والزنى كما تعيش الخيل الصاهلة والحمر الناهقة » (١٣) ،
وكتب في عام ٧٥٦ إلى الملك إثلبولد Ethelbald يقول :

« لو أن احتقارك للزواج المشروع كان يهدف إلى الطهارة لكان أمراً
محموداً ، أما وأنتم منغمسون في الترف ، وترتكبون الزنى مع الراهبات
أنفسهن ، فإن ذلك الاحتقار أمر مردول يسربلكم العار . . . ولقد سمعنا
أن نبلاء مرسية كلهم تقريباً يحذون حذوكم ، فيهجرون أزواجهم
الشرعيات ، ويرتكبون الفحشاء مع الزانيات والراهبات . . . خذوا حذرکم
من هذا . . . إذا كانت أمة الإنجليز . . . تحتقر الزواج المشروع ،
وتسارع إلى الزنى ، فلا بد أن يؤدي هذا الاتصال إلى وجود شعب ذئب
يحقر الله ، وستجر الخراب والدمار على البلاد بهذا التهلك وهذه الأخلاق
المردولة » .

وكان من حق الزوج في القرون الأولى من حكم الإنجليز - السكسون أن
يطلق زوجته متى شاء وأن يتزوج غيرها . وقد نددت هرتفورد Hertford

الديني (٦٧٣) بهذه العادة ، وعمل نفوذ الكنيسة بالتدريج على تثبيت قواعد العلاقة الزوجية ، فارتفعت مكانة النساء ارتفاعاً عظيماً وإن لم يمنع هذا استرقاقهن في بعض الأحيان . ولم يكن النساء يتلقين إلا القليل من التعليم في الكتب ، ولكن لم يجدن في ذلك ما يحول بينهن وبين تأثيرهن في الرجال واجتذابهم لهن . فكان الملوك يصبرون كثيراً على مغازلة النساء المتشامحات ، ويستشيرون زوجاتهم في السياسة العامة^(١٥) . وقد ظلت إنافلد ابنة ألفرد ، وهي ملكة ونائبة عن الملك ، جيلاً من الزمان تحكم مرسية حكماً حازماً صالحاً ، أنشأت فيه المدن ، وأحكمت وضع الخطط الحربية ، وانزعت من الدنمركيين دربي ، وليستر ، ويورك . ويقول عنها ولیم من أهل مالزبري إنها عانت مشقة كبيرة حين وضعت أول طفل لها ، فأبت بعد ذلك عناق زوجها ، وقالت إنه لا يليق بابنة ملك أن تستسلم لمتعة وقتية تؤدي بعد حين إلى تلك العواقب المتعبة^(١٦) . وكانت تعيش في مرسية وقتئذ (حوالي ١٠٤٠) جدجيفا Godgifa زوجة إيرل ليوفريك Earl Leofric . ودارت حول اسمها جديفاً Godiva الذي اشتهرت به فيما بعد كثير من القصص الممتعة الجذابة ، وأقيم لها تمثال في كوثنري Coventry (*) .

وعانى التعليم ، كما عانى كل شيء سواه ، الأمرين من جراء الفتح الإنجليزي - السكسوني ، ثم أخذ ينهض من كبوته على مهل بعد أن اعتنق الفاتحون الدين المسيحي . فقد افتتح بندكت بسكوب Benedict Biscop مدرسة في دير ويرزموث Wearsmouth حوالي عام ٦٦٠ ، كان بيد Bede من جريجيا ؛ وأنشأ إجبرت مدرسة ومكتبة في كنيسة يورك (٧٣٥) ، صارت أهم مركز للتعليم الثانوي في إنجلترا ، وأضحى إنجلترا في النصف الثاني من

(*) وقد ورد في هذه القصة أن ليوفريك رضى أن يعنى المدينة من ضريبة باهظة إذا خرجت هي إلى الشوارع راكبة وعارية . والعالم كله يعرف بقية القصة .

القرن الثامن بفضل هاتين المدرستين وغيرهما من المدارس حاملة لواء التعليم في أوروبا الواقعة شمال جبال الألب .

ويتجلى إخلاص معلمى الأديرة وظرفهم في شخصية بيد الموقر The Venerable Bede أعظم علماء زمانه (٦٧٣ - ٧٣٥) وقد نُحِصَ هو سيرته تلخيصاً متواضعاً فقال :

بيد خادم المسيح ، قس دير الرسولين المباركين ، بطرس وبولس ، القائم في ويرزموث وچرو . وإذ كنت قد ولدت في إقليم ذلك الدير فقد أدخلني أهلى فيه وأنا في السابعة من عمرى لأرْبِي على يدي رئيسه المبجل بندكت بسكوب ، ولقد قضيت حياتي كلها بعد ذلك الوقت في هذا الدير ، وبذلت كل ما أستطيع من جهد لدراسة الكتاب المقدس ، والحفاظة على السنن المتبعة وترتيل الأناشيد اليومية في الكنيسة ؛ وكنت أستمع على الدوام بتلقى العلم أو بالتدريس أو بالكتابة . . . حتى عينت شماساً في التاسعة عشرة من عمرى ، ثم أصبحت قساً في سن الثلاثين . . . وبقيت من هذه السن إلى التاسعة والخمسين عاكفاً على دراسة الكتاب المقدس والأعمال الآتية . . . (١٧) .

وكلها باللغة اللاتينية ، وتشمل تعليقات على الكتاب المقدس ، ومواظ ، وثننا بالحوادث العالمية وتواريخها ، ورسائل في النحو ، والرياضيات ، والعلوم ، والدين ، وأهم من هذه كلها كتابه في التاريخ الكهنسي للأمة الإنجليزية (٧٣١) . ويختلف هذا الكتاب الأخير عن معظم تواريخ الأديرة في أنه ليس سجلاً فحاً للحوادث ؛ وربما كان في الجزء الأخير منه مثقلاً فوق ما يجب بأخبار المعجزات ، وأن صاحبه على الدوام سريع التصديق لما لا يصح تصديقه ، مدفوعاً إلى هذا بسناده البريئة الطاهرة ، شأن العقل الحبيس من سن السابعة ؛ ولكنه رغم هذا كله قصة واضحة خلاصة ، تسمو في أجزاء متفرقة منها إلى البلاغة

البيسطة ، كما نرى ذلك في وصفه للفتح الأنجلوإيسكسوني^(١٨). وكان بيد رجلاً مفكراً حتى الضمير ، يعنى أشد العناية بتواريخ الحوادث ، وهو في العادة دقيق فيما يورده منها ؛ يعين المراجع التي يعتمد عليها ، ويسعى للحصول على الشواهد من مصادرها الأولى ، ويقتبس مما يستطيع الوصول إليه من الوثائق الصحيحة . ومن أقواله في هذا المعنى : « استأريد أن يقرأ أبنائي أكذوبة واحدة »^(١٩) ، ونرجو أن يكون قصده بأبنائه تلاميذه الستمائة الذين علمهم . وقد توفي بعد ست سنين من كتابة سيرته الذاتية السالفة الذكر ، والتي جمع في سطورها الختامية كل ما حوته تقوى العصور الوسطى من رقة وإيمان :

« وأتوسل إليك يا يسوع الرحيم أن تمن بفضلك على من عطفت عليه . فأسقيته من كلمات علمك العذبة بأن يقبل في يوم من الأيام عليك يا ينبوع الحكمة بأجمعها ويقف على الدوام أمام وجهك » .

ويدكر بيد أن الناس في زمانه كانوا يتحدثون في إنجلترا بخمس لغات : الإنجليزية ، والبريطانية (الكلتية) ، والأيرلندية ، والبكتية (الاسكتلندية) ، واللاتينية . فأما الإنجليزية فكانت لغة الإنجليز (Angles) ، ولكنها لم تكن تختلف عن اللغة السكسونية إلا قليلاً ، وكان يفهمها الفرنجة ، والنرويجيون ، والدمرقيون ، فقد كان هؤلاء الأقوام الخمسة يتكلمون لهجات مختلفة من اللغة الألمانية ، وقد نشأت الإنجليزية من اللغة الألمانية نفسها . وكان ثمة أدب أنجلوإيسكسوني جدير بالاعتبار من القرن السابع ، وليس لنا مصدر نعتد عليه في تقدير معظمه إلا قطع متفرقة منه لأن جزءه الأكبر قد اندثر بعد أن أدخلت اللاتينية في إنجلترا الحروف اللاتينية (واستبدلتها بحروف شمالي أوروبا التي كانوا يكتبون بها من قبل) ، وبعد أن دمرت الفتوح الدنمرقية كثيراً من دور الكتب ، وحين غمرت الفتوح النورمندية اللغة الإنجليزية بفيض من اللغة الفرنسية . يضاف إلى هذا أن كثيراً من القصائد الأنجلوإيسكسونية كانت قصائد

وثنية ، وكان يتناقلها جيلا بعد جيل شعراء مغنون مستهترون بعض الاستهتار في حياتهم وحديثهم ، وكان يحرم على الرهبان والقساوسة أن يستمعوا إليهم . ومع هذا فأكبر الظن أن راهباً من رهبان القرن الثامن هو الذى كتب أقدم قطعة بقيت لنا من الأدب الأنجلايسكسونى - وهى شرح منظوم لسفر التكوين ليس فيه من الإلهام كما فى الأصل وقد وضع بين أبيات القصيدة ترجمة لقصة ألمانية تروى خروج آدم من الجنة . وهنا تسرى فى الشعر الحياة ، ومن أكبر أسبابها أن الشيطان يصور فى صورة الناثر المنفعل المتحدى ، ولعل ملتن Milon قد وجد هنا لمحة بنى عليها وصفه للشيطان فى قصيدته . ومن القصائد الأنجلايسكسونية ما هو مرثى ؛ فقصيدته « الجائل » مثلاً تتحدث عن الأيام السعيدة الخالية فى قبور الأشراف ؛ أما الآن وقد مات النبيل « فقد أقرت هذه الأرض الثابتة كلها » وأصبح « أكثر ما يثير الأشجان أن نتذكر أسباب السعادة » (٢٠) ؛ وليس ثمة تعبير عن هذه الفكرة أجمل من هذا التعبير لا نستثنى من ذلك شعر دانتي نفسه . وأكثر ما تتغنى به هذه القصائد القديمة هو الحرب وهى حين تفعل هذا ممتعة قوية . و« أنشودة واقعة ملدون Maldon » (حوالى ١٠٠٠) لا ترى فى هزيمة الإنجليز شيئاً غير البطولة ؛ والمحارب القديم برهتود Byrhtod ، وهو واقف أمام جسد سيده القتيل « يبث الشجاعة » فى قلوب السكسون حين أحرق العدو بهم عبارات كعبارات مالورى Malory وتسبها فى الزمن :

كلما نقصت قوانا زادت أفكارنا صلابة ، وقلوبنا حدة ، وتضاعفت أمزجتنا . وهاهو ذا أميرنا مسجى على الأرض ، لقد قطعوه وأماتوه ! ألا فاتحل الأحران والأشجان أهد الدهر بالرجل الذى يغادر وطيس القتال ! لقد تقدمت بي السنون ، ولكننى لن أبرح هذا المكان ؛ إنى أريد أن أرقد إلى جانب مولاي ، إلى جانب الرجل الذى أعزه (٢١) .

ونظن أن بيولف Belowulf أطول القصائد الأنجلايسكسونية وأنبها قد ،

أنشئت في القرن السابع أو الثامن ، واحتفظ بها لنا مخطوط يرجع تاريخه إلى عام ١٠٠٠ يوجد الآن في المتحف البريطاني . ويبدو أن آياتها البالغ عددها ٣١٨٣ بيتاً هي القصيدة بأكملها . والشعر غير مقفى ولكنه موزون متجانسة أوائل ألفاظه ، مصوغ في لهجة سكسونيا الغربية لا نستطيع أن نفهمها في هذه الأيام . والقصة نفسها كأنها عبث الأطفال ، وخلاصتها أن بيولف أمير القيط (القوط ؟) في جنوبي السويد يعبر البحر ليطاق سراح هرثجار Hrothgar ملك الدنمركة من التنين جرنندل Grendel ؛ وبعد أن يغلب جرنندل وأم جرنندل نفسها ، يعود بطريق البحر إلى قيطلاند Geatland ويحكمها حكماً عادلاً مدة خمسين عاماً . ويظهر وقتئذ تنين ثالث يقذف بالذهب ويعيث فساداً في أرض القيط ، فهاجمه بيولف ، ويصاب في هذا الهجوم بجرح مميت ، فيخف صديقه وجلاف Wiglaf إلى معونته ويتعاونان على قتل التنين . ويموت بيولف من أثر جرحه ، وتحرق جثته على كومة الحريق . وليست القصة من السذاجة كما تبدو لنا من روايتنا هذه ؛ فالثنين الذي تتحدث عنه آداب العصور الوسطى يمثل الحيوان البري الذي يكن في الغابات المحيطة بمدن أوروبا ، وفي وسعنا أن نعفو عن خيال الناس الذين صور لهم الفزع هذه الوحوش في تلك الصورة الخرافية ، ولقد نسجوا حولها كثيراً من الأفاصيص يعبرون بها عن شكرهم للرجال الذين تغلبوا على هذه الوحوش حتى أمنت القرى والنجوع شرهم .

وبعض فقرات القصيدة مسيحية الصبغة لا تنسجم مع بقية أجزاءها ، كما أراد ناشر رحيم من الرهبان أن يحفظ هذه القصيدة الوثنية الرائعة بأن يضع في أجزاء منفرقة منها سطرأ يشعر بالتقى والصلاح . غير أن جوال القصيدة وحوادثها جووثي خالص وحوادث وثنية خالصة . ولقد كان الحب ، والحياة ، والمعارك الحربية على الأرض هي التي يعنى بها أولئك « النساء الحسان والرجال البواسل » ، ولم يكونوا يعنون بجملة هادئة وراء القبور . ويقول المؤلف في بداية القصيدة بعد

أن يدفن سلد Scyld الملك الدمقرق كما يدفن قراصنة الشمال في قارب يرفع إلى البحر وهو خال من الملاحين : « لا يستطيع الناس أن يقولوا وهم واثقون من الذى تلقى هذا العبء » . غير أن جو القصيدة ليس بالجو الوثنى المرح ، بل تسرى فيها من أولها إلى آخرها روح نكدية ، وأكثر من هذا أن تلك الروح نفسها لا تبرح الحفلة التي أقيمت في هيو هرنجبار . وفي وسعنا أن نلمح في ثنايا أبيات القصيدة المتدفقة وما فيها من طرب وتحسر أنين العازف على القيثارة :

ثم جلس بيولف على مقعد بجوار البئر . . . وأخذ يتحدث عن جرحه ، وعمما يحس به من آلام شديدة أشرف من جرائها على الموت ؛ وأدرك أن منيته قد دنت . . . ثم طاف حول كومة الدفن رجال أبطال أقران حرب ، يريدون أن يعبروا عن أحزانهم ، وأن يرثوا الملك ، وأن ينشدوا ويتحدثوا عن الرجل ؛ فأخذوا يشيدون بكل ما أوتوا من قوة يطولته في أثناء حياته ، ويمتدحون أعماله الباسلة المحيذة . . . ويقولون إنه كان أعظم ملوك العالم رافة ورحمة ، وأرقهم في معاملة شعبه ، وأحرصهم على كسب الثناء . . . ومن أجل هذا كان خليقاً بالإنسان أن يثنى على سيده وصديقه . . . وأن يحبه بكل قلبه ، إذا ما حان أجله ، وفارقت روحه جسده ، وغادر هذا العالم .

وأكبر الظن أن بيولف أقدم ما بقي لدينا من القصائد في أدب بريطانيا ، ولكن كيدمون Coedmon (المتوفى سنة ٦٨٠) هو أقدم الأسماء في هذا الأدب . ولسنا نعرفه إلا من فقرة طريفة في كتاب بيد ، فقد جاء في كتاب التاريخ الكهنسي^(٢٣) أنه كان في دير هوتبي Whitby أخ ساذج يجد في الغناء من الصعوبة ما يجعله على الهرب إلى مكان ينجي فيه كلما جاء دوره في الغناء . ونحيل إليه ذات ليلة وهو نائم مستقر في مرقدته أن ملكاً قد جاءه وقال له : « غن لي شيئاً يا كيدمون ! » فقال الراهب إنه لا يستطيع الغناء ، فأمره الملك أن يغنى ؛ وحاول كيدمون الغناء ، ولشد ما دهش من نجاحه ، ولما استيقظ في

الصباح تذكر الأغنية ، وأعاد غناءها ، ولهذا أخذ يحاول قرص الشعر ونظم سفرى التكوين ، والخروج ، والأناجيل شعرا. «صاغه» كما يقول. بيد «بألفاظ عذبة تأخذ بمجامع القلوب» . ولم يبق من هذه الأشعار كلها. إلا أبيات قليلة ترجمها بيد إلى اللغة اللاتينية . وبعد عام من ذلك الوقت حاول سينولف Cynewulf (ولد حوالى عام ٧٥٠) وهو شاعر مغن فى بلاط نورثمبرلند أن يخرج هذه الرواية إلى حيز الوجود بأن ينظم عدة قصص دينية مختلفة - «المسيح» و «أندرياس Andreas» و «يوليانا» ، ولكن هذه القصص تبدو ، إذا ما قورنت بقصة بيولف المعاصر لها ، ممتة لاحياة فيها لكثرة ما بها من الصناعة والمحسنات اللفظية .

ويجىء النثر الأدبى فى جميع الآداب بعد الشعر فى الترتيب الزمنى ، لأن العقل ينضج قبل أن تتفتح أزهار الخيال ، مع أن الناس ينطقون بالنثر قروناً «وهم لا يعرفون» قبل أن يتسع لهم وقتهم أو يمكنهم غرورهم من أن يصوغوه فنا من الفنون . وأوضح شخصية فى نثر إنجلترا الأدبى هى شخصية ألفرد ، فتراجمه ومقدماته يضئى عليها الإخلاص والبساطة. كثيراً من البلاغة ، وهو الذى بذل من الجهد فى نشر «ملف الأسقف Bishop's Roll» الذى كان محفوظاً عند قساوسة كنيسة ونشستر ، فاستحال على يديه أقوى وأوضح أقسام السجل الأنجليسكسولنى أول كتاب قيم فى النثر الإنجليزى . وليس ببعيد أن يكون معلمه Asser هو الذى كتب الجزء الأكبر من حياة ألفرد ، أو لعل هذه السيرة قد جمعت فيها بعد (حوالى عام ٩٧٤) ؛ ومهما يكن من شأنها فهى مثل من أقدم الأمثلة على استعداد الإنجليز لاستبدال اللغة الإنجليزية باللغة اللاتينية فى الكتب التاريخية والدينية ، على حين أن «القارة» الأوربية التى كانت لا تزال تستحى من أن تكتب مثل هذه المؤلفات الكريمة باللغة «العامية» .

ولقد وجد الناس بين مشاغل الشعر والحرب من النشاط والوقت ما يمكنهم

من تصوير المعاني ، وتجميل الأشياء ذات النفع المادى . فقد أنشأ ألفرد
مدرسة للفن فى أثلنى Alhelney ، واستقدم إليها من جميع الأنحاء رهباناً
يحلّقون الفنون والصناعات ، « ولم ينقطع فى أثناء حروب الكثرة » كما
يقول أسر « عن أن يعلم عماله فى صناعة الذهب وصنائه فى جميع الحرف » (٢٥).
ولم يقنع دنستان Dunstan بأن يكون من رجال الحكم والقديسين ، فأخذ
يمارس بجد صناعى الحديد والذهب ، وكان إلى هذا موسيقياً بارعاً ،
صنع لكنيسة جلاستنبرى أرغناً ذا مزامير . وقامت فى البلاد الصناعات
الفنية الدقيقة فى الخشب ، والمعادن ، والميناء المقسمة ، واشترك قاطعو
الجواهر مع الحفرين فى صنع الصلبان المنحوتة والمطعمة بالجواهر فى رثول
Ruthwell وبيوكاسل Bewcastle (حوالى عام ٧٠٠) ؛ وصب تمثال
من الشبه للمالك كدولو Cadwallo (المتوفى سنة ٦٧٧) ممثلاً صهوة جواد
بالقرب من لدجيت Ludgate . وكانت النساء ينسجن أغطية الفراش ،
والأقمشة التى تزدان بها الجدران ، والمطرزات ، من الخيوط البالغة غاية
الدقة (٢٦) . وزخرف رهبان ونشستر بالرسوم ذات الألوان الزاهية كتاب
أدعية فى القرن العاشر . وشادت ونشستر نفسها ويورك كنائس من الحجر
منذ عام ٦٣٥ ؛ وجاء بندكت بسكوب بالطراز اللباردى إلى إنجلترا
من الكنيسة التى أقامها فى ويززموث عام ٦٧٤ ؛ وأعدت كتربرى
فى عام ٩٥٠ بناء الكنيسة التى بقيت فيها من أيام الرومان . وينقل لنا بيد
أن كنيسة بندكت بسكوب قد ازدانت بالنقوش المصنوعة فى إيطاليا ،
« وأن كل من دخلها ، وإن كان جاهلاً لا يعرف شيئاً من العلوم
والمعارف ، لا يسهه أينما ولى وجهه إلا أن يتأمل مناظر المسيح وقديسيه
التي لا يبلى جمالها . . . وأن يذكر وهو يرى أمام عينيه صورة يوم الحساب
أن من واجبه محاسبة نفسه حساباً عسيراً » (٢٧) . وقصارى القول أن القرن السابع
قد شهد نهضة فى البناء فى بريطانيا ؛ ذلك أن الأنجليسكسون كانوا قد أمموا
فتوحهم ، والدمرقيون لم يبدؤوها ، وأصبح البناعون الذين كانوا من قبل يبنون

بالخشب يجدون لديهم الموارد والعزائم التي تمكنهم من تشييد الأضرحة والمعابد بالحجارة . ولكننا يجب ألا ننكر أن يندكت قد استقدم من غالة البنائين ، وصانعي الزجاج ، وصانعي الذهب ؛ وأن الأسقف ولفردي Wilfrid قد جاء بالمثاليين والنقاشين من إيطاليا لزخرفة كنيسة التي شادها في هكسهايم Hexham في القرن السابع ؛ وأن لإنجيل لندسفارن Lindisfarne (حوالى عام ٧٣٠) ذا الزخرف الجميل كان من عمل رهبان أيرلنديين دفعهم فرط زهدهم أو تحمسهم للتبشير إلى تلك الجزيرة الفقيرة القريبة من ساحل نورثمبرلاند . وقضى مجيء الدنمركيين على هذه النهضة القصيرة الأجل ، ولم يواصل فن العمارة الإنجليزية الصعود إلى ما بلغه بعدئذ من العظمة والجلال حتى استقر سلطان الملك كنوت في إنجلترا على أساس مكين .

٣ - بين فتحين ١٠١٦ - ١٠٦٦

لم يكن الملك كنوت فاتحاً وكفى ، بل كان إلى هذا حاكماً قديراً . ولسنا ننكر أنه لوث بداية حكمه بأعمال القسوة : فقد طرد من البلاد أبناء إدمند إيرنسيدي Edmund Ironside وأمر بذبح أخى إدمند لينع بذلك عودة الملوك الأنجليسكسون إلى العرش . لكنه لما رأى أن أرملة إثلرد وأبناءه لا يزالون أحياء في رون Rouen ، تغلب على كثير من المشاكل بأن خطب إما Emma لنفسه (١٠١٧) . وكانت هي وقتئذ في الثالثة والثلاثين من عمرها ، وقبلت الخطبة وحصل كنوت بضربة واحدة على زوجة ، وحلف مع دوق نورمندي أخى إما ، وعلى عرش مكين أمين . وأصبح عرشه من تلك اللحظة نعمة على إنجلترا وبركة . فقد كبح جماح الأعيان المشاكسين الذين حطموا روح إنجلترا وفرقوا وحدتها ، ووقى البلاد شر الغزاة في المستقبل ، ووهبها اثني عشر عاماً من السلم غير المنقطعة . واعتنق الملك الدين المسيحي ، وشاد كثيراً من الكنائس ، وأقام نصباً تذكارية.

في أسندون Assandun إحياء لذكرى الأنجليسكسون والذنمريين الذين حاربوا في ذلك المكان ، وحج بنفسه إلى قبر إدمند ، ووعد بأن يتبع قوانين إنجلترا وأنظمتها القائمة فيها ، ووفى بوعده فيما عدا حالتين اثنتين : فقد أصر على أن تكون حكومة المقاطعات التي أفسدها الأعيان الأنوقراطيون تحت سيطرة عملائه هو ، واستبدل بكبير الأساقفة وزيراً من غير رجال الدين ليكون كبير مستشاري التاج ، وأنشأ طائفة من العمال الإداريين والموظفين المدنيين كان لهم الفضل في جعل حكومة البلاد ثابتة مستمرة ، وكان عماله كلهم تقريباً ، بعد سنين حكمه الأولى المزعزعة ، من الإنجليز . وقد جمع بين تاجي الذنمركة وإنجلترا ، ثم أصبح في عام ١٠٢٨ ملكاً على النرويج ، ولكنه كان يحكم مملكته الثلاثية من مدينة ونشستر .

وكان الغزو الذنمري حلقة في سلسلة الغزوات الأجنبية الطويلة وفي الامتزاج العنصري اللذين انتهيا بالفتح النورمندی وأنتجا آخر الأمر الشعب الإنجليزي . فقد امتزجت دماء الكلت والغالين ، والإنجليز والسكسون والجلوت ، والذنمريين والنورمان ، بالزواج أو بغيره من الوسائل ، فخلقت من البريطانيين أهل البلاد في زمن الرومان ، وهم الذين ليست لهم ميزة ولا قدرة على الابتكار ، خلقت منهم قرصنة عهد الملكة إلزبث الصخاين ، وفاتحى العالم الصامتين في القرون التالية . ولقد جاء الذنمريون إلى إنجلترا ، كما جاء إليها الألمان وأهل الشمال ، بحب للبحر يكاد يبلغ درجة الوجد والهيام ، واستعداد لقبول دعوة البحر الغادرة إلى المغامرة والاتجار في أقاصى البلاد . أما من الجهة الثقافية فقد كانت غزوات الذنمريين كارثة على البلاد ، وقف في أثنائها فن البناء فلم يخطط خطوة إلى الأمام ، واضمحل فن زخرفة الكتب فيما بين عامي ٧٥٠ ، ٩٥٠ ، كما وقفت النهضة العلمية والأدبية التي شجعها ألفرد ، وفعلت غزوات الشماليين ما فعلته في غالة نفسها فأخذت تقضى على أعمال شلرمان الحجيذة .

وار أن أجل كنوت طال لأمكنه أن يصلح الأضرار التي أنزلها مواطنوه بالبلاد ، ، ولكن شئون الحرب والحكم تبلى الناس سراعاً ، فلما مات كنوت عام ١٠٣٥ ولما يتجاوز سن الأربعين ؛ وخلعت النرويج نير الدنمركيين على الفور ، واضطر هارثكنوت Harthacnut بن كنوت الذي عينه قبل موته ولياً لعهدته أن يكرس كل جهوده لحماية الدنمركة من غزو النرويجيين ؛ وحكم ابن آخر من أبنائه يدعى هرلد هيرفوت Herald Harefoot إنجلترا خمس سنين ؛ ثم مات ؛ وحكمها هارثكنوت عامين توفي بعدها سنة ١٠٤٢ ؛ واستدعى من نورمنديا قبل وفاته ابن لاثزل وإما الباقي على قيد الحياة ، واعترف بهذا الأخ الأنجليسكسوني غير الشقيق وارثاً لعرش إنجلترا .

ولكن إدورد المعترف Edward the Confessor (١٠٤٢ - ١٠٦٦) كان غريباً عن البلاد بقدر ما كان أي دنمركي آخر غريباً عنها . فقد نقله أبوه إلى نورمنديا وهو في العاشرة من عمره ، وقضى ثلاثين عاماً في بلاط النورمنديين ، وتربى على أيدي أعيانهم وقساوستهم ونشأوه على التقى والصراحة . وجاء الملك الجلد إلى إنجلترا بلغته وغاداته الفرنسية وأصدقائه الفرنسيين ، وأصبح هؤلاء الأصدقاء من كبار موظفي الدولة ورؤسائها الدينين ، وتلقوا هبات ملكية ، وشادوا في إنجلترا قصوراً نورمندية منيعة ، ولم يخفوا ازدرأهم للغة الإنجليزية وأساليب الحياة الإنجليزية ، وبدءوا الفتح النورمندي قبل ولیم الفاتح بجيل من الزمان .

ولم يكن يستطيع أن ينافسهم في التأثير في الملك الرقيق المطواع إلا رجل واحد هو إيرل جدون Earl Godwin حاكم وسكس ومستشار الدولة الأول في عهد كنوت وهرلد وهارثكنوت . وكان إيرل جدون واسع الثراء حكماً ، داهية في الديبلوماسية صبوراً عليها ، فصيح اللسان ، قوى الحججة ، بارعاً في الأعمال الإدارية ؛ فكان بذلك أول الساسة العظام من غير رجال الدين في التاريخ

الإنجليزى . وقد زفقت تجاربه فى شئون الحكم منزلة فوق منزلة الملك
تنفسه . وأضحى ابنته إديث Eðith زوجة إدورد ، ولولا أن إدورد لم يكن له
خلف لكان من المحتمل أن يصبح جدون جدم ملك من الملوك . ولما أن تزوج
تستيج Tostig ابن جدون يوديث Judith ابنة كونت فلاندرز ، وأصبح
سوين Soweyn ملكا على الدنمرقة أنشأ إيرل جدون هذه الضلالت الزوجية
حلفاً ثلاثيا جعله أقوى رجل فى أوربا الشمالية كلها لا نستثنى من ذلك
التعميم بملكه نفسه . لكن أصدقاء إدورد النورمنديين أثاروا فى نفسه
عوامل الغيرة ، فعزل جدون ، وفرّ الإيرل إلى فلاندرز ، كما خرج
ابنه هرولد Harold إلى أيرلندة وحشد فيها جيشا ليقاتل به إدورد المعترف
(١٠٥١) . ولم يكن أعيان الإنجليز راضين عن سيادة النورمنديين عليهم ،
فطلبوا إلى جدون أن يعود ، ووعده بتأييد جنودهم له . وغزا هرولد
إنجلترا ، وهزم جيوش الملك ، ونهب ساحل إنجلترا الجنوبي الغربي
وعاث فى أرضه فساداً ، ثم انضم إلى والده وزحفاً معاً إلى أعلى نهر
التاميز ، وثار الشعب فى لندن على حكاهم واستقبل الغزاه بالترحاب ،
وفرّ الموظفون ورجال الدين النورمنديون ، واجتمع وتناجور (مجلس)
من أعيان الإنجليز وأساقفتهم ، واستقبل جدون استقبال الظافرين ؛ واسترد
جدون سلطانه السياسى وما صودر من أملاكه (١٠٥٢) ، ولكنه مات
بعد عام واحد بعد أن أنهكه الاضطراب والنصر :

وعين هرولد إيرل وسكس ، وخلف أباه فى بعض ما كان له من سلطان .
وكان وقتئذ فى الحادية والثلاثين من عمره ، طويل القامة ، بهى الطلعة ، قوى
البنية ، شهماً ، مقداماً جريئاً ، قاسياً فى الحرب ، كريماً فى السلم ، شن حملة
جريئة حاطفة على ويلز انتهت بضمها إلى إنجلترا ، وقدم رأس جروفيد Orlafydd
زعيم ويلز هدية إلى الملك المسرور المروع (١٠٦٣) . وفى فترة هادئة من حياته
بالعاصمة جاد بالمال الكثير لبناء كنيسة ونام Waltham (١٠٦٠) ، وإعانة

الكلية التي نشأت من مدرسة هذه الكنيسة ، واتجهت أنظار إنجلترا كلها إلى هذا الشاب الذي لا يفترق في شيء عن أبطال الروايات .

وأهم ما حدث في عهد إدورد من الناحية المعمارية هو الشروع في بناء دير وستمنستر (١٠٥٥) : وكان الملك قد ألف الطراز المعماري النورمندی . أثناء حياته في رُون Rouen ، فلما أن أمر ببناء الدير الذي أصبح فيما بعد مزاراً مقدساً ومقبرة لعباقرة إنجلترا ، أمر أو أجاز أن يقام على الطراز النورمندی الرومانسى على نسق كنيسة الدير العظيمة التي بدى في تشييدها قبل ذلك الوقت بخمس سنين لا أكثر في جومييج Jumièges ، وكان هذا أيضاً فتحاً نورمنديا قبل أيام وليم . وكان بناء دير وستمنستر إيذاناً ببداية نهضة معمارية أوجدت في إنجلترا أجمل المباني الرومانسية في أوروبا بأجمعها .

وفي مقبرة وستمنستر دفن إدورد في بداية سنة ١٠٦٦ ذات الأحداث . الجسام . واجتمع الويتنأجور في السادس من يناير واختار هرولد ملكا على إنجلترا . وما كاد التاج يوضع على رأسه حتى جاءت الأخبار بأن وليم دوق نورمندية يطالب بالعرش ويستعد للحرب . وكانت حجة وليم أن إدورد قد وعده في عام ١٠٥١ أن يوصى له بتاج إنجلترا جزاء له على إيوائه وحمايته في نورمندية ثلاثين عاما . ويخبل إلينا أن هذا الوعد قد بذل حقا (٢٨) ؛ ولكن إدورد إما أن يكون قد نسيه ، وإما أنه ندم على ما بذله ، فأوصى قبل وفاته بقليل أن يخلفه هرولد على عرش إنجلترا . وسواء كان هذا أو ذلك فإن هذا الوعد لم تكن له قيمة إلا إذا أقره الويتان Witan ؛ ولكن هرولد - كما يقول وليم - قد قبل منه مرتبة الفروسية أثناء زيارة له في رون (في تاريخ لانعرفه الآن) ، فأصبح بذلك « رجل » وليم يدين له بالطاعة حسب قانون الإقطاع ، وأنه وعد بأن يعترف به وارثاً لعرش إدورد ويؤيده، في المطالبة به . واعترف هرولد بهذا الوعد (٢٩) ولكن قسّمه أما كان لم يكن من شأنه في هذه المرة أيضاً أن يقيد الأمة الإنجليزية بشيء ،

فاختاره ممثلو تلك الأمة بكامل حريتهم ملكاً عليهم ، واعتزم هرولد أن يدافع عن ذلك الاختيار . ولجأ وليم إلى البابا ، وحكم الكسندر الثاني بناء على مشورة هلدبراند Hildebrand بأن هرولد معتصب ، وحرمه هو ومناصريه من الكنيسة المسيحية ، وأعلن أن وليم صاحب الحق الشرعي في عرش إنجلترا ، وبارك غزوة وليم المرتقب ، وبعث إليه بعلم مدشن وخاتم يحتوي على شعرة من رأس القديس بطرس في داخل ماسة^(٣٠) . وقد سرّ هلدبراند أن يجعل هذه الحادثة سابقة لتصرف البابوات في عروش الملوك وفي خلعهم ، وطبق هذه السابقة بالفعل بعد عشر سنين من ذلك الوقت على هي الرابع ملك ألمانيا ، ولم تكن أمة ضعوبة في استخدامها مع الملك چون عام ١٢١٣ . وانضم لانفرايك رئيس دير بك إلى وليم في دعوة أهل نورمنديّة - أو على الأصح أهل جميع الأقطار - لشن حرب مقدسة على الملك المحروم .

ولاقى هرولد في كهولته الخيرة جزاء ما ارتكبه في شبابه من آثام . ذلك أن أخاه تستج الذي نفاه الويتان من زمن بعيد لم يستدعه هرولد من منفاه بعد أن آل الأمر إليه ، ولهذا انضم تستج إلى وليم ، وحشد جيشاً في شمال البلاد ، وأقنع هارلد هاردرادا Harald Hardrada ملك النرويج بأن ينضم إليه ، ووعدته في نظير ذلك بعرش إنجلترا . وبينما كانت عمارة وليم البحرية المولفة من ١٤٠٠ سفينة تطلع من نورمنديّة إذ أغارت تستج وهاردرادا على نورثمبرلند . واستسلمت لهما مدينة بورك ، وتوج فيها هاردرادا ملكاً على إنجلترا ، وأسرع إليه هرولد بمن معه من الجنود وهزم الغزاة من الشمال عند جسر استامفورد Stamford Bridge (في ٢٥ سبتمبر) ، وقتل في هذه الواقعة تستج وهاردرادا ، ثم اتجه هرولد نحو الجنوب ومعه قوة قليلة يعجز لقلتها عن الوقوف في وجه جيش وليم ، وأشار عليه جميع ناصحيه بالريث . ولكن وليم كان يحرق إنجلترا الجنوبية ويخربها تخريباً ، وكان هرولد يحس بأن من واجبه أن يحمي الأرض التي خربها هو من قبل والتي أصبح

ينجها اليوم . والتقى الجيشان عند سنلاك Senlac بالقرب من هيستنجنس Hastings (١٤ أكتوبر) ونشبت بينهما معركة دامت تسع ساعات . واخترق أحد السهام عين هرولد فأعماه الدم ، ووقع على الأرض ، ومزق فرسان النورمنديين جسمه تمزيقاً ، فقطع أحداهم رأسه ، وآخر ساقه ، ونثر ثالث أحشاء هرولد في ميدان القتال . ولما رأى الإنجليز قائدهم يخر صريعاً ولوا الأدبار ، وأعقبت هذه الهزيمة مذبحه وفوضى بلغ من هولهما أن الرهبان الذين كلفوا فيما بعد بالبحث عن جثة هرولد لم يعثروا عليها إلا بعد أن جاءوا إلى الميدان بإديث سوانزنك Edith Swansneck التي كانت عشيقته ، فتبينت جثة عشيقها المبتورة الأطراف ، ودفنت قطعها في كنيسة ولنام التي بناها في حياته . ثم توج وليم الأول ملكاً على إنجلترا في يوم عيد الميلاد من عام ١٠٦٦ .

الفصل الثاني

ويلز ٥٢٥ - ١٠٦٦

فتح فرنطيس Frontinus وأجر كولا Agricola بلاد ويلز وضماها إلى رومة في عام ٧٨ م . ولما انسحب الرومان من بريطانيا استردت ويلز حريتها ، وخضعت على كره منها لحكم ملوكها . واحتل غربي ويلز مستعمرون أيرلنديون في القرن الخامس ، ثم جاء إليها فيما بعد آلاف من البريطانيين فارين من الأنجليسكسون الذين فتحوا جزيرتهم . ووقف زحف الأنجليسكسون أمام الحواجز القائمة عند حدود ويلز وأطلقوا على الشعب الذي لم يخضعوه اسم ويلهاس Wealhas - « الأجنب » . ووجد الأيرلنديون والبريطانيون في ويلز سلالة كلتية من جنسهم ، وسرعان ما امتزجت الطوائف الثلاثة وأضحت سمرو Cymru « أبناء وطن واحد » . وصار هذا هو اسمهم كما صار لفظ سمرو Cymru اسم بلادهم . وكان هؤلاء الأقوام يقيمون نظامهم الاجتماعي كله على أساس الأسرة والعشيرة شأنهم في هذا شأن معظم الشعوب الكلتية - البريطانيين ، والكورنيين Cornish (سكان كورنورل الحالية) ، والأيرلنديين ، والجيليين Gaels سكان شمالي إسكتلندا ، وقد بلغ من حرصهم على هذا النظام أن أصبحوا يأنفون وجود دولة تضمهم ، ويرتابون أشد الارتباب في كل شخص أو شعب يجرى في عروقه الدم الأجنبي . ولم يكن سخاؤهم وإكرامهم للضيف أقل قوة من نزعتهم القبلية ، كما لم تكن شجاعتهم تقل عن عدم خضوعهم للنظام ، ولا حياتهم الشاقة وجو بلادهم القارس يقلان عن حبهم للموسيقى والغناء والوفاء للأصدقاء ، ولا فقرهم عن عاطفتهم القوية وخيالهم الواسع اللذين جعلتا من كل فتاة أميرة ومن نصف الرجال ملوكا .

ولم يكن يعلو على منزلة الشعراء المنشدين إلا الملوك أنفسهم . ولم يكن هؤلاء

الشعراء هم عراقي شعب ومؤرخيه ومستشارى ملوكه فحسب ، بل كانوا إلى ذلك شعراءه . وقد خلد الزمان اسمي اثنين من هؤلاء الشعراء هما تليزن Talesin وأنورين Aneurin ؛ وقد عاش كلاهما في القرن السادس الميلادى . وكان هناك مئات غيرها ، وعبرت القصص التي نسجوا بردها القناة الإنجليزية إلى بريطانيا ، ووصلت في صورة مصقولة إلى فرنسا . وكون هؤلاء المنشدون طبقة من الشعراء الدينين ، لم يكن يسمح لأحد أن ينتمى إليها إلا بعد مران صارم دقيق في معارفه . وكان كل من يريد الدخول في زمريهم يسمى ما بينوج Mabinog ، وكانت الموضوعات التي يدرسها تسمى ما بينوجى Mobinogi ، ولهذا أطلق اسم ما بيتوجيون Mabinogion على ما بقى من قصصهم^(٣١) . ولا ترجع هذه القصص في صورتها الحالية إلى ما قبل القرن الرابع عشر ، ولكن أغلب الظن أنها ترجع إلى ذلك الوقت الذى لم تكن فيه المسيحية قد دخلت بلاد ويلز . وهى قصص بدائية ساذجة ذات نزعة وثنية تشهد بأن الأهلى كانوا من عباد الطبيعة ، مليئة بالحيوانات الغريبة والحادثات المدهشة ، يسودها جو نكد من الننى ، والمزيمه ، والموت ؛ ولكنها ذات مزاج رقيق بعيد كل البعد عن الشهوانية والعنف. اللذين نشدهما فى قصص الإدا Eddas الأيسلندية Icelandic ، والساجا Sagas خرافات أهل الشمال ، والنيبيلنجنيلد Nibelungelied . وقد نشأ فى عزلة جبال ويلز أدب خيالى يفيض بالولاء للأمة ، والإخلاص فيما بعد لعيسى ومريم . وكان لهذا الأدب شأن فى نشأة الفروسية ، والقصص العجيبة التي تتحدث عن الملك آرثر Arthur وفرسانه العشاق البواسل اللذين أقسبوا أن « يقضوا على الوثنيين وقيموا دين المسيح » .

ودخلت المسيحية ويلز فى القرن السادس ، وما لبثت بعد دخولها أن افتتحت المدارس فى الأديرة والكنائس . وقد جاء الأسقف العالم أسر الذى كان أمين سر الملك ألفرد وكاتب سيرته من مدينة سانت دافد وكنيسته فى مقاطعة مبروك

Pembrokeshire . وتحملت هذه المزارات والمستقرات المسيحية الهجمات الأولى للقراصنة النورمنديين حتى طردهم الملك رودرى الأكبر Rhodri (٨٤٤ - ٨٧٨) وأنشأ فى الجزيرة أسرة ملكية قوية . ووحد الملك هيول لصالح Hywel The Good (٩١٠ - ٩٥٠) ويلز كلها ووضع لها قانوناً موحداً منظماً . ولاقى جرفيد أب ليولين Gruffydd ab Llywelyn (١٣٠٩ - ١٠٦٣) من النجاح أكثر مما كان يجب أن يلقاه ؛ فلما أن هزم مرسية Mercia أقرب المقاطعات الإنجليزية إلى ويلز ، أعلن عليه هرولد ، الذى أصبح فيما بعد ملكاً على إنجلترا ، حرباً دفاعية لصد عدوانه ، وفتح بلاد ويلز ، وضمها إلى بريطانيا (١٠٦٣) .

الفصل الثالث

الحضارة الأيرلندية ٤٦١ - ١٠٦٦

كانت أيرلندا في الفترة الواقعة بين موت القديس باتريك والقرن الحادي عشر مقسمة إلى سبع ممالك ، منها ثلاث في ألبستر Ulster ، أما الباقية فهي كنوت Connought ، ولينستر Leinster ، ومنستر Munster ؛ وميث Meath . وكانت هذه الممالك تحارب بعضها بعضاً في أغلب الأوقات لأنها لم تستطع الانتقال إلى آفاق من الحياة أوسع من آفاقها الضيقة ؛ ولكننا نسمع من بداية القرن الثالث الميلادي عن غارات يشنها الأيرلنديون على السواحل البريطانية الغربية ، وعن محلات أيرلندية في هذه السواحل . ويسمى الإخباريون هولاء المغيرين بالاسكتلنديين Scots - ويبدو أن هذا اللفظ لفظ أيرلندي معناه الجوالون ؛ وإذا ذكر هذا اللفظ متصلاً بهذه الفترة من الزمن فعناه الأيرلنديون . ولم تنقطع الحروب في أثنائها ؛ وظلت النساء حتى عام ٥٩٠ يُطلبن إلى الاشتراك في القتال ، والرهبان والقساوسة يدعون إليه إلى جانب غيرهم ممن هم أكثر اعتياداً له ، وكان ثمة قانون يمثّل في جوهره قوانين « البرابرة » الذين يسكنون القارة الأوربية ، ويشرف على تنفيذ البريهون Brehons - وهم قضاة من رجال القانون مدربون . أحسن تدريب ، كانوا منذ القرن الرابع يعلمون في مدارس الحقوق . ويولفون رسائل قانونية باللغة الجيلية Gaelic (٣٣) .

ونجت أيرلندا كما نجت اسكتلندا من الفتح الرومانية ، ولهذا فإنها لم تتح لها نعمة الاستمتاع بالقانون الروماني وبالحكومة المنظمة ، فلم يفلح قانونها يوماً من الأيام في استبدال الأحكام القضائية بعادات الثأر والانتقام ، أو التأديب بالانفعال . وظلت الحكومة قائمة على الأساس القبلي ، ولم تفلح قط في

تحقيق الوحدة القومية أو النظرة القومية الشاملة .

وكانت الأسرة هي الوحدة التي يقوم عليها المجتمع وشئونه الاقتصادية ، ويتألف من عدة أسر بطن ، ومن عدة بطون عمارة ، ومن عدة عمائر قبيلة . وكان المفروض أن جميع أفراد القبيلة أبناء رجل واحد ، وأخذت كثير من الأسر تضيف اسم القبيلة التي تنتمي إليها U أو O (حفيد) . للدلالة على نسبها ، فأسرة أونيل مثلاً تقول إنها تنسب إلى نيك جلدنبد . Mial Olundubh ملك أيرلندا في عام ٩١٦ . واتخذت أسر أخرى لنفسها اسم أبيها ولم تضيف إليه إلا لفظ ماك Mac أى ابن . وكانت معظم الأراضي في القرن السابع ملكاً مشتركاً للبطون أو العائثر (٣٤) ، وكانت الأملاك الفردية الخاصة مقصورة على الأدوات والبضائع المنزلية (٣٥) ؛ ولكن الملكية الفردية انتشرت في البلاد قبل أن يحل القرن العاشر الميلادي ، وسرعان ما نشأت طبقة أرستقراطية صغيرة العدد يملك أفرادها ضياعاً واسعة ، كما نشأ عدد لا حصر له من الزراع الأحرار ، وطبقة صغيرة من مستأجري الأرض ، وطبقة أخرى من العبيد أصغر عدداً من أولئك المستأجرين (٣٦) . وظل الأيرلنديون في القرون الثلاثة التي أعقبت دخول المسيحية في البلاد (٤٦١ - ٥٧٠) متأخرين عن الإنجليز من الناحيتين المادية والسياسية ، أما من الناحية الثقافية فقد كانوا في أغلب الظن أرق جميع الشعوب التي تسكن في شمال جبال البرانس والألب .

ويرجع هذا الاختلاف العجيب بين الناحيتين المادية والسياسية من جهة والناحية الثقافية من جهة أخرى إلى أسباب كثيرة : تدفق الغالين والبريطانيين الفارين من الغارات الألمانية في القرن الخامس ، وازدياد الصلات التجارية بالبريطانيين والغالين ، ونجاة أيرلندا قبل القرن التاسع من الهجمات الأجنبية . وقد افتتح فيها الرهبان ، والقساوسة ، والراهبات مدارس كثيرة مختلفة الأنواع والدرجات ؛ منها مدرسة في كلونارد Clonard أنشئت في

عام ٥٢٠ كانت تضم ٣٠٠٠ طالب (إذا أخذنا بأقوال المؤرخين المشايخين لوطنهم^(٣٧)) ؛ ومدارس أخرى في كلنا كنويس Clonmacnois (٥٤٤) ، وكلنفرت Clonfert (٥٥٠) ، وبنجور Bangor (٥٦٠) . وكان عدد غير قليل من هذه المدارس يعد للطلاب مناهج تستمر اثني عشر عاماً تؤدي إلى درجة الدكتوراه في الفلسفة ، وتشمل دزاسات للكتاب المقدس ، وأصول الدين ، والآداب اللاتينية واليونانية القديمة ، ونحو اللغة الجيلية وآدابها ، وعلوم الرياضة والهيئة ، والتاريخ والموسيقى ، والطب والقانون^(٣٨) . وكان ينفق على فقراء الطلبة ممن لا يستطيع آباؤهم أن يعولهم من الأموال العامة ، لأن كثرة الطلبة كانت تعد نفسها لخدمة الدين ، ولهذا لم يكن الأيرلنديون يضمنون بأى بذل في سبيل إعداد الطلاب لهذه المهنة . وظلت هذه المدارس تدرس اللغة اليونانية بعد أن كاد العلم بهذه اللغة يختفي من أوروبا الغربية بزمان طويل . وقد درس الكوين في مدرسة كلنا كنويس ، وفي أيرلندا تعلم جون اسكوتس إرجينا John Scotus Erigena اللسان اليوناني الذي جعله موضع إعجاب شارل الأصيل في فرنسا .

وكان مزاج هذا العصر وآدابه يساعدان على نشأة الأفاصيص والروايات الغرامية ، لكن بعض العقول كانت تنجيه إلى العلوم الطبيعية في أماكن متفرقة من البلاد ، نذكر من أصحاب هذه العقول دنجال Dungal العالم الفلكي ، وفرجيل Fergil العالم في الهندسة النظرية الذي علم قومه أن الأرض كروية ، ودكويل Dieuil العالم الجغرافي الذي أعلن كشف أيسلندا على أيدي الرهبان الأيرلنديين في عام ٧٩٥ ؛ والذي أوضح شدة الضوء في منتصف ليالي الصيف الأيرلندي بقوله إن في وسع الإنسان أن يجد وقتئذ من الضوء ما يمكنه من تنقية البراغيث من قبضه^(٣٩) . وكان النحويون كثيرى العدد ، ويكفي سبباً لهذه الكثرة أن علم العروض في أيرلندا كان في ذلك الوقت أكثر تعقيداً منه في أى مكان آخر . كذلك كان الشعراء كثيرين ، وكانت لهم في المجتمع منزلة عالية ،

بوت كانوا في العادة يجمعون إلى قرص الشعر وكتابة التواريخ وظائف التدريس والحاماة ويجمعون في مدارس للشعر حول شاعر نابه ، ولهذا ورثوا كثيراً مما كان للكهنة الدرويد Druid قبل دخول المسيحية في البلاد من سلطات وامتيازات خاصة . وظلت مدارس الشعراء هذه مزدهرة من القرن السادس إلى القرن السابع عشر دون انقطاع ، وكانت تعتمد في العادة على ما تهبه لها الكنيسة أو الدولة من أرضين (٤٠) . وازدان القرن العاشر بأربعة شعراء قوميين مشهورين : فلان ماك لوني Flann Mac Lonain ، وكنت Kenneth ، وأهارتجان O'Hartigan ، وإيوكيد أفلين Eochaid 'Flainn ، وماك لياج Mac Liag الذي اتخذ الملك بريان بورو Brain Boru شاعر بلاطه .

وانخذت قصص أيرلندة في ذلك العصر صورة أدبية ، وكان جزء كبير من مادة هذه القصص متداولاً قبل أيام بتريك ، ولكن الناس كانوا يتناقلونها شفويًا ثم صيغت وكتبته قالب من النثر الموزون ، والشعر الغنائي ، وما من شك في أن شعراء ذلك العصر هم الذين وضعوها في قالبها الأدبي ، وإن لم تصل إلينا مخطوطة إلا بعد القرن الحادي عشر . ومن هذه القصص طائفة متصلة الحلقات تحلد ذكرى آباء الشعب الأيرلندي الأسطوريين . فمنها طائفة « فينية Fenian » أو « أسيانية Ossianic » تقص في شعر حماسي مثير مغامرات البطل الخرافي فن ماك - كهيل Finn Mac Cumhail وأبنائه وحفدته الفيانا Fianna أو الفنين Finians . وتعزو الروايات المتداولة معظم هذه القصائد إلى أسيان Ossian بن فن Finn ، الذي عاش ، كما تقول الروايات ، ثلاثمائة عام ومات أيام القديس بتريك ، بعد أن وهب القديس قسطا من عقله الوثني . وتدور طائفة حماسية من القصص حول كوشولين Cuchulain الملك الأيرلندي ، الذي نشهده في مائة منظر داعر من مغامرات الحرب والحب . وأجمل قصة في هذه المجموعة تروى قصة ديردر Deirdre ابنة فليم Felim كبير شعراء الملك كونور Conor

ومضمونها أن قسا درويدياً يتنبأ لها ساعة مولدها بأنها ستسبب كثيراً من
النكبات لبلادها ألبستر ؛ ويرفع الشعب عقيرته قائلاً : « فلتدبح » ،
ولكن الملك كونور يحمها من غضب الشعب ، ويربها ، ويعزم الزواج بها .
وتزداد الفتاة جمالا على مر الأيام ، ثم تبصر ذات صباح الفتى ناأويز Naoise
الوسيم يلعب الكرة مع غيره من الشبان ، وتلتقط الفتاة كرة ألقيت خطأ
وتعيدها إليه ، و « ضغط على يدي وهو مبتهج » . وتوثر هذه الحادثة في
عواطفها الناضجة فترجو خادمتها الخاصة قائلة : « أى مربيتي الرقيقة ،
إذا كنت تحبين لي الحياة ، فاحلى مني رسالة إليه ، وقولي له أن يأتي
ليتحدث إلى « سراً في هذه الليلة » . ويقبل ناأويز ويغترف من حبا حتى
يسكر ، ثم يأتي إليها هو وأخواه لينل Ainnie وأردان Ardan في الليلة
الثانية وينقلانها برضاها بطريق البحر إلى اسكتلندة . ويقع أحد ملوك
اسكتلندة أسير هواها ، فيخفيها الإخوة الثلاثة في شعاب الجبال ، ثم يبعث
الملك كونور بعد حين رسالة يقول فيها إنه يعفو عنهم جميعاً إذا عادوا
إلى إيرين Erin . ويوافق ناأويز على طلب الملك مندفعاً إلى ذلك بحبته إلى
وطنه ومسارح صباه ، وإن كانت ديدرر تحنره عاقبة هذه العودة وتذرره
بأن الملك سيغدر به . وما كادوا يصلون إلى أيرلندة حتى هاجمهم جنود
كونور ، ويقاتل الإخوة قتال الأبطال ، ولكنهم يخرون جميعاً صرعى ،
ويطير لب ديدرر من شدة الحزن ، فتلقى بنفسها على الأرض وتمتص دماء
حبيبها ، وتشد هذه الأغنية الحزينة :

بينما كان أعيان البا Aiba (اسكتلندة) ذات يوم يقصفون

ويعرحون

إذ طبع ناأويز في السر قبلة

على وجنة ابنة لورد دنترون Duntrone ،

ثم بعث إليها بظبية وثابة ،

ظبية من ظباء الغاب وتمت قدمها خشف ،
ثم أقبل عليها زائراً
وهو عائد من جيش إنفرنس Inverness ،
فلما سمعت هذا ، اكتوى قلبي بنار الغيرة ،
ودفعت زورقي الصغير فوق الموج
ولم أبال هل قدر لي أن أحيأ أو أموت .
ونزلاً إلى الماء في إثري
إينل وأردان ، اللذان لم ينطقا قط بغير الحق ،
وجاءا بي مرة أخرى إلى البر ،
وهما فتیان يغلبان مائة من الأبطال ،
وقطع لي نأويز عهداً صادقاً
وأقسم بسلاحه ثلاث أيمان مغلظة
ألا يمسن وجهي مرة أخرى
حتى يذهب من عندي إلى جيش الموتى
يا ويلها ، لو أنها سمعت في هذه الليلة
أن نأويز مسجى في التراب
إذن لزرقت الدمع مدراراً
ولبكييت معها سبع مرات .

وتختتم أقدم صيغة من صيغ قصة « ديردر ذات الأشجان » بخاتمة قوية
تقى سداجتها : « وكانت بالقرب منها صخرة كبيرة ، وضربت برأسها الحجر
فتحطمت جمجمتها ولاقت حتفها » (٤١) .

وكان الشعر والموسيقى وثيق الصلة في أيرلندا ، شأهما في غيرها من البلاد
في حياة العصور الوسطى . فكانت الفتيات يغنين وهن ينسجن أو يغزلان
(٢٠ - ٢١ - ٢٢ - مجلد ٤)

أو يلحن الأبقار ؛ وكان الرجال يغنون وهم يفلحون الأرض أو يسرون إلى ميدان القتال ؛ والمبشرون يعزفون على القيثارة ليجمعوا حولهم مستمعهم ، وكانت أحب الآلات الموسيقية هي القيثارة ، وكانت تتألف عادة من ستين وترأ ، يعزف عليها بالأنامل ، وكانت التمبان timpan كماناً ذات سبعة أوتار تضرب بالريشة أو القوس ؛ وكانت آلات موسيقى القرب تعلق في الكتف وتنفخ بالفم ؛ ووصف جيرالدوس كمبرنسس Giraldu Cambrensis (١١٨٥) . العازفين الأيرلنديين على القيثارة بأنهم أحسن من سماع من العازفين ، وهو لإطراء عظيم القيمة لصدوره من ويلز المحبة للموسيقى .

وليس أجل ما أثمره الفن الأيرلندي في ذلك العصر كأس أرداغ Ardagh اللداعة الصيت (حوالي عام ١٠٠٠) التي اجتمعت فيها ٣٥٤ قطعة من الفضة ، والذهب ، والكهرمان ، والبلور ، والميناء المقسمة ، والزجاج ؛ بل إن أجل منها « كتاب كلز Book of Kells وهو يحتوي الأناجيل الأربعة مخطوطة في القرن التاسع على الرق بأيدي رهبان أيرلنديين في بلدة كلز من أعمال ميث Mcath أو في جزيرة أيونا Iona ، وهو الآن من أعظم ما تمتلكه كلية ترنتي Trinity College بدبلن . وجاء طراز تزيين الكتب البيزنطي والإسلامي إلى أيرلندا عن طريق الاتصال البطيء بين الرهبان بعضهم ببعض مخترقين الحدود ، وبلغ فيها درجة الكمال في فترة قصيرة من الوقت . ولم يكن لصور الإنسان والحيوان في تزيين الكتب بأيرلندا إلا شأن ضئيل ، مثله في هذا كمثل هذا الفن عند المسلمين ، فقد كانوا يرون أن إنساناً أو حيواناً مهما بلغ لا يساوي نصف الحرف الأول . وكانت الروح السارية في هذا الفن هي أن يؤخذ حرف من الحروف أو شكل زخرفي واحد ، ويمد فوق أرضيه زرقاء أو ذهبية اللون بشكل فكه مبهج حتى يكاد يغطي الصفحة بتمامها في نسيج متشابك أشبه بالمتاهة . وليس في المخطوطات المسيحية المزخرفة ما يفوق كتاب كلز هذا ، ويصفه

چرلد Gird من كتاب ويلز - وهو الذى لا ينفك يظهر غيرته من أيرلندة - بأنه من عمل الملائكة المتخفين فى أثواب البشر^(٤٢) .

وإذ كان هذا العصر الذهبى فى أيرلندة نتيجة لسلامتها من الغزوات الألمانية التى أرجعت سائر أوربا مئآت السنين إلى الوراء ، فقد قضت عليه غزوات الشماليين التى قضت فى فرنسا وإنجلترا خلال القرنين التاسع والعاشر على كل ما أحرزه هذان البلدان بفضل ما بذله شارلمان وألفرد من جهود جبارة . ولعله قد تراسى إلى أهل النرويج والدنمرقة - وكانوا لا يزالون وثنيين - أن الأديرة الأيرلندية غنية بالذهب ، والفضة ، والحلى ، وأن انقسام البلاد السياسى يجعلها عاجزة عن مقاومة أعدائها متحدة . وحدثت غزوة تجريبية فى عام ٧٩٥ ولكنها لم تسب للبلاد خسارة تذكر ، غير أنها أيدت ما كان يشاع عن عدم مقدرة هذه الفريسة على صد الغزاة ؛ ثم أعقبتها غزوات أخرى أكبر منها فى عام ٨٢٣ نهب فيها الغزاة كورك Cork وكلوين Cloyne ، وخربوا دبرى بنجور Bangor وموفيل Moville وذبحوا رجال الدين . ولم تكد تخلو سنة واحدة بعد ذلك العام الأخير من غزوة أو غزوات ؛ استطاعت جيوش صغيرة باسلة أن تصد فيها الغزاة فى بعض الأحيان ، ولكنهم كانوا يعيدون الكرة وينهبون الأديرة أينما حلوا . واستقرت جماعات من الغزاة الشماليين قرب شاطئ البحر ، وأنشأوا مدائن دبلن ، ولمرك Limerick ، ووترفورد Waterford وفرضوا الجزية على نصف الجزيرة الشمالى . واتخذ ملبيكهم ثورجست Thorgest أرماغ Armagh مدينة القديس پترىك عاصمة للملكه الوثنى ، وتزوج زوجته الوثنية على مذبح كنيسة القديس كيران St. Kieran فى كلونما كنيوس^(٤٣) . وحارب ملوك أيرلندة متفرقين غزاة بلادهم ، ولكنهم كانوا فى الوقت عينه يحارب بعضهم بعضاً . فقد قبض ملاخى Melachi ميث على ثورجست وأماته غرقاً (٨٤٥) ، ولكن أولاف الأبيض Olof the White أحد الأماء النرويجيين أسس فى عام ٨٥١

مملكة دبلن التي ظلت تابعة لأهل الشمال حتى القرن الثاني عشر . وقضت هذه الغزوات المتتابة على عصر العلم والشعر ، وأحلت محله عصر الحروب الطاحنة ، وكان الجنود المسيحيون والوثنيون في خلاله ينهبون الأديرة ويحرقونها ، ويتلفون المخطوطات القديمة ويشنتون ما تجمع من التحف الفنية خلال القرون الطوال ، « ولم يمارس شاعر ، أو فيلسوف ، أو موسيقي فنه المعتاد في تلك البلاد » كما يقول مؤرخ أيرلندي قديم^(٤٤) .

وظلت الحال كذلك حتى ظهر آخر الأمر رجل كان له من القوة ما أمكنه أن يجمع شتات هذه الممالك ويؤلف منها أمة موحدة . كان بريان بورمها أو بورو Brian Borumha or Boru (٩٤١ - ١٠١٤) أخاً لماهون ملك منستر King Mahon of Munster ، وزعيم عمارة دلجاس Dalgas . وحارب الأخوان جيشاً دنمركياً بالقرب من تيريري Tipperary (٩٦٨) ومزقاه شرمزق ، ولم يرحم فلوله المنهزمة ، ثم استوليا على لمرك ، وقتلا كل من عثرا عليه فيها من الشماليين . ولكن اثنين من صغار الملوك - ماوى ملك دزمنند Molloy of Desmond ودونافان ملك هاى كاربرى Donavan of Hy Carbery - خشيا أن يستولى الأخوان الزاحفان على مملكتيهما فعقدا حلفاً مع المهاجرين الدنمركيين ، واختطفوا ماهون وقتلاه (٩٧٦) . وأوقع بريان ، وقد أصبح الآن ملكاً ، هزيمة ثلثية بالدنمركيين ، وقتل ملوى . وصمم على توحيد أيرلندة كلها ، ولم يتردد في اتباع أية وسيلة توصله إلى هذه الغاية ، فتحالف مع الدنمركيين مالكي دبلن ، وهزم بمعونتهم ملك ميث ، ونودى به ملكاً على أيرلندة كلها (١٠١٣) . ولما استمتع بالسلم بعد حروب دامت أربعين عاماً ، أخذ يعيد بناء الكنائس والأديرة ، ويصلح الجسور والطرق ، وينشئ المدارس والكليات ، ويفر النظام ويقضى على الجرائم . ولقد وصف الخلف ذوالخيال الواسع ما ساد البلاد من أمن بفضل هذه « السلم المالكية » قصة كثيراً ما نراها في غير هذه المناسبة ،

حقاقوا إنه كان في مقدور الفتاة المثقلة بالحلى والجواهر أن تطوف في أنحاء البلاد بمفردها دون أن يتعرض لها أى أحد بأذى . وحشد أهل الشمال بأيرلندة في هذه الأثناء جيشاً آخر ، زحفوا به على الملك الطاعن في السن ، والتقى بهم الملك الإيرلندى عند كلنتارف Clontarf القريبة من دبلن في يوم الجمعة الحزينة في الثالث والعشرين من إبريل عام ١٠١٤ وهزمهم ، ولكن ابنه مروغ Murrogh قتل في أثناء المعركة ثم ذبح بريان نفسه في خيمته .

وحلت السلم - وهى الترف الذى لا يستمتع به إلا المحظوظون - في البلاد المنكوبة إلى حين ، وانتعشت الفنون والآداب من جديد في القرن الحادى عشر ، وظهر في خلاله كتاب لينستر the Book of Leinster وكتاب الترانيم وهما لا يكادان يقلان في جمال زخرفهما عن كتاب كلز نفسه . وكان للمؤرخين والعلماء شأن كبير في مدارس الأديرة ، غير أن الروح الأيرلندية الشكسة لم تكن قد روضت بعد ، فقد عادت الأمة فانقسمت إلى ممالك متعادية ، وأنهكت قواها في الحروب الداخلية ، ورأت حفنة من المغامرين من أهل ويلز وإنجلترا في عام ١١٧٢ أن من السهل عليها أن تفتح « جزيرة الدكاترة والقديسين » - وإن لم تجد من السهل عليها أن تحكمها .

الفصل الرابع

اسكتلندة ٣٢٥ - ١٠٦٦

هاجرت في أواخر القرن الخامس قبيلة من الاسكتي Scotti الجلبين من شمالي أيرلندة إلى الجزء الجنوبي الغربي من اسكتلندة ، وأطلقوا اسمهم على جزء من شبه الجزيرة ذى المناظر الجميلة الخلافة الواقع في شمال نهر التويد Tweed ثم على شبه الجزيرة كلها . وأخذت ثلاث قبائل أخرى تنازعها على امتلاك « كالدونية Caledonia » القديمة هذه : الپكت Picts وهى قبيلة كلتية استقرت فوق خليج فورث The Firth of Forth ، والبريطانيون وهم الذين فروا أمام غزاة بريطانيا الأنجليسكسون واستقروا بين نهر درونت Derwent وخليج كليد Firth of Clyde ، والآنجلز Angles أو الإنجليز الضاربون بين نهر تين Tyne وخليج فورث . ومن هؤلاء كلهم تألفت الأمة الأسكتلندية : وهى أمة إنجليزية في لغتها ، مسيحية في دينها ، نارية في مزاجها كالأيرلنديين ، عملية كالإنجليز ، ماكرة ، قوية الخيال ككل كاتى .

وكان الاسكتلنديون كالأيرلنديين يستنكفون أن يتخلوا عن نظامهم القائم على صلة القرى ، ولا يرغبون في أن يستبدلوا الدولة بالقبيلة . ولم يكن يضارع النزاع بين الطبقات في شدته إلا ولاؤهم للقبيلة ، وفخرهم بولائهم لها ، وشدّة مقاوتهم لأعدائهم الأجانب . وعجزت رومة عن فتح بلادهم ، بل إن سور هدریان الذى أقيم بين سلواى Solway والتين (١٢٠ م) ، وسورانطونينس پیوس Antoninus Pius ، الذى يبعد ستين ميلاً نحو الشمال بين خليجى فورث وكليد (١٤٠) ، وحروب سېتيموس سېفريس Septimius Severus (٢٠٨) أو ثيودوسيوس Theodosius (٣٦٨) ، بل إن هذه كلها لم تجد نفعاً في القضاء

على الغزوات المتكررة التي كان يشنها الهكت الجياع من حين إلى حين على البريطانيين . وفي عام ٦١٧ استولى السكسون بقيادة إدون ملك نوربريا على معقل الهكت الجبلي الحصين وأطلقوا عليه اسم إد (و) نبرج Ed (w) inburgh (إدنبره) ، وفي عام ٨٤٤ ضم كنه مارك ألين Kenneth Mac-Alpin الهكت والاسكتلنديين تحت سلطانه ؛ وفي ٩٥٤ استردت القبائل إدنبره ، واتخذتها عاصمة لها ؛ وفي ١٠١٨ استولى ملكولم الثاني على لوثيان Lofthian (الإقليم الواقع شمال نهر التويد) ، وضمها إلى مملكة الهكت والاسكتلنديين . وبدا أن الكلت قد ضمنوا لأنفسهم السيادة على البلاد ؛ ولكن غزو الدنمركيين لإنجلترا دفع آلافاً من « الإنجليز » إلى جنوبي اسكتلندا ، وتدفق بذلك عنصر أنجليسكسوفى قوى إلى دماء الأسكتلنديين .

وجمع دنكان الأول Duncan I (١٠٣٤ - ١٠٤٠) هذه الشعوب الأربعة كلها - الهكت ، والاسكت Scotts ، والكلت البريطانيين ، والأنجليسكسون - وكون منها مملكة واحدة هي مملكة اسكتلندا . ولما هزم الإنجليز دنكان عند درهام Durham مهدت هذه الهزيمة السبيل لقائه مكبث Macbeth ، فطالب لنفسه بعرش البلاد لأن زوجته جروتش Gruoch كانت جفيدة كنه الثالث . واغتال مكبث دنكان (١٠٤٠) ، وحكم البلاد سبعة عشر عاماً قتله بعدها ملكولم الثالث ابن دنكان . واغتيل من الملوك السبعة عشر الذين حكموا اسكتلندا بين عامي ٨٤٤ و ١٠٥٧ اثنا عشر لأن ذلك العصر كان مليئاً بأعمال العنف والنزاع المرير طلباً للغذاء والماء ، والحرية والسلطان . ولم تجد اسكتلندا في تلك السنين المليئة بالأحداث الجسام متسعاً من الوقت تمارس فيه ترف الحضارة ونعمها ؛ فقد اغتصب المغيرون الشماليون جزائر أوركني Orkney ، وفارو Faeroes ، وشتلندا Shetland ، وهريده Hebrides ؛ وقضت إنجلترا حياتها كلها مهددة بغارات قراصنة الشمال (الفيكنج Vikings) الشداد الذين كانوا يبسطون سلطانهم وينشرون بني جنسهم في أنحاء العالم الغربي

الفصل الخامس

أهل الشمال The Northmen : ٨١٠ - ١٠٦٦

١ - قصص الملوك The Kings' Saga

يلوح أن أهل الشمال كانوا من التيوتون الذين انتقل أسلافهم إلى بلاد السويد والنرويج بعد أن اخترقوا الدنمرقة وعبروا مضيق أسكجراك Skaggerak وكتجات Kattegat ، وحلوا في البلدين محل الكلث الذين حلوا من قبل محل شعب شبيه باللايلاندين والإسكيمو^(٤٥) . وأطلق زعيم قديم يدعى دان مكلاتي Dan Mikillati اسمه على الدنمرقة - ومعناها منقح دان أوولايته ؛ وتركت قبيلة اسويونس Suiones ، إحدى القبائل القديمة التي وصفها تاسيتس Tacitus بأنها كانت تسيطر على شبه الجزيرة العظيمة ، تركت هذه القبيلة اسمها في اسم بلاد السويد Sweden (اسفريج Sverige) ، وفي اسم كثير من الملوك الذين يسمون اسوين Sweyn ؛ وليس معنى لفظ النرويج (نورج Norge) إلا الطريق الشمالي . وأصبح لفظ اسكاني Scanie وهو الاسم الذي أطلقه بليني الأكبر على بلاد السويد اسكانديا Scandia في اللغة اللاتينية ، ونشأ منه لفظ إسكنديناوه Scandinavia الذي يشمل الآن ثلاث أمم وثيقة الصلة في دماؤها ذات لغات يفهم المتحدثون بها بعضهم بعضاً . وزادت خصوبة النساء أو زاد خيال الرجال في الأقطار الثلاثة على خصوبة التربة ، فعمد الشبان أو غير الراضين عن مصيرهم إلى زوارقهم ، وأخذوا يحومون حول السواحل يطلبون الطعام ، أو العبيد ، أو الأزواج ، أو الذهب ، ولم يكونوا لجوعهم يرعون قانوناً أو حدوداً للأقاليم ؛ فاجتاح أهل

النرويج اسكتلندة ، وأيرلندة ، وأيسلندة وجربلندة ؛ وأهل السويد
الروسيا ؛ والدنمركيون لإنجلترا وفرنسا .

ولايسعنا لقصر أجل الحياة البشرية أن نذكر في هذه العجالة آلهة تلك
البلاد وملوكها بالتفصيل ؛ وحسبنا أن نقول هنا إن جورم Gorm
(٨٦٠ - ٩٣٥) وهب دنمركة وحدتها ؛ وإن ابنه هارلد بلوتوث (صاحب
السن الزرقاء) Harald Bluetooth (٩٤٥ - ٩٨٥) جعل المسيحية دينها ؛
وإن سوين فورك بيرد ذا اللحية المتشعبة Sweyn Forkbeard (٩٨٥ -
١٠١٤) فتح إنجلترا ورفع دنمركة مدى جيل من الزمان إلى منزلة من دول
أوروبا الكبرى . وجعل الملك أولاف اسكتكوننج Olaf Skottconung
(٩٩٤ - ١٠٢٢) المسيحية دين السويد ، ومدينة أبسالا Uppsala عاصمة
ملكه . وكانت بلاد النرويج في عام ٨٠٠ مؤلفة من إحدى وثلاثين إمارة ،
تفصلها بعضها عن بعض الجبال ، والأنهار ، والخلجان الطويلة الضيقة
العميقة (الفيوردات) ، ويحكم كلا منها زعيم من المخارين ، وظلت
كذلك حتى عام ٨٥٠ حين زحف هلفدان الأسود Halfdan the Black
أحد دولاة الزعماء من عاصمته ترندهم Trondheim وأخضع لحكمه
معظم الزعماء الآخرين ، وصار أول ملوك النرويج . وخرج على
ولده هارلد هارفاجر Harald Haarfager (٨٦٠ - ٩٣٣) الزعماء
التمردون ، ورفضت جيذا Gyda التي خطبها لنفسه الزواج به إلا بعد
أن يفتح جميع بلاد النرويج ، وأقسم ألا يقص شعره أو يمشطه حتى
يتم هذا الفتح ، وأمه بالفعل في عشر سنين ، وتزوج بعدها
بجيذا وبتسع نساء غيرها . ثم قص شعره وسمى باسمه المميز له -
« صاحب الشعر الأشقر » (٤٦) . وحكم هاكون الصالح Haakon the
Good (٩٣٥ - ٩٦١) أحد أبنائه الكثيرين بلاد النرويج حكماً صالحاً دام
سبعاً وعشرين سنة ، قال فيها أحد قراصنة البلاد إن « السلم طالت حتى أصبحت
أخشى أن توافيني منيقي في شيخوختي وأنا على فراشي في عمر داري » (٤٧) .

وحكم هاكون آخر - الإيرل الأكبر The Great Earl الترويج حكماً حازماً دام ثلاثين عاماً (٩٦٥ - ٩٩٥) ؛ ولكنه أغضب الزراع الأحرار في شيخوخته باتخاذهم محظيات له ثم إعادتهن بعد أسبوع أو أسبوعين ، فاستقدم أولئك الزراع الأحرار أولاف ترچفسون Olfat Tryggvesson ونادوا به ملكاً عليهم .

وكان أولاف بن ترچف حفيد أحد أبناء هارالد ذا الشعر الأشقر ؛ وكان « رجلاً شديداً المرح والمجون » - كما يقول سنورى الأيسلندى Snori of Iceland - طروباً ، أنيساً ، محباً للاجتماع بالناس ، جواداً كريماً ، متأنقاً في لباسه . . . بديناً ، قويا ، أجمل الناس خلقاً وأعظم براعة في الرياضة البدنية من كل من سمعنا به من أهل الشمال » (٤٨) . وكان في مقدوره أن يتنقل على المجاذيف خارج سفينته والرجال يجذفون ، وبلعب بثلاثة خناجر حادة الأطراف ، ويقذف بحربتين في وقت واحد ، و « يستطيع أن يحسن القطع بكلتا يديه بدرجة واحدة » (٤٩) . وكان كثير المنازعات والمغامرات ؛ وقد اعتنق المسيحية وهو في الجزائر البريطانية ، وأصبح أعظم دعاةها قسوة ؛ فلما جلس على عرش الترويج (٩٩٥) هدم المعابد الوثنية ، وشاد الكنائس المسيحية ، وظل يعيش مع عدد من الزوجات . وقاوم الزراع الأحرار الدين الجديد أشد مقاومة ، وأصرروا على أن يقرب أولاف القربان إلى ثور Thor كما تقضى بذلك الشعائر القديمة ، وأجابهم أولاف إلى ما طلبوا ولكنه عرض أن يقرب إلى ثور خير قربان يرتضيه وهو الزراع الأحرار أنفسهم ؛ فلم يكن منهم لزاء ذلك إلا أن اعتنقوا الدين المسيحي . ولما استملك واحد منهم يدعى راند Rand بدينه الوثني ، أمر أولاف بشد وثاقه ودفع ثعباناً في حلقه بأن كوى ذيل الثعبان بالنار ، فاندفع الثعبان إلى بطن راند وجنبه ، وقضى على حياته (٥٠) . وخطب أولاف لنفسه سجرید Sigrid ملكة السويد ، فوافقت على الخطبة ، ولكنها أبت أن تتخلى عن دينها الوثني ، فما

كان من أولاف إلا أن ضربها بقفازه في وجهها وقال لها : « وما الذى يرغمنى على أن أنخذك زوجة وأنت عجوز شبطاء ، سليطة كافرة ؟ » . فردت عليه سجعريد بقولها : « سيكون فعلك هذا سبباً فى موتك يوماً من الأيام » . وبعد سنتين من هذه الحادثة شن ملكا السويد والدمرقة ، وإيرل إريك النرويجي Eric Earl of Norway الحرب على أولاف ، وهزمه فى معركة حربية حامية الوطيس بالقرب من روجن Rügen ، وألقى أولاف وهو بكامل عدته وسلاحه إلى اليم ، ولم يظهر له أى أثر بعد (١٠١٠) ، وقسمت بلاد النرويج على أثر ذلك بين الحليفين المنتصرين .

وأعاد أولاف آخر يدعى القديس بلاد النرويج إلى وحدتها (١٠١٦) ، كما أعاد النظام ، وعدل فى قضائه ، وأتم تحويل البلاد إلى الدين المسيحى . ويصفه اسنورى Sonri بقوله إنه « كان رجلاً صالحاً دمث الأخلاق إلى حد بعيد ، لا يتكلم إلا قليلاً ، سخياً ، واكنه شره فى جمع المال » مدمن بعض الإدمان على الاستمتاع بالسراى^(٥١) . ومن أعماله أنه قطع لسان أحد الزراع الأحرار لأنه فضل الوثنية على المسيحية ، وسمل عيني زارع آخر^(٥٢) . وواتر الزراع به مع كنوت ملك الدمرقة وإنجلترا ، فسيراً عليه خمسين سفينة . وطرده أولاف من النرويج (١٠٢٨) ، ولكن أولاف عاد إليها بجيش ، وحارب لاسترجاع عرشه عند استكل ساند Sticklesand ، فهزم ومات متأثراً بجراحه (١٠٣٠) . وشاد من جاء بعده من النرويجيين كنيسة فى موضع المعركة تخليداً لذكوره ، واتخذوه القديس الشفيغ للنرويج . واسترد ابنه ماجنس الصالح Magnus the Good (١٠٣٥ - ١٠٤٧) مملكته ، ووهبها قوانين غادلة وحكماً صالحاً . وحكم حفيده هارلد الصارم Harald the Stern (١٠٤٧ - ١٠٦٦) حكماً عادلاً خالياً من الرحمة دام حتى استولى وليم النورمندى على إنجلترا .

وحدث فى عام ٨٦٠ أن أعاد جماعة من الشماليين قدموا من النرويج

أو الدنمركة كشف جزيرة أيسلنדה ، ولم يسوهم كثيراً أن يجدها شديدة الشبه ببلادهم في ضبابها وفيورداتها . وهاجرت جماعات من النرويجيين إلى الجزيرة . في عام ٨٧٤ فراراً مما كانوا يعانونه من استبداد هارلد هارفاجر ، ولم يحل عام ٩٣٤ حتى بلغ سكانها من الكثرة درجة لم تزد عليها في جميع تاريخها حتى الحرب العالمية الثانية . وكان لكل ولاية من ولاياتها الأربع ثنجهة thing أو جمعيتها ، ثم أنشئ في عام ٩٣٠ ثنجهة العام أو برلمانها الموحد . وكان من أقدم الهيئات في تاريخ الحكم النيابي ، وبفضله كانت أيسلنדה في ذلك الوقت هي الجمهورية الوحيدة الكاملة الحرة في العالم كله . ولكن ذلك العنقوان وتلك النزعة الاستقلالية اللذين كانا سبباً في الهجرة إلى الجزيرة ، وقيام هذا المجلس النيابي فيها ، أضعف من سلطان الحكومة العامة والقوانين المشتركة ، فكان من أثر ذلك أن أصبح الأفراد الأقوياء الذين ثبتت أقدامهم في ضياعهم الواسعة أصحاب الأمر والنهي في أراضيهم ، وما لبثوا أن جددوا في أيسلنדה المنازعات التي جعلت بلاد النرويج شوكة في جانب ملوكها . وجعل الثلج العام (Allthing) المسيحية الدين الرسمي للبلاد في عام ١٠٠٠ ، ولكن الملك أولاف القديس ساءه أشد الاستياء ما سمعه من أن أهل أيسلنדה لا يزالون يأكلون لحم الخيل ويندون أطفالهم . ولعل طول ليالي الشتاء وشدة بردها كانا السبب في نشأة أدب قوامه أساطير وأقاصيص لعلها تفوق من حيث الكم والكيف مثيلاتها من القصص والأساطير التي تروى في أرض الشماليين .

وبعد ستة عشر عاماً من إعادة كشف أيسلنדה شاهد أحد ربانتي السفن . النرويجيين ويدعى جنبجورن ألفسون Gunnbjorn Ulfsson سواحل جرينلنדה . وأنشأ فيها ثورولد Thorwald ولده إرك الأحمر مستعمرة نرويجية عام ٩٨٥ . ثم كشف بجرن هرچلفسن Bjerne Herjulfsson لبرادور Labrador في عام ٩٨٦ ، وفي عام ١٠٠٠ نزل ليف Leif بن إرك الأحمر إلى القارة الأمريكية .

ولسنا نعرف أكان الموضع الذى نزل فيه هو لبرادور ، أم نيوفوندلند . Newfoundland ، أم رأس كد Cod ، وقضى ليف إركسن . Lief Ericsson الشتاء فى « فنلند Vinland » (أرض الخمر) ثم عاد بعدئذ إلى جرينلندة ، وفى عام ١٠٠٢ قضى أخوه ثورولد هو وثلاثون رجلاً عاماً كاملاً فى فنلندة . وتروى حاشية لا يتأخر تاريخها عن عام ١٣٩٥ فى « قصة أولاف ترچفسون » التى كتبها اسنرى استرلوسون Snorri Sturluson (١١٧٩ - ١٢٤١) قصة خمس رحلات مختلفة شها أهل الشمال على قارة أمريكا بين عامى ٩٨٥ و ١٠١١ . وقد جاء كرسقر كولبس Christopher Columbus ، كما يقول هو نفسه ، إلى أيسلندة ، ودرس ما يتردد على لسان أهلها من أقوال عن الدنيا الجديدة^(٥٣) .

٣ - الحضارة الفيكينجية (حضارة القراصنة الشماليين) (*)

كان النظام الاجتماعى يقوم بين أهل الشمال ، كما يقوم بين سائر الشعوب القديمة ، على التأديب العائلى ، والتعاون الاقتصادى ، والإيمان الدينى . وقد جاء فى فقرة من بيولف أن « لاشيء يقضى على وشائج القربنى عند صاحب البصيرة »^(٥٤) . وكان غير المرغوب فيهم من الأطفال يعرضون للموت ، ولكن الطفل إذا ما قبله أبواه تلقى على يديهم مزيجاً من التأديب والحب ؛ ولم يكن عندهم أسماء أسر ، بل كان كل ولد يكتبى بأن يضيف إلى اسمه اسم أبيه : أولاف هرالدسون ، ماجنس أولافسون ، هاكون ماجنسون . وكان أهل اسكنديناوة

(٥) لفظ فيكنج مشتق من لفظ فيك فى لغة أهل الشمال الأقدمين ومعناه شرم أو فيورد . ويظهر لفظ فيك هذا المعنى نفسه فى نارفيك Narvik ، وشلزويج Schleswig ، وريكجافيك Reykjavik ، وبرويك Barwick ، وويكلو Wicklow وغيرها . ومعنى لفظ فيكنجر Vikingr أحد الذين أغاروا على البلاد الملاصقة للفيوردات ، وسمى « الحضارة الفيكينجية » فى هذا الفصل ثقافة الشعوب الإسكنديناوية فى « عصر الفيكينج » بين عامى ٧٠٠ و ١١٠٠ من التاريخ المبلدى .

قبل دخول المسيحية إلى البلاد بزمن طويل ، إذا أرادوا أن يسموا طفلاً صبوا عليه ماء رهنياً للدخوله في حظيرة الأسرة .

وكان التعليم عندهم ذا صبغة عملية : فكانت البنات يتعلمن الفنون في المنزل ، وكان منها عصر الجملة ؛ أما الأولاد فكانوا يتعلمون السباحة ، والمشي على مزالت الجليد ، وأشغال الخشب والمعادن ، والمصارعة ، والتجديف ، والانزلاق ، ولعبة الكرة والصولجان hockey (والاسم مشتق من الكلمة الدنمرقية hock ومعناها الخطاف) ، والقنص ، والرماية بالقواس والسهم ، والضرب بالسيوف ، والطعن بالحرايب ، وكان القفز من ضروب الرياضة المحببة ، وكان في وسع بعض النرويجيين أن يقفزوا بكامل سلاحهم ودروعهم إلى أعلى من طول قامتهم ، وأن يسبحوا في الماء عدة أميال ؛ ومنهم من كان يسبق أسرع جواد (٥٥) . وكان كثيرون من الأطفال يتعلمون القراءة والكتابة ، وبعضهم يتعلمون الطب أو القوانين . وكان الذكور والنساء على السواء مولعين بالغناء ، ومن هؤلاء وأولئك من كانوا يعزفون على الآلات الموسيقية وهي عادة القيثارة . ونقرأ في إلدرا أدا Elder Adda أن الملك جنار Gunnar كان يستطيع العزف على القيثارة بأصابع قدميه ، ويستطيع بها أن يسحر الأفاعى .

وظل أغنياؤهم متعددى الزوجات حتى القرن الثالث عشر ، وكان الآباء هم الذين يرتبون شئون الزواج ، وكثيراً ما كان ذلك عن طريق الثراء ؛ غير أن أحرار النساء كن يستطعن إلغاء هذا الترتيب (٥٦) ، فإذا تزوجت الفتاة بغير إرادة والديها عد زوجها خارجاً على القانون ، وأباح القانون لأهلها أن يقتلوهما . وكان في وسع الرجل أن يطلق زوجته متى شاء ، فإذا لم يستطع أن يبرر الطلاق بأسباب قوية كان في مقدور أهلها أيضاً أن يقتلوه . وكان من حق الزوج والزوجة أن يطلق أحدهما الآخر إذا ما لبس الرجل ثياب النساء أو لبست المرأة ثياب الرجل — كأن تلبس المرأة سراويل قصيرة ، أو يلبس الرجل قيصاً مفتوحاً عند صدره . وكان

من حق الرجل أن يقتل دون أن يلقي عقاباً - أى دون أن يشتر خصاماً
دموياً - أى رجل يضبطه في علاقة غير شريفة بزوجه (٥٧) . وكان النساء
يكدحن ولكنهن بقى لديهن من الأناقة ما يكفي لأن يقتل الرجال بعضهم
بعضاً من أجلهن ، وكان الرجال ذوو السلطان في الحياة العامة أذلاء كما هي
العادة في بيوتهن : ويمكن القول بوجه عام إن مكانة المرأة في اسكنديناوة
الوثنية كانت أعلى منها في اسكنديناوة المسيحية (٥٨) . فلم تكن فيها أم الخطيئة
بل كانت أم الرجال الأقوياء البواسل ، وكان لها حق الثلث - وحق النصف
بعد عشرين عاماً من زواجها - في كل ما يكسبه زوجها من مال ؛ وكان
يستشيرها في أعماله المالية ، وكانت تختلط في بيتها مع الرجال بكامل حريتها .

وكان العمل مما يشرف صاحبه ، وكان لجميع الطبقات منه نصيب ؛
وكان صيد السمك من الصناعات الكبرى ، وصيد الحيوان من ضرورات
الحياة لا من أسباب متعتها . ألا فليتصور القارىء ما استلزمه من كدح وقوة
إرادة تقطيع غابات السويد وتلدليل تربة منحدرات تلال النرويج المتجمدة
وفلحها ؛ وليست حقول القمح في منسوتا Minnesota إلا وليدة التربة
الأمريكية ذلها صبر النرويجيين . وكانت الضياع الكبيرة قليلة العدد ،
حتى لقد فاقت اسكنديناوة غيرها من البلاد في كثرة عدد ملاكها
من الزراع الأحرار . وكان هناك نوع من التأمين غير المكتوب يقلل من
وقع الكوارث على أولئك الزراع : فإذا حرق بيت زارع عاونه جيرانه
على بنائه من جديد ، وإذا نفقت مواشيه بسبب المرض من « فعل الله »
منحوه ما يعادل نصف ما خسره . وكان كل شمالي تقريباً ذا حرفة ،
وكان بارعاً بنوع خاص في النجارة ، غير أن الرجل الشمالي كان متأخراً في
استخدام الحديد الذي لم يدخل بلادهم إلا في القرن الثامن ، فلما دخلها صنعوا
منه أنواعاً مختلفة من العدد ، والأسلحة ، والزخارف ، صنعوها قوية جميلة من
البرنز ، والفضة ، والذهب (٥٩) ؛ وكثيراً ما كانت للدرع والسيوف المزخرفة

الجميلة النقش ، والأقراط ، والدبايس ، والسروج جميلة يتباهون بها . وكان بناء السفن الشماليون بينون الزوارق والسفن الحربية ؛ ولم تكن هذه أكبر من سفن الأقدمين ، ولكن يبدو أنها كانت أصلب منها ، فكانت مستوية النواع لزيدها ثباتاً ، محددة في جوفها لتدمر . فمن العدو ؛ وكان غاطسها يتراوح بين أربع أقدام وست ، وطولها بين ستين قدماً ومائة وثمانين ، يدفعها الشراع حيناً والمجاديف في معظم الأحيان - ويبلغ عددها في الجانب الواحد من جانبيها عشرة مجاذيف أوسنة عشر ، أو ستين مجذافاً . وهذه السفن الساذجة هي التي حملت الرواد ، والتجار ، والقراصنة ، والمحاربين من أهل الشمال في أنهار روسيا منحدرية فيها إلى بحر الخرز والبحر الأسود ، وعبرت بهم المحيط الأطلنطي إلى آيسلندة ولبرادور .

وكان الفيكنج يقسمون أنفسهم طبقات : الحارل Jarl والإيرل ، وطبقة البندى bondi أو الملاك الفلاحين ، وطبقة العبيد ؛ وكانوا يلتقون أبناءهم في صراحة (كما يفعل الحراس في جمهورية أفلاطون) أن انهاء كل إنسان إلى طبقته أمر قرره الآلهة لا يجوز على تديباه إلا غير المؤمنين^(٦٠) . وكان الملوك يختارون من يجرى في عروقهم الدم الملكي ، وولاية الأقاليم من طبقة الحارل . وهذا القبول الصريح للملكية والأرستقراطية ، وهما من المستلزمات الطبيعية للحرب والزراعة ، كان يسير معه جنباً إلى جنب نظام ديمقراطي عجيب يجعل من ملاك الأراضي مشرعين وقضاة في جمعيات محلية يعقدها أصحاب البيوت ، وجمعيات قروية تعقد في الولايات ، وجمعية قومية عامة أو برلمان . لقد كانت هذه الحكومة حكومة قوانين لا حكومة رجال فحسب ، العنف فيها من الأمور الشاذة النادرة ، والأحكام القضائية هي القاعدة العامة . نعم إن قصص تلك البلاد مليئة بحوادث الانتقام وما ينشأ عنه من خصام وإراقة للدماء ، ولكن الافتداء حتى في عصر الفيكنج ، عصر الدم والحديد ، قد أخذ يحل محل الانتقام الفردي ، ولم يكن منهم من قانونه الوحيد هو النصر أو الهزيمة إلا قراصنة البحار . وكان

العقاب الصارم يستخدم لحمل أولئك الرجال ، الذين غلظت طباعهم لطول كفاحهم مع الظروف الطبيعية ، على الخضوع للسلم والنظام . فكان الزانى يعاقب بالإعدام شنقاً أو تطوئه الخيل حتى يموت ، وكان جزاء الحريق العمد هو إحراق مرتكبه وهو مصلوب ، ومن يقتل أحد أبويه يعلق من قدميه إلى جانب ذئب حتى معلق بنفس الطريقة ، والناثر على الحكومة يشد إلى جوادين يسيران في اتجاهين متضادين حتى يمزق جسمه ، أو يربط خلف ثور برى يجره حتى يقضى نحبه^(٦١) . ولعل في هذا العقاب الوحشى دليلاً على أن القانون لم يحل بعد محل الانتقام الشخصى ، وكل ما فى الأمر أنه جعله من حق المجتمع نفسه . وحتى القرصنة نفسها قد تخلت عن مكانها للقانون ، فاستقر اللصوص وأصبحوا تجاراً واستبدلوا الدهاء بالقوة ، وجددير بالذكر أن كثيراً من مواد قانون أوربا البحرى مأخوذة من قانون أهل الشمال منقولة عن حلف المدن الهانسية Hanseatic League^(٦٢) . وقد كتبت قوانين الترويج فى عهد مجلس الصالح (١٠٣٥ - ١٠٤٧) على رق سعى بسبب لونه « الإوزة الشهباء » ! ولا يزال هذا الرق باقياً إلى الآن ، ويحتوى على أوامر مستنيرة للإشراف على الموازين والمقاييس ، ومراقبة رجال الشرطة للأسواق والثغور ، ومعونة الدولة للمرضى والمعوزين^(٦٣) .

وقد عاون الدين القانون والأسرة على جعل أولئك الحيوانات مواطنين صالحين . ولم تكن الآلهة التيوتونية مجرد أساطير لأهل الشمال ، بل كانت أرباباً حقيقيين تهاب وتحب ، وتتصل اتصالاً وثيقاً بالآدميين بألاف المعجزات وحوادث الغرام . ذلك أن النفوس البدائية فى دهشتها ورعبها قد نحولت جميع قوى الطبيعة ومجسماتها الكبرى إلى أرباب شخصية ، يتطلب أقوامهم أن يسترضى على الدوام استرضاء لا يقل أحياناً عن التضحية بالآدميين أنفسهم . وكان مجمع الآلهة مزدحماً بهم : كان فيه اثنا عشر إلهاً ذكراً ، واثنتا عشرة إلهة أنثى ، وكثير من مختلف المردة (الجوتون Jotun) وأرباب الأقدار (نورن Norn) ،

(٢١ - ج ٣ - مجلد ٤)

ورسل الآلهة والساقون (الفلكيرى Valkyries) ، وبينهم عدد من العرافات ، وصغار العفاريت ، والساحرات . فأما الآلهة فلم يكونوا أكثر من آدميين مكبرين ، يولدون مثلهم ، ويجوعون ، وينامون ، ويمرضون ، وينفعلون ، ويمزنون ويموتون ؛ ولا يفوقون الآدميين إلا في أحجامهم ، وطول أعمارهم ، وعظيم قواهم . ومن هؤلاء أودين Odin (وودن Woden الألماني) أبو الآلهة كلهم ، الذي كان يسكن بجوار بحر آزوف (آزاق) Azov في أيام قيصر ؛ وهناك أنشأ أسجارد Asgard أو حديقة الأرباب لأسرته ومستشاريه واشتدت لديه الرغبة في تملك الأرضين ففتح بلاد أوروبا الشمالية . على أنه لم يسلم من التحدى ولم يكن قادراً على كل شيء ؛ فقد عنفه لوكي Loki أشد التعنيف^(٦٤) ، وتجاهله ثور Thor ولم يعبأ به . فأخذ ينزع الأرض في طلب الحكمة ، واشترى بأحد عينيه جرعة من ينبوع الحكمة . ثم اخترع الحروف الهجائية ، وعلم خلقه الكتابة ، والشعر ، والفنون ، ووضع لهم القوانين . وقبل أن تنتهي حياته على ظهر الأرض عقد جمعية من السويديين والقوط ، وجرح نفسه في تسعة أماكن من جسمه ، فأتى ورجع إلى أسجارد ليعيش فيها إلماً .

وكان ثور في أيسلندا أعظم من أودين ، فقد كان فيها إله الرعد ، والحرب ، والعمل ، والقانون ، وكانت السحب السوداء حاجبيه السوداءوين ، وكان الرعد صوته ، والبرق مطرقة يلقي بها من السماء . وكان للشعراء الشماليين معه كثير من المزاح ، كما يمزح اليونان مع هيفستوس Hephaestus وهرقل ، ولعلهم قد أخذوا منذ ذلك الوقت . البعيد بتشككون في آلهتهم تشكك هومر في آلهته ، وكانوا يتمثلونه في جميع أنواع المآزق والأعمال الشاقة المضنية ؛ ومع هذا فقد بلغ من حب الأيسلنديين له أن واحداً من كل خمسة منهم تقريباً كان يغتصب اسمه . ثورلف Thorolf ؛ ثورولد Thorwald ، ثورشتين Thorstein . . . وكان بلدور Baldur بن أودين عظيماً في القنص وأقل مقاماً من أودين وثور

فيا يلقاه من العبادة : كان « ذا بهاء في صورته ومغلاجه . . . وكان أرق الآلهة ، وأكثرهم حكمة ، وأفصحهم لساناً (٦٥) ، وكادت هذه الصفات تغري المبشرين الأولين بأن يقولوا إنه هو المسيح عينه ؛ ويقال إنه رأى حلماً مزعجاً ينبئه باقتراب منيته ، ولما قص هذا الحلم على الآلهة طلبت الإلهة فرجا Frigg إلى جميع أنواع الجماد ، والحيوان ، والنبات ، أن تقسم أغلظ الأيمان ألا يمسه أحدها بسوء ؛ فكان جسده الفخم المحيد بعد هذا القسم يطرد جميع الأجسام المؤذية ، وكان الآلهة يسلون أنفسهم بأن يقذفوه بالحجارة والسهام ، والفؤوس والسيوف ؛ فكانت هذه الأسلحة كلها ترتد عنه ، ولا تترك في جسده أثراً . غير أن فرجا قد فاتها أن تأخذ عهداً على « شجيرة صغيرة تدعى المقاس » (*) ألا تمسه بسوء لأنها ظنتها أضعف من أن تؤذي إنساناً ما . فما كان من لُكسي الوقح المحب للوقعة بين الآلهة إلا أن قطع منها عسلوجاً ، وأقنع لهاً كفيفاً أن يلقيه على بلدور ، ونفذ العسلوج في جسده فقضى عليه ، ثم ماتت زوجته نيب Nep من فرط حزنها عليه ، وحرقت جثتها مع بلدور وجواده المطهم على كومة واحدة (٦٦) .

وكان الفلكبرى - الذين يختارون القتلى - هم الذين يحق لهم أن يحدوا أجل كل نفس . وكان الذين يموتون ميتة دنيئة يلقون في ممالك هل Hei ؛ إلهة الموتى ؛ أما الذين يموتون في ميدان القتال فيأخذهم الفلكبرى إلى فلهلا Valhalla - « بهو الصفوة » ، حيث يصبحون أبناء أدوين فيعودون مرة أخرى ذوى قوة وجمال ، يقضون نهارهم في حروب البسالة وليلهم في شرب البجعة . ثم أتى حين من الدهر (كما تقول الأساطير الشمالية المتأخرة) أعلنت فيه الحوتونذ - شياطين الاضطراب والدمار الزهية - الحرب على الآلهة ، وقاثلتها قتالاً هلكت فيه هذه وتلك عن آخرها . وفي هذا العصر ، عصر غسق الآلهة ، تهتم الكون كله : ولم يقتصر هذا الدمار على الشمس ، والكواكب ، والنجوم ،

(*) وتسمى أيضاً الدبق والدابوق Mistletoe . (المترجم)

بل شمل في النهاية الغلهلا نفسها وجميع من فيها من المحاربين والأرباب ؛ ولم يبق إلا الأمل وحده - الأمل في أن مر الوقت البطيء سوف تنشأ منه أرض جديدة ، وسماء جديدة ، وعدالة خير من العدالة السابقة ، وآلهة أعظم من أودين وثور. ولعل هذه القصة العظيمة ترمز إلى انتصار المسيحية ، وإلى الضربات الشديدة التي كالتها المليكاف أولاف Olafs من أجل المسيح ؛ أو لعل شعراء الفيكنج قد أخذوا يشكون في آلهتهم ويوارونهم التراب .

تلك أساطير عجيبة لا تفوقها في جمالها وفتنتها إلا أساطير اليونان . وكانت أقدم صورة وصلت إلينا منها هي صورتها في تلك القصائد العجيبة التي سميت خطأ باسم الإدا Edda (*). وخلاصة قصتها أن راهباً كشف في عام ١٦٤٣ في مكتبة كينهاجن الملكية مخطوطاً يحتوي عدداً من القصائد الأيسلندية القديمة ؛ ووقع هذا الراهب في خطأ مزدوج فسماها إدا سيمند الحكيم The Edda of Saemund the Wise (حوالي عام ١٠٥٦ - ١١٣٣). وهو عالم أيسلندي من رجال الدين . والباحثون الآن يجمعون على أن هذه القصائد قد كتبها في النرويج وأيسلندة ، وجرينلندة كتاب غير معروفين في أوقات غير معروفة بين القرنين الثامن والثاني عشر ، وأن سيمند ربما يكون قد جمعها ولكنه لم يؤلفها ، وأن الإدا لم يكن اسمها . ولكن الزمن يقر الأخطاء كما يقر السرقات ، ويوفق بين هذه الأخطاء بأن يسمى القصائد الإداء الشعرية أو الإدا الكبرى . وهي في معظمها أغان قصصية عن الأبطال أو الآلهة الاسكنديناويين أو الألمان ؛ وفيها نلتقي لأول مرة بسيجورد الفلسنجى Sigurd the Volsung وغيره من الأبطال

(*) وقد وردت هذه الكلمة أول ما وردت في جذاذة ترجع إلى القرن العاشر وتسمى في هذه الجذاذة جدة الأم . وكان من عجائب الأيام أن أصبح معناها علم العروض النرويجي وإن استعملها بهذا المعنى استرلى استرلسون حين كتب بهذا العنوان (١٢٢٢) رسالة عن الأساطير النرويجية ومن فن الشعر ، وهذه الرسالة هي المعروفة لدينا باسم الإدا النظرية أو الصنرى .

الذكور والإناث والأوغاد الذين قدر لهم أن يتخذوا صورة أوضح من صورتهم هنا في الفولسانجساجا Volungasaga والنيلينجنايد Nibelungenlied. وأعظم قصائد الإدا قوة هي قصيدة الفولسبا Voluspa التي تصف فيها البنية فولفا في صورة فخمة قائمة خلق العالم ، وآخرته المنتظرة ثم بعثه في آخر الأمر . وتختلف عن هذه القصيدة في الأسلوب « أغنية الواحد الأعلى » التي يصوغ فيها أودين ، بعد أن يمر بمختلف الظروف ويلتقي بجميع أنواع الناس ، ما تمليه عليه حكيمته من أمثال ليست كلها من الأمثال الخليفة بالآلهة :

لقد طرقت أماكن كثيرة مبكراً فوق ما يجب أو بعد فوات الأوان ؛ قبل أن تعدّ البجعة أو بعد أن استنفدها الشاربون (٦٧) . . . خير أنواع السكر هو الذي يستعيد كل إنسان بعده قواه العقلية (٦٨) . يجب ألا يثق الإنسان بأقوال فتاة ولا بأقوال امرأة ، لأن الخطيئة قد غرست في صدورهن (٦٩) ؛ . . . هذا ما حدث لي حين حاولت إغواء تلك الغادة الفطنة ؛ . . . ولم أكسب من هذه الغادة شيئاً (٧٠) . . . النهار يمدح في المساء ، والسيف بعد أن يجرب ، والمرأة بعد أن تحرق جثتها (٧١) . . . كثيراً ما يعاقب الإنسان على الألفاظ التي يتحدث بها إلى غيره (٧٢) . . . واللسان هو سم الرأس (٧٣) . تجنب النزاع مع من هو شر منك أو اقتصر نزاعك معه على ثلاثة ألفاظ ، وكثيراً ما يستسلم خير الرجلين إذا ما ضر به شرهما (٧٤) . . . يجب أن يكون الإنسان حكيماً في اعتدال وألا يسرف الحكمة . . . لا تدع إنساناً يعرف مصيره قبل حلوله ، لأن عقله يأمن بذلك من المشاغل . . . إن ذا العقل قلباً يتهيج قابه (٧٦) (*) . . . خير البيوت بيتك ولو كان صغيراً (٧٧) . . . وخير المناظر منظر مصطلي الإنسان ومنظر الشمس (٧٨) .
وأكبر الظن أن قصائد الإدا الكبرى قد ظلت يتناقها لها الناس شفويًا حتى

(*) شبيه هذا المعنى قول الشاعر العربي :
ذو العقل يشق في النعم بعقله وأخو الجهالة بالشفاعة ينعم (المترجم)

القرن الثاني عشر ، ثم دوت في ذلك القرن . وكانت الحروف الهجائية في عصر
الفيكنج هي حروف أوربا الشمالية كما كانت هي حروف ألمانيا وإنجلترا
الأنجليسكسونية . وكانت هذه الرموز (ومعناها الحرفي « الأسرار الخفية »)
الأربع والعشرون تكوّن أبجدية أساسها بوجه عام هو الحروف اليونانية
واللاتينية المطبعية المائتة . وكان في وسع الأدب في ذلك العصر أن يستغنى
عن الحروف ، ذلك أن الشعراء والمغنين كانوا يؤلفون قصائدهم ،
ويحفظونها عن ظهر قلب ، ويتلوونها ، ويتناقلها عنهم الناس شفويا ؛ وكانوا
في هذه القصائد يتغنون بالآلهة النيوتونية و « عصر الأبطال » (من القرن
الرابع إلى القرن السادس) الذي بسطت فيه الشعوب الألمانية سلطانها على
أوربا . وقد احتفظ استرلسون وغيره من الكتاب بقطع صغيرة من هذه
الأغاني ، وبكثير من أسماء الشعراء . وأشهر هؤلاء كلهم هو سيجفات
ثوردارسون Sigvat Thordarsson الذي كان شاعراً ومستشاراً صريحاً
في بلاط سانت أولاف . وكان شاعر آخر يدعى إجيل اسكلاجرمسون^٣
Egil Skallagrímsson (٩٠٠ - ٩٨٣) ، أشهر رجال زمانه في أيسلندا -
كان محارباً شجاعاً ، وشريفاً فردي الزعة ، وشاعراً جياش العاطفة .
وقد فقد في كبر سنه أصغر أولاده إذ مات غريقاً ، وكاد يقضى عليه
الحزن لولأن أفتنته ابنته بأن يستعيض عن ذلك بكتابة قصيدة . فعمل
بإشارتها وكتب قصيدته المعروفة باسم « ثكل الابن » Sonartorrek التي
يندد فيها بالآلهة ويتحداهم ويتهمهم بموت ولده . وهو يأسف لأنه لا يستطيع
أن يعثر على أودين ليقاتله كما قاتل غيره من الأعداء . ثم يهدأ مزاجه حين
يفكر أن الآلهة لم تسلط عليه الأحزان وكفى بل وهبته فوق ذلك ملكة الشعر ؛
ثم يرضى بحظه فيعزم أن يعيش ويعود إلى منزلته العالية في مجالس
بلاده (٧١)

وما من شك في أن آداب ذلك العصر تغالى في وصف ما كان يسود مجتمع
الفيكنج من عنف ، شأنها في ذلك شأن الصحافة والتاريخ اللذين يخذعان القارئ

بالتحدث عما هو شاذ غير عادي ويهملان سير الحياة البشرية السوى . لكننا لا ننكر أن الظروف القاسية التي كانت تعيش فيها اسكنديناوة في الزمن القديم اضطرت الأهلين إلى أن يخوضوا معركة حامية في سبيل العيش لا يبتى فيها إلاّ أصلبهم عوداً ، ومن أجل هذا نشأ عندهم من عادات النزاع القديم والأخذ بالثأر والقرصنة غير المقيدة في البحار المفتوحة ، نشأ من هذه العادات قانون أخلاقي على غرار قانون نيتشة يدين بالشجاعة التي لا ترعى مبدأ ولا ضميراً . قال فيكنج لصاحبه : « قل لي أي دين تؤمن به ؟ » فأجابته بقوله « إني أؤمن بقوتي » . وأراد جولد هارلد Gold Harald أن يكون له عرش الرويغ ، ورأى أن ينالها بالقوة ، لكن صديقه هاكون نصحه بقوله : « فكّر في أمرك واعرف هل تستطيع أن تبذل من قوة الرجولة ما يحقق مطمعك ، لأن نيل هذه الغاية يتطلب من صاحبها أن يكون جريئاً ، ثابتاً ، لا يحجم عن فعل الخير أو الشر إذا كان فيه ما يوصله إلى مطلبه » (٨١) . ومن هؤلاء الناس من كانوا يجلدون في القتال لذة تكاد تنسيهم آلام جراحهم ، ومنهم من كان يعتبرهم وجد ونشوة في القتال تعرف عندهم باسم برسرکس جانجر berserksgangr أي « طريقة برسرک » . وكان الـ سرکیون - أو أصحاب قصان الدبية - مقاتلين يندفعون إلى قلب المعركة دون أن يكون على أجسامهم قصان من الزرد ، ثم يحاربون ويصرخون كالحيوانات المفترسة ، ويعضون بأسنانهم على دروعهم وهم غضاب ناثرون ، فإذا انقضت المعركة فقدوا وعيهم وخارت قواهم (٨٢) . وكانت الفلها محرمة على غير الشجعان ، ومن يمت في القتال من أجل جماعته تغفر له جميع خطاياہ .

وهكذا تعود « رجال الفيوردات » شظف العيش والألعاب العنيفة ، ثم ساروا في سفائنهم ذات المجاذيف يفتحون لهم ممالك في روسيا ، وپمرانيا Pomerania ، وفرنيزيا ، ونورمندية ، وإنجلترا ، وأيرلندا ، وأيسلندا ،

وجرينلندة ، وإيطاليا ، وصقلية . ولم تكن هذه المغامرات غارات تقوم بها جموع من الجند كجهاد المسلمين أو طوفان الحجر ، بل كانت بمثابة اندفاع حفنات مهورة من الرجال يرون كل ضعف جرمياً ، وكل قوة عملاً صالحاً ، يشتهون الأرض ، والنساء ، والثراء ، والسلطان ، ويشعرون أن من حقوقهم المقدسة أن يكون لهم نصيب من ثمار الأرض . ولقد بدأوا حياتهم قراصنة واختتموها ساسة وحكاماً . فمنهم رولو Rollo الذي وهب نورماندياً نظاماً مبدعاً أخلاقاً ، ومنهم وليم الفاتح الذي وهب إنجلترا هذا النظام نفسه ، وروجر الثاني منشئه في صقلية . ولقد مزجوا دمهم الشمالى الحديد بدماء الشعوب التي أضعفتها الحياة الريفية الرثية فبعثوا فيها قوة ونشاطاً ، ألا إن التاريخ قلما يفنى من لا يستحق الفناء ، وإن احتراق نُفُوسِيات الزروع ليخصب تربة الأرض ويجعلها أصلح مما كانت للزرع الحديد .

الفصل السادس

ألمانيا : ٥٦٦ - ١١٠٦

١ - تنظيم السلطة

لقد كانت غارات الشماليين المرحلة الأخيرة في غارات البرابرة التي تدفقت من ألمانيا قبل الوقت الذي نتحدث عنه بخمسة قرون ، وقطعت أوصال الدولة الرومانية ، وقسمتها إلى أمم أوروبا الغربية ، وخلق بنا أن نسأل الآن عن مصير الألمان الذين بقوا في ألمانيا نفسها .

لقد أدى خروج تلك القبائل العظيمة - القوط ، والوندال ، والبرغنديين ، والفرنجة ، واللمبارد - إلى نقص سكان ألمانيا إلى حين ، فتحرك الوند Wend الصقالبة غرباً من ولايات البحر البلطي ليملاؤا ذلك الفراغ ، وأصبح نهر الإلب قبل أن يحل القرن السادس الحد الجنسي ، كما هو الآن الحد السياسي ، بين العالم الصقلبي والعالم الغربي . فقد كان في غرب الإلب والسال Saale من بقى من القبائل الألمانية : السكسون في شمالي ألمانيا الوسطى ، والفرنجة الشرقيون في حوض الرين الأدنى ، والثورنيجيون بين هولاء وأولئك ، والبافارون Bavarians (الذين كانوا يسمون الماركونيون من قبل) في حوض الدانوب الأوسط ، والسوابيون Swabians (الذين كانوا يسمون السوفييين) على ضفاف نهر الرين والدانوب الأعلى وفيما بينهما ، وعلى طول جبال جورا Jura الشرقية والألب الشمالية . ولم تكن في أوروبا بلاد تسمى ألمانيا ، بل كل ما كان فيها قبائل ألمانية ، وقد وهبها شارلمان وقتاً ما وحدة مشوهها الفتح ، ومستلزمات النظام المشترك ، ولكن انهار الإمبراطورية الكارولنجية فكك هذه الروابط ، وظل الوعي القبلي والنزعة المحلية

يمنعان كل عامل يؤدي إلى المركزية حتى أيام بسمارك ، ويضعفان قوة ذلك الشعب الذي يعاني الأمرين من جراء انحصاره بين أعدائه من جهة وبين جبال الألب والبحر من جهة أخرى :

وأقامت معاهدة فردون (٨٤٣) في واقع الأمر لوييس أولدشج Ludwgi حفيد شارلمان أول ملك على ألمانيا ، وأضافت معاهدة مرسن Mersen (٨٧٠) إلى أملاكه بلاداً جديدة ، وحددت ألمانيا بأنها الأرض المحصورة بين نهري الرين والإلب ، تضاف إليها أجزاء من اللورين Lorraine ، وأسقفيات مينز ، وورمز ، واسبير Speyer . وكان لوييس حاكماً وسياسياً من الطراز الأول ، غير أنه كان له ثلاثة أولاد ، قسمت مملكته بينهم جميعاً بعد وفاته ، وضربت الفوضى أطنابها في أنحاء البلاد عشر سنين أغار فيها الشماليون على مدائن الرين ، واختير بعدها آرنلف Arnulf ، وهو ابن غير شرعي لكارلومان Carloman ابن لوييس ، ملكاً على « فرنسا الشرقية East Francia » (٨٨٧) ورد الغزاة على أعقابهم . ولكن لوييس « الطفل » (٨٩٩ - ٩١١) الذي خلفه على العرش كان أصغر وأضعف من أن يصد الحمر الذين اجتاحوا بافاريا (٩٠٠) وكارنثيا (٩٠١) ، وسكسونيا (٩٠٦) ، وثورنجيا (٩٠٨) ، وألمانيا Alemannia (٩٠٩) ؛ وعجزت الحكومة المركزية عن حماية هذه الولايات ، فكان على كل واحدة منها أن تدافع عن نفسها . وجهز أذواق الولايات ما يحتاجونه من الجيوش بأن أقطعوا أتباعهم الأرض نظير قيامهم بالخدمة العسكرية ، ونال الأذواق بفضل الجيوش المولفة على هذا النحو استقلالهم الفعلي عن التاج ، وأنشؤا ألمانيا الإقطاعية . ولما مات لوييس رفع الأعيان وكبار رجال الدين كتراد الأول دوق فرنكونيا (٩١١ - ٩١٨) على عرش البلاد ، وكانوا قد نجحوا في أن يكون لهم حق اختيار الملك . وأنهك كتراد قواه في النزاع مع

هنرى دوق سكسونيا ، ولكنه بلغ من الحصافة أن أوصى باختيار هنرى ليخلفه على العرش . وصد هنرى الأول ، المسمى « بالصائد » لشغفه بصيد الطير ، قبائل الوند الصقلية إلى نهر الأودر Oder وحصن ألمانيا لتقوى على صد الهجر ، وهزمهم فى عام ٩٣٣ ومهد بجهوده السبيل إلى أعمال ابنه المجيدة .

وكان أتو الأول الأكبر (٩٣٦ - ٩٧٣) شارلمان ألمانيا ، ولم تكن سنة حين جلس على العرش قد تجاوزت الرابعة والعشرين ، ولكنه كان فى هذه السن الصغيرة مليكاً بحق فى مظهره ومخبره ، وأحس بما للمراسم والرموز من عظيم الشأن فأقنع أدواق لورين ، وفرنكونيا ، وسوابيا ، وبافاريا ، بأن يؤلفوا حاشيته فى حفل تتويجه الفخم فى آخن على يد هيلدبرت Hildebert كبير الأساقفة ، ولكن الأدواق ثاروا فيما بعد على سلطته المطردة النماء ، وأغروا هنرى أخاه الأصغر بأن يشترك معهم فى مؤامرة تعمل لخلعه . وكشف أتو هذه المؤامرة ، وقضى عليها ، وعفا عن هنرى ، ثم ائتمر هنرى به مرة أخرى ، وعفا عنه للمرة الثانية ، وأقطع المليك الداهية دوقيات جديدة لأصدقائه وأقاربه ، وأخضع الأدواق لسلطانه شيئاً فشيئاً . ولم يرث من جاء بعده من الملوك ما كان له من دهاء وعزيمة ماضية فاحترقت ألمانيا فى العصور الوسطى بنار النزاع بين الإقطاع ، والملكية . وانحار الأساقفة الألمان إلى جانب الملك فى هذا النزاع ، فأصبحوا بذلك مساعديه ومستشاريه فى الشؤون الإدارية ، بل كان منهم فى بعض الأحيان قواد جنده . وكان الملك يعين الأساقفة ورؤساء الأساقفة كما كان يعين غيرهم من موظفى الحكومة ، فأصبحت الكنيسة الألمانية بهذه الوسيلة نظاماً قومياً يمتد لارتبط بالبابوية إلا بأوهن الروابط . واتخذ أتو الدين المسيحى قوة لتوحيد البلاد فصر به القبائل الألمانية وخلق منها دولة قوية .

وهاجم أتو الوند استجابة لرغبة أساقفته ، وحاول أن يرغمهم بالسيف على اعتناق المسيحية . وأرغم ملك الدنمرقة ودوق بولنדה وبوهيميا على أن يعترفوا به سيدهم الإقطاعي . وكان يطمح في أن يتولى عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ولهذا رحب بالدعوة التي وجهتها إليه أدليد الحسنة أرملة لوثير ملك إيطاليا لينقلها مما لحق بها من الإهانة على يدى برنجار الثاني المليك الجديد . وخلط أتو بمهارته بين السياسة والغرام ؛ فغزا إيطاليا ، وتزوج بأدليد ، وسمح لبرنجار أن يحتفظ بمملكته على أن تكون إقطاعاً له من التاج الألماني (٩٥١) . وأبى الأشراف الإيطاليون أن يعترفوا بالألماني إمبراطوراً لأن هذا يستلزم أن يكون هذا الإمبراطور سيداً لإيطاليا ، وبدأ وقتئذ بين الطرفين نزاع دام ثلاثة قرون . وخرج على كتراد وهو غائب عن ألمانيا ابنه لودلف وزوج ابنته كتراد ، فعاد أتو إلى ألمانيا لكيلا ينشأ عن محاولته أن يكون إمبراطوراً ألا يظل ملكاً . ولما أن غزا ألمانيا مرة أخرى (٩٥٤) رحب بهم لودلف وكتراد وأمدهم بمن يرشدهم في غزوهم ، وقطع أتو دابرالفتنة ، وعفا عن لودلف ، وأعاد تنظيم جيشه ، وأوقع بالبحر عند لخفلد Lechfeld القريبة من أجزبرج Augsburg هزيمة منكرة (٩٥٥) ، أفادت على ألمانيا فترة طويلة من الأمن والسلام . وصرف أتو بعدئذ جهوده إلى شئون البلاد الداخلية - فأعاد النظام إلى نصابه ، وقضى على الجرائم ، وأعاد ألمانيا المتحدة إلى الوجود ، وجعلها أعظم الدول رخاء في تلك الأيام .

وسنحت له الفرصة مرة أخرى لإنشاء الإمبراطورية حين استعانه البابا يوحنا الثاني عشر على برنجار (٩٥٩) . فغزا أتو إيطاليا على رأس قوة كبيرة ، ودخل رومة من غير قتال ، ووجه يوحنا الثاني عشر إمبراطوراً رومانياً على الغرب في عام ٩٦٢ . ثم ندم البابا على فعلته ، وأخذ يشكو من أن أتو لم يوف بما وعده به من

إعادة إكسرخسية(*) براقتا إلى البابوية . واتخذ أتو الخطوة المتطرفة الجريئة فزحف على رومة ، وعقد مجلساً دينياً من الأساقفة ، وأقنعه بوجوب خلع يوحنا وتنصيب رجل من غير رجال الدين بابا مكانه باسم ليو الثامن (٩٦٣) . واقتصرت أملاك البابا وقتئذ على دوقية رومة وإقليم ساينا ، واندجت بقية إيطاليا الوسطى والشمالية في إمبراطورية رمانية مقدسة أصبحت إقطاعية من إقطاعات التاج الألماني . وكان ملوك ألمانيا يتخذون من هذه الحوادث حجة يبنون عليها إدعاءهم أن إيطاليا جزء من ميراثهم ، أما البابوات فكانوا يتذرعون بها للقول بأن أحداً لا يستطيع أن يكون إمبراطوراً رومانياً في الغرب إلا إذا توجه البابا .

ولما أحس أتو بقرب منيته أراد أن يتق ما عسى أن يعقب موته من الفوضى ، فحمل البابا يوحنا الثالث عشر على أن يتوج ابنه أتو الثاني إمبراطوراً معه (٩٦٧) ، وزوج ابنه هذا بثيوفانو ابنة رومانوس Romanus الثاني إمبراطور بيزنطية (٩٧٢) ، وتحقق بذلك إلى وقت قصير ما كان يحلم به شارلمان من توحيد الإمبراطوريتين بطريق الزواج ؛ ثم توفي أتو ولما يتجاوز الستين من عمره ، ولكنه قام في هذه السنين القلائل بما لم يقم به ذوو الأعمار الطوال (٩٧٣) ، وحزنت عليه ألمانيا كلها وعدته أعظم ملوكها . وصرف أتو الثاني (٩٧٣-٩٨٣) جهوده في ضم إيطاليا الجنوبية إلى دولته ومات في هذه المحاولة منهوك القوى قبل الأوان . وكان أتو الثالث (٩٨٣-١٠٠٢) وقتئذ طفلاً في الثالثة من عمره ، فحكمت البلاد أمه وجدته أديلد نائبتين عنه مدة ثمان سنين ، وأدخلت ثيافانو في أثناء نفوذها الذي دام ثمانية عشر عاماً بعض مظاهر الرقة البيزنطية إلى البلاط الألماني ، وبثت روح النهضة التي بدأها أتو في الآداب والفنون .

(*) الإكسرخسية Exarchate مقاطعة يحكمها إكسرخس Exarch . والإكسرخس اسم كان يطلق قديماً على نائب الإمبراطور في إيطاليا ؛ ومنصبه شبيه بمنصب الأسقف ، ومعناه لغة القائد . (المترجم)

ولما بلغ أتو السادسة عشرة من عمره (٩٩٦) شجع بحكم البلاد بنفسه . وأثر فيه جربرت وغيره من رجال الدين ، فعرض أن يتخذ روما عاصمة للملكه ، ويجمع البلاد المسيحية كلها تحت سيادة الإمبراطورية الرومانية بعد أن يعيدها إلى الوجود ويشترك في حكمها الإمبراطور والبابا . وفسر أعيان رومة ولباردية وسوقها هذا العمل بأنه مؤامرة ترمى إلى إقامة حكم بيزنطى ألماني في إيطاليا ، ولهذا وقفوا في وجه أتو ، وأقاموا في البلاد «جمهورية رومانية» وقلم أتو أظفار الفتنة ، وأعدم كرسنتيوس Crescentius زعيمها ، ثم عين جربرت بابا في عام ٩٩٩ ؛ ولكن حياة أتو التي لم تزد على اثنتين وعشرين سنة ، وبابوية جربرت التي دامت أربع سنين ، كانتا أقصر . من أن تمكناه من تنفيذ سياسته بحدافها ؛ يضاف إلى هذا أن أتو ، وهو نصف قديس ولكنه رجل إلى حد ما ، قد وقع في حب استفانيا Stephania أرملة كرسنتيوس ، ورضيت أن تكون عشيقته وسجينته ، ولما أحس المليك الشاب أن الموت يسرى في عروقه أخذ ييكى ويندم ، حتى قضى نحبه في فيتربو Viterbo ولما يتجاوز الثانية والعشرين من عمره (٨٢) .

وبدل هنرى الثاني (١٠٠٢ - ١٠٢٤) آخر ملوك ألمانيا السكسون جهده ليعيد إلى الملك قوته في إيطاليا وألمانيا ، حيث قوى حكم الغلامين الصغيرين سلطان الأدواق وجرأ عليهما الدول المجاورة لهما . وبدأ بكنزاد الثاني (١٠٢٤-١٠٣٩) حكم الأمرة الفرنكونية أو السالية من الأباطرة . وقد أعاد السلام إلى إيطاليا وضم إلى ألمانيا مملكة برغنديّة أو أريليس Arles . ودفعته حاجته إلى المال إلى أن يبيع مناصب الأساقفة بأثمان عالية أنه عليها ضميره ، فأقسم ألا يعود إلى بيع المناصب الدينية بالمال و«كاد يفلح في أن يبر بقسمه» (٨٤) . وبلغت الإمبراطورية في عهد ابنه هنرى الثالث (١٠٣٩ - ١٠٥٦) ذروة مجدها . وقد عرض في «يوم الغفران» من عام ١٠٤٣ في كنستانس Constance أن يعفو عن كل من أساء إليه ، وحض رعاياه أن يطهروا صلدورهم من كل حقد ورغبة في الانتقام . وقد أفلح

بفضل مواعظه وقدوته الحسنة - وبفضل سلطانه في أغلب الظن - في أن يقضى على كثير من منازعات الأدواق ، وتعاون مع « الهدنة الإلهية » في نشر ظل عهد ذهبي قصير الأجل على أوروبا الوسطى . وقد ناصر العلوم ، وأنشأ المدارس ، وأتم كنائس اسبير ، ومينز ، وورمز . ولكنه لم يكن قديساً يعمان للسلام الدائم ، فقد ظل يحارب المجر حتى اعترفت له بالسيادة الإقطاعية عليها ، وخلق ثلاثة من المتنافسين على البابوية ، وعين اثنين من البابوات واحداً بعد الآخر ، ولم يكن في أوروبا كلها من يماثله في سلطانه ، ولكنه أندفع بسلطانه في آخر الأمر إلى الحد الأقصى فأثار بذلك مقاومة الأساقفة والأدواق جميعاً . غير أنه مات قبل أن تهب العاصفة ، وخلف هنرى الرابع بابوية معادية ، ومملكة مضطربة .

وكان هنرى في الرابعة من عمره حين توج ملكاً في آخن وفي السادسة حين توفي أبوه وحكمت أمه واثنان من الأساقفة بالنيابة عنه حتى عام ١٠٦٥ حين أعلن أن الغلام وهو في الخامسة عشرة قد بلغ سن الرشد ، فوجد نفسه وقد آلت إليه سلطة إمبراطورية كفييلة بلا ريب بأن تذهب بعقل أى شاب ، وأصبح بطبيعة الحال يؤمن بالسلطة المطلقة ، ويسعى لأن يحكم البلاد على هذا الأساس . وسرعان ما وجد نفسه في خصام أو حرب مع هذا أو ذلك من النبلاء الذين كادوا لعجزه أن يقطعوا أوصال دولته . ذلك أن السكسون قد أغضبتهم الضرائب المفروضة عليهم ، وأبوا أن يردوا أراضي التاج التي يدعيها لنفسه ، وظل يحاربهم حرباً منقطعة دامت خمسة عشر عاماً (١٠٧٢ - ١٠٨٨) ، ولما أن هزمهم في عام ١٠٧٥ أرغم قوتهم الكبرى ومن فيها من أشم النبلاء أنوفاً وكبار الأساقفة الحرييين أن يمشوا حفاة مجردين من السلاح بين صفين من جنده ، ويقدموا مراسم الاستسلام عند قدميه . وفي تلك السنة نفسها أصدر البابا جريجورى السابع مرسوماً يعارض به حق غير رجال الدين في تعيين الأساقفة أو رؤساء الأديرة ، واستمسك هنرى بالسوابق المتبعة منذ مائة عام ، ولم يشك مطلقاً في أن تعيين هؤلاء وأولئك من

حقه ، وظل عشر سنين يحارب تجريجورى حربا دبلوماسية وعسكرية ، لم تنته إلا بموته ، وكانت من أشد الحروب هولا في تاريخ العصور الوسطى . وانتهز نبلأ ألمانيا المتمردون المشاكسون هذا النزاع ليزيدوا سلطتهم الإقطاعية ، وعاد السكسون الذين استلهم الملوك إلى ثورتهم . وانضم أبناء هنرى إلى معارضيه وظل النزاع قائماً حتى نادى مجلس ميتر هنرى الخامس ملكا في عام ١٠٩٨ ، وأسر الابن أباه وأرغمه على النزول عن العرش (١١٠٥) ، ثم فر الأب وأخذ يحشد جيشاً جديداً ، لكنه مات في ليبج في السنة السابعة والخمسين من عمره (١١٠٦) ؛ ولم يجد البابا باسكال Paschi الثاني من حقه أن يمنح رجلاً محروماً مات دون أن يتوب دفنة مسيحية ، ولكن أهل ليبج تحموا البابا والملك وشيعوا جنازة هنرى الرابع في موكب ملكي فخم وواروه التراب في كنيستهم الكبرى .

٢ - الحضارة الألمانية ٥٦٦ - ١١٠٦

واستطاعت جهود الرجال والنساء الذين يفلحون الأرض وينشئون الأطفال أن تفتح ألمانيا وتبشها للحضارة . لقد كانت الغابات فيها ضخمة كثيفة إلى أقصى حد ، تأوى إليها الوحوش الكاسرة ، وتوق الاتصال والوحدة ، وقام أبطال مجهولون بتقطيع أشجار الغابات ، ولعلمهم أسرفوا في هذا التقطيع ، ودام الكفاح في سكسونيا بين الأهلين وبين الأشجار التي تنمو بطبيعتها كلما قطعت ، والمناطق التي تنشر الأوبئة - دام هذا الكفاح ألف عام ولم يكتب النصر فيه للإنسان إلا في القرن الثالث عشر . وتوالت الأجيال جيلاً بعد جيل والزراع المجدون البواسل يطاردون الوحوش ، وينقصون من أطراف البرارى القاحلة ، ويلدنون الأرض بالفأس والحراث ، ويغرسون أشجار الفاكهة ، ويربون قطعان الماشية ، ويعنون بالكروم ، ويخففون من آلام وحدتهم بالحب والصلاة ، والأزهار والموسيقى والجمعة . وكان المعدنون يستخرجون من الأرض الملح ، والحديد ،

والنحاس ، والرصاص ، والحرف اليدوية القائمة في الضياع ، والأديرة ،
والمنازل ، تقرن الحذق الروماني إلى الألماني ؛ والتجارة تنمو ويترد
نشاطها في الأنهار وتنساب إلى البحرين الأسود والبلطى ، وكسب السكان
المعركة العظيمة آخر الأمر ؛ نعم إن الهمجية ظلت كامنة في شرائع البلاد
وفي دماء الأهلين ، ولكن الثغرة التي كانت قائمة بين فوضى القرن الخامس
القبلية ونهضة القرن العاشر التي بعثها أتو اجتيزت آخر الأمر ، وصارت
ألمانيا فيما بين ٩٥٥ و ١٠٧٥ أكثر بلاد أوروبا رخاء ، لا يضارعها في
هذه الناحية إلا شمالي إيطاليا التي أخذت القانون والنظام عن الملوك
الألمان . وواصلت المدن الرومانية القديمة أمثال تريير ، ومينز ، وكولوني
تقدمها ، ونشأت مدن جديدة حول مراكز الأساقفة في اسبير ،
ومجندبرج ، وورمز ؛ وبدأنا حوالي عام ١٠٥٠ نسمع عن مدينة نورمبرج .

وكانت الكنيسة مربية ألمانيا والقائمة على إدارة شئونها في ذلك
العصر ؛ فقد افتتحت مدارس - أو بالأحرى كليات في أديرة فلدا ،
ومجرنسي Tegernse ، وريخنو Reichenan ، وجندرسهايم Gandersheim ،
وهيلدسهايم Hiltesheim ، ولورسخ Lorsch . ولما عين ربانوس
موروس Rabanus Maurus (٧٧٦ ؟ - ٨٥٦) رئيساً لدير فلدا العظيم
في بروسيا بعد أن أمم دراسته تحت رعاية الكوين في تور ، رفع مكانة
مدرسة هذا الدير وأذاع شهرتها في جميع أنحاء أوروبا حتى أضحت
أما رؤوماً للعلماء ولاثنين وعشرين معهداً تناسب إليها . وقد وسع
منهاجها حتى شمل كثيراً من العلوم الطبيعية ، وندد بالخرافات التي
كانت تعزو الحوادث الطبيعية للقوى السحرية الخفية^(٨٥) . ونمت دار
الكتب في فلدا حتى أضحت من كبريات المكتبات العامة في أوروبا ؛ وهي
التي أخرجت لنا سوتونيوس Suetonius وناستوس ، وأميناوس مارسلنوس
Ammianus Marcellinus . وثمة رواية غير موثوق بصحتها عزو إلى ربانوس
أنشودة « جئت يا خالق الأرواح Veni Creator Spiritus » التي تنشد وقت
(٢٢ - ٣ - مجلد ٤)

تدشين البابوات والأساقفة والملوك^(٨٦) ، وافتتح سانت برونو St. Bruno ، الذى كان دوق لورين وكبير أساقفة كولونى ثم أصبح مستشاراً إمبراطورياً لأتو الأكبر ، مدرسة فى القصر الملكى ليدرب فيها طبقة من الموظفين الإداريين ، واستقدم العلماء وجاء بالكتب من بيزنطية وإيطاليا وكان هو نفسه يعلم فيها اللغة اليونانية والفلسفة .

ولم تكن اللغة الألمانية قد نشأت لها آداب فى ذلك الوقت ، وكان القائمون بالكتابة كلهم تقريباً من رجال الدين ، وكانت لغة الكتابة هى الألمانية . وكان أعظم شعراء العصر الألمان هو ولفريد استرابو Walafrid Strabo (٨٠٩ - ٨٤٩) وهو راهب سوابى فى ريخنو . وكان وقتاً ما مريبياً لشارل الأصلع فى قصر لويس التى بأخن . وقد وجد له فى يوديث الحسنة الطموحة زوجة لويس نصيرة مستنيرة . ولما عاد إلى ريخنو ليتولى رئاسة ديرها صرف جهوده كلها فى الدين ، والشعر ، وفلاحة البساتين ، وقد وصف لنا فى قصيدة له ممتعة فى العناية بالحدائق De cultura hortorum كل عشب وزهرة من الأعشاب والأزهار التى كان يربها ويشغف بها .

وكان أعظم من ينافس فى الأدب الألمانى فى تلك القرون راهبة تدعى هرسويدا Hroswitha ، وهى واحدة من كثيرات من النساء اللاتى امتزجن فى ذلك العصر بثقافتهم ورقمتهم . وقد ولدت حوالى عام ٩٣٥ ، ثم دخلت دير البندكتيين فى جندرسهام Gandersheim . وما من شك فى أن مستوى التعليم فى ذلك الدير كان أرقى مما نتوقع ، ذلك أن هرسويدا قد درست شعراء رومة الوثنية ، وعرفت كيف تكتب باللغة اللاتينية بأسلوب سلس واضح ، وكتبت بالشعر اللاتينى السداسى الأوتاد تراجم لبعض القديسين ، كما أنشأت ملحمة أصغر من هذه التراجم عن أتو الأكبر . ولكن كتبها التى نخلدت ذكرها هم ستة مسرحيات نثرية من نوع المسلاة حدثت فيها حدو ترنس Terence .

وتقول هي إن الغرض الذي كانت ترمى إليه من كتابتها هو « أن تجعل الهبة الصغيرة التي جباها بها الله ، تخرج بدافع الإخلاص صوتاً ضئيلاً تحمد به الله » (٨٧) . وتقول إنه يحزنها ما في المسالى اللاتينية من بداعة وثنية ، وإنها تحب أن تعرض على القراء بدلا منها مسالى مسيحية ؛ ولكن مسرحياتها نفسها تدور حول حب دنس لا يكاد يخفى ما ينطوى عليه من شهوة جثمانية . وخير مسرحياتها القصيرة هي مسرحية أبراهام ، وفيها يغادر ناسك مسيحي صومعته ليعنى بابنة أخ له يتيمة . ثم نفر الفتاة مع شخص أعواها لا يلبث أن يهجرها ، فتصبح من العاهرات . ويقتنى أبراهام أثرها ، ويدخل عليها حجرتها متخفياً . وتقبله ، فتعرفه ، وترتد عنه في خجل ، ويدور بينهما حوار شعري رقيق يقنعها به أن تفلح عن حياة الرذيلة وتعود معه إلى بيتها . ولسنا نعرف هل مثلت هذه المسرحيات القصيرة أو لم تمثل ، ذلك أن المسرحيات الحديثة لم تكن صدى لمسرحيات ترنس وأمثالها ، بل نشأت من حفلات الكنيسة « وطقوسها الخفية » بعد أن امتزجت بها « مساحرة » الممثلين الجائلين الصامته .

ولم تكن الكنيسة موطناً للشعر ، والتمثيل ، وكتابة التاريخ فحسب ، بل إنها فرق ذلك أمدت الفن بالموضوعات والمال . فقد تأثر الرهبان الألمان بالمثل البيزنطية والكارولنجية ، وشجعهم مناصرة الأميرات الألمانيات فأخرجوا في ذلك العصر عشرات العشرات من المخطوطات المزخرفة ذات الجلال الممتاز . ويكاد برنولد Bernewald الذي كان أسقف هلدسهايم من ٩٩٣ إلى ١٠٢٢ أن يكون في حد ذاته خلاصة لثقافة ذلك العصر : فقد كان مصوراً ، وخطاطاً ، وصانعاً للمعادن والفسيساء ، وحاكماً إدارياً ، وقديساً . وقد جعل المدينة التي يعيش فيها مركزاً للفنون بمن جمع فيها من الفنانين على اختلاف أنواعهم ومواهبهم . وبفضل معونتهم ، وبده الصناعات أخرج صلباناً محلاة بالجواهر ، ومائلات من الذهب ، والفضة منقوشة عليها صور للحيوان والنبات ، وكأساً من كوتوس القربان

مطعمة بجواهر قديمة تمثل واحدة منها ربات الجمال الثلاث عاريات
كعادتهن (٨٨) ، وكانت الأبواب الدائمة الصيت التي صنعها فناؤه لكنيستته
أولى الأبواب المعدنية في العصور الوسطى التي صبت صباً بدل أن تصنع من
ألواح مستوية مملصقة على الخشب . أما فن العمارة المحلية فلم يكن قد بدت
فيه شواهد على تلك الأشكال الجميلة التي ازدانت بها المدن الألمانية في عصر
 النهضة ؛ غير أن مباني الكنائس قد أخذت في ذلك الوقت تنتقل بالتدريج من
الخشب إلى الحجارة ، واستوردت من لمبارديا الآراء الرومانسية الخاصة
بالأجنحة ، وأمكنة المرتلين ، والصحن ، والأبراج ، وبدأت وقتئذ كنائس
هيلدسهايم ، ولورسخ ، وومز ، ومينز ، وتريير واسبير ، وكولونى . وكان
النقاد الأجانب يشكون مما يتصف به هذا الفن الرينى - الرومانسى من
سقوف خشبية مستوية ، وإفراط في الزخارف الخارجية ، ولكن هذه
الكنائس تعبر أصدق تعبير عما في الخلق الألماني من قوة وصلابة وعن روح
ذلك العصر الذى يكافح أشد الكفاح ليرقى إلى مدارج الحضارة .

اباء الكاڤى والعشرون

صراع المسيحية (٥٢٩ - ١٠٨٥)

الفصل الأول

النديس بنديكت حوالى ٤٨٠ - ٥٤٣

شهد عام ٥٢٩ إغلاق مدارس أثينة الفلسفية كما شهد افتتاح مونى كسينو Monte Cassino أشهر الأديرة فى المسيحية اللاتينية . وقد ولد منشؤه بنديكت النرسائى Benedict of Nursia فى بلدة اسپليتو Spoleto ويبدو أن أبويه كانا من طبقة الأشراف الرومانية الآخذة فى الانقراض . ولما أرسل إلى رومة ليتعلم ، هاله مارآه فيها من الفساد الجاسى ، أو أنه كما يقول البعض أحب ولم يفلح فى حبه ، ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره فر إلى مكان سحيق على بعد خمسة أميال من سيبياكو Subiaco فى التلال السبينية ، واتخذ له صومعة فى كهف أسفل هاوية وعاش فيها بضع سنين فى عزلة الرهبان . وتحدثنا محاورات البابا جريجورى الأول كيف كافح بنديكت كفاح الأبطال لينسى المرأة :

« التى بعث الشيطان ذكرها إلى قلبه ، وألهب بهذه الذكرى نار الشهوة نفس عبد الله . . . حتى كادت تغلبه لذة الحب ، وفكر فى أن يهجر البرية ثم لطف، الله به فعاد عقله فجأة إلى صوابه ، وأبصر كثيراً من شجيرات العوسج والحسك تنمو بالقرب منه ، فخلع ثيابه وألقى بنفسه فى وسطها وأخذ يتمرغ فيها

مدة طويلة ، فلما وقف على قدميه كان جلده قد تمزق وأصبح في حال يرثى لها ، وهكذا داوى جراح نفسه بجراح قلبه « ٥

وبعد أن عاش في هذه البرية الموحشة بضعة سنين واشتهر بين الناس بزوهه ونباته على تقواه ، ألح عليه رهبان أحد الأديرة القريبة منه أن يكون رئيساً لديرم ؛ ولما أنذرهم بأن حكمه سيكون صارماً ، لم يزداهم ذلك إلا إصراراً على رأيهم ، فلم ير بدا من إجابتهم إلى طلبهم والانتقال معهم إلى ديرهم . ولما قضى معهم أشهراً قليلة أخذهم فيها بأشد النظم دسوا له السم في النبيذ ، فعاد إلى حياة العزلة ، ولكن بعض الشبان الأتقياء المخلصين جاءوا ليعيشوا بجواره ، ويطلبوا هدايته ، وجاء بعض الآباء بأبنائهم ، ومنهم من كانوا من أهل رومة نفسها ، ليتلقوا عليه العلم ، فلم يحل عام ٥٢٠ حتى قام حول كهفه اثنا عشر ديراً صغيراً بكل منها اثنا عشر راهباً . ولما رأى كثيرون من هؤلاء الرهبان القلائل أن حكمه صارم لا يطيقونه ، انتقل مع أشد أتباعه حاسة إلى مونتى كسينو وهو تل يرتفع ١٧١٥ قدماً عن سطح البحر ، ويطل على بلدة كسينوم *Cassinum* القديمة التي تبعد عن كهوا أربعين ميلاً جهة الشمال الغربي . وهناك هدم معبداً وثنياً ، وأنشأ في مكانه (حوالي ٥٢٩) ديراً ووضع أساس الحكم البندكتى الذى اهتمت به فيما بعد معظم الأديرة في بلاد الغرب .

وكان رهبان إيطاليا وفرنسا قد أخطأوا حين حلوا نساك الشرق وعزلتهم ، لأن مناخ أوربا الغربية ونشاط أهلها يجعلان هذا النوع من الحياة شاقاً عليهم مثبلاً لعزيمتهم ، فأدى ذلك إلى نكوص كثيرين منهم على أعقابهم ؛ فلما جاء بندكت لم يجرم التنسك ولم ينتقد النساك ، ولكنه رأى من الحكمة أن يجعل التنسك جماعياً لا فردياً ؛ خالطياً من التنافس والتظاهر ، وضع في كل خطوة من خطواته إلى رئيس أحد الأديرة ، ويقف عند الحد الذى إذا تعدها أضر بصحة الجسم أو بالعقل .

ولم يكن يطلب ، حتى ذلك الوقت ، إلى من يدخلون الأديرة ليعيشوا فيها أن يقسموا أى قسم . فأحس بندكت أن الواجب يقضى على الطالب أن يقوم على خدمة راهب حديث العهد ، ليتعلم منه بالتجربة ما يطلب إليه من حياة التقشف ، فإذا ما أتم هذه التجربة لا قبلها أقسم الأيمان . وعليه بعد ذلك إذا شاء أن يتمهد كتابة بالبقاء في الدير على الدوام ، وإصلاح أخلاقه ، وطاعة رؤسائه ؛ ثم يضع الراهب الجديد هذا القسم الكتابي بنفسه على المذبح ، بعد أن يوقعه ويشهد عليه في احتفال رهيب . ولم يكن من حق الراهب بعد هذا الحفل أن يغادر الدير إلا بإذن رئيسه وكان الرهبان هم الذين يختارون رئيس ديرهم ، وكان عليه أن يستشيرهم في جميع الشئون الخطيرة ، ولكنه هو وحده الذى يتخذ القرار الأخير ، وكان عليهم أن يطيعوه طاعة عمياء وهم صامتون ؛ ولم يكن لهم أن يتكلموا إلا إذا اقتضت ذلك الضرورة ، وألا يمزحوا أو يضحكوا بصوت عال ، وأن يمشوا وهم مطرقون بأبصارهم إلى الأرض . ولم يكن من حقهم أن يمتلكوا شيئاً سواه كان كتاباً ، أو لوحاً ، أو قلماً - أو شيئاً على الإطلاق . . . بل يجب أن تكون كل الأشياء ملكاً مشاعاً (٣) . وكان عليهم أن يغفلوا أو ينسوا كل ما شاهدوه من قبل من أحوال الملكية أو الاسترقاق . وكان من واجب رئيس الدير :

ألا يميز بين الأفراد في الدير . . . فلا يفضل الحر المولد عن من جاء من بين الأرقاء ، إلا إذا كان لهذه التفرقة سبب معقول ، إذ لا فضل لأحدنا على الآخر عند الله سواء كنا عبيداً أو أحراراً . . . لأن الله لا يعظم الأشخاص (٤) .

ويجب على من في الدير أن يتصدقوا على كل من يطلب الصدقة ، وأن يستضيفوا كل من يطلب الضيافة بقدر ما تنسج له موارد الدير ، وأن « يستقبلوا كل من يأتون من الضيوف كأنهم هم المسيح نفسه » (٥) ، ومن واجب كل راهب أن يعمل - في الحقول أو الحوائث ، وفي المطبخ ،

وحول البيت ، وينسخ المخطوطات . . . ولم يكن الرهبان يأكلون شيئاً حتى منتصف النهار ، وفي أيام الصوم الكبير لا يأكلون إلا حين تغرب الشمس ، وكانوا في الفترة الواقعة بين منتصف سبتمبر وعيد الفصح يقتصرون على وجبة واحدة في اليوم ، وفي أشهر الصيف تباح لهم وجبتان لأن النهار وقتئذ طويل . وكان النبيذ مباحاً أما لحم كل حيوان ذى أربع فكان محرماً عليهم . وكانت أوقات العمل أو النوم تقطعها دعوة إلى الصلاة الجماعية . وتأثر بندكت بالمثل الشرقية فقسم اليوم إلى « ساعات كنسية » - أي ساعات للصلوات كما قررها قانون الكنيسة أو قررتها قواعدها . فكان على الرهبان أن يستيقظوا في الساعة الثانية صباحاً ، ويذهبوا إلى المعبد القائم في الدبر ، ويرتلوا ، أو ينشدوا « تسيحة الليل » وهي قراءة من الكتاب المقدس ، وأدعية ، ومزامير ؛ فإذا طلع الفجر اجتمعوا « لصلاة السحر » أو « تسيحة الصباح » . وفي الساعة السادسة يجتمعون للصلاة القائمة - صلاة الساعة الأولى ؛ وفي التاسعة يجتمعون للصلاة الثالثة ؛ وفي منتصف النهار يصلون الصلاة « السادسة » ؛ وفي الساعة الثالثة يجتمعون للصلاة التاسعة ؛ وفي الغروب يصلون صلاة المساء ؛ وقبل الذهاب إلى الفراش يصلون صلاة النوم وهي الصلاة الختامية ؛ وكان وقت النوم هو بداية الليل ، وكان الرهبان يستغنون عن الضوء الاصطناعي وينامون بملابسهم العادية وقلما كانوا يستحمون^(٦) .

وأضاف بندكت إلى هذه الأنظمة الصريحة بعض الإرشادات العامة التي يتبناها الرجل الكامل المسيحية :

- ١- يجب أولاً أن يحب الإنسان الله بكامل قلبه ، وكامل روحه ، وكامل قوته ٥
- ٢- وعليه أن يحب جاره كما يحب نفسه (٣) وعليه ألا يقتل
وأن يزنئ . . . أو يسرق . . . أو يطعم . . . أو يشهد زوراً . . . (٨) وعليه أن يعظم الناس جميعاً . . . (١١) وأن يطهر جسمه . . . (١٣) وأن

يجب الصوم . . . (١٤) وأن يعين الفقراء . . . (١٥) وأن يكسو
العرايا . . . (١٦) وأن يزور المرضى . . . (٣٠) وألا يتسبب في الأذى
وأن يصبر عليه . . . (٣١) وأن يجب أعداءه . . . (٣٣) وألا يكون
مولعاً بكثرة الكلام . . . (٦١) وألا يرغب في أن يسمى قديساً . . . ولكن
عليه أن يكون من القديسين . . . (٧١) وإذا اختلف مع أحد فعليه أن
يصافيه قبل أن تغرب الشمس . . . (٧٢) وألا يقنط من رحمة الله (٧) . . .

وكان دير البندكتيين ملجأً يواسى المنكوبين في عصور الحرب والفوضى ،
والشك والتجوال ، يلجأ إليه الفلاحون المعدمون أو المنكوبون ، والطلاب
الذين يتوقون إلى مأوى هادئ ، والرجال المتعبون من نزاع العالم وضجيجه ،
ويقول لهم : « تحلوا عن كبرياتكم وحرثكم ، تجدوا هنا الأمن والسلام » .
فلا عجب والحالة هذه إذا نشأت مائة دير مثله للبندكتيين في جميع أنحاء
أوروبا ، كل منها مستقل عن غيره من الأديرة ، لا يخضع إلا للبابا وحده ،
وهي بمثابة جزائر شيوعية في بحر من الفردية عجاج . وكانت القواعد
والنظم البندكتية من أثبت وأبقى ما ابتدعته العقول في العصور الوسطى . وكان
دير كسينو نفسه رمزاً لهذا البقاء ، فقد نهبه اللومبارد الهمج في عام ٥٨٩ ؛
فلما انسحب اللومبارد عاد إليه الرهبان ، ثم دمره المسلمون في عام ٨٨٤ ؛
فأعاد الرهبان بناءه ؛ ونهبه الجنود الفرنسيون في عام ١٧٩٩ ، وهدمته قنابل
الحرب العالمية الثانية وقذائفها ، حتى سوته بالأرض في عام ١٩٤٤ . وهاهو ذا
اليوم (١٩٤٨) يعيد بناءه مرة أخرى رهبان القديس بندكت بأيديهم ، فهو
كالشجرة الطيبة إذا قطعت نمت وأزهرت من جديد .

الفصل الثاني

جريجورى الأكبر ٤٥٤٠ - ٦٠٤

بينما كان بندكت ورهبانه يعملون ويصلون آمنين مسلمين فى مونتى كسينو ، كانت الحرب القوطية (٥٣٦ - ٥٥٣) تجتاح إيطاليا من أقصاها الى أقصاها وتترك الفوضى والفاقة أينما حلت . واضطربت الحال الاقتصادية فى المدن وحلت بها الفوضى وتدهورت النظم السياسية ، ولم يبق فى رومة نفسها سلطة مدنية عدا سلطة مبعوثى الإمبراطورية ، يؤيدهم تأييداً ضعيفاً جنود بعيلون عنهم لا يتقاضون مرتباتهم . ولما انهارت السلطات الدنيوية على هذا النحو بدا لكل ذى عينين وللأباطرة أنفسهم أن لا حياة للدولة إلا ببقاء النظام الكنسى ، ولهذا أصدر جستينيان فى عام ٥٥٤ مرسوماً يطلب فيه أن « يختار الأساقفة والرجال المشهورون فى كل ولاية الأشخاص اللاتقنين الصالحين لتصرف شؤون الحكومة المحلية »^(٨) ولكن جثة جستينيان لم تكف تبرد فى مئاها الأخير حتى أخضعت غزوات اللبارد (٥٦٨) شمالى إيطاليا مرة أخرى الى الهمجية وإلى المذهب الأريوسى وهددت صرح الكنيسة كله وزعامتها فى إيطاليا بأشد الأخطار . وخلقت هذه الأزمة رجلا ، وكان التاريخ مرة أخرى شاهداً بما للبعقرية من أثر عظيم :

ولد جريجورى فى رومة قبل موت بندكت بثلاث سنين ، وهو ينتمى إلى أسرة عريقة من أعضاء مجلس الشيوخ . وقد قضى صباه فى قصر جميل على سفح تل كئيليا Caelian . ولما توفى أبوه ورث عنه ثروة طائلة ، وارتقى بسرعة فى سلم المناصب السياسية فكان فى الثلاثة والثلاثين من عمره عمدة لرومة ، ولكنه لم يجد

في نفسه ميلا للشئون السياسية ، ولهذا فإنه حين أتم السنة التي يحق له فيها أن يتولى منصبه ، وأيقن ، كما يبذلوا من أحوال إيطاليا ، ومما كان يردده الناس على الدوام ، أن آخرة العالم قد اقتربت^(٩) ، أنفق معظم ثروته في إنشاء سبعة أديرة ، ووزع ما بقي منها صدقات للفقراء ، وتخلّى عن جميع مظاهر طبقتة ، وحول قصره إلى دير للقديس أندرو St. Andrew وصار أول راهب فيه ، وأخذ نفسه بأشد أنواع الزهد صرامة ، ولم يطعم في معظم أيامه إلا الخضر والفاكهة ، وأكثر من الصيام إلى حد أنه لما أقبل يوم سبت النور الذي يحتم فيه الصيام خيل إلى من يراه أن صوم يوم واحد بعده سيقضى عليه لا محالة : غير أنه كان يذكر بالخير الثلاث السنين التي قضاها في الدير ويقول إنها أسعدتني حياتي :

ثم انتزع من هذا الهدوء ليكون « شماساً سابغاً » في خدمة البابا بندكت الأول ، ثم أرسله البابا بلاجيوس Pelagius الثاني سفيراً له في البلاط الإمبراطوري بالقسطنطينية . وظل بين الأعياب السياسة وأبهة القصور يعيش معيشة الراهب في عاداته ، وطعامه وصلواته^(١٠) ، وإن كان مع ذلك قد خبر العالم وما فيه من مكر وخداع خبرة أفاد منها كثيراً . واستدعى مرة أخرى إلى رومة عام ٥٨٦ . وعين رئيساً لدير القديس أندرو ، ثم فشا في عام ٥٩٠ طاعون دملي مروع قضى على عدد كبير من أهل رومة وكان بلاجيوس من ضحاياه ، وبادر رجال الدين والشعب إلى اختيار جريجورى ليخلفه ، وكان يمز على جريجورى أن يترك ديره فكتب إلى إمبراطور الروم يرجوه ألا يوافق على اختياره للمنصب الجديد ، ولكن عمدة المدينة احتجز الرسالة ، وبينما كان جريجورى يعد العدة للهرب ، أتى القبض عليه ، وحمل بالقوة إلى كنيسة القديس بطرس حيث أقامه جريجورى آخر ، أو هكذا يقولون ، بابا^(١١) . وكان وقتئذ في الخمسين من عمره ، وقد دب الصلع في رأسه في هذه السن المبكرة . وكان كبير الرأس أسمر اللون ، أفنى الأنف ، خفيف شعر اللحية ، أصداه ، قوى

الإحساس ، حلو الحديث ، ماضى العزيمة ، رقيق العاطفة ؛ وكان تقشفه الشديد وتبعاته الكثيرة قد أتلفت صحته ، فكان يشكو عسر هضم ، وحمى بطيئة خفيفة ، وداء النقرس . وعاش في القصر البابوي كما كان يعيش في الدير - يلبس ثوب الرهبان الخشن ، ويأكل أرخص الأطعمة وأشدها خشونة ، ويشارك مساعديه من الرهبان والقسيسين في حياتهم العامة . ولم يمنعه انهماكه في معظم أوقاته في مشاكل الدين والدولة من أن يوجه كلمة أو يقوم بعمل يشعران بالعطف والحنان . من ذلك أنه أبصر في يوم من الأيام شاعراً جوالاً على باب قصره ومعه أرغن وقرد . فأمر جريجورى الرجل بالدخول ، وقدم له الطعام والشراب^(١٣) . ولم يكن ينفق إيرادات الكنيسة في تشييد صروح جديدة بل أنفقها في الصدقات ، وفي الهبات للمعاهد الدينية في جميع أنحاء العالم المسيحي ، وفي افتداء أسرى الحروب . وكان يوزع على كل أسرة فقيرة في رومة كل شهر قدرأ من الحبوب ، والنيذ ، والخبز ، والزيت والسمنك ، واللحم ، والثياب ، والمال . وكان عماله يحملون الطعام المطبوخ في كل يوم إلى العجزة والمرضى ؛ وكانت رسائله غاية في الصرامة لرجال الكنيسة المهملين ، ولكبار الحكام السياسيين ، ولكنها كانت تفيض رقة وحناناً للمنكوبين : من فلاح يشتغل في أرض الكنيسة ، إلى أمة تريد أن تدخل الدير ، أو سيدة شريفة يوثبها ضميرها على ما اقترفت من آثام . وعلى هذا النحو كان القس راعياً بالمعنى الحرفي لهذا اللفظ ، راعياً يعنى بقطيعه ، وكان للبابا الصالح الحق كل الحق في أن يؤلف كتابه المسمى *Liber Pastoralis curae* (٥٩٠) ، وهى كتاب موجز في النصائح يسديها إلى الأساقفة ، صارت فيما بعد من المراجع المسيحية الهامة ، ولم يمنعه مرضه الدائم وشيخوخته المبكرة من أن ينهك قواه في تصريف الشئون الكنسية ، والسياسة البابوية ، والأعمال الزراعية ، والخطط العسكرية ، وتأليف الرسائل الدينية ، والنشوة الصوفية ، والاهتمام الشديد بالآلاف تفاصيل الحياة البشرية . وقد خلع على منصبه السامى.

ما يتصف به الدين من تواضع ، فلقب نفسه في أولى رسائله الباقية لدينا اليوم « خادم خرم الله » servus servorum Dei ، وقد ارتضى أعظم البابوات لأنفسهم هذا اللقب النبيل .

وامتازت إدارته لشئون الكنيسة بالاقتصاد الحكيم ، والإصلاح الصارم الشديد ، وقد بذل جهوداً جبارة في قمع التسرى والمتاجرة بالرتب الكهنوتية بين رجال الدين ، وأعاد النظام إلى الأديرة اللاتينية ، ونظم علاقتها بالبابا وبرجال الدين من غير الرهبان . وأصلح قانون القديس ولعله كانت له يد في نشأة النشيد « الجريجورى » ، وقع ما كان قائماً في ضياع البابا من استغلال ، وقدم القروض من غير فائدة للزراع المستأجرين ، ولكنه لم يتوان عن جمع إيراد أملاك الكنيسة بالحزم والسرعة ، وعرض بدهائه على اليهود الذين يعتقدون المسيحية أن يخفض لهم إيجار أملاك الكنيسة ، وقبل للكنيسة الأراضي التي كان يهبها لها الأشراف الذين أفضت مضاجعهم مواعظه عن اقتراب نهاية العالم (١٤) .

وكان في هذه المشاغل كلها يقابل أعظم حكام زمانه ويناقشهم في الشؤون السياسية ، يغلبهم في معظم الأحيان ويغلبونه في بعضها ، ولكنه ترك في آخر الأمر سلطان الكنيسة وهيبة البابوية و « ميراث بطرس » (أى الولايات البابوية في إيطاليا الوسطى) ترك هذه كلها أعظم وأوسع رقعة مما كانت قبله . وقد اعترف من الوجهة الرسمية بسيادة إمبراطور الروم ، ولكنه كان يتجاهل هذه السيادة من الوجهة العملية ؛ مثال ذلك أنه لما أن هدد دوق اسبيليتو مدينة رومة - وكان في حرب مع نائب الإمبراطور في رافنا - عقد جريجورى صلحاً مع الدوق دون أن يستشير في ذلك نائب الإمبراطور أو الإمبراطور نفسه ، ولما أن حاصر اللمبارد مدينة رومة اشترك جريجورى في تنظيم الدفاع عنها .

غير أنه كان يأسف لكل دقيقة يقضيها في الشؤون الدنيوية ، ويعتذر للجماحات المصلين لعجزه عن أن يلتقى عليهم عظات تريح بهم بين المتاعب الدنيوية التي

تشغل باله هو ، وقد أسعده أن يوجه عنايته فيما أتيج له من سنى الهدوء القلائل إلى نشر الإنجيل في أوربا ، وأخضع لسلطانه أساقفة لمبارديا المتمردين ، وأعاد المذهب الكاثوليكي السليم إلى أفريقية ، وتلقى تحويل أسبانيا الأريوسية إلى المذهب الكاثوليكي ، وكسب إنجلترا لهذا المذهب دون أن يكلفه ذلك أكثر من أربعين راهباً بعث بهم إليها . ولما أبصر وهو رئيس دير القديس أندرو بعض الأسرى الإنجليز يعرضون للبيع في أحد أسواق الرقيق في رومة دهش كما يقول بيد Bede ذو النزعة الوطنية :

« من بياض إهابهم ، ووسامة وجوههم ، وجمال شعرهم ، فأخذ يتأملهم لحظة وجيزة ، ثم سأل ، كما يقولون ، عن الإقليم أو البلد الذى جرى بهم منه . ولما قيل له إنهم جاءوا من بريطانيا ، وإن هذه هى صور أهلها ، سأل مرة أخرى هل سكان تلك البلاد مسيحيون . . . فلما أجيب بأنهم كفرة من عباد الأوثان صاح هذا الرجل الصالح قائلاً . . . وأسفاه ! إني ليحزنى أن يكون أولئك الناس الحسان ذوو الوجوه المشرقة من أتباع ملك الظلام ، وأن تكون لأصحاب هذا المظهر الجميل عقول خالصة من الجمال الداخلى » . ثم سأل من أجل هذا مرة أخرى عن اسم أولئك الأقوام ، فقيل له إن اسمهم الإنجليز Angles ، فلما سمع هذا قال : « ألا ما أجدرهم بهذا الاسم (*) لأن لهم وجوهاً كوجوه الملائكة ، وخلق بأولئك الرجال أن يرثوا مع الملائكة ملكوت السموات (١٥) » .

ثم تقول القصة بعدئذ - وهى أطرف من أن تصدق - إن جريجورى استأن البابا بلاجيوس الثانى أن يذهب على رأس جماعة من المبشرين إلى إنجلترا ، فلما أذن له البابا بذلك بدأ رحلته ، ولكنه وقف عن مواصلة الرحلة حين سقطت جريدة على الصفحة التى كان يقرأها فى الكتاب المقدس ؛ فصاح من فوره لوكستا Locusta ، « إن معنى هذا loca sta - أى أقم فى مكانك (١٦) .

(*) يشير إلى ما بين Angles أى الإنجليز و Angels أى الملائكة من تجانس . (المترجم)

وشغلته بعد ذلك بقليل شئون البابوية ولكنه لم ينس إنجلترا ، فلما كان عام ٥٩٦ أرسل إليها بعثة برياسة أوغسطين كبير الرهبان في دير القديس أندرو . فلما وصلت البعثة إلى غالة عاد الرهبان أدراجهم ، إذ روعتهم أقاصيص الفرنجة عن وحشية السكسون ، فقد قيل لهم إن « أولئك الملائكة » وحوش مفترسة ، القتل عندهم أفضل من الأكل ، متعطشون لدماء الآدميين ، وأن أحب الدماء إليهم دماء المسيحيين . وعاد أوغسطين يحمل هذه الأخبار إلى رومة ، ولكن جريجورى أنهى على ما فعل وشجعه على العودة ، وأرسله إلى إنجلترا مرة أخرى فآتم بالسلم في عامين اثنين ما فعلته رومة بالحرب في تسعين عاما ، ثم لم يلبث عملها أن عفت آثاره .

ولم يكن جريجورى فيلسوفاً دينياً مثل أوغسطين العظيم ، كما أنه لم يكن من الكتاب أصحاب الأساليب الجيدة مثل جيروم ذى الأسلوب المتع الجذاب . ولكن كتاباته كان لها أعمق الأثر في عقلية الناس في العصور الوسطى ، وكانت تعبر عن هذه العقلية أصدق تعبير ، ولهذا فإن كتابات أوغسطين و جيروم تبدو إلى جانبها كأنها من أقلام اليونان والرومان الأقدمين . وقد خلف وراءه كتباً في الدين توأم عقلية الجماهير ، حوت من السخف الكثير ما يحير الإنسان فلا يدري هل كان يؤمن بهذا الإدارى العظيم حقاً بما يكتبه ، أو أنه لم يكن يكتب إلا ما يرى أن من الخير للنفوس الساذجة الأثيمة أن تؤمن به . وأعظم كتبه إمتاعاً هو ترجمته لحياة بندكت - وهى فى واقع الأمر أنشودة ساحرة من التبجيل لا يدعى فيها أنه حرص على تمييز الأوهام من الحقائق تمييز الناقد البصير ، وخير ثرائه الأدبى هو رسائله الثمانمائة ، ففيها يكشف هذا الرجل المتعدد المواهب عن قدرته فى مائة من الميادين ، ويرسم دون أن يشعر صورة دقيقة لعقله وزمانه . وقد أحب الشعب محاوراته لأنه يعرض عليهم فيها أعجب القصص عن رومى رجال الدين فى إيطاليا ، ونبوءاتهم ، ومعجزاتهم ، على أنها حقائق تاريخية . ففيها

يقرأ القارىء عن الحجارة الضخمة يحركها الناس بصلواتهم ، وعن قديس يستطيع أن يتخفى عن أعين الخلق ، وعن سموم تصبح عديمة الضرر بفعل علامة الصليب ، وعن أطعمة تنزل وتتكاثر بفعل المعجزات ، وعن مرضى يشفون من أمراضهم وأموات يعودون إلى الحياة . ويتكرر في هذه المحاورات ذكر الخلفات وما لها من قوة ، ولكن أعجب ما فيها ما يذكره عن السلاسل التي قيل إن بطرس وبولس قد قيدها بها ؛ وكان جريجورى يحرص على ذكر هذه السلاسل ويمجدها إلى حد العبادة ، ويهدى برادة منها إلى أصدقائه ؛ وقد كتب مع هدية من هذا النوع إلى صديق مصاب بالرمم : « احرص على أن تضع هذه فوق عينيك باستمرار ، لأن هذه الهدية بعينها قد أتت بكثير من المعجزات » (١٧) . وقصارى القول أن مسيحية الجماهير قد استحوذت على عقل البابا العظيم وقلمه .

وكانت أعظم محاضراته في ميدان الدين هى كتابه *Magna Moralia* - وهو شرح لسيفر أيوب في ستة مجلدات . وهو يروى هذه المسرحية على أنها تاريخ حقيقى فى كل سطر من سطورهِ ، ولكنه بالإضافة إلى هذا يبحث فى كل سطر عن معنى مجازى أو رمزى ، ويختمها بقوله إنه يجد فى سيفر أيوب جميع آراء أوغسطين الدينية . ويعتقد أن الكتاب المقدس هو كلمات الله بكل ما لهذا التعبير من معانٍ ، وأنه فى حد ذاته نظام كامل من الحكمة والجمال ، وأن على كل إنسان ألا يضيع وقته ويفسد أخلاقه بقراءة الكتب الوثنية اليونانية والرومانية القديمة . على أن بعض آيات الكتاب المقدس فى رأيه يكتنفها الغموض ، وأنها كثيراً ما تصاغ فى لغة شعبية توضورية ، ولهذا فهى فى حاجة إلى أن تعنى بتفسيرها عقول مدربة ، والكنيسة وهى الأمينة على التقاليد المقدسة هى وحدها التى يحق لها أن تقوم بهذا التفسير والعقل الفردى أداة ضيقة مولعة بالتقسيم ، لم توجد لتعالج الحقائق التى نسمو على الحواس ، وإذا ما حاول العقل أن يدرك ما هو فوق مداركنا ،

خسر كل شيء حتى ما يستطيع فهمه . وليس في مقدور أفهامنا أن نعرف الله ، وكل ما في وسعنا أن نقول إنه ليس كذا وكذا ولكننا لا نستطيع أن نقول ما هو ؛ و « يكاد كل ما يقال عن الله يكون غير خليق به مجرد أنه يمكن أن يقال عنه »^(١٩) ولهذا لا يحاول جريجورى محاولة صريحة أن يثبت وجود الله ، ولكنه يقول إن في وسعنا أن نشير إلى وجوده بالتفكير فى النفس البشرية : أليست هى القوة الحية وهادية الجسم ؟ ثم يقول جريجورى : « وكثيراً ما رأى عدد كبير من الناس . . . فى هذه الأيام أرواحاً تفارق أجسامها »^(٢٠) . ومأساة الإنسان الكبرى هى أنه قد فسدت فطرته بتأثير الخطيئة الأولى ، فالت به إلى الشر ، وهذا التكوين الروحى الفاسد الأساس ينتقل من الوالد إلى الولد بفعل التناسل الجنسى : فإذا ما ترك الإنسان وشأنه أضاف ذنباً إلى ذنب واستحق بذلك العذاب الدائم . وليست النار اسماً على غير مسمى ، بل هى هوة سحيقة تحت الأرض مظلمة لا قرار لها وجدت من يوم أن خلق العالم . وهى نار لا ينطفى لظاها مجسمة ، ولكن فى مقدورها رغم ذلك أن تظهر الأرواح والأجسام ؛ وهى أبدية ولكنها لا تنفى المذنبين أو تنقص من إحساسهم بالألم ، ويضاف إلى آلامهم فى كل لحظة يقضونها متألمين رعبهم مما ينظرونه من آلام مقبلة ، ومن مشاهدة ما يلاقبه أحبائهم المذنبون من هول العذاب ، وبأسهم من النجاة ، أو من السماح لهم بالفناء^(٢١) . وأوضح جريجورى بطريقة أقل إرهاباً من هذه الطريقة قول أوغسطين عن المطهر الذى يتم فيه الموتى التكفير عن ذنوبهم التى عفا الله عنها . وهنا يفعل جريجورى ما يفعله أوغسطين فيطمئن أولئك الذين روعهم بتذكيرهم بنعمة الله وفضله ، وشفاعة القديسين وثمار تضحية المسيح بنفسه ، وما للقاء الربانى من قوة خفية عجيبة فى نجاتهم ، وهى قوة فى تناول جميع التائبين المسيحيين .

ولعل تعاليم جريجورى الدينية تنعكس عليها صحته المعتلة كما تنعكس عليها لهُوضى زمانه : فأما صحته المعتلة فقد كتب عنها فى عام ٥٩٩ يقول « قضيت أحد

عشر شهراً قلاماً غادرت فيها فراشى ، ينتابني فيها القفرس والقلق المولم . . . إلى حد صرت أرجو معه النجاة منه بالموت ، وكتب في عام ٦٠٠ مرة أخرى : « أنا الآن ملازم للفراش منذ عامين ، وقد اشتدبني الألم إلى حد أكاد أعجز معه عن مغادرة سريري مدة ثلاث ساعات أحتفل فيها بالقداس . وأنا أحس في كل يوم بأنني على حافة القبر وأنى في كل يوم أرد عنه » . وكتب في عام ٦٠١ : « لقد مضى زمن طويل لم أغادر فيه الفراش ، وما أعظم اشتياقي إلى الموت » (٢٢) . وجاءه الموت في عام ٦٠٤ .

لقد كان جريجورى المسيطر على أواخر القرن السادس ، كما كان جستنيان المسيطر على بدايته ، وكان له في هذه الحقبة أثر في الدين لا يعلو عنه إلا أثر النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) . ولم يكن جريجورى من رجال العلم ولا من المتبحرين في الدين . ولكن هذه البساطة هي التي جعلت له في عقول الناس أثراً أعظم من أثر أوغسطين الذي كان يهتدى بهديه في تواضع فاتن جذاب : أما من حيث الناحية العقلية فقد كان أول من تمثلت فيها عقلية العصور الوسطى أصدق تمثيل (٢٣) ، فبينما كانت يده تدير شئون إمبراطورية مشنتة ، كان تفكيره منصرفاً إلى فساد الطبيعة البشرية وغواية الشياطين التي لا يخلو منها مكان على ظهر الأرض ، وإلى نهاية العالم القريبة . وكان يخطب خطباً قوية في تلك العقائد الدينية المرعبة التي ظلت تغشى عقول الناس قروناً عدة ، وكان يؤمن بجميع المعجزات الواردة في القصص الشعبية الخرافية ، وبكل ما يعزى لمخلفات القديسين ، وصورهم ، وأورادهم من تأثير سحري ؛ ويعيش في عالم مليء بالملائكة ، والشياطين ، والسحرة والأشباح ؛ وتجرد عقله من كل معنى يشعر بأن للعالم نظاماً قائماً على أساس العقل ، وكان العلم في رأيه مستحيل الوجود في الكون ، وكان الدين الرهيب هو وحده الذي بقي فيه . وقد ارتضت القرون السبعة التي جاءت بعد هذه النظرية ، وحاول الفلاسفة المدسيون جهدهم أن يصوروها بصورة

تتفق مع العقل ، وكانت هي الأساس الموثس الذى بنيت عليه المسألة البرهية .
ولكن هذا الرجل بعينه الذى يؤمن بالخرافات ويبادر إلى تصديقها ،
والذى حطمت جسمه تقواه المرعبة الرهيبية ، هذا الرجل كان فى قوة إرادته
وفى قدرته على العمل رومانياً من الطراز القديم ، لا يثنى عن قصده ،
صارماً فى أحكامه ، حازماً ، عملياً ، محباً للنظام وإطاعة القانون ، وضع
للأديرة قانوناً ، كما وهبها بندكت حكماً ، أقام سلطة البابوية الزمنية ،
وحررها من سلطان الإمبراطورية ، وصرف شئونها بحكمة واستقامة جعلنا
الناس يرون فيها ملاذاً يهرعون إليه فى العصور العاصفة المقبلة . وقد اعترف
بفضله و قدسه من جاء بعده من البابوات ولقبه الخلف المعجب به
« جريجورى العظيم » .

الفصل الثالث

الشؤون السياسية للبابوية ٦٠٤ - ٨٦٧

ووجد البابوات الأولون الذين جاءوا بعده أن من أشق الأمور عليهم أن يستمسكوا بكل ما كان يستمسك به من أهداب الفضيلة ، أو يحتفظوا بكل ما كان له من سلطان ؛ بل ارتضت الكثرة الغالبة منهم أن تخضع لسلطان حكام الولايات أو للإمبراطور ، وكثيراً ما لاقوا المهانة وهم يحاولون. أن يقاوموا هذا السلطان . وكان الإمبراطور هرقل Heraclius يتوق إلى توحيد إمبراطوريته التي أنقذها من أعدائه الفرس ، فسعى إلى التوفيق بين الشرق ذى المذهب اليهقوبى - القائل بأن ليس للمسيح إلا طبيعة واحدة ، - وبين الغرب المتمسك بمبادئ الكاثوليكية الأساسية والقائل بأن للمسيح طبيعتين . ومن أجل هذا أصدر في عام ٦٣٨ منشوراً يعرض فيه التوفيق بين المذهبين بالاعتقاد بأن للمسيح مشيئة واحدة وطبيعة واحدة . ووافق البابا هونوريوس Honorius الأول على هذا الافتراح وأضاف إلى ذلك قوله إن مسألة الإرادة الواحدة أو الإرادتين « مسألة أتركها للنحويين لأنها من المسائل القليلة الخطر » (٢٤) . ولكن رجال الدين في الغرب نددوا بموقفه هذا ؛ ولما أصدر الإمبراطور كونستانس Constans الثانى منشوراً (٦٤٨) يبدى فيه ميله إلى هذا المذهب رفضه البابا مارتن Martin الأول ، فأمر الإمبراطور حاكم رافنا أن يقبض على البابا ويأتى به إلى القسطنطينية ؛ ولما لم يذعن البابا لرغبة الإمبراطور نفي إلى شبه جزيرة القرم ، وبقي بها إلى أن مات في عام ٦٥٥ . ورفض المجلس المسكونى السادس الذى اجتمع فى القسطنطينية عام ٦٨٠ المذهب الجديد وحكم على البابا هونوريوس بأنه يجانب الخارجين على الدين (٢٥) ، ووافقت الكنيسة الشرقية التى آلمها استيلاء المسلمين على بلاد الشام

ومصر التي تدين بمذهب يعقوبيين ، على هذا الحكم ، وخفقت راية السلام الدينية لحظة وجيزة في سماء الشرق والغرب جميعاً .

ولكن لإذلال البابوية المتكرر على أيدي أباطرة الشرق ، وما حل ببيزنطية من الضعف بسبب اتساع أملاك المسلمين في آسية وأفريقية وأسبانيا ، وسيطرة المسلمين على البحر المتوسط ، وعجز القسطنطينية أوراثنان عن أن تحمي الولايات البابوية بإيطاليا من هجمات اللبارد ، كل هذا اضطر البابوية إلى أن تدير ظهرها إلى الإمبراطورية المتداعية وتطلب معونة دولة الفرنجة الآخذة في النماء والقوة . وخشى البابا استيفن الثاني (٧٥٢ - ٧٥٧) أن يستولى اللبارد على رومة فيحط ذلك من شأن البابوية ويجعلها مجرد أسقفية محلية يسيطر عليها ملوك اللبارد ، فاستغاث بالإمبراطور قسطنطين الخامس ، ولكن الإمبراطور لم يفته ، فولى البابا وجهه شطر الفرنجة ، وأسفرت هذه الحركة عن نتائج سياسة غاية في الخطر . فقد لبى بيپين القصير نداءه ، وأخضع اللبارد ، ونفخ البابوية « هبة بيپين » التي أغنتها إذ منحها جميع إيطاليا الوسطى (٧٥٦) ؛ وبفضلها قامت سلطة البابوات الزمنية . وبلغت هذه السياسة البابوية ذروتها حين وضع ليو الثالث التاج على رأس شارلمان ، ولم يعد يعترف لشخص ما أنه إمبراطور على الغرب إلا إذا مسح أحد البابوات . وهكذا أضحت أسقفية جريجورى الأول التي لا حول لها ولا طول من أعظم الدول في أوروبا . ولما مات شارلمان (٨١٤) ، انقلبت عطية الفرنجة للكنيسة ظهراً لبطن ، فأخضع رجال الدين في فرنسا ملوكها شيئاً فشيئاً لسلطانهم ، وبينما كانت إمبراطورية شارلمان تتدهور كان نفوذ البابوية وسلطانها يتزايدان .

وكان الأساقفة في بادئ الأمر أكثر الناس إفادة من ضعف الملوك الفرنسيين والألمان ومنازعانهم . ذلك أن رؤساء الأساقفة تحالفوا مع الملوك في ألمانيا ، فنالوا بفضل هذا التحالف أملاكاً واسعة ، وحصل الأساقفة والقساوسة على سطات

إقطاعية كادوا يستقبلون بها عن البابوات . ويلوح أن غضب الأساقفة الألمان واستيائهم من استبداد رؤسائهم كان هو منشأ « الأحكام البابوية الكاذبة » ، وهي مجموعة الأحكام التي قوت فيما بعد سلطان البابوية ، والتي كانت تهدف في بادئ الأمر إلى تقرير حق الأساقفة في أن يستأنفوا أحكام مطارنتهم إلى البابوات أنفسهم . ولسنا نعرف متى صدرت هذه الأحكام ولا أين صدرت ، ولكن أغلب الظن أنها جمعت في مدينة متز عام ٨٤٢ . وكان واضعها قس فرنسي تسمى باسم لزدورس مركاتور Isidorus Mercator . وكانت هذه المجموعة غاية في البراعة تشمل بالإضافة إلى طائفة كبيرة من القرارات الموثوق بها الصادرة من الجامعات الدينية أو البابوات ، عدداً من المراسيم والخطابات تعزوها إلى البابوات مبتدئة من كلمنت الأول (٩١ - ١٠٠) إلى ملخيادس Melchiodes (٣١١ - ٣١٤) . وكان الغرض الذي تهدف إليه هذه الوثائق أن ما جرت عليه الكنيسة من تقاليد وعادات قديمة تقضى بالأب لا يخضع أي أسقف من منصبه ، وألا يدعى أي مجلس من مجالس الكنيسة إلى الاجتماع ، وألا يفضل في أية مسألة من المسائل الكبرى ، إلا بعد موافقة البابا . وتدل هذه الشواهد على أن البابوات جميعاً ، حتى الأولين منهم ، كانوا يدعون أنهم أصحاب السلطان العالمي المطلق بوصفهم خلفاء المسيح في الأرض . وكان البابا سلفستر الأول (٣٢٤ - ٣٣٥) يوصف في هذه الأحكام بأنه قد أصبحت له بمقتضى « هبة قسطنطين » السلطة الزمنية والدينية الكاملتين على جميع أوروبا الغربية ، وأن « هبة بيبين » بناء على هذا لم تكن إلا استرداداً أعرج لحق مختلس ، وبدلاً أن خروج البابا عن سيادة بيزنطية بتتويجه شارلمان لم يكن إلا تقريراً مرتقباً من زمن بعيد لحق يرجع في أصله إلى مؤسس الإمبراطورية الشرقية نفسه . ومما يؤسف له أن كثيراً من الوثائق المزورة تنقل نصوصاً من ترجمة القديس جيروم للكتاب المقدس . ومن المعروف أن جيروم قد ولد بعد ستة وعشرين عاماً من وفاة ملخيادس .

ولقد كان في وسع كل من أوتي قدراً من العلم أن يكشف عن هذا التزوير ، ولكن البحث العلمي كان قد انحط كثيراً خلال القرنين التاسع والعاشر ، وكان مجرد القول بأن كثرة الادعاءات التي تعزوها هذه الأحكام البابوية إلى أساقفة رومة الأولين قد صدرت من هذا البابا أو ذلك من البابوات المتأخرين ، كان هذا القول وحده كافياً لإضعاف حجة النقاد ، ولهذا ظل البابوات ثمانية قرون كاملة يفترضون صحة هذه الوثائق ويستخدمونها لتوطيد أركان سياستهم (*) .

وكان من المصادفات الطيبة أن كان ظهور « الأحكام الكاذبة » قبيل انتخاب شخصية من أعظم الشخصيات شأناً في تاريخ البابوية ، تلك هي شخصية نقولاس الأول (٨٥٨ - ٨٦٧) وكان نقولاس قد تلقى تعليماً عالياً فذا في قانون الكنيسة وتقاليدها ، وتدرّب على مهام منصبه السامي بأن كان مساعداً محبوباً لطائفة من البابوات . وكان يضارع جريجورى الأول والثاني العظميين في قوة الإرادة ، ويفوقها في سعة مطامعه ونجاحه الوصول إليها . وقد أقام منطقتين على قضيتين يقبلهما وتشد جميع المسيحيين : وهما أن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها ، وأن أساقفة رومة ورثوا سلطات بطرس واحداً بعد واحد في تسلسل متصل ، ثم استنتج من هاتين القضيتين استنتاجاً يقبله العقل وهو أن البابا ، ممثل الله على ظهر الأرض ، يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين - حكاماً كانوا أو محكومين - في شئون الدين والأخلاق إن لم تكن في جميع الشئون . ونشر نقولاس بفصاحته هذه الحجة السهلة ، ولم يجرؤ أحد في البلاد المسيحية اللاتينية على معارضتها ، وكل ما كان يرجوه الملوك ورومساء الأساقفة ألا يحملها حمل الجلد أكثر مما يجب .

لكنه خيب رجاءهم : ذلك أنه لما أراد لوثير الثاني ملك لورين أن يطلق

(*) ولقد كشف لورنزوفلا في عام ١٤٤٠ ، بما لا يترك مجالاً للشك ، عما في هذه الأحكام الكاذبة من تزوير ، ولهذا فإن جميع الطوائف مجمعة في هذه الأيام على أن هذه الوثائق التي كانت مثاراً للجدل ووثائق مزورة (٢٦)

زوجته ثيوثيرجا Theutherga ويتزوج عشيقته ولدرادا حقق الرؤساء الدينيون مملكته رغبته ، فلجأت ثيوثيرجا إلى البابا نقولاس ، وأرسل البابا مبعوثيه إلى منز لينظروا في الأمر . ونفح لوثير أولئك المبعوثين برشا سخية ليؤيدوا الطلاق ، وحمل كبير أساقفة تريير وكولوني هذا القرار إلى البابا ؛ ولكن نقولاس كشف ما فيه من تدليس ، وأصدر قراراً بحرمان كبيرى الأساقفة ، وأمر لوثير أن يطرد عشيقته ويبعد زوجته إلى عصمته ؛ فعصى لوثير الأمر وزحف على رومة بجيشه . وأقام نقولاس ثمانى وأربعين ساعة صائماً مصلياً ، وخانت لوثير على أثرها شجاعته فخضع لأوامر البابا .

وحدث أن هنكار كبير أساقفة ريمس وأعظم الرؤساء الدينيين في أوربا اللاتينية بعد البابا وحده عزل أسقفاً يدعى راثراد Ratherad من منصبه ، فلجأ الأسقف إل نقولاس (٨٦٣) ؛ فأعاد البابا النظر في قضيته ، وأمر بإعادة راثراد إلى منصبه ؛ ولما تردد هنكار في تنفيذ حكم البابا هدده بأن يصدر قرار بالحرمان على جميع أبرشيته ، وهو قرار يقضى بوقف الصلوات في جميع كنائسها . واستشاط هنكار غضباً ، ولكنه خضع . وكان نقولاس يكتب للملوك ولرجال الدين كأنه صاحب السلطان الأعلى ، ولم يجروا أحد على معارضته إلا فوتيوس بطريق القسطنطينية . وقد ثبت من التطورات المقبلة أن الأحكام التي أصدرها البابا كانت كلها تقريباً في جانب العدالة ، وأن دفاعه الصارم عن الأخلاق الفاضلة كان هو السراج الوهاج الذى أنار دياجير الظلام والملجأ الحصين في ذلك العصر المنحل ، وكانت سلطة البابوية عند وفاته معترفاً بها في أقاليم أوسع رقعة من التي كان يعترف بها فيها قبل أن يتولى شئونها .

الفصل الرابع

الكنيسة اليونانية : ٥٦٦ - ٨٩٨

لم يكن في وسع بطارقة الكنيسة الشرقية أن يعترفوا بهذا السلطان الأعلى لأسقف رومة لسبب واضح هو أنهم كانوا من زمن بعيد خاضعين لأباطرة الروم، وأن هؤلاء الأباطرة لم ينزلوا حتى عام ٨٧١ عن دعواهم بأن لهم السيادة على رومة ومن فيها من البابوات . لقد كان البابوات من حين إلى حين يوجهون النقد إلى الأباطرة ، ويعصون أوامرهم ، بل ويشهرون بهم ؛ ولكن الأباطرة هم الذين كانوا يعينونهم في مناصبهم ، ويخرجونهم منها ، ويدعون المجالس الكنسية إلى الانعقاد ، وينظمون شئون الكنيسة بقوانين تسنها الدولة ، وينشرون آراءهم وتوجيهاتهم الدينية على رجال الدين . ولم يكن ثمة ما يحد من سلطان الأباطرة الديني المطلق في العالم المسيحي الشرقي إلا سلطان الرهبان ، ولسان البطريق ، واليمين التي يقسمها الإمبراطور حين يتوجه البطريق بأن لا يبتدع بدعة ما في الكنيسة .

وكانت أديرة الرهبان والراهبات منتشرة وقتل في القسطنطينية - بل في بلاد الشرق اليونانية على بكرة أبيها . وكان عدد هذه الأديرة في القسطنطينية وحدها يفوق عددها في الغرب ، حتى لقد استحوذت نزعة التنسك على بعض أباطرة بيزنطية أنفسهم ، فكانوا يعيشون معيشة الزهاد بين ترف القصور ، ويستمعون في كل يوم إلى القداس ، ويتقشفون في طعامهم ، ويندمون على خطاياهم كلما اقترفوها . وكانت تقوى الأباطرة والأثرياء حين يموتون سبباً في اتساع الأديرة وكثرة عددها بما كان يهبه هؤلاء وأولئك لها من الهبات في أثناء حياتهم ويوصون لها به من المال بعد وفاتهم . وكان الرجال والنساء من أعلى

الطبقات إذا ما أخافتهم نذر الموت يسعون لدخول الأديرة ، ويسترضون ربهم بما يهبونها من الأموال التي تعنى بعدئذ من الضرائب ، ومنهم من كانوا يعطون بعض أملاكهم لدير من الأديرة على أن يتقاضوا منه في نظير ذلك مرتباً سنوياً . وكانت أديرة كثيرة تدعى أن بها مخلفات لبعض القديسين الأجلاء ، وكان الناس يعزون إلى الرهبان السيطرة على ما لهذه المخلفات من قدرة على فعل المعجزات ، ويقدمون إليهم المال راجين أن ينالوا من وراء استثماره لديهم أرباحاً طائلة لا يصدقها العقل . وقد شوه عدد قليل من الرهبان دينهم بكسلهم ، وفسقهم ، وتخزبهم ، وشرهم ، وإن كانت كثرتهم قد تمسكت بأهداب الفضيلة والسلام . وكان الرهبان جميعهم ينالون احترام الشعب ، ويستمتعون بالثراء المادى ، بل يستمتعون أيضاً بنفوذ سياسى لم يكن يسع إمبراطوراً ما أن يتجاهله . وكان ثيودور (٧٥٩ - ٨٢٦) رئيس دير استوديون Studion فى القسطنطينية مثلاً أعلى فى التقى والسلطان . وكانت أمه قد وهبته فى طفولته إلى الكنيسة ، فتطعم بجميع الطبايع المسيحية إلى حد جعله يهين والدته أثناء مرضها الأخير باقتراب منيتها ومجدها . وقد وضع لرهبانه قانوناً للعمل ، والصلاة ، والعفاف ، وتنمية مواهبهم العقلية لا يقل شأناً عن قانون القديس بندكت فى الغرب ؛ ودافع عن استعمال الصور الدينية ، وأنكر أمام الإمبراطور ليو الخامس بمنتهى الجرأة أن من حق السلطة الزمنية أن تتدخل بأية صورة فى الشئون الكنسية . وقد نفي أربع مرات لعناده هذا ولكنه ظل فى منفاه يقاوم محطى الصور الدينية إلى يوم وفاته .

وأخذت الهوة بين المسيحية اللاتينية واليونانية تزداد بسبب ما كان بين المذهبين فى هذه القرون من اختلاف فى اللغة والطقوس والعقائد ، وكان مثلهما فى هذا كمثل جنس من أجناس الكائنات الحية انقسم فى المكان وتنوع على توالى الأيام . فقد كانت الطقوس ، والأثواب الكهنوتية ، والآنية ، والزخارف المقدسة فى الكنيسة اليونانية أشد تعقيداً ، وأكثر زخرفاً ، وأعظم عناية بالناحية الفنية من

مشيئاتها في الغرب . فكان ذراعا الصليب اليوناني مثلاً متساويتين ، وكان اليونان يصلون وهم وقوف ، أما اللاتين فكانوا يصلون راكعين ؛ وكان اليونان يعمدون أطفالهم بأن يغمرهم في الماء المقدس ، أما اللاتين فكانوا يرشون الماء عليهم ؛ وكان الزواج محرماً على القساوسة اللاتين ومباحاً للقساوسة اليونان ؛ وكان القسيسون اللاتين يخلقون لحامهم ، أما اليونان فكانوا يرسلونها لإرسالاً يخلع عليهم مظهر التفكير ؛ وتخصص رجال الدين اللاتين في الشئون السياسية ، أما اليونان فتخصصوا في أمور الدين ؛ وكانت الزندقة تنشأ على الدوام تقريباً في بلاد الشرق الذي ورث عن اليونان شغفهم بتحديد ما لا حد له ؛ ولقد نشأت بأرمينية حوالي عام ٦٦٠ من مبادئ الإلحاد الغنوسطية التي نادى بها بردسانس Bardesanes في بلاد الشام ، ومن اتجاه الحركة المانوية نحو الغرب على ما يظن ، شيعة من البولسيين Paulicians اشتق اسمها من اسم القديس بولس ، لا تؤمن بالعهد القديم ، ولا بالعشاء الرباني ، ولا تقول بتعظيم الصور المقدسة ولا برمزية الصليب . وانتقلت هذه الطوائف وهذه النظريات كما تنتقل بدور النبات من بلاد الشرق الأدنى إلى البلقان ، وإيطاليا ، وفرنسا . وصبرت صبر أولى العزم على أقصى أنواع الاضطهاد ، ولا تزال بقاياها موجودة إلى الآن في طوائف الملخاني Molokhani ، والخليستي Khlysti ، والدخوبور Dukhobors .

وكان الأباطرة أشد من الشعب إثارة للجدل القائم حول طبيعة المسيح الواحدة ، وما من شك في أن الشعب لم يكن هو المسئول عن العبارة التي أدخلت على العقائد النيقية في طيلطة عام ٥٨٩ ، والتي تقول إن الروح القدس ينبعث من الابن كما ينبعث من الأب ، والتي لم تقبلها الكنيسة اليونانية . وزادت الهوة بين الكنيستين . لقد كانت العقيدة النيقية تتحدث عن « الروح القدس الذي ينبعث من الأب » ، ex patre procedit وظل هذا القول كافياً مدى ٢٥٠ عاماً ؛

ثم حدث في عام ٥٨٩ أن غيره مجلس من مجالس الكنيسة عقد في طليطلة فجملة *ex patre filioque procedit* أى المنبعثة من الأب والابن . وارتضت غالة هذه الإضافة ، واعتنقها شارلمان وعض عليها بالنواجذ . واحتج رجال الدين اليونان وقالوا إن الروح القدس لا ينبعث من الابن بل ينبعث عن طريقه . ووقف البابوات بين هؤلاء وأولئك إلى حين ، ولم تدخل هذه العقيدة رسمياً في المذهب اللاتيني إلا في القرن الحادى عشر .

وقام في هذه الأثناء كفاح بين الإرادات أضيف إلى الكفاح بين الآراء ، فقد كان من بين الرهبان الذين فروا من وجه محطى الأصنام راهب يدعى إجناتيوس Ignatius ابن الإمبراطور ميخائيل الأول . واستدعت الإمبراطورة ثيودورا هذا الراهب في عام ٨٤٠ وعينته بطريقاً . وكان رجلاً تقياً شجاعاً ، شنع على تقيصر بارداس Caesar Bardas رئيس الوزراء لأنه طلق زوجته وعاشر أرملة ابنه ، ولما أصر بارداس على معايشة أرملة ابته المحرمة عليه طرده إجناتيوس من الكنيسة ، فما كان من بارداس إلا أن نفي إجناتيوس ، ورفع إلى عرش البطريرقية أعظم علماء ذلك العصر وأكثرهم تهذيباً (٨٥٥) . كان فوتيوس (٩٢٠-٨٩١) يتقن علوم اللغة ، والحطابة ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة ، وكانت محاضراته التى يلقيها في جامعة القسطنطينية قد اجتذبت إليه طائفة من الطلاب المخلصين المتحمسين فتح إليهم مكتبته وبيته . وكان قبل أن يرقى إلى مقام البطريرقية قد تم موسوعة في مائتين وثمانين بابا استعرض في كل واحد منها أحد الكتب المهمة ونقل نماذج منه . وبفضل هذه الموسوعة الضخمة بقيت لنا فقرات كثيرة من الآداب القديمة ، وارتفع فوتيوس بفضل هذه الثقافة الواسعة فوق تعصب الشعب ، الذى عجز عن أن يفهم السر في بقائه مرتبطاً برباط الود

والصداقة مع أمير كريت . واستاء رجال الدين في القسطنطينية حين رأوه يرتفع فجأة من بين العلمانيين إلى مقام البطريرقية ، وأرسل نقولاس الأول مبعوثه إلى القسطنطينية لينظروا في الأمر ، وقرر في رسأله إلى الإمبراطور ميخائيل الثالث وإلى فوتيوس المبدأ القائل بأن أية مسألة خطيرة من المسائل الكنسية لا يصح أن يفصل فيها في أى مكان من غير موافقة البابا . وعقد الإمبراطور مجلساً كنسياً أقر تعيين فوتيوس ، وانضم مبعوثو البابا إلى المؤيدين ؛ فلما عادوا إلى رومة أنكروا عليهم نقولاس عملهم واتهمهم بأنهم قد خرجوا على التعليمات التي وجهها إليهم ، وأمر الإمبراطور بأن يعيد لإجنائوس إلى منصبه ، فلما تجاهل الإمبراطور هذا الأمر أصدر قراراً بحرمان فوتيوس (٨٦٣) . وهدد بارداس بأنه سوف يبعث جيشاً ليخلع نقولاس ، ورد عليه نقولاس رداً بليغاً سخر فيه منه وأشار إلى خضوع الإمبراطور للمغيرين على أملاكه من الصقالبة والمسلمين :

« إنا نحن لم نغز كريت ، ولم نغفر نحن صقلية من أهلها ؛ ولم نخضع نحن بلاد اليونان ، ولم نحرق الكنائس في ضواحي القسطنطينية ؛ وبيننا بفتح هؤلاء الوثنيون (أملاكك) ويحرقونها ، ويخربونها ، تبعث إلينا أيها الماخر تهددنا بهول جيوشك . إنك تطلق بارباس Barabbas وتقتل المسيح (٢٧) » : ودعا فوتيوس والإمبراطور مجلساً كنسياً آخر إلى الانعقاد ، وأصدر هذا المجلس قراراً بحرمان البابا (٨٦٧) وشنع على « إلحاد » الكنيسة الرومانية ، ومن بينها انبعاث الروح القدس من الأب و الابن ، وحلق التساوسة للحاهم ، وتحريم الزواج على رجال الدين . وأضاف فوتيوس إلى هذا قوله : « ولقد أصبحنا بفضل هذه العادات نرى في الغرب كثيرين من الأطفال لا يعرفون آباءهم » .

وبينا كان الرسل اليونان يحملون هذا المزل إلى رومة إذ تبدل الموقف فجأة (٨٦٧) بجلوس بازيل الأول على عرش الإمبراطورية . وكان بازيل قد قتل قيصر بارداس ، وأشرف على اغتيال ميخائيل الثالث . ونادى فوتيوس أن

الإمبراطور الجديد قاتل سفاح ، ورفض أن يمنحه العشاء الرباني . ورد عليه بازيل بأن دعا مجلساً كنسياً إلى الانعقاد ، ونفى فوتيوس ، وأعاد إجناثيوس ؛ ولما مات إجناثيوس بعد ذلك بقليل ، استدعى بازيل فوتيوس ؛ وأعاد مجلس كنسى إلى مقام البطريقية ، ووافق البابا يوحنا السابع على هذا القرار (وكان نقولاس الأول قدمات) . وبهذا تأجل إلى حين انشقاق الكنيستين الشرقية والغربية إحداهما عن الأخرى بموت بطلى هذا الانشقاق .

الفصل الخامس

المسيحية تغزو أوروبا (٥٢٩ - ١٠٥٤)

لم يكن أجل الحوادث في التاريخ الديني لهذه العصور وأعظمها خطراً هو النزاع بين الكنيستين اليونانية واللاتينية ، بل كان هو ظهور الإسلام وتحديه للمسيحية في الشرق والغرب على السواء . ذلك أنه لم يكد دين المسيح يجنى ثمار انتصاراته على الامبراطورية الوثنية وعلى الشيع المسيحية الملحدة حتى انزعت منه أعظم ولاياته عزة على الدين واستمساكاً به ، انزعها منه في يسر مروع دين يحتقر فلسفة الإلهيات المسيحية والمبادئ الأخلاقية المسيحية(*) . نعم إن البطارقة ظلوا في كراسيهم بأنطاكية ، وبيت المقدس ، والإسكندرية بفضل تسامح المسلمين ؛ ولكن مجد المسيحية قد زال من تلك الأقاليم ، وكانت المسيحية الباقية فيها مسيحية مارقة قومية . فقد أقامت أرمينية ، والشام ، ومصر سلطات كهنوتية مستقلة تمام الاستقلال عن القسطنطينية ورومة . واحتفظت بلاد اليونان بدينها المسيحي لأن الرهبان قد انتصروا فيها على الفلاسفة ، وكان الدير العظيم دير لاثرا المقدس الذي أقيم على جبل آثوس Mt. Athos في عام ٩٦١ يضارع في عظمته البارثون بعد أن استحال كنيسة مسيحية . وكان لا يزال بأفريقية في القرن التاسع الميلادي عدد كبير من المسيحيين ، ولكنهم كانوا يتناقصون تناقصاً سريعاً تحت حكم المسلمين . أما أسبانيا فقد كان الجزء الأكبر منها في عام ٧١١ قد خرج من أيدي المسلمين ، ذلك أن المسيحية ولت وجهها نحو الشمال بعد هزيمتها في آسية وأفريقية وواصلت فتوحها في أوروبا .

(*) في هذا القول كثير من المغالاة فالإسلام لا يحتقر فلسفة الإلهيات المسيحية ولا المبادئ الأخلاقية المسيحية وإن خالفها في بعض مبادئها وحسبنا دليلاً على هذا قول الله سبحانه وتعالى عليه : « وجادلهم بالتي هي أحسن » . (المترجم)

وأوشكت إيطاليا أن تقع في أيدي المسلمين ، ولكنها بعد أن أفلتت منهم انقسمت بين المذهبين المسيحيين اليوناني واللاتيني ، وكاد دير مونتى كسينو يقوم على الحد الفاصل بين المذهبين ، وقد بلغت شهرة هذا الدير غايتها تحت حكم رئيسه دزیدورس (١٠٥٨ - ١٠٨٧) . فقد جاء إليه من القسطنطينية بيايين فخمين من البرنز ، ثم لم يكتف بهذا فجاء إليه أيضاً بصناع ، زينوا داخله بالفسيفساء والميناء ، والزخارف في المعادن والعاج والخشب . وكاد الدير يصبح جامعة علمية تدرس مناهج في النحو والآداب اليونانية والرومانية القديمة ، والآداب المسيحية واللاهوت ، والطب ، والقانون . وأخرج الرهبان مخطوطات مزخرفة غاية في الإبداع على غرار النماذج البيزنطية ، ونسخوا بخطهم الجميل كتب رومة الوثنية القديمة ، ومنها طائفة يرجع الفضل في بقائها حتى الآن إلى عمل هؤلاء الرهبان . وفي رومة لم تشأ الكنيسة في عهد البابا بنيفاس الرابع وخلفائه أن تظل الهياكل الوثنية آخذة في التهدم والانحلال بل شرعت تعيد بقاءها ليستخدمها المسيحيون ويعنوا بها ، فدشن الباثنيون لمريم العذراء ولجميع القديسين (٦٠٩) ، واستتحال هيكل يانوس كنيسة للقديس ديونيشيوس ، وهيكل زحل (ساترن) كنيسة المختص . وجدد ليو الرابع (٨٤٧ - ٨٥٥) كنيسة القديس بطرس وزينها ، وبفضل ازدياد سلطان البابوية ، ومجىء الحجاج إلى تلك المباني ، تمت حولها ضاحية من مختلف الأجناس واللغات اشتق اسمها من اسم تل الفاتيكان القديم .

وكانت فرنسا وقتئذ أغنى البلاد التابعة للكنيسة اللاتينية . ذلك أن ملوك الأسرة المروفنجية لم يكونوا يرتابون في قدرتهم على ابتياع ملكوت السموات بعد أن يستمتعوا بتعدد الزوجات وتقتيل الخصوم ؛ فأخذوا يهبون الأسقفيات الكثير من الأراضي والأموال . وكانت الكنيسة في فرنسا كما كانت في غيرها من البلدان تتلقى الوصايا من الكبراء الثائبين والوارثات العابدات الصالحات ؛ ولما حرم

شلريك Chilperic هذه الهبات ألغى جنثرام Gunthram أمر التحريم بعد تليل . وكان من تخريبات التاريخ أن رجال الدين في غالة كانوا كلهم تقريباً من العنصر الغالي الروماني ، وبهذا كان الفرنجة الذين اعتنقوا الدين المسيحي يخرون سجداً تحت أقدام من فتحوا هم بلادهم ويردون إليهم بالهبات ما نهبوه منهم في الحروب (٢٨) . وكان رجال الدين أعظم العناصر قدرة في غالة ، وأحسنهم تعليماً ، وأقلهم فساداً في الأخلاق ؛ وكادت معرفة القراءة والكتابة أن تكون محصورة فيهم وحدهم ، وكانت الكثرة الغالبة منهم تجد صداقة مخلصه في تعليم الشعب الذي كان يعاني الأمرين من شره كبرائه وملوكه ، وفي تقويم أخلاقه ، وإن كانت من بينهم أقلية صغيرة انغمست في الرذيلة . وكان للأساقفة القسط الأكبر من السلطة الزمنية والدينية في أبرشياتهم ، وكانت حماهم الملجأ المفضل للمتقاضين في الشئون الدينية وغير الدينية أيضاً . وكانوا أينما وجدوا يسيطون حمايتهم على اليتامى ، والأرامل ، والمعلمين ، والأرقاء ؛ وكانت الكنائس تنشى المستشفيات في كثير من الأبرشيات ، ومنها hotel de Dieu - « نزل الله » - الذي افتتح في باريس عام ٦٥١ . وقد اشتهر سان جرمان St. Germain ، أسقف باريس في النصف الثاني من القرن السادس في جميع أنحاء أوروبا بما بذله من الجهود في جمع الأموال - وإنفاق ماله الخاص - لتحرير العبيد . وقوى سيدونيوس أسقف مينز جسور الرين . وهذب فليكس أسقف نانت مجرى اللوار ، وأنشأ ديديه Didier أسقف كاهور Cahor قنوات لنقل مياه الشرب ، وكان سان أجوبار St. Agobard (٧٧٩ - ٨٤٠) كبير أساقفة ليون نموذجاً صالحاً في التدين ، وعدواً لدوداً للخرافات ؛ حرم المحاكاة بالمباراة أو التحكيم الإلهي ، كما حرم عبادة الصور ، وتفسير الزوابع على أنها من أعمال السحر ، وكشف عما في محاكمة الساحرات من أخطاء فكان هذا « أكثر رؤوس ذلك الوقت صفاء » (٢٩) . وكان هنكار الأرسقراطي كبير أساقفة ريمس (٨٤٥ - ٨٨٢) رئيساً لنحو (٢٤ - ج ٣ - مجلد ٤)

عشرين من المجالس الكنسية ، وقد ألف ستة وستين كتاباً ، وكان رئيس وزراء شارل الأصغر ، وكاد ينشئ حكومة دينية في فرنسا .

واتصفت المسيحية في كل بلد بصفات أهله القومية ، فأصبحت في أيرلندة صوفية ، عاطفية ، فردية النزعة ، انفعالية ، أدخلت فيها الجنيات ، والشعر ، وخيال الكلت العجيب الرقيق ؛ وورث القساوسة قوى الدرويد السحرية ، وأساطير الشعراء الغنائيين ، وكان النظام القبلي في البلاد مساعداً على تفكك الكنيسة - حتى كادت كل جهة فيها يكون لها « أسقف » مستقل . وكان الرهبان فيها أكثر عدداً وأعظم نفوذاً من الأساقفة والقساوسة ، وكان أولئك الرهبان يعيشون جماعات قلما تزيد الواحدة منها على اثني عشر راهباً يقيمون في أديرة شبه منعزلة ، معظمها مستقلة بشؤونها ومنتشرة في أنحاء الجزيرة ، تعترف للبابا برياسة الكنيسة ، ولكنها لا تخضع لإشراف خارجي من أى نوع كان . وكان الرهبان الأسبقون يعيشون في صوامع منفصلة ، ويعمدون إلى التنسك والزهد ، ولا يجتمعون إلا في أوقات الصلاة . وجاء بعدهم جيل آخر - « الطبقة الثانية » من القديسين الأيرلنديين - خرجوا على هذه التقاليد المصرية ، فكانوا يدرسون مجتمعين ويتعلمون اللغة اليونانية ، وينسخون المخطوطات ، وينشئون المدارس لرجال الدين وغير رجال الدين . وتخرج في المدارس الأيرلندية في القرنين السادس والسابع عدد متتابع من جبابرة القديسين الدائعي الصيت انتقلوا منها إلى اسكتلندة ، وانجلترا ، وغالة ، وألمانيا ، وإيطاليا ، ليعلموا فيها المسيحية المظلمة ويعيدوا إليها الحياة . وقد كتب أحد الفرنجة في عام ٨٥٠ يقول : « تكاد أيرلندة كلها تهرع جماعات إلى سواحلنا ومعها حشد من الفلاسفة » (٣٠) . وهكذا انعكست الآية واسترد الدين ، فبعد أن طردت غارات الألمان على غالة وبريطانيا العلماء من هذين البلدين إلى أيرلندة ، أخذ المبشرون الأيرلنديون بلقون بأنفسهم على فاتحني إنجلترا الوثنيين من الإنجليز والسكسون ،

والترويجيين ، والدنمركيين ، وعلى المسيحيين الأيمن نصف الهمج في غالة وألمانيا ، يحملون الكتاب المقدس بإحدى يديهم والمخطوطات اليونانية والرومانية القديمة باليد الأخرى ، ولاح وقتاً ما أن الكلت سوف يستردون عن طريق المسيحية ما خسروه من الأراضى بالقوة . وبذلك كانت العصور المظلمة هى التى أشرفت فيها الروح الأيرلندية وتلاذت كما لم تتلاذت من قبل ولا من بعد .

وكان أعظم أولئك المبشرين هو سانت كولمبا St. Columba ، ونحن نعرف الشيء الكثير عنه من سيرته التى كتبها له (حوالى عام ٦٧٩) آدمنان Adamnan أحد خلفائه فى أبونا Iona . وقد ولد كولمبا فى دنجال Donegal عام ٥٢١ ، وكان يجرى فى عروقه دم الملوك ، وكان كما كان بوذا قديساً فى وسعه أن يكون ملكا . وبدا عليه وهو طالب فى مدرسة موثيل Moville من الورع ما جعل معلمه يلقبه كولمبكيل Columbkille أى عماد الكنيسة . وأنشأ مذ كان فى الخامسة والعشرين من عمره عدداً من الكنائس والأديرة أشهرها كلها ما كان منها درى Derry ، ودرو Durrow ، وكلز Kells . ولكنه لم يكن قديساً فحسب ، بل كان فوق ذلك مكافحاً « قوى البنية ، جهورى الصوت »^(٣١) ، سبب له تهوره كثيراً من النزاع ثم إلى الحرب مع الملك دبرمويد Diarmuid ، ودارت بينهما آخر الأمر معركة قتل فيها ، على حد قولهم ، ٥٠٠٠ رجل . وانتصر فيها كولمبا ولكنه رغم انتصاره فر من أيرلنده (٥٦٣) ، وهو مصمم على أن يهدى إلى المسيحية من الأرواح بقدر من قتل فى معركة كولدرفنا Cooldrevna . وأنشأ وقتئذ فى جزيرة أبونا القريبة من شاطئ اسكتلنده الغربى ديراً من أعظم أديرة العصور الوسطى وأوسعها شهرة . ومن هذا الدير نشر هو ومريده الإنجيل فى جزائر هبريده Hebrides ، واسكتلنده ، وشمال إنجلترا . وبعد أن هدى آلافا من الوثنيين إلى الدين المسيحى وزخرف ثلثمائة « كتاب نبيل » مات ، هو يصلى عند المذبح فى الثامنة والسبعين من عمره .

وشبيه به في روحه واسمه سانت كولمان St Columban المولود في لينستر Leinster حوالي عام ٥٤٣ . ولسنا نعلم عنه شيئاً حتى نجده وهو في الثانية والثلاثين من عمره يؤسس الأديرة في جبال الفوج بفرنسا . وكان من تعاليمه للمبتدئين من أتباعه في لكسويل Luxeuil :

يجب أن تصوم كل يوم ، وتصلي كل يوم ، وتعمل كل يوم ، وتقرأ كل يوم ؛ وعلى الراهب أن يعيش تحت حكم أب واحد ، وفي مجتمع يتألف من كثير من الإخوان ، حتى يتعلم التواضع من أحدهم والصبر من آخر والصمت من ثالث ودماثة الأخلاق من رابع ويجب أن يأوى إلى الفراش وهو متعب يكاد يغلبه النوم وهو سائر في الطريق (٢٣) .

وكانت العقوبات صارمة ، أكثر ما تكون بالحداد : ستة سباط إذا سعل وهو يبدأ ترنيمة أو نسي أن يدرم أظافره قبل تلاوة القداس ، أو تبسم أثناء الصلاة أو قرع القدح بأسنانه أثناء العشاء الرباني ؛ وكانت اثنا عشر سوطاً عقاب الراهب إذا نسي أن يدعو الله قبل الطعام ، وخمسون عقاب التأخر عن الصلاة ، ومائة لمن يشترك في نزاع ، ومائتان لمن يتحدث غير احتشام مع امرأة (٢٣) . ولم يكن الناس يجمعون عن دخول الدير رغم هذا الحكم الإرهابي ، فقد كان في دير مكسويل ستون راهباً ، كثيرون منهم ينتمون إلى أسر غنية . وكانوا يعيشون على الخبز ، والخضر ، والماء ؛ ويقطعون الغابات ، ويحرقون الأرض ؛ ويزرعون ويحصدون ، ويصومون ويصلون . وهنا أقام كولمان نظام « الحمد الذي لا ينقطع iaux perennis » فقد كانت الأوراد يتلوها بلا انقطاع ليلاً ونهاراً طائفة بعد طائفة من الرهبان يوجهونها إلى عيسى ومريم والقديسين (٢٤) . وكانت ألف دير ودير شبيهة بدير لكسويل من المعالم البارزة في العصور الوسطى .

ولم يكن المزارع الصارم الذي وضع هذه القواعد يجيز آراء غير هذه الآراء ؛ ولهذا ألقى كولمان ، الذي يحرم النزاع ، نفسه في نزاع متكرر مع الأساقفة الذين .

يتجاهل سلطانهم ، ومع الموظفين الزمانيين الذين لا يقبل تدخلهم في الشؤون الدينية ، ومع البابوات أنفسهم . ذلك أن الأيرلنديين كانوا يحتفلون بعيد الفصح حسب تقويم كانت تسير عليه الكنيسة في بادئ الأمر ولكنها غيرته في عام ٣٤٣ . ونشأ من ذلك نزاع بينها وبين القساوسة الغاليين ، فلجأ هؤلاء إلى جريجورى الأكبر ، ورفض كولبيان أوامر البابا وقال : « إن الأيرلنديين أعلم منكم بالفلك أيها الرومان » ، وأمر جريجورى أن يقر طريقة الأيرلنديين في الحساب وإلا « فسيعد من الخارجين على الدين وتنبذه بازدراء كنائس الغرب » (٣٥) . ثم طرد الأيرلندى المتمرد من غالة (٦٠٩) ، لتشيهره بأثام الملكة برنهلد Brunhild : ووضع بالقوة على ظهر سفينة مقلعة إلى أيرلندا ؛ ولكن السفينة اضطرت إلى الاندفاع عائدة إلى فرنسا ؛ وعبر كولبيان الأرض المحرمة عليه وأخذ يعظ أهل بافاريا الوثنيين . ولسنا نعتقد أن كولبيان كان في حقيقة أمره رهيباً كما يبدو من حكمه وسيرته ، فنحن نسمع أن السناجب كانت تجثم في اطمشنان على كتفيه وتدخل في قلعنوته وتخرج منها (٣٦) . ثم ترك زميلا له أيرلندياً ليؤسس (٦١٣) دير سانت جول St Gall على بحيرة كنستانس ، وعبر هو ممر سان جوئار Sf Gothard Pass بعد أن عانى في سبيل ذلك الأمرين ، وأسس دير بيبو Bobbio في لمباوديا عام ٦١٣ حيث توفي بعد عامين في صومعته المنعزلة التي كان يعيش فيها معيشة الزهد والتقشف .

ويحدثنا ترتليان Tertullian عن وجود مسيحيين في بريطانيا في عام ٢٠٨ ؛ كما يحدثنا بيد Bede عن وفاة سانت أولبان أثناء اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين . وقد شهد الأساقفة البريطانيون مجلس سرديقا Sardica (٣٤٧) ؛ كذلك ذهب جرمانوس Germanus أسقف أوكسير Auxerre إلى بريطانيا في عام ٤٢٩ ليقتضى فيها على الزنادقة البلاجيين (٣٧) . ويؤكد لنا ونيم الملمز بري William of Malmesbury أن الأسقف أباد جيشاً من السكسون بأن جعل الذين هداهم

من البريطانيين يصرخون « حمدا لله » في وجوههم (٣٨) . ثم ضعف شأن المسيحية البريطانية بعد أن كانت لها هذه القوة العظيمة ، وأشرفت على الفناء بسبب غارات الأنجليسكسون ؛ فلم تعد تسمع عنها شيئاً بعدئذ حتى دخل أتباع كولبا نورثمبلند في آخر القرن السادس ، وحتى وصل أوغسطين ومعه سبعة آخرون من الرهبان من رومة إلى إنجلترا . وما من شك في أن البابا جريجورى قد علم من قبل أن إثلبرت ملك كنت الوثني تزوج برتا Bertha الأميرة المروثنجية المسيحية . واستمع إثلبرت في لطف ومجاملة إلى أوغسطين ، وظل غير مقتنع بحديثه ، ولكنه أطلق له حرية الوعظ ، وهياً له ولزملائه الرهبان الطعام والمسكن في كنتبري . ثم استطاعت الملكة آخر الأمر (٥٩٩) أن تقنع الملك باعتناق الدين الجديد ، وحذا حلوهما كثير من رعاياهما . وفي عام ٦٠١ بعث جريجورى بصورة الكاهن إلى أوغسطين فأصبح على رأس عدد من أساقفة كنتبري الأجلء الممتازين . واصطنع جريجورى اللين مع من بقى في إنجلترا من الوثنيين وأجاز تحويل الهياكل القديمة إلى كنائس ، بأن تحول عادة التضحية بالثيران في يسر ولطف إلى « ذبحها لإنعاشهم لمديح الله » (٣٩) ، وبهذا كان كل ما طرأ على الإنجليز من تغير هو تحولهم من أكل لحم البقر حين يحمدون الله إلى حمد الله حين يأكلون لحم البقر .

وَأدخل مبشر إيطالى آخر يدعى بولينوس Panlinus المسيحية إلى نورثمبلند (٦٢٧) . ذلك أن أزولد Oswald ملك نورثمبلند دعا رهبان أيونا إلى الحجىء إلى بلاده ليعظوا شعبه ؛ وأراد أن يعينهم على أداء مهمتهم فنحهم جزيرة لندسفارن Lindisfarne القريبة من ساحل إنجلترا الشرقى . وفيها أنشأ سانت إيدان St. Aidan (٦٣٤) ديراً خلد اسمه بمن تخرج فيه من المبشرين المخلصين ، وبما أخرجه من المخطوطات المزخرفة ذات الروعة . وهناك ترك سانت كيثرت St. Cuthbert (٦٣٥ - ٦٨٧) وراءه في دير ملروز Melrose ذكريات طبية لصبره ، وتقواه ، وفكاهته ، وحسن إدراكه . وبفضل صلاح هؤلاء الرجال

وأمثالهم ، وبفضل ما كانوا ينعمون به من أمن وسلام وسط الحروب الكثيرة ، أقبل عدد كبير من المنتصرين حديثاً والمنتصرات إلى أديرة الرجال والنساء التي قامت وقتئذ في إنجلترا . وقد رفع أولئك الرهبان من كرامة العمل ، بكدهم المتواصل في الغابات والحقول على الرغم من انتكاسهم من حين إلى حين وعودتهم إلى أساليب عامة الناس . فتزعموا هنا ، كما تزعموا في فرنسا وألمانيا ، ركب الحضارة في كفاحه ضد المناقع والآجام ، وكما تزعموه في كفاحه ضد الأمية ، والعنف والدعارة ، والسكر ، والشه . وظن بيد أن من يدخلون الأديرة من الإنجليز قد زاد على الحد الواجب ، وأن لأشراف قد أسرفوا في إنشاء الأديرة ليغفوا أملاكهم من الضرائب ، وأن أراضى الكنيسة المغفأة من الضرائب قد استغرقت من أرض إنجلترا الزراعية فوق ما يجب أن تستغرقه ؛ وإنذر البلاد بأنه لم يبق من الجنود من يكفون لوقاية إنجلترا من الغزو^(٤٠) . وسرعان ما أثبت الدنمركيون ، ومن بعدهم النورمان حكمة الراهب وبعد نظره في شئون الدنيا .

ووجد النزاع سبيله إلى الأديرة نفسها ، وعكز عليها صفوها ، حين اصطدم الرهبان البندكتيون المقيمون في جنوبي إنجلترا والذين اتبعوا الشعائر الرومانية والتقويم الروماني ، بالرهبان الأيرلنديين والتقويم الأيرلندي والشعائر الأيرلندية في الشمال . وحسم سانت ولفريد St Wilfrid بفصاحته في مجمع هوتبي Whitby المقدس (٦٦٤) هذا النزاع - وهو من الوجهة الفنية التاريخ الصحيح لعيد الفصح - في صالح رومة . وقبل الرهبان الأيرلنديون على كره منهم هذا القرار ، وأضحت الكنيسة الإنجليزية بعد وحدتها وما نالت من الجبوس والهبات سلطة اقتصادية وسياسية ، واضطلعت بدور رئيسي في تحضير الشعب وحكم الدولة .

وجاءت المسيحية إلى ألمانيا هدية من الرهبان الأيرلنديين والإنجليز . ذلك أن وليبرورد Willibrord الراهب النورثمبري الذي تلقى تعليمه في أيرلندا اجتاز هو واثنا عشر من أعوانه المغامرين بحر الشمال في عام ٦٩٠ ، واتخذ

مقره الدينى فى أوترخت Utrecht ، وظل أربعين عاما يعمل لهداية الفريزيين إلى المسيحية . ولكن أولئك الملاك ذوى النزعة الواقعية رأوا فى وليبرورد يد بيبين الأصغر حاميه ونصيره ؛ ولم يكن يرضيهم أن يقال لهم إن جميع أسلافهم غير المعمدين مثوالم الجحيم . ويروى أن ملكا فريزيا عرف هذا وهو يوشك أن يعمد ، فامتنع عن التعميد وقال إنه يفضل أن يخلد مع آباءه (١) .

وواصل رجل أقوى من وليبرورد هذه الحملة فى عام ٧١٦ . ذلك أن نبيلاً إنجليزيا وراهباً بندكتيا يدعى ونفريد (٦٨٠ ؟ - ٧٥٤) منحه البابا جريجورى الثانى اسم بنيفاس ولقبه خافاوه الصالحون لقب « رسول ألمانيا » . وقد وجد ونفريد هذا بالقرب من فرتزلار Fritzar فى هس Hesse شجرة بلوط يعبدها الناس على أنها موطن لإله من الآلهة ، فما كان منه إلا أن قطع الشجرة ، ودهش الناس حين رأوا أنه ظل حيا فهرعوا إليه يطلبون التعميد . وأقيمت بعدئذ أديرة عظيمة فى ريخنو Reichenau (٧٢٤) ، وفلدا Fulda (٧٤٤) ، ولورسخ Lorsch (٧٦٣) . وعين بنيفاس كبيرا لأساقفة مينز فى عام ٧٤٨ ؛ فنصب عدداً من الأساقفة ونظم الكنيسة الألمانية فجعلها أداة قوية لتقويم الأخلاق وتوطيد دعائم النظام الاقتصادى والسياسى . ولما أتم رسالته فى هس وثورنجيا ، أراد أن يختم حياته بالاستشهاد فى سبيل الدين ، فدخل فريزيا يعتزم أن يتم العمل الذى بدأه وليبرورد ، وبعد أن ظل يكدح فى هذا العمل سنة أو نحوها هاجمه الوثنيون وقتلوه . وبعد عام من مقتله نشر شارلمان الدين المسيحى بين السكسون بالسيف والنار ، ورأى الفريزيون المعاندون أن لا مناص من الخضوع ، وتم بذلك فتح بلاد الدين فتحوا رومة على أيدي المسيحية الرومانية .

وكان آخر انتصارات الدين فى أوروبا هو هداية الصقالبة . وتفصيل ذلك أن رستسلاف Rostislav أمير مورافيا رأى المسيحية اللاتينية تندخل ببلاده وتغفل فى شعائرها لغة البلاد ، فطلب إلى بيزنطية أن ترسل لبلاده مبشرين

يستخدمون اللغة العامية في عظاتهم وصلواتهم ، فبعث إليه الإمبراطور بأخوين هما مثنوديوس Methodius وسيريل Cyril كانا نشأا في سلانيك ، ولذلك كان من السهل عليهما أن يتكلمتا لغة الصقلية . ورحب بهما أهل البلاد ولكنهما وجدتا أن الصقلية ليست لهم حروف هجائية يعبرون بها عن لغتهم تعبيراً كاملاً بالكتابة ، وأن العدد القليل الذين يكتبون يستخدمون في كتابة حديثهم الحروف اليونانية واللاتينية . ولهذا ابتكر الحروف الهجائية الصقلية وطريقة كتابتها ، وذلك باستخدام الحروف اليونانية مع التحسينات التي دخلت عليها نتيجة استخدام اليونان إياها حتى القرن التاسع ، فكان حرف B ينطق كما ينطق V ، H ينطق حرف I (وحرف E في الإنجليزية) ، Ch كما ينطق الأسكتلنديون Ch ، وابتكر حرفاً صقلية للأصوات التي لا تعبر عنها الحروف اليونانية . وترجم سيريل هذه الحروف الهجائية الترجمة اليونانية السبعينية للعهد القديم ونصوص الطقوس اليونانية ، وبدأ بهذا العمل لغة مكتوبة جديدة وأدباً جديداً .

ونشأ وقتئذ بين المسيحية اليونانية واللاتينية نزاع تبغى به كلتاها أن تستحوذ على الصقلية ؛ فاستدعى البابا نقولاس الأول سيريل ومثنوديوس إلى رومة ، حيث ترهب سيريل ، ومرض ، ومات (٨٦٩) . أما مثنوديوس فعاد إلى مورافيا كبراً لأساقفتها من قبل البابا . وأجاز البابا يوحنا الثامن استخدام الطقوس الصقلية ، ثم حرمها استيفن الخامس ؛ واكتسبت الكنيسة اللاتينية وشعائرها مورافيا ، وبوهيميا ، وسلوفاكيا (وهي التي تتألف منها دولة تشكوسلوفاكيا الحاضرة) ، كما كسبت بعدئذ بلاد المجر وبولندا ؛ أما بلغاريا ، والصرب ، وروسيا فقد ارتضت الطقوس والحروف الهجائية الصقلية ، وقدمت ولاءها للكنيسة اليونانية ؛ وأخذت ثقافتها عن بيزنطية .

ولقد تأثرت هذه التغيرات الدينية بالاعتبارات السياسية . ذلك أن اعتناق الألمان المسيحية كان يقصد به ضمهم إلى مملكة الفرنجة وربطهم إياها برباط

وثيق . وقرض الملك هارولد بلوثوث (صاحب الناب الأزرق) الدين المسيحي على الدنمركة (٩٧٤) ، ليكون جزءاً من الثمن الذى طلبه الإمبراطور أتو الثانى للصلح . وانحاز بوريس Boris ملك بلغاريا إلى جانب الكنيسة اليونانية (٨٦٤) بعد أن ظل يداعب البابوية وقتاً ما ، وكان انضمامه إليها لرغبته فى الاحتماء بها من توسع ألمانيا ، وجعل فلاديمير Vladimir الأول روسيا بلاداً مسيحية (٩٨٨) ليستطيع الزواج بأنا Anna أخت بازيل الثانى إمبراطور الروم ، وليحصل على جزء من بلاد القرم بائنة لها (٩٢) وظلت الكنيسة الروسية قرنين من الزمان تعترف بسطان بطرق القسطنطينية ، ثم أعلنت استقلالها عنه فى القرن الثالث عشر ، وأضحت الكنيسة الروسية بعد سقوط الامبراطورية الشرقية (١٤٥٣) ذات الشأن الأكبر فى العالم الأرثوذكسى اليونانى .

وكان الجنود المظفرون فى هذا الفتح المسيحي لأوروبا هم الرهبان ، كما كانت الراهبات هن المرضيات فى هذه الحرب الدينية . ذلك أن الرهبان قد عاونوا الزراع على استصلاح الأراضى البوروزراعتها ، وتقطيع أشجار الغابات وتنظيف الأرض من الأعشاب ، وتجفيف المستنقعات ، وإقامة الجسور على الجداول ، وشق الطرق ؛ ولقد أقاموا فى البلاد مراكز للصناعة ، وأنشأوا المدارس ، ونظموا الصدقات ؛ ونسخوا المخطوطات وجمعوا . مكاتب متواضعة ، وبشسوا النظام الأخلاقى وروح الشجاعة والطمأنينة فى نفوس الحائرين الذين انتزعوا من عاداتهم وشعائرهم أو بيوتهم القديمة . وكان بندكت الأنباى يكده ، ويحفر ، ويحصد بين رهبانه ، كما ظل الراهب ثيودلف يسوق المحراث بالقرب من ريمس مدى اثنين وعشرين عاما ، وقد بلغ من إخلاصه فى هذا العمل أن احتفظ بعد وفاته بهذا المحراث وكان موضعاً للإكبار والإجلال .

وكان الرهبان والراهبات يعودون إلى فطرتهم البشرية بين آونة وأخرى بعد أن يبقوا زمناً طويلاً مثلاً علياً للفضيلة ، والخشوع ، والجد ؛ وكان لابد من قيام

حملة في كل قرن تقريباً لرفع الرهبان مرة أخرى إلى المستويات العليا غير الفطرية التي شرعوا لأنفسهم قواعدها . كذلك كان بعض الرهبان يتمكنون في نوبات موقوتة من التقى والخشوع ثم يصبحون غير صالحين لنظام الرهبنة بعد أن يفيقوا من نشوتهم وتضعف حماسهم . ومن الرهبان والراهبات من كانوا نلوراً جيء بهم إلى الأديرة وهم أطفال سن السابعة أو بعدها ، ومنهم من جيء بهم وهم رُضّع في المهد ؛ وقد ظلت هذه الذنور حرمت لا يحل النكث بها حتى أباحت القرارات البابوية في عام ١١٧٩ التحلل منها إذا بلغ الطفل الرابعة عشرة من عمره^(٤٣) . وهال لويس التقى ما رآه من ضعف النظام في الأديرة الفرنسية فدعا في عام ٨١٧ إلى عقد جمعية قومية من رؤساء الأديرة والرهبان في آخن ، وعهد إلى القديس بندكت الأنباى أن يقرر السير في جميع أديرة بلاده على القواعد التي وضعها القديس بندكت النورسيانى St Benedict of Nursia . وأخذ بندكت الحديد يواصل العمل بجد ، ولكن المنية وافته في عام ٨٢١ ، وما لبثت حروب الملوك أن أشاعت الفوضى في دولة الفرنجة ؛ وخربت غارات النورمان ، والمجر ، والمسلمين مئات من الأديرة ، وهام الرهبان على وجههم في العالم غير الدينى ، ولما عاد بعضهم إلى أديرتهم بعد أن ارتدت موجة التخريب ، جاءوا معهم إليها بطرائق الحياة في خارجها . يضاف إلى هذا أن السادة الإقطاعيين قد اغتصبوا الأديرة ، وعينوا هم رؤساءها ، واستولوا على إيراداتها ، ولم يحل عام ٩٠٠ حتى تدهورت أديرة الغرب ، كما تدهورت الأنظمة كلها ، إلا القليل الذى لا يستحق الذكر منها ، في أوروبا اللاتينية إلى الدرك الأسفل من حياتها أثناء العصور الوسطى . وليس أدل على هذا الاضطراب من قول سانت أدو رئيس دير كلونى (المتوفى عام ٩٤٢) « إن بعض رجال الدين في الأديرة وفي خارجها يستهترون بابن العذراء استهتاراً يستبيحون معه ارتكاب الفحشاء في سناخاته نفسها ، بل في تلك البيوت التي أنشأها المؤمنون الخاشعون لكي تكون ملاذا للعفة والطهارة في حرمة المسور ؛

لقد فاضت هذه البيوت بالدعارة حتى أصبحت مريم العذراء لا تجد مكاناً تضع فيه الطفل عيسى «(٤٤)». ومن دير كلوني جاءت حركة الإصلاح العظمى للأديرة .

ذلك أن اثني عشر راهباً قد أنشأوا حوالى عام عام ٩١٠ ديرا في هذا المكان بين تلال برغنديية يكاد يكون موضعه على الحدود الفاصلة بين ألمانيا وفرنسا . وفي عام ٩٢٧ أعاد أدو رئيسه النظر في قواعده ليجعلها أشد صرامة من الناحية الأخلاقية وييسرها من ناحية الجهود الجسمية : ففتح التشف الشديد ، وأوصى بالاستحمام ، ووفر الطعام ، وأجاز شرب البيرة والنيبيذ ؛ ولكنه شدد في الاستمساك بالإيمان القديمة التي يلتزم بها الرهبان الفقر ، والطاعة ، والعفة . وأنشئت أديرة أخرى على غرارها في أماكن أخرى من فرنسا ، ولكنها لم تكن كالأديرة القديمة لكل منها قانونه الذي لا يقوم على أساس معروف ، ولا يخضع إلا خضوعاً غير وثيق إلى أسقف محلي أو سيد من الأشراف ، بل كانت الأديرة البندكتية الجديدة المتصلة بدير كلوني يحكمها رؤساء يخضعون لرؤساء دير كلوني وللبابوات . وانتشرت بزعامة مايول Mayeul (٩٥٤ - ٩٩٤) ، وأدويو Odilo (٩٩٤ - ١٠٤٩) ، وهيو Hugh (١٠٤٩ - ١١٠٩) حركة تآخى الأديرة من فرنسا إلى إنجلترا ، وألمانيا ، وبولندا ، وهنغاريا ، وإيطاليا ، وأسبانيا ؛ وانضمت كثير من الأديرة القديمة « إلى المجمع الكلوني » ، فلم يحل عام ١١٠٠ حتى كان نحو ألفي دير تعترف بأن دير كلوني أبوها وحاكمها . وكانت السلطة المنظمة على هذا النحو ، البعيدة عن تدخل الدولة ورقابة الكنيسة ، سلاحاً جديداً في يد البابوية تسيطر به على رجال الدين في خارج الأديرة ، ويسرت في الوقت نفسه إصلاح نظام الرهبنة على أيدي الرهبان أنفسهم إصلاحاً ينطوي على الجرأة والشجاعة ، فكبحت أيد قوية ما كان في الأديرة من اضطراب ، وتعطل ، وتترف ، وفساد أخلاق ، ومتاجرة بالدين وبالرتب الكهنوتية ، وشهدت إيطاليا ذلك المنظر الغريب منظر راهب فرنسي في أراضيها ، إذ دعى أدو إلى إيطاليا ليصلح دير مونتي كسينو نفسه (٤٥) .

الفصل السادس

البابوية في الحضيض (٨٦٧ - ١٠٤٩)

كانت رومة آخر المدن التي وصل إليها الإصلاح . ذلك أن أهل هذه المدينة كانوا على الدوام مشاكسين صعب المراس حتى في الوقت الذي كان فيه النسر الإمبراطوري يقبض بمخالبه على الفيالق الضخمة يسيرها أينما شاء . أما في الوقت الذي نتحدث عنه فكل ما كان يعتمد عليه البابوات هو جيش مرابط ضعيف ، ومكانة منصبهم السامية ، ورهبة دينهم ؛ ولهذا وجدوا أنفسهم سجناء في أيدي أرستقراطية تحسدهم على منزلتهم وأهلين يضعف من تقواهم قربهم من عرش بطرس . وكان الرومان أعز نفساً من أن يتأثروا بالملوك كما كانوا أكبر من أن يرهبهم البابوات لطول ما ألفوا صحبتهم والاختلاط بهم ؛ فقد كانوا يرون في خلفاء المسيح في الأرض رجالاً مثلهم يرضون ، ويخطئون ، ويأثمون ، ويغلبون ، فلم تعد البابوية في اعتقادهم حصناً حصيناً للنظام وملجأ عاصماً للنجاة ، بل أضحت طائفة من العمال يجمعون الصدقات من أوروبا لمساكين رومة . وكانت تقاليد الكنيسة تقضى بالألا يختار البابا بغير رضا رجال الدين في رومة وأشرافها وجمهرة سكانها ، وتفرق حكام اسبوليتو ، وبنفتو ، ونابلي ، وتسكانيا ، وأشراف رومة شيعاً وأحزاباً كما كانوا في عهدهم القديم ، وكان الحزب صاحب اليد العليا في المدينة يحمي الدسائس لاختيار البابا والسيطرة عليه . وقد عملوا جميعاً على تدهور البابوية في القرن العاشر إلى أحط مستوى وصلت إليه في تاريخها كله .

من ذلك أنه في عام ٨٧٨ دخل لامبير Lambert دوق اسبوليتو مدينة رومة على رأس جيشه ، وقبض على البابا يوحنا السابع ، وحاول أن يرغمه بتجويعه على تأييد ترشيح كارلومان لعرش الإمبراطورية . وفي عام ٨٩٧ أمر البابا استيفن

السادس بأن تخرج جثة البابا فورموسوس Formosus (٨٩١ - ٨٩٦) من قبرها ، وترتدى الملابس الأرجوانية ، وتحاكم أمام مجلس كنسى بتهمة مخالفتها بعض قوانين الكنيسة ، ثم يحكم بإدانتها ، وتجرد من ثيابها الكهنوتية ، وتبتر بعض أعضائها وتلقى في نهر التيبر^(٤٦) . وثار في العام نفسه ثورة سياسية في رومة خلعت على أثرها استيفن من منصبه ، وقتل في السجن خنقاً^(٤٧) . وظل كرسى البابوية عدة سنين بعد ذلك الوقت لا ينال إلا بالرشا أو القتل ، أو رغبات النساء ذوات المقام السامى والخلق الدنى ، وبقيت أميرة ثيوفيلكت Theophylact ، أحد كبار الموظفين في قصر البابا ، ترفع البابوات إلى كراسيهم وتنزلهم عنها كما يحلو لها . واستطاعت ابنته مروزيا Marozia أن تنجح في اختيار عشيقها سرجيوس الثالث لكرسى البابوية (٩٠٤ - ٩١١)^(٤٨) ؛ كما أفلحت زوجته ثيودورا في تنصيب البابا يوحنا العاشر (٩١٤ - ٩٢٨) . وقد اتهم يوحنا هذا بأنه عشيق ثيودورا ، ولكن هذا الاتهام لا يقوم عليه دليل قاطع^(٤٩) ؛ وما من شك في أنه كان زعيماً ممتازاً في الشؤون الزمنية ، لأنه هو الذى عقد الحلف الذى رد زحف المسلمين على رومة في عام ٩١٦ . وظلت مريوزا تستمتع بعدد من العشاق واحداً بعد واحد حتى تزوجت جيلو Guido دوق تسكانيا ، وأخذوا يآتمران نخلع يوحنا ، وعملا عن قتل أخيه بطرس أمام عينيه ، ثم زج البابا في السجن حيث مات بعد أشهر قليلة ميتة لا تعلم أسبابها ، ثم رفعت مريوزا في عام ٩٣١ يوحنا الحادى عشر (٩٣١ - ٩٣٥) إلى كرسى البابوية ، وكان الشائع على الألسنة أن يوحنا هذا ابن لها غير شرعى من سرجيوس الثالث^(٥٠) . وفى عام ٩٣٢ سجّن ابنها ألبريك Alberic يوحنا هذا في قلعة سانت أنجيلو Sant' Angelo ، ولكنه سمح له أن يصرف من سجنه شؤون البابوية الروحية ، وظل ألبريك يحكم رومة اثنتين وعشرين سنة ، كان فيها الطاغية المسيطر على « جمهورية رومانية » . وأوصى وهو على فراش الموت بأن يخلفه من بعده ابنه أكتافيان Octavian

وحمل رجال الدين والشعب على أن يعدوه باختيار أكتافيان بابا بعد موت أجابتوس Agapetus الثاني . وتم له ما أراد ، فأصبح حفيد مروزيا هو البابا يوحنا الثاني عشر ، وامتازت مدة ولايته بضروب من التهلك والدعارة في قصر لاتيران Lateran (٥١) .

وعرف أتو الأول إمبراطور ألمانيا عن قرب ما وصلت إليه البابوية من انحطاط بعد أن توجه يوحنا الثاني عشر إمبراطوراً في عام ٩٦٢ . فلما عاد إلى رومة في عام ٩٦٣ بتأييد رجال الدين فيما وراء جبال الألب دعا يوحنا إلى المحاكمة أمام مجلس كنسي . واتهم الكرادلة يوحنا بأنه حصل على رشا تظير تنصيب الأساقفة ، وأنه عين غلاماً في العاشرة من عمره أسقفاً ، وأنه زنى بمخليلة أبيه ، وضاجع أرملة ، وابنة أختها ، وأنه حول قصر البابا إلى ماخور للدعارة . ورفض يوحنا أن يحضر أمام المجلس ، أو أن يجيب عن هذه التهم ، وخرج للصيد ، فقرر المجلس خلعه ، واختار بالإجماع مرشح أتو لكروسي البابوية ، وكان هذا المرشح الذي أصبح البابا ليو الثامن (٩٦٣ - ٩٦٥) من غير رجال الدين . ولما عاد أتو إلى ألمانيا قبض يوحنا على زعماء الحزب الإمبراطوري في رومة وبتز أعضاءهم ، وعمل على أن يعود إلى كروسي البابوية بقرار من مجلس خاضع لأمره (٩٦٤) (٥٢) . ولما مات يوحنا (٩٦٤) اختار الرومان بندكت الخامس لكروسي البابوية ، وأغفلوا شأن ليو . فعاد أتو من ألمانيا ، وخلع بندكت ، وأعاد ليو ، بهذا اعترف ليو رسمياً بحق أتو وخلفائه الأباطرة في أن يلغوا إذا شاءوا اختيار أى بابا في المستقبل (*) . ولما مات ليو عمل أتو على اختيار يوحنا الثالث عشر خليفة له (٩٦٥ - ٩٧٢) . ثم سجن أحد أشرف الرومان بندكت السادس (٩٧٣ - ٩٧٤) ، وقتله خنقاً ، وفر بنيفازيو غرنكون Bonifazio Francone ، وكان قد نصب نفسه بابا شهراً من

(*) تعد الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ليو الثامن خارجاً على البابوية ، ولا ترى

لأعماله أو قراراته قيمة ما . .

الزمان ، إلى القسطنطينية وحمل معه من كنوز البابوية كل ما استطاع أن يحمله . ثم عاد بعد تسع سنين من فراره ، وقتل البابا يوحنا الرابع عشر (٩٨٣ - ٩٨٤) ، وجلس على كرسي البابوية مرة أخرى ، ومات ميتة هادئة في فراشه (٩٨٥) ورفعت الجمهورية الرومانية رأسها من جديد ، وأمسكت بزمام السلطة ، واختارت كرسنتيوس Crescentius فنانص على رومة بجيش قوى لا تستطيع مقاومته ، وبتفويض من رجال الدين الألمان ، ليقضى على الفوضى بتنصيب راعي كنيسة الخاصة بابا باسم جريجورى الخامس (٩٩٦ - ٩٩٩) . وقضى الإمبراطور الشاب على الجمهورية ، وعفا عن كرسنتيوس ، وعاد إلى ألمانيا . وما كاد يعود حتى أعاد كرسنتيوس الجمهورية ، وخلع جريجورى (٩٩٧) . فما كان من جريجورى إلا أن أصدر قراراً بحرقه ، ولكن كرسنتيوس سخر منه ، وعمل على أن يختار يوحنا السادس عشر بابا . فعاد أتوم مرة أخرى ، وخلع يوحنا ، وسمل عينيه ، وقطع لسانه ، وجدع أنفه ، وأمر أن يطاف به في شوارع رومة على ظهر حمار ووجهه نحو ذنبه . ثم قطعت رؤوس كرسنتيوس واثني عشر من الزعماء الجمهوريين ، وعلقت أجسادهم على أسوار سانت أنجليو (٩٩٨) (٥٣) . وعاد جريجورى إلى كرسي البابوية ، وظل جالساً عليه حتى مات مسموماً ، في أغلب الظن ، عام ٩٩٨ . وأجلس أتو في مكانه رجلاً أصبح من أئمة البابوات جميعاً .

ولد جبريت Gerbert من أسرة وضيعة بالقرب من أورلاك Aurillac من أعمال أوفرنى Auvergne (حوالى عام ٩٤٠) ، ودخل وهو صغير السن أحد الأديرة . ثم سافر إلى أسبانيا عملاً بمشورة رئيس الدير ليدرر علوم الرياضة ، إلى أن كان عام ٩٧٠ فأخذه بوريل Borel كونت يرشلونة معه إلى رومة ، حيث أعجب البابا يوحنا الثالث عشر بعلم الراهب وأوصى به أتو الأول خيراً . وقضى جبريت عاماً في التدريس بإيطاليا وكان أتو الثانى من بين طلابه في ذلك الوقت أو بعده . ثم انتقل إلى ريمس ليتلقى علم المنطق في مدرسة كنيستها ، وسرعان ما نراه

رئيساً لتلك المدرسة (٩٧٢ - ٩٨٢) . وكان يعلم طائفة من العلوم غريبة في اختلافها تشمل شعراء اليونان والرومان الأقدمين ؛ وكان يكتب باللاتينية كتابة ممتازة ، وله عدة رسائل تكاد تضارع رسائل سيدونيوس Sidonius . وكان يجمع الكتب حيثما ذهب ، وينفق ماله بغير حساب في نسخ صور من المخطوطات المحفوظة في دور الكتب المختلفة ، ولعلنا مدينون له بما لدينا من خطب شيشرون^(٥٤) . وكان حامل لواء العالم المسيحي في علوم الرياضة ، وأدخل في البلاد صورة جديدة من الأرقام « العربية » ، وكتب عن المعد والأسطرلاب ، وألف رسالة في الهندسة النظرية ؛ واخترع ساعة آلية ، وأرغنا يديره البخار^(٥٥) . وقد بلغ من مهارته في كثير من العلوم المختلفة أن اشتهر بعد وفاته بأنه كانت له قوى سحرية^(٥٦) .

ولما توفي أدليبرو (٩٨٥) سعى جلبرت ليكون كبيراً لأساقفة ريمس ، ولكن هوكابت عين بدله أرنولف Arnulf ، وهو ابن غير شرعي من البيت الكارولنجي . ولما أخذ أرنولف ياتمر بهيو أصدر مجلس كنسى قراراً بخلعه على الرغم من احتجاج البابا ، واختار جربرت رئيساً للأساقفة (٩٩١) . ولكن قاصداً رسولياً أفتع مجمعاً دينياً عقد في مواسون Moisson بعد أربع سنين من ذلك الوقت بفصل جربرت من منصبه . فما كان من العالم المستذل إلا أن هرع إلى بلاط أتو الثالث في ألمانيا ، حيث قوبل بأعظم مظاهر التكريم ، وهياً عقل المليك الشاب لفكرة إعادة الإمبراطورية الرومانية واتخاذ رومة عاصمة لها . وعينه أتو كبيراً لأساقفة راثنا ، ثم عينه بابا في عام ٩٩٩ . وتسمى جربرت باسم سلفستر Sylvester الثاني ، كأنما أراد أن يقول إنه سيصبح سالفسترا ثانياً لقسطنطين ثان يوحده العالم مرة أخرى ؛ ولو أنه هو وأتو عاشا عشر سنين أخرى لكان من المحتمل أن يحققا حلمهما ، لأن أتو ابن أميرة بيزنطية ، ولكان من المحتمل أيضاً أن يصبح جربرت ملكاً فيلسوفاً . ولكن المنية عاجلت جربرت في السنة الرابعة من جلوسه على

(٢٥ - ج ٣ - مجلد ٤)

عرش البابوية ، وتقول الإشاعة الرومانية إنه مات مسموماً ، سمته استفانيا Stephania عنها التي سمت أتو .

وتدل الآمال التي كانت تخامرهما ، كما تدل الحركات السياسية الدائبة على العمل في العالم حولها ، على قلة من كان فيه من المسيحيين الذين يعتقدون جادين أن العالم سينتهي في العام المنتم للألف بعد الميلاد . فقد حدث في بداية القرن العاشر أن أعلن مجلس كنسي أن القرن الأخير من حياة العالم قد استهل^(٥٧) ، وظلت أقلية ضئيلة في نهاية ذلك القرن تؤمن بهذا القول وتستعد ليوم الحساب ؛ أما الكثرة الغالبة فظلت تسير سيرتها المألوفة ، وتعمل ، وتلعب ، وتأثم ، وتصلى ، وتحاول أن تطيل حياتها بعد سن الشيخوخة . ولسنا نجد شواهد على استيلاء الذعر على عقول الناس في عام ١٠٠٠ بل إننا لا نجد زيادة في هبات الناس إلى الكنيسة^(٥٨) .

وعادت البابوية سيرتها الأولى من الضعف والانحلال بعد موت جريبرت ، فأخذ أعيان تسكيولوم Tusculum متحالفين مع الأباطرة الألمان يشتركون مناصب الأساقفة ، ويبيعون البابوية ، وقلماً كانوا يحاولون التستر على عملهم هذا . وكان بندكت الثامن (١٠١٢ - ١٠٢٤) الذي رشحوه لهذا المنصب الأخير رجلاً ذكياً قوياً ؛ ولكن بندكت (١٠٣٢ - ١٠٤٥) الذي عين بابا في الثانية عشرة من عمره دنس منصبه بحياة الفحش^(٥٩) ، إلى حد جعل الشعب يثور عليه ويخرجه من رومة . غير أنه عاد مرة أخرى بتأييد تسكيولوم ، فلما أتعبه منصب البابوية باعها إلى جريجورى السادس (١٠٤٥ - ١٠٤٦) بألف (أو ألفي) رطل من الذهب . وأدهش جريجورى رومة بأن كان بابا مثالياً أو أقرب ما يكون إلى المثالية . ويلوح أن الذى دفعه إلى ابتياع منصب البابوية هو رغبته الصادقة في أن يصلح شأنها ويحررها من كانوا يسيطرون عليها . ولم يكن أمراء تسكيولوم راغبين في هذا الإصلاح ، ولهذا أعادوا بندكت العاشر إلى كرسي البابوية ، ولكن حزباً آخر رفع سلفستر الثالث إلى عرشها . واستغاث القساوسة

الإيطاليون بالإمبراطور هنرى الثالث ليقضى على هذه المهازل ، فجاء إلى استرى Stuttri القريبة من رومة وعقد فيها مجلساً كنسياً زج سلفستزفى السجن ، وقبل استقالة بندكت ، وخلع جريجورى لاعترافه بأنه ابتاع منصب البابوية . وأقنع هنرى المجلس بالأسييل إلى انتشال الكنيسة من هذه الوهدة إلا بتنصيب بابا أجنبي تحت حماية الإمبراطور ؛ واختير لهذا المنصب أسقف بامبرج Bamberg ولقب كلمنت الثانى (١٠٤٦-١٠٤٧) ، ولكنه مات بعد عام واحد من اختياره ؛ كما قضت على خليفته دموسوس Damasus الثانى (١٠٤٧-١٠٤٨) الملاريا التى كانت وقتئذ تنتشر باستمرار من مناقع كهانيا التى لم تجفف . ثم وجدت البابوية آخر الأمر فى ليو التاسع (١٠٤٩-١٠٥٤) رجلا يستطيع أن يواجه مشاكلها بشجاعة ، وعلم ، واستقامة ، وصلاح ، قلما رأت رومة نظيراً له من زمن بعيد .

الفصل السابع

إصلاح الكنيسة (١٠٤٩ - ١٠٥٤)

ثلاث مشاكل داخلية كان يضطرب بها قلب الكنيسة في ذلك الوقت :
وهي المتاجرة بالمناصب في محيط البابوية والأسقفية ، والزواج أو التسرى
بين رجال الدين من غير الرهبان ، ووجود حالات متفرقة من الدعارة بين
الرهبان أنفسهم .

فأما المتاجرة بالمناصب الكنسية وخدماتها فقد كانت هي المظهر الكنسي
لما يعاصره من فساد في الشؤون السياسية . ومن الناس الصالحين من كانوا هم
أنفسهم مصدرأ لهذه المتاجرة . ؛ مثال ذلك أن أم جويرت النوجنتي
Guibert of Nogent كانت شديدة الرغبة في أن تهيه للكنيسة ، فقدمت
المال لرؤسائها لكي يجعلوه قساً في إحدى الكنائس وهو في الحادية عشرة من
عمره . وإذ كان الأساقفة في إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا يصرفون
الشؤون الزوحيية والزمنية جميعاً ، وكانوا يقطعون أرضين ، وقرى ، ومدناً
في بعض الأحيان ، ليستمدوا منها إيراداتهم ، فقد كان ذوو المطامع من
الناس يقدمون مبالغ طائلة للرؤساء الزميين ليظفروا بهذه المناصب ، وكان
الشهرون من الرؤساء لا يتورعون عن ارتكاب كل مآثم للحصول على هذه
الرشا . وحسبنا أن نذكر أن غلاماً في العاشرة من عمره عين رئيس أساقفة
في نربونة Narbonne نظير مائة ألف صليدي^(٦١) ؛ وأن فيليب الأول
ملك فرنسا كتب إلى رجل أخفق في الحصول على منصب رئيس أساقفة
يواسيه في إخفاقه يقول : « أتركني أجنى المال من منافسك ، ثم حاول
أن تسقطه باتهامه بابتياح منصبه ؛ وسترى بعد ذلك كيف نرضيك »^(٦٢) .
وكان ملوك فرنسا يتبعون السنة التي سنها شارلمان فيعينون هم بانتظام .
أساقفة سان Sens ، وريمس ، وليون ، وتور ، وبورج Bourges ، أما في

غيرها من المدن الفرنسية فكان الدوق أو الكونت هو الذى يعينهم^(٦٣) ، وأضحى كثير من مناصب الأساقفة ميراثاً لبعض الأسر الشريفة . ، تختص به الصغار من أولادها أو غير الشرعيين منهم ، وكان أحد البارونات فى ألمانيا يمتلك ثمانى أسقفيات ويورثها أبناءه^(٦٤) . ويزعم أحد الكرادلة الألمان (حوالى عام ١٠٤٨) أن الذين يتعاون كراسى الأساقفة ومناصب الكنيسة قد باعوا الواجبات الرخامية فى الكنائس ، وألواح الترميد فى سقفها ، ليحصلوا من ثمنها على ما أدوه ثمناً لمناصبهم^(٦٥) . وكان الذين ينالون المناصب بهذه الوسائل من رجال الدنيا لا من رجال الدين ، يعيش الكثيرون منهم عيشة المترفين ، ويشنون الحروب ، ويغضون أعينهم عن الرشا فى المحاكم الأسقفية^(٦٦) ، ويعينون أقاربهم فى المناصب الكنسية ، ويعبدون المال من دون الله ، ويدينون له وحده بالطاعة والولاء . ويقول البابا إنوسنت الثالث فى وصف أحد رؤساء الأساقفة فى نارين إنه لديه كيسا من المال فى الموضع الذى كان يجب أن يكون فيه قلبه^(٦٧) . وقد أصبح ابتياع الكراسى الأسقفية أمراً مألوفاً يقبله الناس العمليون على أنه أمر عادى لاغضاضة فيه ؛ أما المصلحون فأخذوا ينادون بأن سمعان الجوسى قد استحوذ على الكنيسة^(٦٨) .

وكانت المشكلة الأخلاقية بين رجال الدين العاديين تتأرجح بين الزواج والتسرى . وكان زواج القساوسة فى القرنين التاسع والعاشر أمراً مألوفاً فى إنجلترا وغالة وشمالى إيطاليا ، وكان البابا هديران الثانى نفسه متزوجاً^(٦٩) ؛ وكتب راثريوس RATHERIUS أسقف فيرونا (فى القرن العاشر) يقول إن أساقفة أبرشيته كلهم تقريباً متزوجون ، ولم يستهل القرن الحادى عشر حتى كانت العزوبة بين رجال الدين غير الرهبان من الأمور الشاذة النادرة^(٧٠) . ومن الخطأ أن نعد زواج القساوسة مناقضاً للأخلاق الفاضلة ، وإن لم ينفق فى كثير من الأحيان مع قوانين الكنيسة ومثلها العليا ، ذلك أن زواجهم كان متفقاً مع عادات ذلك الوقت ومبادئه الأخلاقية ؛ وكان القس المتزوج أسمى منزلة من القس العزب فى مدينة ميلان^(٧١) .

لأن ثانيهما كان يتهم بالتسرى - بل إن الرأي العام كان يتسامح في التسرى نفسه أى في اختلاط رجل غير متزوج بامرأة غير متزوجة اختلاطاً جنسياً منتظماً . ويلوح أن الكثرة الغالبة من القساوسة الأوربيين كانوا يجيئون بحياة لا غبار عليها من الناحية الأخلاقية ، وإنا لنسمع طوال العصور الوسطى عن قساوسة وأساقفة يعيشون معيشة طاهرة نقية مخلصين لمن يرونهم ، وإن كنا لا ننكر أنه كان في أماكن متفرقة رجال شواذ يندى من فعالم الجبين ، فهاهو ذا الأسقف بنيفاس يشكو إلى البابا زخارى Zachary في عام ٧٤٢ أن الأسقفيات تعطى « للشهين من غير رجال الدين ، ولزائين من القسيسين » (٧٢) ، وأن بعض الشماسة « يحتفظون بأربع سرارى أو خمس » (٧٣) ، وقد اتهم بيد الموقر في هذا القرن بعينه « بعض أساقفة إنجلترا بأنهم » يضحكون ، وهزلون ، ويروون الأفاصيص ، ويمرحون ، ويسكرون . . . يجيئون حياة الملذات والفسق » (٧٤) . وكثرت هذه التهم وأمثالها في أواخر الألف السنة الأولى بعد الميلاد ؛ فهاهو ذا رالف جلابر Ralph Glaber يصف قساوسة ذلك العهد بأنهم يشاركون أهله في فسادهم الخلقى ، وها هو ذا راهب إيطالى يدعى بطرس داميان Peter Damian (١٠٠٧ - ١٠٧٢) يعرض على البابا كتاباً يسمى Liber Gomorrhianus ويصف فيه بالمغلاة التى يتوقعها الإنسان من رجل متمسك بدينه ، ما يتركبه القساوسة من رذائل ؛ وفي هذا الكتاب فصل عن « مختلف الخطايا المناقضة للطبيعية » . ويطالب داميان في هذا الكتاب بقوة أن يحرم الزواج على رجال الدين .

وكانت الكنيسة من زمن بعيد تعارض زواج رجال الدين بحجة أن القس المتزوج يضع ولاءه لزوجه وأبنائه في منزلة أعلى من إخلاصه للكنيسة سواء أدرك ذلك أولم يدركه ، وأنه سيميل من أجلهم إلى جمع المال أو المتاع ، وأنه سيحاول أن ينقل كرسيه أو مرتبه لأحد أبنائه ، وأن هذا قد يؤدي إلى قيام طبقة وراثية

من رجال الدين في أوروبا تشبه مثلتها في بلاد الهند ، وأن ما يضيفه هذا السلطان الاقتصادى على القساوسة ذوى الأملاك يزيد في قوتهم إلى الحد الذى تعجز معه البابوية عن السيطرة عليهم . ويضاف إلى هذا أن القس يجب أن يكرس حياته لله والكنيسة وبنى الإنسان ، وأن مستواه الأخلاقى يجب أن يعاود على مستوى أخلاق الشعب ، وأن يضفى عليه مستواه هذا المكانة التى لا بد منها لاكتساب ثقة الناس وإجلالهم إياه . وكانت عدة مجالس كنسية قد طالبت بفرض العزوبة على القساوسة ؛ وكان واحداً منها - هو الذى عقد في بافيا عام ١٠١٨ - قد أصدر قراراً يفرض فيه العبودية الدائمة والحرمات من الميراث على جميع أبناء القسيسين^(٧٥) ، لكن رجال الدين ظلوا مع ذلك يتزوجون .

ووجد ليو التاسع أن كرسى الرسول بطرس قد افتقر لكثرة ما يوصى به رجال الدين من أملاك الكنيسة لأبنائهم ، ولاستيلاء الأعيان على ضياع الكنيسة ، ومن سطو قطاع الطرق على الحجاج الذين يأتون بالأدعية ، والمتمسكات ، والنذور إلى رومة ، ولهذا وضع نظاماً لحماية الحجاج ، وأعاد إلى الكنيسة ما خرج من أملاكها ، وشرع يضغط بهذا الواجب الثقيل ، واجب تحريم بيع المناصب الكهنوتية ، وزواج القساوسة . وقد بدأ عمله بأن أحال أعمال البابوية الداخلية والإدارية إلى الراهب المتبتل الحصيف الذى أصبح فيما بعد جريجورى السابع ، ثم غادر رومة في عام ١٠٤٩ ، معترفاً أن يتعرف بنفسه أخلاق رجال الدين وأعمال الكنائس في مدائن أوروبا الكبرى . وسرعان ما أعادت هيئته الشخصية ، وصرامته غير المتكلفة ، ما كان لرئيس الكنيسة الأعلى في قلوب الناس من إجلال ؛ فأخذت الرذيلة رأسها لمقدمه ، وارتعدت فرائض جدفري اللورينى الذى نهى الكنائس وتحدى الملوك حين أصدر البابا قراراً بحرماته ، وخضع صاغراً للجلد علناً أمام مذبح الكنيسة التى خربها في فردان ، وتعهد بأن يصلح ما خربه منها ، وأخذ يعمل في إصلاحها بيديه . وعقد ليو محكمة بابوية في كولونى ، وقوبل فيها بجميع مظاهر

الإجلال من رجال الدين الألمان الذين كانوا يفخرون بوجود بابا ألماني . ثم انتقل ليو إلى فرنسا ورأس محكمة في ريمس ، وأخذ يفحص عن أخلاق رجال الدين وغير رجال الدين ، وعن بيع المناصب الكنسية ، وانتهاج أملاك الكنيسة ، وتحلل رهبان الأديرة من قوانينها ، وانتشار الزندقة في البلاد . وأمر كل من حضر المحكمة من الأساقفة أن يعترف بخطاياهم ، فأخذ كل منهم ، واحداً بعد واحد ، ومنهم رؤساء الأساقفة أنفسهم ، يتهم نفسه . وأنهم ليو أشد التائب ، وأعفاهم من مناصبهم ، وعفا عن بعضهم ، وحرّم أربعة من حظيرة الدين ، واستدعى غيرهم إلى رومة ليكفروا علنا عن سيئاتهم . وأمر رجال الدين أن يخرجوا زوجاتهم وسرايهم ، وأن يمتنعوا عن استعمال الأسلحة . ثم أصدر مجلس رومة فضلاً عن هذا قراراً يقضى بأن يختار رجال الدين وعامة الشعب الأساقفة ورؤساء الأديرة ، وحرّم بيع المناصب الكهنوتية ، ونهى رجال الدين عن أخذ الأجور نظير تقديم القرابين ، أو عيادة المرضى ، أو دفن الموتى . وأجرى مجلس عقد في مينز (١٠٤٩) بإلحاح ليو ، لإصلاحات شبيهة بهذه الإصلاحات في ألمانيا . وعاد ليو إلى إيطاليا في عام ١٠٥٠ ورأس مجلس قرشلي Vercelli وحرّم فيه آراء برنير التوري Beregnier of Tours الخارجة على الدين .

ورد ليو بزيارته الطويلة الشاقة إلى شمالي أوروبا ما كان للبابوية من هيبة ومنزلة سامية ، وأعاد الإمبراطور الألماني رئيساً للكنيسة الألمانية كما كان من قبل ، وأرغم الأسقفيات الفرنسية والأسبانية على الاعتراف بسلطان البابا عليها ، وخطا بعض الخطوات في سبيل تطهير الكنيسة من الرشا والدعارة . ثم قام بحملات أخرى في ألمانيا وفرنسا في عامي ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ورأس جمعية كنسية عظيمة في ورمز وأخرى في مانتوا Mantua ؛ ولما عاد آخر الأمر إلى رومة اضطلع بذلك الواجب البغيض ، واجب حماية الولايات البابوية بقوة السلاح . ذلك أن الإمبراطور هنري الثالث كان قد وهبه دوقية بنفنتو ؛ ولكن بندلف Pandulf

دوق كپوا أبى أن يقر هذه المنحة واستولى على هذه الدوقية واستمسك بها معتمداً على تأييد النورمان أتباع ربرت جسكارد . وطلب ليو أن يرسل إليه جيش ألماني يساعده على طرد پندائف ولكنه لم يرسل إليه إلا سبعمائة رجل ، ضم إليهم بعض الإيطاليين غير المدربين ، وزحف بهم على النورمان ، وكاد فرسانهم وحدهم يبلغون ثلاثة آلاف من القراصنة المهرة في الحروب . وأوقع النورمان بجيش ليو هزيمة منكرة ، وأسروه ، ثم ركعوا أمامه يطلبون إليه أن يعفو عنهم لأنهم قتلوا خمسمائة من رجاله . وساقوه بعدئذ إلى بنفنتو ، حيث قدموا إليه ما يليق بمقامه من مجاملة وتكريم ، ثم استبقوه سجيناً تسعة أشهر . وتحطم قلب ليو من الحزن وندم أشد الندم على امتشاق الحسام ، فحرم على نفسه أن يلبس غير الخيش ، وأن ينام إلا على بساط وحجر ، وكان يقضى اليوم كله إلا القليل منه في الصلاة . وأدرك النورمان أنه نمشرف على الموت ، فأطلقوا سراجه ، ودخل رومة بين تهليل الشعب وفرحه ، وعفا عن جميع الذين حرمهم ، وأمر أن يوضع تابوت في كنيسة المقديس بطرس ، وجلس بجواره يوماً واحداً مات بعده عند المذبح . وجاء المعرج ، والبكم ، والمجدومون من جميع أنحاء إيطاليا ليلمسوا جثته .

الفصل الثامن

الانشاق الأكبر في الشرق : ١٠٥٤

حدث الانفصال النهائي بين الكنيستين اليونانية واللاتينية في عهد جلوس سانت ليو على كرسى البابوية . وبينما كانت أوروبا الغربية تتخبط في ظلمات القرنين التاسع والعاشر ، وبؤسهما وجهالتهما ، كانت الإمبراطورية الشرقية ، تحت حكم أباطرتها المقدونيين (٨٦٧ - ١٠٥٧) ، تستعيد بعض ما استولى عليه العرب من أملاكها ، وتسترد زعامتها في جنوبي إيطاليا ، وتزدهر فيها الآداب والفنون من جديد . واستمدت الكنيسة اليونانية من عودة الثراء والسلطان إلى الدولة البيزنطية قوة وكرامة ، فأدخلت بلغاريا وبلاد الصرب في حظيرة الكنيسة الشرقية ، وقاومت بشدة لم يسبق لها مثل ما كانت تدعيه البابوية المنحطة المدممة من سلطان ديني مطلق على العالم المسيحي . وكان اليونان في ذلك العصر ينظرون إلى المعاصرين لهم من الألمان والإنجليسكون على أنهم أقوام من الهمج الغلاظ ، وأنهم طائفة من غير رجال الدين الأميين ديدنهم العنف وتزعمهم فئة فاسدة من رجال الدين ، وكان رفض البابوية أن يكون الإمبراطور البيزنطي ملكاً على الفرنجة ، واستيلاء البابوية على مقاطعة رافنا ، وترويج البابا لإمبراطور منافس لإمبراطور الشرق ، واندفاع البابوية إلى إيطاليا اليونانية - كانت هذه الحوادث السياسية التي تحز في النفوس لا الاختلاف القليل بين العقائد هي التي شطرت العالم المسيحي شطرين أحدهما شرقي والآخر غربي .

في عام ١٠٤٣ عين ميخائيل كرولاريوس Cerularius بطريقاً للقسطنطينية . وكان كرولاريوس هذا رجلاً من أسرة نبيلة ، واسع الثقافة ، حاد الذهن ، قوى العزيمة . وكان في الأصل راهباً ولكن الذي رفع من شأنه

هو تاريخه السياسى لا تاريخه الدينى . فقد كان كبير وزراء الإمبراطورية ، وكان من أصعب الأمور على نفسه أن يقبل منصب البطريرقية ، لو أنها كانت تتطلب منه الخضوع إلى رومة . وقد أذاع في عام ١٠٥٣ رسالة باللغة اللاتينية كتبها راهب يونانى يلوم فيها الكنيسة الرومانية أشد اللوم لإرغامها رجال الدين على العزوبة مخالفة بذلك أفعال الرسل وتقاليد الكنيسة ، ولاستعمالها خبزاً فطيراً فى القربان المقدس ، ولإضافة الفقرة القائلة بأن الروح القدس ينبعث من الأب والابن إلى العقيدة النيقية . وأغاق كرولازيوس فى ذلك العام نفسه جميع كنائس القسطنطينية التى تستخدم الشعائر اللاتينية ، وحرّم جميع القساوسة الذين يصرون على استخدامها ، وبعث ليو ، وكان وقتئذ فى أوج سلطانه ، برسالة إلى كرولازيوس ، يطلب أن يعترف بالطرق بسيادة البابوات ، ويصم كل كنيسة ترفض هذا الاعتراف بأنها « جميعية من الخارجين على الدين ، وجماعة من المنشقين ، ومعبد للشيطان » (٧٦) : ثم أرسل ليو وهو فى هذه الحالة النفسية رسلاً إلى القسطنطينية ليناقدوا الإمبراطور والبطريق فى الفوارق التى تبعد فرعى المسيحية أحدهما عن الآخر : واستقبل الإمبراطور رسل البابا بالترحاب ، ولكن كرولازيوس أنكر عليهم حقهم فى معالجة تلك المسائل : ثم مات ليو فى شهر إبريل من عام ١٠٥٤ وظل كرسى البابوية شاغراً مدة عام . حتى إذا كان شهر يولية أخذ المندوبون هذه المسألة على عاتقهم ، ووضعوا على مذبح كنيسة أياصوفيا قراراً بجرمان كرولايوس ، فما كان من ميخائيل إلا أن عقد مجلساً يمثل المسيحية الشرقية على بكرة أبيها ، وكرر هذا المجلس جميع شكاوى الكنيسة اليونانية من الكنيسة الرومانية ، ولم تغفل فيها شكواها من حلق اللحى ، وشنع رسمياً على قرار المندوبين وعلى « كل من كانت له يد فى صياغته ، سواء أكان ذلك بمشورتهم أم بصلواتهم نفسها » (٧٧) . وبذلك تم الانشقاق بين الكنيسيتين ،

الفصل التاسع

جريجورى السابع هلدبراند (١٠٧٣ - ١٠٨٥)

كان من سوء حظ المسيحية أن وجدت فترة من الفوضى والضعف تفصل بين ولاية ليو التاسع وولاية بابا آخر من أقوى البابوات في تاريخ الكنيسة .

وهلدبراند اسم ألماني يوحى بأن صاحبه من أصل ألماني ؛ ويفسره معاصرو جريجورى بأن معناه الشعرة الخالصة . وقد ولد من أبوين ينتميان إلى أسرة وضبعة في قرية سوفانو Sovano الواقعة في مستنقعات تسكانيا (١٠٢٣ ؟) ، وتلقى تعليمه في دير سانت ماري القائم على تل الأفتين في رومة ، ثم انضم إلى طائفة الرهبان البندكتيين . ولما أن خلع البابا جريجورى السادس من منصبه ونفى إلى ألمانيا في عام ١٠٤٦ صحبه هلدبراند في منفاه ليكون راعياً خاصاً ؛ وقد استفاد في السنة التي قضها في كولوني الشيء الكثير عن ألمانيا ، وكان ما تعلمه ذا فائدة كبيرة له في الصراع الذي نشب فيما بعد بينه وبين هنرى الرابع ؛ ولم يمض على عودته إلى رومة إلا قليل من الوقت حتى جعله ليو التاسع مساعد شماس أصيل ، وعينه مديراً للولايات البابوية ، واختاره في الوقت نفسه مندوباً للبابا في فرنسا ؛ وفي وسعنا أن ندرك من ارتقاء شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره إلى هذه المناصب العالية ما كان له من الكفاية في الشؤون السياسية والدبلوماسية ؛ وظل البابا فكتور الثاني (١٠٥٥ - ١٠٥٧) واستيفن التاسع (١٠٥٧ - ١٠٥٨) يستخدمانه في المهام الكبرى ؛ ولما ارتقى نقولاس الثاني عرش البابوية في عام ١٠٥٩ ، وكان أكبر الفضل في ارتقائه إياه راجعاً إلى نفوذ هلدبراند نفسه ، عين هذا الراهب الذي لا غنى عنه وزيراً للبابا مع أنه لم يكن قد أصبح بعد قساً .

وكان هو الذي أقنع نقولاس ومجلس لاتران في عام ١٠٥٧ بإصدار مرسوم

انتقل بمقتضاه حق انتخاب البابا إلى مجمع الكرادلة . وكان هدف هلدبراند من هذه الخطوة الحاسمة أن ينقذ البابوية من النبلاء الرومان والأباطرة الألمان ، وكان الشاب الديني والحاكم السياسي قد وضع منذ ذلك الوقت المبكر خطته السياسية البالغة الأثر . وقد رأى أن ينقذ البابوية من السيطرة الألمانية بأن يغمض عينه عن غارات النورمان وصلفهم في إيطاليا الجنوبية ، وأن يعترف بامتلاكهم ما انزعوه من الأرض ، ويوافق على مطامعهم ، نظير تعهدهم له بمجاوبته الحربية . ورفع هلدبراند في عام ١٠٧٣ إلى عرش البابوية بعد أن خدم ثمانية بابوات مدة خمس وعشرين سنة ، واقد قاوم هو هذا الاختيار لأنه كان يفضل أن يعمل من وراء هذا العرش ، واكن الكرادلة ، والقساوسة ، والشعب عامه نادوا قائلين : « إن القديس بطرس يريد أن يكون هلدبراند بابا ! » . ولهذا رسم قسيسا ، ثم عين بابا ، واتخذ لنفسه ذلك اللقب المبجل - جريجورى .

وكان قصير القامة ، عادى الملامح ، حاد البصر ، عزيز النفس ، صلب الإرادة ، قويا في الحق ، واثقا من النصر ، تلهمه وتشجده همتة أربعة أغراض : أن يتم ما بدأه ليو من تقويم أخلاق رجال الدين ، وأن يضع حداً لتولى غيرهم المناصب الدينية ، وأن يوحد أوروبا كلها تحت سلطان كنيسة واحدة وجمهورية واحدة برياسة البابوية ، وأن يوجه جيشاً مسيحياً إلى بلاد الشرق ليسترد الأرض المقدسة من الأتراك . وقد كتب في عام ١٠٧٤ إلى أعيان برغندي و سافوى ، وإلى الإمبراطور هنرى الرابع ، يرجوهم أن يجمعوا المال ويحشدوا الجند للقيام بحرب صليبية يعزم أن يقودها بنفسه ، فأما أعيان برغندي فلم يتحركوا لتلبية ندائه ، وأما هنرى فقد حال تزعر مركزه فوق عرشه بينه وبين التفكير في حرب صليبية .

وكان مجلس لاتران المنتقد برياسة نقولاس الثانى و هلدبراند فى عام ١٠٥٩ قد حرم من حظيرة الدين كل قس يحتفظ بزوجة أو سرية ، ونهى المسيحيين

عن حضور القداس الذى يقيمه قس يعرفون أنه يحتفظ بامرأة فى بيته ، ولم يشأ كثيرون من أساقفة لمبارديا أن يشتتوا أسر قساوستهم فأبوا أن يذيعوا هذه القرارات ، وأخذ بعض رجال الدين المعروفين فى تسكانيا يبدفون عن مبدل زواج القساوسة ويقولون إنه يتفق مع الأخلاق ومع قوانين الكنيسة . وبذلك أصبح تنفيذ هذا التشريع غير مستطاع ، وتذرع الوعاظ الخارجون على الدين بالرأى القائل إن القساوسة الذين يعيشون « آثمين » لا يستطيعون القيام بمراسم العشاء الرباني الصحيحة فأخذوا ينادون متحمسين ببطلان هذه المراسم ، مما اضطر البابوية إلى الرجوع فى دعوتها هذه إلى جماهير المصلين (٧٨) . ولما أصبح هلدبراند هو جريجورى السابع (١٠٧٣) تصدى لهذه المشكلة بعزيمة لا تثنى ولا تعرف الملل ، فجدد مجمع دىنى عقد فى عام ١٠٧٤ قرارات ١٠٥٩ ، وأرسل جريجورى هذه القرارات إلى جميع أساقفة أوروبا ومعها أمر صارم لهم بإذاعتها وتنفيذها بالقوة ، وأباح لعامة الشعب ألا يطيعوا أمر من يخالفها من القساوسة ، وكان لهذه الأوامر هى الأخرى رد فعلى عنيف ، فأعلن كثيرون من القساوسة أنهم يفضلون التخلى عن مناصبهم على التخلى عن أزواجهم ، وعارض غيرهم فى تنفيذ القرارات لأنها تفرض على الطبيعة البشرية قيوداً لا يقبلها العقل السليم ، وتنبأوا بأن تنفيذها سينشر الاختلاط الجنسى السرى ، وأعلن أتو أسقف كنستانس بأنه يجبذ آراء قساوسته المتزوجين ويحميهم من العدوان ، فما كان من جريجورى إلا أن أصدر قراراً بجرمانه ، وأعفى رعاياه من إطاعة أوامره . وخطا جريجورى خطوة أخرى فى عام ١٠٧٥ فأمر أذواق سوايبيا وكارنثيا ، وغيرهم من الأمراء أن يلجأوا إلى القوة إذا دعت الضرورة لمنع من يقاومون أوامره من القساوسة من أداء واجبات مناصبهم ؛ وأطاعه عدد من الأمراء الألمان ، وحرّم كثيرون من القساوسة الذين أبوا أن يتخلوا عن أزواجهم من مناصبهم (٧٩) . ومات جريجورى دون أن يتم له النصر ، ولكن لإربان الثانى ، وبسكال الثانى ،

وكلكتوس Calixtus الثاني أكدوا قراراته ونفذوها ، حتى إذا كان عام ١٢١٥ أصدر مجلس لا تران برياسة إنوسنت الثاني قراراً نهائياً بتحريم زواج القساوسة وأخذت هذه العادة بعد ذلك تزول .

وبدت مشكلة المناصب الدينية أبسط من مشكلة زواج القسيسين . فإذا سلمنا بأن المسيح قد أنشأ الكنيسة ، وهو الرأى الذى يجمع عليه الملوك والبابوات ، اتضح أن رجال الكنيسة ، لا العلمانيين هم الذين يحق لهم أن يختاروا الأساقفة ورؤساء الأديرة ، ولهذا كان من أكبر العار ألا يكتبى الملوك بتنصيب الأساقفة ، بل أن يخلعوا عليهم فوق ذلك (كما يحدث فى ألمانيا) عصا الأسقفية وخاتمها - وهما الرمزان المقدسان للسلطة الروحية . ولكن الملوك كان لهم رأى لا يقل عن هذا وضوحاً . فما دام الأساقفة ورؤساء الأديرة يسلمون (كما يسلم معظم الأساقفة الألمان ورؤساء الأديرة منهم) أن الملوك قد وهبهم الأرض والدخل ، وألقوا عليهم التبعات الزمنية ، فقد يبدو خليقاً بهم وعدلاً - حسب قوانين الإقطاع - أن يكون أولئك الرؤساء الدينيين - أو الأساقفة منهم فى القليل - مدنيين بمناصبهم وولائهم الزمنى للملوك ، كما ظلوا مدنيين بها فى غير تدمر فى عهد قسطنطين وشارلمان . فإذا ما أعفوا من هذا الخضوع وذاك الولاء خرجت نصف الأراضى الألمانية - التى منحت فى السنين السابقة للأسقفيات والأديرة - عن ساطان الدولة^(٨٠) ، وعمما اعتاد أن يؤديه لها أصحابها من واجبات وخدمات . وأرتاب الأساقفة الألمان وكثيرون من الأساقفة للمبارد المنتمون إلى أصل ألماني والمدينون بمناصبهم إلى الألمان فى نيات جريجورى وظنوا أنه يسعى للقضاء على استقلالهم الكنسى النسبى وإخضاعهم لكرسى رومة إخضاعاً تاماً . أما جريجورى نفسه فكان راضياً بأن يحتفظ الأساقفة بولائهم الإقطاعى للملك^(٨١) ، ولكنه لم يكن يرضى بأن يردوا الأراضى التى وهبها الملوك لهم^(٨٢) ، ذلك أن قانون الكنيسة لا يجيز انتقال ملكية أراضى الكنيسة لغيرها . وشكا جريجورى من أن تعيين غير

رجال الدين في المناصب الكنسية قد نشأت عنه معظم المفاصد الخاصة ببيع المناصب الكهنوتية ، والانغماس في الشرور الدنيوية ، والفساد الخلقى وهي الآثام التي ظهرت في الأبرشيات الألمانية والفرنسية . ولهذا كان يرى أن من الواجب إخضاع الأساقفة لسلطان البابا ، وإلا صارت الكنيسة الغربية ، كما صارت الكنيسة الشرقية ، تابعاً ذليلاً للدولة .

وكان من وراء هذا الصراع التاريخي صراع آخر هو صراع البابوية مع الإمبراطورية ، وهل من حق هذه أو تلك أن توحد أوروبا وتبكيها . وكان الأباطرة الألمان يدعون أن سلطتهم هم أيضاً سلطة مقدسة لأنها من ضرورات النظام الاجتماعي . ألم يقل الرسول بولس إن السلطات القائمة مقدره من عند الله ؟ أليسوا هم كما يقول البابوات أنفسهم ورثة إمبراطورية رومة ؟ فهم المدافعون عن حرية الجزء كما يدافع جريجورى عن وحدة الكل وعن النظام فيه ؟ وكان يسوءهم هم أنفسهم - قبل حركة الإصلاح الدينى بزمن طويل - أن ينساب الذهب في شكل أجور وهبات لكنيسة بطرس - من ألمانيا إلى إيطاليا^(٨٣) ، وكانوا يرون أن السياسة البابوية ليست إلا جهوداً تبذلها رومة اللاتينية لإعادة سيطرتها القديمة على البلاد التي تزدريها إيطاليا وتسميها بلاد الشمال التوتوتية الهمجية . وكانوا يعترفون اعترافاً صريحاً بسلطان الكنيسة في الشؤون الروحية ، ولكنهم يؤكدون سلطان الدولة في الشؤون الزمنية أو الدنيوية . وكان هذا يبدو في نظر جريجورى ثنائية مختلة النظام ، ويرى أن الاعتبارات الروحية يجب أن تعلو على الشؤون المادية كما تعلو الشمس على القمر^(٨٤) ، ولهذا يجب أن تخضع الدولة للكنيسة - أن تخضع مدينة الإنسان لمدينة الله - في جميع المسائل التي لها مساس بالعقيدة ، أو التعليم ، أو الأخلاق ، أو العدالة ، أو التنظيم الكنسى . ألم يعترف ملوك فرنسا وأباطرة الدولة الرومانية المقدسة اعترافاً ضمناً بأن السلطة الروحية مصدر السلطة الزمنية وصاحبة السيادة عليها ، وذلك حين ارتضوا أن يسمحهم

البابوات أو يثبتوهم في مناصبهم ؟ إن الكنيسة بوصفها نظاماً إلهياً خليفة بأن تكون صاحبة السلطة العالمية ؛ ومن حق البابا وواجهه ، بوصفه خليفة الله في أرضه ، أن يخلع الملوك غير الصالحين ، وأن يؤيد أو يرفض اختيار البشر للحكام أو تنصيبهم حسب مقتضيات الأحوال^(٨٥) ، وقد تساءل جريجورى في رسالة كتبها وهو غاضب إلى هرمان Hermann أسقف متز : « منذ الذى يجهل أن الملوك والأمراء يرجعون بأصولهم إلى الذين لا يعرفون الله ، ثم يتعالون ويصطنعون العنف والغدر ، ويرتكبون في الحقيقة جميع أنواع الجرائم . . . ويطالبون بحقهم في حكم من لا يقبلون عنهم - أى الشعب - جسعاً وعماية وعجرفة لا تطاق ؟ »^(٨٦) وقد بدأ لجريجورى ، من نظرتة إلى ماساد أوروبا من فرقة سياسية ، وفوضى ، وحروب ، أن لاجاة لها من هذا البؤس الذى نعيم عليها دهرأ طويلا إلا بقيام نظام عالمى تتخلى فيه هذه الدول عن بعض سيادتها التى تعض عاها بالنواجذ وتعترف بالبابا سيداً اجتماعياً لها ، وبأنه هو الزعيم الأجل لجمهورية مسيحية ، أوربية فى القليل ، إن لم تكن عالمية ٥

وكانت الخطوة الأولى فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية هى تحرر البابوية من السيطرة الألمانية ، والخطوة الثانية هى إخضاع جميع الأساقفة للكبرى البابوى ، إن لم يكن إخضاعاً تاماً ، فإلى الحد الذى يتحتم معه أن يكون الذين يختارونهم هم رجال الدين وشعب الأبريشة بإشراف أسقف يرشحه البابا أو المطران ، وألا يصبح الاختيار نهائياً وقانونياً إلا إذا أيدته رئيس الأساقفة أو البابا نفسه^(٨٧) . وبدأ جريجورى عمله برسالة وجهها (١٠٧٣) إلى أسقف شالون Chalon أنذر فيها بأن يحرم فيليب أغسطس ملك فرنسا لأنه يبيع مناصب الأساقفة . ثم وجه فى عام ١٠٧٤ رسالة عامة إلى الأسقفيات الفرنسية يدعوها إلى التشهير بجرائم الملك فى حضرته ، وأن يمتنعوا عن أداء جميع الخدمات الدينية فى فرنسا إذ أبى فيليب أن يصلح شأنه^(٨٨) . وظل غير رجال الدين رغم هذا يعينون فى المناصب الدينية ،

ولكن الأساقفة الفرنسيين ساروا على حذر وتركوا النزاع يحسم في ألمانيا نفسها .
واجتمع في فبراير من عام ١٠٧٥ مجمع من الأساقفة الطليان في رومة .
برئاسة جريجورى ، وأصدر قرارات تحرم بيع المناصب الكهنوتية ، وزواج
رجال الدين ، وتعيين غيرهم في المناصب الكنسية . وأسرع جريجورى بعد
صدور هذه القرارات لإسراعاً عجيباً فحرم خمسة أساقفة للمتاجرة بالرتب
الكهنوتية ، وكان هؤلاء الخمسة من مستشارى هنرى الرابع ، ثم أوقف
أسقفى بافيا وتورين ، وخلع أسقف پياسنزا Piacenza وأمر هرمان أسقف
بامبرج Bamberg بالحضور إلى رومة ليبرئ نفسه من التهم الخاصة بالمتاجرة
بالرتب الكهنوتية ، ولما حاول هرمان أن يرشو رجال المحكمة البابوية خلعه
جريجورى دون أدنى مجاملة ، وطلب إلى هنرى بأدب ولطف أن يزشح
شخصاً يليق أن يخلفه أسقفاً لبامبرج . ولم يكتف هنرى بترشيح أحد
رجال حاشيته المقربين بل إنه نخلع عليه عصا الأسقفية وخاتمها دون أن
ينتظر موافقة البابا - وذلك لإجراء إن كان يتفق مع العادة المتبعة ،
فإن فيه تمهيداً صريحاً لقرار مجمع رومة المقدس . وكأنما أراد هنرى أن
يجعل رفضه مطالب جريجورى أوضح مما ظهر بتحديه هذا فعين أساقفة
لابرشيات ميلان ، وفرمو Fermo ، وأسبليتو - وهى بلدان قريبة كل
القرب من مقر البابا - وظل المستشارون المحرومون موضع عطفه ورعايته .

وبعث جريجورى في شهر ديسمبر من عام ١٠٧٥ برسالة احتجاج إلى
هنرى ، وأمر حاملها بأن يضيفوا إليها رسالة شفوية يندرون فيها الملك بالحرمان
إذا ظل يتجاهل قرارات مجمع رومة المقدس . فلما تلقى هنرى الرسالة عقد مجلساً
من الأساقفة الألمان في ورمز (٢٤ يناير سنة ١٠٧٦) حضره أربعة وعشرون
منهم ، وتختلف عنه بعضهم . وقبل أن ينعقد المجلس اتهم هيو Hugh أحد
الكرادلة الرومان جريجورى بالفسق ، والقسوة ، والسحر ، وبأنه توصل إلى
كرسى البابوية بالرشوة والعنف ، وذكر الأساقفة بأن العادات التى ظلت سارية

من قرون طوال تتطلب ألا يكون اختيار البابا مشروطاً بموافقة إمبراطور ألمانيا ، ولم يكن جريجورى قد طلب هذه الموافقة . . . وكان مما شجع الإمبراطور على المضى فى خطته أنه أخضع منذ قليل فتنة قامت فى سكسونيا ، فعرض على المجلس اقتراحاً بخلع البابا ، ووقع جميع من حضر من الأساقفة هذا القرار ، وأيده مجلس من أساقفة لمبارديا عقد فى بياسنزا ، وبعث هنرى بهذا القرار إلى جريجورى مديلاً بهذه الحاشية المتتقة : « من هنرى الملك بأمر الله لا بالاعتصاب إلى هلدبراند الراهب المزيّف لا البابا » (٨٩) . وسلمت الرسالة إلى جريجورى فى مجمع مقدس برومة (٢١ فبراير سنة ١٠٧٦) ، وأراد الأساقفة الحاضرون كلهم البالغ عددهم مائة أسقف وعشرة أساقفة أن يقتلوا الرسول ، ولكن جريجورى حماه ، وحرّم المجمع المقدس الأساقفة الذين وقعوا قرار ورمز ، وأصدر البابا حكماً مثلاً بحرمان هنرى ، ولعنته ، وخلعه ، وأعطى رعاياه من يمين الطاعة له (٢٢ فبراير سنة ١٠٧٦) . ورد هنرى على هذا بأن أقنع أساقفة أوترخت بأن يصبوا على جريجورى « الراهب الخائن » اللعنات من منبر الكنيسة . وروعت أوربا كلها بأن يخلع البابا إمبراطوراً ، وروعت أكثر من هذا بأن يخلع الإمبراطور بابا ويلعنه الأساقفة . وتبين أن العاطفة الدينية كانت أقوى من العاطفة القومية ، وسرعان ما تخلى الرأى العام عن الإمبراطور ، وعادت سكسونيا إلى الثورة ، ولما أن استدعى هنرى أساقفة مملكته وأعيانها إلى مجلسين يعقدان فى ورمز ومينز أغفلت دعوته إغفالا يكاد يكون تاماً . بل كان ما حدث هو نقیض هذا فقد وجد الأشراف الألمان فى هذه الظروف فرصة سانحة لهم لتقوية سلطتهم الإقطاعية ضد الملك فاجتمعوا فى تريبور (١٦ أكتوبر سنة ١٠٧٦) ، ووافقوا على حرمان الإمبراطور ، وأعلنوا أنه إذالم يحصل على مغفرة من البابا قبل اليوم الثانى والعشرين من شهر فبراير عام ١٠٧٧ فلنهم سيرشحون خلفاً له على العرش . وتم الاتفاق بين الأعيان و مندوبى البابا فى

تريبور أن يجتمع مجلس في أوجزبرج في اليوم الثاني من فبراير عام ١٠٧٧ برباسة البابا لتسوية شئون الكنيسة والمملكة .
ولجأ هنرى إلى اسبير مغلوباً على أمره لا يكاد يجد له معيناً . وكان يعتقد أن المجلس المقترح سيؤيد خلعه من ملكه ، فبعث بالرسول إلى رومة ، يعرض على البابا أن يأتى هو بنفسه إليه ويسأله المغفرة ؛ ورد عليه جريجورى بأنه مزعم أن يسافر قريباً إلى أوجزبرج ولهذا فإنه لا يستطيع استقبال هنرى في رومة . وبينما كان البابا في طريقه إلى تلك المدينة استضافته في مانتوا مائلا كوثنة تسكانيا وصديقتة وموئدته ؛ وهنا عرف أن هنرى قد دخل إيطاليا ؛ وخشى جريجورى أن يحشد الملك جيشاً من سكان لمبارديا المعارضين للبابا ، فلجأ إلى قصر مائلا الحصين في كانوسا Canossa ، القائم فوق جبال الأبين بالقرب من رجيو إميليا Reggio Emilia . وهناك في الخامس والعشرين من شهر يناير سنة ١٠٧٧ ، وفي يوم من أيام الشتاء الذى لم تشهد إيطاليا مثيلا له في برودته ، أقبل هنرى ، كما يقول التقرير الذى بعث به جريجورى إلى الأمراء الألمان :

« بنفسي إلى كانوسا . . . وليس معه إلا عدد قليل من أفراد حاشيته . . . ووقف بباب القصر ، حافياً ، وليس عليه إلا أثواب بالية من الصوف ، يتوسل إلينا والخوف يملأ قلبه أن نغفر له ونعفو عنه . . . وظل يفعل هذا ثلاثة أيام رثا فيها كل من حولنا لشقوته ، وجاءوا يشفعون له بدموعهم وصلواتهم . . . فرغمنا آخر الأمر الحرمان عنه وقبلناه مرة أخرى في حظيرة الكنيسة أمنا المقدسة » (٩٠) .

ولم يكن تردد جريجورى طوال هذا الوقت ناشئاً من قسوة قلبه ، بل إنه قد قرر مصالحة هنرى دون أن يستشير الأمراء الألمان ؛ وكان يعرف أنه إذا خرج هنرى عليه بعد أن عفا عنه ، ثم حرمه مرة أخرى ، فإن هذا الحرمان لن يكون له من الأثر ما كان لحرمانه الأول ، ولن يؤيده الأشراف بنفس القوة التى أيدوه بها من قبل ؛ ولن يسهل على العالم المسيحى أن يفهم كيف يأتى خليفة

لمسيح أن يعفو عن هذا التائب الدليل . وكان هذا الحادث نصراً روحياً
لجريجورى ، ولكنه كان إلى جانب هذا نصراً دلباً ماسياً بارعاً هنرى ، فقد
استعاد به عرشه من تلقاء نفسه وعاد جريجورى بعد ذلك إلى رومة وقضى
العامين التاليين فى إصدار التشريعات الكنسية التى كانت تهدف قبل كل شىء
إلى إرغام القساوسة على عدم الزواج . غير أن الأمراء الألمان نادوا برودلف
أمير سوابيا ملكاً على ألمانيا (١٠٧٧) وبدأ أن سياسة هنرى قد أخفقت .
لكنه بعد أن تجرر من اللعنة البابوية لى عطفاً جديداً من الشعب الذى لم يكن
شديد الحب للأشراف ، فحشد جيشاً جديداً لتأييده ، وظلت ألمانيا عامين
كاملين تمزقها الحروب الداخلية . وظل جريجورى يتذبذب طويلاً ، ثم أعلن
تأييده لرودف وحرم هنرى مرة أخرى ، وحرم على المسيحيين أن يخدموه ،
وعرض على كل من يتطوع تحت راية رودلف أن يغفر له خطاياه (مارس
سنة ١٠٨٠) (١٩) .

وفعل هنرى ما فعله من قبل لم يتحول عنه قيد شعرة . فجمع فى مينز
مجلساً من الأعيان والأساقفة الموالين له ، وخلع المجلس جريجورى ، وأبد
مجلس من أساقفة ألمانيا وشمالى إيطاليا عقد فى بركسن Brixen قرار الخلع ،
ونادى ببيير Quibert كبير أساقفة راثنا بابا ، وعهد إلى هنرى أن ينفذ
قراراته . واجتمع الجيشان المتعاديان على ضفاف نهر السال Saale فى
سكسونيا (١٥ اكتوبر سنة ١٠٨٠) ، وهزم هنرى ولكن رودلف قتل
فى المعركة . وبينما كان الأعيان منقسمين على أنفسهم بشأن من يختارونه خلفاً
له ، دخل هنرى إيطاليا ، واخترق لمبارديا دون أن يلقى مقاومة ، وجيش
وهو يخرقها جيشاً آخر ، وضرب الحصار على رومة . واستغاث جريجورى
بربرت جسكارد ولكن ربرت كان بعيداً عنه ، فاستغاث بوليم الأول وكان
جريجورى قد وافق على فتحه لإنجلترا وأبد هذا الفتح ، ولكن ولیم لم
يكن واثقاً من أنه لا يريد أن يفقد هنرى حجه الملكية . ووافق أهل رومة
عن رئيسهم الدينى دفاع الأبطال ، ولكن هنرى استطاع أن يستولى

على جزء كبير من رومة وفيه كنيسة القديس بطرس ، وفر جريجورى إلى كاستلوسانتا أنجيلو Castello Sant Angelo . واجتمع مجمع مقدس فى قصر لاتران بدعوة من هنرى ، وخلع جريجورى وحرمه ، ونادى بجيبير بابا باسم كلمنت الثالث (٢٤ مارس سنة ١٠٨٤) ، وبعد أسبوع من ذلك الوقت توج كلمنت هنرى إمبراطوراً ، وظل هنرى سيد رومة عاماً كاملاً .

غير أن ربرت جسكارد عاد من حروبه مع بيزنطية فى عام ١٠٨٥ ، واقترب من رومة على رأس جيش مؤلف من ٣٦٠٠٠ رجل ، ولم يكن عند هنرى جيش يستطيع به ملاقاته هذه القوة ، ففر إلى ألمانيا ، ودخل ربرت العاصمة ، وحرر جريجورى ، ونهب رومة ، وخرّب نصفها ، وأخذ معه جريجورى إلى موتى كسينو . واشتد غضب العامة فى رومة على النورمان غضباً لم يستطع معه البابا حليفهم أن يأمن على نفسه فى ذلك المكان . وعاد كلمنت إلى رومة متظاهراً بأنه البابا ، وذهب جريجورى إلى سالرنو ، وعقد فيها مجماً مقدساً آخر ، وحرّم هنرى مرة أخرى ، ثم خارت قواه الجسمية والروحية وقال : « لقد كنت أحب العدالة وأمقت الظلم ، ولهذا فإني أموت منياً » . ولم يكن قد تجاوز الثانية والستين من عمره ، ولكن النزاع المرير الذى خاض غماره قد حطم أعصابه وهدّ قواه ، ولم تترك له هزيمته الظاهرة على يد الرجل الذى عفا عنه فى كانوسا رغبة فى الحياة . ومات جريجورى فى سالرنو فى الخامس والعشرين من مايو عام ١٠٨٥ .

وبعد فلعله كان متغطرساً فوق ما يجب فى حبه للعدالة ، ومتحمساً فوق ما يجب فى كرهه للظلم ؛ وليس من حق الرجل العملى أن يرى ما فى مركز عدوه من عدالة ، بل إن ذلك من حق الفيلسوف وحده ؛ ولقد استطاع إنوسنت الثالث بعد مائة عام من ذلك الوقت أن يحقق جانباً كبيراً من حلم جريجورى ، وهو جمع العالم تحت لواء خليفة المسيح ، ولكنه حققه بروح أكثر اعتدالاً من روح جريجورى وبوسائل دبلوماسية أكثر من وسائله حكمة . ومع هذا فإن

إنوسنت لم يظفر بهذا النصر إلا بفضل هزيمة جريجورى ، ولقد تعلق هلدبراند بأعلى مما يستطيع إدراكه ، ولكنه رفع البابوية مدة عشر سنين إلى أعلى ما عرفته من المجد والثورة قبل أتمامه . ولقد انتصر فى حربه العوان على زواج القسيسين ، وهى الحرب التى لم يقبل فيها مهادنة ، وبذلك أعد لخلفائه قساوسة لا يدينون بالولاء لغير الكنيسة فزادت بذلك قوتها إلى أقصى حد . وانتهت حروبه ضد بيع الرتب الكهنوتية وحلول غير رجال الدين فى المناصب الدينية بنصر وإن جاء متأخراً ، ولكن آراءه كانت لها الغلبة فى النهاية ، وبذلك أصبح أساقفة الكنيسة خدماً طائعين للبابوية .. وقد أدى استخدامه للمبعوثين البابويين إلى بسط سلطان البابوات على كل أبرشية فى العالم المسيحى ، وهو الذى وضع الخطة التى حررت انتخاب البابا من سيطرة الملوك . وسرعان ما رفعت هذه الانتخابات إلى عرش البابوية طائفة متسلسلة متصلة الحلقات ، من الرجال الذين أدهشوا العالم بقوتهم وعظمتهم ؛ ولم تمض على موت جريجورى عشر سنين حتى اعترف ملوك العالم ونبلاؤه بإربان الثانى زعيماً لأوروبا جميعها فى ذلك المزيج المؤلف من المسيحية ، والإقطاع والفروسية ، والاستعمارية ، وهو المزيج المعروف عندنا باسم الحروب الصليبية .

الباب الثاني والعشرون

الإقطاع والفروسية

٦٠٠ - ١٢٠٠

الفصل الأول

نشأة الإقطاع

تجمعت في الستة القرون التي أعقبت موث جستنيان ظروف عجيبة كان لها أثر بطيء في التغيير الأساسي الذي حدث في الحياة الاقتصادية في عالم أوروبا الغربية .

فقد اجتمعت بعض الظروف التي أشرنا إليها من قبل ومهدت السبيل إلى عهد الإقطاع . ذلك أنه لما أصبحت مدن إيطاليا وغالة غير آمنة على نفسها أثناء الغارات الألمانية ، انتقل أعيان هذه المدن إلى قصورهم الريفية وأحاطوا أنفسهم بأتباعهم من الزراع ، وأسير من « الموالى » ، وأعوان عسكريين . وزاد حركة التفرق التي تهدف إلى تكوين وحدات اقتصادية شبه مستقلة في بلاد الريف قيام الأديرة التي كان رهبانها يفلحون الأرض ويشغلون ببعض الصناعات اليدوية ، ولم تعد الطرق صالحة للاحتفاظ بوسائل النقل وتبادل المتاجر لما أصابها من التخريب بسبب الحروب والإهمال من جراء الفقر . ونقصت إيرادات الدولة بسبب كساد التجارة واضمحلال الصناعة ، وعجزت الحكومات الفقيرة عن حماية الحياة والملك والتجارة . واضطرت قصور الأعيان في الريف بسبب المعقات القائمة في سبيل التجارة أن تسعى للاكتفاء الذاتي من الناحية الاقتصادية ، فأضحى الكثير من الأدوات التي كانت تشتري من المدن تصنع في الضياع الكبيرة منذ

القرن الثالث الميلادى . وتصف لنا رسائل سيدونيوس أبولينارس فى القرن الخامس سادة الريف وهم يعيشون عيشة الترف وسط ضياع رحبة يفلحها مستأجرون نصف مستعبدين ، وقد أضحوا من ذلك الوقت البعيد يكونون أرسقراطية إقطاعية لها محاكمها الخاصة^(١) وجيوشها^(٢) ولا يختلفون عن البارونات فى العهود المقلدة إلا فى قدرتهم على القيادة .

وكانت العوامل التى مهدت السبيل إلى قيام الإقطاع بين القرنين الثالث والسادس هى بعينها التى أقامته بين القرنين السادس والتاسع ؛ ذلك أن الملوك المروثنجيين والكارولنجيين أخذوا يؤجرون قوادهم وموظفيهم الإداريين بمنحهم مساحات من الأرض ؛ وأضحت هذه الإقطاعات فى القرن التاسع وراثية وشبه مستقلة بسبب ما طرأ من ضغط على ملوك الأسرة الكارولنجية . وأعدت غارات المسلمين ، والشاليين ، والمجر فى القرن الثامن والتاسع والعاشر نتائج الغارات الألمانية التى حدثت قبلها بستة قرونٍ وزادتها قوة : فقد عجزت الحكومات المركزية عن حماية الأجزاء النائية عن عواصمها ، وأقام الأسقف أو البارون المحلى نظاماً فى مقاطعته وهيئة للدفاع عنها ، وظل محتفظاً بقوته ومحاكمه الخاصة . وإذ كان معظم المغيرين فرساناً فقد كان الطلب يكثر على المدافعين الذين يملك كل منهم جواداً ، وأضحى الفرسان لهذا السبب أهم من المشاة ، وهكذا نشأ فى فرنسا ، وانجلترا فى عهد النورمان ، وفى أسبانيا المسيحية ، طبقة من الفرسان بين الدوق والبارون من جهة والفلاحين من جهة أخرى ، كما نشأت فى رومة القديمة طبقة من الفرسان بين الأشراف والعامّة . ولم ير الشعب حرجاً فى هذه التطورات ، فقد كانوا يتطلعون إلى وجود نظام عسكري يتولى حمايتهم مما يحيط بهم من الرعب ، ومن الهجمات التى قد تنقض عليهم فى أى وقت كان ، ولهذا الغرض كانوا يبنون بيوتهم أقرب ما تكون إلى قصر البارون المنيح أو الدير الحصين ،

وم يرددوا في تقديم ولائهم وخدماتهم إلى سيد يبسط عليهم حمايته القانونية أو دوق يستطيع قيادتهم . وخلق بنا أن ندرك ما عساه يتولاهم من الرعب لو أنهم فهموا خضوعهم هذا ؛ فهام أولاء رجال أحرار لم يعودوا قادرين على حماية أنفسهم ، يعرضون أرضهم وجهودهم على رجل قوى ويطالبون إليه في نظير ذلك أن يحميهم ويطعمهم ؛ وكان من عادة البارون في هذه الأحوال أن يقطع « رجلته » مساحة من الأرض يحتفظ بها بمقد يستطيع واهبا أن يلغيه في أى وقت يشاء ، وقد أضحي هذا التملك المزرع الصورة المألوفة لامتلاك رقبى الأرض إياها ، فكان الإقطاع بمقتضاه هو خضوع الرجل من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية إلى رجل أسمى منه منزلة في مقابل تنظيم اقتصادى وحماية عسكرية .

وليس من المستطاع تعريف الإقطاع تعريفاً جامعاً مانعاً ، فقد كانت له صور تبلغ المائة عدا في مختلف الأزمنة والأمكنة . وكان منشأه في إيطاليا وألمانيا ، ولكن تطوره الخاص به إنما حدث في فرنسا . ولعله بدأ في بريطانيا بتحويل البريطانيين إلى أرقاء أرض على أيدي الفاتحين الأنجليسكسون^(٢) ، ولكن معظم خواصه في تلك البلاد قد جاء بها الغاليون من نورمدية ، ولم ينضج هذا النظام النضج الكامل في شمالي إيطاليا أو في أسبانيا المسيحية ، ولذلك لم يستطع كبار الملاك في الإمبراطورية الشرقية أن يثبتوا دعائم استقلالهم العسكرى والقضائى ، أو إقامة نظام الولاء المتدرج الذى بدأ في الغرب كأنه من مستلزمات الإقطاع . وبقيت أصقاع كبيرة من أوروبا الزراعية خارج نطاق النظام الإقطاعى : كالرعاة وأصحاب الضياع الخاصة بتربية الماشية في بلاد البلقان ، وشرقي إيطاليا ، وأسبانيا ؛ وزراع الكروم في غربى ألمانيا ، وجنوبى فرنسا ؛ والزراع الأشداء في السويد والزرعيج ؛ وطلائع التيوبون فيما وراء نهر الإلب ؛ وأهل جبال الكريات ،

والألب ، والأينين ، والبرانس . ذلك أنه لم يكن يتوقع أن تكون لقارة
كأوروبا ، تختلف أجزاؤها بعضها عن بعض أشد الاختلاف في طبيعة أرضها
وأحوالها الاقتصادية ، نظام اقتصادى موحد . وحتى في داخل نظام الإقطاع
نفسه كانت ظروف التعاقد ومنزلة المتعاقدين تختلف باختلاف الأمم والملاك ،
والأزمنة المختلفة ؛ ولهذا فإن البحث التحليلى الذى سنصفه فيما بعد ينطبق
أكثر ما ينطبق على فرنسا وإنجلترا في القرنين الحادى عشر والثانى عشر .

الفصل الثاني

التنظيم الإقطاعي

١- العبيد

كان المجتمع في تلك البلاد والأوقات يتكون من الأحرار ، ورفيق الأرض ، والعبيد . وكان الأحرار يشملون الأعيان ، ورجال الدين ، والجنود النظاميين ، وأصحاب المهن ، ومعظم التجار والصناع ، والفلاحين الذين يملكون أرضهم ولا يلتزمون إلا بالقليل ، أو لا يلتزمون بشيء على الإطلاق ، لأي سيد إقطاعي ، ولا يستأجرونها من سيد نظير إيجار نقدي . وكان أولئك الفلاحون الملاك يكونون أربعة في المائة من الزراع في إنجلترا في القرن الحادي عشر ؛ وكانوا أكثر من هذا عدداً في غربي ألمانيا ، وشمال إيطاليا ، وجنوبي فرنسا . والراجح أنهم كانوا يكونون ربع الزراع في أوروبا الغربية (٤) .

ونقص عدد العبيد بازدياد عدد أرقاء الأرض ؛ وكان معظم عملهم في إنجلترا في القرن الثاني عشر مقصوراً على الخدمة المنزلية ، ولا يكاد يكون لهم وجود أرض فرنسا الواقعة شمال نهر اللوار ، وأخذ عددهم يزداد في ألمانيا في القرن العاشر ، حين لم يكن الناس يتخرجون أو يؤثبهم ضميرهم من القبض على الصقالبة الوثنيين ليقوموا بالأعمال اليدوية الحقةرة في الضياع الألمانية ، أو لبيعوهم البلاد الإسلامية أو البيزنطية . كذلك كان التجار الصقالبة يخطفون المسلمين أو اليونان من الأراضي الممتدة على شواطئ البحر الأسود ، وسواحل آسيا الغربية ، وإفريقية الشمالية ، لبيعوهم للعمل في الزراعة أو الخدمة المنزلية ، أو خضياناً ، أو سراري ، أو عاهرات في بلاد الإلام والمسيحية . وراجت تجارة العبيد في إيطاليا

بنوع خاص ، وأكبر الظن أن منشأ ذلك هو قربها من البلاد الإسلامية حيث كان في وسع التجار أن يحتفظوهم متها وهم مرتاحو الضمير ، فقد كان يلوح لهم أن اختطافهم هو انتقام عادل من المسلمين لغاراتهم على البلاد المسيحية .

وقد خيل إلى الناس ، وفيهم رجال الأخلاق الشرفاء ، أن هذا النظام الذي ظل قائماً من بداية التاريخ المعروف نظام أبدي لاغنى عنه . ولنا ننكر أن البابا جريجورى الأول أعتق اثنين من عبيده ، ونطبق في هذه المناسبة بعبارات خليقة بالإعجاب عما للناس جميعاً من حق طبيعي في الحرية^(٦) ، ولكنه مع ذلك ظل يستخدم مئات العبيد في الضياع البابوية^(٧) ، ويوافق على القوانين التي تحرم على العبيد أن يكونوا قساوسة أو أن يتزوجوا من المسيحيات الخرائ^(٨) . وقد حرمت الكنيسة بيع الأسرى المسيحيين إلى المسلمين ، ولكنها أباحت استرقاق المسلمين والأوربيين الذين لم يعتقدوا الدين المسيحي . وكان آلاف من الأسرى الصقالبة أو المسلمين يوزعون عبيداً على الأديرة ، وظل الاسترقاق قائماً في أراضي الكنيسة وضياع البابوات حتى القرن الحادى عشر^(٩) ، وكان القانون الكنسى يقدر ثروة أراضي الكنيسة في بعض الأحيان بعدد من فيها من العبيد لا يقدر ما يساويه من المال ، فقد كان يعد العبد سلعة من السلع كما يعده القانون الزمنى . سواء بسواء ؛ وحرّم على عبيد الكنائس أن يوصوا لأحد بأملآكهم ؛ وقرر أن ما قد يكون لهم وقت وفاتهم من مال مدخر يوئول إلى الكنيسة^(١٠) ؛ وقد أوصى كبير أساقفة نربونة في عام ١١٤٩ بعبيده المسلمين إلى أسقف بيزير Béziers^(١١) : وكان القديس تومس أكويئاس يفسر الاسترقاق بأنه نتيجة لخطيئة آدم ، وأنه وسيلة اقتصادية في عالم يجب أن يكدح فيه بعض الناس ليتمكنوا بعضهم الآخر من الدفاع عنهم^(١٢) . وكانت هذه الآراء متفقة مع أقوال أرسطو ، وموائمة لروح عصرها . وكانت القاعدة المقررة في الكنيسة والتي تنص على أن أملآكها لا يمكن النزول عنها إلا بقيمتها الكاملة في السوق^(١٣) ، كانت هذه القاعدة شراً على

حييدها وأرقاء أرضها . فقد جعلت عتق العبيد والأرقاء في بعض الأحيان أصعب في أملاك الكنيسة منه في أملاك غيرها^(١٤) . غير أن الكنيسة مع هذا خطت خطوات متزايدة في تقييد تجارة الرقيق ، وذلك بتحريم استرقاق المسيحيين في الوقت الذي كانت المسيحية سريعة الانتشار .

ولم يكن اضمحلال نظام الاسترقاق ناشئاً عن ارتقاء الأخلاق ، بل كان نتيجة تطورات اقتصادية . فقد تبين أن الإنتاج الذي يؤدي إليه القسر الجسدي المباشر أقل ربحاً وأشد صعوبة من الإنتاج الذي يكون الحافز عليه هو الرغبة في التملك . ولقد ظل الاسترقاق قائماً ، وكانت كلمة *Servus* اللاتينية تطلق على العبد وعلى رقيق الأرض ، ولكن هذا اللفظ تطور مع الزمن واستحال إلى كلمة *serf* لرقيق الأرض ، كما تطورت كلمة *villain* ومعناها رقيق الأرض فأصبحت *villain* ومعناها الآن « وغد » ، وكما تطورت كلمة *Slav* ومعناها صقلبي إلى كلمة *Slave* أي العبد . ولقد كان رقيق الأرض لا العبد هو الذي يصنع الخبز لعالم العصور الوسطى .

٢ - رقيق الأرض

الأصل في رقيق الأرض أنه رجل يفلح مساحة من الأرض يمتلكها سيد أو بارون يؤجرها له طول حياته وييسط عليه حمايته العسكرية ما دام يؤدي له أجراً لها سنوياً من الغلات أو العمل أو المال . وكان في وسع هذا المالك أن يطرده منها متى شاء^(١٥) ، وإذا مات لا تنتقل الأرض إلى أبنائه إلا بموافقة المالك ورضائه . وكان من حق هذا المالك في فرنسا أن يبيع الرقيق مستقلاً عن الأرض بثمن يعادل أربعين شلناً (حوالي ٤٠٠ ؟ ريال أمريكي) ، وكان مالكة أحياناً يبيعه (أي أن يبيع عمله) مجزئاً بعضه لشخص وبعضه لآخر ؛ وكان في وسع هذا الرقيق في فرنسا أن يحمل العقد الإقطاعي إذا أسلم الأرض وكل ما يملك إلى سيده ؛ أما في إنجلترا فقد حرم من هذا الحق - حق مغادرة الأرض - وكان الذين يفرون

من أرقاء الأرض في العصور الوسطى يعاد القبض عليهم بنفس الصرامة التي يعاد بها القبض على العبيد في هذه الأيام .

وكانت الواجبات الإقطاعية التي يؤديها رقيق الأرض للمالكها متعددة مختلفة الأنواع ، وما من شك في أن تذكرها وحده كان يحتاج إلى بعض الذكاء . (١) كان يؤدي في العام ثلاث ضرائب نقدية . (١) فرضة (ضريبة الرووس) وهي ضريبة صغيرة للحكومة عن طريق المالك (ب) وإيجاراً قليلاً . (ج) ونفقة يقررها المالك كما يهوى وتؤدي إليه مرة أو أكثر من مرة في العام (٢) وكان يؤدي للمالك كل عام جزءاً من محصوله وماشيتته ، تبلغ عادة عشرين . (٣) وكان عليه أن يعمل عند المالك كثيراً من أيام السنة مسخراً من غير أجر ، وكان هذا النوع من الواجبات ميراثاً انحدر من النظم الاقتصادية القديمة ، حين كان الفلاحون مجتمعين يؤديون بعض الأعمال العامة كتقطيع أشجار الغابات ، وتجفيف المستنقعات ، وشق القنوات ، وإقامة الجسور والحواجز ، بوصفها فرضاً واجباً عليهم للمجتمع أو للمالك . وكان بعض الملاك يتطلبون من الرقيق أن يعملوا عندهم ثلاثة أيام كل أسبوع في معظم السنة ، وأربعة أيام أو خمسة كل أسبوع في موسم الحرث أو الحصاد ؛ وكان من حقهم أن يطلبوا عند الضرورة عدة أيام أخرى لا يؤديون عنها إلا وجبات الطعام . ولم تكن هذه السخرة تفرض إلا على فرد واحد من الذكور في كل أسرة (٤) وكان على رقيق الأرض أن يطحن حبوبه ويخبز خبزه ، ويصنع جعته ، ويعصر عنبه في مصنع المالك ، أو تنوره ، أو خابيته ، أو معصرته ، وأن يؤدي له في نظير كل عمل من هذه الأعمال أجراً قليلاً (٥) وكان يؤدي أجراً آخر ليكون له حق صيد السمك ، أو اقتناص الحيوان البري ، أو رعى ماشيته وحيوانه الأليف في أراضي المالك (٦) وكان عليه أن يرفع قضاياها أمام محاكم صاحب الأرض ، وأن يؤدي في نظير هذا رسماً يختلف باختلاف خطر القضية (٧) وكان عليه أن يلي دعوة المالك في الانضمام

إلى فيلقه إذا نشبت الحرب (٨) وإذا أسر المالك كان على الرقيق أن يشتهك أداء فديته (٩) وكان عليه فوق ذلك أن يشترك في تقديم الهدايا القيمة المستحقة لابن المالك إذا رقى إلى مرتبة الفرسان (١٠) وكان يؤدي للمالك ضريبة عن كل ما يحملة من الغلات ليبيعه في السوق أو المعرض (١١) ولم يكن من حقه أن يبيع جمته أو خمره إلا بعد أن يسبقه المالك بأسبوعين يبيع فيهما هو جمته وخمره (١٢) وكان عليه في كثير من الأحيان أن يتناع قدرأ معيناً من خمر سيده كل عام ؛ فإذا لم يتبعها في الوقت المناسب (كما تقول إحدى مواد قانون الضيعة) « صب المالك قدرأ من الخمر يعادل أربعة جالونات فوق سطح الرقيق ، فإذا جرى الخمر إلى أسفل كان على الرقيق أن يؤدي ثمنه ، وإذا جرى إلى أعلى لم يكن يلزم بأداء شيء ما » (١٦) . (١٣) وكان عليه أن يؤدي غرامة للمالك إذا ما أرسل هو ابناً له ليتعلم تعليماً عالياً أو وهبه للكنيسة لأن الضيعة بذلك تخسر يداً عاملة (١٤) وكان يؤدي ضريبة ، ويحصل على إذن من المالك إذا تزوج هو أو أحد أبنائه من شخص خارج عن نطاق الضيعة لأن المالك يخسر بهذا العمل بعض أبناء الزوج أو الزوجة أو يخسرهم كلهم ، وكان لا بد من الحصول على هذا الإذن وهذه الضريبة في بعض المزارع في كل زواج أياً كان (١٥) ونستمع في حالات فردية عن « حق الليلة الأولى » أي حق السيد في أن يقضي مع عروس رقيق الأرض الليلة الأولى من زواجها ، ولكن الرقيق كان يسمح له أحياناً أن « يفتدى » عروسه بأجر يوديه للسيد (١٨) ؛ وقد بقي حق الليلة الأولى بصورته هذه في بافاريا حتى القرن الثامن عشر (١٩) . وكان المالك في بعض الضياع الإنجليزية يفرض غرامة على الفلاح الذي تأثم ابنته ؛ وفي بعض الضياع الأسبانية كانت زوجة الفلاح التي يحكم عليها في جريمة الزنى تؤول أملاكها كلها أو بعضها لصاحب الأرض (٢٠) (١٦) وإذا مات الفلاح ولم يكن له ولد يقيم معه عاد بيته وعادت أرضه إلى السيد تطبيقاً لحق الحكومة في أن ترث من لا وارث له ؛ وإن

كان وارثه ابنة غير متزوجة لم يكن لها أن تستبق الأرض إلا إذا تزوجت رجلا يقيم في الضيعة نفسها ، وسواء كان للمتوفى وارث أو لم يكن له فقد كان من حق السيد إذا توفى المستأجر أن يستولى في صورة ضريبة التركات على ماشية ، أو قطعة من قطع الأثاث أو ثوب من تركة المتوفى ، ولتقس الأسقفية في بعض الجالات أن يستولى على مثل رسوم الوفاة هذه^(٢١). ولم تكن رسوم الوفاة تحصل في فرنسا إلا إذا لم يكن للمتوفى وارث يعيش معه في بيته . (١٧) وكان عليه في بعض الضياع وبخاصة في ضياع الكنيسة أن يؤدي ضريبة سنوية وضريبة تركات للقائد الذي ينظم وسائل الدفاع الحربى عن المقاطعة .

وليس في وسعنا أن نقدر مجموع الفروض الواجب على رقيق الأرض أداؤها بالنظر إلى هذه الرسوم والضرائب المتنوعة ، وهى رسوم وضرائب لم تكن كلها تحصل من كل أسرة . وقد قدرت في ألمانيا في خلال العصور الوسطى بثلاثي محمولاته^(٢١) ، وكانت قوة العادة ، التى هى ذات السلطان الأكبر في الأنظمة الزراعية ، في صالح رقيق الأرض ؛ فقد كانت الرسوم التى يؤدها نقداً وعبئاً تنزع إلى الثبات كما هى على مر القرون^(٢٢) رغم ازدياد غلة الأرض وانخفاض قيمة النقد . وكان كثير من القيود والفروض التى تثقل كاهل الرقب في العصور الوسطى يخففها أو يلغها تسامح الملاك ، أو المقاومة الفعالة من جانب الأرقاء ، أو نسيانها على مر الزمان^(٢٣) . ولعل ما يوصف به زقيق الأرض في العصور الوسطى من بوئ قد بولغ فيه ؛ فقد كان الجزء الأكبر من الرسوم التى تنزع منه بديلا من الإيجار النقدي . الواجب أداؤه للمالك ؛ وضرائب تؤدى للمجتمع لتمكته من أداء الخدمات والأعمال العامة ، ولعل نسبتها إلى دخله كانت أقل من نسبة الضرائب التى تؤدها نحن في هذه الأيام إلى حكومة الاتحاد ، وإلى الولاية ، والمقاطعة ، والمدرسة^{(٢٤)*} . ولقد كانت حال الفلاح المتوسط في القرن الثامن عشر مماثلة

(*) يشير الكاتب هنا بطبيعة الحال إلى الولايات المتحدة الأمريكية . (المترجم) .

لحال بعض الزراع الذين يقتسمون مع الملاك غلة الأرض التي يزرعونها في الدول الحالية ، وكانت بلا شك خيراً من حال صعاليك الرومان في عهد أغسطس (٢٥) . ذلك أن المالك في ذلك الوقت لم يكن يعد نفسه مستغلاً ، بل كان يعمل بجهد في المزرعة ، وقلما كان موفور الثراء . وظل الفلاحون حتى القرن الثالث عشر ينظرون إليه نظرة الإعجاب ، ونظرة الحب في كثير من الأحيان ، وكانوا إذا ترمل السيد ولم ينجب أبناء يوفدون إليه الوفود يلحون عليه بأن يتزوج مرة أخرى ، حتى لا يترك الضيعة دون وريث من نسله ، فتسوء حالها إذا تعرضت لحرب الوراثة (٢٦) . وكان الإقطاع ، كما كانت معظم الأنظمة الاقتصادية والسياسية في التاريخ ، ما لا بد له أن يكون لمواجهة مستلزمات المكان والزمان وفطرة الناس :

وكان كوخ الفلاح يقام من الخشب الهش الرقيق ، ويسقيف عادة بالقش والعشب المتلبد ، وأحياناً بالحصباء . ولم نسمع قط عن نظام لمقاومة الحريق قبل عام ١٢٥٠ ، ومن أجل هذا كانت النار إذا اشتعلت في أحد هذه الأكواخ أنت عليه وعلى كل ما فيه . وكان الكوخ في كثير من الأحيان يتكون من حجرة واحدة ولا يزيد قط على حجرتين ، وبه مدفأة يحرق فيها الخشب ، وتور ، ووعاء للعجين ، ومنضدة ، وبضعة مقاعد ، وصوان ، وصحاف ، وآنية ، ومجمر ، ومرجل ، وجمالة لتعليق الأوعية ، وحشية كبيرة من الريش أو القش قرب التنور مبسطة على الأرض ينام عليها الفلاح ، وزوجته ، وأبناؤهما ، وطارق الليل من الضيوف مختلطين بعضهم ببعض يدق بعضهم بعضاً . وكان فناء البيت مأوى الخنازير والدواجن ، وكانت النساء يعين بنظافة البيت بقدر ما تسمح به الظروف ، ولكن الفلاحين الكادحين كانوا يجهدون في تنظيف البيت مشقة كبيرة . وتحدثنا الأفاصيص أن الشيطان لا يقبل أرقاء الأرض في الجحيم لأنه لا يطبق رائحتهم (٢٧) . وكان بالقرب من الدار قضاء مسور للحصان والإبقار ، وقد يكون فيه أحياناً أخلايا للنحل وخن للدجاج ، وبالقرب منه كوم الروث يتكون من فضلات الحيوانات.

وأفراد الأسرة . وكان حول هذا كله أدوات الزرع والصناعات المنزلية ، وكان قط يحرس البيت من الفيران وكلب يشرف على هذا كله .
وكان الفلاح يرتدى قيصاً نصفياً من القماش أو جلد الحيوان ، وستره من الجلد أو الصوف ، ومنطقة وسروالا ، وحذاء نصفاً أو عالياً ، وما من شك في أنه كان يبدو بملابسه هذه شخصاً قوياً لا يختلف كثيراً عن فلاح فرنسا في هذه الأيام . وليس من حقنا أن نصوره في صورة الشخص المظلوم المغلوب على أمره ، بل علينا أن نتمثله بطلا يفلح الأرض ، قوياً صبوراً ، تحفظ عليه كيانه كما يحفظ كيان كل إنسان غيره عزة كريمة مهتماً كانت بعيدة عن العقل والمنطق . ولم تكن زوجته أقل منه كدحاً من مطلع الفجر إلى مغيب الشمس . وكانت إلى هذا تنجب له الأبناء ، وإذ كان لهؤلاء الأبناء قيمة اقتصادية في المزرعة فقد كانت تكثر منهم ؛ لكننا مع هذا نقرأ في أقوال بلاجيوس الفرنسي (حوالي ١٣٣٠) أن بعض الفلاحين « كثيراً ما كانوا يمتنعون عن مباشرة أزواجهم كيلا يلدن أبناء محتجين بأنهم يخشون لفقرهم أن يعجزوا عن تربيتهم إذا كثروا » (٢١٨) .

وكان طعام الفلاح كافياً مغدياً - يتألف من متبجات اللبن ، والبيض ، والخضر واللحم ؛ وإن كان بعض المؤرخين المتطرفين يرون له لأنه كان يضطر إلى أكل الخبز الأسود - أى المصنوع من الدقيق غير المنخول (٢١٩) . وكان يشترك في حياة القرية الاجتماعية ، ولكنه لم تكن له متعة ثقافية ؛ فلم يكن يعرف القراءة ، لأن في وجود رقيق الأرض التي يعرفها إساءة إلى سيده الأسمى . وكان يجهد كل شيء عدا الزرع ، وحتى هذا لم يكن بارعاً فيه . وكانت طباعه خشنة شديدة ، ولعله كان فظاً غليظ القلب . وقد اضطرت أحوال أوروبا المضطربة أن يعيش عيشة الحيوان الطيب ، وفي الحق أنه استطاع أن يعيش على هذا النحو . فقد كان لفقره شراً ، وخوفه قاسياً ، وللكبت الواقع عليه عنيفاً ، وكان جلفاً لأنه يعامل معاملة الأجلاف : وكان هو عماد الكنيسة ، ولكنه كان لديه من

الخرافات أكثر مما كان لديه من الدين ، وقد اتهمه بلاجيوس بأنه كان يخذع الكنيسة فلا يؤدي إليها عشورها ، ويهمل في مراعاة أيامها المقدسة وأيام صومها ؛ ويشكو جوتيه ده كوانسى Gautier de Coincy (في القرن الثالث عشر) من أن رقيق الأرض « ليس في قلبه من خشية الله أكثر مما في قلب الشاة ولا يابه مطلقاً بقوانين الكنيسة المقدسة » (٣٠) . وكانت له لحظات فكاهته الثقيلة السمجية ، ولكنه كان في حقله وفي بيته قليل الكلام ، صريح الألفاظ ، رزيناً ، يشغله كدحه المتواصل وأعماله الكثيرة عن أن يضيع جهوده في الكلام أو الأحلام . وكان رغم خرافاته واقعى النزعة ، يدرك تصاريح الأقدار التي لا هوادة فيها ولا رحمة ، ويوقن أن الموت آت لا ريب فيه ، فقد كان جذب فصل من فصول العام يهلكه هو وحيواناته جوعاً . وقد حدث بين عامى ٩٧٠ و١١٠٠ ستون فحطاً حصدت الأهلين زرافات في فرنسا ، ولم يكن في وسع أى فلاح بريطانى أن ينسى ما حدث من القحط في عامى ١٠٨٦ و١١٢٥ في إنجلترا المرححة الطروب ؛ وقد روع أسقف تربييه في القرن الثانى عشر حين رأى الفلاحين يلذجون جواده ويأكلون لحمه (٣١) . ثم زاد الفيضان والوباء والزلازل الطين بلة وأحالت المسلاة آخر الأمر مأساة .

٣ - مجتمع القرية

وكان جماعة من الفلاحين يترأوح عددهم بين خمسين وخمسةائة يتألفون من أرقاء الأرض ، ونصف الأحرار ، والأحرار ، يبنون قريتهم حول قصر السيد الإقطاعى في الريف . ولم تكن بيوتهم منعزلة بعضها عن بعض بل كانت متجاورة داخل أسوار القرية لأن في قربها أماناً لهم . وكانت القرية عادة جزءاً من ضيعة واحدة أو أكثر من ضيعة ، وكان السيد المالك هو الذى يعين الكثرة الغالبة من موظفيها ، ولم يكونوا يسألون إلا أمامه وحده ، ولكن الفلاحين كانوا يختارون لهم عمدة

أورثياً يتوسط بينهم وبين المالك وينسق نشاطهم الزراعى . وكانوا يجتمعون فى السوق فى فترات معينة ليتبادلوا السلع ، وكان هذا التبادل هو البقية الباقية من التجارة فى هذه الضيقة المكتفية بنفسها من الناحية الاقتصادية ، فقد كان البيت الريفي ينتج بنفسه ما يلزمه من الخضر وبعض ما يلزمه من اللحوم ، ويغزل صوفه أو كتانه ، وينسج معظم ما يحتاجه أفراده من الثياب . وكان حداد القرية يصنع الآلات الحديدية ، ودابع الجلود يصنع البضائع الجلدية ، والنجار ينشئ الأكواخ ويصنع الأثاث ، وصانع العربات يصنع المركبات ، والقصارون ، والصباغون ، والبناعون ، وصانعو السروج ، والحذاثون ، والصبانون . . . كان كل هؤلاء يعيشون فى القرية أو يأتون إليها لقيموا فيها بعض الوقت ليصنعوا ما يطلب إليهم صنعه ، وكان القصاب العام أو الخباز ينافس الفلاح وزوجته فى إعداد اللحم والخبز .

وكانت تسعة أعشار الاقتصاد الإقطاعى قائمة على الزراعة . وقد جرت العادة فى فرنسا وإنجلترا فى القرن الحادى عشر أن تقسم أرض المزرعة إلى ثلاثة حقول : أحدها يزرع قمحاً أو شيلما ، وثانها شعيراً أو شوفانا ، ويترك الثالث بوراً . وكان كل حقل يقسم قطعاً مساحة كل منها نحو فدان إنجليزي أو نصف فدان يفصل كلا منها على الأخرى . حاجز من أرض غير محروثة . وكان موظفو القرية يحددون لكل زارع عدداً مختلفاً من القطع فى كل حقل ويحتمون عليه أن يتبع فيها دورة زراعية تجرى على خطة يضعها مجتمع القرية . وكان الأهلون مجتمعين يقومون فى الحقل بالعمليات الزراعية كلها من حرث وتمهيد ، وغرس وبذر ، وحصاد . ولعل توزيع قطع الفلاح الواحد بين ثلاث حقول أو أكثر كان يهدف إلى إعطائه نصيباً معادلاً لنصيب غيره من الأراضى غير المتساوية الخصوبة ، ولعل هذه القرية التعاونية كانت بقية من شيوعية يدائية لاتزال آثار قليلة منها باقية فى هذه الأيام . وكان من حق كل فلاح يؤدى ما عليه من الواجبات الإقطاعية بالإضافة إلى زرع

هذه القطع أن يقطع الأشجار ، ويرعى ماشيته ، ويجمع الكلاً الجاف من غابات الضيعة ، وأرض الكلاً المشاع فيها ، « وأرضها الخضراء » وكان له عادة حول كوخه ما يكفي من الأرض لإنشاء حديقة وغرس الأزهار .

ولم يكن علم الزراعة في البلاد المسيحية الإقطاعية يضارع نظيره عند الرومان في عهد كولمبلا *Columbella* أو عند المسلمين في بلاد العراق أو الأندلس . وكانت أعقاب النبات وغيرها من النفايات تحرق في الحقول لإخصاب التربة وتطهيرها من الحشرات والأعشاب الضارة ؛ وكان يتخذ من الطين الغضار(*) أو غيره من التراب والجير نوع من السماد البسيط ، فلم يكن يوجد في ذلك الوقت مخصبات صناعية ، وكان ما يعترض النقل من صعاب يقلل استخدام روث الحيوان ، ولهذا كان رئيس أساقفة رون *Rouen* يلتقي أقدار اسطبلاته في نهر السين بدل أن ينقلها إلى حقوله القريبة منها في ديفيل *Deville* ، وكان الفلاحون يشتركون في جمع دريهماتهم القليلة لشراء محراث أو زحافة يستعملونها جميعاً . وظل الثور هو حيوان الجر عندهم حتى القرن الحادى عشر ؛ ذلك أن هذا الحيوان أقل نفقة من الحصان في إطعامه ، وكان إذا كبرت سنه أكثر منه نفعاً إذا اتخذ طعاماً . ولكن صانعى السروج اخترعوا حوالى عام ١٠٠٠ بعد الميلاد الطوق الجامد الذى يمكن الحصان من جر حمل ثقيل دون أن يختنق ؛ وإذا وضع هذا الطوق في عنق الحصان أمكنه أن يحرث في اليوم الواحد ثلاثة أمثال ما يحرثه الثور أو أربعة أمثاله . وإذا كانت سرعة الحرث مهمة في الجواء المعتدلة الرطبة فقد أخذ الحصان في القرن الحادى عشر يحمل الثور ويفقد ما كان له من منزلة عالية جعلت الناس يحتفظون به من قبل للسفر ، والصيد ، والحرب(٣٢) . ودخلت السواقي أوروبا الغربية أواخر القرن الحادى عشر ، وكانت مستخدمة قبل ذلك يزمين طويل في بلاد الشرق الإسلامية(٣٣) .

(*) المسارل ويسمى أيضاً بالثمن وهو نوع من الطين الخزفي غنى بـكربونات الكلسيوم . (المترجم)

وكانت الكنيسة تخفف من كدح الفلاح بأيام الآحاد والأعياد التي كان « العمل الوضيع » فيها يعد إثمًا من الآثام . وفي ذلك يقول الفلاخون : « إن أثوارنا تعرف متى يحل يوم الأحد ، وهي لذلك تأتي أن تعمل في ذلك اليوم » (٣٤) . وكان الفلاح إذا فرغ من الصلاة في ذلك اليوم يغنى ويرقص ، وينسى في ضحكته الريني العالى أعباء الوعظ والمزرعة الثقيل . وكانت الجمعة رخيصة الثمن ، وكان الحديث حراً طليقاً بديناً . وكانت أقاصيص خليعة عن النساء تختلط بالخرافات الرهيبه التي تروى عن القديسين . وكانت ألعباب عنيفة ككرة القدم ، والهوكى ، والمصارعة ، وقذف الأثقال يتبارى فيها رجل مع رجل . وكان قتال الديكة ، ومصارعة الثيران كثيرى الحدوث ، وكان تممس النظارة يصل إلى غايته حين يحاول رجلان معصوبا العينين ، مسلحان بالعصى الغليظة أن يقتلا إوزة أو خنزيرا داخل دائرة مغلقة . وكان الفلاخون في بعض الليالى يتزاورون ، ويلعبون ألعاباً داخل البيوت ، ويمتسون الخمر ، وكانوا في العادة يقضون أوقاتهم داخل البيوت ، لأن الحارات لم تكن مضاءة ، وكانوا يأوون إلى الفراش مبكرين بعد أن تظلم الدنيا بقليل لأن الشموع كانت غالية الثمن . وكانت الأسرة إذا دخل الشتاء بليله الطويل تأوى الماشية في الكوخ وترحب بها وتفيد بما تحدثه فيه من الدفء .

وهكذا كان الفلاخون في أوروبا يطعمون أنفسهم ، وسادتهم ، وجنودهم ، وقساوستهم ، وملوكهم ، بكدحهم المتواصل وبسالتهم الصامته ، لا بما تبعثه في نفوسهم الحوافز الصالحة من مهارة وقدرة على الابتكار . وكانوا يجففون المناقع ، ويقيمون الجسور والحواجز ، ويقطعون أشجار الغابات ، ويظهرون القنوات ، ويشقون الطرق ، ويبنون البيوت ، ويوسعون نطاق دائرة الحضارة ، ويكسبون المعركة القائمة بين الغابة والإنسان . وإن أوروبا الحديثة لمن خلقهم وصنع أيديهم ؛ ونحن إذا ما شاهدنا الآن تلك السياج الأنيقة ، والحقول المنظمة ، لانستطيع أن

نتصور ذلك الكدح الطويل ، والمحن الشداد التي دامت عدة قرون ، والتي حطمت ظهور الرجال وقلوبهم ، والتي سخرت المواد الغفل التي تخرجها الطبيعة السخية على كره ، ووضعت بها الأسس الاقتصادية لحياتنا الحاضرة .

وكانت النساء أيضاً مجندات في تلك الحرب العوان ، فقد كان خصهن وصبرهن على إنجاب الأبناء وتربيتهم هما اللذين ذللا الأرض . وحارب الرهبان وقتما ، ولم يكونوا في حربهم أقل بسالة من غيرهم ، فقد أقاموا أديرتهم مراقب أمامية في الفقار ، وأنشأوا من القوضى نظاما اقتصاديا ، وبنوا القرى في البرارى ، وبفضل هذه الجهود كلها رفرف علم الحضارة على ربوع أوروبا في نهاية العصور الوسطى بعد أن كان الجزء الأكبر من أرضها في بداية تلك العصور أرضين غير منزوعة ، وغابات خالية من السكان ، وبرارى مقفرة ، ولعل هذا العمل ، إذا نظرنا إليه النظرة الصحيحة ، هو أشد كفاح ، وأنبل نصر ، وأعظم عمل تم في عصر الإيمان .

٤ - المالك

في كل نظام اقتصادى يسيطر الرجال الذين يستطيعون السيطرة على أولئك الذين لا يستطيعونها إلا على الجهاد . وكان المسيطر على الرجال في أوروبا الإقطاعية هو السيد المالك - وهو باللغة اللاتينية dominus ، وبالفرنسية seigneur ، وبالرومانية senior وبالألمانية Herr ، وبالإنجليزية lord (أى السيد) وكانت أعماله تنقسم ثلاثة أقسام : أن يوفر وسائل الدفاع العسكرى عن أراضيها وسكانها ، وأن ينظم شئون الزراعة والصناعة والتجارة في تلك الأراضي ، وأن يخدم سيده الأكبر أو مليكه في الحرب . ولم يكن المجتمع قادراً على البقاء في هذا النظام الاقتصادى الذى تحطم إلى عناصره الأولى وتمزق لطول عهده بالهجرة ، الغارات ، والنهب ، والحروب - لم يكن المجتمع قادراً على البقاء في هذا النظام

إلا باستقلاله المحلى وكفاية موارده من الطعام والجنود ؛ ولهذا أصبح القادرون على تنظيم وسائل الدفاع وفتح الأرض هم سادتها وملاكها بطبيعة الحال ، وأضحى امتلاك الأرض وإدارتها مصدر الثراء والسلطان ، ونشأ عهد من الأرستقراطية مالكة الأرض دام إلى عهد الانقلاب الصناعى .

وكان المبدأ الأساسى الذى يقوم عليه الإقطاع هو الولاء المتبادل الذى يتمثل فيما على رقيق الأرض أو التابع من التزامات اقتصادية وعسكرية لسيده ، وفيما على هذا السيد من واجبات مثلها لسيده الأعلى ، وفيما على هذا السيد الأعلى من واجبات للملك ، وفيما على الملك من واجبات نحو السيد الأعلى ، وفيما على هذه السيد الأعلى من واجبات للسيد الأصغر منه ، وفيما على هذا السيد الأصغر من واجبات لتابعه أو رقيق أرضه . وكان السيد يجزى أرقاعه على خدمتهم إياه أرضاً يستبقونها طوال حياتهم ، تكاد تكون ملكاً لهم . وكان يجيز لهم أن يستخدموا بأجر قليل أفرانه ، ومعاصره ، وطواحينه ، ومياهه ، وغاباته ، وحقوقه ؛ وكان يستبدل بكثير من الواجبات التى تتطلب جهودهم العضلية قدرأ قليلا من المال ، ويسمح بأن تسقط بعض الواجبات الأخرى على مر الزمان . ولم يكن ينزع الأرض من رقيقه إذا أعجزه المرض أو الشيخوخة - بل كان يعنى به عادة ويقدم له المعونة^(٣٥) . ومن الملاك من كان يفتح أبوابه للفقراء فى أيام الأعياد ويطعم كل من يدخلها ؛ وكان ينظم وسائل المحافظة على القناطر ، والطرق ، والقنوات ، والتجارة ، ويجد الأسواق التى يصرف فيها ما زاد من منتجات الضيعة على حاجتها ، والأيدى العاملة للقيام بأعمالها ، والمال ليشتري به حاجاتها . وكان يأتى إليها بالسلالات الطيبة من الماشية ليربها ، ويسمح لأرقائه أن يلقحوا ماشيتهم بالذكور الممتازة عنده ؛ وكان من حقه أن يضرب رقيق أرضه ، أو أن يقتله فى بعض الأماكن أو الأحوال ، دون أن يخش عقاباً ، ولكن شعوره بمصالحه الاقتصادية كان يكبح جماع وحشيته ، وكانت له فى أملاكه السلطات القضائية والعسكرية ،

وكان يستفيد فوق ما يجب من الغرامات التي تفرضها محاكم الضيعة ؛ ولكن معظم قضاة هذه المحكمة كانوا من أرقاء الأرض أنفسهم ، وإن كانت ترهبها سلطة المأمور التابع للشريف . ويتبين لنا مع تهافت الأرقاء على هذه الهيئات القضائية لتعفيه من الخدمات نظير ما يقدمه من المال - يتبين لنا من تهافتهم عليها أن قراراتها لم تكن شديدة الظلم . وكان في مقدور كل رقيق يجد في نفسه الجرأة الكافية أن يجهر برأيه في محكمة الضيعة ، ومن الأرقاء من كانوا يجدون في أنفسهم هذه الجرأة ، وقد أعانت هذه المحاكم بأحكامها الفردية ، وبغير قصد منها ، على إيجاد الحريات التي قضت آخر الأمر على عهد رقيق الأرض .

وكان في وسع السيد الإقطاعي أن يمتلك أكثر من ضيعة واحدة ، وكان يعين في هذه الحالة وكيلًا له يشرف على أملاكه أي على ضياعه كلها ، وكان له في كل منها تآظر أو مأمور ، وكان هو ينتقل من ضيعة إلى ضيعة ومعه أفراد أسرته ليستهلكوا غلاتها في مواضع إنتاجها ؛ وقد يكون له قصر حصين في كل واحدة منها . وكان قصر السيد الإقطاعي يرجع نشأته إلى معسكر الفيالق الرومانية المسور (Castellum, Castrum) أو إلى قصر الشريف الروماني الريفي المحصن أو إلى حصن الزعيم الألماني (burg) ، وكان يهدف إلى حماية سكانه أكثر مما يهدف إلى راحتهم . وكان أبعد وسائل الدفاع عنه من الخارج خندق عريض عميق ؛ وكانت الأتربة الناتجة من حفره والتي تلتق في الجهة الداخلية منه تكون حاجزاً عالياً تدق فيه نغم مرعبة يرتبط بعضها ببعض ليتكون منها سور متصل . وكان جسر متحرك مثبت طرفه الداخلي يوصل إلى باب حديدي كبير أو باب آخر شبكى قبله ، يحمي مدخلا ضخماً في سور الحصن . وكان في داخل هذا السور اسطبلات ، ومطبخ ، ومخازن ، وأبنية صغرى ، ومخبز ، ومغسل ، وكنيسة صغيرة ، ومساكن للخدم ، مبنية كلها عادة من الخشب . وكان مستأجرو الضيعة يهرعون عادة هم وماشيتهم ومنقولاتهم إلى داخل

هذا السور . ويقوم في وسطه البرج أو بيت المالك ؛ وهو في معظم الأحوال برج مربع كبير مقام من الخشب أيضاً ؛ ولكنه قبل أن يستهل القرن الثاني عشر بنى من الحجارة واتخذ شكلاً دائرياً ليسهل الدفاع عنه أكثر من ذي قبل . وكان الطابق الأدنى من هذا البرج مخزناً وجباً ، ومن فوقه يسكن المالك وأسرته . وقد نشأت من هذه الأبراج في القرنين الحادى عشر والثانى عشر قصور الأشراف في إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وهى القصور التى كانت جدرانها الحجرية المنيعة عماد قوة الملاك ضد مستأجرهم وضد الملك .

وكان البرج من داخله مظلماً ، ضيقاً ، محصوراً ، قليل النوافذ صغيرها ، وقلما كانت لها ألواح زجاجية . وكان الخيش أو الورق الملون ، أو المصاريح الخشبية ، أو شبابيك الشيش تمنع عنه معظم المطر والكثير من الضوء ؛ وكانت الشموع والمشاعل تستخدم فى الإضاءة الاصطناعية ، ولم تكن هناك فى معظم الأحوال إلا حجرة واحدة فى كل طابق من أطباقه الثلاثة ؛ وكانت السلالم أو الأبواب التى فى السقوف ، أو الدرج المتعرجة ، تصل أطباق البرج بعضها ببعض . وكان فى الطابق الثانى البهو الرئيسى ، الذى تعقد فيه محكمة المالك والذى يستخدم فضلاً عن ذلك مطعماً ، وحجرة لجلوس الأسرة ، ونوم معظم أفرادها . وقد يكون فى إحدى أطرافها مصطبة مرتفعة ، يتناول عليها المالك ، وأسرته ، ومن يستضيفه طعامهم . أما غيرهم فكانوا يتناولون طعامهم على موائد متنقلة توضع أمام مقاعد فى ممرات هذا الطابق . فإذا حان وقت النوم وضعت الحشيات على الأرض أو على أسرة منخفضة من الخشب فى الممرات . وكان أهل الدار كلهم ينامون فى هذه الحجرة الوحيدة تحجبهم حواجز بعضهم عن بعض . وكانت الحجرات تطل بالخير أو بالألوان الزيتية ، وتزين بالأعلام ، والأسلحة ، والدروع ، وكان من المستطاع وقاية الحجرة من التيارات الهوائية بالستائر أو الأقمشة المنقوشة . وكانت الأرض تبلط بألواح القرميد أو الحجارة ، وتغطى بالقش

أو أغصان الأشجار ؛ وكانت تدفأ من وسطها من موقد يحرق فيه الخشب .. وظلت الدار من غير مدخنة إلى أواخر العصور الوسطى ؛ وكان الدخان يخرج من فتحة بالسقف ، وكان من خلف المصطبة باب يوصل إلى « مشمسة » يستطيع السيد وأسرته وضيافته أن يستريحوا فيها ويستمتعوا بأشعة الشمس . وكان الأثاث هنا أدعى إلى الراحة منه في الحجرات ، فقد كان في هذه المشمسة بساط ، ومدفأة ، وسرير مريح .

وكان مالك الضيعة يرتدى جلباباً يتخذ عادة من الحرير الملون ، نقشت عليه رسوم هندسية أو نباتية ، وحرملة تغطي الكتفين وغير مشدودة يستطيع رفعها فوق الرأس ؛ وسروالاً تحتياً (لباساً) قصيراً من فوقه سروال آخر (بنطلون) قصير أيضاً ؛ وجوربين قصيرين يرتفعان إلى الفخذين ، وحذاءين طويلين يرتفع طرفاهما الأماميين كأنهما مقدم سفينة . وكان يتأرجح من منطقتة جراب وسيف ، وتندلى عادة من عنقه مدلاة على شكل صليب . ولما أراد الأشراف الأوربيون أن يميزوا الفرسان ذوى الخوذ والدروع أحدهم عن الآخر في الحرب الصليبية الأولى (٣٦) ، أخذوا عن المسلمين عادة (٣٧) تميز أروبتهم ، وحلهم ، وألويتهم ، ودروعهم ، وسروج خيلهم بنقوش خاصة أو شعائر حربية ، ومن ثم أنشأت الفروسية لنفسها رطانة عجيبة لا يفهمها إلا الفرسان والقائمون على شئون الفروسية (*). ولم يكن المالك رغم هذه الزينات كلها بالإنسان المتعطل المتطفل ، فقد كان يستيقظ في مطلع الفجر ، ويصعد إلى برج ألبتهن هل يحدق به خطر ، ثم يفطر مسرعاً ،

(*) وسمى اللون الأصفر ، والأبيض ، والأزرق ، والأحمر ، والأخضر ، والأسود ؛ والبنفسجى ، على هذا الترتيب نفسه ، بالذهبي ، والفضي ، والساوي ، والوردي ، والنباتي ، والرمل ، والأرجواني . وكان الأزرق الساوي لوناً أخذ عن الشرق ، ومن ثم كان من أسماء « ما وراء البحر » . وكان الصليبيون بزينون معاصمهم ورقابهم بأساور مزركشة بن القرو - تصبغ عادة باللون الأحمر - (واللفظ الإنجليزي الذي يسمى به هذا اللون وهو gules مشتق من لفظ جول اللاتيني ومعناه حلق) . وكافت الأديرة ، والبلدان ، والأمم ، تستخدم هذه الرموز في القرن الثالث عشر كما تستخدمها الأسر ، وكانت الأسر القديمة تضع عادة فوق رموزها أو ألويتها شعاراً موجزاً جامعاً مثل : طاهر السريرة ؛ لا بالكثير ولا بالقليل .. الخ ..

وقد يذهب بعد ذلك للصلاة في الكنيسة ، ثم « يتغدى » في الساعة التاسعة صباحاً ، ويشرف بعدئذ على أعمال الضيعة الكثيرة ، ويشترك بنفسه في بعضها ، ويصدر أوامره إلى الناظر ورئيس الخدم ، والسائس ، وغيرهم من أتباعه ، ويستقبل الزوار وعابري السبيل ، ثم « يتعشى » معهم ومع أسرته في الساعة الخامسة ، ويأوى عادة إلى فراشه في الساعة التاسعة مساء . وكان هذا العمل الرتيب يتغير في بعض الأيام إذا ذهب إلى الصيد ، ويتغير كذلك أحياناً قليلة إذا لعب « البرجاس » ، ويتغير من حين إلى حين إذا قامت الحرب . وكثيراً ما كان يقيم الولائم ، ويتبادل الهدايا الكثيرة مع الأضياف .

ولا تكاد زوجته تقل عنه عملاً . فكانت تلد له كثيراً من الأبناء وتربهم ، وكانت توجه الخدم الكثيرين ، وتلكمهم أحياناً ، وتلاحظ الخبز ، والمطبخ ، والمغسل ، وتشرف على عمل الزبد والخبز ، وعصر الجعة ، وتمليح اللحم لحفظه لأيام الشتاء ، وتعمل في تلك الصناعات المنزلية الكبرى صناعات الخياطة ، والحياكة ، والغزل ، والنسيج والتطريز ، التي تعد بها معظم ملابس الأسرة ؛ فإذا خرج زوجها للحرب قامت هي بشتون المزرعة العسكرية والاقتصادية ، وكان ينتظر منها أن تمدّه بمجاجاته المالية في أثناء حروبه ؛ فإذا وقع في الأسر كان عليها أن تدبر المال اللازم لافتدائه من كد رقيق أرضه ، أو من بيع جواهرها وأدوات زينتها ؛ وإذا مات زوجها وليس له ولد ذكر ، فقد توّول إليها سيادة الضيعة . فتصبح هي سيدتها dame domina ، ولكنها كان ينتظر منها أن تتزوج مرة أخرى بعد زمن قليل . لبي للضيعة وللسيد الأكبر ما يلزمهما من الخدمة أو الحياكة العسكرية . وكان السيد الأكبر يقصر اختيارها على عدد قليل من الخاطبين القادرين على أداء هاتين المهمتين . وكان في مقدورها أن تصبح في داخل قصرها مسترجلة أو صحابة ، وتبادل زوجها لطفة بلطفة ؛ وكانت في ساعات فراغها تلبس على جسمها القوى أثواباً فضفاضة من الحرير ذات أهداب من الفراء ، وتحتذى حذاءين

لطيفين ، وتغطي رأسها بغطاء جميل ، وتزدان بالحلي المتلاألثة فتصبح بذلك كله قادرة على بعث نشوة الحب أو الأدب في قلوب الشعراء الجوالين .

وكان أبناؤها يتلقون تعليماً يختلف كل الاختلاف عن تعليم الجامعات . لأن أبناء الأشراف قلما كانوا يرسلون إلى المدارس العامة ، ولم يكن في كثير من الحالات يبذل أى مجهود في سبيل تعليمهم القراءة . ذلك أن القراءة والكتابة كانتا تتركان للقساوسة والكتبة الذين كانوا يستأجرون بأقل الأجور ، وأن الكثرة الغالبة من فرسان الإقطاع كانوا يهتمون بالمعارف العقلية ، فقد تعلم جيسكلين Guesclin مثلاً ، وهو من أجل شخصيات الفروسية ، جميع فنون الحرب ، وتعود مواجهة كل تقلبات الجو بقلب ثابت ، ولكنه لم يعن أقل عناية بتعلم القراءة ؛ ولم يحتفظ الأشراف بتعاليمهم الأدبية إلا في إيطاليا وبيزنطية . وكان ابن أسرة الفرسان يرسل السابعة من عمره ، بدل المدرسة ، ليكون وصيفاً في بيت شريف آخر يتأدب فيه ويتعلم الطاعة ، والأخلاق الطيبة ، وطريقة اللبس ، وقانون الشرف الخاص بالفرسان ، ومما تتطلبه الثقافة والحرب من حذق ، وربما أضاف القسيس المحلى إلى هذا شيئاً من التدريب على القراءة والحساب . وكانت البنات يتعلمن مائة من الفنون النافعة أو الجميلة ، ولم تكن الوسيلة إلى هذا تزيد على النظر والعمل . وكن يعين بشئون الضيوف ، والفارس حين يعود من الحرب أو البرجاس ؛ فكان يحملان دروعه ، ويحضرن حمامه ، ويأتين له بالثياب التحتية والفوقية ، والعمود ، ويخدمته وقت الطعام بأدب جم وتواضع ورقة مدروسة ؛ وكن هن ، لا الأولاد ، يتعلمن القراءة والكتابة ، وكان منهن كثرة يستمعن إلى الشعراء ، والقصاصين ، والمغنين وإلى نثر ذلك الوقت وشعره الإبداعيين .

وكثيراً ما كان بيت الشريف يشتمل على بعض المقطعين أو الأتباع . فأما المقطع فكان رجلاً ينال من الشريف نظير خدمته العسكرية والشخصية ،

أو المعونة السياسية ، منفعة أو ميزة قيمة - وهي في العادة مساحة من الأرض ومن عليها من أرقاء الأرض ، وفي هذه الحال يكون للمقطع حق الانتفاع بالريع ، أما الملكية فتبقى للشريف . وكان الرجل الذي يمنعه كبرياؤه أو تمنعه قوته من أن يكون رقيق أرض ولكنه أضعف من أن يعد لنفسه وسائل الدفاع العسكرية ، يؤدي مراسم « الولاء » لشريف إقطاعي : يركع أمامه وهو أعزل عارى الرأس ، ويضع يديه في يدي الشريف ، ويعلن أنه « رجل » ذلك الشريف (homme) (وإن كان يحتفظ بحقوقه بوصفه رجلا حراً) ، ثم يقسم على بعض الخلفات المقدسة أو على الكتاب المقدس أن يظل وفياً للسيد إلى آخر أيام حياته . ثم يرفعه السيد ، ويقبله ، ويمنحه إقطاعية(*) ، ويعطيه رمزاً لهذه المنحة قشة ، أو عصا ، أو حرية ، أو قفازاً . ويصبح السيد من ذلك الحين ملازماً بحماية المقطع ، وصدائقه ، والإخلاص له ، وتقديم المعونة الاقتصادية والقضائية ؛ وكان عليه ، كما يقول أحد المحامين في العصور الوسطى ، ألا يهين هذا المقطع ، أو يغوى ابنته أو زوجته^(٣٩) ، فإذا فعل كان من حق المقطع أن « يلقي القفاز » علامة على التحدى ، أى أنه أصبح خارجاً عن الولاء له - ومن حقه مع ذلك أن يحتفظ بإقطاعيته :

وقد يُقطع المقطع « من باطنه » جزءاً من الأرض إلى مقطع أقل منه تكون علاقته به وتبعاته نحوه هي نفس العلاقة والتبعات التي بين المقطع الأصيل والسيد . وكان في وسع المقطع أن تكون له إقطاعيات من عدد من السادة ، وأن يكون مديناً لهم « بولاء بسيط » وخدمات محدوده ، ولكن عليه أن يدين لسيد أعلى « بولاء كامل » وخدمة كاملة في السلم والحرب . وقد يكون السيد نفسه مهما عظم شأنه ، مقطوعاً من قبل غيره من السادة إذا أخذ منه ملكاً أو إقطاعية ، وقد يكون مقطوعاً - أى مالكا لإقطاعية - من مقطع من سيد آخر . وكان السادة كلهم

(*) وهي بالإنجليزية hief ؛ والكلمة مشتقة من كلمة fundum اللاتينية ، وهذه مأخوذة من كلمة faibu الألامانية القديمة أو القوطية ، ومعناها الماشية . وهي ذات صلة بكلمة pecu اللاتينية ، ولقد أصبح لها مثلها معنى ثانوياً وهو البضائع أو القود .

مقطعين من الملك . ولم تكن الرابطة الأولى في هذه الصلات المعقدة هي الرابطة الاقتصادية ، بل كانت هي الرابطة العسكرية ، فقد كان الرجل يقدم الخدمة العسكرية والولاء الشخصي ، أو يدين بهما ، إلى سيد ، وكان ما يعطى له من الأرض جزاء له على خدمته وولائه لا أكثر ولا أقل . وكان الإقطاع من الرجة النظرية نظاماً عظيماً تتبادل بمقتضاه الأخلاق الطيبة ، يربط رجال المجتمع المعرض للخطر بعضهم ببعض برباط قوامه تبادل أداء الواجبات ، والحماية ، والإخلاص .

٥ - الكنيسة الإقطاعية

وكان مالك الضيعة في بعض الأحيان أسقفاً أو رئيس دير ؛ وكان كثير من الرهبان يعملون بأيديهم ، وكثير من الأديرة والكنائس تنال حظها من أموال العشور التي تجبي من الأبرشية ، ولكن المؤسسات الكهنوتية الكبيرة كانت بالإضافة إلى هذا العمل اليدوي وتلك الأموال في حاجة إلى المعونة المالية ؛ وكانت تنال الجزء الأكبر من هذه المعونة من الملوك والأشراف على صورة هبات من الأرض أو أنصبه من الإيرادات الإقطاعية . وتراكت هذه الهدايا حتى أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأراضي ، وأكبر السادة الإقطاعيين في أوروبا ؛ فقد كان دير فلدا مثلاً يمتلك ١٥٠٠٠ ر١٥٠٠ قصر صغير من قصور الريف ، وكان دير سانت جول يمتلك ألفين من رقيق الأرض^(٤٠) ؛ وكان الكوين في تور سيداً لعشرين ألفاً من أرقاء الأرض^(٤١) . وكان الملك هو الذي يعين رؤساء الأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، وكانوا يقسمون يمين الولاء له كغيرهم من الملاك الإقطاعيين ، ويلقبون بالدوق والكونت وغيرهما من الألقاب الإقطاعية ، ويسكون العملة ، ويرأسون محاكم الأسقفيات والأديرة ، ويضطلعون بالواجبات الإقطاعية الخاصة بالخدمة العسكرية والإشراف الزراعي . وكان الأساقفة ورؤساء الأديرة المرتدون الزرد والدروع والمسلحون بالحرايب من المناظر المألوفة

في ألمانيا وفرنسا . وكان رتشرد أمير كورنول في عام ١٢٥٧ يجهر بأسفه لخاو إنجلترا من « الأساقفة ذوى الحمية المتوقدة والروح الحربية القوية » (٤٢) . وهكذا أضحت الكنيسة جزءاً لا يتجزأ من النظام الإقطاعي ، فألفت نفسها منظمة سياسية ، واقتصادية ، وحرية لا منظمة دينية وكفى . وكانت أملاكها « الزمنية » أى المادية ، وحقوقها والتزاماتها الإقطاعية مما يجعل بالعار كل مسيحي مستمسك بدينه ، وسخرية تلوكها ألسنة الخارجين على الدين ، ومصدراً للجدل العنيف بين الأباطرة والبابوات . وهكذا أصبحت الكنيسة جزءاً لا يتجزأ من نظام الإقطاع .

٦ - الملك

وكما كانت الكنيسة في القرن الثاني عشر منشأة إقطاعية ذات حكومة دينية غرضها تبادل الحماية ، والخدمة ، والولاء ، تقوم بها طائفة من رجال الدين ويرأسها البابا سيدها الأعلى ، كذلك كان الحكم الزمنى الإقطاعي يتطلب لكى يبلغ تمامه رئيساً أعلى لجميع المقطعين ، وسيداً صاحب السلطان على جميع السادة الزمانيين ، أى أنه كان في حاجة إلى ملك . وكان الملك من الوجهة الزمنية تابعاً لله ، يحكم بما له من حق إلهي ، بمعنى أن الله أجاز له أن يحكم ، ومن ثم فوضه في أن يحكم . أما من الوجهة العملية فإن الملك قد ارتفع إلى عرشه بطريق الانتخاب أو الوراثة ، أو الحرب . نعم إن رجالاً من أمثال شارلمان ، وأنو الأول ، ووليم الفاتح ، وفليب أغسطس ، ولويس التاسع ، وفرديريك الثاني ، ولويس الجميل ، وسعوا سلطانهم الموروث بقوة الخلق أو السلاح ، ولكن ملوك أوروبا الإقطاعية لم يكونوا عادة حكاماً لشعوبهم بقدر ما كانوا مندوبين من قبل الأقيال التابعين لهم ؛ فقد كان كبار الأشراف ورجال الدين هم الذين يختارونهم أو يوافقون على اختيارهم ، وكان سلطانهم المباشر محصوراً في أملاكهم الإقطاعية أو ضياعهم ؛ أما في غير هذه الأملاك والضياع من مملكتهم فقد كان رقيق الأرض أو التابع (٢٨ - ج ٣ - مجلد ٤)

الذى أقطع أرضاً يدين بالولاء للملك الذى يحميه ، وقبلما كان يدين بهذا الولاء للملك الذى كانت قوته الصغيرة البعيدة عنه عاجزة عن حماية المراكز الأمامية المشتتة فى أنحاء المملكة . وعلى هذا فإن الدولة فى النظام الإقطاعى لم تكن إلا ضيعة الملك .

وذهب هذا التفيت فى الحكم إلى أبعد حد فى غالة لأن الأمراء الكارولنجيين أضعفوا قواهم بتقسيم الإمبراطورية ، ولأن الأساقفة أخضعوهم لسلطان الكنيسة ، ولأن هجات الشماليين على فرنسا كانت أشد هجات هؤلاء الأقوام عنفاً : ولم يكن الملك فى هذا النظام الإقطاعى الكامل إلا « صاحب المقام الأول بين أنداد » ؛ لا يعلو عن يحملون لقب الأمير ، والدوق ، والمركيز ، والكونت إلا قليلاً ، ولكنه كان من الناحية العملية شيئاً « بأشرف الدولة هؤلاء » ، فقد كان شريفاً إقطاعياً تقتصر موارده المالية على ريع أراضيه ، ويضطر إلى الانتقال من ضيعة ملكية إلى أخرى ليحصل على طعامه وشرابه ، ويعتمد فى الحرب والسلام على المعونة العسكرية أو الخدمة الدبلوماسية التى يؤديها له تابعوه الأغنياء ، ولم يكن هؤلاء يتعهدون له بأكثر من أربعين يوماً من العمل المسلح كل عام ، وكانوا يقضون نصف وقتهم فى الأتمار به لخلعه . وكان الملك يضطر إلى منح الضيعة فى إثر الضيعة لأقوياء الرجال ليكسب بذلك معونتهم أو يجزيهم على هذه المعونة ، حتى كان ما بقى من الأرض للملوك فرنسا فى القرنين العاشر والحادى عشر أقل من أن يجعل لهم فوق أتباعهم الملوك من السيادة ما يؤمنهم على عرشهم ؛ ولما أن أورث هؤلاء الملوك أبناءهم ضياعهم ، وأنشأوا لأنفسهم شرطة ومحاكم ، وسكوا باسمهم النقود ، لما أن فعلوا هذا لم يجد الملك لديه من القوة ما يمنعهم من فعله ، ولم يكن فى وسعه أن يتدخل فى اختصاصات أتباعه التفضائية فى أملاكهم إلا فى قضايا الإعدام التى تستأنف له ، ولم يكن من حقه أن يرسل موظفيه أو جباته إلى أملاكهم ، أو يمنعهم أن يعقدوا المعاهدات

المستقلة ، أو يشنوا الحروب من تلقاء أنفسهم . نعم إن ملك فرنسا كان من الناحية النظرية يمتلك جميع أراضي الملاك الذين يلقبونه سيدهم ، ولكنه لم يكن في واقع الأمر إلا مالكا من كبار الملاك ، ولم يكن حتماً أكبرهم ، ولم تكن أملاكه في يوم من الأيام أكبر من أملاك الكنيسة .

وكما أن عجز الملوك عن حماية ممالكهم كان سبباً في نشأة نظام الإقطاع ، كذلك كان عجز أمراء الإقطاع عن حفظ النظام فيما بينهم أو إقامة الحكومة الموحدة التي يتطلبها النظام الاقتصادي التجاري ، كان هذا العجز سبباً في إضعاف السادة الإقطاعيين وتقوية الملوك . وكان تمسك الأشراف في المنازعات الحربية في أوروبا الإقطاعية يلقي بهم في غمار الحروب الخاصة والعامة حتى امتصت دماءهم الحروب الصليبية ، وحرب الأعوام المائة ، وحروب الوردتين ، والحروب الدينية التي اختتمت بها هذه الجروب ، ومنهم من افتقروا وخربوا على القانون فصاروا أشرافاً من قطاع الطرق يهبون ويقتلون كما يشاءون ، وتطلبت المساوي التي نشأت من الإفراط في الحرية سلطة موحدة تحفظ النظام في جميع أنحاء المملكة ؛ وأوجدت التجارة والصناعة في خارج نطاق الرابطة الإقطاعية طبقة غنية متزايدة العدد ؛ ولم يكن التجار راضين عن الضرائب الإقطاعية ، وأخطار النقل داخل الممتلكات الإقطاعية ، وأخذوا يطالبون بأن تحمل حكومة مركزية محل القوانين الخاصة . وتحالف الملك مع هذه الطبقة ومع المدن الآخذة في النماء فأخذت هذه وتلك تمده بما يحتاجه من المال لتأييد سلطانه وتوسيعه ؛ وأخذ كل من يحس بالظلم أو الأذى من الأعيان يتطلع إلى الملك لينقذه ويرد الأذى عنه . وكان كبار الملاك من بين رجال الكنيسة أتباعاً للملك عادة وأوفياء له ، كذلك كان البابوات يبدون أن اتصالحهم بالملك أيسر من اتصالحهم بالأشرف المتفرقين الذين لا يستمسكون كل

الاستمساك بالقانون ، ولم يمنحهم من هذا الاتصال كثرة ما كان يحدث بينهم وبين الملوك من نزاع . واستطاع ملوك فرنسا وإنجلترا تويدهم هذه القوى المختلفة أن يجعلوا سلطتهم وراثية بعد أن كانت بالانتخاب ، وكانت وسيلتهم إلى هذا أن يتوج الواحد منهم ابناً أو أخاً له قبل وفاته ، وارضى الناس هذه الملكية الوراثية بديلاً من فوضى الإقطاع ؛ كذلك كان تحسين سبل الاتصال وازدياد تداول النقد مما جعل فرض الضرائب المنتظمة مستطاعاً ، وأمكن الملك بفضل موارده المتزايدة أن يحصل على ما يلزمه من المال لتقوية جيشه وزيادة عدده ؛ وانضمت طبقة رجال القانون الناشئة إلى العرش وقوته بفضل ما فى القانون الرومانى الذى عاد إلى الحياة من نزعة نحو المركزية ؛ فلم يحل عام ١٢٥٠ حتى أيد علماء القانون حق الملك فى أن ييسط سلطانه القضائى على كل من فى مملكته ، وحتى كان جميع الفرنسيين يقسمون بيمين الولاء للمليكهم لا لسيدهم الإقطاعى . وبهذا كان لتقليب الجميل فى آخر القرن الثالث عشر من القوة ما أمكنه من إخضاع أشرف بلاده ، بل وإخضاع البابوية نفسها ، لسلطانه .

وخفف ملوك فرنسا على أشرف بلادهم مرارة هذا الانتقال بمنحهم ألقاباً وامتيازات فى بلاطهم تعوضهم عن حقهم الخاص فى سك النقود ، وإصدار الأحكام القضائية ، وشن الحروب ؛ فكان كبار أتباعه يؤلفون **حاشية الملك** Curia regia ، وأصبحوا بذلك رجال بلاط لا أصحاب صولة ، واستحالت مراسم قصور الأعيان شيئاً فشيئاً إلى خدمات رسمية يقومون بها فى مجالس الملك ، وحول مائدته ، وفى غرفة نومه . وكان أبناء الأعيان وبناتهم يرسلون إلى قصر الملك ليخدموه أو ليخدموا الملكة بأن يكونوا إخلاًما خصوصيين أو وصيفات ، وليتعلموا آداب البلاط ، وبذلك أصبح قصر الملك مدرسة لأبناء الأشراف

وكانت خاتمة الحفلات وأعظمها هي حفلة تتويج ملك فرنسا في ريمس أو إمبراطور ألمانيا في آخن أو فرانكفورت ، ففي هذه الحفلات كان صفوة الأعيان من جميع البلاد يجتمعون في أثوابهم وعدتهم الفخمة الرهيبة ، وكانت الكنيسة تستخدم كل ما في شعائرها من خفاء وجلال لإحاطة تتويج الحاكم الجديد بجميع مظاهر الحمد والجلال ، وبهذا أضحت سلطة الملك سلطة إلهية ، لا يستطيع أحد أن يعارضها وإلا أعد خارجاً صراحة على الدين . وأقبل الملاك الإقطاعيون على بلاط الملك الذي أخضعهم لسلطانه ، وأسبغت الكنيسة حقاً يلهياً على الملوك الذين حطموا زعامتها وسلطانها على أوربا بعد ذلك الوقت .

الفصل الثالث

شريعة الإقطاع

كانت العادات والشرائع في الغالب شيئاً واحداً في نظام الحكم الإقطاعي حيث كان القضاة والقائمون بتنفيذ القانون المدني عادة أميين . فإذا ما ثارت مشكلة خاصة بالقانون أو العقاب ، سئل أكبر أعضاء المجتمع سناً عما جرت به العادة في هذه المشكلة أيام شبابهم ، ولهذا كان المجتمع نفسه المصدر الرئيسي للقوانين . نعم إنه كان في مقدور الشريف أو الملك أن يصدر الأوامر ، ولكن هذه الأوامر لم تكن قوانين ، وإذا ما طلب إلى الناس أكثر مما تجيزه العادات حالت بينه وبين مطالبه مقاومة الشعب عامة جبهة أوصيهاً (٤٣) . وكان لفرنسا الجنوبية قانون مكتوب ورثته عن الرومان ، أما فرنسا الشمالية حيث كان الإقطاع أكثر تغلغله في الجنوب ، فقد احتفظت في الأغلب الأعم بشرائع الفرنجة ، ولما أن دونت هذه القوانين أيضاً في القرن الثالث عشر ، أضحى تغييرها ، الذي كان من قبل صعباً ، أشد صعوبة مما كان ، ونشأت مائة قصة قضائية للتوفيق بين هذه القوانين وبين الحقيقة الواقعة .

وكان قانون الملكية الإقطاعي قانوناً فذاً معقداً ، يقر ثلاثة أشكال للملكية العقارية : (١) الملكية المطلقة غير المشروطة بشرط ما . (٢) الالتزام وهو منح غلة الأرض لا ملكيتها لتابع إقطاعي بشرط أداء الخدمة المفروضة على الشريف . (٣) الإيجار - وهو الذي تعطى به غلة الأرض لرقيق الأرض أو مستأجرها على شريطة أن يقوم بأداء الالتزامات الإقطاعية . وكان الملك وحده حسب النظرية الإقطاعية هو الذي يستمتع بالملكية المطلقة ، أما كل من عداه ، ومنهم أسرى الأشراف مقاماً ، فكانوا مستأجرين يمتلكون الأرض على شريطة أن يؤدوا

عنها الخدمة الواجبة . كذلك لم تكن ملكية السيد الإقطاعى للأرض مقصورة عليه وحده ، بل كان لكل واحد من أبنائه حق موروث فى أرض الآباء ، وكان له أن يحول دون بيعها^(٤٤) . وكانت العادة المألوفة أن توول الأرض إلى أكبر الأبناء الذكور ، ذلك بأن هذه العادة التى لم تكن معروفة فى القانون الرومانى أو قوانين الأمم المتبريرة أصبحت موافقة لظروف النظام الإقطاعى ، لأنها تضع شئون الحماية العسكرية والإشراف الاقتصادى فى يد رئيس واحد ، يفترض فيه أنه أنضج أبناء الأسرة عقلاً . أما الذكور الأصغر منه سناً فكانوا يشجعون على المغامرة لتملك ضياع أخرى فى أراضى غير أرض آبائهم ؛ وكان القانون الإقطاعى ، رغم ما فرضه على الملكية من قيود ، لا يقل عن أى قانون سواه احتراماً للملكية وقسوة فى عقاب من يعتدون على حقوقها . مثال ذلك أن أحد القوانين الألمانية كان ينص على أن من يزيل لحاء إحدى أشجار الصفصاف التى تمسك أحد الجسور « يشق بطنه ، وتنتزع أعضائه » ، وتلف حول القطع الذى أحدثه ؛ وكان فى وستفاليا قانون ظل معمولاً به حتى عام ١٤٥٤ يقضى بأن من يرتكب جريمة إزالة أحد معالم حدود أرض جاره ، يدفن فى الأرض إلى ما تحت رأسه ، ثم تسلط عليه أثوار ورجال لم يسبق لهم أن حرثوا أرضاً يحرثون رأسه ، « وللرجل الدفين أن ينقذ نفسه بنجر وسيلة يستطيعها »^(٤٥) .

وكانت الإجراءات القضائية فى القانون الإقطاعى تتبع فى الأغلب الأعم قوانين البلاد الهمجية ، وتعمل لاستبدال العقوبات القانونية العامة بالثأر الفردى . وكانت الكنائس ، والأسواق العامة ، ومدن الالتجاء « تمنح حق الأماكن الحرم ؛ وكان من المستطاع بفضل هذه القيود أن يوقف الانتقام حتى يتدخل القانون فى الأمر . وكانت محاكم الضياع تنظر القضايا التى تقوم بين مستأجر ومستأجر ، أو بين مستأجر وسيد ؛ أما المنازعات التى تثور بين سيد وتابع له ، أو بين سيد وسيد ، فكانت تعرض على محلفين « من أعيان البارونية » وهم رجال

يجب ألا يقلوا في المنزلة عن الشاكي نفسه^(٤٧) ، وأن يكونوا تانعين للإقطاعية نفسها ، ومن يجلسون معه في جهو إقطاعي واحد . وكانت محاكم الأسفقيات أو الأديرة تنظر في قضايا رجال الدين ، أما الاستئناف الأعلى فكان يرفع إلى المحكمة الملكية المولفة من أعيان الدولة ، وكان يرأسها الملك نفسه أحياناً . وكان المدعى والمدعى عليه أمام محاكم الضياع يجلسان حتى يصدر الحكم في قضيتهما . وكان المدعى الذي يخسر القضية المرفوعة أيا كان نوعها يعاقب بنفس العقوبة التي توقع على المدعى عليه إذا ثبتت عليه التهمة . وكانت الرشوة شائعة في جميع المحاكم^(٤٨) .

وظل التحكيم الإلهي معمولاً به طوال عهد الإقطاع . وقد حدث في عام ١٢١٥ أن فرض الاختبار بالحديد المحمي على بعض الخارجين على الدين في كمبريه Cambrai ؛ فلما أصيبوا بحروق سيقوا إلى القائمة التي يشد إليها من يجرقون ، ولكن أحدهم أعفى من العقوبة ، كما يقولون ، لأنه أقر بذنبه ، فشفيت يده من فوره ، ولم يبق فيها أثر للحروق . وكان انتشار الفلسفة في خلال القرن الثاني عشر ، وإقبال الناس من جديد على دراسة القانون الروماني ، من أسباب كراهية الناس لهذا « التحكيم الإلهي » . واستطاع البابا إنوسنت الثالث أن يقنع مجلس لاترن الرابع في عام ١٢١٦ بإلغاء هذا النوع من المحاكمة إلغاء تاماً ، وأدخل هنري الثالث هذا الإلغاء في القانون الإنجليزي (١٢١٩) ، كما أدخله فردريك الثاني في قانون نابلي (١٢٣١) ؛ أما في ألمانيا فقد ظلت الاختبارات القديمة معمولاً بها حتى القرن الرابع عشر ؛ وقاسى سفنرولا Savonarola التحكيم الإلهي بالنار عام ١٤٩٨ في فلورنس ، وعاد هذا التحكيم إلى الوجود في محاكمة الساحرات في القرن السادس عشر^(٤٩) .

وشجع نظام الإقطاع السنّة الألمانية القديمة ، سنة المحاكمة بالاقتتال ، وكانت هذه السنّة وسيلة للإثبات من ناحية ، وبديلاً من الثأر الفردي من ناحية أخرى .

وأعاد النورمان هذه السنة إلى بريطانيا بعد أن أهملت في عهد الأنجليسكسون ، ثم ظلت ثابتة في سجل القانون الإنجليزي حتى القرن التاسع عشر (٥٠) .
ومما يذكر في هذا الصدد أن فارساً يدعى هرمان Hermann اتهم فارساً آخر يدعى جاي Guy بالاشتراك في اغتيال تشارلس الصالح Charles the Good ملك فلاندرز ؛ فلما أنكر جاي التهمة دعاه هرمان إلى مبارزة قضائية ، وظل الرجلان يتقاتلان عدة ساعات ، حتى فقد كلاهما جواده وخسر سلاحه ، فانتقلا من المبارزة إلى المصارعة ، واستطاع هرمان أن يبرهن على عدالة التهمة بانتزاع خصيتي جاي من جسمه . ويموت جاي بتأثير هذا الانتزاع (٥١) . ولعل الإقطاعيين قد استحووا من هذه العادات الممجيبة ففرضوا قيوداً على حق المبارزة ظلت تراكم على مدى الأجيال ؛ فكان يطلب إلى المدعى إذا أراد أن يحصل على حق الدعوة إلى المبارزة أن يتقدم بقضية مرجحة الكسب ، وكان من حق المدعى عليه أن يرفض القتال إذا أثبت أنه كان في غير مكان الجريمة حين وقوعها ؛ ولم يكن لرفيق أرض أن يبارز حراً ، أو مجذوم أن يبارز سلباً ، أو ابن غير شرعي أن يبارز ابناً شرعياً ، وقصارى القول أنه لم يكن يصح لشخص أن يبارز إلا شخصاً مساوياً له في مرتبته . وكانت قوانين بعض المجتمعات تمنح المحكمة حق منع أية مبارزة قضائية متى شاءت ؛ وكان رجال الدين ، والنساء ، والمصابون بأية عاهة جسمية يعفون من المبارزة ، ولكنهم كان لهم أن أن يخناروا « أبطالا » - أى مبارزين بارعين - ينوبون عنهم في المبارزة .
والذلك نسمع منذ القرن العاشر عن أبطال ماجورين يحلون محل الذكور المبارزين وإن كانوا صحيحى الأجسام ، ذلك بأنه إذا كان الله سيقضى في الأمر حسب عدالة التهمة فقد يبدو أن شخصية المقتتلين لا شأن لها بهذا القضاء . وقد عرض أتو الأول مسألة عفة ابنته ، والنزاع القائم حول وراثة بعض الضياع ، ليفصل فيها أبطال مبارزون (٥٢) ، وكذلك لحأ ألفنسو العاشر ملك قشتالة إلى هذا النوع من المبارزة ليقرر هل يعمل بالقانون الروماني في

ملكته^(٥٣) وكانت السفارات تزود أحياناً بالأبطال المبارزين ليكونوا حاضرين إذا نشب نزاع دبلوماسي يجوز الفصل فيه بالمبارزة . وظل أبطال من هذا النوع يظهرون في الاحتفال بتتويج ملوك الإنجليز حتى عام ١٨٢١ ، وقد أصبحوا قبل ذلك التاريخ من مخلفات الماضي ذوات الشكل الجميل ، ولكن هذا البطل المبارز كان يفترض فيه في العصور الوسطى أن يلتقي قفازه على الأرض ، ويعلن بصوت عال استعدادة للمبارزة للدفاع عما للملك من حق إلهي في تاجه^(٥٤) .

وكان الالتجاء إلى الأبطال مما يحط من شأن المحاكمة بالاعتقال ، ولهذا حرمة الطبقات الوسطى الناشئة في التشريعات العامة ، واستبدلت به في القرن الثالث عشر القانون الروماني في أوروبا الجنوبية ، وكثيراً ما نددت به الكنيسة ، وحرمه إنوسنت الثالث تحريماً قاطعاً (١٢١٥) ، ومنعه فردريك الثاني من أملاكه في نابلي ؛ وألغاه لويس التاسع في الأقاليم الخاضعة لحكمه خضوعاً مباشراً (١٢٦٠) ؛ وحرمه فليب الجميل (١٣٠٣) في جميع أنحاء فرنسا . هذا والمبارزة لا تستمد أكبر أسباب نشأتها من الاعتقال القضائي بقدر ما تستمد من حق الناس القديم في أن يثاروا لأنفسهم ممن يعتدون عليهم .

وكانت العقوبات الإقطاعية قاسية قسوة وحشية ، فكانت الغرامات لا يحصى لها عدد ، وكان السجن يستخدم وسيلة لحجز المتقاضين أكثر مما يستخدم عقاباً للمذنبين ، ولكن السجن كان في حد ذاته تعذيباً للمسجون لما كان في حجراته من حشرات ، وجرذان ، وأفاع^(٥٥) . وكان يحكم أحياناً على الرجال والنساء بالحنك أو الصلب علناً ، وأن يجعل المعاقب هدفاً لسخرية الجماهير ، أو يقذف بالطعام الفاسد أو يرمي بالحجارة ؛ وكان كرسى الاعتراف يتخذ عقاباً لمن يرتكبون بعض الجرائم أو الثرثارين أو النساء الساقطات ، فكان من يحكم عليهم بهذا العقاب يشدون إلى كرسى يربط بزافعة طويلة ثم يفرق بهم الكرسى في مجرى مائي أو بركة . وكان الأشداء من المذنبين يحكم عليهم أحياناً بالعمل في السفن ،

فكانوا يساقون إليها عراة ، ولا ينالون إلا القليل من الطعام الذى لا يغنى من جوع ، ويشدون إلى المقاعد ثم يرغمون على التجديف فيها حتى تخور قواهم ، فإذا امتنعوا أو توانوا جلدوا أشد الجلد وأقساه . وكان الجلد بالسوط أو العصا من العقوبات العادية . وكان جسم المذنب ووجهه أحياناً - يكوى ليوسم بحرف ما يرمز للجريمة . وكان الحنث فى الأيمان والتجديف يعاقبان أحياناً بحرق اللسان بقطعة من الحديد المحمى : وكان بتر الأعضاء أمراً مألوفاً ، فكانت الديدان ، أو القدمان ، أو الأذنان ، أو الأنف تقطع ، والعينا تسملان ، وكان من اللوسائل التى لجأ إليها ولیم الفاتح لمكافحة الجرائم « ألا يقتل إنسان أو يشق لجريمة ارتكبها ، بل أن تفقأ عيناه ، وأن تقطع يده ، وقدماه ، وخصيتاه ، حتى إذا ما بقى شيء من جسمه كان ذلك الشيء الباقى دليلاً على جميع جرائمه وجوره »^(٥٦) . وقلما كان التعذيب من العقوبات المعمول بها فى العصور الوسطى ، وإن كانت الشرائع الرومانية والكنسية قد أعادته إلى الوجود فى القرن الثالث عشر . وكان القتل والسرقه يعاقب عليهما أحياناً بالنفى ، وكان أكثر ما يعاقبان به هو قطع الرأس أو الشنق ، وكان عقاب القاتلات أن يدفن وهن على قيد الحياة^(٥٧) . ويمكن عقاب الحيوان الذى يقتل آدمياً بدفنه حياً أو بشنقه . وكانت المسيحية تدعو إلى الرأفة ، ولكن المحاكم الكنسية كانت تعاقب على الجرائم بنفس العقوبات التى توقعها المحاكم المدنية ؛ من ذلك أن محكمة دير سانت چنثيف St. Geneviève حكمت بدفن سبع نساء وهن على قيد الحياة عقاباً لمن على السرقه^(٥٨) : وبعد فلعل كبح جماح الخارجين على القانون فى العصور الهمجية ، كان يحتاج إلى تلك العقوبات الوحشية ، ولكن هذه العقوبات الوحشية نفسها بقيت حتى القرن الثامن عشر ، ولم تكن شر أنواع التعذيب هى التى يفرضها الأشراف على القتلة بل كانت هى التى يفرضها الرهبان المسيحيون على الأتقياء المارقين .

الفصل الرابع

الحروب الإقطاعية

نشأ الإقطاع ليكون نظاماً عسكرياً مجتمع زراعي غير مطمئن على نفسه ؛ وكانت فضائله حربية أكثر منها اقتصادية . وكان ينتظر من سادة الإقطاع وأتباعهم أن يدرّبوا أنفسهم على الحرب وأن يكونوا في كل لحظة من اللحظات مستعدين لترك المحراث وانتضاء السيف .

وكان جيش الإقطاع هو الأداة الحكومية الإقطاعية ، تنظمه روابط الولاء الإقطاعي وينقسم انقساماً دقيقاً إلى طبقة فوق طبقة حسب درجات الشرف والمنزلة ؛ فالأمير ، والمركيز ، والكونت ، ورئيس الأساقفة ، هم قواد الجيش ، والبارون ، والسيد ، والأسقف ، ورئيس الدير ، هم رؤساء الفرق ، وكان الفرسان knights ؛ أو Chevaliers هم راكبي الخيل ، وكان الأتباع هم خدم البارونات أو الفرسان ، وكان حملة السلاح men-at-arms - الجيش المرابط في المقاطعات أو القرى - يحاربون مشاة ، وكان من وراء الجيش الإقطاعي ، كما نراه في الحروب الصليبية ، حشد من الخدم Varlets يتبعون الجند سيراً على الأقدام من غير نظام ولا قواد ، وكانوا يساعدون الجيوش على انتهاب المغلوبين ، ويريجون المعدّين ممن يسقطون في حومة الوغى ، والجرحى من الأعداء بأن يجهزوا عليهم ببلطهم الحربية أو عصيمهم الغليظة^(٥٩) . ولكن الجيش الإقطاعي كان في جوهره وأساسه هو الفارس مكرراً ، ذلك أن المشاة قد فقدوا منزلتهم العليا بعد معركة هديرنيانوبل (٣٧٨) ، ولم يستعيدوا هذه المنزلة إلا في القرن الرابع عشر ، وكان الفرسان هم عماد الفروسية ، وكان اسمهم وكل ما يتصل به من الأسماء الأخرى Cavalry ، Chivalry ، Caballero ، Cavalier ، مشتقاً من اسم الفرس .

وكان المحارب في عهد الإقطاع يستخدم الحربة ، والسيف ، والقوس ، والسهم . وقد مد الفارس نفسه ووسع دائرتها حتى شملت سيفه ، وأطلق عليه اسما ينم على إعزازه وحبه ، وإن كان مما لا شك فيه أن الشعراء القصاصين هم الذين أطلقوا على سيف شارلمان اسم « المبتهجة » Joyeuse وعلى سيف رولان دورندل Durandel ، وعلى سيف الملك آرثر اسم Excalibur . وكان للقوس عدة أشكال فقد تكون قوسا بسيطة قصيرة ، تشد عند الصدر ، وقد تكون قوسا طويلة تشد نحو العين والأذن ، وقد تكون قوسا متقاطعة يشد وترها في محز بمقبضها ، ثم تطلق فجأة ، وقد يستخدم أحيانا زناد في إطلاقها ، وتنطلق منها قذيفة من الحديد أو الحجر . وكانت القوس المتقاطعة أداة قديمة العهد ، أما القوس الطويلة فكان أول من اشتهر باستعمالها إدورد الأول (١٢٧٢ - ١٣٠٧) في حروبه مع أهل ويلز . وكانت الرماية أهم عناصر التدريب العسكري في إنجلترا كما كانت من أهم العناصر في ألعاب الفروسية . وكان تطور القوس وإتقانها بداية تدهور النظام الإقطاعي من الناحية العسكرية ، ذلك أن الفارس كان يستنكف أن يحارب راجلا ، ولكن الرماة كانوا يقتلون جواده ، ويرغمونه على أن ينزل إلى الأرض التي لا تتفق وطبيعته . ووجهت آخر الضربات إلى الإقطاع في القرن الرابع عشر بعد اختراع البارود والمدافع ، فقد أمكن بهما قتل الفارس المدرع وتدمير قصره من مساحة لا سلطان للفارس عليها لبعده عنها .

وإذ كان للمحارب الإقطاعي جواد يحمله ، فقد كان يسعه أن يتقل نفسه بالدروع ، ولهذا كان الفارس الكامل العدة في القرن الثاني عشر يغطي جسمه بالزرد من عنقه إلى ركبتيه - تستره شبكة ذات أكام للذراعين ، وقلنسوة من الحديد تغطي كل رأسه عدا عينيه ، وأنفة ، وفه ؛ وكانت ساقاه وقدماه تغطي بدروع من الزرد خاصة بها . فإذا كان في الحرب غطى رأسه فضلا عن غطائه السالف الذكر بخوذة من الصلب ذات وقاية من الحديد تسمى أنفه . وظهرت في

القرن الرابع عشر البيضة ذات الحافة الأمامية البارزة ، والدروع المصنوع من الصفائح المعدنية لحماية الفارس من القوس الطويلة أو المتقاطعة ، وبقينا حتى القرن السابع عشر ؛ ثم بطل استعمال الدروع كلها تقريبا ليكون المحارب سريع الحركة . وكان للفارس ترس معلق في عنقه ، يقبض عليه بيده اليسرى من سيور مثبتة في سطحه الداخلي ، وكان هذا الترس يصنع من الخشب ، والجلد ، والأربطة الحديدية ، ويزدان في وسطه بمشبك من الحديد المذهب ، وهكذا كان الفارس في العصور الوسطى قلعة متحركة .

وكانت الحصون عادة هي أهم وسائل الدفاع وأجداها في الحروب الإقطاعية . فكان في وسع الجيش الذي يهزم في ميدان القتال أن يجد له ملجأ داخل أسوار بيت الشريف ، وكان في وسعه أن يقف من العدو وقفته الأخيرة داخل البرج . واضمحل علم الحصار في العصور الوسطى لأن ما يلزم لذلك أسوار الأعداء من تنظيم وعدد كان أعلى وأشق من أن يطيقه الفرسان أصحاب المكانة العالية ، ولكن فن المدمز والهندى الملمغ ظل باقيا في تلك العصور . كذلك قل شأن الأساطيل في عالم كانت النزعة الحربية فيه أقوى مما تحتمله موارده . وقد ظلت السفائن الحربية شبيهة بسفائن الأقدمين - تحمل فوق سطوحها أبراج القتال ، ويدفعها بالمجاديف الرجال الأحرار أو الأرقاء المشدودون إليها . وكان ما ينقص الرجل أو السفينة من القوة يستعاض عنه بالزينة ، فكان بناء السفن والفنانون في العصور الوسطى يضعون على خشب السفينة طبقة من القار تقيه من تأثير الماء والهواء ، ثم يطلونها من فوقه بالألوان الزاهية الممزجة بالشمع - بيضاء أو قرمزية أو زرقاء في لون ماء البحر الشديدة الزرقة ، وكانوا يدهبون جوؤها وأسيجتها ، ويقىمون في مقدمها ومؤخرها تماثيل لأناس ، وحيوانات ، وآلهة . وكانت الأشرعة تلون بألوان زاهية ، بعضها أرجواني ، وبعضها ذهبي ، وكانت سفينة السيد تنقش عليها شارة درعه . وتختلف حروب العصور الوسطى عن الحروب القديمة والحديثة في كثرة

عددها ، وقلة نفقاتها وعدد من يقتلون فيها . فأما كثرة العدد فكان سببها أن كل سيد كان يدعى لنفسه حق محاربة كل رجل لا تربطه به روابط الإقطاع ، كان كل ملك حراً في أن يعتمد على السرقة الشريفة سرقة أراضي غيره من الحكام . وإذا ذهب الملك أو الشريف إلى الحرب ، كان على أتباعه وأقاربه حتى الطبقة السابعة أن يتبعوه ويقاتلوا معه أربعين يوماً ، ولا يكاد يوجد يوم من أيام القرن الثاني عشر لم تكن فيه حرب في جزء من أجزاء البلاد المعروفة الآن باسم فرنسا ، وكان أسمى ما يبلغه الفارس من الصفات أن يكون محارباً بارعاً ، وكان ينتظر منه أن يكيل أو يتلقى الضربات القوية في سرور أو جلد ، وكانت أعظم أمنية له أن يموت ميتة المحارب في « ميدان الشرف » ، لا « ميتة الأبقار » في الفراش^(٦٠) ، ولقد شكاه برثولد الراتسبونى Berthold of Ratisbon من « قلة عدد السادة الذين يصلون إلى السن الصحيحة أو يموتون الميتة الصحيحة »^(٦١) ولكن راتسبون هذا كان من الرهبان .

ولم تكن الحرب شديدة الخطورة ، فهاهو ذا أوردكس فيتالس Ordericus Vitalis يصف معركة بريمول Brémule (١١١٩) بقوله إنه « لم يقتل إلا ثلاثة من الفوارس التسعمائة الذين كانوا يجاربون »^(٦٢) ، وقد أسر أربعمائة فارس في معركة تنشبريه Tinchebrai (١١٠٦) ، التي كسب فيها هنرى الأول ملك إنجلترا بلاد نورماندية ، ولكن فارساً واحداً لم يقتل من فرسان هنرى . وفي واقعة بوفين Bouvine (١٢١٤) وهى من الوقائع الحاسمة التي كانت أشد معارك العصور الوسطى هولا قتل مائة وسبعون فارساً من الألف والحسمائة الذين اشتركوا في القتال^(٦٣) . وكانت الدروع والقلاع تجعل الميزة في الحرب للدفاع ؛ فقد كان من الصعب أن يقتل الرجل الكامل العدة إلا إذا قطع رأسه وهو راقد على الأرض ، ولم يكن هذا العمل مما ترضى عنه الفروسية . كذلك كان أسر الفارس وقبول فديته أدنى إلى الصواب من قتله والتعرض للانتقام الدموى ؛ وها هو ذا فرواسبار

Froissart يحزنه أن قتل في إحدى المعارك « كثير من الأسرى كان مستطاعاً أن ينجى من افتدائهم ٤٠٠,٠٠٠ فـ ذلك^(٦٤) » : وكانت قواعد الفروسية ، والحكمة المتبادلة بين الفرسان بعضهم وبعض ، تحض على مجاملة الأسرى ، والاعتدال فيما يطلب من الفداء ، وكان من المعتاد أن يطلق سراح الأسير إذا وعد بشرفه أن يعود ومعه فديته قبل وقت معين ، وقلما كان فارس يحنث في هذا الوعد^(٦٥) . وكان الفلاحون هم الذين قاسوا أشد البلاء في حروب الإقطاع . وكان كل جيش في فرنسا ، وألمانيا ، وإيطاليا ، يغير على أراضي أتباع عدوه وأرقاء أرضه وينهب بيوتهم ويستولى على كل ما لم يجمع من الماشية في داخل أسواره ، وكان كثيرون من الفلاحين بعد هذه الحروب يجرّون محارثهم ، وهلك الكثيرون منهم جوعاً لقلة ما أنتجته الأرض من الحبوب .

وحاول الملوك والأمراء أن يحتفظوا بالسلم الداخلية في فترات بين الحروب ، ونجح في هذه المحاولات الأدواق النورمنديون في نورمندي ، وإنجلترا ، وصقلية ، وكونت فلاندرز في بلاده ، وكونت برشلونة في قطلونية ، ونجح هنرى الثالث مدى جيل من الزمان في ألمانيا ، وفيها عدا هؤلاء كانت الكنيسة صاحبة الفضل في تقييد الحروب ، فقد أصدرت عدة مجالس كنسية في فرنسا بين عامي ٩٨٩ و ١٠٥٠ قراراً بتحديد « سلم إلهية » وأنذرت كل من يستخدم العنف في الحرب مع غير المقاتلين بالحرمان من حظيرة الدين . ونظمت الكنيسة الفرنسية حركة تدعو إلى السلام في عدة مراكز مختلفة ، وأقنعت كثيرين من الأشراف بأن يمتنعوا عن الحروب الخاصة بين بعضهم وبعض ، ثم لم تكف بهذا بل أقنعتهم فوق ذلك أن يشتركوا معها في تحريمها ، وقام فلبرت أسقف تشارتر *Fulbert of Chartres* (٩٦٠ - ١٠٢٨) بحمد الله في ترنيمة ذاتعة الصيت لوجود فترة من السلام غير عادية . ورحبت الجماهير ترحيباً حماسياً بهذه الحركة ، وأخذ الصالحون يتبأون بأنه لن تمضي خمس سنين حتى يكون جميع سكان العالم

المسيحي قد وافقوا على برنامج السلام^(٦٦) ، وأعلنت مجالس الكنيسة الفرنسية من عام ١٠٢٧ وما بعدها « هدنة الله » ، ولعلها في هذا كانت تذكّر تحريم المسلمين للحرب في الأشهر الحرم فقالت : على الناس جميعاً أن يمتنعوا عن أعمال العنف طوال أيام الصوم الكبير ، وفي موسم الحصاد وقطاف الكروم (من ١٥ أغسطس إلى ١١ نوفمبر) ؛ وفي أعياد محددة ؛ وفي جزء من كل أسبوع - كان عادة من مساء الأربعاء إلى صباح الاثنين ؛ وأجازت هذه الهدنة في صورتها النهائية قيام الحروب الخاصة أو الحروب الإقطاعية ثمانين يوماً في السنة . وقد أثمرت هذه النداءات والإنذارات ثمرتها ، ففضى على الحروب الخاصة شيئاً فشيئاً بتعاون الكنيسة ، وبقوة الملوك المتزايدة ، ونشأة المدن والطبقات الوسطى ، واستنفاد النشاط العسكري في الحروب الصليبية ؛ وأضحت هدنة الله في القرن الثاني عشر جزءاً من القانون المدني والقانون الكنسي في أوروبا الغربية ، وحرم مجلس لاتران الثاني (١١٣٩) استخدام العدد الحربية ضد للناس^(٦٧) ، واقترح جر هوو الريخزبرجي Gerhoh of Reichersburg أن يحرم البابا جميع الحروب بين المسيحيين بعضهم وبعض ، وأن يُعرض كل ما يشجر من النزاع بين الحكام المسيحيين على التحكيم البابوي^(٦٨) . ورأى الملوك أن الوقت لم يكن بعد لتنفيذ هذا الاقتراح ، فكانوا يثيرون الحروب القومية أكثر من ذي قبل كلما نقصت الحروب الفردية ، وكان البابوات أنفسهم في القرن الثالث عشر ، وهم يحركون اليادق البشرية ليظفروا بالسلطان ، كان هؤلاء البابوات يستخدمون الحرب أداة من أدوات السياسة :

الفصل الخامس

الفروسية

من العادات الألمانية القديمة عادات التعليم العسكرى ، بعد أن تأثرت بأساليب المسلمين فى بلاد الفرس ، والشام ، والأندلس وبالأفكار المسيحية المتصلة بالخشوع والأسرار المقدسة ، من هذه كلها نشأ نظام الفروسية ، وهو نظام لم يبلغ حد الكمال ولكنه نظام نبيل كريم .

كان الفارس شخصاً شريف المولد - أى ينتمى إلى أسرة تحمل لقباً شريفاً وتمتلك أرضاً . ولم يكن من حق جميع أصحاب « الأصول » (أى الذين يمتازون بانتسابهم إلى أسر نبيلة) أن يختاروا فرساناً أو يحملوا هذا اللقب ؛ فالأبناء غير الابن الأكبر - عدا أبناء الملوك - لم يكن لهم فى العادة إلا أملاك قليلة لانفى بالنفقات التى تتطلبها الفروسية ، ولهذا يبقى هؤلاء ضمن الأتباع. إلا إذا حصلوا بجهودهم على أراضى وألقاب جديدة .

وكان الشاب الذى يتطلع إلى أن يكون فارساً يخضع لنظام تأديبى شاق طويل . فكان يعمل وهو فى السابعة أو الثامنة من عمره وصيفاً عند أحد السادة ، حتى إذا بلغ الثانية عشرة أو الرابعة عشرة أصبح تابعاً لهذا السيد ، يقوم بخدمته على مائدة الطعام ، وفى غرفة نومه ، وفى قصر الضيعة ، وفى المناقفة أو القتال ، ويقوى جسمه وروحه بالتمارين والألعاب الشاقة الخطرة ، ويتعلم بالتقليد والتجربة كيف يستخدم أسلحة الحرب الإقطاعية . فإذا أتم تدريبه سلك فى نظام الفرسان فى حفل يشمل مراسم رهيبة يبدوها الطالب بالاستحمام بوصفه رمزاً للتطهير الروحى ولعله كان أيضاً رمزاً للتطهير الجسمى . وكان لهذا يمكن أن يسمى « فارس الحمام » تمييزاً له من « فرسان السيف » الذين تلقوا لقب الفروسية فى ميدان.

القتال جزاء عاجلاً لهم على بسالتهم . وكان يرتدى في هذا الاحتفال قيصاً أبيض ، من فوقه رداء أحمر ومعطف أسود ، يمثل أولها ما يرجى أن يتصف به من نقاء الخلق ، وثانيهما الدم الذي قد يسفكه في سبيل الشرف أو سبيل الله ، وثالثها الموت الذي يجب أن يكون متأهباً لملاقاته بلا وجل . وكان يصوم يوماً كاملاً ثم يقضى ليلة يصلي في الكنيسة ، ويعترف بذنوبه إلى أحد القسيسين ، ثم يحضر مراسم القداس ، ويأخذ العشاء الرباني ، ويستمع إلى موعظة عن واجبات الفارس الخلقية ، والدينية ، والاجتماعية ، والحربية ، ويتعهد في خشوع أن يؤديها كلها . فإذا فعل هذا تقدم إلى المذبح ومع سيف يتدلى من عنقه ، فيرفع القس السيف ويباركه ويضعه مرة أخرى فوق عنقه ، ثم يلتفت الطالب إلى الشريف الجالس الذي يريد أن يتلقى منه لقب الفروسة ، فيسأله هذا السيد ذلك السؤال الصارم : « لأي غرض تريد أن تنضم إلى هذا النظام ؟ إن كنت تبغى المال ، أو الراحة ، أو الشرف ، دون أن تعمل ما يشرف الفروسية ، فأنت غير خليق بها ، وستكون منزلتك في نظام الفروسية كمنزلة القس المتاجر بالرتب الكهنوتية في الأسقفية . ويكون الطالب وقتئذ متأهباً لأن يجيبه برد يؤكد له استعدادة للقيام بما يفرضه عليه نظام الفروسية . وحينئذ يتقدم إليه فرسان أو سيدات يلبسونه زرد الفروسية من درع على صدره وفي ذراعيه . وقفازين من زرد في يديه ، ومهمازين في حذاءيه(*) . ثم يقوم الشريف ويلطمه ثلاث لطمات بغرض السيف على عنقه أو كتفه ، وقد يلطمه لطمة أخرى على خده ، وهي كلها رموز لآخر الإهانات التي يستطيع أن يتلقاها دون أن يثار لنفسه ، ثم يمنح رتبة الفروسية بهذه الصيغة : باسم الله ، والقديس ميخائيل ، والقديس جورج أجعلك

(*) وكان المهمازان المصنوعان من الذهب هما علامة الفارس ، والمصنوعان من الفضة علامة تابعه ، وإذ قيل عن إنسان إنه «كسب مهمازيه» (الذهبيين) كان معنى هذا أنه بلغ رتبة الفروسية .

فارساً . ثم يتسلم الفارس الحديد حربة ، وخوذة ، وجواداً ، فيحكم خوذته على رأسه ، ويقفز فوق جواده ، ويهز حربته ، ويلوح بسيفه ، ويخرج من الكنيسة راكباً ، ويوزع الهدايا على خدمه ، ويولم وليمة لأصدقائه .

وكان من حقوقه وامتيازاته وقتئذ أن يخاطر بحياته في البرجاس الذى يتدرب فيه أكثر من ذى قبل على المهارة ، والجد ، والجرأة . وكانت بداية البرجاس فى القرن العاشر ، وكان أكثر ما ازدهر فى فرنسا ، وهو الذى سما ببعض العواطف الثائرة وضروب النشاط التى أفسدت حياة رجال الإقطاع . وقد يدعو إليه الملك أو شريف عظيم على لسان مناد للاحتفال بتنصيب فارس ، أو زيارة ملوك ، أو زواج فرد من أفراد الأسرة المالكة . وكان الفرسان الذين يرغبون فى الاشتراك فى البرجاس يأتون إلى البلدة التى سيعقد فيها ، ويعلقون أسلحتهم خارج نوافذ حجراتهم ، ويثبتون دروعهم فى جدران الحصون ، والأديرة ، وغيرها من الأماكن العامة . وكان النظارة يبحثون هذه كلها ، وكان لهم أن يتقدموا بما لديهم من الشكاوى الخاصة بما أخطأ فيه كل متقدم للاشتراك فى اللعب ، فيستمع موظفو البرجاس إلى القضية ويحكمون بعدم أهلية المذنب من المتقدمين ، وفى هذه الحالة تكون « على ترسه أو درعه لطخة » . ويفد إلى هذا الجمع الحاشد المتحفز تجار الخيول ليعدوا الفارس للبرجاس ، وبائعو الخردوات يحلوه هو وجواده بالحلل الجميلة ، والمرابون لا فتداء من يسقطون فى الحلبة ، والعرافون ، واللاعبون على الحبال ونحوها ، والممثلون الصامتون ، والشعراء الجائلون والمغنون ، والعلماء المتنقلون ، والنساء الخليعات ، والسيدات ذوات المقام السامى . وكان الحادث كله احتفالاً بهيجاً فيه الغناء والرقص ، ومواعيد اللقاء ، والمشاجرات ، والمراهنات التى لا حد لها على المباريات .

وقد يدوم البرجاس إلى ما يقرب من أسبوع ، وقد لا يدوم إلا يوماً واحداً . وقد قسمت الأيام فى برجاس عقد فى عام ١٢٨٥ ، فكان يوم الأحد يوم اجتماع

وعيد ، وخصص يوماً الاثنين والثلاثاء للمثاقفة ، ويوم الأربعاء للراحة ، ويوم الخميس للبرجاس نفسه الذى أطلق اسمه على الحفل بوجه عام . وكانت حلبة الصراع ميدان بلدة أو فضاء فى أحد أطرافها تحيط به من بعض نواحيه مقاعد وشرفات يشاهد منها السراة الحفل وهم مرتدون أفخر ما كان فى العصور الوسطى من حلل . أما السوق فكانوا يشاهدون الألعاب وهم وقوف حول الحلبة ، وكانت المقاعد تزدان بالنسيج المزركش ، والبيارق المستطيلة ، والدروع المنقوش عليها شارات الأسر الشريفة . وكان الموسيقيون يبدؤون المباريات بالأنغام الموسيقية ، ويحجون بالنغمات العالية أبرع ما فى السباق من ضربات . وكان النبلاء والنبيلات ينثرون النقود على السوق الواقفين فى الميدان ، فكان هؤلاء يثلقفونها وهم يصيحون « هبات ! » و « مرحى ! » .

ويدخل الفرسان قبل المباراة الأولى حلبة البرجاس فيمشون إلى الميدان فى حللهم وعددهم الفاخرة متباهين فى خطاهم ، ومن ورائهم أتباعهم على ظهور الجياد تقودها فى بعض الأحيان بسلاسل من الفضة أو الذهب السيدات اللأئى سيحارب الفرسان تمجيداً لهن . وكانت العادة المألوفة أن يحمل كل فارس ترسه ، وخوذته أو حربته ؛ ولقاعة أو قناعاً ، أو دثاراً ، أو شريطاً انترعته السيدة المختارة من ثيابها .

وكانت المثاقفة معركة فردية بين فارسين يتباريان . وكانا يعدوان بجواديهما متقابلين ويرمى كلاهما الآخر بحربته المصنوعة من الصلب . فإذا ما اضطر أحد المتبارين أن ينزل عن جواده فإن قواعد المباراة تتطلب أن يترجل الآخر ، وبهذا تدور المعركة بينهما راجلين وتستمر حتى يصبح أحدهما طالباً وقف القتال أو يضطر إلى الخروج منه لأنه تعب ، أو جرح ، أو مات ؛ أو حتى يطلب القضاة أو الملك وقفه . ثم يمثل المنتصر أمام القضاة ، ويتلقى فى وقار جم جائزة منهم أو من سيدة جميلة . وكانت تشغل عدة أدوار من هذا النوع اليوم كله . وكان الحفل يختم باقتتال حق . يصطف فيه الفرسان المتبارون جماعات متقابلة ويقتتلون اقتتالاً حقيقياً ،

وإن كان يدور في العادة بأسلحة مثلمه ؛ وقد أدى قتال من هذا النوع دأر في نيو سن Neuss (١٢٤٠) إلى موت نحو ستين فارساً ؛ وفي أمثال هذه المباريات كان يؤبر البعض ، وتؤخذ الفدية ممن يؤسرون كما يحدث في الحروب الحقيقية سواء بسواء . وكانت جياد الأسرى وأسلحتهم غنيمة للمنتصرين ، فقد كان الفرسان يحبون المال أكثر مما يحبون القتال نفسه ؛ وقد ورد في مجموعة الأفاصيص الفرنسية التي كتبت في فرنسا بين منتصف القرن الثاني عشر وآخر القرن الثالث عشر(*) أن أحد الفرسان احتج على تحريم الكنيسة لألعاب البرجاس وقال إن هذا التحريم إذا نفذ حرمة من الوسيلة الوحيدة التي يكسب بها عيشه^(٦٩) . فإذا انتهت جميع المباريات اجتمع الأحياء من الفرسان والنبلاء من النظارة في حفل ليلى تعد فيه الولائم ، ويدور فيه الرقص والغناء ، ويستمتع فيه الفرسان الظافرون بتقبيل أجمل النساء ، ويستمتع الحاضرون إلى القصائد والأغاني التي تؤلف تخليداً لانتصارهم .

وكان يطلب إلى الفارس من الوجهة النظرية أن يكون بطلاً ، وسميدحاً(**) ، وقديساً ، وإذا كانت الكنيسة حريصة على ترويض الشرسين من الفرسان ، فقد أحاطت نظام الفروسية بمراسم وأيمان دينية . فقد كان الفارس يقسم أن يكون صادقاً في القول ، وأن يدافع عن الدين ، ويحمي الفقراء والمساكين ، وينشر لواء السلم في ولايته ، ويقاوم الكفرة . وكان مديناً لسيد الإقطاعي بولاء يرتبط به أكثر من ارتباط الآباء بحب الأبناء ؛ ويتعهد أن يكون حارساً للنساء ، مدافعاً عن عفتهم ؛ وأن يكون أخاً لجميع الفرسان يبادلهم المحاملة وضرور المساعدة . وقد

(*) هي المعروفة باسم Fabliax ويبلغ عددها نحو مائة قصة معظمها تهكمي . (المترجم)
(**) ورد في القاموس المحيط للفيروزباني : السميذح : السيد ، الكريم ، الشريف ، السخي ، الموطأ الأكناف ، والشجاع . ولعل هذه أقرب ترجمة لكلمة gentleman وقد وردت في بعض أرقام المعتمد . (المترجم)

يحدث في إبان الحروب أن يقاتل الفارس غيره من الفرسان ، فإذا أسر واحداً منهم عامله معاملة الضيف . وهكذا كان الفرسان الفرنسيون الذين أسبروا في كريسى Crécy وپواتيه يعيشون أحراراً مستمتعين بالراحة والاطمئنان في ضياع من أسروهم من الفرسان الإنجليز ، يشتركون مع مضيفهم في الولائم والألعاب ؛ وظلوا كذلك حتى افتدوا (٧٠). ورفع الإقطاع الشرف الأرستقراطي ومطالب النبيل عند الفارس إلى منزلة عالية علواً لا يستطيع أن يدركه ضمير السوقة - فكان يقسم ألا يتخلى عن البسالة الحربية والوفاء الإقطاعي ، وأن يضع نفسه إلى أقصى حد في خدمة جميع الفرسان ، وجميع النساء ، وجميع الضعفاء والفقراء . وهكذا عادت الرجولة Virtus إلى معناها الذي كان لها عند الرومان بعد أن ظلت المسيحية ألف عام تؤكد الفضائل النسائية ؛ وبهذا كانت الفروسية ، رغم هالتها المسيحية ، انتصاراً للأفكار الألمانية ، والوثنية ، والعربية على المبادئ المسيحية ، ولقد كانت أوروبا التي توالى عليها الهجمات من كل ناحية في مسيس الحاجة إلى الروح الحربية مرة أخرى .

على أن هذا كله كان هو الفروسية من الوجهة النظرية ؛ وكان عدد قليل من الفرسان يستمسكون به في حياتهم ، كما كان عدد قليل من المسيحيين يسمون إلى المستوى الرفيع الشاق من إنكار الذات . ولكن الطبيعة البشرية التي ولدت بين الغابات والوحوش قد لوثت هذا المثل الأعلى وذلك ، فهذا البطل الذي قاتل يوماً ما ببسالة في ألعاب البرجاس أو في ميدان القتال قد يكون في يوم آخر سفاحاً غادراً ؛ وقد يفخر بشرفه كما يفخر بالريشة التي في خوذته ، ويفعل ما فعله لانسلو Lancelot ، وترسترام Tristram ، وغيرهما ممن هم أكثر تأصلاً في الفروسية فيحطم بالزنى الأسر الطيبة . وقد يتشدد بحماية الضعفاء ، ثم يقتل الفلاحين العزل بحمد السيف ؛ وكان يعامل العامل اليدوي الذي يعتمد عليه حصنه ومجده معاملة ملوؤها الازدراء ، كما يعامل الزوجة التي أقسم أن يعزها ويحميها بغلظة

في كثير من الأحيان وبوحشية في بعضها^(٧١) . وقد يستمع إلى الصلاة في الصباح ، ويسطو على كنيسة في آخر النهار ، ويشرب حتى يفقد وعيه في المساء . وهذا ما وصف به جلداس Gildas الفرسان البريطانيين الذين كان يعيش بينهم في القرن السادس ، وهو القرن الذي يرى بعض الشعراء أن آرثر Arthur « والطبقة العظيمة من فرسان المائدة المستديرة » كانوا يعشون في خلاله^(٧٢) . وكان الفارس يتحدث عن الولاء والعدالة ولكنه يملأ صفحات فرواسار Froissart بالغدر والعنف . وبينما كان الشعراء الألمان يتغنون بالفروسية ، تراهم لا يتقطعون عن اللكمات ، وإحراق الدور ، وقطع الطريق على المسافرين البيرينين^(٧٣) . ولقد دهش المسلمون من فظافة الصليبيين وقسوتهم ، وحتى بوهمند Bohemund العظيم نفسه ، لما أراد أن يظهر احتقاره لإمبراطور الروم ، بعث له ببضاعة من الأنوف والإبهامات المقطعة^(٧٤) . لقد كان هؤلاء شواذ ولكنهم كانوا كثيرين . ولسنا ننكر أن من السخف أن ننظر من الجنود أن يكونوا قديسين ، ذلك أن إجادة التقتيل تتطلب فضائلها الفذة ، وهؤلاء الفرسان الغلاظ هم الذين طردوا الصقالبه من ضفاف نهر الأودر ، والمجر من إيطاليا وألمانيا ، وهم الذين روضوا أهل الشمال فكانوا هم النورمان ، وجاءوا بالحضارة الفرنسية إلى إنجلترا على سفار السيوف ، فكانوا ما لا بد أن يكونوا .

وكان ثمة عاملان هما اللذان خففا من همجية الفروسية ، ونعنى بهما النساء والسيحية ، فأما المسيحية فقد أفلحت إلى حد ما في تحويل تيار الخصام في الفروسية إلى الحروب الصليبية ، ولعلها استمدت العون في هذا التحويل من عبادة مريم العذراء أم المسيح ، فقد رفعت هذه العبادة منزلة الفضائل النسائية فخفضت بذلك من حدة تحمس الرجال الأشداء الميالين إلى العنف . ولكن لعل النساء اللاتي يعشن على ظهر الأرض ، واللاتي لهن تأثير كبير في الحواس وفي الأرواح ، قد كان لهن أثر أكبر من أثر مريم العذراء في تحويل الفارس المحارب إلى سيد كريم

الأخلاق . وكثيراً ما حرمت الكنيسة ألعاب البرجاس ، ولكن الفرسان كانوا يغفلون أوامرهم ويظهرون ابتهاجهم بهذا الإغفال ، وكانت النساء يحضرنه ، ولم يكن الفرسان يتجاهلون وجودهن ؛ وكانت الكنيسة غير راضية عن الدور الذى تضطلع به النساء فى حفلات البرجاس وفى الشعر ، وقام الصراع بين أخلاق السيدات النبيلات وبين التعاليم الأخلاقية التى تدعو إليها الكنيسة ، وانتصرت السيدات وانتصر الشعراء فى صراع عالم الإقطاع .

لقد وجد الحب العذرى ، الحب الذى يجعل من المحبوب مثلاً أعلى ، فى كل عصر من العصور على الأرجح ، وكان فى شدته يتناسب إلى حد ما مع ما يوضع من العقبات وما يمضى من الزمن بين الشهوة وإشباعها . وقلماً كان هذا الحب من أقدم العصور إلى عصرنا الحاضر سبب الزواج ، وإذا ما وجدنا هذا الحب منفصلاً كل الانفصال عن الزواج فى عصر ازدهار الفروسية ، وجب علينا أن نعد هذه الحال أقرب إلى الطبيعة وإلى الأحوال السوية من أحوالنا الحاضرة . لقد كانت النساء فى معظم العصور ، وبخاصة فى عصر الإقطاع ، يتزوجن الرجال لما لديهم من مال ، ويعجنن بغير أزواجهن لما يتمتعون به من سحر وجمال . وكان الشعراء لفقرهم يتزوجون من الطبقات الدنيا ويحبون من طبقات بعيدة المثال ، ويتوجهون بأجل أغانيهم إلى السيدات اللاتي لا يرجون أن يصلوا إليهن . وكان الفارق بين الحب وحيبيه فى العادة كبيراً إلى درجة يرى معها الناس أن أحفل الشعر بالعواطف الحياشة لا يعدو أن يكون تحية ظريفة للمحبوب . وكان السيد الإقطاعى المهذب يكافئ الشعراء الذين يتشبهون بزوجته ؛ وشاهد ذلك أن الفيكونت فو Vaux ظل يستضيف الشاعر پير فيدال Peire Vidal بعد أن تغزل پير بامرأته — بل بعد أن حاول أن يغويها (٧٥) — وإن كانت هذه درجة من المجاملة لا يضح للشعراء عادة أن يجروا عليها . وكان الشاعر المحب يرى أن الزواج ، إذ يتيح أكبر فرصة للمتعة بأقل قدر من الإغراء ، قلماً يوجد الحب

العذرى أو يستبقيه بعد أن يوجد ؛ ويبدو أن دانتي التتى نفسه لم يحلم قط بأن يقرض الشعر الغزلى فى زوجته ، ولم يجد ما يعيبه فى التغزل بغيرها من النساء المتزوجات منهن وغير المتزوجات . وكان الفارس يرى ما يراه الشاعر من أن حب الفارس يجب أن تختص به سيدة أخرى غير زوجته ، وكانت هذه السيدة عادة زوجة فارس آخر (٧٦) . وكان معظم الفرسان يسخرون من هذا الحب العذرى ، ويعودون بعد وقت ما إلى أزواجهم ، ويسلون أنفسهم بالحروب . وقد نسمع عن فرسان يصمون آذانهم عن نداء النساء اللاتى يعرضن عليهم حبهن العذرى (٧٧) . ولقد مات رولان Roland ، كما تحدثنا الأغنية Chanson وهو لا يكاد يفكر فى خطيبته أود Aude التى كادت تموت من الحزن حين جاءها خبر وفاته . كذلك لم يكن حب النساء كله حبا عذريا ؛ ولكن جرى العرف الذى كان متبعاً عند الكثيرات منهن أن يكون للسيدة حبيب ، أفلاطونى أو بيرونى (*) Byronic ، مضافا إلى زوجها . وإذا جاز لنا أن نصدق روايات الحب التى كتبت فى العصور الوسطى قلنا إن الفارس كان يقسم بأن يقوم بخدمة السيدة التى أعطته لونها (***) ليلبسه أو بأداء الواجب الذى يفرضه عليه حبا . وكان لها أن تفرض عليه مغامرات خطيرة لتمتحن حبه أو لتبعده عنها ؛ وإذا ما قام بخدمتها على الوجه الأكمل كان المنتظر منها أن تكافئه على خدمته بعتاق أو بما هو خير عنده من العناق ؛ ذلك هو « الجزء » الذى كان يطلبه . وكان يوجه إليها كل ما يقوم به من أعمال جريية مجيدة ، وكان اسمها هو الذى يناديه فى ساعات القتال الحرجة ، أو حين يلفظ آخر أنفاسه . وتلك حالة أخرى من الحالات التى لم يكن فيها الإقطاع جزءا من المسيحية ، بل كان نقيضها ومنافسها . ذلك أن النساء اللاتى كن من الوجهة

(٥) الحب الأفلاطونى معروف أما الحب البيرونى فنسبة إلى الشاعر الإنجليزى بيرون صاحب الحب الشهوانى الذى لم يكن يستحق منه ، وكان يقول إنه إنما يفعل جهرة ما يفعله غيره فى الخفاء . (المترجم)

(**) أى الشارة ذات اللون الخاص بها . (المترجم)

النظرية مقيدات في حين بقيود شديدة ، قد أكدن بهذه الطريقة حقهن في الحرية ، وشكلن بأنفسهن قانونهن الأخلاقي . وأخذت عبادة المرأة الشهوانية تنافس عبادة مريم العذراء الروحية ؛ ونودي بالحب على أنه أساس مستقل تقدر به قيم الناس ، وأوجد مثلاً علياً لأداء الخدمات لهم ، وقواعد للسلوك ، وكان فيه تجاهل للدين معيب حتى في الوقت الذي كان يأخذ عنه مصطلحاته وصوره .

وقد أثارَت هذه التفرقة المعقدة بين الحب والزواج مشاكل كثيرة خاصة بالأخلاق وآداب السلوك . وكان المؤلفون يعالجون هذه المسائل في تلك الأيام ، كما كانوا يعالجونها في أيام أوغد بكل ما يتصف به الأخلاقيون من تدقيق وإتقان : وحدث في وقت ما بين عامي ١١٧٤ و ١١٨٢ أن ألف رجل يدعى أندرياس كييلانوس Andreas Capellanus أى القس أندرو — رسالة في الحب ودوائه *Tractatus de amore et de amoris remedio* أورد فيها بين ما أورد من المسائل قانون الحب العذرى ومبادئه . ويقصر أندرو هذا الحب على الأشراف ، ويقول بلا حياة لأنه هو هيام فارس هياماً محرماً بروجة فارس آخر ، ولكنه يذكر أن خواص هذا الحب هي الولاء والتبعية ، وخدمة الرجل للمرأة . وهذا الكتاب هو أهم المراجع التي يستشهد بها على وجود « محاكم الحب » التي كانت السيدات ذوات الألقاب يُستجوبن فيها ويقدمن القرارات الخاصة بالحب العذرى . وكانت زعيمة السيدات في هذه الإجراءات أيام أندرو ، إذا كان لنا أن نصدق ما يقوله هو عن هذا ، هي الأميرة الشاعرة مارية Marie كونتة شمبانيا ، وكانت زعيمتها قبل وقتها بجيل هي أمها . وأكثر النساء فتنة في المجتمع الإقطاعي هي إيليانور Eleanor دوقة أكتين Aquitaine التي كانت في وقت ما ملكة فرنسا ثم ملكة إنجلترا بعدئذ . وكانت هي وأمها قاضيتين ترأسان محكمة الحب في مدينة بواتييه في بعض القضايا^(٧٩) وكان أندرو يعرف نمارية حق المعرفة ، وكان قساً خاصاً بها ، ويبدو أنه ألف كتابه ليذيع به

نظرياتها وأحكامها في الحب ؛ ومن أقواله فيه إن « الحب يعلم كل إنسان أن يتحلّى بكثير من ضروب الأخلاق الفاضلة » ؛ ويؤكد لنا أن أشرف بواتيه. الغلاط قد انقلبوا بفضل تعاليم مارية مجتمعا من كرائم السيدات وذوى المروءة والشهامة من الرجال .

وتحتوى قصائد شعراء الفروسية الغزليين عدة إشارات إلى محاكم الحب السالفة الذكر التي كانت تقيمها سيدات من الطبقة الراقية - ككونتة نربونة - Narbonne وكونتة فلاندرز وغيرهما - في پيرفو Pierrefeu وأفنيون Avignon وغيرهما من بلدان فرنسا^(٨٠) . ويحدثنا المؤرخون أن عشر نساء ، أو أربع عشرة ، أو ستين منهن كن يجلسن للفصل في القضايا التي تعرض عليهن ، ومعظمها يعرضه نساء ، وبعضها يعرضه رجال ؛ وكانت تلك المحاكم تفض المنازعات وتسوى الخلافات ، وتوقع العقاب على من يخرق القانون . وبمقتضى هذا الحق أصدرت مارية الشمبانية Marie of Champagne (كما يقول أندرو) في السابع والعشرين من إبريل عام ١١٧٤ فتوى في سؤال وجه إليها يقول فيه صاحبه : « هل يمكن وجود حب حقيقي بين الأشخاص المتزوجين ؟ » فكان جوابها إنه لا يمكن وجوده ، وكانت حجتها في ذلك أن « المحبين يعطون كل شيء بلا مقابل ، ولا يتقيدون فيما يعطون بموجبات الضرورة ؛ أما المتزوجون فإن ما عليهم من واجبات يرغمهم على أن يخضع كل منهم لرغبات زوجته »^(٨١) . وقد أجمعت محاكم الحب كلها ، كما يقول أندرو ، على واحد وعشرين قانونا من « قوانين الحب » : منها (١) لا يمكن أن يتخذ الزواج حجة لرفض الحب . . . (٣) لا يستطيع إنسان أن يحب اثنين في وقت واحد (٤) لا يمكن أن يظل كل الحب على حال واحدة ، فهو إما أن يزيد وإما أن ينقص (٥) المنة التي يسديها صاحبها مرغما منة تافهة (١١) لا يليق بالرجل أن يحب النساء اللاتي لا يجيبن إلا بقصد الزواج . . . (١٤) إن السهولة المفرطة في نيل الحبيب تحقر الحب ، أما الصعاب التي تعترض الحب فإنها . . . ترفع من قدره . . . (١٩) إذا بدأ الحب يتناقص فسرعان ما يزول ، وقلما يعود . . . (٢١) يزداد الحب

على الدوام بتأثير الغيرة . . . (٢٣) الشخص الذى يقع فريسة الحب لا ينام إلا قليلا ولا يطعم إلا قليلا (٢٦) الحب لا يضمن بشيء على حبيبه (٨٢) .
وكانت محاكم الحب هذه أجزاء من ندوات تقيمها نساء طبقة الأشراف ؛ ولكن رجال هذه الطبقة لم يكونوا يعاؤون بها ، وكان الفرسان العشاق يضعون لأنفسهم قواعدهم . غير أن الذى لا شك فيه أن ازدياد الثراء والتعطل قد أحاط الحب بأخيلة وآداب ومجاملات امتلأت بها قصائد شعراء الفروسية الغزليين وقصائد بداية النهضة . وفي ذلك يقول فلانى Villani شاعر فلورنس (١٢٨٠ ؟ - ١٣٤٨) « تكون في فلورنس في شهر يونية من عام ١٢٨٣ في عيد القديس يوحنا بينا كانت المدينة سعيدة آمنة . . . اتحاد اجتماعى قوامه ألف شخص ، يرتدون كلهم بيض الثياب ، ويطلقون على أنفسهم اسم فخرام الحب . وقد نظمت هذه الجماعة سلسلة من الألعاب ، والحفلات والرقص ، مع السيدات ؛ فكان الأعيان ورجال الطبقة الوسطى يمشون على دقات الطبول وأنغام الموسيقى ، ويقومون الولائم في منتصف النهار وفي الليل . وقد ظلت محكمة الحب هذه قائمة نحو شهرين ، وكانت أجمل وأشهر ما أقيم من نوعها في تسكانيا » (٨٣) .
نشأت الفروسية في القرن العاشر ، وبلغت ذروتها في القرن الثالث عشر ، وقاست الأمرين من وحشية حرب المائة السنين ، واضمحلت أشد الاضمحلال من جراء الأحقاد المريرة التي بددت شمل طبقة الأشراف الإنجليز في حروب الوردتين ، ثم لفظت آخر أنفاسها في وسط الأحقاد التي أثارها الحروب الدينية في القرن السابع عشر ؛ ولكنها تركت آثارها البارزة في أوروبا أثناء العصور الوسطى والعصر الحديث من النواحي الاجتماعية ، والتربوية ، والخلقية ، والأدبية ، والفنية ، واللغوية .
وازداد عدد طبقات الفروسية - ربطة الساق ، والحمام ، والخنزة الذهبية - وتضاعفت حتى بلغ عددها ٢٣٤ طبقة منتشرة في بريطانيا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وإيطاليا ، وأسبانيا ؛ وجمعت مدارس

كمدارس إيتن Etcn ، وهو Harrow ، وونشستر Winchester بين
مثال الفروسية الأعلى والتربية « الحرة » في جهودها الموفقة في تاريخ التربية
لتثقيف العقل ، وتقوية الإرادة ، وتقويم الأخلاق . وإذ كان الفارس
يتعلم الآداب ، والشهامة والمروءة ، في حاشية النبيل أو المليك ، فقد كان
ينقل بعض هذه الصفات إلى من هم دونه من أفراد الطبقات الاجتماعية
الأخرى ؛ وليست المجاملات والرقعة في الوقت الحاضر إلا مزيجاً مخففاً من
فروسية العصور الوسطى المركزة . ولقد ازدهر الأدب الأوربي من أغنية
رولان إلى دن كيشوت ، لأنه أخذ يصف أخلاق الفرسان وموضوع
الفروسية ؛ وكان الكشف الثاني لنظام الفروسية من العناصر الفعالة في الحركة
الأدبية الإبداعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ومهما يكن في آداب
الفروسية الخلقية من إسراف وسخافات ، ومهما كان الفرق كبيراً بين
حقيقتها العملية ومثلها العليا ، فإنها بلا ريب من أعظم ما ابتدعه الروح
البشرية من نظم ، وإنما فن من فنون الحياة أبهى وأفخم من كل فن سواه .
وهكذا نرى أن الصورة التي رسمناها للإقطاع لم تقتصر على أن تكون
صورة للاسترقاق في الأرض ، وللأمية ، والاستغلال ، والعنف ؛ بل
كانت تجمع بين هذا كله وبين قدر يعدله من الفلاحين الأقوياء ، يقطعون
أشجار الغابات ، ومن رجال متباهين أشداء في لغتهم ، وحبهم ،
وحروبهم ، وفرسان يقسمون بأن يكونوا شرفاء ، خادمين لمن يحتاجون
إلى خدمتهم ، يجدون في طلب المغامرات وأسباب الشهرة كما يجد غيرهم
في طلب الراحة والأمن ، يحتقرون الخطر والموت والجحيم ؛ ونساء
صابرات كادحات ، يلدن ويربين الأبناء في قرى الفلاحين ؛ وسيدات
من ذوات الحسب والنسب الرفيع يمزجن دعواتهن الرقيقة لمريم العذراء
بالحرية الجريئة في التغنى بالشعر الشهواني والحب العذرى - ولعل
الفروسية كانت أقوى أثراً من المسيحية في رفع منزلة المرأة . ولقد كان أهم
ما اضطلع به الإقطاع من أعمال هو إعادة النظام السياسي والاقتصادي إلى أوروبا

يعد أن توالى عليها الغارات والكوارث المخربة المقطعة لأوصالها مائة عام .
ولقد أفلحت في غرضها هذا ؛ ولما أن اضمحلت قامت على أنقاضها وترأى
مدنيتنا الحديثة .

وبعد فليست العصور الوسطى حقبة يحق للعالم أن ينظر إليها بتشامخ
وازدراء ؛ ذلك أنه لم يعد في وسعه أن يشهر بما كان فيها من جهل
وخرافات ، وتفكك سياسى ، وفقر اقتصادى وثقافى ؛ بل عليه بدلا من
هذا أن يعجب كيف استطاعت أوروبا أن تفيق من الضربات المتعاقبة التى
كاملها لها القوط ، والهون ، والوندال ، والمسلمون ، والمجر ، والشاليون ،
واحتفظت في وسط الاضطراب والمآسى بهذا القدر الكبير من الآداب
والأساليب الفنية القديمة . ولا يسهه إلا أن يعجب بشارلمان ، وألفريد ،
وأولاف ، وأتو ، وأمثالهم من الرجال الذين أقاموا من هذه الفوضى نظاماً ؛
كما يعجب ببندكت ، وجريجورى ، وبنيفاس ، وكولبا ، وألكوين ،
وبرونو ومن لإهم من الرجال الذين صابروا وصبروا حتى بعثوا الأخلاق
والآداب من قفار تلك الأيام ؛ وبالمطارنة والصناع الذين استطاعوا أن
يشيدوا الكنائس الكبرى ، والشعراء المجهولين الذين استطاعوا أن يُغَنِّتُوا
فيما بين كل حرب وحرب ، وإرهاب وإرهاب . وكان لا بد للدولة
والكنيسة أن تبدأ عملهما مرة أخرى من الدرك الأسفل ، كما بدأه رميولوس
ونوما قبلهما بألف عام ؛ وكانت الشجاعة التى يتطلبها بناء المدن من
الغابات ، وخلق المواطنين الصالحين من الهمج ، أعظم من أحنها التى شادت
شارتر ، وأمين ، وريمس في الزمن الحديث ، أو هدأت حى دانتي
الانتقامية فصاغت منها شعراً موزوناً .

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد في المراجع المجمل في الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت في بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الفصل ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية في القرآن ، أو الكتاب المقدس .

CHAPTER XV

4. Abbott, G.F., *Israel in Egypt*, 43.
2. Baron, S., *Social and Religious History of the Jews*, I, 286 ; Gratez, H., *History of the Jews*, II, 566.
3. Socrates, *Ecclesiastical History*, iii; 20; Julian, *Works*, III, 51.
4. Abbott, 45.
5. Ammianus Marcellinus, *Works*, xxiii, 1.
6. Jerome, *Commentary on Isaiah*, vi, 11-18, in Baron, I, 261.
7. Baron, I, 255.
8. Baeder, Gershom *Jewish Spiritual Heroes*, III, 46.
9. Talmud, Yebamoth, 37b.
10. Friedländer, L., *Raman Life and Manners under the Early Empire*, III, 173.
11. Gregory of Tours *History, of the Franks*, 1916, viii, 1.
12. References to the Mishna will be by tractate, chapter, and section; to the (Babylonian) Gemara by tractate and folio sheet.
13. Baba Kama, 60b.
14. Megilla, 16b.
15. Tanhuma, ed. Buber, Yitro. sect. 7, in Moore, G. F., *Judiasm in the First Centuries of the Christian Era*, II, 242.
16. Meuachoth, 99b.
17. Pesikta Rabbati, 10, 4. in Newman, L., and Spitz, S., *Talmudic Anthology*. 300.
18. Chagiga, 10a.
19. Examples in Moore, I, 259.
20. Berachoth. 6b.
21. Aboda Zara, 8b; Newman, 81.
22. Chagiga, 8b.
23. Succah, 52b.
24. Barachoth, 6a.
25. Aboda Zara, 3b.
26. Mechilta, 65a, on Exod. xix, 18.
27. From Deut. vi, 4.
28. Shebouth, 77b.
29. Erubin, 18a.
30. Bereshit Rabbah on Gen. xxiii, 9.
31. Berachoth, 6a
32. Aboda Zara, 5a.
33. Sifre on Deut. 32.
34. Shebuth, 55a.
35. Midrash Mishle, 28, in Newman,
36. Genesis Rabbah, xviii, 8.
37. Babo Metzia, 58b.
38. Berachoth, 34a.
39. Ketuboth, 111a.
40. Wayyikra Rabbah, 34. in Newman, 108.

41. Bereshit Rabbah, 44, 1, in Newman, 292.
42. Quoted in Cohen, A., *Everyman's Talmud*, 89.
43. Aboda Zara, 20b.
44. Kiddushin, 66d.
45. Shebuoth, 41a.
46. In Cohen, A., 258.
47. Leviticus xxi, 2-5.
48. Yebamoth, 48b.
49. Ketuboth, 27 : Cohen, A., 257.
50. Pesachim, 113a.
51. Shebuoth, 152.
52. Pesachim, 49b.
53. Exod. xxiii, 19 ; xxiv, 26 ; Deut xiv, 21.
54. Nidda, 17.
55. Yoma, 75.
56. Shebuoth, 33.
57. Ibid., 152a.
58. Baba Bathra, 58b.
59. Pesachim, 109a.
60. Berachoth, 55a, 60b.
61. Taanith, 11a.
62. Pesachim, 108.
63. Exod. xii, 13.
64. Megilla on Esther, 7b, in Moore, II, 51.
65. In Oesterley, W.O., and Box, G. H., *Short Survey of the Literature of Rabbinical and Medieval Judaism*, 149.
66. Kiddushin, 31a ; Isaiah vi, 8.
67. Baba Bathra, 8b ; Baron, I, 277-8.
68. Berachoth, 10a.
69. Gen. i, 28 ; Kiddushin, 28.
70. Genesis Rabbah, lxxi, 6.
71. Yebamoth, 12b ; Himes, N. E., *Medical History of Contraception*, 77.
72. Baba Bathra, 72.
73. Exodus Rabbah, I, 1.
74. Harris, M. H., ed., *Hebraic Literature : Translation from the Talmud, Midrashim, and Kabbala*, 336.
75. Baba Bathra, 9a.
76. Ketuboth, 50a, 67.
77. Taanith, 22.
78. Ibid., 20b.
79. Graetz., II, 486, 545.
80. Baba Bathra, 9.
81. Gittin, 70a.
82. Chagiga, 16a.
83. Berachoth, 61a.
84. Kiddushin, 29b.
85. Sota, 44a.
86. Taanith, IV, 8.
87. Yebamoth, 63a.
88. Ibid., 65a, 44a.
89. Pesikta Rabbati, 25, 2, in Newman, 3.
90. Berachoth, xxiv, 1.
91. Kiddushin, 4.
92. Yebamoth, xlv, 1 ; 64b.
93. Gittin, ix, 10.
94. Ketuboth, vii, 6.
95. Cohen, A., 179.
96. Ketuboth, 77a ; Newman, A. (A.), *The Jews in Spain*, Philadelphia, 1942, II, 59.
97. Yebamoth, xxi, in Baeder, III, 66.
98. Gittin, 90b.
99. Kiddushin, 80b.
100. Nidda, 45.
101. Kiddushin, 49b.
102. Yoma, 83b.
103. Mikvaoth, 9b, in Cohen, A., 17.
104. Hai Gaon in Newman, 540.
105. Yebamoth, 88.
Ketuboth 47b.
107. Shebuoth, 30b.
108. Erubin, 41b.
109. Baeder, III, 15.

110. Bereshit Rabbah, xvii, 7.
 111. Harris, M.: *H' Hebraic Literature* 340.
 112. Pirke Aboth, iv, 1.
 113. Ibid., iv, 3.
 114. Ibid., i, 17.
 115. Ibid., iii, 17.
 116. Shemot Rabbah, xxv, 16 Newman, 897.
 117. Menachoth 29b, in Moore, II, 187.
 118. Renan, E., *Origins of Christianity: The Christian Church*, 131; Baron, I, 305-6.
- CHAPTER XVI
1. Graetz, III, 308.
 2. Abrahams, Israel *Jewish Life in the Middle Ages*, 219.
 3. Benjamin of Tudela, *Travels*, in Komroff, M., ed., *Contemporaries of Marco Polo*, 290.
 4. Graetz, III, 90. Others date the Gaonate from 589: cf. Oesterley and Box, 209.
 5. Graetz, III, 133.
 6. Ibid., 148.
 7. Druck, D., *Yehuda Halevy*, 66.
 8. Baron, I, 853.
 9. Husik, I., *History of Medieval Jewish Philosophy*, 85. 42f.
 10. Malter, H., *Saadia Gaon*, 279, 291.
 11. Benjamin of Tudela, in Komroff 310.
 12. Baron, I, 318.
 13. Friedländer, III, 181.
 14. Dill, Sir S., *Roman Society in Gaul in the Merovingian Age*, 246.
 15. Graetz, III, 143, 161, 241, 389.
 16. Benj. of Tudela, in Komroff, 260.
 17. Ibid., 257.
 18. Ameer Ali, Sayed, *The Spirit of Islam*, 260.
 19. Druck, 26.
 20. Dozy, R., *Spanish Islam*, 597f.
 21. Abbott, G. F., 71.
 22. Abrahams, *Jewish Life*, 366.
 23. Dozy, 721.
 24. Graetz, III, 617.
 25. Neuman, A., *Jews in Spain*, I, 5.
 26. Ibid., 164.
 27. Ibid., II, 184.
 28. Ibid., II, 221; Graetz, III, 281.
 29. Neuman, II, 221.
 30. Graetz, III, 360f.
 31. Baron II, 37; Graetz, III, 506.
 32. Neuman, II, 149.
 33. Ibid., 247.
 34. Abrahams, *Jewish Life*, 67.
 35. Solom Asch in Browne, Lewis, ed., *The Wisdom of Israel*, 698.
 36. Baba Kama, 113a.
 37. Pirke Aboth, iii, 2.
 38. Baron, II, 17.
 39. Ibid., 26.
 40. Ibid.
 41. Bracton, *De Legibus*, vi. 51, in Baron, II, 24.
 42. Pollock, F., and Maitland, F.W., *History of English Law before Edward I*, I, 455.
 43. *Cambridge Medieval History*, II, 602.
 44. Ricard, T.A., *Man and Metals*, II, 602.
 45. Abrahams, *Jewish Life*, 241.
 46. Rapaport, S., *Tales and Maxims from the Talmud*, 147.
 47. Graetz, III, 229.
 48. Arnold, Sir, T., and Guillaume, A., *The Legacy of Islam*, 102.
 49. Pirenne, H., *Medieval Cities*, 258.
 50. Baron, II, 8f.
 51. *Jewish Encyclopedia*, IV, 379.
 52. Deut. xxiii, 20.
 53. Baba Metzib, v, 1-2, 11.
 54. Abrahams, *Jewish Life*, 110.

55. Baron, II, 120.
56. Pirenne, H., *Economic and Social History of Medieval Europe*, 134.
57. *Cambridge Medieval History*, VII 644.
58. Ibid., 646.
59. Neuman, A., I, 202; Lacroix, P., *Manuers Customs and Dress during the Middle Ages*, 451.
60. Coulton, G. G., *Medieval Panorama*, 352.
61. Abbott, *Israel*, 113.
62. Lacroix, *Manners*, 451.
63. Ashley, W. J. *Introduction to English Economic History and Theory* 202.
64. Abbott, 177.
65. Pollock and Maitland, 451.
66. *Combridge Medieval History*, VI, 226.
67. Abbott, 122.
68. Hsisk, 508.
69. Abbott, 126; Graetz, III, 588.
70. Abbott, 153; Lacroix, *Manners*, 445.
71. In Foakes-Jacson, F., and Lake, K., *Beginnings of Christianity*, I, 76.
72. Baba Bathra, 90.
73. Baba Metzia, iv. 3.
74. Baron, I, 277-8; II, 108.
75. Barón, II, 99.
76. Moore, II, 174-5.
77. Abrahams, *Jewish Life*, 141, 819, 326, 335; Baron, II, 99.
78. Coulton, *Panorama*, 857.
79. Abrahams, 277.
80. Ibid., 281.
81. Burton, Sir R. F., *The Jew, the Gypsy, and El Islam*, 128; Baron II, 169
82. Abrahams, 831.
83. Baba Kama, 118b.
84. Abrahams, 106.
85. Ibid., 104.
86. Ibid., 90.
87. Baron, II, 112.
88. Abrahams, 166.
89. Kiddusigin, 41a; Neuman, II, 21.
90. Ibid.
91. Moore, II, 22.
92. Abrahams, 117.
93. Burton, *The Jew*, 48.
94. White, F. M., *Woman in World History*, 176.
95. Abrahams, 155.
96. Brittain, A., *Women of Early Christianity*, 10.
97. White, 189.
98. Neuman, II, 229.
99. White, 185.
100. Marcus, J., *The Jew in the Medieval World*, 818.
101. Abrahams, 89.
102. Neuman, II, 153.
103. Barow, I, 288; II, 97.
104. Abrahams, 126.
105. Brittain, 12.
106. Moore, I, 316.
107. Maimondee, *Mishneh Torah*, — Book I, tr. Mofer, Hayamson, 63a.
108. In Waxman, M., *History of Jewish Literature*, I, 214.
109. *Jewish Encyclopedia*, IX, 122.
110. *Oxford Histor of Music* introd. volume, 60.
111. *Jewish Encyclopedia*, III, 458.
- 112a. In Zeitlin, S., *Maimonides*, 44.
113. Baron, II, 88.
114. Lacroix, *Munners*, 439.
115. Baron, II, 35.
116. Abrahams, 411; Moore, II, 74.

117. Dent, vii, 3; Nehemiah xiii, 25.
 118. Klausner, J., *From Jesus to Paul*, 515.
 119. Baron, II, 56.
 120. Gittin. 61.
 121. Abrahams, 418-4.
 122. Ibid., 418.
 123. Ibid., 424; Baron, II, 40.
 124. Baron, II, 36.
 125. Abbott, 93.
 126. Coulton, *Panorama*, 352.
 127. Ibid.
 128. Graetz, IV, 33.
 129. Gregory I, Eplstle ii, 6, in Dudden, F. H., *Gregory the Great*, II, 155.
 130. Ep. xiii, 15, in Dudden, II, 155
 131. Belloc, H., *Paris*, 170.
 132. Graetz, III, 421.
 133. Coulton, *Panorama*, 352.
 134. Thatcher, O. J., and McNeal, E.H., *Source Book of Medieval History*, 212.
 135. Lea, H.C., *History of the Inquisition in the Middle Ages*, II, 63.
 136. Graetz, III, 563.
 137. Ibid., 583.
 138. Marcus, 151.
 139. Baron, II, 85.
 140. Abbott, 51; Jewish Encyclopedia III, 453.
 141. *Camb. Med. H.*, VII, 624; Jewish Encyclopedia. IX, 368.
 142. Graetz, III, 299.
 143. Ibid., 300.
 144. Ibid., 301f; *Cambridge Medieval History*, V., 275f; VII, 641.
 145. Graetz III, 350; Abbot, 88.
 146. Jewish Encyclopedia. IV, 379.
 147. Graetz, III, 355.
 148. *Cambridge Medieval History*, VII, 642.
 149. Graetz, IV, 35; Jewish Encyclopedia, IX, 358.
 150. Abbott, 144.
 151. Coulton, *Panorama*, 359.
 152. Cuninggham, W., *Growth of English Industry and Commerce* 204.
 153. Jewish Encyclopedia, IV, 379.
 154. Lacroix, *Manners*, 447.
 155. Graetz, III, 642; Abbott, 130.
 156. Abbott, 131.
 157. Ibid., 68.
 158. Lacroix, *Manners*, 447.
 159. Abbot. 68.
 160. Montesquieu, C. Baron de, *The Spirit of Laws*, I, xii, 5.
 161. Joseph ben Joshua ben Meir. *Chronicles*, I, 197.
 162. Marcus, 24.
 163. Graetz, III, 570.
 164. Villehardouin, G. de, *Chronicles of the Crusades*, 148.
 165. Abbott. 113.
 166. *Cambridge Medieval History*, VII, 641.

CHAPTER XVII

1. Abrahams, *Jewish Life* 210.
2. Sarton, G., *Introduction to the History of Science*, II (i), 295.
3. Abrahams, I., *Chapters on Jewish Literature*, 116.
4. Waxman, I, 226.
5. Graetz, III, 269.
6. Gabirol, S. ibn, *Selected Religious Poems*, tr. Israel Zanawill, 62.
7. Ibid., 80.
8. Abrahams, *Literature*, 109.
9. Abrahams, *Jewish Life*, 163.
10. In Wilson, E, ed. *Hebrew Literature*, 383.
11. Sarton, II, (i), 188.
12. Hajevi, J., *Selected Poems*, tr. Nina Salaman, 56.
13. Abbott, 72.
14. Druck, 97.
15. Ibid., 94.
16. Wilson, *Hebrew Literature*, 365-6.
17. Novella 146 in Burton, *The Jew*, - 105.

18. Graetz, III, 673.
19. Sarton, II (II), 557.
20. Schechter, S., *Studies in Judaism*, I, 107.
21. Graetz, III, 604.
22. Sarton, II, (i), 146.
23. *N. Y. Times*, June 2, 1937.
24. Sarton, II, (i), 146.
25. Cf. Komroff, M. *The Contemporaries of Marco Polo*.
26. Husik, 24.
27. Munk, S., *Mélanges de philosophie juive et arabe* 158.
28. Marcus, 312.
29. Cf. Gabirol, S. ibn, *Improvement of the Moral Qualities*, tr. Stephen Wise, 4, 27.
30. Gabirol, *Fons Vitae*, i, 3, in Munk, 6.
31. Halevi, J., *Kitab 'al-Khazar*, tr. H. Hirschfeld, i, 116.
32. *Ibid.*, III, 5, 7.
33. Husik, 215.
34. Yellin, D., and Abrahams, I., *Maimonides*, 11; Zeitlin, *Maimonides*, I,
35. Ueberweg, F., *History of Philosophy*, I, 427.
36. Zeitlin, *Maimonides*, 5.
37. "Letter of Consolation" in Yellin, 46.
38. Zeitlin, 178.
39. Arnold, Sir T., *Preaching of Islam*, 421.
40. Baron, S., ed., *Essays on Maimonides*, 290.
41. Maimonides, Aphorisms, in Thorndike, L., *History of Magic and Experimental Science*, I, 176.
42. Zeitlin, 172.
43. In Baron, *Essays*, 288.
44. Zeitlin, 174.
45. Baron, *Essays*, 284.
46. Maimonides, *Mishneh Trab*, Introd., 4b.
47. Zeitlin, 214.
48. *Mishneh Torab*, Introd., 16. 3a.
49. In Baron, *Essays*, 117.
50. Maimonides, *Guide to the Perplexed* tr. M., Friedländer, II, xli.
51. *ibid.*, III, 36, Baron, *Essays*, 139.
52. *Guide*, III, xxii, xli; Deut. xxlii, 17; Exod, xxii, 1; xxxi, 15.
53. *Mishneh Torab*, 40b.
54. *Ibid.*, 59a.
55. *Ibid.*, 54a.
56. *Ibid.*, 58a.
57. *Ibid.*, 58ab.
58. *Ibid.*, 52b.
59. In Baron, *Essays*, 110.
60. Zeitlin, 132.
61. *Guide*, I, Introd.
62. *Ibid.*, II, xix; III, xiv.
63. II, Pt. II, Introd. and Prop xx.
64. *Ibid.*, xxxvi-xixi.
65. III, xxii.
66. II, xviii.
67. II, xxx.
68. III, x, xii.
69. III, lxx.
70. Zeitlin, 151.
71. *Ibid.*, 103; Baron, *Essays*, 143.
72. *Guide*, II, Pt. II, Introd.
73. Baron, *Essays*, 119-21; Zeitlin, 209.
74. Marcus, 307-9.
75. Spinoza, *Tractatus Theologico-Politicus*, xv, 4.
76. Roth, L., *Spinoza Descartes, and Maimonides*, 66; Baron, *Essays*, 7.

77. Husik, 302 ; Graetz, IV, 23.
78. Ibid., III, 681-
79. Neuman, A., II, 122.
80. Ibid., 118 ; Graetz, IV, 29-41.
81. Jewish Encyclopedia, III, 457, 479.
82. Sarton, II, (1), 866.
83. Graetz, V, 21.
84. Baron, *History*, II, 136.
85. Ibid., 142.
86. Abrahams, *Jewish, Life*, 143, 157, 198.
87. In Marcens, 814.

CHAPTER XVIII

1. Thompson, J.W., *Economic and Social History*, 173.
2. Gibbon, IV, 504.
3. *Cambridge Medieval History*, II, 289.
4. Ibid., IV, 6 ; Gibbon, V, 142.
5. In Diehl, *Manual*, 835.
6. *Cambridge Medieval History*, IV, 115f.
7. Voltaire, *Works*, XIII, 190.
8. Diehl, *Portraits* 169 ; Bury, *Eastern Roman Empire*, 169.
9. McCabe, J., *Empresses of Constantinople*, 174.
10. *Cambridge Medieval History*, IV, 108 ; Diehl, *Portraits*, 264.
11. Boissonnade, P., *Life and Work in Medieval Europe*, 56.
12. *Cambridge Medieval History*, IV, 760.
13. Diehl, *Portraits*, 286.
14. *Cambridge Medieval History*, IV, 745.
15. Komroff, *Contemporaries of Marco Polo*, 266.
16. *Cambridge Medieval History*, IV, 760.
17. Ibid.
18. Clapham and Power, 212.
19. Diehl, *Portraits*, 158 ; Gibbon V, 458 ; Brittain, *Women of Early Christianity*, 318.
20. Lopez, R.S., in *Speculum*, Vol. XX, No. 1, pp. 17-18 ; Boissonnade, 46-7 ; *Cambridge Medieval History*, IV, 761.
21. Boissonnade, 60.
22. Ibid., 51.
23. Castiglione, 254.
24. Bury, *Eastern Roman Empire*, 486 ; Grunebaum, *medieval Islam* 54.
25. Psellus *Chronographia*, vi, 46.
26. Ibid., v, 25-37.
27. Diehl, *Manual*, 405.
28. Luitprand in Grunebaum, 29.
29. Cf. Walker Trust Report, *The Great Palace of the Byzantine Emperors*, plates 24-37 and 57.
30. The judgment of Kondakof in Diehl, *Manual*, 580.
31. Diehl, 590.
32. Ibid., 881.
33. Finlay, *Greece under the Romans*, 21.
34. Thompson, J.W., *Feudal Germany*, 458.
35. Kluchevsky, V. O. *History of Russia*, I, 46 ; Thompson, *Feudal Germany*, 456.
36. Pokrovsky, M. N., *History of Russia* 11 ; Fustel de Coulanges questioned this - cf. Dopsch, 26.
37. *Cambridge Medieval History*, IV, 136.
38. Navor, J., *Economic History of Russia*, I, 15.
39. Kluchevsky, I, 88.
40. Rambaud, A., *History of Russia*, I, 84.

CHAPTER XIX

1. Paul the Deacon, *History of the Longobards*, I, 9.
2. Munro and Sellery, 538.
3. Dante, *Elleven Letters*, 185.
4. Note by W. D. Foulke in Paul the Deacon, 309.

6. Voltaire, *Works*, XIII, 80.
7. Molmenti, P., *Venice*, I, I, 212-4.
8. *Cambridge Medieval History*, III, 170
9. Pirenne, *Medieval Cities*, 110.
10. Ruskin, *Stones of Venice*, I', 86.
11. Lanciane, R., *Ancient Rome*, 57.
12. *Ibid.*, 275.
13. Castiglione, 301.
14. Dozy, *Spanish Islam*, 440.
15. Coulton, G. G., *Five Centuries of Religion*, I, 174.
16. Hume, M., *The Spanish People*, 129; *Spain*, 191; *Encyclopedia Britannica*, V., 699.
17. In Guizot, *History of France*, I, 171.
18. *Ibid.*, 168.
19. Pirenne, *Cities*, 248; Voltaire, XIII, 131.
20. Freeman, E. A., *Historical Essays*, First Series, 179.
21. *Cambridge Medieval History*, II, 316.
22. Guizot, *France*, I, 229f; Guizot, *History of Civilization*, II, 198-6.
23. Pollock and Maitland, I, 117, Barnes, H. E., *History of Western Civilization*, I, 775.
24. Lea, *Superstition and Force*, 469.
25. Guizot *Civilization*, II, 225f.
26. Capitulary of Charlemagne, year 803, // 3, in Guizot *Civilization*, II, 222.
27. In Pirenne, *Cities*, 168.
28. *Ibid.*, 58; *Cambridge Medieval History*, II, 657.
29. *Cambridge Medieval History*, II, 657.
30. Letter of Alcuin in William of Malmesbury, I, 3, p. 66.
31. Eginhard, *Life of Charlemagne*, 61.
32. Hodkin, T., *Charlemagne*, 81½.
33. West, A. F., *Alcuin*, 55.
34. Eginhard, p. 14.
35. *Ibid.*, 62.
36. *Ibid.*, 64.
37. Capitulary of 802 in Bebel A., *Woman under Socialism*, 60.
38. Eginhard, 83.
39. Bury, *Eastern Empire*, 318.
40. Eginhard, 66-8.
41. Raby, F. J. *History of Secular Latin Poetry in the Middle Ages*, I, 190.
42. Eginhard, 52.
43. *Ibid.*, 48; Russell, C. E., *Charlemagne*, 262.
44. Guizot, *France*, I, 241.
45. Morey, C. R., *Medieval Art*, 207.
46. *Ibid.*, 191.
47. Davis *Medieval England*, 266.
48. Guizot, *Civilization*, II, 375.
49. Erigena, J. S. *De divisione naturae*, I, 69.
50. In Guizot, *Civilization*, II, 383.
51. Erigena, // 517.
52. *Ibid.*, // 443
53. // 518.
54. // 896.
55. // 919-26, 937-40.
56. // 861.
57. Poole, R. L., *Illustration of the History of Medieval Thought*, 61.
58. Guizot, *Civilization*, II, 888.
59. William of Malmesbury, II, 4.
60. Guizot, *France*, I, 303
61. *Ibid.*, 811.
62. *Ibid.*, 329.
63. *Ibid.*, 336.

CHAPTER XX

1. Asser, *Alfred the Great*, 51.
2. Asser, 66, 78, 85.

3. Alfred, Preface to tr. of Gregory
I's *Cura pastoralis*, in Ogg,
*Source Book of Medieval
History*, 191.
4. Voltaire, *Works*, XIII, 176.
5. Boissonnade, *Life and Work in
Medieval Europe*, 88.
6. Green, J. R., *Conquest of England*
185, 329, 359-60.
7. Stubbs, W., *Constitutional History
of England*, I, 146, 157.
8. Hume, D., *History of England*,
I, 181.
9. Pollock and Maitland, II, 450.
10. William of Malmesbury in Coul-
ton, O. O., *Social Life in Britain*
20 : Green, J. R., *Making of
England*, 192.
11. Traill, H. D., *Social England*, I,
204.
12. Hume, D., *History of England* I,
188.
13. Briffault R., *The Mothers*, II, 419.
14. William of Malmesbury, I, 4.
15. *Ibid.*, I, 2.
16. *Ibid.*, II, 5.
17. Bede, v, 24.
18. *Ibid.*, I, 15.
19. *Ibid.*, *Introd.*, xvi.
20. Gordon, R. K., *Anglo - Saxon
Poetry*, 81-2.
21. In Ker, W. P., *Epic and Romance*,
68.
22. *Beowulf*, xxxvii and xliii, in
Gordon, *Anglo-Saxon Poetry*,
60, 70.
23. Bede, iv, 23.
24. Plummer, *Life and Times of
Alfred the Great*, 14.
25. In Addison, J., *Arts and Crafts
in the Middle Ages*, 4.
26. Aldhelme (c. 709) in Addison,
199.
27. Bede, iv, 18.
28. Freeman, E. A., *Norman Conquest*
II, 298.
29. William of Malmesbury, III, 238;
Ordericus Vitalis, *Historia Ecc-
lesiastica*, 492A ; Freeman, *Norman
Conquest*, II, 244.
30. Guizot, *France*, I, 346; Freeman,
Norman Conquest, III, 320.
31. *Mabinogion*, 1f.
32. Hyde, *Literary History of Ireland*
238.
33. Joyce, *Short History of Ireland*,
39-46,
34. Thompson, J. W., *Economic
History*, 148.
35. Boissonnade, 78.
36. Joyce, 80.
37. *Ibid.*, 168.
38. *Ibid.*, 155, 168.
39. Hyde, 222.
40. *Ibid.*, 239.
41. *Ibid.*, 279f.
42. Thompson, Sir E. M., *Introd to
Greek and Latin Palaeography*,
374.
43. Joyce, 189-92.
44. Keating in Hyde, 488.
45. Horn, F. W., *Literature of the
Scandinavian North*, 13, *Cam-
bridge Medieval History*, II, 481
46. Surluson, S., *Heimskringla*
47. *Ibid.*, Haskou the Good, ch. 23.
48. *Ibid.*, Olaf Tryggvesson, ch. 7.
49. *Ibid.*, ch. 92.
50. *Ibid.*, ch. 87.
51. *Ibid.*, St. Olaf, ch. 56, 131.
52. *Ibid.*, ch. 74.

53. *Ibid.*, Appendix to Olaf Trygvesson's Saga; Encyclopedia Britannica. art. Columbus.
 54. *Beomulf.* xxxv.
 55. Sturluson, Son of Magnus, ch. 33; Du-Chailly, II, 370-379.
 56. Saxo Grammaticus, *Danish History*, I, 23.
 57. Haskins, *Encyclopedia*, III, 499c.
 58. DuChailly, II, 1.
 59. Haskins, *Normans in European History*, 36.
 60. DuChailly, I, 486.
 61. Saxo, 25.
 62. Thompson, J. W., *The Middle Ages*, I, 827.
 63. Sturluson, Magnus the Good, ch. 16.
 64. Sigfusson, Saemud, *The Elder Edda*, 22-56.
 65. *Ibid.*, 23.
 66. 59.
 67. 66.
 68. 14.
 69. 84.
 70. 102.
 71. 81.
 72. 65.
 73. 73.
 74. 121.
 75. 58.
 76. 55-6.
 77. 86.
 78. 68.
 79. Horn, *Literature of the Scandinavian North*, 41.
 80. Faereyinga Saga in Ker, *Epic and Romance*, 236.
 81. Sturluson, Olaf Tryggvesson's Saga, ch. 9.
 82. Sturluson, Ynglinga Saga, ch. 6 and note; Hodgkin, *Charlemagne* 154; Saxo, 44.
 88. Milman, III, 216. Milman persuasively defends the credibility
 84. *Cambridge Medieval History*, 270.
 85. West, *Alcuin*, 127.
 86. Rab, F. J. E. *History of Christian Latin Poetry in the Middle Ages* 188.
 87. Welch, Alice K., *Of Six Medieval Women*, 5.
 88. Addison, *Arts and Crafts*, 16.
- CHAPTER XXI
1. *Cambridge Medieval History*, I, 586.
 2. In Russell, B., *History of Western Philosophy*, 879.
 3. Rule of St. Benedict, ch. 3, in Ogg. 87.
 4. Ch. ?.
 5. Ch. 53.
 6. Dudden, I, 111.
 7. In Maitland, S.R., *Dark Ages*, 196-8.
 8. In Dudden, I, 58.
 9. *Ibid.*, 289.
 10. Bede, II, 1.
 11. Gregory of Tours, 227.
 12. Dudden, I, 215.
 13. Thompson, J.W., *Middle Ages*, I, 178.
 14. Dudden, II, 156; McCabe, J., *Story of Religious Controversy*. 307.
 15. Bede, II, 1.
 16. *Ibid.*, 198.
 17. Gregory I, Ep. xlii, '45, in Dudden, I, 278.
 18. In Abélard, *Ouvrages inédits, Quaestio*, 1a.
 19. Gregory I, *Magna Moralia*, in Dudden, II, 813.
 20. *Dialogues*, IV, 7, in Dudden, I, 380.
 21. Dudden, II, 484f.
 22. *Ibid.*, 38.
 23. Thompson, J.W. *Middle Ages*, I, 178.

24. Voltaire, *Works*, XIII, 90.
25. *Cambridge Medieval History*, II, 690.
26. Funk, I, 287; *Cambridge Medieval History*, V, 710.
27. In Milman, III, 25.
28. Gibbon, IV, 82.
29. Sarton, I, 555.
30. Poole, R.L., *Illustration*, 20.
31. Taylor, H. O. *Medieval Mind*, I, 136.
32. Dudden, I, 86.
33. *Ibid.*
34. Montalembert, Comte de, *Monks of the West*, I, 558.
35. Guizot, *Civilization*, II, 113 - 9: Toynbee, A.J., *Study of History* II, 331.
36. Waddell, H., *Wandering Scholar* 34.
37. Bede, I, 17.
38. William of Malmesbury, I, 2.
39. Bede, I, 80.
40. Bede, Letter to Egbert.
41. Green, *Making of England*, 413.
42. Gibbon, V, 534.
43. Coulton, *Five Centuries of Religion*, I, 222.
44. *Ibid.*, 352.
45. *Cambridge Medieval History*, V, 662.
46. *Ibid.*, III, 67.
47. Milman, III, 111.
48. *Cambridge Medieval History*, III, 455.
49. Milman, III, 160; McCabe, *Crises in the History of the papacy*, 128f.
50. *Ibid.*, 181, quoting the *Liber Pontificalis*.
51. Milman, III, 171: *Cambridge Medieval History*, III, 455.
52. Milman, III, 178.
53. *Ibid.*, 185f.
54. Sandys, Sir John, *Companion to Latin Studies*, 847.
55. Vincent of Beauvais, *Spec. Hist.*, in Milman, III, 221.
56. Thorndik, *Magic and Experimental Science* I, 704.
57. *Cambridge Medieval History*, III, 109.
58. Hulme, E.M. *Middle Ages*, 339; Coulton G.O., *Life in the Middle Ages*, I, 1: Sarton, I, 734.
59. Funk, I, 282.
60. Stephens. W.R. W. *Hildebrand*, 14: Milman, III, 230: McCabe, *Crises*, 140.
61. *Cambridge Medieval History*, 10.
62. Guizot, *France*, I, 160.
63. Porter, A. K. *Medieval Architecture*, II, 2.
64. *Ibid.*
65. Carlyle R.W., *History of Medieval Political Theory in the West* IV, 52.
66. Coulton, *Five Centuries of Religion*, IV, 187.
67. Coulton, *From St. Francis to Dante*, a tr. of *The Chronicle of Salimbene*, 286.
68. *Cambridge Medieval History* V, 9-10.
69. Catholic Encyclopedia, I, 156
70. *Cambridge Medieval History*, V, 12.
71. Lea, *Sacerdotal Celibacy*, 210.
72. Lecky *Morals*, II, 237.
73. Lea, *History of Auricular Confessions*, I, 46.
74. Letter to Egbert in Bede, p. 4.
75. Catholic Encyclopedia, III, 486.
76. *Cambridge Medieval History*, IV, 268.
77. *Ibid.*, 273.

78. Lea, *Sacerdotal Celibacy*, 194, 223; Thompson, *Social and Economic History*, 662.
79. Lea, *Celibacy*, 226.
80. Bryce, Jas., *Roman Empire*, 158.
81. *Cambridge Medieval History* V, 99.
82. Thompson, *Social and Economic History*, 663.
83. Taylor, *Medieval Mind*, II, 55
84. Letter of Gregory VII to William I of England, 1080, in Bryce, 160.
85. Catholic Encyclopedia, X, 871c.
86. Figgis, *Political Aspects of St. Augustine's City of God*, 88.
87. Catholic Encyclopedia, X, 871c.
88. Carlyle, R.W., *Medieval Political Theory*, IV, 64.
89. Stephens, *Hildebrand*, 116.
90. Thatcher and McNeal, 169.
91. *Cambridge Medieval History*, V, 74f.
12. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, IIIae, xciv, 5.
13. Decree of Fourth Council of Orléans, in Dopsch, 260.
14. Lecky, *Morals*, II, 70, Sartou, II (II). 799, but cf. Catholic Encyclopedia, XIV, 38.
15. Ashley. *Introd. to English Economic History*, II, 276.
16. Coulton, *Medieval Village*, 59.
17. Westermarck, E., *Short History of Marriage*, 14; Coulton, *Medieval Village*, 80.
18. Reignobos, 14; Coulton, *Medieval Village*. 464.
19. Bebel, 57.
20. *Cambridge Medieval History*, VII, 721.
21. Coulton, *Life in the Midd e Ages*, III, 123-5.
- 21a. *Cambridge Medieval History*. VII. 22.
22. Seignobos, 21.
23. Coulton, *Medieval Village*. 65.
24. Cram R.A., *Substance of Gothic* 181.
25. Lynn White. Jr. in *Speculum*. Apr. 1940. p. 151.
26. Taine. H. *Ancient Regime*. 9, Carlyle,
27. Barnes, *Economic History* 145.
28. *Cambridge Medieval History*. VII, 741.
29. Coulton. *Medieval Village* 311-18.
30. *Ibid.*, 21. 243
31. Coulton. *Panorama*. 92.
32. *Speculum*. Apr. 1940.
33. *Ibid.*, 155.
34. Chrtoumbriand. Vicomte de, *The Genesis of Christianity*. iv. 1.4
35. Coulton *Medieval Village*, 119.

CHAPTER XXII

1. Lot., *End of the Ancient World* 126.
2. Dopsch, 268.
3. Seebohm, F., *English Village Community*, 126f, 179.
4. Seignobos, C., *Feudal Regime*, 34, Barnes, *Economic History*, 139.
5. Clapham and Power, 237-8.
6. Letters, IV, 2.
7. Coulton, G.O., *Medieval Village* 161.
8. McCabe, *Story of Religious Controversy*, 325.
9. Thompson, *Social and Economic History*, 679.
10. Coulton, *Medieval Village*; 492.
11. Coulton, *Medieval Panorama*, 322

36. Lacroix. Paul. *Military and Religious Life in the Middle Age*. 166.
37. Hitti. *History of the Arabs*. 663; *HrnoId Legacy of Islam* 181.
38. Lacroix.Pahl. *Science and Literature in the Middle Ages*. 299f.
39. Beaumonoir in Seignobos. 55.
40. Coulton. *Panorama*. 50.
41. Voltaire. *Works*. XIII., 181.
42. Thompson. *Feudal Germany*. 801
43. Carlyle. R.W. *Medieval Political Theory*. 463.
44. Pollock and Maitland. II. 242.
45. Maine. Sir H. *Ancient Law*. 185.
46. Coulton *Medieval Village*. 528.
47. Jenks. E. *Law and Politics in the Middle Ages*. 23.
48. Coulton *Medieval Village*. 187.
49. Lea. *Superstition and Force*. 286, 297, 314.
50. Coulton, *Panorama* 379.
51. Lea. *Superstition*. 178.
52. *Ibid.*, 140f, 179.
53. Seignobos. 79.
55. Sumner W.G. *Folkways*. 522.
56. Barnes. *Western Civilization*. I. 798.
57. Seignobos. 81.
58. Coulton. *Medieval Village*. 248.
59. Lacroix. *Military Life*, 49.
60. Davis, W.S. *Life on a Medieval Barony*. 176.
61. Coulton. *From St. Francis to Dante*. 20.
62. Seignobos. 74.
63. Coulton, *Chaucer and His England*. 199.
64. Coulton, *Panorama*. 247.
65. Prestage, F., *Chivalry*. 72.
66. *Speculum*, Apr. 1930. 189.
67. Thornpikc, *Magie and Science*. II. 31.
68. Hoover, H., and Gibbons. H.A. *Conditions of a Lasting Peace* 29.
69. Prestage. 75.
70. Coulton. *Panorama*. 289.
71. Traill. I. 379.
72. In Brif'ault. *Mothers*, III. 383,
73. Bebeí. 63.
74. Prestage, 9.
75. Rowbotham, 283.
76. Prestage, 89.
77. Davis. *Life on a Medieval Barony* 77.
78. Vossler. K., *Medieval Culture* I. 299; Taylor *Medieval Mind*, II, 562.
79. Miss Amy Kelly in *Speculum*, 1937, 5.
80. Rowbotham, 224, 235.
81. *Ibid.*, 249.
82. *Ibid.*, 245.

